هذا

الجزء الثالث من تفسير القرآن الجليل المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل

تأليف الشيخ الامام الحجة المقتدم العلامة قدوة الامة وعلم الائمة ناصر الشريعة ومحيي السنة علاء الدين علي بن محمد ابن ابراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن تغمده الله برحمته آمين

م

(وبهامشه الجزء الثالث من تفسير الامام النسفي)



(الجزء الثالث)

بسم الله الرحمن الرحيم

(تفسير سورة يوسف عليه الصلاة والسلام)

وهي مكية باجماعهم وهي مائة واحدى عشرة آية وألف وستمائة كلمة وسبعة آلاف ومائة وستة وستون حرفا قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى وفي سبب نزولها قولان أحدهما ما روى عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال لما أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلاه عليهم زمانا فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل الله نزل أحسن الحديث فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى الر تلك آيات الكتاب المبين الى قوله تعالى نحن نقص عليك أحسن القصص القول الثاني رواه الضحاك عن ابن عباس قال سألت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا حدثنا عن أمر يعقوب وولده وشأن يوسف فأنزل الله عز وجل الر تلك آيات الكتاب المبين الآيات الكريمة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الر) تقدم تفسيره في أول سورة يونس عليه الصلاة والسلام (تلك) اشارة الى آيات هذه السورة أي تلك الآيات التي أنزلت اليك في هذه السورة المسماة بالر هذه (آيات الكتاب المبين) وهو القرآن أي المبين حلاله وحرامه وحدوده وأحكامه وقال قتادة مبين بينه الله ببركته وهداه ورشده فهذا من بان أي ظهر وقال الزجاج مبين الحق من الباطل والحلال من الحرام فهذا من أبان بمعنى أظهر وقيل انه يبين فيه قصص الاولين وشرح أحوال المتقدمين (انا أنزلناه) يعني هذا الكتاب (قرآنا عربيا) أي أنزلناه بلغتكم لكي تعلموا معانيه وتفهموا ما فيه وقيل لما قالت اليهود لمشركي مكة سلوا محمدا

تفسير النسفي

(سورة يوسف عليه السلام وهي مائة واحدى عشرة آية شامي واثنا عشر مكي)

(بسم الله الرحمن الرحيم) (الر تلك) اشارة الى آيات السورة أي (تلك آيات الكتاب المبين) السورة أي تلك الآيات التي أنزلت اليك في هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها في اعجاز العرب أو التي تبين لمن تدبرها انها من عند الله لا من عند البشر أو الواضحة التي لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم أو قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف عليه السلام فقد روى ان علماء اليهود قالوا للمشركين سلوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام (انا أنزلناه قرآنا عربيا) أي أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف عليه السلام في حال كونه قرآنا عربيا وسمي بعض القرآن قرآنا لانه اسم جنس يقع على كله

وبعضه

صلى الله عليه وسلم عن أمر يعقوب وقصة يوسف وكانت عند اليهود بالعبرانية فأنزل الله هذه السورة وذكر فيها قصة يوسف بالعربية ليفهمها العرب ويعرفوا معانيها والتقدير انا أنزلنا هذا الكتاب الذي فيه قصة يوسف في حال كونه عربيا فعلى هذا القول يجوز اطلاق اسم القرآن على بعضه لانه اسم جنس يقع على الكل والبعض واختلف العلماء هل يمكن ان يقال في القرآن شئ بغير العربية فقال أبو عبيدة لا ومن قال فيه بغير العربية فقد قال بغير الحق وأعظم على الله القول واحتج بهذه الآية انا أنزلناه قرآنا عربيا وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة ان فيه من غير لسان العربية مثل سجيل والمشكاة واليم واستبرق ونحو ذلك وهذا هو الصحيح المختار لان هؤلاء أعلم من أبي عبيدة بلسان العرب وكلا القولين صواب ان شاء الله تعالى ووجه الجمع بينهما ان هذه الالفاظ لما تكلمت بها العرب ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة وان كانت غير عربية في الاصل لكنهم لما تكلموا بها نسبت اليهم وصارت لهم لغة فظهر بهذا البيان صحة القولين وامكن الجمع بينهما (لعلكم تعقلون) يعني تفهمون أيها العرب لانه نازل بلغتكم قوله تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص) الاصل في معنى القصص اتباع الخبر بعضه بعضا والقاص هو الذي يأتي بالخبر على وجهه وأصله في اللغة من قص الاثر اذا تتبعه وانما سميت الحكاية قصة لان الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا والمعنى نحن نبين لك يا محمد اخبار الامم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان وقيل المراد منه قصة يوسف عليه الصلاة والسلام خاصة وانما سماها أحسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التي تصلح للدين والدنيا وما فيها من سير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على أذى الاعداء وحسن التجاوز عنهم بعد الالتقاء وغير ذلك من الفوائد المذكورة في هذه السورة الشريفة قال خالد بن معدان سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة وقال عطاء لا يسمع سورة يوسف محزون الا استراح اليها وقوله تعالى (بما أوحينا اليك) يعني بايحائنا اليك يا محمد (هذا القرآن وان كنت) أي وقد كنت (من قبله) يعني من قبل وحينا اليك (لمن الغافلين) يعني عن هذه القصة وما فيها من العجائب قال سعد بن أبي وقاص أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زمانا فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل الله نزل أحسن الحديث فقالوا يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى نحن نقص عليك أحسن القصص فقالوا يا رسول الله لو ذكرتنا فأنزل الله عز وجل ألم يأن للذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله قوله عز وجل (اذ قال يوسف لابيه) أي اذكر يا محمد لقومك قول يوسف لابيه يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين (خ) عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم ويوسف اسم عبري ولذلك لا يجري فيه الصرف وقيل هو عربي سئل أبو الحسن الاقطع عن يوسف فقال الاسف أشد الحزن والاسيف العبد واجتمعا في يوسف فسمي به (يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) معناه قال أهل التفسير رأى يوسف في منامه كأن احد عشر كوكبا نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر فسجدوا له وكانت هذه الرؤيا ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر وكان النجوم في التأويل اخوته وكانوا احد عشر رجلا يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس أبوه والقمر أمه في قول قتادة وقال السدي القمر خالته لان أمه راحيل كانت قد ماتت وقال قتادة وابن جريج القمر أبوه والشمس امه لان الشمس مؤنثة والقمر مذكر وكان يوسف عليه الصلاة والسلام ابن اثنتي عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة وقيل سبع سنين وأراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت أمره وقيل أراد به حقيقة السجود لانه كان في ذلك الزمان التحية فيما بينهم السجود * فان قلت ان الكواكب جماد لا تعقل فكيف عبر عنها بكناية من يعقل في قوله رأيتهم ولم يقل رأيتها وقوله ساجدين ولم يقل ساجدات * قلت لما أخبر عنها بفعل من يعقل وهو السجود كنى عنها بكناية من يعقل فهو كقوله يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم وقيل ان الفلاسفة

(لعلكم تعقلون) لكي تفهموا معانيه ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته (نحن نقص عليك أحسن القصص) نبين لك أحسن البيان والقاص الذي يأتي بالقصة على حقيقتها عن الزجاج وقيل القصص يكون مصدرا بمعنى الاقتصاص تقول قص الحديث يقصه قصصا فيكون فعلا بمعنى مفعول كالنقض والحسب فعلى الاول معناه نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص (بما أوحينا اليك هذا القرآن) أي بايحائنا اليك هذه السورة على ان يكون أحسن منصوبا نصب المصدر لاضافته اليه والمقصوص محذوف لان بما أوحينا اليك هذا القرآن مغن عنه والمراد بأحسن الاقتصاص انه اقتص على أبدع طريقة وأعجب اسلوب فانك لا ترى اقتصاصه في كتب الاولين مقاربا لاقتصاصه في القرآن وان أريد بالقصص المقصوص فمعناه نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الاحاديث وانما كان أحسن لما يتضمن من العبر والحكم والعجائب التي ليست في غيره والظاهر انه أحسن ما يقتص في بابه كما يقال فلان أعلم الناس أي في فنه واشتقاق القصص من قص أثره اذا تبعه لان الذي يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئا فشيئا (وان كنت من قبله) الضمير يرجع الى ما أوحينا (لمن الغافلين) عنه ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية يعني وان الشأن والحديث كنت من قبل ايحائنا اليك من الجاهلين به (اذ قال) بدل اشتمال من أحسن القصص لان الوقت مشتمل على القصص أو التقدير اذكر اذ قال (يوسف) اسم عبراني لا عربي اذ لو كان عربيا لانصرف لخلوه عن سبب آخر سوى التعريف (لابيه) يعقوب (يا أبت) أبت شامي وهي تاء تأنيث عوضت عن ياء الاضافة لتناسبهما لان كل واحدة منهما زائدة في آخر الاسم ولهذا قلبت هاء في الوقف وجاز الحاق تاء التأنيث بالمذكر كما في رجل ربعة وكسرت التاء لتدل على الياء المحذوفة ومن فتح التاء فقد حذف الالف من يا أبتا واستبقى الفتحة قبلها كما فعل من حذف الياء في يا غلام (اني رأيت) من الرؤيا لا من الرؤية

والمنجمين يزعمون أن الكواكب احياء نواطق حساسة فيجوز أن يعبر عنها بكناية من يعقل وهذا القول ليس بشئ والاول أصح * فان قلت قد قال انى رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر ثم أعاد لفظ الرؤيا ثانيا فقال رأيتهم لى ساجدين فما فائدة هذا التكرار * قلت معنى الرؤيا الاولى أنه رأى اجرام الكواكب والشمس والقمر ومعنى الرؤيا الثانية انه أخبر بسجودها له وقال بعضهم معناه انه لما قال انى رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر فكأنه قيل له وكيف رأيت قال رأيتهم لى ساجدين وانما أفرد الشمس والقمر بالذكر وان كانا من جملة الكواكب للدلالة على فضلهما وشرفهما على سائر الكواكب قال اهل التفسير ان يعقوب عليه الصلاة والسلام كان شديد الحب ليوسف عليه الصلاة والسلام فحسده اخوته لهذا السبب وظهر ذلك ليعقوب فلما رأى يوسف هذه الرؤيا وكان تأويلها ان اخوته وأبويه يخضعون له فلهذا (قال) يعقوب (يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك) يعنى لا تخبرهم برؤياك فانهم يعرفون تأويلها (فيكيدوا لك كيدا) اى فيحتالوا فى اهلاكك فأمره بكتمان رؤياه عن اخوته لان رؤيا الانبياء وحى وحق واللام فى فيكيدوا لك كيدا تأكيد الصلة كقولك نصحتك ونصحت لك وشكرتك وشكرت لك (ان الشيطان للانسان عدو مبين) يعنى انه بين العداوة لان عداوته قديمة فهم ان أقدموا على الكيد كان ذلك مضافا الى تزيين الشيطان ووسوسته (ق) عن أبى قتادة قال كنت أرى الرؤيا تمرضنى حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الرؤيا الصالحة من الله والرؤيا السوء من الشيطان فاذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث بها الا من يحب واذا رأى أحدكم ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثا وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها فانها لن تضره (خ) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فانها من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها واذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هى من الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان ومن شرها ولا يذكرها لاحد فانها لن تضره (م) عن جابر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاثا وليتحول عن جنبه الذى كان عليه عن أبى رزين العقيلى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا المؤمن جزء من أربعين وفى رواية جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة وهى على رجل طائر ما لم يحدث بها فاذا حدث بها سقطت قال واحسبه قال ولا يحدث بها الا لبيبا او حبيبا أخرجه الترمذى ولابى داود نحوه قال الشيخ محيى الدين النووى قال المازنى مذهب أهل السنة فى حقيقة الرؤيا ان الله تعالى يخلق فى قلب النائم اعتقادات كما يخلقها فى قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا يقظة فاذا خلق هذه الاعتقادات فكأنه جعلها علما على أمور أخر يخلقها فى ثانى الحال والجميع خلق الله تعالى ولكن يخلق الرؤيا والاعتقادات التى يجعلها علما على ما يسر بغير حضرة الشيطان فاذا خلق ما هو علم على ما يضر يكون بحضرة الشيطان فينسب الى الشيطان مجازا وان كان لا فعل له فى الحقيقة فهذا معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم الرؤيا من الله والحلم من الشيطان لا على أن الشيطان يفعل شيئا والرؤيا اسم للمحبوب والحلم اسم للمكروه وقال غيره اضافة الرؤيا المحبوبة الى الله تعالى اضافة تشريف بخلاف الرؤيا المكروهة وان كانتا جميعا من خلق الله وتدبيره وارادته ولا فعل للشيطان فيهما ولكنه يحضر المكروهة ويرتضيها فيستحب اذا رأى الرجل فى منامه ما يحب أن يحدث به من يحب واذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن شرها وليتفل ثلاثا وليتحول الى جنبه الآخر فانها لا تضره فان الله تعالى جعل هذه الاسباب سببا لسلامته من المكروه كما جعل الصدقة سببا لوقاية المال وغيره من البلاء والله أعلم قوله تعالى (وكذلك يجتبيك ربك) يعنى يقول يعقوب ليوسف عليهما الصلاة والسلام أى وكما رفع منزلتك بهذه الرؤيا الشريفة العظيمة كذلك يجتبيك ربك يعنى يصطفيك ربك واجتباء الله تعالى العبد تخصيصه اياه بفيض الهى تحصل له منه انواع الكرامات بلا سعى

من

(أحد عشر كوكبا) اسماؤها بيان النبى عليه السلام جريان والذيال والطارق وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين (والشمس والقمر) هما أبواه أو أبوه وخالته والكواكب اخوته قيل الواو بمعنى مع أى رأيت الكواكب مع الشمس والقمر وأجريت مجرى العقلاء فى (رأيتهم لى ساجدين) لانه وصفها بما هو المختص بالعقلاء وهو السجود وكررت الرؤيا لان الاولى تتعلق بالذات والثانية بالحال أو الثانية كلام مستأنف على تقدير سؤال وقع جوابا له كأن أباه قال له كيف رأيتها فقال رأيتهم لى ساجدين أى متواضعين وهو حال وكان ابن ثنتى عشرة سنة يومئذ وكان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه أربعون سنة أو ثمانون (قال يا بنى) بالفتح حيث كان حفص (لا تقصص رؤياك) هى بمعنى الرؤية الا انها مختصة بما كان منها فى المنام دون اليقظة وفرق بينهما بحرفى التأنيث كما فى القربة والقربى (على اخوتك فيكيدوا لك) جواب النهى أى ان قصصتها عليهم كادوك عرف يعقوب عليه السلام ان الله يصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين فخاف عليه حسد الاخوة واعمال الحيل فيكيدوك كما قال فكيدونى لانه ضمن معنى فعل يتعدى باللام ليفيد معنى فعل الكيد مع افادة معنى الفعل المضمن فيكون آكد وابلغ فى التخويف وذلك نحو فيحتالوا لك الا ترى الى تأكيده بالمصدر وهو (كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين) ظاهر العداوة فيحملهم على الحسد والكيد (وكذلك) ومثل ذلك الاجتباء الذى دلت عليه رؤياك (يجتبيك ربك) يصطفيك والاجتباء والاصطفاء افتعال من جبيت الشئ اذا حصلته لنفسك وجبيت الماء فى الحوض

جمعته

من العبد وذلك مختص بالانبياء أو ببعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء والصالحين (ويعلمك من تأويل الاحاديث) يعني به تعبير الرؤيا سمي تأويلا لانه يؤل أمره الى ما رأى في منامه يعني يعلمك تأويل احاديث الناس فيما يرونه في منامهم وكان يوسف عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بتعبير الرؤيا وقال الزجاج تأويل احاديث الانبياء والامم السالفة والكتب المنزلة وقال ابن عباس يعلمك العلم والحكمة (ويتم نعمته عليك) يعني بالنبوة قاله ابن عباس لان منصب النبوة أعلى من جميع المناصب وكل الخلق دون درجة الانبياء فهذا من اتمام النعمة عليهم لان جميع الخلق دونهم في الرتب والمناصب (وعلى آل يعقوب) المراد بآل يعقوب أولاده فانهم كانوا أنبياء وهو المراد من اتمام النعمة عليهم (كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحاق) قيل المراد من اتمام النعمة على ابراهيم صلى الله عليه وسلم بأن خلصه الله من النار واتخذه خليلا والمراد من اتمام النعمة على اسحاق بأن خلصه الله من الذبح وهذا على قول من يقول ان اسحاق هو الذبيح وليس بشئ والقول الاول هو الاصح بأن اتمام النعمة عليهما بالنبوة لانه لا اعظم من منصب النبوة فهو من أعظم النعم على العبد (ان ربك عليم) يعني بمصالح خلقه (حكيم) يعني انه تعالى لا يفعل شيئا الا بحكمة وقيل انه تعالى حكيم بوضع النبوة في بيت ابراهيم صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس رضي الله عنهما كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصر واجتماعه بأبويه واخوته أربعون سنة وهذا قول أكثر المفسرين وقال الحسن البصري كان بينهما ثمانون سنة فلما بلغت هذه الرؤيا اخوة يوسف حسدوه وقالوا ما رضي ان سجد له اخوته حتى سجد له أبواه قوله عز وجل (لقد كان في يوسف واخوته) يعني في خبره وخبر اخوته وأسماؤهم روبين وهو أكبرهم وشمعون ولاوي ويهوذا وزبولون ويشجر وأمهم ليا بنت ليان وهي ابنة خال يعقوب وولد ليعقوب من سريتين اسم احداهما زلفة والاخرى بلهة أربعة أولاد واسماؤهم دان ونفتونا وجاد واوشير ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين فهؤلاء بنو يعقوب وهم الاسباط وعددهم اثنا عشر نفرا (آيات للسائلين) وذلك ان اليهود لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف وقيل سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من ارض كنعان الى ارض مصر ذكر قصة يوسف مع اخوته فوجدوها موافقة لما في التوراة فتعجبوا منه فعلى هذا تكون هذه القصة دالة على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يجالس العلماء والاحبار ولم يأخذ من احد منهم شيئا فدل ذلك على ان ما اتى به وحي سماوي وعلم قدسي اوحاه الله اليه وشرفه به ومعنى آيات للسائلين أي عبرة للمعتبرين فان هذه القصة تشتمل على انواع من العبر والمواعظ والحكم ومنها رؤيا يوسف وما حقق الله فيها ومنها حسد اخوته له وما آل اليه أمرهم من الحسد ومنها صبر يوسف على اخوته وبلواه مثل القائه في الجب وبيعه عبدا وسجنه بعد ذلك وما آل اليه أمره من الملك ومنها ما تشتمل عليه من حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما آل اليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك من الآيات التي اذا فكر فيها الانسان اعتبر واتعظ (اذ قالوا) يعني اخوة يوسف (ليوسف) اللام فيه لام القسم تقديره والله ليوسف (وأخوه) يعني بنيامين وهما من ام واحدة (أحب الى أبينا منا ونحن عصبة) انما قالوا هذه المقالة حسدا منهم ليوسف واخيه لما رأوا من ميل يعقوب اليه وكثرة شفقته عليه والعصبة الجماعة وكانوا عشرة قال الفراء العصبة هي العشرة فما زاد وقيل هي ما بين الواحد الى العشرة وقيل ما بين الثلاثة الى العشرة وقال مجاهد هي ما بين العشرة الى خمسة عشر وقيل الى الاربعين وقيل الاصل فيه ان كل جماعة يتعصب بعضهم ببعض يسمون عصبة والعصبة لا واحد لها من لفظها كالرهط والنفر (ان ابانا لفي ضلال مبين) يعني لفي خطأ بين في ايثاره حب يوسف علينا مع صغره لا نفع فيه ونحن عصبة ننفعه ونقوم بمصالحه من امر دنياه واصلاح امر مواشيه وليس المراد من ذكر هذا الضلال الضلال عن الدين اذ لو أرادوا ذلك لكفروا به ولكن أرادوا به

قيل وهو يعلمك (من تأويل الاحاديث) أي تأويل الرؤيا وتأويلها عبارتها وتفسيرها وكان يوسف اعبر الناس للرؤيا أو تأويل أحاديث الانبياء وكتب الله وهو اسم جمع للحديث وليس بجمع احدوثة (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) بان وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة أي جعلهم أنبياء في الدنيا وملوكا ونقلهم عنها الى الدرجات العلى في الجنة وآل يعقوب أهله وهم نسله وغيرهم واصل آل أهل بدليل تصغيره على اهيل الا انه لا يستعمل الا فيمن له خطر يقال آل النبي وآل الملك ولا يقال آل الحجام ولكن اهله وانما علم يعقوب ان يوسف يكون نبيا واخوته أنبياء استدلالا بضوء الكواكب فلذا قال وعلى آل يعقوب (كما أتمها على أبويك من قبل) اراد الجد وأبا الجد (ابراهيم واسحاق) عطف بيان لأبويك (ان ربك عليم) يعلم من يحق له الاجتباء (حكيم) يضع الاشياء مواضعها (لقد كان في يوسف واخوته) أي في قصتهم وحديثهم (آيات) علامات ودلالات على قدرة الله وحكمته في كل شئ آية مكي (للسائلين) لمن سأل عن قصتهم وعرفها أو آيات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم للذين سألوه من اليهود عنها فأخبرهم من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب واسماؤهم يهوذا وروبين وشمعون ولاوي وزبولون ويشجر وامهم ليا بنت ليان ودان ونفتونا وجاد واوشير من سريتين زلفة وبلهة فلما توفيت ليا تزوج اختها راحيل فولدت له بنيامين ويوسف (اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا) اللام لام الابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة أرادوا ان زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه وانما قالوا وأخوه وهم اخوته أيضا لان امهما كانت واحدة وانما قيل احب في الاثنين لان افعل من لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه ولا بين المذكر والمؤنث ولا بد من الفرق مع لام التعريف واذا أضيف ساغ الامران والواو في (ونحن عصبة) للحال اي انه يفضلهما في المحبة علينا وهما صغيران لا كفاية فيهما ونحن عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقه فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما (ان ابانا لفي ضلال مبين) غلط في تدبير أمر الدنيا ولو وصفوه بالضلالة في الدين لكفروا والعصبة العشرة فصاعدا

الحظافي أمر الدنيا وما يصلحها يقولون نحن أنفع له من يوسف فهو مخطئ في صرف محبته اليه لانا أكبر منه سنا واشد قوة وأكثر منفعة وغاب عنهم المقصود الاعظم وهو ان يعقوب عليه الصلاة والسلام ما فضل يوسف وأخاه على سائر الاخوة الا في المحبة المحضة ومحبة القلب ليس في وسع البشر دفعها ويحتمل ان يعقوب انما خص يوسف بمزيد المحبة والشفقة لان أمه ماتت وهو صغير او لانه رأى فيه من آيات الرشد والنجابة ما لم يره في سائر اخوته * فان قلت الذي فعله اخوة يوسف بيوسف هو محض الحسد والحسد من أمهات الكبائر وكذلك نسبة أبيهم الى الضلال هو محض العقوق وهو من الكبائر أيضا وكل ذلك قادح في عصمة الانبياء فما الجواب عنه * قلت هذه الافعال انما صدرت من اخوة يوسف قبل ثبوت النبوة لهم والمعتبر في عصمة الانبياء هو وقت حصول النبوة لا قبلها وقيل كانوا وقت هذه الافعال مراهقين غير بالغين ولا تكليف عليهم قبل البلوغ فعلى هذا لم تكن هذه الافعال قادحة في عصمة الانبياء قوله تعالى حكاية عن اخوة يوسف (اقتلوا يوسف او اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم) لما قوي الحسد وبلغ النهاية قال اخوة يوسف فيما بينهم لا بد من تبعيد يوسف عن أبيه وذلك لا يحصل الا باحد طريقين اما القتل مرة واحدة أو التغريب الى أرض يحصل اليأس من اجتماعه بأبيه بأن تفترسه الاسد والسباع أو يموت في تلك الارض البعيدة ثم ذكروا العلة في ذلك وهي قولهم يخل لكم وجه أبيكم والمعنى انه قد شغله حب يوسف عنكم فاذا فعلتم ذلك بيوسف اقبل يعقوب بوجهه عليكم وصرف محبته اليكم (وتكونوا من بعده) يعني من بعد قتل يوسف وابعاده عن ابيه (قوما صالحين) يعني تائبين فتوبوا الى الله يعف عنكم فتكونوا قوما صالحين وذلك انهم لما علموا ان الذي عزموا عليه من الذنوب الكبائر قالوا نتوب الى الله من هذا الفعل ونكون من الصالحين في المستقبل وقال مقاتل معناه يصلح لكم أمركم فيما بينكم وبين أبيكم * فان قلت كيف يليق ان تصدر هذه الافعال منهم وهم أنبياء * قلت الجواب ما تقدم انهم لم يكونوا أنبياء في ذلك الوقت حتى تكون هذه الافعال قادحة في عصمة الانبياء وانما اقدموا على هذه الافعال قبل النبوة وقيل ان الذي اشار بقتل يوسف كان أجنبيا شاوروه في ذلك وأشار عليهم بقتله (قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف) يعني قال قائل من اخوة يوسف وهو يهوذا وقال قتادة هو روبيل وهو ابن خالته وكان أكبرهم سنا وأحسنهم رأيا فنهاهم عن قتله وقال القتل كبيرة عظيمة والاصح ان قائل هذه المقالة هو يهوذا لانه كان أقربهم اليه نسبا (وألقوه في غيابة الجب) يعني القوه في أسفل الجب وظلمته والغيابة كل موضع ستر شيئا وغيبه عن النظر والجب البئر الكبيرة غير مطوية سمي بذلك لانه جب اي قطع ولم يطو وافاد ذكر الغيابة مع ذكر الجب ان المشير اشار بطرحه في موضع من الجب مظلم لا يراه احد واختلفوا في مكان ذلك الجب فقال قتادة هو بئر بيت المقدس وقال وهب هو في ارض الاردن وقال مقاتل هو في ارض الاردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وانما عينوا ذلك الجب للعلة التي ذكروها وهي قولهم (يلتقطه بعض السيارة) وذلك ان هذا الجب كان معروفا يرد عليه كثير من المسافرين والالتقاط اخذ الشئ من الطريق او من حيث لا يحتسب ومنه اللقطة بعض السيارة يعني يأخذه بعض المسافرين فيذهب به الى ناحية اخرى فتستريحون منه (ان كنتم فاعلين) فيه اشارة الى ترك الفعل فكأنه قال لا تفعلوا شيئا من ذلك وان عزمتم على هذا الفعل فافعلوا هذا القدر ان كنتم فاعلين ذلك قال البغوي كانوا يومئذ بالغين ولم يكونوا انبياء الا بعده وقيل لم يكونوا بالغين وليس بصحيح بدليل انهم قالوا وتكونوا من بعده قوما صالحين وقالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين والصغير لا ذنب له قال محمد بن اسحاق اشتمل فعلهم هذا على جرائم كثيرة من قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له والغدر بالامانة وترك العهد والكذب مع أبيهم وعفا الله عن ذلك كله حتى لا ييأس أحد من رحمة الله تعالى وقال بعض اهل العلم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم ولو فعلوا ذلك لهلكوا جميعا وكل ذلك كان قبل أن نبأهم الله فلما اجمعوا على التفريق

(تفسير النسفي)
(اقتلوا يوسف) من جملة ما حكى بعد قوله اذ قالوا كأنهم اطبقوا على ذلك الا من قال لا تقتلوا يوسف وقيل الآمر بالقتل شمعون والباقون كانوا راضين فجعلوا آمرين (أو اطرحوه أرضا) منكورة مجهولة بعيدة عن العمران وهو معنى تنكيرها واخلائها عن الوصف ولهذا الابهام نصبت نصب الظروف المبهمة (يخل لكم وجه أبيكم) يقبل عليكم اقبالة واحدة لا يلتفت عنكم الى غيركم والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها فكان ذكر الوجه لتصوير معنى اقباله عليهم لان الرجل اذا اقبل على الشئ أقبل بوجهه وجاز ان يراد بالوجه الذات كما قال ويبقى وجه ربك (وتكونوا) مجزوم عطفا على يخل لكم (من بعده) من بعد يوسف أي من بعد كفايته بالقتل أو التغريب أو من بعد قتله أو طرحه فرجع الضمير الى مصدر اقتلوا أو اطرحوا (قوما صالحين) تائبين الى الله مما جنيتم عليه أو يصلح حالكم عند أبيكم (قال قائل منهم) هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأيا (لا تقتلوا يوسف) فان القتل عظيم (وألقوه في غيابة الجب) في قعر البئر وما غاب منه عن عين الناظر غيابات وكذا ما بعده مدني (يلتقطه بعض السيارة) بعض الاقوام الذين يسيرون في الطريق (ان كنتم فاعلين) به شيئا

بين يوسف وبين والده بضرب من الحيل (قالوا) يعني قال اخوة يوسف ليعقوب (يا ابانا مالك لا تأمنا على يوسف) بدؤا بالانكار عليه في ترك ارسال يوسف معهم كأنهم قالوا اتخافنا عليه اذا ارسلته معنا (وانا له لناصحون) المراد بالنصح هنا القيام بالمصلحة وقيل البر والعطف والمعنى وانا لعاطفون عليه قائمون بمصلحته وبحفظه وقال مقاتل في الكلام تقديم وتأخير وذلك انهم قالوا لابيهم ارسله معنا فقال يعقوب اني ليحزنني ان تذهبوا به فحينئذ قالوا مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون ثم قالوا (ارسله معنا غدا) يعني الى الصحراء (نرتع) الرتع هو الاتساع في الملاذ يقال رتع فلان في ماله اذا انفقه في شهواته والاصل في الرتع اكل البهائم في الخصب من الربيع ويستعار للانسان اذا اريد به الاكل الكثير (ونلعب) اللعب معروف قال الراغب يقال لعب فلان اذا كان فعله غير قاصد به مقصدا صحيحا سئل ابو عمرو بن أبي العلاء كيف قالوا نلعب وهم انبياء فقال لم يكونوا يومئذ انبياء ويحتمل ان يكون المراد باللعب هنا الاقدام على المباحات لاجل انشراح الصدر ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لجابر رضي الله عنه هلا بكرا تلاعبك وتلاعبها وايضا فان لعبهم كان الاستباق وهو غرض صحيح مباح لما فيه من المحاربة والاقدام على الاقران في الحرب بدليل قوله نستبق وانما سموه لعبا لانه في صورة اللعب وقيل معنى نرتع ونلعب نتنعم ونأكل ونلهو وننشط (وانا له لحافظون) يعني نجتهد في حفظه غاية الاجتهاد حتى نرده اليك سالما (قال) يعني قال لهم يعقوب عليه الصلاة والسلام (اني ليحزنني ان تذهبوا به) اي ذهابكم به والحزن هنا الم القلب بفراق المحبوب ومعنى الآية لما طلبوا منه ان يرسل معهم يوسف عليه الصلاة والسلام اعتذر يعقوب عليه الصلاة والسلام بعذرين احدهما ان ذهابهم به ومفارقته اياه يحزنه لانه كان لا يقدر ان يصبر عنه ساعة والثاني قوله (واخاف ان يأكله الذئب وانتم عنه غافلون) يعني اذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم وذلك ان يعقوب عليه الصلاة والسلام رأى في المنام أن ذئبا شد على يوسف عليه الصلاة والسلام فكان يعقوب يخاف عليه من ذلك وقيل كانت الذئاب في ارضهم كثيرة (قالوا) يعني قال اخوة يوسف مجيبين ليعقوب (لئن اكله الذئب ونحن عصبة) اي جماعة عشرة رجال (انا اذا لخاسرون) يعني عجزة ضعفاء وقيل انهم خافوا ان يدعو عليهم يعقوب بالخسار والبوار وقيل معناه انا اذا لم نقدر على حفظ اخينا فكيف نقدر على حفظ مواشينا فنحن اذا خاسرون قوله عز وجل (فلما ذهبوا به) فيه اضمار واختصار تقديره فأرسله معهم فلما ذهبوا به (واجمعوا ان يجعلوه في غيابة الجب) يعني وعزموا على ان يلقوه في غيابة الجب

* ذكر قصة ذهابهم بيوسف عليه الصلاة والسلام * قال وهب وغيره من اهل السير والاخبار ان اخوة يوسف قالوا له أما تشتاق ان تخرج معنا الى مواشينا فنصيد ونستبق قال بلى قالوا له اتسأل اباك ان يرسلك معنا قال يوسف افعل فدخلوا بجماعتهم على يعقوب فقالوا يا ابانا ان يوسف قد احب ان يخرج معنا الى مواشينا فقال يعقوب ما تقول يا بني قال نعم يا ابت اني ارى من اخوتي اللين واللطف فأحب ان تأذن لي وكان يعقوب يكره مفارقته ويحب مرضاته فأذن له وارسله معهم فلما خرجوا به من عند يعقوب جعلوا يحملونه على رقابهم ويعقوب ينظر اليهم فلما بعدوا عنه وصاروا الى الصحراء القوه على الارض واظهروا له ما في انفسهم من العداوة واغلظوا له القول وجعلوا يضربونه فجعل كلما جاء الى واحد منهم واستغاث به ضربه فلما فطن لما عزموا عليه من قتله جعل ينادي يا ابتاه لو رأيت يوسف وما نزل به من اخوته لاحزنك ذلك وابكاك يا ابتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وضيعوا وصيتك وجعل يبكي بكاء شديدا فأخذه روبيل فجلد به الارض ثم جثم على صدره واراد قتله فقال له يوسف مهلا يا اخي لا تقتلني فقال له يا ابن راحيل انت صاحب الاحلام قل لرؤياك تخلصك من ايدينا ولوى عنقه فاستغاث يوسف بيهوذا وقال له اتق الله في وحل بيني وبين من يريد قتلي فأدركته رحمة الاخوة ورق له فقال يهوذا يا اخوتي ما على هذا عاهدتموني الا ادلكم على ما هو اهون لكم وارفق به

(قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف) أي لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير (وانا له لناصحون) ونشفق عليه وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله عن رأيه وعادته في حفظه منهم وفيه دليل على انه أحس منهم بما أوجب ان لا يأمنهم عليه (ارسله معنا غدا نرتع) نتسع في أكل الفواكه وغيرها والرتعة السعة (ونلعب) نتفرح بما باح كالصيد والرمي والركض بالياء فيهما مدني وكوفي وبالنون فيهما مكي وشامي وأبو عمرو وبكسر العين حجازي من ارتعى يرتعي افتعال من الرعي (وانا له لحافظون) من ان يناله مكروه (قال اني ليحزنني ان تذهبوا به) أي يحزنني ذهابكم به واللام لام الابتداء (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) اعتذر اليهم بان ذهابهم به مما يحزنه لانه كان لا يصبر عنه ساعة وانه يخاف عليه من عدوة الذئب اذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم (قالوا لئن أكله الذئب) اللام موطئة للقسم والقسم محذوف تقديره والله لئن أكله الذئب والواو في (ونحن عصبة) أي فرقة مجتمعة مقتدرة على الدفع للحال (انا اذا لخاسرون) جواب للقسم مجزئ عن جزاء الشرط اي ان لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا اذا وخسرناها واجابوا عن عذره الثاني دون الاول لان ذلك كان يغيظهم (فلما ذهبوا به واجمعوا ان يجعلوه في غيابة الجب) أي عزموا على القائه في البئر وهي بئر على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام وجواب لما محذوف تقديره فعلوا به ما فعلوا من الاذى فقد روي انهم لما برزوا به الى البرية اظهروا له العداوة وضربوه وكادوا يقتلونه فمنعهم يهوذا فلما أرادوا القاءه في الجب تعلق بثيابهم فنزعوها من يده فتعلق بحائط البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه ليلطخوه بالدم فيحتالوا به على أبيهم ودلوه في البئر وكان فيها ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة وقام عليها وهو يبكي وكان

فقالوا وما هو قال تلقونه فى هذا الجب اما ان يموت او يلتقطه بعض السيارة فانطلقوا به الى بئر هنالك على غير الطريق واسع الاسفل ضيق الرأس فجعلوا يدلونه فى البئر فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال يا اخوتاه ردوا على قميصى لاستتر به فى الجب فقالوا ادع الشمس والقمر والكواكب تخلصك وتؤنسك فقال انى لم أر شيئا فألقوه فيها ثم قال لهم يا اخوتاه أتدعونى فيها فريدا وحيدا وقيل جعلوه فى دلو ثم ارسلوه فيها فلما بلغ نصفها ألقوه ارادة ان يموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة كانت فى البئر فقام عليها وقيل نزل عليه ملك فحل يديه وأخرج له صخرة من البئر فأجلسه عليها وقيل انهم لما ألقوه فى الجب جعل يبكى فنادوه فظن انها رحمة ادركته فأجابهم فأرادوا ان يرضخوه بصخرة ليقتلوه فمنعهم يهوذا من ذلك وقيل ان يعقوب لما بعثه مع اخوته أخرج له قميص ابراهيم الذى كساه الله اياه من الجنة حين ألقى فى النار فجعله يعقوب فى قصبة فضة وجعلها فى عنق يوسف فألبسه الملك اياه حين ألقى فى الجب فأضاء له الجب وقال الحسن لما ألقى يوسف فى الجب عذب ماؤه فكان يكفيه عن الطعام والشراب ودخل عليه جبريل فأنس به فلما أمسى نهض جبريل ليذهب فقال له انك اذا خرجت استوحشت فقال له اذا رهبت شيئا فقل يا صريخ المستصرخين ويا غوث المستغيثين ويا مفرج كرب المكروبين قد ترى مكانى وتعلم حالى ولا يخفى عليك شئ من أمرى فلما قالها يوسف حفته الملائكة واستأنس فى الجب وقال محمد بن مسلم الطائفى لما ألقى يوسف فى الجب قال يا شاهدا غير غائب ويا قريبا غير بعيد ويا غالبا غير مغلوب اجعل لى فرجا مما أنا فيه فما بات فيه واختلفوا فى قدر عمر يوسف يوم ألقى فى الجب فقال الضحاك ست سنين وقال الحسن اثنتا عشرة سنة وقال ابن السائب سبع عشرة سنة وقيل ثمان عشرة سنة وقيل مكث فى الجب ثلاثة أيام وكان اخوته يرعون حوله وكان يهوذا يأتيه بالطعام فذلك قوله تعالى (وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا) يعنى لتخبرن اخوتك قال أكثر المفسرين ان الله أوحى اليه وحيا حقيقة فبعث اليه جبريل يؤنسه ويبشره بالخروج ويخبره انه سينبئهم بما فعلوا ويجازيهم عليه هذا قول طائفة عظيمة من المحققين ثم القائلون بهذا القول اختلفوا هل كان بالغا فى ذلك الوقت أو كان صبيا صغيرا فقال بعضهم انه كان بالغا وكان عمره خمس عشرة سنة وقال آخرون بل كان صغيرا الا ان الله عز وجل أكمل عقله ورشده وجعله صالحا لقبول الوحى والنبوة كما قال فى حق عيسى عليه الصلاة والسلام * فان قلت كيف جعله نبيا فى ذلك الوقت ولم يكن يبلغ رسالة ربه لان فائدة النبوة والرسالة تبليغها الى من ارسل اليه قلت لا يمتنع ان الله يشرفه بالوحى ويكرمه بالنبوة والرسالة فى ذلك الوقت وفائدة ذلك تطييب قلبه وازالة الهم والغم والوحشة عنه ثم بعد ذلك يأمره بتبليغ الرسالة فى وقتها وقيل ان المراد من قوله وأوحينا اليه وحى الهام كما فى قوله تعالى وأوحى ربك الى النحل وأوحينا الى أم موسى والقول الاول أولى وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) يعنى بايحائنا اليك وأنت فى البئر بأنك ستخبرهم بصنيعهم هذا والفائدة فى اخفاء ذلك الوحى عنهم انهم اذا عرفوه فربما ازداد حسدهم له وقيل ان الله تعالى أوحى الى يوسف لتخبرن اخوتك بصنيعهم هذا بعد هذا اليوم وهم لا يشعرون بأنك أنت يوسف والمقصود من ذلك تقوية قلب يوسف عليه الصلاة والسلام وانه سيخلص مما هو فيه من المحنة ويصير مستوليا عليهم ويصيرون تحت أمره وقهره قوله تعالى (وجاؤا أباهم عشاء يبكون) قال المفسرون لما طرحوا يوسف فى الجب رجعوا الى ابيهم وقت العشاء ليكونوا فى الظلمة اجتراء على الاعتذار بالكذب فلما قربوا من منزل يعقوب جعلوا يبكون ويصرخون فسمع أصواتهم ففزع من ذلك وخرج اليهم فلما رآهم قال بالله سألتكم يا بنى هل أصابكم شئ فى غنمكم قالوا لا قال فما اصابكم واين يوسف (قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق) قال ابن عباس يعنى ننتضل وقال الزجاج يسابق بعضنا بعضا فى الرمى والاصل فى السبق الرمى بالسهم وهو التناصل أيضا ويسمى المتراميان بذلك يقال تسابقا واستبقا اذا فعلا ذلك ليتبين ايهما ابعد سهما وقال السدى يعنى نشتد ونعدو والمعنى نستبق على الاقدام ليتبين أينا اسرع عدوا واخف حركة

(تفسير النسفى)

يهوذا يأتيه بالطعام ويروى ان ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار جرد عن ثيابه وأتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحاق واسحاق الى يعقوب فجعله يعقوب فى تميمة علقها فى عنق يوسف فأخرجه جبريل وألبسه اياه (وأوحينا اليه) قيل أوحى اليه فى الصغر كما أوحى الى يحيى وعيسى عليهما السلام وقيل كان اذ ذاك مدركا (لتنبئنهم بأمرهم هذا) أى لتحدثن اخوتك بما فعلوا بك (وهم لا يشعرون) انك يوسف لعلو شأنك وكبرياء سلطانك وذلك أنهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرنى هذا الجام انه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف وانكم ألقيتموه فى غيابة الجب وقلتم لابيه أكله الذئب وبعتموه بثمن بخس أو يتعلق وهم لا يشعرون بأوحينا أى آنسناه بالوحى وأزلنا عن قلبه الوحشة وهم لا يشعرون ذلك (وجاؤا أباهم عشاء) للاستتار والتجسر على الاعتذار (يبكون) حال عن الاعمش لا تصدق باكية بعد اخوة يوسف فلما سمع صوتهم فزع وقال مالكم يا بنى هل أصابكم فى غنمكم شئ قالوا لا قال فما بالكم وأين يوسف (قالوا يا أبانا انا ذهبنا نستبق) أى نتسابق فى العدو أو فى الرمى والافتعال والتفاعل يشتركان كالارتماء والترامى وغير ذلك

وقال

(وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا) بمصدّق لنا (ولو كنا صادقين) ولو كنا عندك من اهل الصدق والثقة لشدّة محبتك ليوسف فكيف وانت سيئ الظن بنا غير واثق بقولنا (وجاؤا على قميصه بدم كذب) ذى كذب ووصف بالمصدر مبالغة كأنه نفس الكذب وعينه كما يقال للكذاب هو الكذب بعينه والزور بذاته روى انهم ذبحوا سخلة ولطخوا القميص بدمها وزل عنهم ان يمزقوه وروى ان يعقوب عليه السلام لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته وقال اين القميص وأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه وقيل كان فى قميص يوسف ثلاث آيات كان دليلا ليعقوب على كذبهم والقاه على وجهه فارتد بصيرا ودليلا على براءة يوسف حين قدّ من دبره ومحل على قميصه النصب على الظرف كأنه قيل وجاؤا فوق قميصه بدم (قال) يعقوب عليه السلام (بل سوّلت) زينت او سهلت (لكم انفسكم أمرا) عظيما ارتكبتموه (فصبر جميل) خبر او مبتدأ لكونه موصوفا أى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل اجمل وهو ما لا شكوى فيه الى الخلق (والله المستعان) أى استعينه (على) احتمال (ما تصفون) من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه (وجاءت سيارة) رفقة تسير من قبل مدين الى مصر وذلك بعد ثلاثة أيام من القاء يوسف فى الجب وأخطؤا الطريق فنزلوا قريبا منه وكان الجب فى قفرة بعيدة من العمران وكان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه يوسف (فأرسلوا واردهم) هو الذى يرد الماء ليستقى للقوم اسمه مالك بن دعر الخزاعى (فأدلى دلوه) أرسل الدلو ليملأها فتشبث يوسف بالدلو فنزعوه (قال يا بشرى) كوفى نادى البشرى كأنه يقول تعالى فهذا أوانك غيرهم بشراى على اضافتها الى نفسه أو هو اسم غلامه فناداه مضافا الى نفسه (هذا غلام) قيل ذهب به فلما دنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به (وأسروه) الضمير للوارد وأصحابه اخفوه من الرفقة أولاخوة يوسف فانهم قالوا للرفقة هذا غلام لنا قد ابق فاشتروه منا وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه (بضاعة) حال أى اخفوه متاعا للتجارة والبضاعة ما بضع من المال للتجارة أى قطع (والله عليم بما

وقال مقاتل نتصيد والمعنى نستبق الى الصيد (وتركنا يوسف عند متاعنا) يعنى عند ثيابنا (فأكله الذئب) يعنى فى حال استباقنا وغفلتنا عنه (وما انت بمؤمن لنا) يعنى وما انت بمصدّق لنا (ولو كنا صادقين) يعنى فى قولنا والمعنى انا وان كنا صادقين لكنك لا تصدّق لنا قولا لشدّة محبتك ليوسف فانك تتهمنا فى قولنا هذا وقيل معناه وان كنا صادقين فانك لم تصدّقنا لانه لم تظهر عندك أمارة تدل على صدقنا (وجاؤا على قميصه) يعنى قميص يوسف (بدم كذب) أى مكذوب فيه قال ابن عباس انهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف ثم جاؤا اباهم وفى القصة انهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقوه فقال يعقوب لهم كيف اكله الذئب ولم يشق قميصه فاتهمهم بذلك وقيل انهم اتوه بذئب وقالوا هذا اكله فقال يعقوب ايها الذئب انت اكلت ولدى وثمرة فؤادى فأنطقه الله عز وجل وقال والله ما اكلته ولا رأيت ولدك قط ولا يحل لنا أن نأكل لحوم الانبياء فقال يعقوب فكيف وقعت بأرض كنعان فقال جئت لصلة الرحم وهى قرابة لى فأخذونى وأتوا بى اليك فأطلقه يعقوب ولما ذكر اخوة يوسف ليعقوب هذا الكلام واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم (قال) يعقوب (بل سولت لكم انفسكم أمرا) يعنى بل زينت لكم انفسكم أمرا وأصل التسويل تقدير معنى فى النفس مع الطمع فى اتمامه قال صاحب الكشاف سولت سهلت من السول وهو الاسترخاء أى سهلت لكم انفسكم أمرا عظيما ركبتموه من يوسف وهونتموه فى أنفسكم واعينكم فعلى هذا يكون معنى قوله بل ردا لقولهم فأكله الذئب كأنه قال ليس الامر كما تقولون اكله الذئب بل سولت لكم انفسكم أمرا آخر غير ما تصفون (فصبر جميل) أى فشأنى صبر جميل وقيل معناه فصبرى صبر جميل والصبر الجميل الذى لا شكوى فيه ولا جزع وقيل من الصبر أن لا تحدث بمصيبتك ولا تزكى نفسك (والله المستعان على ما تصفون) يعنى من القول الكذب وقيل معناه والله المستعان على حمل ما تصفون قوله عز وجل (وجاءت سيارة) وهم القوم المسافرون سموا سيارة لمسيرهم فى الارض وكانوا رفقة من مدين يريدون مصر فأخطؤا الطريق فنزلوا قريبا من الجب الذى كان فيه يوسف وكان فى قفرة بعيدة من العمارة ترده الرعاة والمارة وكان ماؤه ملحا فلما القى يوسف فيه عذب فلما نزلوا ارسلوا رجلا من أهل مدين يقال له مالك بن دعر الخزاعى ليطلب لهم الماء فذلك قوله تعالى (فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه) قال والوارد هو الذى يتقدم الرفقة الى الماء فيهيئ الارشية والدلاء يقال ادليت الدلو اذا أرسلتها فى البئر ودلوتها اذا اخرجتها قال فتعلق يوسف عليه الصلاة والسلام بالحبال وكان يوسف عليه السلام احسن ما يكون من الغلمان وذكر البغوى بسند متصل ان النبى صلى الله عليه وسلم قال اعطى يوسف شطر الحسن ويقال انه ورث ذلك الجمال من جدته سارة وكانت قد اعطيت سدس الحسن قال محمد بن اسحاق ذهب يوسف وامه بثلثى الحسن وحكى الثعلبى عن كعب الاحبار قال كان يوسف حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوى الخلق ابيض اللون غليظ الساعدين والعضدين والساقين خميص البطن صغير السرة وكان اذا تبسم رأيت النور من ضواحكه واذا تكلم رأيت شعاع النور من ثناياه ولا يستطيع أحد وصفه وكان حسنه كضوء النهار عند الليل وكان يشبه آدم عليه الصلاة والسلام يوم خلقه الله وصوره قبل أن يصيب الخطيئة قالوا فلما خرج يوسف ورآه مالك بن ذعر كأحسن ما يكون من الغلمان (قال) يعنى الوارد وهو مالك بن ذعر (يا بشراى) يعنى يقول الوارد لاصحابه ابشروا (هذا غلام) وقرئ يا بشرى بغير اضافة ومعناه ان الوارد نادى رجلا من أصحابه اسمه بشرى كما تقول يا زيد ويقال ان جدران البئر بكت على يوسف حين خرج منها (وأسروه بضاعة) قال مجاهد اسره مالك بن دعر وأصحابه من التجار الذين كانوا معهم وقالوا انه بضاعة استبضعناه لبعض اهل المال الى مصر وانما قالوا ذلك خيفة أن يطلبوا منهم الشركة فيه وقيل ان اخوة يوسف أسروا شأن يوسف يعنى انهم أخفوا أمر يوسف وكونه أخاهم بل قالوا هو عبد لنا أبق وصدّقهم يوسف على ذلك لانهم توعدوه بالقتل سرا من مالك ابن دعر وأصحابه والقول الاول أصح لان مالك بن دعر هو الذى أسره بضاعة وأصحابه (والله عليم بما

يعملون) يعني من ارادة اهلاك يوسف فجعل ذلك سببا لنجاته وتحقيقا لرؤياه ان يصير ملك مصر بعد ان كان عبدا قال أصحاب الاخبار ان يهودا كان يأتي يوسف بالطعام فأتاه فلم يجده في الجب فأخبر اخوته بذلك فطلبوه فاذاهم بمالك بن دعر وأصحابه نزولا قريبا من البئر فأتوهم فاذا يوسف عندهم فقالوا لهم هذا عبدنا ابق منا ويقال انهم هددوا يوسف حتى يكتم حاله ولا يعرفها وقال لهم مثل قولهم ثم انهم باعوه منهم فذلك قوله تعالى (وشروه) أي باعوه وقد يطلق لفظ الشراء على البيع يقال شريت الشيء بمعنى بعته وانما وجب حمل هذا الشراء على البيع لان الضمير في وشروه وفي وكانوا فيه من الزاهدين يرجع الى شيء واحد وذلك ان اخوته زهدوا فيه فباعوه وقيل ان الضمير في وشروه يعود على مالك بن دعر وأصحابه فعلى هذا القول يكون لفظ الشراء على بابه (بثمن بخس) قال الحسن والضحاك ومقاتل والسدي بخس أي حرام لان ثمن الحر حرام ويسمى الحرام بخسا لانه مبخوس البركة يعني منقوصها وقال ابن مسعود وابن عباس بخس أي زيوف ناقصة العيار وقال قتادة بخس أي ظلم والظلم نقصان الحق يقال ظلمه اذا نقصه حقه وقال عكرمة والشعبي بخس أي قليل وعلى الاقوال كلها فالبخس في اللغة هو نقص الشيء على سبيل الظلم والبخس والباخس الشيء الطفيف (دراهم معدودة) فيه اشارة الى قلة تلك الدراهم لانهم في ذلك الزمان ما كانوا يزنون اقل من اربعين درهما انما كانوا يأخذون مادونها عددا فاذا بلغت اربعين درهما وهي اوقية وزنوها واختلفوا في عدد تلك الدراهم فقال ابن مسعود وابن عباس وقتادة كانت عشرين درهما فاقتسموها درهمين درهمين فعلى هذا القول لم يأخذ اخوه من أمه وابيه شيئا منها وقال مجاهد كانت اثنين وعشرين درهما فعلى هذا اخذ اخوه منها درهمين لانهم كانوا احد عشر أخا وقال عكرمة كانت اربعين درهما (وكانوا فيه من الزاهدين) يعني وكان اخوة يوسف في يوسف من الزاهدين وأصل الزهد قلة الرغبة يقال زهد فلان في كذا اذا لم يكن له فيه رغبة والضمير في قوله وكانوا فيه من الزاهدين ان قلنا انه يرجع الى اخوة يوسف كان وجه زهدهم فيه انهم حسدوه وارادوا ابعاده عنهم ولم يكن قصدهم تحصيل الثمن وان قلنا ان قوله وشروه وكانوا فيه من الزاهدين يرجع الى معنى واحد وهو ان الذين شروه كانوا فيه من الزاهدين كان وجه زهدهم فيه اظهار قلة الرغبة فيه ليشتروه بثمن بخس قليل ويحتمل ان يقال ان اخوته لما قالوا انه عبدنا وقد ابق اظهر المشتري قلة الرغبة فيه لهذا السبب قال أصحاب الاخبار ثم ان مالك بن ذعر وأصحابه لما اشتروا يوسف انطلقوا به الى مصر وتبعهم اخوته يقولون استوثقوا منه لا يأبق منكم فذهبوا به حتى قدموا مصر فعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير قاله ابن عباس وكان قطفير صاحب أمر الملك وكان على خزائن مصر وكان يسمى العزيز وكان الملك بمصر ونواحيها اسمه الريان بن الوليد بن نزوان وكان من العماليق وقيل ان هذا الملك لم يمت حتى آمن بيوسف واتبعه على دينه ثم مات ويوسف عليه الصلاة والسلام حي قال ابن عباس لما دخلوا مصر لقي قطفير مالك بن دعر فاشترى يوسف منه بعشرين دينارا وزوج نعل وثوبين ابيضين وقال وهب بن منبه قدمت السيارة بيوسف مصر ودخلوا به السوق يعرضونه للبيع فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريرا وكان وزنه اربعمائة رطل وكان عمره يومئذ ثلاث عشرة سنة أو سبع عشرة سنة فابتاعه قطفير بهذا الثمن فذلك قوله تعالى (وقال الذي اشتراه من مصر) يعني قطفير من أهل مصر (لامرأته) وكان اسمها راعيل وقيل زليخا (اكرمي مثواه) يعني اكرمي منزله ومقامه عندك والمثوى موضع الاقامة وقيل اكرميه في المطعم والملبس والمقام (عسى أن ينفعنا) يعني ان اردنا بيعه بعناه بربح أو يكفينا بعض امورنا ومصالحنا اذا قوي وبلغ (أو نتخذه ولدا) يعني نتبناه وكان حصورا ليس له ولد قال ابن مسعود افرس الناس ثلاثة العزيز في يوسف حيث قال لامرأته اكرمي مثواه عسى أن ينفعنا او نتخذه ولدا وابنة شعيب في موسى حيث قالت لابيها يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين وأبو بكر في عمر حيث استخلفه بعده (وكذلك مكنا ليوسف

تعملون) مما يعمل اخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع (وشروه) وباعوه (بثمن بخس) مبخوس ناقص عن القيمة نقصانا ظاهرا أو زيف (دراهم) بدل من ثمن (معدودة) قليلة تعد عددا ولا توزن لانهم كانوا يعدون مادون الاربعين ويزنون الاربعين وما فوقها وكانت عشرين درهما (وكانوا فيه من الزاهدين) ممن يرغب عما في يده فيبيعه بالثمن الطفيف أو معنى وشروه واشتروه يعني الرفقة الزاهدين أي غير راغبين من اخوته وكانوا فيه من الزاهدين لانهم اعتقدوا انه آبق ويروى ان اخوته اتبعوهم وقالوا استوثقوا منه لا يأبق وفيه ليس من صلة الزاهدين أي غير راغبين لان الصلة لا تتقدم على الموصول وانما هو بيان كأنه قيل في أي شيء زهدوا فقال زهدوا فيه (وقال الذي اشتراه من مصر) هو قطفير وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر والملك يومئذ الريان بن الوليد وقد آمن بيوسف ومات في حياته واشتراه العزيز بزنته ورقا وحريرا ومسكا وهو ابن سبع عشرة سنة واقام في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله الحكمة والعلم وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة (لامرأته) راعيل أو زليخا واللام متعلقة بقال لا باشتراه (اكرمي مثواه) اجعلي منزلته ومقامه عندنا كريما أي حسنا مرضيا بدليل قوله انه ربي أحسن مثواي وعن الضحاك بطيب معاشه ولين لباسه ووطيء فراشه (عسى أن ينفعنا) لعله اذا تدرب وراض الامور وفهم مجاريها نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله (أو نتخذه ولدا) او نتبناه ونقيمه مقام الولد وكان قطفير عقيما وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك (وكذلك) اشارة الى ما تقدم من انجائه وعطف قلب العزيز عليه والكاف منصوب تقديره ومثل ذلك الانجاء والعطف (مكنا ليوسف) أي كما انجيناه وعطفنا عليه العزيز كذلك مكناه

في الارض) يعني كما مننا على يوسف بأن انقذناه من القتل وأخرجناه من الجب كذلك مكناه في الارض يعني ارض مصر فجعلناه على خزائنها (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) أي مكناه في الارض لكي نعلمه من تأويل الاحاديث يعني عبارة الرؤيا وتفسيرها (والله غالب على أمره) قيل الكناية في أمره راجعة الى الله تعالى ومعناه والله غالب على امره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا دافع لامره ولا راد لقضائه ولا يغلبه شئ وقيل هي راجعة الى يوسف ومعناه ان الله مستول على أمر يوسف بالتدبير والاحاطة لا يكله الى احد سواه حتى يبلغ منتهى ما علمه فيه (ولكن اكثر الناس لا يعلمون) يعني ما هو صانع بيوسف وما يريد منه (ولما بلغ أشده) يعني منتهى شبابه وشدته وقوته قال مجاهد ثلاثة وثلاثون سنة وقال الضحاك عشرون سنة وقال السدي ثلاثون سنة وقال الكلبي الاشد ما بين ثمان عشرة سنة الى ثلاثين سنة وسئل مالك عن الاشد فقال هو الحلم (آتيناه حكما وعلما) يعني آتينا يوسف بعد بلوغ الاشد نبوة وفقها في الدين وقيل حكما يعني اصابة في القول وعلما بتأويل الرؤيا وقيل الفرق بين الحكيم والعالم ان العالم هو الذي يعلم الاشياء بحقائقها والحكيم هو الذي يعمل بما يوجبه العلم وقيل الحكمة حبس النفس عن هواها وصونها عما لا ينبغي والعلم هو العلم النظري (وكذلك) يعني وكما انعمنا على يوسف بهذه النعم كلها كذلك (نجزي المحسنين) قال ابن عباس يعني المؤمنين وعنه أيضا المهتدين وقال الضحاك يعني الصابرين على النوائب كما صبر يوسف (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه) يعني ان امرأة العزيز طلبت من يوسف الفعل القبيح ودعته الى نفسها ليواقعها (وغلقت الابواب) أي اطبقتها وكانت سبعة لان مثل هذا الفعل لا يكون الا في ستر وخفية او انها اغلقتها لشدة خوفها (وقالت هيت لك) اي هلم واقبل قال ابو عبيدة كان الكسائي يقول هي لغة لاهل حوران رفعت الى الحجاز معناها تعال وقال عكرمة ايضا بالحورانية هلم وقال مجاهد وغيره هي لغة عربية وهي كلمة حث واقبال على الشئ وقيل هي بالعبرانية واصلها هيتالج أي تعال فعربت فقيل هيت لك فمن قال انها غير لغة العرب يقول ان العرب وافقت اصحاب هذه اللغة فتكلمت بها على وفق لغات غيرهم كما وافقت لغة العرب الروم في القسطاس ولغة العرب الفرس في التنور ولغة العرب الترك في الغساق ولغة العرب الحبشة في ناشئة الليل وبالجملة فان العرب اذا تكلمت بكلمة صارت لغة لها وقرئ هئت لك بكسر الهاء مع الهمزة ومعناه تهيأت لك (قال) يعني يوسف (معاذ الله) أي اعوذ بالله واعتصم به والجأ اليه فيما دعوتني اليه (انه ربي) يعني ان العزيز قطفير سيدي (أحسن مثواي) أي اكرم منزلتي فلا اخونه وقيل ان الهاء في انه ربي راجعة الى الله تعالى والمعنى يقول ان الله ربي احسن مثواي يعني انه آواني ومن بلاء الجب نجاني (انه لا يفلح الظالمون) يعني ان فعلت هذا الفعل فأنا ظالم ولا يفلح الظالمون وقيل معناه انه لا يسعد الزناة قوله عز وجل (ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) الآية هذه الآية الكريمة مما يجب الاعتناء بها والبحث عنها والكلام عليها في مقامين * الاول في ذكر اقوال المفسرين في هذه الآية قال المفسرون الهم هو المقاربة من الفعل من غير دخول فيه وقيل الهم مصدر هممت بالشئ اذا أردته وحدثتك نفسك به وقاربته من غير دخول فيه فمعنى قوله ولقد همت به أي ارادته وقصدته فكان همها به عزمها على المعصية والزنا وقال الزمخشري هم بالامر اذا قصده وعزم عليه قال الشاعر وهو عمرو بن ضابئ البرجمي

هممت ولم افعل وكدت وليتني * تركت على عثمان تبكي حلائله

وقوله ولقد همت به معناه ولقد همت بمخالطته وهم بها أي وهم بمخالطتها لولا ان رأى برهان ربه جوابه محذوف تقديره لولا ان رأى برهان ربه لخالطها قال البغوي واما همه بها فروي عن ابن عباس انه قال حل الهميان وجلس منها مجلس الخاتن وقال مجاهد حل سراويله وجعل يعالج ثيابه وهذا قول اكثر المفسرين منهم سعيد بن جبير والحسن وقال الضحاك جرى الشيطان بينهما فضرب بيده الى جيد يوسف

(في الارض) أي ارض مصر وجعلناه ملكا يتصرف فيها بأمره ونهيه (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) كان ذلك الانجاء والتمكين (والله غالب على أمره) لا يمنع عما شاء او على امر يوسف يبلغه ما اراد له دون ما اراد اخوته (ولكن اكثر الناس لا يعلمون) ذلك (ولما بلغ اشده) منتهى استعداد قوته وهو ثمان عشرة سنة او احدى وعشرون (آتيناه حكما وعلما) حكمة وهو العلم مع العمل واجتناب ما يجهل فيه او حكما بين الناس وفقها (وكذلك نجزي المحسنين) تنبيه على انه كان محسنا في عمله متقيا في عنفوان أمره (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه) اي طلبت يوسف أن يواقعها والمراودة مفاعلة من راد يرود اذا جاء وذهب كأن المعنى خادعته عن نفسه اي فعلت فعل المخادع لصاحبه عن الشئ الذي لا يريد أن يخرجه من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه وهي عبارة عن التمحل لمواقعته اياها (وغلقت الابواب) وكانت سبعة (وقالت هيت لك) هو اسم لتعال واقبل وهو مبني على الفتح هيت مكي بناه على الضم هئت مدني وشامي واللام للبيان كأنه قيل لك اقول هذا كما تقول هلم لك (قال معاذ الله) اعوذ بالله معاذا (انه) أي ان الشأن والحديث (ربي) سيدي ومالكي يريد قطفير (احسن مثواي) حين قال لها اكرمي مثواه فما جزاؤه ان أخونه في اهله (انه لا يفلح الظالمون) الخائنون أو الزناة أو اراد بقوله انه ربي الله تعالى لانه مسبب الاسباب (ولقد همت به) هم عزم (وهم بها) هم الطباع مع الامتناع قاله الحسن وقال الشيخ ابو منصور رحمه الله وهم بها هم خطرة ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب ولا مؤاخذة عليه ولو كان همه كهمها لما مدحه الله تعالى بأنه من عباده المخلصين وقيل وهم بها وشارف أن يهم بها يقال هم بالامر اذا قصده وعزم عليه وجواب (لولا أن رأى برهان ربه) محذوف أي لكان ما كان وقيل وهم بها جوابه ولا يصح لان جواب لولا لا يتقدم عليها لانه في حكم الشرط وله صدر الكلام والبرهان الحجة ويجوز ان يكون وهم بها داخلا في حكم القسم في قوله ولقد همت به

ويده الأخرى إلى جيد المرأة حتى جمع بينهما قال أبو عبيدة القاسم بن سلام وقد أنكر قوم هذا القول قال البغوي والقول ما قاله قدماء هذه الأمة وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا في الأنبياء من غير علم قال السدي وابن إسحاق لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوقه إلى نفسها فقالت يا يوسف ما أحسن شعرك قال هو أول ما ينتثر عن جسدي قالت ما أحسن عينيك قال هي أول ما يسيل على خدي في قبري قالت ما أحسن وجهك قال هو للتراب يأكله وقيل إنها قالت له إن فراش الحرير مبسوط فقم فاقض حاجتي قال إذا يذهب نصيبي من الجنة فلم تزل تطمعه وتدعوه إلى اللذة وهو شاب يجد من شبق الشباب ما يجده الرجل وهي امرأة حسناء جميلة حتى لان لها لما يرى من كلفها به فهم بها ثم إن الله تدارك عبده يوسف بالبرهان الذي ذكره وسيأتي الكلام على تفسير البرهان الذي رآه يوسف عليه الصلاة والسلام فهذا ما قاله المفسرون في هذه الآية أما المقام الثاني في تبرئة يوسف عليه الصلاة والسلام عن هذه الرذيلة وبيان عصمته من هذه الخطيئة التي ينسب إليها قال بعض المحققين الهم همان فهم ثابت وهو ما كان معه عزم وقصد وعقيدة رضى مثل هم امرأة العزيز فالعبد مأخوذ به وهم عارض وهو الخطرة في القلب وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف فالعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل به ويدل على صحة هذا ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له عشرة لفظ مسلم وللبخاري بمعناه (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه عز وجل قال إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هم بها وعملها كتبها الله له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبها الله له عنده حسنة وإن هو هم بها فعملها كتبها الله عليه سيئة واحدة زاد في رواية أو محاها ولن يهلك على الله إلا هالك قال القاضي عياض في كتابه الشفاء فعلى مذهب كثير من الفقهاء والمحدثين أن هم النفس لا يؤاخذ به وليس سيئة وذكر الحديث المتقدم فلا معصية في هم يوسف إذا وأما على مذهب المحققين من الفقهاء والمتكلمين فإن الهم إذا وطنت عليه النفس كان سيئة وأما ما لم توطن عليه النفس من همومها وخواطرها فهو المعفو عنه هذا هو الحق فيكون إن شاء الله هم يوسف من هذا ويكون قوله وما أبرئ نفسي الآية أي ما أبرئها من هذا الهم أو يكون ذلك على طريق التواضع والاعتراف بمخالفة النفس لما زكي قبل وبرئ فكيف وقد حكى أبو حاتم عن أبي عبيدة أن يوسف عليه الصلاة والسلام لم يهم وأن الكلام فيه تقديم وتأخير أي ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها وقال تعالى حاكيا عن المرأة ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وقال تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء وقال تعالى وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله الآية وقيل في قوله وهم بها أي بزجرها ووعظها وقيل هم بها أي همها امتناعه وقيل هم بها أي نظر إليها وقيل هم بضربها ودفعها وقيل هذا كله كان قبل نبوته وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يملن إلى يوسف ميل شهوة زليخا حتى نبأه الله فألقى عليه هيبة النبوة فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه هذا آخر كلام القاضي عياض رحمه الله وأما الإمام فخر الدين فذكر في هذا المقام كلاما طويلا مبسوطا وأنا أذكر بعضه ملخصا فأقول قال الإمام فخر الدين الرازي إن يوسف عليه الصلاة والسلام كان بريئا من العمل الباطل والهم المحرم وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين وبه نقول وعنه نذب فإن الدلائل قد دلت على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا يلتفت إلى ما نقله بعض المفسرين عن الأئمة المتقدمين فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة استعظموها وأتبعوها بإظهار الندامة والتوبة والاستغفار كما ذكر عن آدم عليه السلام في قوله ربنا ظلمنا أنفسنا الآية وقال في حق داود عليه الصلاة والسلام فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب

ويجوز أن يكون خارجا ومن حق القارئ إذا قدر
خروجه من حكم القسم وجعله كلاما برأسه أن يقف
على به ويبتدئ بقوله وهم بها وفيه أيضا إشعار
بالفرق بين الهمين وفسر هم يوسف بأنه حل
تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي
مستلقية على قفاها وفسر البرهان بأنه سمع
صوتا إياك وإياها مرتين فسمع ثالثا أعرض عنها
فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضا
على أنملته وهو باطل ويدل على بطلانه قوله
هي راودتني عن نفسي ولو كان ذلك منه أيضا
لما برأ نفسه من ذلك وقوله كذلك لنصرف
عنه السوء والفحشاء ولو كان كذلك لم يكن
السوء مصروفا عنه وقوله ذلك ليعلم أني لم أخنه
بالغيب ولو كان كذلك لخانه بالغيب وقوله
ما علمنا عليه من سوء الآن حصحص الحق أنا
راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ولأنه لو وجد
منه ذلك لذكرت توبته واستغفاره كما كان لآدم
ونوح وذي النون وداود عليهم السلام وقد
سماه الله مخلصا فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك
المقام وجاهد نفسه مجاهدة أولي العزم ناظرا في
دلائل التحريم حتى استحق من الله الثناء

واما يوسف عليه الصلاة والسلام فلم يحك عنه شيئا من ذلك فى هذه الواقعة لانه لو صدر منه شئ لاتبعه بالتوبة والاستغفار ولواتى بالتوبة لحكى الله ذلك عنه فى كتابه كما ذكر عن غيره من الانبياء وحيث لم يحك عنه شيئا علمنا براءته مما قيل فيه ولم يصدر عنه شئ كما نقله اصحاب الاخبار ويدل على ذلك ايضا ان كل من كان له تعلق بهذه الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام كما نسب اليه واعلم ان الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف والمرأة وزوجها والنسوة اللاتى قطعن ايديهن والمولود الذى شهد على القميص شهدوا ببراءته والله تعالى شهد ببراءته من الذنب ايضا اما بيان ان يوسف ادعى براءته مما نسب اليه فقوله هى راودتنى عن نفسى وقوله رب السجن احب الى مما يدعوننى اليه واما بيان ان المراة اعترفت على نفسها واعترفت ببراءة يوسف ونزاهته فقولها انا راودته عن نفسه فاستعصم وقولها الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين واما بيان ان زوج المرأة اعترف ايضا ببراءة يوسف فقوله انه من كيدكن ان كيدكن عظيم يوسف اعرض عن هذا واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين واما شهادة المولود ببراءته فقوله وشهد شاهد من أهلها الآية وأما شهادة الله له بذلك فقوله تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين ومن كان كذلك فليس للشيطان عليه سلطان بدليل قوله لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين وبطل بهذا قول من قال ان الشيطان جرى بينهما حتى أخذ بجيده وجيد المرأة حتى جمع بينهما فانه قول منكر لا يجوز لاحد أن يقول ذلك وأما ماروى عن ابن عباس انه جلس منها مجلس الخائن فحاشى ابن عباس ان يقول مثل هذا عن يوسف عليه الصلاة والسلام ولعل بعض أصحاب القصص وأصحاب الاخبار وضعوه على ابن عباس وكذلك ماروى عن مجاهد وغيره أيضا فانه لا يكاد يصح بسند صحيح وبطل ذلك كله وثبت ما بيناه من براءة يوسف عليه الصلاة والسلام من هذه الرذيلة والله أعلم بمراده واسرار كتابه وما صدر من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام * فان قلت فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله عزوجل لولا أن رأى برهان ربه فائدة * قلت فيه اعظم الفوائد وبيانه من وجهين احدهما انه تعالى اعلم يوسف انه لو هم بدفعها لقتلته فأعلمه بالبرهان ان الامتناع من ضربها اولى صونا للنفس عن الهلاك الوجه الثانى انه عليه الصلاة والسلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه لتعلقت به فكاد فى ذلك ان يتمزق ثوبه من قدام وكان فى علم الله ان الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن واذا تمزق من خلف كانت هى الخائنة فأعلمه الله بالبرهان هذا المعنى فلم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هاربا فأثبت بذلك الشاهد حجة له لا عليه وأما تفسير البرهان على ماذكره المفسرون فى قوله تعالى لولا ان رأى برهان ربه فقال قتادة واكثر المفسرين ان يوسف رأى صورة يعقوب عليه السلام وهو يقول له يا يوسف اتعمل عمل السفهاء وانت مكتوب من الانبياء وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عاضا على اصبعه وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل له يعقوب فضرب بيده فى صدره فخرجت شهوته من أنامله وقال السدى نودى يا يوسف اتواقعها انما مثلك مالم تواقعها مثل الطير فى جو السماء لا يطاق عليه وان مثلك ان واقعتها كمثله اذا وقع على الارض لا يستطيع ان يدفع عن نفسه شيئا ومثلك مالم تواقعها مثل الثور الصعب الذى لا يطاق ومثلك ان واقعتها كمثله اذا مات ودخل النمل فى قرنه لا يستطيع ان يدفع عن نفسه وقيل انه رأى معصما بلا عضد عليه مكتوب وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون فولى هاربا ثم رجع فعاد المعصم وعليه مكتوب ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا فولى هاربا ثم عاد فرأى ذلك الكف وعليه مكتوب واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله الآية ثم عاد فقال الله تعالى لجبريل عليه السلام ادرك عبدى يوسف قبل ان يصيب الخطيئة فانحط جبريل عاضا على اصبعه يقول يا يوسف اتعمل عمل السفهاء وانت مكتوب عند الله من الانبياء وقيل انه مسه بجناحه فخرجت شهوته من انامله قال محمد بن كعب

القرظي رفع يوسف رأسه الى سقف البيت فرأى كتابا في حائط فيه ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا وفي رواية عن ابن عباس انه رأى مثال الملك وعن علي بن الحسن قال كان في البيت صنم فقامت المرأة اليه وسترته بثوب فقال لها يوسف عليه السلام لم فعلت هذا فقالت استحييت منه أن يراني على معصية فقال لها يوسف أتستحين ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه شيئا وأنا أحق ان استحي من ربي فهرب فذلك قوله لولا ان رأى برهان ربه أما المحققون فقد فسروا البرهان بوجوه الاول قال جعفر بن محمد الصادق البرهان هو النبوة التي جعلها الله تعالى في قلبه حالت بينه وبين ما يسخط الله عز وجل الثاني البرهان حجة الله عز وجل على العبد في تحريم الزنا والعلم بما على الزاني من العقاب الثالث ان الله عز وجل طهر نفوس الانبياء عليهم الصلاة والسلام من الاخلاق الذميمة والافعال الرذيلة وجبلهم على الاخلاق الشريفة الطاهرة المقدسة فتلك الاخلاق الطاهرة الشريفة تحجزهم عن فعل ما لا يليق فعله (كذلك) يعني كما أريناه البرهان كذلك (لنصرف عنه السوء) يعني الاثم (والفحشاء) يعني الزنا وقيل السوء مقدمات الفحشاء وقيل السوء الثناء القبيح فصرف الله عنه ذلك كله وجعله من عباده المخلصين وهو قوله (انه) يعني يوسف (من عبادنا المخلصين) قرئ بفتح اللام ومعناه انه من عبادنا الذين اصطفيناهم بالنبوة واخترناهم على غيرهم وقرئ بكسر اللام ومعناه انه من عبادنا الذين اخلصوا الطاعة لله عز وجل قوله تعالى (واستبقا الباب) وذلك ان يوسف عليه الصلاة والسلام لما رأى البرهان قام هاربا مبادرا الى الباب وتبعته المرأة لتمسك عليه الباب حتى لا يخرج والمسابقة طلب السبق فسبق يوسف وأدركته المرأة فتعلقت بقميصه من خلفه وجذبته اليها حتى لا يخرج فذلك قوله عز وجل (وقدت قميصه من دبر) يعني شقته من خلف فغلبها يوسف فخرج وخرجت خلفه (وألفيا سيدها لدى الباب) يعني فلما خرجا وجدا زوج المرأة قطفير وهو العزيز عند الباب جالسا مع ابن عم المرأة فلما رأته المرأة هابته وخافت التهمة فسبقت يوسف بالقول (قالت) يعني لزوجها (ما جزاء من أراد بأهلك سوءا) يعني الفاحشة ثم خافت عليه ان يقتل وذلك لشدة حبها له فقالت (الا أن يسجن) أي يحبس في السجن ويمنع التصرف (أو عذاب أليم) يعني الضرب بالسياط وانما بدأت بذكر السجن دون العذاب لان المحب لا يشتهي ايلام المحبوب وانما ارادت أن يسجن عندها يوما أو يومين ولم ترد السجن الطويل وهذه لطيفة فافهمها فلما سمع يوسف مقالتها أراد ان يبرهن عن نفسه (قال) يعني يوسف (هي راودتني عن نفسي) يعني طلبت مني الفحشاء فأبيت وفررت وذلك ان يوسف عليه الصلاة والسلام ما كان يريد ان يذكر هذا القول ولا يهتك سترها ولكن لما قالت هي ما قالت ولطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه فقال هي راودتني عن نفسي (وشهد شاهد من أهلها) يعني وحكم حاكم من اهل المرأة واختلفوا في ذلك الشاهد فقال سعيد ابن جبير والضحاك كان صبيا في المهد فأنطقه الله عز وجل وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال تكلم اربعة وهم صغار ابن ماشطة ابنة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم ذكره البغوي بغير سند والذي جاء في الصحيحين ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج وابن المرأة وقصتهم مخرجة في الصحيح قيل كان هذا الصبي شاهد يوسف ابن خال المرأة وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد لم يكن صبيا ولكنه كان رجلا حكيما ذا رأي وقال السدي هو ابن عم المرأة فحكم فقال (ان كان قميصه قد من قبل) اي من قدام (فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر) اي من خلف (فكذبت وهو من الصادقين) وانما كان هذا الشاهد من اهل المرأة ليكون اقوى في نفي التهمة عن يوسف عليه الصلاة والسلام مع ما وجد من كثرة العلامات الدالة على صدق يوسف عليه الصلاة والسلام ونفي التهمة عنه من وجوه * منها انه كان في الظاهر مملوك هذه المرأة والمملوك لا ينبسط يده الى سيدته * ومنها انهم شاهدوا يوسف يعدو هاربا

ومحل الكاف في (كذلك) نصب أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه او رفع أي الامر مثل ذلك (لنصرف عنه السوء) خيانة السيد (والفحشاء) الزنا (انه من عبادنا المخلصين) بفتح اللام حيث كان مدني وكوفي أي الذين أخلصهم الله لطاعته وبكسرها غيرهم أي الذين أخلصوا دينهم لله ومعنى من عبادنا بعض عبادنا اي هو مخلص من جملة المخلصين (واستبقا الباب) وتسابقا الى الباب هي للطلب وهو للهرب على حذف الجار وايصال الفعل كقوله واختار موسى قومه أو على تضمين استبقا معنى ابتدرا نفر منها يوسف فأسرع يريد الباب ليخرج واسرعت وراءه لتمنعه الخروج ووحد الباب وان كان جمعه في قوله وغلقت الابواب لانه اراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار ولما هرب يوسف جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج (وقدت قميصه من دبر) اجتذبته من خلفه فانقد أي انشق حين هرب منها الى الباب وتبعته تمنعه (وألفيا سيدها لدى الباب) وصادفا بعلها قطفير مقبلا يريد ان يدخل فلما رأته احتالت لتبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة ولتخويف يوسف طمعا في ان يواطئها خيفة منها ومن مكرها حيث (قالت ما جزاء من اراد بأهلك سوءا الا ان يسجن او عذاب اليم) ما نافية اي ليس جزاؤه الا السجن او عذاب اليم وهو الضرب بالسياط ولم تصرح بذكر يوسف وانه اراد بها سوءا لانها قصدت العموم أي كل من اراد بأهلك سوءا فحقه ان يسجن او يعذب لان ذلك ابلغ فيما قصدت من تخويف يوسف ولما عرضته للسجن والعذاب ووجب عليه الدفع عن نفسه (قال هي راودتني عن نفسي) ولولا ذلك لكتم عليها ولم يفضحها (وشهد شاهد من اهلها) هو ابن عم لها وانما القى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها لتكون اوجب للحجة عليها واوثق لبراءة يوسف وقيل كان ابن خال لها وكان صبيا في المهد وسمى قوله شهادة لانه ادى مؤدى الشهادة في ان ثبت به قول يوسف وبطل قولها (ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) والتقدير وشهد شاهد فقال ان

منها والطالب لا يهرب * ومنها انهم رأوا المرأة قد تزينت بأكمل الوجوه فكان الحاق التهمة بها اولى
ومنها انهم عرفوا يوسف فى المدة الطويلة فلم يروا عليه حالة تناسب اقدامه على مثل هذه الحالة فكان
مجموع هذه العلامات دلالة على صدقه مع شهادة الشاهد له بصدقها ايضا (فلما رأى قميصه قد من دبر)
يعنى فلما رأى قطفير زوج المرأة قميص يوسف عليه الصلاة والسلام قد من خلفه عرف خيانة امرأته
وبراءة يوسف عليه الصلاة والسلام (قال) يعنى قال لها زوجها قطفير (انه) يعنى هذا الصنيع
من كيدكن) يعنى من حيلكن ومكركن (ان كيدكن عظيم) فان قلت كيف وصف كيد النساء بالعظم
مع قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا وهلا كان مكر الرجال اعظم من مكر النساء * قلت اما كون الانسان
خلق ضعيفا فهو بالنسبة الى خلق ما هو اعظم منه كخلق الملائكة والسموات والارض والجبال ونحو ذلك
واما اعظم كيد النساء ومكرهن فى هذا الباب فهو اعظم من كيد جميع البشر لان لهن من المكر
والحيل فى اتمام مرادهن ما لا يقدر عليه الرجال فى هذا الباب وقيل ان قوله انه من كيدكن ان كيدكن
عظيم من قول الشاهد وذلك انه لما ثبت عنده خيانة المرأة وبراءة يوسف عليه الصلاة والسلام قال هذه
المقالة (يوسف) يعنى يا يوسف (اعرض عن هذا) يعنى اترك هذا الحديث فلا تذكره لاحد
حتى لا يفشو ويشيع وينتشر بين الناس وقيل معناه يا يوسف لا تكترث بهذا الامر ولا تهتم به فقد
بان عذرك وبراءتك ثم التفت الى المرأة فقال لها (واستغفرى لذنبك) يعنى توبى الى الله مما رميت
يوسف به من الخطيئة وهو برئ منها وقيل ان هذا من قول الشاهد يقول للمرأة سلى زوجك ان يصفح
عنك ولا يعاقبك بسبب ذنبك (انك كنت من الخاطئين) يعنى من المذنبين حين خنت زوجك ورميت
يوسف بالتهمة وهو برئ * وانما قال من الخاطئين ولم يقل من الخاطئات تغليبا لجنس الرجال على النساء
وقيل انه لم يقصد به الخبر عن النساء بل قصد الخبر عن كل من يفعل هذا الفعل تقديره انك كنت من
القوم الخاطئين فهو كقوله وكانت من القانتين قوله عز وجل (وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود
فتاها عن نفسه) يعنى وقال جماعة من النساء وكن خمسا وقيل كن اربعا وذلك لما شاع خبر يوسف
والمرأة فى مدينة مصر وقيل هى مدينة عين الشمس وتحدثت النساء فيما بينهن بذلك وهن امرأة
حاجب الملك وامرأة صاحب دوابه وامرأة خبازه وامرأة ساقيه وامرأة صاحب سجنه وقيل نسوة من
اشراف مصر امرأة العزيز يعنى زليخا تراود فتاها عن نفسه يعنى تراود عبدها الكنعانى عن نفسه
لانها تطلب منه الفاحشة وهو يمتنع منها والفتى الشاب الحديث السن (قد شغفها حبا) يعنى قد علقها
حبا والشغاف جلدة محيطة بالقلب يقال لها غلاف القلب والمعنى ان حبه دخل الجلدة حتى اصاب
القلب وقيل ان حبه قد احاط بقلبها كاحاطة الشغاف بالقلب قال الكلبى حجب حبه قلبها حتى لا تعقل
شيئا سواه (انا لنراها فى ضلال مبين) يعنى فى خطأ بين ظاهر حيث تركت ما يجب على امثالها من
العفاف والستر واحبت فتاها (فلما سمعت بمكرهن) يعنى فلما سمعت زليخا بقولهن وما تحدثن
به وانما سمى قولهن ذلك مكرا لانهن طلبن بذلك رؤية يوسف وكان وصف لهن حسنه وجماله فقصدن
ان يرينه وقيل ان امرأة العزيز افشت اليهن سرها واستكتمتهن فافشين ذلك عليها فلذلك سماه مكرا
(ارسلت اليهن) يعنى انها لما سمعت بانهن يلمنها على محبتها ليوسف ارادت ان تقيم عذرها عندهن
قال وهب اتخذت مائدة يعنى صنعت لهن وليمة وضيافة ودعت اربعين امرأة من اشراف مدينتها
فيهن هؤلاء اللاتى عيرنها (واعتدت لهن متكأ) يعنى ووضعت لهن نمارق ومساند يتكئن عليها
وقال ابن عباس وابن جبير والحسن وقتادة ومجاهد متكأ يعنى طعاما وانما سمى الطعام متكأ لان كل
من دعوته ليطعم عندك فقد اعددت له وسائد يجلس ويتكئ عليها فسمى الطعام متكأ على الاستعارة
ويقال اتكأنا عند فلان اى طعمنا عنده والمتكأ ما يتكأ عليه عند الطعام والشراب والحديث ولذلك
جاء النهى عنه فى الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم لا آكل متكئا وقيل المتكأ الاترج وقيل

وانما دل قد قميصه من قبل على
كان قميصه
انها صادقة لانه يسرع خلفها ليلحقها فيعثر
فى مقادم قميصه فيشقه ولانه يقبل عليها وهى
تدفعه عن نفسها فيتخرق القميص من قبل
واما تنكير قبل ودبر فمعناه من جهة يقال لها
قبل ومن جهة يقال لها دبر وانما جمع بين ان التى
للاستقبال وبين كان لان المعنى ان يعلم انه
كان قميصه قد (فلما رأى) قطفير (قميصه قد من
دبر) وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها (قال انه)
ان قولك ما جزاء من اراد باهلك سوءا او ان
هذا الامر وهو الاحتيال لنيل الرجال (من
كيدكن) الخطاب لها ولامتها (ان كيدكن عظيم)
لانهن الطف كيدا واعظم حيلة وبذلك يغلبن
الرجال والقصريات منهن معهن ما ليس مع غيرهن
من البوائق وعن بعض العلماء انى اخاف
من النساء اكثر مما اخاف من الشيطان لان
الله تعالى قال ان كيد الشيطان كان
ضعيفا وقال لهن ان كيدكن عظيم (يوسف)
حذف منه حرف النداء لانه منادى قريب
مفاطن للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله
(اعرض عن هذا) الامر واكتمه ولا تحدث به
ثم قال لراعيل (واستغفرى لذنبك انك كنت
من الخاطئين) من جملة القوم المتعمدين
للذنب يقال خطئ اذا اذنب متعمدا وانما
قال بلفظ التذكير تغليبا للذكور على الاناث
وكان العزيز رجلا حليما قليل الغيرة
حيث اقتصر على هذا القول (وقال نسوة)
جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقى وامرأة
الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب
السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد
لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقى ولذا لم يقل
قالت وفيه لغتان كسر النون وضمها (فى المدينة)
فى مصر (امرأة العزيز) يردن قطفير والعزيز الملك
بلسان العرب (تراود فتاها) غلامها يقال
فتاى وفتاتى اى غلامى وجاريتى (عن نفسه)
لتنال شهوتها منه (قد شغفها حبا) تمييز اى قد

هو كل شيء يقطع بالسكين أو يحز بها يقال ان المرأة زينت البيت بألوان الفواكه والاطعمة ووضعت الوسائد ودعت النسوة اللاتي عيرنها بحب يوسف (وآتت كل واحدة منهن سكينا) يعني وأعطت كل واحدة من النساء سكينا لتأكل بها وكان من عادتهن ان يأكلن اللحم والفواكه بالسكين (وقالت اخرج عليهن) يعني وقالت زليخا ليوسف اخرج على النسوة وكان يخاف من مخالفتها فخرج عليهن يوسف وكانت قد زينته واحتبسته في مكان آخر (فلما رأينه) يعني النسوة (أكبرنه) يعني أعظمنه ودهشن عند رؤيته وكان يوسف قد أعطي شطر الحسن وقال عكرمة كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم وروى أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت ليلة اسري بي الى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر ذكره البغوي بغير سند وقال اسحاق بن أبي فروة كان يوسف اذا سار في أزقة مصر تلألأ وجهه على الجدران ويقال انه ورث حسن آدم يوم خلقه الله عز وجل قبل ان يخرج من الجنة وقال أبو العالية هالهن أمره وبهتن اليه وفي رواية عن ابن عباس قال أكبرنه أي حضن ونحوه عن مجاهد والضحاك قال حضن من الفرح وانكر أكثر أهل اللغة هذا القول قال الزجاج هذه اللفظة ليست معروفة في اللغة والهاء في أكبرنه تمنع من هذا لانه لا يجوز ان يقال النساء قد حضنه لان حضن لا يتعدى الى مفعول قال الازهري ان صحت هذه اللفظة في اللغة فلها مخرج وذلك ان المرأة اذا حاضت أول ما تحيض فقد خرجت من حد الصغار الى حد الكبار فيقال لها أكبرت أي حاضت على هذا المعنى فان صحت الرواية عن ابن عباس سلمناله وجعلنا الهاء في قوله أكبرنه هاء الوقف لا هاء الكناية وقيل ان المرأة اذا خافت أو فزعت فربما اسقطت ولدها وتحيض فان كان ثم حيض فربما كان من فزعهن وما هالهن من أمر يوسف حين رأينه قال الامام فخر الدين الرازي وعندي انه يحتمل وجها آخر وهو انهن انما أكبرنه لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والاخبات وشاهدن فيه مهابة وهيبة ملكية وهي عدم الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان ذلك الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلاجرم أكبرنه وأعظمنه ووقع الرعب والمهابة في قلوبهن قال وحمل الآية على هذا الوجه أولى (وقطعن أيديهن) يعني وجعلن يقطعن أيديهن بالسكاكين التي معهن وهن يحسبن انهن يقطعن الاترج ولم يجدن الالم لدهشتهن وشغل قلوبهن بيوسف قال مجاهد فما احسسن الا بالدم وقال قتادة أبن ايديهن حتى القينها والاصح انه كان قطعا من غير ابانة وقال وهب ماتت جماعة منهن (وقلن) يعني النسوة (حاش لله ما هذا بشرا) أي معاذ الله ان يكون هذا بشرا (ان هذا الا ملك كريم) يعني على الله والمقصود من هذا اثبات الحسن العظيم المفرط ليوسف لانه قد ركز في النفوس ان لا شيء احسن من الملك فلذلك وصفنه بكونه ملكا وقيل لما كان الملك مطهرا من بواعث الشهوة وجميع الآفات والحوادث التي تحصل للبشر وصفن يوسف بذلك قوله تعالى (قالت فذلكن الذي لمتنني فيه) يعني قالت امرأة العزيز للنسوة لما رأين يوسف ودهشن عند رؤيته فذلكن الذي لمتنني في محبته وانما قالت ذلك لاقامة عذرها عندهن حين قلن ان امرأة العزيز قد شغفها فتاها الكنعاني حبا وانما قالت فذلكن الخ بعد ما قام من المجلس وذهب وقال صاحب الكشاف قالت فذلكن ولم تقل فهذا وهو حاضر رفعا لمنزلته في الحسن واستحقاق ان يحب ويفتتن به ويجوز ان يكون اشارة الى المعنى بقولهن عشقت عبدها الكنعاني تقول هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في انفسكن ثم لمتنني فيه ثم ان امرأة العزيز صرحت بما فعلت فقالت (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) يعني فامتنع من ذلك الفعل الذي طلبته منه وانما صرحت بذلك لانها علمت انه لا ملامة عليها منهن وانهن قد أصابهن ما أصابها عند رؤيته ثم ان امرأة العزيز قالت (ولئن لم يفعل ما آمره) يعني وان لم يطاوعني فيما دعوته اليه (ليسجنن) أي ليعاقبن بالسجن والحبس (وليكونا من

شغفها حبه يعني خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل الى الفؤاد والشغاف حجاب القلب او جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب (انا لنراها في ضلال مبين) في خطأ وبعد عن طريق الصواب (فلما سمعت) راعيل (بمكرهن) باغتيابهن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ومقتها وسمي الاغتياب مكرا لانه في خفية وحال غيبة كما يخفي الماكر مكره وقيل كانت استكتمتهن سرها فافشينه عليها (ارسلت اليهن) دعتهن قيل دعت اربعين امرأة منهن الخمس المذكورات (واعتدت) وهيأت افتعلت من العتاد (لهن متكأ) ما يتكئن عليه من نمارق قصدت بتلك الهيئة وهي قعودهن متكئات والسكاكين في أيديهن ان يدهشن عند رؤيته ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها لان المتكئ اذا بهت لشيء وقعت يده على يده (وآتت كل واحدة منهن سكينا) وكانوا لا يأكلون في ذلك الزمان الا بالسكاكين كفعل الاعاجم (وقالت اخرج عليهن) بكسر التاء بصري وعاصم وحمزة وبضمها غيرهم (فلما رأينه أكبرنه) عظمنه وهبن ذلك الحسن الرائق والجمال الفائق وكان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء وكان اذا سار في ازقة مصر يرى تلألؤ وجهه على الجدران وكان يشبه آدم يوم خلقه ربه وقيل ورث الجمال من جدته سارة وقيل أكبرن بمعنى حضن والهاء للسكت اذ لا يقال النساء قد حضنه لانه لا يتعدى الى مفعول يقال أكبرت المرأة اذا حاضت وحقيقته دخلت في الكبر لانها بالحيض تخرج من حد الصغر وكان ابا الطيب اخذ من هذا التفسير قوله * خف الله واستر ذا الجمال ببرقع * فان لحت حاضت في الخدور العواتق * (وقطعن ايديهن) وجرحنها كما تقول كنت اقطع اللحم فقطعت يدي تريد جرحتها اي اردن ان يقطعن الطعام الذي في ايديهن فدهشن لما رأينه فخدشن ايديهن (وقلن حاش لله) حاشا كلمة تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء تقول اساء القوم حاشا زيد وهي حرف من حروف الجر فوضعت موضع التنزيه والبراءة فمعنى حاشا الله براءة الله وتنزيه الله وقراءة ابي عمرو حاشا لله نحو قولك سقيا لك كانه قال براءة ثم قال لله لبيان من يبرئ وينزه وغيره حاش لله بحذف الالف الاخيرة والمعنى تنزيه الله من صفات العجز والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله (ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم) نفين عنه البشرية لغرابة جماله وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم لما ركز في الطباع ان لا أحسن من الملك كما ركز فيها ان لا اقبح من الشيطان (قالت فذلكن الذي لمتنني فيه) تقول هو ذلك العبد الكنعاني الذي صورتن في انفسكن ثم لمتنني فيه تعني انكن لم تصورنه

الصاغرين

الصاغرين) يعني من الاذلاء المهانين فقال النسوة ليوسف أطع مولاتك فيما دعتك اليه فاختار يوسف السجن على المعصية حين توعدته المرأة بذلك (قال رب) أي يارب (السجن احب الى مما يدعونني اليه) قيل ان الدعاء كان منها خاصة وانما اضافه اليهن جميعا خروجا من التصريح الى التعريض وقيل انهن جميعا دعونه الى أنفسهن وقيل انهن لما قلن له أطع مولاتك صحت اضافة الدعاء اليهن جميعا أولانه كان بحضرتهن قال بعضهم لو لم يقل السجن احب الى لم يبتل بالسجن والاولى بالعبد ان يسأل الله العافية (والا تصرف عنى كيدهن) يعني ما اردن منى (اصب اليهن) أي أميل اليهن يقال صبا فلان الى كذا اذا مال اليه واشتاقه (وا كن من الجاهلين) يعني من المذنبين وقيل معناه اكن ممن يستحق صفة الذم بالجهل وفيه دليل على ان من ارتكب ذنبا انما يرتكبه عن جهالة (فاستجاب له ربه) يعني فأجاب الله تعالى دعاء يوسف (فصرف عنه كيدهن انه هو السميع) يعني لدعاء يوسف وغيره (العليم) يعني بحاله وفى الاية دليل على أن يوسف عليه الصلاة والسلام لما أطلته البلية بكيد النساء ومطالبتهن اياه بما لا يليق بحاله لجأ الى الله وفزع الى الدعاء رغبة الى الله ليكشف عنه ما نزل به من ذلك الامر مع الاعتراف بانه ان لم يعصمه من المعصية وقع فيها فدل ذلك على انه لا يقدر أحد عن الانصراف عن المعصية الا بعصمة الله ولطفه به قوله عز وجل (ثم بدا لهم) يعني للعزيز وأصحابه فى الرأى وذلك انهم لما ارادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الاعراض وكتم الحال وذلك ان المرأة قالت لزوجها ان ذلك العبد العبرانى قد فضحنى عند الناس يخبرهم بانى قد راودته عن نفسه فاما ان تأذن لى فأخرج واعتذر الى الناس واما ان تحبسه فرأى حبسه (من بعد ما رأوا الآيات) يعني الدالة على صدق يوسف وبراءته من قد القميص وكلام الطفل وقطع النساء أيديهن وذهاب عقولهن عند رؤيته (ليسجننه) أى ليحبسن يوسف فى السجن (حتى حين) يعني الى مدة يرون رايهم فيها وقال عطاء الى ان تنقطع مقالة الناس وقال عكرمة الى سبع سنين وقال الكلبى خمس سنين فحبسه قال السدى جعل الله ذلك الحبس تطهيرا ليوسف من همه بالمرأة (ودخل معه السجن فتيان) وهما غلامان كانا للوليد بن نزوان العمليق ملك مصر الاكبر أحدهما خبازه وصاحب طعامه والآخر ساقيه وصاحب شرابه وكان قد غضب عليهما الملك فحبسهما وكان السبب فى ذلك ان جماعة من اشراف مصر ارادوا المكر بالملك واغتياله وقتله فضمنوا لهذين الغلامين مالا على ان يسما الملك فى طعامه وشرابه فأجابا الى ذلك ثم ان الساقى ندم فرجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر الطعام بين يدى الملك قال الساقى لا تأكل ايها الملك فان الطعام مسموم وقال الخباز لا تشرب فان الشراب مسموم فقال للساقى اشرب فشربه فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فابى فأطعم من ذلك الطعام دابة فهلكت فأمر الملك بحبسهما فحبسا مع يوسف وكان يوسف لما دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول انى اعبر الاحلام فقال أحد الغلامين لصاحبه هلم فلنجرب هذا الغلام العبرانى نتراءا له رؤيا فسألاه من غير ان يكونا قد رأيا شيئا قال ابن مسعود ما رأيا شيئا انما تحالما ليجربا يوسف وقال قوم بل كانا قد رأيا رؤيا حقيقة فرآهما وهما مهمومان فسألهما عن شأنهما فذكرا انهما غلامان للملك وقد حبسهما وقد رأيا رؤيا قد غمتهما فقال يوسف قصا على ما رأيتما فقصا عليه ما رأياه فذلك قوله تعالى (قال أحدهما) وهو صاحب شراب الملك (انى أرانى أعصر خمرا) يعني عنبا سمى العنب خمرا باسم ما يؤل اليه يقال فلان يطبخ الآجر أى يطبخ اللبن حتى يصير آجرا وقيل الخمر العنب بلغة عمان وذلك انه قال انى رأيت فى المنام كأنى فى بستان واذا فيه صاحب له وفيه شجرة وعليها ثلاثة عناقيد عنب فجنيتها وكان كأس الملك فى يدى فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه (وقال الآخر) وهو صاحب طعام الملك (انى أرانى احمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه) وذلك انه قال انى رأيت فى المنام كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها الخبز والوان الاطعمة وسباع الطير تنهش منها (نبئنا بتأويله) اى اخبرنا بتفسير ما رأينا وما يؤل اليه أمر هذه الرؤيا (انا نراك من المحسنين)

نق صورته والالعذرتنى فى الافتتان به (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) الاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كانه فى عصمة وهو مجتهد فى الاستزادة منها وهذا بيان جلى على ان يوسف عليه السلام بريء مما قذف به أولئك الفريق الهم والبرهان ثم قلن له اطع مولاتك فقالت راعيل (ولئن لم يفعل ما آمره) الضمير راجع الى ما وهى موصولة والمعنى ما آمره به فحذف الجار كما فى قوله امرتك الخير أوما مصدرية والضمير يرجع الى يوسف اى ولئن لم يفعل أمرى اياه أى موجب امرى ومقتضاه (ليسجنن) ليحبسن والالف فى (وليكونا) بدل من نون التأكيد الخفيفة (من الصاغرين) مع السراق والسفاك والاباق كما سرق قلبى وابق منى وسفك دمى بالفراق فلا يهنأ ليوسف الطعام والشراب والنوم هنالك كما منعنى هنا كل ذلك ومن لم يرض بمثلى فى الحرير على السرير اميرا حصل فى الحصير على الحصير حسيرا فلما سمع يوسف تهديدها (قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه) أسند الدعوة اليهن لانهن قلن له ما عليك لو أجبت مولاتك أو افتتنت كل واحدة به فدعته الى نفسها سرا فالتجأ الى ربه قال رب السجن أحب الى من ركوب المعصية (والا تصرف عنى كيدهن) فزع منه الى الله فى طلب العصمة (أصب اليهن) أمل اليهن والصبوة الميل الى الهوى ومنه الصبا لان النفوس تصبو اليها لطيب نسيمها وروحها (وأكن من الجاهلين) من الذين لا يعملون بما يعلمون لان من لا جدوى لعلمه فهو ومن لم يعلم سواء أو من السفهاء فلما كان فى قوله والا تصرف عنى كيدهن معنى طلب الصرف والدعاء قال (فاستجاب له ربه) أى اجاب الله دعاءه (فصرف عنه كيدهن انه هو السميع) لدعوات الملتجئين اليه (العليم) بحاله وحالهن (ثم بدا لهم) فاعله مضمر لدلالة ما يفسره عليه وهو ليسجننه والمعنى بدا لهم بداء أى ظهر لهم رأى والضمير فى لهم للعزيز وأهله (من بعد ما رأوا الآيات) وهى الشواهد على براءته كقد القميص وقطع الايدى وشهادة الصبى وغير ذلك (ليسجننه) لابداء عذر الحال وارخاء الستر على القيل والقال وما كان ذلك الا باستنزال المرأة لزوجها وكان مطواعا لها وجملا ذلولا زمامه فى يدها وقد طمعت ان يذلله السجن ويسخره لها أو خافت عليه العيون وظنت فيه الظنون فألجأها الخجل من الناس والوجل من الياس الى ان رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب لتشتفى بخبره اذا منعت من نظره (حتى حين) الى زمان كأنها اقترحت ان يسجن زمانا حتى تبصر ما يكون منه (ودخل معه السجن فتيان) عبدان للملك

خبازه وشرابيه بتهمة السم فأدخلا السجن ساعة ادخل يوسف لان مع يدل على معنى الصحبة تقول خرجت مع الامير تريد مصاحبا له فيجب ان يكون دخولهما السجن مصاحبين له (قال أحدهما) أى شرابيه (انى أرانى) أى فى المنام وهى حكاية حال ماضية (أعصر خمرا) أى عنبا تسمية للعنب بما يؤل اليه أو الخمر بلغة عمان اسم للعنب (وقال الآخر) أى خبازه (انى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله) بتأويل ما رأيناه (انا نراك من المحسنين) من الذين يحسنون عبارة الرؤيا أو من المحسنين الى أهل السجن فانك تداوى المريض وتعزى الحزين وتوسع على الفقير فأحسن الينا بتأويل ما رأينا وقيل انهما تحالماله ليمتحناه فقال الشرابى انى رأيت كأنى فى بستان فاذا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطفتها وعصرتها فى كأس الملك وسقيته وقال الخبازانى رأيت كأن فوق رأسى ثلاث سلال فيها أنواع الاطعمة فاذا سباع الطير تنهش منها (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله) اى ببيان ماهيته وكيفيته لان ذلك يشبه تفسير المشكل (قبل ان يأتيكما) ولما استعبراه ووصفاه بالاحسان افترص ذلك فوصل به وصف نفسه بما هو فوق علم العلماء وهو الاخبار بالغيب وأنه ينبئهما بما يحمل اليهما من الطعام فى السجن قبل ان يأتيهما ويصفه لهما ويقول اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيكون كذلك وجعل ذلك تخلصا الى ان يذكر لهما التوحيد ويعرض عليهما الايمان ويزينه لهما ويقبح اليهما الشرك وفيه ان العالم اذا جهلت منزلته فى العلم فوصف نفسه بما هو بصدده وغرضه ان يقتبس منه لم يكن من باب التزكية (ذلكما) اشارة لهما الى التأويل أى ذلك التأويل والاخبار بالمغيبات (مما علمنى ربى) وأوحى به الى ولم اقله عن تكهن وتنجم (انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) يجوز ان يكون كلاما مبتدأ وأن يكون تعليلا لما قبله أى علمنى ذلك وأوحى به الى لانى رفضت ملة اولئك وهم أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم (واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب) وهى الملة الحنيفية وتكريرهم للتوكيد وذكر الآباء ليريهما انه من بيت النبوة بعد ان عرفهما انه نبى بما ذكر من اخباره بالغيوب ليقوى رغبتهما فى اتباع قوله والمراد به ترك الابتداء لا أنه كان فيه ثم تركه (ما كان لنا) ما صح لنا معشر الانبياء (ان نشرك بالله من شئ) اى شئ كان صنما وغيره ثم قال

يعنى من العالمين بعبارة الرؤيا والاحسان هنا بمعنى العلم وسئل الضحاك ما كان احسانه فقال كان اذا مرض انسان فى الحبس عاده وقام عليه واذا ضاق على احد وسع عليه واذا احتاج أحد جمع له شيئا وكان مع هذا يجتهد فى العبادة يصوم النهار ويقوم الليل كله للصلاة وقيل انه لما دخل السجن وجد فيه قوما اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يسليهم ويقول اصبروا وابشروا فقالوا بارك الله فيك يا فتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا فى جوارك من أين أنت قال انا يوسف ابن صفى الله يعقوب بن ذبيح الله اسحاق بن خليل الله ابراهيم فقال له صاحب السجن يا فتى والله لو استطعت لخليت سبيلك ولكن سأرفق بك وأحسن جوارك واختر أى بيوت السجن شئت وقيل ان الفتيين لما رأيا يوسف قالا انا قد أحببناك منذ رأيناك فقال لهما يوسف أنشدكما بالله لا تحبانى فوالله ما احبنى أحد قط الا دخل على من حبه بلاء لقد احبتنى عمتى فدخل على من ذلك بلاء واحبنى ابى فألقيت فى الجب واحبتنى امرأة العزيز فحبست فلما قصا عليه رؤياهما كره يوسف ان يعبرها لهما حين سألاه لما علم ما فى ذلك من المكروه لاحدهما وأعرض عن سؤالهما وأخذ فى غيره من اظهار المعجزة والنبوة والدعاء الى التوحيد وقيل انه عليه السلام اراد ان يبين لهما ان درجته فى العلم اعلى واعظم مما اعتقدا فيه وذلك انهما طلبا منه علم التعبير ولا شك ان هذا العلم مبنى على الظن والتخمين فأراد ان يعلمهما انه يمكنه الاخبار عن المغيبات على سبيل القطع واليقين وذلك مما يعجز الخلق عنه واذا قدر على الاخبار عن الغيوب كان اقدر على تعبير الرؤيا بطريق الاولى وقيل انما عدل عن تعبير رؤياهما الى اظهار المعجزة لانه علم ان احدهما سيصلب فأراد ان يدخله فى الاسلام ويخلصه من الكفر ودخول النار فأظهر له المعجزة لهذا السبب (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله) قيل اراد به فى النوم يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه فى نومكما الا اخبرتكما خبره فى اليقظة وقيل أراد به فى اليقظة يقول لا يأتيكما طعام من منزلكما ترزقانه يعنى تطعمانه وتأكلانه الا نبأتكما بتأويله يعنى اخبرتكما بقدره ولونه والوقت الذى يصل اليكما فيه (قبل ان يأتيكما) يعنى قبل ان يصل اليكما وأى طعام اكلتم وكم أكلتم ومتى اكلتم وهذا مثل معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام حيث قال وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم فقالا ليوسف عليه الصلاة والسلام هذا من علم العرافين والكهنة فمن اين لك هذا العلم فقال ما انا بكاهن ولا عراف وانما ذلك اشارة الى المعجزة والعلم الذى اخبرهما به (ذلكما مما علمنى ربى) يعنى ان هذا الذى اخبرتكما به وحى من الله اوحاه الى وعلم علمنيه (انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله) فان قلت ظاهر قوله انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله انه عليه الصلاة والسلام كان داخلا فى هذه الملة ثم تركها وليس الامر كذلك لان الانبياء عليهم الصلاة والسلام من حين ولدوا وظهروا الى الوجود وهم على التوحيد فما معنى هذا الترك فى قوله تركت * قلت الجواب من وجهين الاول ان الترك عبارة عن عدم التعرض للشئ والالتفات اليه بالمرة وليس من شرطه ان يكون قد كان داخلا فيه ثم تركه ورجع عنه الوجه الثانى وهو الاقرب ان يوسف عليه الصلاة والسلام لما كان عند العزيز وهو كافر وجميع من عنده كذلك وقد كان بينهم وكان يوسف على التوحيد الصحيح صح قوله انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله (وهم بالآخرة هم كافرون) فترك ملتهم واعرض عنهم ولم يوافقهم على ما كانوا عليه وتكرير لفظة هم فى قوله وهم بالآخرة هم كافرون للتوكيد لشدة انكارهم للمعاد وقوله (واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب) لما ادعى يوسف النبوة واظهر المعجزة أظهر انه من اهل بيت النبوة وان آباءه كلهم كانوا انبياء وقيل لما كان ابراهيم واسحاق ويعقوب مشهورين بالنبوة والرسالة ولهم الدرجة العليا فى الدنيا عند الخلق والمنزلة الرفيعة فى الآخرة أظهر يوسف عليه الصلاة والسلام انه من اولادهم وانه من أهل بيت النبوة ليسمعوا قوله ويطيعوا امره فيما يدعوهم اليه من التوحيد (ما كان لنا ان نشرك بالله من شئ) معناه ان الله تعالى لما اختارنا لنبوته واصطفانا لرسالته وعصمنا من الشرك

هـا كان ينبغي لنا ان نشرك به مع جميع هذه الاختصاصات التى اختصنا بها قال الواحدى لفظة من فى قوله من شئ زائدة مؤكدة كقولك ماجاءنى من احد وقال صاحب الكشاف ما كان لنا ما صح لنا معشر الانبياء ان نشرك بالله من شئ أى شئ كان من ملك او جنى أو انسى فضلا ان نشرك به صنما لا يسمع ولا يبصر (ذلك من فضل الله) يعنى ذلك التوحيد وعدم الاشراك والعلم الذى رزقنا من فضل الله (علينا وعلى الناس) يعنى بما نصب لهم من الادلة الدالة على وحدانيته و بين لهم طريق الهداية اليه فكل ذلك من فضل الله على عباده (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) يعنى ان اكثرهم لا يشكرون الله على هذه النعم التى انعم بها عليهم لانهم تركوا عبادته وعبدوا غيره ثم دعاهم الى الاسلام فقال (يا صاحبى السجن) يريد يا صاحبى فى السجن فأضافهما الى السجن كما تقول يا سارق الليلة لان الليلة مسروق فيها غير مسروقة ويجوز أن يريد يا ساكنى السجن كقوله أصحاب النار وأصحاب الجنة (أأرباب متفرقون) يعنى أآلهة شتى من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب وحجارة وغير ذلك وصغير وكبير ومتوسط متباينون فى الصفة وهى مع ذلك لا تضر ولا تنفع (خير أم الله الواحد القهار) يعنى أن هذه الاصنام أعظم صفة فى المدح واستحقاق اسم الالهية والعبادة أم الله الواحد القهار قال الخطابى الواحد هو الفرد الذى لم يزل وحده وقيل هو المنقطع عن القرين والمعدم الشريك والنظير وليس هو كسائر الآحاد من الاجسام المؤلفة لان ذلك قد يكثر بانضمام بعضها الى بعض والواحد ليس كذلك فهو الله الواحد الذى لا مثل له ولا يشبهه شئ من خلقه القهار قال الخطابى القهار هو الذى قهر الجبابرة من خلقه بالعقوبة وقهر الخلق كلهم بالموت وقال غيره القهار هو الذى قهر كل شئ وذلله فاستسلم وانقاد وذل له والمعنى أن هذه الاصنام التى تعبدونها ذليلة مقهورة اذا اراد الانسان كسرها واهانتها قدر عليه والله هو الواحد فى ملكه القهار لعباده الذى لا يغلبه شئ وهو الغالب لكل شئ سبحانه وتعالى ثم بين عجز الاصنام وانها لا شئ البتة فقال (ما تعبدون من دونه) يعنى من دون الله وانما قال تعبدون بلفظ الجمع وقد ابتدأ بالتثنية فى المخاطبة لانه أراد جميع من فى السجن من المشركين (الا أسماء سميتموها) يعنى سميتموها آلهة وأربابا وهى حجارة جمادات خالية عن المعنى لا حقيقة لها (انتم وآباؤكم) يعنى من قبلكم سموها آلهة (ما أنزل الله بها من سلطان) يعنى ان تسمية الاصنام آلهة لا حجة لكم بها ولا برهان ولا أمر الله بها وذلك انهم كانوا يقولون ان الله امرنا بهذه التسمية فرد الله عليهم بقوله ما انزل الله بها من سلطان (ان الحكم الا لله) يعنى ان الحكم والقضاء والامر والنهى لله تعالى لا شريك له فى ذلك (أمر ألا تعبدوا الا اياه) لانه هو المستحق للعبادة لا هذه الاصنام التى سميتموها آلهة (ذلك الدين القيم) يعنى عبادة الله هو الدين المستقيم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك ولما فرغ يوسف عليه الصلاة والسلام من الدعاء الى الله وعبادته رجع الى تعبير رؤياهما فقال (يا صاحبى السجن اما احدكما فيسقى ربه خمرا) يعنى ان صاحب شراب الملك يرجع الى منزلته و يسقى الملك خمرا كما كان يسقيه أولا والعناقيد الثلاثة هى ثلاثة ايام يبقى فى السجن ثم يدعو به الملك ويرده الى منزلته التى كان عليها (وأما الآخر فيصلب) يعنى صاحب طعام الملك والسلال الثلاث ثلاثة ايام ثم يدعو به الملك فيصلبه (فتأكل الطير من رأسه) قال ابن مسعود رضى الله عنه فلما سمعا قول يوسف عليه الصلاة والسلام قالا ما رأينا شيئا انما كنا نلعب قال يوسف (قضى الامر الذى فيه تستفتيان) يعنى فرغ من الامر الذى سألتما عنه ووجب حكم الله عليكما بالذى اخبرتكما به رأيتما شيئا ام لم تريا (وقال) يعنى يوسف (للذى ظن) يعنى علم وتحقق فالظن بمعنى العلم (أنه ناج منهما) يعنى ساقى الملك (اذكرنى عند ربك) يعنى سيدك وهو الملك الاكبر فقل له ان فى السجن غلاما محبوسا مظلوما طال حبسه (فأنساه الشيطان ذكر ربه) فى هاء الكناية فى فأنساه الى من تعود قولان احدهما انها ترجع الى الساقى وهو قول عامة المفسرين والمعنى فأنسى الشيطان الساقى ان يذكر يوسف عند الملك قالوا لان صرف وسوسة الشيطان الى ذلك

(ذلك) التوحيد (من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) فضل الله فيشركون به ولا ينتهون (يا صاحبى السجن) يا ساكنى السجن كقوله أصحاب النار وأصحاب الجنة (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) يريد التفرق فى العدد والتكاثر أى ان تكون أرباب شتى تستعبدكما هذا خير لكما ام يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك فى الربوبية وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الاصنام (ما تعبدون) خطاب لهما ولمن كان على دينهما من أهل مصر (من دونه) من دون الله (الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) أى سميتم ما لا يستحق الالهية آلهة ثم طفقتم تعبدونها فكأنكم لا تعبدون الا أسماء لا مسميات لها ومعنى سميتموها سميتم بها يقال سميته زيدا وسميته بزيد (ما أنزل الله بها) بتسميتها (من سلطان) حجة (ان الحكم) فى أمر العبادة والدين (الا لله) ثم بين ما حكم به فقال (أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم) الثابت الذى دلت عليه البراهين (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وهذا يدل على ان العقوبة تلزم العبد وان جهل اذا أمكن له العلم بطريقه ثم عبر الرؤيا فقال (يا صاحبى السجن أما أحدكما) يريد الشرابى (فيسقى ربه) سيده (خمرا) أى يعود الى عمله (وأما الآخر) اى الخباز (فيصلب فتأكل الطير من رأسه) روى انه قال للاول ما رأيت من الكرمة هو الملك وحسن حالك عنده وأما القضبان الثلاثة فانها ثلاثة ايام تمضى فى السجن ثم تخرج وتعود الى ما كنت عليه وقال للثانى ما رأيت من السلال ثلاثة ايام ثم تخرج فتقتل ولما سمع الخباز صلبه قال ما رأيت شيئا فقال يوسف (قضى الامر الذى فيه تستفتيان) أى قطع وتم ما تستفتيان فيه من امركما وشأنكما أى ما يجر اليه من العاقبة وهى هلاك أحدهما ونجاة الآخر (وقال للذى ظن انه ناج منهما) الظان هو يوسف عليه السلام ان كان تأويله بطريق الاجتهاد وان كان بطريق الوحى فالظان هو الشرابى او يكون الظن بمعنى اليقين (اذكرنى عند ربك) صفنى عند الملك بصفتى وقص عليه قصتى لعله يرحمنى ويخلصنى من هذه الورطة (فأنساه الشيطان) فأنسى الشرابى (ذكر ربه) ان يذكره لربه او عند ربه او وأنسى يوسف ذكر الله حين وكل أمره الى غيره وفى الحديث رحم الله اخى يوسف لو لم يقل اذكرنى عند ربك لما لبث فى السجن سبعا

الرجل الساقي حتى انساه ذكر يوسف اولى من صرفها الى يوسف والقول الثاني وهو قول اكثر المفسرين ان هاء الكناية ترجع الى يوسف والمعنى ان الشيطان انسى يوسف ذكر ربه عز وجل حتى ابتغى الفرج من غيره واستعان بمخلوق مثله في دفع الضرر وذلك غفلة عرضت ليوسف عليه السلام فان الاستعانة بالمخلوق في دفع الضرر جائزة الا انه لما كان مقام يوسف اعلى المقامات ورتبته اشرف المراتب وهي منصب النبوة والرسالة لا جرم صار يوسف مؤاخذا بهذا القدر فان حسنات الابرار سيئات المقربين * فان قلت كيف تمكن الشيطان من يوسف حتى انساه ذكر ربه * قلت بشغل الخاطر والقاء الوسوسة فانه قد صح في الحديث ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فاما النسيان الذي هو عبارة عن ترك الذكر وازالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه وقوله تعالى (فلبث في السجن بضع سنين) اختلفوا في قدر البضع فقال مجاهد هو ما بين الثلاث الى السبع وقال قتادة هو ما بين الثلاث الى التسع وقال ابن عباس هو ما دون العشرة واكثر المفسرين على ان البضع في هذه الآية سبع سنين وكان يوسف قد لبث قبلها في السجن خمس سنين فجملة ذلك اثنا عشر سنة وقال وهب اصاب أيوب البلاء سبع سنين وترك يوسف في السجن سبع سنين وقال مالك بن دينار لما قال يوسف للساقي اذكرني عند ربك قيل له يا يوسف اتخذت من دوني وكيلا لا طيلن حبسك فبكى يوسف وقال يا رب أنسى قلبي ذكرك كثرة البلوى فقلت كلمة قال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم رحم الله يوسف لولا كلمته التي قالها ما لبث في السجن ما لبث يعني قوله اذكرني عند ربك ثم بكى الحسن وقال نحن اذا نزل بنا امر فزعنا الى الناس ذكره الثعلبي مرسلا وبغير سند وقيل ان جبريل دخل على يوسف في السجن فلما رآه يوسف عرفه فقال له يوسف يا أخا المنذرين مالي اراك بين الخاطئين فقال له جبريل يا طاهر ابن الطاهرين يقرأ عليك السلام رب العالمين ويقول لك اما استحييت مني ان استغثت بالآدميين فوعزتي وجلالي لألبثنك في السجن بضع سنين قال يوسف وهو في ذلك عني راض قال نعم قال اذا لا أبالي وقال كعب قال جبريل ليوسف يقول الله عز وجل لك من خلقك قال الله قال فمن رزقك قال الله قال فمن حببك الى ابيك قال الله قال فمن نجاك من كرب البئر قال الله قال فمن علمك تأويل الرؤيا قال الله قال فمن صرف عنك السوء والفحشاء قال الله قال فكيف استغثت بآدمي مثلك قالوا فلما انقضت سبع سنين قال الكلبي وهذه السبع سوى الخمس سنين التي كانت قبل ذلك ودنا فرج يوسف وأراد الله اخراجه من السجن رأى ملك مصر الاكبر رؤيا عجيبة هالته وذلك انه رأى في منامه سبع بقرات سمان قد خرجن من البحر ثم خرج عقيبهن سبع بقرات عجاف في غاية الهزال فابتلع العجاف السمان ودخلن في بطونهن ولم ير منهن شيء ولم يتبين على العجاف منها شيء ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبع سنبلات أخر يابسات قد استحصدت فالتوت اليابسات على الخضر حتى علون عليهن ولم يبق من خضرتها شيء فجمع السحرة والكهنة والمعبرين وقص عليهم رؤياه التي رآها فذلك قوله تعالى (وقال الملك اني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي) يعني يا أيها الاشراف اخبروني بتأويل رؤياي (ان كنتم للرؤيا تعبرون) يعني ان كنتم تحسنون علم العبارة وتفسيرها وعلم التعبير مختص بتفسير الرؤيا وسمي هذا العلم تعبيرا لان المفسر للرؤيا عابر من ظاهرها الى باطنها ليستخرج معناها وهذا اخص من التأويل لان التأويل يقال فيه وفي غيره (قالوا) يعني قال جماعة الملأ وهم السحرة والكهنة والمعبرون مجيبين للملك (اضغاث أحلام) يعني اخلاط مشتبهة واحدها ضغث وأصله الحزمة المختلطة من انواع الحشيش والاحلام جمع حلم وهو الرؤيا التي يراها الانسان في منامه (وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين) لما جعل الله هذه الرؤيا سببا لخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من السجن وذلك ان الملك لما رآها قلق واضطرب وذلك لانه قد شاهد الناقص الضعيف قد استولى على القوي الكامل حتى

(فلبث في السجن بضع سنين) أي سبعا عند الجمهور والبضع ما بين الثلاث الى التسع (وقال الملك اني ارى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) لما دنا فرج يوسف رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة هالته رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها وسبعا أخر يابسات قد استحصدت وادركت فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها وقيل كان ابتداء بلاء يوسف في الرؤيا ثم كان سبب نجاته ايضا الرؤيا سمان جمع سمين وسمينة والعجاف المهازيل والعجف الهزال الذي ليس بعده سمانة والسبب في وقوع عجاف جمعا لعجفاء وافعل وفعلاء لا يجمعان على فعال حمله على نقيضه وهو سمان ومن دأبهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض وفي الآية دلالة على ان السنبلات اليابسة كانت سبعا كالخضر لان الكلام مبني على انصبابه الى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر فوجب ان يتناول معنى الأخر السبع ويكون قوله وأخر يابسات بمعنى وسبعا أخر (يا أيها الملأ) كأنه اراد الاعيان من العلماء والحكماء (أفتوني في رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون) اللام في للرؤيا للبيان كقوله وكانوا فيه من الزاهدين او لان المفعول به اذا تقدم على الفعل لم يكن في قوته على العمل فيه مثله اذا تأخر عنه فعضد بها تقول عبرت الرؤيا وللرؤيا عبرت او يكون للرؤيا خبر كان كقولك كان فلان لهذا الامر اذا كان مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبر آخر أو حال وحقيقة عبرت الرؤيا ذكرت عاقبتها وآخر أمرها كما تقول عبرت النهر اذا قطعته حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره ونحوه اولت الرؤيا اذا ذكرت مآلها وهو مرجعها وعبرت الرؤيا بالتخفيف هو الذي اعتمده الاثبات ورأيتهم ينكرون عبرت بالتشديد والتعبير والمعبر (قالوا أضغاث احلام) اى هي اضغاث احلام اى تخاليطها واباطيلها وما يكون منها من حديث نفس او وسوسة شيطان واصل الاضغاث ما جمع من اخلاط النبات وحزم من انواع الحشيش الواحد ضغث فاستعيرت لذلك والاضافة بمعنى من اى اضغاث من احلام وانما جمع وهو حلم واحد تزايدا في وصف الحلم بالبطلان وجاز ان يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها (وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين) ارادوا بالاحلام المنامات الباطلة فقالوا ليس لها عندنا تأويل

انما التأويل للمنامات الصحيحة أو اعترفوا بقصور علمهم وانهم ليسوا في تأويل الاحلام بنحارير (وقال الذي نجا) من القتل (منهما) من صاحبي السجن (وادّكر) بالدال هو الفصيح وأصله اذتكر فأبدلت الذال دالا والتاء دالا وادغمت الاولى في الثانية لتقارب الحرفين وعن الحسن واذّكر ووجهه أنه قلب التاء ذالا وادغم أي تذكر يوسف وما شاهد منه (بعد أمة) بعد مدة طويلة وذلك انه حين استفتى الملك في رؤياه واعضل على الملك تأويلها تذكر الناجي يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه وطلبه اليه ان يذكره عند الملك (أنا أنبئكم بتأويله) أنا أخبركم به عمن عنده علمه (فأرسلون) وبالياء يعقوب أي فابعثوني اليه لاسأله فأرسلوه الى يوسف فأتاه فقال (يوسف أيها الصديق) أيها البليغ في الصدق وانما قال له ذلك لانه ذاق وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أوّل (أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع الى الناس) الى الملك واتباعه (لعلهم يعلمون) فضلك ومكانك من العلم فيطلبوك ويخلصوك من محنتك (قال تزرعون سبع سنين) هو خبر في معنى الامر كقوله تؤمنون بالله واليوم الآخر وتجاهدون دليله قوله فذروه في سنبله وانما يخرج الامر في صورة الخبر للمبالغة في وجود المأمور به فيجعل كأنه موجود فهو يخبر عنه (دأبا) بسكون الهمزة وحفص بحركة وهما مصدر دأب في العمل وهو حال من المأمورين أي دائبين (فما حصدتم فذروه في سنبله) كيلا يأكله السوس (الا قليلا مما تأكلون) في تلك السنين (ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن) هو من اسناد المجاز جعل أكلهن مسندا اليهن (ما قدمتم لهن) أي في السنين المخصبة (الا قليلا مما تحصنون) تحرزون وتخبؤن (ثم يأتي من بعد ذلك عام) أي من بعد أربع عشرة سنة عام (فيه يغاث الناس) من الغوث أي يغاث من قحطهم أو من الغيث أي يمطرون يقال غيثت البلاد اذا امطرت (وفيه يعصرون) العنب والزيتون والسمسم فيتخذون الاشربة والادهان يعصرون حمزة فأول البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخصبة والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يجيء مباركا كثير الخير غزير النعم وذلك من جهة الوحي (وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول) ليخرجه من السجن (قال ارجع الى ربك) أي الملك (فاسأله ما بال النسوة) اي حال النسوة (اللاتي قطعن أيديهن) انما تثبت يوسف وأبى في اجابة الملك وقدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما رمي به وسجن فيه لئلا يتسلق به الحاسدون الى تقبيح أمره عنده ويجعلوه سلما الى حط منزلته لديه ولئلا يقولوا ما خلد في السجن سبع سنين الا لامر عظيم وجرم كبير وفيه دليل على ان الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها وقال عليه السلام لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين

قهره وغلبه فأراد أن يعرف تأويل ذلك فجمع سحرته وكهنته ومعبريه وأخبرهم بما رأى في منامه وسألهم عن تأويلها فأعجز الله بقدرته جماعة الكهنة والمعبرين عن تأويل هذه الرؤيا ومنعهم عن الجواب ليكون ذلك سببا لخلاص يوسف عليه الصلاة والسلام من السجن فذلك قوله تعالى (وقال الذي نجا منهما) يعني وقال الساقي الذي نجا من السجن والقتل بعد هلاك صاحبه الخباز (وادّكر بعد أمة) يعني انه تذكر قول يوسف اذكرني عند ربك بعد أمة يعني بعد حين وهو سبع سنين وسمى الحين من الزمان أمة لانه جماعة الايام والامة الجماعة (أنا أنبئكم) يعني أخبركم (بتأويله) وقوله أنا أنبئكم بلفظ الجمع اما انه اراد به الملك مع جماعة السحرة والكهنة والمعبرين أو اراد به الملك وحده وخاطبه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم وذلك ان الفتى الساقي جثا بين يدي الملك وقال ان في السجن رجلا عالما يعبر الرؤيا (فأرسلون) فيه اختصار تقديره فأرسلني أيها الملك فأرسله فأتى السجن قال ابن عباس ولم يكن في المدينة (يوسف) أي يا يوسف (أيها الصدّيق) انما سماه صدّيقا لانه لم يجرب عليه كذبا قط والصديق الكثير الصدق والذي لم يكذب قط وقيل سماه صديقا لانه صدق في تعبير رؤياه التي رآها في السجن (أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) فان الملك رأى هذه الرؤيا (لعلي أرجع الى الناس) يعني ارجع بتأويل هذه الرؤيا الى الملك وجماعته (لعلهم يعلمون) يعني بتأويل هذه الرؤيا وقيل لعلهم يعلمون منزلتك في العلم (قال) يعني قال يوسف معبرا لتلك الرؤيا أما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع سنين مخصبة وأما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة فذلك قوله تعالى (تزرعون) وهذا خبر بمعنى الامر أي ازرعوا (سبع سنين دأبا) يعني عادتكم في الزراعة والدأب العادة وقيل ازرعوا بجد واجتهاد (فما حصدتم فذروه في سنبله) انما امرهم بترك ما حصدوه من الحنطة في سنبله لئلا يفسد ويقع فيه السوس وذلك ابقى له على طول الزمان (الا قليلا مما تأكلون) يعني ادرسوا قليلا من الحنطة للاكل بقدر الحاجة وأمرهم بحفظ الاكثر لوقت الحاجة ايضا وهو وقت السنين المجدبة وهو قوله (ثم يأتي من بعد ذلك) يعني من بعد السنين المخصبة (سبع شداد) يعني سبع سنين مجدبة ممحلة شديدة على الناس (يأكلن) يعني يفنين (ما قدمتم لهن) يعني يؤكل فيهن كل ما اعددتم وادخرتم لهن من الطعام وانما اضاف الاكل الى السنين على طريق التوسع في الكلام (الا قليلا مما تحصنون) يعني تحرزون وتدخرون للبذر والاحصان الاحراز وهو ابقاء الشيء في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع (ثم يأتي من بعد ذلك) يعني من بعد هذه السنين المجدبة (عام فيه يغاث الناس) أي يمطرون من الغيث الذي هو المطر وقيل هو من قولهم استغثت بفلان فأغاثني من الغوث (وفيه يعصرون) يعني يعصرون العنب خمرا والزيتون زيتا والسمسم دهنا أراد به كثرة الخير والنعم على الناس وكثرة الخصب في الزرع والثمار وقيل يعصرون معناه ينجون من الكرب والشدة والجدب قوله عز وجل (وقال الملك ائتوني به) وذلك ان الساقي لما رجع الى الملك واخبره بفتيا يوسف وما عبر به رؤياه استحسنه الملك وعرف ان الذي قاله كائن لا محالة فقال ائتوني به حتى ابصر هذا الرجل الذي قد عبر رؤياي بهذه العبارة فرجع الساقي الى يوسف وقال له اجب الملك فذلك قوله تعالى (فلما جاءه الرسول) فأبى ان يخرج معه حتى تظهر براءته للملك ولا يراه بعين النقص (قال) يعني قال يوسف للرسول (ارجع الى ربك) يعني الى سيدك وهو الملك (فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن ايديهن) ولم يصرح بذكر امرأة العزيز أدبا واحتراما لها (ق) عن أبي

هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي أخرجه الترمذي وزاد فيه ثم قرأ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن هذا الحديث فيه بيان فضل يوسف عليه الصلاة والسلام وبيان قوة صبره وثباته والمراد بالداعي رسول الملك الذي جاءه من عنده فلم يخرج معه مبادرا إلى الراحة ومفارقة ما هو فيه من الضيق والسجن الطويل فلبث في السجن وراسل الملك في كشف أمره الذي سجن بسببه لتظهر براءته عند الملك وغيره فأثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على يوسف عليه الصلاة والسلام وبين فضيلته وحسن صبره على المحنة والبلاء وقوله (إن ربي بكيدهن عليم) يعني أن الله تعالى عالم بصنيعهن وما احتلن في هذه الواقعة من الحيل العظيمة فرجع الرسول من عند يوسف إلى الملك بهذه الرسالة فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز معهن و (قال) لهن (ما خطبكن) أي ما شأنكن وأمركن (إذ راودتن يوسف عن نفسه) إنما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب والمراد بذلك امرأة العزيز وحدها ليكون أستر لها وقيل إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وحدها وسائر النسوة أمرنه بطاعتها فلذلك خاطبهن بهذا الخطاب (قلن) يعني النسوة جميعا مجيبات للملك (حاش لله) يعني معاذ الله (ما علمنا عليه من سوء) يعني من خيانة في شيء من الأشياء (قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق) يعني ظهر وتبين وقيل إن النسوة أقبلن على امرأة العزيز يقررنها وقيل خافت أن يشهدن عليها فأقرت فقالت (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) يعني في قوله هي راودتني عن نفسي (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) على قولين أحدهما أنه من قول المرأة ووجه هذا القول أن هذا كلام متصل بما قبله وهو قول المرأة الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ثم قالت ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب والمعنى ذلك ليعلم يوسف أني لم أخنه في حال غيبته وهو في السجن ولم أكذب عليه بل قلت أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين وإن كنت قد قلت فيه ما قلت في حضرته ثم بالغت في تأكيد هذا القول فقالت (وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) يعني أني لما أقدمت على هذا الكيد والمكر لا جرم أني افتضحت لأن الله لا يرشد ولا يوفق كيد الخائنين والقول الثاني أنه من قول يوسف عليه الصلاة والسلام وهذا قول الأكثرين من المفسرين والعلماء ووجه هذا القول أنه لا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر إذا دلت القرينة عليه وعلى هذا يكون معنى الآية أنه لما بلغ يوسف قول المرأة أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين قال يوسف ذلك أي الذي فعلت من ردي رسول الملك إليه ليعلم يعني العزيز أني لم أخنه في زوجته بالغيب يعني في حال غيبته فيكون هذا من كلام يوسف اتصل بقول امرأة العزيز أنا راودته عن نفسه من غير تمييز بين الكلامين لمعرفة السامعين لذلك مع غموض فيه لأنه ذكر كلام إنسان ثم أتبعه بكلام إنسان آخر من غير فصل بين الكلامين ونظير هذا قوله تعالى يريد أن يخرجكم من أرضكم هذا من قول الملأ فماذا تأمرون من قول فرعون ومثله قوله تعالى وجعلوا أعزة أهلها أذلة هذا من قول بلقيس وكذلك يفعلون من قوله عز وجل تصديقا لها وعلى هذا القول اختلفوا أين كان يوسف حين قال هذه المقالة على قولين أحدهما أنه كان في السجن وذلك أنه لما رجع إليه رسول الملك وهو في السجن وأخبره بجواب امرأة العزيز للملك قال حينئذ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وهذه رواية أبي صالح عن ابن عباس وبه قال ابن جريج والقول الثاني أنه قال هذه المقالة عند حضوره عند الملك وهذه رواية عطاء عن ابن عباس * فإن قلت فعلى هذا القول كيف خاطبهم بلفظة ذلك وهي إشارة للغائب مع حضوره عندهم * قلت قال ابن الأنباري قال اللغويون هذا وذلك يصلحان في هذا الموضع لقرب الخبر من أصحابه فصار كالمشاهد الذي يشار إليه بهذا وقيل ذلك إشارة إلى ما فعله يقول ذلك الذي فعلته من ردي الرسول ليعلم أني لم أخنه بالغيب أي لم أخن العزيز في حال غيبته ثم ختم هذا الكلام بقوله وأن الله لا يهدي كيد الخائنين يعني أني لو كنت خائنا لما خلصني الله من هذه

سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجوني ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال ارجع إلى ربك ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة وبادرت الباب ولما ابتغيت العذر إن كان لحليما ذا أناة ومن كرمه وحسن أدبه أنه لم يذكر سيدته مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب واقتصر على ذكر المقطعات أيديهن (إن ربي بكيدهن عليم) أي إن كيدهن عظيم لا يعلمه إلا الله وهو عليم به فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته فدعا الملك النسوة المقطعات أيديهن ودعا امرأة العزيز ثم (قال) لهن (ما خطبكن) ما شأنكن (إذ راودتن يوسف عن نفسه) هل وجدتن منه ميلا إليكن (قلن حاش لله) تعجبا من قدرته على خلق عفيف مثله (ما علمنا عليه من سوء) من ذنب (قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق) ظهر واستقر (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) في قوله هي راودتني عن نفسي ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة واعترافهن على أنفسهن بأنه لم يتعلق بشيء مما قذفنه به ثم رجع الرسول إلى يوسف وأخبره بكلام النسوة وإقرار امرأة العزيز وشهادتها على نفسها فقال يوسف (ذلك) أي امتناعي من الخروج والتثبت لظهور البراءة (ليعلم) العزيز (أني لم أخنه بالغيب) بظهر الغيب في حرمته وبالغيب حال من الفاعل أو المفعول على معنى وأنا غائب عنه أو وهو غائب عني أو ليعلم الملك أني لم أخن العزيز (وأن الله) أي وليعلم أن الله (لا يهدي كيد الخائنين) لا يسدده وكأنه تعريض بامرأته في خيانتها أمانة زوجها ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه لئلا يكون لها مزكيا وليبين أن ما فيه من الأمانة بتوفيق الله وعصمته فقال

الورطة التى وقعت فيها لان الله لا يهدى أى لا يرشد ولا يوفق كيد الخائنين واختلفوا فى قوله (وما أبرئ نفسى) من قول من على قولين ايضا * أحدهما انه من قول المرأة وهذا التفسير على قول من قال ان قوله ذلك ليعلم انى لم أخنه بالغيب من قول المرأة فعلى هذا يكون المعنى وما ابرئ نفسى من مراودتى يوسف عن نفسه وكذبى عليه * والقول الثانى وهو الاصح وعليه اكثر المفسرين انه من قول يوسف عليه الصلاة والسلام وذلك انه لما قال ذلك ليعلم انى لم أخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين هممت بها فقال يوسف عند ذلك وما أبرئ نفسى وهذه رواية عن ابن عباس أيضا وهو قول الاكثرين وقال الحسن ان يوسف لما قال ذلك ليعلم انى لم أخنه بالغيب خاف ان يكون قد زكى نفسه فقال وما أبرئ نفسى لان الله تعالى قال فلا تزكوا أنفسكم ففى قوله وما أبرئ نفسى هضم للنفس وانكسار وتواضع لله عز وجل فان رؤية النفس فى مقام العصمة والتزكية ذنب عظيم فأراد ازالة ذلك عن نفسه فان حسنات الابرار سيئات المقربين (ان النفس لأمارة بالسوء) والسوء لفظ جامع لكل ما يهم الانسان من الامور الدنيوية والاخروية والسيئة الفعلة القبيحة واختلفوا فى النفس الامارة بالسوء ما هى فالذى عليه اكثر المحققين من المتكلمين وغيرهم ان النفس الانسانية واحدة ولها صفات منها الامارة بالسوء ومنها اللوامة ومنها المطمئنة فهذه الثلاث المراتب هى صفات لنفس واحدة فاذا دعت النفس الى شهواتها ومالت اليها فهى النفس الامارة بالسوء فاذا منعتها النفس اللوامة ولامتها على ذلك الفعل القبيح من ارتكاب الشهوات يحصل عند ذلك الندامة على ذلك الفعل القبيح وهذا من صفات النفس المطمئنة وقيل ان النفس أمارة بالسوء بطبعها فاذا تزكت وصفت من أخلاقها الذميمة صارت مطمئنة وقوله (الا ما رحم ربى) قال ابن عباس معناه الا من عصم ربى فتكون ما بمعنى من فهو كقوله ما طاب لكم من النساء يعنى من طاب لكم وقيل هذا استثناء منقطع معناه لكن من رحم ربى فعصمه من متابعة النفس الامارة بالسوء (ان ربى غفور رحيم) يعنى غفور لذنوب عباده رحيم بهم قوله تعالى (وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى) وذلك انه لما تبين للملك عذر يوسف وعرف امانته وعلمه طلب حضوره اليه فقال ائتونى به يعنى بيوسف استخلصه لنفسى أى اجعله خالصا لنفسى والاستخلاص طلب خلوص الشئ من جميع شوائب الاشتراك وانما طلب الملك ان يستخلص يوسف لنفسه لان عادة الملوك أن ينفردوا بالاشياء النفيسة العزيزة ولا يشاركهم فيها أحد من الناس وانما قال الملك ذلك لما عظم اعتقاده فى يوسف لما علم من غزارة علم يوسف وحسن صبره واحسانه الى أهل السجن وحسن ادبه وثباته على المحن كلها فلهذا حسن اعتقاد الملك فيه واذا أراد الله تعالى امرا هيأ اسبابه وألهم الملك ذلك فقال ائتونى به استخلصه لنفسى (فلما كلمه) فيه اختصار تقديره فلما جاء الرسول الى يوسف فقال له أجب الملك الآن بلا معاودة فأجابه روى ان يوسف لما قام ليخرج من السجن دعا لاهله فقال اللهم عطف عليهم قلوب الاخيار ولا تعم عليهم الاخبار فهم اعلم الناس بالاخبار فى كل بلد فلما خرج من السجن كتب على بابه هذا بيت البلوى وقبر الاحياء وشماتة الاعداء وتجربة الاصدقاء ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثيابا حسنة ثم قصد باب الملك قال وهب فلما وقف بباب الملك قال حسبى ربى من دنياى وحسبى ربى من خلقه عز جارك وجل ثناؤك ولا اله غيرك ثم دخل الدار فلما ابصر الملك قال اللهم انى اسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشر غيره فلما نظر اليه الملك سلم يوسف عليه بالعربية فقال له الملك ما هذا اللسان قال لسان عمى اسماعيل ثم دعا له بالعبرانية فقال له وما هذا اللسان أيضا قال يوسف هذا لسان آبائى قال وهب وكان الملك يتكلم بسبعين لغة فلم يعرف هذين اللسانين وكان الملك كلما كلمه بلسان أجابه يوسف وزاد عليه بالعربية والعبرانية فلما رأى الملك منه ذلك أعجبه ما رأى مع حداثة سن يوسف عليه السلام وكان له من العمر يومئذ ثلاثون سنة فاجلسه الى جنبه فذلك قوله تعالى فلما كلمه يعنى فلما كلم الملك يوسف لان مجالس الملوك لا يحسن لاحد أن يبدأ بالكلام فيها وانما

(وما أبرئ نفسى) من الزلل وما أنزهها لما
بالبراءة الكلية ولا أزكيها فى عموم الاحوال
أو فى هذه الحادثة لما ذكرنا من الهم الذى هو
الخطرة البشرية لا عن طريق القصد والعزم
(ان النفس لأمارة بالسوء) اراد الجنس اى
ان هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه لما
فيه من الشهوات (الا ما رحم ربى) الا البعض
الذى رحمه ربى بالعصمة ويجوز ان يكون ما رحم
فى معنى الزمان اى الا وقت رحمة ربى يعنى
أنها أمارة بالسوء فى كل وقت الا وقت العصمة
او هو استثناء منقطع اى ولكن رحمة ربى هى
التى تصرف الاساءة وقيل هو من كلام امرأة
العزيز اى ذلك الذى قلت ليعلم يوسف انى
لم اخنه ولم اكذب عليه فى حال الغيبة وجئت
بالصدق فيما سئلت عنه وما أبرئ نفسى مع ذلك
من الخيانة فانى قد خنته حين قذفته وقلت
ما جزاء من أراد بأهلك سوءا الا ان يسجن وأودعته
السجن تريد الاعتذار مما كان منها ان كل
نفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى الا نفسا
رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف (ان ربى
غفور رحيم) استغفرت ربها واسترحمته مما
ارتكبت وانما جعل من كلام يوسف ولا
دليل عليه ظاهر لان المعنى يقود اليه وقيل
هذا من تقديم القرآن وتأخيره اى قوله ذلك
ليعلم متصل بقوله فاسأله ما بال النسوة اللاتى
قطعن أيديهن (وقال الملك ائتونى به استخلصه
لنفسى) أجعله خالصا لنفسى (فلما كلمه)
وشاهد منه ما لم يحتسب

يبدأ الملك فيها بالكلام وقيل معناه فلما كلم يوسف الملك قال الساقي أيها الملك هذا الذي علم تأويل رؤياك مع عجز السحرة والكهنة عنها فأقبل عليه الملك و (قال انك اليوم لدينا مكين أمين) يقال اتخذ فلان عند فلان مكانة أي منزلة وهي الحالة التي يتمكن بها صاحبها مما يريد وقيل المكانة المنزلة والجاه والمعنى قد عرفت امانتك ومنزلتك وصدقك وبراءتك مما نسبت اليه وقوله مكين أمين كلمة جامعة لكل ما يحتاج اليه من الفضائل والمناقب في أمر الدين والدنيا روى ان الملك قال ليوسف عليه الصلاة والسلام أحب ان اسمع تأويل رؤياي منك شفاها فقال نعم ايها الملك رأيت سبع بقرات سمان غر حسان غير عجاف كشف لك عنهن النيل فطلعن من شاطئه تشخب أخلافهن لبنا فبينما أنت تنظر اليهن وقد أعجبك حسنهن اذ نضب النيل فغار ماؤه وبدا يبسه فخرج من حمئته سبع بقرات عجاف شعث ملصقات البطون ليس لهن ضروع ولا أخلاف ولهن أنياب وأضراس وأكف كأكف الكلاب وخراطيم كخراطيم السباع فاختلطن بالسمان فافترسن السمان كافتراس السبع فأكلن لحومهن ومزقن جلودهن وحطمن عظامهن ومششن مخهن فبينما أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهن وهن مهازيل ثم لم يظهر منهن سمن ولا زيادة بعد أكلهن اذ سبع سنبلات خضر طريات ناعمات ممتلئات حبا وماء والى جانبهن سبع أخر سود يابسات في منبت واحد عروقهن في الثرى والماء فبينما أنت تقول في نفسك أي شئ هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات والمنبت واحد واصولهن في الثرى والماء اذ هبت ريح فذرت أوراق اليابسات السود على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهن النار فاحرقتهن فصرن سودا فهذا ما رأيت ايها الملك ثم انتبهت مذعورا فقال الملك والله ما اخطأت منها شيئا فما شأن هذه الرؤيا وان كان عجبا فما هو بأعجب مما سمعت منك وما ترى في تأويل رؤياي ايها الصديق قال يوسف عليه الصلاة والسلام أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعا كثيرا في هذه السنين المخصبة وتجعل ما يحصل من ذلك الطعام في الخزائن بقصبه وسنبله فانه ابقى له فيكون ذلك القصب والسنبل علفا للدواب وتأمر الناس فليرفعوا الخمس من زروعهم أيضا فيكفيك ذلك الطعام الذي جمعته لاهل مصر ومن حولها وتأتيك الخلق من سائر النواحي للميرة ويجتمع عندك من الكنوز والاموال ما لا يجتمع لاحد قبلك فقال الملك ومن لي بهذا ومن يجمعه ويبيعه لي ويكفيني العمل فيه فعند ذلك (قال) يعني يوسف (اجعلني على خزائن الارض) يعني على خزائن الطعام والاموال وأراد بالارض أرض مصر أي اجعلني على خزائن أرضك التي تحت يدك وقال الربيع بن انس اجعلني على خزائن خراج مصر ودخلها (اني حفيظ عليم) أي حفيظ للخزائن عليم بوجوه مصالحها وقيل معناه اني حاسب كاتب وقيل حفيظ لما استودعتني عليم بما وليتني وقيل حفيظ للحساب عليم أعلم لغة من يأتيني وقال الكلبي حفيظ بتقديره في السنين المخصبة للسنين المجدبة عليم بوقت الجوع حين يقع فقال الملك عند ذلك ومن أحق بذلك منك فولاه ذلك وروى البغوي باسناد الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الارض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة * فان قلت كيف طلب يوسف عليه الصلاة والسلام الامارة والولاية مع ما ورد من النهي عنها مع كراهية طلبها الصحيح من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة فانك ان أوتيتها عن مسئلة وكلت اليها وان أوتيتها عن غير مسئلة أعنت عليها أخرجاه في الصحيحين قلت انما يكره طلب الامارة اذا لم يتعين عليه طلبها فاذا تعين عليه طلبها وجب ذلك عليه ولا كراهية فيه فاما يوسف عليه الصلاة والسلام فكان عليه طلب الامارة لانه مرسل من الله تعالى والرسول أعلم بمصالح الامة من غيره واذا كان مكلفا برعاية المصالح ولا يمكنه ذلك الا بطلب الامارة وجب عليه طلبها وقيل انه لما علم انه سيحصل قحط وشدة اما بطريق الوحي من الله أو بغير ربما افضى ذلك الى هلاك معظم الخلق وكان في طلب الامارة ايصال الخير والراحة الى المستحقين

(قال) الملك ليوسف (انك اليوم لدينا مكين أمين) ذو مكانة ومنزلة امين مؤتمن على كل شئ روى ان الرسول جاءه ومعه سبعون حاجبا وسبعون مركبا وبعث اليه لباس الملوك فقال اجب الملك فخرج من السجن ودعا لاهله اللهم عطف عليهم قلوب الاخيار ولا تعم عليهم الاخبار فهم اعلم الناس بالاخبار في الواقعات وكتب على باب السجن هذه منازل البلوى وقبور الاحياء وشماتة الاعداء وتجربة الاصدقاء ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثيابا جددا فلما دخل على الملك قال اللهم اني اسألك بخيرك من خيره واعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال ما هذا اللسان قال لسان آبائي وكان الملك يتكلم بسبعين لسانا فكلمه بها فاجابه بجميعها فتعجب منه وقال ايها الصديق اني احب ان اسمع رؤياي منك قال رأيت بقرات فوصف لونهن واحوالهن ومكان خروجهن ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك وقال له من حقك ان تجمع الطعام في الاهراء فيأتيك الخلق من النواحي ويمتارون منك ويجتمع لك من الكنوز ما لم يجتمع لاحد قبلك قال الملك ومن لي بهذا ومن يجمعه (قال) يوسف (اجعلني على خزائن الارض) ولني على خزائن أرضك يعني مصر (اني حفيظ) امين احفظ ما تستحفظنيه (عليم) عالم بوجوه التصرف وصف نفسه بالامانة والكفاية وهما طلبة الملوك ممن يولونه وانما قال ذلك ليتوصل الى امضاء أحكام الله واقامة الحق وبسط العدل والتمكن مما لاجله بعث الانبياء الى العباد ولعلمه ان أحدا غيره لا يقوم مقامه في ذلك فطلبه ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا وفي الحديث رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الارض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة قالوا وفيه دليل على انه يجوز ان يتولى الانسان عمالة من يد سلطان جائر وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة الظلمة واذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل الى الحكم بأمر الله ودفع الظلم الا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق فله ان يستظهر به وقيل كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى وكان في حكم التابع له

وجب عليه طلب الامارة لهذا السبب فان قلت كيف مدح يوسف نفسه بقوله انى حفيظ عليم والله تعالى يقول فلا تزكوا انفسكم * قلت انما يكره تزكية النفس اذا قصد به الرجل التطاول والتفاخر والتوصل به الى غير ما يحل فهذا القدر المذموم فى تزكية النفس أما اذا قصد بتزكية النفس ومدحها ايصال الخير والنفع الى الغير فلا يكره ذلك ولا يحرم بل يجب عليه ذلك مثاله ان يكون بعض الناس عنده علم نافع ولا يعرف به فانه يجب عليه أن يقول أنا عالم ولما كان الملك قد علم من يوسف انه عالم بمصالح الدين ولم يعلم انه عالم بمصالح الدنيا نبهه يوسف بقوله انى حفيظ عليم على انه عالم بما يحتاج اليه فى مصالح الدنيا أيضا مع كمال علمه بمصالح الدين قوله عز وجل (وكذلك مكنا ليوسف فى الارض) وكذلك اشارة الى ما تقدم يعنى وكما انعمنا على يوسف بأن انجيناه من الجب وخلصناه من السجن وزيناه فى عين الملك حتى قربه وأدنى منزلته كذلك مكناله فى الارض يعنى ارض مصر ومعنى التمكين هو أن لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره واليه الاشارة بقوله (يتبوأ منها حيث يشاء) لانه تفسير للتمكين قال ابن عباس وغيره لما انقضت السنة من يوم سأل يوسف الامارة دعاه الملك فتوجه وقلده بسيفه وحلاه بخاتمه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرة اذرع ووضع له عليه ثلاثون فراشا وستون مرفقا وضرب له عليه حلة من استبرق وأمره أن يخرج فخرج متوجا لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى الناظر وجهه فيه من صفاء لونه فانطلق حتى جلس على ذلك السرير ودانت ليوسف الملوك وفوض الملك الاكبر اليه ملكه وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه قال ابن اسحاق قال ابن زيد وكان للملك مصر خزائن كثيرة فسلمها الى يوسف وسلم له سلطانه كله وجعل أمره وقضاءه نافذا فى مملكته قالوا ثم هلك قطفير عزيز مصر فى تلك الليالى فزوج الملك يوسف امرأة العزيز بعد هلاكه فلما دخل يوسف عليها قال لها أليس هذا خيرا مما كنت تريدين قالت له أيها الصديق لا تلمنى فانى كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى فى ملك ودنيا وكان صاحبى لا يأتى النساء وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك فغلبتنى نفسى وعصمك الله قالوا فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له ولدين ذكرين افرائيم وميشا وهما ابنا يوسف منها واستولى يوسف ملك مصر واقام فيه العدل واحبه الرجال والنساء فلما اطمأن يوسف فى ملكه دبر فى جمع الطعام أحسن التدبير فبنى الحصون والبيوت الكثيرة وجمع فيها الطعام للسنين المجدبة وانفق المال بالمعروف حتى خلت السنين المخصبة ودخلت السنين المجدبة بهول وشدة لم ير الناس مثله وقيل انه دبر فى طعام الملك وحاشيته كل يوم مرة واحدة نصف النهار فلما دخلت سنين القحط كان أول من أصابه الجوع الملك فجاع نصف النهار فنادى يا يوسف الجوع الجوع فقال يوسف هذا أول أوان القحط فهلك فى السنة الاولى من اول سنين القحط كلما اعدوه فى السنين المخصبة فجعل اهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف فباعهم فى السنة الاولى بالنقود حتى لم يبق بمصر درهم ولا دينار الا اخذه منهم وباعهم فى السنة الثانية بالحلى والجواهر حتى لم يبق بمصر فى ايدى الناس منها شئ وباعهم فى السنة الثالثة بالدواب والمواشى والانعام حتى لم تبق دابة ولا ماشية الا احتوى عليها كلها وباعهم فى السنة الرابعة بالعبيد والجوارى حتى لم يبق بأيدى الناس عبد ولا أمة وباعهم فى السنة الخامسة بالضياع والعقار حتى أتى عليها كلها وباعهم فى السنة السادسة بأولادهم حتى استرقهم وباعهم فى السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة الا ملكه فصاروا جميعهم عبيدا ليوسف عليه الصلاة والسلام فقال أهل مصر ما رأينا كاليوم ملكا أجل ولا أعظم من يوسف فقال يوسف للملك كيف رأيت صنع الله بى فيما خولنى فما ترى فى هؤلاء قال الملك الرأى رأيك ونحن لك تبع قال فانى اشهد الله واشهدك انى قد أعتقت أهل مصر عن آخرهم ورددت عليهم املاكهم وقيل ان يوسف كان لا يشبع من الطعام فى تلك الايام فقيل له اتجوع وبيدك خزائن الارض فقال اخاف ان شبعت انسى الجائع وأمر يوسف طباخى الملك ان يجعلا غداءه نصف النهار وأراد بذلك ان يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائع فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف

(وكذلك) ومثل ذلك التمكين الظاهر (مكنا ليوسف فى الارض) ارض مصر وكانت أربعين فرسخا فى أربعين والتمكين الاقدار واعطاء المكنة (يتبوأ منها حيث يشاء) أى كل مكان اراد أن يتخذه منزلا لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخولها تحت سلطانه نشاء مكى

النهار قال مجاهد ولم يزل يوسف يدعو الملك الى الاسلام و يتلطف به حتى اسلم الملك وكثير من الناس فذلك قوله تعالى وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوأ منها حيث يشاء (نصيب برحمتنا من نشاء) يعنى نختص بنعمتنا وهى النبوة من نشاء يعنى من عبادنا (ولا نضيع أجر المحسنين) قال ابن عباس يعنى الصابرين (ولاجر الآخرة) يعنى ولثواب الآخرة (خير) يعنى أفضل من أجر الدنيا (للذين آمنوا وكانوا يتقون) يعنى يتقون ما نهى الله عنه وفيه دليل على ان الذى اعدّ الله عز وجل ليوسف عليه الصلاة والسلام فى الآخرة من الاجر والثواب الجزيل افضل مما اعطاه الله فى الدنيا من الملك قوله تعالى (وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون) قال العلماء لما اشتد القحط وعظم البلاء وعم ذلك جميع البلاد حتى وصل الى بلاد الشأم قصد الناس مصر من كل مكان للميرة وكان يوسف لا يعطى احدا أكثر من حمل بعيره وان كان عظيما تقسطا ومساواة بين الناس ونزل بآل يعقوب ما نزل بالناس من الشدة فبعث بنيه الى مصر للميرة وامسك عنده بنيامين أخا يوسف لامه وابيه وارسل عشرة فذلك قوله تعالى وجاء اخوة يوسف وكانوا عشرة وكان مسكنهم بالعربات من ارض فلسطين والعربات ثغور الشأم وكانوا اهل بادية وابل وشياه فدعاهم يعقوب عليه الصلاة والسلام وقال بلغنى ان بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا له واقصدوه لتشتروا منه ما تحتاجون اليه من الطعام فخرجوا حتى قدموا مصر فدخلوا على يوسف فعرفهم قال ابن عباس ومجاهد بأول نظرة نظر اليهم عرفهم وقال الحسن لم يعرفهم حتى تعرفوا اليه وهم له منكرون يعنى لم يعرفوه قال ابن عباس رضى الله عنهما كان بين ان قذفوه فى الجب و بين دخولهم عليه مدة اربعين سنة فلذلك انكروه وقال عطاء انما لم يعرفوه لانه كان على سرير الملك وكان على رأسه تاج الملك وقيل لانه كان قد لبس زى ملوك مصر عليه ثياب حرير وفى عنقه طوق من ذهب وكل واحد من هذه الاسباب مانع من حضور المعرفة فكيف وقد اجتمعت فيه وقيل ان العرفان انما يقع فى القلب بخلق الله تعالى له فيه وان الله لم يخلق ذلك العرفان فى تلك الساعة فى قلوبهم تحقيقا لما اخبر انه سينبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون فكان ذلك معجزة ليوسف عليه الصلاة والسلام فلما نظر اليهم يوسف وكلموه بالعبرانية كلمهم بلسانهم فقال لهم اخبرونى من أنتم وما أمركم فانى قد انكرت حالكم قالوا نحن قوم من ارض الشأم رعاة قد اصابنا من الجهد ما اصاب الناس فجئنا نمتار قال يوسف لعلكم جئتم تنظرون عورة بلادى قالوا لا والله ما نحن بجواسيس انما نحن اخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق يقال له يعقوب نبى من انبياء الله تعالى قال وكم انتم قالوا كنا اثنى عشر فذهب اخ لنا معنا الى البرية فهلك فيها وكان احبنا الى ابينا قال فكم انتم الآن قالوا عشرة قال واين الآخر قالوا هو عند أبينا لانه اخو الذى هلك لامه فأبونا يتسلى به قال فمن يعلم ان الذى تقولون حق قالوا ايها الملك انا ببلاد غربة لا يعرفنا بها احد قال فائتونى بأخيكم الذى من ابيكم ان كنتم صادقين فأنا راض بذلك منكم قالوا ان ابانا يحزن لفراقه وسنراوده عنه قال فدعوا بعضكم عندى رهينة حتى تأتونى به فاقترعوا فيما بينهم فأصابت القرعة شمعون وكان احسنهم رأيا فى يوسف فخلفوه عنده فذلك قوله تعالى (ولما جهزهم بجهازهم) يقال جهزت القوم تجهيزا اذا تكلفت لهم جهاز سفرهم وهو ما يحتاجون اليه فى وجوههم والجهاز بفتح الجيم هى اللغة الفصيحة الجيدة وعليها الاكثرون من اهل اللغة وكسر الجيم لغة ليست بجيدة قال ابن عباس حمل لكل واحد منهم بعيرا من الطعام واكرمهم فى النزول واحسن ضيافتهم واعطاهم ما يحتاجون اليه فى سفرهم (قال ائتونى بأخ لكم من ابيكم) يعنى الذى خلفتموه عنده وهو بنيامين (الا ترون أنى أوف الكيل) يعنى انى اتمه ولا أبخس منه شيئا وازيدكم حمل بعير آخر لاجل اخيكم أكرمكم بذلك (وانا خير المنزلين) يعنى خير المضيفين لانه كان قد احسن ضيافتهم مدة اقامتهم عنده قال الامام فخر الدين الرازى هذا الكلام يضعف قول من يقول من المفسرين انه اتهمهم ونسبهم الى انهم جواسيس ومن يشافههم بهذا الكلام فلا يليق به ان يقول لهم الا ترون انى اوف الكيل وانا خير المنزلين وايضا يبعد من يوسف عليه الصلاة والسلام مع كونه

(نصيب برحمتنا) بعطائنا فى الدنيا من الملك والغناء وغيرهما من النعم (من نشاء) من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك (ولا نضيع أجر المحسنين) فى الدنيا (ولاجر الآخرة خير للذين امنوا) يريد يوسف وغيره من المؤمنين الى يوم القيامة (وكانوا يتقون) الشرك والفواحش قال سفيان بن عيينة المؤمن يثاب على حسناته فى الدنيا والآخرة والفاجر يعجل له الخير فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق وتلا الآية روى ان الملك توج يوسف وختمه بخاتمه ورداه بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت فقال أما السرير فأشد به ملكك واما الخاتم فأدبر به أمرك واما التاج فليس من لباسى ولا لباس آبائى فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوض الملك اليه امره وعزل قطفير ثم مات بعده فزوجه الملك امرأته فلما دخل عليها قال اليس هذا خيرا مما طلبت فوجدها عذراء فولدت له ولدين افرائيم وميشا واقام العدل بمصر وأحبته الرجال والنساء واسلم على يديه الملك وكثير من الناس وباع من أهل مصر فى سنى القحط الطعام بالدراهم والدنانير فى السنة الاولى حتى لم يبق معهم شئ منها ثم بالحلى والجواهر فى الثانية ثم بالدواب فى الثالثة ثم بالعبيد والاماء فى الرابعة ثم بالدور والعقار فى الخامسة ثم بأولادهم فى السادسة ثم برقابهم فى السابعة حتى استرقهم جميعا ثم اعتق أهل مصر عن آخرهم ورد عليهم املاكهم وكان لا يبيع لاحد من الممتارين اكثر من حمل بعير واصاب ارض كنعان نحو ما اصاب مصر فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا وذلك قوله (وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم) بلا تعريف (وهم له منكرون) لتبدل الزى ولانه كان من وراء الحجاب ولطول المدة وهو اربعون سنة روى انه لما رآهم وكلموه بالعبرانية قال لهم اخبرونى من أنتم وما شأنكم قالوا نحن قوم من أهل الشأم رعاة اصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لعلكم جئتم عيونا تنظرون عورة بلادى فقالوا معاذ الله نحن بنو نبى حزين لفقد ابن كان احبنا اليه وقد امسك أخاله من امه يستأنس به فقال ائتونى به ان صدقتم (ولما جهزهم بجهازهم) اعطى كل واحد منهم حمل بعير وقرئ بكسر الجيم شاذا (قال ائتونى بأخ لكم من ابيكم الا ترون انى اوف الكيل) انه (وأنا خير المنزلين) كان قد احسن انزالهم وضيافتهم صدقا دعيهم بهذا الكلام على الرجوع اليه

صدیقا ان یقول لهم انتم جواسیس وعیون مع انه یعرف براءتهم من هذه التهمة لان البهتان لا یلیق بالصدیق ثم قال یوسف (فان لم تأتونی به) یعنی بأخیکم الذی من ابیکم (فلا کیل لکم عندی) یعنی لست أکیل لکم طعاما (ولا تقربون) یعنی ولا ترجعوا ولا تقربوا بلادی وهذا هو نهایة التخویف والترهیب لانهم کانوا محتاجین الی تحصیل الطعام ولا یمکنهم تحصیله الا من عنده فاذا منعهم من العود کان قد ضیق علیهم فعند ذلک (قالوا) یعنی اخوة یوسف (سنراود عنه اباه) یعنی سنجتهد ونحتال حتی ننزعه من عنده (وانا لفاعلون) یعنی ما امرتنا به قوله عز وجل (وقال لفتیانه) یعنی وقال یوسف لفتیانه وهم غلمانه واتباعه (اجعلوا بضاعتهم فی رحالهم) أراد بالبضاعة ثمن الطعام الذی اعطوه لیوسف وکانت دراهم وحکی الضحاک عن ابن عباس انها کانت النعال والادم والرحال جمع رحل وهی الاوعیة التی یحمل فیها الطعام وغیره (لعلهم یعرفونها) یعنی یعرفون بضاعتهم (اذا انقلبوا الی أهلهم) یعنی اذا رجعوا أهلهم (لعلهم یرجعون) الینا واختلفوا فی السبب الذی من أجله رد یوسف علیه الصلاة والسلام بضاعتهم فقیل انهم اذا فتحوا امتاعهم ووجدوا بضاعتهم قد ردت الیهم علموا ان ذلک من کرم یوسف وسخائه فیبعثهم ذلک علی الرجوع الیه سریعا وقیل انه خاف ان لا یکون عند أبیه شیء آخر من المال لان الزمان کان زمان قحط وشدة وقیل انه رأی ان أخذ ثمن الطعام من أبیه واخوته لؤم لشدة حاجتهم الیه وقیل أراد ان یحسن الیهم علی وجه لا یلحقهم فیه لوم ولا عیب وقیل اراد ان یریهم بره وکرمه واحسانه الیهم فی رد بضاعتهم لیکون ذلک ادعی الی العود الیه وقیل انما فعل ذلک لانه علم ان دیانتهم وأمانتهم تحملهم علی رد البضاعة الیه اذا وجدوها فی رحالهم لانهم أنبیاء واولاد انبیاء وقیل اراد برد البضاعة الیهم ان یکون ذلک عونا لابیه ولاخوته علی شدة الزمان (فلما رجعوا الی أبیهم قالوا یا أبانا) انا قدمنا علی خیر رجل انزلنا واکرمنا کرامة عظیمة لو کان رجلا من اولاد یعقوب ما اکرمنا کرامته فقال لهم یعقوب اذا رجعتم الی ملک مصر فاقرؤا علیه منی السلام وقولوا له ان ابانا یصلی علیک ویدعو لک بما اولیتنا ثم قال لهم این شمعون قالوا ارتهنه ملک مصر عنده واخبروه بالقصة ثم قالوا یا ابانا (منع منا الکیل) وفیه قولان احدهما انهم لما اخبروا یوسف بأخیهم من ابیهم طلبوا منه الطعام لابیهم واخیهم المتخلف عند ابیهم فمنعهم من ذلک حتی یحضر فقولهم منع منا الکیل اشارة الیه واراد بالکیل الطعام لانه یکال والقول الثانی انه سیمنع منا الکیل فی المستقبل وهو اشارة الی قول یوسف فان لم تأتونی به فلا کیل لکم عندی ولا تقربون وقال الحسن یمنع منا الکیل ان لم نحمل معنا اخانا وهو قوله تعالی اخبارا عنهم (فأرسل معنا أخانا) یعنی بنیامین (نکتل) قرئ بالیاء یعنی یکتل لنفسه وقرئ بالنون یعنی نکتل نحن جمیعا وایاه معنا (وانا له لحافظون) یعنی نرده الیک فلما قالوا لیعقوب هذه المقالة (قال) یعقوب (هل آمنکم علیه الا کما امنتکم علی أخیه من قبل) یعنی کیف آمنکم علی ولدی بنیامین وقد فعلتم بأخیه یوسف ما فعلتم وانکم ذکرتم مثل هذا الکلام بعینه فی یوسف وضمنتم لی حفظه وقلتم وانا له لحافظون فما فعلتم فلما لم یحصل الامان والحفظ هنالک فکیف یحصل ههنا ثم قال (فالله خیر حفظا) یعنی ان حفظ الله خیر من حفظکم له ففیه التفویض الی الله تعالی والاعتماد علیه فی جمیع الامور (وهو أرحم الراحمین) وظاهر هذا الکلام یدل علی انه ارسله معهم وانما ارسله معهم وقد شاهد ما فعلوا بیوسف لانه لم یشاهد فیما بینهم وبین بنیامین من الحقد والحسد مثل ما کان بینهم وبین یوسف او ان یعقوب شاهد منهم الخیر والصلاح لما کبروا فأرسله معهم او ان شدة القحط وضیق الوقت احوجه الی ذلک قوله تعالی (ولما فتحوا متاعهم) یعنی الذی حملوه من مصر فیحتمل ان یکون المراد به الطعام أو اوعیة الطعام (وجدوا بضاعتهم ردت الیهم) یعنی انهم وجدوا فی متاعهم ثمن الطعام الذی کانوا قد اعطوه لیوسف قد رد علیهم ودس فی متاعهم (قالوا یا أبانا ما نبغی) یعنی ماذا نبغی وای شیء نطلب وذلک انهم کانوا قد ذکروا لیعقوب احسان ملک مصر الیهم وحثوا یعقوب علی ارسال بنیامین معهم فلما فتحوا امتاعهم ووجدوا

(فان لم تأتونی به فلا کیل لکم عندی) فلا ابیعکم طعاما (ولا تقربون) أی فان لم تأتونی به تحرموا ولا تقربوا فهو داخل فی حکم الجزاء مجزوم معطوف علی محل قوله فلا کیل لکم أو هو بمعنی النهی (قالوا سنراود عنه أباه) سنخادعه عنه ونحتال حتی ننزعه من یده (وانا لفاعلون) ذلک لا محالة لا نفرط فیه ولا نتوانی قال فدعوا بعضکم رهنا فترکوا عنده شمعون وکان أحسنهم رأیا فی یوسف (وقال لفتیانه) کوفی غیر أبی بکر لفتیته غیرهم وهما جمع فتی کاخوة واخوان فی أخ وفعلة للقلة وفعلان للکثرة أی لغلمانه الکیالین (اجعلوا بضاعتهم فی رحالهم) أوعیتهم وکانت نعالا أو ادما او ورقا وهو الیق بالدس فی الرحال (لعلهم یعرفونها) یعرفون حق ردها وحق التکرم باعطاء البدلین (اذا انقلبوا الی اهلهم) وفرغوا ظروفهم (لعلهم یرجعون) لعل معرفتهم بذلک تدعوهم الی الرجوع الینا او ربما لا یجدون بضاعة بها یرجعون او ما فیهم من الدیانة یعیدهم لرد الامانة أو لم یر من الکرم ان یأخذ من ابیه واخوته ثمنا (فلما رجعوا الی ابیهم) بالطعام واخبروه بما فعل (قالوا یا ابانا منع منا الکیل) یریدون قول یوسف فان لم تأتونی به فلا کیل لکم عندی لانهم اذا انذروا بمنع الکیل فقد منع الکیل (فأرسل معنا أخانا نکتل) نرفع المانع من الکیل ونکتل من الطعام ما نحتاج الیه یکتل حمزة وعلی أی یکتل اخونا فینضم اکتیاله الی اکتیالنا (وانا له لحافظون) عن ان یناله مکروه (قال هل آمنکم علیه الا کما أمنتکم علی اخیه من قبل) یعنی انکم قلتم فی یوسف ارسله معنا غدا یرتع ویلعب وانا له لحافظون کما تقولونه فی اخیه ثم خنتم بضمانکم فما یأمننی من مثل ذلک ثم قال (فالله خیر حافظا) کوفی غیر أبی بکر فتوکل علی الله فیه ودفعه الیهم وهو حال او تمییز ومن قرأ حفظا فهو تمییز لا غیر (وهو أرحم الراحمین) فأرجو ان ینعم علی بحفظه ولا یجمع علی مصیبتین قال کعب لما قال فالله خیر حفظا قال الله تعالی وعزتی وجلالی لاردن علیک کلیهما (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت الیهم قالوا یا أبانا ما نبغی) ما للنفی أی ما نبغی فی القول ولا نتجاوز الحق أو ما نبغی شیئا وراء ما فعل بنا من الاحسان أو ما نرید منک بضاعة أخری او للاستفهام ای ای شیء نطلب وراء هذا

بضاعتهم قد ردت اليهم قالوا أي شيء نطلب من الكلام بعد هذا العيان من الاحسان والاكرام أوفى لنا الكيل ورد علينا الثمن وارادوا بهذا الكلام تطييب قلب أبيهم (هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير أهلنا) يقال مار أهله يميرهم ميرا اذا حمل لهم الطعام وجلبه من بلد آخر اليهم والمعنى انا نشتري لأهلنا الطعام ونحمله اليهم (ونحفظ أخانا) يعني بنيامين مما نخاف عليه حتى نرده اليك (ونزداد كيل بعير) يعني ونزداد لأجل أخينا على أحمالنا حمل بعير من الطعام (ذلك كيل يسير) يعني ان ذلك الحمل الذي نزداده من الطعام هين على الملك لأنه قد أحسن الينا وأكرمنا بأكثر من ذلك وقيل معناه ان الذي حملناه معنا كيل يسير قليل لا يكفينا وأهلنا (قال) يعني قال لهم يعقوب (لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله) يعني لن أرسل معكم بنيامين حتى تؤتوني عهد الله وميثاقه والموثق العهد المؤكد باليمين وقيل هو المؤكد بإشهاد الله عليه (لتأتنني به) دخلت اللام هنا لأجل اليمين وتقديره حتى تحلفوا بالله لتأتنني به (الا أن يحاط بكم) قال مجاهد الا أن تهلكوا جميعا فيكون عذرا لكم عندي لأن العرب تقول أحيط بفلان اذا هلك أو قارب هلاكه وقال قتادة الا أن تغلبوا جميعا فلا تقدروا على الرجوع (فلما آتوه موثقهم) يعني فلما أعطوه عهدهم وحلفوا له (قال الله على ما نقول وكيل) يعني قال يعقوب الله شاهد على ما نقول كان الشاهد وكيل بمعنى أنه موكول اليه هذا العهد وقيل وكيل بمعنى حافظ قال كعب الأحبار لما قال يعقوب فالله خير حفظا قال الله تعالى وعزتي وجلالي لأردن كلاهما بعد ما توكلت علي وفوضت أمرك الي وذلك أنه لما اشتد بهم الأمر وضاق عليهم الوقت وجهدوا أشد الجهد لم يجد يعقوب بدا من ارسال بنيامين معهم فأرسله معهم متوكلا على الله ومفوضا أمره اليه قوله عز وجل اخبارا عن يعقوب (وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) وذلك أنهم لما خرجوا من عند يعقوب قاصدين مصر قال لهم يا بني لا تدخلوا يعني مدينة مصر من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان لمدينة مصر يومئذ أربعة أبواب وقال السدي أراد الطرق لا الأبواب يعني من طرق متفرقة وانما أمرهم بذلك لأنه خاف عليهم العين لأنهم كانوا قد أعطوا جمالا وقوة وامتداد قامة وكانوا أولاد رجل واحد فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم المدينة لئلا يصابوا بالعين فان العين حق وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العين حق زاد البخاري ونهى عن الوشم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين وان استغسلتم فاغتسلوا عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت كان يؤمر العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين أخرجه أبو داود قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى أخذ جماهير العلماء بظاهر هذا الحديث وقالوا العين حق وأنكره طوائف من المبتدعة والدليل على فساد قولهم أن كل معنى يكون مخالفا في نفسه ولا يؤدي الى قلب حقيقة ولا افساد دليل فانه من مجوزات العقول واذا أخبر الشرع بوقوعه وجب اعتقاده ولا يجوز تكذيبه وانكاره وهل لا بد من فرق بين تكذيبهم بهذا وتكذيبهم بما يخبر به من أمور الآخرة قال وقد زعم بعض الطبائعيين المثبتين للعين تأثيرا أن العائن تنبعث من عينيه قوة سمية تتصل بالمعين فيهلك أو يفسد قالوا ولا يمتنع هذا كما لا يمتنع انبعاث قوة سمية من الأفعى والعقرب تتصل باللديغ فيهلك وان كان غير محسوس لنا فكذا العين قال المازري وهذا غير مسلم لأنا بينا في كتب علم الكلام أنه لا فاعل الا الله تعالى وبينا فساد القول بالطبائع وبينا أن المحدث لا يفعل في غيره شيئا فاذا تقرر هذا بطل ما قالوه ثم نقول هذا المنبعث من العين اما جوهر واما عرض فباطل أن يكون عرضا لأنه لا يقبل الانتقال وباطل أن يكون جوهرا لأن الجواهر متجانسة فليس بعضها بأن يكون مفسدا لبعض بأولى من عكسه فبطل ما قالوه وأقرب طريقة قالها من ينتحل الاسلام منهم أن قالوا لا يبعد أن تنبعث جواهر لطيفة غير مرئية من عين العائن لتتصل بالمعين فتتخلل مسام جسمه فيخلق الله عز وجل الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عند شرب السموم عادة

(هذه بضاعتنا ردت الينا) جملة مستأنفة موضحة لقوله ما نبغي والجمل بعدها معطوفة عليها أي ان بضاعتنا ردت الينا فنستظهر بها (ونمير أهلنا) في رجوعنا الى الملك أي نجلب لهم ميرة وهي طعام يحمل من غير بلدك (ونحفظ اخانا) في ذهابنا ومجيئنا فما يصيبه شيء مما تخافه (ونزداد كيل بعير) نزداد وسق بعير باستصحاب اخينا (ذلك كيل يسير) سهل عليه متيسر لا يتعاظمه (قال لن ارسله معكم حتى تؤتون) وبالياء مكي (موثقا) عهدا (من الله) والمعنى حتى تعطوني ما أتوثق به من عند الله أي اراد ان يحلفوا له بالله وانما جعل الحلف بالله موثقا منه لان الحلف به مما تؤكد به العهود وقد أذن الله في ذلك فهو اذن منه (لتأتنني به) جواب اليمين لان المعنى حتى تحلفوا لتأتنني به (الا ان يحاط بكم) الا ان تغلبوا فلم تطيقوا الاتيان به فهو مفعول له والكلام المثبت وهو قوله لتأتنني به في تأويل النفي أي لا تمتنعوا من الاتيان به الا للاحاطة بكم يعني لا تمتنعوا منه لعلة من العلل الا لعلة واحدة وهي ان يحاط بكم فهو استثناء من أعم العام في المفعول له والاستثناء من أعم العام لا يكون الا في النفي فلا بد من تأويله بالنفي (فلما آتوه موثقهم) قيل حلفوا بالله رب محمد عليه السلام (قال) بعضهم يسكت عليه لان المعنى قال يعقوب (الله على ما نقول) من طلب الموثق واعطائه (وكيل) رقيب مطلع غير ان السكتة تفصل بين القول والمقول وذا لا يجوز فالاولى ان يفرق بينهما بالصوت فيقصد بقوة النغمة اسم الله (وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة) الجمهور على انه خاف عليهم العين لجمالهم وجلالة امرهم ولم يأمرهم بالتفرق في الكرة الاولى لانهم كانوا مجهولين في الكرة الاولى فالعين حق عندنا وجوده بان يحدث الله تعالى عند النظر الى الشيء والاعجاب به نقصانا فيه وخللا وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين رضي الله عنهما فيقول أعيذكما بكلمات الله التامة من كل هامة ومن كل عين لامة وانكر الجبائي العين وهو مردود بما ذكرنا وقيل انه احب ان لا يفطن بهم اعداؤهم فيحتالون لاهلاكهم

اجزاها

اجراها الله عز وجل وليست ضرورة ولا طبيعة ألجأ الفعل إليها قال ومذهب أهل السنة ان المعين انما يفسد ويهلك عند نظر العائن بفعل الله تعالى أجرى الله تعالى العادة بان يخلق الضرر عند مقابلة هذا الشخص شخصاً آخر وهل ثم جواهر أم لا فهذا من مجوزات العقول لا يقطع فيه بواحد من الامرين وانما يقطع بنفي الفعل عنها واضافته الى الله تعالى فمن قطع من اطباء الاسلام بانبعاث الجواهر فقد أخطأ في قطعه وانما هو من الجائزات هذا ما يتعلق بعلم الاصول واما ما يتعلق بعلم الفقه فان الشرع قد ورد بالوضوء لهذا الامر في حديث سهل بن حنيف لما أصيب بالعين عند اغتساله رواه مالك في الموطا واما صفة وضوء العائن فمذكور في كتب شروح الحديث ومعروف عند العلماء فيطلب من هناك فليس هذا موضعه والله أعلم وقال وهب بن منبه في قوله لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة اني اخاف ان يغتالوا لما ظهر لهم في أرض مصر من التهمة حكاه ابن الجوزي عنه وقيل ان يعقوب عليه الصلاة والسلام كان قد علم ان ملك مصر هو ولده يوسف عليه الصلاة والسلام الا ان الله تعالى لم يأذن له في اظهاره ذلك فلما بعث أبناءه اليه قال لهم لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وكان غرضه أن يصل بنيامين الى أخيه يوسف في وقت الخلوة قبل اخوته والقول الاول أصح انه خاف عليهم العين ثم رجع الى علمه وفوض أمره الى الله بقوله (وما أغني عنكم من الله من شيء) يعني ان كان الله قد قضى عليكم بقضاء فهو يصيبكم مجتمعين كنتم او متفرقين فان المقدور كائن ولا ينفع حذر من قدر (ان الحكم الا لله) يعني وما الحكم الا لله وحده لا شريك له فيه وهذا تفويض من يعقوب في اموره كلها الى الله تعالى (عليه توكلت) يعني عليه اعتمدت في اموري كلها لا على غيره (وعليه فليتوكل المتوكلون ولما دخلوا من حيث امرهم ابوهم) يعني من الابواب المتفرقة وكان لمدينة مصر وقيل لمدينة الفرماء اربعة أبواب فدخلوا من أبوابها كلها (ما كان يغني عنهم من الله من شيء) وهذا تصديق من الله ليعقوب فيما قال وما أغني عنكم من الله من شيء (الا حاجة في نفس يعقوب قضاها) هذا استثناء منقطع ليس من الاول في شيء ومعناه لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها وهو انه أشفق عليهم اشفاق الآباء على الابناء وذلك انه خاف عليهم من العين أو خاف عليهم حسد أهل مصر أو خاف ان لا يردوا عليه فأشفق من هذا كله او بعضه (وانه) يعني يعقوب (لذو علم) يعني صاحب علم (لما علمناه) يعني لتعليمنا اياه ذلك العلم وقيل معناه وانه لذو علم للشيء الذي علمناه والمعنى انا لما علمناه هذه الاشياء حصل له العلم بتلك الاشياء وقيل وانه لذو حفظ لما علمناه وقيل انه كان يعمل ما يعمل عن علم لا عن جهل وقيل انه لعامل بما علمناه قال سفيان من لا يعمل بما يعلم لا يكون عالماً (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يعني لا يعلمون ما كان يعلم يعقوب لانهم لم يسلكوا طريق اصابة العلم وقال ابن عباس لا يعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه قوله تعالى (ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه) قال المفسرون لما دخل اخوة يوسف على يوسف قالوا أيها الملك هذا أخونا الذي أمرتنا ان نأتيك به فقد جئناك به فقال لهم أحسنتم وأصبتم وستجدون ذلك عندي ثم أنزلهم وأكرم نزلهم ثم انه أضافهم وأجلس كل اثنين على مائدة فبقي بنيامين وحيداً فبكى وقال لو كان أخي يوسف حياً لاجلسني معه فقال لهم يوسف لقد بقي هذا وحده فقالوا كان له أخ فهلك قال لهم فانا أجلس معه على مائدته وجعل يؤاكله فلما كان الليل أمرهم بمثل ذلك وقال كل اثنين منكم ينامان على فراش واحد فبقي بنيامين وحده فقال يوسف هذا ينام عندي على فراشي فنام بنيامين مع يوسف على فراشه فجعل يوسف يضمه اليه ويشم ريحه حتى اصبح فلما أصبح قال لهم اني ارى هذا الرجل وحيداً ليس معه ثان وسأضمه الي فيكون معي في منزلي ثم انه انزلهم واجرى عليهم الطعام فقال روبيل ما رأينا مثل هذا فذلك قوله آوى اليه أخاه يعني ضمه وانزله معه في منزله فلما خلا به قال له يوسف ما اسمك قال بنيامين قال وما بنيامين قال المتوكل وذلك انه لما ولدته أمه هلكت قال وما اسم امك قال راحيل قال فهل لك من ولد قال عشر بنين قال وهل لك من أخ لامك قال كان لي أخ فهلك قال يوسف أتحب ان أكون أخاك بدل أخيك

(وما أغني عنكم من الله من شيء) أي ان كان الله اراد بكم سوءاً لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما اشرت به عليكم من التفرق وهو مصيبكم لا محالة (ان الحكم الا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) قال تعالى (ولما دخلوا من حيث امرهم ابوهم) أي متفرقين (ما كان يغني عنهم من الله) أي قضائه (من شيء) أي ... دخولهم من أبواب متفرقة حيث اصابهم ما ساءهم مع تفرقهم بذلك من اضافة السرقة اليهم وافتضاحهم بأخذ الصواع في رحله وأخذ أخيهم بوجدان الصواع وتضاعف ... (الا حاجة) استثناء منقطع أي ولكن حاجة (في نفس يعقوب قضاها) وهي شفقته عليهم (وانه لذو علم لما علمناه) لتعليمنا اياه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك (ولما دخلوا على يوسف آوى) ضم (اليه أخاه) قال ... بنيامين وروى انهم قالوا له هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم احسنتم ثم انزلهم واكرمهم ثم اضافهم واجلس كل اثنين على مائدة فبقي بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخي يوسف حياً لاجلسني معه فقال يوسف ... فاجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله وقال له أتحب ان اكون اخاك بدل اخيك الهالك قال ومن يجد اخاً مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وعانقه ثم

الهالك قال بنيامين ومن يجد أخا مثلك أيها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف عليه الصلاة والسلام وقام اليه وعانقه و (قال) له (انى أنا أخوك) يعني يوسف (فلا تبتئس) يعني لا تحزن وقال اهل اللغة تبتئس تفتعل من البؤس وهو الضرر والشدة والابتئاس اجتلاب الحزن والبؤس (بما كانوا يعملون) يعني فلا تحزن بشئ فعلوه بنا فيما مضى فان الله قد احسن الينا ونجانا من الهلاك وجمع بيننا وقيل ان يوسف صفح عن اخوته وصفا لهم فأراد ان يجعل قلب اخيه بنيامين مثل قلبه صافيا عليهم ثم قال يوسف لاخيه بنيامين لا تعلم اخوتك شيأ مما اعلمتك به ثم انه اوفى لاخوته الكيل وزاد لكل واحد حمل بعير ولبنيامين حمل بعير باسمه ثم امر بسقاية الملك فجعلت فى رحل اخيه بنيامين قال السدى وهو لا يشعر وقال كعب لما قال له يوسف انى انا اخوك قال بنيامين أنا لا أفارقك فقال يوسف قد علمت اغتمام والدى علي فاذا حبستك عندى ازداد غمه ولا يمكنني هذا الا بعد ان اشهرك بأمر فظيع وانسبك الى ما لا يحمد قال لا ابالي فافعل ما بدا لك فانى لا أفارقك قال فانى ادس صاعي فى رحالك ثم انادي عليكم بالسرقة ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك قال فافعل ما شئت فذلك قوله عز وجل (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه) وهى المشربة التى كان الملك يشرب فيها قال ابن عباس كانت من زبرجد وقال ابن اسحاق كانت من فضة وقيل من ذهب وقال عكرمة كانت مشربة من فضة مرصعة بالجوهر جعلها يوسف مكيالا لئلا يكال بغيرها وكان يشرب فيها والسقاية والصواع اسم لاناء واحد وجعلت فى وعاء طعام اخيه بنيامين ثم ارتحلوا راجعين الى بلادهم فامهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلا وقيل حتى خرجوا من العمارة ثم ارسل خلفهم من استوقفهم وحبسهم (ثم اذن مؤذن) يعنى نادى مناد واعلم معلم والاذان فى اللغة الاعلام (ايتها العير) وهى القافلة التى فيها الاحمال وقال مجاهد العير الحمير والبغال وقال الهيثم كلما اسير عليه من الابل والحمير والبغال فهى عير وقول من قال انها الابل خاصة باطل وقيل العير الابل التى تحمل عليها الاحمال سميت بذلك لانها تعير اى تذهب وتجيء وقيل هى قافلة الحمير ثم كثر ذلك فى الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عير وقوله ايتها العير اراد اصحاب العير (انكم لسارقون) فقفوا والسرقة اخذ ما ليس له اخذه فى اخفاء فان قلت هل كان هذا النداء بأمر يوسف ام لا فان كان بأمره فكيف يليق بيوسف مع علو منصبه وشريف رتبته من النبوة والرسالة ان يتهم اقواما وينسبهم الى السرقة كذبا مع علمه ببراءتهم من ذلك وان كان ذلك النداء بغير امره فهلا اظهر براءتهم عن تلك التهمة التى نسبوا اليها قلت ذكر العلماء عن هذا السؤال اجوبة احدها ان يوسف لما اظهر لاخيه انه اخوه قال لست افارقك قال لا سبيل الى ذلك الا بتدبير حيلة أنسبك فيها الى ما لا يليق قال رضيت بذلك فعلى هذا التقدير لم يتألم قلبه بسبب هذا الكلام بل قد رضي به فلا يكون ذنبا الثانى ان يكون المعنى انكم لسارقون ليوسف من ابيه الا انهم ما اظهروا هذا الكلام فهو من المعاريض وفى المعاريض مندوحة عن الكذب الثالث يحتمل ان يكون المنادى ربما قال ذلك على سبيل الاستفهام وعلى هذا التقدير لا يكون كذبا الرابع ليس فى القرآن ما يدل على انهم قالوا ذلك بأمر يوسف وهو الاقرب الى ظاهر الحال لانهم طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك احد غيرهم وغلب على ظنهم انهم هم الذين اخذوها فقالوا ذلك بناء على غلبة ظنهم (قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون) قال اصحاب الاخبار لما وصل الرسل الى اخوة يوسف قالوا لهم ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم ونوف اليكم الكيل ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم قالوا بلى وما ذاك قالوا فقدنا سقاية الملك ولا نتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى واقبلوا عليهم ماذا اى ما الذى تفقدون والفقدان ضد الوجود (قالوا) يعني المؤذن واصحابه (نفقد صواع الملك) الصواع الذى يكال به وجمعه اصوع والصواع لغة فيه وجمعه صيعان (ولمن جاء به) يعنى بالصواع (حمل بعير) يعنى من الطعام (وانا به زعيم) اى كفيل قال الكلبى الزعيم هو الكفيل بلسان اهل اليمن وهذه الآية تدل على ان الكفالة كانت صحيحة فى شرعهم وقد حكم رسول الله صلى

اللہ

(قال) له (انى أنا أخوك) يوسف (ولا تبتئس) فلا تحزن (بما كانوا يعملون) بنا فيما مضى فان الله قد احسن الينا وجمعنا على خير ولا تعلمهم بما اعلمتك وروى انه قال له فانا لا افارقك قال لقد علمت اغتمام والدى بى فان حبستك ازداد غمه ولا سبيل الى ذلك الا ان انسبك الى ما لا يحمد قال لا ابالى فافعل ما بدا لك قال فانى ادس صاعى فى رحالك ثم انادى عليك بانك سرقته ليتهيأ لى ردك بعد تسريحك معهم فقال افعل (فلما جهزهم بجهازهم) هيأ اسبابهم واوفى الكيل لهم (جعل السقاية فى رحل أخيه) السقاية هى مشربة يسقى بها وهى الصواع قيل كان يسقى بها الملك ثم جعلت صاعا يكال به لعزة الطعام وكان يشبه الطاس من فضة او ذهب (ثم أذن مؤذن) ثم نادى مناد آذنه اى اعلمه واذن اكثر الاعلام ومنه المؤذن لكثرة ذلك منه وروى انهم ارتحلوا وامهلهم يوسف عليه السلام حتى انطلقوا ثم امر بهم فادركوا وحبسوا ثم قيل لهم (ايتها العير) هى الابل التى عليها الاحمال لانها تعير اى تذهب وتجئ والمراد اصحاب العير (انكم لسارقون) كناية عن سرقتهم اياه من ابيه (قالوا واقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك) هو الصاع (ولمن جاء به حمل بعير وانا به زعيم) يقوله المؤذن يريد وانا بحمل البعير كفيل أؤديه الى من جاء به واراد وسق بعير من طعام جعلا لمن حصله

الله عليه وسلم بها فى قوله الحميل غارم والحميل الكفيل فان قلت كيف تصح هذه الكفالة مع ان السارق
لا يستحق شيئا قلت لم يكونوا سراقا فى الحقيقة فيحمل ذلك على مثل ردّ لضائع فيكون جعالة ولعل مثل
هذه الكفالة كانت جائزة عندهم فى ذلك الزمان فيحمل عليه (قالوا) يعنى اخوة يوسف (تالله) التاء
بدل من الواو ولا تدخل الا على اسم الله فى اليمين خاصة تقديره والله (لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الارض
وما كنا سارقين) قال المفسرون ان اخوة يوسف حلفوا على أمرين احدهما انهم ما جاؤا لاجل الفساد
فى الارض والثانى انهم ما جاؤا سارقين وانما قالوا هذه المقالة لانه كان قد ظهر من أحوالهم ما يدل على
صدقهم وهو انهم كانوا مواظبين على أنواع الخير والطاعة والبر حتى بلغ من أمرهم انهم سدوا أفواه دوابهم
لئلا تؤذى زرع الناس ومن كانت هذه صفته فالفساد فى حقه ممتنع واما الثانى وهو انهم ما كانوا
سارقين فلانهم قد كانوا ردوا البضاعة التى وجدوها فى رحالهم ولم يستحلوا أخذها ومن كانت هذه
صفته فليس بسارق فلاجل ذلك قالوا لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الارض وما كنا سارقين فلما تبينت
براءتهم من هذه التهمة (قالوا) يعنى أصحاب يوسف وهو المنادى وأصحابه (فما جزاؤه ان كنتم
كاذبين) يعنى فما جزاء السارق ان كنتم كاذبين فى قولكم ما جئنا لنفسد فى الارض وما كنا سارقين (قالوا)
يعنى اخوة يوسف (جزاؤه من وجد فى رحله) يعنى جزاء السارق الذى وجد فى رحله ان يسلم برقبته الى
المسروق منه فيسترقه سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب فى حكم السارق وكان فى حكم ملك مصر ان
يضرب السارق ويغرم ضعفى قيمة المسروق وكان هذا فى شرعهم فى ذلك الزمان يجرى مجرى القطع
فى شرعنا فاراد يوسف ان يأخذ بحكم الله فى السارق فلذلك رد الحكم اليهم والمعنى ان جزاء السارق ان
يستعبد سنة جزاء له على جرمه وسرقته (فهو جزاؤه) يعنى هذا الجزاء جزاؤه (كذلك نجزى الظالمين)
يعنى مثل هذا الجزاء وهو ان يسترق السارق سنة نجزى الظالمين ثم قيل هذا الكلام من بقية
كلام اخوة يوسف وقيل هو من كلام أصحاب يوسف وعلى هذا ان اخوة يوسف لما قالوا جزاء السارق
ان يسترق سنة قال أصحاب يوسف كذلك نجزى الظالمين يعنى السارقين قوله عز وجل (فبدأ
بأوعيتهم قبل وعاء اخيه) قال اهل التفسير ان اخوة يوسف لما أقروا ان جزاء السارق ان يسترق سنة
قال أصحاب يوسف لا بد من تفتيش رحالكم فردوهم الى يوسف فامر بتفتيشها بين يديه فبدأ بتفتيش
اوعيتهم قبل وعاء اخيه لازالة التهمة فجعل يفتش اوعيتهم واحدا واحدا قال قتادة ذكر لنا انه كان
لا يفتح متاعا ولا ينظر وعاء الا استغفر الله تأثما مما قذفهم به حتى لم يبق الا رحل بنيامين قال ما أظن
هذا اخذ شيئا قال اخوته والله لا نتركك حتى تنظر فى رحله فانه اطيب لنفسك وانفسنا فلما فتحوا
متاعه وجدوا الصواع فيه فذلك قوله تعالى (ثم استخرجها من وعاء اخيه) انما انث الكناية
لانه ردها الى السقاية وقيل ان الصواع يذكر ويؤنث فلما أخرج الصواع من رحل بنيامين
نكس اخوة يوسف رؤسهم من الحياء واقبلوا على بنيامين يلومون ويقولون له ما صنعت بنا فضحتنا
وسودت وجوهنا يا ابن راحيل ما زال لنا منكم بلاء متى اخذت هذا الصواع فقال بنيامين بل بنو راحيل
ما زال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخى فأهلكتموه فى البرية ان الذى وضع هذا الصواع فى رحلى وضع البضاعة
فى رحالكم قالوا فأخذ بنيامين رقيقا وقيل ان المنادى واصحابه هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين
استخرجوا الصواع من رحل بنيامين فأخذوه برقبته وردوه الى يوسف (كذلك كدنا ليوسف)
يعنى ومثل ذلك الكيد كدنا ليوسف وهو اشارة الى الحكم الذى ذكره اخوة يوسف باسترقاق السارق
اى مثل ذلك الحكم الذى ذكره اخوة يوسف حكمنا به ليوسف ولفظ الكيد مستعار للحيلة والخديعة
وهذا فى حق الله عز وجل محال فيجب تأويل هذه اللفظة بما يليق بجلال الله سبحانه وتعالى فنقول
الكيد هنا جزاء الكيد يعنى كما فعلوا بيوسف فى الابتداء فعلنا بهم والكيد من الخلق الحيلة ومن الله
التدبير بالحق والمعنى كما الهمنا اخوة يوسف بأن حكموا ان جزاء السارق ان يسترق كذلك الهمنا يوسف

(قالوا تالله) قسم فيه معنى التعجب مما اضيف
اليهم (لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الارض)
استشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل
ديانتهم وامانتهم حيث دخلوا وافواه رواحلهم
مشدودة لئلا تتناول زرعا او طعاما لاحد من اهل
السوق ولانهم ردوا بضاعتهم التى وجدوها
فى رحالهم (وما كنا سارقين) وما كنا نوصف قط
بالسرقة (قالوا فما جزاؤه) الضمير للصواع
اى فما جزاء سرقته (ان كنتم كاذبين)
فى جحودكم وادعائكم البراءة منه (قالوا جزاؤه
من وجد فى رحله) اى جزاء سرقته أخذ من
وجد فى رحله وكان حكم السارق فى آل يعقوب
ان يسترق سنة فلذلك استفتوا فى جزائه وقولهم
(فهو جزاؤه) تقرير للحكم اى فأخذ السارق
نفسه هو جزاؤه لا غير جزاؤه مبتدأ والجملة
الشرطية كما هى خبره (كذلك نجزى الظالمين)
اى السراق بالاسترقاق (فبدأ بأوعيتهم قبل
وعاء اخيه) فبدأ بتفتيش اوعيتهم قبل وعاء
بنيامين لنفى التهمة حتى بلغ وعاءه فقال
ما اظن هذا اخذ شيئا فقالوا والله لا نتركه
حتى تنظر فى رحله فانه اطيب لنفسك وانفسنا
(ثم استخرجها) اى الصواع (من وعاء اخيه)
ذكر ضمير الصواع مرات ثم انثه لان التانيث
يرجع الى السقاية او لان الصواع يذكر ويؤنث
الكاف فى (كذلك) فى محل النصب
اى مثل ذلك الكيد العظيم (كدنا ليوسف)
يعنى علمناه اياه

حتى دس الصواع فى رحل أخيه ليضمه اليه على ماحكم به اخوته وقال ابن الاعرابى الكيد التدبير بالباطل
و بحق فعلى هذا يكون المعنى كذلك دبرنا ليوسف وقيل صنعنا ليوسف وقال ابن الانبارى كدنا وقع خبرا
من الله عز وجل على خلاف معناه فى اوصاف المخلوقين فانه اذا اخبر به عن مخلوق كان تحته احتيال
وهو فى موضع فعل الله معنى من المعانى المذمومة ويخلص بانه وقع بمن يكيده تدبير مايريده به من حيث
لا يشعر ولا يقدر على دفعه فهو من الله مشيئته بالذى يكون من أجل ان المخلوق اذا كاد المخلوق ستر
عنه ماينويه ويضمره له من الذى يقع به من الكيد فهو من الله تعالى استدراجه وماختم الله به عاقبته
والذى وقع باخوة يوسف من كيد الله هو ما انتهى اليه شأن يوسف من ارتفاع المنزلة وتمام النعمة وحيث
جرى الامر على غير ماقدروا وأملوا كله وخلوص أبيهم له بعده وكل ذلك جرى بتدبير الله تعالى وخفى
لطفه سماه كيدا لانه اشبه كيد المخلوقين فعلى هذا يكون كيد الله عز وجل ليوسف عليه الصلاة
والسلام عائدا الى جميع ما أعطاه الله وأنعم به عليه على خلاف تدبير اخوته من غير ان يشعروا بذلك
وقوله تعالى (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) يعنى فى حكم الملك وقضائه لانه كان فى حكم الملك
ان السارق يضرب و يغرم ضعفى قيمة المسروق يعنى فى حكم الملك وقضائه فلم يتمكن يوسف من حبس
أخيه عنده فى حكم الملك فالله تعالى ألهم يوسف مادبره حتى وجد السبيل الى ذلك (الا أن يشاء الله)
يعنى ان ذلك الامر كان بمشيئة الله وتدبيره لان ذلك كله كان الهاما من أمر الله ليوسف واخوته حتى جرى
الامر على وفق المراد (نرفع درجات من نشاء) يعنى بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على اخوته وفى هذه الآية
دلالة على أن العلم الشريف اشرف المقامات وأعلى الدرجات لان الله تعالى مدح يوسف ورفع درجته
على اخوته بالعلم وبما ألهمه على وجه الهداية والصواب فى الامور كلها (وفوق كل ذى علم عليم) قال ابن
عباس فوق كل عالم عالم الى أن ينتهى العلم الى الله تعالى فالله تعالى فوق كل عالم لانه هو الغنى بعلمه
عن التعليم وفى الآية دليل على ان اخوة يوسف كانوا علماء وكان يوسف أعلم منهم قال ابن الانبارى
يجب ان يتهم العالم نفسه و يستشعر التواضع لمواهب ربه تعالى ولا يطمع نفسه فى الغلبة لانه لا يخلو
عالم من عالم فوقه قوله تعالى (قالوا) يعنى اخوة يوسف (ان يسرق) يعنى بنيامين الصواع (فقد سرق
أخ له من قبل) يعنى يوسف ظاهر الآية يقتضى ان اخوة يوسف قالوا للملك ان هذا الامر ليس بغريب منه
فان أخاه الذى هلك كان سارقا أيضا وكان غرضهم من هذا الكلام انا لسنا على طريقته ولا على سيرته
بل هذا وأخوه كانا على هذه الطريقة وهذه السيرة لانهما من أم أخرى غير أمنا واختلفوا فى السرقة
التى نسبوها الى يوسف عليه الصلاة والسلام فقال سعيد بن جبير وقتادة كان لجده أبى أمه صنم
وكان يعبده فأخذه يوسف سرا وكسره وألقاه فى الطريق لئلا يعبده وقال مجاهد ان يوسف جاءه
سائل يوما فأخذ بيضة من البيت فناولها له وقال سفيان بن عيينة أخذ دجاجة من الطير الذى
كان فى بيت يعقوب فأعطاها سائلا وقال وهب كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء وذكر محمد
ابن اسحاق ان يوسف كان عند عمته ابنة اسحاق بعد موت أمه راحيل فحضنته عمته واحبته حبا
شديدا فلما ترعرع وكبر وقعت محبة يعقوب عليه فأتاها فقال لاخته يا اختاه سلمى الى يوسف فوالله
ما اقدر على ان يغيب عنى ساعة واحدة فقالت لا اعطيكه فقال لها والله ما انا بتاركه عندك فقالت
دعه عندى اياما انظر اليه لعل ذلك يسلينى عنه ففعل ذلك فعمدت الى منطقة كانت لاسحاق وكانوا
يتوارثونها بالكبر وكانت اكبر اولاد اسحاق فكانت عندها فشدت المنطقة على وسط يوسف تحت
ثيابه وهو صغير لا يشعر ثم قالت لقد فقدت منطقة اسحاق ففتشوا أهل البيت فوجدوها مع يوسف
فقالت انه لسلم لى يعنى يوسف فقال يعقوب ان كان قد فعل ذلك فهو سلم لك فأمسكته عندها
حتى ماتت فلذلك قال اخوة يوسف ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل يعنون هذه السرقة قال ابن
الانبارى وليس فى هذه الافعال كلها ما يوجب السرقة ولكنها تشبه السرقة فعيره بها عند

(ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) تفسير للكيد وبيان له لان الحكم فى دين الملك اى فى سيرته للسارق ان يغرم مثلى ما أخذ لا ان يستعبد (الا أن يشاء الله) اى ما كان ليأخذه الا بمشيئة الله وارادته فيه (نرفع درجات من نشاء) اى فى العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه (وفوق كل ذى علم) بالتنوين كوفى (عليم) فوقه أرفع درجة منه فى علمه او فوق العلماء كلهم عليم هم دونه فى العلم وهو الله عز وجل (قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل) أرادوا يوسف قيل دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه وقيل كان فى المنزل دجاجة فأعطاها السائل وقيل كانت منطقة لابراهيم عليه السلام يتوارثها اكابر ولده فورثها اسحاق ثم وقعت الى ابنته وكانت اكبر اولاده فحضنت يوسف وهى عمته بعد وفاة أمه وكانت لا تصبر عنه فلما شب اراد يعقوب ان ينزعه منها فعمدت الى المنطقة فحزمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت فقدت منطقة اسحاق فانظروا من اخذها فوجدوها محزومة على يوسف فقالت انه لى سلم افعل به ماشئت فخلاه يعقوب عندها حتى ماتت وروى انهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس اخوته رؤسهم حياء واقبلوا عليه وقالوا له فضحتنا وسودت وجوهنا يا بنى راحيل ما يزال لنا منكم بلاء متى أخذت هذا الصاع فقال بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم بلاء ذهبتم بأخى وأهلكتموه ووضع هذا الصواع فى رحلى الذى وضع البضاعة فى رحالكم

الغضب (فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم) في هاء الكناية ثلاثة أقوال أحدها ان الضمير يرجع الى الكلمة التي بعدها وهي قوله تعالى (قال) يعني يوسف (انتم شر مكانا) روى هذا المعنى العوفي عن ابن عباس والثاني ان الضمير يرجع الى الكلمة التي قالوها في حقه وهي قولهم فقد سرق أخ له من قبل وهذا معنى قول أبي صالح عن ابن عباس فعلى هذا القول يكون المعنى فأسر يوسف جواب الكلمة التي قالوها في حقه ولم يجبهم عليها والثالث ان الضمير يرجع الى الحجة فيكون المعنى على هذا القول فأسر يوسف الاحتجاج عليهم في ادعائهم عليه السرقة ولم يبدها لهم قال انتم شر مكانا يعني منزلة عند الله ممن رميتموه بالسرقة لانه لم يكن من يوسف سرقة في الحقيقة وخيانتكم حقيقة (والله أعلم بما تصفون) يعني بحقيقة ما تقولون قوله عز وجل (قالوا) يعني اخوة يوسف (يا أيها العزيز) يخاطبون بذلك الملك (ان له أبا شيخا كبيرا) قال أصحاب الاخبار والسير ان يوسف عليه الصلاة والسلام لما استخرج الصواع من رحل أخيه بنيامين نقره وأدناه الى اذنه ثم قال ان صواعي هذا يخبرني انكم اثنا عشر رجلا لاب واحد وانكم انطلقتم بأخ لكم من أبيكم فبعتموه قال بنيامين أيها الملك سل صواعك هذا من جعله في رحلي فنقره ثم قال ان صواعي غضبان وهو يقول كيف تسألني عن صاحبي وقد رأيت مع من كنت قالوا فغضب روبيل لذلك وكان بنو يعقوب اذا غضبوا لم يطاقوا وكان روبيل اذا غضب لم يقم لغضبه شئ وكان اذا صاح ألقت كل حامل حملها اذا سمعت صوته وكان مع هذا اذا مسه أحد من ولد يعقوب يسكن غضبه وكان أقوى الاخوة وأشدهم وقيل كانت هذه صفة شمعون بن يعقوب وقيل انه قال لاخوته كم عدد الاسواق بمصر قالوا عشرة قال اكفوني أنتم الاسواق وأنا اكفيكم الملك او اكفوني أنتم الملك وانا اكفيكم الاسواق فدخلوا على يوسف فقال روبيل أيها الملك لتردن علينا أخانا او لاصيحن صيحة لا يبقى بمصر امرأة حامل الا وضعت ولدها وقامت كل شعرة في جسد روبيل حتى خرجت من ثيابه فقال يوسف لابن له صغير قم الى جنب هذا فمسه او خذ بيده فأتى له فلما مسه سكن غضبه فقال لاخوته من مسني منكم قالوا لم يصبك منا أحد فقال روبيل ان هذا بذر من بذر يعقوب وقيل انه غضب ثانيا فقام اليه يوسف وركضه برجله وأخذ بتلابيبه فوقع على الارض وقال أنتم يا معشر العبرانيين تزعمون ان لا احد أشد منكم فلما رأوا ما نزل بهم ورأوا ان لا سبيل الى تخليصه خضعوا وذلوا وقالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا يعني في السن ويحتمل ان يكون كبيرا في القدر لانه نبي من اولاد الانبياء (فخذ أحدنا مكانه) يعني بدلا عنه لانه يحبه ويتسلى به عن أخيه الهالك (انا نراك من المحسنين) يعني في افعالك كلها وقيل من المحسنين الينا في توفية الكيل وحسن الضيافة ورد البضاعة الينا وقيل ان رددته الينا من المحسنين وأخذت احدنا مكانه كنت من المحسنين (قال معاذ الله) يعني قال يوسف أعوذ بالله معاذا (ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده) لم يقل من سرق تحرزا عن الكذب لانه يعلم ان أخاه ليس بسارق (انا اذا لظالمون) يعني ان أخذنا بريئا بذنب غيره فان قلت كيف استجاز يوسف ان يعمل مثل هذه الاعمال بأبيه ولم يخبره بمكانه وحبس أخاه ايضا عنده مع علمه بشدة وجد أبيه عليه ففيه ما في العقوق وقطيعة الرحم وقلة الشفقة وكيف يجوز ليوسف مع علو منصبه من النبوة والرسالة ان يزور على اخوته ويروج عليهم مثل هذا مع ما فيه من الايذاء لهم فكيف يليق به هذا كله قلت قد ذكر العلماء عن هذا السؤال أجوبة كثيرة وأحسنها واصحها انه انما فعل ذلك بأمر الله تعالى له لا عن امره وانما امره الله بذلك ليزيد بلاء يعقوب فيضاعف له الاجر على البلاء ويلحقه بدرجة آبائه الماضين ولله تعالى اسرار لا يعلمها أحد من خلقه فهو المتصرف في خلقه بما يشاء وهو الذي اخفى خبر يوسف عن يعقوب في طول هذه المدة مع قرب المسافة لما يريد ان يدبره فيهم والله اعلم بأحوال عباده قوله عز وجل (فلما استيأسوا منه) يعني أيسوا من يوسف ان يجيبهم لما سألوه وقيل أيسوا من اخيهم ان يرد عليهم وقال أبو عبيدة استيأسوا اي استيقنوا ان الاخ لا يرد اليهم (خلصوا نجيا) يعني خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون ليس فيهم

(فأسرها) أي مقالتهم انه سرق كأنه لم يسمعوا (يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال انتم شر مكانا) تمييز أي انتم شر منزلة في السرق لانكم سرقتم اخاكم يوسف من ابيه (والله اعلم بما تصفون) تقولون او تكذبون (قالوا يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا) في السن أو في القدر (فخذ احدنا مكانه) بدله على وجه الاسترهان أو الاستعباد فان اباه يتسلى به عن اخيه المفقود (انا نراك من المحسنين) الينا فأتمم احسانك أو من عادتك الاحسان فاجر على عادتك ولا تغيرها (قال معاذ الله ان نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده) اي نعوذ بالله معاذا من ان نأخذ فأضيف المصدر الى المفعول به وحذف من (انا اذا لظالمون) اذا جواب لهم وجزاء لان المعنى ان اخذنا بدله ظلما وهذا لانه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصاع في رحله واستعباده فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلما في مذهبكم فلم تطلبون ما عرفتم انه ظلم (فلما استيأسوا) يئسوا وزيادة السين والتاء للمبالغة كما مر في استعصم (منه) من يوسف واجابته اياهم (خلصوا) انفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم (نجيا) ذوي نجوى او فوجا نجيا اي مناجيا لمناجاة بعضهم بعضا أو تمحضوا تناجيا لاستجماعهم لذلك وافاضتهم فيه بجد واهتمام كأنهم في انفسهم صورة التناجي وحقيقته فالنجي يكون بمعنى المناجي كالسمير بمعنى السامر وبمعنى المصدر الذي هو التناجي وكان تناجيهم في تدبير امرهم على اي صفة يذهبون وماذا يقولون لابيهم في شأن اخيهم

غيرهم (قال كبيرهم) يعني في العقل والعلم لا في السن قال ابن عباس الكبير هو يهوذا وكان أعقلهم وقال مجاهد هو شمعون وكانت له الرآسة على اخوته وقال قتادة والسدي والضحاك هو روبيل وكان أكبرهم سنا وأحسنهم رأيا في يوسف لأنه نهاهم عن قتله (ألم تعلموا ان أباكم) يعني يعقوب (قد أخذ عليكم موثقا) يعني عهدا (من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف) يعني قصرتم في أمر يوسف حتى ضيعتموه (فلن أبرح الارض) يعني الارض التي أنا فيها وهي ارض مصر والمعنى فلن اخرج من ارض مصر ولا أفارقها على هذه الصورة (حتى يأذن لي أبي) يعني في الخروج من ارض مصر فيدعوني اليه (او يحكم الله لي) برد أخي علي او بخروجي معكم وترك أخي او يحكم الله بالسيف فأقاتلهم حتى استرد أخي (وهو خير الحاكمين) لانه يحكم بالحق والعدل والانصاف والمراد من هذا الكلام الالتجاء الى الله تعالى في اقامة عذره عند والده يعقوب عليه الصلاة والسلام (ارجعوا الى أبيكم) يعني يقول الاخ الكبير الذي عزم على الاقامة بمصر لاخوته الباقين ارجعوا الى أبيكم يعقوب (فقولوا) له (يا أبانا ان ابنك سرق) انما قالوا هذه المقالة ونسبوه الى السرقة لانهم شاهدوا الصواع وقد أخرج من متاع بنيامين فغلب على ظنهم انه سرق فلذلك نسبوه الى السرقة في ظاهر الامر لا في حقيقة الحال ويدل على انهم لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم (وما شهدنا الا بما علمنا) يعني ولم نقل ذلك الا بعد ان رأينا اخراج الصواع وقد اخرج من متاعه وقيل معناه ما كانت منا شهادة في عمرنا على شيء الا بما علمنا وهذه ليست بشهادة انما هو خبر عن صنيع ابنك انه سرق بزعمهم فيكون المعنى ان ابنك سرق في زعم الملك واصحابه لا انا نشهد عليه بالسرقة وقرأ ابن عباس والضحاك سرق بضم السين وكسر الراء وتشديدها اي نسب الى السرقة واتهم بها وهذه القراءة لا تحتاج الى تأويل ومعناها ان القوم نسبوه الى السرقة الا ان هذه القراءة ليست مشهورة فلا تقوم بها حجة والقراءة الصحيحة المشهورة هي الاولى وقوله وما شهدنا الا بما علمنا يعني وما قلنا هذا الا بما علمنا فانا رأينا اخراج الصواع من متاعه وقيل معناه ما كانت منا شهادة وانما هو خبر عن صنيع ابنك بزعمهم وقيل قال لهم يعقوب هب انه سرق فما يدري هذا الرجل ان السارق يؤخذ بسرقته الا بقولكم قالوا ما شهدنا عنده ان السارق يسترق الا بما علمنا من الحكم وكان الحكم كذلك عند الانبياء قبله ويعقوب وبنيه وأورد على هذا القول كيف جاز ليعقوب اخفاء هذا الحكم حتى ينكر على بنيه ذلك واجيب عنه بانه يحتمل ان يكون ذلك الحكم كان مخصوصا بما اذا كان المسروق منه مسلما فلهذا انكر عليهم اعلام الملك بهذا الحكم لظنه انه كافر (وما كنا للغيب حافظين) قال مجاهد وقتادة يعني ما كنا نعلم ان ابنك يسرق ويصير امرنا الى هذا ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به معنا وانما قلنا ونحفظ اخانا مما لنا الى حفظه منه سبيل وقال ابن عباس ما كنا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين وقيل معناه ان حقيقة الحال غير معلومة لنا فان الغيب لا يعلمه الا الله فلعل الصواع دس في رحله ونحن لا نعلم بذلك (واسأل القرية التي كنا فيها) يعني واسأل اهل القرية الا انه حذف المضاف للايجاز ومثل هذا النوع من المجاز مشهور في كلام العرب والمراد بالقرية مصر وقال ابن عباس هي قرية من قرى مصر كان قد جرى فيها حديث السرقة والتفتيش (والعير التي اقبلنا فيها) يعني واسأل اهل القافلة التي كنا فيها وكان صحبهم قوم من كنعان من جيران يعقوب (وانا لصادقون) يعني فيما قلناه وانما امرهم اخوهم الذي اقام بمصر بهذه المقالة مبالغة في ازالة التهمة عن انفسهم عند ابيهم لانهم كانوا متهمين عنده بسبب واقعة يوسف (قال بل سولت لكم انفسكم امرا) فيه اختصار تقديره فرجعوا الى ابيهم فأخبروه بما جرى لهم في سفرهم ذلك وبما قال لهم كبيرهم وامرهم ان يقولوه لابيهم فعند ذلك قال لهم يعقوب بل سولت يعني بل زينت لكم انفسكم امرا وهو حمل اخيكم الى مصر لطلب نفع عاجل فآل امركم الى ما آل وقيل معناه بل خيلت لكم انفسكم انه سرق وما سرق (فصبر جميل) تقدم تفسيره في اول السورة وقوله (عسى الله ان يأتيني بهم جميعا) يعني بيوسف وبنيامين والاخ الثالث الذي اقام بمصر وانما قال يعقوب هذه المقالة لانه لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته علم ان الله سيجعل له فرجا ومخرجا

(قال كبيرهم) في السن وهو روبيل أو في العقل والرأي وهو يهوذا أو رئيسهم وهو شمعون (ألم تعلموا ان اباكم قد اخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف) ما صلة أي ومن قبل هذا قصرتم في شأن يوسف ولم تحفظوا عهد ابيكم أو مصدرية ومحل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف وهو من قبل ومعناه وقع من قبل تفريطكم في يوسف (فلن ابرح الارض) فلن افارق أرض مصر (حتى يأذن لي أبي) في الانصراف اليه (أو يحكم الله لي) بالخروج منها أو بالموت أو بقتالهم (وهو خير الحاكمين) لانه لا يحكم الا بالعدل (ارجعوا الى ابيكم فقولوا يا أبانا ان ابنك سرق) وقرئ سرق أي نسب الى السرقة (وما شهدنا) عليه بالسرقة (الا بما علمنا) من سرقته وتيقنا اذ الصواع استخرج من وعائه (وما كنا للغيب حافظين) وما علمنا انه سيسرق حين اعطيناك الموثق (واسأل القرية التي كنا فيها) يعني مصر أي ارسل الى اهلها فاسألهم عن كنه القصة (والعير التي اقبلنا فيها) وأصحاب العير وكانوا قوما من كنعان من جيران يعقوب عليه السلام (وانا لصادقون) في قولنا فرجعوا الى ابيهم وقالوا له ما قال لهم أخوهم (قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا) ارتكبتموه والا فما ادرى ذلك الرجل ان السارق يسترق لولا فتواكم وتعليمكم (فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا) بيوسف واخيه وكبيرهم

عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظنّ بالله عزوجل لانه اذا اشتدّ البلاء وعظم كان اسرع الى الفرج
وقيل ان يعقوب علم بما يجرى عليه وعلى بنيه من أول الامر وهو رؤيا يوسف وقوله يابنى لاتقصص
رؤياك على اخوتك فيكيدوالك كيدا فلما تناهى الامر قال عسى الله ان يأتينى بهم جميعا (انه هو العليم)
يعنى بحزنى ووجدى عليه (الحكيم) فيما يدبره ويقضيه قوله تعالى (وتولى عنهم) يعنى واعرض
يعقوب عن بنيه حين بلغه خبر بنيامين فحينئذ تناهى حزنه واشتد بلاؤه وبلغ جهده وهيج حزنه على
يوسف فعند ذلك اعرض عنهم (وقال يااسفا على يوسف) الاسف أشدّ الحزن وانما جدد حزنه على يوسف
عند وجود هذه الواقعة لانّ الحزن القديم اذا صادفه حزن آخر كان ذلك أوجع للقلب واعظم لهيجان
الحزن الاوّل كما قال متمم بن نويرة لما رأى قبرا جديدا جدّد حزنه على أخيه مالك

يقول اتبكى كل قبر رأيته * لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت له ان الاسى يبعث الاسى * فدعنى فهذا كله قبر مالك

فأجاب بانّ الحزن يجدد الحزن وقيل ان يوسف وبنيامين لما كانا من أم واحدة كان يعقوب يتسلى
عن يوسف ببنيامين فلما حصل فراق بنيامين زاد حزنه عليه ووجده وجدد حزنه على يوسف لان يوسف
كان اصل المصيبة وقد اعترض بعض الجهال على يعقوب عليه السلام فى قوله يا أسفا على يوسف
فقال هذه شكاية واظهار جزع فلا يليق بمعصوم ذلك وليس الامر كما قال هذا الجاهل المعترض
لان يعقوب عليه الصلاة والسلام شكا الى الله لا منه فقوله يا أسفا على يوسف معناه يارب ارحم أسفى
على يوسف وقد ذكر ابن الانبارى عن بعض اللغويين انه قال نداء يعقوب بالاسف فى اللفظ من المجاز
وتلخيصه ياالهى ارحم اسفى او انت ترى اسفى أو هذا اسفى فنادى الاسف فى اللفظ والمنادى سواه فى المعنى
ولا مأثم اذا لم ينطق اللسان بكلام مؤثم لانه لم يشك الا الى ربه عزوجل فلما كان قوله يااسفا على
يوسف شكوى الى ربه كان غير ملوم فى شكواه وقيل ان يعقوب لما عظمت مصيبته واشتدّ بلاؤه
وقويت محنته قال يااسفا على يوسف اى اشكو الى الله شدّة اسفى على يوسف ولم يشكه الى احد من
الخلق بدليل قوله انما اشكو بثى وحزنى الى الله (وابيضت عيناه من الحزن) اى عمى من شدّة الحزن
على يوسف قال مقاتل لم يبصر شيأ ست سنين وقيل انه ضعف بصره من كثرة البكاء وذلك ان الدمع يكثر
عند غلبة البكاء فتصير العين كانها بيضاء من ذلك الماء الخارج من العين (فهو كظيم) اى مكظوم وهو
الممتلئ من الحزن الممسك عليه لا يبثه قال قتادة وهو الذى يردد حزنه فى جوفه ولم يقل الاخيرا وقال الحسن
كان بين خروج يوسف من حجر أبيه الى يوم التقيا ثمانين سنة لم تجف عينا يعقوب وما على وجه الارض
يومئذ اكرم على الله منه وقال ثابت البنانى ووهب بن منبه والسدى ان جبريل عليه الصلاة والسلام
دخل على يوسف وهو فى السجن فقال هل تعرفنى ايها الصدّيق قال يوسف ارى صورة طاهرة قال انى
رسول رب العالمين وانا الروح الامين فقال يوسف ما ادخلك مدخل المذنبين وانت أطيب الطيبين
ورأس المقربين وأمين رب العالمين قال الم تعلم يا يوسف ان الله يطهر الارض بطهر النبيين وان الارض
التى يدخلونها هى اطهر الارضين وان الله قد طهر بك الارض والسجن وما حوله يا اطهر الطاهرين ومن
الصالحين المخلصين قال يوسف كيف لى باسم الصدّيقين وتعدنى من الصالحين المخلصين الطاهرين
وقد ادخلت مدخل المذنبين قال انه لم يفتتن قلبك ولم تطع سيدتك فى معصية ربك فلذلك سماك الله
من الصدّيقين وعدك من المخلصين والحقك بآبائك الصالحين قال يوسف فهل لك علم من يعقوب ايها
الروح الامين قال نعم قد ذهب بصره وابتلاه الله بالحزن عليك فهو كظيم ووهب له الصبر الجميل قال فما قدر
حزنه قال حزن سبعين ثكلاء قال فماله من الاجر ياجبريل قال اجر مائة شهيد قال افتراني لاقيه قال
نعم فطابت نفس يوسف وقال ما ابالى ما لقيت ان رأيته قوله عزوجل (قالوا) يعنى اخوة يوسف
عليه الصلاة والسلام لابيهم (تالله تفتؤا تذكر يوسف) يعنى لاتزال تذكر يوسف ولا تفتر عن حبه

(انه هو العليم) بحالى فى الحزن والاسف (الحكيم) الذى لم يبتلنى بذلك الا لحكمة (وتولى عنهم) واعرض عنهم كراهة لما جاؤا به (وقال يا أسفا على يوسف) اضاف الاسف وهو أشد الحزن والحسرة الى نفسه والالف بدل من ياء الاضافة والتجانس بين الاسف ويوسف غير متكلف ونحوه اثاقلتم الى الارض ارضيتم وهم ينهون عنه وينأون عنه ويحسبون انهم يحسنون صنعا من سبا بنبا وانما تأسف على يوسف دون اخيه وكبيرهم لتمادى اسفه على يوسف دون الآخرين وفيه دليل على ان الرزء فيه مع تقادم عهده كان غضا عنده طريا (وابيضت عيناه) اذا كثر الاستعبار محقت العبرة سواد العين وقلبته الى بياض كدر وقيل قد عمى بصره وقيل كان يدرك ادراكا ضعيفا (من الحزن) لان الحزن سبب البكاء الذى حدث منه البياض فكأنه حدث من الحزن قيل ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف الى حين لقائه ثمانين عاما وما على وجه الارض اكرم على الله من يعقوب ويجوز للنبى عليه السلام أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ لان الانسان مجبول على ان لا يملك نفسه عند الحزن ولذلك حمد صبره ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال القلب يجزع والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب وانا عليك يا ابراهيم لمحزونون وانما المذموم الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه وتمزيق الثياب (فهو كظيم) مملوء من الغيظ على أولاده ولا يظهر ما يسوءهم فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله اذ نادى وهو مكظوم من كظم السقاء اذا شده على ملئه (قالوا تالله تفتؤا) أى لا تفتؤا فحذف حرف النفى لانه لا يلتبس اذ لو كان اثباتا لم يكن بد من اللام والنون ومعنى لا تفتؤا لا تزال (تذكر يوسف

يقال مافتئ يفعل كذا أى مازال ولا محذوفة فى جواب القسم لان موضعها معلوم فحذفت للتخفيف كقول امرئ القيس

فقلت يمين الله ابرح قاعدا * ولو قطعوا رأسى لديك واوصالى

أى لا ابرح قاعدا وقوله (حتى تكون حرضا) قال ابن عباس يعنى دنفا وقال مجاهد الحرض مادون الموت يعنى قريبا من الموت وقال ابن اسحاق يعنى فاسدا لا عقل له والحرض الذى فسد جسمه وعقله وقيل ذائبا من الهم واصل الحرض الفساد فى الجسم والعقل من الحزن والهم ومعنى الآية حتى تكون دنف الجسم مخبول العقل يعنى لا تنتفع بنفسك من شدة الحزن والهم والاسف (اوتكون من الهالكين) يعنى من الاموات فان قلت كيف حلفوا على شئ لم يعلموا حقيقته قطعا قلت انهم بنوا الامر على الاغلب الظاهر أى نقوله ظنا منا ان الامر يصير الى ذلك (قال) يعنى يعقوب عندما رأى قولهم له وغلظتهم عليه (انما اشكو بثى وحزنى الى الله) اصل البث اثارة الشئ وتفريقه وبث النفس ما انطوت عليه من الغم والشر قال ابن قتيبة البث أشد الحزن وذلك لان الانسان اذا ستر الحزن وكتمه كان هما فاذا ذكره لغيره كان بثا فالبث أشد الحزن والحزن الهم فعلى هذا يكون قوله انما أشكو حزنى العظيم وحزنى القليل الى الله لا اليكم قال ابن الجوزى روى الحاكم ابو عبد الله فى صحيحه من حديث أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال كان ليعقوب أخ مؤاخ فقال له ذات يوم يا يعقوب ما الذى أذهب بصرك وما الذى قوس ظهرك قال اما الذى أذهب بصرى فالبكاء على يوسف واما الذى قوس ظهرى فالحزن على بنيامين فأتاه جبريل فقال يا يعقوب ان الله يقرئك السلام ويقول لك أما تستحى ان تشكوا الى غيرى فقال انما اشكو بثى وحزنى الى الله فقال جبريل الله اعلم بما تشكو وقيل انه دخل على يعقوب جار له فقال له يا يعقوب مالى اراك قد تهشمت بالضعف وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبواك فقال هشمنى وافنانى ما ابتلانى الله به من هم يوسف فأوحى الله اليه يا يعقوب اتشكونى الى خلقى فقال يارب خطيئة اخطأتها فاغفرها لى قال قد غفرتها لك فكان بعد ذلك اذا سئل يقول انما اشكو بثى وحزنى الى الله وقيل ان الله اوحى اليه وعزتى وجلالى لا اكشف ما بك حتى تدعونى فعند ذلك قال انما اشكو بثى وحزنى الى الله ثم قال اى رب اما ترحم الشيخ الكبير اذهبت بصرى وقوست ظهرى فاردد على ريحانتى اشمهما شمة قبل ان اموت ثم اصنع ما شئت فأتاه جبريل فقال يا يعقوب ان الله يقرئك السلام ويقول لك ابشر فوعزتى لو كانا ميتين لنشرتهما لك اتدرى لم وجدت عليك لانكم ذبحتم شاة وقام على بابكم فلان المسكين وهو صائم فلم تطعموه منها شيئا وان احب عبادى الى الانبياء ثم المساكين اصنع طعاما وادع اليه المساكين فصنع طعاما ثم قال من كان صائما فليفطر الليلة عند آل يعقوب وكان بعد ذلك اذا تغدى امر مناديا ينادى من اراد ان يتغدى فليأت آل يعقوب واذا افطر امر ان ينادى من اراد ان يفطر فليأت آل يعقوب فكان يتغدى ويتعشى مع المساكين وقال وهب بن منبه اوحى الله تعالى الى يعقوب اتدرى لم عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة قال لا يارب قال لانك شويت عناقا وقترت على جارك واكلت ولم تطعمه وقيل ان سبب ابتلاء يعقوب انه ذبح عجلا بين يدى امه وهى تخور فلم يرحمها فان قلت هل فى هذه الروايات ما يقدح فى عصمة الانبياء قلت لا وانما عوقب يعقوب بهذا لان حسنات الابرار سيآت المقربين وانما يطلب من الانبياء من الاعمال على قدر منصبهم وشرف رتبتهم ويعقوب عليه الصلاة والسلام من اهل بيت النبوة والرسالة ومع ذلك فقد ابتلى الله كل واحد من انبيائه بمحنة فصبر وفوض أمره الى الله فابراهيم عليه الصلاة والسلام القى فى النار فصبر ولم يشك الى احد واسماعيل ابتلى بالذبح فصبر وفوض امره الى الله واسحاق ابتلى بالعمى فصبر ولم يشك الى احد ويعقوب ابتلى بفقد ولده يوسف وبعده بنيامين ثم عمى بعد ذلك او ضعف بصره من كثرة البكاء على فقدهما وهو مع ذلك صابر لم يشك الى أحد شيئا مما نزل به

وانما

حتى تكون حرضا) مشفيا على الهلاك مرضا (اوتكون من الهالكين قال انما اشكو بثى وحزنى الى الله) البث اصعب الهم الذى لا يصبر عليه صاحبه فيبثه الى الناس أى ينشره اى لا اشكو الى احد منكم ومن غيركم انما اشكو الى ربى داعيا له وملتجئا اليه فخلونى وشكايتى وروى أنه اوحى الى يعقوب انما وجدت عليكم لانكم ذبحتم شاة فوقف ببابكم مسكين فلم تطعموه وان احب خلقى الى الانبياء ثم المساكين وقيل فاصنع طعاما وادع عليه المساكين وقيل اشترى جارية مع ولدها فباع ولدها فبكت حتى عميت

وانما كانت شكايته الى الله عز وجل بدليل قوله انما اشكو بثى وحزنى الى الله فاستوجب بذلك المدح العظيم والثناء الجميل فى الدنيا والدرجات العلى فى الآخرة مع من سلف من ابويه ابراهيم واسحاق عليهما الصلاة والسلام واما دمع العين وحزن القلب فلا يستوجب به ذما ولا عقوبة لان ذلك ليس الى اختيار الانسان فلا يدخل تحت التكليف بدليل ان النبى صلى الله عليه وسلم بكى على ولده ابراهيم عند موته وقال ان العين لتدمع وان القلب ليحزن وما نقول الا ما يرضى ربنا فهذا القدر لا يقدر الانسان على دفعه عن نفسه فصار مباحا لا حرج فيه على أحد من الناس وقوله (وأعلم من الله ما لا تعلمون) يعنى انه تعالى من رحمته واحسانه يأتى بالفرج من حيث لا احتسب وفيه اشارة الى انه كان يعلم حياة يوسف و يتوقع رجوعه اليه وروى ان ملك الموت زار يعقوب فقال له يعقوب أيها الملك الطيب ريحه الحسن صورته الكريم على ربه هل قبضت روح ابنى يوسف فى الارواح فقال لا فطابت نفس يعقوب وطمع فى رؤيته فلذلك قال واعلم من الله ما لا تعلمون وقيل معناه واعلم ان رؤيا يوسف حق وصدق وانى وأنتم ستسجدون له وقال السدّى لما أخبره بنوه بسيرة ملك مصر وكمال حاله فى جميع أقواله وافعاله احست نفس يعقوب وطمع ان يكون هو يوسف فعند ذلك قال يعنى يعقوب (يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) التحسس طلب الخبر بالحاسة وهو قريب من التجسس بالجيم وقيل ان التحسس بالحاء يكون فى الخير وبالجيم يكون فى الشر ومنه الجاسوس وهو الذى يطلب الكشف عن عورات الناس قال ابن عباس التمسوا قال ابن الانبارى يقال تحسست عن فلان ولا يقال من فلان وقال هذا من يوسف وأخيه لانه أقيم من مقام عن قال ويجوز ان يقال من للتبعيض ويكون المعنى تحسسوا خبرا من أخبار يوسف وأخيه روى عن عبد الله بن يزيد عن أبى فروة ان يعقوب كتب كتابا الى يوسف عليهما الصلاة والسلام حين حبس عنده بنيامين من يعقوب اسرائيل الله بن اسحاق ذبيح الله بن ابراهيم خليل الله الى ملك مصر اما بعد فانا أهل بيت وكل بنا البلاء اما جدى ابراهيم فشدت يداه ورجلاه وألقى فى النار فجعلها الله بردا وسلاما واما أبى فشدت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه ففداه الله واما انا فكان لى ابن وكان أحب اولادى الى فذهب به اخوته الى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخا بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناى ثم كان لى ابن آخر وكان أخاه من أمه وكنت اتسلى به وانك حبسته وزعمت انه سرق وانا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فان رددته الى والا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك فلما قرأ يوسف كتاب أبيه اشتد بكاؤه وعيل صبره واظهر نفسه لاخوته على ما سنذكره ان شاء الله تعالى فذلك قوله تعالى يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه (ولا تيأسوا) أى ولا تقنطوا (من روح الله) يعنى من رحمة الله وقيل من فضل الله وقيل من فرج الله (انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) يعنى ان المؤمن على خير يرجوه من الله فيصبر عند البلاء فينال به خيرا ويحمد عند الرخاء فينال به خيرا والكافر بضد ذلك قوله تعالى (فلما دخلوا عليه) فيه حذف واختصار تقديره فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر فلما دخلوا عليه يعنى على يوسف (قالوا يا أيها العزيز) يعنى يا أيها الملك والعزيز القادر الممتنع وكان العزيز لقب ملك مصر يومئذ (مسنا وأهلنا الضر) أى الشدة والفقر والجوع وأرادوا بأهلهم من خلفهم ومن وراءهم من العيال (وجئنا ببضاعة مزجاة) أى ببضاعة رديئة كاسدة لا تنفق فى ثمن الطعام الا بتجوز من البائع وأصل الازجاء فى اللغة الدفع قليلا قليلا والتزجية دفع الشئ لينساق كتزجية الريح السحاب ومنه قول الشاعر * وحاجة غير مزجاة من الحاج * يعنى هى قليلة يسيرة يمكن دفعها وسوقها لقلة الاعتناء بها وانما وصفوا تلك البضاعة بأنها مزجاة اما لنقصانها أو لرداءتها أولجموعهما فلذلك اختلفت عبارات المفسرين فى معنى هذه البضاعة المزجاة فقال ابن عباس كانت دراهم رديئة زيوفا وقيل كانت خلق الغرائر والحبال وقيل كانت من متاع الاعراب من الصوف والاقط وقال الكلبى ومقاتل كانت حبة الخضراء وقيل كانت سويق المقل وقيل

(وأعلم من الله ما لا تعلمون) وأعلم من رحمته انه يأتى بالفرج من حيث لا احتسب وروى انه رأى ملك الموت فى منامه فسأله هل قبضت روح يوسف فقال لا والله هو حى فاطلبه وعلمه هذا الدعاء يا ذا المعروف الدائم الذى لا ينقطع معروفه ابدا ولا يحصيه غيرك فرج عنى (يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) تعرفوا منهما واطلبوا خبرهما وهو تفعل من الاحساس وهو المعرفة (ولا تيأسوا من روح الله) ولا تقنطوا من رحمة الله وفرجه (انه) ان الامر والشأن (لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) لان من آمن يعلم انه متقلب فى رحمة الله ونعمته وأما الكافر فلا يعرف رحمته ولا تقلبه فى نعمته فييأس من رحمته فخرجوا من عند ابيهم راجعين الى مصر (فلما دخلوا عليه) على يوسف (قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) الهزال من الشدة والجوع (وجئنا ببضاعة مزجاة) مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا لها من ازجيته اذا دفعته وطردته وقيل كانت دراهم زيوفا لا تؤخذ الا بوضيعة وقيل كانت صوفا وسمنا

كانت الأدم والنعال وقال الزجاج سميت هذه البضاعة القليلة الرديئة مزجاة من قولهم فلان يزجي العيش أي يدفع الزمان بالقليل من العيش والمعنى جئنا ببضاعة مزجاة لندافع بها الزمان وليست مما يتسع بها وقيل انما قيل للدراهم الرديئة مزجاة لانها مردودة مدفوعة غير مقبولة ممن يدفعها (فأوف لنا الكيل) يعني اعطنا ما كنت تعطينا من قبل بالثمن الجيد الوافي والمعنى انا نريد أن تقيم لنا الزائد مقام الناقص والجيد مقام الرديء (وتصدق علينا) يعني وتفضل علينا بما بين الثمنين الجيد والرديء ولا تنقصنا هذا قول أكثر المفسرين قال ابن الانباري وكان الذي يسألونه من المسامحة يشبه الصدقة وليس به واختلفت العلماء هل كانت الصدقة حلالا للانبياء قبل نبينا أم لا فقال سفيان بن عيينة ان الصدقة كانت حلالا للانبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم واستدل بهذه الآية وأنكر جمهور العلماء ذلك وقالوا ان حال الانبياء كلهم واحد في تحريم الصدقة عليهم لانهم ممنوعون من الخضوع للمخلوقين والاخذ منهم والصدقة أوساخ الناس فلا تحل لهم لانهم مستغنون بالله عمن سواه وأجيب عن قوله وتصدق علينا انهم طلبوا منه أن يجريهم على عادتهم من المسامحة وايفاء الكيل ونحو ذلك مما كان يفعل بهم من الكرامة وحسن الضيافة لا نفس الصدقة وكره الحسن ومجاهد أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصدق علينا لان الصدقة لا تكون الا ممن يبتغي الثواب وروى ان الحسن سمع رجلا يقول اللهم تصدق علي فقال ان الله لا يتصدق انما يتصدق من يبتغي الثواب قل اللهم اعطني وتفضل علي وقال ابن جريج والضحاك وتصدق علينا يعني برد أخينا علينا (ان الله يجزي المتصدقين) يعني بالثواب الجزيل وقال الضحاك لم يقولوا ان الله يجزيك لانهم لم يعلموا انه مؤمن (قال) يعني قال يوسف لاخوته (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) وقد اختلفوا في السبب الذي من أجله حمل يوسف وهيجه على هذا القول وقال ابن اسحاق ذكر لي انهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته رقة على اخوته فباح بالذي كان يكتم وقيل انه أخرج لهم نسخة الكتاب الذي كتبوه ببيعه من مالك وفي آخره وكتبه يهوذا فلما قرؤا الكتاب اعترفوا بصحته وقالوا يا أيها الملك انه كان لنا عبد فبعناه منه فغاظ ذلك يوسف وقال انكم تستحقون العقوبة وأمر بقتلهم فلما ذهبوا بهم ليقتلوهم قال يهوذا كان يعقوب يبكي ويحزن لفقد واحد منا فكيف اذا أتاه الخبر بقتل بنيه كلهم ثم قالوا ان كنت فاعلا ذلك فابعث بأمتعتنا الى أبينا فانه بمكان كذا وكذا فذلك حين أدركته الرقة عليهم والرحمة فبكى وقال هذا القول وقيل ان يوسف لما قرأ كتاب أبيه اليه لم يتمالك أن بكى وقال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه وهذا استفهام يفيد تعظيم أمر هذه الواقعة ومعناه ما أعظم ما ارتكبتم من أمر يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه من قطيعة الرحم وتفريقه من أبيه وهذا كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت وهل تعرف من خالفت ولم يرد بهذا نفس الاستفهام ولكنه أراد تفظيع الامر وتعظيمه ويجوز أن يكون المعنى هل علمتم عقبى ما فعلتم بيوسف وأخيه من تسليم الله اياهما من المكروه واعلم ان هذه الآية تصديق لقوله تعالى وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون فان قلت الذي فعلوه بيوسف معلوم ظاهر فما الذي فعلوه بأخيه من المكروه حتى يقول لهم هذه المقالة فانهم لم يسعوا في حبسه ولا أرادوا ذلك قلت انهم لما فرقوا بينه وبين أخيه يوسف نغصوا عليه عيشه وكانوا يؤذونه كلما ذكر يوسف وقيل انهم قالوا له لما اتهم بأخذ الصواع ما رأينا منكم يا بني راحيل خيرا (اذ أنتم جاهلون) هذا يجري مجرى العذر لهم يعني انكم انما أقدمتم على هذا الفعل القبيح المنكر حال كونكم جاهلين وهو وقت الصبا وحالة الجهل وقيل جاهلون بما يؤول اليه أمر يوسف فقوله عز وجل (قالوا أئنك لانت يوسف) قرئ على سبيل الاستفهام ووجه هذه القراءة قال ابن عباس لما قال لهم هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه تبسم فرأوا ثناياه كاللؤلؤ تشبه ثنايا يوسف فشبهوه بيوسف فقالوا استفهاما أئنك لانت يوسف وقرئ على الخبر وحجته ما قال ابن عباس أيضا في رواية أخرى عنه ان اخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه وكان له في قرنه علامة تشبه الشامة وكان ليعقوب

(فأوف لنا الكيل) الذي هو حقنا (وتصدق علينا) وتفضل علينا بالمسامحة والاغماض عن رداءة البضاعة او زدنا على حقنا أو هب لنا اخانا (ان الله يجزي المتصدقين) ولما قالوا مسنا واهلنا الضر وتضرعوا اليه وطلبوا منه ان يتصدق عليهم ارفضت عيناه ولم يتمالك ان عرفهم نفسه حيث قال (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف) أي هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف (واخيه اذ انتم جاهلون) لا تعلمون قبحه او اذ انتم في حد السفه والطيش وفعلهم باخيه تعريضهم اياه للغم بافراده عن اخيه لابيه وامه وايذاؤهم له بانواع الاذى (قالوا أئنك) بهمزتين كوفي وشامي (لانت يوسف) اللام لام الابتداء وانت مبتدأ ويوسف خبره والجملة خبر ان

(قال أنا يوسف وهـذا اخى) وانما ذكر أخاه وهم قد سألوه عن نفسه لانه كان فى ذكر اخيه بيان لما سألوه عنه (قد من الله علينا) بالالفة بعد الفرقة
وذكر نعمة الله بالسلامة والكرامة ولم يبدأ بالملامة (انه من يتق) الفحشاء (ويصبر) عن المعاصى وعلى الطاعة (فان الله لا يضيع
اجر المحسنين) اى اجرهـم فوضع المحسنين
موضع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين
وقيل من يتق مولاه و يصبر على بلواه لا يضيع
اجره فى دنياه وعقباه (قالوا تالله لقد آثرك الله
علينا) اختارك وفضلك علينا بالعلم والحلم
والتقوى والصبر والحسن (وان كنا لخاطئين)
وان شأننا وحالنا انا كنا لخاطئين متعمدين
للاثم لم نتق ولم نصبر لاجرم ان الله اعزك بالملك
واذلنا بالتمسكن بين يديك (قال لا تثريب
عليكم) لا تعيير عليكم (اليوم) متعلق بالتثريب
او بيغفر والمعنى لا اثربكم اليوم وهو اليوم الذى
هو مظنة التثريب فما ظنكم بغيره من الايام ثم
ابتدأ فقال (يغفر الله لكم) فدعا لهم بمغفرة
ما فرط منهم يقال غفر الله لك و يغفر لك على لفظ
الماضى والمضارع او اليوم غفر الله لكم بشارة
بعاجل غفران الله وروى ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم اخذ بعضادتى باب الكعبة
يوم الفتح فقال لقريش ما ترونى فاعلا بكم قالوا
نظن خيرا اخ كريم وابن اخ كريم وقد قدرت
فقال اقول ما قال اخى يوسف لا تثريب عليكم
اليوم وروى ان ابا سفيان لما جاء ليسلم قال له
العباس اذا اتيت رسول الله فاتل عليه قال
لا تثريب عليكم اليوم ففعل فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم غفر الله لك ولمن علمك
ويروى ان اخوته لما عرفوه ارسلوا اليه انك
تدعونا الى طعامك بكرة وعشيا ونحن نستحى
منك لما فرط منا فيك فقال يوسف ان اهل
مصر وان ملكت فيهم فانهم ينظرون الى بالعين
الاولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع
بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت الآن
بكم حيث علم الناس انى من حفدة ابراهيم
(وهو أرحم الراحمين) أى اذا رحمتكم وأنا الفقير
القتور فما ظنكم بالغنى الغفور ثم سألهم عن
حال ابيه فقالوا انه عمى من كثرة البكاء قال
(اذهبوا بقميصى هذا) قيل هو القميص
المتوارث الذى كان فى تعويذ يوسف وكان من
الجنة أمره جبريل ان يرسله اليه فان فيه ريح
الجنة لا يقع على مبتل ولا سقيم الا عوفى (فالقوه
على وجه أبى يأت بصيرا) يصير بصيرا تقول جاء البناء محكما اى صار او يأت الى وهو بصير قال يهوذا أنا احمل قميص الشفاء كما ذهبت بقميص الجفاء وقيل
حمله وهو حاف حاسر من مصر الى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا

مثلها ولاسحاق مثلها ولسارة مثلها فعرفوه بها وقالوا انت يوسف وقيل قالوه على سبيل التوهم ولم يعرفوه
حتى (قال أنا يوسف) قال بعض العلماء انما اظهر الاسم فى قوله أنا يوسف ولم يقل أنا هو تعظيما لما نزل به
من ظلم اخوته له وما عوضه الله من النصر والظفر والملك فكأنه قال أنا يوسف المظلوم الذى ظلمتمونى
وقصدتم قتلى بأن القيتمونى فى الجب ثم بعتمونى بأبخس الاثمان ثم صرت الى ما ترون فكان تحت ظهور
الاسم هذه المعانى كلها ولهذا قال (وهذا اخى) وهم يعرفونه لانه قصد به أيضا وهذا اخى المظلوم كما
ظلمتمونى ثم صرت أنا وهو الى ما ترون وهو قوله (قد من الله علينا) بان جمع بيننا وقيل من علينا بكل
عز وخير فى الدنيا والآخرة وقيل من علينا بالسلامة فى ديننا ودنيانا (انه من يتق ويصبر) يعنى يتق
الزنا و يصبر على العزوبة قاله ابن عباس وقال مجاهد يتق المعصية و يصبر على السجن وقيل يتق الله
باداء فرائضه و يصبر عما حرم الله (فان الله لا يضيع اجر المحسنين) يعنى اجر من كان هذا حاله (قالوا)
يعنى قال اخوة يوسف معتذرين اليه مما صدر منهم فى حقه (تالله لقد آثرك الله علينا) أى اختارك
وفضلك علينا يقال آثرك الله ايثارا اى اختارك ويستعار آثر للفضل والايثار للتفضيل والمعنى لقد
فضلك الله علينا بالعلم والعقل وقال الضحاك عن ابن عباس بالملك وقال ابو صالح عنه بالصبر وقيل بالحلم
والصفح علينا وقيل بالحسن وسائر الفضائل التى اعطاها الله عز وجل له دون اخوته وقيل فضله عليهم
بالنبوة واورد على هذا القول بأن اخوته كانوا انبياء ايضا فليس له عليهم فضل فى ذلك واجيب عنه
بأن يوسف فضل عليهم بالرسالة مع النبوة فكان افضل منهم بهذا الاعتبار لان من جمعت له النبوة
والرسالة كان افضل ممن خص بالنبوة فقط (وان كنا لخاطئين) يعنى وما كنا فى صنعنا بك الا خاطئين
ولهذا اختير لفظ الخاطئ على المخطئ والفرق بينهما ان يقال خطئ خطأ اذا تعمد واخطأ اذا كان غير
متعمد وقيل يجوز ان يكون آثر لفظ خاطئين على مخطئين لموافقة رؤس الآى لان خاطئين اشبه بما قبلها
(قال) يعنى يوسف (لا تثريب عليكم) يعنى لا تعيير ولا توبيخ عليكم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اذا زنت
امة احدكم فليجلدها الحد ولا يوبخها ولا يثرب اى لا يعيرها بالزنا بعد اقامة الحد عليها وفى محل قوله
(اليوم) قولان احدهما انه يرجع الى ما قبله فيكون التقدير لا تثريب عليكم اليوم والمعنى ان هذا اليوم
هو يوم التثريب والتقريع والتوبيخ وانا لا اقرعكم اليوم ولا اوبخكم ولا اثرب عليكم فعلى هذا يحسن
الوقف على قوله لا تثريب عليكم اليوم ويبتدأ بقوله (يغفر الله لكم) والقول الثانى ان اليوم متعلق
بقوله يغفر الله لكم فعلى هذا يحسن الوقف على قوله لا تثريب عليكم ويبتدأ باليوم يغفر الله لكم كأنه
لما نفى عنهم التوبيخ والتقريع بقوله لا تثريب عليكم بشرهم بقوله اليوم يغفر الله لكم (وهو أرحم
الراحمين) ولما عرفهم يوسف نفسه سألهم عن حال ابيه فقال ما حال ابى بعدى قالوا ذهب بصره من كثرة
البكاء عليك فاعطاهم قميصه وقال (اذهبوا بقميصى هذا) قال الضحاك كان هذا القميص من نسج الجنة
وقال مجاهد امره جبريل ان يرسل اليه قميصه وكان ذلك القميص قميص ابراهيم وذلك انه لما جرد من ثيابه
والقى فى النار عريانا اتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فالبسه اياه وكان ذلك القميص عند ابراهيم
فلما مات ورثه اسحاق فلما مات ورثه يعقوب فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص فى قصبة
من فضة وسدها وجعلها فى عنق يوسف كالتعاويذ لما كان يخاف عليه من العين وكانت لا تفارقه
فلما القى يوسف فى البئر عريانا اتاه جبريل وأخرج له ذلك القميص والبسه اياه فلما كان هذا الوقت
جاءه جبريل فامره أن يرسل هذا القميص الى أبيه لان فيه ريح الجنة ولا يقع على مبتل ولا سقيم الا عوفى
فى الوقت فدفع ذلك القميص يوسف الى اخوته وقال اذهبوا بقميصى هذا (فالقوه على وجه أبى
يأت بصيرا) قال المحققون ان علم يوسف ان القاء ذلك القميص على وجه يعقوب يوجب رد البصر كان
بوحى الله اليه بذلك ويمكن ان يقال ان يوسف لما علم ان أباه قد عمى من كثرة البكاء عليه وضيق الصدر
بعث اليه قميصه ليجد ريحه فيزول بكاؤه و ينشرح صدره و يفرح قلبه فعند ذلك يزول الضعف

ويقوى البصر فهذا القدر تمكن معرفته من جهة العقل وقوله (وأتوني بأهلكم أجمعين) قال الكلبي كانوا نحوا من سبعين انسانا وقال مسروق كانوا ثلاثة وسبعين ما بين رجل وامرأة (ولما فصلت العير) يعني خرجت من مصر وقيل من عريش مصر متوجهين الى ارض كنعان (قال ابوهم) يعني قال يعقوب لولد ولده (اني لأجد ريح يوسف) قيل ان ريح الصبا استأذنت ربها في ان تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير وقال مجاهد أصابت يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثلاثة ايام وقال ابن عباس من مسيرة ثمان ليال وقال الحسن كان بينهما ثمانون فرسخا وقيل هبت ريح فاحتملت ريح القميص الى يعقوب فوجد يعقوب ريح الجنة فعلم بذلك انه من ريح يوسف فلذلك قال اني لأجد ريح يوسف (لولا أن تفندون) أصل التفنيد من الفند وهو ضعف الرأي وقال ابن الانباري افند الرجل اذا خرف وفند اذا جهل ونسب ذلك اليه وقال الاصمعي اذا كثر كلام الرجل من خرف فهو الفنيد والفند فيكون المعنى لولا أن تفندوني أي تنسبوني الى الخرف وقيل تسفهوني وقيل تلوموني وقيل تجهلوني وهو قول ابن عباس وقال الضحاك تهرموني فتقولون شيخ كبير قد خرف وذهب عقله (قالوا) يعني اولاد اولاد يعقوب وأهله الذين عنده لان أولاده لصلبه كانوا غائبين عنه (تالله انك لفي ضلالك القديم) يعني من ذكر يوسف ولا تنساه لانه كان عندهم ان يوسف كان قد مات وهلك ويروى ان يعقوب قد لهج بذكره فلذلك قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم يعني من ذكره والضلال الذهاب عن طريق الصواب (فلما أن جاء البشير) وهو المبشر بخبر يوسف قال ابن مسعود جاء البشير بين يدي العير قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه هو يهوذا قال السدي قال يهوذا أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم الى يعقوب واخبرته ان يوسف اكله الذئب فأنا اذهب اليوم بالقميص واخبره انه حي فأفرحه كما احزنته قال ابن عباس حمله يهوذا وخرج به حافيا حاسرا يعدو ومعه سبعة أرغفة فلم يستوف اكلها حتى اتى أباه وكانت المسافة ثمانين فرسخا (القاه على وجهه) يعني فألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب (فارتد بصيرا) يعني فرجع بصيرا بعدما كان قد عمي وعادت اليه قوته بعد الضعف وسروره بعد الحزن (قال ألم أقل لكم اني أعلم من الله ما لا تعلمون) يعني من حياة يوسف وان الله يجمع بيننا وروى ان يعقوب قال للبشير كيف تركت يوسف قال تركته ملك مصر قال يعقوب ما أصنع بالملك على أي دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة قوله تعالى (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا) يعني قال اولاد يعقوب حين وصلوا اليه وأخذوا يعتذرون اليه مما صنعوا به وبيوسف استغفر لنا أي اطلب لنا غفر ذنوبنا من الله (انا كنا خاطئين) يعني في صنيعنا (قال سوف استغفر لكم ربي) قال اكثر المفسرين ان يعقوب اخر الدعاء والاستغفار لهم الى وقت السحر لانه اشرف الاوقات وهو الوقت الذي يقول الله فيه هل من داع فأستجيب له فلما انتهى يعقوب الى وقت السحر قام الى الصلاة متوجها الى الله تعالى فلما فرغ رفع يديه الى الله تعالى وقال اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لي ولاولادي ما أتوا الى أخيهم يوسف فأوحى الله اليه اني قد غفرت لك ولهم أجمعين قال عكرمة عن ابن عباس انه اخر الاستغفار لهم الى ليلة الجمعة لانها أشرف الاوقات قال وهب كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة نيفا وعشرين سنة وقال طاوس أخر الاستغفار الى وقت السحر من ليلة الجمعة فوافق ذلك ليلة عاشوراء وقال الشعبي سوف استغفر لكم ربي قال حتى اسأل يوسف فان كان قد عفا عنكم استغفرت لكم ربي (انه هو الغفور) يعني لذنوب عباده (الرحيم) بجميع خلقه قال عطاء الخراساني طلب الحوائج الى الشباب اسهل منه الى الشيوخ الا ترى الى قول يوسف لاخوته لا تثريب عليكم الآية وقول يعقوب سوف أستغفر لكم ربي قال أصحاب الاخبار ان يوسف عليه الصلاة والسلام بعث مع اخوته الى أبيه مائتي راحلة وجهازا كثيرا ليأتوه بيعقوب وجميع أهله الى مصر فلما أتوه تجهز يعقوب للخروج الى مصر فجمع أهله وهم يومئذ اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وقال مسروق كانوا ثلاثة وسبعين

(وأتوني بأهلكم أجمعين) لينعموا بآثار ملكي كما اغتموا باخبار هلكي (ولما فصلت العير) خرجت من عريش مصر يقال فصل من البلد فصولا اذا انفصل منه وجاوز حيطانه (قال ابوهم) لولد ولده ومن حوله من قومه (اني لأجد ريح يوسف) اوجده الله ريح القميص حين اقبل من مسيرة ثمانية ايام (لولا أن تفندون) التفنيد النسبة الى الفند وهو الخرف وانكار العقل من هرم يقال شيخ مفند والمعنى لولا تفنيدكم اياي لصدقتموني (قالوا) اي اسباطه (تالله انك لفي ضلالك القديم) لفي ذهابك عن الصواب قديما في افراط محبتك ليوسف او في خطائك القديم من حب يوسف وكان عندهم انه قد مات (فلما أن جاء البشير) اي يهوذا (القاه على وجهه) طرح البشير القميص على وجه يعقوب او القاه يعقوب (فارتد) فرجع (بصيرا) يقال رده فارتد وارتده اذا ارتجعه (قال ألم أقل لكم) يعني قوله اني لأجد ريح يوسف او قوله ولا تيأسوا من روح الله وقوله (اني اعلم من الله ما لا تعلمون) كلام مبتدأ لم يقع عليه القول او وقع عليه والمراد قوله انما اشكو بثي وحزني الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون وروى انه سأل البشير كيف يوسف قال هو ملك مصر فقال ما اصنع بالملك على اي دين تركته قال على دين الاسلام قال الآن تمت النعمة (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين) اي سل الله مغفرة ما ارتكبنا في حقك وحق ابنك انا تبنا واعترفنا بخطايانا (قال سوف استغفر لكم ربي انه هو الغفور الرحيم) اخر الاستغفار الى وقت السحر أو الى ليلة الجمعة أو ليتعرف حالهم في صدق التوبة او الى ان يسأل يوسف هل عفا عنهم ثم ان يوسف وجه الى ابيه جهازا ومائتي راحلة ليتجهز اليه بمن معه فلما بلغ قريبا من مصر خرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب وهو يمشي يتوكأ على يهوذا

فلما دنا يعقوب من مصر كلم يوسف الملك الأكبر يعني ملك مصر وعرفه بمجيء أبيه وأهله فخرج يوسف ومعه الملك في أربعة آلاف من الخيل وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب عليه الصلاة والسلام وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يدابنه يهوذا فلما نظر إلى الخيل والناس قال يا يهوذا هذا فرعون مصر قال لا بل هذا ابنك يوسف فلما دنا كل واحد من صاحبه أراد يوسف أن يبدأ يعقوب بالسلام فقال له جبريل لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام فقال يعقوب السلام عليك يا مذهب الأحزان وقيل انهما نزلا وتعانقا وفعلا كما يفعل الوالد بولده والولد بوالديه وبكيا وقيل ان يوسف قال لأبيه يا أبت بكيت علي حتى ذهب بصرك ألم تعلم ان القيامة تجمعنا قال بلى ولكن خشيت ان يسلب دينك فيحال بيني وبينك فذلك قوله تعالى (فلما دخلوا على يوسف آوى اليه) يعني ضم اليه (أبويه) قال أكثر المفسرين هو أبوه يعقوب وخالته ليا وكانت أمه قد ماتت في نفاس بنيامين وقال الحسن هما أبوه وأمه وكانت حية بعد وقيل ان الله أحياها ونشرها من قبرها حتى تسجد ليوسف تحقيقا للرؤيا والأول أصح (وقال ادخلوا مصر) قيل المراد بالدخول الأول في قوله فلما دخلوا على يوسف أرض مصر وذلك حين استقبلهم ثم قال ادخلوا مصر يعني البلد وقيل انه أراد بالدخول الأول دخولهم مصر وأراد بالدخول الثاني الاستيطان بها أي ادخلوا مصر مستوطنين فيها (ان شاء الله آمنين) قيل ان هذا الاستثناء عائد الى الأمن لا الى الدخول والمعنى ادخلوا مصر آمنين ان شاء الله وقيل انه عائد الى الدخول فعلى هذا يكون قد قال ذلك لهم قبل أن يدخلوا مصر وقيل ان هذا الاستثناء يرجع الى الاستغفار فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير تقديره سوف أستغفر لكم ربي ان شاء الله وقيل ان الناس كانوا يخافون من ملوك مصر فلا يدخلها أحد الا بجوارهم فقال لهم يوسف ادخلوا مصر آمنين على أنفسكم وأهليكم ان شاء الله فعلى هذا يكون قوله ان شاء الله للتبرك فهو كقوله صلى الله عليه وسلم وانا ان شاء الله بكم لاحقون مع علمه انه لاحق بهم (ورفع أبويه على العرش) يعني على السرير الذي كان يجلس عليه يوسف والرفع النقل الى العلو (وخروا له سجدا) يعني يعقوب وخالته ليا واخوته وكانت تحية الناس يومئذ السجود وهو الانحناء والتواضع ولم يرد به حقيقة السجود من وضع الجبهة على الأرض على سبيل العبادة فان قلت كيف استجاز يوسف ان يسجد له أبوه وهو أكبر منه وأعلى منصبا في النبوة والشيخوخة قلت يحتمل ان الله تعالى أمره بذلك لتحقيق رؤياه ثم في معنى هذا السجود قولان أحدهما انه كان انحناء على سبيل التحية كما تقدم فلا اشكال فيه والقول الثاني انه كان حقيقة السجود وهو وضع الجبهة على الأرض وهو مشكل لان السجود على هذه الصورة لا ينبغي ان يكون الا لله تعالى وأجيب عن هذا الاشكال بان السجود كان في الحقيقة لله تعالى على سبيل الشكر له وانما كان يوسف كالقبلة كما سجدت الملائكة لآدم ويدل على صحة هذا التأويل قوله ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وظاهر هذا يدل على انهم لما صعدوا على السرير خروا سجدا لله تعالى ولو كان ليوسف لكان قبل الصعود لان ذلك أبلغ في التواضع فان قلت يدفع صحة هذا التأويل قوله رأيتهم لي ساجدين وقوله خروا له سجدا فان الضمير يرجع الى أقرب المذكورات وهو يوسف عليه الصلاة والسلام قلت يحتمل ان يكون المعنى وخروا لله سجدا لأجل يوسف واجتماعهم به وقيل يحتمل ان الله أمر يعقوب بتلك السجدة لحكمة خفية وهي ان اخوة يوسف ربما حملتهم الأنفة والتكبر عن السجود ليوسف فلما رأوا ان أباهم قد سجد له سجدوا له أيضا وتكون هذه السجدة على سبيل التحية والتواضع لا على سبيل العبادة وكان ذلك جائزا في ذلك الزمان فلما جاء الاسلام نسخت هذه الفعلة والله أعلم بمراده وأسرار كتابه (وقال) يعني وقال يوسف عندما رأى ذلك (يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل) يعني هذا تصديق الرؤيا التي رأيت في حال الصغر (قد جعلها ربي حقا) يعني في اليقظة واختلفوا فيما بين رؤياه وتأويلها فقال سلمان الفارسي وعبد الله بن شداد أربعون سنة وقال أبو صالح عن ابن عباس اثنان وعشرون سنة وقال سعيد بن جبير وعكرمة والسدي ست وثلاثون سنة وقال قتادة

(فلما دخلوا على يوسف آوى اليه) ضم اليه (أبويه) واعتنقهما قيل كانت أمه باقية وقيل ماتت وتزوج أبوه خالته والخالة أم كما أن العم أب ومنه قوله وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق ومعنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر انه حين استقبلهم أنزلهم في مضرب خيمة أو قصر كان له ثمة فدخلوا عليه وضم اليه أبويه (وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين) لم يدخلوا كها وكانوا لا يدخلونها الا بجواز أو من من ملوكها وروي انه لما لقيه قال يعقوب عليه السلام السلام عليك يا مذهب الأحزان وقال له يوسف يا أبت بكيت علي حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا فقال بلى ولكن خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك وقيل ان يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجال ونساء وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا) قيل لما دخلوا مصر وجلس في مجلسه مستويا على سريره واجتمعوا اليه أكرم أبويه فرفعهما على السرير وخروا له يعني الاخوة الأحد عشر والأبوين سجدا وكانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد وقال الزجاج سنة التعظيم في ذلك الوقت أن يسجد للمعظم وقيل ما كانت الا انحناء دون تعفير الجباه وخرورهم سجدا يأباه وقيل وخروا لأجل يوسف سجدا لله شكرا وفيه نبوة أيضا واختلف في استنبائهم (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها) أي الرؤيا (ربي حقا) أي صادقة وكان بين الرؤيا وبين التأويل أربعون سنة أو ثمانون أو ست وثلاثون أو ثنتان وعشرون

خمس وثلاثون سنة وقال عبد الله بن سودون سبعون سنة وقال الفضيل بن عياض ثمانون سنة حكى هذه الاقوال كلها ابن الجوزى وزاد غيره عن الحسن ان يوسف كان عمره حين ألقى فى الجب سبع عشرة سنة وأقام فى العبودية والسجن والملك مدة ثمانين سنة وأقام مع ابيه واخوته وأقاربه مدة ثلاث وعشرين سنة وتوفاه الله وهو ابن مائة وعشرين سنة وقوله (وقد احسن بى) يعنى انعم على يقال احسن بى والى بمعنى (اذ أخرجنى من السجن) انما ذكر انعام الله عليه فى اخراجه من السجن وان كان الجب اصعب منه استعمالا للادب والكرم لئلا يخجل اخوته بعد ان قال لهم لا تثريب عليكم اليوم ولان نعمة الله عليه فى اخراجه من السجن كانت اعظم من اخراجه من الجب وسبب ذلك ان خروجه من الجب كان سببا لحصوله فى العبودية والرق وخروجه من السجن كان سببا لوصوله الى الملك وقيل ان دخوله الجب كان بحسد اخوته ودخوله السجن كان لزوال التهمة عنه وكان ذلك من أعظم نعمه عليه (وجاء بكم من البدو) يعنى من البادية واصل البدو هو البسيط من الارض يبدو الشخص فيه من بعد يعنى يظهر والبدو خلاف الحضر والبادية خلاف الحاضرة وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية فسكنوا البادية (من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى) يعنى افسد ما بيننا بسبب الحسد وأصل النزغ دخول فى امر لافساده واستدل بهذه الآية من يرى بطلان الجبر من المبتدعة قالوا لان يوسف اضاف الاحسان الى الله وأضاف النزغ الى الشيطان ولو كان من فعل الله لوجب ان ينسب اليه كما فى الاحسان والنعم والجواب عن هذا الاستدلال ان اسناد الفعل الى الشيطان واضافته اليه على سبيل المجاز وان كان ظاهر اللفظ يقتضى اضافة الفعل الى الشيطان لا على الحقيقة ولان الفاعل المطلق المختار هو الله تعالى فى الحقيقة قل لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فثبت بذلك ان الكل من عند الله وبقضائه وقدره ليس للشيطان فيه مدخل الا بالقاء الوسوسة والتحرش لافساد ذات البين وذلك باقدار الله اياه على ذلك ان ربى لطيف لما يشاء يعنى انه تعالى ذو لطف عالم بدقائق الامور وخفياتها قال صاحب المفردات وقد يعبر باللطف عما تدركه الحاسة ويصح ان يكون وصف الله تعالى به على هذا الوجه وان يكون لمعرفته بدقائق الامور وان يكون لرفقه بالعباد فى هدايتهم وقوله (ان ربى لطيف لما يشاء) اى حسن الاستخراج تنبيها على ما اوصل الى يوسف حيث القاه اخوته فى الجب وقيل ان اجتماع يوسف بابيه واخوته بعد طول الفرقة وحسد اخوته له وازالة ذلك مع طيب الانفس وشدة المحبة كان من لطف الله بهم حيث جعل ذلك كله لان الله تعالى اذا اراد امرا هيأ اسبابه (انه هو العليم) يعنى بمصالح عباده (الحكيم) فى جميع افعاله قال اصحاب الاخبار والتواريخ ان يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام عند يوسف بمصر اربعا وعشرين سنة فى اهنأ عيش وانعم بال واحسن حال فلما حضرته الوفاة أوصى الى ابنه يوسف ان يحمل جسده حتى يدفنه عند قبر ابيه اسحاق فى الارض المقدسة بالشأم فلما مات يعقوب عليه الصلاة والسلام بمصر فعل يوسف ما أمره به أبوه فحمل جسده فى تابوت من ساج حتى قدم به الشأم فوافق ذلك موت العيص أخى يعقوب وكانا قد ولدا فى بطن واحد فدفنا فى قبر واحد وكان عمرهما مائة وسبعا وأربعين سنة فلما دفن يوسف أباه وعمه رجع الى مصر قالوا لما جمع الله شمل يوسف عليه الصلاة والسلام بأبيه واخوته علم ان نعيم الدنيا زائل سريع الفناء لا يدوم فسأل الله حسن العاقبة والخاتمة الصالحة فقال (رب) أى يا رب (قد آتيتنى من الملك) يعنى من ملك مصر ومن هنا للتبعيض لانه لم يؤت ملك مصر كله بل كان فوقه ملك آخر والملك عبارة عن الاتساع فى المقدور لمن له السياسة والتدبير (وعلمتنى من تأويل الاحاديث) يعنى تعبير الرؤيا (فاطر السموات والارض) يعنى خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق وأصل الفطر الشق يقال فطر ناب البعير اذا شق وظهر وفطر الله الخلق أوجده وأبدعه (أنت ولى) يعنى معينى ومتولى أمرى (فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما) أى اقبضنى اليك مسلما واختلفوا هل هو طلب للوفاة فى الحال أم لا على قولين احدهما انه سأل الله الوفاة فى الحال قال قتادة لم يسأل نبى من الانبياء الموت

(وقد احسن بى) يقال احسن اليه وبه وكذلك
اساء اليه وبه (اذ أخرجنى من السجن) ولم يذكر
الجب لقوله لا تثريب عليكم اليوم (وجاء بكم من
البدو) من البادية لانهم كانوا أصحاب مواشى
يتنقلون فى المياه والمناجع (من بعد ان نزغ
الشيطان بينى وبين اخوتى) أى افسد بيننا
وأغرى (ان ربى لطيف لما يشاء) أى لطيف
التدبير (انه هو العليم الحكيم) بتأخير الآمال
الى الآجال أو وحكم بالائتلاف بعد الاختلاف
(رب قد آتيتنى من الملك) ملك مصر (وعلمتنى
من تأويل الاحاديث) تعبير كتب الله أو تعبير
الرؤيا ومن فيهما للتبعيض اذ لم يؤت الا بعض
ملك الدنيا وبعض التأويل (فاطر السموات
والارض) انتصابه على النداء (أنت ولى
فى الدنيا والآخرة) انت الذى تتولانى بالنعمة
فى الدارين وتوصل الملك الفانى بالملك الباقى
(توفنى مسلما) طلب الوفاة على حال الاسلام
كقول يعقوب لولده ولا تموتن الا وأنتم مسلمون
وعن الضحاك مخلصا وعن التسترى مسلما
اليك امرى وفى عصمة الانبياء عما دعا به يوسف
ليقتدى به قومه ومن بعده ممن ليس بمأمون
العاقبة لان ظواهر الانبياء لطوائف الامم اليهم

(والحقني بالصالحين) من آبائي أو على العموم روي ان يوسف اخذ بيد يعقوب فطاف به في خزائنه فأدخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الثياب وخزائن السلاح حتى ادخله خزانة القراطيس قال يا بني ما اعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت الى على ثمانية مراحل فقال أمرني جبريل قال أو ما تسأله قال أنت ابسط اليه مني فاسأله فقال جبريل الله أمرني بذلك لقولك وأخاف ان يأكله الذئب فهلا خفتني وروي ان يعقوب اقام معه أربعا وعشرين سنة ثم مات وأوصى ان يدفنه بالشأم الى جنب ابيه اسحاق فمضى بنفسه ودفنه ثمة ثم عاد الى مصر وعاش بعد ابيه ثلاثة وعشرين سنة فلما تم أمره طلبت نفسه الملك الدائم فتمنى الموت وقيل ما تمناه نبي قبله ولا بعده فتوفاه الله طيبا طاهرا فتخاصم اهل مصر وتشاحوا في دفنه كل يحب أن يدفن في محلتهم حتى هموا بالقتال فرأوا ان يعملوا له صندوقا من مرمر وجعلوه فيه ودفنوه في النيل بمكان يمر عليه الماء ثم يصل الى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعا حتى نقل موسى عليه السلام بعد اربعمائة سنة تابوته الى بيت المقدس وولد له افرائيم وميشا وولد لافرائيم نون ولنون يوشع فتى موسى ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر ولم تزل بنو اسرائيل تحت ايديهم على بقايا دين يوسف وآبائه (ذلك) اشارة الى ما سبق من نبأ يوسف والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ (من انباء الغيب نوحيه اليك) خبران (وما كنت لديهم) لدى بني يعقوب (اذ أجمعوا أمرهم) عزموا على ما هموا به من القاء يوسف في البئر (وهم يمكرون) بيوسف ويبغون له الغوائل والمعنى ان هذا النبأ غيب لم يحصل لك الا من جهة الوحي لانك لم تحضر بني يعقوب حين اتفقوا على القاء أخيهم في البئر (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) أراد العموم أو اهل مكة أي وما هم بمؤمنين ولو اجتهدت كل الاجتهاد على ايمانهم (وما تسألهم عليه) على التبليغ أو على القرآن (من أجر) جعل (ان هو الا ذكر) ما هو الا عظة (للعالمين) وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله (وكأين من آية) من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده (في السموات والارض يمرون عليها) على الآيات أو على الارض ويشاهدونها (وهم عنها) عن الآيات (معرضون) لا يعتبرون بها والمراد ما يرون من آثار الامم الهالكة وغير ذلك من العبر (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) أي وما يؤمن أكثرهم في اقراره بالله وبأنه خلقه وخلق السموات والارض الا وهو مشرك بعبادة الوثن الجمهور على انها نزلت في المشركين لانهم مقرون بأن الله خالقهم ورازقهم واذا حزبهم أمر شديد دعوا الله ومع ذلك يشركون به غيره ومن جملة الشرك ما يقوله القدرية من اثبات قدرة التخليق للعبد والتوحيد المحض ما يقوله أهل السنة وهو انه لا خالق الا الله

الا يوسف قال أصحاب هذا القول وانه لم يأت عليه اسبوع حتى توفي والقول الثاني انه سأل الوفاة على الاسلام ولم يتمن الموت في الحال قال الحسن انه عاش بعد هذه سنين كثيرة فعلى هذا القول يكون معنى الآية توفني اذا توفيتني على الاسلام فهو طلب لان يجعل الله وفاته على الاسلام وليس في اللفظ ما يدل على انه طلب الوفاة في الحال قال بعض العلماء وكلا القولين محتمل لان اللفظ صالح للامرين ولا يبعد من الرجل العاقل الكامل أن يتمنى الموت لعلمه ان الدنيا ولذاتها فانية زائلة سريعة الذهاب وان نعيم الآخرة باق دائم لا نفاد له ولا زوال ولا يمنع من هذا قوله صلى الله عليه وسلم لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به فان تمني الموت عند وجود الضرر ونزول البلاء مكروه والصبر عليه أولى وقوله (وألحقني بالصالحين) أراد به درجة آبائه وهم ابراهيم واسحاق و يعقوب عليهم الصلاة والسلام قال علماء التاريخ عاش يوسف مائة وعشرين سنة وفي التوراة مائة وعشر سنين وولد ليوسف من امرأة العزيز ثلاثة اولاد افرائيم وميشا و رحمة امرأة أيوب وقيل عاش بعد أبيه ستين سنة وقيل اكثر ولما مات يوسف عليه الصلاة والسلام دفنوه في النيل في صندوق من رخام وقيل من حجارة المرمر وذلك انه لما مات يوسف تشاح الناس فيه فطلب كل اهل محلة ان يدفن في محلتهم رجاء بركته حتى هموا ان يقتتلوا ثم رأوا ان يدفنوه في النيل بحيث يجري الماء عليه و يتفرق وتصل بركته الى جميعهم وقال عكرمة انه دفن في الجانب الايمن من النيل فاخصب ذلك الجانب واجدب الجانب الآخر فنقل الى الجانب الايسر فأخصب واجدب الجانب الايمن فدفنوه في وسط النيل وقدروه بسلسلة فأخصب الجانبان فبقي الى ان اخرجه موسى عليه الصلاة والسلام وحمله معه حتى دفنه بقرب آبائه بالشام في الارض المقدسة قوله عز وجل (ذلك) يعني الذي ذكرت لك يا محمد من قصة يوسف وما جرى له مع اخوته ثم انه صار الى الملك بعد الرق (من أنباء الغيب) يعني اخبار الغيب (نوحيه اليك) يعني الذي أخبرناك به من اخبار يوسف وحي اوحيناه اليك يا محمد وفي هذه الآية دليل قاطع على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه كان رجلا اميا لم يقرأ الكتب ولم يلق العلماء ولم يسافر الى بلد آخر غير بلده الذي نشأ فيه صلى الله عليه وسلم وانه نشأ بين امة امية مثله ثم انه صلى الله عليه وسلم اتى بهذه القصة الطويلة على احسن ترتيب وابين معان وافصح عبارة فعلم بذلك ان الذي اتى به هو وحي الهي ونور قدسي سماوي فهو معجزة له قائمة الى آخر الدهر وقوله تعالى (وما كنت لديهم) يعني وما كنت يا محمد عند اولاد يعقوب (اذ اجمعوا أمرهم) يعني حين عزموا على القاء يوسف عليه الصلاة والسلام في الجب (وهم يمكرون) يعني بيوسف (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى وما أكثر الناس يا محمد ولو حرصت على ايمانهم بمؤمنين وذلك ان اليهود وقريشا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فلما اخبرهم بها على وفق ما عندهم في التوراة لم يسلموا فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فقيل له انهم لا يؤمنون ولو حرصت على ايمانهم ففيه تسلية له (وما تسألهم عليه من أجر) يعني على تبليغ الرسالة والدعاء الى الله من اجر يعني أجرا وجعلا على ذلك (ان هو) أي ما هو يعني القرآن (الا ذكر) يعني عظة وتذكيرا (للعالمين وكأين من آية) يعني وكم من آية دالة على التوحيد (في السموات والارض يمرون عليها) يعني لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها (وهم عنها معرضون) أي لا يلتفتون اليها والمعنى ليس اعراضهم عن هذه الآيات الطاهرة الدالة على وحدانية الله بأعجب من اعراضهم عنك يا محمد (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) يعني ان من

ايمانهم انهم اذا سئلوا من خلق السموات والارض قالوا الله واذا قيل لهم من ينزل المطر قالوا الله وهم مع ذلك
يعبدون الاصنام وفي رواية عن ابن عباس انهم يقرون ان الله خالقهم فذلك ايمانهم وهم يعبدون
غيره فذلك شركهم وفي رواية أخرى عنه أيضا انها نزلت في تلبية مشركي العرب وذلك انهم كانوا يقولون
في تلبيتهم لبيك لبيك لاشريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك وقال عطاء هذا في الدعاء وذلك
ان الكفار نسوا ربهم في الرخاء فاذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء (أفأمنوا ان تأتيهم غاشية من
عذاب الله) يعني عقوبة مجللة تعمهم وقال مجاهد عذاب يغشاهم وقال قتادة وقيعة وقال الضحاك يعني
الصواعق والقوارع (أو تأتيهم الساعة بغتة) يعني فجأة (وهم لا يشعرون) يعني بقيامها قال ابن عباس
تهيج الصيحة بالناس وهم في أسواقهم (قل) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين (هذه سبيلي) يعني طريقي
التي (أدعو) اليها وهي توحيد الله عز وجل ودين الاسلام وسمى الدين سبيلا لانه الطريق المؤدي الى الله
عز وجل والى الثواب والجنة (الى الله) يعني الى توحيد الله والايمان به (على بصيرة) يعني على يقين
ومعرفة والبصيرة هي المعرفة التي يميز بها بين الحق والباطل (أنا ومن اتبعني) يعني من آمن بي وصدق
بما جئت به ايضا يدعو الى الله وهذا قول الكلبي وابن زيد قال حق على من اتبعه وآمن به ان يدعو الى
ما دعى اليه ويذكر بالقرآن وقيل تم الكلام عند قوله أدعو الى الله ثم استأنف على بصيرة أنا ومن اتبعني
يعني أنا على بصيرة ومن اتبعني أيضا على بصيرة قال ابن عباس ان محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا
على أحسن طريقة وأفضل هداية وهم معدن العلم وكنز الايمان وجند الرحمن وقال ابن مسعود ومن كان
مستنا فليستن بمن قد مات اولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا خير هذه الامة وابرها قلوبا واعمقها
علما وأقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ونقل دينه فتشبهوا بأخلاقهم
وطرائقهم فهؤلاء كانوا على الصراط المستقيم وقوله (وسبحان الله) يعني أي وقل سبحان الله يعني تنزيها
له عما لا يليق بجلاله من جميع العيوب والنقائص والشركاء والاضداد والانداد (وما أنا من المشركين)
يعني وقل يا محمد وما أنا من المشركين الذين أشركوا بالله غيره قوله عز وجل (وما أرسلنا من قبلك الا
رجالا) يعني وما أرسلنا قبلك يا محمد الا رجالا مثلك ولم يكونوا ملائكة (نوحي اليهم) هذا جواب لاهل
مكة حيث قالوا هلا بعث الله ملكا والمعنى كيف تعجبوا من ارسالنا اياك يا محمد وسائر الرسل الذين
كانوا من قبلك بشر مثلك حالهم كحالك (من أهل القرى) يعني انهم من أهل الامصار والمدن لا من
أهل البوادي لان أهل الامصار أفضل وأعلم وأكمل عقلا من اهل البوادي قال الحسن لم يبعث
نبي من بدو ولا من الجن ولا من النساء وقيل انما لم يبعث الله نبيا من البادية لغلظهم وجفائهم
(أفلم يسيروا في الارض) يعني هؤلاء المشركين المكذبين (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم)
يعني كانت عاقبتهم الهلاك لما كذبوا رسلنا فليعتبر هؤلاء بهم وما حل بهم من عذابنا (ولدار الآخرة
خير للذين اتقوا) يعني فعلنا هذا بأوليائنا وأهل طاعتنا انجيناهم عند نزول العذاب بالامم المكذبة
وما في الدار الآخرة خير لهم يعني الجنة لانها خير من الدنيا وانما أضاف الدار الى الآخرة وان كانت هي
الآخرة لان العرب تضيف الشيء الى نفسه كقولهم حق اليقين والحق هو اليقين نفسه (أفلا يعقلون)
يعني يتفكرون ويعتبرون بهم فيؤمنوا قوله عز وجل (حتى اذا استيأس الرسل) قال صاحب
الكشاف حتى متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام كانه قيل وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم
فتراخى نصرهم حتى اذا استيأس الرسل عن النصر وقال الواحدي حتى هنا حرف من حروف الابتداء
يستأنف بعدها والمعنى حتى اذا استيأس الرسل من ايمان قومهم (وظنوا انهم قد كذبوا) قرأ اهل الكوفة
وهم عاصم وحمزة والكسائي كذبوا بالتخفيف ووجه هذه القراءة على ما قاله الواحدي ان معناه ظن الامم
ان الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم به من نصر الله اياهم واهلاك اعدائهم وهذا معنى قول ابن عباس
وابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد وقال اهل المعاني كذبوا من قولهم كذبتك الحديث أي لم اصدقك

(أفأمنوا أن تأتيهم غاشية) عقوبة تغشاهم
وتشملهم (من عذاب الله أو تأتيهم الساعة)
القيامة (بغتة) حال أي فجأة (وهم لا يشعرون)
باتيانها (قل هذه سبيلي) هذه السبيل التي هي
الدعوة الى الايمان والتوحيد سبيلي والسبيل
والطريق يذكران ويؤنثان ثم فسر سبيله بقوله
(أدعوا الى الله على بصيرة) أي أدعو الى دينه
مع حجة واضحة غير عمياء (أنا) تأكيد للمستتر في
أدعو (ومن اتبعني) عطف عليه أي أدعو الى
سبيل الله أنا ويدعو اليه من اتبعني أو أنا مبتدأ
وعلى بصيرة خبر مقدم ومن اتبعني عطف
على أنا يخبر ابتداء بأنه ومن اتبعه على حجة
وبرهان لا على هوى (وسبحان الله) وأنزهه من
الشركاء (وما أنا من المشركين) مع الله غيره
(وما أرسلنا من قبلك الا رجالا) لا ملائكة لانهم
كانوا يقولون لو شاء ربنا لأنزل ملائكة أو ليست
فيهم امرأة (نوحي) بالنون حفص (اليهم من أهل
القرى) لانهم أعلم وأحلم وأهل البوادي فيهم
الجهل والجفاء (أفلم يسيروا في الارض فينظروا
كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة)
أي ولدار الساعة الآخرة (خير للذين اتقوا)
الشرك وآمنوا به (أفلا تعقلون) وبالياء مكي
وأبو عمرو وحمزة وعلي (حتى اذا استيأس الرسل)
يئسوا من ايمان القوم (وظنوا أنهم قد كذبوا)
وأيقن الرسل ان قومهم كذبوهم وبالتخفيف
كوفي أي وظن المرسل اليهم ان الرسل قد كذبوا
أي اخلفوا أو وظن المرسل اليهم انهم كذبوا من
جهة الرسل أي كذبتهم الرسل في انهم ينصرون
عليهم ولم يصدقوهم فيه

ومنه قوله تعالى وقعد الذين كذبوا الله ورسوله قال ابو علي والضمير في قوله وظنوا على هذه القراءة للمرسل اليهم والتقدير وظن المرسل اليهم ان الرسل قد كذبوهم فيما اخبروهم به من نصر الله اياهم واهلاك اعدائهم وهذا معنى قول ابن عباس انهم لم يؤمنوا بهم حتى نزل بهم العذاب وانما ظنوا ذلك لما شاهدوا من امهال الله اياهم ولا يمتنع حمل الضمير في وظنوا على المرسل اليهم وان لم يتقدم لهم ذكر لان ذكر الرسل يدل على ذكر المرسل اليهم وان شئت قلت ان ذكرهم جرى في قوله افلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم أي مكذبي الرسل والظن هنا على معنى التوهم والحسبان وهذا ما روي عن ابن عباس انه قال حتى اذا استيأس الرسل من قومهم الاجابة وظن قومهم ان الرسل قد كذبوا فيما وعدوا من نصرهم واهلاك من كذبهم وقيل معناه وتيقن الرسل انهم قد كذبوا في وعد قومهم اياهم الايمان أي وعدوا ان يؤمنوا ثم لم يؤمنوا وقال صاحب الكشاف وظنوا أنهم قد كذبوا اي كذبتهم انفسهم حين حدثتهم بأنهم لا ينصرون او رجاؤهم كقولهم رجاء صادق ورجاء كاذب والمعنى ان مدة التكذيب والعداوة وانتظار النصر من الله تعالى وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا ان لا نصر لهم في الدنيا فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب وعن ابن عباس وظنوا حين ضعفوا وغلبوا انهم قد اخلفوا ما وعدهم الله به من النصر قال وكانوا بشرا وتلا قوله وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله قال صاحب الكشاف فان صح هذا عن ابن عباس فقد اراد بالظن ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه الطبيعة البشرية واما الظن الذي هو ترجيح احد الجانبين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين فما بال رسل الله الذين هم اعرف الناس بربهم وانه متعال عن خلف الميعاد وحكى الواحدي عن ابن الانباري انه قال هذا غير معول عليه من جهتين احداهما ان التفسير ليس عن ابن عباس لكنه من متأول تأوله عليه والاخرى ان قوله جاءهم نصرنا دال على ان اهل الكفر ظنوا ما لا يجوز مثله واستضعفوا رسل الله ونصر الله للرسل ولو كان الظن للرسل كان ذلك منهم خطأ عظيما ولا يستحقون ظفرا ولا نصرا وتبرئة الانبياء وتطهيرهم واجب علينا اذا وجدنا الى ذلك سبيلا وقرأ الباقون وهم نافع وابن كثير وابو عمرو وابن عامر وظنوا انهم قد كذبوا بالتشديد ووجهه ظاهر وهو ان معناه حتى اذا استيأس الرسل من ايمان قومهم وظنوا يعني وايقنوا يعني الرسل ان الامم قد كذبوهم تكذيبا لا يرجى بعده ايمانهم فالظن بمعنى اليقين وهذا معنى قول قتادة وقال بعضهم معناه حتى اذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ان يصدقوهم وظنوا ان من قد آمن بهم من قومهم قد فارقوهم وارتدوا عن دينهم لشدة المحنة والبلاء واستبطؤا النصر أتاهم النصر وعلى هذا القول الظن بمعنى الحسبان والتكذيب مظنون من جهة من آمن بهم يعني وظنوا بالرسل ظن حسبان ان اتباعهم قد كذبوهم في وعد الظهور والنصر لابطائه وتأخره عنهم وطول البلاء بهم لا انهم كذبوهم في كونهم رسلا وقيل ان هذا التكذيب لم يحصل من اتباعهم المؤمنين لانه لو حصل لكان نوع كفر ولكن الرسل ظنت بهم ذلك لبطء النصر وعلى هذا القول الظن بمعنى اليقين والتكذيب المتيقن هو من جهة الكفار وعلى القولين جميعا فالكناية في وظنوا للرسل (خ) عن عروة بن الزبير انه سأل عائشة عن قوله حتى اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا قالت بل كذبهم قومهم فقلت والله لقد استيقنوا ان قومهم كذبوهم وما هو بالظن فقالت يا عروة اجل لقد استيقنوا بذلك فقلت لعلها قد كذبوا فقالت معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها قلت فما هذه الآية قالت هم اتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوا فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى اذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم وظنوا ان اتباعهم كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك وفي رواية عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة قال قال ابن عباس ذهب بها هنالك وتلا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب قال فلقيت عروة بن الزبير وذكرت ذلك له فقال قالت عائشة معاذ الله والله ما وعد الله

رسوله من شيء قط الاعلم انه كائن قبل ان يموت ولكن لم يزل البلاء بالرسل حتى خافوا ان يكون معهم من قومهم من يكذبهم فكانت تقرأها وظنوا انهم قد كذبوا مثقلة وقوله تعالى (جاءهم نصرنا) يعني جاء نصر الله النبيين (فنجي من نشاء) من عبادنا يعني عند نزول العذاب بالكافرين فنجي المؤمنين المطيعين (ولا يرد بأسنا) يعني عذابنا (عن القوم المجرمين) يعني المشركين قوله تعالى (لقد كان في قصصهم) يعني في خبر يوسف واخوته (عبرة) أي موعظة (لاولي الالباب) يعني يتعظ بها اولوا الالباب والعقول الصحيحة ومعنى الاعتبار والعبرة الحالة التي يتوصل بها الانسان من معرفة المشاهد الى ما ليس بمشاهد والمراد منه التأمل والتفكر ووجه الاعتبار بهذه القصة ان الذي قدر على اخراج يوسف من الجب بعد القائه فيه واخراجه من السجن وتمليكه مصر بعد العبودية وجمع شمله بأبيه واخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع لقادر على اعزاز محمد صلى الله عليه وسلم واعلاء كلمته واظهار دينه وان الاخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الاخبار عن الغيوب فكانت معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل ان الله تعالى قال في أول هذه السورة نحن نقص عليك أحسن القصص وقال في آخرها لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب فدل على ان هذه القصة من أحسن القصص وان فيها عبرة لمن اعتبرها (ما كان حديثا يفترى) يعني ما كان هذا القرآن حديثا يفترى ويختلق لان الذي جاء به من عند الله وهو محمد صلى الله عليه وسلم لا يصح منه ان يفتريه أو يختلقه لانه لم يقرأ الكتب ولم يخالط العلماء ثم انه جاء بهذا القرآن المعجز فدل ذلك على صدقه وانه ليس بمفتر (ولكن تصديق الذي بين يديه) يعني ولكن كان تصديق الذي بين يديه من الكتب الالهية المنزلة من السماء من التوراة والانجيل وفيه اشارة الى أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما في التوراة من ذكر قصة يوسف (وتفصيل كل شيء) يعني ان في هذا القرآن المنزل عليك يا محمد تفصيل كل شيء تحتاج اليه من الحلال والحرام والحدود والاحكام والقصص والمواعظ والامثال وغير ذلك مما يحتاج اليه العباد في أمر دينهم ودنياهم (وهدى) يعني الى كل شيء (ورحمة) يعني أنزلناه رحمة (لقوم يؤمنون) لانهم هم الذين ينتفعون به والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

(تفسير سورة الرعد)

قال ابن الجوزي اختلفوا في نزولها على قولين أحدهما انها مكية رواه أبو طلحة عن ابن عباس وبه قال الحسن وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة وروى أبو صالح عن ابن عباس انها مكية الا آيتين احداهما قوله ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة والاخرى ويقول الذين كفروا لست مرسلا والقول الثاني انها مدنية رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس وبه قال جابر بن زيد وروي عن ابن عباس انها مدنية الا آيتين نزلتا بمكة وهما قوله ولو أن قرآنا سيرت به الجبال الى آخر الآيتين وقال بعضهم المدني منها قوله هو الذي يريكم البرق الى قوله دعوة الحق وهي ثلاث وقيل خمس وأربعون آية وثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (المر) قال ابن عباس رضي الله عنهما معناه انا الله أعلم وأرى وروى عطاء عنه أنه قال ان معناه انا الله الملك الرحمن (تلك آيات الكتاب) الاشارة بتلك الى آيات السورة المسماة بالمر والمراد بالكتاب السورة أي آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها ثم قال تعالى (والذي أنزل اليك من ربك الحق) يعني من القرآن كله هو الحق الذي لا مزيد عليه وقيل المراد بالاشارة في قوله تلك الاخبار والقصص أي الاخبار والقصص التي قصصتها عليك يا محمد هي آيات التوراة والانجيل والكتب الالهية القديمة المنزلة والذي

(جاءهم نصرنا) للانبياء والمؤمنين بهم بغتة من غير احتساب (فنجي) بنون واحدة وتشديد الجيم وفتح الياء شامي وعاصم على لفظ الماضي المبني للمفعول والقائم مقام الفاعل من الباقون فننجي (من نشاء) أي النبي ومن آمن به (ولا يرد بأسنا) عذابنا (عن القوم المجرمين) الكافرين (لقد كان في قصصهم) أي في قصص الانبياء واممهم أو في قصة يوسف واخوته (عبرة لاولي الالباب) حيث نقل من غاية الحب الى غيابة الجب ومن الحصير الى السرير فصارت عاقبة الصبر سلامة وكرامة ونهاية المكر وخامة وندامة (ما كان حديثا يفترى) ما كان القرآن حديثا مفترى كما زعم الكفار (ولكن تصديق الذي بين يديه) ولكن تصديق الكتب التي تقدمته (وتفصيل كل شيء) يحتاج اليه في الدين لانه القانون الذي تستند اليه السنة والاجماع والقياس (وهدى) من الضلال (ورحمة) من العذاب (لقوم يؤمنون) بالله وانبيائه وما نصب بعد لكن معطوف على خبر كان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم علموا أرقاءكم سورة يوسف فانما عبد تلاها وعلمها اهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة ان لا يحسد مسلما قال الشيخ أبو منصور رحمه الله في ذكر قصة يوسف عليه السلام واخوته تصبير لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أذى قريش كأنه يقول ان اخوة يوسف مع موافقتهم اياه في الدين ومع الاخوة عملوا بيوسف ما عملوا من الكيد والمكر وصبر على ذلك فانت مع مخالفتهم اياك في الدين أحرى ان تصبر على اذاهم وقال وهب ان الله تعالى لم ينزل كتابا الا وفيه سورة يوسف عليه السلام تامة كما هي في القرآن العظيم والله أعلم

(سورة الرعد مكية وهي ثلاث وأربعون آية كوفي وخمس وأربعون آية شامي)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(المر) أنا الله أعلم وأرى عن ابن عباس رضي الله عنهما (تلك) اشارة الى آيات السورة (آيات الكتاب) أريد بالكتاب السورة أي تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها (والذي انزل اليك من ربك) اي القرآن كله (الحق) خبر والذي

أنزل اليك يعنى وهذا القرآن الذى أنزل اليك يا محمد من ربك الحق أى هو الحق فاعتصم به وقال ابن عباس وقتادة أراد بآيات الكتاب القرآن والمعنى هذه آيات الكتاب الذى هو القرآن ثم قال والذى أنزل اليك من ربك الحق يعنى وهذا القرآن الذى أنزل اليك من ربك هو الحق الذى لا شك فيه ولا تناقض (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) يعنى مشركى مكة نزلت هذه الآية فى الرد عليهم حين قالوا ان محمدا يقوله من تلقاء نفسه ثم ذكر من دلائل ربوبيته وعجائب قدرته ما يدل على وحدانيته فقال تعالى (الله الذى رفع السموات بغير عمد) جمع عمود وهى الاساطين والدعائم التى تكون تحت السقف وفى قوله (ترونها) قولان أحدهما ان الرؤية ترجع الى السماء يعنى وأنتم ترون السموات مرفوعة بغير عمد من تحتها يعنى ليس من دونها دعامة تدعمها ولا من فوقها علاقة تمسكها والمراد نفى العمد بالكلية قال اياس بن معاوية السماء مقببة على الارض مثل القبة وهذا قول الحسن وقتادة وجمهور المفسرين واحدى الروايتين عن ابن عباس والقول الثانى ان الرؤية ترجع الى العمد والمعنى ان لها عمدا ولكن لا ترونها أنتم ومن قال بهذا القول يقول ان عمدها على جبل قاف وهو جبل من زمرد محيط بالدنيا والسماء عليه مثل القبة وهذا قول مجاهد وعكرمة والرواية الاخرى عن ابن عباس والقول الاول أصح وقوله تعالى (ثم استوى على العرش) تقدم تفسيره والكلام عليه فى سورة الاعراف بما فيه كفاية (وسخر الشمس والقمر) يعنى ذللهما لمنافع خلقه فهما مقهوران يجريان على ما يريد (كل يجرى لأجل مسمى) يعنى الى وقت معلوم وهو وقت فناء الدنيا وزوالها وقال ابن عباس أراد بالاجل المسمى درجاتهما ومنازلهما يعنى انهما يجريان فى منازلهما ودرجاتهما الى غاية ينتهيان اليها ولا يجاوزانها وتحقيقه ان الله تعالى جعل لكل واحد من الشمس والقمر سيرا خاصا الى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء فى الحركة (يدبر الامر) يعنى انه تعالى يدبر أمر العالم العلوى والسفلى ويصرفه ويقضيه بمشيئته وحكمته على أكمل الاحوال لا يشغله شأن عن شأن وقيل يدبر الامر بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة وفيه دليل على كمال القدرة والرحمة لان جميع العالم محتاجون الى تدبيره ورحمته داخلون تحت قهره وقضائه وقدرته (يفصل الآيات) يعنى انه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته وقيل ان الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان الاول الموجودات المشاهدة وهى خلق السموات والارض وما فيهما من العجائب وأحوال الشمس والقمر وسائر النجوم وهذا قد تقدم ذكره والقسم الثانى الموجودات الحادثة فى العالم وهى الموت بعد الحياة والفقر بعد الغنى والضعف بعد القوة الى غير ذلك من أحوال هذا العالم وكل ذلك مما يدل على وجود الصانع وكمال قدرته (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) يعنى انه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته لكى توقنوا وتصدقوا بلقائه والمصير اليه بعد الموت لان من قدر على ايجاد الانسان بعد عدمه قادر على ايجاده واحيائه بعد موته واليقين صفة من صفات العلم وهو فوق المعرفة والدراية وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك يقال منه استيقن وأيقن بمعنى علم قوله تعالى (وهو الذى مد الارض) لما ذكر الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته وهى رفع السموات بغير عمد وذكر أحوال الشمس والقمر أردفها بذكر الدلائل الارضية فقال وهو الذى مد الارض أى بسطها على وجه الماء وقيل كانت الارض مجتمعة فمدها من تحت البيت الحرام وهذا القول انما يصح اذا قيل ان الارض منسطحة كالاكف وعند أصحاب الهيئة الارض كرة ويمكن أن يقال ان الكرة اذا كانت كبيرة عظيمة فكل قطعة منها تشاهد ممدودة كالسطح الكبير العظيم فحصل الجمع ومع ذلك فالله تعالى قد أخبر انه مد الارض وانه دحاها وبسطها وكل يدل على السطح والله تعالى اصدق قيلا وابين دليلا من أصحاب الهيئة (وجعل فيها) يعنى فى الارض (رواسى) يعنى جبالا ثابتة يقال رسا الشئ يرسو اذا ثبت وارساه غيره اثبته قال ابن عباس كان أبو قبيس أول جبل وضع على الارض (وانهارا) يعنى وجعل فى الارض أنهارا جارية لمنافع الخلق (ومن كل الثمرات

(ولكن اكثر الناس لا يؤمنون) فيقولون تقوله محمد ثم ذكر ما يوجب الايمان فقال (الله الذى رفع السموات) أى خلقها مرفوعة لا أن تكون موضوعة فرفعها والله مبتدأ والخبر الذى رفع السموات (بغير عمد) حال وهو جمع عماد أو عمود (ترونها) الضمير يعود الى السموات أى ترونها كذلك فلا حاجة الى البيان أو الى عمد فيكون فى موضع جر على انه صفة لعمد أى بغير عمد مرئية (ثم استوى على العرش) استولى بالاقتدار ونفوذ السلطان (وسخر الشمس والقمر) لمنافع عباده ومصالح بلاده (كل يجرى لأجل مسمى) وهو انقضاء الدنيا (يدبر الامر) أمر ملكوته وربوبيته (يفصل الآيات) يبين آياته فى كتبه المنزلة (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) لعلكم توقنون بان هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع اليه (وهو الذى مد الارض) بسطها (وجعل فيها رواسى) جبالا ثوابت (وانهارا) جارية (ومن كل الثمرات

جعل فيها زوجين اثنين) يعنى صنفين اثنين أحمر وأصفر وحلوا وحامضا (يغشى الليل النهار) يعنى يلبس النهار ظلمة الليل ويلبس الليل ضوء النهار (ان فى ذلك) يعنى الذى تقدم ذكره من عجائب صنعة وغرائب قدرته الدالة على وحدانيته (لآيات) أى دلالات (لقوم يتفكرون) يعنى فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالسبب على المسبب والفكر هو تصرف القلب فى طلب الاشياء وقال صاحب المفردات الفكر قوة مطرقة للعلم الى المعلوم والتفكر جريان تلك القوة بحسب نظر العقل وذلك للانسان دون الحيوان ولا يقال الا فيما يمكن ان يحصل له صورة فى القلب ولهذا روى تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله اذ كان الله منزها ان يوصف بصورة وقال الادباء الفكر مقلوب عن الفرك لانه يستعمل فى طلب المعانى وهو فرك الامور وبحثها طلبا للوصول الى حقيقتها قوله عز وجل (وفى الارض قطع متجاورات) يعنى متقاربات بعضها من بعض وهى مختلفة فى الطبائع فهذه طيبة تنبت وهذه سبخة لا تنبت وهذه قليلة الريع وهذه كثيرة الريع (وجنات) يعنى بساتين والجنة كل بستان ذى شجر من نخيل وأعناب وغير ذلك سمى جنة لانه يستر بأشجاره الارض واليه الاشارة بقوله (من أعناب وزرع ونخيل صنوان) جمع صنو وهى النخلات يجمعن من اصل واحد ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى عمه العباس عم الرجل صنو أبيه يعنى انهما من اصل واحد (وغير صنوان) هى النخلة المنفردة بأصلها فالصنوان المجتمع وغير الصنوان المتفرق (يسقى بماء واحد) يعنى أشجار الجنات وزروعها والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نام وقيل فى حده جوهر سيال به قوام الارواح (ونفضل بعضها على بعض فى الاكل) يعنى فى الطعم ما بين الحلو والحامض وغير ذلك من الطعام عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ونفضل بعضها على بعض فى الاكل قال الدقل والفارسى والحلو والحامض أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب قال مجاهد هذا كمثل بنى آدم صالحهم وخبيثهم وأبوهم واحد وقال الحسن هذا مثل ضربه الله لقلوب بنى آدم كانت الارض طينة واحدة فى يد الرحمن فسطحها وصارت قطعا متجاورات وأنزل على وجهها ماء السماء فتخرج هذه زهرتها وثمرتها وشجرها وتخرج هذه نباتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبيثها وكل يسقى بماء واحد فلو كان الماء قليلا قيل انما هذا من قبل الماء كذلك الناس خلقوا من آدم فينزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب قوم وتخشع وتخضع وتقسو قلوب قوم فتلهو ولا تسمع وقال الحسن والله ما جالس القرآن أحد الا قام من عنده بزيادة او نقصان قال الله تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا وقوله تعالى (ان فى ذلك) يعنى الذى ذكر (لآيات لقوم يعقلون) يعنى فيتدبرون ويتفكرون فى الآيات الدالة على وحدانيته قوله تعالى (وان تعجب فعجب قولهم) العجب تغير النفس برؤية المستبعد فى العادة وقيل العجب حالة تعرض للانسان عند الجهل بسبب ولهذا قال بعض الحكماء العجب ما لا يعرف سببه ولهذا قيل العجب فى حق الله محال لانه تعالى علام الغيوب لا تخفى عليه خافية والخطاب فى الآية للنبى صلى الله عليه وسلم ومعناه وانك يا محمد ان تعجب من تكذيبهم اياك بعد ان كنت عندهم تعرف بالصادق الامين فعجب أمرهم وقيل معناه وان تعجب من اتخاذ المشركين ما لا يضرهم ولا ينفعهم آلهة يعبدونها مع اقرارهم بان الله خالق السموات والارض وهو يضر وينفع وقد رأوا من قدرة الله وما ضرب لهم به الامثال ما رأوا فعجب قولهم وقيل وانك ان تعجب من انكارهم النشأة الآخرة والبعث بعد الموت مع اقرارهم بان ابتداء الخلق من الله فعجب قولهم وذلك ان المشركين كانوا ينكرون البعث بعد الموت مع اقرارهم بان ابتداء الخلق من الله وقد تقرر فى النفوس ان الاعادة أهون من الابتداء فهذا موضع العجب وهو قولهم (أئذا كنا ترابا) يعنى بعد الموت (أئنا لفى خلق جديد) يعنى نعاد خلقا جديدا بعد الموت كما كنا قبله ثم ان الله تعالى قال فى حقهم (أولئك الذين كفروا بربهم) وفيه دليل على ان كل من أنكر البعث بعد الموت فهو كافر بالله تعالى لان من أنكر البعث بعد الموت فقد أنكر القدرة وان الله

جعل فيها زوجين اثنين) اى الاسود والابيض والحلو والحامض والصغير والكبير وما اشبه ذلك (يغشى الليل النهار) يلبسه مكانه فيصير اسود مظلما بعد ما كان ابيض منيرا يغشى حمزة وعلى وأبو بكر (ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فيعلمون ان لها صانعا عليما حكيما قادرا (وفى الارض قطع متجاورات) بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متلاصقة طيبة الى سبخة وكريمة الى زهيدة وصلبة الى رخوة وذلك دليل على قادر مدبر مريد موقع لافعاله على وجه دون وجه (وجنات) معطوفة على قطع (من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان) بالرفع مكى وبصرى وحفص عطف على قطع غيرهم بالجر بالعطف على اعناب والصنوان جمع صنو وهى النخلة لها رأسان واصلهما واحد وعن حفص بضم الصاد وهما لغتان (تسقى بماء واحد) وبالياء عاصم وشامى (ونفضل بعضها على بعض) وبالياء حمزة وعلى (فى الاكل) فى الثمر وبسكون الكاف نافع ومكى (ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) عن الحسن مثل اختلاف القلوب فى آثارها وانوارها واسرارها باختلاف القطع فى انهارها وأزهارها وثمارها (وان تعجب) يا محمد من قولهم فى انكار البعث (فعجب قولهم) خبر ومبتدأ اى فقولهم حقيق بان يتعجب منه لان من قدر على انشاء ما عدد عليك كانت الاعادة أهون شىء عليه وايسره فكان انكارهم اعجوبة من الاعاجيب (أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد) فى محل الرفع بدل من قولهم قرأ عاصم وحمزة كل واحد بهمزتين (اولئك الذين كفروا بربهم) اولئك الكافرون المتمادون فى كفرهم

على

عـلى كل شئ قدير ومن أنكر ذلك فهو كافر (وأولئك الاغلال فى أعناقهم) يعنى يوم القيامة والاغلال جمع غـل وهو طوق من حـديد يجعل فى العنق وقيل اراد بالاغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيـامة كما يقاد الاسير ذليلا بالغل (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) يعنى انهم مقيمون فيها لا يخرجون منها ولا يموتون (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) الاستعجال طلب تعجيل الامر قبل مجئ وقته والمراد بالسيئة هاهنا العقوبة وبالحسنة العافية وذلك ان مشركى مكة كانوا يطلبون العقوبة بدلا من العافية استهزاء منهم وهو قولهـم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب أليم (وقد خلت من قبلهم المثلات) يعنى وقد مضت فى الامم المـكذبة العقوبات بسبب تكذيبهم رسلهم والمثلة بفتح الميم وضم الثاء المثلثة نقمة تنزل بالانسان فيجعل مثلا ليرتدع غيره به وذلك كالنكال وجمعه مثلات بفتح الميم وضمها مع ضم الثاء فيهما لغتان (وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) قال ابن عباس معناه انه لذو تجاوز عن المشركين اذا آمنوا (وان ربك لشديد العقاب) يعنى للمصرين على الشرك الذى ماتوا عليه وقال مجاهد انه لذو تجاوز عن شركهم فى تأخير العذاب عنهم وانه لشديد العقاب اذا عاقب قوله تعالى (ويقول الذين كفروا) يعنى من أهل مكة (لولا) أى هلا (أنزل عليه) يعنى على محمد صلى الله عليه وسلم (آية من ربه) يعنى مثل عصا موسى وناقة صالح وذلك لانهم لم يقتنعوا بما رأوا من الآيات التى جاء بها النبى صلى الله عليه وسلم (انما أنت منذر) أى ليس عليك يا محمد غير الانذار والتخويف وليس لك من الآيات شئ (ولكل قوم هاد) قال ابن عباس الهادى هو الله وهذا قول سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والضحاك والنخعى والمعنى انما عليك الانذار يا محمد والهادى هو الله يهدى من يشاء وقال عكرمة فى رواية أخرى عنه وأبو الضحى الهـادى هو رسول الله صـلى الله عليه وسلم والمعنى انما أنت منذر وأنت هاد وقال الحسن وقتادة وابن زيد يعنى ولكل قوم نبى يهديهم وقال أبو العالية الهادى هو العمل الصالح وقال أبو صالح الهادى هو القائد الى الخير لا الى الشر قوله عز وجل (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات أخبرهم الله عز وجل عن عظيم قدرته وكمال علمه وانه عالم بما تحمل كل أنثى يعنى من ذكر او أنثى سوى الخلق او ناقص الخلق واحدا او اثنين او اكثر (وما تغيض) يعنى وما تنقص (الارحام وما تزداد) قال أهـل التفسير غيض الارحام الحيض على الحمل فاذا حاضت الحامل كان ذلك نقصانا فى الولد لان دم الحيض هو غذاء الولد فى الرحم فاذا خرج الدم نقص الغـذاء فينقص الولد واذا لم تحض يزداد الولد ويتم فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم والزيادة تمام خلقه باستمساك الدم وقيل اذا حاضت المرأة فى وقت حملها ينقص الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة أشهر طاهرة فان رأت خمسة ايام دما وضعت لتسعة اشهر وخمسة أيام فالنقصان فى الغـذاء زيادة فى مدة الحمـل وقيـل النقصـان السقط والزيادة تمام الخلق وقال الحسن غيضها نقصانها من تسعة أشهر والزيادة زيادتها على تسعة أشهر فأقل مدة الحمل ستة أشهر وقد يولد لهذه المدة ويعيش واختلفوا فى اكثره فقال قوم اكثر مدة الحمل سنتان وهو قول عائشة وبه قال أبو حنيفة وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وقال جماعة اكثرها اربع سنين واليـه ذهب الشافعى وقال حماد بن أبى سلمة انما سمى هرم بن حيان هرما لانه بقى فى بطن امـه اربع سنين وعند مالك ان اكثر مدة الحمل خمس سنين (وكل شئ عنده بمقدار) يعنى بتقدير وحد لا يجاوزه ولا ينقص منه وقيل انه تعالى يعلم كمية كل شئ وكيفيته على اكمل الوجوه وقيل معناه وانه تعـالى خصص كل حادثة من الحوادث بوقت معين وحالة معينة وذلك بمشيئته الازلية وارادته وتقديره الذى لا يقدر عليه غيره (عالم الغيب والشهادة) يعنى انه تعالى يعلم ما غاب عن خلقه وما يشاهدونه وقيـل الغيب هو المعدوم والشاهد هو الموجود وقيـل الغيب ما غاب عن الحس والشاهد ما حضر فى الحس (الكبير) أى العظيم الذى يصغر كل كبير بالاضافة الى عظمته وكبريائه فهو يعود الى معنى كبر قدرته وانه تعالى المستحق لصفات الكمال (المتعال) يعنى المنزه عن صفات النقص المتعالى عن الخلق وفيه دليل عـلى انه تعـالى موصوف بالعلم الكامل والقدرة التامة وتنزيهه عن جميع النقائص قوله تعالى

(وأولئك الاغلال فى أعناقهم) وصف لهم بالاصرار أو من جملة الوعيد (وأولئك أصحاب النـار هـم فيها خالدون) دل تكرار أولئك على تعظيم الامر (ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة) بالنقمة قبل العـافية وذلك انهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بانذاره (وقد خلت من قبلهم المثلات) أى عقوبات امثالهم من المكذبين فما لهم لم يعتبروا بها فلا يستهزؤا والمثلة العقوبة لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة وجزاء سيئة سيئة مثلها (وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أى مع ظلمهم انفسهم بالذنوب ومحله الحال أى ظالمين لانفسهم قال السدى يعنى المؤمنين وهى أرجى آية فى كتاب الله حيث ذكر المغفرة مع الظلم وهو بدون التوبة فان التوبة تزيلها وترفعها (وان ربك لشديد العقاب) على الكافرين أو هما جميعا فى المؤمنين لكنه معلق بالمشيئة فيهما أى يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) لم يعتدوا بالآيات المنزلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عنادا فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى من انقلاب العصا حية واحياء الموتى فقيـل لرسول الله صلى الله عليه وسلم (انما أنت منذر) انما أنت رجل ارسلت منـذرا مخوفا لهـم من سوء العـاقبة وناصحا كغيرك من الرسل وما عليك الا الاتيان بما يصح به انك رسول منذر وصحة ذلك حاصلة بأى آية كانت والآيات كلها سواء فى حصول صحة الدعوى بها (ولكل قوم هاد) من الانبياء يهديهم الى الدين ويدعوهم الى الله بآية خص بها لا بما يريدون ويتحكمون (الله يعـلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الارحام وما تزداد) ما فى هذه المواضع الثلاثة موصولة أى يعـلم ما تحمله من الولد على أى حال هو من ذكورة وانوثة وتمام وخـداج وحسن وقبح وطول وقصر وغير ذلك وما تغيضه الارحام أى ويعلم ما تنقصه يقال غاض الماء وغضته انا وما تزداده والمراد عـدد الولد فانها تشتمـل على واحد واثنين وثلاثة وأربعة أو جسد الولد فانه يكون تاما ومخدجا أو مدة الولادة فانها تكون اقل من تسعة اشهر وأزيد عليها الى سنتين عنـدنا والى اربع عند الشافعى والى خمس عند مالك أو مصدرية أى يعـلم حمل كل انثى ويعـلم غيض الارحام وازديادهـا (وكل شئ عنـده بمقدار) بقدر وحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه كقوله انا كل شئ خلقناه بقدر (عالم الغيب) ما غاب عن الخلق (والشهادة) ما شاهدوه (الكبير) العظيم الشأن الذى كل شئ دونه (المتعال) المستعلى على كل شئ بقدرته أو الذى كبر عن صفات المخلوقين وتعالى عنها وبالياء فى الحالين مكى

١٣ ث

(سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) أي مستو منكم من اخفى القول وكتمه ومن اظهره واعلنه والمعنى انه قد استوى في علم الله تعالى المسر بالقول والجاهر به (ومن هو مستخف بالليل) أي مستتر بظلمته (وسارب بالنهار) أي ذاهب بالنهار في سربه ظاهرا والسرب بفتح السين وسكون الراء الطريق وقال العتبي السارب المتصرف في حوائجه قال ابن عباس في هذه الآية هو صاحب ريبة مستخف بالليل واذا خرج بالنهار ارى الناس انه بريء من الاثم وقيل مستخف بالليل ظاهر من قولهم اخفيت الشيء اذا أظهرته واخفيته اذا كتمته وسارب بالنهار اى متوار دخل في السرب مستخفيا ومعنى الآية سواء ما أضمرته القلوب أو نطقت به الالسن وسواء من أقدم على القبائح مستترا في ظلمات الليل أو أتى بها ظاهرا في النهار فان علمه تعالى محيط بالكل (له معقبات) يعني لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار فاذا صعدت ملائكة الليل عقبتها ملائكة النهار والتعقيب العود بعد البدء وانما ذكر معقبات بلفظ التأنيث وان كان الملائكة ذكورا لان واحدها معقب وجمعها معقبة ثم جمع المعقبة معقبات كما قيل بناوات سعد ورجالات بكر (ق) وعن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو اعلم بكم كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون واتيناهم وهم يصلون وقيل ان مع كل واحد من بني آدم ملكين ملك عن يمينه وهو صاحب الحسنات وملك عن شماله وهو كاتب السيئات وكاتب الحسنات امين على كاتب السيئات فاذا عمل العبد حسنة كتبها له بعشر امثالها واذا عمل سيئة قال صاحب الشمال لصاحب اليمين اكتبها عليه فيقول أنظره لعله يتوب او يستغفر فيستأذنه ثلاث مرات فان هو تاب منها والا قال اكتبها عليه سيئة واحدة وملك موكل بناصية العبد فاذا تواضع العبد لله عز وجل رفعه بها وان تجبر على الله عز وجل وضعه بها وملك موكل بعينيه يحفظهما من الاذى وملك موكل بفيه لا يدعه يدخل في فيه شيء من الهوام يؤذيه فهؤلاء خمسة املاك موكلون بالعبد في ليله وخمسة غيرهم في نهاره فانظر الى عظمة الله تعالى وقدرته وكمال شفقته عليك ايها العبد المسكين وهو قوله تعالى (من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله) يعني يحفظون العبد من بين يديه ومن وراء ظهره ومعنى من أمر الله بامر الله واذنه ما لم يجيء القدر فاذا جاء خلوا عنه وقيل معناه انهم يحفظونه بما أمر الله به من الحفظ له قال مجاهد ما من عبد الا وملك موكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والانس والهوام فما من شيء يأتيه يؤذيه الا قال له الملك وراءك الا شيء يأذن الله فيه فيصيبه وقال كعب الاحبار لولا ان الله تعالى وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطفتكم الجن وقال ابن جريج معنى يحفظونه اى يحفظون عليه الحسنات والسيئات وهذا على قول من يقول ان الآية في الملكين القاعدين عن اليمين وعن الشمال يكتبان الحسنات والسيئات وقال عكرمة الآية في الامراء وحرسهم يحفظونهم من بين أيديهم ومن خلفهم والضمير في قوله يحفظونه راجع الى النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس في معنى الآية لمحمد صلى الله عليه وسلم حراس من الرحمن من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من شر الجن وطوارق الليل والنهار وقال عبد الرحمن بن زيد نزلت هذه الآية في عامر بن الطفيل وزيد بن ربيعة وهما من بني عامر بن زيد وكانت قصتهما على ما رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال أقبل عامر بن الطفيل وزيد بن ربيعة وهما من بني عامر بن زيد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد في نفر من أصحابه فدخل المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر وكان من أجمل الناس وكان أعور فقال رجل يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك فقال دعه فان يرد الله به خيرا يهده فأقبل حتى قام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا محمد ما لي ان أسلمت قال لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين قال تجعل الامر لي بعدك قال ليس ذلك لي انما ذلك الى الله تعالى يجعله حيث

(سواء منكم من اسر القول ومن جهر به) أي في
علمه (ومن هو مستخف بالليل) متوار (وسارب
بالنهار) ذاهب في سربه أي في طريقه ووجهه
يقال سرب في الارض سروبا وسارب عطف
على من هو مستخف لا على مستخف او على مستخف
غير ان من في معنى الاثنين والضمير في (له)
مردود على من كأنه قيل لمن اسر ومن جهر
ومن استخفى ومن سرب (معقبات) جماعات
من الملائكة تعتقب في حفظه والاصل
معتقبات فادغمت التاء في القاف أو هو مفعلات
من عقبه اذا جاء على عقبه لان بعضهم يعقب
بعضا أو لانهم يعقبون ما يتكلم به فيكتبونه
(من بين يديه ومن خلفه) أي قدامه ووراءه
(يحفظونه من أمر الله) هما صفتان جميعا
وليس من امر الله بصلة للحفظ كأنه قيل له
معقبات من أمر الله أو يحفظونه من اجل
أمر الله أي من اجل ان الله تعالى أمرهم
بحفظه أو يحفظونه من بأس الله ونقمته اذا
اذنب بدعائهم له

يشاء قال فتجعلني على الوبر وأنت على المدر قال لا قال فما تجعل لي قال أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها قال أوليس ذلك لي اليوم قم معي أكلمك فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عامر قد أوصى إلى زيد بن ربيعة إذا رأيتني أكلمه فدر من خلفه فاضربه بالسيف فجعل عامر يخاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويراجعه ودار زيد من خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضربه فاخترط شبرا من سيفه ثم حبسه الله تعالى عليه فلم يقدر على سله وجعل عامر يومئ إليه فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى زيدا وما صنع بسيفه فقال اللهم اكفنيهما بما شئت فأرسل الله على زيد صاعقة في يوم صحو قائظ فأحرقته فولى عامر هاربا وقال يا محمد دعوت ربك فقتل زيدا والله لأملأنها عليك خيلا جردا وشبابا مردا فقال النبي صلى الله عليه وسلم يمنعني الله من ذلك وابنا قيلة يريد الأوس والخزرج فنزل عامر بيت امرأة سلولية فلما أصبح ضم إليه سلاحه فخرج له خراج في أصل أذنه أخذه منه مثل النار واشتد عليه فقال غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية ثم ركب فرسه وجعل يركض في الصحراء ويقول ادن يا ملك الموت وجعل يقول الشعر ويقول لئن أبصرت محمدا وصاحبه يعني ملك الموت لأنفذنهما برمحي فأرسل الله إليه ملكا فلطمه فأرداه في التراب ثم عاد فركب جواده حتى مات على ظهره وأجاب الله عز وجل دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في عامر بن الطفيل فمات بالطعن وزيد بن ربيعة مات بالصاعقة وأنزل الله عز وجل في شأن هذه القصة سواء منكم من أسر القول ومن جهر به إلى قوله له معقبات من بين يديه ومن خلفه يعني لرسول الله صلى الله عليه وسلم معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من أمر الله أي بأمر الله وقيل إن تلك المعقبات من أمر الله وفيه تقديم وتأخير تقديره له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه وقوله (إن الله لا يغير ما بقوم) خطاب لهذين عامر بن الطفيل وزيد بن ربيعة يعني لا يغير ما بقوم من العافية والنعمة التي أنعم بها عليهم (حتى يغيروا ما بأنفسهم) يعني من الحالة الجميلة فيعصون ربهم ويجحدون نعمه عليهم فعند ذلك تحل نقمته بهم وهو قوله تعالى (وإذا أراد الله بقوم سوءا) يعني هلاكا وعذابا (فلا مرد له) يعني لا يقدر أحد أن يرد ما أنزل الله بهم من قضائه وقدره (وما لهم من دونه من وال) يعني وليس لهم من دون الله من وال يلي أمرهم ونصرهم ويمنع العذاب عنهم قوله عز وجل (هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا) لما خوف الله عز وجل عباده بقوله وإذا أراد الله بقوم سوءا ذكر في هذه الآية من عظيم قدرته ما يشبه النعم من وجه ويشبه العذاب من وجه فقال تعالى هو الذي يعني هو الله الذي يريكم البرق والبرق معروف وهو لمعان يظهر من خلال السحاب وفي كونه خوفا وطمعا وجوه الأول عند لمعان البرق يخاف من الصواعق ويطمع في نزول المطر الثاني أنه يخاف من البرق من يتضرر بالمطر كالمسافر ومن في جرينه يعني بيدر التمر والزبيب والقمح ونحو ذلك ويطمع فيه من له في نزول المطر نفع كالزراع ونحوه الثالث أن المطر يخاف منه إذا كان في غير مكانه وزمانه ويطمع فيه إذا كان في مكانه وزمانه فإن من البلاد ما إذا أمطرت قحطت وإذا لم تمطر أخصبت (وينشئ السحاب الثقال) يعني بالمطر يقال أنشأ الله السحابة فنشأت أي أبداها فبدت والسحاب جمع سحابة والسحاب غربال الماء قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقيل السحاب الغيم فيه ماء أو لم يكن فيه ماء ولهذا قيل سحاب جهام وهو الخالي من الماء وأصل السحب الجر وسمي السحاب سحابا إما لجر الريح له أو لجره الماء أو لانجراره في سيره (ويسبح الرعد بحمده) أكثر المفسرين على أن الرعد اسم للملك الذي يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه وأورد على هذا القول ما عطف عليه وهو قوله (والملائكة من خيفته) وإذا كان المعطوف مغايرا للمعطوف عليه وجب أن يكون غيره وأجيب عنه أنه لا يبعد أن يكون الرعد اسما لملك من الملائكة وإنما أفرده بالذكر تشريفا له على غيره من الملائكة فهو كقوله وملائكته وجبريل وميكال قال ابن عباس أقبلت يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا أخبرنا عن الرعد ما هو قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق

من نار يسوقه بها حيث يشاء الله قالوا فما هذا الصوت الذى يسمع قال زجرة السحاب حتى تنتهى حيث امرت قالوا صدقت أخرجه الترمذى مع زيادة فيه المخاريق جمع مخراق وهو فى الاصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا واراد به هنا آلة ترجر بها الملائكة السحاب وقد جاء تفسيره فى حديث آخر وهو صوت من نور تزجر الملائكة به السحاب قال ابن عباس من سمع صوت الرعد فقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شئ قدير فان اصابته صاعقة فعلى ديته وكان عبد الله بن الزبير اذا سمع الرعد ترك الحديث وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وكان يقول ان الوعيد لاهل الارض شديد وفى بعض الاخبار ان الله تعالى يقول لو ان عبادى اطاعونى لاسقيتهم المطر بالليل واطلعت عليهم الشمس بالنهار ولم اسمعهم صوت الرعد وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس انه قال الرعد ملك موكل بالسحاب يصرفه الى حيث يؤمر وان بحر الماء فى نقرة ابهامه وانه يسبح الله فاذا سبح لا يبقى ملك فى السماء الا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر وقيل ان الرعد اسم لصوت الملك الموكل بالسحاب ومع ذلك فان صوت الرعد يسبح الله عز وجل لان التسبيح والتقديس عبارة عن تنزيه الله عز وجل عن جميع النقائص ووجود هذا الصوت المسموع من الرعد وحدوثه دليل على وجود خالق قادر متعال عن جميع النقائص وان لم يكن ذلك فى الحقيقة تسبيحا ومنه قوله وان من شئ الا يسبح بحمده وقيل المراد من تسبيح الرعد ان من سمعه سبح الله فلهذا المعنى أضيف التسبيح اليه وقوله والملائكة من خيفته يعنى ويسبح الملائكة من خيفة الله عز وجل وهيبته وخشيته وقيل المراد بهذه الملائكة اعوان السحاب جعل الله عز وجل مع الملك الموكل بالسحاب اعوانا من الملائكة وهم خائفون خاضعون طائعون وقيل المراد بهم جميع الملائكة وحمله على العموم أولى (ويرسل الصواعق) جمع صاعقة وهى العذاب النازل من البرق فيحترق من يصيبه وقيل هى الصوت الشديد النازل من الجو ثم يكون فيه نار أو عذاب أو موت وهى فى ذاتها شئ واحد وهذه الاشياء الثلاثة تنشأ منها (فيصيب بها) يعنى بالصواعق (من يشاء) يعنى فيهلك بها كما اصاب أربد بن ربيعة قال محمد الباقر الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر (وهم يجادلون فى الله) يعنى يخاصمون فى الله وقيل المجادلة المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من جدلت الحبل اذا احكمت فتله نزلت فى شأن أربد بن ربيعة حين قال للنبى صلى الله عليه وسلم مم ربك أمن دراهم أم من ياقوت أم من ذهب فنزلت صاعقة من السماء فأحرقته وسئل الحسن عن قوله ويرسل الصواعق الآية فقال كان رجل من طواغيت العرب بعث اليه النبى صلى الله عليه وسلم نفرا من اصحابه يدعونه الى الله والى رسوله فقال لهم اخبرونى عن رب محمد هذا الذى تدعونى اليه هل هو من ذهب أو فضة او حديد أو نحاس فاستعظم القوم كلامه فانصرفوا الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ما رأينا رجلا اكفر قلبا ولا اعتى على الله منه فقال ارجعوا اليه فرجعوا اليه فلم يزدهم على مقالته الاولى شيئا بل قال أأجيب محمدا الى رب لا أراه ولا اعرفه فانصرفوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ما زادنا على مقالته الاولى شيئا بل قال اخبث فقال ارجعوا اليه فرجعوا اليه فبينما هم عنده يدعونه وينازعونه وهو لا يزيدهم على مقالته شيئا اذا ارتفعت سحابة فكانت فوق رؤسهم فرعدت وبرقت ورمت بصاعقة فأحرقت الكافر وهم جلوس عنده فرجعوا ليخبروا النبى صلى الله عليه وسلم فلما رجعوا استقبلهم نفر من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا احترق صاحبكم قالوا من أين علمتم ذلك قالوا قد أوحى الى النبى صلى الله عليه وسلم ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله واختلفوا فى هذه الواو وقيل واو الحال فيكون المعنى فيصيب بها من يشاء فى حال جداله فى الله وذلك ان أربد لما جادل فى الله أهلكه الله بالصاعقة وقيل انها واو الاستئناف فيكون المعنى انه لما تمم ذكر الدلائل قال بعد ذلك وهم يجادلون فى الله (وهو شديد المحال) أى شديد الاخذ بالعقوبة

(ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) الصاعقة نار تسقط من السماء لما ذكر علمه النافذ فى كل شئ واستواء الظاهر والخفى عنده ومادل على قدرته الباهرة ووحدانيته قال (وهم يجادلون فى الله) يعنى الذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يجادلون فى الله حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث واعادة الخلائق بقولهم من يحيى العظام وهى رميم ويردون الوحدانية باتخاذ الشركاء ويجعلون بعض الاجسام بقولهم الملائكة بنات الله والواو للحال أى فيصيب بها من يشاء فى حال جدالهم وذلك أن أربد أخا لبيد بن ربيعة العامرى قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله فرمى الله عامرا بغدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية وارسل على اربد صاعقة فقتله اخبرنى عن ربنا أمن نحاس هو ام من حديد (وهو شديد المحال) أى المماحلة وهى شدة المماكرة والمكايدة ومنه تمحل لكذا اذا تكلف لاستعمال الحيلة واجتهد فيه ومحل بفلان اذا كاده وسعى به الى السلطان والمعنى انه شديد المكر والكيد لاعدائه يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون

من قولهم تمحل به محلا اذا أراد به سوأ وقيل هو من قولهم تمحل به اذا سعى به الى السلطان وعرضه للهلاك وتمحل اذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه فيكون المعنى انه سبحانه وتعالى شديد المحال بأعدائه حتى يهلكهم بطريق لا يعرفونه ولا يدفعونه وقيل المحال من الحول وهو الحيلة والميم زائدة ثم اختلفت عبارات المفسرين فى معنى قوله شديد المحال فقال الحسن معناه شديد النقمة وقال مجاهد وقتادة شديد القوة وقال ابن عباس شديد الحول وقيل شديد العقوبة وقيل معناه شديد الجدال وذلك انه لما اخبر عنهم انهم يجادلون فى الله أخبر انه اشد جدالا منهم قوله تعالى (له دعوة الحق) يعنى لله دعوة الصدق قال على دعوة الحق التوحيد وقال ابن عباس شهادة أن لا اله الا الله قال صاحب الكشاف دعوة الحق فيها وجهان أحدهما ان تضاف الدعوة الى الحق الذى هو نقيض الباطل كما تضاف الكلمة اليه فى قوله كلمة الحق للدلالة على ان الدعوة ملابسة للحق مختصة به وانها بمعزل من الباطل والمعنى ان الله تعالى يدعى فيستجيب الدعوة ويعطى الداعى سؤله ان كان مصلحة له فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقا بأن يوجه اليه الدعاء لما فى دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا نفع فيه ولا جدوى فيرد دعاؤه الثانى ان تضاف الى الحق الذى هو الله على معنى دعوة المدعى الحق الذى يسمع فيجيب وعن الحسن الله هو الحق وكل دعاء اليه دعوة الحق فان قلت ما وجه اتصال هذين الوصفين بما قبلهما قلت اما على قصة أربد فظاهر لان اصابته بالصاعقة كانت بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه دعا عليه وعلى صاحبه عامر بن الطفيل فاجيب فيهما فكانت الدعوة دعوة حق وأما على قوله وهم يجادلون فى الله فوعيد للكفار على مجادلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واجابة دعائه ان دعا عليهم وقيل فى معنى الآية الدعاء بالاخلاص والدعاء الخالص لا يكون الا لله تعالى (والذين يدعون من دونه) يعنى والذين يدعونهم آلهة من دون الله وهى الاصنام التى يعبدونها (لا يستجيبون لهم بشئ) يعنى لا يجيبونهم بشئ يريدونه من نفع أو دفع ضر ان دعوهم (الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه) يعنى الا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه يطلب منه ان يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه ولا يقدر أن يجيب دعاءه أو يبلغ فاه وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع اجابتهم ولا يقدر على نفعهم وقيل شبههم فى قلة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد ان يغرف الماء بيديه ليشربه فبسطهما ناشرا أصابعه فلم تلق كفاه منه شيئا ولم يبلغ طلبته من شربه وقيل ان القابض على الماء ناشرا اصابعه لا يكون فى يده منه شئ ولا يبلغ الى فيه منه شئ كذلك الذى يدعو الاصنام لانها لا تضر ولا تنفع ولا يعيده منها شئ وقيل شبه بالرجل العطشان الذى يرى الماء من بعيد بعينه فهو يشير بكفيه الى الماء ويدعوه بلسانه ولا يأتيه ابدا هذا معنى قول مجاهد وعن عطاء كالعطشان الجالس على شفير البئر وهو يمد يديه الى البئر فلا هو يبلغ الى قعر البئر ليخرج الماء ولا الماء يرتفع اليه فلا ينفعه بسطه الكف الى الماء ودعاؤه له ولا هو يبلغ فاه كذلك الذين يدعون الاصنام لا ينفعهم ذلك قال ابن عباس كالعطشان اذا بسط كفيه فى الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما من الماء ولا يبلغ الماء فاه ما دام باسط كفيه وهذا مثل ضربه الله تعالى للكفار ودعائهم الاصنام حين لا ينفعهم البتة ثم ختم هذا بقوله (وما دعاء الكافرين) يعنى اصنامهم (الا فى ضلال) يعنى يضل عنهم اذا احتاجوا اليه قال ابن عباس فى هذه الآية أصواتهم محجوبة عن الله تعالى قوله عز وجل (ولله يسجد من فى السموات والارض طوعا وكرها) فى معنى هذا السجود قولان أحدهما ان المراد منه السجود على الحقيقة وهو وضع الجبهة على الارض ثم على هذا القول ففى معنى الآية وجهان أحدهما ان اللفظ وان كان عاما الا ان المراد منه الخصوص فقوله ولله يسجد من فى السموات يعنى الملائكة ومن فى الارض من الانس يعنى المؤمنين طوعا وكرها يعنى من المؤمنين من يسجد لله طوعا وهم المؤمنون المخلصون لله العبادة وكرها يعنى المنافقين الداخلين فى المؤمنين وليسوا منهم فان سجودهم لله على كره منهم لانهم لا يرجون على سجودهم ثوابا

(له دعوة الحق) اضيفت الى الحق الذى هو ضد الباطل للدلالة على ان الدعوة ملابسة للحق وانها بمعزل من الباطل والمعنى ان الله سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة ويعطى الداعى سؤله فكانت دعوة ملابسة للحق لكونه حقيقا بأنه يوجه اليه الدعاء لما فى دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا ينتفع ولا يجدى دعاؤه واتصال شديد المحال وله دعوة الحق بما قبله على قصة أربد ظاهر لان اصابته بالصاعقة محال من الله ومكر به من حيث لم يشعر وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وعلى صاحبه بقوله اللهم اخسفهما بما شئت فأجيب فيهما فكانت الدعوة دعوة حق وعلى الاول وعيد للكفرة على مجادلتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم واجابة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ان دعا عليهم (والذين يدعون) والآلهة الذين يدعوهم الكفار (من دونه) من دون الله (لا يستجيبون لهم بشئ) من طلباتهم (الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه) الاستثناء من المصدر أى من الاستجابة التى دل عليها لا يستجيبون لان الفعل بحروفه يدل على المصدر وبصيغته على الزمان وبالضرورة على المكان والحال فجاز استثناء كل منها من الفعل فصار التقدير لا يستجيبون استجابة الا استجابة كاستجابة باسط كفيه الى الماء أى كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه يطلب منه ان يبلغ فاه والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته اليه ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع اجابتهم ولا يقدر على نفعهم واللام فى ليبلغ متعلق بباسط كفيه (وما هو ببالغه) وما الماء ببالغ فاه (وما دعاء الكافرين الا فى ضلال) فى ضياع لا منفعة فيه لانهم ان دعوا الله لم يجبهم وان دعوا الاصنام لم تستطع اجابتهم (ولله يسجد من فى السموات والارض) سجود تعبد وانقياد (طوعا) حال يعنى الملائكة والمؤمنين (وكرها) يعنى المنافقين والكافرين فى حال الشدة والضيق

ولا يخافون على تركه عقابا بل سجودهم وعبادتهم خوف من المؤمنين الوجه الثاني هو حمل اللفظ على
العموم وعلى هذا في اللفظ اشكال وهو ان جميع الملائكة والمؤمنين من الجن والانس يسجدون لله
طوعا ومنهم من يسجد له كرها كما تقدم وأما الكفار من الجن والانس فلا يسجدون لله البتة فهذا وجه
الاشكال والجواب عنه ان المعنى انه يجب على كل من في السموات ومن في الارض أن يسجد لله فعبر
بالوجوب عن الوقوع والحصول وجواب آخر وهو ان يكون المراد من هذا السجود هو الاعتراف
بالعظمة والعبودية وكل من في السموات من ملك ومن في الارض من انس وجن فانهم يقرون لله
بالعبودية والتعظيم ويدل عليه قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله والقول
الثاني في معنى هذا السجود هو الانقياد والخضوع وترك الامتناع فكل من في السموات والارض
ساجد لله بهذا المعنى وهذا الاعتبار لان قدرته ومشيئته نافذة في الكل فهم خاضعون منقادون له
وقوله تعالى (وظلالهم بالغدو والآصال) الغدو والغداة أول النهار وقيل الى نصف النهار
والغدو بالضم من طلوع الفجر الى طلوع الشمس والآصال جمع أصل وهو العشية والآصال العشايا
جمع عشية وهي ما بين صلاة العصر الى غروب الشمس قال المفسرون ان ظل كل شخص يسجد لله سواء
ظل المؤمن والكافر وقال مجاهد ظل المؤمن يسجد لله طوعا وهو طائع وظل الكافر يسجد لله كرها
وهو كاره وقال الزجاج جاء في التفسير ان الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله قال ابن الانباري لا يبعد
أن يخلق الله تعالى للظلال عقولا وأفهاما تسجد بها وتخشع كما جعل للجبال أفهاما حتى سبحت لله
مع داود وقيل المراد بسجود الظلال ميلانها من جانب الى جانب آخر وطولها وقصرها بسبب ارتفاع
الشمس ونزولها وانما خص الغدو والآصال بالذكر لان الظلال تعظم وتكثر في هذين الوقتين وقيل
لانهما طرفا النهار فيدخل وسطه فيما بينهما

(فصل) وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءته واستماعه
لهذه السجدة والله أعلم قوله تعالى (قل من رب السموات والارض) أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين
يعبدون غير الله من رب السموات والارض يعني من مالك السموات والارض ومن مدبرهما وخالقهما
فسيقولون الله لانهم مقرون بأن الله خالق السموات وما فيهما والارض وما فيها فاذا أجابوك بذلك فقل
أنت يا محمد الله رب السموات والارض وقيل لما قال هذه المقالة للمشركين عطفوا عليه وقالوا أجب أنت
فأمره الله أن يجيبهم بقوله (قل الله) أي قل يا محمد الله وقيل انما جاء السؤال والجواب من جهة
واحدة لان المشركين لا ينكرون ان الله خالق كل شيء فلما لم ينكروا ذلك واجاب النبي صلى الله عليه
وسلم بقوله الله فكأنهم قالوا ذلك أيضا ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم الاصنام بقوله (قل) أي قل
يا محمد للمشركين (أفاتخذتم من دونه) يعني من دون الله (أولياء) يعني الاصنام والولي الناصر
والمعنى توليتم غير رب السموات والارض واتخذتموهم أنصارا يعني الاصنام (لا يملكون) يعني وهم
لا يملكون (لانفسهم نفعا ولا ضرا) فكيف لغيرهم ثم ضرب الله مثلا للمشركين الذين يعبدون
الاصنام وللمؤمنين الذين يعبدون الله فقال تعالى (قل هل يستوي الاعمى والبصير) قال ابن عباس
يعني المشرك والمؤمن (أم هل تستوي الظلمات والنور) يعني الشرك والايمان والمعنى كما لا يستوي
الاعمى والبصير كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن وكما لا تستوي الظلمات والنور كذلك لا يستوي
الكفر والايمان وانما شبه الكافر بالاعمى لان الاعمى لا يهتدي سبيلا كذلك الكافر لا يهتدي سبيلا
(أم جعلوا لله شركاء) هذا استفهام انكار يعني جعلوا لله شركاء (خلقوا كخلقه) يعني خلقوا سموات
وارضين وشمسا وقمرا وجبالا وبحارا وجنا وانسا (فتشابه الخلق عليهم) من هذا الوجه والمعنى هل رأوا
غير الله خلق شيئا فاشتبه عليهم خلق الله بخلق غيره وقيل انه تعالى وبخهم بقوله ام جعلوا لله شركاء خلقوا
خلقا مثل خلقه فتشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم وهذا الاستفهام انكاري اي ليس الامر كذلك

(وظلالهم) معطوف على من جمع ظل (بالغدو) جمع غداة كقنى وقناة (والآصال) جمع أصل جمع أصيل قيل ظل كل شيء يسجد لله بالغدو والآصال وظل الكافر يسجد كرها وهو كاره وظل المؤمن يسجد طوعا وهو طائع (قل من رب السموات والارض قل الله) حكاية لاعترافهم لانه اذا قال لهم من رب السموات والارض لم يكن لهم بد من أن يقولوا الله دليله قراءة ابن مسعود وأبي قالوا الله أو هو تلقين أي فان لم يجيبوا فلقنهم فانه لا جواب الا هذا (قل أفاتخذتم من دونه أولياء) أبعد ان علمتموه رب السموات والارض اتخذتم من دونه آلهة (لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا) لا يستطيعون لانفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا ضرا عنها فكيف يستطيعونه لغيرهم وقد آثرتموهم على الخالق الرازق المثيب المعاقب فما أبين ضلالكم (قل هل يستوي الاعمى والبصير) أي الكافر والمؤمن أو من لا يبصر شيئا ومن لا يخفى عليه شيء (أم هل تستوي الظلمات والنور) ملل الكفر والايمان يستوي كوفي غير حفص (أم جعلوا لله شركاء) بل أجعلوا ومعنى الهمزة الانكار (خلقوا كخلقه) صفة لشركاء أي انهم لم يتخذوا لله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله (فتشابه الخلق عليهم) فاشتبه عليهم مخلوق الله بمخلوق الشركاء حتى يقولوا قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه فاستحقوا العبادة فنتخذهم له شركاء ونعبدهم كما يعبد ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلا ان يقدروا على ما يقدر عليه الخالق

حتى يشتبه عليهم الامر بل اذا تفكروا بعقولهم وجدوا الله تعالى هو المنفرد بخلق سائر الاشياء والشركاء
مخلوقون له ايضا لايخلقون شيئا حتى يشتبه خلق الله بخلق الشركاء واذا كان الامر كذلك فقد لزمتهم
الحجة وهو قوله تعالى (قل الله خالق كل شئ) اى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الله خالق كل شئ مما يصح ان
يكون مخلوقا وقوله الله خالق كل شئ من العموم الذي يراد به الخصوص لان الله تعالى خالق كل شئ وهو
غير مخلوق (وهو الواحد) يعنى والله تعالى هو الواحد المنفرد بخلق الاشياء كلها (القهار) لعباده حتى
يدخلهم تحت قضائه وقدره وارادته وقوله عز وجل (أنزل من السماء ماء) لما شبه الله عز وجل الكافر
بالاعمى والمؤمن بالبصير وشبه الكفر بالظلمات والايمان بالنور ضرب لذلك مثلا فقال تعالى انزل من
السماء ماء يعنى المطر (فسالت اودية بقدرها) اودية جمع واد وهو المفرج بين الجبلين يسيل فيه الماء
وقوله فسالت اودية فيه اتساع وحذف تقديره فسال الماء فى الوادى فهو كما يقال جرى النهر والمراد جرى الماء
فى النهر فحذف فى لدلالة الكلام عليه بقدرها قال مجاهد بملئها وقال ابن جريج الصغير بقدره والكبير
بقدره وقيل بمقدار ملئها وانما نكر اودية لان المطر اذا نزل لا يعم جميع الارض ولا يسيل فى كل
الاودية بل ينزل فى أرض دون ارض ويسيل فى واد دون واد ولهذا السبب جاء هذا بالتنكير وقال ابن
عباس أنزل من السماء ماء يعنى قرآنا وهذا مثل ضربه الله تعالى فسالت اودية بقدرها يريد بالاودية
القلوب شبه نزول القرآن الجامع للهدى والنور والبيان بنزول المطر لان المطر اذا نزل عم نفعه
وكذلك نزول القرآن وشبه القلوب بالاودية لان الاودية يستكن فيها الماء وكذلك القلوب يسكن
فيها الايمان والعرفان ببركة نزول القرآن فيها وهذا خاص بالمؤمنين لانهم الذين انتفعوا بنزول القرآن
(ق) عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل
ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب ارضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء
فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء نفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا
ورعوا واصاب طائفة منها أخرى انما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين
الله ونفعه ما بعثنى الله به فتعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به
قال الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله وغيره فى معنى هذا الحديث وشرحه أما الكلأ فبالهمز يقع على
الرطب واليابس من الحشيش وأما قوله وكان منها اجادب فبالجيم والدال المهملة والباء الموحدة كذا
فى الصحيحين وهى الارض التى لا تنبت الكلأ جمع جدب على غير قياس وقياسه اجدب والجدب ضد
الخصب وقال الخطابى هى التى تمسك الماء ولم يسرع فيه النضوب وفى رواية الهروى اخاذب بالخاء
المعجمة والذال المعجمة جمع اخذب وهى الغدير الذى يمسك الماء وقوله ورعوا كذا فى صحيح مسلم من
الرعى ووقع فى صحيح البخارى وزرعوا بزيادة زاى من الزرع والقيعان بكسر القاف جمع قاع وهو
المستوى من الارض وقوله فذلك مثل من فقه فى دين الله يروى بضم القاف وهو المشهور وروى بكسرها
ومعناه فهم الاحكام وأما معنى الحديث ومقصوده فهو ان النبى صلى الله عليه وسلم ضرب مثلا لما
جاء به من الهدى والعلم بالارض التى اصابها المطر قال العلماء والارض ثلاثة انواع وكذلك الناس
لانهم منها خلقوا فالنوع الاول من أنواع الارض الطيبة التى تنتفع بالمطر فتنبت به العشب فينتفع الناس
به والدواب بالشرب والرعى وغير ذلك وكذلك النوع الاول من الناس من يبلغه الهدى وغير ذلك من
العلم فيحيا به قلبه ويحفظه ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع وينفع غيره قال مسروق صحبت أصحاب رسول
الله صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالاخاذ لان قلوبهم كانت واعية فصارت أوعية للعلوم بما رزقت من
صفاء الفهوم النوع الثانى من أنواع الارض لا تقبل الانتفاع فى نفسها لكن فيها فائدة لغيرها وهى
امساك الماء لغيرها لينتفع به الناس والدواب وكذا النوع الثانى من الناس لهم قلوب حافظة
لكن ليس لهم افهام ثاقبة فيبقى ما عندهم من العلم حتى يجئ المحتاج اليه المتعطش لما عندهم من العلم

(قل الله خالق كل شئ) أى خالق الاجسام
والاعراض لا خالق غير الله ولا يستقيم
ان يكون له شريك فى الخلق فلا يكون له
شريك فى العبادة ومن قال ان الله لم يخلق أفعال
الخلق وهم خلقوها فتشابه الخلق على قولهم (وهو
الواحد) المتوحد بالربوبية (القهار) لا يغالب
وما عداه مربوب ومقهور (أنزل) أى الواحد
القهار وهو الله سبحانه (من السماء) من
السحاب (ماء) مطرا (فسالت اودية) جمع
واد وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء بكثرة
وانما نكر لان المطر لا يأتى الا على طريق
المناوبة بين البقاع فيسيل بعض أودية الارض
دون بعض (بقدرها) بمقدارها الذى علم الله
أنه نافع للممطور عليهم غير ضار

(فاحتمل السيل) أي رفع (زبدا) هو ما علا على وجه الماء من الرغوة والمعنى علاه زبد (رابيا) منتفخا مرتفعا على وجه السيل (ومما توقدون عليه) وبالياء كوفي غير أبي بكر ومن لابتداء الغاية أي ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء أو للتبعيض أي وبعضه زبد (في النار) حال من الضمير في عليه أي ومما توقدون عليه ثابتا في النار (ابتغاء حلية) مبتغين حلية وهو مصدر في موضع الحال من الضمير في توقدون (أو متاع) من الحديد والنحاس والرصاص يتخذ منها الاواني وما يتمتع به في الحضر والسفر وهو معطوف على حلية أي زينة من الذهب والفضة (زبد) خبث وهو مبتدأ (مثله) نعت له ومما توقدون خبر له أي لهذه الفلزات اذا أغليت زبد مثل زبد الماء (كذلك يضرب الله الحق والباطل) أي مثل الحق والباطل (فأما الزبد فيذهب جفاء) حال أي متلاشيا وهو ما تقذفه القدر عند الغليان والبحر عند الطغيان والجفء الرمي وجفوت الرجل صرعته (وأما ما ينفع الناس) من الماء والحلي والأواني (فيمكث في الارض) فيثبت الماء في العيون والآبار والحبوب والثمار وكذلك الجواهر تبقى في الارض مدة طويلة (كذلك يضرب الله الامثال) ليظهر الحق من الباطل وقيل هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم بأنواع المنافع وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفات وذلك ماكث في الارض باق بقاء ظاهرا يثبت الماء في منافعه وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله بزبد السيل الذي يرمي به وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه اذا أذيب قال الجمهور وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب والحق والباطل فالماء القرآن نزل لحياة الجنان كالماء للأبدان والأودية القلوب ومعنى بقدرها بقدر سعة القلب وضيقه والزبد هواجس النفس ووساوس الشيطان والماء الصافي المنتفع به مثل الحق فكما تذهب الزبد باطلا ويبقى صفو الماء كذلك تذهب هواجس النفس ووساوس الشيطان ويبقى الحق كما هو وأما حلية الذهب والفضة فمثل للاحوال السنية والاخلاق الزكية وأما متاع الحديد والنحاس والرصاص فمثل للاعمال الممدة بالاخلاص المعدة للخلاص فان الاعمال جالبة للثواب دافعة للعقاب كما ان تلك الجواهر بعضها أداة النفع للكسب وبعضها آلة الدفع في الحرب وأما الزبد فالرياء والخلل والملل والكسل لوان والللام في (للذين استجابوا) أي أجابوا متعلقة بيضرب أي كذلك يضرب الله الامثال للمؤمنين الذين استجابوا (لربهم الحسنى) وهي صفة لمصدر استجابوا أي استجابوا الاستجابة الحسنى (والذين لم يستجيبوا له) أي وللكافرين الذين لم يستجيبوا أي هما مثلا الفريقين وقوله

فيأخذه منهم فينتفع به هو وغيره النوع الثالث من أنواع الارض أرض سبخة لا تنبت مرعى ولا تمسك ماء كذلك النوع الثالث من الناس ليس لهم قلوب حافظة ولا أفهام ثاقبة فاذا بلغهم شيء من العلم لا ينتفعون به في أنفسهم ولا ينفعون غيرهم والله أعلم وقوله تعالى (فاحتمل السيل زبدا) الزبد ما يعلو على وجه الماء عند الزيادة كالحبب وكذلك ما يعلو على القدر عند غليانها والمعنى فاحتمل السيل الذي حدث من ذلك الماء زبدا (رابيا) يعني عاليا مرتفعا فوق الماء طافيا عليه وههنا تم المثل ثم ابتدأ بمثل آخر فقال تعالى (ومما توقدون عليه في النار) الايقاد جعل الحطب في النار لتتقد تلك النار تحت الشيء ليذوب (ابتغاء حلية) يعني لطلب زينة والضمير في قوله عليه يعود على الذهب والفضة وان لم يكونا مذكورين لان الحلية لا تطلب الا منهما (أو متاع) يعني أو لطلب متاع آخر مما ينتفع به كالحديد والنحاس والرصاص ونحوه مما يذاب وتتخذ منه الاواني وغيرها مما ينتفع به والمتاع كل ما يتمتع به ويقال لكل ما ينتفع به في البيت كالطبق والقدر ونحو ذلك من الاواني متاع (زبد مثله) يعني ان ذلك الذي يوقد عليه في النار اذا أذيب فله أيضا زبد مثل زبد الماء فالصافي من الماء ومن هذه الجواهر هو الذي لا ينتفع به وهو مثل الباطل وهو قوله تعالى (كذلك يضرب الله الحق والباطل) فالحق هو الجوهر الصافي الثابت والباطل هو الزبد الطافي الذي لا ينتفع به وهو قوله (فأما الزبد فيذهب جفاء) يعني ضائعا باطلا والجفاء ما رمى به الوادي من الزبد الى جوانبه وقيل الجفاء المتفرق يقال جفأت الريح الغيم اذا فرقته والمعنى ان الباطل وان علا في وقت فانه يضمحل ويذهب (وأما ما ينفع الناس) يعني الماء الصافي والجوهر الجيد من هذه الاجسام التي تذاب (فيمكث في الارض) يعني يثبت ويبقى ولا يذهب (كذلك يضرب الله الامثال) قال أهل التفسير والمعاني هذا مثل ضربه الله للحق والباطل فالباطل وان علا على الحق في بعض الاوقات والاحوال فان الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو على الماء فيذهب الزبد ويبقى الماء الصافي الذي ينتفع به وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ويذهب العلو الذي هو الكدر وهو ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الارض كذلك الحق والباطل فالباطل وان علا في وقت فانه يذهب هو وأهله والحق يظهر هو وأهله وقيل هذا مثل للمؤمن واعتقاده وانتفاعه بالايمان كمثل الماء الصافي الذي ينتفع به الناس ومثل الكافر وخبث اعتقاده كالزبد الذي لا ينتفع به البتة وقيل هذا مثل ضربه الله للنور الذي يحصل في قلوب العباد على ما قسم لها في الازل لان الوادي اذا سال كنس كل شيء فيه من النجاسات والمستقذرات كذلك اذا سال وادي قلب العبد بالنور الذي قسم له على قدر ايمانه ومعرفته كنس كل ظلمة وغفلة فيه فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض يعني يذهب الباطل وهي الاخلاق المذمومة وتبقى الحقائق وهي الاخلاق الحميدة كذلك يضرب الله الامثال وقوله تعالى (للذين استجابوا لربهم الحسنى) اللام في للذين متعلقة بيضرب والمعنى كذلك يضرب الله الامثال للمؤمنين الذين استجابوا لربهم يعني أجابوه الى ما دعاهم اليه من توحيده والايمان به وبرسوله وللكافرين الذين لم يستجيبوا فعلى هذا يكون قوله كذلك يضرب الله الامثال للفريقين من المؤمنين والكافرين وقيل تم الكلام عند قوله كذلك يضرب الله الامثال ثم استأنف بقوله للذين استجابوا لربهم الحسنى قال ابن عباس وجمهور المفسرين يعني الجنة وقيل الحسنى هي المنفعة العظمى وهي المنفعة الخالصة الخالية عن شوائب المضرة والانقطاع (والذين لم يستجيبوا له) يعني الكفار الذين استمروا على كفرهم وشركهم وما كانوا عليه

(لو أن لهم ما في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به) يعني لبذلوا ذلك كله فداء لانفسهم من عذاب النار يوم القيامة (أولئك) يعني الذين لم يستجيبوا لربهم (لهم سوء الحساب) قال ابراهيم النخعي سوء الحساب ان يحاسب الرجل بذنبه كله ولا يغفر له منه شئ (ومأواهم) يعني في الآخرة (جهنم وبئس المهاد) يعني وبئس ما مهد لهم في الآخرة وقيل المهاد الفراش يعني وبئس الفراش يفرش لهم في جهنم قوله تعالى (أفمن يعلم ان ما أنزل اليك من ربك الحق) يعني فيؤمن به ويعمل بما فيه (كمن هو أعمى) يعني أعمى البصيرة لا أعمى البصر وهو الكافر فلا يؤمن بالقرآن ولا يعمل بما فيه قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل بن هشام وقيل نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل فالاول هو حمزة أو عمار والثاني هو أبو جهل وحمل الآية على العموم أولى وان كان السبب مخصوصا والمعنى لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصر الحق ولا يتبعه وانما شبه الكافر والجاهل بالاعمى لان الاعمى لا يهتدي لرشد وربما وقع في مهلكة وكذلك الكافر والجاهل لا يهتديان للرشد وهما واقعان في المهلكة (انما يتذكر أولوا الالباب) يعني وانما يتعظ ذووا العقول السليمة الصحيحة وهم الذين ينتفعون بالمواعظ والاذكار قوله عز وجل (الذين يوفون بعهد الله) يعني الذي عاهدهم عليه وهو القيام بما أمرهم به وفرضه عليهم وأصل العهد حفظ الشئ ومراعاته حالا بعد حال وقيل أراد بالعهد ما أخذه على أولاد آدم حين أخرجهم من صلبه وأخذ عليهم العهد والميثاق (ولا ينقضون الميثاق) بل يوفون به فهو توكيد لقوله الذين يوفون بعهد الله (والذين يصلون ما أمر الله به ان يوصل) قال ابن عباس يريد الايمان بجميع الكتب والرسل يعني يصل بينهم بالايمان ولا يفرق بين أحد منهم والاكثرون على ان المراد به صلة الرحم عن عبد الرحمن بن عوف قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تبارك وتعالى أنا الله أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي من وصلها وصلته ومن قطعها قطعته أو قال بتته أخرجه أبو داود والترمذي (ق) عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله (خ) عن أبي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من سره أن يبسط له في رزقه وان ينسأ له في أثره فليصل رحمه صلة الرحم مبرة الأهل والاقارب والاحسان اليهم وضده القطع قوله وان ينسأ له في اثره الاثر هنا الاجل وسمي الاجل أثرا لانه تابع للحياة وسابقها ومعنى ينسأ يؤخر والمراد به تأخير الاجل وهو على وجهين أحدهما ان يبارك الله له في عمره فكأنما قد زاد فيه والثاني ان يزيد في عمره زيادة حقيقية والله يفعل ما يشاء (ق) عن جبير بن مطعم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة قاطع زاد في رواية قال سفيان يعني قاطع رحم (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس الواصل بالمكافئ الواصل من اذا قطعت رحمه وصلها عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعلموا من انسابكم ما تصلون به أرحامكم فان صلة الرحم محبة في الاهل ومثراة في المال ومنسأة في الاجل أخرجه الترمذي وقوله تعالى (ويخشون ربهم) يعني انهم مع وفائهم بعهد الله وميثاقه والقيام بما أمر الله به من صلة الرحم يخشون ربهم والخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه (ويخافون سوء الحساب) تقدم معناه (والذين صبروا) يعني على طاعة الله وقال ابن عباس على أمر الله وقال عطاء على المصائب والنوائب وقيل صبروا عن الشهوات وعن المعاصي وقيل حمله على العموم أولى فيدخل فيه الصبر على جميع النوائب والمأمورات من سائر العبادات والطاعات وجميع أعمال البر وترك جميع المنهيات فيدخل فيه ترك جميع المعاصي من الحسد والحقد والغيبة وغير ذلك من المنهيات ويدخل فيه الصبر عن المباحات مثل جميع الشهوات والصبر على ما نزل به من الامراض والمصائب وأصل الصبر حبس النفس عما يقتضيه العقل أو الشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه فالصبر لفظ عام يدخل تحته جميع ما ذكروا انما

(لو أن لهم ما في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به) كلام مبتدأ في ذكر مآل غير المستجيبين أي لو ملكوا أموال الدنيا وملكوا معها مثلها لبذلوه ليدفعوا عن انفسهم عذاب الله والوجه ان الكلام قد تم على الامثال وما بعده كلام مستأنف والحسنى مبتدأ خبره للذين استجابوا والمعنى لهم المثوبة الحسنى وهي الجنة والذين لم يستجيبوا مبتدأ خبره لو مع ما في حيزه (اولئك لهم سوء الحساب) المناقشة فيه في الحديث من نوقش الحساب عذب (ومأواهم جهنم) ومرجعهم بعد المحاسبة النار (وبئس المهاد) المكان الممهد والمذموم محذوف اي جهنم دخلت همزة الانكار على الفاء في (أفمن يعلم) لانكار ان تقع شبهة ما بعد ما ضرب من المثل في ان حال من علم (أنما أنزل اليك من ربك الحق) فاستجاب بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب وهو المراد بقوله (كمن هو أعمى) كبعد ما بين الزبد والماء والخبث والابريز (انما يتذكر أولوا الالباب) أي الذين عملوا على قضايا عقولهم فنظروا واستبصروا (الذين يوفون بعهد الله) مبتدأ والخبر اولئك لهم عقبى الدار كقوله والذين ينقضون عهد الله اولئك لهم اللعنة وقيل هو صفة لاولي الالباب والاول اوجه وعهد الله ما عقدوه على انفسهم من الشهادة بربوبيته واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى (ولا ينقضون الميثاق) ما اوثقوه على انفسهم وقبلوه من الايمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد تعميم بعد تخصيص (والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل) من الارحام والقرابات ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الايمان انما المؤمنون اخوة بالاحسان اليهم على حسب الطاقة ونصرتهم والذب عنهم والشفقة عليهم وافشاء السلام عليهم وعيادة مرضاهم ومنه مراعاة حقوق الاصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر (ويخشون ربهم) أي وعيده كله (ويخافون سوء الحساب) خصوصا فيحاسبون أنفسهم قبل ان يحاسبوا (والذين صبروا)

قيد الصبر بقوله (ابتغاء وجه ربهم) لان الصبر ينقسم الى نوعين الاول الصبر المذموم وهو ان الانسان قد يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على ما تحمل من النوازل وقد يصبر لئلا يعاب على الجزع وقد يصبر لئلا تشمت به الاعداء وكل هذه الامور وان كان ظاهرها الصبر فليس ذلك داخلا تحت قوله ابتغاء وجه ربهم لانها لغير الله تعالى النوع الثانى الصبر المحمود وهو ان يكون الانسان صابرا لله تعالى راضيا بما نزل به من الله طالبا فى ذلك الصبر ثواب الله محتسبا أجره على الله فهذا هو الصبر الداخل تحت قوله ابتغاء وجه ربهم يعنى صبروا على ما نزل بهم تعظيما لله وطلب رضوانه (وأقاموا الصلاة) يعنى الصلاة المفروضة وقيل حمله على العموم أولى فيدخل صلاة الفرض والنفل والمراد باقامتها اتمام أركانها وهيئاتها (وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) قال الحسن المراد به الزكاة المفروضة فان لم يتهم بترك أداء الزكاة فالاولى ان يؤديها سرا وان كان متهما بترك أداء الزكاة فالاولى ان يؤديها علانية وقيل ان المراد بالسر ما يخرج من الزكاة بنفسه والمراد بالعلانية ما يؤديه الى الامام وقيل المراد بالسر صدقة التطوع والمراد بالعلانية الزكاة الواجبة وحمله على العموم أولى (ويدرؤن بالحسنة السيئة) قال ابن عباس يدفعون بالعمل الصالح العمل السئ وهو معنى قوله ان الحسنات يذهبن السيئات ويدل على صحة هذا التأويل ما جاء فى الحديث ان النبى صلى الله عليه وسلم قال واذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية بالعلانية وروى البغوى بسنده عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل الذى يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل أخرى فانفكت أخرى حتى تخرج الى الارض وقال ابن كيسان يدفعون الذنب بالتوبة وقيل لا يكافؤن الشر بالشر ولكن يدفعون الشر بالخير وقال القتيبى معناه اذا سفه عليهم حلموا والسفه السيئة والحلم الحسنة وقال قتادة ردوا عليهم معروفا وقال الحسن اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا قال عبد الله بن المبارك هذه ثمان خلال مشيرة الى أبواب الجنة الثمانية قلت انما هى تسع خلال فيحتمل انه عد خلتين بواحدة ولما ذكر الله عز وجل هذه الخلال من أعمال البر ذكر بعدها ما أعد للعاملين بها من الثواب فقال تعالى (أولئك) يعنى من أتى بهذه الاعمال (لهم عقبى الدار) يعنى الجنة والمعنى ان عاقبتهم دار الثواب (جنات عدن) بدل من عقبى الدار يعنى بساتين اقامة يقال عدن بالمكان اذا أقام به (يدخلونها) يعنى الدار التى تقدم وصفها (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) يعنى ومن صدق من آبائهم بما صدقوا به وان لم يعمل بأعمالهم قاله ابن عباس وقال الزجاج ان الانسان لا ينفعه غير أعماله الصالحة فعلى قول ابن عباس معنى صلح صدق وآمن ووحد وعلى قول الزجاج معناه أصلح فى عمله قال الواحدى والصحيح ما قاله ابن عباس لان الله جعل ثواب المطيع سروره بما يراه فى أهله حيث بشره بدخوله الجنة مع هؤلاء ودل على انهم يدخلونها كرامة للمطيع العامل الآتى بالاعمال الصالحة ولو كان دخولهم الجنة بأعمالهم الصالحة لم يكن فى ذلك كرامة للمطيع ولا فائدة فى الوعد به اذ كل من كان صالحا فى عمله فهو يدخل الجنة قال الامام فخر الدين الرازى قوله تعالى وأزواجهم ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل الاولى من مات عنها أو ماتت عنه وروى انه لما كبرت سودة أراد النبى صلى الله عليه وسلم طلاقها فسألته ان لا يفعل ووهبت يومها لعائشة فأمسكها رجاء ان تحشر فى جملة أزواجه فهو كالدليل على ما ذكرناه وقوله (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) يعنى من أبواب الجنة وقيل من أبواب القصور قال ابن عباس يريد به التحية من الله والتحف والهدايا (سلام عليكم) يعنى يقولون سلام عليكم فأضمر القول ههنا لدلالة الكلام عليه (بما صبرتم) يعنى يقولون لهم سلمكم الله من الآفات التى كنتم تخافونها فى الدنيا وأدخلكم بما صبرتم فى دار الدنيا على الطاعات وترك المحرمات الجنة وقيل ان السلام قول والصبر فعل ولا يكون القول ثوابا للفعل فعلى هذا يكون قوله سلام عليكم دعاء من الملائكة لهم يعنى سلمكم الله بما صبرتم قال مقاتل ان الملائكة يدخلون فى مقدار كل يوم من

... مشاق فيما يصبر عليه من المصائب فى النفوس والاموال ومشاق التكاليف (ابتغاء وجه ربهم) لا ليقال ما أصبره واحمله للنوازل وأوقره عند الزلازل ولا لئلا يعاب فى الجزع (وأقاموا الصلاة) داوموا على اقامتها (وأنفقوا مما رزقناهم) اى من الحلال وان كان الحرام رزقا عندنا (سرا وعلانية) يتناول النوافل لانها فى السر أفضل والفرائض لان المجاهرة بها أفضل نفيا للتهمة (ويدرؤن بالحسنة السيئة) ويدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سئ غيرهم او اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا واذا أذنبوا تابوا واذا هربوا أنابوا واذا رأوا منكرا أمروا بتغييره فهذه ثمانية أعمال تشير الى ثمانية أبواب الجنة (أولئك لهم عقبى الدار) عاقبة الدنيا وهى الجنة لانها التى أرادها الله ان تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها (جنات عدن) بدل من عقبى الدار (يدخلونها ومن صلح) أى آمن (من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) وقرئ صلح والفتح أفصح ومن فى محل الرفع بالعطف على الضمير فى يدخلون او ساغ ذلك وان لم يؤكد لان ضمير المفعول صار فاصلا وأجاز الزجاج ان يكون مفعولا معه ووصفهم بالصلاح ليعلم ان الانساب لا تنفع بنفسها والمراد أبوا كل واحد منهم فكأنه قيل من آبائهم وامهاتهم (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) فى قدر كل يوم وليلة ثلاث مرات بالهدايا وبشارات الرضا (سلام عليكم) فى موضع الحال اذ المعنى قائلين سلام عليكم أو مسلمين (بما صبرتم) متعلق بمحذوف تقديره هذا بما صبرتم أى هذا الثواب بسبب صبركم عن الشهوات أو على أمر الله أو بسلام اى نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم والاول أوجه

أيام الدنيا ثلاث مرات معهم الهدايا والتحف من الله تعالى يقولون سلام عليكم بما صبرتم وروى البغوي بسنده عن أبي امامة موقوفا عليه قال ان المؤمن ليكون متكئا على أريكته اذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل الملك من ملائكة الله يستأذن فيقوم أدنى الخدم الى الباب فاذا بالملك فيستأذن فيقول للذي يليه ملك يستأذن ويقول الآخر كذلك حتى يبلغ المؤمن فيقول ائذنوا له فيقول أقربهم الى المؤمن ائذنوا له ويقول الذي يليه ائذنوا له وكذلك حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب فيفتح له فيدخل فيسلم ثم ينصرف (فنعم عقبى الدار) يعني فنعم العقبى عقبى الدار وقيل معناه فنعم عقبى الدار ما انتم فيه (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) لما ذكر الله أحوال السعداء وما أعد لهم من الكرامات والخيرات ذكر بعده أحوال الاشقياء وما لهم من العقوبات فقال تعالى والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ونقض العهد ضد الوفاء به وهذا من صفة الكفار لانهم هم الذين نقضوا عهد الله يعني خالفوا أمره ومعنى من بعد ميثاقه من بعد ما أوثقوه على أنفسهم بالاعتراف والقبول (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) يعني ما بينهم وبين المؤمنين من الرحم والقرابة (ويفسدون في الارض) يعني بالكفر والمعاصي (أولئك) يعني من هذه صفته (لهم اللعنة) يعني الطرد عن رحمة الله يوم القيامة (ولهم سوء الدار) يعني النار لان منقلب الناس في العرف الى دورهم وهي دارهم فالمؤمنون لهم عقبى الدار وهي الجنة والكفار لهم سوء الدار وهي النار قوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يعني يوسع على من يشاء من عباده ويغنيه من فضله ويضيق على من يشاء من عباده فيفقره ويقتر عليه وهذا أمر اقتضته حكمة الله (وفرحوا بالحياة الدنيا) يعني مشركي مكة لما بسط الله عليهم الرزق أشروا وبطروا والفرح لذة تحصل في القلب بنيل المشتهى وفيه دليل على ان الفرح بالدنيا والركون اليها حرام (وما الحياة الدنيا في الآخرة) يعني بالنسبة الى الآخرة (الا متاع) أي قليل ذاهب قال الكلبي المتاع مثل السكرجة والقصعة والقدر يتمتع بها في الدنيا ثم تذهب كذلك الحياة الدنيا انها ذاهبة لا بقاء لها (ويقول الذين كفروا) يعني من أهل مكة (لولا أنزل عليه آية من ربه) يعني هلا أنزل على محمد آية ومعجزة مثل معجزة موسى وعيسى (قل) أي قل لهم يا محمد (ان الله يضل من يشاء) فلا ينفعه نزول الآيات وكثرة المعجزات ان لم يهده الله عز وجل وهو قوله (ويهدي اليه من أناب) يعني ويرشد الى دينه والايمان به من أناب بقلبه ورجع اليه بكليته (الذين آمنوا) بدل من قوله أناب (وتطمئن قلوبهم) يعني وتسكن قلوبهم (بذكر الله) قال مقاتل بالقرآن لانه طمأنينة لقلوب المؤمنين والطمأنينة والسكون انما تكون بقوة اليقين والاضطراب انما يكون بالشك (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) يعني بذكره تسكن قلوب المؤمنين ويستقر اليقين فيها وقال ابن عباس هذا في الحلف وذلك ان المسلم اذا حلف بالله على شيء سكنت قلوب المؤمنين اليه فان قلت أليس قد قال الله تبارك وتعالى في أول سورة الانفال انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل استشعار الخوف وحصول الاضطراب وهو ضد الطمأنينة وكيف وصفهم بالوجل والطمأنينة وهل يمكن الجمع بينهما في حال واحد قلت انما يكون الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب والطمأنينة انما تكون عند الوعد والثواب فالقلوب توجل اذا ذكرت عدل الله وشدة حسابه وعقابه وتطمئن اذا ذكرت فضل الله ورحمته وكرمه واحسانه (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم) اختلف العلماء في تفسير طوبى فقال ابن عباس فرح لهم وقرة أعين وقال عكرمة نعمى لهم وقال قتادة حسنى لهم وفي رواية أخرى عنه ان هذه الكلمة عربية يقول الرجل للرجل طوبى لك أي أصبت خيرا وقال ابراهيم النخعي خير لهم وكرامة وقال الزجاج طوبى من الطيب وقيل تأويلها الحال المستطابة لهم وهو كل ما استطابه هؤلاء في الجنة من بقاء بلا فناء وعز بلا ذل وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم قال الازهري تقول طوبى لك وطوباك لحن لا تقوله العرب وهو قول أكثر النحويين وقال سعيد بن جبير طوبى اسم الجنة بالحبشية وروى عن أبي امامة وأبي هريرة وأبي الدرداء ان طوبى اسم شجرة في الجنة

الجنات (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الارض) بالكفر والظلم (أولئك لهم اللعنة) الابعاد من الرحمة (ولهم سوء الدار) يحتمل أن يراد سوء عاقبة الدنيا لانه في مقابلة عقبى الدار وأن يراد بالدار جهنم وبسوءها عذابها (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أي ويضيق لمن يشاء والمعنى الله وحده هو يبسط الرزق ويقدر دون غيره (وفرحوا بالحياة الدنيا) بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر لا فرح سرور بفضل الله وانعامه عليهم ولم يقابلوه بالشكر حتى يؤجروا بنعيم الآخرة (وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع) وخفي عليهم أن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس الا شيئا نزرا يتمتع به كعجالة الراكب وهو ما يتعجله من تميرات أو شربة سويق (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) أي الآية المقترحة (قل ان الله يضل من يشاء) باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات (ويهدي اليه من أناب) ويرشد الى دينه من رجع اليه بقلبه (الذين آمنوا) هم الذين أو محله النصب بدل من من (وتطمئن قلوبهم) تسكن (بذكر الله) على الدوام أو بالقرآن أو بوعده (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) بسبب ذكره تطمئن قلوب المؤمنين (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) مبتدأ (طوبى لهم) خبره وهو مصدر من طاب كبشرى ومعنى طوبى لك أصبت خيرا وطيبا ومحلها النصب أو الرفع كقولك طيبا لك وطيب لك وسلاما لك وسلام لك واللام في لهم للبيان مثلها في سقيا لك والواو في طوبى منقلبة عن ياء لضمة ما قبلها كموقن والقراءة في

تظلل الجنان كلها وقال عبيد بن عمير هي شجرة في جنة عدن أصلها في دار النبي صلى الله عليه وسلم وفي كل دار وغرفة في الجنة منها غصن لم يخلق الله لونا ولا زهرة الا وفيها منه الا السواد ولم يخلق الله فاكهة ولا ثمرة الا وفيها منها ينبع من أصلها عينان الكافور والسلسبيل وقال مقاتل كل ورقة منها تظل أمة عليها ملك يسبح الله بأنواع التسبيح وروى عن أبي سعيد الخدري ان رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طوبى فقال هي شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها وعن معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه قال طوبى شجرة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلي والحلل وان أغصانها لترى من وراء سور الجنة هكذا ذكر البغوي هذين الحديثين بغير سند وروى بسنده موقوفا عن أبي هريرة قال ان في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة اقرؤا ان شئتم وظل ممدود فبلغ ذلك كعب الاحبار فقال صدق والذي أنزل التوراة على موسى والقرآن على محمد لو أن رجلا ركب فرسا أو حقة أو جذعة ثم دار بأرض تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هرما ان الله غرسها بيده ونفخ فيها من روحه وان أفنانها لمن وراء سور الجنة وما في الجنة نهر الا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة قال البغوي وهذا الاسناد عن عبد الله بن المبارك عن الاشعث عن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال ان في الجنة شجرة يقال لها طوبى يقول الله لها تفتقي لعبدي عما شاء فتفتق له عن فرس مسروجة بلجامها وهيئتها كما شاء وتفتق له عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما يشاء (ق) عن سهل بن سعد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام ما يقطعها وعن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة زاد البخاري في روايته واقرؤا ان شئتم وظل ممدود وقوله تعالى (وحسن مآب) يعني ولهم حسن منقلب ومرجع ينقلبون ويرجعون اليه في الآخرة وهي الجنة قوله عز وجل (كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم) يعني كما أرسلناك يا محمد الى هذه الامة كذلك أرسلنا أنبياء قبلك الى أمم قد خلت ومضت (لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك) يعني لتقرأ على أمتك الذي أوحينا اليك من القرآن وشرائع الدين (وهم يكفرون بالرحمن) قال قتادة ومقاتل وابن جريج هذه الآية مدنية نزلت في صلح الحديبية وذلك ان سهيل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا على ان يكتبوا كتاب الصلح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا لا نعرف الرحمن الا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب اكتب كما كنت تكتب باسمك اللهم فهذا معنى قوله وهم يكفرون بالرحمن يعني انهم ينكرونه ويجحدونه والمعروف ان الآية مكية وسبب نزولها ان أبا جهل سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الحجر يدعو ويقول في دعائه يا الله يا رحمن فرجع أبو جهل الى المشركين وقال ان محمدا يدعو الهين يدعو الله ويدعو الها آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى وروى الضحاك عن ابن عباس انها نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن فقال الله تعالى (قل) أي قل يا محمد ان الرحمن الذي أنكرتم معرفته (هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت) يعني عليه اعتمدت في أموري كلها (واليه متاب) يعني واليه توبتي ورجوعي قوله تعالى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) الآية نزلت في نفر من مشركي قريش منهم أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية جلسوا خلف الكعبة وأرسلوا خلف النبي صلى الله عليه وسلم فأتاهم وقيل انه مر بهم وهم جلوس فدعاهم الى الله عز وجل فقال عبد الله بن أبي أمية ان سرك أن نتبعك فسير جبال مكة بالقرآن فادفعها عنا حتى تنفتح فانها أرض ضيقة لمزارعنا واجعل لنا فيها أنهارا وعيونا لنغرس الاشجار ونزرع ونتخذ البساتين فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حيث

(وحسن مآب) مرجع بالرفع والنصب تدل على مجيئها (كذلك أرسلناك) مثل ذلك الارسال ارسلناك ارسالا له شأن وفضل على سائر الارسالات ثم بين كيف ارسله فقال (في أمة قد خلت من قبلها أمم) اي ارسلناك في امة قد تقدمتها امم كثيرة فهي آخر الامم وانت خاتم الانبياء (لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك) لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا اليك (وهم يكفرون) وحال هؤلاء انهم يكفرون (بالرحمن) بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء (قل هو ربي) ورب كل شيء (لا اله الا هو) اي هو ربي الواحد المتعالي عن الشركاء (عليه توكلت) في نصرتي عليكم (واليه متاب) مرجعي فيثيبني على مصابرتكم مثابي وعقابي وما أي في الحالين (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) عن مقارها

سخر له الجبال تسير معه أو سخر لنا الريح لنركبها الى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجع في يومنا كما سخرت لسليمان الريح كما زعمت فلست بأهون على ربك من سليمان أو أحي لنا جدك قصيا أو من شئت من موتانا لنسأله عن أمرك حق او باطل فان عيسى كان يحيي الموتى ولست بأهون على الله من عيسى فأنزل الله هذه الآية ولو أن قرآنا سيرت به الجبال فأذهبت عن وجه الارض (أو قطعت به الارض) يعني شققت فجعلت أنهارا وعيونا (أو كلم به الموتى) فأحياها واختلفوا في جواب لو فقال قوم جواب لو محذوف وانما حذف اكتفاء بمعرفة السامع مراده وتقديره ولو أن قرآنا فعل به كذا وكذا لكان هذا القرآن فهو كقول الشاعر

فأقسم لو شئ أتانا رسوله * سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

أراد لو شئ أتانا رسوله سواك لرددناه وهذا معنى قول قتادة فانه قال معناه لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وقال آخرون جواب لو تقدم تقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا به لما سبق في علمنا فيهم كما قال ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا ثم قال تعالى (بل لله الامر جميعا) يعني في هذه الاشياء وفي غيرها ان شاء فعل وان شاء لم يفعل (أفلم ييأس الذين آمنوا) قال اكثر المفسرين معناه أفلم يعلم قال الكلبي هذه لغة النخع وقيل هي لغة هوزان واختلف أهل اللغة في هذه اللفظة فقال الليث وأبو عبيد ألم ييأس ألم يعلم واستدلوا لهذه اللغة بقول الشاعر

أقول لهم بالشعب اذ يأسرونني * ألم تيأسوا اني ابن فارس زهدم

يعني ألم تعلموا واستدلوا عليه أيضا بقول شاعر آخر

ألم ييأس الاقوام اني أنا ابنه * وان كنت عن أرض العشيرة نائيا

يعني ألم يعلم الاقوام قال قطرب ييأس بمعنى علم لغة للعرب قالوا ووجه هذه اللغة انه انما وقع اليأس في مكان العلم لان علمك الشئ وتيقنك به ييئسك من غيره وقيل لم يرد ان اليأس في موضع كلام العرب للعلم وانما قصد ان يأس الذين آمنوا من ذلك يقتضي ان يحصل العلم بانتفائه فاذا معنى يأسهم يقتضي حصول العلم وقال الكسائي ما وجدت العرب تقول يئست بمعنى علمت قال وهذا الحرف في القرآن من اليأس المعروف لا من العلم وذلك ان المشركين لما طالبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآيات اشرأب المسلمون لذلك وأرادوا ان يظهر لهم آية ليجتمعوا على الايمان فقال الله تعالى أفلم ييأس الذين آمنوا من ايمان هؤلاء ويعلموا علما يقينا (ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) يعني من غير ظهور آية وقال الزجاج القول عندي ان معناه أفلم ييأس الذين آمنوا من ايمان هؤلاء لان الله لو شاء لهدى الناس جميعا وحاصله ان في معنى الآية قولين أحدهما ان ييأس بمعنى علم والقول الثاني انه من اليأس المعروف وتقدير القولين ما تقدم وتمسك أهل السنة بقوله ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا على ان الله لم يشأ هداية جميع الخلائق (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا) يعني من الكفر والاعمال الخبيثة (قارعة) أي نازلة وداهية تقرعهم بانواع البلايا أحيانا مرة بالجدب ومرة بالسلب ومرة بالقتل والاسر وقال ابن عباس أراد بالقارعة السرايا التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها اليهم (أو تحل) يعني السرايا أو البلية (قريبا من دارهم) وقيل معناه أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم (حتى يأتي وعد الله) يعني النصر والفتح وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه وقيل أراد بوعد الله يوم القيامة لان الله يجمعهم فيه فيجازيهم بأعمالهم (ان الله لا يخلف الميعاد) والغرض منه تشجيع قلب النبي صلى الله عليه وسلم وازالة الحزن عنه لعلمه بأن الله لا يخلف الميعاد قوله عز وجل (ولقد استهزئ برسل من قبلك) وذلك ان كفار مكة انما سألوا هذه الاشياء على سبيل الاستهزاء فأنزل الله هذه الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى انهم انما طلبوا منك هذه الآيات على سبيل الاستهزاء وكذلك قد استهزئ برسل

(أو قطعت به الارض) حتى تتصدع وتزايل قطعا (أو كلم به الموتى) فتسمع وتجيب لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الانذار والتخويف فجواب لو محذوف أو معناه ولو أن قرآنا وقع به تسيير الجبال وتقطيع الارض وتكليم الموتى وتنبيههم لما آمنوا به والتبهوا عليه كقوله ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة الآية (بل لله الامر جميعا) بل لله القدرة على كل شئ وهو قادر على الآيات التي اقترحوها (أفلم ييأس الذين آمنوا) أفلم يعلم وهي لغة قوم من النخع وقيل انما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه لان اليائس عن الشئ عالم بأنه لا يكون كما استعمل النسيان في معنى الترك لتضمن ذلك دليله قراءة علي رضي الله عنه أفلم يتبين وقيل انما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوى السنات وهذه والله فرية ما فيها مرية (أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا) من كفرهم وسوء اعمالهم (قارعة) داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم (أو تحل قريبا من دارهم) أو تحل القارعة قريبا منهم فيفزعون ويتطاير عليهم شررها ويتعدى اليهم شرورها (حتى يأتي وعد الله) أي موتهم أو القيامة أو ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله من العداوة والتكذيب قارعة لان جيش رسول الله يغير حول مكة ويختطف منهم أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم بجيشك يوم الحديبية حتى يأتي وعد الله أي فتح مكة (ان الله لا يخلف الميعاد) أي لا خلف في موعده (ولقد استهزئ برسل من قبلك

من قبلك (فأمليت للذين كفروا) يعني فأمهلتهم وأطلت لهم المدة (ثم أخذتهم) يعني بالعذاب بعد
الامهال بعذابهم في الدنيا بالقحط والقتل والاسر وفي الآخرة بالنار (فكيف كان عقاب) يعني
فكيف كان عقابي لهم (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) يعني أفمن هو حافظها ورازقها وعالم بها
وبما عملت من خير أو شر ويجازيها بما كسبت فيثيبها ان أحسنت ويعاقبها ان أساءت وجوابه محذوف
وتقديره كمن ليس بقائم بل هو عاجز عن نفسه ومن كان عاجزا عن نفسه فهو عن غيره أعجز وهي الاصنام
التي لا تضر ولا تنفع (وجعلوا لله شركاء) يعني وهو المستحق للعبادة لا هذه الاصنام التي جعلوها لله شركاء
(قل سموهم) يعني له وقيل صفوهم بما يستحقون ثم انظروا هل هي أهل لان تعبد (أم تنبئونه) يعني
أم تخبرون الله (بما لا يعلم في الارض) يعني انه لا يعلم لنفسه شريكا من خلقه وكيف يكون المخلوق
شريكا للخالق وهو العالم بما في السموات والارض ولو كان لعلمه والمراد من ذلك نفي العلم بأن يكون له شريك
(أم بظاهر من القول) يعني انهم يتعلقون بظاهر من القول مسموع وهو في الحقيقة باطل لا أصل له
وقيل معناه بل بظن من القول لا يعلمون حقيقته (بل زين للذين كفروا مكرهم) قال ابن عباس زين
لهم الشيطان الكفر وانما فسر المكر بالكفر لان مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم كفر منهم والمزين
في الحقيقة هو الله تعالى لانه هو الفاعل المختار على الاطلاق لا يقدر أحد ان يتصرف في الوجود الا باذنه
فتزيين الشيطان القاء الوسوسة فقط ولا يقدر على اضلال أحد وهدايته الا الله تعالى ويدل على هذا
سياق الآية وهو قوله ومن يضلل الله فما له من هاد وقوله (وصدوا عن السبيل) قرئ بضم الصاد
ومعناه صرفوا عن سبيل الدين والرشد والهداية ومعنى من ذلك والصاد المانع لهم هو الله تعالى وقرئ
وصدوا بفتح الصاد ومعناه انهم صدوا عن سبيل الله غيرهم أي عن الايمان (ومن يضلل الله فما له من
هاد) الوقف عليه بسكون الدال وحذف الياء في قراءة أكثر القراء (لهم عذاب في الحياة الدنيا)
يعني بالقتل والاسر ونحو ذلك مما فيه غيظهم (ولعذاب الآخرة أشق) يعني أشد وأغلظ لان المشقة
غلظ الامر على النفس وشدته مما يكاد يصدع القلب من شدته فهو من الشق الذي هو الصدع (وما لهم
من الله) يعني من عذاب الله (من واق) يعني من مانع يمنعهم من عذابه قوله تعالى (مثل الجنة التي وعد
المتقون) أي صفة الجنة التي وعد المتقون (تجري من تحتها الانهار أكلها دائم) لا ينقطع أبدا (وظلها)
يعني انه دائم أبدا لا ينقطع وليس في الجنة شمس ولا قمر ولا ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول وفي الآية
رد على جهم وأصحابه فانهم يقولون ان نعيم الجنة يفنى وينقطع وفي الآية دليل على ان حركات أهل الجنة
لا تنتهي الى سكون دائم كما يقوله أبو الهذيل واستدل القاضي عبد الجبار المعتزلي بهذه الآية على ان
الجنة لم تخلق بعد قال ووجه الدليل انها لو كانت مخلوقة لوجب ان تفنى وينقطع أكلها لقوله تعالى
كل شيء هالك الا وجهه فوجب ان لا تكون الجنة مخلوقة لقوله أكلها دائم يعني لا ينقطع قال ولا ننكر
أن تكون في السموات جنات كثيرة تتمتع بها الملائكة ومن يحيا من الانبياء والشهداء وغيرهم على
ما روي الا ان الذي نذهب اليه ان جنة الخلد لم تخلق بعد والجواب عن هذا ان حاصل دليلهم مركب من
اثنين أحدهما قوله تعالى كل شيء هالك الا وجهه والآخر قوله أكلها دائم وظلها فاذا أدخلنا التخصيص
على هذين العمومين سقط دليلهم فخص هذين الدليلين بالدلائل الدالة على ان الجنة مخلوقة منها قوله
تعالى وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين وقوله تعالى (تلك عقبى الذين اتقوا) يعني
ان عاقبة الذين اتقوا وهم أهل التقوى هي الجنة (وعقبى الكافرين النار) يعني في الآخرة قوله
عز وجل (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك) في المراد بالكتاب هنا قولان أحدهما انه
القرآن والذين أوتوه المسلمون وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد انهم يفرحون بما يتجدد
من الاحكام والتوحيد والنبوة والحشر بعد الموت بتجدد نزول القرآن (ومن الاحزاب) يعني
الجماعات الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكفار واليهود والنصارى (من ينكر

فأمليت للذين كفروا) الاملاء الامهال وان يترك
ملاوة من الزمان في خفض وامن (ثم أخذتهم
فكيف كان عقاب) وهذا وعيد لهم وجواب
عن اقتراحهم الآيات على رسول الله استهزاء به
وتسلية له (أفمن هو قائم) احتجاج عليهم في
اشراكهم بالله يعني أفالله الذي هو رقيب (على
كل نفس) صالحة أو طالحة (بما كسبت)
يعلم خيره وشره ويعد لكل جزاءه كمن ليس
كذلك ثم استأنف فقال (وجعلوا لله شركاء)
اي الاصنام (قل سموهم) أي سموهم له من
هم ونبؤه باسمائهم ثم قال (ام تنبئونه بما
لا يعلم في الارض) على ام المنقطعة أي بل
اتنبؤنه بشركاء لا يعلمهم في الارض وهو العالم
بما في السموات والارض فاذا لم يعلمهم علم انهم
ليسوا بشيء والمراد نفي ان يكون له شركاء (أم
بظاهر من القول) بل اتسمونهم شركاء بظاهر
من القول من غير ان يكون لذلك حقيقة كقوله
ذلك قولهم بأفواههم ما تعبدون من دونه
الا اسماء سميتموها (بل زين للذين كفروا
مكرهم) كيدهم للاسلام بشركهم (وصدوا
عن السبيل) عن سبيل الله بضم الصاد كوفي
وبفتحها غيرهم ومعناه وصدوا المسلمين عن
سبيل الله (ومن يضلل الله فما له من هاد)
من أحد يقدر على هدايته (لهم عذاب في الحياة
الدنيا) بالقتل والاسر وانواع المحن (ولعذاب
الآخرة أشق) اشد لدوامه (وما لهم من الله من
واق) من حافظ من عذابه (مثل الجنة التي
وعد المتقون) صفتها التي هي في غرابة المثل
وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف أي فيما
يتلى عليكم مثل الجنة أو الخبر (تجري من تحتها
الانهار) كما تقول صفة زيد اسمر (أكلها دائم)
ثمرها دائم الوجود لا ينقطع (وظلها) دائم لا ينسخ
كما ينسخ في الدنيا بالشمس (تلك عقبى الذين
اتقوا) أي الجنة الموصوفة عقبى تقواهم يعني
منتهى امرهم (وعقبى الكافرين النار والذين
آتيناهم الكتاب) يريد من اسلم من اليهود كابن
سلام ونحوه ومن النصارى بأرض الحبشة
(يفرحون بما انزل اليك ومن الاحزاب) أي
ومن احزابهم كفرتهم الذين تحزبوا على
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ككعب بن الاشرف واصحابه والسيد والعاقب واشياعهما (من ينكر

بعضه)

بعضه) وهذا قول الحسن وقتادة فان قلت ان الاحزاب من المشركين وغيرهم من أهل الكتاب ينكرون القرآن كله فكيف قال ومن الاحزاب من ينكر بعضه قلت ان الاحزاب لا ينكرون القرآن بجملته لانه قد ورد فيه آيات دالات على توحيد الله واثبات قدرته وعلمه وحكمته وهم لا ينكرون ذلك أبدا والقول الثانى ان المراد بالكتاب التوراة والانجيل والمراد باهله الذين أسلموا من اليهود والنصارى مثل عبد الله بن سلام وأصحابه ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون من نجران وثلاثون من الحبشة وعشرة ممن سواهم فرحوا بالقرآن لكونهم آمنوا به وصدقوه ومن الاحزاب يعنى بقية أهل الكتاب من اليهود والنصارى وسائر المشركين من ينكر بعضه وقيل كان ذكر الرحمن قليلا فى القرآن فى الابتداء فلما أسلم عبد الله بن سلام ومن معه من أهل الكتاب من اليهود والنصارى ساءهم قلة ذكر الرحمن فى القرآن مع كثرة ذكره فى التوراة فلما كرر الله تعالى ذكر لفظة الرحمن فى القرآن فرحوا بذلك وأنزل الله تعالى والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك ومن الاحزاب يعنى مشركى مكة من ينكر بعضه وذلك لما كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاب الصلح يوم الحديبية كتب فيه بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا ما نعرف الرحمن الا رحمن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فأنزل الله وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى وانما قال ومن الاحزاب من ينكر بعضه لانهم كانوا لا ينكرون الله وينكرون الرحمن (قل) أى قل يا محمد (انما أمرت أن أعبد الله) يعنى وحده ولا أشرك به) شيئا (اليه أدعو) اى الى الله والى الايمان به ادعو الناس (واليه مآب) يعنى مرجعى يوم القيامة (وكذلك انزلناه حكما عربيا) اى كما أنزلنا الكتب على الانبياء بلغاتهم ولسانهم انزلنا اليك يا محمد هذا الكتاب وهو القرآن عربيا بلسانك ولسان قومك وانما سمى القرآن حكما لان فيه جميع التكاليف والاحكام والحلال والحرام والنقض والابرام فلما كان القرآن سببا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة وقيل ان الله لما حكم على جميع الخلق بقبول القرآن والعمل بمقتضاه سماه حكما لذلك المعنى (ولئن اتبعت اهواءهم) قال جمهور المفسرين ان المشركين دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ملة آبائهم فتوعده الله على اتباع اهوائهم فى ذلك وقال ابن السائب المراد به متابعة آبائهم فى الصلاة لبيت المقدس (بعد ما جاءك من العلم) يعنى بأنك على الحق وان قبلتك الكعبة هى الحق وقيل ظاهر الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره وقيل هو حث للنبى صلى الله عليه وسلم على تبليغ الرسالة والقيام بما أمر به ويتضمن ذلك تحذير غيره من المكلفين لان من هو أرفع منزلة وأعظم قدرا وأعلى مرتبة اذا حذر كان غيره ممن هو دونه بطريق الاولى (مالك من الله من ولى ولا واق) يعنى من ناصر ولا حافظ قوله تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك) روى ان اليهود وقيل المشركين قالوا ان هذا الرجل يعنون النبى صلى الله عليه وسلم ليس له همة الا فى النساء فعابوا عليه ذلك وقالوا لو كان كما يزعم انه رسول الله لكان مشتغلا بالزهد وترك الدنيا فأجاب الله عز وجل عن هذه الشبهة وعما عابوه به بقوله عز وجل ولقد ارسلنا رسلا من قبلك يا محمد (وجعلنا لهم أزواجا وذرية) فانه قد كان لسليمان عليه الصلاة والسلام ثلثمائة امرأة حرة وسبعمائة امرأة سرية فلم يقدح ذلك فى نبوته وكان لابيه داود عليه الصلاة والسلام مائة امرأة فلم يقدح ذلك ايضا فى نبوته فكيف يعيبون عليك ذلك ويجعلونه قادحا فى نبوتك والمعنى ولقد أرسلنا رسلا من قبلك يأكلون ويشربون وينكحون وما جعلناهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون (وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله) هذا جواب لعبد الله ابن أبى أمية وغيره من المشركين الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات واقترحوا عليه ان يريهم المعجزات وتقرير هذا الجواب ان المعجزة الواحدة كافية فى اثبات النبوة وقد أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعجزات كثيرة يعجز عن مثلها البشر فما لهم ان يقترحوا عليه شيئا واتيان الرسول بالمعجزات ليس اليه بل هو مفوض الى مشيئة الله عز وجل فان شاء أظهرها وان شاء لم يظهرها (لكل

بعضه) لانهم كانوا لا ينكرون الاقاصيص وبعض الاحكام والمعانى مما هو ثابت فى كتبهم وكانوا ينكرون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وغير ذلك مما حرفوه وبدلوه من الشرائع (قل انما امرت ان اعبد الله ولا أشرك به) هو جواب للمنكرين أى قل انما امرت فيما انزل الى بان أعبد الله ولا اشرك به فانكاركم له انكار لعبادة الله وتوحيده فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله وان لا تشرك به (اليه ادعو) خصوصا لا أدعو الى غيره (واليه) لا الى غيره (مآب) مرجعى وانتم تقولون مثل ذلك فلا معنى لانكاركم (وكذلك انزلناه) ومثل ذلك الانزال انزلناه مأمورا فيه بعبادة الله وتوحيده والدعوة اليه والى دينه والانذار بدار الجزاء (حكما عربيا) حكمة عربية مترجمة بلسان العرب وانتصابه على الحال كانوا يدعون رسول الله صلى الله عليه وسلم الى امور يشاركهم فيها فقيل (ولئن اتبعت اهواءهم بعد ما جاءك من العلم) أى بعد ثبوت العلم بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة (مالك من الله من ولى ولا واق) أى لا ينصرك ناصر ولا يقيك منه واق وهذا من باب التهييج والبعث للسامعين على الثبات فى الدين وان لا يزل زال عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة والا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة الثبات بمكان وكانوا يعيبونه بالازواج والاولاد ويقترحون عليه الآيات وينكرون النسخ فنزل (ولقد ارسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) نساء وأولادا (وما كان لرسول ان يأتى بآية الا باذن الله) أى ليس فى وسعه اتيان الآيات على ما يقترحه قومه وانما ذاك الى الله (لكل

أجل كتاب) وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم فلما استبطؤا ذلك وكانوا يستعجلون نزوله أخبر الله ان لكل قضاء قضاه كتابا قد كتبه فيه ووقتا يقع فيه لا يتقدم ولا يتأخر والمعنى ان لكل أجل أجله الله كتابا قد أثبته فيه وقيل في الآية تقديم وتأخير تقديره لكل كتاب أجل ومدة والمعنى ان الكتب المنزلة لكل كتاب منها وقت ينزل فيه (يمحو الله ما يشاء ويثبت) وذلك انهم لما اعترضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ان محمدا يأمر أصحابه بأمر اليوم ثم يأمرهم بخلافه غدا وما سبب ذلك الا انه يقوله من تلقاء نفسه اجاب الله عن هذا الاعتراض بقوله يمحو الله ما يشاء ويثبت قال سعيد بن جبير وقتادة يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء من ذلك فلا ينسخه ولا يبدله وقال ابن عباس يمحو الله ما يشاء ويثبت الا الرزق والاجل والسعادة والشقاوة ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن حذيفة بن اسيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا مر بالنطفة ثنتان واربعون ليلة بعث الله اليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال يارب اذكر ام انثى فيقضى ربك ما يشاء فيكتب الملك ثم يقول يارب أجله فيقول ربك ما يشاء ثم يقول الملك يارب رزقه فيقول ربك ما يشاء ويكتب الملك ثم يخرج الملك الصحيفة فلا يزيد على عمره ولا ينقص أخرجه مسلم (ق) عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق احدكم يجمع في بطن امه نطفة اربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات يكتب رزقه واجله وشقى اوسعيد ثم ينفخ فيه الروح فوالذى لا اله غيره ان احدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها فان قلت هذا الحديث والذى قبله صريح بأن الآجال والارزاق مقدرة وكذا السعادة والشقاوة لا تتغير عما قدره الله وعلمه في الازل فيستحيل زيادتها ونقصانها وكذلك يستحيل ان ينقلب السعيد شقيا أو الشقى سعيدا وقد صح في فضل صلة الرحم ان صلة الرحم تزيد في العمر فكيف الجمع بين هذه الاحاديث وبين قوله تعالى يمحو الله ما يشاء ويثبت قلت قد تكرر بالدلائل القطعية ان الله عالم بالآجال والارزاق وغيرها وحقيقة العلم معرفة المعلوم على ما هو عليه فاذا علم الله ان زيدا يموت في وقت معين استحال ان يموت قبله او بعده وهو قوله تعالى فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فدل ذلك على ان الآجال لا تزيد ولا تنقص واجاب العلماء عما ورد في الحديث في فضل صلة الرحم من انها تزيد في العمر بأجوبة الصحيح منها ان هذه الزيادة تكون بالبركة في عمره بالتوفيق للطاعات وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة وصيانتها عن الضياع وغير ذلك والجواب الثانى منها انها بالنسبة الى ما يظهر للملائكة في اللوح المحفوظ ان عمر زيد مثلا ستون سنة الا أن يصل رحمه فان وصلها زيد له أربعون سنة وقد علم الله في الازل ما سيقع من ذلك وأما الشقى فينقص منه ذلك وهو معنى قوله يمحو الله ما يشاء ويثبت أى بالنسبة لما يظهر للمخلوقين من تصوير الزيادة وأما انقلاب الشقى سعيدا والسعيد شقيا فيتصور في الظاهر ايضا لان الكافر قد يسلم فينقلب من الشقاوة الى السعادة وكذا العاصى ونحوه قد يتوب فينقلب من الشقاوة الى السعادة وقد يرتد المسلم والعياذ بالله تعالى فيموت على ردته فينقلب من السعادة الى الشقاوة والاصل في هذا الاعتبار بالخاتمة عند الموت وما يختم الله به له وهو المراد من علم الله الازلى الذى لا يتغير ولا يتبدل والله أعلم واصل المحو ذهاب أثر الكتابة وضده الاثبات فمن العلماء من حمل الآية على ظاهرها فجعلها عامة في كل شئ يقتضيه ظاهر اللفظ فيزيد الله ما يشاء في الرزق والاجل وكذا القول في السعادة والشقاوة والايمان بالله والكفر ونقل نحو هذا عن عمر وابن مسعود فانهما قالا يمحو السعادة والشقاوة ويمحو الرزق والاجل ويثبت ما يشاء وروى عن عمر انه كان يطوف بالبيت وهو يبكى ويقول اللهم ان كنت كتبتنى في أهل السعادة فأثبتنى فيها وان كنت كتبتنى من اهل الشقاوة فامحنى

أجل كتاب) لكل وقت حكم يكتب على العباد أى يفرض عليهم على ما تقتضيه حكمته (يمحو الله ما يشاء) ينسخ ما يشاء نسخه (ويثبت) بدله ما يشاء او يتركه غير منسوخ او يمحو من ديوان الحفظة ما يشاء ويثبت غيره او يمحو كفر التائبين ويثبت ايمانهم او يميت من حان اجله وعكسه ويثبت مدنى وشامى وحمزة وعلى

منها واثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة فانك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب وروى مثله عن ابن مسعود وقد ورد فى بعض الآثار ان الرجل يكون قد بقى من عمره ثلاثة ايام فيصل رحمه فيمد الى ثلاثين سنة هكذا ذكره البغوى بغير سند وروى بسنده عن ابى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل الله تبارك وتعالى فى ثلاث ساعات بقين من الليل فيفتح فى الساعة الاولى منهن فى الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ومن العلماء من حمل معنى الآية على الخصوص فى بعض الاشياء دون بعض فقال المراد بالمحو والاثبات نسخ الحكم المتقدم واثبات حكم آخر عوضا عن الحكم المتقدم وقيل ان الحفظة يكتبون جميع أعمال بنى آدم وأقوالهم فيمحو الله ما يشاء من ديوان الحفظة مما ليس فيه ثواب ولا عقاب مثل قول القائل أكلت شربت رحلت خرجت ونحو ذلك من الكلام وهو صادق فيه ويثبت ما فيه ثواب وعقاب وهذا قول الضحاك وقال الكلبى يكتب القول كله حتى اذا كان يوم الخميس طرح منه شئ ليس فيه ثواب ولا عقاب وقال ابن عباس هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلاله فهو الذى يمحو والذى يثبت هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يموت وهو فى طاعته فهو الذى يثبت وقال الحسن يمحو الله ما يشاء يعنى من جاء أجله فيذهبه ويثبت من لم يجئ أجله وقال سعيد بن جبير يمحو الله ما يشاء من ذنوب عباده فيغفرها ويثبت ما يشاء منها فلا يغفرها وقال عكرمة يمحو الله ما يشاء من الذنوب بالتوبة ويثبت بدل الذنوب حسنات وقال السدى يمحو الله ما يشاء يعنى القمر ويثبت الشمس وقال الربيع هذا فى الارواح يقبضها الله عند النوم فمن أراد موته محاه وامسكه ومن أراد بقاءه أثبته ورده الى صاحبه وقيل ان الله يثبت فى أول كل سنة حكمها فاذا مضت السنة محاه وأثبت حكما آخر للسنة المستقبلة وقيل يمحو الله الدنيا ويثبت الآخرة وقيل هو فى المحن والمصائب فهى مثبتة فى الكتاب ثم يمحوها بالدعاء والصدقة وقيل ان الله يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء لا اعتراض لاحد عليه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فان قلت مذهب أهل السنة ان المقادير سابقة وقد جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة فكيف يستقيم مع هذا المحو والاثبات قلت المحو والاثبات مما جف به القلم وسبق به القدر فلا يمحو شيئا ولا يثبت شيئا الا ما سبق به علمه فى الازل وعليه يترتب القضاء والقدر * مسئلة * استدلت الرافضة على مذهبهم فى البداء بهذه الآية قالوا ان البداء جائز على الله وهو ان يعتقد واشيئا ثم يظهر لهم خلاف ما اعتقدوه وتمسكوا بقوله يمحو الله ما يشاء ويثبت والجواب عن هذه المسئلة ان هذا مذهب باطل ظاهر الفساد لان علم الله قديم أزلى وهو من لوازم ذاته المخصوصة وما كان كذلك كان دخول التغيير والتبديل فيه محالا كذا ذكره الامام فخر الدين الرازى فى تفسير هذه الآية وقوله تعالى (وعنده أم الكتاب) يعنى أصل الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذى لا يغير ولا يبدل وسمى اللوح المحفوظ أم الكتاب لان جميع الاشياء مثبتة فيه ومنه تنسخ الكتب المنزلة وقيل ان العلوم كلها تنسب اليه وتتولد منه قال ابن عباس هما كتابان كتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت ما يشاء وأم الكتاب الذى لا يغير شئ منها وروى عطية عن ابن عباس قال ان لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء له دفتان من ياقوتة لله فيه كل يوم ثلثمائة وستون لحظة يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وسأل ابن عباس كعبا عن أم الكتاب فقال علم الله ما هو خالق وما خلقه وما هم عاملون (واما نرينك) يعنى يا محمد (بعض الذى نعدهم) يعنى من العذاب (أو نتوفينك) يعنى قبل ان نريك ذلك (فانما عليك البلاغ) يعنى ليس عليك الا تبليغ الرسالة اليهم والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ (وعلينا الحساب) يعنى وعلينا ان نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم قوله عز وجل (أولم يروا أنا نأتى الارض ننقصها من أطرافها) يعنى أولم ير كفار مكة الذين سألوا محمدا صلى الله عليه وسلم الآيات انا نأتى الارض يعنى أرض الشرك ننقصها من أطرافها قال أكثر المفسرين المراد منه فتح دار الشرك فان ما زاد فى دار الاسلام فقد نقص فى دار الشرك والمعنى أولم يروا أنا نأتى الارض

(وعنده أم الكتاب) أى أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ لان كل كائن مكتوب فيه (واما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك) وكيفما دارت الحال أريناك مصارعهم وما وعدناهم من انزال العذاب عليهم أو توفيناك قبل ذلك (فانما عليك البلاغ) فما يجب عليك الا تبليغ الرسالة فحسب (وعلينا الحساب) وعلينا حسابهم وجزاؤهم على اعمالهم لا عليك فلا يهمنك اعراضهم ولا تستعجل بعذابهم (أولم يروا أنا نأتى الارض) أرض الكفرة (ننقصها من أطرافها) بما نفتح على المسلمين من بلادهم فننقص دار الحرب ونزيد فى دار الاسلام وذلك من آيات النصرة والغلبة والمعنى عليك البلاغ الذى حملته ولا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من النصرة والظفر

فنفتحها لمحمد صلى الله عليه وسلم أرضا بعد أرض حوالى أراضيهم أفلا يعتبرون فيتعظون وهذا قول
ابن عباس وقتادة وجماعة من المفسرين وذلك ان المسلمين اذا استولوا على بلاد الكفار قهرا وتخريبا
كان ذلك نقصانا في ديارهم وزيادة في دار المسلمين وقوتهم وكان ذلك من أقوى الدلائل على ان الله تعالى
ينصر عبده ويعز جنده ويظهر دينه وينجز له ما وعده وقيل هو خراب الارض والمعنى أولم يروا أنا نأتي
الارض فنخربها ونهلك أهلها أفلا يخافون ان نفعل بهم مثل ذلك وقال مجاهد هو خراب الارض وقبض
أهلها وعن عكرمة والشعبي نحوه وهذا القول قريب من الاول وقال عطاء وجماعة من المفسرين
نقصانها موت العلماء وذهاب الفقهاء (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس وفي رواية من العباد ولكن
يقبض العلم بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا
وأضلوا وقال الحسن قال عبد الله بن مسعود موت العالم ثلمة في الاسلام لا يسدها شئ ما اختلف الليل
والنهار وقال عبد الله أيضا عليكم بالعلم قبل ان يقبض وقبضه ذهاب أهله وقال سليمان لا يزال الناس
بخير ما بقي الاول حتى يتعلم الآخر فاذا هلك الاول ولم يتعلم الآخر هلك الناس وقيل لسعيد بن جبير ما علامة
هلاك الناس قال هلاك العلماء فعلى هذا القول فالمراد بالاطراف العلماء والاشراف من الناس حكى
الجوهري عن ثعلب قال الاطراف الاشراف واستدل الواحدي لهذه اللغة بقول الفرزدق

واسأل بنا وبكم اذا وردت منى * أطراف كل قبيلة من يتبع

قال يريد أشراف كل قبيلة قال الواحدي والتفسير على القول الاول أولى لان هذا وان صح فلا يليق
بهذا الموضع قال الامام فخر الدين الرازي ويمكن ان يقال أيضا ان هذا الوجه لا يليق بهذا الموضع
وتقديره ان يقال أولم يروا أن كل ما يحدث في الدنيا من الاختلاف خراب بعد عمارة وموت بعد حياة
وذل بعد عز ونقص بعد كمال واذا كانت هذه التغييرات مشاهدة محسوسة فما الذي يؤمنهم ان يقلب
الله الامر على هؤلاء الكفرة فيجعلهم ذليلين بعدما كانوا عزيزين ومقهورين بعد ان كانوا قاهرين
وعلى هذا الوجه أيضا يحسن اتصال الكلام بما قبله وقوله تعالى (والله يحكم لا معقب لحكمه) يعني لا راد
لحكمه ولا ناقض لقضائه والمعقب هو الذي يعقب غيره بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب
لانه يعقب غريمه بالاقتضاء والطلب والمعنى والله يحكم نافذا حكمه خاليا من المدافع والمعارض
والمنازع لانه لا يتعقب حكمه أحد غيره بتغيير ولا نقض (وهو سريع الحساب) قال ابن عباس يريد سريع
الانتقام ممن حاسبه للمجازاة بالخير والشر فمجازاة الكفار بالانتقام منهم ومجازاة المؤمنين بايصال الثواب
اليهم وقد تقدم بسط الكلام في معنى سريع الحساب قبل هذا (وقد مكر الذين من قبلهم) يعني من قبل
مشركي مكة من الامم الماضية الذين مكروا بأنبيائهم والمكر ايصال المكروه الى الانسان من حيث لا يشعر
مثل ما مكر نمرود بابراهيم وفرعون بموسى واليهود بعيسى (فلله المكر جميعا) يعني عند الله جزاء مكرهم وقال
الواحدي يعني جميع مكر الماكرين له ومنه أي هو من خلقه وارادته فالمكر جميعا مخلوق له بيده الخير
والشر واليه النفع والضر والمعنى ان المكر لا يضر الا باذنه وارادته وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم
وأمان له من مكرهم كأنه قيل قد فعل من كان قبلهم من الكفار مثل فعلهم وصنعوا مثل صنيعهم
فلم يضروا الا من أراد الله ضره واذا كان الامر كذلك وجب ان لا يكون الخوف الا من الله لا من أحد من
المخلوقين (يعلم ما تكسب كل نفس) يعني ان جميع اكتساب العباد وتأثيراتها معلومة لله وهو خالقها
وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فكل ما علم وقوعه فهو واجب الوقوع وكل ما علم عدمه
كان ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك فكان الكل من الله ولا يحصل ضرر
الا باذنه وارادته وفيه وعيد للكفار الماكرين (وسيعلم الكافر) على التوحيد وقرئ وسيعلم الكفار على
الجمع قال ابن عباس يعني أبا جهل وقيل أراد المستهزئين وهم خمسة نفر من كفار مكة (لمن عقبى الدار)

(والله يحكم لا معقب لحكمه) لا راد لحكمه والمعقب الذي يكر على الشيء فيبطله وحقيقته الذي يعقبه أي يقفيه بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لانه يقفي غريمه بالاقتضاء والطلب والمعنى انه حكم للاسلام بالغلبة والاقبال وعلى الكفر بالادبار والانتكاس ومحل لا معقب لحكمه النصب على الحال كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاءني زيد لا عمامة على رأسه ولا قلنسوة تريد حاسرا (وهو سريع الحساب) فعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا (وقد مكر الذين من قبلهم) أي كفار الامم الخالية بأنبيائهم والمكر ارادة المكروه في خفية ثم جعل مكرهم كلا مكر بالاضافة الى مكره فقال (فلله المكر جميعا) ثم فسر ذلك بقوله (يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) يعني العاقبة المحمودة لان من علم ما تكسب كل نفس واعد لها جزاءها فهو المكر كله لانه يأتيهم من حيث لا يعلمون وهم في غفلة عما يراد بهم الكافر على ارادة الجنس حجازي وأبو عمرو

والمعنى انهم وان كانوا جهالا بالعواقب فسيعلمون ان العاقبة الحميدة للمؤمنين ولهم العاقبة المذمومة في الآخرة حين يدخلون النار ويدخل المؤمنون الجنة قوله تعالى (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) لما انكر الكفار كون محمد رسولا من عند الله أمره الله بقوله (قل) أى قل يا محمد لهؤلاء الكفار الذين انكروا نبوتك (كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) المراد بشهادة الله على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ما أظهر على يديه من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات الدالة على صدقه وكونه نبيا مرسلا من عند الله (ومن عنده علم الكتاب) يعني ومن عنده علم الكتاب ايضا يشهد على نبوتك بالشهادة وصحتها واختلفوا في الذي عنده علم الكتاب من هو فروى العوفي عن ابن عباس انهم علماء اليهود والنصارى والمعنى ان كل من كان عالما من اليهود بالتوراة ومن النصارى بالانجيل علم ان محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من الله لما يجد من الدلائل الدالة على نبوته فيهما فشهد بذلك من شهد به وأنكره من انكره منهم وقيل انهم مؤمنوا اهل الكتاب يشهدون ايضا على نبوته قال قتادة هو عبد الله بن سلام وانكر الشعبي هذا وقال هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام أسلم بالمدينة المنورة وقال يونس لسعيد بن جبير ومن عنده علم الكتاب أهو عبد الله بن سلام فقال كيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية وقال الحسن ومجاهد ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى وعلى هذا القول يكون المعنى كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح المحفوظ الا هو شهيدا بيني وبينكم قال الزجاج الاشبه ان الله لا يشهد على صحة حكمه لغيره وهذا قول مشكل لان عطف الصفة على الموصوف وان كان جائزا الا انه خلاف الاصل لا يقال شهد بهذا زيد والفقيه بل يقال شهد به زيد الفقيه لكن يشهد لصحة هذا القول قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب بكسر الميم والدال وهي قراءة ابن عباس وغيره على البناء للمفعول والمعنى ومن عند الله علم الكتاب ودليل هذه القراءة قوله وعلمناه من لدنا علما وقيل معناه ان من علم ان القرآن الذي جئتكم به معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والاخبار عن الغيوب وعن الامم الماضية فمن علم بهذه الصفة كان شهيدا بيني وبينكم والله اعلم بمراده واسرار كتابه

(تفسير سورة ابراهيم صلى الله عليه وسلم)

هي مكية سوى آيتين وهما قوله الم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا الى آخر الآيتين وهي احدى وقيل اثنتان وخمسون آية وثمانمائة واحدى وستون كلمة وثلاثة آلاف واربعمائة واربعة وثلاثون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الر كتاب انزلناه اليك) يعني هذا كتاب انزلناه اليك يا محمد والكتاب هو القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم (لتخرج الناس من الظلمات الى النور) يعني بهذا القرآن والمراد من الظلمات ظلمات الكفر والضلالة والجهل والمراد بالنور الايمان قال الامام فخر الدين الرازي رحمه الله وفيه دليل على ان طريق الكفر والبدع كثيرة وطريق الحق ليس الا واحدا لانه تعالى قال لتخرج الناس من الظلمات الى النور فعبر عن الجهل والكفر والضلال بالظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الايمان والهدى بالنور وهو لفظ مفرد وذلك يدل على ان طرق الكفر والجهل كثيرة وأما طريق العلم والايمان فليس الا واحدا (باذن ربهم) يعني بأمر ربهم وقيل بعلم ربهم (الى صراط العزيز الحميد) يعني الى دين الاسلام وهو دينه الذي امر به عباده والعزيز هو الغالب الذي لا يغلب والحميد المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد (الله) قرئ بالرفع على الاستئناف وخبره ما بعده وقرئ بالجر نعتا للعزيز الحميد وقال ابو عمرو وقراءة الخفض على التقديم والتأخير تقديره الى صراط الله العزيز الحميد (الذي له ما في السموات وما في الارض) يعني ملكا وما فيهما عبيده (وويل للكافرين) يعني الذين تركوا عبادة من

(ويقول الذين كفروا لست مرسلا) المراد بهم كعب بن الاشرف ورؤساء اليهود قالوا لست مرسلا وقيل قال علماء هي مكية الا هذه الآية (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) بما اظهر من الادلة على رسالتي والباء دخلت على الفاعل وشهيدا تمييز (ومن عنده علم الكتاب) قيل هو الله عز وجل والكتاب اللوح المحفوظ دليله قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب أي ومن لدنه علم الكتاب لان علم من علمه من فضله ولطفه وقيل ومن هو من علماء اهل الكتاب الذين اسلموا لانهم يشهدون بنعته في كتبهم وقال ابن سلام فيّ نزلت هذه الآية وقيل هو جبريل عليه السلام ومن في موضع الجر بالعطف على لفظ الله أو في موضع الرفع بالعطف على محل الجار والمجرور اذ التقدير كفى الله وعلم الكتاب يرتفع بالمقدر في الظرف فيكون فاعلا لان الظرف صلة لمن ومن هنا بمعنى الذي والتقدير من ثبت عنده علم الكتاب وهذا لان الظرف اذا وقع صلة يعمل عمل الفعل نحو مررت بالذي في الدار أخوه فأخوه فاعل كما تقول بالذي استقر في الدار اخوه وفي القراءة بكسر ميم من يرتفع العلم بالابتداء

(سورة ابراهيم عليه السلام مكية اثنتان وخمسون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الر كتاب) هو خبر مبتدأ محذوف أى هذا كتاب يعني السورة والجملة التي هي (أنزلناه اليك) في موضع الرفع صفة للنكرة (لتخرج الناس) بدعائك اياهم (من الظلمات الى النور) من الضلالة الى الهدى (باذن ربهم) بتيسيره وتسهيله مستعار من الاذن الذي هو تسهيل الحجاب وذلك ما يمنحهم من التوفيق (الى صراط) بدل من النور بتكرير العامل (العزيز) الغالب بالانتقام (الحميد) المحمود على الانعام (الله) بالرفع مدني وشامي على هو الله وبالجر غيرهما على انه عطف بيان للعزيز الحميد (الذي له ما في السموات وما في الارض) خلقا وملكا ولما ذكر الخارجين من ظلمات الكفر الى نور الايمان توعد الكافرين بالويل وهو نقيض الوأل وهو النجاة وهو اسم معنى كالهلاك فقال (وويل للكافرين)

يستحق العبادة الذي له ما في السموات وما في الارض وعبدوا من لا يملك شيئا البتة بل هو مملوك لله لانه من جملة خلق الله تعالى ومن جملة ما في السموات وما في الارض (من عذاب شديد) يعني معد لهم في الآخرة ثم وصفهم فقال تعالى (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) يعني يختارون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة (ويصدون عن سبيل الله) اي ويمنعون الناس عن قبول دين الله (ويبغونها عوجا) يعني ويطلبون لها زيغا وميلا فحذف الجار واوصل الفعل وقيل معناه يطلبون سبيل الله جائدين عن القصد وقيل الهاء في ويبغونها راجعة الى الدنيا ومعناه يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق والميل الى الحرام (اولئك) يعني من هذه صفته (في ضلال بعيد) يعني عن الحق بجواز ان يراد في ضلال بعيد ذي بعد او فيه بعد لان الضلال يبعد عن الطريق قوله تعالى (وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه) يعني بلغة قومه ليفهموا عنه ما يدعوهم اليه وهو قوله تعالى (ليبين لهم) يعني ما يأتون وما يذرون فان قلت لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى العرب وحدهم وانما بعث الى الناس جميعا بدليل قوله تعالى يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا بل هو مبعوث الى الثقلين الجن والانس وهم على ألسنة مختلفة ولغات شتى وقوله بلسان قومه وليس سوى العرب يقتضي بظاهره انه مبعوث الى العرب خاصة فكيف يمكن الجمع قلت بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب وبلسانهم والناس تبع للعرب فكان مبعوثا الى جميع الخلق لانهم تبع للعرب ثم انه يبعث الرسل الى الاطراف فيترجمون لهم بألسنتهم ويدعونهم الى الله تعالى بلغاتهم وقيل يحتمل انه اراد بقومه اهل بلده وفيهم العرب وغير العرب فيدخل معهم من غير جنسهم في عموم الدعوى وقيل ان الرسول اذا ارسل بلسان قومه وكانت دعوته خاصة وكان كتابه بلسان قومه كان اقرب لفهمهم عنه وقيام الحجة عليهم في ذلك فاذا فهموه ونقل عنهم انتشر عنهم علمه وقامت التراجم ببيانه وتفهيمه لمن يحتاج الى ذلك ممن هو من غير أهله واذا كان الكتاب واحدا بلغة واحدة مع اختلاف الامم وتباين اللغات كان ذلك ابلغ في اجتهاد المجتهدين في تعليم معانيه وتفهيم فوائده وغوامضه واسراره وعلومه وجميع حدوده واحكامه وقوله (فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) يعني ان الرسول ليس عليه الا التبليغ والتبيين والله هو الهادي المضل يفعل ما يشاء (وهو العزيز) يعني الذي يغلب ولا يغلب (الحكيم) في جميع افعاله قوله عز وجل (ولقد ارسلنا موسى بآياتنا) المراد بالآيات المعجزات التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام مثل العصا واليد وفلق البحر وغير ذلك من المعجزات العظيمة الباهرة (أن أخرج قومك من الظلمات الى النور) اي ان اخرج قومك بالدعوة من ظلمات الكفر الى نور الايمان (وذكرهم بأيام الله) قال ابن عباس وابي بن كعب ومجاهد وقتادة يعني بنعم الله وقال مقاتل بوقائع الله في الامم السالفة يقال فلان عالم بأيام الله اي بوقائعه وانما اراد بما كان في ايام الله من النعمة والنقمة وأخبر بذكر الايام عن ذلك لان ذلك كان معلوما عندهم وعلى هذا يكون المعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد والترغيب والوعد ان يذكرهم بما انعم الله عليهم به من النعمة وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل فيما مضى من الايام والترهيب والوعيد ان يذكرهم بأس الله وشدة انتقامه ممن خالف امره وكذب رسله وقيل بأيام الله في حق موسى ان يذكر قومه بأيام المحنة والشدة والبلاء حين كانوا تحت ايدي القبط يسومونهم سوء العذاب فخلصهم الله من ذلك وجعلهم ملوكا بعد ان كانوا مملوكين (ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور) الصبار الكثير الصبر والشكور الكثير الشكر وانما خص الشكور والصبور بالاعتبار بالآيات وان كان فيها عبرة للكافة لانهم هم المنتفعون بها دون غيرهم فلهذا خصهم بالآيات فكأنها ليست لغيرهم فهو كقوله وهدى للمتقين ولان الانتفاع بالآيات لا يمكن حصوله الا لمن يكون صابرا شاكرا أما من لم يكن كذلك فلا ينتفع بها البتة (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم) لما أمر الله عز وجل موسى عليه الصلاة والسلام ان يذكر قومه بايام الله امتثل ذلك الامر وذكرهم

من عذاب شديد) وهو مبتدأ أو خبر وصفة (الذين يستحبون) يختارون ويؤثرون (الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله) عن دينه (ويبغونها عوجا) ويطلبون لسبيل الله زيغا واعوجاجا والاصل ويبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل الذين مبتدأ خبره (أولئك في ضلال بعيد) عن الحق ووصف الضلال بالبعد من الاسناد المجازي والبعد في الحقيقة للضال لانه هو الذي يتباعد عن طريق الحق فوصف به فعله كما تقول جد جده أو مجرور صفة للكافرين أو منصوب على الذم أو مرفوع على اعني الذين أو هم الذين (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه) الا متكلما بلغتهم (ليبين لهم) ما هو مبعوث به وله فلا يكون لهم حجة على الله ولا يقولون له لم نفهم ما خوطبنا به فان قلت ان رسولنا صلى الله عليه وسلم بعث الى الناس جميعا بقوله قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا بل الى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة فان لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة قلت لا يخلو اما ان ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها فلا حاجة الى نزوله بجميع الالسنة لان الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل فتعين ان ينزل بلسان واحد وكان لسان قومه أولى بالتعيين لانهم أقرب اليه ولانه ابعد من التحريف والتبديل (فيضل الله من يشاء) من آثر سبب الضلالة (ويهدي من يشاء) من آثر سبب الاهتداء (وهو العزيز) فلا يغالب على مشيئته (الحكيم) فلا يخذل الا أهل الخذلان (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) التسع (أن أخرج قومك) بأن اخرج او أي أخرج لان الارسال فيه معنى القول كأنه قيل أرسلناه وقلنا له أخرج قومك (من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله) وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الامم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها أو بأيام الانعام حيث ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى وفلق لهم البحر (ان في ذلك لآيات لكل صبار) على البلايا (شكور) على العطايا كأنه قال لكل مؤمن اذ الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر (واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم

بأيام الله فقال اذكر وانعمة الله عليكم (اذ أنجاكم من آل فرعون) أي اذكروا انعام الله عليكم في ذلك الوقت اذ أنجاكم فيه من آل فرعون (يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم) فان قلت قال في سورة البقرة يذبحون بغير واو وقال هنا ويذبحون بزيادة واو فما الفرق قلت انما حذفت الواو في سورة البقرة لان قوله يذبحون تفسير لقوله يسومونكم سوء العذاب وفي التفسير لا يحسن ذكر الواو كما تقول جاءني القوم زيد وعمرو واذا اردت تفسير القوم واما دخول الواو هنا في هذه السورة فلان آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير التذبيح وبالتذبيح أيضا فقوله ويذبحون نوع آخر من العذاب لا انه تفسير للعذاب (ويستحيون نساءكم) يعني يتركونهن أحياء (وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) فان قلت كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم قلت تمكينهم وامهالهم حتى فعلوا ما فعلوا بلاء من الله ووجه آخر وهو ان ذلكم اشارة الى الانجاء وهو بلاء عظيم لان البلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعا ومنه قوله ونبلوكم بالشر والخير فتنة وهذا الوجه أولى لانه موافق لاول الآية وهو قوله اذكروا نعمة الله عليكم فان قلت هب ان تذبيح الابناء فيه بلاء فكيف يكون استحياء النساء فيه بلاء قلت كانوا يستحيونهن ويتركونهن تحت أيديهم كالاماء فكان ذلك بلاء (واذ تأذن ربكم) هذا من جملة ما قال موسى لقومه كأنه قيل اذكر وانعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم ومعنى تأذن آذن أي أعلم ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في افعل كأنه قيل وآذن ربكم ايذانا بليغا تنتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبه والمعنى واذ تأذن ربكم فقال (لئن شكرتم) يعني يا بني اسرائيل ما خولتكم من نعمة الانجاء وغيرها من النعم بالايمان الخالص والعمل الصالح (لأزيدنكم) يعني نعمة الى نعمة ولأضاعفن لكم ما آتيتكم قيل شكر الموجود صيد المفقود وقيل لئن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم في الثواب وأصل الشكر تصور النعمة واظهارها وحقيقته الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة وههنا دقيقة وهي ان العبد اذا اشتغل بمطالعة نعم الله عز وجل عليه وانواع فضله وكرمه واحسانه اليه اشتغل بشكر تلك النعمة وذلك يوجب المزيد وبذلك تتأكد محبة العبد لله عز وجل وهو مقام شريف ومقام أعلى منه وهو أن يشغله حب المنعم عن الالتفات الى النعم وهذا مقام الصديقين نسأل الله القيام بواجب شكر النعمة حتى يزيدنا من فضله وكرمه واحسانه وانعامه وقوله (ولئن كفرتم) المراد بالكفر هاهنا كفران النعمة وهو جحودها لانه مذكور في مقابلة الشكر (ان عذابي لشديد) يعني لمن كفر نعمتي ولم يشكرها (وقال موسى ان تكفروا) يعني يا بني اسرائيل (انتم ومن في الارض جميعا) يعني والناس كلهم جميعا فانما ضرر ذلك يعود على انفسكم بحرمانها الخير كله (فان الله لغني) يعني عن جميع خلقه (حميد) أي محمود في جميع افعاله لانه متفضل وعادل (ألم يأتكم نبأ) يعني خبر (الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود) قال بعض المفسرين يحتمل أن يكون هذا خطابا من موسى لقومه والمقصود منه انه عليه الصلاة والسلام كان يخوفهم مهالك من تقدم من الامم ويحتمل أن يكون خطابا من الله تعالى على لسان موسى عليه الصلاة والسلام لقومه والمقصود منه انه عليه الصلاة والسلام يذكرهم بذلك أمر القرون الماضية والامم الخالية والمقصود منه حصول العبرة بأحوال من تقدم وهلاكهم (والذين من بعدهم) يعني من بعد هؤلاء الامم الثلاثة (لا يعلمهم الا الله) يعني لا يعلم كنه مقاديرهم وعددهم الا الله لان علمه محيط بكل شيء ألا يعلم من خلق وقيل المراد بقوله والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله أقوام وأمم ما بلغنا خبرهم أصلا ومنه قوله وقرونا بين ذلك كثيرا وكان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية يقول كذب النسابون يعني انهم يدعون علم النسب الى آدم وقد نفى الله علم ذلك عن العباد وعن عبد الله بن عباس انه قال بين ابراهيم وعدنان ثلاثون قرنا لا يعلمهم الا الله وكان مالك بن انس يكره ان ينسب الانسان نفسه أبا أبا الى آدم لانه لا يعلم أولئك الآباء الا الله وقوله تعالى (جاءتهم رسلهم بالبينات) يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات

اذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب) اذ ظرف للنعمة بمعنى الانعام أي انعامه عليكم ذلك الوقت أو بدل اشتمال من نعمة الله أي اذكروا وقت انجائكم (ويذبحون أبناءكم) ذكر في البقرة يذبحون وفي الاعراف يقتلون بلا واو وهنا مع الواو والحاصل ان التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيرا للعذاب وبيانا له وحيث أثبت الواو جعل التذبيح من حيث انه زاد على جنس العذاب كأنه جنس آخر (ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) الاشارة الى العذاب والبلاء المحنة أو الى الانجاء والبلاء النعمة ونبلوكم بالشر والخير فتنة (واذ تأذن ربكم) أي آذن ونظير تأذن وآذن توعد وأوعد ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في افعل كأنه قيل واذ آذن ربكم ايذانا بليغا تنتفي عنده الشكوك والشبه وهو من جملة ما قال موسى لقومه وانتصابه للعطف على نعمة الله عليكم كأنه قيل واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم والمعنى واذ تأذن ربكم فقال (لئن شكرتم) يا بني اسرائيل ما خولتكم من نعمة الانجاء وغيرها (لأزيدنكم) نعمة الى نعمة فالشكر قيد الموجود وصيد المفقود وقيل اذا سمعت النعمة نعمة الشكر تأهبت للمزيد وقال ابن عباس رضي الله عنهما لئن شكرتم بالجد في الطاعة لأزيدنكم بالجد في المثوبة (ولئن كفرتم) ما انعمت به عليكم (ان عذابي لشديد) لمن كفر نعمتي أما في الدنيا فسلب النعمة وأما في العقبى فتوالي النقم (وقال موسى ان تكفروا انتم) يا بني اسرائيل (ومن في الارض جميعا) والناس كلهم (فان الله لغني) عن شكركم (حميد) وان لم يحمده الحامدون وانتم ضررتم انفسكم حيث حرمتموها الخير الذي لا بد لكم منه (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود) من كلام موسى لقومه أو ابتداء خطاب لاهل عصر محمد عليه السلام (والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله) جملة من مبتدا وخبر وقعت اعتراضا أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح ولا يعلمهم الا الله اعتراض والمعنى انهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم الا الله وعن ابن عباس رضي الله عنهما بين عدنان واسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون وروي انه عليه السلام قال عند نزول هذه الآية كذب النسابون (جاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات

(فردّوا أيديهم في أفواههم) وفي معنى الايدي والافواه قولان أحدهما ان المراد بهما هاتان الجارحتان المعلومتان ثم في معنى ذلك وجوه قال ابن مسعود عضوا أيديهم غيظا وقال ابن عباس لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم الى افواههم وقال مجاهد وقتادة كذبوا الرسل وردّوا ما جاؤا به يقال رددت قول فلان في فيه أي كذبته وقال الكلبي يعني ان الامم ردّوا ايديهم الى افواه انفسهم يعني انهم وضعوا الايدي على الافواه اشارة منهم الى الرسل ان اسكتوا وقال مقاتل ردّوا أيديهم على افواه الرسل يسكتونهم بذلك وقيل ان الامم لما سمعوا كلام الرسل عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردّوا ايديهم في افواههم كما يفعل الذي غلبه الضحك القول الثاني ان المراد بالايدي والافواه غير الجارحتين فقيل المراد بالايدي النعم ومعناه ردّوا ما لو قبلوه لكان نعمة عليهم يقال لفلان عندي يد أي نعمة والمراد بالافواه تكذيبهم الرسل والمعنى كذبوهم بأفواههم وردّوا قولهم وقيل انهم كفوا عن قبول ما أمروا بقبوله من الحق ولم يؤمنوا به يقال فلان ردّ يده الى فيه اذا أمسك عن الجواب فلم يجب وهذا القول فيه بعد لانهم قد أجابوا بالتكذيب وهو ان الامم ردّوا على رسلهم (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به) يعني انا كفرنا بما زعمتم ان الله أرسلكم به لانهم لم يقرّوا بأنهم أرسلوا اليهم لانهم لو أقرّوا بأن الرسل أرسلوا اليهم لكانوا مؤمنين (وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب) يعني يوجب الريبة أو يوقع في الريبة والتهمة والريبة قلق النفس وأن لا تطمئن الى الامر الذي يشك فيه فان قلت انهم قالوا أوّلا انا كفرنا بما أرسلتم به فكيف يقولون ثانيا وانا لفي شك والشك دون الكفر أو داخل فيه قلت انهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل فكأنهم حصل لهم شبهة توجب لهم الشك فقالوا ان لم ندع الجزم في كفرنا فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في ذلك (قالت رسلهم) يعني مجيبين لأممهم (أفي الله شك) يعني هل تشكون في الله وهو استفهام انكار ونفي لما اعتقدوه (فاطر السموات والارض) يعني وهل تشكون في كونه خالق السموات والارض وخالق جميع ما فيها (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) يعني ليغفر لكم ذنوبكم اذا آمنتم وصدّقتم وحرف من صلة وقيل انها أصل ليست بصلة وعلى هذا انه يغفر لهم ما بينهم وبينه من الكفر والمعاصي دون مظالم العباد (ويؤخركم الى أجل مسمى) يعني الى حين انقضاء آجالكم فلا يعاجلكم بالعذاب (قالوا) يعني الامم مجيبين للرسل (ان أنتم) يعني ما أنتم (الا بشر مثلنا) يعني في الصورة الظاهرة لستم ملائكة (تريدون أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا) يعني ما تريدون بقولكم هذا الا صدّنا عن آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها (فأتونا بسلطان مبين) يعني بينة واضحة على صحة دعواكم (قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم) يعني ان الكفار لما قالوا لرسلهم ان أنتم الا بشر مثلنا قالت لهم رسلهم مجيبين لهم هب ان الامر كما قلتم ووصفتم فنحن بشر مثلكم لا ننكر ذلك (ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده) يعني بالنبوة والرسالة فيصطفي من يشاء من عباده لهذا المنصب الشريف (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله) يعني وليس لنا مع ما خصنا الله به من النبوة وشرّفنا به من الرسالة أن نأتيكم بآية وبرهان ومعجزة تدل على صدقنا الا باذن الله لنا في ذلك (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) يعني في دفع شرور أعدائهم عنهم (وما لنا أن لا نتوكل على الله) يعني ان الانبياء قالوا أيضا قد عرفنا انه لا يصيبنا شيء الا بقضاء الله وقدره فنحن نثق به ونتوكل عليه في دفع شروركم عنا (وقد هدانا سبلنا) يعني وقد عرّفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد (ولنصبرنّ) اللام لام القسم تقديره والله لنصبرن (على ما آذيتمونا) يعني به من قول أو فعل (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) فان قلت كيف كرّر الامر بالتوكل وهل من فرق بين التوكلين قلت نعم التوكل الاول فيه اشارة الى استحداث التوكل والتوكل الثاني فيه اشارة الى السعي في التثبيت على

(فردّوا أيديهم في افواههم) الضمير ان يعودان الى الكفرة أي اخذوا أناملهم بأسنانهم تعجبا أو عضوا عليها تغيظا او الثاني يعود الى الانبياء أي ردّ القوم ايديهم في افواه الرسل كيلا يتكلموا بما أرسلوا به (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفي شك مما تدعوننا اليه) من الايمان بالله والتوحيد (مريب) موقع في الريبة (قالت رسلهم أفي الله شك) أدخلت همزة الانكار على الظرف لان الكلام ليس في الشك انما هو في المشكوك فيه وانه لا يحتمل الشك لظهور الادلة وهو جواب قولهم وانا لفي شك (فاطر السموات والارض يدعوكم) الى الايمان (ليغفر لكم من ذنوبكم) اذا آمنتم ولم تجئ مع من الا في خطاب الكافرين كقوله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم وقال في خطاب المؤمنين هل أدلكم على تجارة الى أن قال يغفر لكم ذنوبكم وغير ذلك مما يعرف بالاستقراء وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يسوى بين الفريقين في الميعاد (ويؤخركم الى أجل مسمى) الى وقت قد سماه وبين مقداره (قالوا) أي القوم (ان أنتم) ما أنتم (الا بشر مثلنا) لا فضل بيننا وبينكم ولا فضل لكم علينا فلم تخصون بالنبوة دوننا (تريدون أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا) يعني الاصنام (فأتونا بسلطان مبين) بحجة بينة وقد جاءتهم رسلهم بالبينات وانما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتا ولجاجا (قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم) تسليم لقولهم انهم بشر مثلهم (ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده) بالايمان والنبوة كما منّ علينا (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله) جواب لقولهم فأتونا بسلطان مبين والمعنى ان الاتيان بالآية التي قد اقترحتموها ليس الينا ولا في استطاعتنا وانما هو أمر يتعلق بمشيئة الله تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل وقصدوا به انفسهم قصدا أوليا كأنهم قالوا ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وايذائكم ألا ترى الى قوله (وما لنا أن لا نتوكل على الله) معناه وأي عذر لنا في أن لا نتوكل عليه (وقد هدانا سبلنا) وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه وهو التوفيق لهداية كل منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين قال أبو تراب التوكل طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية والشكر عند العطاء والصبر عند البلاء (ولنصبرن على ما آذيتمونا) جواب قسم مضمر أي حلفوا على الصبر على اذاهم وأن لا يمسكوا عن دعائهم (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) أي فليثبت المتوكلون على توكلهم حتى لا يكون تكرارا

ما استحدثوا من توكلهم وابقائه وادامته تحصل الفرق بين التوكلين قوله تعالى (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أولتعودن في ملتنا) يعني ليكونن أحد الامرين اما اخراجكم أيها الرسل من بلادنا وأرضنا واما عودكم في ملتنا فان قلت هذا يوهم بظاهره انهم كانوا على ملتهم في أول الامر حتى يعودوا فيها قلت معاذ الله ولكن العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير في كلام العرب وفيه وجه آخر وهو ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام قبل الرسالة لم يظهروا خلاف أممهم فلما أرسلوا اليهم أظهروا مخالفتهم ودعوهم الى الله فقالوا لهم لتعودن في ملتنا ظنا منهم انهم كانوا على ملتهم ثم خالفوهم واجماع الأمة على ان الرسل من أول الامر انما نشؤا على التوحيد لا يعرفون غيره (فأوحى اليهم ربهم) يعني ان الله تعالى أوحى الى رسله وانبيائه بعد هذه المخاطبات والمحاورات (لنهلكن الظالمين) يعني ان عاقبة أمرهم الى الهلاك فلا تخافوهم (ولنسكننكم الارض من بعدهم) يعني من بعد هلاكهم (ذلك) يعني ذلك الاسكان (لمن خاف مقامي) يعني خاف مقامه بين يدي يوم القيامة فأضاف قيام العبد الى نفسه لان العرب قد تضيف أفعالها الى انفسها كقولهم ندمت على ضربي اياك وندمت على ضربك مثله (وخاف وعيد) أي وخاف عذابي قوله عز وجل (واستفتحوا) يعني واستنصروا قال ابن عباس يعني الامم وذلك انهم قالوا اللهم ان كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا وقال مجاهد وقتادة واستفتح الرسل على اممهم وذلك انهم لما أيسوا من ايمان قومهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب (وخاب) يعني وخسر وقيل هلك (كل جبار عنيد) والجبار في صفة الانسان يقال لمن تجبر بنفسه بادعاء منزلة عالية لا يستحقها وهو صفة ذم في حق الانسان وقيل الجبار الذي لا يرى فوقه أحدا وقيل الجبار المتعظم في نفسه المتكبر على اقرانه والعنيد المعاند للحق ومجانبه قاله مجاهد وقال ابن عباس هو المعرض عن الحق وقال مقاتل هو المتكبر وقال قتادة هو الذي يأبى أن يقول لا اله الا الله وقيل العنيد هو المعجب بما عنده وقيل العنيد الذي يعاند ويخالف (من ورائه جهنم) يعني هي امامه وهو صائر اليها قال أبو عبيدة هو من الاضداد يعني انه يقال وراء بمعنى خلف وبمعنى امام وقال الاخفش هو كما يقال هذا الامر من ورائك يعني انه سيأتيك (ويسقى) يعني في جهنم (من ماء صديد) وهو ما سال من الجلد واللحم من القيح جعل ذلك شراب أهل النار وقال محمد بن كعب القرظي هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر وهو قوله (يتجرعه) أي يتحساه ويشربه لا بمرة واحدة بل جرعة بعد جرعة لمرارته وحرارته وكراهته ونتنه (ولا يكاد يسيغه) أي لا يقدر على ابتلاعه يقال ساغ الشراب في الحلق اذا سهل انحداره فيه قال بعض المفسرين ان يكاد صلة والمعنى يتجرعه ولا يسيغه وقال صاحب الكشاف دخلت يكاد للمبالغة يعني ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الاساغة وقال بعضهم ولا يكاد يسيغه أي يسيغه بعد ابطاء لان العرب تقول ما كدت اقوم أي قمت بعد ابطاء فعلى هذا كاد على أصلها وليست بصلة وقال ابن عباس معناه لا يجيزه وقيل معناه يكاد لا يسيغه ويسيغه فيغلي في جوفه عن أبي امامة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ويسقى من ماء صديد يتجرعه قال يقرب الى فيه فيكرهه فاذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فاذا شربه قطع امعاءه حتى تخرج من دبره قال وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم وقال وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا أخرجه الترمذي وقال حديث غريب قوله وقعت فروة رأسه أي جلدة رأسه وانما شبهها بالفروة للشعر الذي عليها وقوله تعالى (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) يعني ان الكافر يجد ألم الموت وشدته من كل مكان من أعضائه وقال ابراهيم التيمي حتى من تحت كل شعرة من جسده وقيل يأتيه الموت من قدامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وما هو بميت فيستريح وقال ابن جريج تعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ولا ترجع الى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة (ومن ورائه) يعني امامه (عذاب غليظ) أي شديد قيل هو الخلود في النار قوله تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد

(وقال الذين كفروا لرسلهم) لسبلنا الرسلهم ابو عمرو (لنخرجنكم من ارضنا) من ديارنا (أولتعودن في ملتنا) أي ليكونن احد الامرين اخراجكم أو عودكم وحلفوا على ذلك والعود بمعنى الصيرورة وهو كثير في كلام العرب أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن معه فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد (فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين) القول مضمر او اجرى الايحاء مجرى القول لانه ضرب منه (ولنسكننكم الارض من بعدهم) أي ارض الظالمين وديارهم وفي الحديث من آذى جاره ورثه الله داره (ذلك) الاهلاك والاسكان أي ذلك الامر حق (لمن خاف مقامي) موقفي وهو موقف الحساب او المقام مقحم او خاف قيامي عليه بالعلم كقوله أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت والمعنى ان ذلك حق للمتقين (وخاف وعيد) عذابي وبالياء يعقوب (واستفتحوا) واستنصروا الله على اعدائهم وهو معطوف على اوحى اليهم (وخاب كل جبار) وخسر كل متكبر بطر (عنيد) مجانب للحق معناه فنصروا وظفروا وافلحوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم وقيل الضمير للكفار ومعناه واستفتح الكفار على الرسل ظنا منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه (من ورائه) من بين يديه (جهنم) وهذا وصف حاله وهو في الدنيا لانه مرصد لجهنم فكأنها بين يديه وهو على شفيرها أو وصف حاله في الآخرة حيث يبعث ويوقف (ويسقى) معطوف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى (من ماء صديد) ما يسيل من جلود أهل النار وصديد عطف بيان لماء لانه مبهم فبين بقوله صديد (يتجرعه) يشربه جرعة جرعة (ولا يكاد يسيغه) ولا يقارب ان يسيغه فكيف تكون الاساغة كقوله لم يكد يراها أي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها (ويأتيه الموت من كل مكان) أي أسباب الموت من كل جهة أو من كل مكان من جسده وهذا تفظيع لما يصيبه من الآلام أي لو كان ثمة موت لكان كل واحد منها مهلكا (وما هو بميت) لانه لو مات لاستراح (ومن ورائه) ومن بين يديه (عذاب غليظ) أي في كل وقت يستقبله يتلقى عذابا أشد مما قبله وأغلظ وعن الفضيل هو قطع الانفاس وحبسها في الاجساد (مثل الذين) مبتدأ محذوف الخبر أي فيما يتلى عليكم مثل الذين (كفروا بربهم) والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله (اعمالهم كرماد) جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقيل اعمالهم كرماد

(اشتدت به الريح) ازياح مدى (فى يوم عاصف) جعل العصف لليوم وهو لما فيه وهو الريح كقولك يوم ماطر واعمال الكفرة المكارم التى كانت لهم من صلة الارحام وعتق الرقاب وفداء الاسرى وعقر الابل للاضياف وغير ذلك شبهها فى حبوطها البنائها على غير اساس وهو الايمان بالله تعالى برماد طيرته الريح العاصف (لايقدرون) يوم القيامة (مما كسبوا) من اعمالهم (على شئ) أى لايرون له أثرا من ثواب كما لا يقدر من الرماد المطير فى الريح على شئ (ذلك هو الضلال البعيد) اشارة الى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب (ألم تر) ألم تعلم الخطاب لكل أحد (ان الله خلق السموات والارض) خالق مصافا حمزة وعلى (بالحق) بالحكمة والامر العظيم ولم يخلقها عبثا (ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) أى هو قادر على ان يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقا آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم اعلاما بأنه قادر على اعدام الموجود وايجاد المعدوم (وما ذلك على الله بعزيز) بمتعذر (وبرزوا لله جميعا) ويبرزون يوم القيامة وانما جىء به بلفظ الماضى لان ما أخبر به عز وجل لصدقه كأنه قد كان ووجد ونحوه ونادى أصحاب الجنة ونادى أصحاب النار وغير ذلك ومعنى بروزهم لله والله تعالى لا يتوارى عنه شئ حتى يبرز له انهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون ان ذلك خاف على الله فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلموا ان الله لا تخفى عليه خافية أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه (فقال الضعفوء) فى الرأى وهم السفلة والاتباع وكتب الضعفاء بواو قبل الهمزة على لفظ من يفخم الالف قبل الهمزة فيميلها الى الواو (للذين استكبروا) وهم السادة والرؤساء الذين استغووهم وصدوهم عن الاستماع الى الانبياء واتباعهم (انا كنا لكم تبعا) تابعين جمع تابع على تبع كخادم وخدم وغائب وغيب أو ذوى تبع والتبع الاتباع يقال تبعه تبعا (فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ) فهل تقدرون على دفع شئ مما نحن فيه ومن الاولى للتبيين والثانية للتبعيض كأنه قيل فهل أنتم مغنون عنا بعض الشئ الذى هو عذاب الله أو هما للتبعيض أى فهل أنتم مغنون عنا بعض شئ هو بعض عذاب الله ولما كان قول الضعفاء توبيخا لهم وعتابا على استغوائهم لانهم علموا انهم لا يقدرون على الاغناء عنهم (قالوا) لهم مجيبين معتذرين (لو هدانا الله لهديناكم) أى لو هدانا الله الى الايمان فى الدنيا لهديناكم اليه أى لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم أى لاغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) مستويان علينا الجزع والصبر والهمزة وأم للتسوية روى انهم يقولون فى النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة

(اشتدت به الريح فى يوم عاصف) هذا كلام مستأنف منقطع عما قبله وهو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه تقديره فيما يقص أو فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا والمثل مستعار للقصة التى فيها غرابة وقوله أعمالهم كرماد جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقال أعمالهم كرماد وقال المفسرون والفراء مثل أعمال الذين كفروا بربهم فحذف المضاف اعتمادا على ما ذكره بعد المضاف اليه وقيل يحتمل أن يكون المعنى صفة الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد كقولك فى صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول والرماد معروف وهو ما سقط من الحطب والفحم بعد احراقه بالنار اشتدت به الريح يعنى فنسفته وطيرته ولم تبق منه شيئا فى يوم عاصف وصف اليوم بالعصوف والعصوف من صفة الريح لان الريح تكون فيه كقولك يوم بارد وحار وليلة ماطرة لان الحر والبرد والمطر توجد فيهما وقيل معناه فى يوم عاصف الريح فحذف الريح لانه قد تقدم ذكرها وهذا مثل ضربه الله تعالى لاعمال الكفار التى لم ينتفعوا بها ووجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الاعمال هو ان الريح العاصف تطير الرماد وتذهب به وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى منها شئ وكذلك أعمال الكفار تبطل وتذهب بسبب كفرهم وشركهم حتى لا يبقى منها شئ ثم اختلفوا فى هذه الاعمال ما هى فقيل هى ما عملوه من أعمال الخير فى حال الكفر كالصدقة وصلة الارحام وفك الاسير واقراء الضيف وبر الوالدين ونحو ذلك من اعمال البر والصلاح فهذه الاعمال وان كانت اعمال بر لكنها لا تنفع صاحبها يوم القيامة بسبب كفره لان كفره احبطها وابطلها كلها وقيل المراد بالاعمال عبادتهم الاصنام التى ظنوا انها تنفعهم فبطلت وحبطت ولم تنفعهم البتة ووجه خسرانهم انهم اتعبوا ابدانهم فى الدهر الطويل لكى ينتفعوا بها فصارت وبالا عليهم وقيل أراد بالاعمال الاعمال التى عملوها فى الدنيا واشركوا فيها غير الله فانها لا تنفعهم لانها صارت كالرماد الذى ذرته الريح وصار هباء لا ينتفع به وهو قوله تعالى (لا يقدرون مما كسبوا) يعنى فى الدنيا (على شئ) يعنى من تلك الاعمال والمعنى انهم لا يجدون ثواب اعمالهم فى الآخرة (ذلك هو الضلال البعيد) يعنى ذلك الخسران الكبير لان اعمالهم ضلت وهلكت فلا يرجى عودها والبعيد هنا الذى لا يرجى عوده (ألم تر ان الله خلق السموات والارض بالحق) يعنى لم يخلقها باطلا ولا عبثا وانما خلقها لامر عظيم وغرض صحيح (ان يشأ يذهبكم) يعنى أيها الناس (ويأت بخلق جديد) يعنى سواكم أطوع لله منكم والمعنى ان الذى قدر على خلق السموات والارض قادر على افناء قوم واماتتهم وايجاد خلق آخر سواهم لان القادر لا يصعب عليه شئ قيل هذا خطاب لكفار مكة يريد يميتكم يا معشر الكفار ويخلق قوما غيركم خيرا منكم وأطوع (وما ذلك على الله بعزيز) يعنى بممتنع لان الاشياء كلها سهلة على الله وان جلت وعظمت قوله عز وجل (وبرزوا لله جميعا) يعنى وخرجوا من قبورهم الى الله ليحاسبهم ويجازيهم على قدر أعمالهم والبراز الفضاء وبرز حصل فى البراز وذلك ان يظهر بذاته كلها والمعنى وخرجوا من قبورهم وظهروا الى الفضاء وأورد بلفظ الماضى وان كان معناه الاستقبال لان كل ما أخبر الله عنه فهو حق وصدق وكائن لا محالة فصار كأنه قد حصل ودخل فى الوجود (فقال الضعفوء) يعنى الاتباع (للذين استكبروا) وهم القادة والرؤساء (انا كنا لكم تبعا) يعنى فى الدين والاعتقاد (فهل أنتم) يعنى فى هذا اليوم (مغنون عنا) يعنى دافعون عنا (من عذاب الله من شئ) من هنا للتبعيض والمعنى هل تقدرون على ان تدفعوا عنا بعض عذاب الله الذى حل بنا (قالوا) يعنى الرؤساء والقادة والمتبوعون للتابعين (لو هدانا الله لهديناكم) يعنى لو أرشدنا الله لارشدناكم ودعوناكم الى الهدى ولكن لما أضلنا دعوناكم الى الضلالة (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) يعنى مستويان علينا الجزع والصبر والجزع أبلغ من الحزن

عام فلا ينفعهم الصبر ثم يقولون سواء علينا اجزعنا أم صبرنا وانصاله بما قبله من حيث ان عتابهم لهم كان جزعا مما هم فيه فقالوا لهم سواء علينا اجزعنا أم صبرنا يريدون أنفسهم واياهم لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها يقولون ما هذا الجزع والتوبيخ ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر (ما لنا من محيص) منجى ومهرب جزعنا أم صبرنا ويجوز ان يكون هذا من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعا (وقال الشيطان لما قضى الامر) حكم بالجنة والنار لاهلهما وفرغ من الحساب ودخل أهل الجنة الجنة واهل النار النار وروي ان الشيطان يقوم عند ذلك خطيبا على منبر من نار فيقول لاهل النار (ان الله وعدكم وعد الحق) وهو البعث والجزاء على الاعمال فوفى لكم بما وعدكم (ووعدتكم) بأن لا بعث ولا حساب ولا جزاء (فأخلفتكم) كذبتكم (وما كان لي عليكم من سلطان) من تسلط واقتدار (الا أن دعوتكم) لكني دعوتكم الى الضلالة بوسوستي وتزييني والاستثناء منقطع لان الدعاء ليس من جنس السلطان (فاستجبتم لي) فأسرعتم اجابتي (فلا تلوموني) لان من تجرد للعداوة لا يلام اذا دعا الى امر قبيح مع ان الرحمن قد قال لكم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج أبويكم من الجنة (ولوموا أنفسكم) حيث اتبعتموني بلا حجة ولا برهان وقول المعتزلة هذا دليل على ان الانسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه وليس من الله الا التمكين ولا من الشيطان الا التزيين باطل لقوله لو هدانا الله أي الى الايمان لهديناكم كما مر (ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي) لا ينجي بعضنا بعضا من عذاب الله ولا يغيثه والاصراخ الاغاثة بمصرخي حمزة اتباعا للحاء غيره بفتح الياء لئلا تجتمع الكسرة والياآن بعد كسرتين وهو جمع مصرخ فالياء الأولى ياء الجمع والثانية ضمير المتكلم (اني كفرت بما أشركتمون) وبالياء بصري وما مصدرية (من قبل) متعلق بأشركتموني اي كفرت اليوم باشراككم اياي مع الله من قبل هذا اليوم أي في الدنيا كقوله ويوم القيامة يكفرون بشرككم ومعنى كفره باشراكهم اياه تبرؤه منه واستنكاره له كقوله انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم أو من قبل متعلق بكفرت وما موصولة أي كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي اشركتمونيه وهو الله عز وجل يقول اشركني فلان أي جعلني له شريكا ومعنى اشراكهم الشيطان بالله طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الاوثان وهذا آخر قول الشيطان وقوله (ان الظالمين لهم عذاب أليم) قول الله عز وجل وقيل هو من تمام كلام ابليس وانما حكى الله عز وجل ما سيقوله في ذلك الوقت ليكون لطفا للسامعين (وادخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها) عطف على برزوا (باذن ربهم) متعلق بأدخل أي ادخلتهم الملائكة الجنة باذن الله وأمره (تحيتهم فيها سلام) هو تسليم بعضهم على بعض في الجنة أو تسليم الملائكة عليهم

لانه ينصرف الانسان عما هو بصدده ويقطعه عنه (ما لنا من محيص) يعني من مهرب ولا منجاة مما نحن فيه من العذاب قال مقاتل يقولون في النار تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام ولا ينفعهم الصبر فعند ذلك يقولون سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص وقال محمد بن كعب القرظي بلغني ان أهل النار يستغيثون بالخزنة كما قال الله وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فردت الخزنة عليهم وقالوا ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى فردت الخزنة وقالوا ادعوا وما دعاء الكافرين الا في ضلال فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا يا مالك ليقض علينا ربك سألوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ثلثمائة وستون يوما واليوم كألف سنة مما تعدون ثم يجيبهم بقوله انكم ماكثون فلما يئسوا مما عنده قال بعضهم لبعض تعالوا فلنصبر كما صبر أهل الطاعة لعل ذلك ينفعنا فصبروا وطال صبرهم فلم ينفعهم وجزعوا فلم ينفعهم فعند ذلك قالوا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص قوله تعالى (وقال الشيطان) يعني ابليس (لما قضي الامر) لما يعني فرغ منه وأدخل أهل الجنة الجنة واهل النار النار يأخذ أهل النار في لوم ابليس وتقريعه وتوبيخه فيقوم فيهم خطيبا قال مقاتل يوضع له منبر في النار فيجتمع عليه أهل النار يلومونه فيقول لهم ما أخبر الله عنه بقوله (ان الله وعدكم وعد الحق) فيه اضمار تقديره فصدق في وعده (ووعدتكم فأخلفتكم) يعني الوعد وقيل يقول لهم اني قلت لكم لا بعث ولا جنة ولا نار (وما كان لي عليكم من سلطان) يعني من ولاية وقهر وقيل لم آتكم بحجة فيما وعدتكم به (الا أن دعوتكم) هذا استثناء منقطع معناه لكن دعوتكم (فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) يعني ما كان مني الا الدعاء والقاء الوسوسة وقد سمعتم دلائل الله وجاءتكم الرسل فكان من الواجب عليكم أن لا تلتفتوا الي ولا تسمعوا قولي فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم لكم باجابتي ومتابعتي من غير حجة ولا دليل (ما أنا بمصرخكم) يعني بمغيثكم ولا منقذكم (وما أنتم بمصرخي) يعني بمغيثي ولا منقذي مما انا فيه (اني كفرت بما أشركتمون من قبل) يعني كفرت بجعلكم اياي شريكا له في عبادته وتبرأت من ذلك والمعنى ان ابليس جحد ما يعتقده الكفار فيه من كونه شريكا لله وتبرأ من ذلك (ان الظالمين لهم عذاب أليم) روى البغوي بسنده عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة وذكر الحديث الى قوله فيأتوني فيأذن الله لي ان أقوم فيثور من مجلسي أطيب ريح شمها أحد حتى آتي ربي فيشفعني ويجعل لي نورا من شعر رأسي الى ظهر قدمي ثم يقول الكفار قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا وبقولون ما هو غير ابليس هو الذي اضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم قم انت فاشفع لنا فانك أنت اضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه انتن ريح شمها احد ثم تعظم جهنم ويقول عند ذلك ان الله وعدكم وعد الحق الآية وقوله تعالى (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار) لما شرح الله عز وجل حال الكفار الاشقياء مما تقدم من الآيات الكثيرة شرح احوال المؤمنين السعداء وما أعد لهم في الآخرة من الثواب العظيم والاجر الجزيل وذلك ان الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم والمنفعة الخالصة اليها الاشارة بقوله وادخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار وكونها دائمة اشير له بقوله (خالدين فيها) والتعظيم حصل من وجهين أحدهما قوله (باذن ربهم) لان تلك المنافع انما كانت تفضلا من الله بانعامه الثاني قوله (تحيتهم فيها سلام) فيحتمل ان بعضهم يحيي بعضا بهذه الكلمة أو الملائكة تحييهم بها أو الرب سبحانه وتعالى

يحييهم بها ويحتمل أن يكون المراد انهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع الآفات لان السلام مشتق من السلامة قوله عز وجل (الم تر كيف ضرب الله مثلا) لما شرح الله عز وجل احوال الأشقياء واحوال السعداء ضرب مثلا فيه حكم هذين القسمين فقال تعالى الم تر أى بعين قلبك فتعلم علم يقين باعلامى اياك فعلى هذا يحتمل ان يكون الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره فيه ويحتمل ان يكون الخطاب فيه لكل فرد من الناس فيكون المعنى الم تر ايها الانسان كيف ضرب الله مثلا يعنى بين شبها والمثل عبارة عن قول فى شئ يشبه قولا فى شئ آخر بينهما مشابهة ليتبين احدهما من الآخر ويتصور وقيل هو قول سائر لتشبيه شئ بشئ آخر (كلمة طيبة) هى قول لا اله الا الله فى قول ابن عباس وجمهور المفسرين (كشجرة طيبة) يعنى كشجرة طيبة الثمر قال ابن عباس هى النخلة وبه قال ابن مسعود وانس ومجاهد وعكرمة والضحاك (ق) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اخبرونى عن شجرة تشبه الرجل أو قال كالرجل المسلم لا يتحات ورقها تؤتى أكلها كل حين قال ابن عمر فوقع فى نفسى انها النخلة ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت ان أتكلم فلما لم يقولوا شيئا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هى النخلة قال فلما قمنا قلت لعمر يا ابتاه والله لقد كان وقع فى نفسى انها النخلة فقال ما منعك ان تتكلم فقلت لم اركم تتكلمون فكرهت ان اتكلم أو اقول شيئا فقال عمر لان تكون قلتها احب الى من كذا وكذا وفى رواية ان من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وانها مثل المسلم فحدثونى ماهى فوقع الناس فى شجر الوادى قال عبد الله بن عمر ووقع فى نفسى انها النخلة فاستحييت ان اتكلم ثم قالوا حدثنا ما هى يا رسول الله قال هى النخلة وفى رواية عن ابن عباس انها شجرة فى الجنة وفى رواية اخرى عنه انها المؤمن قوله (اصلها ثابت) يعنى فى الارض (وفرعها) يعنى اعلاها (فى السماء) يعنى ذاهبة فى السماء (تؤتى اكلها) يعنى ثمرها (كل حين باذن ربها) يعنى بأمر ربها والحين فى اللغة الوقت يطلق على القليل والكثير واختلفوا فى مقداره ها هنا فقال مجاهد وعكرمة الحين هنا سنة كاملة لان النخلة تثمر فى كل سنة مرة واحدة وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن ستة اشهر يعنى من وقت طلعها الى حين صرامها وروى ذلك عن ابن عباس أيضا وقال على بن أبى طالب ثمانية اشهر يعنى ان مدة حملها باطنا وظاهرا ثمانية اشهر وقيل أربعة أشهر من حين ظهور حملها الى ادراكها وقال سعيد بن المسيب شهران يعنى من وقت ان يؤكل منها الى صرامها وقال الربيع بن انس كل حين يعنى غدوة وعشية لان ثمر النخل يؤكل أبدا ليلا ونهارا وصيفا وشتاء فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والبسر والمنصف والرطب وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس الى حين الطرى الرطب فأكلها دائم فى كل وقت قال العلماء ووجه الحكمة فى تمثيل هذه الكلمة التى هى كلمة الاخلاص وأصل الايمان بالنخلة حاصل من اوجه أحدها ان كلمة الاخلاص شديدة الثبوت فى قلب المؤمن كثبوت أصل النخلة فى الارض الوجه الثانى ان هذه الكلمة ترفع عمل المؤمن الى السماء كما قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وكذلك فرع النخلة الذى هو عال فى السماء الوجه الثالث ان ثمر النخلة يأتى فى كل حين ووقت وكذلك ما يكسبه المؤمن من الاعمال الصالحة فى كل وقت وحين ببركة هذه الكلمة فالمؤمن كلما قال لا اله الا الله صعدت الى السماء وجاءته بركتها وثوابها وخيرها ومنفعتها الوجه الرابع ان النخلة شبيهة بالانسان فى غالب الامر لانها خلقت من فضلة طينة آدم وانها اذا قطع رأسها تموت كالآدمى بخلاف سائر الشجر فانه اذا قطع نبت وانها لا تحمل حتى تلقح بطلع الذكر الوجه الخامس فى وجه الحكمة فى تمثيل الايمان بالشجر على الاطلاق لان الشجرة لا تسمى شجرة الا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل ثابت وفرع قائم وكذلك الايمان لا يتم الا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالابدان وقوله سبحانه تعالى (ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون) يعنى ان فى ضرب الامثال زيادة فى الافهام وتصوير المعانى وتذكيرا ومواعظ لمن تذكر واتعظ قوله تعالى (ومثل كلمة

(ألم تر كيف ضرب الله مثلا) أى وصفه وبينه (كلمة طيبة) نصب بمضمر أى جعل كلمة طيبة (كشجرة طيبة) وهو تفسير لقوله ضرب الله مثلا نحو شرف الامير زيدا كساه حلة وحمله على فرس أو انتصب مثلا وكلمة بضرب أى ضرب كلمة طيبة مثلا يعنى جعلها مثلا ثم قال كشجرة طيبة على انها خبر مبتدا محذوف أى هى كشجرة طيبة (أصلها ثابت) أى فى الارض ضارب بعروقه فيها (وفرعها) واعلاها ورأسها (فى السماء) والكلمة الطيبة كلمة التوحيد أصلها تصديق بالجنان وفرعها اقرار باللسان وأكلها عمل الاركان وكما ان الشجرة شجرة وان لم تكن حاملا فالمؤمن مؤمن وان لم يكن عاملا ولكن الاشجار لا تراد الا للثمار وما أقوات النار الا من الاشجار اذا اعتادت الاخفار فى عهد الاثمار والشجرة كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين ونحو ذلك والجمهور على انها النخلة وعن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم ان الله تعالى ضرب مثل المؤمن شجرة فاخبرونى ماهى فوقع الناس فى شجر البوادى وكنت صبيا فوقع فى قلبى انها النخلة فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أقولها وانا أصغر القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا انها النخلة فقال عمر يا بنى لو كنت قلتها لكانت أحب الى من حمر النعم (تؤتى أكلها كل حين) تعطى ثمرها كل وقت وقته الله لاثمارها (باذن ربها) بتيسير خالقها وتكوينه (ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون) لان فى ضرب الامثال زيادة افهام وتذكير وتصوير للمعانى (ومثل كلمة

خبيثة)

خبيثة) وهو الشرك (كشجرة خبيثة) يعنى الحنظل وفى رواية عن ابن عباس انها الكشوت وعنه أيضا انها الثوم وعنه أيضا انها الكافر لانه لا يقبل عمله فليس له أصل ثابت ولا يصعد الى السماء (اجتثت) يعنى استؤصلت وقطعت (من فوق الارض ما لها من قرار) يعنى ما لهذه الشجرة من ثبات فى الارض لانها ليس لها أصل ثابت فى الارض ولا فرع صاعد الى السماء كذلك الكافر لا خير فيه ولا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح ولا لاعتقاده أصل ثابت فهذا وجه تمثيل الكافر بهذه الشجرة الخبيثة عن انس قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقناع عليه رطب فقال مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها قال هى النخلة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار قال هى الحنظلة أخرجه الترمذى مرفوعا وموقوفا وقال الموقوف أصح قوله سبحانه وتعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) لما وصف الله الكلمة الطيبة فى الآية المتقدمة أخبر فى هذه الآية انه يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت والقول الثابت هى الكلمة الطيبة وهى شهادة أن لا اله الا الله فى قول جمهور المفسرين ولما وصف الكلمة الخبيثة فى الآية المتقدمة بكلمة الشرك قال فى هذه الآية ويضل الله الظالمين يعنى بالكلمة الخبيثة وهى كلمة الشرك فى قول جميع المفسرين وقوله (فى الحياة الدنيا) يعنى فى القبر عند السؤال (وفى الآخرة) يعنى يوم القيامة عند البعث والحساب وهذا القول واضح ويدل عليه ما روى عن البراء بن عازب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان المسلم اذا سئل فى القبر يشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة قال نزلت فى عذاب القبر زاد فى رواية يقال له من ربك فيقول ربى الله ونبيى محمد صلى الله عليه وسلم أخرجه البخارى ومسلم (ق) عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان العبد اذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وانه ليسمع قرع نعالهم اذا انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد فأما المؤمن فيقول أشهد انه عبد الله ورسوله فيقال له انظر الى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدا من الجنة قال النبى صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعا قال قتادة ذكر لنا انه يفسح له فى قبره ثم رجع الى حديث أنس وأما المنافق وفى رواية وأما الكافر فيقول لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس فيه فيقال لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه الا الثقلين لفظ البخارى ولمسلم بمعناه زاد فى رواية انه يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ويملأ عليه خضرا الى يوم يبعثون وأخرجه أبو داود عن أنس قال وهذا لفظه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان المؤمن اذا وضع فى قبره أتاه ملك فيقول ما كنت تعبد فان هداه الله قال كنت أعبد الله فيقول له ما كنت تقول فى هذا الرجل فيقول هو عبد الله ورسوله فلا يسئل عن شئ بعدها فينطلق به الى بيت كان له فى النار فيقال له هذا كان مقعدك ولكن عصمك الله فأبدلك به بيتا فى الجنة فيراه فيقول دعونى حتى أذهب فأبشر أهلى فيقال له اسكن وان الكافر والمنافق اذا وضع فى قبره أتاه ملك فينتهره فيقول ما كنت تعبد فيقول لا أدرى فيقال له لا دريت ولا تليت فيقال له ما كنت تقول فى هذا الرجل فيقول كنت أقول ما يقول الناس فيه فيضربه بمطراق من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها الخلق غير الثقلين وأخرجه النسائى أيضا عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا قبر الميت أو قال اذا قبر أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لاحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان ما كنت تقول فى هذا الرجل فيقول كنت أقول هو عبد الله ورسوله أشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله فيقولان قد كنا نعلم انك تقول هذا ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ثم ينور له فيه ثم يقال له نم فيقول ارجع الى أهلى فأخبرهم فيقولان نم كنومة العروس الذى لا يوقظه الا أحب أهله اليه حتى يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك وان كان منافقا فيقول سمعت الناس يقولون

خبيثة) هى كلمة الكفر (كشجرة خبيثة) هى كل شجرة لا يطيب ثمرها وفى الحديث انها شجرة الحنظل (اجتثت من فوق الارض) استؤصلت جثتها وحقيقة الاجتثاث أخذ الجثة كلها وهو فى مقابلة أصلها ثابت (ما لها من قرار) أى استقرار يقال قر الشئ قرارا كقولك ثبت ثباتا شبه بها القول الذى لم يعضد بحجة فهو داحض غير ثابت (يثبت الله الذين آمنوا) أى يديمهم عليه (بالقول الثابت) هو قول لا اله الا الله محمد رسول الله (فى الحياة الدنيا) حتى اذا فتنوا فى دينهم لم يزلوا كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الاخدود وغيرهم (وفى الآخرة) الجمهور على ان المراد به فى القبر بتلقين الجواب وتمكين الصواب فعن البراء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح المؤمن فقال ثم تعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فى قبره فيقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربى الله ودينى الاسلام ونبيى محمد صلى الله عليه وسلم فينادى مناد من السماء ان صدق عبدى فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ثم يقول الملكان عش سعيدا ونم حميدا نم نومة العروس

قولا فقلت مثلهم لا أدرى فيقولان قد كنا نعلم انك كنت تقول ذلك فيقال للارض التئمى عليه فتلتئم عليه فتختلف اضلاعه فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك أخرجه الترمذى عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الانصار فانتهت الى القبر ولما يلحد بعد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأنما على رؤسنا الطير وبيده عود ينكت به فى الارض فرفع رأسه صلى الله عليه وسلم فقال تعوذوا بالله من عذاب القبر مرتين او ثلاثا زاد فى رواية وقال ان الميت ليسمع خفق نعالهم اذا ولوا مدبرين حين يقال له يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك وفى رواية يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول ربى الله فيقولان له وما دينك فيقول دينى الاسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هو رسول الله فيقولان وما يدريك فيقول قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقت زاد فى رواية فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ثم لقفناه قال فينادى مناد من السماء ان صدق عبدى فافرشوا له من الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره وان كان الكافر فذكر موته قال فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان ما دينك فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدرى فينادى مناد من السماء ان قد كذب عبدى فافرشوا له من النار وألبسوه من النار وافتحوا له بابا الى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه اضلاعه زاد فى رواية ثم يقيض له أعمى أبكم أصم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبلا لصار ترابا فيضربه بها ضربة يسمعها من بين المشرق والمغرب الا الثقلين فيصير ترابا ثم تعاد فيه الروح أخرجه ابو داود عن عثمان بن عفان قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال استغفروا لاخيكم واسألوا له التثبيت فانه الآن يسئل أخرجه ابو داود وعن عبد الرحمن بن شماسة المهرى قال حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياق الموت فبكى بكاء طويلا وحول وجهه الى الجدار وجعل ابنه يقول ما يبكيك يا أبتاه أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا وكذا فأقبل بوجهه وقال ان افضل ما تعد شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وذكر الحديث بطوله وفيه فاذا انا مت فلا تصحبنى نائحة ولا نار فاذا دفنتمونى فشنوا على التراب شنا ثم اقيموا حول قبرى قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى استأنس بكم وانظر ماذا اراجع به رسل ربى أخرجه مسلم بزيادة طويلة فيه قيل المراد من التثبيت بالقول الثابت هو ان الله تعالى انما يثبتهم فى القبر بسبب كثرة مواظبتهم على الشهادة والحق فى الحياة الدنيا وحبهم لها فمن كانت مواظبته على شهادة الاخلاص أكثر كان رسوخها فى قلبه اعظم فينبغى للعبد المسلم ان يكثر من قول لا اله الا الله محمد رسول الله فى جميع حالاته من قيامه وقعوده ونومه ويقظته وجميع حركاته وسكناته فلعل الله عز وجل ان يرزقه ببركة مواظبته على شهادة الاخلاص التثبيت فى القبر ويسهل عليه جواب الملكين بما فيه خلاصه من عذاب الآخرة نسأل الله التثبيت فى القبر وحسن الجواب وتسهيله بفضله ومنه وكرمه واحسانه انه على كل شئ قدير وقوله تعالى (ويضل الله الظالمين) يعنى ان الله تعالى لا يهدى المشركين الى الجواب الصواب فى القبر (ويفعل الله ما يشاء) يعنى من التوفيق والخذلان والهداية والاضلال والتثبيت وتركه لا اعتراض عليه فى جميع أفعاله لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون قوله عز وجل (ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا) (خ) عن ابن عباس فى قوله ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا قال هم كفار مكة وفى رواية قال هم والله كفار قريش قال عمرو هم قريش ونعمة الله هو محمد صلى الله عليه وسلم وأحلوا قومهم دار البوار قال النار يوم بدر وعن على رضى الله عنه قال هم كفار قريش نحروا يوم بدر وقال عمر بن الخطاب الافجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية أما بنو المغيرة فقد كفيتموهم يوم بدر وأما بنو أمية

(ويضل الله الظالمين) فلا يثبتهم على القول الثابت فى مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شئ وهم فى الآخرة أضل وأزل (ويفعل الله ما يشاء) فلا اعتراض عليه فى تثبيت المؤمنين واضلال الظالمين (ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله) أى شكر نعمة الله (كفرا) لان شكرها الذى وجب عليهم وضعوا مكانه كفرا فكأنهم غيروا الشكر الى الكفر وبدلوه تبديلا وهم أهل مكة أكرمهم بمحمد عليه السلام فكفروا نعمة الله بدل ما ألزمهم من الشكر

فقد

فقد متعوا الى حين فقوله بدلوا نعمة الله كفرا معناه ان الله تعالى لما أنعم على قريش محمد صلى الله عليه وسلم فارسله اليهم وأنزل عليه كتابه ليخرجهم من ظلمات الكفر الى نور الايمان اختاروا الكفر على الايمان وغيروا نعمة الله عليهم وقيل يجوز ان يكون بدلوا شكر نعمة الله عليهم كفرا لانهم لما وجب عليهم الشكر بسبب هذه النعمة أتوا بالكفر فكأنهم غيروا الشكر وبدلوه بالكفر (واحلوا قومهم) يعنى من تبعهم على دينهم وكفرهم (دار البوار) يعنى دار الهلاك ثم فسرها بقوله تعالى (جهنم يصلونها وبئس القرار) يعنى المستقر (وجعلوا لله اندادا) يعنى أمثالا وأشباها من الاصنام وليس لله تعالى ند ولا شبيه ولا مثيل تعالى الله عن الند والشبيه والمثيل علوا كبيرا (ليضلوا عن سبيله) يعنى ليضلوا الناس عن طريق الهدى ودين الحق (قل تمتعوا) أى قل يا محمد لهؤلاء الكفار تمتعوا فى الدنيا أياما قلائل (فان مصيركم الى النار) يعنى فى الآخرة قوله تعالى (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة) يعنى يقيموا الصلاة الواجبة واقامتها اتمام أركانها (وينفقوا مما رزقناهم) قيل أراد بهذا الانفاق اخراج الزكاة الواجبة وقيل أراد به جميع الانفاق فى جميع وجوه الخير والبر وحمله على العموم أولى ليدخل فيه اخراج الزكاة والانفاق فى جميع وجوه البر (سرا وعلانية) يعنى ينفقون اموالهم فى حال السر وحال العلانية وقيل اراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية اخراج الزكاة الواجبة (من قبل ان يأتى يوم لا بيع فيه) قال أبو عبيدة البيع هنا الفداء يعنى لا فداء فى ذلك اليوم (ولا خلال) يعنى ولا خلة وهى المودة والصداقة التى تكون مخاللة بين اثنين وقال مقاتل انما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخاللة ولا قرابة انما هى الاعمال اما ان يثاب بها أو يعاقب عليها فان قلت كيف نفى الخلة فى هذه الآية وفى الآية التى فى سورة البقرة واثبتها فى قوله الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين قلت الآية الدالة على نفى الخلة محمولة على نفى الخلة الحاصلة بسبب ميل الطبيعة ورعونة النفس والآية الدالة على حصول الخلة وثبوتها محمولة على الخلة الحاصلة بسبب محبة الله ألا تراه أثبتها للمتقين فقط ونفاها عن غيرهم وقيل ان ليوم القيامة أحوالا مختلفة ففى بعضها يشتغل كل خليل عن خليله وفى بعضها يتعاطف الاخلاء بعضهم على بعض اذا كانت تلك المخالة لله فى محبته قوله عز وجل (الله الذى خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) اعلم انه تقدم تفسير هذه الآية فى مواضع كثيرة ونذكر ههنا بعض فوائد هذه الآية الدالة على وجود الصانع المختار القادر الذى لا يعجزه شئ أراده فقوله تعالى الله الذى خلق السموات والارض انما بدأ بذكر خلق السموات والارض لانهما أعظم المخلوقات الشاهدة الدالة على وجود الصانع الخالق القادر المختار وأنزل من السماء ماء سمى السحاب سماء لارتفاعه مشتق من السمو وهو الارتفاع وقيل ان المطر ينزل من السماء الى السحاب ومن السحاب الى الارض فأخرج به أى بذلك الماء من الثمرات رزقا لكم والثمر اسم يقع على ما يحصل من الشجر وقد يقع على الزرع أيضا بدليل قوله كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده وقوله من الثمرات بيان للرزق أى اخرج به رزقا هو الثمر (وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره) لما ذكر الله انعامه بانزال المطر واخراج الثمر لاجل الرزق والانتفاع به ذكر نعمته على عباده بتسخير السفن الجارية على الماء لاجل الانتفاع بها فى جلب ذلك الرزق الذى هو الثمرات وغيرها من بلد الى بلد آخر فهى من تمام نعمة الله على عباده (وسخر لكم الانهار) يعنى ذللها لكم تجرونها حيث شئتم ولما كان ماء البحر لا ينتفع به فى سقى الزروع والثمرات ولا فى الشراب أيضا ذكر نعمته على عباده فى تسخير الانهار وتفجير العيون لاجل هذه الحاجة فهو من أعظم نعم الله على عباده (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) الدأب العادة المستمرة دائما على حالة واحدة ودأب فى السير داوم عليه والمعنى ان الله سخر الشمس والقمر يجريان دائما فيما يعود الى مصالح العباد لا يفتران الى آخر الدهر وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها قال ابن عباس دؤبهما فى طاعة الله عز وجل وقال بعضهم معناه يدأبان فى طاعة الله اى فى سيرهما وتأثيرهما فى ازالة الظلمة واصلاح النبات والحيوان لان الشمس

(وأحلوا قومهم) الذين تابعوهم على الكفر (دار البوار) دار الهلاك جهنم عطف بيان (جهنم يصلونها) يدخلونها (وبئس القرار) وبئس المقر جهنم (وجعلوا لله اندادا) أمثالا فى العبادة أو فى التسمية (ليضلوا عن سبيله) وبفتح الياء مكى وابو عمرو (قل تمتعوا) فى الدنيا والمراد به الخذلان والتخلية وقال ذو النون التمتع ان يقضى العبد ما استطاع من شهوته (فان مصيركم الى النار) مرجعكم اليها (قل لعبادى الذين آمنوا) خصهم بالاضافة اليه تشريفا واسكون الياء شامى وحمزة وعلى والاعشى (يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم) المقول محذوف لان قل تقتضى مقولا وهو أقيموا وتقديره قل لهم أقيموا الصلاة وانفقوا يقيموا الصلاة وينفقوا وقيل انه أمر وهو المقول والتقدير ليقيموا ولينفقوا فحذف اللام لدلالة قل عليه ولو قيل يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام لم يجز (سرا وعلانية) انتصبا على الحال أى ذوى سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين أو على الظرف أى وقتى سر وعلانية أو على المصدر أى انفاق سر وانفاق علانية والمعنى اخفاء التطوع واعلان الواجب (من قبل ان يأتى يوم لا بيع فيه) أى لا انتفاع فيه بمبايعة (ولا خلال) ولا مخالة والخلال المخالة وانما ينتفع فيه بالانفاق لوجه الله بفتحهما مكى وبصرى والباقون بالرفع والتنوين (الله) مبتدأ (الذى خلق السموات والارض) خبره (وأنزل من السماء ماء) من السحاب مطرا (فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) من الثمرات بيان للرزق أى أخرج به رزقا هو ثمرات أو من الثمرات مفعول أخرج ورزقا حال من المفعول (وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) دائمين وهو حال من الشمس والقمر أى يدأبان فى سيرهما وانارتهما ودرئهما الظلمات واصلاحهما ما يصلحان من الارض والابدان والنبات

سلطان النهار وبها تعرف فصول السنة والقمر سلطان الليل وبه يعرف انقضاء الشهور وكل ذلك بتسخير الله عز وجل وانعامه على عباده وتسخيره لهم (وسخر لكم الليل والنهار) يعني يتعاقبان في الضياء والظلمة والنقصان والزيادة وذلك من انعام الله على عباده وتسخيره لهم (وآتاكم من كل ما سألتموه) لما ذكر الله سبحانه وتعالى النعم العظام التي أنعم الله بها على عباده وسخرها لهم بين بعد ذلك انه تعالى لم يقتصر على تلك النعم بل أعطى عباده من المنافع والمرادات ما لا يأتي على بعضها العد والحصر والمعنى وآتاكم من كل ما سألتموه شيئا فحذف شيئا اكتفاء بدلالة الكلام على التبعيض وقيل هو على التكثير يعني وآتاكم من كل شيء سألتموه وما لم تسألوه لان نعمه علينا اكثر من ان تحصى (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يعني ان نعم الله كثيرة على عباده فلا يقدر أحد على حصرها ولا عدها لكثرتها (ان الانسان) قال ابن عباس يريد أبا جهل وقال الزجاج هو اسم جنس ولكن يقصد به الكافر (لظلوم كفار) يعني ظلوم لنفسه كفار بنعمة ربه وقيل الظلوم الشاكر لغير من أنعم عليه فيضع الشكر في غير موضعه كفار جحود لنعم الله عليه وقيل يظلم النعمة باغفال شكرها كفار شديد الكفران لها وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع قوله سبحانه وتعالى (واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) يعني ذا أمن يؤمن فيه وأراد بالبلد مكة فان قلت أي فرق بين قوله اجعل هذا بلدا آمنا وبين قوله اجعل هذا البلد آمنا قلت الفرق بينهما انه سأل في الاول ان يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها فيها ولا يخافون وسأل في الثاني ان يخرج هذا البلد من صفة كان عليها من الخوف الى ضدها من الأمن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا (واجنبني وبني أن نعبد الاصنام) يعني ابعدني وبني ان نعبد الاصنام فان قلت قد توجه على هذه الآية اشكالات وهي من وجوه الاول ان ابراهيم دعا ربه ان يجعل مكة آمنة ثم ان جماعة من الجبابرة وغيرهم قد اغاروا عليها واخافوا اهلها الوجه الثاني ان الانبياء عليهم وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام معصومون من عبادة الاصنام واذا كان كذلك فما الفائدة في قوله اجنبني عن عبادتها الوجه الثالث ان ابراهيم عليه السلام سأل ربه ايضا ان يجنب بنيه عن عبادة الاصنام وقد وجد كثير من بنيه عبدوا الاصنام مثل كفار قريش وغيرهم ممن ينسب الى ابراهيم عليه السلام قلت الجواب عن الوجوه المذكورة من وجوه فالجواب عن الوجه الاول من وجهين احدهما ان ابراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء والمراد منه جعل مكة آمنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله ولم يقدر احد على خراب مكة وأورد على هذا ما ورد في الصحيح عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة اخرجاه في الصحيحين واجيب عنه بأن قوله اجعل هذا البلد آمنا يعني الى قرب القيامة وخراب الدنيا وقيل هو عام مخصوص بقصة ذي السويقتين فلا تعارض بين النصين الوجه الثاني ان يكون المراد اجعل اهل هذا البلد آمنين وهذا الوجه عليه اكثر العلماء من المفسرين وغيرهم وعلى هذا فقد اختص اهل مكة بزيادة الأمن في بلدهم كما اخبر الله سبحانه وتعالى بقوله ويتخطف الناس من حولهم واهل مكة آمنون من ذلك حتى ان من التجأ الى مكة أمن على نفسه وماله من ذلك وحتى ان الوحوش اذا كانت خارجة من الحرم استوحشت فاذا دخلت الحرم امنت واستأنست لعلمها انه لا يهيجها احد في الحرم وهذا القدر من الامن حاصل بحمد الله بمكة وحرمها واما الجواب عن الوجه الثاني فمن وجوه أيضا الوجه الاول ان دعاء ابراهيم عليه السلام لنفسه لزيادة العصمة والتثبيت فهو كقوله واجعلنا مسلمين لك الوجه الثاني ان ابراهيم عليه السلام وان كان يعلم ان الله سبحانه وتعالى يعصمه من عبادة الاصنام الا انه دعا بهذا الدعاء هضما للنفس واظهارا للعجز والحاجة والفاقة الى فضل الله تعالى ورحمته وان أحدا لا يقدر على منع نفسه بشيء لم ينفعه الله به فلهذا السبب دعا لنفسه بهذا الدعاء وأما دعاؤه لبنيه وهو الوجه الثالث من الاشكالات فالجواب عنه من وجوه الاول ان ابراهيم دعا لبنيه من صلبه

ولم

(ويسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان خلفة لمنافعكم وسيآتكم (وآتاكم من كل ما سألتموه) من للتبعيض أي آتاكم بعض جميع ما سألتموه أو وآتاكم من كل شيء سألتموه وما لم تسألوه فما موصولة والجملة صفة لها وحذفت الجملة الثانية لان الباقي يدل على المحذوف كقوله سرابيل تقيكم الحر من كل عن أبي عمرو وما سألتموه نفي ومحله النصب على الحال أي آتاكم من جميع ذلك غير سائليه او ما موصولة أي وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم اليه فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) لا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها هذا اذا أرادوا أن يعدوها على الاجمال واما التفصيل فلا يعلمه الا الله (ان الانسان لظلوم) يظلم النعمة باغفال شكرها (كفار) شديد الكفران لها أو ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع والانسان للجنس فيتناول الاخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه (واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد) أي البلد الحرام (آمنا) ذا امن والفرق بين هذه وبين ما في البقرة انه قد سأل فيها ان يجعله من جملة البلدان التي يأمن أهلها وفي الثاني ان يخرجه من صفة الخوف الى الامن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا (واجنبني) وبعدني أي ثبتني وأدمني على اجتناب عبادتها كما قال واجعلنا مسلمين لك أي ثبتنا على الاسلام (وبني) أراد بنيه من صلبه (ان نعبد الاصنام) من

ولم يعبد أحد منهم صنما فقط الوجه الثاني انه أراد أولاده وأولاد أولاده الموجودين حالة الدعاء ولا شك ان ابراهيم عليه السلام قد أجيب فيهم الوجه الثالث قال الواحدي دعا لمن أذن الله ان يدعو له فكأنه قال وبني الذين أذنت لي في الدعاء لهم لان دعاء الانبياء مستجاب وقد كان من بنيه من عبد الصنم فعلى هذا الوجه يكون هذا الدعاء من العام المخصوص الوجه الرابع ان هذا مختص بالمؤمنين من أولاده والدليل عليه انه قال في آخر الآية فمن تبعني فانه مني وذلك يفيد ان من لم يتبعه على دينه فليس منه والله أعلم بمراده وأسرار كتابه وقوله سبحانه وتعالى (رب انهن) يعني الاصنام (أضللن كثيرا من الناس) وهذا مجاز لان الاصنام جمادات وحجارة لا تعقل شيئا حتى تضل من عبدها الا انه لما حصل الاضلال بعبادتها أضيف اليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم وانما فتنوا بها واغتروا بسببها (فمن تبعني فانه مني) يعني فمن تبعني على ديني واعتقادي فانه مني يعني المتدينين بديني المتمسكين بحبلي كما قال الشاعر

اذا حاولت في أسد فجورا * فاني لست منك ولست مني

أراد ولست من المتمسكين بحبلي وقيل معناه فانه مني كحكمي جار مجراي في القرب والاختصاص (ومن عصاني) يعني في غير الدين (فانك غفور رحيم) قال السدي ومن عصاني ثم تاب فانك غفور رحيم وقال مقاتل ومن عصاني فيما دون الشرك فانك غفور رحيم وشرح أبو بكر بن الانباري هذا فقال ومن عصاني فخالفني في بعض الشرائع وعقائد التوحيد فانك غفور رحيم ان شئت ان تغفر له غفرت اذا كان مسلما وذكر وجهين آخرين أحدهما ان هذا كان قبل ان يعلمه الله انه لا يغفر الشرك كما استغفر لابويه وهو يقول ان ذلك غير محظور فلما عرف انهما غير مغفور لهما تبرأ منهما والوجه الآخر ومن عصاني باقامته على الكفر فانك غفور رحيم يعني انك قادر على ان تغفر له وترحمه بأن تنقله من الكفر الى الايمان والاسلام وتهديه الى الصواب قوله عز وجل اخبارا عن ابراهيم (ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم) (خ) عن ابن عباس قال أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم اسماعيل اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسماعيل فقالت يا ابراهيم الى أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شئ فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت اليها فقالت له آلله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم فدعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال رب اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع حتى بلغ يشكرون وجعلت أم اسماعيل ترضع اسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية ان تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الارض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى احدا فلم تر أحدا فهبطت منه حتى اذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الانسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك سعي الناس بينهما فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت صوتا أيضا فقالت يا من قد أسمعت ان كان عندك غواث فاذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف وفي رواية بقدر ما تغرف قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافي الضيعة فان ههنا بيت الله تعالى يبنيه هذا الغلام وأبوه وان الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعا من الارض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم

(رب انهن أضللن كثيرا من الناس) جعلن مضلات على طريق التسبيب لان الناس ضلوا بسببهن فكأنهن أضللنهم (فمن تبعني) على ملتي وكان حنيفا مسلما مثلي (فانه مني) أي هو بعضي لفرط اختصاصه بي (ومن عصاني) فيما دون الشرك (فانك غفور رحيم) أو ومن عصاني عصيان شرك فانك غفور رحيم ان تاب وآمن (ربنا اني أسكنت من ذريتي) بعض أولادي وهم اسماعيل ومن ولد منه (بواد) هو وادي مكة (غير ذي زرع) لا يكون فيه شئ من زرع قط (عند بيتك المحرم) هو بيت الله سمي به لان الله تعالى حرم التعرض له والتهاون به وجعل ما حوله حرما لمكانه أو لانه لم يزل ممنعا يهابه كل جبار أو لانه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكها أو لانه حرم على الطوفان أي منع منه كما سمي عتيقا لانه أعتق منه

أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كذا فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا ان هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فاذا هم بالماء فرجعوا فاخبروهم فاقبلوا وأم اسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا ان ننزل عندك قالت نعم ولكن لا حق لكم في الماء قالوا نعم قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فالفى ذلك أم اسماعيل وهي تحب الانس فنزلوا وارسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كانوا بها أهل ابيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وآنسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه بامرأة منهم وماتت أم اسماعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع تركته أخرجه البخاري باطول من هذا وقد تقدم الحديث بطوله في تفسير سورة البقرة واما تفسير الآية فقوله ربنا اني أسكنت من ذريتي من للتبعيض أي بعض ذريتي وهو اسماعيل عليه السلام بواد غير ذي زرع يعني ليس فيه زرع لانه واد بين جبلين جبل أبي قبيس وجبل اجياد وهو وادي مكة عند بيتك المحرم سماه محرما لانه يحترم عنده ما لا يحترم عند غيره وقيل لان الله حرمه على الجبابرة فلم ينالوه بسوء وحرم التعرض له والتهاون به وبحرمته وجعل ما حوله محرما لمكانه وشرفه وقيل لانه حرم على الطوفان بمعنى امتنع منه وقيل سمي محرما لان الزائرين له يحرمون على أنفسهم أشياء كانت مباحة لهم من قبل وسمي عتيقا أيضا لانه عتق من الجبابرة أو من الطوفان فان قلت كيف قال عند بيتك المحرم ولم يكن هناك بيت حينئذ وانما بناه ابراهيم بعد ذلك قلت يحتمل ان الله عز وجل أوحى اليه وأعلمه ان له هناك بيتا قد كان في سالف الزمان وانه سيعمر فلذلك قال عند بيتك المحرم وقيل يحتمل ان يكون المعنى عند بيتك الذي كان ثم رفع عند الطوفان وقيل يحتمل ان يكون المعنى عند بيتك الذي جرى في سابق علمك انه سيحدث في هذا المكان (ربنا ليقيموا الصلاة) اللام في ليقيموا متعلقة باسكنت يعني أسكنت قوما من ذريتي وهم اسماعيل وأولاده بهذا الوادي الذي لا زرع فيه ليقيموا اي لاجل ان يقيموا ولكي يقيموا الصلاة (فاجعل افئدة من الناس) قال البغوي جمع الوفد (تهوي اليهم) اي تحن وتشتاق اليهم قال السدي رحمه الله أمل قلوبهم الى هذا الموضع وقال ابن الجوزي افئدة من الناس اي قلوب جماعة من الناس فلهذا جعله جمع فؤاد قال ابن الانباري وانما عبر عن القلوب بالافئدة لقرب القلب من الفؤاد فجعل القلب والفؤاد جارحتين وقال الجوهري الفؤاد القلب والجمع افئدة فجعلهما جارحة واحدة ولفظة من في قوله من الناس للتبعيض قال مجاهد لو قال افئدة الناس لزاحمتكم فارس والروم والترك والهند وقال سعيد بن جبير لحجت اليهود والنصارى والمجوس ولكنه قال أفئدة من الناس فهم المسلمون تهوي اليهم قال الاصمعي يقال هوى يهوي هويا اذا سقط من علو الى سفل وقال الفراء تهوي اليهم تريدهم كما تقول رايت فلانا يهوي نحوك معناه يريدك وقال ايضا تهوي تسرع اليهم وقال ابن الانباري معناه تنحط اليهم وتنحدر وتنزل هذا قول اهل اللغة في هذا الحرف واما أقوال المفسرين فقال ابن عباس يريد تحن اليهم لزيارة بيتك وقال قتادة تسرع اليهم وفي هذا بيان ان حنين الناس اليهم انما هو لطلب حج البيت لا لاعيانهم وفيه دعاء للمؤمنين بأن يرزقهم حج البيت ودعاء لسكان مكة من ذريته بانهم ينتفعون بمن يأتي اليهم من الناس لزيارة البيت فقد جمع ابراهيم عليه السلام في هذا الدعاء من امر الدين والدنيا ما ظهر بيانه وعمت بركته (وارزقهم من الثمرات) يعني كما رزقت سكان القرى ذوات الماء والزروع فيكون المراد عمارة قرى بقرب مكة لتحصل تلك الثمار وقيل يحتمل ان يكون المراد جلب الثمرات الى مكة بطريق النقل والتجارة فهو كقوله تعالى يجبى اليه ثمرات كل شيء وقوله تعالى (لعلهم يشكرون) يعني لعلهم يشكرون هذه النعم التي انعمت بها عليهم وقيل معناه لعلهم يوحدونك ويعظمونك وفيه دليل على ان تحصيل منافع الدنيا انما هو ليستعان بها على اداء العبادات واقامة الطاعات (ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن) يعني انك تعلم السر كما تعلم العلن علما لا تفاوت فيه والمعنى انك تعلم أحوالنا

وما

(ربنا ليقيموا الصلاة) اللام متعلقة باسكنت أي ما اسكنتهم بهذا الوادي البلقع الا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ويعمروه بذكرك وعبادتك (فاجعل افئدة من الناس) افئدة من افئدة الناس ومن للتبعيض لما روي عن مجاهد لو قال افئدة الناس لزاحمتكم عليه فارس والروم والترك والهند أو للابتداء كقولك القلب مني سقيم تريد قلبي فكأنه قيل افئدة ناس ونكرت المضاف اليه في هذا التمثيل لتنكير افئدة لانها في الآية نكرة ليتناول بعض الافئدة (تهوي اليهم) تسرع اليهم وتطير نحوهم شوقا (وارزقهم من الثمرات) مع سكناهم واديا ما فيه شيء منها بان تجلب اليهم من البلاد الشاسعة (لعلهم يشكرون) النعمة في ان يرزقوا انواع الثمرات في واد ليس فيه شجر ولا ماء (ربنا) النداء المكرر دليل التضرع واللجأ الى الله (انك تعلم ما نخفي وما نعلن) تعلم السر كما تعلم العلن

وما يصلحنا وما يفسدنا وأنت أرحم بنا منا فلا حاجة بنا الى الدعاء والطلب انما ندعوك اظهارا للعبودية لك وتخشعا لعظمتك وتذللا لعزتك وافتقارا الى ما عندك وقيل معناه تعلم ما نخفي من الوجد بفرقة اسماعيل وأمه حيث أسكنتهما بواد غير ذي زرع وما نعلن يعني من البكاء وقيل ما نخفي يعني من الحزن المتمكن في القلب وما نعلن يعني ما جرى بينه وبين هاجر عند الوداع حين قالت لابراهيم عليه السلام الى من تكلنا قال الى الله قالت اذا لا يضيعنا (وما يخفى على الله من شئ في الارض ولا في السماء) قيل هذا من تتمة قول ابراهيم يعني وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شئ في كل مكان وقال الاكثرون انه من قول الله تعالى تصديقا لابراهيم فيما قال فهو كقوله وكذلك يفعلون (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحاق) قال ابن عباس ولد اسماعيل لابراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحاق وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة وقال سعيد بن جبير بشر ابراهيم باسحاق وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة ومعنى قوله على الكبر مع الكبر لان هبة الولد في هذا السن من أعظم المنن لانه سن اليأس من الولد فلهذا شكر الله على هذه المنة فقال الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحاق فان قلت كيف جمع بين اسماعيل واسحاق في الدعاء في وقت واحد وانما بشر باسحاق بعد اسماعيل بزمان طويل قلت يحتمل ان ابراهيم عليه السلام انما أتى بهذا الدعاء عندما بشر باسحاق وذلك انه لما عظمت المنة على قلبه بهبة ولدين عظيمين عند كبره قال عند ذلك الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحاق ولا يرد على هذا ما ورد في الحديث انه دعا بما تقدم عند مفارقة اسماعيل وأمه لان الذي صح في الحديث انه دعا بقوله ربنا اني أسكنت من ذريتي الى قوله لعلهم يشكرون واذا ثبت هذا فيكون قوله الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحاق في وقت آخر والله أعلم بحقيقة الحال (ان ربي لسميع الدعاء) كان ابراهيم عليه السلام قد دعا ربه وسأله الولد بقوله رب هب لي من الصالحين فلما استجاب الله دعاءه ووهبه ما سأل شكر الله على ما أكرمه به من اجابة دعائه فعند ذلك قال الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحاق ان ربي لسميع الدعاء وهو من قولك سمع الملك كلام فلان اذا اعتد به وقبله (رب اجعلني مقيم الصلاة) يعني ممن يقيم الصلاة بأركانها ويحافظ عليها في أوقاتها (ومن ذريتي) أي واجعل من ذريتي من يقيم الصلاة وانما أدخل لفظة من التي هي للتبعيض في قوله ومن ذريتي لانه علم باعلام الله اياه انه قد يوجد من ذريته جمع من الكفار لا يقيمون الصلاة فلهذا قال ومن ذريتي وأراد بهم المؤمنين من ذريته (ربنا وتقبل دعاء) سأل ابراهيم عليه السلام ربه ان يتقبل دعاءه فاستجاب الله لابراهيم وقبل دعاءه بفضله ومنه وكرمه (ربنا اغفر لي) فان قلت طلب المغفرة من الله انما يكون لسابق ذنب قد سلف حتى يطلب المغفرة من ذلك الذنب وقد ثبتت عصمة الانبياء عليهم الصلاة والسلام من الذنوب فما وجه طلب المغفرة له قلت المقصود منه الالتجاء الى الله سبحانه وتعالى وقطع الطمع من كل شئ الا من فضله وكرمه والاعتراف بالعبودية لله تعالى والاتكال على رحمته (ولوالدي) فان قلت كيف استغفر ابراهيم لابويه وكانا كافرين قلت أراد أنهما ان أسلما وتابا وقيل انما قال ذلك قبل ان يتبين له أنهما من أصحاب الجحيم وقيل ان امه أسلمت فدعا لها وقيل أراد بوالديه آدم وحواء (وللمؤمنين) يعني واغفر للمؤمنين كلهم (يوم يقوم الحساب) يعني يوم يبدو ويظهر الحساب وقيل أراد يوم يقوم الناس للحساب فاكتفى بذكر الحساب لكونه مفهوما عند السامع وهذا دعاء للمؤمنين بالمغفرة والله سبحانه وتعالى لا يرد دعاء خليله ابراهيم عليه السلام ففيه بشارة عظيمة لجميع المؤمنين بالمغفرة قوله سبحانه وتعالى (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) الغفلة معنى يمنع الانسان من الوقوف على حقائق الامور وقيل حقيقة الغفلة سهو يعتري الانسان من قلة التحفظ والتيقظ وهذا في حق الله محال فلا بد من تأويل الآية والمقصود منها أنه سبحانه وتعالى ينتقم من الظالم للمظلوم ففيه وعيد وتهديد للظالم واعلام له بان لا يعامله معاملة الغافل عنه بل ينتقم ولا يترك مغفلا قال سفيان بن عيينة فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم فان قلت تعالى الله عن السهو والغفلة فكيف يحسبه رسول الله صلى الله عليه وسلم غافلا وهو أعلم الناس به انه

كأنه قيل وما يخفى على الله شئ ما (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر) على بمعنى مع وهو في موضع الحال أي وهب لي وأنا كبير (اسماعيل واسحاق) روي ان اسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحاق وهو ابن مائة وثنتي عشرة سنة وروي انه ولد له اسماعيل لاربع وستين واسحاق لتسعين وانما ذكر حال الكبر لان المنة بهبة الولد فيها أعظم لانها حال وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم ولان الولادة في تلك السن العالية كانت آية لابراهيم (ان ربي لسميع الدعاء) مجيب الدعاء من قولك سمع الملك كلام فلان اذا تلقاه بالاجابة والقبول ومنه سمع الله لمن حمده وكان قد دعا ربه وسأله الولد فقال رب هب لي من الصالحين فشكر لله ما أكرمه به من اجابته واضافة السميع الى الدعاء من اضافة الصفة الى مفعولها وأصله لسميع الدعاء وقد ذكر سيبويه فعيلا في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل كقولك هذا رحيم أباه (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي) وبعض ذريتي عطفا على المنصوب في اجعلني وانما بعض لانه علم باعلام الله انه يكون في ذريته كفار عن ابن عباس رضي الله عنهما لا يزال من ولد ابراهيم ناس على الفطرة الى ان تقوم الساعة (ربنا وتقبل دعاء) بالياء في الوصل والوقف مكي وافقه أبو عمرو وحمزة في الوصل الباقون بلا ياء أي استجب دعائي أو عبادتي واعتزلكم وما تدعون من دون الله (ربنا اغفر لي ولوالدي) أي آدم وحواء أو قاله قبل النهي واليأس عن ايمان أبويه (وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) أي يثبت أو اسند الى الحساب قيام أهله اسنادا مجازيا مثل واسأل القرية (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) تسلية للمظلوم وتهديد للظالم والخطاب لغير الرسول عليه السلام وان كان للرسول فالمراد تثبيته عليه السلام على ما كان عليه من انه لا يحسب الله غافلا كقوله ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله الها آخر وكما جاء في الامر يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله وقيل المراد به الايذان بانه عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه منه شئ وانه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله والله بما تعملون عليم

(انما يؤخرهم) أى عقوبتهم (ليوم تشخص فيه الابصار) أى ابصارهم لا تقر فى اماكنها من هول ماترى (مهطعين) مسرعين الى الداعى (مقنعى رؤسهم) رافعيها (لا يرتد اليهم طرفهم) لا يرجع اليهم نظرهم فينظر واالى انفسهم (وافئدتهم هواء) صفر من الخير لا تعى شيئا من الخوف والهواء الخلاء الذى لم تشغله الاجرام فوصف به فقيل قلب فلان هواء إذا كان جبانا لا قوة فى قلبه ولا جراءة وقيل جوف لا عقول لهم (وانذر الناس يوم يأتيهم العذاب) أى يوم القيامة ويوم مفعول ثان لانذر لا ظرف اذ الانذار لا يكون فى ذلك اليوم (فيقول الذين ظلموا) أى الكفار (ربنا اخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) أى ردنا الى الدنيا وامهلنا الى أمد وحد من الزمان قريب نتدارك مافرطنا فيه من اجابة دعوتك واتباع رسلك فيقال لهم (أولم تكونوا اقسمتم من قبل مالكم من زوال) أى حلفتم فى الدنيا انكم اذا متم لا تزالون عن تلك الحالة ولا تنتقلون الى دار أخرى يعنى كفرتم بالبعث كقوله واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت ومالكم جواب القسم وانما جاء بلفظ الخطاب كقوله اقسمتم ولو حكى لفظ المقسمين لقيل مالنا من زوال أو اريد باليوم يوم هلاكهم بالعذاب العاجل أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى فانهم يسألون يومئذ ان يؤخرهم ربهم الى اجل قريب يقال سكن الدار وسكن فيها ومنه (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا انفسهم) بالكفر لان السكنى من السكون وهو اللبث والاصل تعديته بفى نحو قر فى الدار واقام فيها ولكنه لما نقل الى سكون خاص تصرف فيه فقيل سكن الدار كما قيل تبوأها ويجوز أن يكون سكنوا من السكون أى قروا فيها واطمأنوا طيبى النفوس سائرين سيرة من قبلهم فى الظلم والفساد لا يحدثونها بما لقى الاولون من أيام الله وكيف كان عاقبة ظلمهم فيعتبروا ويرتدعوا (وتبين لكم) بالاخبار أو المشاهدة وفاعل يبين مضمر دل عليه الكلام أى تبين لكم حالهم و(كيف) ليس بفاعل لان الاستفهام لا يعمل فيه ماقبله وانما نصب كيف بقوله (فعلنا بهم) أى اهلكناهم وانتقمنا منهم (وضربنا لكم الامثال) أى صفات مافعلوا وما فعل بهم وهى فى الغرابة كالامثال المضروبة لكل ظالم (وقد مكروا مكرهم) أى مكرهم العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم وهو مافعلوه من تأييد الكفر وبطلان الاسلام (وعند الله مكرهم) وهو مضاف الى الفاعل كالاول والمعنى ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكرهم هو اعظم منه أو الى المفعول أى وعند الله مكرهم الذى يمكرهم به وهو عذابهم الذى يأتيهم من حيث لا يشعرون يعنى

لم يكن غافلا حتى قيل له ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون قلت اذ كان المخاطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم ففيه وجهان أحدهما التثبيت على ما كان عليه من انه لا يحسب الله غافلا فهو كقوله ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله الها آخر وكقوله سبحانه وتعالى يا أيها الذين آمنوا آمنوا أى اثبتوا على ما أنتم عليه من الايمان الوجه الثانى ان المراد بالنهى عن حسبانه غافلا الاعلام بأنه سبحانه وتعالى عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه شئ وانه ينتقم منهم فهو على سبيل الوعيد والتهديد لهم والمعنى ولا تحسبنه معاملهم معاملة الغافل عنهم ولكن يعاملهم معاملة الرقيب الحفيظ عليهم المحاسب لهم على الصغير والكبير وان كان المخاطب غير النبى صلى الله عليه وسلم فلا اشكال فيه ولا سؤال لان أكثر الناس غير عارفين بصفات الله فمن جوز ان يحسبه غافلا فلجهله بصفاته (انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار) يقال شخص بصر الرجل اذا بقيت عيناه مفتوحتين لا يطرفهما وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة من هول ماترى فى ذلك اليوم (مهطعين) قال قتادة مسرعين وهذا قول أبى عبيدة فعلى هذا المعنى ان الغالب من حال من بقى بصره شاخصا من شدة الخوف أن يبقى واقفا باهتا فبين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية ان احوال أهل الموقف يوم القيامة بخلاف الحال المعتادة فأخبر سبحانه وتعالى انهم مع شخوص الابصار يكونون مهطعين يعنى مسرعين نحو الداعى وقيل المهطع الخاضع الذليل الساكت (مقنعى رؤسهم) الاقناع رفع الرأس الى فوق فأهل الموقف من صفتهم انهم رافعو رؤسهم الى السماء وهذا بخلاف المعتاد لان من يتوقع البلاء فانه يطرق ببصره الى الارض قال الحسن وجوه الناس يوم القيامة الى السماء لا ينظر أحد الى أحد وهو قوله تعالى (لا يرتد اليهم طرفهم) أى لا ترجع اليهم أبصارهم من شدة الخوف فهى شاخصة لا ترتد اليهم قد شغلهم مابين أيديهم (وأفئدتهم هواء) أى خالية قال قتادة خرجت قلوبهم من صدورهم فصارت فى حناجرهم فلا تخرج من افواههم ولا تعود الى أماكنها ومعنى الآية ان افئدتهم خالية فارغة لا تعى شيئا ولا تعقل من شدة الخوف وقال سعيد بن جبير وافئدتهم هواء أى مترددة تهوى فى أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه ومعنى الآية ان القلوب يومئذ زائلة عن اماكنها والابصار شاخصة والرؤس مرفوعة الى السماء من هول ذلك اليوم وشدته (وأنذر الناس) يعنى وخوف الناس يا محمد بيوم القيامة وهو قوله سبحانه وتعالى (يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا) يعنى ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصى (ربنا أخرنا الى أجل قريب) يعنى امهلنا مدة يسيرة قال بعضهم طلبوا الرجوع الى الدنيا حتى يؤمنوا فينفعهم ذلك وهو قوله تعالى (نجب دعوتك ونتبع الرسل) فأجيبوا بقوله (أولم تكونوا أقسمتم من قبل) يعنى فى دار الدنيا (مالكم من زوال) يعنى مالكم عنها انتقال ولا بعث ولا نشور (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) يعنى بالكفر والمعاصى ممن كان قبلكم من كفار الامم الخالية كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم (وتبين لكم كيف فعلنا بهم) يعنى وقد عرفتم كيف كانت عقوبتنا اياهم (وضربنا لكم الامثال) يعنى الامثال التى ضربها الله عز وجل فى القرآن ليتدبروها ويعتبروا بها فيجب على كل من شاهد أحوال الماضين من الامم الخالية والقرون الماضية وعلم ماجرى لهم وكيف اهلكوا ان يعتبر بهم ويعمل فى خلاص نفسه من العقاب والهلاك قوله سبحانه وتعالى (وقد مكروا مكرهم) اختلفوا فى الضمير الى من يعود فى قوله وقد مكروا فقيل يعود الى الذين سكنوا فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وهذا القول صحيح لان الضمير يجب عوده الى أقرب مذكور وقيل ان المراد بقوله وقد مكروا كفار قريش الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ومكرهم ماذكره الله تعالى بقوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا الآية والمعنى وأنذر الناس يا محمد يوم يأتيهم العذاب يعنى بسبب مكرهم بك وقوله تعالى (وعند الله مكرهم)

يعني جزاء مكرهم وقيل ان مكرهم مثبت عند الله ليجازيهم به يوم القيامة (وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) يعني وان كان مكرهم لأضعف من ان تزول منه الجبال وقيل معناه ان مكرهم لا يزيل امر محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو ثابت كثبوت الجبال وقد حكي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في الآية قولا آخر وهو انها نزلت في نمرود الجبار الذي حاج ابراهيم في ربه فقال نمرود ان كان ما يقوله ابراهيم حقا فلا انتهي حتى أصعد الى السماء فأعلم ما فيها فعمد الى أربعة أفراخ من النسور فرباهن حتى كبرت وشبت واتخذ تابوتا من خشب وجعل له بابا من أعلى وبابا من أسفل ثم جوع النسور ونصب خشبات أربع في أطراف التابوت وجعل على رؤس تلك الخشبات لحما أحمر وقعد هو في التابوت وأقعد معه رجلا آخر وأمر بالنسور فربطت في اطراف التابوت من أسفل فجعلت النسور كلما رأت اللحم رغبت فيه وطارت اليه فطارت النسور يوما أجمع حتى بعدت في الهواء فقال نمرود لصاحبه افتح الباب الاعلى وانظر الى السماء هل قربنا منها ففتح ونظر فقال له ان السماء كهيئتها فقال له افتح الباب الاسفل فانظر الى الارض كيف تراها ففعل فقال أرى الارض مثل اللجة والجبال مثل الدخان قال فطارت النسور يوما آخر وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال نمرود لصاحبه افتح الباب الاعلى ففعل فاذا السماء كهيئتها وفتح الباب الاسفل فاذا الارض سوداء مظلمة فنودي أيها الطاغي أين تريد قال عكرمة وكان معه في التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب وأخذ معه الترس ورمى بسهم فعاد اليه السهم ملطخا بدم سمكة قذفت بنفسها في بحر في الهواء وقيل ان طائرا أصابه السهم فلما رجع اليه السهم ملطخا بالدم قال كفيت اله السماء ثم امر نمرود صاحبه ان يصوب الخشبات الى أسفل وينكس اللحم ففعل فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال خفيق التابوت والنسور ففزعت وظنت انه قد حدث حدث من السماء وان الساعة قد قامت فكادت تزول عن اماكنها فذلك قوله تعالى وان كان مكرهم لتزول منه الجبال واستبعد بعض العلماء هذه الحكاية وقال ان الخطر فيه عظيم ولا يكاد عاقل ان يقدم على مثل هذا الامر العظيم وليس فيه خبر صحيح يعتمد عليه ولا مناسبة لهذه الحكاية بتأويل الآية البتة (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) يعني فلا تحسبن الله يا محمد مخلف ما وعد به رسله من النصر واعلاء الكلمة واظهار الدين فانه ناصر رسله وأولياءه ومهلك اعدائه وفيه تقديم وتأخير تقديره ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده (ان الله عزيز) أي غالب (ذو انتقام) يعني من اعدائه قوله عز وجل (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات) ذكر المفسرون في معنى هذا التبديل قولين أحدهما انه تبدل صفة الارض والسماء لا ذاتهما فأما تبديل الارض فبتغير صفتها وهيئتها مع بقاء ذاتها وهو أن تدك جبالها وتسوى وهادها وأوديتها وتذهب اشجارها وجميع ما عليها من عمارة وغيرها لا يبقى على وجهها شئ الا ذهب وتمد مد الاديم واما تبديل السماء فهو أن تنتثر كواكبها وتطمس شمسها وقمرها ويكوران وكونها تارة كالدهان وتارة كالمهل وبهذا القول قال جماعة من العلماء ويدل على صحة هذا القول ما روي عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس بها علم لاحد أخرجاه في الصحيحين العفراء بالعين المهملة وهي البيضاء الى حمرة ولهذا شبهها بقرصة النقي وهو الخبز الجيد البياض الفائق المائل الى حمرة كأن النار ميلت بياض وجهها الى الحمرة وقوله ليس بها علم لاحد يعني ليس فيها علامة لاحد بتبديل هيئتها وزوال جبالها وجميع بنائها فلا يبقى فيها اثر يستدل به والقول الثاني هو تبديل ذوات الارض والسماء وهذا قول جماعة من العلماء ثم اختلفوا في معنى هذا التبديل فقال ابن مسعود في معنى هذه الآية قال تبدل الارض بأرض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك بها دم ولم يعمل عليها خطيئة وقال علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه الارض من فضة والسماء من ذهب وقال ابي بن كعب في معنى التبديل بأن تصير الارض نيرانا والسماء جنانا وقال أبو هريرة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظي تبدل الارض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه

(وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) بكسر اللام الاولى ونصب الثانية والتقدير وان وقع مكرهم لزوال أمر النبي صلى الله عليه وسلم فعبر عن أمر النبي عليه السلام بالجبال لعظم شأنه وكان تامة أو ان نافية واللام مؤكدة لها كقوله وما كان الله ليعذبهم والمعنى ومحال ان تزول الجبال بمكرهم على ان الجبال مثل لآيات الله وشرائعه لانها بمنزلة الجبال الراسية ثباتا وتمكنا دليله قراءة ابن مسعود وما كان مكرهم وبفتح اللام الاولى ورفع الثانية على أي وان كان مكرهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقطع عن اماكنها فان مخففة من ان واللام مؤكدة (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) يعني قوله انا لننصر رسلنا كتب الله لأغلبن أنا ورسلي مخلف مفعول ثان لتحسبن وأضاف مخلف الى وعده وهو المفعول الثاني له والاول رسله والتقدير مخلف رسله وعده وانما قدم المفعول الثاني على الاول ليعلم انه لا يخلف الوعد أصلا كقوله ان الله لا يخلف الميعاد ثم قال رسله ليؤذن انه اذا لم يخلف وعده أحدا فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته (ان الله عزيز) غالب لا يماكر (ذو انتقام) لاوليائه من أعدائه وانتصاب (يوم تبدل الارض غير الارض والسموات) على الظرف للانتقام أو على اضمار اذكر والمعنى يوم تبدل هذه الارض التي تعرفونها أرضا اخرى غير هذه المعروفة وتبدل السموات غير السموات وانما حذف لدلالة ما قبله عليه والتبديل التغيير وقد يكون في الذوات كقولك بدلت الدراهم دنانير وفي الاوصاف كقولك بدلت الحلقة خاتما اذا اذبتها وسويتها خاتما فنقلتها من شكل الى شكل واختلف في تبديل الارض والسموات فقيل تبدل أوصافها وتسير عن الارض جبالها وتفجر بحارها وتسوى فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي تلك الارض وانما تغير وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابا وقيل تخلق بدلها أرض وسموات أخر وعن ابن مسعود رضي الله عنه يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة وعن علي رضي الله عنه تبدل أرضا من فضة وسموات من ذهب

عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون الارض يوم القيامة خبزة واحدة يوم القيامة تتكفأها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلا لاهل الجنة اخرجاه في الصحيحين بزيادة فيه قال الشيخ محيي الدين النووي في شرح هذا الحديث اما النزل فبضم النون والزاي ويجوز اسكان الزاي وهو ما يعد للضيف عند نزوله وأما الخبزة فبضم الخاء وقال اهل اللغة هي الظلمة التي توضع في الملة تتكفأها بالهمزة بيده أي يميلها من يد الى يد حتى تجتمع وتستوي لانها ليست منبسطة كالرقاقة وقد حققنا الكلام في اليد في حق الله سبحانه وتعالى وتأويلها مع القطع باستحالة الجارحة عليه ليس كمثله شئ ومعنى الحديث ان الله سبحانه وتعالى يجعل الارض كالظلمة أي الرغيف العظيم وتكون طعامانزلا لاهل الجنة والله على كل شئ قدير فان قلت اذا فسرت التبديل بما ذكرت فكيف يمكن الجمع بينه وبين قوله تعالى يومئذ تحدث اخبارها وهو أن تحدث بكل ما عمل عليها قلت وجه الجمع بين الآيتين ان الارض تبدل اولا صفتها مع بقاء ذاتها كما تقدم فيومئذ تحدث اخبارها ثم بعد ذلك تبدل تبديلا ثانيا وهو أن تبدل ذاتها بغيرها كما تقدم أيضا ويدل على صحة هذا التأويل ما روي عن عائشة قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله فقال على الصراط أخرجه مسلم وروى ثوبان ان حبرا من اليهود سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أين يكون الناس يوم تبدل الارض غير الارض قال هم في الظلمة دون الجسر ذكره البغوي بغير سند ففي هذين الحديثين دليل على ان تبديل الارض ثاني مرة يكون بعد الحساب والله اعلم بمراده واسرار كتابه وقوله (وبرزوا) يعني وخرجوا من قبورهم (لله) يعني لحكم الله والوقوف بين يديه للحساب (الواحد القهار) صفتان لله تعالى فالواحد الذي لا ثاني له ولا شريك معه المنزه عن الشبه والضد والند والقهار الغالب الذي يقهر عباده على ما يريد ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قوله تعالى (وترى المجرمين يومئذ مقرنين) يعني مشدودين بعضهم الى بعض يقال قرنت الشئ بالشئ اذا شددته معه في رباط واحد (في الاصفاد) يعني في القيود والاغلال قال ابن عباس يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة وقال ابو زيد تقرن ايديهم وأرجلهم الى رقابهم بالاصفاد وهي القيود وقال ابن قتيبة يقرن بعضهم الى بعض (سرابيلهم) يعني قمصهم واحدها سربال وقيل السربال كل ما لبس (من قطران) القطران دهن يتحلب من شجر الابهل والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الابل اذا جربت وهو الهناء يقال هنأت البعير أهنأه بالهناء وهو القطران قال الزجاج وانما جعل لهم القطران سرابيل لانه يبالغ في اشتعال النار في الجلود ولو أراد الله المبالغة في احراقهم بغير ذلك لقدر ولكنه حذرهم بما يعرفون وقرأ عكرمة ويعقوب من قطرآن على كلمتين منونتين فالقطر النحاس المذاب وآن الذي انتهى حره (وتغشى وجوههم النار) يعني تعلوها وتجللها (ليجزي الله كل نفس ما كسبت) يعني من خير أو شر (ان الله سريع الحساب) يعني اذا حاسب عباده يوم القيامة (هذا بلاغ للناس) يعني هذا القرآن فيه تبليغ وموعظة للناس (ولينذروا به) يعني وليخوفوا بالقرآن ومواعظه وزواجره (وليعلموا انما هو اله واحد) يعني وليستدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله تعالى (وليذكر أولو الالباب) يعني وليتعظ بهذا القرآن وما فيه من المواعظ أولو العقول والافهام الصحيحة فانه موعظة لمن اتعظ والله اعلم بمراده واسرار كتابه

(تفسير سورة الحجر)

مكية باجماعهم وهي تسع وتسعون آية وستمائة واربع وخمسون كلمة والفان وسبعمائة وستون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله سبحانه وتعالى (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) تلك اشارة الى ما تضمنته السورة من الآيات

(وبرزوا) وخرجوا من قبورهم (لله الواحد القهار) هو كقوله لمن الملك اليوم لله الواحد القهار لان الملك اذا كان لواحد غلاب لا يغالب فلا مستغاث لاحد الى غيره كان الامر في غاية الشدة (وترى المجرمين) الكافرين (يومئذ) يوم القيامة (مقرنين) قرن بعضهم مع بعض أو مع الشياطين او قرنت ايديهم الى ارجلهم مغللين (في الاصفاد) متعلق بمقرنين أي يقرنون في الاصفاد او غير متعلق به والمعنى مقرنين مصفدين والاصفاد القيود أو الاغلال (سرابيلهم) قمصهم (من قطران) هو ما يتحلب من شجر يسمى الابهل فيطبخ فيهنأ به الابل الجربى فيحرق الجرب بحدته وحره ومن شأنه ان يسرع فيه اشتعال النار وهو اسود اللون منتن الريح فيطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل ليجتمع عليهم لذع القطران وحرقته واسراع النار في جلودهم واللون الوحش ونتن الريح على ان التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين وكلما وعده الله او أوعده به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره وكأنه ما عندنا منه الا الاسامي والمسميات ثمة نعوذ بالله من سخطه وعذابه من قطرآن زيد عن يعقوب نحاس مذاب بلغ حره أناه (وتغشى وجوههم النار) تعلوها باشتعالها وخص الوجه لانه اعز موضع في ظاهر البدن كالقلب في باطنه ولذا قال تطلع على الافئدة (ليجزي الله كل نفس ما كسبت) أي يفعل بالمجرمين ما يفعل ليجزي كل نفس مجرمة ما كسبت أو كل نفس مجرمة او مطيعة لانه اذا عاقب المجرمين لاجرامهم علم انه يثيب المؤمنين بطاعتهم (ان الله سريع الحساب) يحاسب جميع العباد في اسرع من لمح البصر (هذا) أي ما وصفه في قوله ولا تحسبن الى قوله سريع الحساب (بلاغ للناس) كفاية في التذكير والموعظة (ولينذروا به) بهذا البلاغ وهو معطوف على محذوف أي لينصحوا ولينذروا (وليعلموا انما هو اله واحد) لانهم اذا خافوا ما انذروا به دعتهم المخافة الى النظر حتى يتوصلوا الى التوحيد لان الخشية أم الخير كله (وليذكر أولو الالباب) ذوو العقول

(سورة الحجر تسع وتسعون آية مكية)

بسم الله الرحمن الرحيم الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) تلك اشارة الى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب والقرآن المبين السورة والمراد وتنكير القرآن للتفخيم والمعنى تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتابا وأي قرآن مبين كأنه قيل الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان

والمراد بالكتاب وبالقرآن المبين الكتاب الذي وعد الله به محمدا صلى الله عليه وسلم وتنكير القرآن للتفخيم والتعظيم والمعنى تلك آيات ذلك الكتاب الكامل في كونه كتابا وفي كونه قرآنا وأي قرآن كأنه قيل الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان وقيل أراد بالكتاب التوراة والانجيل لانه عطف القرآن على الكتاب والمعطوف غير المعطوف عليه وهذا القول ليس بالقوي لانه لم يجر للتوراة والانجيل ذكر حتى يشار اليهما وقيل اراد بالكتاب القرآن وانما جمعهما بوصفين وان كان الموصوف واحدا لما في ذلك من الفائدة وهي التفخيم والتعظيم والمبين الذي يبين الحلال من الحرام والحق من الباطل (ربما) قرئ بالتخفيف والتشديد وهما لغتان ورب للتقليل وكم للتكثير وانما زيدت ما مع رب ليليها الفعل تقول رب رجل جاءني وربما جاءني زيد وان شئت جعلت ما بمنزلة شيء كأنك قلت رب شيء فيكون المعنى رب شيء (يودّ الذين كفروا) وقيل ما في ربما بمعنى حين أي رب حين يود يعني يتمنى الذين كفروا والان التمني هو تشهي حصول ما يود واختلف المفسرون في الوقت الذي يتمنى الذين كفروا (لو كانوا مسلمين) على قولين أحدهما ان ذلك يكون عند معاينة العذاب وقت الموت فحينئذ يعلم الكافر انه كان على الضلال فيتمنى لو كان مسلما وذلك حين لا ينفعه التمني قال الضحاك هو عند حالة المعاينة والقول الثاني ان هذا التمني يكون في الآخرة وذلك حين يعاينون اهوال يوم القيامة وشدائدها وما يصيرون اليه من العذاب فحينئذ يتمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين وقال الزجاج ان الكافر كلما رأى حالا من أحوال العذاب ورأى حالا من أحوال المسلم ودّ لو كان مسلما وقيل اذا رأى الكافر انّ الله تعالى يرحم المسلمين ويشفع بعضهم في بعض حتى يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة فحينئذ يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين والقول المشهور ان ذلك التمني حين يخرج الله المؤمنين من النار عن أبي موسى الاشعرى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من اهل القبلة قال الكفار لمن في النار من اهل القبلة ألستم مسلمين قالوا بلى قالوا فما اغنى عنكم اسلامكم وانتم معنا في النار قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغفرها الله لهم بفضل رحمته فيأمر الله بكل من كان من أهل القبلة في النار فيخرجون منها فحينئذ يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين ذكره البغوي بغير سند وكذا ذكره ابن الجوزي وقال واليه ذهب ابن عباس في رواية عنه وانس بن مالك ومجاهد وعطاء وأبو العالية وابراهيم يعني النخعي فان قلت ربما انما وضعت للتقليل وتمني الذين كفروا لو كانوا مسلمين يكثر يوم القيامة فكيف قال ربما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين قلت قال صاحب الكشاف هو وارد على مذهب العرب في قولهم لعلك ستندم على فعلك وربما ندم الانسان على فعله ولا يشكون في تندمه ولا يقصدون تقليله ولكنهم أرادوا لو كان الندم مشكوكا فيه أو كان قليلا لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل لان العقلاء يتحرزون من التعرض للامر المظنون كما يتحرزون من المتيقن ومن القليل منه كما يتحرزون من الكثير وقال غيره ان هذا التقليل ابلغ في التهديد ومعناه يكفيك قليل الندم في كونه زاجرا لك عن هذا الفعل فكيف بكثيره وقيل ان شغلهم بالعذاب لا يفرغهم للندامة انما يخطر ذلك ببالهم فان قلت رب لا تدخل الا على الماضي فكيف قال ربما يود وهو في المستقبل قلت لان المترقب في أخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه كأنه قال ربما ودّ قوله سبحانه وتعالى (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا) يعني دع يا محمد هؤلاء الكفار يأكلوا في دنياهم ويتمتعوا بلذاتها (ويلههم الامل) يعني ويشغلهم طول الامل عن الايمان والاخذ بطاعة الله تعالى (فسوف يعلمون) يعني اذا وردوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا وهذا فيه تهديد ووعيد لمن أخذ بحظه من الدنيا ولذاتها ولم يأخذ بحظه من طاعة الله عز وجل قال بعض أهل العلم ذرهم تهديد وفسوف يعلمون تهديد آخر فمتى يهنأ العيش بين تهديدين وهذه الآية منسوخة بآية القتال وفي الآية دليل على ان ايثار التلذذ والتنعم في الدنيا يؤدّي الى طول الامل وليس ذلك من اخلاق المؤمنين قال علي بن أبي طالب انما أخشى عليكم اثنتين طول الامل واتباع الهوى فان

(ربما) بالتخفيف مدني وعاصم وبالتشديد غيرهما وما هي الكافة لانها حرف يجر ما بعده ويختص بالاسم النكرة فاذا كفت وقع بعدها الفعل الماضي والاسم وانما جاز (يود الذين كفروا) لان المترقب في اخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه فكأنه قيل ربما ودوا وودادتهم تكون عند النزع أو يوم القيامة اذا عاينوا حالهم وحال المسلمين أو اذا رأوا المسلمين يخرجون من النار فيتمنى الكافر لو كان مسلما كذا روى عن ابن عباس رضي الله عنهما (لو كانوا مسلمين) حكاية ودادتهم وانما جاء بها على لفظ الغيبة لانهم مخبر عنهم كقولك حلف بالله ليفعلن ولو قيل حلف بالله لافعلن ولو كنا مسلمين لكان حسنا وانما قال ربما لان اهوال القيامة تشغلهم عن التمني فاذا افاقوا من سكرات العذاب ودوا لو كانوا مسلمين وقول من قال ان رب يعني بها الكثرة سهو لانه ضد ما يعرفه أهل اللغة لانها وضعت للتقليل (ذرهم) أمر اهانة أي اقطع طمعك من ارعوائهم ودعهم عن النهي عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة وخلهم (يأكلوا ويتمتعوا) بدنياهم (ويلههم الامل) ويشغلهم املهم وامانيهم عن الايمان (فسوف يعلمون) سوء صنيعهم وفيه تنبيه على ان ايثار التلذذ والتنعم وما يؤدي اليه طول الامل ليس من اخلاق المؤمنين

(وما اهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم) ولها كتاب جملة واقعة صفة لقرية والقياس ان لا يتوسط الواو بينهما كما فى وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون
وانما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف اذ الصفة ملتصقة بالموصوف بلا واو فجىء بالواو تأكيدا لذلك والوجه ان تكون هذه الجملة حالا
لقرية لكونها فى حكم الموصوفة كأنه قيل وما أهلكنا قرية من القرى لا وصفا وقوله كتاب معلوم أى مكتوب معلوم وهو أجلها الذى
كتب فى اللوح المحفوظ وبين الا ترى الى
قوله (ما تسبق من أمة أجلها) فى موضع كتابها
(وما يستأخرون) أى عنه وحذف لانه معلوم
وانث الامة أولا ثم ذكرها آخرا حملا على اللفظ
والمعنى (وقالوا) أى الكفار (يا أيها الذى
نزل عليه الذكر) أى القرآن (انك لمجنون)
يعنون محمدا عليه السلام وكان هذا النداء منهم
على وجه الاستهزاء كما قال فرعون ان رسولكم
الذى ارسل اليكم لمجنون وكيف يقرون بنزول
الذكر عليه وينسبونه الى الجنون والتعكيس
فى كلامهم للاستهزاء والتهكم سائغ ومنه
فبشرهم بعذاب أليم انك لأنت الحليم الرشيد
والمعنى انك لتقول قول المجانين حيث تدعى
ان الله نزل عليك الذكر (لوما تأتينا بالملائكة
ان كنت من الصادقين) لو ركبت مع لا وما
لامتناع الشئ لوجود غيره وللتحضيض وهل ركبت
مع لا للتحضيض فحسب والمعنى هلا تأتينا بالملائكة
يشهدون بصدقك او هلا تأتينا بالملائكة
للعقاب على تكذيبنا لك ان كنت صادقا
(ما ننزل الملائكة) كوفى غير ابى بكر تنزل
الملائكة ابو بكر تنزل الملائكة اى تتنزل غيرهم
(الا بالحق) الا تنزيلا ملتبسا بالحكمة (وما كانوا
اذا منظرين) اذا جواب لهم وجزاء الشرط مقدر
تقديره ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين اذا
وما اخر عذابهم (انا نحن نزلنا الذكر) القرآن
(وانا له لحافظون) وهو رد لانكارهم
واستهزائهم فى قولهم يا أيها الذى نزل عليه الذكر
ولذلك قال انا نحن فأكد عليهم انه هو المنزل
على القطع وانه هو الذى نزله محفوظا من
الشياطين وهو حافظه فى كل وقت من الزيادة
والنقصان والتحريف والتبديل بخلاف الكتب
المتقدمة فانه لم يتول حفظها وانما استحفظها
الربانيين والاحبار فاختلفوا فيما بينهم بغيا
فوقع التحريف ولم يكل القرآن الى غير حفظه
وقد جعل قوله وانا له لحافظون دليلا على انه منزل من عنده آية اذ لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان
كما يتطرق على كل كلام سواه أو الضمير فى له لرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله والله يعصمك

طول الامل ينسى الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق (وما أهلكنا من قرية) يعنى من أهل قرية وأراد هلاك الاستئصال (الا ولها كتاب معلوم) أى اجل مضروب ووقت معين لا يتقدم العذاب عليه ولا يتأخر عنه ولا يأتيهم الا فى الوقت الذى حد لهم فى اللوح المحفوظ (ما تسبق من امة أجلها) من زائدة فى قوله من أمة كقولك ما جاءنى من أحد يعنى أحد وقيل هى على أصلها لانها تفيد التبعيض الى هذا الحكم فيكون ذلك فى افادة عموم النفى آكد ومعنى الآية ان الاجل المضروب لهم وهو وقت الموت او نزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر وهو قوله سبحانه وتعالى (وما يستأخرون) وانما أدخل الهاء فى أجلها لارادة الامة وأخرجها من قوله وما يستأخرون لارادة الرجال قوله عز وجل (وقالوا) يعنى مشركى مكة (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) يعنى القرآن وأرادوا به محمدا صلى الله عليه وسلم (انك لمجنون) انما نسبوه الى الجنون لانه صلى الله عليه وسلم كان يظهر عند نزول الوحى عليه ما يشبه الغشى فظنوا ان ذلك جنونا فلهذا السبب نسبوه الى الجنون وقيل ان الرجل اذا سمع كلاما مستغربا من غيره فربما نسبه الى الجنون ولما كانوا يستبعدون كونه رسولا من عند الله وأتى بهذا القرآن العظيم أنكروه ونسبوه الى الجنون وانما قالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر على طريق الاستهزاء وقيل معناه يا أيها الذى نزل عليه الذكر فى زعمه واعتقاده واعتقاد أصحابه واتباعه انك لمجنون فى ادعائك الرسالة (لوما) قال الزجاج والفراء لوما ولولا لغتان ومعناهما هلا يعنى هلا (تأتينا بالملائكة) يعنى يشهدون لك بانك رسول من عند الله حقا (ان كنت من الصادقين) يعنى فى قولك وادعائك الرسالة (ما ننزل الملائكة الا بالحق) يعنى بالعذاب او وقت الموت وهو قوله تعالى (وما كانوا اذا منظرين) يعنى لو نزلت الملائكة اليهم لم يمهلوا ولم يؤخروا ساعة واحدة وذلك ان كفار مكة كانوا يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم انزال الملائكة عيانا فأجابهم الله عز وجل بهذا والمعنى لو نزلوا عيانا لزال عن الكفار الامهال وعذبوا فى الحال ان لم يؤمنوا ويصدقوا (انا نحن نزلنا الذكر) يعنى القرآن انزلناه عليك يا محمد وانما قال سبحانه وتعالى انا نحن نزلنا الذكر جوابا لقولهم يا أيها الذى نزل عليه الذكر فأخبر الله عز وجل انه هو الذى نزل الذكر على محمد صلى الله عليه وسلم (وانا له لحافظون) الضمير فى له يرجع الى الذكر يعنى وانا للذكر الذى انزلناه على محمد لحافظون يعنى من الزيادة فيه والنقص منه والتغيير والتبديل والتحريف فالقرآن العظيم محفوظ من هذه الاشياء كلها لا يقدر واحد من جميع الخلق من الجن والانس ان يزيد فيه او ينقص منه حرفا واحدا أو كلمة واحدة وهذا مختص بالقرآن العظيم بخلاف سائر الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان ولما تولى الله عز وجل حفظ هذا الكتاب بقى مصونا على الابد محروسا من الزيادة والنقصان وقال ابن السائب ومقاتل الكناية فى له راجعة الى محمد صلى الله عليه وسلم يعنى وانا لمحمد لحافظون ممن اراده بسوء فهو كقوله تعالى والله يعصمك من الناس ووجه هذا القول ان الله سبحانه وتعالى لما ذكر الانزال والمنزل دل ذلك على المنزل عليه وهو محمد صلى الله عليه وسلم فحسنت الكناية لكونه أمرا معلوما الا ان القول الاول أصح واشهر وهو قول الاكثرين لانه أشبه بظاهر التنزيل ورد الكناية الى أقرب مذكور أولى وهو الذكر واذا قلنا ان الكناية عائدة الى القرآن وهو الاصح فاختلفوا فى كيفية حفظ الله عز وجل للقرآن فقال بعضهم حفظه بان جعله معجزا باقيا مباينا لكلام البشر فعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان منه لانهم لو أرادوا الزيادة فيه والنقصان منه لتغير نظمه وظهر ذلك لكل عالم عاقل وعلموا ضرورة ان ذلك ليس بقرآن وقال آخرون ان الله حفظه وصانه

من

من المعارضة فلم يقدر أحد من الخلق أن يعارضه وقال آخرون بل أعجز الله الخلق عن إبطاله وإفساده بوجه من الوجوه فقيض الله له العلماء الراسخين يحفظونه ويذبون عنه إلى آخر الدهر لأن دواعي جماعة من الملاحدة واليهود متوفرة على إبطاله وإفساده فلم يقدروا على ذلك بحمد الله تعالى قوله سبحانه وتعالى (ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين) لما تجرأ كفار مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاطبوه بالسفاهة وهو قولهم إنك لمجنون وأساؤوا الأدب عليه أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن عادة الكفار في قديم الزمان مع أنبيائهم كذلك فلك يا محمد أسوة في الصبر على أذى قومك بجميع الأنبياء ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وفي الآية محذوف تقديره ولقد أرسلنا رسلا من قبلك يا محمد فحذف ذكر الرسل لدلالة الإرسال عليه وقوله تعالى في شيع الأولين الشيعة هم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم وقال الفراء الشيعة هم الأتباع وشيعة الرجل أتباعه وقيل الشيعة من يتقوى بهم الإنسان وقوله في شيع الأولين من باب إضافة الصفة إلى الموصوف (وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن كذلك نسلكه في قلوب المجرمين) السلوك النفاذ في الطريق والدخول فيه والسلك إدخال الشيء في الشيء كإدخال الخيط في المخيط ومعنى الآية كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء في قلوب شيع الأولين كذلك نسلكه أي ندخله في قلوب المجرمين يعني مشركي مكة وفيه رد على القدرية والمعتزلة وهي أبين آية في ثبوت القدر لمن أذعن للحق ولم يعاند قال الواحدي قال أصحابنا أضاف الله سبحانه وتعالى إلى نفسه إدخال الكفر في قلوب الكفار وحسن ذلك منه فمن آمن بالقرآن فليستحسنه وقال الإمام فخر الدين الرازي احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يخلق الباطل والضلال في قلوب الكفار وقالوا قوله كذلك نسلكه أي كذلك نسلك الباطل والضلال في قلوب المجرمين وقالت المعتزلة لم يجر للضلال والكفر ذكر فيما قبل هذا اللفظ فلا يمكن أن يكون الضمير عائدا إليه وأجيب عنه بأنه سبحانه وتعالى قال وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن فالضمير في قوله كذلك نسلكه عائد إليه والاستهزاء بالأنبياء كفر وضلال فثبت صحة قولنا أن المراد من قوله كذلك نسلكه في قلوب المجرمين أنه الكفر والضلال وقوله تعالى (لا يؤمنون به) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم وقيل بالقرآن (وقد خلت سنة الأولين) فيه وعيد وتهديد لكفار مكة يخوفهم أن ينزل بهم مثل ما نزل بالأمم الماضية المكذبة للرسل والمعنى وقد مضت سنة الله بإهلاك من كذب الرسل من الأمم الماضية فاحذروا يا أهل مكة أن يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون) يعني ولو فتحنا على هؤلاء الذين قالوا لو ما تأتينا بالملائكة بابا من السماء فظلوا يقال ظل فلان يفعل كذا إذا فعله بالنهار كما يقال بات يفعل كذا إذا فعله بالليل فيه يعني في ذلك الباب يعرجون يعني يصعدون والمعارج المصاعد وفي المشار إليه بقوله فظلوا فيه يعرجون قولان أحدهما أنهم الملائكة وهو قول ابن عباس والضحاك والمعنى لو كشف عن أبصار هؤلاء الكفار فرأوا بابا من السماء مفتوحا والملائكة تصعد فيه لما آمنوا والقول الثاني أنهم المشركون وهو قول الحسن وقتادة والمعنى فظل المشركون يصعدون في ذلك الباب فينظرون في ملكوت السموات وما فيها من الملائكة لما آمنوا لعنادهم وكفرهم ولقالوا إنا سحرنا وهو قوله تعالى (لقالوا إنما سكرت أبصارنا) قال ابن عباس سدت أبصارنا مأخوذ من سكر النهر إذا حبس ومنع من الجري وقيل هو من سكر الشراب والمعنى أن أبصارهم حارت ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع للرجل السكران من تغير العقل وفساد النظر وقيل سكرت يعني غشيت أبصارنا وسكنت عن النظر وأصله من السكور يقال سكرت عينه إذا تحيرت وسكنت عن النظر (بل نحن قوم مسحورون) يعني سحرنا محمد وعمل فينا سحره وحاصل الآية أن الكفار لما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم الملائكة فيروهم عيانا ويشهدوا بصدقه أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لو حصل لهم هذا وشاهدوه عيانا لما آمنوا ولقالوا سحرنا لما سبق لهم في الأزل من الشقاوة قوله سبحانه وتعالى (ولقد جعلنا

(ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين) أي ولقد أرسلنا من قبلك رسلا في الفرق الأولين والشيعة الفرقة إذا اتفقوا على مذهب وطريقة (وما يأتيهم) حكاية حال ماضية لأن ما لا تدخل على مضارع إلا وهو في معنى الحال ولا على ماض إلا وهو قريب من الحال (من رسول إلا كانوا به يستهزؤن) يعزي نبيه عليه السلام (كذلك نسلكه في قلوب المجرمين) أي كما سلكنا الكفر أو الاستهزاء في شيع الأولين نسلكه أي الكفر أو الاستهزاء في قلوب المجرمين من أمتك من اختار ذلك يقال سلكت الخيط في الإبرة وأسلكته إذا أدخلته فيها وهو حجة على المعتزلة في الأصلح وخلق الأفعال (لا يؤمنون به) بالله أو بالذكر وهو حال (وقد خلت سنة الأولين) مضت طريقتهم التي سنها الله في إهلاكهم حين كذبوا رسله وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء) ولو أظهرنا لهم أوضح آية وهو فتح باب من السماء (فظلوا فيه يعرجون) يصعدون (لقالوا إنما سكرت أبصارنا) حيرت أو حبست من الإبصار من السكر أو من السكر سكرت مكي أي حبست كما يحبس النهر من الجري والمعنى أن هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها ورأوا من العيان ما رأوا لقالوا هو شيء نتخايله لا حقيقة له ولقالوا (بل نحن قوم مسحورون) قد سحرنا محمد بذلك أو الضمير للملائكة أي لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عيانا لقالوا ذلك وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون وقال إنما ليدل على أنهم يبتون القول بأن ذلك ليس إلا تسكيرا للأبصار (ولقد جعلنا

في السماء بروجا) يعني البروج التي تنزلها الشمس في مسيرها واحدها برج وهي بروج الفلك الاثنا عشر برجا وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت وهذه البروج مقسومة على ثمانية وعشرين منزلا لكل برج منزلان وثلث منزل وقد تقدم ذكر منازل القمر في تفسير سورة يونس وهذه البروج مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس في كل سنة مرة وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوما وقال ابن عباس في هذه الآية تريد بروج الشمس والقمر يعني منازلهما وقال ابن عطية هي قصور في السماء عليها الحرس وقال الحسن ومجاهد وقتادة هي النجوم العظام قال ابو اسحاق يريدون نجوم هذه البروج وهي نجوم على ماصورت به وسميت واصل هذا كله من الظهور (وزيناها) يعني السماء بالشمس والقمر والنجوم (للناظرين) يعني المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها وصانعها وهو الله الذي أوجد كل شئ وخلقه وصوره (وحفظناها) يعني السماء (من كل شيطان رجيم) اي مرجوم فعيل بمعنى مفعول وقيل ملعون مطرود من رحمة الله قال ابن عباس كانت الشياطين لايحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها الى الكهنة فيلقونها اليهم فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات اجمع فما منهم من أحد يريد ان يسترق السمع الا رمي بشهاب فلما منعوا من تلك المقاعد ذكروا ذلك لابليس فقال لقد حدث في الارض حدث فبعثهم ينظرون فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن فقالوا هذا والله حدث (الا من استرق السمع) هذا استثناء منقطع معناه لكن من استرق السمع (فأتبعه) أي لحقه (شهاب مبين) والشهاب شعلة من نار ساطع سمي الكوكب شهابا لاجل ما فيه من البريق شبه بشهاب النار قال ابن عباس في قوله الا من استرق السمع يريد الخطفة اليسيرة وذلك ان الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب فلا تخطئ أبدا فمنهم من تقتله ومنهم تحرق وجهه أو جنبه اويده أوحيث يشاء الله ومنهم من تخبله فيصير غولا يضل الناس في البوادي (خ) عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا قضى الله الامر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كالسلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترقوا السمع ومسترقوا السمع هكذا بعضهم فوق بعض ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين اصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ثم يلقيها الآخر الى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل ان يلقيها وربما ألقاها قبل ان يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال له اليس قد قال لنا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء

(فصل) اختلف العلماء هل كانت الشياطين ترمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ام لا على قولين أحدهما انها لم تكن ترمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما ظهر ذلك في بدو امره فكان ذلك أساسا للنبوة صلى الله عليه وسلم ويدل على صحة هذا القول ماروي عن ابن عباس قال انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب أخرجاه في الصحيحين فظاهر هذا الحديث يدل على ان هذا الرمي بالشهب لم يكن قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم فلما بعث حدث هذا الرمي و يعضده ماروي ان يعقوب بن المغيرة بن الاخنس بن شريق قال أول من فزع للرمي بالنجوم هذا الحي من ثقيف وانهم جاؤا الى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية احد بني علاج وكان اهدى العرب فقالوا له الم تر ماحدث في السماء من القذف بالنجوم فقال بلى ولكن انظروا فان كانت معالم النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر و يعرف بها الانواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس من معايشهم هي التي يرمى بها فهو والله طي الدنيا وهلاك الخلق الذين فيها وان كانت نجوما غيرها وهي ثابتة على حالها فهذا لامر أراده الله من

الخلق

في السماء) خلقنا فيها (بروجا) نجوما أو قصورا فيها الحرس أو منازل النجوم (وزيناها) أي السماء (للناظرين) وحفظناها) أي السماء (من كل شيطان رجيم) ملعون أو مرمي بالنجوم (الا من استرق السمع) أي المسموع ومن في محل النصب على الاستثناء (فأتبعه شهاب) نجم ينقض فيعود (مبين) ظاهر للبصر من قبل كانوا لا يحجبون عن السموات كلها فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها

الخالق قال الزجاج ويدل على انها كانت بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم أن شعراء العرب الذين ذكروا البراق والاشياء المسرعة لم يوجد في شعرهم ذكر الكواكب المنقضة فلما حدثت بعد مولده صلى الله عليه وسلم استعملت الشعراء ذكرها قال ذو الرمة

كأنه كوكب في اثر عفرية * مسوم في سواد الليل منقضب

والقول الثاني ان ذلك كان موجودا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ولكن لما بعث شدد وغلظ عليهم قال معمر قلت للزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية قال نعم قلت افرأيت قوله وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فقال غلظت وشدد امرها حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم ويدل على صحة هذا القول ماروى عن ابن عباس قال اخبرني رجل من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الانصار أنهم بيناهم جلوس ليلة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى بنجم واستنار فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنتم تقولون في الجاهلية اذا رمى بمثل هذا قالوا كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم أومات رجل عظيم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لا يرمى بها لموت احد ولا لحياته ولكن ربنا تبارك اسمه اذا قضى امرا سبح حملة العرش ثم سبح اهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح الى اهل هذه السماء ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم بما قال فيستخبر بعض اهل السماء بعضا حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيقذفونه الى اوليائهم و يرمون بها فما جاؤا به على وجهه فهو حق ولكنهم يقذفون فيه و يزيدون أخرجه مسلم وقال ابن قتيبة ان الرجم كان قبل مبعثه قال وعلى هذا وجدنا الشعر القديم قال بشر بن أبي حازم وهو جاهلي

فالعير يرهقها الغبار وجحشها * ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

وقال أوس بن حجر وهو جاهلي

فانقض كالدري يتبعه * نقع يثور تخاله طنبا

والجمع بين هذين القولين ان الرمي بالنجوم كان موجودا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فلما بعث شدد ذلك و زيد في حفظ السماء وحراستها صونا لاخبار الغيوب والله أعلم قوله سبحانه وتعالى (والارض مددناها) يعني بسطناها على وجه الماء كما يقال انها دحيت من تحت الكعبة ثم بسطت هذا قول اهل التفسير و زعم ارباب الهيئة أنها كرة عظيمة بعضها في الماء وبعضها خارج عن الماء وهو الجزء المعمور منها واعتذروا عن قوله تعالى والارض مددناها بأن الكرة اذا كانت عظيمة كان كل جزء منها كالسطح العظيم فثبت بهذا الامران الارض ممدودة مبسوطة وانها كرة ورد هذا أصحاب التفسير بأن الله اخبر في كتابه بأنها ممدودة وانها مبسوطة ولو كانت كرة لاخبر بذلك والله أعلم بمراده وكيف مد الارض (وألقينا فيها رواسي) يعني جبالا ثوابت وذلك ان الله سبحانه وتعالى لما خلق الارض على الماء مادت ورجفت فأثبتها بالجبال (وأنبتنا فيها) أي في الارض لان انواع النبات المنتفع به تكون في الارض وقيل الضمير يرجع الى الجبال لانها أقرب مذكور ولقوله تعالى (من كل شئ موزون) وانما يوزن ما تولد في الجبال من المعادن وقال ابن عباس وسعيد بن جبير موزون أي معلوم وقال مجاهد وعكرمة أي مقدور فعلى هذا يكون المعنى معلوم القدر عند الله تعالى لان الله سبحانه وتعالى يعلم القدر الذي يحتاج اليه الناس في معايشهم وارزاقهم فيكون اطلاق الوزن عليه مجازا لان الناس لا يعرفون مقادير الاشياء الا بالوزن وقال الحسن وعكرمة وابن زيد انه عنى به الشئ الموزون كالذهب والفضة والرصاص والحديد والكحل ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن لان هذه الاشياء كلها توزن وقيل معنى موزون متناسب في الحسن والهيئة والشكل تقول العرب فلان موزون الحركات اذا كانت حركاته متناسبة حسنة وكلام موزون اذا كان متناسبا حسنا بعيدا من الخطأ والسخف وقيل ان جميع ما ينبت في الارض والجبال نوعان احدهما ما يستخرج من المعادن و جميع ذلك موزون والثاني النبات وبعضه موزون أيضا

(والارض مددناها) بسطناها من تحت الكعبة والجمهور على انه تعالى مدها على وجه الماء (والقينا فيها رواسي) في الارض جبالا ثوابت (وانبتنا فيها من كل شئ موزون) وزن بميزان الحكمة وقدر بمقدار تقتضيه لا تصلح فيه زيادة ولا نقصان أوله وزن وقدر في ابواب النعمة والنعمة أو ما يوزن كالزعفران والذهب والفضة والنحاس والحديد وعبر بها وخص ما يوزن لانتهاء الكيل الى الوزن

وبعضه مكيل وهو يرجع الى الوزن لان الصاع والمد مقدران بالوزن (وجعلنا لكم فيها معايش) جمع معيشة وهو ما يعيش به الانسان مدة حياته فى الدنيا من المطاعم والمشارب والملابس ونحو ذلك (ومن لستم له برازقين) يعنى الدواب والوحش والطير أنتم منتفعون بها ولستم لها برازقين لان رزق جميع الخلق على الله ومنه قوله تعالى وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها وتكون من فى قوله ومن لستم بمعنى ما لان من لمن يعقل وما لمن لا يعقل وقيل يجوز اطلاق لفظة من على من لا يعقل كقوله تعالى فمنهم من يمشى على بطنه وقيل أراد بهم العبيد والخدم فتكون من على اصلها ويدخل معهم ما لا يعقل من الدواب والوحش (وان من شئ الا عندنا خزائنه) الخزائن جمع خزانة وهى اسم للمكان الذى يخزن فيه الشئ للحفظ يقال خزن الشئ اذا احرزه فقيل أراد مفاتيح الخزائن وقيل أراد بالخزائن المطر لانه سبب الارزاق والمعايش لبنى آدم والدواب والوحش والطير ومعنى عندنا انه فى حكمه وتصرفه وأمره وتدبيره قوله تعالى (وما ننزله الا بقدر معلوم) يعنى بقدر الكفاية وقيل ان لكل أرض حدا ومقدارا من المطر يقال لا تنزل من السماء قطرة مطر الا ومعها ملك يسوقها الى حيث يشاء الله تعالى وقيل ان المطر ينزل من السماء كل عام بقدر واحد لا يزيد ولا ينقص ولكن الله يمطر قوما ويحرم آخرين وقيل اذا أراد الله بقوم خيرا انزل عليهم المطر والرحمة واذا أراد بقوم شرا صرف المطر عنهم الى حيث لا ينتفع به كالبرارى والقفار والرمال والبحار ونحو ذلك وحكى جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جده انه قال فى العرش تمثال جميع ما خلق الله فى البر والبحر وهو تأويل قوله وان من شئ الا عندنا خزائنه (وأرسلنا الرياح لواقح) قال ابن عباس يعنى للشجر وهو قول الحسن وقتادة وأصل هذا من قولهم لقحت الناقة وألقحها الفحل اذا ألقى اليها الماء فحملته فكذلك الرياح كالفحل للسحاب وقال ابن مسعود فى تفسير هذه الآية يرسل الله الرياح لتلقح السحاب فتحمل الماء فتمجه فى السحاب ثم تمر به فتدر كما تدر اللقحة وقال عبيد بن عمير يرسل الله الريح المبشرة فتقم الارض قما ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب ثم يرسل المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه الى بعض فتجعله ركاما ثم يرسل اللواقح فتلقح الشجر والاظهر فى هذه الآية القاحها السحاب لقوله بعده فأنزلنا من السماء ماء قال أبو بكر بن عياش لا تقطر قطرة من السماء الا بعد ان تعمل الرياح الاربع فيها فالصبا تهيج السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه وقال أبو عبيد لواقح هنا بمعنى ملاقح جمع ملقحة حذفت الميم وردت الى الاصل وقال الزجاج يجوز ان يقال لها لواقح وان ألقحت غيرها لان معناها النسبة كما يقال درهم وازن أى ذو وزن واعترض الواحدى على هذا فقال هذا ليس بشئ لانه كان يجب ان يصح اللاقح بمعنى ذات لقح حتى يوافق قول المفسرين وأجاب الرازى عنه بأن قال هذا ليس بشئ لان اللاقح هو المنسوب الى اللقحة ومن أفاد غيره اللقحة فله نسبة الى اللقحة وقال صاحب المفردات لواقح أى ذات لقاح وقيل ان الريح فى نفسها لاقح لانها حاملة للسحاب والدليل عليه قوله سبحانه وتعالى حتى اذا أقلت سحابا ثقالا أى حملت فعلى هذا تكون الريح لاقحة بمعنى حاملة تحمل السحاب وقال الزجاج ويجوز ان يقال للريح لقحت اذا أتت بالخير كما قيل لها عقيم اذا لم تأت بخير وورد فى بعض الاخبار ان الملقح الرياح الجنوب وفى بعض الآثار ما هبت رياح الجنوب الا وأنبعت عينا غدقة (ق) عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا عصفت الريح قال اللهم انى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به وروى البغوى بسنده الى الشافعى الى ابن عباس قال ما هبت ريح قط الا جثا النبى صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا قال ابن عباس فى كتاب الله عز وجل انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فأرسلنا عليهم الريح العقيم وقال وأرسلنا الرياح لواقح وقال يرسل الرياح مبشرات وقوله سبحانه وتعالى (فأنزلنا من السماء ماء) يعنى المطر (فأسقيناكموه) يعنى جعلنا لكم المطر سقيا يقال أسقى فلان فلانا اذا جعل له سقيا وسقاه اذا أعطاه ما يشرب وتقول العرب سقيت الرجل ماء ولبنا اذا كان

(وجعلنا لكم فيها) فى الارض (معايش) ما يعاش به من المطاعم جمع معيشة وهى بياء مصرحة بخلاف الخبائث ونحوها فان تصريح الياء فيها احقا (ومن لستم له برازقين) من فى محل النصب بالعطف على معايش أو على محل لكم كأنه قيل وجعلنا لكم فيها معايش وجعلنا لكم من لستم له برازقين وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يظنون انهم يرزقونهم ويخطئون فان الله هو الرزاق يرزقهم واياهم ويدخل فيه الانعام والدواب ونحو ذلك ولا يجوز أن يكون محل من جرا بالعطف على الضمير المجرور فى لكم لانه لا يعطف على الضمير المجرور الا باعادة الجار (وان من شئ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم) ذكر الخزائن تمثيل والمعنى وما من شئ ينتفع به العباد الا ونحن قادرون على ايجاده وتكوينه والانعام به وما نعطيه الا بمقدار معلوم فضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور (وأرسلنا الرياح لواقح) جمع لاقحة أى وأرسلنا الرياح حوامل بالسحاب لانها تحمل السحاب فى جوفها كأنها لاقحة بها من لقحت الناقة حملت وضدها العقيم الريح (فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه) فجعلناه لكم سقيا

لسقيه فاذا جعلوا له ماء للشرب أرضه أوماشيته يقال اسقيناه (وما أنتم له) يعنى للمطر (بخازنين) يعنى
ان المطر فى خزائننا لا فى خزائنكم وقيل وما أنتم له بمانعين (وانا لنحن نحيي ونميت) يعنى بيدنا احياء الخلق
واماتتهم لا يقدر على ذلك أحد الا الله سبحانه وتعالى لان قوله تعالى وانا لنحن يفيد الحصر يعنى لا يقدر
على ذلك سوانا (ونحن الوارثون) وذلك بأن نميت جميع الخلق فلا يبقى أحد سوانا فيزول ملك كل مالك
ويبقى جميع ملك المالكين لنا والوارث هو الباقى بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقى بعد
فناء خلقه الذين امتعهم بما آتاهم فى الحياة الدنيا لان وجود الخلق وما آتاهم كان ابتداؤه منه تعالى
فاذا فنى جميع الخلائق رجع الذى كانوا يملكونه فى الدنيا على المجاز الى مالكه على الحقيقة وهو الله
تعالى وقيل مصير الخلق اليه قوله عز وجل (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين)
عن ابن عباس قال كانت امرأة تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس فكان
بعض الناس يتقدم حتى يكون فى الصف الاول لئلا يراها ويتأخر بعضهم حتى يكون فى الصف المؤخر
فاذا ركع نظر من تحت ابطيه فأنزل الله عز وجل ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين
أخرجه النسائى وأخرجه الترمذى وقال فيه وقد روى عن ابن الجوزى نحوه ولم يذكر فيه عن ابن
عباس وهذا اشبه ان يكون اصح قال البغوى وذلك ان النساء كن يخرجن الى الجماعة فيقفن
خلف الرجال فربما كان من الرجال من فى قلبه ريبة فيتأخر الى آخر صف الرجال ومن النساء من
فى قلبها ريبة فتتقدم الى اول صف النساء لتقرب من الرجال فنزلت هذه الآية فعند ذلك قال النبى
صلى الله عليه وسلم خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها
أخرجه مسلم عن أبى هريرة وقال ابن عباس أراد بالمستقدمين من خلق الله وبالمستأخرين من لم يخلق
الله تعالى بعد وقال مجاهد المستقدمون القرون الاولى والمستأخرون أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقال
الحسن المستقدمون يعنى فى الطاعة والخير والمستأخرون يعنى فيهما وقال الاوزاعى أراد بالمستقدمين
المصلين فى أول الوقت وبالمستأخرين المؤخرين لها الى آخره وقال مقاتل أراد بالمستقدمين والمستأخرين
فى صف القتال وقال ابن عيينة أراد من يسلم أولا ومن يسلم آخرا وقال ابن عباس فى رواية أخرى عنه
ان النبى صلى الله عليه وسلم حرض على الصف الاول فازدحموا عليه وقال قوم كانت بيوتهم قاصية عن
المسجد لنبيعن دورنا ونشترى دورا قريبة من المسجد حتى ندرك الصف المقدم فنزلت الآية ومعناها
انما تجزون على النيات فاطمأنوا وسكنوا فيكون معنى الآية على القول الاول المتقدم للتقوى والمستأخر
للنظر وعلى القول الاخير المتقدم لطلب الفضيلة والمستأخر للعذر ومعنى الآية ان علمه سبحانه وتعالى
محيط بجميع خلقه متقدمهم ومتأخرهم طائعهم وعاصيهم لا يخفى عليه شئ من أحوال خلقه (وان ربك
هو يحشرهم انه حكيم عليم) يعنى على ما علم منهم وقيل ان الله سبحانه وتعالى يميت الكل ثم يحشرهم
الاولين والآخرين على ما ماتوا عليه (م) عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث كل عبد
على ما مات عليه قوله سبحانه وتعالى (ولقد خلقنا الانسان) يعنى آدم عليه السلام فى قول جميع
المفسرين سمى انسانا لظهوره وادراك البصر اياه وقيل من النسيان لانه عهد اليه فنسى (من صلصال)
يعنى من الطين اليابس الذى اذا نقرته سمعت له صلصلة يعنى صوتا وقال ابن عباس هو الطين الحر الطيب
الذى اذا نضب عنه الماء تشقق فاذا حرك تقعقع وقال مجاهد هو الطين المنتن واختاره الكسائى وقال هو
من صل اللحم اذا أنتن (من حمإ) يعنى من الطين الاسود (مسنون) أى متغير قال مجاهد وقتادة هو المنتن
المتغير وقال أبو عبيدة هو المصبوب تقول العرب سننت الماء اذا صببته قال ابن عباس هو التراب
المبتل المنتن جعل صلصالا كالفخار والجمع بين هذه الاقاويل على ما ذكره بعضهم ان الله سبحانه وتعالى
لما أراد خلق آدم عليه السلام قبض قبضة من تراب الارض فبلها بالماء حتى اسودت وأنتنت ريحها
وتغيرت واليه الاشارة بقوله ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم ان ذلك التراب بله بالماء

(وما أنتم له بخازنين) نفى عنهم ما أثبته لنفسه
فى قوله وان من شئ الا عندنا خزائنه كأنه قال
نحن الخازنون للماء على معنى نحن القادرون
على خلقه فى السماء وانزاله منها وما انتم عليه
بقادرين دلالة عظيمة على قدرته وعجزهم
(وانا لنحن نحيي ونميت) اى نحيي بالايجاد ونميت
بالافناء او نميت عند انقضاء الآجال ونحيي لجزاء
الاعمال على التقديم والتأخير اذ الواو للجمع
المطلق (ونحن الوارثون) الباقون بعد هلاك
الخلق كلهم وقيل للباقى وارث استعارة من
وارث الميت لانه يبقى بعد فنائه (ولقد علمنا
المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) من
تقدم ولادة وموتا ومن تأخر او من خرج من
أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد او من تقدم
فى الاسلام او فى الطاعة او فى صف الجماعة
او صف الحرب ومن تأخر (وان ربك هو
يحشرهم) أى هو وحده يقدر على حشرهم
ويحيط بحصرهم (انه حكيم) باهر الحكمة
(عليم) واسع العلم (ولقد خلقنا الانسان) أى آدم (من
صلصال) طين يابس غير مطبوخ (من حمإ)
صفة لصلصال أى خلقه من صلصال كائن من
حمإ أى طين اسود متغير (مسنون) مصور
وفى الاول كان ترابا فعجن بالماء وصار طينا
فمكث فصار حمأ فخلص فصار سلالة فصور
ويبس فصار صلصالا فلا تناقض

وخمره حتى اسود وأنتن ريحه وتغير واليه الاشارة بقوله من حمإ مسنون ثم ذلك الطين الاسود المتغير صوره صورة انسان أجوف فلما جف ويبس كانت تدخل فيه الريح فتسمع له صلصلة يعني صوتا واليه الاشارة بقوله من صلصال كالفخار وهو الطين اليابس اذا تفخر في الشمس ثم نفخ فيه الروح فكان بشرا سويا قوله تعالى (والجان خلقناه من قبل) يعني من قبل آدم عليه السلام قال ابن عباس الجان أبو الجن كما ان آدم أبو البشر وقال قتادة هو ابليس وقيل الجان أبو الجن وابليس أبو الشياطين وفي الجن مسلمون وكافرون يأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبني آدم وأما الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون الا اذا مات ابليس وقال وهب ان من الجن من يولد له ويأكلون ويشربون بمنزلة الآدميين ومن الجن من هو بمنزلة الريح لا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون وهم الشياطين والأصح ان الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم في الاستتار سموا جنا لتواريهم واستتارهم عن الاعين من قولهم جن الليل اذا ستر والشيطان هو العاتي المتمرد الكافر ومنهم المؤمن والجن والكافر (من نار السموم) يعني من ريح حارة تدخل مسام الانسان من لطفها وقوة حرارتها فتقتله ويقال للريح الحارة التي تكون بالنهار السموم وللريح الحارة التي تكون بالليل الحرور وقال أبو صالح السموم نار لا دخان لها والصواعق تكون منها وهي نار بين السماء والحجاب فاذا حدث أمر خرقت الحجاب فهوت الى ما أمرت به فالهدة التي تسمعون من خرق ذلك الحجاب وهذا على قول أصحاب الهيئة ان الكرة الرابعة تسمى كرة النار وقيل من نار السموم يعني من نار جهنم وقال ابن مسعود هذه السموم جزء من سبعين جزءا من السموم التي خلق منها الجان وتلا هذه الآية وقال ابن عباس كان ابليس من حي من الملائكة يسمون الجان خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار وخلقت الملائكة من النور قوله عز وجل (واذ قال ربك للملائكة) أي واذكر يا محمد اذ قال ربك للملائكة (اني خالق بشرا) سمي الآدمي بشرا لانه جسم كثيف ظاهر البشرة ظاهر الجلد (من صلصال من حمإ مسنون) تقدم تفسيره (فاذا سويته) يعني عدلت صورته وأتممت خلقه (ونفخت فيه من روحي) النفخ عبارة عن اجراء الريح في تجاويف جسم آخر ومنه نفخ الروح في النشأة الاولى وهو المراد من قوله ونفخت فيه من روحي وأضاف الله عز وجل روح آدم الى نفسه على سبيل التشريف والتكريم له كما يقال بيت الله وناقة الله وعبد الله وسيأتي الكلام على الروح في تفسير سورة الاسراء عند قوله ويسألونك عن الروح ان شاء الله تعالى (فقعوا له ساجدين) الخطاب للملائكة الذين قال الله لهم اني خالق بشرا أمرهم بالسجود لآدم بقوله فقعوا له ساجدين وكان هذا السجود سجود تحية لا سجود عبادة (فسجد الملائكة كلهم) يعني الذين أمروا بالسجود لآدم (أجمعون) قال سيبويه هذا توكيد بعد توكيد وسئل المبرد عن هذه الآية فقال لو قال فسجد الملائكة لاحتمل ان يكون سجد بعضهم فلما قال كلهم لزم ازالة ذلك الاحتمال فظهر بهذا انهم سجدوا باسرهم ثم عند هذا بقي احتمال آخر وهو أنهم سجدوا في أوقات متفرقة أو في دفعة واحدة فلما قال أجمعون ظهر ان الكل سجدوا دفعة واحدة ولما حكى الزجاج هذا القول عن المبرد قال قول الخليل وسيبويه أجود لان أجمعين معرفة فلا تكون حالا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ان الله سبحانه وتعالى أمر جماعة من الملائكة بالسجود لآدم فلم يفعلوا فأرسل الله عليهم نارا فأحرقتهم ثم قال لجماعة أخرى اسجدوا لآدم فسجدوا (الا ابليس أبى ان يكون مع الساجدين) يعني مع الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم فسجدوا (قال) يعني قال الله (يا ابليس مالك الا تكون مع الساجدين قال) يعني ابليس (لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون) أراد ابليس انه أفضل من آدم لان آدم طيني الاصل وابليس ناري الاصل والنار أفضل من الطين فيكون ابليس في قياسه أفضل من آدم ولم يدر الخبيث ان الفضل فيما فضله الله تعالى (قال فاخرج منها) يعني من الجنة وقيل من السماء (فانك رجيم) أي طريد (وان عليك اللعنة الى يوم الدين) قيل ان أهل السموات يلعنون ابليس كما يلعنه أهل الارض فهو ملعون

(والجان) أبا الجن كآدم للناس أو هو ابليس وهو منصوب بفعل مضمر يفسره (خلقناه من قبل) من قبل آدم (من نار السموم) من نار الحر الشديد النافذ في المسام قيل هذه السموم جزء من سبعين جزءا من سموم النار التي خلق الله منها الجان (واذ قال ربك) واذكر وقت قوله (للملائكة اني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون فاذا سويته) اتممت خلقته وهيأتها لنفخ الروح فيها (ونفخت فيه من روحي) وجعلت فيه الروح واحييته وليس ثمة نفخ وانما هو تمثيل والاضافة للتخصيص (فقعوا له ساجدين) هو أمر من وقع يقع أي اسقطوا على الارض يعني اسجدوا له ودخل الفاء لانه جواب اذا وهو دليل على انه يجوز تقدم الامر عن وقت الفعل (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) فالملائكة جمع عام محتمل للتخصيص فقطع باب التخصيص بقوله كلهم وذكر الكل احتمل تأويل التفرق فقطعه بقوله أجمعون (الا ابليس) ظاهر الاستثناء يدل على انه كان من الملائكة لان المستثنى يكون من جنس المستثنى منه وعن الحسن ان الاستثناء منقطع ولم يكن هو من الملائكة فلو لا غير المأمور لا يصير بالترك ملعونا وقال في الكشاف كان بينهم مأمورا معهم بالسجود فغلب اسم الملائكة ثم استثني بعد التغليب كقولك رأيتهم الا هندا (أبى أن يكون مع الساجدين) امتنع ان يكون معهم وأبى استئناف على تقدير قول قائل يقول هلا سجد فقيل أبى ذلك واستكبر عنه وقيل معناه ولكن ابليس أبى (قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين) حرف الجر مع ان محذوف تقديره مالك في ان لا تكون مع الساجدين أي أي غرض لك في ابائك السجود (قال لم أكن لاسجد) اللام لتأكيد النفي أي لا يصح مني ان اسجد (لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون قال فاخرج منها) من السماء أو من الجنة أو من جملة الملائكة (فانك رجيم) مطرود من رحمة الله ومعناه ملعون لان اللعنة هو الطرد من الرحمة والابعاد منها (وان عليك اللعنة الى يوم الدين) ضرب يوم الدين حدا للعنة لانه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم والمراد به انك مذموم مدعو عليك باللعنة في السموات والارض الى يوم الدين من غير أن تعذب فاذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه

في السموات والارض فان قلت ان حرف الى لانتهاء الغاية فهل ينقطع اللعن عنه يوم الدين الذى هو يوم القيامة قلت لا بل يزداد عذابا الى اللعنة التي عليه كأنه قال تعالى وان عليك اللعنة فقط الى يوم الدين ثم تزداد معها بعد ذلك عذابا دائما مستمرا لا انقطاع له (قال ربي فانظرني) يعني أخرني (الى يوم يبعثون) يعني يوم القيامة وأراد بهذا السؤال انه لا يموت أبدا لانه اذا أمهل الى يوم القيامة ويوم القيامة لا يموت فيه أحد لزم من ذلك انه لا يموت أبدا فلهذا السبب سأل الانظار الى يوم يبعثون فأجابه الله سبحانه وتعالى بقوله (قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) يعني الوقت الذي يموت فيه جميع الخلائق وهو النفخة الاولى فيقال ان مدة موت ابليس أربعون سنة وهو ما بين النفختين ولم تكن اجابة الله تعالى اياه في الامهال اكراما له بل كان ذلك الامهال زيادة له في بلائه وشقائه وعذابه وانما سمي يوم القيامة بيوم الوقت المعلوم لان ذلك اليوم لا يعلمه أحد الا الله تعالى فهو معلوم عنده وقيل لان جميع الخلائق يموتون فيه فهو معلوم بهذا الاعتبار وقيل لما سأل ابليس الانظار الى يوم يبعثون أجابه الله بقوله فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم يعني اليوم الذي عينت وسألت الانظار اليه (قال رب بما أغويتني) الباء للقسم في قوله بما وما مصدرية وجواب القسم (لأزينن) والمعنى فبإغوائك اياي لأزينن لهم في الارض وقيل هي باء السبب يعني بسبب كوني غاويا لأزينن (لهم في الارض) يعني لأزينن لهم حب الدنيا ومعاصيك (ولأغوينهم أجمعين) يعني بالقاء الوسوسة في قلوبهم وذلك ان ابليس لما علم انه يموت على الكفر غير مغفور له حرص على اضلال الخلق بالكفر واغوائهم ثم استثنى فقال (الا عبادك منهم المخلصين) يعني المؤمنين الذين أخلصوا لك التوحيد والطاعة والعبادة ومن فتح اللام من المخلصين يكون المعنى الا من أخلصته واصطفيته لتوحيدك وعبادتك وانما استثنى ابليس المخلصين لانه علم ان كيده ووسوسته لا تعمل فيهم ولا يقبلون منه وحقيقة الاخلاص فعل الشئ خالصا لله عن شائبة الغير فكل من أتى بعمل من أعمال الطاعات فلا يخلو اما أن يكون مراده بتلك الطاعة وجه الله فقط أو غير الله أو مجموع الامرين أما ما كان لله تعالى فهو الخالص المقبول وأما ما كان لغير الله فهو الباطل المردود وأما من كان مراده مجموع الامرين فان ترجح جانب الله تعالى كان من المخلصين الناجين وان ترجح الجانب الآخر كان من الهالكين لان المثل يقابله المثل فيبقى القدر الزائد والى أي الجانبين رجح أخذ به (قال) يعني قال الله تبارك وتعالى (هذا صراط على مستقيم) قال الحسن معناه هذا صراط الى مستقيم وقال مجاهد الحق يرجع الى الله وعليه طريقه لا يعرج الى شئ وقال الاخفش معناه على الدلالة على الصراط المستقيم وقال الكسائي هذا على طريق التهديد والتوعيد كما يقول الرجل لمن يخاصمه طريقك على أي لا تفلت مني وقيل معناه على استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية وقيل هذا عائد الى الاخلاص والمعنى ان الاخلاص طريق علي والى يؤدي الى كرامتي ورضواني (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) أي قوة وقدرة وذلك ان ابليس لما قال لأزينن لهم في الارض ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين أوهم بهذا الكلام ان له سلطانا على غير المخلصين فبين الله سبحانه وتعالى انه ليس له سلطان على احد من عبيده سواء كان من المخلصين أو لم يكن من المخلصين قال اهل المعاني ليس لك عليهم سلطان على قلوبهم وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال معناه ليس لك عليهم سلطان ان تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي وهؤلاء خاصته أي الذين هداهم واجتباهم من عباده (الا من اتبعك من الغاوين) يعني الا من اتبع ابليس من الغاوين فان له عليهم سلطانا بسبب كونهم منقادين له فيما يأمرهم به (وان جهنم لموعدهم أجمعين) يعني موعد ابليس وأشياعه واتباعه (لها) يعني لجهنم (سبعة أبواب) يعني سبع طبقات قال علي بن أبي طالب تدرون كيف أبواب جهنم هكذا ووضع احدى يديه على الاخرى أي سبعة أبواب بعضها فوق بعض قال ابن جريج النار سبع دركات أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية (لكل باب منهم جزء مقسوم) يعني لكل دركة قوم

(قال رب فانظرني) فأخرني (الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) يوم الدين ويوم يبعثون ويوم الوقت المعلوم في معنى واحد ولكن خولف بين العبارات سلوكا بالكلام طريقة البلاغة وقيل انما سأل الانظار الى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت لانه لا يموت يوم البعث أحد فلم يجب الى ذلك وأنظر الى آخر أيام التكليف (قال رب بما أغويتني) الباء للقسم وما مصدرية وجواب القسم لأزينن لهم والمعنى أقسم باغوائك اياي (لأزينن لهم) المعاصي ونحو قوله بما أغويتني لأزينن لهم فبعزتك لأغوينهم في انه اقسام الا ان أحدهما اقسام بصفة الذات والثاني بصفة الفعل وقد فرق الفقهاء بينهما فقال العراقيون الحلف بصفة الذات كالقدرة والعظمة والعزة يمين والحلف بصفة الفعل كالرحمة والسخط ليس بيمين والاصح ان الايمان مبنية على العرف فما تعارف الناس الحلف به يكون يمينا وما لا فلا والآية حجة على المعتزلة في خلق الافعال وحملهم على التسبيب عدول عن الظاهر (في الارض) في الدنيا التي هي دار الغرور وأراد اني اقدر على الاحتيال لآدم والتزيين له الاكل من الشجرة وهو في السماء فأنا على التزيين لاولاده في الارض اقدر (ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين) وبكسر اللام بصري ومكي وشامي استثنى المخلصين لانه علم ان كيده لا يعمل فيهم ولا يقبلونه منه (قال هذا صراط على مستقيم ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) أي هذا طريق حق على أن اراعيه وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادي الا من اختار اتباعك منهم لغوايته وقيل معنى على الى على يعقوب من علو الشرف والفضل (وان جهنم لموعدهم أجمعين) الضمير للغاوين (لها سبعة أبواب لكل باب منهم) من اتباع ابليس (جزء مقسوم) نصيب معلوم مفرز قيل أبواب النار اطباقها وادراكها فأعلاها للموحدين يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون والثاني لليهود والثالث للنصارى والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركين والسابع للمنافقين

يسكنونها والجزء بعض الشيء وجزأته جعلته اجزاء والمعنى أن الله سبحانه وتعالى يجزئ اتباع ابليس
سبعة أجزاء فيدخل كل قسم منهم دركة من النار والسبب فيه ان مراتب الكفر مختلفة فلذلك اختلفت
مراتبهم في النار قال الضحاك في الدركة الاولى اهل التوحيد الذين ادخلوا النار يعذبون فيها بقدر
ذنوبهم ثم يخرجون منها وفي الثانية النصارى وفي الثالثة اليهود وفي الرابعة الصابئون وفي الخامسة
المجوس وفي السادسة أهل الشرك وفي السابعة المنافقون فذلك قوله سبحانه وتعالى ان المنافقين في
الدرك الاسفل من النار عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجهنم سبعة ابواب باب منها لمن سل
السيف على امتي او قال على امة محمد صلى الله عليه وسلم اخرجه الترمذي وقال حديث غريب قوله
سبحانه وتعالى (ان المتقين في جنات وعيون) المراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك والمعاصي والجنات
البساتين والعيون الانهار الجارية في الجنات وقيل يحتمل ان تكون هذه العيون غير الانهار الكبار
التي في الجنة وعلى هذا فهل يختص كل واحد من اهل الجنة بعيون او تجري هذه العيون من بعضهم الى
بعض وكلا الامرين محتمل فيحتمل ان كل واحد من اهل الجنة يختص بعيون تجري في جنانه وقصوره
ودوره فينتفع بها هو ومن يختص به من حوره وولدانه ويحتمل انها تجري من جنات بعضهم الى جنات
بعض لانهم قد طهروا من الحسد والحقد (ادخلوها) اي يقال لهم ادخلوها والقائل هو الله تعالى
او بعض ملائكته (بسلام آمنين) يعني ادخلوا الجنة مع السلامة والأمن من الموت ومن جميع
الآفات (ونزعنا ما في صدورهم من غل) الغل الحقد الكامن في القلب ويطلق على الشحناء والعداوة
والبغضاء والحسد وكل هذه الخصال المذمومة داخلة في الغل لانها كامنة في القلب يروى ان
المؤمنين يحبسون على باب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى الجنة وقد نقيت قلوبهم من
الغل والغش والحقد والحسد (اخوانا) يعني في المحبة والمودة والمخالطة وليس المراد منه أخوة النسب
(على سرر) جمع سرير قال بعض أهل المعاني السرير مجلس رفيع عال مهيأ للسرور وهو مأخوذ منه
لانه مجلس سرور وقال ابن عباس على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل
صنعاء الى الجابية (متقابلين) يعني يقابل بعضهم بعضا لا ينظر أحد منهم في قفا صاحبه وفي بعض
الاخبار ان المؤمن في الجنة اذا أراد أن يلقى أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما الى صاحبه فيلتقيان
ويتحدثان (لا يمسهم فيها) يعني في الجنة (نصب) أي تعب ولا اعياء (وما هم منها) يعني من الجنة
(بمخرجين) هذا نص من الله في كتابه على خلود أهل الجنة في الجنة والمراد منه خلود بلا زوال وبقاء
بلا فناء وكمال بلا نقصان وفوز بلا حرمان قوله سبحانه وتعالى (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم)
قال ابن عباس يعني لمن تاب منهم وروي ان النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه وهم يضحكون
فقال أتضحكون وبين أيديكم النار فنزل جبريل بهذه الآية وقال يقول لك ربك يا محمد لم تقنط عبادي
ذكره البغوي بغير سند (وأن عذابي هو العذاب الاليم) قال قتادة بلغنا ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه يعني لقتل نفسه (خ)
عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله سبحانه وتعالى خلق الرحمة
يوم خلقها مائة رحمة فامسك عنده تسعا وتسعين رحمة وأدخل في خلقه كلهم رحمة واحدة فلو يعلم
الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب
لم يأمن من النار وفي الآية لطائف منها انه سبحانه وتعالى أضاف العباد الى نفسه بقوله نبئ عبادي
وهذا تشريف وتعظيم لهم الا ترى انه لما أراد ان يشرف محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على
قوله سبحان الذي أسرى بعبده ليلا فكل من اعترف على نفسه بالعبودية لله تعالى فهو داخل في هذا
التشريف العظيم ومنها انه سبحانه وتعالى لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة أولها
قوله أني وثانيها أنا وثالثها ادخال الالف واللام في الغفور الرحيم وهذا يدل على تغليب جانب الرحمة

والمغفرة

(ان المتقين في جنات وعيون) وبضم العين
مدني وبصري وحفص المتقي على الاطلاق من
يتقي ما يجب اتقاؤه مما نهي عنه وقال في الشرح
ان دخل أهل الكبائر في قوله لها سبعة ابواب
لكل باب منهم جزء مقسوم فالمراد بالمتقين الذين
اتقوا الكبائر والا فالمراد به الذين اتقوا الشرك
(ادخلوها) اي يقال لهم ادخلوها (بسلام)
حال أي سالمين او مسلما عليكم تسلم عليكم
الملائكة (آمنين) من الخروج منها والآفات
فيها وهو حال اخرى (ونزعنا ما في صدورهم من
غل) وهو الحقد الكامن في القلب أي ان كان
لاحدهم غل في الدنيا على آخر نزع الله ذلك
في الجنة من قلوبهم وطيب نفوسهم وعن علي
رضي الله عنه ارجو ان أكون أنا وعثمان
وطلحة والزبير منهم وقيل معناه طهر الله قلوبهم
من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنة ونزع
منها كل غل وألقى فيها التوادد والتحابب
(اخوانا) حال (على سرر متقابلين) كذلك
قيل تدور بهم الاسرة حيثما داروا فيكونون
في جميع احوالهم متقابلين يرى بعضهم بعضا
(لا يمسهم فيها نصب) في الجنة تعب (وما هم
منها بمخرجين) فتمام النعمة بالخلود ولما أتم
ذكر الوعد والوعيد اتبعه (نبئ عبادي أني
أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الاليم)
تقريرا لما ذكر وتمكينا له في النفوس قال
عليه السلام لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع
عن حرام ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه في العبادة
ولما أقدم على ذنب وعطف

(ونبئهم) واخبر أمتك على نبئ عبادى ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين ويتحققوا عنده ان عذابه هو العذاب الاليم (عن ضيف ابراهيم) أى اضيافه وهو جبريل عليه السلام مع أحد عشر ملكا والضيف يجئ واحدا وجمعا لانه مصدر ضافه (اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما) أى نسلم عليك سلاما أو سلمنا سلاما (قال) أى ابراهيم (انا منكم وجلون) خائفون لامتناعهم من الاكل أو لدخولهم بغير اذن وبغير وقت (قالوا لا توجل) لا تخف (انا نبشرك) استئناف فى معنى التعليل للنهى عن الوجل اى انك مبشر آمن فلا توجل وبالتخفيف وفتح النون حمزة (بغلام عليم) هو اسحاق لقوله فى سورة هود فبشرناها باسحاق (قال أبشرتمونى على ان مسنى الكبر) أى أبشرتمونى مع مس الكبر بأن يولد لى أى ان الولادة أمر مستنكر عادة مع الكبر (فبم تبشرون) هى ما الاستفهامية دخلها معنى التعجب كأنه قيل فبأى أعجوبة تبشرون وبكسر النون والتشديد مكى والاصل تبشروننى فادغم نون الجمع فى نون العماد ثم حذفت الياء وبقيت الكسرة دليلا عليها تبشرون بالتخفيف نافع والاصل تبشروننى فحذفت الياء اجتزاء بالكسرة وحذف نون الجمع لاجتماع النونين الباقون بفتح النون وحذف المفعول والنون نون الجمع (قالوا بشرناك بالحق) باليقين الذى لا لبس فيه (فلا تكن من القانطين) من الآيسين من ذلك (قال) ابراهيم (ومن يقنط) وبكسر النون بصرى وعلى (من رحمة ربه الا الضالون) الا المخطئون طريق الصواب أو الا الكافرون كقوله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون أى لم استنكر ذلك قنوطا من رحمته ولكن استبعادا له فى العادة التى اجراها (قال فما خطبكم) فما شأنكم (أيها المرسلون قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين) أى قوم لوط (الا آل لوط) يريد اهله المؤمنين والاستثناء منقطع لان القوم موصوفون بالاجرام والمستثنى ليس كذلك أو متصل فيكون استثناء من الضمير فى مجرمين كأنه قيل الى قوم قد اجرموا كلهم الا آل لوط وحدهم والمعنى يختلف باختلاف الاستثناءين لان آل لوط مخرجون فى المنقطع من حكم الارسال يعنى انهم ارسلوا الى القوم المجرمين خاصة ولم يرسلوا الى آل لوط أصلا ومعنى ارسالهم الى القوم المجرمين كارسال السهم الى المرمى فى انه فى معنى التعذيب والاهلاك كأنه قيل انا أهلكنا قوما مجرمين ولكن آل لوط انجيناهم واما فى المتصل فهم داخلون فى حكم الارسال يعنى ان الملائكة ارسلوا اليهم جميعا ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء واذا انقطع الاستثناء جرى (انا لمنجوهم اجمعين) مجرى خبر لكن فى الاتصال بآل لوط لان المعنى لكن آل لوط منجون واذا اتصل كان كلاما مستأنفا كان ابراهيم عليه السلام قال لهم فما حال آل لوط فقالوا انا لمنجوهم (الا امرأته) مستثنى من الضمير المجرور فى لمنجوهم وليس باستثناء من الاستثناء لان الاستثناء من الاستثناء انما يكون فيما اتحد الحكم فيه بأن يقول اهلكناهم الا آل لوط الا امرأته وهنا قد اختلف الحكمان لان الا آل لوط متعلق بارسلنا أو بمجرمين والا امرأته متعلق بمنجوهم فكيف يكون استثناء من استثناء لمنجوهم بالتخفيف حمزة وعلى (قدرنا) وبالتخفيف أبو بكر (انها لمن الغابرين) الباقين فى العذاب قيل لو لم تكن اللام فى خبرها لوجب فتح ان لانه مع اسمه وخبره مفعول قدرنا ولكنه كقوله ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون وانما اسند الملائكة فعل التقدير الى أنفسهم ولم يقولوا قدر الله لقربهم كما تقول خاصة الملك أمرنا بكذا والآمر هو الملك (فلما جاء آل لوط المرسلون قال انكم قوم منكرون) أى لا اعرفكم أى ليس عليكم زى السفر ولا انتم من اهل الحضر فاخاف ان تطرقونى بشر

والمغفرة ولما ذكر العذاب لم يقل انى أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال وأن عذابى هو العذاب الاليم على سبيل الاخبار ومنها انه سبحانه وتعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ان يبلغ عباده هذا المعنى فكأنه اشهد رسوله على نفسه فى التزام المغفرة والرحمة قوله سبحانه وتعالى (ونبئهم عن ضيف ابراهيم) هذا معطوف على ما قبله أى واخبر يا محمد عبادى عن ضيف ابراهيم وأصل الضيف الميل يقال أضفت الى كذا اذا ملت اليه والضيف من مال اليك نزولا بك وصارت الضيافة متعارفة فى القرى وأصل الضيف مصدر ولذلك استوى فيه الواحد والجمع فى عامة كلامهم وقد يجمع فيقال اضياف وضيوف وضيفان وضيف ابراهيم هم الملائكة الذين ارسلهم الله سبحانه وتعالى ليبشروا ابراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط (اذ دخلوا عليه) يعنى اذ دخل الاضياف على ابراهيم عليه السلام (فقالوا سلاما) أى نسلم سلاما (قال) يعنى ابراهيم (انا منكم وجلون) اى خائفون وانما خاف ابراهيم منهم لانهم لم يأكلوا طعامه (قالوا لا توجل) يعنى لا تخف (انا نبشرك بغلام عليم) يعنى انهم بشروه بولد ذكر غلام فى صغره عليم فى كبره وقيل عليم بالاحكام والشرائع والمراد به اسحاق عليه السلام فلما بشروه بالولد عجب ابراهيم من كبره وكبر امرأته (قال أبشرتمونى) يعنى بالولد (على ان مسنى الكبر) يعنى على حالة الكبر قاله على طريق التعجب (فبم تبشرون) يعنى فبأى شئ تبشرون وهو استفهام بمعنى التعجب كأنه عجب من حصول الولد على الكبر (قالوا بشرناك بالحق) يعنى بالصدق الذى قضاه الله بان يخرج منك ولدا ذكرا تكثر ذريته وهو اسحاق (فلا تكن من القانطين) يعنى فلا تكن من الآيسين من الخير والقنوط هو الاياس من الخير (قال) يعنى ابراهيم (ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون) يعنى من ييأس من رحمة ربه الا المكذبون وفيه دليل على ان ابراهيم عليه السلام لم يكن من القانطين ولكنه استبعد حصول الولد على الكبر فظنت الملائكة ان به قنوطا فنفى ذلك عن نفسه واخبر ان القانط من رحمة الله تعالى من الضالين لان القنوط من رحمة الله كبيرة كالأمن من مكر الله ولا يحصل الا عند من يجهل كون الله تعالى قادرا على ما يريد ومن يجهل كونه سبحانه وتعالى عالما بجميع المعلومات فكل هذه الامور سبب للضلالة (قال) يعنى ابراهيم (فما خطبكم) يعنى فما شأنكم وما الامر الذى جئتم فيه (أيها المرسلون) والمعنى ما الامر الذى جئتم به سوى ما بشرتمونى به من الولد (قالوا) يعنى الملائكة (انا أرسلنا الى قوم مجرمين) يعنى لهلاك قوم مجرمين (الا آل لوط) يعنى أشياعه وأتباعه من أهل دينه (انا لمنجوهم أجمعين الا امرأته) يعنى امرأة لوط (قدرنا) يعنى قضينا وانما أسند الملائكة القدر الى أنفسهم وان كان ذلك لله عز وجل لاختصاصهم بالله وقربهم منه كما تقول خاصة الملك نحن أمرنا ونحن فعلنا وان كان قد فعلوه بأمر الملك (انها لمن الغابرين) يعنى لمن الباقين فى العذاب والاستثناء من النفى اثبات ومن الاثبات نفى فاستثناء امرأة لوط من الناجين يلحقها بالهالكين (فلما جاء آل لوط المرسلون) وذلك ان الملائكة عليهم السلام لما بشروا ابراهيم بالولد وعرفوه بما ارسلوا به ساروا الى لوط وقومه فلما دخلوا على لوط (قال انكم قوم منكرون) وانما قال هذه المقالة لوط لانهم دخلوا عليه وهم فى زى شبان

(قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) أي ما جئناك بما تنكرنا لاجله بل جئناك بما فيه سرورك وتشفيك من اعدائك وهو العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله فيمترون فيه أي يشكون ويكذبونك (وأتيناك بالحق) باليقين من عذابهم (وانا لصادقون) في الاخبار بنزوله بهم (فأسر بأهلك بقطع من الليل) في آخر الليل أو بعد ما يمضي شيء صالح من الليل (واتبع ادبارهم) وسر خلفهم لتكون مطلعا عليهم وعلى أحوالهم (ولا يلتفت منكم أحد) لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم أو جعل النهي عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف لان من يلتفت لابد له في ذلك من أدنى وقفة (وامضوا حيث تؤمرون) حيث أمركم الله بالمضي اليه وهو الشام أو مصر (وقضينا اليه ذلك الامر) عدي قضينا بالى لانه ضمن معنى أوحينا كانه قيل وأوحينا اليه مقضيا مبتوتا وفسر ذلك الامر بقوله (أن دابر هؤلاء مقطوع) وفي ابهامه وتفسيره تفخيم للامر ودابرهم آخرهم أي يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد (مصبحين) وقت دخولهم في الصبح وهو حال من هؤلاء (وجاء أهل المدينة) سدوم التي ضرب بقاضيها المثل في الجور (يستبشرون) بالملائكة طمعا منهم في ركوب الفاحشة (قال) لوط (ان هؤلاء ضيفي فلا تفضحون) بفضيحة ضيفي لان من اساء الى ضيفي فقد اساء الي (واتقوا الله ولا تخزون) أي ولا تذلوني باذلال ضيفي من الخزي وهو الهوان وبالياء فيهما يعقوب (قالوا أولم ننهك عن العالمين) عن أن تجير منهم أحدا أو تدفع عنهم فانهم كانوا يتعرضون لكل أحد وكان عليه السلام يقوم بالنهي عن المنكر والحجز بينهم وبين المتعرض له فأوعدوه وقالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين أو عن ضيافة الغرباء (قال هؤلاء بناتي) فانكحوهن وكان نكاح المؤمنات من الكفار جائزا ولا تتعرضوا لهم (ان كنتم فاعلين) ان كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما احل الله دون ما حرم فقالت الملائكة للوط عليه السلام (لعمرك انهم لفي سكرتهم) اي في غوايتهم التي اذهبت عقولهم وتمييزهم بين الخطا الذي هم عليه وبين الصواب الذي تشير به عليهم من ترك البنين الى البنات (يعمهون) يتحيرون فكيف يقبلون قولك ويصغون الى نصيحتك او الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قسم بحياته وما اقسم بحياة أحد قط تعظيما له والعمر والعمر واحد وهو البقاء الا انهم خصوا القسم بالمفتوح ايثارا للاخف لكثرة دور الحلف على السنتهم ولذا حذفوا الخبر وتقديره لعمرك قسمي (فأخذتهم الصيحة) صيحة جبريل عليه السلام (مشرقين) داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس (فجعلنا عاليها سافلها) رفعها جبريل عليه السلام الى السماء ثم قلبها والضمير لقرى قوم لوط (وامطرنا عليهم حجارة من سجيل ان في ذلك لآيات للمتوسمين) للمتفرسين المتأملين كانهم يعرفون باطن الشيء بسمة ظاهرة

مردان حسان الوجوه فخاف ان يهجم عليهم قومه فلهذا السبب قال هذه المقالة وقيل ان النكرة ضد المعرفة فقوله انكم قوم منكرون يعني لا أعرفكم ولا اعرف من أي الاقوام أنتم ولا لأي غرض دخلتم علي فعند ذلك (قالوا) يعني الملائكة (بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) يعني جئناك بالعذاب الذي كانوا يشكون فيه (وأتيناك بالحق) يعني باليقين الذي لا شك فيه (وانا لصادقون) يعني فيما أخبرناك به من اهلاكهم (فأسر بأهلك بقطع من الليل) يعني آخر الليل والقطع القطعة من الشيء وبعضه (واتبع أدبارهم) يعني واتبع آثار أهلك وسر خلفهم (ولا يلتفت منكم أحد) يعني حتى لا يرى ما نزل بقومه من العذاب فيرتاع بذلك وقيل المراد الاسراع في السير وترك الالتفات الى ورائه والاهتمام بما خلفه كما تقول امض لشأنك ولا تعرج على شيء وقيل جعل ترك الالتفات علامة لمن ينجو من آل لوط ولئلا يتخلف أحد منهم فيناله العذاب (وامضوا حيث تؤمرون) قال ابن عباس يعني الى الشام وقيل الى الاردن وقيل الى حيث يأمركم جبريل وذلك ان جبريل أمرهم أن يسيروا الى قرية معينة ما عمل أهلها عمل قوم لوط (وقضينا اليه ذلك الامر) يعني وأوحينا الى لوط ذلك الامر الذي حكمنا به على قومه وفرغنا منه ثم ان الله سبحانه وتعالى فسر ذلك الامر الذي قضاه بقوله (ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) يعني ان هؤلاء القوم يستأصلون عن آخرهم بالعذاب وقت الصبح وانما أبهم الامر الذي قضاه عليهم أولا وفسره ثانيا تفخيما له وتعظيما لشأنه (وجاء أهل المدينة) يعني مدينة سدوم وهي مدينة قوم لوط (يستبشرون) يعني يبشر بعضهم بعضا بأضياف لوط والاستبشار اظهار الفرح والسرور وذلك ان الملائكة لما نزلوا على لوط ظهر أمرهم في المدينة وقيل ان امرأته اخبرتهم بذلك وكانوا شبانا مردا في غاية الحسن ونهاية الجمال فجاء قوم لوط الى داره طمعا منهم في ركوب الفاحشة (قال) يعني قال لوط لقومه (ان هؤلاء ضيفي) وحق على الرجل اكرام ضيفه (فلا تفضحون) يعني فيهم يقال فضحه يفضحه اذا اظهر من أمره ما يلزمه العار بسببه (واتقوا الله) يعني خافوا الله في أمرهم (ولا تخزون) يعني ولا تخجلون (قالوا) يعني قوم لوط الذين جاؤا اليه (أولم ننهك عن العالمين) يعني أولم ننهك ان تضيف أحدا من العالمين وقيل معناه أولم ننهك ان تدخل الغرباء الى بيتك فانا نريد أن نركب منهم الفاحشة وقيل معناه السنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من العالمين اذا قصدناه بالفاحشة (قال) يعني قال لوط لقومه الذين قصدوا اضيافه (هؤلاء بناتي) ازوجكم اياهن ان اسلمتم فأتوا الحلال ودعوا الحرام وقيل أراد بالبنات نساء قومه لان النبي كالوالد لامته (ان كنتم فاعلين) يعني ما آمركم به (لعمرك) الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس معناه وحياتك يا محمد وقال ما خلق الله نفسا اكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم وما اقسم بحياة أحد الا بحياته والعمر والعمر واحد وهو اسم لمدة عمارة بدن الانسان بالحياة والروح وبقائه مدة حياته قال النحويون ارتفع لعمرك بالابتداء والخبر محذوف والمعنى لعمرك قسمي فحذف الخبر لان في الكلام دلالة عليه (انهم لفي سكرتهم) يعني في حيرتهم وضلالتهم وقيل في غفلتهم (يعمهون) يعني يترددون متحيرين وقال قتادة يلعبون (فأخذتهم الصيحة مشرقين) يعني حين اضاءت الشمس فكان ابتداء العذاب الذي نزل بهم وقت الصبح وتمامه وانتهاؤه حين اشرقت الشمس (فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) تقدم تفسيره في سورة هود (ان في ذلك) يعني الذي نزل بهم من العذاب (لآيات للمتوسمين) قال ابن عباس للناظرين وقال قتادة للمعتبرين وقال مقاتل للمتفكرين وقال مجاهد للمتفرسين ويعضد هذا

التأويل ما روى عن ابى سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله ثم قرأ ان فى ذلك لآيات للمتوسمين أخرجه الترمذى وقال حديث غريب الفراسة بالكسر اسم من قولك تفرست فى فلان الخير وهى على نوعين احدهما مادل عليه ظاهر الحديث وهو ما يوقعه الله فى قلوب اوليائه فيعلمون بذلك أحوال الناس بنوع من الكرامات واصابة الحدس والنظر والظن والتثبت والنوع الثانى ما يحصل بدلائل التجارب والخلق والاخلاق تعرف بذلك أحوال الناس أيضا وللناس فى علم الفراسة تصانيف قديمة وحديثة قال الزجاج حقيقة المتوسمين فى اللغة المتثبتين فى نظرهم حتى يعرفوا سمة الشئ وصفته وعلامته فالمتوسم الناظر فى سمة الدلائل تقول توسمت فى فلان كذا أى عرفت وسم ذلك وسمته (وانها) يعنى قرى قوم لوط (لبسبيل مقيم) يعنى لطريق واضح قال مجاهد لطريق معلم ليس بخفى ولا زائل والمعنى ان آثار ما أنزل الله بهذه القرى من عذابه وغضبه لبسبيل مقيم ثابت لم يدثر ولم يخف والذين يمرون عليها من الحجاز الى الشام يشاهدون ذلك ويرون أثره (ان فى ذلك) يعنى الذى ذكر من عذاب قوم لوط وما نزل بهم (لآيات للمؤمنين) يعنى المصدقين بما انزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم (وان كان أصحاب الأيكة لظالمين) يعنى كان أصحاب الأيكة وهى الغيضة واللام فى قوله لظالمين للتأكيد وهم قوم شعيب عليه السلام كانوا أصحاب غياض وشجر ملتف وكان عامة شجرهم المقل وكانوا قوما كافرين فبعث الله عز وجل اليهم شعيبا رسولا فكذبوه فأهلكهم الله فهو قوله تعالى (فانتقمنا منهم) يعنى بالعذاب وذلك ان الله سبحانه وتعالى سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى أخذ بأنفاسهم وقربوا من الهلاك فبعث الله سبحانه وتعالى سحابة كالظلة فالتجؤا اليها واجتمعوا تحتها يلتمسون الروح فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم جميعا (وانهما) يعنى مدينة قوم لوط ومدينة أصحاب الايكة (لبامام مبين) يعنى لطريق واضح مستبين لمن مر بهما وقيل الضمير راجع الى الايكة ومدين لان شعيبا كان مبعوثا اليهما وانما سمى الطريق اماما لانه يؤم ويتبع ولان المسافر يأتم به حتى يصير الى الموضع الذى يريده قوله عز وجل (ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) قال المفسرون الحجر اسم واد كان يسكنه ثمود وهو معروف بين المدينة النبوية والشام وآثاره موجودة باقية يمر عليها ركب الشام الى الحجاز وأهل الحجاز الى الشام وأراد بالمرسلين صالحا وحده وانما ذكره بلفظ الجمع للتعظيم أو لانهم كذبوه وكذبوا من قبله من الرسل (وآتيناهم آياتنا) يعنى الناقة وولدها والآيات التى كانت فى الناقة خروجها من الصخرة وعظم جثتها وقرب ولادها وغزارة لبنها وانما أضاف الآيات اليهم وان كانت لصالح لانه مرسل اليهم بهذه الآيات (فكانوا عنها) يعنى عن الآيات (معرضين) يعنى تاركين لها غير ملتفتين اليها (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) يعنى خوفا من الخراب أو ان يقع عليهم الجبل أو السقف (فأخذتهم الصيحة) يعنى العذاب (مصبحين) يعنى وقت الصبح (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) يعنى من الشرك والاعمال الخبيثة (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا انفسهم ان يصيبكم ما اصابهم الا ان تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادى قوله سبحانه وتعالى (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق) يعنى لاظهار الحق والعذاب وهو أن يثاب المؤمن والمصدق ويعاقب الجاحد الكافر الكاذب (وان الساعة لآتية) يعنى وان القيامة لتأتى ليجازى المحسن باحسانه والمسئ باساءته (فاصفح الصفح الجميل) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى فأعرض عنهم يا محمد واعف عنهم عفوا حسنا واحتمل ما تلقى من اذى قومك وهذا الصفح والاعراض منسوخ بآية القتال وقيل فيه بعد لان الله سبحانه وتعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم ان يظهر الخلق الحسن وان يعاملهم بالعفو والصفح الخالى من الجزع والخوف (ان ربك هو الخلاق العليم) يعنى انه سبحانه

(وانها) وان هذه القرى يعنى آثارها (لبسبيل مقيم) ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد وهم يبصرون تلك الآثار وهو تنبيه لقريش كقوله وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل (ان فى ذلك لآية للمؤمنين) لانهم المنتفعون بذلك (وان كان أصحاب الايكة) وان الامر والشأن كان أصحاب الايكة اى الغيضة (لظالمين) لكافرين وهم قوم شعيب عليه السلام (فانتقمنا منهم) فاهلكناهم لما كذبوا شعيبا (وانهما) يعنى قرى قوم لوط والايكة (لبامام مبين) لبطريق واضح والامام اسم ما يؤتم به فسمى به الطريق ومطمر البناء لانهما مما يؤتم به (ولقد كذب اصحاب الحجر المرسلين) هم ثمود والحجر واديهم وهو بين المدينة والشام المرسلين يعنى بتكذيبهم صالحا لان كل رسول كان يدعو الى الايمان بالرسل جميعا فمن كذب واحدا منهم فكأنما كذبهم جميعا أو اراد صالحا ومن معه من المؤمنين كما قيل الخبيبون فى ابن الزبير واصحابه (وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين) أى اعرضوا عنها ولم يؤمنوا بها (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا) أى ينقبون فى الجبال بيوتا أو يبنون من الحجارة (آمنين) لوثاقة البيوت واستحكامها من ان تنهدم ومن نقب اللصوص والاعداء أو آمنين من عذاب الله يحسبون ان الجبال تحميهم منه (فأخذتهم الصيحة) العذاب (مصبحين) فى اليوم الرابع وقت الصبح (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) من بناء البيوت الوثيقة واقتناء الاموال النفيسة (وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق) الا خلقا ملتبسا بالحق لا باطلا وعبثا أو بسبب العدل والانصاف يوم الجزاء على الاعمال (وان الساعة) أى القيامة لتوقعها كل ساعة (لآتية) وان الله ينتقم لك فيها من اعدائك ويجازيك واياهم على حسناتك وسيئاتهم فانه ما خلق السموات والارض وما بينهما الا لذلك (فاصفح الصفح الجميل) فأعرض عنهم اعراضا جميلا بحلم واغضاء قيل هو منسوخ بآية السيف وان أريد به المخالفة فلا يكون منسوخا (ان ربك هو الخلاق) الذى خلقك وخلقهم (العليم) بحالك وحالهم فلا يخفى عليه ما يجرى بينكم وهو يحكم بينكم

وتعالى خلق خلقه وعلم ماهم فاعلوه وما يصلحهم قوله عزوجل (ولقدآتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) قال ابن الجوزى سبب نزولها ان سبع قوافل وافت من بصرى واذرعات ليهود قريظة والنضير فى يوم واحد فيها انواع من البر والطيب والجواهر فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها وانفقناها فى سبيل الله فانزل الله هذه الآية وقال قد اعطيتكم سبع آيات هى خير من هذه السبع القوافل ويدل على صحة هذا قوله لاتمدن عينيك الآية قال الحسن بن الفضل قلت وهذا القول ضعيف اولا يصح لان هذه السورة مكية باجماع أهل التفسير وليس فيها من المدنى شئ ويهود قريظة والنضير كانوا بالمدينة وكيف يصح ان يقال ان سبع قوافل جاءت فى يوم واحد فيها اموال عظيمة حتى تمناها المسلمون فأنزل الله هذه الآية واخبرهم ان هذه السبع آيات خير من هذه السبع القوافل والله أعلم وفى المراد بالسبع المثانى اقوال احدها انها فاتحة الكتاب وهذا قول عمر وعلى وابن مسعود وفى رواية عنه وابن عباس وفى رواية الاكثرين عنه وأبى هريرة والحسن وسعيد بن جبير وفى رواية عنه ومجاهد وعطاء وقتادة فى آخرين ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى أخرجه أبو داود والترمذى (ق) عن ابى سعيد بن المعلى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته اخرجه البخارى وفيه زيادة أما السبب فى تسمية فاتحة الكتاب بالسبع المثانى فلانها سبع آيات باجماع أهل العلم واختلفوا فى سبب تسميتها بالمثانى فقال ابن عباس والحسن وقتادة لانها تثنى فى الصلاة فتقرأ فى كل ركعة وقيل لانها مقسومة بين العبد وبين الله نصفين فنصفها الاول ثناء على الله ونصفها الثانى دعاء ويدل على صحة هذا التأويل ماروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين الحديث مذكور فى فضل الفاتحة وقيل سميت مثانى لان كلماتها مثناة مثل قوله الرحمن الرحيم اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين فكل هذه الفاظ مثناة وقال الحسن بن الفضل لانها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة معها سبعون ألف ملك وقال مجاهد لان الله سبحانه وتعالى استثناها وادخرها لهذه الامة فلم يعطها لغيرهم وقال أبو زيد البلخى لانها تثنى أهل الشر عن الشر من قول العرب ثنيت عنانى وقال ابن الزجاج سميت فاتحة الكتاب مثانى لاشتمالها على الثناء على الله تعالى وهو حمد الله وتوحيده وملكه واذا ثبت كون الفاتحة هى السبع المثانى دل ذلك على فضلها وشرفها وانها من أفضل سور القرآن لان افرادها بالذكر فى قوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم مع انها جزء من أجزاء القرآن واحدى سوره لابد وان يكون لاختصاصها بالشرف والفضيلة القول الثانى فى تفسير قوله سبعا من المثانى انها السبع الطوال وهذا قول ابن عمر وابن مسعود وفى رواية عنه وابن عباس وفى رواية عنه وسعيد بن جبير وفى رواية عنه السبع الطوال هى سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف واختلفوا فى السابعة فقيل الانفال مع براءة لانهما كالسورة الواحدة ولهذا لم يكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم وقيل السابعة هى سورة يونس ويدل على صحة هذا القول ماروى عن ثوبان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله سبحانه وتعالى اعطانى السبع الطوال مكان التوراة واعطانى المئين مكان الانجيل واعطانى مكان الزبور المثانى وفضلنى ربى بالمفصل أخرجه البغوى باسناد الثعلبى قال ابن عباس انما سميت السبع الطوال مثانى لان الفرائض والحدود والامثال والخبر والعبر ثنيت فيها وأورد على هذا القول ان هذه السور الطوال غالبها مدنيات فكيف يمكن تفسير هذه الآية بها وهى مكية وأجيب عن هذا الايراد بأن الله سبحانه وتعالى حكم فى سابق علمه بانزال هذه السورة على النبى صلى الله عليه وسلم واذا كان الامر كذلك صح ان تفسر هذه الآية بهذه السورة القول الثالث ان السبع المثانى هى السور التى هى دون الطوال وفوق المفصل وهى المئين وحجة هذا

(ولقدآتيناك سبعا) أى سبع آيات وهى الفاتحة أو سبع سور وهى الطوال واختلف فى السابعة فقيل الانفال وبراءة لانهما فى حكم سورة بدليل عدم التسمية بينهما وقيل سورة يونس أو اسباع القرآن (من المثانى) هى من التثنية وهى التكرير لان الفاتحة مما تكرر فى الصلاة أو من الثناء لاشتمالها على ما هو ثناء على الله الواحدة مثناة أو مثنية صفة للآية واما السور والاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد ولما فيها من الثناء كأنها تثنى على الله واذا جعلت السبع مثانى فمن للتبيين واذا جعلت القرآن مثانى فمن للتبعيض (والقرآن العظيم) هذا ليس بعطف الشئ على نفسه لانه اذا أريد بالسبع الفاتحة أو الطوال فما وراءهن ينطلق عليه اسم القرآن لانه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل دليله قوله بما أوحينا اليك هذا القرآن يعنى سورة يوسف واذا أريد به الاسباع فالمعنى ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثانى والقرآن العظيم أى الجامع لهذين النعتين وهو الثناء والتثنية

القول الحديث المتقدم واعطانى مكان الزبور المثانى والقول الرابع ان السبع المثانى هى القرآن كله وهذا قول طاوس ووجه هذا القول ان الله سبحانه وتعالى قال الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى وسمى القرآن كله مثانى لان الاخبار والقصص والامثال ثنيت فيه فان قلت كيف يصح عطف القرآن فى قوله والقرآن العظيم على قوله سبعا من المثانى وهل هو الا عطف الشئ على نفسه قلت اذا عنى بالسبع المثانى فاتحة الكتاب أو السبع الطوال فما وراءهن ينطلق عليه القرآن لان القرآن اسم يقع على البعض كما يقع على الكل ألا ترى الى قوله بما أوحينا اليك هذا القرآن يعنى سورة يوسف عليه السلام واذا عنى بالسبع المثانى القرآن كله كان المعنى ولقد آتيناك سبعا من المثانى وهى القرآن العظيم وانما سمى القرآن عظيما لانه كلام الله ووحيه انزله على خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم قوله (لاتمدن عينيك) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى لاتمدن عينيك يا محمد (الى ما متعنا به أزواجا) يعنى أصنافا (منهم) يعنى من الكفار متمنيا لها نهى الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم عن الرغبة فى الدنيا ومزاحمة أهلها عليها والمعنى انك قد أوتيت القرآن العظيم الذى فيه غنى عن كل شئ فلا تشغل قلبك وسرك بالالتفات الى الدنيا والرغبة فيها وروى ان سفيان بن عيينة تأول قول النبى صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن يعنى لم يستغن بالقرآن فتأول هذه الآية قيل انما يكون ماداعينيه الى الشئ اذا ادام النظر اليه مستحسنا له فيحصل له من ذلك تمنى ذلك الشئ المستحسن فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينظر الى شئ من متاع الدنيا ولا يلتفت اليه ولا يستحسنه (ولا تحزن عليهم) يعنى ولا تغتم على ما فاتك من مشاركتهم فى الدنيا وقيل ولا تحزن على ايمانهم اذا لم يؤمنوا ففيه النهى عن الالتفات الى أموال الكفار والالتفات اليهم أيضا وروى البغوى باسناده عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تغبطن فاجرا بنعمته فانك لا تدرى ما هو لاق بعد موته ان له عند الله قاتلا لا يموت قيل وما هو قال النار (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نظر أحدكم الى من فضل عليه فى المال والخلق فلينظر الى من هو أسفل منه لفظ البخارى ولمسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو أجدر ان لا تزدروا نعمة الله عليكم قال عوف بن عبد الله بن عتبة كنت أصحب الاغنياء فما كان أحد أكثر هما منى كنت أرى دابة خيرا من دابتى وثوبا خيرا من ثوبى فلما سمعت هذا الحديث صحبت الفقراء فاسترحت وقوله سبحانه وتعالى (واخفض جناحك) يعنى لين جانبك (للمؤمنين) وارفق بهم لما نهاه الله سبحانه وتعالى عن الالتفات الى الاغنياء من الكفار أمره بالتواضع واللين والرفق بفقراء المسلمين وغيرهم من المؤمنين (وقل) أى وقل لهم يا محمد (انى أنا النذير المبين) لما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالزهد فى الدنيا والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ ما أرسل به اليهم والنذارة تبليغ مع تخويف والمعنى انى أنا النذير بالعقاب لمن عصانى المبين النذارة (كما أنزلنا على المقتسمين) يعنى أنذركم عذابا كعذاب أنزلناه بالمقتسمين قال ابن عباس أراد بالمقتسمين اليهود والنصارى وهو قول الحسن ومجاهد وقتادة سموا بذلك لانهم آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه فما وافق كتبهم آمنوا به وما خالف كتبهم كفروا به وقال عكرمة انهم اقتسموا سور القرآن فقال واحد منهم هذه السورة لى وقال آخر هذه السورة لى وانما فعلوا ذلك استهزاء به وقال مجاهد انهم اقتسموا كتبهم فآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها وكفر آخرون منهم بما آمن به غيرهم وقال قتادة وابن السائب أراد بالمقتسمين كفار قريش سموا بذلك لان أقوالهم تقسمت فى القرآن فقال بعضهم انه سحر وزعم بعضهم انه كهانة وزعم بعضهم انه أساطير الاولين وقال ابن السائب سموا بالمقتسمين لانهم اقتسموا عقاب مكة وطرقها وذلك ان الوليد ابن المغيرة بعث رهطا من اهل مكة قيل ستة عشر وقيل اربعين فقال لهم انطلقوا وتفرقوا على عقاب مكة وطرقها حيث يمر بكم اهل الموسم فاذا سألوكم عن محمد فليقل بعضكم انه كاهن وليقل بعضكم انه شاعر

أو الثناء والعظم ثم قال لرسوله (لاتمدن عينيك) أى لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمن له (الى ما متعنا به أزواجا منهم) اصنافا من الكفار كاليهود والنصارى والمجوس يعنى قد أوتيت النعمة العظمى التى كل نعمة وان عظمت فهى اليها حقيرة وهى القرآن العظيم فعليك ان تستغنى به ولاتمدن عينيك الى متاع الدنيا وفى الحديث ليس منا من لم يتغن بالقرآن وحديث أبى بكر من أوتى القرآن فرأى ان أحدا أوتى من الدنيا افضل مما أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيرا (ولا تحزن عليهم) انهم لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الاسلام والمسلمون أى لاتتمن أموالهم ولاتحزن عليهم (واخفض جناحك للمؤمنين) وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وطب نفسا عن ايمان الاغنياء (وقل) لهم (انى أنا النذير المبين) أنذركم ببيان وبرهان ان عذاب الله نازل بكم (كما أنزلنا) متعلق بقوله ولقد آتيناك أى أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا (على المقتسمين) وهم أهل الكتاب

وليقل بعضكم انه ساحر فاذا جاؤا الى صدقتكم فذهبوا وقعدوا على عقاب مكة وطرقها يقولون لمن مر بهم
من حجاج العرب لا تغتروا بهذا الخارج الذي يدعي النبوة منا فانه مجنون كاهن وشاعر وقعد الوليد
ابن المغيرة على باب المسجد الحرام فاذا جاؤا وسألوه عما قال اولئك المقتسمون قال صدقوا وقوله سبحانه
وتعالى (الذين جعلوا القرآن عضين) (خ) عن ابن عباس في قوله تعالى الذين جعلوا القرآن عضين قال
هم اليهود والنصارى جزؤه أجزاء آمنوا ببعض وكفروا ببعض قيل هو جمع عضة من قولهم عضيت الشيء اذا
فرقته وجعلته اجزاء وذلك لانهم جعلوا القرآن اجزاء مفرقة فقال بعضهم هو سحر وقال بعضهم هو
كهانة وقال بعضهم هو اساطير الاولين وقيل هو جمع عضة وهو الكذب والبهتان وقيل المراد به
العضة وهو السحر يعني انهم جعلوا القرآن سحرا (فوربك لنسألنهم اجمعين) اقسم الله بنفسه انه يسأل
هؤلاء المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين (عما كانوا يعملون) يعني عما كانوا يقولونه في القرآن وقيل
عما كانوا يعملون من الكفر والمعاصي وقيل يرجع الضمير في لنسألنهم الى جميع الخلق المؤمن والكافر
لان اللفظ عام فحمله على العموم اولى قال جماعة من اهل العلم عن لا اله الا الله عن انس عن النبي صلى الله
عليه وسلم في قوله لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون قال عن قول لا اله الا الله أخرجه الترمذي وقال حديث
غريب وقال أبو العالية يسأل العباد عن خلتين عما كانوا يعبدون وماذا أجابوا المرسلين فان قلت كيف
الجمع بين قوله لنسألنهم أجمعين وبين قوله فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان قلت قال ابن عباس
لا يسألهم هل عملتم لانه أعلم به منهم ولكن يقول لم عملتم كذا واعتمده قطرب فقال السؤال ضربان سؤال
استعلام وهو قوله لنسألنهم أجمعين وسؤال توبيخ وتقريع وجواب آخر وهو مروي عن ابن عباس أيضا
انه قال في الآيتين ان يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف فيسئلون في بعض المواقف ولا يسئلون في بعضها
نظيره قوله سبحانه وتعالى هذا يوم لا ينطقون وقال تعالى في آية أخرى ثم انكم يوم القيامة عند ربكم
تختصمون قوله سبحانه وتعالى (فاصدع بما تؤمر) قال ابن عباس اظهر ويروى عنه امضه وقال
الضحاك أعلم وأصل الصدع الشق والفرق أي افرق بالقرآن بين الحق والباطل أمر النبي صلى الله عليه
وسلم في هذه الآية باظهار الدعوة وتبليغ الرسالة الى من أرسل اليهم قال عبد الله بن عبيدة ما زال النبي
صلى الله عليه وسلم مستخفيا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه (وأعرض عن المشركين) أي
اكفف عنهم ولا تلتفت الى لومهم على اظهار دينك وتبليغ رسالة ربك وقيل أعرض عن الاهتمام
باستهزائهم وهو قوله سبحانه وتعالى (انا كفيناك المستهزئين) ذكر المفسرون ان هذا الاعراض
منسوخ بآية القتال وقال بعضهم ما للنسخ وجه لان معنى الاعراض ترك المبالاة بهم والالتفات اليهم فلا
يكون منسوخا وقوله تعالى انا كفيناك المستهزئين يقول الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم
فاصدع بما أمرتك به ولا تخف أحدا غيري فاني أنا كافيك وحافظك ممن عاداك فانا كفيناك المستهزئين
وكانوا خمسة نفر من رؤساء كفار قريش كانوا يستهزؤن بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالقرآن وهم الوليد بن
المغيرة المخزومي وكان رأسهم والعاص بن وائل السهمي والاسود بن المطلب بن الحارث بن أسد بن
عبد العزى بن زمعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا عليه فقال اللهم أعم بصره واثكله بولده
والاسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة والحارث بن قيس بن الطلاطلة كذا ذكره البغوي
وقال ابن الجوزي الحارث بن قيس بن عيطلة وقال الزهري عيطلة أمه وقيس أبوه فهو منسوب الى
ابيه وأمه قال المفسرون أتى جبريل عليه السلام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمستهزؤن يطوفون
بالبيت فقام جبريل وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنبه فمر به الوليد بن المغيرة فقال جبريل
يا محمد كيف تجد هذا قال بئس عبد الله فقال قد كفيته وأومأ الى ساق الوليد فمر الوليد برجل من خزاعة
نبال يريش نبالا له وعليه برد يماني وهو يجر ازاره فتعلقت شظية من النبل بازار الوليد فمنعه الكبر
أن يطأطئ رأسه فينزعها وجعلت تضرب في ساقه فخدشته فمرض منها فمات ومر بهما العاص بن

(الذين جعلوا القرآن عضين) اجزاء جمع عضة
واصلها عضوة فعلة من عضى الشاة اذا جعلها
اعضاء حيث قالوا بعنادهم بعضه حق موافق
للتوراة والانجيل وبعضه باطل مخالف لهما
فاقتسموه الى حق وباطل وعضوه وقيل كانوا
يستهزؤن به فيقول بعضهم سورة البقرة لي
ويقول الآخر سورة آل عمران لي أو اريد
بالقرآن ما يقرؤنه من كتبهم وقد اقتسموه
فاليهود اقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض
والنصارى اقرت ببعض الانجيل وكذبت ببعض
ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عضين
منصوبا بالنذير أي انذر المعضين الذين يجزؤن
القرآن الى سحر وشعر واساطير مثل ما انزلنا
على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا
مداخل مكة أيام الموسم فقعدوا في كل مدخل
متفرقين لينفروا الناس عن الايمان
برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعضهم
لا تغتروا بالخارج منا فانه ساحر ويقول الآخر
كذاب والآخر شاعر فأهلكهم الله ولا تمدن
عينيك على الوجه الاول اعتراض بينهما لانه لما
كان ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم
عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو مدار
لمعنى التسلية من النهي عن الالتفات الى
دنياهم والتأسف على كفرهم ومن الامر بأن يقبل
بكليته على المؤمنين (فوربك لنسألنهم أجمعين
عما كانوا يعملون) اقسم بذاته وربوبيته ليسألن
يوم القيامة واحدا واحدا من هؤلاء المقتسمين
عما قالوه في رسول الله صلى الله عليه وسلم أو في
القرآن أو في كتب الله (فاصدع بما تؤمر) فاجهر
به وأظهره يقال صدع بالحجة اذا تكلم بها
جهارا من الصديع وهو الفجر أو فاصدع فافرق
بين الحق والباطل من الصدع في الزجاجة وهو
الابانة بما تؤمر والمعنى بما تؤمر به من الشرائع فحذف
الجار كقوله * أمرتك الخير فافعل ما امرت به *
(واعرض عن المشركين) هو امر استهانة بهم
(انا كفيناك المستهزئين) الجمهور على انها
نزلت في خمسة نفر كانوا يبالغون في ايذاء
رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به

وائل السهمي فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال بئس عبد الله فأشار جبريل الى أخمص قدميه وقال قد كفيته فخرج العاص على راحلة يتنزه ومعه ابناه فنزل شعبا من تلك الشعاب فوطئ شبرقة فدخل منها شوكة في أخمص رجله فقال لدغت لدغت فطلبوا فلم يجدوا شيئا وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير فمات مكانه ومر بهما الاسود بن المطلب فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال عبد سوء فأشار جبريل بيده الى عينيه وقال قد كفيته فعمي قال ابن عباس رماه جبريل بورقة خضراء فذهب بصره ووجعت عينه فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك وفي رواية الكلبي قال أتاه جبريل وهو قاعد في أصل شجرة ومعه غلام له وفي رواية فجعل ينطح رأسه في الشجرة ويضرب وجهه بالشوك فاستغاث بغلامه فقال له غلامه ما أرى أحدا يصنع بك شيئا غيرك فمات وهو يقول قتلني محمد ومر بهما الاسود بن عبد يغوث فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال بئس عبد الله على انه خالي فقال جبريل قد كفيته وأشار الى بطنه فاستسقى بطنه فمات وفي رواية الكلبي انه خرج من أهله فأصابه سموم فاسود وجهه حتى صار حبشيا فأتى أهله فلم يعرفوه واغلقوا دونه الباب فمات وهو يقول قتلني رب محمد ومر بهما الحارث بن قيس فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد فقال عبد سوء فأومأ جبريل الى رأسه وقال قد كفيته فامتخط قيحا فقتله وقال ابن عباس انه أكل حوتا مالحا فأصابه العطش فلم يزل يشرب الماء حتى انقد بطنه فمات فذلك قوله تعالى انا كفيناك المستهزئين يعني بك وبالقرآن (الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون) يعني اذا نزل بهم العذاب ففيه وعيد وتهديد قوله سبحانه وتعالى (ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون) يعني بسبب ما يقولون وهو ما كانوا يسمعونه من الاستهزاء به والقول الفاحش والجبلة البشرية تأبى ذلك فيحصل عند سماع ذلك ضيق الصدر فعند ذلك أمره بالتسبيح والعبادة وهو قوله (فسبح بحمد ربك) قال ابن عباس فصل بأمر ربك (وكن من الساجدين) يعني من المتواضعين لله وقال الضحاك فسبح بحمد ربك قل سبحان الله وبحمده وكن من الساجدين يعني من المصلين روي ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة قال بعض العارفين من المحققين ان السبب في زوال الحزن عن القلب اذا أتى العبد بهذه العبادات انه يتنور باطنه ويشرق قلبه وينفسح وينشرح صدره فعند ذلك يعرف قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت اليها ولا يتأسف على فواتها فيزول الهم والغم والحزن عن قلبه وقال بعض العلماء اذا نزل بالعبد مكروه ففزع الى الصلاة فكأنه يقول يارب انما يجب على عبادتك سواء أعطيتني ما أحب أو كفيتني ما أكره فانا عبدك وبين يديك فافعل بي ما تشاء قوله تعالى (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) يعني الموت الموقن به الذي لا يشك فيه أحد والمعنى واعبد ربك في جميع أوقاتك ومدة حياتك حتى يأتيك الموت وأنت في عبادة ربك وهذا مثل قوله تعالى في سورة مريم وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا روى البغوي باسناده عن جبير بن نفير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله الى أن اجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحى الى ان سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين وعن عمر قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا الى هذا الذي نور الله قلبه لقد رأيته بين ابويه يغذيانه باطيب الطعام والشراب ولقد رأيت عليه حلة شراها أو قال شريت له بمائتي درهم فدعاه حب الله وحب رسوله الى ما ترون ذكره البغوي بغير سند والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

فاهلكهم الله وهم الوليد بن المغيرة مر بنبال فتعلق بثوبه سهم فاصاب عرقا في عقبه فقطعه فمات والعاص بن وائل دخل في اخمصه شوكة فانتفخت رجله فمات والاسود بن عبد المطلب عمي والاسود بن عبد يغوث جعل ينطح راسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات والحارث بن قيس امتخط قيحا ومات (الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون) عاقبة أمرهم يوم القيامة (ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون) فيك أو في القرآن أو في الله (فسبح) متلبسا (بحمد ربك وكن من الساجدين) فافزع فيما نابك الى الله والفزع الى الله هو الذكر الدائم وكثرة السجود يكفك ويكشف عنك الغم (واعبد ربك) ودم على عبادة ربك (حتى يأتيك اليقين) أي الموت يعني مادمت حيا فاشتغل بالعبادة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة

(سورة النحل مكية وهي مائة وثمان وعشرون آية)

(تفسير سورة النحل)

مكية الا قوله تعالى وان عاقبتم به فعاقبوا بمثل ما عوقبتم الى آخر السورة فانها انزلت بالمدينة في قتل حمزة

قاله ابن عباس وفي رواية أخرى عنه انها مكية غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهي قوله ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا الى قوله يعملون وقال قتادة هي مكية الا خمس آيات وهي قوله والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا وقوله ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا وقوله تعالى وان عاقبتم الى آخر السورة زاد مقاتل وقوله من كفر بالله من بعد ايمانه الآية وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة الآية وقيل كان يقال لسورة النحل سورة النعم لكثرة تعداد النعم فيها وهي مائة وثمان وعشرون آية وألفان وثمانمائة وأربعون كلمة وسبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله سبحانه وتعالى (أتى أمر الله) يعني جاء ودنا وقرب أمر الله تقول العرب أتاك الامر وهو متوقع المجيء بعد ما أتى ومعنى الآية أتى أمر الله وعدا (فلا تستعجلوه) يعني وقوعا والمراد به مجيء القيامة قال ابن عباس لما نزل قوله سبحانه وتعالى اقتربت الساعة وانشق القمر قال الكفار بعضهم لبعض ان هذا الرجل يزعم ان القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ما هو كائن فلما رأوا انه لا ينزل شيء قالوا ما نرى شيئا فنزل قوله تعالى اقترب للناس حسابهم فأشفقوا فلما امتدت الايام قالوا يا محمد ما نرى شيئا مما تخوفنا به فنزل أتى أمر الله فوثب النبي صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزل فلا تستعجلوه فاطمأنوا والاستعجال طلب مجيء الشيء قبل وقته ولما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين ويشير بأصبعيه يمدهما أخرجاه في الصحيحين من حديث سهل بن سعد (ق) عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين كفضل احداهما على الاخرى وضم السبابة الى الوسطى وفي رواية بعثت في نفس الساعة فسبقتها كفضل هذه على الاخرى قال ابن عباس كان مبعث النبي صلى الله عليه وسلم من اشراط الساعة ولما مر جبريل بأهل السموات مبعوثا الى النبي صلى الله عليه وسلم قالوا الله أكبر قامت الساعة وقال قوم المراد بالامر هنا عقوبة المكذبين وهو العذاب بالقتل بالسيف وذلك ان النضر بن الحارث قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم فاستعجل العذاب فنزلت هذه الآية وقتل النضر يوم بدر صبرا (سبحانه وتعالى عما يشركون) يعني تنزه الله وتعاظم بالاوصاف الحميدة عما يصفه به المشركون قوله سبحانه وتعالى (ينزل الملائكة بالروح) يعني بالوحي (من امره) وانما سمى الامر روحا لانه به تحيى القلوب من موت الجهالات وقال عطاء بالنبوة وقال قتادة بالرحمة وقيل الروح هو جبريل والباء بمعنى مع يعني ينزل الملائكة مع الروح وهو جبريل (على من يشاء من عباده) يعني على من يصطفيه من عباده للنبوة والرسالة وتبليغ الوحي الى الخلق (أن أنذروا) يعني بأن اعلموا (أنه لا اله الا أنا فاتقون) أي فخافون وقيل معناه مروا بقول لا اله الا الله منذرين يعني مخوفين بالقرآن (خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون) تقدم تفسيره (خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين) يعني انه جدل بالباطل بين الخصومة نزلت في أبي بن خلف الجمحي وكان ينكر البعث فجاء بعظم رميم الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال تزعم ان الله يحيي هذا العظم بعد ما رم فنزلت فيه هذه الآية ونزل فيه أيضا قوله تعالى قال من يحيي العظام وهي رميم والصحيح ان الآية عامة في كل ما يقع من الخصومة في الدنيا ويوم القيامة وحملها على العموم اولى وفيها بيان القدرة وان الله خلق الانسان من نطفة قذرة وصار جبارا كثير الخصومة وفيها كشف قبيح ما فعله الكفار من جحدهم نعم الله تعالى مع ظهورها عليهم قوله عز وجل (والانعام خلقها لكم) لما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه خلق السموات والارض ثم أتبعه بذكر خلق الانسان ذكر بعده ما ينتفع به في سائر ضروراته ولما كان أعظم ضرورات الانسان الى الاكل واللباس اللذين يقوم بهما بدن الانسان بدأ بذكر الحيوان المنتفع به في ذلك وهو الانعام فقال تعالى والانعام خلقها لكم وهي الابل والبقر والغنم قال الواحدي تم الكلام عند قوله

(بسم الله الرحمن الرحيم)

كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة ونزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيبا بالوعد فقيل لهم (أتى أمر الله) أى هو بمنزلة الآتي الواقع وان كان منتظرا لقرب وقوعه (فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون) تبرأ جل وعز عن أن يكون له شريك وعن اشراكهم فما موصولة أو مصدرية واتصال هذا باستعجالهم من حيث ان استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك (ينزل الملائكة) وبالتخفيف مكي وأبو عمرو (بالروح) بالوحي أو بالقرآن لان كلا منهما يقوم في الدين مقام الروح في الجسد أو يحيي القلوب الميتة بالجهل (من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا) ان مفسرة لان تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول ومعنى انذروا (أنه لا اله الا أنا فاتقون) اعلموا بأن الامر ذلك من نذرت بكذا اذا أعلمته والمعنى أعلموا الناس قول لا اله الا أنا فاتقون فخافون وبالياء يعقوب ثم دل على وحدانيته وانه لا اله الا هو بما ذكر مما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والارض وهو قوله (خلق السموات والارض بالحق تعالى عما يشركون) وبالتاء في الموضعين حمزة وعلى وخلق الانسان وما يكون منه وهو قوله (خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين) أى فاذا هو منطيق مجادل عن نفسه مكافح لخصومه مبين لحجته بعد ما كان نطفة لا حس به ولا حركة أو فاذا هو خصيم لربه منكر على خالقه قائل من يحيي العظام وهي رميم وهو وصف للانسان بالوقاحة والتمادي في كفران النعمة وخلق ما لا بد له منه من خلق البهائم لاكله وركوبه وحمل اثقاله وسائر حاجاته وهو قوله (والانعام خلقها لكم) هي الازواج الثمانية واكثر ما يقع على الابل وانتصابها بمضمر يفسره الظاهر كقوله والقمر قدرناه منازل أو بالعطف على الانسان أى خلق الانسان والانعام ثم قال خلقها لكم أى ما خلقها الا لكم يا جنس الانسان

والانعام خلقها ثم ابتدأ فقال تعالى لكم (فيها دفء) قال ويجوز أيضا ان يكون تمام الكلام عند قوله لكم ثم ابتدأ فقال تعالى فيها دفء قال صاحب النظم أحسن الوجهين ان يكون الوقف عند قوله خلقها ثم يبتدئ بقوله لكم فيها دفء والدليل عليه انه عطف عليه قوله ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال ولما كانت منافع هذه الانعام منها ضرورية ومنها غير ضرورية بدأ الله سبحانه وتعالى بذكر المنافع الضرورية فقال تعالى لكم فيها دفء وهو ما يستدفأ به من اللباس والاكسية ونحوها المتخذة من الاصواف والاوبار والاشعار الحاصلة من النعم (ومنافع) يعني النسل والدر والركوب والحمل عليها وسائر ما ينتفع به من الانعام (ومنها تأكلون) يعني من لحومها فان قلت قوله تعالى ومنها تأكلون يفيد الحصر لان تقديم الظرف مؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها قلت الاكل من هذه الانعام هو الذي يعتمده الناس في معايشهم وأما الاكل من غيرها كالدجاج والبط والاوز وصيد البر والبحر فغير معتد به في الاغلب وأكله يجري مجرى التفكه به فخرج ومنها تأكلون مخرج الاغلب في الاكل من هذه الانعام فان قلت منفعة الاكل مقدمة على منفعة اللباس فلم أخر منفعة الاكل وقدم منفعة اللباس قلت منفعة اللباس أكثر وأعظم من منفعة الاكل فلهذا قدم على الاكل وقوله سبحانه وتعالى (ولكم فيها) أي في الانعام (جمال) أي زينة (حين تريحون وحين تسرحون) الاراحة رد الابل بالعشي الى مراحها حيث تأوي اليه بالليل ويقال سرح القوم ابلهم تسريحا اذا أخرجوها بالغداة الى المرعى قال اهل اللغة وأكثر ما تكون هذه الراحة أيام الربيع اذا سقط الغيث ونبت العشب والكلأ وخرجت العرب للنجعة وأحسن ما تكون النعم في ذلك الوقت فمن الله سبحانه وتعالى بالتجمل بها فيه كما من بالانتفاع بها لانه من أغراض أصحاب المواشي بل هو من معظمها لان الرعاة اذا سرحوا النعم بالغداة الى المرعى وروحوها بالعشي الى الافنية والبيوت يسمع للابل رغاء وللشاء ثغاء يجاوب بعضها بعضا فعند ذلك يفرح أربابها وتتجمل بها الافنية والبيوت ويعظم وقعها عند الناس فان قلت لم قدمت الاراحة على التسريح قلت لان الجمال في الاراحة وهو رجوعها الى البيوت أكثر منها وقت التسريح لان النعم تقبل من المرعى ملأى البطون حافلة الضروع فيفرح أهلها بها بخلاف تسريحها الى المرعى فانها تخرج جائعة البطون ضامرة الضروع من اللبن ثم تأخذ في التفرق والانتشار للرعي في البرية فثبت بهذا البيان ان التجمل في الاراحة أكثر منه في التسريح فوجب تقديمه وقوله سبحانه وتعالى (وتحمل أثقالكم) الاثقال جمع ثقل وهو متاع السفر وما يحتاج اليه من آلات السفر (الى بلد) يعني غير بلدكم قال ابن عباس يريد من مكة الى اليمن والى الشأم وانما قال ابن عباس هذا القول لانه خطاب لاهل مكة وأكثر تجاراتهم وأسفارهم الى الشأم واليمن وحمله على العموم أولى لانه خطاب عام فدخول الكافة فيه اولى من تخصيصه ببعض المخاطبين (لم تكونوا بالغيه) يعني بالغي ذلك البلد الذي تقصدونه (الا بشق الانفس) يعني بالمشقة والجهد والعناء والتعب والشق نصف الشيء والمعنى على هذا لم تكونوا بالغيه الا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها (ان ربكم لرؤف رحيم) يعني بخلقه حيث خلق لهم هذه المنافع قوله سبحانه وتعالى (والخيل والبغال والحمير لتركبوها) هذه الآية عطف على ما قبلها والمعنى وخلق هذه الحيوانات لاجل أن تركبوها والخيل اسم جنس لا واحد له من لفظه كالابل والرهط والنساء (وزينة) يعني وجعلها زينة مع المنافع التي فيها

(فصل) احتج بهذه الآية من يرى تحريم لحوم الخيل وهو قول ابن عباس وتلا هذه الآية وقال هذه للركوب واليه ذهب الحكم ومالك وأبو حنيفة رحمهم الله واستدلوا أيضا بأن منفعة الاكل أعظم من منفعة الركوب فلما لم يذكره الله تعالى علمنا تحريم أكله فلو كان أكل لحوم الخيل جائزا لكان هذا المعنى أولى بالذكر لان الله سبحانه وتعالى خص الانعام بالاكل حيث قال ومنها تأكلون وخص هذه بالركوب فقال لتركبوها فعلمنا انها مخلوقة للركوب لا للاكل وذهب جماعة من أهل العلم

(فيها دفء) هو اسم ما يدفأ به من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر (ومنافع) وهي نسلها ودرها (ومنها تأكلون) قدم الظرف وهو يؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها لان الاكل منها هو الاصل الذي يعتمده الناس في معايشهم وأما الاكل من غيرها كالدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتد به وكالجاري مجرى التفكه (ولكم فيها جمال حين تريحون) تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشي (وحين تسرحون) ترسلونها بالغداة الى مسارحها من الله تعالى بالتجمل بها كما من بالانتفاع بها لانه من اغراض اصحاب المواشي لان الرعيان اذا روحوها بالعشي وسرحوها بالغداة تزينت باراحتها وتسريحها الافنية وفرحت أربابها وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس وانما قدمت الاراحة على التسريح لان الجمال في الاراحة اظهر اذا اقبلت ملأى البطون حافلة الضروع (وتحمل اثقالكم) احمالكم (الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس) وبفتح الشين أبو جعفر وهما لغتان في معنى المشقة وقيل المفتوح مصدر شق الامر عليه شقا وحقيقته راجعة الى الشق الذي هو الصدع وأما الشق فالنصف كأنه يذهب نصف قوته لما ينال من الجهد والمعنى وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه لو لم تخلق الابل الا بجهد ومشقة فضلا أن تحملوا اثقالكم على ظهوركم او معناه لم تكونوا بالغيه بها الا بشق الانفس وقيل اثقالكم ابدانكم ومنه الثقلان للجن والانس ومنه واخرجت الارض اثقالها أي بني آدم (ان ربكم لرؤف رحيم) حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) عطف على الانعام أي وخلق هذه للركوب والزينة وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله على حرمة اكل لحم الخيل لانه علل خلقها للركوب والزينة ولم يذكر الاكل بعد ما ذكره في الانعام ومنفعة الاكل اقوى والآية سيقت لبيان النعمة ولا يليق بالحكيم أن يذكر في مواضع المنة ادنى النعمتين ويترك أعلاهما وانتصاب زينة على المفعول له عطفا على محل لتركبوها

الى اباحة لحوم الخيل وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير واليه ذهب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه وأحمد واسحاق واحتجوا على اباحة لحوم الخيل بما روى عن اسماء بنت أبى بكر الصديق انها قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا فأكلناه وفى رواية قالت ذبحنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة فأكلناه أخرجه البخارى ومسلم (ق) عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الاهلية وأذن فى الخيل وفى رواية قال أكلنا زمن خيبر لحوم الخيل وحمر الوحش ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الحمار الاهلى هذه رواية البخارى ومسلم وفى رواية أبى داود قال ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير وكنا قد اصابتنا مخمصة فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل وأجاب من أباح لحوم الخيل عن هذه الآية بأن ذكر الركوب والزينة لا يدل على ان منفعتهما مختصة بذلك وانما خص هاتان المنفعتان بالذكر لانهما معظم المقصود قالوا ولهذا سكت عن حمل الاثقال على الخيل مع قوله فى الانعام وتحمل أثقالكم ولم يلزم من هذا التحريم حمل الاثقال على الخيل وقال البغوى ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم بل المراد منها تعريف عباده نعمه وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته والدليل الصحيح المعتمد عليه فى اباحة لحوم الخيل ان السنة مبينة للكتاب ولما كان نص الآية يقتضى ان الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الاكل مسكوتا عنه دار الامر فيه على الاباحة والتحريم فوردت السنة باباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم البغال والحمير فأخذنا بها جمعا بين النصين والله أعلم وقوله تعالى (ويخلق مالا تعلمون) لما ذكر الله سبحانه وتعالى الحيوانات التى ينتفع بها الانسان فى جميع حالاته وضرورياته على سبيل التفصيل ذكر بعدها ما لا ينتفع به الانسان فى الغالب على سبيل الاجمال لان مخلوقات الله عز وجل فى البر والبحر والسموات أكثر من ان تحصى أو يحيط بها عقل أحد أو فهمه فلهذا ذكرها على الاجمال وقال بعضهم ويخلق مالا تعلمون يعنى مما أعد الله لاهل الجنة فى الجنة ولاهل النار فى النار مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال قتادة فى قوله ويخلق مالا تعلمون يعنى السوس فى الثياب والدود فى الفواكه قوله سبحانه وتعالى (وعلى الله قصد السبيل) القصد استقامة الطريق يقال طريق قصد وقاصد اذا أداك الى مطلوبك وفى الآية حذف تقديره وعلى الله بيان قصد السبيل وهو بيان طريق الهدى من الضلالة وقيل معناه وعلى الله بيان طريق الحق بالآيات والبراهين (ومنها جائر) يعنى ومن السبيل سبيل جائر عن الاستقامة بل هو معوج فالقصد من السبيل هو دين الاسلام والجائر منها دين اليهودية والنصرانية وسائر ملل الكفر وقال جابر بن عبد الله قصد السبيل بيان الشرائع والفرائض وقال عبد الله بن المبارك وسهل بن عبد الله قصد السبيل السنة ومنها جائر الاهواء والبدع (ولو شاء لهداكم أجمعين) فيه دليل على ان الله تعالى ما شاء هداية الكفار وما أراد منهم الايمان لان كلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره فقوله ولو شاء لهداكم أجمعين معناه ولو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين وذلك يفيد انه تعالى ما شاء هدايتهم فلا جرم ما هداهم قوله عز وجل (هو الذى أنزل من السماء ماء) لما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمته على عباده بخلق الحيوانات لاجل الانتفاع والزينة عقبه بذكر انزال المطر من السماء وهو من أعظم النعم على العباد فقال وهو الذى أنزل من السماء يعنى والله الذى خلق جميع الاشياء هو الذى أنزل من السماء ماء يعنى المطر (لكم منه) يعنى من ذلك الماء (شراب) يعنى تشربونه (ومنه) يعنى ومن ذلك الماء (شجر) الشجر فى اللغة ماله ساق من نبات الارض ونقل الواحدى عن أهل اللغة انهم قالوا الشجر أصناف ما جل وعظم وهو الذى يبقى على الشتاء وما دق وهو صنفان أحدهما تبقى له أدوحة فى الشتاء وينبت فى الربيع ومنها ما لا يبقى له ساق فى الشتاء كالبقول وقال أبو اسحاق كل ما نبت على وجه الارض فهو شجر وأنشد * يطعمها اللحم اذا عز الشجر * أراد انهم يسقون الخيل اللبن اذا أجدبت الارض وقال ابن قتيبة فى هذه

الآية

وخلق مالا تعلمون) من أصناف خلائقه وهو قوله (ويخلق مالا تعلمون) ومن هذا وصفه تعالى عن أن يشرك به غيره (وعلى الله قصد السبيل) المراد به الجنس ولذا قال (ومنها جائر) والقصد مصدر بمعنى الفاعل وهو القاصد يقال سبيل قصد وقاصد أى مستقيم كأنه يقصد الوجه الذى يؤمه السالك لا يعدل عنه ومعناه ان هداية الطريق الموصل الى الحق عليه كقوله ان علينا للهدى وليس ذلك للوجوب اذ لا يجب على الله شئ ولكن يفعل ذلك تفضلا وقيل معناه والى الله وقال الزجاج معناه وعلى الله تبيين الطريق الواضح المستقيم والدعاء اليه بالحجج (ومنها جائر) أى ومن السبيل مائل عن الاستقامة (ولو شاء لهداكم أجمعين) أراد هداية اللطف والتوفيق والانعام بعد الهدى العام (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب) لكم متعلق بأنزل أو خبر لشراب وهو ما يشرب (ومنه شجر) يعنى الشجر الذى ترعاه المواشى

الآية يعني الكلأ ومعنى الآية انه ينبت بالماء الذي انزل من السماء ما ترعى الراعية من ورق الشجر لان الابل ترعى كل الشجر (فيه) يعني في الشجر (تسيمون) يعني ترعون مواشيكم يقال اسمت السائمة اذا خليتها ترعى وسامت هي اذا رعت حيث شاءت (ينبت لكم) أي ينبت الله لكم وقرئ ننبت على التعظيم لكم (به) أي بذلك الماء (الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات) لما ذكر الله في الحيوان تفصيلا واجمالا ذكر في الثمار تفصيلا واجمالا فبدأ بذكر الزرع وهو الحب الذي يقتات به كالحنطة والشعير وما اشبههما لان به قوام بدن الانسان وثنى بذكر الزيتون لما فيه من الادم والدهن والبركة وثلث بذكر النخيل لان ثمرتها غذاء وفاكهة وختم بذكر الاعناب لانها اشبه النخلة في المنفعة من التفكه والتغذية ثم ذكر سائر الثمرات اجمالا لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده ثم قال تعالى (ان في ذلك) يعني الذي ذكر من انواع الثمار (لآية) يعني علامة دالة على قدرتنا ووحدانيتنا (لقوم يتفكرون) يعني فيما ذكر من دلائل قدرته ووحدانيته (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم) تقدم تفسيره في سورة الاعراف (مسخرات) يعني مذللات مقهورات تحت قهره وارادته وفيه رد على الفلاسفة والمنجمين لانهم يعتقدون ان هذه النجوم هي الفعالة المتصرفة في العالم السفلي فاخبر الله ان هذه النجوم مسخرات في نفسها مذللات (بأمره) يعني بامر ربها مقهورات تحت قهره يصرفها كيف يشاء ويختار وانها ليس لها تصرف في نفسها فضلا عن غيرها ولما ذكر الله سبحانه وتعالى انه خلق هذه النجوم وجعلها مسخرات لمنافع عباده ختم هذه الآية بقوله (ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) يعني ان كل من كان له عقل صحيح سليم علم ان الله سبحانه وتعالى هو الفعال المختار وان جميع الخلق تحت قدرته وقهره وتسخيره لما أراده منهم (وما ذرأ لكم في الارض) يعني وما خلق لكم في الارض وسخر لاجلكم من الدواب والانعام والاشجار والثمار (مختلفا ألوانه) يعني في الخلقة والهيئة والكيفية واختلاف الوان المخلوقات مع كثرتها حتى لا يشبه بعضها بعضا من كل الوجوه فيه دليل قاطع على كمال قدرة الله ولذلك ختم هذه الآية بقوله تعالى (ان في ذلك لآية لقوم يذكرون) يعني فيعتبرون بذلك قوله سبحانه وتعالى (وهو الذي سخر) لكم (البحر) لما ذكر الله سبحانه وتعالى الدلائل الدالة على قدرته ووحدانيته من خلق السموات والارض وخلق الانسان من نطفة وخلق سائر الحيوان والنبات وتسخير الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من آثار قدرته وعجائب صنعته وذكر انعامه في ذلك على عباده ذكر بعد ذلك انعامه على عباده بتسخير البحر لهم نعمة من الله عليهم ومعنى تسخير الله البحر لعباده جعله بحيث يتمكن الناس من الانتفاع به اما بالركوب عليه أو بالغوص فيه أو الصيد منه فذكر هذه الثلاثة الاقسام من أنواع الانتفاع به فقال تعالى وهو الذي سخر لكم البحر (لتأكلوا منه لحما طريا) فبدأ بذكر الاكل لانه أعظم المقصود لان به قوام البدن وفي ذكر الطري مزيد فائدة دالة على كمال قدرة الله تعالى وذلك ان السمك لو كان كله مالحا لما عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بالطري لانه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الطري الذي لحمه في غاية العذوبة علم انه انما حدث بقدرة الله وخلقه لا بحسب الطبع وعلم بذلك ان الله قادر على اخراج الضد من الضد المنفعة الثانية قوله تعالى (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) يعني اللؤلؤ والمرجان كما قال تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان والمراد بلبسهم لبس نسائهم لان زينة النساء بالحلي وانما هو لاجل الرجال فكان ذلك زينة لهم المنفعة الثالثة قوله (وترى الفلك) يعني السفن (مواخر فيه) يعني جواري فيه قال قتادة مقبلة ومدبرة وذلك انك ترى سفينتين احداهما تقبل والاخرى تدبر تجريان بريح واحدة وأصل المخر في اللغة الشق يقال مخرت السفينة مخرا اذا شقت الماء بجؤجؤها وقال مجاهد تمخر الرياح السفن يعني انها اذا جرت يسمع لها صوت قال أبو عبيدة يعني صوائح والمخر صوت هبوب الريح عند شدتها وقال الحسن مواخر يعني مواقر أي مملوءة متاعا (ولتبتغوا من فضله) يعني الارباح بالتجارة في البحر

(فيه تسيمون) من سامت الماشية اذا رعت وهي سائمة واسامها صاحبها وهو من السومة وهي العلامة لانها تؤثر بالمرعى علامات في الارض (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات) ولم يقل كل الثمرات لان كلها لا تكون الا في الجنة وانما انبت في الارض بعض من كلها للتذكرة (ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون) فيستدلون بها عليه وعلى قدرته وحكمته والآية الدلالة الواضحة (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) بنصب الكل على وجعل النجوم مسخرات والنجوم مسخرات فقط حفص والشمس والقمر والنجوم مسخرات شامي على الابتداء والخبر (ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) جمع الآية وذكر العقل لان الآثار العلوية اظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة (وما ذرأ لكم في الارض) معطوف على الليل والنهار أي ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك (مختلفا) حال (ألوانه ان في ذلك لآية لقوم يذكرون) يتعظون (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) هو السمك ووصفه بالطراوة لان الفساد يسرع اليه فيؤكل سريعا طريا خيفة الفساد وانما لا يحنث با كله اذا حلف لا يأكل لحما لان مبنى الايمان على العرف ومن قال لغلامه اشتر بهذه الدراهم لحما فجاء بالسمك كان حقيقا بالانكار (وتستخرجوا منه حلية) هي اللؤلؤ والمرجان (تلبسونها) المراد بلبسهم لبس نسائهم ولكنهن انما يتزين بها من أجلهم فكأنها زينتهم ولباسهم (وترى الفلك مواخر) جواري تجري جريا وتشق الماء شقا والمخر شق الماء بحيزومها (فيه) في البحر (ولتبتغوا من فضله) هو عطف على محذوف أي لتعتبروا ولتبتغوا ابتغاء الفضل التجارة

(ولعلكم تشكرون) يعنى انعام الله عليكم اذا رأيتم نعم الله فيما سخر لكم (والقى فى الارض رواسى) يعنى جبالا ثوابت (أن تميد بكم) يعنى لئلا تميل وتضطرب بكم والميد هو اضطراب الشئ العظيم كالارض وقال وهب لما خلق الله سبحانه وتعالى الارض جعلت تمور وتتحرك فقالت الملائكة ان هذه غير مقرة أحدا على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال (وأنهارا) يعنى وجعل فيها انهارا لان فى ألقى معنى الجعل فقوله سبحانه وتعالى وأنهارا معطوف على والقى لما ذكر الله الجبال ذكر بعدها الانهار لان معظم عيون الانهار وأصولها تكون من الجبال (وسبلا) يعنى وجعل فيها طرقا مختلفة تسلكونها فى أسفاركم والتردد فى حوائجكم من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان (لعلكم تهتدون) يعنى بتلك السبل الى ما تريدون فلا تضلون (وعلامات) يعنى وجعل فيها علامات تهتدون بها فى أسفاركم قال بعضهم تم الكلام عند قوله وعلامات ثم ابتدأ (وبالنجم هم يهتدون) وقال محمد بن كعب والكلبى أراد بالعلامات الجبال والنجوم فالجبال علامات النهار والنجوم علامات الليل وقال مجاهد أراد بالكل النجوم فمنها ما يكون علامات ومنها ما يهتدى به وقال السدى أراد بالنجوم الثريا وبنات نعش والفرقدين والجدى فبهذه يهتدى بها الى الطريق والقبلة وقال قتادة انما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء لتكون زينة السماء ومعالم الطريق ورجوما للشياطين فمن قال غير هذا فقد تكلف ما لا علم له به قوله سبحانه وتعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق) لما ذكر الله عز وجل من عجائب قدرته وغرائب صنعته وبديع خلقه ما ذكر على الوجه الاحسن والترتيب الاكمل وكانت هذه الاشياء المخلوقة المذكورة فى الآيات المتقدمة كلها دالة على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وانه تعالى هو المنفرد بخلقها جميعا قال على سبيل الانكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة هذه الاصنام التى لا تضر ولا تنفع ولا تقدر على شئ أفمن يخلق يعنى هذه الاشياء الموجودة المرئية بالعيان وهو الله تعالى الخالق لها كمن لا يخلق يعنى هذه الاصنام العاجزة التى لا تخلق شيئا البتة لانها جمادات لا تقدر على شئ فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بعبادتها ويترك عبادة من يستحق العبادة وهو الله خالق هذه الاشياء كلها ولهذا المعنى ختم هذه الآية بقوله (أفلا تذكرون) يعنى ان هذا القدر ظاهر غير خاف على أحد فلا يحتاج فيه الى دقيق الفكر والنظر بل مجرد التذكر فيه كفاية لمن فهم وعقل واعتبر بما ذكر بقى فى الآية سؤالان الاول قوله كمن لا يخلق المراد به الاصنام وهى جمادات لا تعقل فكيف يعبر عنها بلفظة من وهى لمن يعقل والجواب عنه ان الكفار لما سموا هذه الاصنام آلهة وعبدوها أجريت مجرى من يعقل فى زعمهم الا ترى الى قوله بعد هذا والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئا فخاطبهم على قدر زعمهم وعقولهم السؤال الثانى قوله أفمن يخلق كمن لا يخلق المقصود منه الزام الحجة على من عبد الاصنام حيث جعل غير الخالق مثل الخالق فكيف قال على سبيل الاستفهام أفمن يخلق كمن لا يخلق والجواب عنه انه ليس المراد منه الاستفهام بل المراد منه ان من خلق الاشياء العظيمة وأعطى هذه النعم الجزيلة كيف يسوى بينه وبين هذه الجمادات الخسيسة فى التسمية والعبادة وكيف يليق بالعاقل ان يترك عبادة من يستحق العبادة لانه خالق هذه الاشياء الظاهرة كلها ويشتغل بعبادة جمادات لا تخلق شيئا البتة والله أعلم وقوله تعالى (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يعنى ان نعم الله على العبد فيما خلق فيه من صحة البدن وعافية الجسم واعطاء النظر الصحيح والعقل السليم والسمع الذى يفهم به الاشياء وبطش اليدين وسعى الرجلين الى غير ذلك مما أنعم به عليه فى نفسه وفيما أنعم به عليه مما خلق له من جميع ما يحتاج اليه من أمر الدين والدنيا لا يحصى حتى لو رام أحد معرفة أدنى نعمة من هذه النعم لعجز عن معرفتها وحصرها فكيف بنعمه العظام التى لا يمكن الوصول الى حصرها لجميع الخلق فذلك قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها يعنى ولو اجتهدتم فى ذلك وأتعبتم نفوسكم لا تقدرون عليه (ان الله لغفور) يعنى لتقصيركم فى القيام بشكر نعمته كما يجب عليكم (رحيم) يعنى بكم حيث وسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصى (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون)

(ولعلكم تشكرون) الله على ما أنعم عليكم به (والقى فى الارض رواسى) جبالا ثوابت (أن تميد بكم) كراهة أن تميل بكم وتضطرب أو لئلا تميد بكم لكن حذف المضاف أكثر قيل خلق الله الارض فجعلت تمور فقالت الملائكة ما هى بمقر أحد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال لم تدر الملائكة مم خلقت (وأنهارا) وجعل فيها أنهارا لان القى فيه معنى جعل (وسبلا) طرقا (لعلكم تهتدون) الى مقاصدكم أو الى توحيد ربكم (وعلامات) هى معالم الطرق وكل ما يستدل به السابلة من جبل وغير ذلك (وبالنجم هم يهتدون) المراد بالنجم الجنس أو هو الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدى فان قلت وبالنجم هم يهتدون مخرج عن سنن الخطاب مقدم فيه النجم مقحم فيه هم كأنه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون فمن المراد بهم قلت كأنه أراد قريشا فلهم اهتداء بالنجوم فى مسايرهم ولهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار ألزم لهم فخصصوا (أفمن يخلق) أى الله تعالى (كمن لا يخلق) أى الاصنام وجئ بمن الذى هو لاولى العلم لزعمهم حيث سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولى العلم أو لان المعنى ان من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم فكيف بما لا علم عنده وانما لم يقل أفمن لا يخلق كمن يخلق مع اقتضاء المقام بظاهره اياه لكونه الزاما للذين عبدوا الاوثان وسموها آلهة تشبيها بالله لانهم حين جعلوا غير الله مثل الله فى تسميته باسمه والعبادة له فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبيها بها فأنكر عليهم ذلك بقوله أفمن يخلق كمن لا يخلق وهو حجة على المعتزلة فى خلق الافعال (أفلا تذكرون) فتعرفون فساد ما أنتم عليه (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم فضلا أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر وانما أتبع ذلك ما عدد من نعمه تنبيها على ان ما وراءها لا ينحصر ولا يعد (ان الله لغفور رحيم) يتجاوز عن تقصيركم فى أداء شكر النعمة ولا يقطعها عنكم لتفريطكم (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) من أقوالكم وأفعالكم وهو وعيد

يعني ان الكفار مع كفرهم كانوا يسرون أشياء وهو ما كانوا يمكرون بالنبي صلى الله عليه وسلم وما يعلنون يعني وما يظهرون من ايذائه فأخبرهم الله عز وجل انه عالم بكل أحوالهم سرها وعلانيتها لا تخفى عليه خافية وان دقت وخفيت وقيل ان الله سبحانه وتعالى لما ذكر الاصنام وذكر عجزها في الآية المتقدمة ذكر في هذه الآية أن الاله الذي يستحق العبادة يجب أن يكون عالما بكل المعلومات سرها وعلانيتها وهذه الاصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة ثم وصف الله هذه الاصنام بصفات فقال تعالى (والذين تدعون من دون الله) يعني الاصنام التي تدعونها آلهة من دون الله (لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) فان قلت قوله سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة أفمن يخلق كمن لا يخلق يدل على ان هذه الاصنام لا تخلق شيئا فقوله سبحانه وتعالى لا يخلقون شيئا وهم يخلقون وهذا هو نفس الامر المذكور في تلك الآية فما فائدة التكرار قلت فائدته ان المعنى المذكور في الآية المتقدمة انهم لا يخلقون شيئا فقط والمذكور في هذه الآية انهم لا يخلقون شيئا وانهم مخلوقون كغيرهم فكان هذا زيادة في المعنى وهو فائدة التكرار (أموات) أي جمادات ميتة لا حياة فيها (غير أحياء) يعني كغيرها والمعنى لو كانت هذه الاصنام آلهة كما تزعمون لكانت أحياء غير جائز عليها الموت لان الاله الذي يستحق ان يعبد هو الحي الذي لا يموت هذه أموات غير أحياء فلا تستحق العبادة فمن عبدها فقد وضع العبادة في غير موضعها وقوله (وما يشعرون) يعني هذه الاصنام (أيان يبعثون) يعني متى يبعثون وفيه دليل على ان الاصنام تجعل فيها الحياة وتبعث يوم القيامة حتى تتبرأ من عابديها وقيل معناه ما يدري الكفار الذين عبدوا الاصنام متى يبعثون قوله سبحانه وتعالى (الهكم اله واحد) يعني ان الذي يستحق العبادة هو اله واحد وهذه أصنام متعددة فكيف تستحق العبادة (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) يعني جاحدة لهذا المعنى (وهم مستكبرون) يعني عن اتباع الحق لان الحق اذا تبين كان تركه نكرا (لا جرم) يعني حقا (ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون انه لا يحب المستكبرين) يعني عن اتباع الحق (م) عن ابن مسعود ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل ان الرجل يحب ان يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا قال ان الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس قوله بطر الحق هو ان يجعل ما جعله الله حقا من توحيده وعبادته باطلا وهذا على قول من جعل أصل البطر من الباطل ومن جعله من الحيرة فمعناه يتحير عند سماع الحق فلا يقبله ولا يجعله حقا وقيل البطر التكبر يعني انه يتكبر عند سماع الحق فلا يقبله وقوله وغمط الناس يقال غمطت حق فلان اذا احتقرته ولم تره شيئا وكذا معنى غمصته اي انتقصت به وازدريته قوله عز وجل (واذا قيل لهم) يعني لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة وهم كفار مكة الذين اقتسموا عقابها وطرقها اذا سألهم الحاج الذين يقدمون عليهم (ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاولين) يعني أحاديثهم وأباطيلهم (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة) اللام في ليحملوا لام العاقبة وذلك انهم لما وصفوا القرآن بكونه أساطير الاولين كانت عاقبتهم بذلك ان يحملوا أوزارهم يعني ذنوب أنفسهم وانما قال سبحانه وتعالى كاملة لان البلايا التي أصابتهم في الدنيا وأعمال البر التي عملوها في الدنيا لا تكفر عنهم شيئا يوم القيامة بل يعاقبون بكل أوزارهم قال الامام فخر الدين الرازي وهذا يدل على انه سبحانه وتعالى قد يسقط بعض العقاب عن المؤمنين اذ لو كان هذا المعنى حاصلا في حق الكل لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل فائدة وقوله سبحانه وتعالى (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) يعني ويحصل للرؤساء الذين أضلوا غيرهم وصدوهم عن الايمان مثل أوزار الاتباع والسبب فيه ما روي عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل اجور من تبعه لا ينقص ذلك من اجورهم شيئا ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا أخرجه مسلم ومعنى الآية والحديث ان الرئيس أو الكبير اذا سن سنة حسنة أو سنة قبيحة فتبعه عليها جماعة فعملوا

(والذين يدعون) والآلهة الذين يدعونهم الكفار (من دون الله) وبالتاء غير عاصم (لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات) أي هم اموات (غير احياء وما يشعرون أيان يبعثون) نفى عنهم خصائص الالهية بنفي كونهم خالقين واحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث واثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون اموات جاهلون بالبعث ومعنى اموات غير احياء انهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا احياء غير اموات أي غير جائز عليها الموت وأمرهم بالعكس من ذلك والضمير في يبعثون للداعين أي لا يشعرون متى تبعث عبدتهم وفيه تهكم بالمشركين وان آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت جزاء أعمالهم منهم على عبادتهم وفيه دلالة على انه لا بد من البعث (الهكم اله واحد) أي ثبت بما مر ان الالهية لا تكون لغير الله وان معبودكم واحد (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة) للوحدانية (وهم مستكبرون) عنها وعن الاقرار بها (لا جرم) حقا (ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) أي سرهم وعلانيتهم فيجازيهم وهو وعيد (انه لا يحب المستكبرين) عن التوحيد يعني المشركين (واذا قيل لهم) لهؤلاء الكفار (ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاولين) ماذا منصوب بانزل أي أي شئ انزل ربكم أو مرفوع على الابتداء أي اي شئ انزله ربكم واساطير خبر مبتدا محذوف قيل هو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سألهم وفود الحاج عما انزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا أساطير (الاولين) أي احاديث الاولين واباطيلهم واحدتها أسطورة واذا رأوا اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونهم بصدقه وانه نبي فهم الذين قالوا خيرا (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم) أي قالوا ذلك اضلالا للناس فحملوا اوزار ضلالهم كاملة وبعض اوزار من ضل بضلالهم وهو وزر الاضلال لان المضل والضال شريكان واللام للتعليل (بغير علم) حال من المفعول أي يضلون من لا يعلم انهم ضلال

بها فان الله سبحانه وتعالى يعظم ثوابه أو عقابه حتى يكون ذلك الثواب أو العقاب مساويا لكل ما يستحقه كل واحد من الاتباع الذين عملوا بسنته الحسنة أو القبيحة وليس المراد ان الله تعالى يوصل جميع الثواب أو العقاب الذي يستحقه الاتباع الى الرؤساء لان ذلك ليس بعدل ويدل عليه قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى وقوله تعالى وان ليس للانسان الا ما سعى قال الواحدي ولفظة من في قوله ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ليست للتبعيض لانها لو كانت للتبعيض لنقص عن الاتباع بعض الاوزار وذلك غير جائز لقوله عليه الصلاة والسلام لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا ولكنها للجنس أي ليحملوا من جنس أوزار الاتباع وقوله بغير علم يعني ان الرؤساء انما يقدمون على اضلال غيرهم بغير علم بما يستحقونه من العقاب على ذلك الاضلال بل يقدمون على ذلك جهلا منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد (ألا ساء ما يزرون) يعني الا بئس ما يحملون ففيه وعيد وتهديد لهم قوله سبحانه وتعالى (قد مكر الذين من قبلهم) يعني من قبل كفار قريش وهو نمرود بن كنعان الجبار وكان أكبر ملوك الارض في زمن ابراهيم صلى الله عليه وسلم وكان من مكره انه بنى صرحا ببابل ليصعد الى السماء ويقاتل أهلها في زعمه قال ابن عباس وكان طول الصرح في السماء خمسة آلاف ذراع وقال كعب ومقاتل كان طوله فرسخين فهبت ريح فقصمته وألقت رأسه في البحر وخر عليهم الباقي فأهلكهم وهم تحته ولما سقط تبلبلت ألسنة الناس من الفزع فتكلموا يومئذ بثلاثة وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك السريانية قلت هذا ذكره البغوي وفي هذا نظر لان صالحا عليه السلام كان قبلهم وكانت يتكلم بالعربية وكان أهل اليمن عربا منهم جرهم الذي نشأ اسماعيل بينهم وتعلم منهم العربية وكانت قبائل من العرب قديمة قبل ابراهيم عليه السلام مثل طسم وجديس وكل هؤلاء عرب تكلموا في قديم الزمان بالعربية ويدل على صحة هذا قوله ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى والله أعلم وقيل حمل قوله قد مكر الذين من قبلهم على العموم أولى فتكون الآية عامة في جميع الماكرين المبطلين الذين يحاولون الحاق الضرر والمكر بالغير وقوله سبحانه وتعالى (فأتى الله بنيانهم من القواعد) يعني قصد تخريب بنيانهم من أصوله وذلك بأن أبرهم ريح فصفت بنيانهم من اعلاه وأتاهم بزلازل قلعت بنيانهم من قواعده وأساسه هذا اذا حملنا تفسير الآية على القول الاول وهو ظاهر اللفظ وان حملنا تفسير الآية على القول الثاني وهو حملها على العموم كان المعنى انهم لما رتبوا منصوبات ليمكروا بها على أنبياء الله وأهل الحق من عباده أهلكهم الله تعالى وجعل هلاكهم مثل هلاك قوم بنوا بنيانا وثيقا شديدا ودعموه بالاساطين فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم فأهلكهم فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لمن مكر بآخر فأهلكه الله بمكره ومنه المثل السائر على ألسنة الناس من حفر بئرا لاخيه أوقعه الله فيه وقوله تعالى (فخر عليهم السقف من فوقهم) يعني سقط عليهم السقف فأهلكهم وقوله من فوقهم للتأكيد لان السقف لا يخر الا من فوقهم وقيل يحتمل انهم لم يكونوا تحت السقف عند سقوطه فلما قال من فوقهم علم انهم كانوا تحته وانه لما خر عليهم اهلكوا وماتوا تحته (وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) يعني في مأمنهم وذلك انهم لما اعتمدوا على قوة بنيانهم وشدته كان ذلك البنيان سبب هلاكهم (ثم يوم القيامة يخزيهم) يعني يهينهم بالعذاب وفيه اشعار بأن العذاب يحصل لهم في الدنيا والآخرة لان الخزي هو العذاب مع الهوان (ويقول) يعني ويقول الله لهم يوم القيامة (أين شركائي) يعني في زعمكم واعتقادكم (الذين كنتم تشاقون فيهم) يعني كنتم تعادون وتخالفون المؤمنين وتخاصمونهم في شأنهم لان المشاقة عبارة عن كون كل واحد من الخصمين في شق غير شق صاحبه والمعنى ما لهم لا يحضرون معكم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم من العذاب والهوان (قال الذين أوتوا العلم) يعني المؤمنين وقيل الملائكة (ان الخزي) يعني الهوان (اليوم) يعني في هذا اليوم وهو يوم القيامة (والسوء) يعني العذاب (على الكافرين) وانما يقول المؤمنون هذا يوم القيامة لان الكفار كانوا يستهزؤن بالمؤمنين في الدنيا وينكرون عليهم

احوالهم

(ألا ساء ما يزرون) محل ما رفع (قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد) اى من جهة القواعد وهي الاساطين وهذا تمثيل يعني انهم سووا منصوبات ليمكروا بها رسل الله فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فأتى البنيان من الاساطين بأن ضعضعت فسقط عليهم السقف وماتوا وهلكوا والجمهور على ان المراد به نمرود بن كنعان حين بنى الصرح ببابل طوله خمسة آلاف ذراع وقيل فرسخان فاهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا واتى الله اى امره بالاستئصال (فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون (ثم يوم القيامة يخزيهم) يذلهم بعذاب الخزي سوى ما عذبوا به في الدنيا (ويقول اين شركائي) على الاضافة الى نفسه حكاية لاضافتهم ليوبخهم بها على طريق الاستهزاء بهم (الذين كنتم تشاقون فيهم) تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم تشاقون نافع اى تشاقونني فيهم لان مشاقة المؤمنين كأنها مشاقة الله (قال الذين اوتوا العلم) اى الانبياء والعلماء من اممهم الذين كانوا يدعونهم الى الايمان ويعظونهم فلا يلتفتون اليهم ويشاقونهم يقولون ذلك شماتة بهم وهم الملائكة (ان الخزي اليوم والسوء) العذاب (على الكافرين)

أحوالهم فاذا كان يوم القيامة ظهر أهل الحق وأكرموا بأنواع الكرامات وأهين أهل الباطل وعذبوا بأنواع العذاب فعند ذلك يقول المؤمنون ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين وفائدة هذا القول اظهار الشماتة بهم فيكون أعظم في الهوان والخزى قوله تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة) تقبض أرواحهم الملائكة وهم ملك الموت وأعوانه (ظالمي أنفسهم) يعني بالكفر (فألقوا السلم) يعني انهم استسلموا وانقادوا لامر الله الذى نزل بهم وقالوا (ما كنا نعمل من سوء) يعني شركا وانما قالوا ذلك من شدة الخوف (بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون) يعني فلا فائدة لكم في انكاركم قال عكرمة عنى بذلك ما حصل من الكفار يوم بدر (ادخلوا) أى ويقال لهم ادخلوا (أبواب جهنم خالدين فيها) يعني مقيمين فيها لا يخرجون منها وانما قال ذلك لهم ليكون أعظم في الغم والحزن وفيه دليل على ان الكفار بعضهم أشد عذابا من بعض (فلبئس مثوى المتكبرين) يعني عن الايمان قوله عز وجل (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) وذلك ان أحياء العرب كانوا يبعثون الى مكة أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم فاذا جاء الوافد سأل الذين كانوا يقعدون على طرقات مكة من الكفار فيقولون هو ساحر كاهن شاعر كذاب مجنون واذا لم تلقه خير لك فيقول الوافد أنا شر وافد ان رجعت الى قومي من دون ان أدخل مكة فألقاه فيدخل مكة فيرى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألهم عنه فيخبرونه بصدقه وأمانته وانه نبي مبعوث من الله عز وجل فذلك قوله سبحانه وتعالى وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم يعني اتقوا الشرك وقول الزور والكذب ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا يعني أنزل خيرا فان قلت لم رفع الاول وهو قوله أساطير الاولين ونصب الثاني وهو قوله قالوا خيرا قلت ليحصل الفرق بين الجوابين جواب المنكر الجاحد وجواب المقر المؤمن وذلك انهم لما سألوا الكفار عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا هو أساطير الاولين وليس هو من الانزال في شيء لانهم عدلوا ولم يعتقدوا كونه منزلا ولما سألوا المؤمنين عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال بيانا مكشوفا معقولا للانزال فقالوا خيرا أى أنزل خيرا وتم الكلام عند قوله خيرا فهو وقف تام ثم ابتدأ بقوله تعالى (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) يعني للذين أتوا بالاعمال الصالحة الحسنة ثوابها حسنة مضاعفة من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى أضعاف كثيرة وقال الضحاك هي النصر والفتح وقال مجاهد هي الرزق الحسن فعلى هذا يكون معنى الآية للذين أحسنوا ثواب احسانهم في هذه الدنيا حسنة وهي النصر والفتح والرزق الحسن وغير ذلك مما أنعم الله به على عباده في الدنيا ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى (ولدار الآخرة خير) يعني ما لهم في الآخرة مما أعد الله لهم في الجنة خير مما يحصل لهم في الدنيا (ولنعم دار المتقين) يعني الجنة وقال الحسن هي الدنيا لان أهل التقوى يتزودون منها الى الآخرة والقول الاول أولى وهو قول جمهور المفسرين لان الله فسر هذه الدار بقوله (جنات عدن) يعني بساتين اقامة من قولهم عدن بالمكان أى أقام به (يدخلونها) يعني تلك الجنات لا يرحلون عنها ولا يخرجون منها (تجري من تحتها الانهار) يعني تجري الانهار في هذه الجنان من تحت دور أهلها وقصورهم ومساكنهم (لهم فيها) يعني في الجنات (ما يشاؤن) يعني ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين مع زيادات غير ذلك وهذه الحالة لا تحصل لاحد الا في الجنة لان قوله لهم فيها ما يشاؤن يفيد الحصر وذلك يدل على ان الانسان لا يجد كل ما يريد في الدنيا (كذلك يجزي الله المتقين) أى هكذا يكون جزاء المتقين ثم عاد الى وصف المتقين فقال تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) يعني مؤمنين طاهرين من الشرك قال مجاهد زاكية أقوالهم وأفعالهم وقيل ان قوله طيبين كلمة جامعة لكل معنى حسن فيدخل فيه انهم أتوا بكل ما أمروا به من فعل الخيرات والطاعات واجتنبوا كل ما نهوا عنه من المكروهات والمحرمات مع الاخلاق الحسنة والخصال الحميدة والمباعدة من الاخلاق المذمومة والخصال المكروهة القبيحة وقيل معناه ان أوقاتهم تكون طيبة سهلة لانهم يبشرون عند قبض أرواحهم

(الذين تتوفاهم الملائكة) وبالياء حمزة وكذا ما بعده (ظالمي أنفسهم) بالكفر بالله (فألقوا السلم) أي الصلح والاستسلام أي أخبتوا وجاؤا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق وقالوا (ما كنا نعمل من سوء) وجحدوا ما وجد منهم من الكفران والعداوة فرد عليهم أولو العلم وقالوا (بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون) فهو يجازيكم عليه وهذا أيضا من الشماتة وكذلك (فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين) جهنم (وقيل للذين اتقوا) الشرك (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) وانما نصب هذا ورفع أساطير لان التقدير هنا أنزل خيرا فأطبقوا الجواب على السؤال وثمة التقدير هو أساطير الاولين فعدلوا بالجواب عن السؤال (للذين أحسنوا في هذه الدنيا) أي آمنوا وعملوا الصالحات أو قالوا لا اله الا الله (حسنة) بالرفع أي ثواب وأمن وغنيمة وهو بدل من خيرا حكاية لقول الذين اتقوا أي قالوا هذا القول فقدم عليه تسميته خيرا ثم حكاه أو هو كلام مستأنف عدة للقائلين وجعل قولهم من جملة احسانهم (ولدار الآخرة خير) أي لهم في الآخرة ما هو خير منها كقوله فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة (ولنعم دار المتقين) دار الآخرة فحذف المخصوص بالمدح لتقدم ذكره (جنات عدن) خبر مبتدأ محذوف أو هو مخصوص بالمدح (يدخلونها) حال (تجري من تحتها الانهار لهم فيها ما يشاؤن كذلك يجزي الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر لانه في مقابلة ظالمي أنفسهم

بالرضوان والجنة والكرامة فيحصل لهم عند ذلك الفرح والسرور والابتهاج فيسهل عليهم قبض ارواحهم ويطيب لهم الموت على هذه الحالة (يقولون) يعني الملائكة لهم (سلام عليكم) يعني تسلم عليهم الملائكة او تبلغهم السلام من الله (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) يعني في الدنيا من الاعمال الصالحة فان قلت كيف الجمع بين قوله تعالى ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون وبين قوله صلى الله عليه وسلم لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا الا ان يتغمدني الله بفضله ورحمته أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة قلت قال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله في شرح مسلم اعلم ان مذهب أهل السنة انه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب ولا ايجاب ولا تحريم ولا غير ذلك من أنواع التكليف ولا تثبت هذه الاشياء كلها ولا غيرها الا بالشرع ومذهب أهل السنة أيضا ان الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء بل العالم كله ملكه والدنيا والآخرة في سلطانه يفعل فيهما ما يشاء فلو عذب المطيعين والصالحين أجمعين وادخلهم النار كان ذلك عدلا منه واذا أكرمهم ورحمهم وأدخلهم الجنة فهو فضل منه ولو نعم الكافرين وادخلهم الجنة كان ذلك له ومنه فضلا ولكنه سبحانه وتعالى أخبر وخبره صادق انه لا يفعل هذا بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة برحمته ويعذب الكافرين ويدخلهم النار عدلا منه وأما المعتزلة فيثبتون الاحكام بالعقل ويوجبون ثواب الاعمال ويوجبون الاصلح في خبط طويل لهم تعالى الله عن اختراعاتهم الباطلة المنابذة لنصوص الشرع وفي ظاهر هذا الحديث دلالة لاهل الحق انه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته وأما قوله سبحانه وتعالى ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ونحوها من الآيات التي تدل على ان الاعمال الصالحة يدخل بها الجنة فلا تعارض بينها وبين هذا الحديث بل معنى الآيات ان دخول الجنة بسبب الاعمال والتوفيق للاخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله فيصح انه لم يدخل الجنة بمجرد العمل وهو مراد الحديث ويصح انه دخل بالاعمال أي بسببها وهي من الرحمة والفضل والمنة والله أعلم بمراده قوله تعالى (هل ينظرون) يعني هؤلاء الذين أشركوا بالله وجحدوا نبوتك يا محمد (الا أن تأتيهم الملائكة) يعني لقبض أرواحهم (او يأتي امر ربك) يعني بالعذاب في الدنيا وهو عذاب الاستئصال وقيل المراد به يوم القيامة (كذلك فعل الذين من قبلهم) يعني من الكفر والتكذيب (وما ظلمهم الله) يعني بتعذيبه اياهم (ولكن كانوا انفسهم يظلمون) يعني باكتسابهم المعاصي والكفر والاعمال القبيحة الخبيثة (فأصابهم سيئات ما عملوا) يعني فأصابهم عقوبات ما اكتسبوا من الاعمال الخبيثة (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) والمعنى ونزل بهم جزاء استهزائهم (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا) يعني ان مشركي مكة قالوا هذا على طريق الاستهزاء والحاصل أنهم تمسكوا بهذا القول في انكار النبوة فقالوا لو شاء الله منا الايمان لحصل جئت او لم تجئ ولو شاء الله منا الكفر لحصل جئت او لم تجئ واذا كان كذلك فالكل من الله فلا فائدة في بعثة الرسل الى الامم والجواب عن هذا أنهم لما قالوا ان الكل من الله فكانت بعثة الرسل عبثا كان هذا اعتراضا على الله تعالى وهو جار مجرى طلب العلة في أحكام الله وفي افعاله وهو باطل لان الله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فلا اعتراض لاحد عليه في احكامه وافعاله ولا يجوز لاحد ان يقول له لم فعلت هذا ولم تفعل هذا وكان في حكم الله وسنته في عباده ارسال الرسل اليهم ليأمروهم بعبادة الله تعالى وينهوهم عن عبادة غيره وان الهداية والاضلال اليه فمن هداه فهو المهتدي ومن أضله فهو الضال وهذه سنة الله في عباده انه يأمر الكل بالايمان به وينهاهم عن الكفر ثم أنه سبحانه وتعالى يهدي من يشاء الى الايمان ويضل من يشاء ولا اعتراض لاحد عليه ولما كانت سنة الله قديمة ببعثة الرسل الى الامم الكافرة المكذبة كان قول هؤلاء لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا جهلا منهم لانهم اعتقدوا ان كون الامر كذلك يمنع من جواز بعثة الرسل وهذا الاعتقاد

(يقولون سلام عليكم) قيل اذا اشرف العبد
المؤمن جاءه ملك فيقول السلام عليك يا ولي الله
الله يقرأ عليك السلام ويبشره بالجنة ويقال لهم
في الآخرة (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون)
بعملكم (هل ينظرون) ما ينتظر هؤلاء الكفار
(الا ان تأتيهم الملائكة) لقبض ارواحهم
(او يأتي امر ربك) اى العذاب
الاستئصال او القيامة (كذلك) مثل ذلك الفعل
(فعل الذين من قبلهم) من الشرك والتكذيب
(وما ظلمهم الله) بتدميرهم (ولكن كانوا انفسهم يظلمون)
حيث فعلوا ما استحقوا به التدمير
(فأصابهم سيئات ما عملوا) جزاء سيئات
اعمالهم (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن)
وأحاط بهم جزاء استهزائهم (وقال الذين اشركوا
لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن
ولا آباؤنا) هذا كلام صدر منهم استهزاء ولو
قالوه اعتقادا لكان صوابا.

باطل فلا جرم استحقوا عليه الذم والوعيد وأما قوله تعالى (ولا حرمنا من دونه من شئ) يعني الوصيلة والسائبة والحام والمعنى فلولا ان الله رضي لنا الغير ذلك ولدانا الى غيره (كذلك فعل الذين من قبلهم) يعني ان من تقدم هؤلاء من كفار مكة ومن الامم الماضية كانوا على هذه الطريقة وهذا الفعل الخبيث فانكار بعثة الرسل كان قديما في الامم الخالية (فهل على الرسل الا البلاغ المبين) يعني ليس اليهم هداية أحد انما عليهم تبليغ ما أرسلوا به الى من أرسلوا اليه (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا) يعني كما بعثنا فيكم محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا (أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) يعني ان الرسل كانوا يأمرونهم بان يعبدوا الله وأن يجتنبوا عبادة الطاغوت وهو اسم كل معبود من دون الله (فمنهم) يعني فمن الامم الذين جاءتهم الرسل (من هدى الله) يعني هداه الله الى الايمان به وتصديق رسله (ومنهم من حقت عليه الضلالة) يعني ومن الامم من وجبت عليه الضلالة بالقضاء السابق في الازل حتى مات على الكفر والضلال وفي هذه الآية أبين دليل على ان الهادي والمضل هو الله تعالى لانه المتصرف في عباده فيهدي من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض لاحد عليه بما حكم به في سابق علمه (فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) يعني فسيروا في الارض معتبرين متفكرين لتعرفوا مآل من كذب الرسل وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك وتعرفوا ان العذاب نازل بكم ان أصررتم على الكفر والتكذيب كما نزل بهم قوله سبحانه وتعالى (ان تحرص على هداهم) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني ان تحرص يا محمد على هدى هؤلاء وايمانهم وتجتهد كل الاجتهاد (فان الله لا يهدي من يضل) قرئ بفتح الياء وكسر الدال يعني لا يهدي الله من أضله وقيل معناه لا يهتدي من أضله الله وقرئ بضم الياء وفتح الدال ومعناه من أضله الله فلا هادي له (وما لهم من ناصرين) اي مانعين يمنعونهم من العذاب (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) قال ابن الجوزي سبب نزولها ان رجلا من المسلمين كان له على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما يتكلم به المسلم والذي أرجوه بعد الموت فقال المشرك انك لتزعم انك تبعث بعد الموت وأقسم بالله لا يبعث الله من يموت فنزلت هذه الآية قاله أبو العالية وتقرير الشبهة التي حصلت للمشركين في انكار البعث بعد الموت ان الانسان ليس هو الا هذه البنية المخصوصة فاذا مات وتفرقت أجزاؤه وبلي امتنع عوده بعينه لان الشئ اذا عدم فقد فني ولم يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه فهذا هو اصل شبهتهم ومعتقدهم في انكار البعث بعد الموت فذلك قوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم (لا يبعث الله من يموت) فرد الله عليهم ذلك وكذبهم في قولهم فقال تعالى (بلى) يعني بلى يبعثهم بعد الموت لان لفظة بلى اثبات لما بعد النفي والجواب عن شبهتهم ان الله سبحانه وتعالى خالق الانسان وأوجده من العدم ولم يك شيئا فالذي اوجده بقدرته ثم أعدمه قادر على ايجاده بعد اعدامه لان النشأة الثانية أهون من الاولى (وعدا عليه حقا) يعني ان الذي وعد به من البعث بعد الموت وعد حق لا خلف فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يعني لا يفهمون كيف يكون ذلك العود والله سبحانه وتعالى قادر على كل شئ (ليبين لهم الذي يختلفون فيه) يعني من أمر البعث ويظهر لهم الحق الذي لا خلف فيه (وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) يعني في قولهم لا بعث بعد الموت (انما قولنا لشئ اذا أردناه ان نقول له كن فيكون) يعني ان الله سبحانه وتعالى قادر اذا أراد ان يحيي الموتى ويبعثهم للحساب والجزاء ولا تعب عليه في احيائهم وبعثهم انما يقول لشئ أراده كن فيكون على ما أراد لانه القادر الذي لا يعجزه شئ أراده (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يشتمني ابن آدم وما ينبغي له ان يشتمني ويكذبني وما ينبغي له ان يكذبني أما شتمه اياي فيقول ان لي ولدا وأما تكذيبه اياي فقوله ليس يعيدني كما بدأني وفي رواية كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك أما تكذيبه اياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من اعادته وأما شتمه اياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وقوله تعالى

(ولا حرمنا من دونه من شئ) يعني البحيرة والسائبة ونحوهما (كذلك فعل الذين من قبلهم) أي كذبوا الرسل وحرموا الحلال وقالوا مثل قولهم استهزاء (فهل على الرسل الا البلاغ المبين) الا ان يبلغوا الحق ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه (ولقد بعثنا في كل امة رسولا ان اعبدوا الله) بأن وحدوه (واجتنبوا الطاغوت) الشيطان يعني طاعته (فمنهم من هدى الله) لاختيارهم الهدى (ومنهم من حقت عليه الضلالة) أي لزمته لاختياره اياها (فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) حيث أهلكهم الله واخلى ديارهم عنهم ثم ذكر عناد قريش وحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على ايمانهم واعلمه انهم من قسم من حقت عليه الضلالة فقال (ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدي من يضل) بفتح الياء وكسر الدال كوفي الباقون ضم الياء وفتح الدال والوجه فيه ان من يضل مبتدأ ولا يهدى خبره (وما لهم من ناصرين) يمنعونهم من جريان حكم الله عليهم ويدفعون عنهم عذابه الذي اعد لهم (واقسموا بالله جهد ايمانهم) معطوف على وقال الذين اشركوا (لا يبعث الله من يموت بلى) هو اثبات لما بعد النفي أي بلى يبعثهم (وعدا عليه حقا) وهو مصدر مؤكد لما دل عليه بلى لان يبعث موعد من الله وبين ان الوفاء بهذا الوعد حق (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ان وعده حق أو أنهم يبعثون (ليبين لهم) متعلق بما دل عليه بلى أي يبعثهم ليبين لهم والضمير لمن يموت وهو يشمل المؤمنين والكافرين (الذي يختلفون فيه) هو الحق (وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين) في قولهم لا يبعث الله من يموت (انما قولنا لشئ اذا اردناه ان نقول له كن فيكون) أي فهو يكون وبالنصب شامي وعلي على جواب كن قولنا مبتدأ وان نقول خبره وكن فيكون من كان التامة التي بمعنى الحدوث والوجود أي اذا اردنا وجود شئ فليس الا ان نقول له احدث فهو يحدث بلا توقف وهذه عبارة عن سرعة الايجاد يبين ان مرادا لا يمتنع عليه وان وجوده

(والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا) يعنى أوذوا وعذبوا نزلت فى بلال وصهيب وخباب وعابس وجبير وأبى جندل بن سهل أخذهم المشركون بمكة فجعلوا يعذبونهم ليرجعوا عن الاسلام الى الكفر وهم المستضعفون فأما بلال فكان اصحابه يخرجونه الى بطحاء مكة فى شدة الحر ويشدونه ويجعلون على صدره الحجارة وهو يقول الله أحد الله أحد فاشتراه منهم ابو بكر الصديق واعتقه واشترى معه ستة نفر آخرين واما صهيب فقال لهم انى رجل كبير ان كنت معكم فلن انفعكم وان كنت عليكم فلا اضركم فاشترى نفسه بماله فباعوه منه فرآه ابو بكر الصديق فقال يا صهيب ربح البيع واما باقيهم فأعطوهم بعض ما يريدون فخلوا عنهم وقال قتادة هم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ظلمهم اهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طائفة بالحبشة ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة فهاجروا اليها وجعل لهم انصارا من المؤمنين فآووهم ونصروهم وواسوهم وهذه الآية تدل على فضل المهاجرين وفضل الهجرة وفيه دليل على ان الهجرة اذا لم تكن لله خالصة لم يكن لها موقع وكانت بمنزلة الانتقال من بلد الى آخر ومنه حديث الاعمال بالنيات وفيه فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه الحديث اخرجاه فى الصحيحين من رواية عمر بن الخطاب وقوله تعالى (لنبوئنهم فى الدنيا حسنة) يعنى لنبوئنهم تبوئة حسنة وهو انه تعالى انزلهم المدينة وجعلها لهم دار هجرة والمعنى لنبوئنهم فى الدنيا دارا حسنة او بلدة حسنة وهى المدينة روى عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كان اذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له خذ هذا بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ثم يقول هذه الآية وقيل معناه لنحسنن اليهم فى الدنيا بان يفتح لهم مكة ويمكنهم من اهلها الذين ظلموهم واخرجوهم منها ثم ينصرهم على العرب قاطبة وعلى اهل المشرق والمغرب وقيل المراد بالحسنة فى الدنيا التوفيق والهداية فى الدين (ولاجر الآخرة اكبر) يعنى اعظم وافضل واشرف مما اعطاهم فى الدنيا (لو كانوا يعلمون) قيل الضمير يرجع الى الكفار لان المؤمنين يعلمون ما لهم فى الآخرة والمعنى لو كان هؤلاء الكفار يعلمون ان اجر الآخرة اكبر مما هم فيه من نعيم الدنيا لرغبوا فيه وقيل انه راجع الى المهاجرين والمعنى لو كانوا يعلمون ما أعد الله لهم فى الآخرة لزادوا فى الجد والاجتهاد والصبر على ما اصابهم من اذى المشركين (الذين صبروا) يعنى فى الله على ما نالهم من الاذى والمكروه فهو صفة مدح يعنى صبروا على العذاب ومفارقة الوطن وعلى الجهاد وبذل الانفس والاموال فى سبيل الله (وعلى ربهم يتوكلون) يعنى فى أمورهم كلها قال بعضهم ذكر الله الصبر والتوكل فى هذه الآية وهما مبدأ السلوك الى الله تعالى ومنتهاه أما الصبر فهو قهر النفس وحبسها على اعمال البر وسائر الطاعات واحتمال الاذى من الخلق والصبر عن الشهوات المباحات والمحرمات والصبر على المصائب وأما التوكل فالانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه الى الحق تعالى بالكلية فالاول هو مبدأ السلوك الى الله تعالى والثانى هو آخر الطريق ومنتهاه (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم) نزلت هذه الآية جوابا لمشركى مكة حيث انكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا الله أعظم واجل من ان يكون رسوله بشرا فهلا بعث ملكا الينا فأجابهم الله عز وجل بقوله وما أرسلنا من قبلك يا محمد الا رجالا يعنى مثلك نوحى اليهم والمعنى ان عادة الله عز وجل جارية من أول مبدإ الخلق انه لم يبعث الا رسولا من البشر فهذه عادة مستمرة وسنة جارية قديمة (فاسألوا أهل الذكر) يعنى أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وانما أمرهم الله بسؤال اهل الكتاب لان كفار مكة كانوا يعتقدون ان أهل الكتاب أهل علم وقد أرسل الله اليهم رسلا منهم مثل موسى وعيسى وغيرهم من الرسل وكانوا بشرا مثلهم فاذا سألوهم فلا بد وان يخبروهم بأن الرسل الذين أرسلوا اليهم كانوا بشرا فاذا أخبروهم بذلك زالت الشبهة عن قلوبهم (ان كنتم لا تعلمون) الخطاب لاهل مكة يعنى ان كنتم يا هؤلاء لا تعلمون ذلك (بالبينات والزبر) اختلفوا فى المعنى الجالب لهذه الباء فقيل المعنى وما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر

عند ارادته غير متوقف كوجود المأمور به عند أمر الآمر المطاع اذا ورد على المأمور المطيع الممتثل ولا قول ثم والمعنى ان ايجاد كل مقدور على الله بهذه السهولة فكيف يمتنع عليه البعث الذى هو من بعض المقدورات (والذين هاجروا فى الله) فى حقه ولوجهه (من بعد ما ظلموا) هم رسول الله واصحابه ظلمهم اهل مكة ففروا بدينهم الى الله منهم من هاجر الى الحبشة ثم الى المدينة فجمع بين الهجرتين ومنهم من هاجر الى المدينة (لنبوئنهم فى الدنيا حسنة) صفة للمصدر أى تبوئة حسنة أو لننزلنهم مباءة حسنة وهى المدينة حيث آواهم أهلها ونصروهم (ولاجر الآخرة اكبر) الوقف لازم عليه لان جواب (لو كانوا يعلمون) محذوف والضمير للكفار أى لو علموا ذلك لرغبوا فى الدين او للمهاجرين اى لو كانوا يعلمون لزادوا فى اجتهادهم وصبرهم (الذين صبروا) أى هم الذين صبروا أو أعنى الذين صبروا وكلاهما مدح أى صبروا على مفارقة الوطن الذى هو حرم الله المحبوب فى كل قلب فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤسهم وعلى المجاهدة وبذل الارواح فى سبيل الله (وعلى ربهم يتوكلون) أى يفوضون الامر الى ربهم ويرضون بما أصابهم فى دين الله ولما قالت قريش الله اعظم من ان يكون رسوله بشرا نزل (وما ارسلنا من قبلك الا رجالا يوحى اليهم) على السنة الملائكة نوحى حفص (فاسألوا اهل الذكر) اهل الكتاب ليعلموكم ان الله لم يبعث الى الامم السالفة الا بشرا وقيل للكتاب الذكر لانه موعظة وتنبيه للغافلين (ان كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر) اى بالمعجزات والكتب والباء تتعلق برجالا صفة له اى رجالا متلبسين بالبينات او بارسلنا مضمرا كأنه قيل بم ارسل الرسل فقيل بالبينات او بيوحى اى يوحى اليهم بالبينات او بلا تعلمون وقوله فاسألوا اهل الذكر اعتراض على الوجوه المتقدمة وقوله

الا رجالا يوحى اليهم أرسلناهم بالبينات والزبر وقيل الذكر بمعنى العلم فى قوله فاسألوا أهل الذكر يعنى اهل العلم والمعنى فاسألوا أهل الذكر الذى هو العلم بالبيان والبرهان كنتم لا تعلمون أنتم ذلك والبينات والزبر اسم جامع لكل ما يتكامل به أمر الرسالة لان مدار أمر الرسول على المعجزات الدالة على صدقه وهى بالبينات وعلى بيان الشرائع والتكاليف وهى المراد بالزبر يعنى الكتب المنزلة على الرسل من الله عز وجل (وأنزلنا اليك الذكر) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم يعنى وأنزلنا عليك يا محمد الذكر الذى هو القرآن وانما سماه ذكرا لان فيه مواعظ وتنبيها للغافلين (لتبين للناس ما نزل اليهم) يعنى ما أجمل اليك من أحكام القرآن وبيان الكتاب يطلب من السنة والمبين لذلك المجمل هو الرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا قال بعضهم متى وقع تعارض بين القرآن والحديث وجب تقديم الحديث لان القرآن مجمل والحديث مبين بدلالة هذه الآية والمبين مقدم على المجمل وقال بعضهم القرآن منه محكم ومنه متشابه فالمحكم يجب ان يكون مبينا والمتشابه هو المجمل ويطلب بيانه من السنة فقوله تعالى لتبين للناس ما نزل اليهم محمول على ما أجمل فيه دون المحكم المبين المفسر (ولعلهم يتفكرون) يعنى فيما أنزل اليهم فيعملوا به (أفأمن الذين مكروا السيئات) فيه حذف تقديره المكرات السيئات وهم كفار قريش مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأصحابه وبالغوا فى أذيتهم والمكر عبارة عن السعى بالفساد على سبيل الاخفاء وقيل المراد بهذا المكر اشتغالهم بعبادة غير الله فيكون مكرهم على أنفسهم والصحيح ان المراد بهذا المكر السعى فى اذى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وقيل المراد بالذين مكروا السيئات نمرود ومن هو مثله والصحيح ان المراد بهم كفار مكة (ان يخسف الله بهم الارض) يعنى كما خسف بقرون من قبلهم (او يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) يعنى ان العذاب يأتيهم بغتة فيهلكهم فجأة كما اهلك قوم لوط وغيرهم (او يأخذهم فى تقلبهم) يعنى فى تصرفهم فى الاسفار فانه سبحانه وتعالى قادر على اهلاكهم فى السفر كما هو قادر على اهلاكهم فى الحضر وقال ابن عباس يأخذهم فى اختلافهم وقال ابن جريج فى اقبالهم وادبارهم يعنى انه تعالى قادر على ان يأخذهم فى ليلهم ونهارهم وفى جميع أحوالهم (فما هم بمعجزين) يعنى بسابقين الله أو يفوتونه بل هو قادر عليهم (او يأخذهم على تخوف) قال ابن عباس ومجاهد يعنى على تنقص قال ابن قتيبة التخوف التنقص ومثله التخون يقال تخوفه الدهر وتخونه اذا انتقصه واخذ ماله وحشمه ويقال هذه لغة هذيل فعلى هذا القول يكون المراد به انه ينقص من اطرافهم ونواحيهم الشئ بعد الشئ حتى يهلك جميعهم وقيل هو على اصله من الخوف فيحتمل انه سبحانه وتعالى لا يأخذهم بالعذاب اولا بل يخوفهم ثم يعذبهم بعد ذلك وقال الضحاك والكلبى هو من الخوف يعنى يهلك طائفة فيتخوف الآخرون ان يصيبهم مثل ما اصابهم والحاصل انه سبحانه وتعالى خوفهم بخسف يحصل فى الارض او بعذاب ينزل من السماء او بآفات تحدث دفعة أو بآفات تحدث قليلا قليلا الى ان يأتى الهلاك على آخرهم ثم انه سبحانه وتعالى ختم الآية بقوله (فان ربكم لرؤف رحيم) يعنى انه سبحانه وتعالى لا يعجل بالعقوبة والعذاب قوله سبحانه وتعالى (اولم يروا) قرئ بالتاء على خطاب الحاضرين وبالياء على الغيبة (الى ما خلق الله من شئ) يعنى من جسم قائم له ظل وهذه الرؤية لما كانت بمعنى النظر وصلت بالى لان المراد منها الاعتبار والاعتبار لا يكون الا بنفس الرؤية التى يكون معها نظر الى الشئ ليتأمل أحواله ويتفكر فيه فيعتبر به (يتفيؤ ظلاله) يعنى تميل وتدور من جانب الى جانب فهى من أول النهار على حال ثم تتقلص ثم تعود فى آخر النهار الى حالة اخرى ويقال للظل بالعشى فئ لانه من فاء يفئ اذا رجع من المغرب الى المشرق والفئ الرجوع قال الازهرى تفيؤ الظلال رجوعها بعد انتصاف النهار فالتفيؤ لا يكون الا بالعشى وما انصرفت عنه الشمس والظل يكون بالغداة وهو ما لم تنله الشمس وقوله ظلاله جمع ظل وانما أضاف الظلال وهو جمع الى مفرد وهو قوله من شئ لانه يراد به الكثرة ومعناه الاضافة الى ذوى الظلال (عن اليمين والشمائل) قال العلماء اذا طلعت الشمس من المشرق وأنت متوجه الى القبلة كان ظلك عن يمينك فاذا

(وانزلنا اليك الذكر) القرآن (لتبين للناس ما نزل اليهم) فى الذكر مما امروا به ونهوا عنه ووعدوا به واوعدوا (ولعلهم يتفكرون) فى تنبيهاته فيتنبهوا (افأمن الذين مكروا السيئات) اى المكرات السيئات وهم اهل مكة وما مكروا به رسول الله عليه السلام (ان يخسف الله بهم الارض) كما فعل بمن تقدمهم (او يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) اى بغتة (او يأخذهم فى تقلبهم) متقلبين فى مسايرهم ومتاجرهم (فما هم بمعجزين) او يأخذهم (على تخوف) متخوفين وهو ان يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم بالعذاب وهم متخوفون متوقعون وهو خلاف قوله من حيث لا يشعرون (فان ربكم لرؤف رحيم) حيث يحلم عنكم ولا يعاجلكم مع استحقاقكم والمعنى انه اذا لم يأخذكم مع ما فيكم فانما رأفته تقيكم ورحمته تحميكم (اولم يروا) وبالتاء حمزة وعلى وابو بكر (الى ما خلق الله) ما موصولة بخلق الله وهو مبهم بيانه (من شئ يتفيؤ ظلاله) اى يرجع من موضع الى موضع وبالتاء بصرى (عن اليمين) اى الايمان (والشمائل) جمع شمال

ارتفعت الشمس واستوت فى وسط السماء كان ظلك خلفك فاذا مالت الشمس الى الغروب كان ظلك عن يسارك وقال قتادة والضحاك أما اليمين فأول النهار وأما الشمال فآخر النهار وانما وحد اليمين وان كان المراد به الجمع للايجاز والاختصار فى اللفظ وقيل اليمين راجع الى لفظ الشئ وهو واحد والشمائل راجع الى المعنى لان لفظ الشئ يراد به الجمع (سجدا لله) فى معنى هذا السجود قولان أحدهما ان المراد به الاستسلام والانقياد والخضوع يقال سجد البعير اذا طأطأ رأسه ليركب وسجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل والمعنى ان جميع الاشياء التى لها ظلال فهى منقادة لله تعالى مستسلمة لامره غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ وغيره وقال مجاهد اذا زالت الشمس سجد كل شئ لله والقول الثانى فى معنى هذا السجود ان الظلال واقعة على الارض ملتصقة بها كالساجد على الارض فلما كانت الظلال يشبه شكلها شكل الساجدين أطلق الله عليها هذا اللفظ وقيل ظل كل شئ ساجد لله سواء كان ذلك الشئ يسجد لله أولا ويقال ان ظل الكافر ساجد لله وهو غير ساجد لله (وهم داخرون) أى صاغرون اذلاء والداخر الصاغر الذى يفعل ما تأمره به شاء أم أبى وذلك ان جميع الاشياء منقادة لامر الله تعالى فان قلت الظلال ليست من العقلاء فكيف عبر عنها بلفظ من يعقل وجمعها بالواو والنون قلت لما وصفها الله سبحانه وتعالى بالطاعة والانقياد لامره وذلك صفة من يعقل عبر عنها بلفظ من يعقل وجاز جمعها بالواو والنون وهو جمع العقلاء قوله عز وجل (ولله يسجد ما فى السموات وما فى الارض من دابة) قال العلماء السجود على نوعين سجود طاعة وعبادة كسجود المسلم لله عز وجل وسجود انقياد وخضوع كسجود الظلال فقوله ولله يسجد ما فى السموات وما فى الارض من دابة يحتمل النوعين لان سجود كل شئ بحسبه فسجود المسلمين والملائكة لله سجود عبادة وطاعة وسجود غيرهم سجود انقياد وخضوع وأتى بلفظ ما فى قوله ما فى السموات وما فى الارض للتغليب لان ما لا يعقل أكثر ممن يعقل فى العدد والحكم للاغلب كتغليب المذكر على المؤنث ولانه لو أتى بمن التى هى للعقلاء لم يكن فيها دلالة على التغليب بل كانت متناولة للعقلاء خاصة فأتى بلفظة ما ليشمل الكل ولفظة الدابة مشتقة من الدبيب وهو عبارة عن الحركة الجسمانية فالدابة اسم يقع على كل حيوان جسمانى يتحرك ويدب فيدخل فيه الانسان لانه مما يدب على الارض ولهذا أفرد الملائكة فى قوله (والملائكة) لانهم أولو أجنحة يطيرون بها وأفردهم بالذكر وان كانوا من جملة من فى السموات لشرفهم وقيل أراد ولله يسجد ما فى السموات من الملائكة وما فى الارض من دابة فسجود الملائكة والمسلمين للطاعة وسجود غيرهم تذللها وتسخيرها لما خلقت له وسجود ما لا يعقل وسجود الجمادات يدل على قدرة الصانع سبحانه وتعالى فيدعو الغافلين الى السجود لله عند التأمل والتدبر (وهم لا يستكبرون) يعنى الملائكة (يخافون ربهم من فوقهم) هو كقوله وهو القاهر فوق عباده وقد تقدم تفسيره (ويفعلون ما يؤمرون) عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى أرى ما لا ترون واسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها ان تئط ما فيها موضع أربع أصابع الا وملك واضع جبهته ساجدا والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم الى الصعدات تجأرون الى الله تعالى قال أبو ذر لوددت انى كنت شجرة تعضد أخرجه الترمذى وقال عن أبى ذر موقوفا

(فصل) وهذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيسن للقارى والمستمع أن يسجد عند قراءتها وسماعها قوله سبحانه وتعالى (وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين) لما أخبر الله عز وجل فى الآية المتقدمة ان كل ما فى السموات والارض خاضعون لله منقادون لامره عابدون له وانهم فى ملكه وتحت قدرته وقبضته نهى فى هذه الآية عن الشرك وعن اتخاذ الهين اثنين فقال وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين قال الزجاج ذكر الاثنين توكيدا لقوله الهين وقال صاحب النظم فيه تقديم وتأخير تقديره لا تتخذوا اثنين الهين يعنى ان الاثنين لا يكون كل واحد منهما الها ولكن اتخذوا الها واحدا وهو قوله تبارك

وتعالى

(سجدا لله) حال من الظلال عن مجاهد اذا زالت الشمس سجد كل شئ (وهم داخرون) صاغرون وهو حال من الضمير فى ظلاله لانه فى معنى الجمع وهو ما خلق الله من كل شئ له ظل وجمع بالواو والنون لان الدخور من أوصاف العقلاء أو لان فى جملة ذلك من يعقل فغلب والمعنى أو لم يروا الى ما خلق الله من الاجرام التى لها ظلال متفيئة عن ايمانها وشمائلها أى ترجع الظلال من جانب الى جانب منقادة لله تعالى غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفيؤ والاجرام فى أنفسها داخرة أيضا صاغرة منقادة لافعال الله فيها غير ممتنعة (ولله يسجد ما فى السموات وما فى الارض من دابة) من بيان لما فى السموات وما فى الارض جميعا على ان فى السموات خلقا يدبون فيها كما تدب الاناسى فى الارض والمراد بما أو بيان لما فى الارض وحده والمراد بقوله (والملائكة) ملائكتهن وبقوله فى السموات ملائكة السموات وغيرهم وقيل المراد ملائكة الارض من الحفظة وغيرهم وسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم وسجود غيرهم انقيادهم لارادة الله ومعنى الانقياد يجمعهما فلم يختلفا فلذا جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد وجئ بما اذ هو صالح للعقلاء وغيرهم ولو جئ بمن لتناول العقلاء خاصة (وهم لا يستكبرون يخافون ربهم) هو حال من الضمير فى لا يستكبرون أى لا يستكبرون خائفين (من فوقهم) ان علقته بيخافون فمعناه يخافونه ان يرسل عليهم عذابا من فوقهم وان علقته بربهم حالا منه فمعناه يخافون ربهم غالبا لهم قاهرا كقوله وهو القاهر فوق عباده (ويفعلون ما يؤمرون) وفيه دليل على ان الملائكة مكلفون مدارون على الامر والنهى وأنهم بين الخوف والرجاء (وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين

وتعالى (انما هو اله واحد) لان الالهين لا يكونان الا متساويين فى الوجود والقدم وصفات الكمال والقدرة والارادة فصارت الاثنينية منافية للالهية وذلك قوله تعالى انما هو اله واحد يعنى لا يجوز أن يكون فى الوجود الهين اثنين انما هو اله واحد (فاياى فارهبون) يعنى فخافون والرهب مخافة مع حزن واضطراب وانما نقل الكلام من الغيبة الى الحضور وهو من طريق الالتفات لانه ابلغ فى الترهيب من قوله فاياه فارهبوا فهو من بديع الكلام وبليغه وقوله فاياى فارهبون يفيد الحصر وهو أن لا يرهب الخلق الا منه ولا يرغبون الا اليه والى كرمه وفضله واحسانه (وله ما فى السموات والارض) لما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح ان اله العالم لا شريك له فى الالهية وجب ان يكون جميع المخلوقات عبيداله وفى ملكه وتصرفه وتحت قدرته فذلك قوله تعالى وله ما فى السموات والارض يعنى عبيدا وملكا (وله الدين واصبا) يعنى وله العبادة والطاعة واخلاص العمل دائما ثابتا والواصب الدائم قال ابن قتيبة ليس من أحد يدان له ولا يطاع الا انقطع ذلك بسبب فى حال الحياة أو بالموت الا الحق سبحانه وتعالى فان طاعته واجبة دائمة أبدا (أفغير الله تتقون) يعنى انكم عرفتم ان الله واحد لا شريك له فى ملكه وعرفتم ان كل ما سواه محتاج اليه فبعد هذه المعرفة كيف تخافون غيره وتتقون سواه فهو استفهام بمعنى التعجب وقيل هو استفهام على طريق الانكار قوله عز وجل (وما بكم من نعمة فمن الله) يعنى من نعمة الاسلام وصحة الابدان وسعة الارزاق وكل ما اعطاكم من مال أو ولد فكل ذلك من الله تعالى انما هو المتفضل به على عباده فيجب عليكم شكره على جميع انعامه ولما بين فى الآية المتقدمة انه يجب على جميع العباد ان لا يخافوا الا الله تعالى بين فى هذه الآية ان جميع النعم منه فلا يشكر عليها الا اياه لانه هو المتفضل بها على عباده فيجب عليهم شكره عليها (ثم اذا مسكم الضر) أى الشدة والامراض والاسقام (فاليه تجأرون) يعنى اليه تستغيثون وتصيحون وتضجون بالدعاء ليكشف عنكم ما نزل بكم من الضر والشدة واصل الجؤار هو رفع الصوت الشديد ومنه جؤار البقر والمعنى ان النعم لما كانت كلها ابتداء منه فان حصل شدة وضر فى بعض الاوقات فلا يلجأ الا اليه ولا يدعى الا اياه ليكشفها فانه هو القادر على كشفها وهو قوله تعالى (ثم اذا كشف الضر عنكم) يعنى ثم اذا أزال الشدة والبلاء عنكم (اذا فريق منكم) يعنى طائفة وجماعة منكم (بربهم يشركون) يعنى انهم يضيفون كشف الضر الى العوائد والاسباب ولا يضيفونه الى الله عز وجل فهذا من جملة شركهم الذى كانوا عليه وانما قسمهم فريقين لان فريق المؤمنين لا يرون كشف الضر الا من الله تعالى ثم قال تعالى (ليكفروا بما آتيناهم) قيل ان هذه اللام لام كى ويكون المعنى على هذا انهم انما أشركوا بالله ليجحدوا نعمه عليهم فى كشف الضر عنهم وقيل انها لام العاقبة والمعنى عاقبة امرهم هو كفرهم بما آتيناهم من النعماء وكشفنا عنهم الضر والبلاء (فتمتعوا) لفظة امر والمراد منه التهديد والوعيد يعنى فعيشوا فى اللذة التى انتم فيها الى المدة التى ضربها الله لكم (فسوف تعلمون) يعنى عاقبة أمركم الى ماذا تصير وهو نزول العذاب بكم قوله سبحانه وتعالى (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا) قيل الضمير فى قوله لما لا يعلمون عائد الى المشركين يعنى ان المشركين لا يعلمون وقيل انه عائد الى الاصنام يعنى ان الاصنام لا تعلم شيئا البتة لانها جماد والجماد لا علم له ومنهم من رجح القول الاول لان نفى العلم عن الحى حقيقة وعن الجماد مجاز فكان عود الضمير الى المشركين أولى ولانه قال لما لا يعلمون فجمعهم بالواو والنون وهو جمع لمن يعقل ومنهم من رجح القول الثانى قال لانا اذا قلنا انه عائد الى المشركين احتجنا فيه الى اضمار فيكون المعنى ويجعلون يعنى المشركين لما لا يعلمون انه اله ولا له حق نصيبا واذا قلنا انه عائد الى الاصنام لم نحتج الى هذا الاضمار لانها لا علم لها ولا فهم وقوله (مما رزقناهم) يعنى ان المشركين جعلوا للاصنام نصيبا من حروثهم وانعامهم وأموالهم التى رزقهم الله وتقدم تفسيره فى سورة الانعام (تالله) أقسم بنفسه على نفسه انه يسألهم يوم القيامة وهو قوله تعالى (لتسألن

انما هو اله واحد) فان قلت انما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا عندى رجال ثلاثة لان المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص فاما رجل ورجلان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلا حاجة الى أن يقال رجل واحد ورجلان اثنان قلت الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنية دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص فاذا أريدت الدلالة على ان المعنى به منهما والعدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد اليه والعناية به الا ترى انك لو قلت انما هو اله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل انك تثبت الالهية لا الوحدانية (فاياى فارهبون) نقل للكلام عن الغيبة الى التكلم وهو من طريقة الالتفات وهو أبلغ فى الترهيب من قوله فاياه فارهبوا فارهبونى يعقوب (وله ما فى السموات والارض وله الدين) أى الطاعة (واصبا) واجبا ثابتا لان كل نعمة منه فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه وهو حال عمل فيه الظرف أو وله الجزاء دائما يعنى الثواب والعقاب (أفغير الله تتقون وما بكم من نعمة) وأى شئ اتصل بكم من نعمة عافية وغنى وخصب (فمن الله) فهو من الله (ثم اذا مسكم الضر) المرض والفقر والجدب (فاليه تجأرون) فما تتضرعون الا اليه والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة (ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون) الخطاب فى وما بكم من نعمة ان كان عاما فالمراد بالفريق الكفرة وان كان الخطاب للمشركين فقوله منكم للبيان لا للتبعيض كأنه قال فاذا فريق كافر وهم انتم ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر كقوله فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد (ليكفروا بما آتيناهم) من نعمة الكشف عنهم كأنهم جعلوا غرضهم فى الشرك كفران النعمة ثم أوعدهم فقال (فتمتعوا فسوف تعلمون) هو عدول الى الخطاب على التهديد (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم) أى لآلهتهم ومعنى لا يعلمون انهم يسمونها آلهة ويعتقدون فيها انها تضر وتنفع وتشفع عند الله وليس كذلك لانها جماد لا تضر ولا تنفع او الضمير فى لا يعلمون للآلهة أى لاشياء غير موصوفة بالعلم ولا تشعر أجعلوا لها نصيبا فى انعامهم وزروعهم أم لا وكانوا يجعلون لهم ذلك تقربا اليهم (تالله لتسألن) وعيد

عما كنتم تفترون) يعني عما كنتم تكذبون في الدنيا في قولكم ان هذه الاصنام آلهة وان لها نصيبا من أموالكم وهذا التفات من الغيبة الى الحضور وهو من بديع الكلام وبليغه (ويجعلون لله البنات) هم خزاعة وكنانة قالوا الملائكة بنات الله وانما اطلقوا لفظ البنات على الملائكة لاستتارهم عن العيون كالنساء أو لدخول لفظ التأنيث في تسميتهم (سبحانه) نزه الله نفسه عن الولد والبنات (ولهم ما يشتهون) يعني ويجعلون لانفسهم ما يشتهون يعني البنين (واذا بشر أحدهم بالانثى) البشارة عبارة عن الخبر السار الذي يظهر على بشرة الوجه أثر الفرح به ولما كان ذلك الفرح والسرور يوجبان تغير بشرة الوجه كان كذلك الحزن والغم يظهر أثره على الوجه وهو الكمودة التي تعلو الوجه عند حصول الحزن والغم فثبت بهذا ان البشارة لفظ مشترك بين الخبر السار والخبر المحزن فصح قوله واذا بشر أحدهم بالانثى (ظل وجهه مسودا) يعني متغيرا من الغم والحزن والغيظ والكراهة التي حصلت له عند هذه البشارة والمعنى ان هؤلاء المشركين لا يرضى أحدهم بالبنت الانثى ان تنسب اليه فكيف يرضى أن ينسبها الى الله تعالى ففيه تبكيت لهم وتوبيخ وقوله سبحانه وتعالى (وهو كظيم) يعني انه ظل ممتلئا غما وحزنا (يتوارى من القوم من سوء ما بشر به) يعني انه يختفي من ذلك القول الذي بشر به وذلك ان العرب كانوا في الجاهلية اذا قربت ولادة زوجة أحدهم توارى من القوم الى ان يعلم ما ولد له فان كان ولدا ابتهج وسر بذلك وظهر وان كانت أنثى حزن ولم يظهر أياما حتى يفكر ما يصنع بها وهو قوله تعالى (أيمسكه على هون) يعني على هوان وانما ذكر الضمير في ايمسكه لانه عائد الى ما بشر به في قوله واذا بشر أحدهم (أم يدسه في التراب) يعني أم يخفي ذلك الذي بشر به في التراب والدس اخفاء الشئ في الشئ قال أهل التفسير ان مضر وخزاعة وتميما كانوا يدفنون البنات احياء والسبب في ذلك اما خوف الفقر وكثرة العيال ولزوم النفقة او الحمية فيخافون عليهن من الاسر ونحوه او طمع غير الاكفاء فيهن فكان الرجل من العرب في الجاهلية اذا ولدت له بنت واراد ان يستحييها تركها حتى اذا كبرت ألبسها جبة من صوف او شعر وجعلها ترعى الابل والغنم في البادية واذا اراد ان يقتلها تركها حتى اذا صارت سداسية قال لامها زينيها حتى اذهب بها الى احمائها ويكون قد حفر لها حفرة في الصحراء فاذا بلغ بها تلك الحفرة قال لها انظري الى هذه البئر فاذا نظرت اليها دفعها من خلفها في تلك البئر ثم يهيل التراب على رأسها وكان صعصعة عم الفرزدق اذا احس بشئ من ذلك وجه بابل الى والد البنت حتى يحييها بذلك فقال الفرزدق يفتخر بذلك

وعمي الذي منع الوائدات * فأحيا الوئيد فلم يوأد

عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الوائدة والموؤدة في النار اخرجه ابو داود وقوله تعالى (ألا ساء ما يحكمون) يعني بئس ما يصنعون و يقضون حيث يجعلون لله الذي خلقهم البنات وهم يستنكفون منهن ويجعلون لانفسهم البنين نظيره قوله سبحانه وتعالى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى وقيل معناه الا ساء ما يحكمون في وأد البنات (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء) يعني صفة السوء من احتياجهم الى الولد الذكر وكراهتهم الاناث وقتلهن خوف الفقر (ولله المثل الاعلى) اى الصفة العليا المقدسة وهي ان له التوحيد وانه المنزه عن الولد وانه لا اله الا هو وان له جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء السرمدي وغير ذلك من الصفات التي وصف الله بها نفسه وقال ابن عباس مثل السوء النار والمثل الاعلى شهادة أن لا اله الا الله (وهو العزيز) أى الممتنع في كبريائه وجلاله (الحكيم) يعني في جميع افعاله قوله (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) يعني بسبب ظلمهم فيعاجلهم بالعقوبة على ظلمهم وكفرهم وعصيانهم فان قلت الناس اسم جنس يشمل الكل وقد قال تعالى في آية اخرى فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فقسمهم في تلك الآية ثلاثة اقسام فجعل الظالمين قسما واحدا من ثلاثة قلت قوله ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم عام

مخصوص

عما كنتم تفترون) انها آلهة وانها أهل للتقرب اليها (ويجعلون لله البنات) كانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله (سبحانه) تنزيه لذاته من نسبة الولد اليه أو تعجب من قولهم (ولهم ما يشتهون) يعني البنين ويجوز في ما الرفع على الابتداء ولهم الخبر والنصب على العطف على البنات وسبحانه اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه أي وجعلوا لانفسهم ما يشتهون من الذكور (واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا) اي صار فظل وأمسى وأصبح وبات تستعمل بمعنى الصيرورة لان اكثر الوضع يتفق بالليل فيظل نهاره مغتما مسود الوجه من الكآبة والحياء من الناس (وهو كظيم) مملوء حنقا على المرأة (يتوارى من القوم من سوء ما بشر به) يستخفي منهم من أجل سوء المبشر به ومن أجل تعييرهم ويحدث نفسه وينظر (أيمسكه على هون) أيمسك ما بشر به على هون وذل (أم يدسه في التراب) أم يئده (ألا ساء ما يحكمون) حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم لله ويجعلون لانفسهم من هو على عكس هذا الوصف (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء) صفة السوء وهي الحاجة الى الاولاد الذكور وكراهة الاناث ووأدهن خشية الاملاق (ولله المثل الاعلى) وهو الغنى عن العالمين والنزاهة عن صفات المخلوقين (وهو العزيز) الغالب في تنفيذ ما أراد (الحكيم) في امهال العباد (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) بكفرهم ومعاصيهم

مخصوص بتلك الآية الاخرى لان فى جنس الناس الانبياء والصالحون ومن لا يطاق عليه اسم الظلم وقيل أراد بالناس الكفار فقط بدليل قوله ان الشرك لظلم عظيم وقوله (ماترك عليها) يعنى على الارض كناية عن غير مذكور لان الدابة لاتدب الاعلى الارض (من دابة) يعنى ان الله سبحانه وتعالى لو يؤاخذ الناس بظلمهم لاهلك جميع الدواب التى على وجه الارض قال قتادة وقد فعل الله ذلك فى زمن نوح عليه السلام فاهلك من كان على وجه الارض الامن كان فى السفينة مع نوح عليه السلام وروى ان اباهريرة سمع رجلا يقول ان الظالم لايضر الانفسه فقال بئس ماقلت ان الحبارى تموت هزالا بظلم الظالم وقال ابن مسعود ان الجعل تعذب فى جحرها بذنب ابن آدم وقيل أراد بالدابة الكافر بدليل قوله ان شر الدواب عند الله الذين كفروا وقيل فى معنى الآية ولو يؤاخذ الله الآباء الظالمين بسبب ظلمهم لانقطع النسل ولم توجد الابناء فلم يبق فى الارض أحد (ولكن يؤخرهم) يعنى يمهلهم بفضله وكرمه وحلمه (الى أجل مسمى) يعنى الى انتهاء آجالهم وانقضاء أعمارهم (فاذاجاء اجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون) يعنى لايؤخرون ساعة عن الاجل الذى جعله الله لهم ولا ينقصون عنه وقيل أراد بالاجل المسمى يوم القيامة والمعنى ولكن يؤخرهم الى يوم القيامة فيعذبهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون (ويجعلون لله مايكرهون) يعنى لانفسهم وهى البنات (وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) يعنى ويقولون ان لهم البنين وذلك انهم قالوا لله البنات ولنا البنون وهذا القول كذب منهم وافتراء على الله وقيل اراد بالحسنى الجنة والمعنى انهم مع كفرهم وقولهم الكذب يزعمون انهم على الحق وان لهم الجنة وذلك انهم قالوا ان كان محمد صادقا فى البعث وبعد الموت فان لنا الجنة لانا على الحق فأكذبهم الله تعالى فقال (لاجرم ان لهم النار) يعنى فى الآخرة لا الجنة (وانهم مفرطون) قرئ بكسر الراء مع التخفيف يعنى مسرفون وقرئ بكسر الراء مع التشديد يعنى مضيعون لامر الله وقراءة الجمهور بفتح الراء مع تخفيفها أى منسيون فى النار قاله ابن عباس وقال سعيد بن جبير ومقاتل متروكون وقال قتادة معجلون الى النار وقال الفراء مقدمون الى النار والفرط المتقدم الى الماء قبل القوم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم أنا فرطكم على الحوض أى متقدمكم (تالله لقد ارسلنا الى امم من قبلك) يعنى كما أرسلناك الى هذه الامة لقد ارسلنا الى امم من قبلك فكان شأنهم مع رسلهم التكذيب ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم (فزين لهم الشيطان اعمالهم) يعنى اعمالهم الخبيثة من الكفر والتكذيب والمزين فى الحقيقة هو الله تعالى هذا مذهب اهل السنة وانما جعل الشيطان آلة بالقاء الوسوسة فى قلوبهم وليس له قدرة ان يضل احدا أو يهدى أحدا وانما له الوسوسة فقط فمن اراد الله شقاوته سلطه عليه حتى يقبل وسوسته (فهو وليهم) أى ناصرهم (اليوم) ومن كان الشيطان وليه وناصره فهو مخذول مغلوب مقهور وانما سماه وليا لهم لطاعتهم اياه (ولهم عذاب أليم) يعنى فى الآخرة (وما أنزلنا عليك الكتاب الالتبين لهم الذى اختلفوا فيه) يعنى فى امر الدين والاحكام فتبين لهم الهدى من الضلال والحق من الباطل والحلال من الحرام (وهدى ورحمة) يعنى وما انزلنا عليك الكتاب الابيانا وهدى ورحمة (لقوم يؤمنون) لانهم هم المنتفعون به قوله سبحانه وتعالى (والله أنزل من السماء ماء) يعنى المطر (فأحيى به) يعنى بالماء (الارض) يعنى بالنبات والزروع (بعد موتها) يعنى يبسها وجدوبتها (ان فى ذلك لآية) يعنى دلالة واضحة على كمال قدرتنا (لقوم يسمعون) يعنى سماع انصاف وتدبر وتفكر لان سماع القلوب هو النافع لاسماع الآذان فمن سمع آيات الله اى القرآن بقلبه وتدبرها وتفكر فيها انتفع ومن لم يسمع بقلبه لم ينتفع بالآيات (وان لكم فى الانعام لعبرة) يعنى اذا تفكرتم فيها عرفتم كمال قدرتنا على ذلك (نسقيكم مما فى بطونه) الضمير عائد الى الانعام وكان حقه ان يقال مما فى بطونها واختلف النحويون فى الجواب فقيل ان لفظ الانعام مفرد وضع لافادة الجمع فهو بحسب اللفظ مفرد فيكون ضميره ضمير الواحد وهو مذكر وبحسب المعنى

(ماترك عليها) على الارض (من دابة) قط ولاهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين عن أبى هريرة رضى الله عنه ان الحبارى لتموت فى وكرها بظلم الظالم وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجعل يهلك فى جحره بذنب ابن آدم وعن ابن عباس رضى الله عنهما من دابة من مشرك يدب (ولكن يؤخرهم الى اجل مسمى) أى اجل كل أحد اووقت تقتضيه الحكمة أو القيامة (فاذاجاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون ويجعلون لله مايكرهون) مايكرهونه لانفسهم من البنات ومن شركاء فى رياستهم ومن الاستخفاف برسلهم ويجعلون له اردل اموالهم ولاصنامهم اكرمها (وتصف ألسنتهم الكذب) مع ذلك أى ويقولون الكذب (أن لهم الحسنى) عند الله وهى الجنة ان كان البعث حقا كقوله ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى وأن لهم الحسنى بدل من الكذب (لاجرم ان لهم النار وانهم مفرطون) مفرطون نافع مفرطون أبو جعفر فالمفتوح بمعنى مقدمون الى النار معجلون اليها من افرطت فلانا وفرطته فى طلب الماء اذا قدمته أو منسيون متروكون من افرطت فلانا خلفى اذا خلفته ونسيته والمكسور المخفف من الافراط فى المعاصى والمشدد من التفريط فى الطاعات أى التقصير فيها (تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك) أى ارسلنا رسلا الى من تقدمك من الامم (فزين لهم الشيطان اعمالهم) من الكفر والتكذيب بالرسل (فهو وليهم اليوم) أى قرينهم فى الدنيا تولى اضلالهم بالغرور أو الضمير لمشركى قريش أى زين للكفار قبلهم أعمالهم فهو ولى هؤلاء لانهم منهم أو هو على حذف المضاف أى فهو ولى امثالهم اليوم (ولهم عذاب اليم) فى القيامة (وما انزلنا عليك الكتاب) القرآن (الالتبين لهم) للناس (الذى اختلفوا فيه) هو البعث لانه كان فيهم من يؤمن به (وهدى ورحمة) معطوفان على محل لتبين الا انهما انتصبا على انهما مفعول لهما لانهما فعلا الذى انزل الكتاب ودخلت اللام على لتبين لانه فعل المخاطب لافعل المنزل (لقوم يؤمنون والله انزل من السماء ماء فاحيى به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآية لقوم يسمعون) سماع انصاف وتدبر لان من لم يسمع بقلبه فكأنه لايسمع (وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه) وبفتح النون نافع وشامى وابو بكر قال الزجاج سقيته واسقيته بمعنى واحد ذكر سيبويه الانعام فى الاسماء المفردة الواردة على افعال ولذا رجع الضمير اليه مفردا واما فى بطونها فى سورة المؤمنين فلان معناه الجمع وهو استئناف كأنه قيل كيف العبرة فقال نسقيكم مما فى بطونه

جمع فيكون ضميره ضمير الجمع وهو مؤنث فلهذا المعنى قال هنا مما فى بطونه وقال فى سورة المؤمنين مما فى بطونها وهذا قول أبى عبيدة والاخفش وقال الكسائى أنه رده الى ماذكر يعنى مما فى بطون ماذكرنا وقال غيره الكناية مردودة الى البعض وفيه اضمار كأنه قال نسقيكم مما فى بطونه اللبن فاضمر اللبن اذ ليس لكلها لبن (من بين فرث) وهو مافى الكرش من الثفل فاذا خرج منها لايسمى فرثا (ودم لبنا خالصا) يعنى من الدم والفرث ليس عليه لون الدم ولا رائحة الفرث قال ابن عباس اذا أكلت الدابة العلف واستقر فى كرشها طبخته كان اسفله فرثا وأوسطه لبنا واعلاه دما فالكبد مسلطة عليه تقسمه بتقدير الله سبحانه وتعالى فيجرى الدم فى العروق واللبن فى الضروع ويبقى الثفل كما هو (سائغا للشاربين) يعنى هنيئا سهلا يجرى فى الحلق بسهولة قيل انه لم يغص احد باللبن قط هذا قول المفسرين فى معنى هذه الآية وحكى الامام فخر الدين الرازى قول الحكماء فى ذلك فقال ولقائل ان يقول الدم واللبن لا يتولدان فى الكرش البتة والدليل عليه الحس فان هذه الحيوانات تذبح ذبحا متواليا وما رأى أحد فى كرشها دما ولا لبنا بل الحق ان الحيوان اذا تناول الغذاء وصل ذلك العلف الى معدته ان كان انسانا والى كرشه ان كان من الانعام وغيرها فاذا طبخ وحصل الهضم الاول فيه فما كان منه صافيا انجذب الى الكبد وما كان كثيفا نزل الى الامعاء ثم ذلك الذى حصل فى الكبد ينطبخ فيها ويصير دما وهو الهضم الثانى ويكون ذلك مخلوطا بالصفراء والسوداء وزيادة المائية فاما الصفراء فتذهب الى المرارة واما السوداء فتذهب الى الطحال واما المائية فتذهب الى الكلية ومنها الى المثانة وأما الدم فيذهب فى الاوردة وهى العروق النابتة من الكبد وهناك يحصل الهضم الثالث وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة فينصب الدم من تلك العروق الى الضرع والضرع لحم غددى رخو أبيض فيقلب الله عز وجل ذلك الدم عند انصبابه الى ذلك اللحم الغددى الرخو الابيض فيصير الدم لبنا فهذا صورة تكون اللبن فى الضرع فاللبن انما يتولد من بعض اجزاء الدم والدم انما يتولد من بعض الاجزاء اللطيفة من الاشياء المأكولة الحاصلة فى الكرش فاللبن تولد أولا من الفرث ثم من الدم ثانيا ثم صفاه الله سبحانه وتعالى بقدرته فجعله لبنا خالصا من بين فرث ودم وعند تولد اللبن فى الضرع يخلق الله عز وجل بلطيف حكمته فى حلمة الثدى ثقبا صغارا ومساما ضيقة فيجعلها كالمصفاة للبن فكل ما كان لطيفا من اللبن خرج بالمص أو الحلب وما كان كثيفا احتبس فى البدن وهو المراد بقوله خالصا يعنى من شوائب كدورة الدم والفرث سائغا للشاربين يعنى جاريا فى حلوقهم سهلا لذيذا هنيئا مريئا قوله عز وجل (ومن ثمرات النخيل والاعناب) يعنى ولكم أيضا عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والاعناب (تتخذون منه) الضمير فى منه يرجع الى ما تقديره ولكم من ثمرات النخيل والاعناب ما تتخذون منه (سكرا ورزقا حسنا) قال ابن مسعود وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وابراهيم وابن أبى ليلى والزجاج وابن قتيبة السكر الخمر سميت بالمصدر من قولهم سكر سكرا وسكرا والرزق الحسن سائر ما يتخذ من ثمرات النخيل والاعناب مثل الدبس والتمر والزبيب والخل وغير ذلك فان قلت الخمر محرمة فكيف ذكرها الله عز وجل فى معرض الانعام والامتنان قلت قال العلماء فى الجواب عن هذا ان هذه السورة مكية وتحريم الخمر انما نزل فى سورة المائدة وهى مدنية فكان نزول هذه الآية فى الوقت الذى كانت الخمرة فيه غير محرمة وقيل ان الله عز وجل نبه فى هذه الآية على تحريم الخمر أيضا لانه ميز بينها وبين الرزق الحسن فى الذكر فوجب أن يقال الرجوع عن كونه حسنا يدل على التحريم وروى العوفى عن ابن عباس ان السكر هو الخل بلغة الحبشة وقال بعضهم السكر هو النبيذ وهو نقيع التمر والزبيب اذا اشتد والمطبوخ من العصير وهو قول الضحاك والنخعى ومن يبيح شرب النبيذ ومن يحرمه يقول المراد من الآية الاخبار لا الإحلال وأولى الاقاويل ان قوله تتخذون منه سكرا منسوخ سئل ابن عباس عن هذه الآية فقال السكر ما حرم من ثمراتها والرزق الحسن ما حل قلت القول بالنسخ فيه نظر لان قوله ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون

(من بين فرث ودم لبنا خالصا) اى يخلق الله اللبن وسيطا بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ لا يبغى أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة بل هو خالص من ذلك كله قيل اذا اكلت البهيمة العلف فاستقر فى كرشها طبخته فكان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما والكبد مسلطة على هذه الاصناف الثلاثة تقسمها فتجرى الدم فى العروق واللبن فى الضروع ويبقى الفرث فى الكرش ثم ينحدر وفى ذلك عبرة لمن اعتبر وسئل شقيق عن الاخلاص فقال تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم (سائغا للشاربين) سهل المرور فى الحلق ويقال لم يغص أحد باللبن قط ومن الاولى للتبعيض لان اللبن بعض ما فى بطونها والثانية لابتداء الغاية وتعلق (ومن ثمرات النخيل والاعناب) بمحذوف تقديره ونسقيكم من ثمرات النخيل والاعناب أى من عصيرهما وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه وقوله (تتخذون منه سكرا) بيان وكشف عن كنه الاسقاء أو تتخذون ومنه من تكرير الظرف للتوكيد والضمير فى منه يرجع الى المضاف المحذوف الذى هو العصير والسكر الخمر سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا نحو رشد رشدا ورشدا ثم فيه وجهان أحدهما ان الآية سابقة على تحريم الخمر فتكون منسوخة وثانيهما ان يجمع بين العتاب والمنة وقيل السكر النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر اذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد وهو حلال عند أبى حنيفة وأبى يوسف رحمهما الله الى حد السكر ويحتجان بهذه الآية وبقوله عليه السلام الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب وبأخبار جمة (ورزقا حسنا) هو الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك

منه سكرا ورزقا حسنا خبر والاخبار لا يدخلها النسخ ومن زعم انها منسوخة رأى ان هذه الآية نزلت بمكة فى وقت اباحة الخمر ثم ان الله تبارك وتعالى حرمها بالمدينة فحكم على هذه الآية بأنها منسوخة وقال أبو عبيدة فى معنى الآية ان السكر الطعم يقال هذا سكر لك أى طعم لك وقال غيره السكر ما سد الجوع من قولهم سكرت النهر أى سددته والتمر والزبيب مما يسد الجوع وهذا شرح قول أبى عبيدة ان السكر الطعم (ان فى ذلك) يعنى الذى ذكر من انعامه على عباده (لآية) يعنى دلالة وحجة واضحة (لقوم يعقلون) يعنى ان من كان عاقلا استدل بهذه الآية على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وعلم بالضرورة ان لهذه الاشياء خالقا ومدبرا قادرا على ما يريد قوله سبحانه وتعالى (وأوحى ربك الى النحل) لما ذكر الله سبحانه وتعالى دلائل قدرته وعجائب صنعته الدالة على وحدانيته من اخراج اللبن من بين فرث ودم واخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والاعناب ذكر فى هذه الآية اخراج العسل الذى جعله شفاء للناس من دابة ضعيفة وهى النحلة فقال سبحانه وتعالى وأوحى ربك الى النحل الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به كل فرد من الناس ممن له عقل وتفكر يستدل به على كمال قدرة الله ووحدانيته وانه الخالق لجميع الاشياء المدبر لها بلطيف حكمته وقدرته وأصل الوحى الاشارة السريعة وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض وقد يكون بصوت مجرد ويقال للكلمة الالهية التى يلقيها الله الى أنبيائه وحى والى اوليائه الهام وتسخير الطير لما خلق له ومنه قوله تعالى وأوحى ربك الى النحل يعنى انه سخرها لما خلقها له والهمها رشدها وقدر فى أنفسها هذه الاعمال العجيبة التى يعجز عنها العقلاء من البشر وذلك ان النحل تبنى بيوتا على شكل مسدس من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة أو غير ذلك من الاشكال لكان فيما بينها خلل ولما حصل المقصود فألهمها الله سبحانه وتعالى ان تبنيها على هذا الشكل المسدس الذى لا يحصل فيه خلل وفرجة خالية ضائعة والهمها الله تعالى أيضا ان تجعل عليها أميرا كبيرا نافذ الحكم فيها وهى تطيعه وتمتثل أمره ويكون هذا الامير أكبرها جثة وأعظمها خلقة ويسمى يعسوب النحل يعنى ملكها كذا حكاه الجوهرى وألهمها الله سبحانه وتعالى أيضا ان جعلت على باب كل خلية بوابا لا يمكن غير أهلها من الدخول اليها وألهمها الله سبحانه وتعالى أيضا انها تخرج من بيوتها فتدور وترعى ثم ترجع الى بيوتها ولا تضل عنها ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الالهام الالهى فكان ذلك شبيها بالوحى فلذلك قال تبارك وتعالى وأوحى ربك الى النحل والنحل زنبور العسل ويسمى الدبر أيضا قال الزجاج يجوز ان يقال سمى هذا الحيوان نحلا لان الله سبحانه وتعالى نحل الناس العسل الذى يخرج من بطونها بمعنى أعطاهم وقال غيره النحل يذكر ويؤنث وهى مؤنثة فى لغة الحجاز وكذا انثها الله تعالى فقال (أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) يعنى يبنون ويسقفون وذلك ان النحل منه وحشى وهو الذى يسكن الجبال والشجر ويأوى الى الكهوف ومنه اهلى وهو الذى يأوى الى البيوت ويربيه الناس عندهم وقد جرت العادة ان الناس يبنون للنحل الاماكن حتى تأوى اليها وقال ابن زيد أراد بالذى يعرشون الكروم (ثم كلى من كل الثمرات) يعنى من بعض الثمرات لانها لا تأكل من جميع الثمار فلفظة كل ههنا ليست للعموم (فاسلكى سبل ربك) يعنى الطرق التى ألهمك الله ان تسلكيها وتدخلى فيها لاجل طلب الثمرات (ذللا) قيل انها نعت للسبل يعنى انها مذللة لك الطرق مسهلة لك مسالكها قال مجاهد لا يتوعر عليها مكان تسلكه وقيل الذلل نعت للنحل يعنى انها مذللة مسخرة لاربابها مطيعة منقادة لهم حتى انهم ينقلونها من مكانها الى مكان آخر حيث شاؤا وارادوا لا تستعصى عليهم (يخرج من بطونها شراب) يعنى العسل (مختلف الوانه) يعنى ما بين أبيض واحمر واصفر وغير ذلك من الوان العسل وذلك على قدر ما تأكل من الثمار والازهار ويستحيل فى بطونها عسلا بقدرة الله تعالى ثم يخرج من افواهها يسيل كاللعاب وزعم الامام فخر الدين

الرازي انه راى في بعض كتب الطب ان العسل طل من السماء ينزل كالترنجبين فيقع على الازهار
واوراق الشجر فتجمعه النحل فتأكل بعضه وتدخر بعضه في بيوتها الانفسها التتغذى به فاذا اجتمع
في بيوتها من تلك الاجزاء الطلية شئ كثير فذلك هو العسل وقال هذا القول اقرب الى العقل لان طبيعة
الترنجبين تقرب من طبيعة العسل وايضا فانا نشاهد ان النحل تتغذى بالعسل واجاب عن
قوله تعالى يخرج من بطونها بأن كل تجويف في داخل البدن يسمى بطنا فقوله يخرج من بطونها يعني
من أفواهها وقول اهل الظاهر أولى واصح لانا نشاهد انه يوجد في طعم العسل طعم تلك الازهار التي
تأكلها النحل وكذلك يوجد لونها وريحها وطعمها فيه أيضا ويعضده هذا قول بعض أزواج النبي صلى
الله عليه وسلم له أكلت مغافير قال لا قالت فما هذه الريح التي اجد منك قال سقتني حفصة شربة عسل
قالت جرست نحله العرفط العرفط شجر الطلح وله صمغ يقال له المغافير كريه الرائحة فمعنى جرست نحله
العرفط أكلت ورعت من العرفط الذي له الرائحة الكريهة فثبت بهذا الدليل صحة قول اهل الظاهر
من المفسرين وانه يوجد في طعم العسل ولونه وريحه طعم ما يأكله النحل ولونه وريحه لا ما قاله الاطباء من
انه طل لانه لو كان طلا لكان على لون واحد وطبيعة واحدة وقوله ان طبيعة العسل تقرب من طبيعة
الترنجبين فيه نظر لان مزاج الترنجبين معتدل الى الحرارة وهو الطف من السكر ومزاج العسل حار يابس
في الدرجة الثانية فبينهما فرق كبير وقوله كل تجويف في داخل البدن يسمى بطنا فيه نظر لان لفظ
البطن اذا أطلق لم يرد به الا العضو المعروف مثل بطن الانسان وغيره والله أعلم وقوله تعالى (فيه) يعني
في الشراب الذي يخرج من بطون النحل (شفاء للناس) وهذا قول ابن عباس وابن مسعود اذ الضمير
في قوله فيه شفاء للناس يرجع الى العسل وقد اختلفوا في هذا الشفاء هل هو على العموم لكل مرض
او على الخصوص لمرض دون مرض على قولين احدهما ان العسل فيه شفاء من كل داء وكل مرض قال
ابن مسعود العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما في الصدور وفي رواية أخرى عنه عليكم بالشفاءين
القرآن والعسل وروى نافع عن ابن عمر ما كانت تخرج به قرحة ولا شئ الا لطخ الموضع بالعسل ويقرأ
يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس (ق) عن أبي سعيد الخدري قال جاء رجل
الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان اخي استطلق بطنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
اسقه عسلا فسقاه ثم جاءه فقال اني سقيته عسلا فلم يزده الا استطلاقا فقال له ثلاث مرات ثم جاء الرابعة
فقال اسقه عسلا فقال لقد سقيته فلم يزده الا استطلاقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق
الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبرأ وقد اعترض بعض الملحدين ومن في قلبه مرض على هذا الحديث
فقال ان الاطباء مجمعون على ان العسل مسهل فكيف يوصف لمن به الاسهال فنقول في الرد على
هذا المعترض الملحد الجاهل بعلم الطب ان الاسهال يحصل من انواع كثيرة منها التخم والهيضات وقد
اجمع الاطباء في مثل هذا على ان علاجه بان تترك الطبيعة وفعلها فان احتاجت الى معين على
الاسهال اعينت مادامت القوة باقية فأما حبسها فضرر عندهم واستعجال مرض فيحتمل ان يكون
اسهال الشخص المذكور في الحديث اصابه من امتلاء او هيضة فدواؤه بترك اسهاله على ما هو
عليه او تقويته فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرب العسل فزاده اسهالا فزاده عسلا الى ان فنيت
المادة فوقف الاسهال ويكون الخلط الذي كان به يوافقه شرب العسل فثبت بما ذكرناه ان امره صلى
الله عليه وسلم لهذا الرجل بشرب العسل جار على صناعة الطب وان المعترض عليه جاهل لها ولسنا نقصد
الاستظهار لتصديق الحديث بقول الاطباء بل لو كذبوه لكذبناهم وكفرناهم بذلك وانما ذكرنا هذا
الجواب الجاري على صناعة الطب دفعا لهذا المعترض بانه لا يحسن صناعة الطب التي اعترض بها والله
اعلم وقوله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن اخيك يحتمل انه صلى الله عليه وسلم علم بالوحي
الالهي ان العسل الذي أمره بشربه سيظهر نفعه بعد ذلك فلما لم يظهر نفعه في الحال عندهم قال صدق

(فيه شفاء للناس) لانه من جملة الادوية
النافعة وقيل معجون من المعاجين لم يذكر
الاطباء فيه العسل وليس الغرض انه شفاء
لكل مرض كما ان كل دواء كذلك وتنكيره
لتعظيم الشفاء الذي فيه او لان فيه بعض الشفاء
لان النكرة في الاثبات تخص وشكا رجل
استطلاق بطن أخيه فقال عليه السلام اسقه
عسلا فجاءه وقال زاده شرا فقال عليه السلام
صدق الله وكذب بطن اخيك اسقه عسلا
فسقاه فصح وعن ابن مسعود رضي الله عنه
العسل شفاء من كل داء والقرآن شفاء لما
في الصدور فعليكم بالشفاءين القرآن والعسل
ومن بدع الروافض ان المراد بالنحل علي وقومه
وعن بعضهم ان رجلا قال عند المهدي انما
النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم فقال
له رجل جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج
من بطونهم فضحك المهدي وحدث به المنصور
فاتخذوه اضحوكة من اضاحيكهم

الله يعنى فما وعدته من ان فيه شفاء وكذب بطن اخيك يعنى باستعجالكم للشفاء فى اول مرة والله اعلم بمراده واسرار رسوله صلى الله عليه وسلم فان قالوا كيف يكون شفاء للناس وهو يضر باصحاب الصفراء ويهيج الحرارة و يضر بالشباب المحرورين و يعطش قلنا فى الجواب عن هذا الاعتراض أيضا ان قوله فيه شفاء للناس مع انه يضر باصحاب الصفراء ويهيج الحرارة انه خرج مخرج الاغلب وانه فى الاغلب فيه شفاء ولم يقل انه شفاء لكل الناس ولكنه فى الجملة دواء وان نفعه اكثر من مضرته وقل معجون من المعاجين الا وتمامه به والاشربة المتخذة من العسل نافعة لاصحاب البلغم والشيوخ المبرودين ومنافعه كثيرة جدا والقول الثانى انه شفاء للاوجاع التى شفاؤها فيه وهذا قول السدى وقال مجاهد فى قوله فيه شفاء للناس يعنى القرآن لانه شفاء من أمراض الشرك والجهالة والضلالة وهو هدى ورحمة للناس والقول الاول أصح لان الضمير يجب ان يعود الى اقرب المذكورات وأقربها قوله تعالى يخرج من بطونها شراب وهو العسل فهو أولى ان يرجع الضمير اليه لانه أقرب مذكور وقوله سبحانه وتعالى (ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) يعنى فيعتبرون و يستدلون بما ذكرنا على وحدانيتنا وقدرتنا قوله عز وجل (والله خلقكم) يعنى أوجدكم من العدم وأخرجكم الى الوجود ولم تكونوا شيئا (ثم يتوفاكم) يعنى عند انقضاء آجالكم اما صبيانا واما شبانا واما كهولا (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) يعنى أرداه وأضعفه وهو الهرم قال بعض العلماء عمر الانسان له أربع مراتب أولها سن النشو والنماء وهو من اول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية سن الشباب و بلوغ الاشد ثم المرتبة الثانية سن الوقوف وهو من ثلاث وثلاثين سنة الى اربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل ثم المرتبة الثالثة سن الكهولة وهو من الاربعين الى الستين وهذه المرتبة تسرع الانسان الى النقص لكنه يكون نقصا خفيا لا يظهر ثم المرتبة الرابعة سن الشيخوخة والانحطاط من الستين الى آخر العمر وفيها يتبين النقص و يكون الهرم والخرف وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه أرذل العمر خمس وسبعون سنة وقيل ثمانون سنة وقال قتادة تسعون سنة (ق) عن أنس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم انى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وفى رواية أخرى عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بهذه الدعوات اللهم انى أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات وقوله تعالى (لكيلا يعلم بعد علم شيئا) يعنى ان الانسان يرجع الى حالة الطفولية بنسيان ما كان علم بسبب الكبر وقال ابن عباس لكى يصير كالصبى الذى لا عقل له وقال ابن قتيبة معناه حتى لا يعلم بعد علمه بالامور شيئا لشدة هرمه وقال الزجاج المعنى وان منكم من يكبر حتى يذهب عقله خرفا فيصير بعد ان كان عالما جاهلا ليريكم الله من قدرته أنه كما قدر على اماتته واحيائه انه قادر على نقله من العلم الى الجهل هكذا وجدته منقولا عنه ولو قال ليريكم من قدرته أنه كما قدر على نقله من العلم الى الجهل انه قادر على احيائه بعد اماتته ليكون ذلك دليلا على صحة البعث بعد الموت لكان أجود قال ابن عباس ليس هذا فى المسلمين لان المسلم لا يزداد فى طول العمر والبقاء الا كرامة عند الله وعقلا ومعرفة وقال عكرمة من قرأ القرآن لم يرد الى أرذل العمر حتى لا يعلم بعد علم شيئا وقال فى قوله الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين قرؤا القرآن وقال ابن عباس فى قوله تعالى ثم رددناه اسفل سافلين يريد الكافر ثم استثنى المؤمنين فقال تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقوله تعالى (ان الله عليم) يعنى بما صنع بأوليائه واعدائه (قدير) يعنى على ما يريد قوله تعالى (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) يعنى ان الله سبحانه وتعالى بسط على واحد وضيق و قتر على واحد وكثر لواحد وقلل على آخر و كما فضل بعضكم على بعض فى الرزق كذلك فضل بعضكم على بعض فى الخلق والخلق والعقل والصحة والسقم والحسن والقبح والعلم والجهل وغير ذلك فهم متفاوتون ومتباينون فى ذلك كله وهذا مما اقتضته الحكمة الالهية والقدرة الربانية (فما الذين فضلوا

(ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) فى عجيب أمرها فيعلمون أن الله أودعها علما بذلك وفطنها كما أعطى أولى العقول عقولهم (والله خلقكم ثم يتوفاكم) بقبض أرواحكم من أبدانكم (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) الى أخسه واحقره وهو خمس وسبعون سنة أو ثمانون او تسعون (لكيلا يعلم بعد علم شيئا) قيل ليس ما يعلم أولئلا يعلم زيادة علم على علمه (ان الله عليم) بحكم التحويل الى الارذل من الاكمل اوالى الافناء من الاحياء (قدير) على تبديل ما شاء كما يشاء من الاشياء (والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) أى جعلكم متفاوتين فى الرزق فرزقكم افضل مما رزق مماليككم وهم بشر مثلكم (فما الذين فضلوا) فى الرزق يعنى الملاك

برادى رزقهم على ماملكت ايمانهم) يعنى من العبيد حتى يستووا فيه هم وعبيدهم يقول الله سبحانه وتعالى هم لا يرضون ان يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقهم سواء وقد جعلوا عبيدى شركائى فى ملكى وسلطانى يلزم بهذه الحجة المشركين حيث جعلوا الاصنام شركاء الله قال قتادة هذا مثل ضربه الله عز وجل يقول هل منكم أحد يرضى ان يشركه مملوكه فى جميع ماله فكيف تعدلون بالله خلقه وعباده وقيل فى معنى الآية ان الموالى والمماليك الله رازقهم جميعا (فهم فيه) يعنى فى رزقه (سواء) فلا تحسبن أن الموالى يردون رزقهم على مماليكهم من عند أنفسهم بل ذلك رزق الله اجراه على أيدى الموالى للمماليك والمقصود منه بيان ان الرازق هو الله سبحانه وتعالى لجميع خلقه وان الموالى والمماليك فى الرزق سواء وان المالك لا يرزق المملوك بل الرازق للمماليك والمالك هو الله سبحانه وتعالى وقوله (أفبنعمة الله يجحدون) فيه انكار على المشركين حيث جحدوا نعمته وعبدوا غيره قوله عز وجل (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) يعنى النساء لخلق من آدم حواء زوجته وقيل جعل لكم من جنسكم زواجا لانه خطاب عام يعم الكل فتخصيصه بآدم وحواء خلاف الدليل (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) الحفدة جمع حافد وهو المسرع فى الخدمة المسارع الى الطاعة ومنه قوله فى الدعاء واليك نسعى ونحفد أى نسرع الى طاعتك فهذا أصله فى اللغة ثم اختلفت أقوال المفسرين فيهم فقال ابن مسعود والنخعى الحفدة اختان الرجل على بناته وعن ابن مسعود أيضا انهم اصهاره فهو بمعنى الاول فعلى هذا القول يكون معنى الآية وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهم فيحصل لكم بسببهم الاختان والاصهار وقال الحسن وعكرمة والضحاك هم الخدم وقال مجاهد هم الاعوان وكل من أعانك فقد حفدك وقال عطاء هم ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه وقيل هم أهل المهنة الذين يمتهنون ويخدمون من الاولاد وقال مقاتل والكلبى البنين هم الصغار والحفدة كبار الاولاد الذين يعينون الرجل على عمله وقال ابن عباس هم ولد الولد وفى رواية أخرى عنه انهم بنو امرأة الرجل الذين ليسوا منه وكل هذه الاقوال متقاربة لان اللفظ يحتمل الكل بحسب المعنى المشترك وبالجملة فان الحفدة هم غير البنين لان الله سبحانه وتعالى قال بنين وحفدة فجعل بينهم مغايرة (ورزقكم من الطيبات) يعنى النعم التى أنعم بها عليكم من أنواع الثمار والحبوب والحيوان والاشربة المستطابة الحلال من ذلك كله (أفبالباطل يؤمنون) يعنى بالاصنام وقيل بالشيطان يؤمنون وقيل معناه يصدقون ان لى شريكا وصاحبة وولدا وهذا استفهام انكار أى ليس لهم ذلك (وبنعمة الله هم يكفرون) يعنى انهم يضيفون ما أنعم الله به الى غيره وقيل معناه انهم يجحدون ما أحل الله لهم (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والارض) يعنى الاصنام التى لا تقدر على انزال المطر الذى فى السموات خزائنه ولا يقدرون على اخراج النبات الذى فى الارض معدنه (شيئا) يعنى لا يملك من الرزق شيئا قليلا ولا كثيرا وقيل معناه يعبدون ما لا يرزق شيئا (ولا يستطيعون) يعنى ولا يقدرون على شئ يذكر بعجز الاصنام عن ايصال نفع أو دفع ضر (فلا تضربوا لله الامثال) يعنى لا تشبهوا الله بخلقه فانه لا مثل له ولا شبيه ولا شريك من خلقه لان الخلق كلهم عبيده وفى ملكه فكيف يشبه الخالق بالمخلوق أو الرازق بالمرزوق أو القادر بالعاجز (ان الله يعلم) يعنى ما أنتم عليه من ضرب الامثال له (وأنتم لا تعلمون) خطأ ما تضربون له من الامثال قوله تعالى (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقا حسنا) لما نهاهم الله سبحانه وتعالى عن ضرب الامثال لقلة علمهم ضرب هو سبحانه وتعالى لنفسه مثلا فقال تعالى مثلكم فى اشراككم بالله الاوثان كمثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر كريم مالك قادر قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف يشاء فصريح العقل يشهد بأنه لا تجوز التسوية بينهما فى التعظيم والاجلال فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما فى الخلقة والصورة البشرية فكيف يجوز للعاقل ان يسوى بين الله عز وجل الخالق القادر على الرزق والافضال وبين الاصنام التى لا تملك ولا تقدر على شئ البتة

(برادّى) بمعطى (رزقهم على ماملكت ايمانهم) فكان ينبغى ان تردوا فضل مارزقتموه عليهم حتى تتساووا فى الملبس والمطعم (فهم فيه سواء) جملة اسمية وقعت فى موضع جملة فعلية فى موضع النصب لانه جواب النفى بالفاء وتقديره فما الذين فضلوا برادّى رزقهم على ماملكت ايمانهم فيستووا مع عبيدهم فى الرزق وهو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء فقال لهم انتم لا تسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم ولا تجعلونهم فيه شركاء ولا ترضون ذلك لانفسكم فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدى لى شركاء (افبنعمة الله يجحدون) وبالتاء أبو بكر فجعل ذلك من جملة جحود النعمة (والله جعل لكم من انفسكم أزواجا) أى من جنسكم (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) جمع حافد وهو الذى يحفد أى يسرع فى الطاعة والخدمة ومنه قول القانت واليك نسعى ونحفد واختلف فيه فقيل هم الاختان على البنات وقيل أولاد الاولاد والمعنى وجعل لكم حفدة أى خدما يحفدون فى مصالحكم ويعينونكم (ورزقكم من الطيبات) أى بعضها لان كل الطيبات فى الجنة وطيبات الدنيا انموذج منها (افبالباطل يؤمنون) هو ما يعتقدونه من منفعة الاصنام وشفاعتها (وبنعمة الله) أى الاسلام (هم يكفرون) أو الباطل الشيطان والنعمة محمد صلى الله عليه وسلم أو الباطل ما يسول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ونعمة الله ما أحل لهم (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيئا) أى الصنم وهو جماد لا يملك أن يرزق شيئا فالرزق يكون بمعنى المصدر وبمعنى ما يرزق فان أردت المصدر نصبت به شيئا أى لا يملك أن يرزق شيئا وان أردت المرزوق كان شيئا بدلا منه أى قليلا ومن السموات والارض صلة للرزق ان كان مصدرا أى لا يرزق من السموات مطرا ولا من الارض نباتا وصفة ان كان اسما لما يرزق والضمير فى (ولا يستطيعون) لما لانه فى معنى الآلهة بعد ما قال لا يملك على اللفظ والمعنى لا يملكون الرزق ولا يمكنهم أن يملكوه ولا يتأتى ذلك منهم (فلا تضربوا لله الامثال) فلا تجعلوا لله مثلا فانه لا مثل له أى فلا تجعلوا له شركاء (ان الله يعلم) انه لا مثل له من الخلق (وانتم لا تعلمون) ذلك او ان الله يعلم كيف يضرب الامثال وانتم لا تعلمون وقيل ذلك والوجه الاول ثم ضرب المثل فقال (ضرب الله مثلا عبدا) هو بدل من مثلا (مملوكا لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقا حسنا

وقيل هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر والمراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شئ هو الكافر لانه لما كان محروما من عبادة الله وطاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز الذي لا يقدر على شئ وقيل ان الكافر لما رزقه الله مالا فلم يقدم فيه خيرا صار كالعبد الذي لا يملك شيئا والمراد بقوله ومن رزقناه منا رزقا حسنا المؤمن لانه لما اشتغل بطاعة الله وعبوديته والانفاق في وجوه البر والخير صار كالحر المالك الذي ينفق سرا وجهرا في طاعة الله وابتغاء مرضاته وهو قوله سبحانه وتعالى (فهو ينفق منه سرا وجهرا) فأثابه الله الجنة على ذلك فان قلت لم قال عبدا مملوكا لا يقدر على شئ وكل عبد هو مملوك وهو غير قادر على التصرف قلت انما ذكر المملوك ليتميز من الحر لان اسم العبد يقع عليهما جميعا لانهما من عباد الله وقوله لا يقدر على شئ احترز به عن المملوك المكاتب والمأذون له في التصرف لانهما يقدران على التصرف واحتج الفقهاء بهذه الآية على ان العبد لا يملك شيئا (هل يستوون) ولم يقل هل يستويان يعني هل يستوي الاحرار والعبيد والمعنى كما لا يستوي هذا الفقير البخيل والغني السخي كذلك لا يستوي الكافر العاصي والمؤمن الطائع وقال عطاء في قوله عبدا مملوكا هو أبو جهل بن هشام ومن رزقناه منا رزقا حسنا هو أبو بكر الصديق ثم قال تعالى (الحمد لله) حمد الله نفسه لانه المستحق لجميع المحامد لانه المنعم المتفضل على عباده وهو الخالق الرازق لا هذه الاصنام التي عبدها هؤلاء فانها لا تستحق الحمد لانها جماد عاجزة لا يد لها على أحد ولا معروف فتحمد عليه انما الحمد الكامل لله لا لغيره فيجب على جميع العباد حمد الله لانه أهل الحمد والثناء الحسن (بل أكثرهم) يعني الكفار (لا يعلمون) يعني ان الحمد لله لا لهذه الاصنام (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم) هو الذي ولد أخرس فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم والابكم الذي لا يفهم ولا يفهم (لا يقدر على شئ) هو اشارة الى العجز التام والنقصان الكامل (وهو كل على مولاه) اى ثقيل على من يلي أمره ويعوله وقيل أصله من الغلظ وهو نقيض الحد يقال كل السكين اذا غلظت شفرته وكل اللسان اذا غلظ فلم يقدر على النطق وكل فلان عن الامر اذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه فقوله وهو كل على مولاه أي غليظ ثقيل على مولاه (أينما يوجهه) أي حيثما يرسله ويصرفه في طلب حاجة أو كفاية مهم (لا يأت بخير) يعني لا يأت بنجح لانه أخرس عاجز لا يحس ولا يفهم (هل يستوي) يعني من هذه صفته (هو) يعني صاحب هذه الصفات المذمومة (ومن يأمر بالعدل) يعني ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفاية ذو رشد وديانة يأمر الناس بالعدل والخير (وهو) في نفسه (على صراط مستقيم) يعني على سيرة صالحة ودين قويم فيجب ان يكون الآمر بالعدل عالما قادرا مستقيما في نفسه حتى يتمكن من الامر بالعدل وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده من انعامه ويشملهم به من آثار رحمته والطافه وللاصنام التي هي أموات جماد لا تضر ولا تسمع ولا تنطق ولا تعقل وهي كل على عابديها لانها تحتاج الى كلفة الحمل والنقل والخدمة وقيل كلا المثلين للمؤمن والكافر والمؤمن هو الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم والكافر هو الابكم الثقيل الذي لا يأمر بخير فعلى هذا القول تكون الآية على العموم في كل مؤمن وكافر وقيل هي على الخصوص فالذي يأمر بالعدل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على صراط مستقيم والذي يأمر بالظلم وهو أبكم أبو جهل وقيل الذي يأمر بالعدل عثمان بن عفان وكان له مولى يأمره بالاسلام وذلك المولى يأمر عثمان بالامساك عن الانفاق في سبيل الله تعالى فهو الذي لا يأتي بخير وقيل المراد بالابكم الذي لا يأتي بخير أبي بن خلف وبالذي يأمر بالعدل حمزة وعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون (ولله غيب السموات والارض) أخبر الله عز وجل في الآية عن كمال علمه وانه عالم بجميع الغيوب فلا تخفى عليه خافية ولا يخفى عليه شئ منها وقيل الغيب هنا هو علم قيام الساعة وهو قوله (وما أمر الساعة) يعني في قيامها والساعة هي الوقت الذي يقوم الناس فيه لموقف الحساب (الا كلمح البصر) يعني في السرعة ولمح البصر هو انطباق جفن العين وفتحه وهو طرف العين أيضا

(فهو ينفق منه سرا وجهرا) مصدران في موضع الحال أي مثلكم في اشراككم بالله الاوثان مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر مالك قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه وينفق منه ما شاء وقيد بالمملوك ليميزه من الحر لان اسم العبد يقع عليهما جميعا اذ هما من عباد الله وبلا يقدر على شئ ليمتاز من المكاتب والمأذون فهما يقدران على التصرف ومن موصوفة أي وحرا رزقناه ليطابق عبدا أو موصولة (هل يستوون) جمع الضمير لارادة الجمع أي لا يستوي القبيلان (الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) بان الحمد والعبادة لله ثم زاد في البيان فقال (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم) الابكم الذي ولد أخرس فلا يفهم ولا يفهم (لا يقدر على شئ) (وهو كل على مولاه) اى ثقل وعيال على من يلي امره ويعوله (أينما يوجهه) حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة او كفاية مهم (لا يأت بخير) لم ينفع ولم يأت بنجح (هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل) اى ومن هو سليم الحواس نفاع ذو كفايات مع رشد وديانة فهو يأمر الناس بالعدل والخير (وهو) في نفسه (على صراط مستقيم) على سيرة صالحة ودين قويم وهذا مثل ثان ضربه لنفسه ولما يفيض على عباده من آثار رحمته ونعمته وللاصنام التي هي اموات لا تضر ولا تنفع (ولله غيب السموات والارض) أي يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفي عليهم علمه أو أراد بغيب السموات والارض يوم القيامة على ان علمه غائب عن اهل السموات والارض لم يطلع عليه أحد منهم (وما أمر الساعة) في قرب كونها وسرعة قيامها (الا كلمح البصر) كرجع طرف وانما ضرب به المثل لانه لا يعرف زمان اقل منه

(أوهو أقرب) يعني ان لمح البصر يحتاج الى زمان وحركة والله سبحانه وتعالى اذا أراد شيئا قال له كن فيكون في أسرع من لمح البصر وهو قوله (ان الله على كل شيء قدير) فيه دليل على كمال قدرة الله تعالى وانه سبحانه وتعالى مهما أراد شيأ كان أسرع ما يكون قال الزجاج ليس المراد ان الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر ولكنه سبحانه وتعالى وصف سرعة القدرة على الاتيان بها متى شاء لا يعجزه شيء قوله عز وجل (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) تم الكلام هنا لان الانسان خلق في أول الفطرة ومبدئها خاليا عن العلم والمعرفة لا يهتدي سبيلا ثم ابتدأ فقال تعالى (وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة) يعني ان الله سبحانه وتعالى انما أعطاكم هذه الحواس لتنتقلوا بها من الجهل الى العلم فجعل لكم السمع لتسمعوا به نصوص الكتاب والسنة وهي الدلائل السمعية لتستدلوا بها على ما يصلحكم في أمر دينكم وجعل لكم الابصار لتبصروا بها عجائب مصنوعاته وغرائب مخلوقاته فتستدلوا بها على وحدانيته وجعل لكم الأفئدة لتعقلوا بها وتفهموا معاني الاشياء التي جعلها دلائل وحدانيته وقال ابن عباس في هذه الآية يريد لتسمعوا مواعظ الله وتبصروا ما أنعم الله به عليكم من اخراجكم من بطون أمهاتكم الى ان صرتم رجالا وتعقلوا عظمة الله وقيل في معنى الآية والله خلقكم في بطون أمهاتكم وسواكم وصوركم ثم أخرجكم من الضيق الى السعة وجعل لكم الحواس آلات لازالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه والترقي الى ما يسعدكم به في الآخرة فان قلت ظاهر الآية يدل على ان جعل الحواس الثلاث بعد الاخراج من البطون وانما خلقت هذه الحواس للانسان من جملة خلقه وهو في بطن أمه قلت ذكر العلماء ان تقديم الاخراج وتأخير ذكر هذه الحواس لا يدل على ان خلقها كان بعد الاخراج لان الواو لا توجب الترتيب ولان العرب تقدم وتؤخر في بعض كلامها وأقول لما كان الانتفاع بهذه الحواس بعد الخروج من البطن فكأنما خلقت في ذلك الوقت الذي ينتفع بها فيه وان كانت قد خلقت قبل ذلك وقوله تعالى (لعلكم تشكرون) يعني انما أنعم عليكم بهذه الحواس لتستعملوها في شكر من أنعم بها عليكم (ألم يروا الى الطير مسخرات) يعني مذللات (في جو السماء) الجو الفضاء الواسع بين السماء والارض وهو الهواء قال كعب الاحبار ان الطير ترتفع في الجو اثني عشر ميلا ولا ترتفع فوق ذلك (ما يمسكهن الا الله) يعني في حال قبض أجنحتها وبسطها واصطفافها في الهواء وفي هذا حث على الاستدلال بها على ان لها مسخرا سخرها ومذللا ذللها وممسكا أمسكها في حال طيرانها ووقوفها في الهواء وهو الله تعالى (ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) انما خص المؤمنين بالذكر لانهم هم الذين يعتبرون بالآيات ويتفكرون فيها وينتفعون بها دون غيرهم قوله سبحانه وتعالى (والله جعل لكم من بيوتكم) يعني التي هي من الحجر والمدر (سكنا) يعني مسكنا تسكنونه والسكن ما سكنت اليه وفيه من الف أو بيت (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) يعني الخيام والقباب والاخبية والفساطيط المتخذة من الادم والانطاع واعلم ان المساكن على قسمين أحدهما ما لا يمكن نقله من مكان الى مكان آخر وهي البيوت المتخذة من الحجارة والخشب ونحوهما والقسم الثاني ما يمكن نقله من مكان الى مكان آخر وهي الخيام والفساطيط المتخذة من جلود الانعام واليها الاشارة بقوله (تستخفونها) يعني يخف عليكم حملها (يوم ظعنكم) يعني في يوم سيركم ورحيلكم في أسفاركم وطعن البادية هو لطلب ماء أو مرعى ونحو ذلك (ويوم اقامتكم) يعني وتخف عليكم أيضا في اقامتكم وحضركم والمعنى لا تثقل عليكم في الحالتين (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها) الكناية عائدة الى الانعام يعني ومن أصواف الضأن وأوبار الابل وأشعار المعز (أثاثا) يعني تتخذون أثاثا الاثاث متاع البيت الكبير وأصله من اث اذا كثر وتكاثف وقيل للمال أثاث اذا كثر قال ابن عباس أثاثا يعني مالا وقال مجاهد متاعا وقال القتيبي الاثاث المال أجمع من الابل والغنم والعبيد والمتاع وقال غيره الاثاث هو متاع البيت من الفرش والاكسية

ونحو

(اوهو) أي الامر (اقرب) وليس هذا الشك المخاطب ولكن المعنى كونوا في كونها على هذا الاعتبار وقيل بل هو اقرب (ان الله على كل شيء قدير) فهو يقدر على ان يقيم الساعة ويبعث الخلق لانه بعض المقدورات ثم دل على قدرته بما بعده فقال (والله اخرجكم من بطون امهاتكم) وبكسر الالف وفتح الميم على اتباع الكسرة النون وبكسرهما حمزة والهاء مزيدة في امهات للتوكيد كما زيدت في اراق فقيل اهراق وشذت زيادتها في الواحدة (لا تعلمون شيئا) حال اى غير عالمين شيئا من حق المنعم الذي خلقكم في البطون (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون) اى وما ركب فيكم هذه الاشياء الا آلات لازالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه والافئدة في فؤاد كالاغربة في غراب وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة لعدم السماع في غيرها (الم يروا) وبالتاء شامي وحمزة (الى الطير مسخرات) مذللات للطيران بما خلق لها من الاجنحة والاسباب المواتية لذلك (في جو السماء) هو الهواء المتباعد من الارض في سمت العلو (ما يمسكهن) في قبضهن وبسطهن ووقوفهن (الا الله) بقدرته وفيه نفي لما يصوره الوهم من خاصية القوى الطبيعية (ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) بأن الخلق لا غنى به عن الخالق (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) هو فعل بمعنى مفعول أى ما يسكن اليه وينقطع اليه من بيت أو الف (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) هي قباب الادم (تستخفونها) ترونها خفيفة المحمل في الضرب والنقض والنقل (يوم ظعنكم) بسكون العين كوفي وشامي وبفتح العين غيرهم والظعن بفتح العين وسكونها الارتحال (ويوم اقامتكم) قراركم في منازلكم والمعنى انها خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر على ان اليوم بمعنى الوقت (ومن اصوافها) اى اصواف الضأن (وأوبارها) وأوبار الابل (وأشعارها) واشعار المعز (أثاثا) متاع البيت

ونحو ذلك (ومتاعا) يعنى وبلاغا وهو ما يتمتعون به (الى حين) يعنى الى حين يبلى ذلك الاثاث وقيل الى حين الموت فان قلت أى فرق بين الاثاث والمتاع حتى ذكره بواو العطف والعطف يوجب المغايرة فهل من فرق قلت الاثاث ما كثر من آلات البيت وحوائجه وغير ذلك فيدخل فيه جميع اصناف المال والمتاع ما ينتفع به فى البيت خاصة فظهر الفرق بين اللفظتين والله أعلم (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) يعنى جعل لكم ما تستظلون به من شدة الحر والبرد وهى ظلال الابنية والجدران والاشجار (وجعل لكم من الجبال أكنانا) جمع كن وهو ما يستكن فيه من شدة الحر والبرد كالاسراب والغيران ونحوها وذلك لان الانسان اما أن يكون غنيا أو فقيرا فاذا سافر احتاج فى سفره ما يقيه من شدة الحر والبرد فأما الغنى فيستصحب معه الخيام فى سفره ليسكن فيها واليه الاشارة بقوله وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا وأما الفقير فيستكن فى ظلال الاشجار والحيطان والكهوف ونحوها واليه الاشارة بقوله والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا ولان بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم الى الظلال وما يدفع شدته وقوته أكثر فلهذا السبب ذكر الله هذه المعانى فى معرض الامتنان عليهم لان النعمة عليهم فيها ظاهرة (وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر) يعنى وجعل لكم قمصا وثيابا من القطن والكتان والصوف وغير ذلك تقيكم من شدة الحر قال أهل المعانى والبرد واكتفى بذكر احدهما لدلالة الكلام عليه (وسرابيل تقيكم بأسكم) يعنى الدروع والجواشن وسائر ما يلبس فى الحرب من السلاح والبأس الحرب يعنى تقيكم فى بأسكم السلاح أن يصيبكم قال عطاء الخراسانى انما نزل القرآن على قدر معرفتهم فقال تعالى وجعل لكم من الجبال أكنانا وما جعل لهم من السهول أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب جبال كما قال ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها وما جعل لهم من القطن والكتان أكثر ولكن كانوا أصحاب صوف ووبر وشعر وكما قال تعالى وينزل من السماء من جبال فيها من برد وما أنزل من الثلج أكثر ولكنهم كانوا لا يعرفون الثلج وقال تقيكم الحر وما جعل لهم مما يقى من البرد أكثر ولكنهم كانوا اصحاب حر وقوله سبحانه وتعالى (كذلك) يعنى كما انعم عليكم بهذه النعم (يتم نعمته عليكم) يعنى نعم الدنيا والدين (لعلكم تسلمون) يعنى لعلكم يا اهل مكة تخلصون لله الوحدانية والربوبية والعبادة والطاعة وتعلمون انه لا يقدر على هذه الانعامات الا الله تعالى (فان تولوا) يعنى فان اعرضوا عن الايمان بك وتصديقك يا محمد وآثروا ما هم فيه من الكفر واللذات الدنيوية فانما وبال ذلك عليهم لا عليك (فانما عليك البلاغ المبين) يعنى ليس عليك فى ذلك عتب ولا سمة تقصير انما عليك البلاغ وقد فعلت ذلك ثم ذمهم الله تعالى بقوله (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) قال السدى نعمة الله يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم انكروه وكذبوه وقيل نعمة الله هى الاسلام لانه من اعظم النعم التى أنعم الله بها على عباده ثم ان كفار مكة أنكروه وجحدوه وقال مجاهد وقتادة نعمة الله ما عدد عليهم فى هذه السورة من النعم يقرون بانها من الله ثم اذا قيل لهم صدقوا وامتثلوا أمر الله ينكرونها ويقولون ورثناها عن آبائنا وقال الكلبى انه لما ذكر هذه النعم قالوا هذه نعم كلها من الله تعالى لكنها بشفاعة آلهتنا وقيل انهم يعترفون بان الله أنعم بهذه النعم ولكنهم لا يستعملونها فى طلب رضوانه ولا يشكرونه عليها (وأكثرهم الكافرون) انما قال سبحانه وتعالى وأكثرهم الكافرون مع انهم كانوا كلهم كافرين لانه كان فيهم من لم يبلغ بعد حد التكليف فعبر بالاكثر عن البالغين وقيل أراد بالاكثر الكافرين الحاضرين المعاندين وقد كان فيهم من ليس بمعاند وان كان كافرا وقيل انه عبر بالاكثر عن الكل لانه قد يذكر الاكثر ويراد به الجميع قوله سبحانه وتعالى (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا) لما ذكر الله سبحانه وتعالى نعمه على الكافرين وانكارهم لها وذكر أن أكثرهم كافرون اتبعه بذكر الوعيد لهم فى الآخرة فقال تعالى ويوم نبعث من كل أمة شهيدا يعنى رسولا وذلك اليوم هو يوم القيامة والمراد بالشهداء الانبياء يشهدون على

(ومتاعا) وشيئا ينتفع به (الى حين) من الزمان (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) كالاشجار والسقوف (وجعل لكم من الجبال أكنانا) جمع كن وهو ما يستتر به من كهف أو غار (وجعل لكم سرابيل) هى القمصان والثياب من الصوف والكتان والقطن (تقيكم الحر) وهى تقى البرد أيضا الا انه اكتفى باحد الضدين ولان الوقاية من الحر أهم عندهم لكون البرد يسيرا محتملا (وسرابيل تقيكم بأسكم) ودروعا من الحديد تردعنكم سلاح عدوكم فى قتالكم والبأس شدة الحرب والسربال عام يقع على ما كان من حديد أو غيره (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) أى تنظرون فى نعمته الفائضة فتؤمنون به وتنقادون له (فان تولوا) أعرضوا عن الاسلام (فانما عليك البلاغ المبين) أى فلا تبعة عليك فى ذلك لان الذى عليك هو التبليغ الظاهر وقد فعلت (يعرفون نعمة الله) التى عددناها باقوالهم فانهم يقولون انها من الله (ثم ينكرونها) بافعالهم حيث عبدوا غير المنعم أو فى الشدة ثم فى الرخاء (وأكثرهم الكافرون) أى الجاحدون غير المعترفين أو نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عنادا وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم وثم يدل على ان انكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة لان حق من عرف النعمة ان يعترف لا ان ينكر (ويوم) انتصابه باذكر (نبعث) نحشر (من كل أمة شهيدا) نبيا يشهد لهم وعليهم بالتصديق والتكذيب والايمان والكفر

(ثم لا يؤذن للذين كفروا) فى الاعتذار والمعنى لاحجة لهم فدل بترك الاذن على أن لاحجة لهم ولا عذر (ولاهم يستعتبون) ولاهم يسترضون اى لا يقال لهم ارضوا ربكم لان الآخرة ليست بدار عمل ومعنى ثم انهم يمنون أي يبتلون بعد شهادة الانبياء عليهم السلام بما هو أطم وأغلب منها وهو انهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم فى القاء معذرة ولا ادلاء بحجة (واذا رأى الذين ظلموا) كفروا (العذاب فلا يخفف عنهم) أى العذاب بعد الدخول (ولاهم ينظرون) يمهلون قبله (واذا رأى الذين أشركوا شركاءهم) أوثانهم التى عبدوها (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا) أى آلهتنا التى جعلناها شركاء (الذين كنا ندعوا من دونك) أى نعبد (فالقوا اليهم القول انكم لكاذبون) أى أجابوهم بالتكذيب لانها كانت جمادا لاتعرف من عبدها ويحتمل انهم كذبوهم فى تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها لله عن الشرك (وألقوا) يعنى الذين ظلموا (الى الله يومئذ السلم) القاء السلم الاستسلام لامر الله وحكمه بعد الاباء والاستكبار فى الدنيا (وضل عنهم) وبطل عنهم (ما كانوا يفترون) من ان لله شركاء وانهم ينصرونهم و يشفعون لهم حين كذبوهم وتبرؤا منهم (الذين كفروا) فى أنفسهم (وصدوا عن سبيل الله) وحملوا غيرهم على الكفر (زدناهم عذابا فوق العذاب) أى عذابا بكفرهم وعذابا بصدهم عن سبيل الله (بما كانوا يفسدون) بكونهم مفسدين الناس بالصد (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم) يعنى نبيهم لانه كان يبعث أنبياء الامم فيهم منهم (وجئنا بك) يا محمد (شهيدا على هؤلاء) على أمتك (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا) بليغا (لكل شئ) من أمور الدين أما فى الاحكام المنصوصة فظاهر وكذا فيما ثبت بالسنة أو بالاجماع أو بقول الصحابة أو بالقياس لان مرجع الكل الى الكتاب حيث أمرنا فيه باتباع رسوله عليه السلام وطاعته بقوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وحثنا على الاجماع فيه بقوله و يتبع غير سبيل المؤمنين وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته باتباع أصحابه بقوله أصحابى كالنجوم بايهم اقتديتم اهتديتم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق الاجتهاد والقياس مع انه أمرنا به بقوله فاعتبروا يا اولى الابصار فكانت السنة والاجماع وقول الصحابى والقياس مستندة الى تبيان الكتاب فتبين انه كان تبيانا لكل شئ (وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) ودلالة إلى الحق ورحمة لهم وبشارة لهم بالجنة

أمهم بانكار نعم الله عليهم و بالكفر (ثم لا يؤذن للذين كفروا) يعنى فى الاعتذار وقيل لا يؤذن لهم فى الكلام أصلا وقيل لا يؤذن لهم بالرجوع الى دار الدنيا فيعتذروا و يتوبوا وقيل لا يؤذن لهم فى معارضة الشهود بل يشهدون عليهم و يقرونهم على ذلك (ولاهم يستعتبون) الاستعتاب طلب العتاب والمعتبة هى الغلظة والموجدة التى يجدها الانسان والرجل انما يطلب العتاب من خصمه ليزيل ما فى نفسه عليه من الموجدة والغضب ويرجع الى الرضا عنه واذا لم يطلب العتاب منه دل ذلك على انه ثابت على غضبه عليه ومعنى الآية انهم لا يكلفون أن يرضوا ربهم فى ذلك اليوم لان الآخرة ليست دار تكليف ولا يرجعون الى الدنيا فيتوبوا ويرجعوا و يرضوا ربهم فالاستعتاب التعرض لطلب الرضا وهذا باب منسد على الكفار فى الآخرة (واذا رأى الذين ظلموا) يعنى ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى (العذاب) يعنى عذاب جهنم (فلا يخفف عنهم) يعنى العذاب (ولاهم ينظرون) يعنى لا يؤخرون ولا يمهلون (واذا رأى الذين اشركوا) يعنى يوم القيامة (شركاءهم) يعنى اصنامهم التى كانوا يعبدونها فى الدنيا (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك) يعنى أربابا وكنا نعبدهم ونتخذهم آلهة (فألقوا) يعنى الاصنام (اليهم) يعنى الى عابديها (القول انكم لكاذبون) يعنى ان الاصنام قالت للكفار انكم لكاذبون يعنى فى تسميتنا آلهة وما دعوناكم الى عبادتنا فان قلت الاصنام جماد لا تتكلم فكيف يصح منها الكلام قلت لا يبعد ان الله سبحانه وتعالى لما بعثها واعادها فى الآخرة خلق فيها الحياة والنطق والعقل حتى قالت ذلك والمقصود من اعادتها وبعثها أن تكذب الكفار ويراها الكفار وهى فى غاية الذلة والحقارة فيزدادون بذلك غما وحسرة (والقوا) يعنى المشركين (الى الله يومئذ السلم) يعنى انهم استسلموا وانقادوا لحكمه فيهم ولم تغن عنهم آلهتهم شيئا (وضل عنهم) يعنى وزال عن المشركين (ما كانوا يفترون) يعنى ما كانوا يكذبون فى الدنيا فى قولهم ان الاصنام تشفع لهم (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله) يعنى ضموا مع كفرهم انهم منعوا الناس عن الدخول فى الايمان بالله و رسوله (زدناهم عذابا فوق العذاب) يعنى زدناهم هذه الزيادة بسبب صدهم عن سبيل الله مع ما يستحقونه من العذاب على كفرهم الاصلى واختلفوا فى هذه الزيادة ما هى فقال عبد الله بن مسعود عقارب لها انياب كأمثال النخل الطوال وقال سعيد بن جبير حيات كالبخت وعقارب امثال البغال تلسع احداهن اللسعة فيجد صاحبها ألمها اربعين خريفا وقال ابن عباس ومقاتل يعنى خمسة انهار من صفر مذاب كالماء تسيل يعذبون بها ثلاثة على مقدار الليل واثنان على مقدار النهار وقيل انهم يخرجون من حر النار الى برد الزمهرير فيبادرون من شدة الزمهرير الى النار مستغيثين بها وقيل يضاعف لهم العذاب ضعفا بسبب كفرهم وضعفا بسبب صدهم الناس عن سبيل الله (بما كانوا يفسدون) يعنى ان الزيادة انما حصلت لهم بسبب صدهم عن سبيل الله و بسبب ما كانوا يفسدون مع ما يستحقونه من العذاب على الكفر (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم) قال ابن عباس يريد الانبياء قال المفسرون كل نبى شاهد على أمته وهو أعدل شاهد عليها (من أنفسهم) يعنى منهم لان كل نبى انما بعث من قومه الذى بعث اليهم ليشهدوا عليهم بما فعلوا من كفر وايمان وطاعة وعصيان (وجئنا بك) يعنى يا محمد (شهيدا على هؤلاء) يعنى على قومك وأمتك وتم الكلام هنا ثم قال تبارك وتعالى (ونزلنا عليك الكتاب) يعنى القرآن (تبيانا لكل شئ) تبيانا اسم من البيان قال مجاهد يعنى لما أمر به وما نهى عنه وقال أهل المعانى تبيانا لكل شئ يعنى من أمور الدين اما بالنص عليه أو بالاحالة على ما يوجب العلم به من بيان النبى صلى الله عليه وسلم لان النبى صلى الله عليه وسلم بين ما فى القرآن من الاحكام والحدود والحلال والحرام وجميع المأمورات والمنهيات واجماع الامة فهو أيضا أصل ومفتاح لعلوم الدين (وهدى) يعنى من الضلالة (ورحمة) يعنى لمن آمن به وصدقه (وبشرى للمسلمين) يعنى وفيه بشرى للمسلمين من الله عز وجل قوله

سبحانه وتعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) قال ابن عباس العدل شهادة أن لا اله الا الله والاحسان أداء الفرائض وفي رواية عنه قال العدل خلع الانداد والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه وأن تحب للناس ما تحب لنفسك ان كان مؤمنا تحب أن يزداد ايمانا وان كان كافرا تحب أن يكون أخاك في الاسلام وقال في رواية أخرى عنه العدل التوحيد والاحسان الاخلاص وأصل العدل في اللغة المساواة في كل شيء من غير زيادة في شيء ولا غلو ولا نقصان فيه ولا تقصير فالعدل هو المساواة في المكافأة ان خيرا فخير وان شرا فشر والاحسان أن تقابل الخير بأكثر منه والشر بأن تعفو عنه وقيل العدل الانصاف ولا انصاف أعظم من الاعتراف للمنعم بانعامه والاحسان ان تحسن الى من أساء اليك وقيل يأمر بالعدل في الافعال والاحسان في الاقوال فلا يفعل الا ما هو عدل ولا يقول الا ما هو حسن (وايتاء ذي القربى) يعني ويأمر بصلة الرحم وهم القرابة الادنون والابعدون منك فيستحب ان تصلهم من فضل ما رزقك الله فان لم يكن لك فضل فدعاء حسن وتودد (وينهى عن الفحشاء) قال ابن عباس يعني الزنا وقال غيره الفحشاء ما قبح من القول والفعل فيدخل فيه الزنا وغيره من جميع الاقوال والافعال المذمومة (والمنكر) قال ابن عباس يعني الشرك والكفر وقال غيره المنكر ما لا يعرف في شريعة ولا سنة (والبغي) يعني الكبر والظلم وقيل البغي هو التطاول على الغير على سبيل الظلم والعدوان قال بعضهم ان أعجل المعاصي البغي ولو أن جبلين بغى أحدهما على الآخر لدك الباغي وقال ابن عيينة في هذه الآية العدل استواء السر والعلانية والاحسان ان تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر والبغي ان تكون علانيته أحسن من سريرته وقال بعضهم ان الله سبحانه وتعالى ذكر من المأمورات ثلاثة أشياء ومن المنهيات ثلاثة أشياء فذكر العدل وهو الانصاف والمساواة في الاقوال والافعال وذكر في مقابلته الفحشاء وهي ما قبح من الاقوال والافعال وذكر الاحسان وهو ان تعفو عمن ظلمك وتحسن الى من أساء اليك وذكر في مقابلته المنكر وهو ان تنكر احسان من أحسن اليك وذكر ايتاء ذي القربى والمراد به صلة القرابة والتودد اليهم والشفقة عليهم وذكر في مقابلته البغي وهو ان يتكبر عليهم أو يظلمهم حقوقهم ثم قال تعالى (يعظكم لعلكم تذكرون) يعني انما أمركم بما أمركم به ونهاكم عما نهاكم عنه لكي تتعظوا وتتذكروا فتعملوا بما فيه رضا الله تعالى قال ابن مسعود ان أجمع آية في القرآن لخير وشر هذه الآية وقال أهل المعاني لما قال الله تعالى في الآية الاولى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء قال في هذه الآية المأمور به والمنهي عنه على سبيل الاجمال فما من شيء يحتاج اليه الناس في أمر دينهم مما يجب ان يؤتى أو يترك الا وقد اشتملت عليه هذه الآية وروى عكرمة ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد ابن المغيرة ان الله يأمر بالعدل الى آخر الآية فقال له يا ابن أخي أعد علي فأعادها عليه فقال له الوليد والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وما هو بقول البشر قوله عز وجل (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) لما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة المأمورات والمنهيات على سبيل الاجمال ذكر في هذه الآية بعض ذلك الاجمال على التفصيل فبدأ بالامر بالوفاء بالعهد لانه آكد الحقوق فقال تعالى وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم نزلت في الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام فأمرهم بالوفاء بهذه البيعة وقيل المراد منه كل ما يلتزمه الانسان باختياره ويدخل فيه الوعد أيضا لان الوعد من العهد وقيل العهد ههنا اليمين قال القتيبي العهد يمين وكفارته كفارة يمين فعلى هذا يجب الوفاء به اذا كان فيه صلاح أما اذا لم يكن فيه صلاح فلا يجب الوفاء به لقوله صلى الله عليه وسلم من حلف على يمين ثم رأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه فيكون قوله وأوفوا بعهد الله من العام الذي خصصته السنة وقال مجاهد وقتادة نزلت في حلف أهل الجاهلية ويشهد لهذا التأويل قوله صلى الله عليه وسلم كل حلف كان في الجاهلية لم يزده الاسلام الا شدة (ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها) يعني تشديدها فتحنثوا فيها وفيه دليل على ان المراد بالعهد غير اليمين لانه أعم منها (وقد

(ان الله يأمر بالعدل) بالتسوية في الحقوق فيما بينكم وترك الظلم وايصال كل ذي حق الى حقه (والاحسان) الى من أساء اليكم وهما الفرض لان الفرض لا بد من أن يقع فيه تفريط فيجبره الندب (وايتاء ذي القربى) واعطاء ذي القرابة وهو صلة الرحم (وينهى عن الفحشاء) عن الذنوب المفرطة في القبح (والمنكر) ما تنكره العقول (والبغي) طلب التطاول بالظلم والكبر (يعظكم) حال أو مستأنف (لعلكم تذكرون) تتعظون بمواعظ الله وهذه الآية سبب اسلام عثمان بن مظعون فانه قال ما كنت أسلمت الا حياء منه عليه السلام لكثرة ما كان يعرض على الاسلام ولم يستقر الايمان في قلبي حتى نزلت هذه الآية وانا عنده فاستقر الايمان في قلبي وقرأتها على الوليد بن المغيرة فقال والله ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وما هو بقول البشر وقال أبو جهل ان الهه ليأمر بمكارم الاخلاق وهي أجمع آية في القرآن للخير والشر ولهذا تقرأ في كل خطبة على المنبر في آخر كل خطبة لتكون عظة جامعة لكل مأمور ومنهي (وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) هي البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله) (ولا تنقضوا الايمان) أيمان البيعة (بعد توكيدها) بعد توثيقها باسم الله وأكد ووكد لغتان فصيحتان والاصل الواو والهمزة بدل منها (وقد

جعلتم الله عليكم كفيلا) شاهدا ورقيبا لان الكفيل مراع لحال المكفول به مهيمن عليه (ان الله يعلم ماتفعلون) من البر والحنث فيجازيكم به (ولا تكونوا) في نقض الايمان (كالتي نقضت غزلها من بعد قوة) كالمرأة التي انحت على غزلها بعد ان احكمته وأبرمته فجعلته (انكاثا) جمع نكث وهو ماينكث فتله قيل هي ريطة وكانت حمقاء تغزل هي وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ماغزلن (تتخذون ايمانكم) حال كانكاثا (دخلا) أحد مفعولي تتخذ اي ولا تنقضوا ايمانكم متخذيها دخلا (بينكم) أي مفسدة وخيانة (ان تكون أمة) بسبب أن تكون أمة يعني جماعة قريش (هي أربى من أمة) هي أزيد عددا وأوفر مالا من أمة من جماعة المؤمنين هي اربى مبتدأ وخبر في موضع الرفع صفة لامة وامة فاعل تكون وهي تامة وهي ليست بفصل لوقوعها بين نكرتين (انما يبلوكم الله به) الضمير للمصدر اي انما يختبركم بكونهم اربى لينظر اتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما وكدتم من ايمان البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ام تغترون بكثرة قريش وثروتهم وقلة المؤمنين وفقرهم (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) اذا جازاكم على اعمالكم بالثواب والعقاب وفيه تحذير عن مخالفة ملة الاسلام (ولوشاء الله لجعلكم امة واحدة) حنيفة مسلمة (ولكن يضل من يشاء) من علم منه اختيار الضلالة (ويهدي من يشاء) من علم منه اختيار الهداية (ولتسئلن عما كنتم تعملون) يوم القيامة فتجزون به (ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم) كرر النهي عن اتخاذ الايمان دخلا بينهم تأكيدا عليهم واظهارا لعظمه (فتزل قدم بعد ثبوتها) فتزل اقدامكم عن محجة الاسلام بعد ثبوتها عليها وانما وحدت القدم ونكرت لاستعظام ان تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن تثبت عليه فكيف باقدام كثيرة (وتذوقوا السوء) في الدنيا (بما صددتم) بصدودكم (عن سبيل الله) وخروجكم عن الدين او بصدكم غيركم لانهم لو نقضوا ايمان البيعة وارتدوا لاتخذ نقضها سنة لغيرهم يستنون بها (ولكم عذاب عظيم) في الآخرة (ولا تشتروا) ولا تستبدلوا (بعهد الله) وبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثمنا قليلا) عرضا من الدنيا يسيرا كأن قوما ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين ولما كانوا يعدونهم ان رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبتهم الله (ان ما عند الله) من ثواب الآخرة (هو خير لكم ان كنتم تعلمون ما عندكم) من اعراض الدنيا (ينفد وما عند الله) من خزائن رحمته (باق) لاينفد (ولنجزين) وبالنون مكي وعاصم (الذين صبروا) على اذى المشركين ومشاق الاسلام (أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون

جعلتم الله عليكم كفيلا) يعني شهيدا بالوفاء بالعهد (ان الله يعلم ماتفعلون) يعني من وفاء العهد ونقضه ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا لنقض العهد فقال تعالى (ولا تكونوا) يعني في نقض العهد (كالتي نقضت غزلها من بعد قوة) يعني من بعد ابرامه واحكامه قال الكلبي ومقاتل هذه امرأة من قريش يقال لها ريطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تيم وكانت خرقاء حمقاء بها وسوسة وكانت قد اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل الاصبع وفلكة عظيمة على قدرها وكانت تغزل الغزل من الصوف أو الشعر أو الوبر وتأمر جواريها بالغزل فكن يغزلن من الغداة الى نصف النهار فاذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ماغزلن فكان هذا دأبها والمعنى ان هذه المرأة لم تكف عن العمل ولا حين عملت كفت عن النقض فكذلك من نقض العهد لاتركه ولا حين عاهد وفى به (انكاثا) جمع نكث وهو ماينقض من الغزل أو الحبل بعد الفتل (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) يعني دغلا وخيانة وخديعة والدخل مايدخل في الشيء على سبيل الفساد وقيل الدخل والدغل ان يظهر الرجل الوفاء بالعهد ويبطن نقضه (أن تكون) يعني لان تكون (أمة هي أربى من أمة) يعني اكثر وأعلى من أمة قال مجاهد وذلك انهم كانوا يحالفون الحلفاء فاذا وجدوا قوما اكثر من أولئك وأعز نقضوا حلف هؤلاء وحالفوا الاكثر والمعنى انكم طلبتم العز بنقض العهد لان كانت أمة أي جماعة اكثر من جماعة فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالوفاء بالعهد لمن عاهدوا وحالفوا (انما يبلوكم الله به) يعني يختبركم بما أمركم به من الوفاء بالعهد وهو أعلم بكم (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) يعني في الدنيا فيثيب المحق ويعاقب المسيء المخالف قوله سبحانه وتعالى (ولوشاء الله لجعلكم أمة واحدة) يعني على ملة واحدة ودين واحد وهو دين الاسلام (ولكن يضل من يشاء) يعني بخذلانه اياه عدلا منه (ويهدي من يشاء) بتوفيقه اياه فضلا منه وذلك مما اقتضته الحكمة الالهية لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وهو قوله تعالى (ولتسئلن عما كنتم تعملون) يعني في الدنيا فيجازي المحسن باحسانه ويعاقب المسيء باساءته او يغفر له قوله عز وجل (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) يعني خديعة وفسادا بينكم فتغروا بها الناس فيسكنوا الى أيمانكم ويأمنوا اليكم ثم تنقضونها وانما كرر هذا المعنى تأكيدا عليهم واظهارا لعظم أمر نقض العهد قال المفسرون وهذا في نهي الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاسلام نهاهم عن نقض عهده لان الوعيد الذي بعده وهو قوله سبحانه وتعالى فتزل قدم بعد ثبوتها لا يليق بنقض عهد غيره انما يليق بنقض عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان به وشرائعه وقوله (فتزل قدم بعد ثبوتها) مثل يذكر لكل من وقع في بلاء ومحنة بعد عافية ونعمة او سقط في ورطة بعد سلامة تقول العرب لكل واقع في بلاء بعد عافية زلت قدمه والمعنى فتزل اقدامكم عن محجة الاسلام بعد ثبوتها عليها (وتذوقوا السوء) يعني العذاب (بما صددتم عن سبيل الله) يعني بسبب صدكم غيركم عن دين الله وذلك لان من نقض العهد فقد علم غيره نقض العهد فيكون هو أقدمه على ذلك (ولكم عذاب عظيم) يعني بنقضكم العهد (ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا) يعني ولا تنقضوا عهودكم وتطلبوا بنقضها عوضا من الدنيا قليلا ولكن اوفوا بها (ان ما عند الله) يعني فان ما عند الله من الثواب لكم على الوفاء بالعهد (هو خير لكم) يعني من عاجل الدنيا (ان كنتم تعلمون) يعني فضل مابين العوضين ثم بين ذلك فقال تبارك وتعالى (ما عندكم ينفد) يعني من متاع الدنيا ولذاتها يفنى ويذهب (وما عند الله باق) يعني من ثواب الآخرة ونعيم الجنة (ولنجزين الذين صبروا) يعني في الوفاء بالعهد على السراء والضراء (اجرهم) يعني ثواب اجرهم (بأحسن ما كانوا يعملون) عن ابي موسى الاشعري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احب دنياه اضر بآخرته

ومن احب آخرته اضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى وقوله سبحانه وتعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) فان قلت من عمل صالحا يفيد العموم فما فائدة الذكر والانثى قلت هو مبهم صالح على الاطلاق للنوعين الا انه اذا ذكر وأطلق كان الظاهر تناوله للذكر دون الانثى فقيل من ذكر أو أنثى على التبيين ليعم الوعد النوعين جميعا وجواب آخر وهو ان هذه الآية واردة بالوعد بالثواب والمبالغة فى تقرير الوعد من أعظم دلائل الكرم والرحمة اثباتا للتأكيد وازالة لوهم التخصيص وقوله وهو مؤمن جعل الايمان شرطا فى كون العمل الصالح موجبا للثواب (فلنحيينه حياة طيبة) قال سعيد ابن جبير وعطاء هى الرزق الحلال وقال مقاتل هى العيش فى الطاعة وقيل هى حلاوة الطاعة وقال الحسن هى القناعة وقيل رزق يوم بيوم واعلم ان عيش المؤمن فى الدنيا وان كان فقيرا اطيب من عيش الكافر وان كان غنيا لان المؤمن لما علم ان رزقه من عند الله وذلك بتقديره وتدبيره وعرف ان الله محسن كريم متفضل لا يفعل الا الصواب فكان المؤمن راضيا عن الله وراضيا بما قدره الله ورزقه اياه وعرف ان له مصلحة فى ذلك القدر الذى رزقه اياه فاستراحت نفسه من الكد والحرص طاب عيشه بذلك وأما الكافر أو الجاهل بهذه الاصول الحريص على طلب الرزق فيكون أبدا فى حزن وتعب وعناء وحرص وكد ولا ينال من الرزق الا ما قدر له فظهر بهذا ان عيش المؤمن القنوع أطيب من غيره وقال السدى الحياة الطيبة انما تحصل فى القبر لان المؤمن يستريح بالموت من نكد الدنيا وتعبها وقال مجاهد وقتادة فى قوله فلنحيينه حياة طيبة هى الجنة وروى عوف عن الحسن قال لا تطيب لاحد الحياة الا فى الجنة لانها حياة بلا موت وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم وملك بلا هلك وسعادة بلا شقاوة فثبت بهذا ان الحياة الطيبة لا تكون الا فى الجنة ولقوله فى سياق الآية (ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) لان ذلك الجزاء انما يكون فى الجنة قوله عز وجل (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته لان النبى صلى الله عليه وسلم لما كان غير محتاج الى الاستعاذة وقد أمر بها فغيره أولى بذلك ولما كان الشيطان ساعيا فى القاء الوسوسة فى قلوب بنى آدم وكانت الاستعاذة بالله مانعة من ذلك فلهذا السبب أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالاستعاذة عند القراءة حتى تكون مصونة من وساوس الشيطان عن جبير بن مطعم انه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة قال عمرو لا أدرى أى صلاة هى قال الله أكبر كبيرا ثلاثا والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخه ونفثه وهمزه قال نفخه الكبر ونفثه السحر وهمزه الموتة أخرجه أبو داود الموتة الجنون والفاء فى قوله فاستعذ بالله للتعقيب فظاهر لفظ الآية يدل على ان الاستعاذة بعد القراءة واليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين وهو قول أبى هريرة واليه ذهب مالك وجماعة وداود الظاهرى قالوا لان قارئ القرآن يستحق ثوابا عظيما وربما حصلت الوساوس فى قلب القارئ هل حصل له ذلك الثواب أم لا فاذا استعاذ بعد القراءة اندفعت تلك الوساوس وبقى الثواب مخلصا فأما مذهب الاكثرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الائمة وفقهاء الامصار فقد اتفقوا على ان الاستعاذة مقدمة على القراءة قالوا ومعنى الآية اذا أردت ان تقرأ القرآن فاستعذ بالله ومثله قوله سبحانه وتعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الخ ومثله من الكلام اذا أردت ان تأكل فقل بسم الله واذا أردت ان تسافر فتأهب وأيضا فان الوسوسة انما تحصل فى أثناء القراءة فتقدم الاستعاذة على القراءة لتذهب الوسوسة عنه أولى من تأخيرها عن وقت الحاجة اليها ومذهب عطاء انه تجب الاستعاذة عند قراءة القرآن سواء كانت فى الصلاة أو فى غيرها واتفق سائر الفقهاء على ان الاستعاذة سنة فى الصلاة وغيرها وقد تقدمت هذه المسئلة والخلاف فيها فى أول سورة الفاتحة والاستعاذة للاعتصام بالله والالتجاء اليه من شر الشيطان ووسوسته والمراد من الشيطان ابليس وقيل هو اسم جنس يطلق على جميع المردة من الشياطين لان لهم قدرة على القاء

(من عمل صالحا من ذكر أو أنثى) من مبهم يتناول النوعين الا ان ظاهره الذكور فبين بقوله من ذكر أو أنثى ليعم الوعد النوعين جميعا (وهو مؤمن) شرط الايمان لان أعمال الكفار غير معتد بها وهو يدل على ان العمل ليس من الايمان (فلنحيينه حياة طيبة) أى فى الدنيا لقوله (ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وعده الله ثواب الدنيا والآخرة كقوله فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة وذلك ان المؤمن مع العمل الصالح موسرا كان أو معسرا يعيش عيشا طيبا ان كان موسرا فظاهر وان كان معسرا فمعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله تعالى وأما الفاجر فأمره بالعكس ان كان معسرا فظاهر وان كان موسرا فالحرص لا يدعه أن يتهنأ بعيشه وقيل الحياة الطيبة القناعة أو حلاوة الطاعة أو المعرفة بالله وصدق المقام مع الله وصدق الوقوف على أمر الله والاعراض عما سوى الله (فاذا قرأت القرآن) فاذا أردت قراءة القرآن (فاستعذ بالله) فعبر عن ارادة العمل بلفظ العمل لانها سبب له والفاء للتعقيب اذ القراءة المحذر بالاستعاذة من العمل الصالح المذكور (من الشيطان) يعنى ابليس (الرجيم) المطرود أو الملعون قال ابن مسعود رضى الله عنه قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم فقال لى قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام

الوسوسة فى قلوب بنى آدم باقدار الله اياهم على ذلك (انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) لما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشيطان فكأن ذلك أوهم ان له قدرة على التصرف فى أبدان بنى آدم فأزال الله سبحانه وتعالى هذا الوهم بقوله انه ليس له سلطان يعنى ليس له قدرة ولا ولاية على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون قال سفيان ليس له سلطان على ان يحملهم على ذنب لا يغفر ويظهر من هذا ان الاستعاذة انما تفيد اذا حضر بقلب الانسان كونه ضعيفا وانه لا يمكنه التحفظ من وسوسة الشيطان الا بعصمة الله ولهذا قال المحققون لا حول عن معصية الله الا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله الا بتوفيق الله ثم قال تعالى (انما سلطانه على الذين يتولونه) يعنى يطيعونه ويدخلون فى ولايته يقال توليته اذا أطعته وتوليت عنه اذا أعرضت عنه (والذين هم به مشركون) يعنى بالله وقيل الضمير فى به راجع الى الشيطان والمعنى من أجله مشركون بالله قوله سبحانه وتعالى (واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل) وذلك ان المشركين من أهل مكة قالوا ان محمدا يسخر باصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ما هو الا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه فأنزل الله هذه الآية والمعنى واذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكما آخر والله أعلم بما ينزل اعتراض دخل فى الكلام والمعنى والله أعلم بما ينزل من الناسخ وبما هو أصلح لخلقه وبما يغير ويبدل من أحكامه أى هو أعلم بجميع ذلك مما هو من مصالح عباده وهذا نوع توبيخ وتقريع للكفار على قولهم للنبى صلى الله عليه وسلم وهو قوله تعالى (قالوا انما أنت مفتر) أى تختلقه من عندك والمعنى اذا كان الله تعالى أعلم بما ينزل فما بالهم ينسبون محمدا الى الافتراء والكذب لاجل التبديل والنسخ وانما فائدة ذلك ترجع الى مصالح العباد كما يقال ان الطبيب يأمر المريض بشرب دواء ثم بعد ذلك ينهاه عنه ويأمره بغيره لما يرى فيه من المصلحة (بل أكثرهم لا يعلمون) يعنى لا يعلمون فائدة الناسخ وتبديل المنسوخ (قل) أى قل لهم يا محمد (نزله) يعنى القرآن (روح القدس) يعنى جبريل صلى الله عليه وسلم أضيف الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود وطلحة الخير والمعنى الروح المقدس المطهر (من ربك) يعنى ان جبريل نزل بالقرآن من ربك يا محمد (بالحق ليثبت الذين آمنوا) يعنى ليثبت بالقرآن قلوب المؤمنين فيزدادوا ايمانا ويقينا (وهدى وبشرى) يعنى وهو هدى وبشرى (للمسلمين) قوله عز وجل (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر) وذلك ان كفار مكة قالوا انما يتعلم هذه القصص وهذه الاخبار من انسان آخر وهو آدمى مثله وليس هو من عند الله كما يزعم فأجابهم الله بقوله ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر واختلفوا فى ذلك البشر من هو فقال ابن عباس كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتى بمكة اسمه بلعام وكان نصرانيا أعجمى اللسان فكان المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليه ويخرج من عنده وكانوا يقولون انما يعلمه بلعام وقال عكرمة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئ غلاما لبنى المغيرة يقال له يعيش فكان يقرأ الكتب فقالت قريش انما يعلمه يعيش وقال محمد بن اسحاق كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى كثيرا ما يجلس عند المروة الى غلام رومى نصرانى عبد لبعض بنى الحضرمى يقال له جبر وكان يقرأ الكتب وقال عبيد الله بن مسلمة كان لنا عبدان من أهل عين التمر يقال لاحدهما يسار ويكنى أبا فكيهة ويقال للآخر جبر وكانا يصنعان السيوف بمكة وكانا يقرآن التوراة والانجيل بمكة فربما مر بهما النبى صلى الله عليه وسلم وهما يقرآن فيقف ويستمع قال الضحاك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا آذاه الكفار يقعد اليهما فيتروح بكلامهما فقال المشركون انما يتعلم محمد منهما وقال الفراء قال المشركون انما يتعلم محمد من عائش مملوك كان لحويطب بن عبد العزى كان نصرانيا وأسلم وحسن اسلامه وكان أعجميا وقيل عداس غلام عتبة بن ربيعة والحاصل ان الكفار اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا انه هذه الكلمات من غيره ثم انه يضيفها لنفسه ويزعم انه وحى من الله عز وجل وهو كاذب فى ذلك

قوله ويظهر من هذا اسم الاشارة راجع لما ذكره قبل قول سفيان كما يعلم من الفخر فانه لم يذكر فى هذا المحل قول سفيان وذكر ما قبله وما بعده وعبارة صحيحة بخلاف ما هنا فانه يوهم رجوع اسم الاشارة لقول سفيان وهو غير ظاهر اه مصححه

(انه ليس له) لابليس (سلطان) تسلط وولاية (على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) فالمؤمن المتوكل لا يقبل منه وساوسه (انما سلطانه على الذين يتولونه) يتخذونه وليا ويتبعون وساوسه (والذين هم به مشركون) الضمير يعود الى ربهم أو الى الشيطان أى بسببه (واذا بدلنا آية مكان آية) تبديل الآية مكان الآية هو النسخ والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لحكمة رآها وهو معنى قوله (والله أعلم بما ينزل) وبالتخفيف مكى وأبو عمرو (قالوا انما انت مفتر) هو جواب اذا وقوله والله اعلم بما ينزل اعتراض كانوا يقولون ان محمدا يسخر باصحابه يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا فيأتيهم بما هو أهون ولقد افتروا فقد كان ينسخ الاشق بالاهون والاهون بالاشق (بل اكثرهم لا يعلمون) الحكمة فى ذلك (قل نزله روح القدس) اى جبريل عليه السلام اضيف الى القدس وهو الطهر كما يقال حاتم الجود والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد والمقدس المطهر من المآثم (من ربك) من عنده وأمره (بالحق) حال اى نزله ملتبسا بالحكمة (ليثبت الذين آمنوا) ليبلوهم بالنسخ حتى اذا قالوا فيه هو الحق من ربنا والحكمة لانه حكيم لا يفعل الا ما هو حكمة وصواب حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب (وهدى وبشرى) مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت والتقدير تثبيتا لهم وارشادا وبشارة (للمسلمين) وفيه تعريض بحصول اضداد هذه الخصال لغيرهم (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر) ارادوا به غلاما كان لحويطب قد أسلم وحسن اسلامه اسمه عائش او يعيش وكان صاحب كتب أو هو جبر غلام رومى لعامر الحضرمى او عبدان جبر ويسار كانا يقرآن التوراة والانجيل فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع ما يقرآن او سلمان الفارسى

الله عنه وانزل هذه الآية تكذيبا لهم فيما رموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب فقال تعالى (لسان الذي يلحدون اليه) يعني يميلون ويشيرون اليه (اعجمي) يعني هو اعجمي والاعجمي هو الذي لا يفصح في كلامه وان كان يسكن البادية ومنه سمي زياد الاعجم لانه كان في لسانه عجمة مع انه كان من العرب والعجمي منسوب الى العجم وان كان فصيحا بالعربية والاعرابي الذي يسكن البادية والعربي الذي يسكن الامصار من بلاد العرب وهو منسوب الى العرب (وهذا لسان عربي مبين) يعني بين الفصاحة والبلاغة ووجه الجواب هو ان الذي يشيرون اليه رجل اعجمي في لسانه عجمة تمنعه من الاتيان بفصيح الكلام ومحمد صلى الله عليه وسلم جاءكم بهذا القرآن الفصيح الذي عجزتم أنتم عنه وأنتم أهل الفصاحة والبلاغة فكيف يقدر من هو أعجمي على مثله وأين فصاحة هذا القرآن من عجمة هذا الذي يشيرون اليه فثبت بهذا البرهان ان الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وحي أوحاه الله اليه وليس هو من تعليم الذي يشيرون اليه ولا هو أتى به من تلقاء نفسه بل هو وحي من الله عز وجل اليه وروي ان الرجل الذي كانوا يشيرون اليه اسلم وحسن اسلامه (ان الذين لا يؤمنون بآيات الله) يعني لا يصدقون انها من عند الله (لا يهديهم الله) يعني لا يرشدهم ولا يوفقهم للايمان (ولهم عذاب اليم) يعني في الآخرة ثم أخبر الله سبحانه وتعالى ان الكفار هم المفترون فقال تعالى (انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) يعني انما يقدم على فرية الكذب من لا يؤمن بآيات الله فهو رد لقول كفار قريش انما أنت مفتر (واولئك هم الكاذبون) يعني في قولهم انما يعلمه بشر لا محمد صلى الله عليه وسلم فان قلت قد قال تبارك وتعالى انما يفتري الكذب فما معنى قوله تعالى واولئك هم الكاذبون والثاني هو الاول قلت قوله سبحانه وتعالى انما يفتري الكذب اخبار عن حال قولهم وقوله وأولئك هم الكاذبون نعت لازم لهم كقول الرجل لغيره كذبت وأنت كاذب أي كذبت في هذا القول ومن عادتك الكذب وفي الآية دليل على ان الكذب من افحش الذنوب الكبار لان الكاذب المفتري هو الذي لا يؤمن بآيات الله روى البغوي باسناد الثعلبي عن عبد الله بن جراد قال قلت يارسول الله المؤمن يزني قال قد يكون ذلك قلت المؤمن يسرق قال قد يكون ذلك قلت المؤمن يكذب قال لا قال الله تعالى انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله قوله تعالى (من كفر بالله من بعد ايمانه الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان) نزلت في عمار بن ياسر وذلك ان المشركين أخذوه وأباه ياسرا وامه سمية وصهيبا وبلالا وخبابا وسالما فعذبوهم ليرجعوا عن الاسلام فأما سمية أم عمار فانها ربطت بين بعيرين ووجئ قلبها بحربة فقتلت وقتل زوجها ياسر فهما اول قتيلين قتلا في الاسلام واما عمار فانه اعطاهم بعض ما أرادوا بلسانه مكرها قال قتادة اخذ بنو المغيرة عمارا وغطوه في بئر ميمون وقالوا له اكفر بمحمد فبايعهم على ذلك وقلبه كاره واخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عمارا كفر فقال كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ماوراءك قال شر يارسول الله نلت منك فقال كيف وجدت قلبك قال مطمئنا بالايمان فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال ان عادوا لك فعد لهم بما قلت فنزلت هذه الآية وقال مجاهد نزلت في اناس من اهل مكة آمنوا فكتب اليهم بعض اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ان هاجروا الينا فانا لا نراكم منا حتى تهاجروا فخرجوا يريدون المدينة فادركتهم قريش في الطريق ففتنوهم عن دينهم فكفروا كارهين وهذا القول ضعيف لان الآية مكية وكان هذا في أول الاسلام قبل ان يؤمر وابالهجرة وقال مقاتل نزلت في جبر مولى عامر بن الحضرمي اكرهه سيده على الكفر فكفر مكرها وقلبه مطمئن بالايمان ثم اسلم عامر بن الحضرمي مولى جبر وحسن اسلامه وهاجر الى المدينة والاولى ان يقال ان الآية عامة في كل من اكره على الكفر وقلبه مطمئن بالايمان وان كان السبب خاصا فان قلت المكره على الكفر ليس بكافر فلا يصح استثناؤه من الكافر فما معنى

(اللسان الذي يلحدون اليه) وبفتح الياء والحاء حمزة وعلي (اعجمي وهذا لسان عربي مبين) أي لسان الرجل الذين يميلون قولهم عن الاستقامة اليه لسان أعجمي غير بين وهذا القرآن لسان عربي مبين ذو بيان وفصاحة ردا لقولهم وابطالا لطعنهم وهذه الجملة اعني لسان الذي يلحدون اليه اعجمي لا محل لها لانها مستأنفة جواب لقولهم واللسان اللغة ويقال الحد القبر ولحده وهو ملحد وملحود اذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر في شق منه ثم استعير لكل امالة عن الاستقامة فقالوا الحد فلان في قوله والحد في دينه ومنه الملحد لانه امال مذهبه عن الاديان كلها (ان الذين لا يؤمنون بآيات الله) اي القرآن (لا يهديهم الله) ما داموا مختارين الكفر (ولهم عذاب اليم) في الآخرة على كفرهم (انما يفتري الكذب) على الله (الذين لا يؤمنون بآيات الله) اي انما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن لانه لا يترقب عقابا عليه وهو رد لقولهم انما انت مفتر (واولئك) اشارة الى الذين لا يؤمنون اي واولئك (هم الكاذبون) على الحقيقة الكاملون في الكذب لان تكذيب آيات الله اعظم الكذب او واولئك هم الكاذبون في قولهم انما انت مفتر وجوز وان يكون (من كفر بالله من بعد ايمانه) شرطا مبتدأ وحذف جوابه لان جواب من شرح دال عليه كانه قيل من كفر بالله فعليهم غضب (الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان) ساكن به

(ولكن من شرح بالكفر صدرا) أى طاب به نفسا واعتقده (فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) وان يكون بدلا من الذين لا يؤمنون بآيات الله على أن يجعل واولئك هم الكاذبون اعتراضا بين البدل والمبدل منه والمعنى انما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد ايمانه واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء ثم قال ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله وان يكون بدلا من المبتدا الذى هو اولئك أى ومن كفر بالله من بعد ايمانه هم الكاذبون أو من الخبر الذى هو الكاذبون أى واولئك هم من كفر بالله من بعد ايمانه وان ينتصب على الذم روى ان ناسا من أهل مكة فتنوا فارتدوا وكان فيهم من أكره فاجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للايمان منهم عمار واما ابواه ياسر وسمية فقد قتلا وهما أول قتيلين فى الاسلام فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان عمارا كفر فقال كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فاتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فجعل رسول الله يمسح عينيه وقال مالك ان عادوا لك فعد لهم بما قلت وما فعل أبوا عمار أفضل لان فى الصبر على القتل اعزازا للاسلام (ذلك) اشارة الى الوعيد وهو لحوق الغضب والعذاب العظيم (بأنهم استحبوا) آثروا (الحياة الدنيا على الآخرة) أى بسبب ايثارهم الدنيا على الآخرة (وان الله لا يهدى القوم الكافرين) ماداموا مختارين للكفر (اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) فلا يتدبرون ولا يصغون الى المواعظ ولا يبصرون طريق الرشاد (واولئك هم الغافلون) أى الكاملون فى الغفلة لان الغفلة عن تدبر العواقب هى غاية الغفلة ومنتهاها (لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ثم ان ربك) ثم يدل على تباعد حال هؤلاء من حال اولئك (للذين هاجروا) من مكة أى انه لهم لا عليهم يعنى انه وليهم وناصرهم لا عدوهم وخاذلهم كما يكون الملك للرجل لا عليه فيكون محميا منفوعا غير مضرور (من بعد ما فتنوا) بالعذاب والاكراه على الكفر فتنوا شامى أى بعد ما عذبوا المؤمنين ثم أسلموا (ثم جاهدوا) المشركين بعد الهجرة (وصبروا) على الجهاد (ان ربك من بعدها) من بعد هذه الافعال وهى الهجرة والجهاد والصبر (لغفور) لهم لما كان منهم من التكلم بكلمة الكفر تقية (رحيم) لا يعذبهم على ما قالوا فى حالة الاكراه

هذا الاستثناء قلت المكره لما ظهر منه بعد الايمان ما شابه ما يظهر من الكافر طوعا صح هذا الاستثناء لهذه المشابهة والمشاكلة والله أعلم

(فصل) فى حكم الآية قال العلماء يجب ان يكون الاكراه الذى يجوز له ان يتلفظ معه بكلمة الكفر ان يعذب بعذاب لا طاقة له به مثل التخويف بالقتل والضرب الشديد والايلامات القوية مثل التحريق بالنار ونحوه وقال العلماء أول من أظهر الاسلام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أبو بكر وخباب وصهيب وبلال وعمار وأبوه ياسر وأمه سمية فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله من أذى المشركين بعمه أبى طالب وأما ابو بكر فمنعه قومه وعشيرته وأخذ الآخرون والبسوا أدراع الحديد وأجلسوا فى حر الشمس بمكة فأما بلال فكانوا يعذبونه وهو يقول أحد احد حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه وقتل ياسر وسمية كما تقدم وقال خباب لقد أوقدوا لى نارا ما اطفأها الا ودك ظهرى وأجمعوا على أن من أكره على الكفر لا يجوز له ان يتلفظ بكلمة تصريحا بل يأتى بالمعاريض وبما يوهم انه كفر فلو اكره على التصريح يباح له ذلك بشرط طمأنينة القلب على الايمان غير معتقد ما يقوله من كلمة الكفر ولو صبر حتى قتل كان أفضل لان ياسرا وسمية قتلا ولم يتلفظا بكلمة الكفر ولان بلالا صبر على العذاب ولم يلم على ذلك قال العلماء من الافعال ما يتصور الاكراه عليها كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير والميتة ونحوها فمن اكره بالسيف أو القتل على ان يشرب الخمر او يأكل الميتة او لحم الخنزير او نحوها جاز له ذلك لقوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وقيل لا يجوز له ذلك ولو صبر كان أفضل ومن الافعال ما لا يتصور الاكراه عليه كالزنا لان الاكراه يوجب الخوف الشديد وذلك يمنع انتشار الآلة فلا يتصور فيه الاكراه واختلف العلماء فى طلاق المكره فقال الشافعى رضى الله تعالى عنه واكثر العلماء لا يقع طلاق المكره وقال أبو حنيفة يقع حجة الشافعى ومن وافقه قوله سبحانه وتعالى لا اكراه فى الدين ولا يمكن ان يكون المراد نفى ذاته لان ذاته موجودة فوجب حمله على نفى آثاره والمعنى انه لا اثر له ولا عبرة به وقوله تعالى وقلبه مطمئن بالايمان فيه دليل على ان محل الايمان هو القلب (ولكن من شرح بالكفر صدرا) يعنى فتحه ووسعه لقبول الكفر واختاره ورضى به (فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) يعنى فى الآخرة (ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة) يعنى يكون ذلك الاقدام على الارتداد الى الكفر لاجل انهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة (وأن الله لا يهدى القوم الكافرين) يعنى لا يرشدهم الى الايمان ولا يوفقهم للعمل به (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم) تقدم تفسيره (وأولئك هم الغافلون) يعنى عما يراد بهم من العذاب فى الآخرة وقوله سبحانه وتعالى (لا جرم انهم فى الآخرة هم الخاسرون) يعنى ان الانسان انما يعمل فى الدنيا ليربح فى الآخرة فاذا دخل النار بان خسرانه وظهر غبنه لانه ضيع رأس ماله وهو الايمان ومن ضيع رأس ماله فهو خاسر قوله عز وجل (ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا) يعنى عذبوا ومنعوا من الدخول فى الاسلام فتنهم المشركون (ثم جاهدوا وصبروا) يعنى على الايمان والهجرة والجهاد (ان ربك من بعدها) يعنى من بعد الفتنة التى فتنوها (لغفور رحيم) نزلت هذه الآية فى عياش بن ربيعة وكان اخا ابى جهل من الرضاعة وقيل كان اخاه لامه وفى ابى جندل بن سهيل بن عمرو والوليد بن المغيرة وسلمة بن هشام وعبد الله بن اسد الثقفى فتنهم المشركون وعذبوهم فأعطوهم بعض ما ارادوا ليسلموا من شرهم ثم انهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا وقال الحسن وعكرمة نزلت هذه الآية فى عبد الله بن ابى سرح كان قد اسلم وكان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم فاستزله الشيطان فارتد ولحق بدار الحرب فلما كان يوم فتح مكة امر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله فاستجاره عثمان وكان اخاه لامه فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسلم وحسن اسلامه وهذا القول انما يصح اذا قلنا ان هذه الآية مدنية نزلت بالمدينة فتكون من الآيات المدنيات فى السور المكيات والله اعلم

أعلم بحقيقة ذلك قوله سبحانه وتعالى (يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها) يعنى تخاصم وتحتج عن نفسها أى بما أسلفت من خير وشر اشتغلت بالمجادلة لا تتفرغ الى غيرها فان قلت النفس هى نفس واحدة وليس لها نفس أخرى فما معنى قوله كل نفس تجادل عن نفسها قلت ان النفس قد يراد بها بدن الانسان وقد يراد بها مجموع ذاته وحقيقته فالنفس الثانية هى بدنه فهى عينها وذاتها أيضا والمعنى يوم يأتى كل انسان يجادل عن ذاته ولا يهمه غيره ومعنى هذه المجادلة الاعتذار بما لا يقبل منه كقولهم والله ربنا ما كنا مشركين ونحو ذلك من الاعتذارات (وتوفى كل نفس ما عملت) يعنى جزاء ما عملت فى الدنيا من خير أو شر (وهم لا يظلمون) يعنى لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئا بل يوفون ذلك كاملا من غير زيادة ولا نقصان روى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لكعب الاحبار خوفنا فقال يا أمير المؤمنين والذى نفسى بيده لو وافيت القيامة بمثل عمل سبعين نبيا لاتت عليك ساعات وأنت لا يهمك الا نفسك وان جهنم لتزفر زفرة ما يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل الا جثا على ركبتيه حتى ابراهيم خليل الرحمن يقول يا رب لا أسألك الا نفسى وان تصديق ذلك فيما أنزله الله تعالى يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وروى عكرمة عن ابن عباس فى هذه الآية قال ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد فتقول الروح يا رب لم تكن لى يد أبطش بها ولا رجل أمشى بها ولا عين أبصر بها ويقول الجسد يا رب أنت خلقتنى كالخشبة ليست لى يد أبطش بها ولا رجل أمشى بها ولا عين أبصر بها فجاء هذا الروح كشعاع النور فبه نطق لسانى وبه أبصرت عيناى وبه مشت رجلاى فضرب الله لهما مثلا أعمى ومقعدا دخلا حائطا يعنى بستانا فيه ثمار فالاعمى لا يبصر الثمر والمقعد لا يناله فحمل الاعمى المقعد فأصابا من الثمر فعليهما العذاب قوله عز وجل (وضرب الله مثلا قرية) المثل عبارة عن قول فى شئ يشبه قولا فى شئ آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره وقيل هو عبارة عن المشابهة لغيره فى معنى من المعانى أى معنى كان وهو أعم الالفاظ الموضوعة للمشابهة قال الامام فخر الدين الرازى المثل قد يضرب بشئ موصوف بصفة معينة سواء كان ذلك الشئ موجودا أو لم يكن وقد يضرب بشئ موجود معين فهذه القرية التى ضرب الله بها هذا المثل يحتمل ان تكون شيئا مفروضا ويحتمل ان تكون قرية معينة وعلى التقدير الثانى فتلك القرية يحتمل ان تكون مكة أو غيرها والاكثر من المفسرين على أنها مكة والاقرب انها غير مكة لانها ضربت مثلا لمكة ومثل مكة يكون غير مكة وقال الزمخشرى فى كتابه الكشاف وضرب الله مثلا قرية أى جعل القرية التى هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته فيجوز ان تراد قرية مقدرة على هذه الصفة وان تكون فى قرى الاولين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلا لمكة انذارا من مثل عاقبتها وقال الواقدى ضرب المثل بيان المشبه والمشبه به وهاهنا ذكر المشبه به ولم يذكر المشبه لوضوحه عند المخاطبين والآية عند عامة المفسرين نازلة فى أهل مكة وما امتحنوا به من الخوف والجوع بعد الامن والنعمة بتكذيبهم النبى صلى الله عليه وسلم فتقدير الآية ضرب الله مثلا لقريتكم أى بين الله لها شبها ثم قال قرية فيجوز ان تكون القرية بدلا من مثلا لانها هى الممثل بها ويجوز ان يكون المعنى ضرب الله مثلا مثل قرية فحذف المضاف هذا قول الزجاج والمفسرون كلهم قالوا أراد بالقرية مكة يعنون أنه اراد مكة فى تمثيلها بقرية صفتها ما ذكر وقال ابن الجوزى فى هذه القرية قولان أحدهما انها مكة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والجمهور وهو الصحيح والثانى انها قرية اوسع الله على اهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز فبعث الله عليهم الجوع قاله الحسن واقول هذه الآية نزلت بالمدينة فى قول مقاتل وبعض المفسرين وهو الصحيح لان الله سبحانه وتعالى وصف هذه القرية بصفات ستة كانت هذه الصفات موجودة فى اهل مكة فضربها الله مثلا لاهل المدينة يحذرهم ان يصنعوا مثل صنيعهم فيصيبهم ما اصابهم من الجوع والخوف ويشهد لصحة ما قلت ان الخوف المذكور فى هذه

(يوم تأتى) منصوب برحيم أو باذكر (كل نفس تجادل عن نفسها) وانما اضيفت النفس الى النفس لانه يقال لعين الشئ وذاته نفسه وفى نقيضه غيره والنفس الجملة كما هى فالنفس الاولى هى الجملة والثانية عينها وذاتها فكأنه قيل يوم يأتى كل انسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كل يقول نفسى نفسى ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها كقولهم هؤلاء اضلونا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا الآية والله ربنا ما كنا مشركين (وتوفى كل نفس ما عملت) تعطى جزاء عملها وافيا (وهم لا يظلمون) فى ذلك (وضرب الله مثلا قرية) أى جعل القرية التى هذه حالها مثلا لكل قوم انعم الله عليهم فابطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فانزل الله بهم نقمته فيجوز ان يراد قرية مقدرة على هذه الصفة وان تكون فى قرى الاولين قرية كانت هذه حالها فضربها الله مثلا لمكة انذارا من مثل عاقبتها

الآية فى قوله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف هو البعوث والسرايا التى كان النبى صلى الله عليه وسلم يبعثها فى قول جميع المفسرين لان النبى صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بالقتال وهو بمكة وانما أمر بالقتال لما هاجر الى المدينة فكان يبعث البعوث والسرايا الى حول مكة يخوفهم بذلك وهو بالمدينة والله أعلم بمراده وأما تفسير قوله تعالى وضرب الله مثلا قرية يعنى مكة (كانت آمنة) يعنى ذات أمن لا يهاج اهلها ولا يغار عليهم (مطمئنة) يعنى قارة باهلها لا يحتاجون الى الانتقال عنها للانتجاع كما كان يحتاج اليه سائر العرب (يأتيها رزقها رغدا) يعنى واسعا (من كل مكان) يعنى يحمل اليها الرزق والميرة من البر والبحر نظيره قوله سبحانه وتعالى يجبى اليه ثمرات كل شئ وذلك بدعوة ابراهيم صلى الله عليه وسلم وهو قوله وارزق اهله من الثمرات (فكفرت) يعنى هذه القرية والمراد اهلها (بأنعم الله) جمع نعمة والمراد بها سائر النعم التى أنعم الله بها على أهل مكة فلما قابلوا نعم الله التى أنعم بها عليهم بالجحود والكفر لا جرم ان الله تعالى انتقم منهم فقال تعالى (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) وذلك ان الله سبحانه وتعالى ابتلاهم بالجوع سبع سنين فقطع عنهم المطر وقطعت العرب عنهم الميرة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا فأكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب والميتة والعهن وهو الوبر يعالج بالدم ويخلط به حتى يؤكل حتى كان أحدهم ينظر الى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع ثم ان رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك وقالوا ما هذا هبك عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس فى حمل الطعام اليهم وهم بعد مشركون والخوف يعنى خوف بعوث النبى صلى الله عليه وسلم وسراياه التى كان يبعثها للاغارة فكانت تطيف بهم وتغير على من حولهم من العرب فكان أهل مكة يخافونهم فان قلت الاذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما والاذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فما وجه صحة ايقاعها عليه اللباس لا يذاق بل يلبس فيقال كساهم الله لباس الجوع أو يقال فأذاقهم الله طعم الجوع قلت قال صاحب الكشاف أما الاذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد وما يمس الناس منها فيقولون ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه العذاب شبه ما يدرك من أثر الضرر والالم بما يدرك من طعم المر والبشع وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ما غشى الانسان والتبس به من بعض الحوادث وأما ايقاع الاذاقة على لباس الجوع والخوف فلانه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف ثم ذكر بعده من علم المعانى والبيان ما يشهد لصحة ما قال وقال الامام فخر الدين الرازى جوابه من وجوه الاول ان الاحوال التى حصلت لهم عند الجوع نوعان أحدهما ان المذوق هو الطعام فلما فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع والثانى ان ذلك الجوع كان شديدا كاملا فصار كأنه أحاط بهم من كل الجهات فأشبه اللباس والحاصل انه حصل لهم فى ذلك الجوع حالة تشبه المذوق وحالة تشبه الملبوس فاعتبر الله كلا الاعتبارين فقال فأذاقها الله لباس الجوع والخوف الوجه الثانى ان التقدير ان الله عرفها لباس الجوع والخوف الا انه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الاذاقة وأصل الذوق بالفم ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف وهو الاختبار تقول ناظر فلانا وذق ما عنده قال الشاعر

ومن يذق الدنيا فانى طعمتها * وسيق الينا عذبها وعذابها

ولباس الجوع والخوف ما ظهر عليهم من الضمور وشحوب اللون ونهكة البدن وتغير الحال وكسوف البال كما تقول تعرفت سوء أثر الجوع والخوف على فلان كذلك يجوز ان تقول ذقت لباس الجوع والخوف على فلان الوجه الثالث ان يحمل لفظ الذوق واللبس على المماسة فصار التقدير فأذاقها الله مساس الجوع والخوف ثم قال تعالى (بما كانوا يصنعون) ولم يقل صنعت لانه أراد أهل القرية والمعنى

(كانت آمنة) من القتل والسبى (مطمئنة) لا يزعجها خوف لان الطمأنينة مع الامن والانزعاج والقلق مع الخوف (يأتيها رزقها رغدا) واسعا (من كل مكان) من كل بلد (فكفرت) اهلها (بأنعم الله) جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع او جمع نعم كبؤس وأبؤس (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) الاذاقة واللباس استعارتان والاذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار ووجه صحة ذلك ان الاذاقة جارية عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد وما يمس الناس منها فيقولون ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه العذاب شبه ما يدرك من أثر الضرر والالم بما يدرك من طعم المر والبشع وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ما غشى الانسان والتبس به من بعض الحوادث وأما ايقاع الاذاقة على لباس الجوع والخوف فلانه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس فكأنه قيل فأذاقهم ما غشيهم من الجوع والخوف

فعانا

(ولقد جاءهم رسول منهم) أى محمد صلى الله عليه وسلم (فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون) أى فى حال التباسهم بالظلم قالوا انه القتل بالسيف يوم بدر روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه الى أهل مكة فى سنى القحط بطعام ففرق فيهم فقال الله لهم بعدان اذاقهم الجوع (فكلوا مما رزقكم الله) على يدى محمد صلى الله عليه وسلم (حلالا طيبا) بدلا عما كنتم تأكلونه حراما خبيثا من الاموال المأخوذة بالغارات والغصوب وخبائث الكسوب (واشكروا نعمة الله ان كنتم اياه تعبدون) تطيعون أو ان صح زعمكم انكم تعبدون الله بعبادة الآلهة لانها شفعاؤكم عنده ثم عدد عليهم محرمات الله ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم باهوائهم فقال (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) انما للحصر أى المحرم هذا دون البحيرة واخواتها وباقى الآية قدم تفسيره (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب) هو منصوب بلا تقولوا أى ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة فى قولكم ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا من غير استناد ذلك الوصف الى الوحى أو الى القياس المستنبط منه واللام مثلها فى قولك لا تقولوا لما أحل الله هو حرام وقوله (هذا حلال وهذا حرام) بدل من الكذب ولك ان تنصب الكذب بتصف وتجعل ما مصدرية وتعلق هذا حلال وهذا حرام بلا تقولوا أى ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب اى ولا تحرموا ولا تحللوا لاجل قول تنطق به ألسنتكم ويجول فى افواهكم لا لاجل حجة وبينة ولكن قول ساذج ودعوى بلا برهان وقوله وتصف ألسنتكم الكذب من فصيح الكلام جعل قولهم كأنه عين الكذب فاذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته كقولك وجهها يصف الجمال وعينها تصف السحر واللام فى (لتفتروا على الله الكذب) من التعليل الذى لا يتضمن معنى الغرض (ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم) هو خبر مبتدا محذوف أى منفعتهم فى ما هم عليه من افعال الجاهلية منفعة قليلة وعذابها عظيم (وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) فى سورة الانعام يعنى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية (وما ظلمناهم) بالتحريم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) فحرمنا عليهم عقوبة على معاصيهم (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة) فى موضع الحال أى عملوا السوء جاهلين غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم ومرادهم لذة الهوى لا عصيان المولى

فعل بهم ما فعل بسبب ما كانوا يصنعون وهذا مثل أهل مكة لانهم كانوا فى الامن والطمأنينة والخصب ثم أنعم الله عز وجل عليهم بالنعمة العظيمة وهى ارسال محمد صلى الله عليه وسلم اليهم وهو منهم فكفروا به وكذبوه وبالغوا فى ايذائه وأرادوا قتله فأخرجه الله من بينهم وأمره بالهجرة الى المدينة وسلط على أهل مكة البلاء والشدائد والجوع والخوف كل ذلك بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخروجه من بين أظهرهم قوله سبحانه وتعالى (ولقد جاءهم) يعنى أهل مكة (رسول منهم) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم يعرفون نسبه ويعرفونه قبل النبوة وبعدها (فكذبوه فأخذهم العذاب) يعنى الجوع والخوف وقيل القتل يوم بدر والقول الاول أولى لما تقدم فى الآية (وهم ظالمون) يعنى كافرون (فكلوا مما رزقكم الله) فى المخاطبين بهذا قولان أحدهما انهم المسلمون وهو قول جمهور المفسرين والثانى انهم هم المشركون من أهل مكة قال الكلبى لما اشتد الجوع بأهل مكة كلم رؤساؤهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا انك انما عاديت الرجال فما بال النساء والصبيان فاذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس ان يحملوا الطعام اليهم حكاه الواحدى وغيره والقول الاول هو الصحيح قال ابن عباس فكلوا يا معشر المؤمنين مما رزقكم الله يريد الغنائم (حلالا طيبا) يعنى ان الله سبحانه وتعالى أحل الغنائم لهذه الامة وطيبها لهم ولم تحل لاحد قبلهم (واشكروا نعمة الله) يعنى التى أنعم بها عليكم (ان كنتم اياه تعبدون انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم) تقدم تفسير هذه الآية وأحكامها فى سورة البقرة فلم نعده هنا وقوله تعالى (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب) يعنى ولا تقولوا لاجل وصفكم الكذب (هذا حلال وهذا حرام) يعنى انكم تحلون وتحرمون لاجل الكذب لا لغيره فليس لتحليلكم وتحريمكم معنى وسبب الا الكذب فقط فلا تفعلوا ذلك قال مجاهد يعنى البحيرة والسائبة وقال ابن عباس يعنى قولهم ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وذلك ان العرب فى الجاهلية كانوا يحلون أشياء ويحرمون أشياء من عند أنفسهم وينسبون ذلك الى الله تعالى وهو قوله تعالى (لتفتروا على الله الكذب) يعنى لا تقولوا ان الله أمرنا بذلك فتكذبوا على الله لان وصفهم الكذب هو افتراء على الله ثم توعد المفترين للكذب فقال سبحانه وتعالى (ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) يعنى لا ينجون من العذاب وقيل لا يفوزون بخير لان الفلاح هو الفوز بالخير والنجاح ثم بين ان ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عنهم عن قريب فقال تعالى (متاع قليل) يعنى متاعهم فى الدنيا متاع قليل فانه لا بقاء له (ولهم عذاب أليم) يعنى فى الآخرة (وعلى الذين هادوا) يعنى اليهود (حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) يعنى ما سبق ذكره وبيانه فى سورة الانعام وهو قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر الآية (وما ظلمناهم) يعنى بتحريم ذلك عليهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يعنى انما حرمنا عليهم ما حرمنا بسبب بغيهم وظلمهم أنفسهم ونظيره قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وقوله تعالى (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة) المقصود من هذه الآية بيان فضل الله وكرمه وسعة مغفرته ورحمته لان السوء لفظ جامع لكل فعل قبيح فيدخل تحته الكفر وسائر المعاصى وكل ما لا ينبغى وكل من عمل السوء فانما يفعله بالجهالة لان العاقل لا يرضى بفعل القبيح فمن صدر عنه فعل قبيح من كفر أو معصية

فانما يصدر عنه بسبب جهله اما الجهله بقدر ما يترتب عليه من العقاب أو الجهله بقدر من يعصيه فثبت بهذا ان فعل السوء انما يفعل بجهالة ثم ان الله تعالى وعد من عمل سوءا بجهالة ثم تاب وأصلح العمل فى المستقبل أن يتوب عليه و يرحمه وهو قوله تعالى (ثم تابوا من بعد ذلك) يعنى من بعد عمل ذلك السوء (وأصلحوا) يعنى أصلحوا فى المستقبل وقيل معنى الاصلاح الاستقامة على التوبة (ان ربك من بعدها) يعنى من بعد عمل السوء بالجهالة والتوبة منه (لغفور) يعنى لمن تاب وآمن (رحيم) يعنى بجميع المؤمنين والتائبين قوله سبحانه وتعالى (ان ابراهيم كان أمة) حكى ابن الجوزى عن ابن الانبارى انه قال هذا مثل قول العرب فلان رحمة وفلان علامة ونسابة يقصدون بهذا التأنيث قصد التناهى فى المعنى الذى يصفونه به والعرب توقع الاسماء المبهمة على الجماعة وعلى الواحد كقوله تبارك وتعالى فنادته الملائكة وانما ناداه جبريل وحده وانما سمى ابراهيم صلى الله عليه وسلم أمة لانه اجتمع فيه من صفات الكمال وصفات الخير والاخلاق الحميدة ما اجتمع فى أمة ومنه قول الشاعر

ليس على الله بمستنكر * ان يجمع العالم فى واحد

ثم للمفسرين فى معنى هذه اللفظة أقوال أحدها قول ابن مسعود الامة معلم الخير يعنى انه كان معلما للخير يأتم به أهل الدنيا الثانى قال مجاهد انه كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار فلهذا المعنى كان أمة وحده ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى زيد بن عمرو بن نفيل يبعثه الله أمة وحده وانما قال فيه هذه المقالة لانه كان قد فارق الجاهلية وما كانوا عليه من عبادة الاصنام الثالث قال قتادة ليس من أهل دين الا وهم يتولونه و يرضونه وقيل الامة فعلة بمعنى مفعولة وهو الذى يؤتم به وكان ابراهيم عليه السلام اماما يقتدى به دليله قوله سبحانه وتعالى انى جاعلك للناس اماما وقيل انه عليه السلام هو السبب الذى لاجله جعلت امته ومن تبعه ممتازين عن من سواهم بالتوحيد لله والدين الحق وهو من باب اطلاق المسبب على السبب وقيل انما سمى ابراهيم عليه السلام أمة لانه قام مقام أمة فى عبادة الله (قانتا لله) يعنى مطيعا لله وقيل هو القائم بأوامر الله (حنيفا) مسلما يعنى مقيما على دين الاسلام لا يميل عنه ولا يزول وهو اول من اختتن وضحى واقام مناسك الحج (ولم يك من المشركين) يعنى انه عليه السلام كان من الموحدين المخلصين من صغره الى كبره (شاكرا لانعمه) يعنى انه شاكر لله على انعمه التى انعم بها عليه (اجتباه) أى اختاره لنبوته واصطفاه لخلته (وهداه الى صراط مستقيم) يعنى هداه الى دين الاسلام لانه الصراط المستقيم والدين القويم (وآتيناه فى الدنيا حسنة) يعنى الرسالة والخلة وقيل هى لسان الصدق والثناء الحسن والقبول العام فى جميع الامم فان الله حببه الى جميع خلقه فكل اهل الاديان يتولونه المسلمون واليهود والنصارى ومشركو العرب وغيرهم وقيل هو قول المصلى فى التشهد اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وقيل انه آتاه اولادا ابرارا على الكبر (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) يعنى فى أعلى مقامات الصالحين فى الجنة وقيل معناه وانه فى الآخرة لمع الصالحين يعنى الانبياء فى الجنة فتكون من بمعنى مع ولما وصف الله عز وجل ابراهيم عليه السلام بهذه الصفات الشريفة العالية أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم باتباعه فقال تعالى (ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم) يعنى دينه وما كان عليه من الشريعة والتوحيد قال اهل الاصول كان النبى صلى الله عليه وسلم مأمورا بشريعة ابراهيم الا ما نسخ منها وما لم ينسخ صار شرعا له وقال أبو جعفر الطبرى أمره باتباعه فى التبرى من الاوثان والتدين بدين الاسلام وهو قوله (حنيفا وما كان من المشركين) تقدم تفسيره وقوله تعالى (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) يعنى انما فرض تعظيم السبت على الذين اختلفوا فيه وهم اليهود روى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال أمرهم موسى بتعظيم يوم الجمعة فقال تفرغوا لله فى كل سبعة ايام يوما فاعبدوه فى يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيئا من صنعتكم وستة ايام لصنعتكم فأبوا عليه وقالوا لا نريد الا اليوم الذى فرغ الله فيه من الخلق

(ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها) من بعد التوبة (لغفور) لتكفير ما كانوا اقترفوا من الجرائم (رحيم) بتوفيق ما وثقوا بعد من العزائم (ان ابراهيم كان امة) انه كان وحده امة من الامم لكماله فى جميع صفات الخير كقوله * ليس على الله بمستنكر * ان يجمع العالم فى واحد * وعن مجاهد كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفارا وكان امة بمعنى مأموم يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير (قانتا لله) هو القائم بما أمره الله وقال ابن مسعود رضى الله عنه ان معاذا كان أمة قانتا لله فقيل له انما هو ابراهيم عليه السلام فقال الامة الذى يعلم الخير والقانت المطيع لله ورسوله وكان معاذ كذلك وقال عمر رضى الله عنه لو كان معاذ حيا لاستخلفته فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ابو عبيدة أمين هذه الامة ومعاذ امة لله قانت لله ليس بينه و بين الله يوم القيامة الا المرسلون (حنيفا) مائلا عن الاديان الى ملة الاسلام (ولم يك من المشركين) نفى عنه الشرك تكذيبا لكفار قريش لزعمهم انهم على ملة ابيهم ابراهيم وحذف النون للتشبيه بحروف اللين (شاكرا لانعمه) روى انه كان لا يتغدى الا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فأخر غداءه فاذا هو بفوج من الملائكة فى صورة البشر فدعاهم الى الطعام فخيلوا له أن بهم جذاما فقال الآن وجبت مؤاكلتكم شكرا لله على أنه عافانى وابتلاكم (اجتباه) اختصه واصطفاه للنبوة (وهداه الى صراط مستقيم) الى ملة الاسلام (وآتيناه فى الدنيا حسنة) نبوة واموالا واولادا أو تنويه الله بذكره فكل أهل دين يتولونه أو قول المصلى منا كما صليت على ابراهيم (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) لمن اهل الجنة (ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) فى ثم تعظيم منزلة نبينا عليه السلام واجلال محله والايذان بان اشرف ما اوتى خليل الله من الكرامة اتباع رسولنا ملته (انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) اى فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه

وهو يوم السبت فجعل ذلك اليوم عليهم وشدد عليهم فيه ثم جاءهم عيسى عليه السلام ايضا بيوم الجمعة فقالت النصارى لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا يعنون اليهود فاتخذوا الاحد فأعطى الله عزوجل الجمعة لهذه الامة فقبلوها فبورك لهم فيها (ق) عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا فاختلفوا فيه وأوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فهم لنا فيه تبع فغدا لليهود وبعد غد للنصارى وفى رواية لمسلم نحن الآخرون الاولون يوم القيامة ونحن اول من يدخل الجنة وفى رواية اخرى له قال أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت وللنصارى يوم الاحد فجاء الله بنا فهدانا اليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والاحد وكذلك هم لنا تبع يوم القيامة نحن الآخرون فى الدنيا الاولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق قال الشيخ محيى الدين النووى فى شرح مسلم قال العلماء فى معنى الحديث نحن الآخرون فى الزمان والوجود السابقون فى الفضل ودخول الجنة فتدخل هذه الامة الجنة قبل سائر الامم وقوله بيد انهم يعنى غيرانهم أو الا انهم وقوله فهذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له قال القاضى عياض الظاهر انه فرض عليهم تعظيم يوم الجمعة بغير تعيين ووكل الى اجتهادهم لاقامة شرائعهم فيه فاختلف احبارهم فى تعيينه ولم يهدهم الله له وفرضه على هذه الامة مبينا ولم يكلهم الى اجتهادهم ففازوا بفضيلته قال يعنى القاضى عياضا وقد جاء ان موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وأعلمهم بفضله فناظروه ان السبت افضل فقيل له دعهم قال القاضى ولو كان منصوصا عليه لم يصح اختلافهم فيه بل كان يقول خالفوا فيه قال الشيخ محيى الدين النووى يمكن أن يكونوا أمروا به صريحا ونص على عينه فاختلفوا فيه هل يلزم تعيينه أم لهم ابداله فابدلوه وغلطوا فى ابداله قال الامام فخر الدين الرازى فى قوله تعالى على الذين اختلفوا فيه يعنى على نبيهم موسى حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت فاختلافهم فى السبت كان اختلافا على نبيهم فى ذلك اليوم أى لاجله وليس معنى قوله اختلفوا فيه ان اليهود اختلفوا فمنهم من قال بالسبت ومنهم من لم يقل به لان اليهود اتفقوا على ذلك وزاد الواحدى على هذا فقال وهذا مما اشكل على كثير من المفسرين حتى قال بعضهم معنى الاختلاف فى السبت ان بعضهم قال هو أعظم الايام حرمة لان الله فرغ فيه من خلق الاشياء وقال الآخرون بل الاحد افضل لان الله سبحانه وتعالى ابتدأ فيه بخلق الاشياء وهذا غلط لان اليهود لم يكونوا فريقين فى السبت وانما اختار الاحد النصارى بعدهم بزمان طويل فان قلت ان اليهود انما اختاروا السبت لان أهل الملل اتفقوا على ان الله خلق الخلق فى ستة ايام وبدأ بالخلق والتكوين فى يوم الاحد وتم الخلق يوم الجمعة وكان يوم السبت يوم فراغ فقالت اليهود نحن نوافق ربنا فى ترك العمل فى هذا اليوم فاختاروا السبت لهذا المعنى وقالت النصارى انما بدأ بخلق الاشياء فى يوم الاحد فنحن نجعل هذا اليوم عيدا لنا وهذان الوجهان معقولان فما وجه فضل يوم الجمعة حتى جعله اهل الاسلام عيدا قلت يوم الجمعة افضل الايام لان كمال الخلق وتمامه كان فيه وحصول التمام والكمال يوجب الفرح والسرور فجعل يوم الجمعة عيدا بهذا الوجه وهو اولى ووجه آخر وهو ان الله عزوجل خلق فيه اشرف خلقه وهو آدم عليه السلام وهو أبو البشر وفيه تاب عليه فكان يوم الجمعة اشرف الايام لهذا السبب ولان الله سبحانه وتعالى اختار يوم الجمعة لهذه الامة وادخره لهم ولم يختار والانفسهم شيئا وكان ما اختاره الله لهم افضل مما اختاره غيرهم لانفسهم وقال بعض العلماء بعث الله موسى بتعظيم يوم السبت ثم نسخ بيوم الاحد فى شريعة عيسى عليه السلام ثم نسخ يوم السبت ويوم الاحد بيوم الجمعة فى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فكان أفضل الايام يوم الجمعة كما ان محمدا صلى الله عليه وسلم افضل الانبياء وفى معنى الآية قول آخر قال قتادة الذين اختلفوا فيه اليهود استحله بعضهم وحرمه بعضهم فعلى هذا القول يكون معنى قوله انما جعل السبت أى وبال السبت ولعنته على الذين اختلفوا فيه وهم اليهود فاحله بعضهم فاصطادوا فيه فلعنوا ومسخوا

قردة وخنازير فى زمن داود عليه السلام وقد تقدمت القصة فى تفسير سورة الاعراف وبعضهم ثبت على تحريمه فلم يصطادوا فيه شيئا وهم الناهون والقول الاول أقرب الى الصحة وقوله تعالى (وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) يعنى فى أمر السبت فيحكم الله بينهم يوم القيامة فيجازى المحقين بالثواب والمبطلين بالعقاب قوله عز وجل (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) يعنى ادع الى دين ربك يا محمد وهو دين الاسلام بالحكمة يعنى بالمقالة المحكمة الصحيحة وهى الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة والموعظة الحسنة يعنى وادعهم الى الله بالترغيب والترهيب وهو انه لا يخفى عليهم انك تناصحهم وتقصد ما ينفعهم (وجادلهم بالتى هى أحسن) يعنى بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف وقيل ان الناس اختلفوا وجعلوا ثلاثة أقسام القسم الاول هم العلماء الكاملون أصحاب العقول الصحيحة والبصائر الثاقبة الذين يطلبون معرفة الاشياء على حقائقها فهؤلاء هم المشار اليهم بقوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة يعنى ادعهم بالدلائل القطعية اليقينية حتى يعلموا الاشياء بحقائقها حتى ينتفعوا وينفعوا الناس وهم خواص العلماء من الصحابة وغيرهم القسم الثانى هم أصحاب الفطرة السليمة والخلقة الاصلية وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم ينزلوا الى حضيض النقصان فهم أوسط الاقسام وهم المشار اليهم بقوله بالحكمة والموعظة الحسنة أى ادع هؤلاء بالموعظة الحسنة والقسم الثالث هم أصحاب جدال وخصام ومعاندة وهؤلاء هم المشار اليهم بقوله وجادلهم بالتى هى أحسن حتى ينقادوا الى الحق ويرجعوا اليه وقيل المراد بالحكمة القرآن يعنى ادعهم بالقرآن الذى هو حكمة وموعظة حسنة وقيل المراد بالحكمة النبوة أى ادعهم بالنبوة والرسالة والمراد بالموعظة الحسنة الرفق واللين فى الدعوة وجادلهم بالتى هى أحسن أى اعرض عن اذاهم ولا تقصر فى تبليغ الرسالة والدعاء الى الحق فعلى هذا القول قال بعض علماء التفسير هذا منسوخ بآية السيف (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) يعنى انما عليك يا محمد تبليغ ما أرسلت به اليهم ودعاؤهم بهذه الطرق الثلاثة وهو أعلم بالفريقين الضال والمهتدى فيجازى كل عامل بعمله قوله سبحانه وتعالى (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) نزلت هذه الآية بالمدينة فى سبب شهداء أحد وذلك ان المسلمين لما رأوا ما فعل المشركون بقتلى المسلمين يوم أحد من تبقير البطون والمثلة السيئة حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين الا مثل به غير حنظلة بن ابى عامر الراهب وذلك ان اباه ابا عامر الراهب كان مع ابى سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال المسلمون حين رأوا ذلك لئن أظهرنا الله عليهم لنربين على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها أحد من العرب بأحد ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا أنفه وآذانه وقطعوا مذاكيره وبقروا بطنه وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطتها لتأكلها فلم تنزل فى بطنها حتى رمت بها فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال اما انها لو أكلتها لم تدخل النار أبدا حمزة أكرم على الله من ان يدخل شيئا من جسده النار فلما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عمه حمزة نظر الى شئ لم ينظر الى شئ قط كان أوجع لقلبه منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله عليك فانك ما علمنا ما كنت الا فعالا للخيرات وصولا للرحم ولولا حزن من بعدك عليك لسرنى ان أدعك حتى تحشر من أفواج شتى أما والله لئن أظفرنى الله بهم لامثلن بسبعين منهم مكانك فأنزل الله عز وجل وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نصبر وأمسك عما أراد وكفر عن يمينه عن أبى بن كعب قال لما كان يوم أحد أصيب من الانصار أربعة وستون رجلا ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقالت الانصار لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم قال فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله عز وجل وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين فقال رجل لا قريش بعد اليوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كفوا عن القوم الا اربعة أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وأما تفسير

الآية

(وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) روى ان موسى عليه السلام أمرهم ان يجعلوا فى الاسبوع يوما للعبادة وأن يكون يوم الجمعة فأبوا عليه وقالوا نريد اليوم الذى فرغ الله فيه من خلق السموات والارض وهو السبت الا شرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فهذا اختلافهم فى السبت لان بعضهم اختاروه وبعضهم اختاروا عليه الجمعة فأذن الله لهم فى السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون اولئك وهو يحكم بينهم يوم القيامة فيجازى كل واحد من الفريقين بما هو أهله (ادع الى سبيل ربك) الى الاسلام (بالحكمة) بالمقالة الصحيحة المحكمة وهو الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة (والموعظة الحسنة) وهى التى لا يخفى عليهم انك تناصحهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها أو بالقرآن أى ادعهم بالكتاب الذى هو حكمة وموعظة حسنة والحكمة المعرفة بمراتب الافعال والموعظة الحسنة أن يخلط الرغبة بالرهبة والانذار بالبشارة (وجادلهم بالتى هى أحسن) بالطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة أو بما يوقظ القلوب ويعظ النفوس ويجلو العقول وهو رد على من يأبى المناظرة فى الدين (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أى هو أعلم بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل (وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) سمى الفعل الاول عقوبة والعقوبة هى الثانية لازدواج الكلام كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها فالثانية ليست بسيئة والمعنى ان صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه روى ان المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم فرأى النبى عليه السلام حمزة مبقور البطن فقال اما والذى أحلف به لامثلن بسبعين مكانك فنزلت فكفر عن يمينه وكف عما أراده ولا خلاف فى تحريم المثلة لورود الاخبار بالنهى عنها حتى بالكلب العقور

الآية فقوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به سمى الفعل الاول باسم الثانى للمزاوجة فى الكلام والمعنى ان صنع بكم سوء من قتل أو مثلة ونحوها فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه فهو كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها أمر الله برعاية العدل والانصاف فى هذه الآية فى باب استيفاء الحقوق يعنى ان رغبتم فى استيفاء القصاص فاقتصوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فان استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه فى عدل الله وشرعه ورحمته وفى الآية دليل على ان الاولى ترك استيفاء القصاص وذلك بطريق الاشارة والرمز والتعريض بان الترك أولى فان كان لا بد من استيفاء القصاص فيكون من غير زيادة عليه بل يجب مراعاة المماثلة ثم انتقل من طريق الاشارة الى طريق التصريح فقال تعالى (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) يعنى ولئن عفوتم وتركتم استيفاء القصاص وصبرتم كان ذلك العفو والصبر خيرا من استيفاء القصاص وفيه اجر للصابرين العافين

(فصل) اختلف العلماء هل هذه الآية منسوخة أم لا على قولين أحدهما انها نزلت قبل براءة فأمر النبى صلى الله عليه وسلم ان يقاتل من قاتله ولا يبدأ بالقتال ثم نسخ ذلك وأمر بالجهاد وهذا قول ابن عباس والضحاك فعلى هذا يكون معنى قوله ولئن صبرتم عن القتال فلما أعز الله الاسلام وكثر أهله أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالجهاد ونسخ هذا بقوله اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم الآية والقول الثانى انها محكمة وانها نزلت فى من ظلم ظلامة فلا يحل له ان ينال من ظالمه أكثر مما نال منه الظالم وهذا قول مجاهد والشعبى والنخعى وابن سيرين والثورى قال بعضهم الاصح انها محكمة لان الآية واردة فى تعليم حسن الادب فى كيفية استيفاء الحقوق فى القصاص وترك التعدى وهو طلب الزيادة وهذه الاشياء لا تكون منسوخة فلا تعلق لها بالنسخ والله أعلم قوله عز وجل (واصبر وما صبرك الا بالله) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر وأعلمه ان صبره بتوفيقه ومعونته (ولا تحزن عليهم) يعنى على الكافرين واعراضهم عنك وقيل معنى الآية ولا تحزن على قتلى أحد وما فعل بهم فانهم افضوا الى رحمة الله ورضوانه (ولا تك فى ضيق مما يمكرون) يعنى ولا يضيقن صدرك يا محمد بسبب مكرهم فان الله كافيك وناصرك عليهم قرئ فى ضيق بفتح الصاد وكسرها فقيل هما لغتان وقال أبو عمرو الضيق بالفتح الغم وبالكسر الشدة وقال أبو عبيدة الضيق بالكسر فى قلة المعاش وفى المسكن وأما ما كان فى القلب والصدر فانه بالفتح وقال القتيبى الضيق تخفيف ضيق مثل هين وهين ولين ولين فعلى هذا يكون صفة كأنه قال سبحانه وتعالى ولا تك فى أمر ضيق من مكرهم قال الامام فخر الدين الرازى هذا الكلام من المقلوب لان الضيق صفة والصفة تكون حاصلة فى الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلا فى الصفة فكان المعنى فلا يكن الضيق حاصلا فيك الا ان الفائدة فى قوله ولا تك فى ضيق هى ان الضيق اذا عظم وقوى صار كالشئ المحيط بالانسان من كل جانب كالقميص المحيط به فكانت الفائدة فى ذكر هذا اللفظ هذا المعنى (ان الله مع الذين اتقوا) أى اتقوا المثلة والزيادة فى القصاص وسائر المناهى (والذين هم محسنون) يعنى بالعفو عن الجانى وهذه المعية بالعون والفضل والرحمة يعنى ان أردت أيها الانسان ان أكون معك بالعون والفضل والرحمة فكن من المتقين المحسنين وفى هذا اشارة الى التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله قال بعض المشايخ كمال الطريق صدق مع الحق وخلق مع الخلق وكمال الانسان ان يعرف الحق لذاته والخير لاجل ان يعمل به وقيل لهرم بن حيان عند الموت اوص فقال انما الوصية فى المال ولا مال لى ولكنى اوصيك بخواتيم سورة النحل والله اعلم بمراده واسرار كتابه

(تفسير سورة الاسراء)

(ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) الضمير فى لهو يرجع الى مصدر صبرتم والمراد بالصابرين المخاطبون أى ولئن صبرتم لصبركم خير لكم فوضع الصابرين موضع الضمير ثناء من الله عليهم لانهم صابرون على الشدائد ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم (واصبر) أنت فعزم عليه بالصبر (وما صبرك الا بالله) أى بتوفيقه وتثبيته (ولا تحزن عليهم) على الكفار ان لم يؤمنوا وعلى المؤمنين وما فعل بهم الكفار فانهم وصلوا الى مطلوبهم (ولا تك فى ضيق مما يمكرون) أى فى أمر ضيق مكى والضيق تخفيف الضيق أى فى أمر ضيق ويجوز ان يكونا مصدرين كالقيل والقول والمعنى ولا يضيقن صدرك من مكرهم فانه لا ينفذ عليك (ان الله مع الذين اتقوا) والذين هم محسنون) أى هو ولى الذين اجتنبوا السيئات وولى العاملين بالطاعات قيل من اتقى فى أفعاله وأحسن فى أعماله كان الله معه فى أحواله ومعيته بنصرته فى المأمور وعصمته فى المحظور سورة بنى اسرائيل مكية وهى مائة وعشر آيات بصرى واحدى عشرة آية كوفى وشامى

*(فصـل فى نزولها) قال ابن الجوزى هى مكية فى قول الجماعة الا ان بعضهم يقول فيها مدنى فروى عن ابن عباس انه قال هى مكية الا ثمان آيات من قوله سبحانه وتعالى وان كادوا ليفتنونك الى قوله نصيرا وهذا قول قتادة وقال مقاتل فيها من المدنى وقل رب ادخلنى مدخل صدق الآية وقوله تعالى ان الذين أوتوا العلم من قبله وقوله ان ربك احاط بالناس وقوله تعالى وان كادوا ليفتنونك وقوله تعالى ولولا أن ثبتناك والتى تليها وهى مائة وعشر آيات وقيل واحدى عشر وخمسمائة وثلاث وثلاثون كلمة وثلاثة آلاف وأربعمائة وستون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) روى ابن الجوزى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه سئل عن تفسير سبحان الله فقال تنزيه الله عن كل شئ هكذا ذكره بغير سند وقال النحويون سبحان اسم علم على التسبيح يقال سبحت الله تسبيحا فالتسبيح هو المصدر وسبحان الله علم للتسبيح وتفسير سبحان الله تنزيه الله عن كل سوء ونقيصة وأصله فى اللغة التباعد فمعنى سبحان الله بعده ونزاهته عن كل مالا ينبغى الذى أسرى يقال سرى به وأسرى به لغتان بعبده اجمع المفسرون والعلماء والمتكلمون ان المراد به محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلف أحد من الامة فى ذلك وقوله بعبده اضافة تشريف وتعظيم وتبجيل وتفخيم وتكريم ومنه قول بعضهم

لا تدعنى الا بياعبدها * فانه أشرف اسمائى

قيل لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الدرجات العالية والرتب الرفيعة ليلة المعراج أوحى الله عز وجل اليه يا محمد بم شرفتك قال رب حيث نسبتنى الى نفسك بالعبودية فأنزل الله سبحانه وتعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا فان قلت الاسراء لا يكون الا بالليل فما معنى ذكر الليل قلت أراد بقوله ليلا بلفظ التنكير تقليل مدة الاسراء وانه اسرى به فى بعض ليلة من مكة الى الشام مسيرة شهر او اكثر فدل تنكير الليل على البعضية (من المسجد الحرام) قيل كان الاسراء من نفس مسجد مكة وفى حديث مالك بن صعصعة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا انا فى المسجد الحرام فى الحجر وذكر حديث المعراج وسيأتى بكماله فيما بعد وقيل عرج به من دار ام هانئ بنت ابى طالب وهى بنت عمه اخت على رضى الله تعالى عنه فعلى هذا اراد بالمسجد الحرام الحرم (الى المسجد الاقصى) يعنى الى بيت المقدس سمى أقصى لبعده عن المسجد الحرام أولانه لم يكن حينئذ وراءه مسجد (الذى باركنا حوله) يعنى بالانهار والاشجار والثمار وقيل سماه مباركا لانه مقر الانبياء ومهبط الملائكة والوحى وقبلة الانبياء قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم واليه تحشر الخلق يوم القيامة فان قلت ظاهر الآية يدل على ان الاسراء كان الى بيت المقدس والاحاديث الصحيحة تدل على انه عرج به الى السماء فكيف الجمع بين الدليلين وما فائدة ذكر المسجد الاقصى فقط قلت قد كان الاسراء على ظهر البراق الى المسجد الاقصى ومنه كان عروجه الى السماء على المعراج وفائدة ذكر المسجد الاقصى فقط انه صلى الله عليه وسلم لو أخبر بصعوده الى السماء اولا لاشتد انكارهم لذلك فلما أخبر انه أسرى به الى بيت المقدس وبان لهم صدقه فيما أخبر به من العلامات التى فيه وصدقوه عليها أخبر بعد ذلك بعروجه الى السماء فجعل الاسراء الى المسجد الاقصى كالتوطئة لمعراجه الى السماء وقوله تعالى (لنريه من آياتنا) يعنى من بعض عجائب قدرتنا فقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم فى تلك الليلة الانبياء وصلى بهم ورأى الآيات العظام فان قلت لفظة من فى قوله من آياتنا تقتضى التبعيض وقال فى حق ابراهيم عليه السلام وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وظاهر هذا يدل على فضيلة ابراهيم عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم ولا قائل به فما وجهه قلت ملكوت السموات والارض من بعض آيات الله أيضا ولآيات الله أفضل من ذلك وأكثر والذى أراه محمدا صلى الله عليه وسلم من آياته وعجائبه تلك الليلة

بسم الله الرحمن الرحيم

(سبحان) تنزيه الله من السوء وهو علم للتسبيح كعثمان للرجل وانتصابه بفعل مضمر متروك اظهاره تقديره اسبح الله سبحان ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسده ودل على التنزيه البليغ (الذى أسرى بعبده) محمد صلى الله عليه وسلم وسرى وأسرى لغتان (ليلا) نصب على الظرف وقيده بالليل والاسراء لا يكون الا بالليل للتأكيد أو ليدل بلفظ التنكير على تقليل مدة الاسراء وانه اسرى به فى بعض الليل من مكة الى الشام مسيرة اربعين ليلة (من المسجد الحرام) قيل اسرى به من دار ام هانئ بنت ابى طالب والمراد بالمسجد الحرام الحرم لاحاطته بالمسجد والتباسه به وعن ابن عباس رضى الله عنهما الحرم كله مسجد وقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر فقد قال عليه السلام بينا انا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ اتانى جبريل بالبراق وقد عرج بى الى السماء فى تلك الليلة وكان العروج به من بيت المقدس وقد اخبر قريشا عن عيرهم وعدد جمالها واحوالها واخبرهم ايضا بما رأى فى السماء من العجائب وانه لقى الانبياء عليهم السلام وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى وكان الاسراء قبل الهجرة بسنة وكان فى اليقظة وعن عائشة رضى الله عنها انها قالت والله ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه وعن معاوية مثله وعلى الاول الجمهور اذ لا فضيلة للحالم ولا مزية للنائم (الى المسجد الاقصى) هو بيت المقدس لانه لم يكن حينئذ وراءه مسجد (الذى باركنا حوله) يريد بركات الدين والدنيا لانه متعبد الانبياء عليهم السلام ومهبط الوحى وهو محفوف بالانهار الجارية والاشجار المثمرة (لنريه) اى محمدا عليه السلام (من آياتنا) الدالة على وحدانية الله وصدق نبوته برؤيته السموات وما فيها من الآيات

كان أفضل من ملكوت السموات والارض فظهر بهذا البيان فضل محمد صلى الله عليه وسلم على ابراهيم صلى الله عليه وسلم (انه هو السميع) لاقواله ودعائه (البصير) لافعاله والحافظ له في ظلمة الليل وقت اسرائه وقيل انه هو السميع لما قالت له قريش حين أخبرهم بمسراه الى بيت المقدس البصير بما ردوا عليه من التكذيب وقيل انه هو السميع لاقوال جميع خلقه البصير بأفعالهم فيجازي كل عامل بعمله وحمله على العموم أولى

(فصل) في ذكر حديث المعراج وما يتعلق به من الاحكام وما قال العلماء فيه (ق) حدثنا قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة ان نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة اسري به قال بينما أنا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجعا ومنهم من قال بين النائم واليقظان اذ اتاني آت فقد قال وسمعته يقول فشق ما بين هذه الى هذه فقلت للجارود وهو الى جنبي ما يعني به قال من ثغرة نحره الى شعرته وسمعته يقول من قصته الى شعرته فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة ايمانا فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض فقال له الجارود أهو البراق يا أبا حمزة قال أنس نعم يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فاذا فيها آدم فقال هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فاذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا ثم قالا مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي الى السماء الثالثة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت اذا يوسف قال هذا يوسف فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح فلما خلصت فاذا ادريس قال هذا ادريس فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء فلما خلصت فاذا هارون قال هذا هارون فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قال مرحبا به فنعم المجيء جاء فلما خلصت فاذا موسى قال هذا موسى فسلم عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح فلما تجاوزت بكى قيل له ما يبكيك قال أبكي لان غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي ثم صعد بي الى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل اليه قال نعم قيل مرحبا به فنعم المجيء جاء فلما خلصت فاذا ابراهيم قال هذا أبوك ابراهيم فسلم عليه قال فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح ثم رفعت الى سدرة المنتهى فاذا نبقها مثل قلال هجر واذا ورقها مثل آذان الفيلة قال هذه سدرة المنتهى فاذا أربعة انهار نهران باطنان ونهران ظاهران فقلت ما هذان يا جبريل قال أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ثم رفع لي البيت المعمور ثم اتيت باناء من خمر واناء من لبن واناء من عسل فأخذت اللبن فقال هي الفطرة انت عليها وامتك ثم فرضت علي الصلوات خمسين صلاة كل يوم فرجعت فمررت على موسى فقال بم أمرت قلت امرت بخمسين صلاة كل يوم قال ان امتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم واني

(انه هو السميع) للاقوال (البصير) بالافعال ولقد تصرف الكلام على ابلغ العادات والتكلم فقيل اسرى ثم باركنا ثم انه هو وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة

والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل اشد المعالجة فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك فرجعت فوضع عني عشرا فرجعت الى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عني عشرا فرجعت الى موسى فقال مثله فرجعت فوضع عني عشرا فرجعت الى موسى فقال مثله فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم فرجعت الى موسى فقال مثله فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت الى موسى فقال بم امرت قلت أمرت بخمس صلوات كل يوم قال ان امتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم واني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني اسرائيل اشد المعالجة فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك قال سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى واسلم قال فلما جاوزت ناداني مناد امضيت فريضتي وخففت عن عبادي زاد في رواية اخرى واجزي بالحسنة عشرا وفي رواية اخرى بينا انا عند البيت بين النائم واليقظان وفيه ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملأه ايمانا وحكمة وفيه فرفع الى البيت المعمور وسألت جبريل فقال هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك اذا خرجوا لم يعودوا مرة أخرى (ق) عن انس بن مالك قال كان ابوذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فرج سقف بيتي وانا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وايمانا فأفرغها في صدري ثم اطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي الى السماء فلما جئنا السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء الدنيا افتح قال من هذا قال هذا جبريل قيل هل معك أحد قال نعم معي محمد صلى الله عليه وسلم قال فأرسل اليه قال نعم فافتح ففتح قال فلما علونا السماء الدنيا واذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة قال فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قال قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم وهذه الاسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة والاسودة التي عن شماله اهل النار فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى قال ثم عرج بي جبريل حتى أتى السماء الثانية فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح قال انس بن مالك فذكر انه وجد في السموات آدم وادريس وعيسى وموسى وابراهيم ولم يثبت كيف منازلهم غير انه ذكر انه قد وجد آدم في السماء الدنيا وابراهيم في السماء السادسة قال فلما مر جبريل ورسول الله بادريس قال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال ثم مر فقلت من هذا قال هذا ادريس قال ثم مررت بموسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال قلت من هذا قال هذا موسى قال ثم مررت بعيسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قلت من هذا قال هذا عيسى بن مريم قال ثم مررت بابراهيم فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قال قلت من هذا قال هذا ابراهيم قال ابن شهاب واخبرني ابن حزم ان ابن عباس وابا حبة الانصاري كانا يقولان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى اسمع فيه صريف الاقلام قال ابن حزم وانس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرض الله على امتي خمسين صلاة قال فرجعت بذلك حتى أمر بموسى فقال موسى ماذا فرض ربك على امتك قال قلت فرض عليهم خمسين صلاة قال لي موسى فراجع ربك فان امتك لا تطيق ذلك قال فراجعت ربي فوضع شطرها قال فرجعت الى موسى فأخبرته قال راجع ربك فان أمتك لا تطيق ذلك قال فراجعت ربي فقال هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي قال فرجعت الى موسى فقال راجع ربك فقلت قد استحييت من ربي قال ثم انطلق بي جبريل حتى نأتي سدرة المنتهى فغشيها الوان لا ادري ما هي قال ثم ادخلت الجنة واذا فيها جنابذ اللؤلؤ واذا ترابها المسك (ق) عن شريك بن أبي نمر انه سمع انس بن مالك يقول ليلة اسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة انه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى اليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال اولهم ايهم هو فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى اتوه ليلة اخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه وكذلك الانبياء تنام اعينهم ولا تنام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل

فشق جبريل ما بين نحره الى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى انقى جوفه ثم
اتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشوا ايمانا وحكمة فحشا به صدره ولغاديده يعني عروق حلقه ثم
أطبقه ثم عرج به الى السماء الدنيا فضرب بابا من ابوابها فناداه اهل السماء من هذا فقال جبريل قالوا
ومن معك قال معي محمد قالوا وقد بعث اليه قال نعم قالوا مرحبا به وأهلا فيستبشر به اهل السماء لا يعلم اهل
السماء بما يريد الله به فى الارض حتى يعلمهم فوجد فى السماء الدنيا آدم عليه السلام فقال له جبريل هذا
أبوك آدم فسلم عليه ورد عليه السلام وقال مرحبا واهلا يا بنى نعم الابن أنت فاذا هو فى السماء الدنيا بنهرين
يطردان فقال ما هذان النهران يا جبريل قال هذان النيل والفرات عنصرهما ثم مضى به فى السماء فاذا
هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب يده فاذا هو مسك قال ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر
الذى خبأ لك ربك ثم عرج الى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الاولى من هذا قال جبريل
قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد بعث اليه قال نعم قالوا مرحبا به وأهلا ثم عرج به الى السماء الثالثة وقالوا له
مثل ما قالت الاولى والثانية ثم عرج به الى الرابعة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به الى السماء الخامسة
فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به الى السادسة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به الى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك
كل سماء فيها انبياء قد سماهم فاوعيت منهم ادريس فى الثانية وهارون فى الرابعة وآخر فى الخامسة لم
أحفظ اسمه وابراهيم فى السادسة وموسى فى السابعة بتفضيل كلام الله فقال موسى رب لم أظن أن يرفع
على أحد ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه الا الله حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان
منه قاب قوسين أو أدنى فاوحى الله فيما أوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ثم هبط حتى بلغ
موسى فاحتبسه موسى فقال يا محمد ماذا عهد اليك ربك قال عهد الى خمسين صلاة كل يوم وليلة قال ان
أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم الى جبريل
كأنه يستشيره فى ذلك فاشار اليه جبريل ان نعم ان شئت فعلا به الى الجبار تعالى فقال وهو مكانه يا رب
خفف عنا فان أمتى لا تستطيع هذا فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع الى موسى فاحتبسه فلم يزل يردده
موسى الى ربه حتى صارت الى خمس صلوات ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال يا محمد والله لقد راودت بنى
اسرائيل قومى على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه فأمتك أضعف أجسادا وقلوبا وابدانا وابصارا واسماعا
فارجع فليخفف عنك ربك كل ذلك يلتفت النبى صلى الله عليه وسلم الى جبريل عليه السلام ليشير عليه
ولا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة فقال يا رب ان أمتى ضعفاء اجسادهم وقلوبهم واسماعهم
وأبدانهم فخفف عنا فقال الجبار يا محمد قال لبيك وسعديك قال انه لا يبدل القول لدى كما فرضت عليك
فى ام الكتاب قال فكل حسنة بعشر امثالها فهى خمسون فى أم الكتاب وهى خمس عليك فرجع الى
موسى فقال كيف فعلت فقال خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر امثالها قال موسى قد والله راودت
بنى اسرائيل على ادنى من ذلك فتركوه ارجع الى ربك فليخفف عنك ايضا قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم يا موسى قد والله استحييت من ربى مما اختلفت اليه قال فاهبط بسم الله واستيقظ وهو فى المسجد
الحرام هذا لفظ حديث البخارى وأدرج مسلم حديث شريك عن انس الموقوف عليه فى حديث
ثابت البنانى المسند فذكر من اول حديث شريك طرفا ثم قال وساق الحديث نحو حديث ثابت قال مسلم
وقدم وأخر وزاد ونقص وليس فى حديث ثابت من هذه الالفاظ الا ما نورده على نصه اخرجه مسلم وحده
وهو حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اتيت
بالبراق وهو دابة ابيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه قال فركبته
حتى اتيت بيت المقدس قال فربطته بالحلقة التى يربط بها الانبياء قال ثم دخلت المسجد فصليت
فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل عليه السلام
اخترت الفطرة قال ثم عرج بنا الى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك

قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من انت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه قال ففتح لنا فاذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكرياء فرحبا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بيوسف عليه السلام فاذا هو قد اعطى شطر الحسن قال فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا انا بادريس فرحب ودعا لي بخير قال الله تعالى ورفعناه مكانا عليا ثم عرج بنا الى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بهارون فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء السادسة فاستفتح جبريل قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابراهيم عليه السلام مسندا ظهره الى البيت المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون اليه ثم ذهب بي الى سدرة المنتهى واذا ورقها كآذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال قال فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى الى ما أوحى ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلت الى موسى فقال ما فرض ربك على امتك قلت خمسين صلاة قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فان امتك لا يطيقون ذلك فاني قد بلوت بني اسرائيل وخبرتهم قال فرجعت الى ربي فقلت يارب خفف على امتي فحط عني خمسا فرجعت الى موسى فقلت قد حط عني خمسا قال ان امتك لا يطيقون ذلك فارجع الى ربك فاسأله التخفيف قال فلم ازل ارجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى حتى قال يا محمد انهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتب له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا فان عملها كتبت سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت الى موسى فاخبرته قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت قد رجعت الى ربي حتى استحييت منه هذه رواية مسلم وأخرجه الترمذي مختصرا وفيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اتى بالبراق ليلة اسري به ملجما مسرجا فاستصعب عليه فقال له جبريل ابمحمد تفعل هكذا ما ركبك أحد اكرم على الله منه فارفض عرقا واخرجه النسائي مختصرا والمعنى واحد وفي آخره قال فرجعت الى ربي فسألته التخفيف فقال انى يوم خلقت السموات والارض فرضت عليك وعلى امتك خمسين صلاة فخمس بخمسين فقم بها انت وامتك فعرفت انها أمر الله حتم فلم ارجع

(فصـــل) قال البغوي قال بعض اهل الحديث ما وجدنا للبخاري ومسلم في كتابيهما شيئا لا يحتمل مخرجا الا حديث شريك بن أبي نمر عن انس واحال الامر فيه على شريك وذلك انه ذكر فيه ان ذلك كان قبل الوحي واتفق اهل العلم على ان المعراج كان بعد الوحي بنحو من اثنتي عشرة سنة وفيه ان الجبار تبارك وتعالى دنا فتدلى وذكرت عائشة ان الذي تدلى هو جبريل عليه السلام قال البغوي وهذا الاعتراض عندي لا يصح لان هذا كان رؤيا في النوم اراه الله ذلك قبل ان يوحى اليه بدليل آخر الحديث واستيقظ وهو في المسجد الحرام ثم عرج به في اليقظة بعد الوحي وقبل الهجرة بسنة تحقيقا لرؤياه التي رآها من قبل كما أنه رآى فتح مكة في المنام عام الحديبية سنة ست من الهجرة ثم كان تحقيقها سنة ثمان ونزل قوله سبحانه وتعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وقال الشيخ محي الدين النووي رحمه الله تعالى في كتابه شرح مسلم قد جاء من رواية شريك في هذا الحديث اوهام

أنكرها عليه العلماء وقد نبه مسلم على ذلك بقوله قدم وأخر وزاد ونقص منها قوله وذلك قبل ان يوحى اليه وهو غلط لم يوافق عليه فان الاسراء أقل ماقيل فيه انه كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر شهرا وقال الحربي كانت ليلة الاسراء ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة وقال الزهري كان ذلك بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم بخمس سنين وقال ابن اسحاق أسري به صلى الله عليه وسلم وقد فشا الاسلام بمكة والقبائل قال الشيخ محيي الدين وأشبه الاقوال قول الزهري وابن اسحاق وأما قوله في رواية شريك وهو نائم وفي الرواية الأخرى بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان فقد يحتج به من يجعلها رؤيا نوم ولا حجة فيه اذ قد يكون ذلك حالة أول وصول الملك اليه وليس في الحديث مايدل على كونه نائما في القصة كلها هذا كلام القاضي عياض وهذا الذي قاله في رواية شريك وان أهل العلم أنكروها قد قاله غيره وقد ذكر البخاري رواية شريك هذه عن أنس في كتاب التوحيد من صحيحه وأتى بالحديث مطولا قال الحافظ عبد الحق في كتابه الجمع بين الصحيحين بعد ذكره هذه الرواية هذا الحديث بهذا اللفظ من رواية شريك بن أبي نمر عن أنس وقد زاد فيه زيادة مجهولة وأتى فيه بألفاظ غير معروفة وقد روى حديث الاسراء جماعة من الحفاظ المتقنين والائمة المشهورين كابن شهاب وثابت البناني وقتادة يعني عن أنس فلم يأت أحد منهم بما أتى به شريك وشريك ليس بالحافظ عند أهل الحديث قال والاحاديث التي تقدمت قبل هذا هي المعول عليها

(فصل) في شرح بعض ألفاظ حديث المعراج ومايتعلق به كانت ليلة الاسراء قبل الهجرة بسنة يقال كانت في رجب ويقال في رمضان وقد تقدم زيادة على هذا القدر في الفصل الذي قبل هذا واختلف الناس في الاسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل انما كان ذلك في المنام والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة الخلف من المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسري بروحه وجسده صلى الله عليه وسلم ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى سبحان الذي أسرى بعبده ليلا ولفظ العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد والاحاديث الصحيحة التي تقدمت تدل على صحة هذا القول لمن طالعها وبحث عنها وحكى محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن حذيفة انه قال كل ذلك كان رؤيا وانه مافقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما أسري بروحه وحكى هذا القول عن عائشة أيضا وعن معاوية نحوه والصحيح ما عليه جمهور العلماء من السلف والخلف والله أعلم قوله صلى الله عليه وسلم أتيت بالبراق هو اسم للدابة التي ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به واشتقاقه من البرق لسرعته أو لشدة صفائه وبياضه ولمعانه وتلألئه ونوره والحلقة باسكان اللام ويجوز فتحها والمراد بربط البراق بالحلقة الاحتياط في الامور وتعاطي الاسباب وان ذلك لايقدح في التوكل اذا كان الاعتماد على الله تعالى وقوله جاءني جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فيه اختصار والتقدير وقال لي اختر فاخترت اللبن وقول جبريل اخترت الفطرة يعني فطرة الاسلام وجعل اللبن علامة للفطرة الصحيحة السليمة لكونه سهلا طيبا سائغا للشاربين وانه سليم العاقبة بخلاف الخمر فانها أم الخبائث وجالبة لانواع الشر قوله ثم عرج بي حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فيه بيان الادب لمن استأذن وان يقول أنا فلان ولا يقول أنا فانه مكروه وفيه ان للسماء أبوابا وبوابين وان عليها حرسا وقول بواب السماء وقد أرسل اليه وفي الرواية الاخرى وقد بعث اليه معناه للاسراء وصعوده للسماء وليس مراده الاستفهام عن أصل البعثة والرسالة فان ذلك لايخفى عليه الى هذه المدة هذا هو الصحيح في معناه وقيل غيره وقوله فاذا أنا بآدم وذكر جماعة من الانبياء فيه استحباب لقاء أهل الفضل والصلاح بالبشر والترحيب والكلام اللين الحسن وان كان الزائر أفضل من المزار وفيه جواز مدح الانسان في وجهه اذا أمن عليه من الاعجاب وغيره من أسباب الفتنة وقوله فاذا أنا بابراهيم مسند ظهره الى البيت المعمور فيه دليل على جواز الاستناد الى القبلة وتحويل ظهره اليها وقوله ثم ذهب بي الى السدرة هكذا

وقع في هذه الرواية السدرة بالالف واللام وفي باقي الروايات الى سدرة المنتهى قال ابن عباس وغيره من المفسرين سميت بذلك لان علم الملائكة ينتهي اليها ولم يجاوزها أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن مسعود سميت بذلك لكونها ينتهي اليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من أمر الله عز وجل وقوله واذا ثمرها كالقلال بكسر القاف جمع قلة بضمها وهي الجرة الكبيرة التي تسع قربتين او اكثر قوله فرجعت الى ربي قال الشيخ محيي الدين النووي معناه رجعت الى الموضع الذي ناجيته فيه أولا فناجيته فيه ثانيا وقوله فلم أزل ارجع بين موسى وبين ربي معناه وبين موضع مناجاة ربي عز وجل قلت وأما الكلام على معنى الرؤية وما يتعلق بها فانه سيأتي ان شاء الله تعالى في تفسير سورة والنجم عند قوله تعالى ثم دنا فتدلى قوله ففرض الله سبحانه وتعالى على أمتي خمسين صلاة الى قوله فوضع شطرها وفي الرواية الاخرى فوضع عني عشرا وفي الاخرى خمسا ليس بين هذه الروايات منافاة لان المراد بالشطر الجزء وهو الخمس وليس المراد منه التنصيف واما رواية العشر فهي رواية شريك ورواية الخمس رواية ثابت البناني وقتادة وهما اثبت من شريك فالمراد حط عني خمسا الى آخره ثم قال هي خمس وهي خمسون يعني خمسين في الاجر والثواب لان الحسنة بعشر امثالها واحتج العلماء بهذا الحديث على جواز نسخ الشيء قبل فعله وفي اول الحديث انه شق صدره صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وقد شق أيضا في صغره وهو عند حليمة التي كانت ترضعه فالمراد بالشق الثاني زيادة التطهير لما يراد به من الكرامة ليلة المعراج وقوله أتيت بطست من ذهب قد يتوهم متوهم انه يجوز استعمال اناء الذهب لنا وليس الامر كذلك لان هذا الفعل من فعل الملائكة وهو مباح لهم استعمال الذهب او يكون هذا قد كان قبل تحريمه وقوله ممتلئ ايمانا وحكمة فأفرغها في صدري فان قلت الحكمة والايمان معان والافراغ صفة الاجسام فما معنى ذلك قلت يحتمل انه جعل في الطست شيء يحصل به كمال الايمان والحكمة وزيادتهما فسمي ايمانا وحكمة لكونه سببا لهما وهذا من احسن المجاز وقوله في صفة آدم عليه السلام فاذا رجل عن يمينه اسودة وعن يساره اسودة هو جمع سواد وقد فسره في الحديث بانه نسم بنيه يعني ارواح بنيه وقد اعترض على هذا بان ارواح المؤمنين في السماء وارواح الكفار تحت الارض السفلى فكيف تكون في السماء والجواب عنه أنه يحتمل ان ارواح الكفار تعرض على آدم عليه السلام وهو في السماء فوافق وقت عرضها على آدم مرور النبي صلى الله عليه وسلم فاخبر بما رأى وقوله فاذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر عن شماله بكى فيه شفقة الوالد على اولاده وسروره وفرحه بحسن حال المؤمن منهم وحزنه على سوء حال الكفار منهم وقوله في ادريس مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قد اتفق المؤرخون على ان ادريس هو اخنوخ وهو جد نوح عليه السلام فيكون جد النبي صلى الله عليه وسلم كما ان ابراهيم جده فكان ينبغي ان يقول بالنبي الصالح والابن الصالح كما قال آدم وابراهيم عليهما الصلاة والسلام فالجواب عن هذا انه قيل ان ادريس المذكور هنا هو الياس وهو من ذرية ابراهيم فليس هو جد نوح هذا جواب القاضي عياض قال الشيخ محيي الدين ليس في الحديث ما يمنع كون ادريس ابا لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وان قوله الاخ الصالح يحتمل ان يكون قاله تلطفا وتأدبا وهو أخ وان كان أبا لان الانبياء اخوة والمؤمنين اخوة والله أعلم

(فصل) في ذكر الآيات التي ظهرت بعد المعراج الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم وسياق احاديث تتعلق بالاسراء قال البغوي روي انه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به وكان بذي طوى قال يا جبريل ان قومي لا يصدقوني قال يصدقك أبو بكر وهو الصديق قال ابن عباس وعائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما كانت ليلة أسري بي الى السماء أصبحت بمكة فضقت بأمري وعرفت ان الناس يكذبوني فروي انه صلى الله عليه وسلم قعد معتزلا حزينا فمر به أبو جهل فجلس اليه فقال كالمستهزئ هل استفدت من شيء قال نعم اسري بي الليلة قال الى أين قال الى بيت المقدس قال

أبو جهل ثم أصبحت بين أظهرنا قال نعم فلم ير أبو جهل ان ينكر ذلك مخافة ان يجحده الحديث ولكن قال
اتحدث قومك بما حدثتني به قال نعم قال أبو جهل يا معشر بني كعب بن لؤي هلموا فانفضت المجالس وجاؤا
حتى جلسوا اليهما قال حدث قومك بما حدثتني قال نعم اسري بي الليلة قالوا الى أين قال الى بيت المقدس
قالوا ثم أصبحت بين أظهرنا قال نعم قال فبقي الناس بين مصفق وبين واضع يده على رأسه متعجبا وارتد
أناس ممن كان قد آمن به وصدقه وسعى رجل من المشركين الى أبي بكر فقال له هل لك في صاحبك يزعم
انه أسري به الليلة الى بيت المقدس قال أو قد قال ذلك قال نعم قال لئن كان قال ذلك لقد صدق قالوا
أو تصدقه انه ذهب الى بيت المقدس وجاء في ليلة قبل ان يصبح قال نعم اني أصدقه بما هو أبعد من ذلك
أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة فلذلك سمي أبو بكر الصديق قال وكان في القوم من أتى المسجد
الاقصى قالوا هل تستطيع ان تنعت لنا المسجد قال نعم قال فذهبت انعت حتى التبس على قال فجيء
بالمسجد وانا انظر اليه حتى وضع دون دار عقيل فنعت المسجد وانا انظر اليه فقال القوم أما النعت فوالله
لقد أصاب فيه ثم قالوا يا محمد اخبرنا عن عيرنا فهي أهم الينا هل لقيت منها شيئا قال نعم مررت بعير بني فلان
وهي بالروحاء وقد أضلوا بعيرا وهم في طلبه وفي رحالهم قدح من ماء فعطشت فأخذته فشربته ثم وضعته
كما كان فسلوا هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا قالوا هذه آية قال ومررت بعير بني فلان وفلان
وفلان راكبان قعودا لهما بذي مر فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان فانكسرت يده فسلوهما عن ذلك قالوا
وهذه آية أخرى قالوا فاخبرنا عن عيرنا قال مررت بها بالتنعيم قالوا فاعدتها واحمالها وهيئتها فقال كنت
في شغل عن ذلك ثم مثلت له بعدتها واحمالها وهيئتها ومن فيها وكانوا بالحزورة قال نعم هيئتها كذا وكذا
وفيها فلان وفلان يقدمها جمل اورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا وهذه
آية ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون والله لقد قص محمد شيئا وبينه حتى اتوا كدى فجلسوا عليه
فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه اذ قال قائل منهم هذه الشمس قد طلعت وقال آخر وهذه العير
قد طلعت يقدمها بعير اورق فيها فلان وفلان كما قال فلم يؤمنوا وقالوا هذا سحر مبين (م) عن أبي هريرة
رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن
مسراي فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط قال فرفعه الله لي
أنظر اليه ما يسألوني عن شيء الا انبأتهم به وقد رأيتني في جماعة من الانبياء فاذا موسى قائم يصلي فاذا رجل
ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة واذا عيسى بن مريم قائم يصلي أقرب الناس به شبها عروة بن مسعود
الثقفي واذا ابراهيم قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم يعني به نفسه صلى الله عليه وسلم فحانت الصلاة
فأممتهم فلما فرغت من الصلاة قال لي قائل يا محمد هذا مالك صاحب النار فسلم عليه فالتفت اليه
فبدأني بالسلام (ق) عن جابر انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لما كذبتني قريش قمت الى
الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت اخبرهم عن آياته وانا انظر اليه زاد البخاري في رواية له لما كذبني
قريش حين اسري بي الى بيت المقدس وذكر الحديث عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
اتيت على موسى ليلة اسري بي عند الكثيب الاحمر فاذا هو قائم يصلي في قبره عن بريدة قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم لما انتهينا الى بيت المقدس قال جبريل كذا باصبعه فخرق الحجر وشد به البراق
أخرجه الترمذي فان قلت كيف رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى يصلي في قبره وكيف صلى
بالانبياء في بيت المقدس ثم وجدهم على مراتبهم في السموات وسلموا عليه وترحبوا به وكيف تصح الصلاة
من الانبياء بعد الموت وهم في الدار الآخرة قلت صلاته صلى الله عليه وسلم بالانبياء في بيت المقدس
يحتمل ان الله سبحانه وتعالى جمعهم له ليصلي بهم ويعرفوا فضله وتقدمه عليهم ثم ان الله سبحانه وتعالى
أراه اياهم في السموات على مراتبهم ليعرف هو مراتبهم وفضلهم وأما مروره بموسى وهو قائم يصلي في قبره
عند الكثيب الاحمر فيحتمل انه كان بعد رجوعه من المعراج واما صلاة الانبياء وهم في الدار الآخرة

(وآتينا موسى الكتاب وجعلناه) أي الكتاب وهو التوراة (هدى لبنى اسرائيل ان لا تتخذوا) اى لا تتخذوا وبالياء أبو عمرو أى لئلا يتخذوا (من دونى وكيلا) ربا تكلون اليه أموركم (ذرية من حملنا مع نوح) نصب على الاختصاص أو على النداء فيمن قرأ لا تتخذوا بالتاء على النهى أى قلنا لهم لا تتخذوا من دونى وكيلا يا ذرية من حملنا مع نوح (انه) ان نوحا عليه السلام (كان عبدا شكورا) فى السراء والضراء والشكر مقابلة النعمة بالثناء على المنعم وروى انه كان لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس الا قال الحمد لله وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه فاجعلوه اسوتكم كما جعله آباؤكم اسوتهم وآية رشد الابناء صحة الاقتداء بسنة الآباء وقد عرفتم حال الآباء هالك فكونوا أيها الابناء كذلك (وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض) وأوحينا اليهم وحيا مقضيا أى مقطوعا مبتوتا بأنهم يفسدون فى الارض لا محالة والكتاب التوراة ولتفسدن جواب قسم محذوف أوجرى القضاء المبتوت مجرى القسم فيكون لتفسدن جوابا له كأنه قال واقسمنا لتفسدن فى الارض (مرتين) أولاهما قتل زكرياء عليه السلام وحبس أرمياء عليه السلام حين أنذرهم سخط الله والاخرى قتل يحيى بن زكرياء عليهما السلام وقصد قتل عيسى عليه السلام (ولتعلن علوا كبيرا) ولتستكبرن عن طاعة الله من قوله ان فرعون علا فى الارض والمراد به البغى والظلم وغلبة المفسدين على المصلحين (فاذا جاء وعد أولاهما) أى وعد عقاب أولاهما (بعثنا عليكم) سلطنا عليكم (عبادا لنا أولى بأس شديد) اشداء فى القتال يعنى سنجاريب وجنوده أو بختنصر أو جالوت قتلوا علماءهم واحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفا (فجاسوا خلال الديار) ترددوا للغارة فيها قال الزجاج الجوس طلب الشئ بالاستقصاء (وكان وعدا مفعولا) وكان وعد العقاب وعدا لا بد أن يفعل (ثم رددنا لكم الكرة) أى الدولة والغلبة (عليهم) على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو قيل هى قتل بختنصر واستنقاذ بنى اسرائيل اسراهم وأموالهم ورجوع الملك اليهم وقيل اعدنا لكم الدولة بملك طالوت وقتل داود جالوت (وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) مما كنتم وهو تمييز جمع نفر وهو من ينفر مع الرجل من قومه (ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها) قيل اللام بمعنى على كقوله وعليها ما اكتسبت والصحيح انها على بابها لان اللام للاختصاص والعامل مختص بجزاء عمله حسنة كانت أو سيئة يعنى ان الاحسان والاساءة تختص بانفسكم لا يتعدى النفع والضرر الى غيركم وعن على رضى الله عنه ما أحسنت الى أحد ولا أسأت اليه وتلاها (فاذا جاء وعد الآخرة) وعد المرة الآخرة بعثناهم (ليسوؤا) أى هؤلاء (وجوهكم) وحذف لدلالة ذكره أولا عليه أى ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها كقوله سيئت وجوه الذين كفروا ليسوء شامى وحمزة وأبو بكر والضمير لله عز وجل أو للوعد أو للبعث ولنسوء على (وليدخلوا المسجد) بيت المقدس (كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا) ما علوا مفعول ليتبروا أى ليهلكوا كل شئ غلبوه واستولوا عليه أو بمعنى مدة علوهم

وهم فى حكم الشهداء بل أفضل منهم وقد قال الله سبحانه وتعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء فالانبياء أحياء بعد الموت وأما حكم صلاتهم فيحتمل انها الذكر والدعاء وذلك من أعمال الآخرة فان الله تعالى قال دعواهم فيها سبحانك اللهم وورد فى الحديث انهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ويحتمل ان الله سبحانه وتعالى خصهم بخصائص فى الآخرة كما خصهم فى الدنيا بخصائص لم يخص بها غيرهم منها انه صلى الله عليه وسلم أخبر انه رآهم يلبون ويحجون فكذلك الصلاة والله أعلم بالحقائق قوله سبحانه وتعالى (وآتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة (وجعلناه) يعنى الكتاب (هدى لبنى اسرائيل ان لا تتخذوا) يعنى وقلنا لهم لا تتخذوا (من دونى وكيلا) يعنى ربا كفيلا (ذرية) يعنى يا ذرية (من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا) يعنى ان نوحا كان كثير الشكر وذلك انه كان اذا أكل طعاما أو شرب شرابا أو لبس ثوبا قال الحمد لله فسماه الله عبدا شكورا لذلك قوله عز وجل (وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب) يعنى أعلمناهم وأخبرناهم فيما آتيناهم من الكتاب انهم سيفسدون وهو قوله تعالى (لتفسدن فى الارض مرتين) وقال ابن عباس وقضينا عليهم فى الكتاب فالى بمعنى على والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ واللام فى لتفسدن لام القسم تقديره والله لتفسدن فى الارض يعنى بالمعاصى والمراد بالارض أرض الشام وبيت المقدس (ولتعلن) يعنى ولتستكبرن ولتظلمن الناس (علوا كبيرا فاذا جاء وعد أولاهما) يعنى أولى المرتين قيل افسادهم فى المرة الاولى هو ما خالفوا من أحكام التوراة وركبوا من المحارم وقيل افسادهم فى المرة الاولى قتلهم شعيبا فى الشجرة وارتكابهم المعاصى (بعثنا عليكم عبادا لنا) يعنى جالوت وجنوده وهو الذى قتله داود وقيل هو سنجاريب وهو من أهل نينوى وقيل هو بختنصر البابلى وهو الاصح (أولى بأس شديد) يعنى ذوى بطش وقوة فى الحرب (فجاسوا خلال الديار) يعنى طافوا بين الديار ووسطها يطلبونكم ليقتلوكم (وكان وعدا مفعولا) يعنى قضاء كائنا لا مرا لا خلف فيه (ثم رددنا لكم الكرة عليهم) يعنى رددنا لكم الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم من ذنوبكم ورجعتم عن الفساد (وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) يعنى أكثر عددا (ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم) يعنى لها ثوابها أو جزاء احسانها (وان أسأتم فلها) يعنى فعليها اساءتها (فاذا جاء وعد الآخرة) يعنى المرة الآخرة من افسادكم وهو قصدهم قتل عيسى فخلصه الله منهم ورفعه اليه وقتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام فسلط عليهم الفرس والروم فسبوهم وقتلوهم وهو قوله تعالى (ليسوؤا وجوهكم) يعنى ليحزنوكم وقرئ بالنون أى لنسوء الله وجوهكم (وليدخلوا المسجد) يعنى بيت المقدس ونواحيه (كما دخلوه أول مرة) يعنى وقت افسادهم الاول (وليتبروا ما علوا تتبيرا) يعنى وليهلكوا ما غلبوا عليه من بلاد بنى اسرائيل اهلاكا * ذكر القصة فى هذه الآيات قال محمد بن اسحاق كانت بنو اسرائيل فيهم الاحداث والذنوب وكان الله فى ذلك متجاوزا عنهم ومحسنا اليهم وكان اول ما نزل بهم بسبب ذنوبهم ان ملكا منهم كان يدعى صديقة وكان الله اذا ملك عليهم الملك بعث معه نبيا يسدده ويرشده ولا ينزل عليهم كتابا انما يؤمرون باتباع التوراة والاحكام التى فيها فلما ملك صديقة بعث الله معه شعياء وذلك قبل مبعث زكرياء ويحيى وشعياء هو الذى بشر بعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم فقال ابشرى أورشليم

الآن يأتيك راكب الحمار ومن بعده صاحب البعير فلك ذلك الملك يعنى صديقة بنى اسرائيل وبيت المقدس زمانا فلما انقضى ملكه عظمت الاحداث فيهم وكان معه شعياء فبعث الله سنجاريب ملك بابل ومعه ستمائة ألف راية فلم يزل سائرا حتى نزل حول بيت المقدس والملك مريض من قرحة كانت فى ساقه فجاء شعياء النبى اليه وقال ياملك بنى اسرائيل ان سنجاريب ملك بابل قد نزل بك هو وجنوده بستمائة ألف راية وقد هابهم الناس وفرقوا منهم فكبر ذلك على الملك وقال يانبى الله هل أتاك من الله وحى فيما حدث فتخبرنا به وكيف يفعل الله بنا وبسنجاريب وجنوده فقال شعياء لم يأتنى وحى فى ذلك فبينماهم على ذلك أوحى الله الى شعياء النبى ان ائت ملك بنى اسرائيل فمره ان يوصى وصية ويستخلف على ملكه من يشاء من أهل بيته فأتى شعياء ملك بنى اسرائيل وقال ان ربك قد اوحى الى ان آمرك ان توصى وصيتك وتستخلف من شئت على ملكك من اهل بيتك فانك ميت فلما قال ذلك شعياء لصديقة الملك أقبل على القبلة فصلى ودعا فقال وهو يبكى ويتضرع الى الله تعالى بقلب مخلص اللهم رب الارباب واله الآلهة ياقدوس يامتقدس يارحمن يارحيم يارؤف يامن لا تأخذه سنة ولا نوم اذكرنى بعملى وفعلى وحسن قضائى على بنى اسرائيل وذلك كله كان منك وانت اعلم به من سرى وعلانيتى لك فاستجاب الله له وكان عبدا صالحا فأوحى الله الى شعياء ان يخبر صديقة ان ربه قد استجاب له ورحمه وأخر اجله خمس عشرة سنة وانجاه من عدوه سنجاريب فأتاه شعياء وأخبره فلما قال له ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الحزن وخر ساجدا لله وقال الهى واله آبائى لك سجدت وسبحت وكبرت وعظمت انت الذى تعطى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء عالم الغيب والشهادة انت الاول والآخر والظاهر والباطن وانت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين انت الذى اجبت دعوتى ورحمت تضرعى فلما رفع راسه اوحى الله الى شعياء ان قل للملك صديقة فيأمر عبدا من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله على قرحته فيشفى فيصبح وقد برأ ففعل ذلك فشفى فقال الملك لشعياء سل ربك ان يجعل لنا علما بما هو صانع بعدونا هذا قال الله لشعياء قل له انى قد كفيتك عدوك وانجيتك منهم وانهم سيصبحون موتى كلهم الا سنجاريب وخمسة نفر من كتابه أحدهم بختنصر فلما اصبحوا جاء صارخ يصرخ على باب المدينة ياملك بنى اسرائيل ان الله قد كفاك عدوك فاخرج فان سنجاريب ومن معه هلكوا فخرج الملك والتمس سنجاريب فلم يوجد فى الموتى فبعث الملك فى طلبه فأدركه الطلب فى مغارة ومعه خمسة نفر من كتابه احدهم بختنصر فجعلوهم فى الجوامع ثم اتوا بهم الملك فلما رآهم خر ساجدا لله تعالى من حين طلعت الشمس الى العصر ثم قال لسنجاريب كيف رأيت فعل ربنا بكم الم يقتلكم بحوله وقوته ونحن وانتم غافلون فقال سنجاريب قد اتانى خبر ربكم ونصره اياكم ورحمته التى يرحمكم بها قبل ان اخرج من بلادى فلم اطع مرشدا ولم يلقنى فى الشقوة الا قلة عقلى ولو سمعت او عقلت ماغزوتكم فقال الملك صديقة الحمد لله رب العالمين الذى كفاناكم بما شاء وان ربنا لم يبقك ومن معك لكرامتك عليه ولكنه انما ابقاك ومن معك لتزدادوا شقوة فى الدنيا وعذابا فى الآخرة ولتخبروا من وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا بكم فتنذروا من بعدكم ولولا ذلك لقتلك ومن معك ولدمك ودم من معك اهون على الله من دم قراد لو قتلت ثم ان ملك بنى اسرائيل امر حرسه ان يقذف فى رقابهم الجوامع ففعل وطاف بهم سبعين يوما حول بيت المقدس وايلياء وكان يرزقهم فى كل يوم خبزين من شعير لكل رجل منهم فقال سنجاريب للملك صديقة القتل خير مما نحن فيه وما تفعل بنا فأمر بهم الى السجن فأوحى الله الى شعياء النبى ان قل لملك بنى اسرائيل يرسل سنجاريب ومن معه لينذروا من وراءهم وايكرمهم وليحملهم حتى يبلغوا بلادهم فبلغ ذلك شعياء الملك ففعل وخرج سنجاريب ومن معه حتى قدموا بابل فلما قدم جمع الناس فأخبرهم كيف فعل الله تعالى بجنوده فقال له كهانه وسحرته ياملك بابل قد كنا نقص عليك خبر ربهم وخبر نبيهم ووحى الله الى نبيهم فلم تطعنا وهى امة لا يستطيعها أحد مع ربهم وكان أمر سنجاريب تخويفا لبنى اسرائيل ثم كفاهم الله تعالى ذلك تذكرة وعبرة ثم ان سنجاريب لبث بعد

ذلك سبع سنين ثم مات واستخلف على ملكه بختنصر ابن ابنه فعمل بعمله وقضى بقضائه فلبث سبع عشرة سنة وقبض الله ملك بني اسرائيل صديقة فمرج أمر بني اسرائيل وتنافسوا الملك حتى قتل بعضهم بعضا وشعياء نبيهم معهم لا يقبلون منه فلما فعلوا ذلك قال الله لشعياء قم في قومك حتى أوحي على لسانك فلما قام أطلق الله لسانه بالوحي فقال يا سماء استمعي ويا أرض أنصتي فان الله يريد أن يقص شأن بني اسرائيل الذين رباهم بنعمته واصطفاهم لنفسه وخصهم بكرامته وفضلهم على عباده وهم كالغنم الضائعة التي لا راعي لها فآوى شاردتها وجمع ضالتها وجبر كسيرها وداوى مريضها واسمن مهزولها وحفظ سمينها فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها فقتل بعضها بعضا حتى لم يبق منها عظم صحيح يجبر اليه آخر فويل لهذه الامة الخاطئة الذين لا يدرون أنى جاءهم الحين ان البعير مما يذكر وطنه فينتابه وان الحمار مما يذكر الارى الذي يشبع عليه فيراجعه وان الثور مما يذكر المرج الذي سمن فيه فينتابه وان هؤلاء القوم لا يذكرون من حيث جاءهم الخير وهم أولو الالباب والعقول ليسوا ببقر ولا حمير واني ضارب لهم مثلا فليسمعوه قل كيف ترون في أرض كانت خرابا زمانا لا عمران فيها وكان لها رب حكيم قوي فأقبل عليها بالعمارة وكره ان تخرب أرضه وهو قوي أو يقال ضيع وهو حكيم فأحاط عليها جدارا وشيد فيها قصرا وأنبط فيها نهرا وصف فيها غراسا من الزيتون والرمان والنخيل والاعناب وألوان الثمار كلها وولى ذلك واستحفظه قيما ذا رأي وهمة حفيظا قويا أمينا فلما أطلعت جاء طلعها خروبا فقالوا بئست الارض هذه فنرى ان يهدم جدارها وقصرها ويدفن نهرها ويقبض قيمها ويحرق غراسها حتى تصير كما كانت أول مرة خرابا مواتا لا عمران فيها قال الله تعالى قل لهم الجدار ديني والقصر شريعتي وان النهر كتابي وان القيم نبيي وان الغراس هم وان الخروب الذي أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة واني قد قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم وانه مثل ضربته لهم يتقربون الي بذبح البقر والغنم وليس ينالني اللحم ولا آكله ويدعون ان يتقربوا الي بالتقوى والكف عن ذبح الانفس التي حرمتها وأيديهم مخضوبة منها وثيابهم متزملات بدمائها يشيدون لي البيوت مساجد ويطهرون أجوافها وينجسون قلوبهم وأجسادهم ويدنسونها ويزوقون لي المساجد ويزينونها ويخربون عقولهم وأخلاقهم ويفسدونها فأي حاجة الي تشييد البيوت ولست أسكنها وأي حاجة الي تزويق المساجد ولست أدخلها انما أمرت برفعها لاذكر وأسبح فيها يقولون صمنا فلم يرفع صيامنا وصلينا فلم تنور صلاتنا وتصدقنا فلم تزك صدقتنا ودعونا بمثل حنين الحمام وبكينا بمثل عواء الذئاب في كل ذلك لا يستجاب لنا قال الله فاسألهم ما الذي يمنعني ان أستجيب لهم ألست أسمع السامعين وأبصر الناظرين وأقرب المجيبين وأرحم الراحمين فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بقول الزور ويتقوون عليه بطعمة الحرام أم كيف أنور صلاتهم وقلوبهم صاغية الى من يحاربني ويحادني وينتهك محارمي أم كيف تزكو عندي صدقاتهم وهم يتصدقون بأموال غيرهم انما آجر عليها أهلها المغصوبين أم كيف أستجيب لهم دعاءهم وانما هو قولهم بألسنتهم والفعل من ذلك بعيد وانما أستجيب للداعي اللين وانما أستمع قول المستضعف المسكين وان من علامة رضائي رضا المساكين يقولون لما سمعوا كلامي وبلغتهم رسالتي انها أقاويل منقولة وأحاديث متواترة وتآليف مما تؤلف السحرة والكهنة وزعموا انهم لو شاؤا ان يأتوا بحديث مثله فعلوا ولو شاؤا ان يطلعوا على علم الغيب بما توحي اليهم الشياطين اطلعوا واني قد قضيت يوم خلقت السموات والارض قضاء أثبته وحتمته على نفسي وجعلت دونه أجلا مؤجلا لا بد انه واقع فان صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى أنفذه أو في أي زمان يكون وان كانوا يقدرون على ان يأتوا بما يشاؤن فليأتوا بمثل هذه القدرة التي بها أمضيت فاني مظهره على الدين كله ولو كره المشركون وان كانوا يقدرون على ان يؤلفوا ما يشاؤن فيؤلفوا مثل هذه الحكمة التي أدبر بها ذلك القضاء ان كانوا صادقين واني قد قضيت يوم خلقت السماء والارض ان أجعل النبوة في الاجراء وان أجعل الملك في الرعاء والعز في الاذلاء والقوة في الضعفاء والغنى في الفقراء والعلم في الجهلة والحكمة في الاميين

فسلبهم

فسلهم متى هذا ومن القائم بهذا ومن اعوان هذا الامر وانصاره ان كانوا يعلمون وانى باعث لذلك نبيا امّيا ليس أعمى من عميان ولا ضالا من ضالين وليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الاسواق ولا متزين بالفحش ولا قوال للخنا اسدده بكل جميل واهب له كل خلق كريم اجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة معقوله والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والعدل سيرته والحق شريعته والهدى امامه والاسلام ملته واحمد اسمه اهدى به بعد الضلالة واعلم به بعد الجهالة وارفع به بعد الخمالة وأشهر به بعد النكرة واكثر به بعد القلة واغنى به بعد العيلة واجمع به بعد الفرقة واؤلف به بين قلوب مختلفة واهواء مشتتة وامم متفرقة واجعل امته خير امة اخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر توحيدا لى وايمانا بى واخلاصا لى يصلون قياما وقعودا وركعا وسجودا ويقاتلون فى سبيلى صفوفا وزحوفا ويخرجون من ديارهم واموالهم ابتغاء مرضاتى الهمهم التكبير والتوحيد والتسبيح والتحميد والتهليل والمدحة والتمجيد لى فى مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومتقلبهم ومثواهم يكبرون ويهللون ويقدسون على رؤس الاشراف يطهرون لى الوجوه والاطراف ويعقدون لى الثياب على الانصاف قربانهم دماؤهم واناجيلهم فى صدورهم رهبان بالليل ليوث بالنهار ذلك فضلى اوتيه من اشاء وانا ذو الفضل العظيم فلما فرغ شعياء من مقالته عدوا عليه ليقتلوه فهرب منهم فلقيته شجرة فانفلقت له فدخل فيها فادركه الشيطان فاخذ بهدبة من ثوبه فأراهم اياها فوضعوا المنشار فى وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه فى وسطها واستخلف الله على بنى اسرائيل بعد ذلك رجلا منهم يقال له ناشية بن اموص وبعث لهم ارمياء بن خلقيا نبيا وكان من سبط هارون بن عمران وذكر ابن اسحاق انه الخضر واسمه أرمياء سمى الخضر لانه جلس على فروة بيضاء فقام عنها وهى تهتز خضراء فبعث الله أرمياء الى ذلك الملك ليسدده ويرشده ثم عظمت الاحداث فى بنى اسرائيل وركبوا المعاصى واستحلوا المحارم فأوحى الله الى أرمياء ان ائت قومك من بنى اسرائيل فاقصص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمى وعرفهم باحداثهم فقال أرمياء يارب انى ضعيف ان لم تقونى عاجز ان لم تبلغنى مخذول ان لم تنصرنى قال الله تعالى اولم تعلم ان الامور كلها تصدر عن مشيئتى وان القلوب والالسنة بيدى اقلبها كيف شئت انى معك ولن يصل اليك شئ معى فقام ارمياء فيهم ولم يدر ما يقول فالهمه الله عز وجل فى الوقت خطبة بليغة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية وقال فى آخرها عن الله عز وجل وانى حلفت بعزتى لاقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحليم ولاسلطن عليهم جبارا قاسيا البسه الهيبة وانزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم ثم أوحى الله الى ارمياء انى مهلك بنى اسرائيل بيافث ويافث من أهل بابل فسلط الله عليهم بختنصر فخرج فى ستمائة ألف راية ودخل بيت المقدس بجنوده ووطئ الشام وقتل بنى اسرائيل حتى أفناهم وخرب بيت المقدس وأمر جنوده ان يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا ثم يقذفه فى بيت المقدس ففعلوا ذلك حتى ملؤه ثم أمرهم ان يجمعوا من فى بلدان بيت المقدس كلهم فاجتمع عنده كل صغير وكبير من بنى اسرائيل فاختار منهم سبعين ألف صبى فلما خرجت غنائم جنده واراد ان يقسمها فيهم قالت له الملوك الذين كانوا معه أيها الملك لك غنائمنا كلها واقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بنى اسرائيل فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمان وفرق من بقى من بنى اسرائيل ثلاث فرق ثلثا اقرهم بالشام وثلثا سباهم وثلثا قتلهم وذهب بآنية بيت المقدس وبالصبيان السبعين الالف حتى أقدمهم بابل فكانت هذه الوقعة الاولى التى أنزل الله عز وجل ببنى اسرائيل بظلمهم فذلك قوله سبحانه وتعالى فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد يعنى بختنصر واصحابه ثم ان بختنصر أقام فى سلطانه ماشاء الله ثم رأى رؤيا عجيبة اذ رأى شيئا اصابه فانساه الذى رأى فدعا دانيال وحنانيا وعزاريا وميشائيل وكانوا من ذرارى الانبياء وسألهم عنها فقالوا أخبرنا بها نخبرك بتأويلها فقال ما أذكرها ولئن لم تخبرونى بها وبتأويلها لانزعن اكتافكم فخرجوا من عنده

فدعوا الله وتضرعوا اليه فأعلمهم الله بالذي سألهم عنه فجاؤه فقالوا رأيت تمثالا قدماه وساقاه من فخار
وركبتاه وفخذاه من نحاس وبطنه من فضة وصدره من ذهب ورأسه وعنقه من حديد قال صدقتم
قالوا فبينما انت تنظر اليه وقد أعجبك ارسل الله صخرة من السماء فدقته فهي التي انستكها قال صدقتم
فما تأويلها قالوا تأويلها انك رأيت الملوك بعضهم كان ألين ملكا وبعضهم كان احسن ملكا وبعضهم كان
أشد ملكا والفخار أضعفه ثم فوقه النحاس اشد منه ثم فوق النحاس الفضة أحسن من ذلك وافضل
والذهب احسن من الفضة وافضل ثم الحديد ملكك فهو أشد واعز مما قبله والصخرة التي رأيت ارسل
الله من السماء فدقته فنبي يبعثه الله من السماء فيدق ذلك اجمع ويصير الامر اليه ثم ان اهل بابل قالوا
لبختنصر أرأيت هؤلاء الغلمان من بني اسرائيل الذين سألناك ان تعطيناهم ففعلت فانا قد أنكرنا نساءنا
منذ كانوا معنا لقد رأينا نساءنا انصرفت وجوههن عنا اليهم فأخرجهم من بين اظهرنا أو اقتلهم فقال شأنكم
بهم فمن احب منكم أن يقتل من كان في يده فليفعل فلما قربوهم للقتل بكوا وتضرعوا الى الله عز وجل
وقالوا يا ربنا اصابنا البلاء بذنوب غيرنا فوعدهم الله ان يحييهم فقتلوا الا من كان منهم مع بختنصر منهم
دانيال وحنانيا وعزاريا وميشائيل ثم لما أراد الله تعالى هلاك بختنصر انبعث فقال لمن في يده من بني
اسرائيل أرأيتم هذا البيت الذي خربت والناس الذين قتلت منكم وما هذا البيت قالوا هو بيت الله وهؤلاء
اهله كانوا من ذراري الانبياء فظلموا وتعدوا فسلطت عليهم بذنوبهم وكان ربهم رب السموات والارض
ورب الخلائق كلهم يكرمهم ويعزهم فلما فعلوا ما فعلوا اهلكهم وسلط عليهم غيرهم فاستكبر وتجبر وظن انه
بجبروته فعل ذلك ببني اسرائيل قال فأخبروني كيف لي ان اطلع الى السماء العليا فاقتل من فيها واتخذها
لي ملكا فاني قد فرغت من اهل الارض قالوا ما يقدر عليها احد من الخلائق قال لتفعلن اولا قتلتكم عن
آخركم فبكوا وتضرعوا الى الله تعالى فبعث الله عز وجل عليه بقدرته بعوضة فدخلت منخره حتى عضت
ام دماغه فما كان يقر ولا يسكن حتى يوجأ له رأسه على ام دماغه فلما مات شقوا رأسه فوجدوا البعوضة
عاضة على ام دماغه ليري الله العباد قدرته ونجى الله من بقي من بني اسرائيل في يده وردهم الى الشام
فبنوا فيه وكثروا حتى كانوا على احسن ما كانوا عليه ويزعمون ان الله سبحانه وتعالى احيا اولئك الذين
قتلوا فلحقوا بهم ثم انهم لما دخلوا الشام دخلوها وليس معهم من الله عهد كانت التوراة قد احترقت
وكان عزير من السبايا الذين كانوا ببابل فلما رجع الى الشام جعل يبكي ليله ونهاره وخرج عن الناس
فبينما هو كذلك اذ جاءه رجل فقال له يا عزير ما يبكيك قال ابكي على كتاب الله وعهده الذي كان بين
اظهرنا الذي لا يصلح ديننا وآخرتنا غيره قال أفتحب ان يرد اليك قال نعم ارجع فصم وتطهر وطهر ثيابك
ثم موعدك هذا المكان غدا فرجع عزير فصام وتطهر وطهر ثيابه ثم عمد الى المكان الذي وعده فجلس
فيه فأتاه ذلك الرجل باناء فيه ماء وكان ملكا بعثه الله اليه فسقاه من ذلك الاناء فمثلت التوراة في صدره
فرجع الى بني اسرائيل فوضع لهم التوراة فأحبوه حبا لم يحبوا حبه شيئا قط ثم قبضه الله تعالى وحدثت
بنو اسرائيل بعد ذلك يحدثون الاحداث ويعود الله عليهم ويبعث فيهم الرسل ففريقا يكذبون وفريقا
يقتلون حتى كان آخر من بعث اليهم من انبيائهم زكرياء ويحيى وعيسى عليهم السلام وكانوا من بيت آل
داود فزكرياء مات وقيل قتل وقصدوا عيسى ليقتلوه فرفعه الله من بين اظهرهم وقتلوا يحيى فلما فعلوا
ذلك بعث الله عليهم ملكا من ملوك بابل يقال له خردوش فسار اليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام
فلما ظهر عليهم امر رأسا من رؤساء جنوده يقال له بيورزاذان صاحب القتل فقال له اني قد كنت حلفت
بالهي لئن أنا ظهرت على أهل بيت المقدس لاقتلنهم حتى يسيل الدم في وسط عسكري الا ان لا اجد أحدا
اقتله فأمره ان يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم ثم ان بيورزاذان دخل بيت المقدس فقام في البقعة التي
كانوا يقربون فيها قربانهم فوجد فيها دما يغلي فسألهم عنه فقال يا بني اسرائيل ما شأن هذا
الدم يغلي أخبروني خبره فقالوا هذا دم قربان لنا قربناه فلم يقبل منا فلذلك يغلي ولقد قربنا القربان
من ثمانمائة سنة فتقبل منا الا هذا فقال ما صدقتموني فقالوا لو كان كأول زماننا لتقبل منا ولكن

قد انقطع منـا الملك والنبوة والوحى فلذلك لم يقبـل منـا فذبح بيورزاذان منهم على ذلك الدم سبعمائة وسبعين روحا من رؤسهم فلم يهدأ الدم فأمر بسبعمائة غلام من علمائهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ فأمر بسبعة آلاف من شيعهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ فلما رأى بيورزاذان ان الدم لا يهدأ قال لهم يابنى اسرائيل ويلكم أصدقونى واصبروا على امر ربكم فقد طال ماملكتم فى الارض تفعلون ماشئتم قبل ان لا أترك منكم نافخ نار من ذكر ولا أنثى الا قتلته فلما رأوا الجهد وشدة القتل صدقوه الخبر وقالوا ان هذا دم نبى كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله تعالى فلو كنا أطعناه كان أرشدنا وكان يخبرنا عن أمركم فلم نصدقه فقتلناه فهذا دمه فقال لهم بيورزاذان ما كان اسمه قالوا يحيى بن زكريا فقال الآن صدقتمونى لمثل هذا ينتقم ربكم منكم فلما علم بيورزاذان انهم صدقوه خر ساجدا وقال لمن حوله اغلقوا أبواب المدينة وأخرجوا من كان ههنا من جيش خردوش وخلا فى بنى اسرائيل ثم قال يا يحيى بن زكريا قد علم ربى وربك ما أصاب قومك من أجلك ومن قتل منهم فاهدأ باذن ربك قبل ان لا أبقى من قومك أحدا الا قتلته فهدأ الدم باذن الله تعالى ورفع بيورزاذان عنهم القتل وقال آمنت بما آمنت به بنو اسرائيل وأيقنت انه لا رب غيره وقال لبنى اسرائيل ان خردوش أمرنى ان اقتل منكم حتى يسيل دماؤكم وسط عسكره وانى لا استطيع ان أعصيه قالوا له افعل ما أمرت به فأمرهم فحفروا خندقا وأمرهم بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والابل والبقر والغنم فذبحها حتى سال الدم فى العسكر وأمر بالقتلى الذين قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ماقتل من المواشى فلم يظن خردوش الا ان مافى الخندق من دماء بنى اسرائيل فلما بلغ الدم عسكره أرسل الى بيورزاذان ان ارفع عنهم القتل ثم انصرف الى بابل وقد أفنى بنى اسرائيل او كاد ان يفنيهم وهى الوقعة الاخيرة التى أنزل الله ببنى اسرائيل فى قوله لتفسدن فى الارض مرتين فكانت الوقعة الاولى بختنصر وجنوده والاخرى خردوش وجنوده وكانت اعظم الوقعتين فلم تقم لهم بعد ذلك راية وانتقل الملك بالشأم ونواحيها الى الروم واليونانيين الا ان بقايا بنى اسرائيل كثروا وكانت لهم الرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك وكانوا فى نعمة الى ان بدلوا وأحدثوا الاحداث فسلط الله عليهم ططوس ابن اسبيانوس الرومى فخرب بلادهم وطردهم عنها ونزع الله عنهم الملك والرياسة وضربت عليهم الذلة والمسكنة فـليسوا فى امة الا وعليهم الصغار والجزية وبقى بيت المقدس خرابا الى خلافة عمر بن الخطاب فعمره المسلمون بأمره وقيل فى سبب قتل يحيى عليه السلام ان ملك بنى اسرائيل كان يكرمه ويدنى مجلسه وان الملك هوى بنت امرأته وقال ابن عباس ابنة اخيه فسأل يحيى تزويجها فنهاه عن نكاحها فبلغ ذلك امها فحقدت على يحيى وعمدت حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثيابا رقاقا حمرا وطيبتها والبستها الحلى وارسلتها الى الملك وامرتها ان تسقيه فان هو راودها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ماسألته فاذا اعطاها ماسألت سألت رأس يحيى وان يؤتى به فى طست ففعلت فلما راودها قالت لا أفعل حتى تعطينى ما أسألك قال فما تسألينى قالت رأس يحيى بن زكريا فى هذا الطست فقال ويحك سلينى غير هذا قالت ما اريد غير هذا فلما ابت عليه بعث فأتى برأسه حتى وضع بين يديه والرأس يتكلم يقول لا يحل لك فلما اصبح اذا دمه يغلى فأمر بتراب فألقى عليه فرقى الدم يغلى فلا زال يغلى ويلقى عليه التراب وهو يغلى حتى بلغ سور المدينة وهو فى ذلك يرقى ويغلى وسلط الله عليهم ملك بابل فخرب بيت المقدس وقتل سبعين الفا حتى سكن قوله عز وجل (عسى ربكم أن يرحمكم) يعنى يابنى اسرائيل بعد انتقامه منكم فيرد الدولة اليكم (وان عدتم) أى الى المعصية (عدنا) أى الى العقوبة قال قتادة فعادوا فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم عليهم فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) أى سجنا ومحبسا من الحصر الذى هو محبس الحبس وقيل فراشا من الحصير الذى يبسط ويفرش قوله تعالى (ان هذا القرآن يهدى للتى هى اقوم) أى الى الطريقة التى هى اصوب وقيل الى الكلمة التى هى اعدل وهى شهادة ان لا اله الا الله (ويبشر) يعنى القرآن (المؤمنين الذين يعملون الصالحات

(عسى ربكم أن يرحمكم) بعد المرة الثانية ان تبتم توبة اخرى وانزجرتم عن المعاصى (وان عدتم) مرة ثالثة (عدنا) الى عقوبتكم وقد عادوا فاعاد الله عليهم النقمة بتسليط الاكاسرة وضرب الاتاوة عليهم وعن ابن عباس رضى الله عنهما سلط عليهم المؤمنون الى يوم القيامة (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) محبسا يقال للسجن محصر وحصير (ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) للحالة التى هى أقوم الحالات واسدها وهى توحيد الله والايمان برسله والعمل بطاعته او للملة او للطريقة (و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) ويبشر حمزة وعلى

(ان لهم) بان لهم (اجرا كبيرا) اى الجنة (وأن الذين) وبأن الذين (لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا) اى اعددنا قلبت تاء (لهم عذابا اليما) يعنى النار والآية ترد القول بالمنزلة بين المنزلتين حيث ذكر المؤمنين وجزاءهم والكافرين وجزاءهم ولم يذكر الفسقة (ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير) اى ويدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه واهله وماله وولده كما يدعوه لهم بالخير أو يطلب النفع العاجل وان قل بالضرر الآجل وان جل (وكان الانسان عجولا) يتسرع الى طلب كل ما يقع فى قلبه ويخطر بباله لا يتأنى فيه تأنى المتبصر او اريد بالانسان الكافر وانه يدعو بالعذاب استهزاء ويستعجل به كما يدعو بالخير اذا مسته الشدة وكان الانسان عجولا يعنى ان العذاب آتيه لا محالة فما هذا الاستعجال وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو النضر بن الحارث قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الآية فأجيب فضربت عنقه صبرا وسقوط الواو من يدع فى الخط على موافقة اللفظ (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) اى الليل والنهار آيتان فى انفسهما فتكون الاضافة فى آية الليل وآية النهار للتبيين كاضافة العدد الى المعدود اى فمحونا الآية التى هى الليل وجعلنا الآية التى هى النهار مبصرة او وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر فمحونا آية الليل التى هى القمر حيث لم يخلق له شعاعا كشعاع الشمس فترى الاشياء به رؤية بينة وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر فى ضوئها كل شئ (لتبتغوا فضلا من ربكم) لتتوصلوا ببياض النهار الى التصرف فى معايشكم (ولتعلموا) باختلاف الجديدين (عدد السنين والحساب) يعنى حساب الآجال ومواسم الاعمال ولو كانا مثلين لما عرف الليل من النهار ولا استراح حراص المكتسبين والتجار (وكل شئ) مما تفتقرون اليه فى دينكم ودنياكم (فصلناه تفصيلا) بيناه بيانا غير ملتبس فأزحنا عللكم وما تركنا لكم حجة علينا (وكل انسان ألزمناه طائره) عمله (فى عنقه) يعنى ان عمله لازم له لزوم القلادة او الغل للعنق لا يفك عنه (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه) هو صفة لكتابا يلقاه شامى (منشورا) حال من يلقاه يعنى غير مطوى لتمكنه قراءته أو هما صفتان للكتاب ويقول له (اقرأ كتابك) اى كتاب اعمالك وكل يبعث قارئا (كفى بنفسك اليوم عليك) الباء زائدة اى كفى نفسك (حسيبا) تمييز وهو بمعنى حاسب وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا او بمعنى الكافى وضع موضع الشهيد فعدى بعلى لان الشاهد يكفى المدعى ما أهمه وانما ذكر حسيبا لانه بمنزلة الشهيد والقاضى والامير اذ الغالب ان يتولى هذه الامور الرجال فكأنه قيل كفى نفسك رجلا حسيبا او تؤول النفس بالشخص

ان لهم اجرا كبيرا) يعنى الجنة (وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا اليما) يعنى النار فى الآخرة (ويدع الانسان) أى على نفسه وماله وولده (بالشر) يعنى قوله عند الغضب اللهم اهلكه اللهم العنه ونحو ذلك (دعاءه بالخير) أى كدعائه ربه ان يهب له النعمة والعافية ولو استجاب الله دعاءه على نفسه لهلك ولكن الله لا يستجيب بفضله وكرمه (وكان الانسان عجولا) أى بالدعاء على ما يكره ان يستجاب له فيه وقال ابن عباس معناه ضجرا لا صبر له على سراء ولا ضراء قوله سبحانه وتعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين) أى علامتين دالتين على وحدانيتنا وقدرتنا وفى معنى الآية قولان احدهما ان يكون المراد من الآيتين نفس الليل والنهار وهو انه جعلهما دليلين للخلق على مصالح الدنيا والدين اما فى الدين فلان كل واحد منهما مضاد للآخر مغاير مع كونهما متعاقبين على الدوام ففيه دليل على ان لهما مدبرا يدبرهما ويقدرهما بالمقادير المخصوصة واما فى الدنيا فلان مصالح العباد لا تتم الا بهما ففى الليل يحصل السكون والراحة وفى النهار يحصل التصرف فى المعاش والكسب والقول الثانى ان يكون المراد وجعلنا نيرى الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر (فمحونا آية الليل) أى جعلنا الليل ممحو الضوء مطموسا مظلما لا يستبان فيه شئ (وجعلنا آية النهار مبصرة) أى يبصر فيه الاشياء رؤية بينة قال ابن عباس جعل الله نور الشمس سبعين جزءا ونور القمر كذلك فمحا من نور القمر تسعة وتسعين جزءا فجعلها مع نور الشمس وحكى ان الله أمر جبريل فامر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقى فيه النور وسأل ابن الكواء عليا عن السواد الذى فى القمر فقال هو اثر المحو (لتبتغوا فضلا من ربكم) أى لتتوصلوا ببياض النهار الى استبانة اعمالكم والتصرف فى معايشكم (ولتعلموا) أى باختلاف الليل والنهار (عدد السنين والحساب) أى ما تحتاجون اليه منه ولولا ذلك لما علم احد حساب الاوقات ولتعطلت الامور ولو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولم يدر الصائم متى يفطر ولم يعرف وقت الحج ولا وقت حلول الديون المؤجلة واعلم ان الحساب يبنى على اربع مراتب الساعات والايام والشهور والسنين فالعدد للسنين والحساب لما دونها من الشهور والايام والساعات وليس بعد هذه المراتب الاربعة الا التكرار (وكل شئ فصلناه تفصيلا) يعنى وكل شئ تفتقرون اليه من امر دينكم ودنياكم قد بيناه بيانا شافيا واضحا غير ملتبس قيل انه سبحانه وتعالى لما ذكر أحوال آيتى الليل والنهار وهما من وجه دليلان قاطعان على التوحيد ومن وجه آخر نعمتان من الله تعالى على اهل الدنيا وكل ذلك تفضل منه فلا جرم قال وكل شئ فصلناه تفصيلا قوله عز وجل (وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه) قال ابن عباس عمله وما قدر عليه فهو ملازمه اينما كان وقيل خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به وقيل ما من مولود الا وفى عنقه ورقة مكتوب فيها شقى أو سعيد وقيل اراد بالطائر ما قضى عليه انه عامله وما هو صائر اليه من سعادة او شقاوة وقيل هو من قولك طار له سهم اذا خرج يعنى الزمناه ما طار له من عمله لزوم القلادة أو الغل لا ينفك عنه والعنق فى قوله فى عنقه كناية عن اللزوم كما يقال جعلت هذا فى عنقك أى قلدتك هذا العمل والزمتك الاحتفاظ به وانما خص العنق من بين سائر الاعضاء لانه موضع القلائد والاطواق مما يزين أو يشين فان كان عمله خيرا كان له كالقلادة أو الحلى فى العنق وهو ما يزينه وان كان عمله شرا كان له كالغل فى عنقه وهو ما يشينه ويخرج له بقوله تبارك وتعالى (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) قيل بسطت للانسان صحيفتان ووكل به ملكان يحفظان عليه حسناته وسيئاته فاذا مات طويت الصحيفتان وجعلتا معه فى عنقه فلا تنشران الى يوم القيامة (اقرأ كتابك) أى يقال له اقرأ كتابك قيل يقرأ يوم القيامة من لم يكن قارئا (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) أى محاسبا قال الحسن لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك وقيل

يقول الكافر انك لست بظلام للعبيد فاجعلني احاسب نفسي فيقال له اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا قوله سبحانه وتعالى (من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) يعني ان ثواب العمل الصالح مختص بفاعله وعقاب الذنب مختص بفاعله أيضا ولا يتعدى منه الى غيره وهو قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي لا تحمل حاملة ثقل اخرى من الآثام ولا يؤاخذ احد بذنب احد بل كل احد مختص بذنبه (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) لاقامة الحجة وقطعا للعذر وفيه دليل على ان ما وجب انما وجب بالسمع لا بالعقل قوله سبحانه وتعالى (واذا اردنا أن نهلك قرية امرنا مترفيها) في معنى الآية قولان احدهما ان المراد منه الامر بالفعل ثم ان لفظ الآية يدل على انه تعالى يأمرهم فقال اكثر المفسرين معناه انه تعالى امرهم بالاعمال الصالحة وهي الايمان والطاعة وفعل الخير والقوم خالفوا ذلك الامر وفسقوا والقول الثاني امرنا مترفيها أي كثرنا فساقها يقال امر القوم اذا كثروا وأمرهم الله اذا كثرهم ومنه الحديث خير المال مهرة مأمورة أي كثيرة النتاج والنسل فعلى هذا قوله تعالى امرنا ليس من الامر بالفعل والمترف هو الذي ابطرته النعمة وسعة العيش (ففسقوا فيها) أي خرجوا عما امرهم الله به من الطاعة (فحق عليها القول) اي وجب عليها العقاب (فدمرناها تدميرا) أي اهلكناها اهلاك استئصال والدمار الهلاك والخراب (ق) عن أم المؤمنين زينب بنت جحش ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق باصبعيه الابهام والتي تليها قالت زينب قلت يارسول الله نهلك وفينا الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث قوله ويل للعرب ويل كلمة تقال لمن وقع في هلكة أو اشرف ان يقع فيها وقوله اذا كثر الخبث أي الشر قوله تعالى (وكم اهلكنا من القرون) أي المكذبة (من بعد نوح) وهم عاد وثمود وغيرهم من الامم الخالية يخوف الله بذلك كفار قريش قال عبد الله بن أبي اوفى القرن عشرون ومائة سنة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في اول قرن ويزيد ابن معاوية في آخره وقيل القرن مائة سنة وروي عن محمد بن القاسم عن عبد الله بن بشر المازني ان النبي صلى الله عليه وسلم وضع يده على رأسه وقال سيعيش هذا الغلام قرنا قال محمد بن القاسم ما زلنا نعد له حتى تمت له مائة سنة ثم مات وقيل القرن ثمانون سنة وقيل اربعون (وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) يعني انه عالم بجميع المعلومات راء لجميع المرئيات لا يخفى عليه شيء من احوال الخلق قوله عز وجل (من كان يريد العاجلة) أي الدار العاجلة يعني الدنيا (عجلنا له فيها ما نشاء) أي من البسط او التقتير (لمن نريد) ان نفعل به ذلك او اهلاكه وقيل في معنى الآية عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد أي القدر الذي نشاء نعجله له في الدنيا لا الذي يشاء هو ولمن نريد ان نعجل له شيئا قدرناه له وهذا ذم لمن اراد بعمله ظاهر الدنيا ومنفعتها وبيان ان من ارادها لا يدرك منها الا ما قدر له (ثم جعلنا له) أي في الآخرة (جهنم يصلاها) أي يدخلها (مذموما مدحورا) أي مطرودا مبعدا قوله سبحانه وتعالى (ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها) أي عمل لها عملها (وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكورا) أي مقبولا قيل في الآية ثلاث شرائط في كون السعي مشكورا ارادة الآخرة بعمله بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور والسعي فيما كلف من الفعل والترك والايمان الصحيح الثابت وعن بعض السلف الصالح من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا هذه الآية قوله عز وجل (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء) اي نمد كلا الفريقين من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة (من عطاء ربك)

(من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها) اي فلها ثواب الاهتداء وعليها وبال الضلال (ولا تزر وازرة وزر اخرى) اي كل نفس حاملة وزرا فانما تحمل وزرها لا وزر نفس أخرى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وما صح منا ان نعذب قوما عذاب استئصال في الدنيا الا بعد ان نرسل اليهم رسولا يلزمهم الحجة (واذا أردنا أن نهلك قرية) أي اهل قرية (أمرنا مترفيها) متنعميها وجبابرتها بالطاعة عن أبي عمرو والزجاج (ففسقوا فيها) أي خرجوا عن الامر كقولك أمرته فعصى أو أمرنا كثرنا دليله قراءة يعقوب آمرنا ومنه الحديث خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أي كثيرة النسل (فحق عليها القول) فوجب عليها الوعيد (فدمرناها تدميرا) فاهلكناها اهلاكا (وكم) مفعول (اهلكنا من القرون) بيان لكم (من بعد نوح) يعني عادا وثمود وغيرهما (وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا) وان أخفوها في الصدور (بصيرا) وان أرخوا عليها الستور (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء) لا ما يشاء (لمن نريد) بدل من له باعادة الجار وهو بدل البعض من الكل اذ الضمير يرجع الى من أي من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد فقيد المعجل بمشيئته والمعجل له بارادته وهكذا الحال ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون الا بعضا منه وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة واما المؤمن التقي فقد اختار غنى الآخرة فان أوتي حظا من الدنيا فبها والا فربما كان الفقر خيرا له (ثم جعلنا له جهنم) في الآخرة (يصلاها) يدخلها (مذموما) ممقوتا (مدحورا) مطرودا من رحمة الله (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها) هو مفعول به أي حقها من السعي وكفاءها من الاعمال الصالحة (وهو مؤمن) مصدق لله في وعده ووعيده (فاولئك كان سعيهم مشكورا) مقبولا عند الله مثابا عليه عن بعض السلف من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلا الآية فانه شرط فيها ثلاث شرائط في كون السعي مشكورا ارادة الآخرة والسعي فيما كلف والايمان الثابت (كلا) كل واحد من الفريقين والتنوين عوض عن المضاف اليه وهو منصوب بقوله (نمد هؤلاء) بدل من كلا أي نمد هؤلاء (وهؤلاء) اي من أراد العاجلة ومن أراد الآخرة (من عطاء ربك) رزقه ومن تتعلق بنمد والعطاء اسم للمعطى أي نزيدهم من عطائنا ونجعل الآنف منه مددا للسالف لا نقطعه فنرزق المطيع والعاصي جميعا على وجه التفضل

(وما كان عطاء ربك محظورا) ممنوعا عن عباده وان عصوا (انظر) بعين الاعتبار (كيف فضلنا بعضهم على بعض) فى المال والجاه والسعة والكمال (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) روى ان قوما من الاشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضى الله عنه فخرج الاذن لبلال وصهيب فشق على أبى سفيان فقال سهيل بن عمرو انما أتينا من قبلنا انهم دعوا ودعينا يعنى الى الاسلام فأسرعوا وأبطأنا وهذا باب عمر فكيف التفاوت فى الآخرة ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم فى الجنة أكثر (لا تجعل مع الله الها آخر) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته (فتقعد مذموما مخذولا) فتصير جامعا على نفسك الذم والخذلان وقيل مشتوما بالاهانة محروما عن الاعانة اذ الخذلان ضد النصر والعون دليله قوله تعالى ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده حيث ذكر الخذلان بمقابلة النصر (وقضى ربك) وأمر أمرا مقطوعا به (أن لا تعبدوا الا اياه) ان مفسرة ولا تعبدوا نهى او بان لا تعبدوا (وبالوالدين احسانا) وأحسنوا بالوالدين احسانا أو بان تحسنوا بالوالدين احسانا (اما يبلغن عندك الكبر) اما هى ان الشرطية زيدت عليها ما تأكيدا لها ولذا دخلت النون المؤكدة فى الفعل ولو افردت ان لم يصح دخولها لا تقول ان تكرمن زيدا يكرمك ولكن اما تكرمنه (احدهما) فاعل يبلغن وهو فى قراءة حمزة وعلى يبلغان بدل من الف الضمير الراجع الى الوالدين (أو كلاهما) عطف على أحدهما فاعلا وبدلا (فلا تقل لهما أف) مدنى وحفص اف مكى وشامى اف غيرهم وهو صوت يدل على تضجر فالكسر على أصل التقاء الساكنين والفتح للتخفيف والتنوين لارادة التنكير أى أتضجر تضجرا وتركه لقصد التعريف أى أتضجر التضجر المعلوم (ولا تنهرهما) ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك والنهى والنهر اخوان (وقل لهما) بدل التأفيف والنهر (قولا كريما) جميلا لينا كما يقتضيه حسن الادب أو هو أن يقول يا أبتاه يا أماه ولا يدعوهما باسمائهما فانه من الجفاء ولا بأس به فى غير وجهه كما قالت عائشة رضى الله عنها نحلنى أبو بكر كذا وفائدة عندك انهما اذا صارا كلا على ولدهما ولا كافل لهما غيره فهما عنده فى بيته وكنفه وذلك أشق عليه فهو مأمور بان يستعمل معهما لين الخلق حتى لا يقول لهما اذا أضجره ما يستقذر منهما اف فضلا عما يزيد عليه ولقد بالغ سبحانه فى التوصية بهما حيث افتتحها مقترنا بان شفع الاحسان اليهما بتوحيده ثم ضيق الامر فى مراعاتهما حتى لم يرخص فى ادنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد يصبر الانسان معها (واخفض لهما جناح الذل) أى اخفض لهما جناحك كما قال واخفض جناحك للمؤمنين فاضافه الى الذل كما أضيف حاتم الى الجود والمعنى واخفض لهما جناحك الذليل (من الرحمة) من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم الى من كان افقر خلق الله اليهما بالامس وقال الزجاج والن جانبك متذللا لهما من مبالغتك فى الرحمة لهما

يعنى برزقهما جميعا ثم يختلف الحال بهما فى المآل (وما كان عطاء ربك محظورا) اى ممنوعا عن عباده والمراد بالعطاء العطاء فى الدنيا اذ لاحظ للكافر فى الآخرة (انظر) يا محمد (كيف فضلنا بعضهم على بعض) أى فى الرزق والعمل يعنى طالب العاجلة وطالب الآخرة (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) يعنى ان تفاضل الخلق فى درجات منافع الدنيا محسوس فتفاضلهم فى درجات منافع الآخرة أكبر واعظم فان نسبة التفاضل فى درجات الآخرة الى التفاضل فى درجات الدنيا كنسبة الآخرة الى الدنيا فاذا كان الانسان تشتد رغبته فى طلب الدنيا فلأن تقوى وتشتد رغبته فى طلب الآخرة اولى لانها دار المقامة قوله تعالى (لا تجعل مع الله الها آخر) الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد غيره وقيل معناه لا تجعل ايها الانسان مع الله الها آخر وهذا اولى (فتقعد مذموما) أى من غير حمد (مخذولا) أى بغير ناصر قوله سبحانه وتعالى (وقضى ربك) أى وأمر ربك قاله ابن عباس وقيل معناه وأوجب ربك وقيل معناه الحكم والجزم وقيل ووصى ربك وحكى عن الضحاك انه قرأها ووصى ربك وقال انهم الصقوا الواو بالصاد فصار قاف وهى قراءة على وابن مسعود قال الامام فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير هذا القول بعيد جدا لانه يفتح باب أن التحريف والتغيير قد تطرق الى القرآن ولو جوزنا ذلك لارتفع الامان على القرآن وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك انه طعن عظيم فى الدين (ان لا تعبدوا الا اياه) فيه وجوب عبادة الله والمنع من عبادة غيره وهذا هو الحق لان العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق الا بمن له الانعام والافضال على عباده ولا منعم الا الله فكان هو المستحق للعبادة لا غيره (وبالوالدين احسانا) أى وأمر بالوالدين احسانا أى برا بهما وعطفا عليهما واحسانا اليهما (اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) معناه أنهما يبلغان الى حالة الضعف والعجز فيصيران عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أول العمر واعلم ان الله سبحانه وتعالى لما ذكر هذه الجملة كلف الانسان فى حق الوالدين خمسة أشياء الاولى قوله تعالى (فلا تقل لهما أف) وهى كلمة تضجر وكراهية وقيل ان أصل هذه الكلمة انه اذا سقط عليك تراب أو رماد ونفخت فيه تزيله تقول أف ثم انهم توسعوا بذكر هذه الكلمة الى كل مكروه يصل اليهم والثانى قوله (ولا تنهرهما) أى تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك يقال نهره وانتهره بمعنى فان قلت المنع من التأفيف أبلغ من المنع من الانتهار فما وجه الجمع قلت المراد من قوله ولا تقل لهما أف المنع من اظهار الضجر بالقليل والكثير والمراد من قوله ولا تنهرهما المنع من اظهار المخالفة فى القول على سبيل الرد عليهما الثالث قوله (وقل لهما قولا كريما) أى حسنا جميلا لينا كما يقتضيه حسن الادب معهما وقيل هو يا اماه يا أبتاه وقيل لا يكنيهما وقيل هو ان يقول لهما كقول العبد الذليل المذنب للسيد الفظ الغليظ الرابع قوله عز وجل (واخفض لهما جناح الذل) أى الن لهما جناحك واخفضه لهما حتى لا تمتنع عن شئ أحباه (من الرحمة) أى من الشفقة عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم اليك كما كنت فى حال الصغر

معتقرا اليهما الخامس قوله سبحانه وتعالى (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) أي وادع الله لهما ان يرحمهما برحمته الباقية وأراد به اذا كانا مسلمين فأما اذا كانا كافرين فان الدعاء منسوخ في حقهما بقوله سبحانه وتعالى ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى وقيل يجوز الدعاء لهما بأن يهديهما الله الى الاسلام فاذا هداهما فقد رحمهما وقيل في معنى هذه الآية ان الله سبحانه وتعالى بالغ في الوصية بهما حيث افتتحها بالامر بتوحيده وعبادته ثم شفعه بالاحسان اليهما ثم ضيق الامر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تسوءهما وان يذل ويخضع لهما ثم ختمها بالامر بالدعاء لهما والترحم عليهما

(فصل) في الاحاديث التي وردت في بر الوالدين (ق) عن أبي هريرة قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحبتي قال أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك فأدناك (م) عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه قيل من يا رسول الله قال من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة (م) عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يجزي ولد والده الا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنه في الجهاد فقال أحي والداك قال نعم قال ففيهما فجاهد وعنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رضا الرب في رضا الوالدين وسخط الرب في سخط الوالدين أخرجه الترمذي مرفوعا وموقوفا قال وهو أصح عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الوالد أوسط أبواب الجنة فان شئت فضيع ذلك الباب او احفظه أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح (م) عن عبد الله بن مسعود قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الاعمال أحب الى الله تعالى قال الصلاة لوقتها قلت ثم أي قال بر الوالدين قلت ثم أي قال الجهاد في سبيل الله تعالى قوله سبحانه وتعالى (ربكم أعلم بما في نفوسكم) أي من بر الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير وعدم عقوقهما (ان تكونوا صالحين) أي ابرارا مطيعين قاصدين الصلاح والبر بعد تقصير كان منكم في القيام بما لزمكم من حق الوالدين او غيرهما أو قيل فرطة منكم في حال الغضب وعند حرج الصدر وما لا يخلو منه البشر مما يؤدي الى اذاهما ثم أبتم الى الله واستغفرتم مما فرط منكم (فانه كان للاوابين) للتوابين (غفورا) قال سعيد بن جبير في هذه الآية هو الرجل تكون منه البادرة الى أبويه لا يريد بذلك الا الخير فانه لا يؤاخذ بها وقال سعيد بن المسيب الاواب الذي يذنب ثم يتوب وعنه الرجاع الى الخير وقال ابن عباس الاواب الرجاع الى الله فيما يحزنه وينوبه وعنه انهم المسبحون وقيل هم المصلون وقيل هم الذين يصلون صلاة الضحى يدل عليه ما روي عن زيد بن أرقم قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل قباء وهم يصلون الضحى فقال صلاة الاوابين اذا رمضت الفصال أخرجه مسلم قوله اذا رمضت الفصال يريد ارتفاع الضحى وان تحمى الرمضاء وهو الرمل بحر الشمس فتبرك الفصال من الحر وشدة احراقه اخفافها والفصال جمع فصيل وهي أولاد الابل الصغار وقيل الاواب الذي يصلي بين المغرب والعشاء يدل عليه ما روي عن ابن عباس قال ان الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء وهي صلاة الاوابين قوله سبحانه وتعالى (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) قيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أمره الله سبحانه وتعالى ان يؤتي اقاربه حقوقهم وقيل انه خطاب للكل وهو انه سبحانه وتعالى وصى بعد بر الوالدين بالقرابة ان يؤتوا حقهم من صلة الرحم والمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاضدة ونحو ذلك وقيل ان كانوا محاويج وهو موسر لزمه الانفاق عليهم وهو مذهب أبي حنيفة وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه لا تلزم النفقة الا للوالد على ولده أو للولد على والديه فحسب وقيل أراد بالقرابة قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقدم الكلام على المسكين وابن السبيل (ولا تبذر تبذيرا) أي لا تنفق مالك في المعصية

(وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها وادع الله بان يرحمهما رحمته الباقية واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك والمراد بالخطاب غيره عليه السلام والدعاء مختص بالابوين المسلمين وقيل اذا كانا كافرين له ان يسترحم لهما بشرط الايمان وان يدعو الله لهما بالهداية وعن النبي صلى الله عليه وسلم رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما وروي يفعل البار ما شاء ان يفعل فلن يدخل النار ويفعل العاق ما شاء ان يفعل فلن يدخل الجنة وعنه عليه السلام اياكم وعقوق الوالدين فان الجنة يوجد ريحها من مسيرة الف عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جار ازاره خيلاء ان الكبرياء لله رب العالمين (ربكم أعلم بما في نفوسكم) بما في ضمائركم من قصد البر الى الوالدين ومن النشاط والكراهة في خدمتهما (ان تكونوا صالحين) قاصدين الصلاح والبر ثم فرطت منكم في حال الغضب وعند حرج الصدر هنة تؤدي الى اذاهما ثم ابتم الى الله واستغفرتم منها (فانه كان للاوابين غفورا) الاواب الذي اذا أذنب بادر الى التوبة فجاز ان يكون هذا عاما لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها ويندرج تحته الجاني على أبويه التائب من جنايته لوروده على أثره (وآت ذا القربى) منك (حقه) أي النفقة اذا كانوا محارم فقراء (والمسكين وابن السبيل) أي وآت هؤلاء حقهم من الزكاة (ولا تبذر تبذيرا) ولا تسرف اسرافا قيل التبذير تفريق المال في غير الحق والخل فعن مجاهد لو انفق مدا في باطل كان تبذيرا وقد انفق بعضهم نفقة في خير فاكثر فقال له صاحبه لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير

(ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) أمثالهم فى الشرارة وهى غاية المذمة لانه لاشر من الشيطان أوهم اخوانهم واصدقاؤهم لانهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الاسراف (وكان الشيطان لربه كفورا) فما ينبغى أن يطاع فانه لا يدعو الا الى مثل فعله (واما تعرضن عنهم) وان اعرضت عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا) أى وان أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك فسمى الرزق رحمة فردهم ردا جميلا فوضع الابتغاء موضع الفقد لان فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسببا عنه فوضع المسبب موضع السبب يقال يسر الامر وعسر مثل سعد الرجل ونحس فهو مفعول وقيل معناه فقل لهم رزقنا الله واياكم من فضله على انه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم كان معناه قولا ذا ميسور وهو اليسر أى دعاء فيه يسر وابتغاء مفعول له أو مصدر فى موضع الحال وترجوها حال (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط) كل نصب على المصدر لاضافته اليه وهذا تمثيل لمنع الشحيح واعطاء المسرف أمر بالاقتصاد الذى هو بين الاسراف والتقتير (فتقعد ملوما) فتصير ملوما عند الله لان المسرف غير مرضى عنده وعند الناس يقول الفقير أعطى فلانا وحرمنى ويقول الغنى ما يحسن تدبير أمر المعيشة وعند نفسك اذا احتجت فندمت على ما فعلت (محسورا) منقطعا بك لاشئ عندك من حسره السفر اذا أثر فيه أثرا بليغا أو عاريا من حسر رأسه وقد خاطرت مسلمة ضرتها اليهودية فى انه يعنى محمدا عليه السلام اجود من موسى عليه السلام فبعثت ابنتها تسأله قميصه الذى عليه فدفعه وقعد عريانا فاقيمت الصلاة فلم يخرج للصلاة فنزلت ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن ذلك ليس لهوان منك عليه ولا لبخل به عليك ولكن لان بسط الارزاق وقدرها مفوض الى الله تعالى فقال (ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء) فليس البسط اليك (ويقدر) أى هو يضيق فلا لوم عليك (انه كان بعباده خبيرا) بمصالحهم فيمضيها (بصيرا) بحوائجهم فيقضيها (ولا تقتلوا أولادكم) قتلهم أولادهم وأدهم بناتهم (خشية املاق) فقر (نحن نرزقهم واياكم) نهاهم عن ذلك وضمن ارزاقهم (ان قتلهم كان خطأ كبيرا) اثما عظيما يقال خطئ خطأ كأثم اثما وخطأ وهو ضد الصواب اسم من اخطأ وقيل هو والخطأ كالحذر والحذر خطاء بالمد ضباغ والكسر مكى (ولا تقربوا الزنا) القصر فيه أكثر والمد لغة وقد قرئ به وهو نهى عن دواعى الزنا كالمس والقبلة ونحوهما ولو اريد النهى عن نفس الزنا لقال ولا تزنوا (انه كان فاحشة) معصية مجاوزة حد الشرع والعقل (وساء سبيلا) وبئس طريقا طريقه

وقيل لو أنفق الانسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذرا ولو أنفق درهما أو مدا فى باطل كان مبذرا وسئل ابن مسعود عن التبذير فقال انفاق المال فى غير حقه وقيل هو انفاق المال فى العمارة على وجه السرف وقيل ان بعضهم أنفق نفقة فى خير فأكثر فقال له صاحبه لاخير فى السرف فقال لا سرف فى الخير (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) أولياءهم وأصدقاءهم لانهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الاسراف وقيل امثالهم فى الشر وهذا غاية المذمة لانه لا شر من الشياطين والعرب تقول لكل من هو ملازم سنة قوم هو أخوهم (وكان الشيطان لربه كفورا) أى جحود النعمة فما ينبغى ان يطاع لانه يدعو الى مثل عمله قوله عز وجل (واما تعرضن عنهم) نزلت فى مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب كانوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم فى الاحايين ما يحتاجون اليه ولا يجد فيعرض عنهم حياء منهم ويمسك عن القول فنزلت هذه الآية والمعنى وان تعرض عن هؤلاء الذين أمرت ان تؤتيهم (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) أى انتظار رزق من الله ترجوان يأتيك (فقل لهم قولا ميسورا) أى لينا جميلا أى عدهم وعدا طيبا تطيب به قلوبهم وقيل هو ان يقول رزقنا الله واياكم من فضله قوله سبحانه وتعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك) قال جابر أتى صبى فقال يارسول الله ان أمى تستكسوك درعا ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الا قميصه فقال للصبى من ساعة الى ساعة يظهر كذا فعد الينا وقتا آخر فعاد الى أمه فقالت قل له ان أمى تستكسوك الدرع الذى عليك فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانا فأذن بلال بالصلاة وانتظره فلم يخرج فشغل أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عريانا فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك أى لا تمسك يدك عن النفقة فى الحق والخير كالمغلولة يده لا يقدر على مدها (ولا تبسطها) أى بالعطاء (كل البسط) أى فتعطى جميع ما عندك وقيل هذا تمثيل لمنع الشحيح واعطاء المسرف أمر بالاقتصاد الذى هو بين الاسراف والتقتير (فتقعد ملوما) أى عند الله لان السرف غير مرضى عنده وقيل ملوما عند نفسك وأصحابك أيضا يلومونك على تضييع المال بالكلية وقيل يلومك سائلوك على الامساك اذا لم تعطهم (محسورا) أى منقطعا لاشئ عندك تنفقه وقيل محسورا أى نادما على ما فرط منك ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يرهقه من الاضاقة بان ذلك ليس لهوان بك عليه ولا لبخل منه عليك فقال تعالى (ان ربك يبسط) أى يوسع (الرزق لمن يشاء ويقدر) اى يقتر ويضيق وذلك لمصلحة العباد (انه كان بعباده خبيرا بصيرا) يعنى انه سبحانه وتعالى عالم بأحوال جميع عباده وما يصلحهم فالتفاوت فى أرزاق العباد ليس لاجل البخل بل لاجل رعاية مصالح العباد قوله عز وجل (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق) أى فاقة وفقر (نحن نرزقهم واياكم) وذلك ان أهل الجاهلية كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة أو يخافون عليهم من النهب والغارات أو أن ينكحوهن غير اكفاء لشدة الحاجة وذلك عار شديد عندهم فنهاهم الله عن قتلهن وقال نحن نرزقهم واياكم يعنى ان الارزاق بيد الله فكما انه فتح أبواب الرزق على الرجال فكذلك يفتحه على النساء (ان قتلهم كان خطأ كبيرا) أى اثما كبيرا (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة) أى قبيحة زائدة على حد القبح (وساء سبيلا) أى بئس طريقا طريقه وهو ان تغصب امرأة غيرك أو اخته أو بنته من غير سبب والسبب ممكن وهو الصهر الذى شرعه الله تعالى قيل ان الزنا يشتمل على انواع من المفاسد منها المعصية وايجاب الحد على نفسه ومنها اختلاط الانساب فلا يعرف الرجل ولده من هو ولا يقوم احد بتربيته وذلك يوجب

(ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق) أي بارتكاب ما يبيح الدم (ومن قتل مظلوما) غير مرتكب ما يبيح الدم (فقد جعلنا لوليه سلطانا) تسلطا على القاتل في الاقتصاص منه (فلا يسرف في القتل) الضمير للولي أي فلا يقتل غير القاتل ولا اثنين والقاتل واحد كعادة أهل الجاهلية أو الاسراف المثلة والضمير للقاتل الاول فلا تسرف حمزة وعلى على خطاب الولي أو قاتل المظلوم (انه كان منصورا) الضمير للولي اي حسبه ان الله قد نصره بان اوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك أو للمظلوم أي الله ناصره حيث أوجب القصاص بقتله وينصره في الآخرة بالثواب أو للذي يقتله الولي بغير حق ويسرف في قتله فانه كان منصورا بايجاب القصاص على المسرف وظاهر الآية يدل على ان القصاص يجري بين الحر والعبد وبين المسلم والذمي لان أنفس أهل الذمة والعبيد داخلة في الآية لكونها محرمة (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن) بالخصلة أو الطريقة التي هي أحسن وهي حفظه وتثميره (حتى يبلغ اشده) أي ثماني عشرة سنة (وأوفوا بالعهد) باوامر الله تعالى ونواهيه (ان العهد كان مسؤلا) مطلوبا يطلب من المعاهد ان لا يضيعه ويفي به أو ان صاحب العهد كان مسؤلا (وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس) بكسر القاف حمزة وعلى وحفص وهو كل ميزان صغير أو كبير من موازين الدراهم وغيرها وقيل هو القرسطون اي القبان (المستقيم) المعتدل (ذلك خير) في الدنيا (وأحسن تأويلا) عاقبة وهو تفعيل من آل اذا رجع وهو ما يؤل اليه (ولا تقف ما ليس لك به علم) ولا تتبع ما لا تعلم أي لا تقل رأيت وما رأيت وسمعت وما سمعت وعن ابن الحنفية لا تشهد بالزور وعن ابن عباس لا ترم احدا بما لا تعلم ولا يصح التثبت به لمبطلي الاجتهاد لان ذلك نوع من العلم فان علمتموهن مؤمنات واقام الشارع غالب الظن مقام العلم وأمر بالعمل به كما في الشهادات ولما في العمل بخبر الواحد لما ذكرنا (ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤلا) اولئك اشارة الى السمع والبصر والفؤاد لان اولئك كما يكون اشارة الى العقلاء يكون اشارة الى غيرهم كقول جرير

ذم المنازل بعد منزلة اللوى
والعيش بعد اولئك الايام

وعنه في موضع الرفع بالفاعلية أي كل واحد منها كان مسؤلا عنه فمسؤل مسند الى الجار والمجرور كالمغضوب في غير المغضوب عليهم يقال للانسان لم سمعت ما لم يحل لك سماعه ولم نظرت الى ما لم يحل لك النظر اليه ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه كذا في الكشاف وفيه نظر لبعضهم لان الجار والمجرور انما يقومان مقام الفاعل اذا تأخرا عن الفعل فاما اذا تقدما فلا

ضياع الاولاد وانقطاع النسل وذلك يوجب خراب العالم قوله عز وجل (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق) الاصل في القتل هو الحرمة المغلظة وحل القتل انما ثبت بسبب عارض فلما كان كذلك نهى الله عن القتل على حكم الاصل ثم استثنى الحالة التي يحصل فيها حل القتل وهي الاسباب العرضية فقال الا بالحق اي الا باحدى ثلاث كما روي عن ابن مسعود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا اله الا الله وأني رسول الله الا باحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة أخرجاه في الصحيحين (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) أي قوة وولاية على القاتل بالقتل وقيل سلطانه هو انه يتخير فان شاء استقاد منه وان شاء أخذ الدية وان شاء عفا (فلا يسرف في القتل) أي الولي قال ابن عباس لا يقتل غير القاتل وذلك انهم كانوا في الجاهلية اذا قتل منهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله حتى يقتل أشرف منه وقيل معناه اذا كان القتيل واحدا فلا يقتل به جماعة بل واحد بواحد وكان أهل الجاهلية اذا كان المقتول شريفا فلا يرضون بقتل القاتل وحده حتى يقتلوا معه جماعة من أقربائه وقيل معناه انه لا يمثل بالقاتل (انه كان منصورا) قيل الضمير راجع للمقتول ظلما يعني انه منصور في الدنيا بايجاب القود على قاتله وفي الآخرة بتكفير خطاياه وايجاب النار لقاتله وقيل الضمير راجع الى ولي المقتول معناه انه كان منصورا على القاتل باستيفاء القصاص منه أو الدية وقيل في قوله فلا يسرف في القتل أراد به القاتل المتعدي بالقتل بغير الحق فانه ان فعل ذلك فولي القتيل منصور عليه باستيفاء القصاص منه قوله سبحانه وتعالى (ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن) اي بالطريقة التي هي أحسن وهي تنميته وحفظه عليه (حتى يبلغ أشده) وهو بلوغ النكاح والمراد ببلوغ الاشد كمال عقله ورشده بحيث يمكنه القيام بمصالح ماله والا لم ينفك عنه الحجر (وأوفوا بالعهد) اي الاتيان بما امر الله به والانتهاء عما نهى عنه وقيل اراد بالعهد ما يلتزمه الانسان على نفسه (ان العهد كان مسؤلا) اي عنه وقيل مطلوبا وقيل العهد يسئل فيقال فيم نقضت كالموؤدة تسئل فيم قتلت قوله عز وجل (وأوفوا الكيل اذا كلتم) المراد منه اتمام الكيل (وزنوا بالقسطاس المستقيم) قيل هو الميزان صغيرا كان أو كبيرا من ميزان الدراهم الى ما هو اكبر منه وقيل هو القبان قيل هو رومي وقيل سرياني والاصح انه عربي مأخوذ من القسط وهو العدل اي وزنوا بالعدل المستقيم واعلم ان التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم فوجب على العاقل الاحتراز عنه وانما عظم الوعيد فيه لان جميع الناس محتاجون الى المعاوضات والبيع والشراء فالشارع بالغ في المنع من التطفيف والنقصان سعيا في ابقاء الاموال على اربابها (ذلك خير وأحسن تأويلا) اي احسن عاقبة من آل اذا رجع وهو ما يؤل اليه أمره قوله سبحانه وتعالى (ولا تقف) أي ولا تتبع (ما ليس لك به علم) أي لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم وقيل معناه لا ترم أحدا بما ليس لك به علم وقيل لا تتبعه بالحدس والظن وقيل هو مأخوذ من القفا كأنه يقفو الامور ويتتبعها ويتعرفها والمراد انه لا يتكلم في أحد بالظن (ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤلا) معناه يسئل المرء عن سمعه وبصره وفؤاده وقيل يسئل السمع والبصر والفؤاد عما فعله المرء فعلى هذا ترجع الاشارة في أولئك

الى الاعضاء وعلى القول الاول ترجع الى اربابها عن شكل ابن حميد قال اتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يا نبى الله علمنى تعويذا اتعوذ به قال فأخذ بيدى ثم قال قل اعوذ بك من شر سمعى وشر بصرى وشر فؤادى وشر لسانى وشر قلبى وشر منيى قال فحفظتها أخرجه ابو داود والنسائى والترمذى وقال حديث حسن غريب قوله وشر منيى يعنى ماءه وذكره قوله عز وجل (ولا تمش فى الارض مرحا) أى بطرا وكبرا وخيلاء (انك لن تخرق الارض) أى لن تقطعها بكبرك حتى تبلغ آخرها (ولن تبلغ الجبال طولا) أى لا تقدر ان تطاول الجبال وتساويها بكبرك والمعنى ان الانسان لا ينال بكبره وبطره شيئا كمن يريد خرق الارض ومطاولة الجبال لا يحصل على شئ وقيل ان الذى يمشى مختالا يمشى مرة على عقبه ومرة على صدور قدميه فقيل له انك لن تنقب الارض ان مشيت على عقبيك ولن تبلغ الجبال طولا ان مشيت على صدور قدميك عن على قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما ينحط من صبب أخرجه الترمذى فى الشمائل قوله تكفؤا التكفؤ التمايل فى المشى الى قدام وقوله كأنما ينحط من صبب هو قريب من التكفؤ أى كأنه ينحدر من موضع عال عن أبى هريرة قال ما رأيت شيئا احسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجرى فى وجهه وما رأيت احدا اسرع فى مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما الارض تطوى له انا لنجهد انفسنا وانه لغير مكترث اخرجه الترمذى قوله لغير مكترث أى شاق والاكتراث الامر الذى يشق على الانسان (كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها) أى ما ذكر من الامور التى نهى الله عنها فيما تقدم فان قلت كيف قيل سيئة مع قوله مكروها قلت قيل فيه تقديم وتأخير تقديره كل ذلك كان مكروها سيئة عند ربك وقوله مكروها على التكرير لا على الصفة أى كل ذلك كان سيئة وكان مكروها وقيل انه يرجع الى المعنى دون اللفظ لان السيئة الذنب وهو مذكر قوله سبحانه وتعالى (ذلك) اشارة الى ما تقدم من الاوامر والنواهى فى هذه الآيات (مما أوحى اليك ربك من الحكمة) أى ان الاحكام المذكورة فى هذه الآيات شرائع واجبة الرعاية فى جميع الاديان والملل لا تقبل النسخ والابطال فكانت محكمة وحكمة بهذا الاعتبار وقيل ان حاصل هذه الآيات يرجع الى الامر بالتوحيد وانواع البر والطاعات والاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة وذلك من الحكمة قيل ان هذه الآيات كانت فى الواح موسى عليه السلام اولها ولا تجعل مع الله الها آخر قال الله سبحانه وتعالى وكتبنا له فى الالواح من كل شئ موعظة واعلم ان الله سبحانه وتعالى افتتح هذه الآيات بالامر بالتوحيد والنهى عن الشرك وختمها به والمقصود منه التنبيه على ان كل قول وعمل يجب أن يكون فيه التوحيد لانه رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم ينفعه شئ ثم انه سبحانه وتعالى ذكر فى الآية الاولى ان الشرك يجب أن يكون صاحبه مذموما مخذولا وقال فى هذه الآية (ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا) والفرق بين المذموم والملوم اما كونه مذموما فمعناه ان يذكر له ان الفعل الذى اقدم عليه قبيح ومنكر فهذا معنى كونه مذموما ثم يقال له لم فعلت هذا الفعل القبيح وما الذى حملك عليه وهذا هو اللوم والفرق بين المخذول والمدحور أن المخذول هو الضعيف الذى لا ناصر له والمدحور هو المبعود المطرود عن كل خير قوله سبحانه وتعالى (افأصفاكم ربكم) يعنى اخصكم واختاركم فجعل لكم الصفوة ولنفسه ما ليس بصفوة (بالبنين) يعنى اختصكم بأفضل الاولاد وهم البنون (واتخذ من الملائكة اناثا) لانهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله مع علمهم بأن الله سبحانه وتعالى هو الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له وهذا يدل على نهاية جهل القائلين بهذا القول (انكم لتقولون قولا عظيما) يخاطب مشركى مكة يعنى باضافتكم اليه الاولاد وهى خاصة بالاجسام ثم انهم يفضلون عليه انفسهم حيث يجعلون له ما يكرهون لانفسهم يعنى البنات قوله سبحانه وتعالى (ولقد صرفنا فى هذا القرآن) يعنى العبر والحكم والامثال والاحكام والحجج والاعلام والتشديد يعنى صرفنا للتكثير والتكرير (ليذكروا) أى ليتعظوا ويعتبروا (وما يزيدهم) أى تصريفنا وتذكيرنا (الا نفورا) أى تباعدا عن الحق (قل) أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين (لو كان معه آلهة

(ولا تمش فى الارض مرحا) هو حال اى ذا مرح (انك لن تخرق الارض) لن تجعل فيها خرقا بدوسك لها وشدة وطئتك (ولن تبلغ الجبال طولا) بتطاولك وهو تهكم بالمختال اولن تحاذيها قوة وهو حال من الفاعل أو المفعول (كل ذلك كان سيئه) كوفى وشامى على اضافة سئ الى ضمير كل سيئة غيرهم (عند ربك مكروها) ذكر مكروها لان السيئة فى حكم الاسماء بمنزلة الذنب والاثم زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه الا ترى انك تقول الزنا سيئة كما تقول السرقة سيئة فان قلت الخصال المذكورة بعضها سيئ وبعضها حسن ولذلك قرأ من قرأ سيئه بالاضافة اى ما كان من المذكور سيئا كان عند الله مكروها فما وجه قراءة من قرأ سيئة قلت كل ذلك احاطة بما نهى عنه خاصة لا بجميع الخصال المعدودة (ذلك) اشارة الى ما تقدم من قوله لا تجعل مع الله الها آخر الى هذه الغاية (مما اوحى اليك ربك من الحكمة) مما يحكم العقل بصحته وتصلح النفس باسوته (ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا) مطرودا من الرحمة عن ابن عباس رضى الله عنهما هذه الثمانى عشرة آية كانت فى الواح موسى عليه السلام اولها لا تجعل مع الله الها آخر وآخرها مدحورا ولقد جعلت فاتحتها وخاتمتها النهى عن الشرك لان التوحيد رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم تنفعه حكمة وان بذ فيها الحكماء وحك بيافوخه السماء وما اغنت عن الفلاسفة اسفار الحكم وهم عن دين الله اضل من النعم ثم خاطب الذين قالوا الملائكة بنات الله بقوله (أفأصفاكم ربكم بالبنين) الهمزة للانكار يعنى أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بافضل الاولاد وهم البنون (واتخذ من الملائكة اناثا) واتخذ أدونهم وهى البنات وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم فالعبيد لا يؤثرون بأجود الاشياء واصفاها ويكون اردأها وأدونها للسادات (انكم لتقولون قولا عظيما) حيث اضفتم اليه الاولاد وهى من خواص الاجسام ثم فضلتم عليه انفسكم حيث تجعلون له ما تكرهون (ولقد صرفنا فى هذا القرآن) اى التنزيل والمراد ولقد صرفناه اى هذا المعنى فى مواضع من التنزيل فترك الضمير لانه معلوم (ليذكروا) وبالتخفيف حمزة وعلى اى كررناه ليتعظوا (وما يزيدهم الا نفورا) عن الحق وكان الثورى اذا قرأها يقول زادنى لك خضوعا ما زاد اعداءك نفورا (قل لو كان معه) مع الله (آلهة كما

كما تقولون اذا لابتغوا) أي لطلبوا يعني هؤلاء الآلهة (الى ذي العرش سبيلا) أي بالمغالبة والقهر ليزيلوا ملكه كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض وقيل معناه لتقربوا اليه وقيل معناه لتعرفوا اليه فضله فابتغوا ما يقربهم اليه والاول أصح ثم نزه نفسه فقال عز وجل (سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) معنى وصفه بذلك المبالغة في البراءة والبعد عما يصفونه به قوله عز وجل (تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن) يعني الملائكة والانس والجن (وان من شئ الا يسبح بحمده) قال ابن عباس وان من شئ حي الا يسبح بحمده وقيل جميع الحيوانات والنباتات قيل ان الشجرة تسبح والاسطوانة لا تسبح وقيل ان التراب يسبح ما لم يبتل فاذا ابتل ترك التسبيح وان الخرزة تسبح ما لم ترفع من موضعها فاذا رفعت تركت التسبيح وان الورقة تسبح ما دامت على الشجرة فاذا سقطت تركت التسبيح وان الماء يسبح ما دام جاريا فاذا ركد ترك التسبيح وان الثوب يسبح ما دام جديدا فاذا اتسخ ترك التسبيح وان الوحش والطير تسبح اذا صاحت فاذا سكتت تركت التسبيح وقيل وان من شئ جماد وحي الا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف وقيل كل الاشياء تسبح الله حيوانا كان أو جمادا وتسبيحها سبحان الله وبحمده ويدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود قال كنا نعد الآيات بركة وانتم تعدونها تخويفا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقل الماء فقال اطلبوا فضلة من ماء فجاؤا باناء فيه ماء قليل فأدخل يده صلى الله عليه وسلم في الاناء ثم قال حي على الطهور المبارك والبركة من الله ولقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل اخرجه البخاري (م) عن جابر بن سمرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان بمكة حجرا كان يسلم علي ليالي بعثت واني لاعرفه الآن (خ) عن ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الى جذع فلما اتخذ المنبر تحول اليه فحن الجذع فأتاه فمسح بيده عليه وفي رواية فنزل فاحتضنه وساره بشئ وفي هذه الاحاديث دليل على ان الجماد يتكلم وانه يسبح وقال بعض أهل المعاني تسبيح السموات والارض والجمادات والحيوانات سوى العقلاء بلسان الحال بحيث تدل على الصانع وقدرته ولطيف حكمته فكأنها تنطق بذلك ويصير لها بمنزلة التسبيح والقول الاول أصح كما دلت عليه الاحاديث وانه منقول عن السلف واعلم ان لله تعالى علما في الجمادات لا يقف عليه غيره فينبغي ان نكل علمه اليه وقوله تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) أي لا تعلمون ولا تفهمون تسبيحهم ما عدا من يسبح بلغتكم ولسانكم (انه كان حليما غفورا) أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وجهلكم بالتسبيح قوله عز وجل (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) أي يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به وقيل معناه مستورا عن أعين الناس فلا يرونه كما روي عن سعيد بن جبير انه قال لما نزلت تبت يدا أبي لهب جاءت امرأة أبي لهب ومعها حجر والنبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر فلم تره فقالت لابي بكر أين صاحبك لقد بلغني انه هجاني فقال لها أبو بكر والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله فرجعت وهي تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لارضخ رأسه فقال أبو بكر ما رأتك يا رسول الله قال لا لم يزل ملك بيني وبينها (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أي أغطية (ان يفقهوه) أي لئلا يفهموه (وفي آذانهم وقرا) أي ثقلا لئلا يسمعوه (واذا ذكرت ربك في القرآن وحده) يعني اذا قلت لا اله الا الله وانت تتلو القرآن (ولوا على أدبارهم نفورا) جمع نافر (نحن أعلم بما يستمعون به) أي من الهزء بك وبالقرآن وقيل معناه نحن اعلم بالوجه الذي يستمعون به وهو التكذيب (اذ يستمعون اليك) اي وانت تقرأ القرآن (واذ هم نجوى) اي وبما يتناجون في امرك وقيل معناه ذوو نجوى بعضهم يقول هو مجنون وبعضهم يقول هو كاهن وبعضهم يقول ساحر أو شاعر (اذ يقول الظالمون) يعني الوليد بن المغيرة واصحابه (ان تتبعون الا رجلا مسحورا) اي مطبوبا وقيل مخدوعا وقيل معناه انه سحر فجن وقيل هو من السحر وهو الرئة ومعناه انه بشر مثلكم يأكل ويشرب قال الشاعر

كما تقولون) وبالياء مكي وحفص (اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا) يعني لطلبوا الى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالبة كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض او لتقربوا اليه كقوله اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة واذا دالة على ان ما بعدها وهو لابتغوا جواب عن مقالة المشركين وجزاء للو (سبحانه وتعالى عما يقولون) وبالتاء حمزة وعلي (علوا) اي تعاليا والمراد البراءة من ذلك والنزاهة (كبيرا) وصف العلو بالكبر مبالغة في معنى البراءة والبعد مما وصفوه به (يسبح) وبالتاء عراقي غير أبي بكر (له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شئ الا يسبح بحمده) أي يقول سبحان الله وبحمده عن السدي قال عليه السلام ما اصطيد حوت في البحر ولا طائر يطير الا بما يضيع من تسبيح الله تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) لاختلاف اللغات أو لتعسر الادراك أو سبب للتسبيح الناظر اليه والدال على الخبر كفاعله والوجه الاول (انه كان حليما) عن جهل العباد (غفورا) لذنوب المؤمنين (واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) ذا ستر أو حجابا لا يرى فهو مستور (وجعلنا على قلوبهم أكنة) جمع كنان وهو الذي يستر الشئ (أن يفقهوه) كراهة أن يفقهوه (وفي آذانهم وقرا) ثقلا يمنع عن الاستماع (واذا ذكرت ربك في القرآن وحده) يقال وحد يحد وحدا وحدة نحو وعد يعد وعدا وعدة فهو مصدر سد مسد الحال أصله يحد وحده بمعنى واحدا (ولوا على أدبارهم) رجعوا على أعقابهم (نفورا) مصدر بمعنى التولية أو جمع نافر كقاعد وقعود أي يحبون أن تذكر معه آلهتهم لانهم مشركون فاذا سمعوا بالتوحيد نفروا (نحن أعلم بما يستمعون به) أي نحن أعلم بالحال او الطريقة التي يستمعون القرآن بها فالقرآن هو المستمع وهو محذوف وبه حال وبيان لما اي يستمعون القرآن هازئين لا جادين والواجب عليهم ان يستمعوه جادين (اذ يستمعون اليك) نصب بأعلم اي أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون (واذ هم نجوى) وبما يتناجون به اذ هم ذوو نجوى (اذ يقول الظالمون) بدل من اذ هم (ان تتبعون الا رجلا مسحورا) سحر فجن

(انظر كيف ضربوا لك الامثال) مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون (فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) أى فضلوا فى جميع ذلك ضلال من يطلب فى التيه طريقا
يسلكه فلا يقدر عليه فهو متحير فى امره لا يدرى ما يصنع (وقالوا) اى منكروا البعث (أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) أى مجددا وخلقا حال
اى مخلوقين (قل كونوا حجارة او حديدا او خلقا مما يكبر فى صدوركم) اى السموات والارض فانها اكبر عندكم عن قبول الحياة (فسيقولون من يعيدنا (قل) يعيدكم
(الذى فطركم اول مرة) والمعنى انكم تستبعدون ان يجدد الله خلقكم ويرده الى حال الحياة بعدما كنتم عظاما يابسة مع ان العظام بعض اجزاء الحى بل
هى عمود خلقه الذى يبنى عليه سائره فليس بدع ان يردها الله بقدرته الى الحالة الاولى ولكن لو كنتم ابعد شئ من الحياة وهو ان تكونوا حجارة او حديدا لكان قادرا على ان يردكم الى حال الحياة (فسينغضون اليك رؤسهم) فسيحركونها نحوك تعجبا واستهزاء (ويقولون متى هو) اى البعث استبعادا له ونفيا (قل عسى ان يكون قريبا) اى هو قريب وعسى للوجوب (يوم يدعوكم) الى المحاسبة وهو يوم القيامة (فتستجيبون بحمده) اى تجيبون حامدين والباء للحال عن سعيد بن جبير ينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون سبحانك اللهم وبحمدك (وتظنون ان لبثتم الا قليلا) اى لبثا قليلا او زمانا قليلا فى الدنيا او فى القبر (وقل لعبادى) وقل للمؤمنين (يقولوا) للمشركين الكلمة (التى هى احسن) والين ولا يخاشنوهم وهى ان يقولوا يهديكم الله (ان الشيطان ينزغ بينهم) يلقى بينهم الفساد ويغرى بعضهم على بعض ليوقع بينهم المشاقة والنزغ ايقاع الشر وافساد ذات البين وقرأ طلحة ينزغ بالكسر وهما لغتان (ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا) ظاهر العداوة او فسر التى هى احسن بقوله (ربكم اعلم بكم ان يشأ يرحمكم) بالهداية والتوفيق (او ان يشأ يعذبكم) بالخذلان اى يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها ولا يقولوا لهم انكم من اهل النار وانكم معذبون وما اشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر وقوله ان الشيطان ينزغ بينهم اعتراض (وما ارسلناك عليهم وكيلا) حافظا لاعمالهم وموكولا اليك امرهم وانما ارسلناك بشيرا ونذيرا فدارهم ومر اصحابك بالمداراة (وربك اعلم بمن فى السموات والارض) وبأحوالهم وبكل ما يستأهل كل واحد منهم (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) فيه اشارة الى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله (وآتينا داود زبورا) دلالة على وجه تفضيله وانه خاتم الانبياء وان امته خير الامم لان ذلك مكتوب فى زبور داود على
قال الله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون وهم محمد وامته ولم يعرف الزبور هنا وعرفه فى قوله ولقد كتبنا
فى الزبور لانه كالعباس وعباس والفضل وفضل

ارانا موضعين لامر غيب * ونسحر بالطعام وبالشراب

اى نغذى بهما (انظر كيف ضربوا لك الامثال) اى الاشباه فقالوا ساحر شاعر كاهن مجنون (فضلوا) اى فى جميع ذلك وحادوا (فلا يستطيعون سبيلا) اى الى طريق الحق (وقالوا أئذا كنا عظاما) اى بعد الموت (ورفاتا) اى ترابا وقيل الرفات الاجزاء المتفتتة من كل شئ تكسر (أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) فيه انهم استبعدوا الاعادة بعد الموت والبلى فقال الله سبحانه وتعالى ردا عليهم (قل) اى قل لهم يا محمد (كونوا حجارة) اى فى الشدة (او حديدا) اى فى القوة وليس هذا بامر الزام بل هو امر تعجيز اى استشعروا فى قلوبكم انكم حجارة او حديد فى القوة (او خلقا مما يكبر فى صدوركم) قيل يعنى السماء والارض والجبال لانها اعظم المخلوقات وقيل يعنى به الموت لانه لا شئ فى نفس ابن آدم اكبر من الموت ومعناه لو كنتم الموت بعينه لاميتنكم ولابعثنكم (فسيقولون من يعيدنا) اى من يبعثنا بعد الموت (قل الذى فطركم) اى خلقكم (اول مرة) فمن قدر على الانشاء قدر على الاعادة (فسينغضون اليك رؤسهم) اى يحركونها اذا قلت لهم ذلك مستهزئين مما تقول (ويقولون متى هو) يعنى البعث والقيامة (قل عسى ان يكون قريبا) اى هو قريب (يوم يدعوكم) اى من قبوركم الى موقف القيامة (فتستجيبون بحمده) قال ابن عباس بامره وقيل بطاعته وقيل مقرين بانه خالقهم وباعثهم ويحمدونه حين لا ينفعهم الحمد وقيل هذا خطاب مع المؤمنين فانهم يبعثون حامدين (وتظنون ان لبثتم) اى فى الدنيا وقيل فى القبور (الا قليلا) وذلك لان الانسان لو مكث فى الدنيا او فى القبر الوفا من السنين عد ذلك قليلا بنسبة مدة القيامة والخلود فى الآخرة وقيل انهم يستحقرون مدة الدنيا فى جنب القيامة قوله سبحانه وتعالى (وقل لعبادى يقولوا التى هى احسن) وذلك ان المشركين كانوا يؤذون المسلمين فشكوا ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل وقل لعبادى يقولوا يعنى للكفار التى هى احسن اى لا يكافئوهم على سفههم بل يقولون لهم يهديكم الله وكان هذا قبل الاذن فى القتال والجهاد وقيل نزلت فى عمر بن الخطاب وذلك انه شتمه بعض الكفار فامره الله بالعفو وقيل امر الله المؤمنين ان يقولوا ويفعلوا الخلة التى هى احسن وقيل الاحسن كلمة الاخلاص لا اله الا الله (ان الشيطان ينزغ بينهم) أى يفسد ويلقى العداوة بينهم (ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا) أى ظاهر العداوة قوله عز وجل (ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم) أى يوفقكم للايمان فتؤمنوا (أو ان يشأ يعذبكم) أى يميتكم على الشرك فتعذبوا وقيل معناه ان يشأ يرحمكم فينجيكم من أهل مكة او ان يشأ يعذبكم أى يسلطهم عليكم (وما أرسلناك عليهم وكيلا) أى حفيظا وكفيلا قيل نسختها آية القتال (وربك أعلم بمن فى السموات والارض) يعنى ان علمه غير مقصور عليكم بل علمه متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق بجميع ذات الارضين والسموات ويعلم حال كل أحد ويعلم ما يليق به من المصالح والمفاسد وقيل معناه انه عالم بأحوالهم واختلاف صورهم وأخلاقهم ومللهم وأديانهم (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) وذلك انه اتخذ ابراهيم خليلا وكلم موسى تكليما وقال لعيسى كن فكان وآتى سليمان ملكا لا ينبغى لاحد من بعده وآتى داود زبورا وذلك قوله تعالى (وآتينا داود زبورا) وهو كتاب أنزله الله على داود يشتمل على مائة وخمسين سورة كلها دعاء وثناء على الله تعالى وتحميد وتمجيد ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود ولا أحكام فان قلت لم خص داود فى هذه الآية بالذكر دون غيره من الانبياء قلت فيه وجوه أحدها ان الله تعالى ذكر انه فضل بعض النبيين على بعض ثم قال تعالى وآتينا داود زبورا وذلك ان داود أعطى مع النبوة الملك فلم يذكره بالملك وذكر ما آتاه من الكتاب تنبيها

(قل ادعوا الذين زعمتم) انها آلهتكم (من دونه) من دون الله وهم الملائكة أو عيسى وعزير أو نفر من الجن عبدهم ناس من العرب ثم اسلم الجن
ولم يشعروا (فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) اى ادعوهم فهم لا يستطيعون ان يكشفوا عنكم الضر من مرض او فقر او عذاب ولا ان يحولوه
من واحد الى آخر (اولئك) مبتدأ (الذين يدعون) صفة اى يدعونهم آلهة او يعبدونهم والخبر (يبتغون الى ربهم الوسيلة) يعنى ان آلهتهم اولئك
يبتغون الوسيلة وهى القربة الى الله عز وجل (أيهم) بدل من واو يبتغون واى موصولة اى يبتغى من هو (اقرب) منهم الوسيلة الى الله فكيف بغير
الاقرب او ضمن يبتغون الوسيلة معنى يحرصون فكأنه قيل يحرصون ايهم يكون اقرب الى الله وذلك بالطاعة وازدياد الخير (ويرجون رحمته)
ويخافون عذابه) كغيرهم من عباد الله فكيف يزعمون انهم آلهة (ان عذاب ربك كان محذورا) حقيقا بأن يحذره كل احد من ملك مقرب ونبى مرسل فضلا عن غيرهم (وان من قرية الانحن مهلكوها قبل يوم القيامة او معذبوها عذابا شديدا) قيل الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة (كان ذلك فى الكتاب) فى اللوح المحفوظ (مسطورا) مكتوبا وعن مقاتل وجدت فى كتب الضحاك فى تفسيرها اما مكة فيخربها الحبشة وتهلك المدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك والجبال بالصواعق والرواجف واما خراسان فعذابها ضروب واما بلخ فتصيبهم هدة فيهلك أهلها واما بدخشان فيخربها أقوام واما ترمذ فأهلها يموتون بالطاعون واما صغانيان الى واشجرد فيقتلون بقتل ذريع واما سمرقند فيغلب عليها بنو قنطورا فيقتلون اهلها قتلا ذريعا وكذا فرغانة والشاش واسبيجاب وخوارزم واما بخارى فهى ارض الجبابرة فيموتون قحطا وجوعا واما مرو فيغلب عليها الرمل ويهلك بها العلماء والعباد واما هراة فيمطرون بالحيات فتأكلهم اكلا واما نيسابور فيصيب اهلها رعد وبرق وظلمة فيهلك أكثرهم واما الرى فيغلب عليها الطبرية والديلم فيقتلونهم واما ارمينية واذربيجان فيهلكها سنابك الخيول والجيوش والصواعق والرواجف واما همذان فالديلم يدخلها ويخربها واما حلوان فتمر بها ريح ساكنة وهم نيام فيصبح اهلها قردة وخنازير ثم يخرج رجل من جهينة فيدخل مصر
فويل لاهلها ولاهل دمشق وويل لاهل افريقية وويل لاهل الرملة ولا يدخل بيت المقدس واما سجستان فيصيبهم ريح عاصف اياما ثم هدة تأتيهم
ويموت فيها العلماء واما كرمان واصبهان وفارس فيأتيهم عدو وصاح وصيحة تخلع القلوب وتموت الابدان (وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها
الاولون) استعير المنع لترك ارسال الآيات وأن الاولى مع صلتها فى موضع النصب لانها مفعول ثان لمنعنا وان الثانية مع صلتها فى موضع الرفع لانها فاعل
منعنا والتقدير وما منعنا ارسال الآيات الا تكذيب الاولين والمراد الآيات التى اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبا ومن احياء الموتى وغير ذلك وسنة الله
فى الامم ان من اقترح منهم آية فأجيب اليها ثم لم يؤمن ان يعاجل بعذاب الاستئصال والمعنى وما منعنا عن ارسال ما يقترحونه من الآيات الا ان كذب بها
الذين هم امثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود وانها لو ارسلت لكذبوا بها تكذيب اولئك وعذبوا العذاب المستأصل وقد حكمنا ان نؤخر امر من
بعثت اليهم الى يوم القيامة ثم ذكر من تلك الآيات التى اقترحها الاولون ثم كذبوا بها لما ارسلت فاهلكوا واحدة وهى ناقة صالح عليه السلام لان آثار
هلاكهم قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم فقال

على ان الفضل المذكور فى هذه الآية المراد به العلم لا الملك والمال الوجه الثانى ان الله سبحانه وتعالى
كتب له فى الزبور ان محمدا خاتم الانبياء وان أمته خير الامم فلهذا خصه بالذكر الوجه الثالث ان اليهود
زعمت ان لا نبى بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فكذبهم الله بقوله وآتينا داود زبورا ومعنى الآية انكم
لن تنكروا تفضيل النبيين فكيف تنكرون فضل النبى صلى الله عليه وسلم واعطاءه القرآن وان الله آتى
موسى التوراة وداود الزبور وعيسى الانجيل فلم يبعد ان يفضل محمدا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق
ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهذا خطاب مع من يقر بتفضيل الانبياء عليهم الصلاة والسلام قوله عز
وجل (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه) وذلك ان الكفار أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجيف
فاستغاثوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ليدعو لهم فقال الله عز وجل قل ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من
دونه (فلا يملكون كشف الضر عنكم) أى الجوع والقحط (ولا تحويلا) أى الى غيركم او تحويل الحال
من العسر الى اليسر ومقصود الآية الرد على المشركين حيث قالوا لسنا أهلا ان نشتغل بعبادة الله
فنحن نعبد المقربين اليه وهم الملائكة ثم انهم اتخذوا لذلك الملك الذى عبدوه تمثالا وصورة وقد اشتغلوا
بعبادته فاحتج على بطلان قولهم بهذه الآية وبين عجز آلهتهم ثم قال تعالى (أولئك الذين يدعون) أى
الذين يدعون المشركون آلهة (يبتغون الى ربهم الوسيلة) أى القربة والدرجة العليا قال ابن عباس
هم عيسى وأمه وعزير والملائكة والشمس والقمر والنجوم وقال عبد الله بن مسعود نزلت هذه الآية
فى نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم أولئك الجن ولم يعلم الانس بذلك فتمسكوا بعبادتهم
فعيرهم الله وأنزل هذه الآية وقوله تعالى (أيهم أقرب) معناه ينظرون ايهم اقرب الى الله فيتوسلون
به وقيل أيهم اقرب يبتغى الوسيلة الى الله ويتقرب اليه بالعمل الصالح وازدياد الخير والطاعة (ويرجون
رحمته) أى جنته (ويخافون عذابه) وقيل معناه يرجون ويخافون كغيرهم من عباد الله فكيف
يزعمون أنهم آلهة (ان عذاب ربك كان محذورا) أى حقيقا بان يحذره كل أحد من ملك مقرب ونبى مرسل
فضلا عن غيرهم من الخلائق قوله سبحانه وتعالى (وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة)
اى بالموت والخراب (او معذبوها عذابا شديدا) اى بالقتل وانواع العذاب اذا كفروا وعصوا وقيل
الاهلاك فى حق المؤمنين الاماتة وفى حق الكفار العذاب قال عبد الله بن مسعود اذا ظهر الزنا والربا
فى قرية اذن الله فى هلاكها (كان ذلك فى الكتاب) أى فى اللوح المحفوظ (مسطورا) أى مكتوبا مثبتا
عن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أول ما خلق الله القلم فقال له
اكتب فقال ما اكتب قال اكتب القدر وما هو كائن الى يوم القيامة الى الابد اخرجه الترمذى قوله
سبحانه وتعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون) قال ابن عباس سأل أهل مكة
رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا فأوحى الله

الى رسوله صلى الله عليه وسلم ان شئت ان استأني بهم فعلت وان شئت ان أوتيهم ما سألوا فعلت فان لم يؤمنوا أهلكتهم كما أهلكت من كان قبلهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا بل تستأني بهم فأنزل الله عز وجل وما منعنا أن نرسل بالآيات أي التي سألها كفار قومك الا أن كذب بها الاولون أي فأهلكناهم فان لم يؤمن قومك بعد ارسال الآيات أهلكناهم لان من سنتنا في الامم اذا سألوا الآيات ثم لم يؤمنوا بعد اتيانها أن نهلكهم ولا نمهلهم وقد حكمنا بامهال هذه الامة الى يوم القيامة ثم ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الاولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا فقال تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) أي بينة وذلك لان آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم و واردهم (فظلموا بها) أي جحدوا انها من عند الله وقيل فظلموا أنفسهم بتكذيبها فعاجلناهم بالعقوبة (وما نرسل بالآيات) المقترحة (الا تخويفا) أي وما نرسل بالآيات الا تخويفا من نزول العذاب فان لم يخافوا وقع عليهم وقيل معناه وما نرسل بالآيات يعني العبر والدلالات الا تخويفا أي انذارا بعذاب الآخرة ان لم يؤمنوا فان الله سبحانه وتعالى يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يرجعون قوله عز وجل (واذ قلنا لك) أي واذكر يا محمد اذ قلنا لك (ان ربك أحاط بالناس) أي ان قدرته محيطة بهم فهم في قبضته وقدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته واذا كان الامر كذلك فهم لا يقدرون على أمر من الامور الا بقضائه وقدره وهو حافظك ومانعك منهم فلا تهبهم وامض لما أمرك من التبليغ للرسالة فهو ينصرك ويقويك على ذلك (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس) الاكثرون من المفسرين على ان المراد منها ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج من العجائب والآيات قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وهي ليلة أسري به الى بيت المقدس أخرجه البخاري وهو قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج وغيرهم والعرب تقول رأيت بعيني رؤية و رؤيا فلما ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس أنكر بعضهم ذلك وكذبوا فكانت فتنة للناس وازداد المخلصون ايمانا وقال قوم اسري بروحه دون جسده وهو ضعيف وقال قوم كان له معراجان معراج رؤية عين في اليقظة ومعراج رؤيا منام وقيل اراد بهذه الرؤيا ما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية انه دخل مكة هو وأصحابه فعجل المسير الى مكة قبل الاجل فصده المشركون فرجع الى المدينة فكان رجوعه في ذلك العام بعد ما أخبر انه يدخلها فتنة لبعضهم ثم دخل مكة في العام المقبل وأنزل الله عز وجل لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وقيل ان النبي صلى الله عليه وسلم رأى في المنام أن ولد الحكم بن امية يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة فساءه ذلك فان اعترض معترض على هذا التفسير وقال السورة مكية وهاتان الواقعتان كانتا بالمدينة اجيب بانه لا اشكال فيه فانه لا يبعد ان النبي صلى الله عليه وسلم رأى ذلك بمكة ثم كان ذلك حقيقة بالمدينة (والشجرة الملعونة في القرآن) يعني شجرة الزقوم التي وصفها الله تعالى في سورة الصافات والعرب تقول لكل طعام كريه ملعون والفتنة فيها ان ابا جهل قال ان ابن ابي كبشة يعني النبي صلى الله عليه وسلم توعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم انه تنبت فيها شجرة وتعلمون ان النار تحرق الشجر وقيل ان عبد الله بن الزبعرى قال ان محمدا يخوفنا بالزقوم ولا نعرف الزقوم الا الزبد والتمر فقال ابو جهل يا جارية تعالي فزقمينا فأتت بزبد وتمر فقال يا قوم تزقموا فان هذا ما يخوفكم به محمد فأنزل الله سبحانه وتعالى حين عجبوا ان يكون في النار شجر انا جعلناها فتنة للظالمين الآيات فان قلت أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن قلت لعنت حيث لعن الكفار الذين يأكلونها لان الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن وانما وصفت باللعن لعن اصحابها على المجاز وقيل وصفها الله تعالى باللعن لان اللعن الابعاد من الرحمة وهي في اصل جهنم في ابعد مكان من الرحمة وقال ابن عباس في رواية عنه ان الشجرة الملعونة هي الكشوث الذي يلتوي على الشجر والشوك فيجففه (ونخوفهم فما

(وآتينا ثمود الناقة) باقتراحهم (مبصرة) آية بينة (فظلموا بها) فكفروا بها (وما نرسل بالآيات) ان أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى لا نرسلها (الا تخويفا) من نزول العذاب العاجل كالطليعة والمقدمة له فان لم يخافوا وقع عليهم وان اراد غيرها فالمعنى وما نرسل ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها الا تخويفا وانذارا بعذاب الآخرة وهو مفعول له (واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس) واذكر اذ أوحينا اليك ان ربك احاط بقريش علما وقدرة فكلهم في قبضته فلا تبال بهم وامض لامرك وبلغ ما أرسلت به أو بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم وذلك قوله سيهزم الجمع ويولون الدبر قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد فجعله كان قد كان ووجد فقال احاط بالناس على سنته في اخباره ولعل الله تعالى اراه مصارعهم في منامه فقد كان يقول حين ورد ماء بدر والله لكأني انظر الى مصارع القوم وهو يومئ الى الارض ويقول هذا مصرع فلان فتسامعت قريش بما اوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من امر بدر وما أرى في منامه من مصارعهم فكانوا يضحكون ويسخرون ويستعجلون به استهزاء (والشجرة الملعونة في القرآن) اي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن الا فتنة للناس فانهم حين سمعوا بقوله ان شجرة الزقوم طعام الاثيم جعلوها سخرية وقالوا ان محمدا يزعم ان الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول تنبت فيها الشجرة وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ذلك فانه لا يمتنع ان يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار فوبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك يتخذ منه مناديل اذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالما لا تعمل فيه النار وترى النعامة تبتلع الجمر فلا يضرها وخلق في كل شجرة نارا فلا تحرقها فجاز أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها والمعنى ان الآيات انما نرسل تخويفا للعباد وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر وخوفوا بعذاب الآخرة وبشجرة الزقوم فما اثر فيهم ثم قال (ونخوفهم) اي بمخاوف الدنيا والآخرة (فما

يزيدهم) التخويف (الاطغيانا كبيرا) فكيف يخاف قوم هذه حالهم بارسال ما يقترحون من الآيات وقيل الرؤيا هي الاسراء والفتنة ارتداد من استعظم ذلك وبه تعلق من يقول كان الاسراء في المنام ومن قال كان في اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية وانما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له لعلها رؤيا رأيتها استبعادا منهم كما سمى اشياء باساميها عند الكفرة كقوله فراغ الى آلهتهم اين شركائي او هي رؤياه انه سيدخل مكة والفتنة الصد بالحديبية فان قلت ليس في القرآن ذكر لعن شجرة الزقوم قلت معناه والشجرة الملعون آكلها وهم الكفرة لانه قال

يزيدهم) أي التخويف (الاطغيانا كبيرا) أي تمردا وعتوا عظيما قوله سبحانه وتعالى (واذقلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا) اى من طين وذلك ان آدم خلق من تراب الارض من عذبها وملحها فمن خلق من العذب فهو سعيد ومن خلق من الملح فهو شقي (قال) يعني ابليس (أرأيتك) الكاف للخاطب والمعنى اخبرني (هذا الذي كرمت علي) اى فضلته علي (لئن اخرتني) اى امهلتني (الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته) أي لاستأصلنهم بالاضلال وقيل معناه لاقودنهم كيف شئت وقيل لاستولين عليهم بالاغواء (الا قليلا) يعني المعصومين الذين استثناهم الله تعالى في قوله ان عبادي ليس لك عليهم سلطان (قال) الله تعالى (اذهب) اى امض لشأنك وليس هو من الذهاب الذي هو ضد المجيء (فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم) أي جزاؤك وجزاء اتباعك (جزاء موفورا) أي مكملا قوله سبحانه وتعالى (واستفزز) أي استخف واستزل واستجهل وازعج (من استطعت منهم) أي من ذرية آدم (بصوتك) قال ابن عباس معناه بدعائك الى معصية الله وكل داع الى معصية الله فهو من جند ابليس وقيل اراد بصوتك الغناء والمزامير واللهو واللعب (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) أي اجمع عليهم مكايدك وحبائلك واحثثهم على الاغواء وقيل معناه استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم يقال ان له خيلا ورجلا من الجن والانس فكل من قاتل أو مشى في معصية الله فهو من جند ابليس وقيل المراد منه ضرب المثل كما تقول للرجل المجد في الامر جئتنا بخيلك ورجلك (وشاركهم في الاموال والاولاد) اما المشاركة في الاموال فكل مال أصيب من حرام أو انفق في حرام وقيل هو الربا وقيل هو ما كانوا يذبحونه لآلهتهم ويحرمونه كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام وأما المشاركة في الاولاد فروي عن ابن عباس انها الموؤدة وقيل أولاد الزنا وعن ابن عباس أيضا هي تسميتهم اولادهم بعبد العزى وعبد الحارث وعبد شمس ونحوه وقيل هو ان يرغبوا اولادهم في الاديان الباطلة الكاذبة كاليهودية والنصرانية والمجوسية ونحوها وقيل ان الشيطان يقعد على ذكر الرجل وقت الجماع فاذا لم يقل بسم الله اصاب معه امرأته وانزل في فرجها كما ينزل الرجل وروي في بعض الاخبار ان فيكم مغربين قيل وما المغربون قال الذين شارك فيهم الجن وعن ابن عباس انه سأله رجل فقال ان امرأتي استيقظت وفي فرجها شعلة نار قال ذلك من وطء الجن (وعدهم) اى منهم الجميل في طاعتك وقيل قل لهم لاجنة ولانار ولابعث وذلك ان الشيطان اذا دعا الى المعصية فلابد ان يقرر أولا انه لامضرة في فعلها البتة وذلك لايمكن الا اذا قال لامعاد ولاجنة ولانار ولاحياة بعد هذه الحياة فيقرر عند المدعو انه لامضرة البتة في هذه المعاصي واذا فرغ من هذا النوع قرر عنده ان هذا الفعل يفيد انواعا من اللذة والسرور ولاحياة للانسان في الدنيا الابه فهذا طريق الدعوة الى المعصية ثم ينفره عن فعل الطاعات وهو انه يقرر عنده ان لاجنة ولانار ولاعقاب فلافائدة فيها وقيل معنى عدهم اى شفاعة الاصنام عند الله وايثار العاجل على الآجل فان قلت كيف ذكر الله هذه الاشياء بصيغة الامر والله سبحانه وتعالى يقول ان الله لايأمر بالفحشاء قلت هذا على طريق التهديد كقوله تعالى اعملوا ماشئتم وكقول القائل اجتهد جهدك فسترى ماينزل بك وقوله سبحانه وتعالى (وما يعدهم الشيطان الاغرورا) اى يزين الباطل بما يظن انه حق واعلم ان الله سبحانه وتعالى لما قال وعدهم اردفه بما هو زاجر عن قبول

ثم انكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فوصفت بلعن أهلها على المجاز ولان العرب تقول لكل طعام مكروه ضار ملعون ولان اللعن هو الابعاد من الرحمة وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة (واذقلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا) هو تمييز أو حال من الموصول والعامل فيه أأسجد على أأسجد له وهو طين أى اصله طين (قال أرأيتك هذا الذي) الكاف لاموضع له لانها ذكرت للخطاب تأكيدا وهذا مفعول به والمعنى اخبرني عن هذا الذي (كرمت علي) اى فضلته لم كرمته علي وانا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فحذف ذلك اختصارا لدلالة ما تقدم عليه ثم ابتدأ فقال (لئن اخرتني) وبالياء كوفي وشامي واللام موطئة للقسم المحذوف (الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته) لاستأصلنهم باغوائهم (الا قليلا) وهم المخلصون قيل من كل ألف واحد وانما علم الملعون ذلك بالاعلام اولانه رأى انه خلق شهواني (قال اذهب) ليس من الذهاب الذي هو ضد المجيء وانما معناه امض لشأنك الذي اخترته خذلانا وتخلية ثم عقبه بذكر ما جره سوء اختياره فقال (فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم) والتقدير فان جهنم جزاؤهم وجزاؤك ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل جزاؤكم وانتصب (جزاء موفورا) اى موفرا يقال فر لصاحبك عرضه فرة (واستفزز) استزل أواستخف استفزه أى استخفه والفز الخفيف (من استطعت منهم بصوتك) بالوسوسة أو بالغناء أو بالمزمار (وأجلب عليهم) اجمع وصح بهم من الجلبة وهو الصياح (بخيلك ورجلك) بكل راكب وماش من اهل العيث والخيل الخيالة والرجل

اسم جمع للراجل ونظيره الركب والصحب ورجلك حفص على ان فعلا بمعنى فاعل كتعب وتاعب ومعناه وجمعك الرجل وهذا لان اقصى ما يستطاع في طلب الامور الخيل والرجل وقيل يجوز ان يكون لابليس خيل ورجال (وشاركهم في الاموال والاولاد) قال الزجاج كل معصية في مال وولد فابليس شريكهم فيها كالربا والمكاسب المحرمة والبحيرة والسائبة والانفاق في الفسوق والاسراف ومنع الزكاة والتوصل الى الاولاد بالسبب الحرام والتسمية بعبد العزى وعبد شمس (وعدهم) المواعيد الكاذبة من شفاعة الآلهة والكرامة على الله بالانساب الشريفة وايثار العاجل على الآجل ونحو ذلك (وما يعدهم الشيطان الاغرورا) هو تزيين الخطأ بما يوهم انه صواب

(ان عبادى) الصالحين (ليس لك عليهم سلطان) بد بتبديل الايمان ولكن بتسويل العصيان (وكفى بربك وكيلا) لهم يتوكلون به فى الاستعاذة منك
اوحافظا لهم عنك والكل امر تهديد فيعاقب به اواهانة اى لاتفعل ذلك بما لكى (ربكم الذى يزجى) يجرى ويسير (لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله)
يعنى الربح فى التجارة (انه كان بكم رحيما واذا مسكم الضر فى البحر) أى خوف الغرق (ضل من تدعون الا اياه) ذهب عن اوهامكم كل من
تدعونه فى حوادثكم الا اياه وحده فانكم لاتذكرون
سواه اوضل من تدعون من الآلهة عن اغاثتكم
ولكن الله وحده الذى ترجونه على الاستثناء
المنقطع (فلما نجاكم الى البر اعرضتم) عن
الاخلاص بعد الخلاص (وكان الانسان)
أى الكافر (كفورا) للنعم (أفأمنتم) الهمزة
للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره
انجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الاعراض
(ان يخسف بكم جانب البر) انتصب جانب
بيخسف مفعولا به كالارض فى قوله فخسفنا به
وبداره الارض وبكم حال والمعنى ان يخسف
جانب البر اى يقلبه وانتم عليه والحاصل ان
الجوانب كلها فى قدرته سواء وله فى كل جانب
براكان او بحرا سبب من اسباب الهلاك ليس
جانب البحر وحده مختصا به بل ان كان الغرق فى
جانب البحر ففى جانب البر الخسف وهو تغييب
تحت التراب والغرق تغييب تحت الماء فعلى
العاقل ان يستوى خوفه من الله فى جميع
الجوانب وحيث كان (اويرسل عليكم حاصبا) هى
الريح التى تحصب اى ترمى بالحصباء يعنى اوان لم
تصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف اصابكم به من
فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء (ثم لاتجدوا
لكم وكيلا) يصرف ذلك عنكم (أم أمنتم ان
يعيدكم فيه تارة اخرى فيرسل عليكم) اى ام امنتم
ان يقوى دواعيكم ويوفر حوائجكم الى أن ترجعوا
فتركبوا البحر الذى نجاكم منه فأعرضتم فينتقم
منكم بان يرسل عليكم (قاصفا من الريح) وهى
الريح التى لها قصيف وهو الصوت الشديد
اوهو الكاسر للفلك (فيغرقكم بما كفرتم)
بكفرانكم النعمة وهو اعراضكم حين نجاكم
(ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا) مطالبا من
قوله فاتباع بالمعروف اى مطالبة والمعنى انا
نفعل ما نفعل بهم ثم لايجدوا أحدا يطالبنا
بما فعلنا انتصارا منا ودركا للثار من جهتنا
وهذا نحو قوله ولايخاف عقباها ان نخسف
اونرسل ان نعيدكم فنرسل فنغرقكم بالنون مكى وابو عمرو (ولقد كرمنا بنى آدم) بالعقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المعتدلة باعتدال
وتدبير امر المعاش والمعاد والاستيلاء وتسخير الاشياء وتناول الطعام بالايدى وعن الرشيد انه احضر طعاما فدعا بالملاعق وعنده ابو يوسف رحمه الله
فقال له جاء فى تفسير جدك ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى ولقد كرمنا بنى آدم جعلنا لهم اصابع يأكلون بها فأحضرت الملاعق فردها واكل باصابعه

وعده بقوله وما يعدهم الشيطان الا غرورا والسبب فيه انه انما يدعو الى قضاء الشهوة وطلب
الرياسة ونحو ذلك ولا يدعو الى معرفة الله تعالى ولا الى عبادته وتلك الاشياء التى يدعو اليها خيالية
لاحقيقة لها ولاتحصل الا بعد متاعب ومشاق عظيمة واذا حصلت كانت سريعة الذهاب والانقضاء
وينغصها الموت والهرم وغير ذلك واذا كانت هذه الاشياء بهذه الصفة كانت الرغبة فيها غرورا (ان
عبادى ليس لك عليهم سلطان) يعنى بعباده الانبياء واهل الفضل والصلاح لانه لايقدر على اغوائهم
(وكفى بربك وكيلا) اى حافظا والمعنى انه سبحانه وتعالى لما امكن ابليس أن يأتى بما يقدر عليه من
الوسوسة كان ذلك سببا لحصول الخوف فى قلب الانسان فقال تعالى وكفى بربك وكيلا أى فالله سبحانه
وتعالى أقدر منه وارحم بعباده فهو يدفع عنهم كيد الشيطان ووساوسه ويعصمهم من اغوائه
واضلاله وفى بعض الآثار ان ابليس لما خرج الى الارض قال يارب أخرجتنى من الجنة لاجل آدم
فسلطنى عليه وعلى ذريته قال انت مسلط قال لا أستطيعه الا بك فزدنى قال استفزز من استطعت منهم
الآية فقال آدم يارب سلطت ابليس على وعلى ذريتى وانى لا أستطيعه الا بك قال لايولد
لك ولد الا وكلت به من يحفظه قال رب زدنى قال الحسنة بعشر امثالها والسيئة بمثلها قال رب زدنى قال
التوبة معروضة مادام الروح فى الجسد قال رب زدنى فقال ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا
من رحمة الله الآية وفى الخبر ان ابليس قال يارب بعثت أنبياء وأنزلت كتبا فما قراءتى قال الشعر قال فما
كتابى قال الوشم قال ومن رسلى قال الكهنة قال اى شئ مطعمى قال مالم يذكر عليه اسمى قال فما شرابى
قال كل مسكر قال وأين مسكنى قال الحمامات قال وأين مجلسى قال الاسواق قال وما حبائلى قال النساء قال
وما أذانى قال المزمار قوله سبحانه وتعالى (ربكم الذى يزجى لكم) أى يسوق ويجرى لكم (الفلك)
أى السفن (فى البحر لتبتغوا من فضله) أى لتطلبوا من رزقه بالارباح فى التجارة وغيرها (انه كان
بكم رحيما) اى حيث يسر لكم هذه المنافع والمصالح وسهلها عليكم (واذا مسكم الضر فى البحر) أى الشدة
وخوف الغرق فى البحر (ضل من تدعون) أى ذهب عن اوهامكم وخواطركم كل من تدعون فى حوادثكم
من الاصنام وغيرها (الا اياه) أى الا الله وحده فانكم لاتذكرون سواه ولا يخطر ببالكم غيره لانه
القادر على اغاثتكم ونجاتكم (فلما نجاكم) أى أجاب دعاءكم وانجاكم من هول البحر وشدته وأخرجكم
(الى البر أعرضتم) أى عن الايمان والاخلاص والطاعة وكفرتم النعمة وهو قوله تعالى (وكان
الانسان كفورا) أى جحودا (أفأمنتم) أى بعد انجائكم (ان نخسف بكم جانب البر) اى نغوره
والمعنى ان الجهات كلها له وفى قدرته برا كان او بحرا بل ان كان الغرق فى البحر ففى جانب البر ما هو
مثله وهو الخسف لانه تغييب تحت الثرى كما ان الغرق تغييب تحت الماء (أو نرسل عليكم حاصبا) أى نمطر
عليكم حجارة من السماء كما أمطرناها على قوم لوط (ثم لاتجدوا لكم وكيلا) أى مانعا وناصرا (أم أمنتم
ان نعيدكم فيه) أى فى البحر (تارة) أى مرة (أخرى فنرسل عليكم قاصفا من الريح) قال ابن عباس
اى عاصفا وهى الريح الشديدة وقيل هى الريح التى تقصف كل شئ من شجر وغيره (فنغرقكم بما كفرتم)
اى بكفرانكم النعمة واعراضكم حين انجيناكم (ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا) التبيع المطالب والمعنى انا
نفعل ما نفعل بكم ثم لاتجدون لكم احدا يطالبنا بما فعلنا انتصارا لكم ودركا للثار من جهتنا وقيل معناه من
يتبعنا بالانكار علينا قوله سبحانه وتعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) قال ابن عباس هو انهم يأكلون بالايدى
وغير الآدمى يأكل بفيه من الارض وقال ايضا بالعقل وقيل بالنطق والتمييز والخط والفهم وقيل

باعتدال القامة وامتدادها وقيل بحسن الصورة وقيل الرجال باللحى والنساء بالذوائب وقيل بتسليطهم على جميع ما فى الارض وتسخيره لهم وقيل بحسن تدبيرهم أمر المعاش والمعاد وقيل بان منهم خير أمة أخرجت للناس (وحملناهم فى البر) أى على الابل والخيل والبغال والحمير (والبحر) أى وحملناهم فى البحر على السفن وهذا من مؤكدات التكريم لان الله سبحانه وتعالى سخر لهم هذه الاشياء لينتفعوا بها ويستعينوا بها على مصالحهم (ورزقناهم من الطيبات) يعنى لذيذ المطاعم والمشارب وقيل الزبد والتمر والحلواء وجعل رزق غيرهم مما لا يخفى وقيل ان جميع الاغذية اما نباتية واما حيوانية ولا يتغذى الانسان الا باطيب القسمين بعد الطبخ الكامل والنضج التام ولا يحصل هذا لغير الانسان (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) واعلم ان الله تعالى قال فى أول الآية ولقد كرمنا بنى آدم وفى آخرها وفضلناهم ولا بد من الفرق بين التكريم والتفضيل والا لزم التكرار والاقرب ان يقال ان الله تعالى كرم الانسان على سائر الحيوان بأمور خلقية ذاتية طبيعية مثل العقل والنطق والخط وحسن الصورة ثم انه سبحانه وتعالى عرفه بواسطة ذلك العقل والفهم اكتساب العقائد الصحيحة والاخلاق الفاضلة فالاول هو التكريم والثانى هو التفضيل ثم قال سبحانه وتعالى على كثير ممن خلقنا تفضيلا ظاهر الآية يدل على انه فضل بنى آدم على كثير من خلق لا على الكل فقال قوم فضلوا على جميع الخلق الا على الملائكة وهذا مذهب المعتزلة وقال الكلبى فضلوا على الخلائق كلهم الا على طائفة من الملائكة مثل جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل واشباههم وقيل فضلوا على جميع الخلائق وعلى الملائكة فان قلت كيف تصنع بكثير قلت يوضع الاكثر موضع الكل كقوله تعالى يلقون السمع وأكثرهم كاذبون أراد كلهم وفى الحديث عن جابر يرفعه قال لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة يا رب خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال تعالى لا أجعل من خلقته بيدى ونفخت فيه من روحى كمن قلت له كن فكان وقيل بالتفصيل وهو الاولى والراجح ان خواص بنى آدم وهم الانبياء أفضل من خواص الملائكة وعوام الملائكة افضل من عوام البشر من بنى آدم وهذا التفضيل انما هو بين الملائكة والمؤمنين من بنى آدم لان الكفار لا حرمة لهم قال الله سبحانه وتعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال المؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة الذين عنده قوله عز وجل (يوم ندعو كل أناس بامامهم) أى بنبيهم وقيل بكتابهم الذى أنزل عليهم وقيل بكتاب اعمالهم وعن ابن عباس بامام زمانهم الذى دعاهم فى الدنيا اما الى هدى واما الى ضلال وذلك ان كل قوم يجتمعون الى رئيسهم فى الخير والشر وقيل بمعبودهم وقيل بامامهم جمع أم يعنى بامهاتهم والحكمة فيه رعاية حق عيسى عليه السلام واظهار شرف الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما وان لا يفتضح أولاد الزنا (فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم) فان قلت لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع ان أصحاب الشمال يقرؤنه أيضا قلت الفرق ان أصحاب الشمال اذا اطلعوا كتابهم وجدوه مشتملا على مشكلات عظيمة فيستولى عليهم الخجل والدهشة فلا يقدرون على اقامة حروفه فتكون قراءتهم كلا قراءة وأصحاب اليمين اذا اطلعوا كتابهم وجدوه مشتملا على الحسنات والطاعات فيقرؤنه أحسن قراءة وابينها (ولا يظلمون فتيلا) أى ولا ينقصون من ثواب أعمالهم ادنى شئ (ومن كان فى هذه أعمى) المراد عمى القلب لا عمى البصر والمعنى ومن كان فى هذه الدنيا أعمى أى عن هذه النعم التى تعدها فى هذه الآيات المتقدمة (فهو فى الآخرة) أى التى لم تعاين ولم تر (أعمى واضل سبيلا) قاله ابن عباس وقيل معناه ومن كان فى هذه الدنيا اعمى القلب عن رؤية قدرة الله وآياته ورؤية الحق فهو فى الآخرة اعمى اى اشد عمى وأضل سبيلا اى اخطأ طريقا وقيل معناه ومن كان فى الدنيا كافرا ضالا فهو فى الآخرة اعمى لانه فى الدنيا تقبل توبته وفى الآخرة لا تقبل توبته قوله سبحانه وتعالى (وان كادوا ليفتنونك عن الذى اوحينا اليك) قيل فى سبب نزولها ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يستلم الحجر الاسود فمنعته قريش وقالوا لا ندعك حتى تلم

(وحملناهم فى البر) على الدواب (والبحر) على السفن (ورزقناهم من الطيبات) باللذيذات اوبما كسبت أيديهم (وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) اى على الكل كقوله وأكثرهم كاذبون قال الحسن اى كلهم وقوله وما يتبع أكثرهم الا ظنا ذكر فى الكشاف ان المراد بالاكثر الجميع وعنه عليه السلام المؤمن اكرم على الله من الملائكة وهذا لانهم مجبولون على الطاعة ففيهم عقل بلا شهوة وفى البهائم شهوة بلا عقل وفى الآدمى كلاهما فمن غلب عقله شهوته فهو اكرم من الملائكة ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم ولانه خلق الكل لهم وخلقهم لنفسه (يوم ندعو) منصوب باذكر (كل أناس بامامهم) الباء للحال والتقدير مختلطين بامامهم أى بمن ائتموا به من نبى اومقدم فى الدين اوكتاب اودين فيقال يا اتباع فلان يا اهل دين كذا اوكتاب كذا وقيل بكتاب اعمالهم فيقال يا أصحاب كتاب الخير ويا أصحاب كتاب الشر (فمن اوتى) من هؤلاء المدعوين (كتابه بيمينه فاولئك يقرؤن كتابهم) وانما قيل أولئك لان من فى معنى الجمع (ولا يظلمون فتيلا) ولا ينقصون من ثوابهم ادنى شئ ولم يذكر الكفار وايتاء كتبهم بشمالهم اكتفاء بقوله (ومن كان فى هذه) الدنيا (اعمى فهو فى الآخرة اعمى) كذلك (واضل سبيلا) من الاعمى اى اضل طريقا والاعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته لمن لا يهتدى الى طريق النجاة اما فى الدنيا فلفقد النظر واما فى الآخرة فلانه لا ينفعه الاهتداء اليه وقد جوزوا ان يكون الثانى بمعنى التفضيل بدليل عطف واضل ومن ثم قرأ ابو عمرو الاول ممالا والثانى مفخما لان افعل التفضيل تمامه بمن فكانت الفه فى حكم الواقعة فى وسط الكلمة فلا تقبل الامالة واما الاول فلم يتعلق به شئ فكانت الفه واقعة فى الطرف فقبلت الامالة وامالهما حمزة وعلى وفخمهما الباقون ولما قالت قريش اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك نزل (وان كادوا ليفتنونك) ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة بينها وبين النافية والمعنى ان الشأن قاربوا ان يفتنوك اى يخدعوك فاتنين (عن الذى اوحينا اليك) من اوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا

(لتفترى علينا غيره) لتتقول علينا مالم نقل يعنى مااقترحوه من تبديل الوعد وعيدا والوعيد وعدا (واذا لاتخذوك خليلا) أى ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك خليلا ولكنت لهم وليا وخرجت من ولايتى (ولولا أن ثبتناك) ولولا تثبيتنا وعصمتنا (لقد كدت تركن اليهم) لقاربت ان تميل الى مكرهم (شيئا قليلا) ركونا قليلا وهذا تهييج من الله له وفضل تثبيت (اذا) لو قاربت تركن اليهم ادنى ركنة (لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) لاذقناك عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين لعظيم ذنبك بشرف منزلتك ونبوتك كما قال يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة الآية وأصل الكلام لاذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات لان العذاب عذابان عذاب فى الممات وهو عذاب القبر وعذاب فى حياة الآخرة وهو عذاب النار والعذاب يوصف بالضعف كقوله فآتهم عذابا ضعفا من النار أى مضاعفا فكان اصل الكلام لاذقناك عذابا ضعفا فى الحياة وعذابا ضعفا فى الممات ثم حذف الموصوف واقيمت الصفة مقامه وهو الضعف ثم اضيفت الصفة اضافة الموصوف فقيل ضعف الحياة وضعف الممات ويجوز ان يراد بضعف الحياة عذاب الحياة الدنيا و بضعف الممات ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار وفى ذكر الكيدودة وتقليلها مع اتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف فى الدارين دليل على ان القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله ولما نزلت كان عليه السلام يقول اللهم لاتكلنى الى نفسى طرفة عين (ثم لا تجد لك علينا نصيرا) معينا لك يمنع عذابنا عنك (وان كادوا) أى اهل مكة (ليستفزونك) ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم (من الارض) من ارض مكة (ليخرجوك منها واذا لايلبثون) لايبقون (خلافك) بعدك أى بعد اخراجك خلافك كوفى غير ابى بكر وشامى بمعناه (الا قليلا) زمانا قليلا فان الله مهلكهم وكان كما قال فقد اهلكوا ببدر بعد اخراجه بقليل او معناه ولو اخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة ابيهم ولم يخرجوه بل هاجر بامر ربه وقيل من ارض العرب او من ارض المدينة (سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا) يعنى ان كل قوم اخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم فسنة الله ان يهلكهم ونصبت نصب المصدر المؤكد اى سن الله ذلك سنة (ولا تجد لسنتنا تحويلا) تبديلا (اقم الصلاة لدلوك الشمس) لزوالها وعلى هذا الآية جامعة للصلوات الصلاة الخمس أو لغروبها وعلى هذا يخرج الظهر والعصر (الى غسق الليل) هو الظلمة وهو وقت صلاة العشاء (وقرآن الفجر) صلاة الفجر سميت قرآنا وهو القراءة لكونها ركنا كما سميت ركوعا وسجودا وهو حجة على الاصم حيث زعم ان القراءة ليست بركن او سميت قرآنا لطول قراءتها وهو عطف على الصلاة

باآلهتنا وتمسها فحدث نفسه ماعلى ان افعل ذلك والله يعلم انى لها كاره بعد ان يدعونى استلم الحجر وقيل طلبوا منه ان يذكر آلهتهم حتى يسلموا ويتبعوه فحدث نفسه فأنزل الله هذه الآية وقال ابن عباس قدم وفد ثقيف على النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا انما نبايعك على ان تعطينا ثلاث خصال قال وما هى قالوا لا نجبى فى الصلاة اى لا ننحنى ولا نكسر اصنامنا بايدينا وان تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها فقال النبى صلى الله عليه وسلم لاخير فى دين لا ركوع فيه ولا سجود وأما أن لا تكسروا اصنامكم بأيديكم فذلك لكم وأما الطاغية يعنى اللات والعزى فانى غير ممتعكم بها قالوا يارسول الله انا نحب ان تسمع العرب انك اعطيتنا مالم تعط غيرنا فان خشيت ان تقول العرب اعطيتهم مالم تعطنا فقل الله امرنى بذلك فسكت النبى صلى الله عليه وسلم فطمع القوم فى سكوته ان يعطيهم ذلك فأنزل الله تعالى وان كادوا اى هموا ليفتنونك اى ليصرفونك عن الذى اوحينا اليك (لتفترى) اى لتختلق وتبتدع (علينا غيره) اى مالم نقله (واذا) أى لو فعلت مادعوك اليه (لاتخذوك خليلا) أى والوك ووافوك وصافوك (ولولا أن ثبتناك) أى على الحق بعصمتنا اياك (لقد كدت تركن) أى تميل (اليهم شيئا قليلا) أى قربت من الفعل فان قلت كان النبى صلى الله عليه وسلم معصوما فكيف يجوز ان يقرب مما طلبوه قلت كان ذلك خاطر قلب ولم يكن عزما وقد عفا الله تعالى عن حديث النفس وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول بعد ذلك اللهم لا تكلنى الى نفسى طرفة عين والجواب الصحيح هو ان الله سبحانه وتعالى قال ولولا ان ثبتناك وقد ثبته الله فلم يركن اليهم (اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) أى لو فعلت ذلك لاذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات يعنى ضاعفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة (ثم لا تجد لك علينا نصيرا) اى ناصرا يمنعك من عذابنا قوله سبحانه وتعالى (وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها) قيل هذه الآية مدنية وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كره اليهود مقامه بالمدينة وذلك حسدا فأتوه فقالوا يا أبا القاسم لقد علمت ماهذه بأرض الانبياء وان أرض الانبياء الشام وهى الارض المقدسة وكان بها ابراهيم والانبياء عليهم السلام فان كنت نبيا مثلهم فأت الشام وانما يمنعك من الخروج اليها مخافة الروم وان الله سيمنعك من الروم ان كنت رسوله فعسكر النبى صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أميال من المدينة وفى رواية الى ذى الحليفة حتى يجتمع اليه أصحابه فيخرج فأنزل الله هذه الآية فالارض هنا أرض المدينة وقيل الارض أرض مكة والآية مكية والمعنى هم المشركون أن يخرجوه منها فكفهم الله عنه حتى أمره بالخروج للهجرة فخرج بنفسه وهذا اليق بالآية لان ما قبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية وقيل هم المشركون كلهم وأرادوا أن يستفزوه من ارض العرب باجتماعهم وتظاهرهم عليه فمنع الله رسوله ولم ينالوا منه ما أملوه والاستفزاز الازعاج (واذا لايلبثون خلافك الا قليلا) أى لا يبقون بعد اخراجك الا زمانا قليلا حتى يهلكوا قوله سبحانه وتعالى (سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا) يعنى ان كل قوم اخرجوا رسولهم من بين اظهرهم فسنة الله أن يهلكهم وان لا يعذبهم مادام نبيهم بينهم فاذا خرج من بين اظهرهم عذبهم (ولا تجد لسنتنا تحويلا) أى تبديلا قوله سبحانه وتعالى (اقم الصلاة لدلوك الشمس) روى عن ابن مسعود انه قال الدلوك الغروب وهو قول النخعى ومقاتل والضحاك والسدى وقال ابن عباس وابن عمر وجابر هو زوال الشمس وهو قول عطاء وقتادة ومجاهد والحسن واكثر التابعين ومعنى اللفظ يجمعهما لان اصل الدلوك الميل والشمس تميل اذا زالت واذا غربت والحمل على الزوال أولى القولين لكثرة القائلين به واذا حملنا عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها فدلوك الشمس يتناول صلاة الظهر والعصر (الى غسق الليل) أى ظهور ظلمته وقال ابن عباس بدو الليل وهذا يتناول المغرب والعشاء (وقرآن الفجر) يعنى صلاة الفجر سمى

الصلاة قرآنا لانها لاتجوز الا بقرآن (ان قرآن الفجر كان مشهودا) أي يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار (خ) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول تفضل صلاة الجميع صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين جزءا وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ثم يقول أبو هريرة اقرؤا ان شئتم ان قرآن الفجر كان مشهودا قال الامام فخر الدين الرازي في تفسيره هذا دليل قاطع قوي على ان التغليس افضل من التنوير لان الانسان اذا شرع فيها من أول الصبح ففي ذلك الوقت الظلمة باقية فتكون ملائكة الليل حاضرين ثم اذا امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثيرها زالت الظلمة وظهر الضوء وحضرت ملائكة النهار اما اذا ابتدأ بهذه الصلاة في وقت الاسفار فهنالك لم يبق أحد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور في الآية فثبت ان قوله تعالى ان قرآن الفجر كان مشهودا دليل على ان الصلاة في اول وقتها افضل قوله سبحانه وتعالى (ومن الليل فتهجد به) أي قم بعد نومك والتهجد لا يكون الا بعد القيام من النوم والمراد من الآية قيام الليل للصلاة وكانت صلاة الليل فريضة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى الامة في الابتداء لقوله تعالى يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا نصفه ثم نزل التخفيف فصار الوجوب منسوخا في حق الامة بالصلوات الخمس وبقي قيام الليل على الاستحباب بدليل قوله تعالى فاقرؤا ما تيسر منه وبقي الوجوب ثابتا في حق النبي صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى (نافلة لك) أي زيادة لك يريد فريضة زائدة على سائر الفرائض التي فرضها الله عليك روي عن عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث هن علي فريضة وهن سنة لكم الوتر والسواك وقيام الليل وقيل ان الوجوب صار منسوخا في حقه كما في حق الامة فصار قيام الليل نافلة لان الله سبحانه وتعالى قال نافلة لك ولم يقل عليك فان قلت ما معنى التخصيص اذا كان زيادة في حق المسلمين كما في حقه صلى الله عليه وسلم قلت فائدة التخصيص ان النوافل كفارات لذنوب العباد والنبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكانت له نافلة وزيادة في رفع الدرجات

(فصــــل) في الاحاديث الواردة في قيام الليل (ق) عن المغيرة بن شعبة قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه فقيل له اتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا عن زيد بن خالد الجهني قال لأرمقن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فتوسدت عتبته أو فسطاطه فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم صلى ركعتين طويلتين طويلتين طويلتين ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة لفظ أبي داود (ق) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن انه سأل عائشة كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان قالت ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على احدى عشرة ركعة يصلي اربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي اربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثا قالت عائشة فقلت يا رسول الله اتنام قبل أن توتر فقال يا عائشة ان عيني تنامان ولا ينام قلبي (ق) عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء الى الفجر احدى عشرة ركعة يسلم بين كل ركعتين ويوتر بواحدة ويسجد سجدتين قدر ما يسجد ويقرأ احدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه فاذا سكت المؤذن من صلاة الفجر وتبين له الفجر قام فركع ركعتين خفيفتين ثم اضطجع على شقه الايمن حتى يأتيه المؤذن للاقامة (خ) عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام من الليل افتتح صلاته بركعتين خفيفتين عن عوف بن مالك الاشجعي قال قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة الا وقف وسأل ولا يمر بآية عذاب الا وقف وتعوذ ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ثم سجد بقدر قيامه ثم قال في سجوده مثل ذلك ثم قام فقرأ بآل عمران ثم قرأ سورة النساء أخرجه ابو داود والنسائي عن عائشة قالت قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بآية من القرآن ليلة أخرجه الترمذي (ق)

(ان قرآن الفجر كان مشهودا) يشهده ملائكة الليل والنهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار أو يشهده الكثير من المصلين في العادة (ومن الليل) وعليك بعض الليل (فتهجد) والتهجد ترك الهجود للصلاة ويقال في النوم أيضا تهجد (به) بالقرآن (نافلة لك) عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس وضع نافلة موضع تهجدا لان التهجد عبادة زائدة فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة غنيمة لك أو فريضة عليك خاصة دون غيرك لانه تطوع لهم

عن الاسود قال سألت عائشة كيف كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل قالت كان ينام اوّله ويقوم آخره فيصلي ثم يرجع الى فراشه فاذا اذن المؤذن وثب فان كانت به حاجة اغتسل والا توضأ وخرج عن انس قال ما كنا نشاء أن نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليل مصليا الا رأيناه ولا نشاء ان نراه نائما الا رأيناه اخرجه النسائي زاد في رواية غيره قال وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيئا و يفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئا وقوله عز وجل (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) اجمع المفسرون على ان عسى من الله واجب وذلك لان لفظة عسى تفيد الاطماع ومن اطمع انسانا في شيء ثم احرمه كان ذلك عارا عليه والله اكرم من أن يطمع أحدا ثم لا يعطيه ما اطمعه فيه والمقام المحمود هو مقام الشفاعة لانه يحمده فيه الاوّلون والآخرون (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل نبي دعوة مستجابة واني اختبأت دعوتي شفاعة لامّتي فهي نائلة منكم ان شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئا (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فمن صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا ثم سلوا لي الوسيلة فانها منزلة في الجنة لا تنبغي الا لعبد من عباد الله وارجو أن اكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة (م) عن جابر بن عبد الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامّة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة (ق) عن انس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك وفي رواية فيلهمون لذلك فيقولون لو استشفعنا الى ربنا حتى يريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون انت آدم أبو البشر خلقك الله بيده واسكنك جنته واسجد لك ملائكته وعلمك اسماء كل شيء اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناكم فيذكر خطيئته التي اصاب فيستحيي ربه منها ولكن ائتوا نوحا اوّل رسول بعثه الله الى اهل الارض فيأتون نوحا فيقول لست هناكم فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها ولكن ائتوا ابراهيم الذي اتخذه الله خليلا فيأتون ابراهيم فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها ولكن ائتوا موسى الذي كلمه الله واعطاه التوراة قال فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته فيأتون عيسى روح الله وكلمته فيقول لست هناكم ولكن ائتوا محمدا صلى الله عليه وسلم عبدا قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأتوني فأستأذن على ربي تعالى فيؤذن لي فاذا أنا رأيته وقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله فيقال يا محمد ارفع رأسك قل تسمع سل تعطه اشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي ثم اشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وادخلهم الجنة ثم اعود فأقع ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال لي ارفع يا محمد رأسك قل تسمع سل تعطه اشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي ثم اشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وادخلهم الجنة قال فلا ادري في الثالثة أو في الرابعة قال فأقول يا رب ما بقي في النار الا من حبسه القرآن أي من وجب عليه الخلود وفي رواية للبخاري ثم تلا هذه الآية عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا قال وهذا المقام المحمود الذي وعده نبيكم صلى الله عليه وسلم زاد في رواية فقال النبي صلى الله عليه وسلم يخرج من النار من قال لا اله الا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ثم يخرج من النار من قال لا اله الا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة ثم يخرج من النار من قال لا اله الا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة قال يزيد بن زريع في حديث عقبة ذرة وفي رواية من ايمان مكان خير وفي حديث معبد بن هلال العنزي عن انس في حديث الشفاعة وذكر نحوه وفيه فأقول يا رب امّتي امّتي فيقال انطلق فمن كان في قلبه ادنى ادنى أدنى من مثقال حبة من خردل من ايمان فأخرجه من النار فأنطلق فافعل قال فلما خرجنا من عند انس مررنا بالحسن فسلمنا عليه فحدثناه بالحديث الى هذا الموضع فقال هيه فقلنا

قوله قال يزيد بن زريع في حديث عقبة ذرة الذي في صحيح مسلم الا ان شعبة جعل مكان الذرة ذرة يعني بضم الدال كما ضبطه شارح النووي وكما يعلم من قول مسلم بعد صحف فيها ابو بسطام مصححه

لم يزدنا على هذا فقال لقد حدثني وهو يومئذ جميع منذ عشرين سنة كما حدثكم ثم قال ثم اعود في الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم اخر له ساجدا فيقال لي يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع فأقول يا رب ائذن لي في من قال لا اله الا الله قال ليس ذاك لك أو قال ليس ذاك اليك ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجن منها من قال لا اله الا الله قوله وهو يومئذ جميع أي مجتمع الذهن والرأي عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه الا تحت لوائي وأنا اول من تنشق عنه الارض ولا فخر قال فيفزع الناس ثلاث فزعات فيأتون آدم فيقولون انت ابونا اشفع لنا الى ربك فيقول اني اذنبت ذنبا عظيما فاهبطت به الى الارض ولكن ائتوا نوحا فيأتون نوحا فيقول اني دعوت على اهل الارض دعوة فاهلكوا ولكن اذهبوا الى ابراهيم فيأتون ابراهيم فيقول اني كذبت ثلاث كذبات ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منها كذبة الا ما حل بها عن دين الله ولكن ائتوا موسى فيأتون موسى فيقول قد قتلت نفسا ولكن ائتوا عيسى فيأتون عيسى فيقول اني عبدت من دون الله ولكن ائتوا محمدا فيأتوني فأنطلق معهم قال ابن جدعان قال انس فكأني انظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها فيقال من هذا فيقال محمد فيفتحون لي ويقولون مرحبا فاخر ساجدا فيلهمني الله من الثناء والحمد فيقال لي ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع وقل يسمع لقولك وهو المقام المحمود الذي قال الله سبحانه وتعالى عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا قال سفيان ليس عن انس غير هذه الكلمة فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها فيقال من هذا فيقال محمد فيفتحون لي ويرحبون بي فيقولون مرحبا فاخر ساجدا فيلهمني الله من الثناء والحمد اخرجه الترمذي قوله ما حل المماحلة المخاصمة والمجادلة والمعنى انه عليه الصلاة والسلام خاصم وجادل عن دين الله بتلك الالفاظ التي صدرت منه وقوله فاقعقعها أي احركها حركة شديدة والقعقعة حكاية أصوات الترس وغيره مما له صوت عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا اول الناس خروجا اذا بعثوا وأنا خطيبهم اذا وفدوا وأنا مبشرهم اذا أيسوا ولواء الحمد يومئذ بيدي وأنا اكرم ولد آدم على ربي ولا فخر اخرجه الترمذي زاد في رواية غير الترمذي وأنا مستشفعهم اذا حبسوا الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدي يطوف على خدام كأنهن بيض مكنون أو لؤلؤ منثور (م) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم يوم القيامة واول من تنشق عنه الارض واول شافع واول مشفع زاد الترمذي قال انا اول من تنشق عنه الارض فاكسى حلة من حلل الجنة ثم اقوم عن يمين العرش فليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال ان الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الاذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد عليه افضل الصلاة والسلام فيشفع ليقضي بين الخلائق فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاما محمودا يحمده فيه أهل الجمع كلهم (م) عن يزيد بن صهيب قال كنت قد شغفني رأي من رأي الخوارج فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد أن نحج ثم نخرج على الناس قال فمررنا على المدينة فاذا جابر بن عبد الله جالس الى سارية يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واذا هو قد ذكر الجهنميين فقلت يا صاحب رسول الله ما هذا الذي تحدثوننا والله يقول انك من تدخل النار فقد اخزيته وكلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها فما هذا الذي تقولون قال اتقرأ القرآن قلت نعم قال فاقرأ ما قبله انه في الكفار ثم قال فهل سمعت بمقام محمد الذي يبعثه الله فيه قلت نعم قال فان مقام محمد صلى الله عليه وسلم المحمود الذي يخرج الله به من يخرج من النار قال ثم نعت وضع الصراط ومر الناس عليه قال واخاف أن لا أكون احفظ ذلك قال غير انه قد زعم ان قوما يخرجون من النار بعد أن يكونوا فيها قال يعني فيخرجون كأنهم عيدان السماسم قال فيدخلون نهرا من انهار الجنة فيغتسلون فيه فيخرجون منه كأنهم القراطيس فرجعنا فقلنا ويحكم اترون هذا الشيخ يكذب على رسول

الله صلى الله عليه وسلم فرجعنا فلا والله ماخرج غير رجل واحد او كما قال والاحاديث في الشفاعة كثيرة واوّل من انكرها عمرو بن عبيد وهو مبتدع باتفاق أهل السنة وروى أبو وائل عن ابن مسعود انه قال ان الله اتخذ ابراهيم خليلا وان صاحبكم خليل الله واكرم الخلق عليه ثم قرأ عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا قال يقعده على العرش وعن مجاهد مثله وعن عبد الله بن سلام قال يقعد على الكرسي قوله عز وجل (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق) المراد منهما الادخال والاخراج قال ابن عباس معناه ادخلني مدخل صدق المدينة واخرجني مخرج صدق من مكة نزلت حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة وقيل معناه اخرجني من مكة آمنا من المشركين وأدخلني مكة ظاهرا عليها بالفتح وقيل ادخلني في أمرك الذي ارسلتني به من النبوة مدخل صدق واخرجني من الدنيا وقد قمت بما وجب علي من حق النبوة مخرج صدق وقيل معناه ادخلني في طاعتك مدخل صدق واخرجني من المناهي مخرج صدق وقيل معناه ادخلني حيثما ادخلتني بالصدق وأخرجني بالصدق ولا تجعلني ممن يخرج بوجه ويدخل بوجه فان ذا الوجهين لا يكون آمنا عند الله (واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) أي حجة بينة وقيل ملكا قويا تنصرني به على من عاداني وعزا ظاهرا اقيم به دينك فوعده الله لينزعن ملك فارس والروم وغيرهما ويجعله له واجاب دعاءه فقال له والله يعصمك من الناس وقال ليظهره على الدين كله وقال وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض الآية (وقل جاء الحق) يعني الاسلام والقرآن (وزهق الباطل) أي الشرك والشيطان (ان الباطل كان زهوقا) أي مضمحلا غير ثابت وذلك ان الباطل وان كان له دولة وصولة في وقت من الاوقات فهو سريع الذهاب والزوال (ق) عن عبد الله بن مسعود قال دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد قوله سبحانه وتعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء) من في قوله تعالى من القرآن لبيان الجنس والمعنى ننزل من هذا الجنس الذي هو قرآن ما هو شفاء أي بيان من الضلالة والجهالة يتبين به المختلف فيه ويتضح به المشكل ويستشفى به من الشبهة ويهتدى به من الحيرة وهو شفاء القلوب بزوال الجهل عنها وقيل هو شفاء للامراض الباطنة والظاهرة وذلك ٢ لانها تنقسم الى نوعين أحدهما الاعتقادات الباطلة والثاني الاخلاق المذمومة اما الاعتقادات الباطلة فأشدها فسادا الاعتقادات الفاسدة في الذات والصفات والنبوات والقضاء والقدر والبعث بعد الموت فالقرآن كتاب مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه الاشياء وابطال المذاهب الفاسدة لاجرم كان القرآن شفاء لما في القلوب من هذا النوع وأما النوع الثاني وهو الاخلاق المذمومة فالقرآن مشتمل على التنفير منها والارشاد الى الاخلاق المحمودة والاعمال الفاضلة فثبت ان القرآن شفاء من جميع الامراض الباطنة وأما كونه شفاء من الامراض الجسمانية فلان التبرك بقراءته يدفع كثيرا من الامراض يدل عليه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في فاتحة الكتاب وما يدريك انها رقية (ورحمة للمؤمنين) لما كان القرآن شفاء الامراض الباطنة والظاهرة فهو جدير بأن يكون رحمة للمؤمنين (ولا يزيد الظالمين الا خسارا) لان الظالم لا ينتفع به والمؤمن ينتفع به فكان رحمة للمؤمنين وخسارا للظالمين وقيل لان كل آية تنزل يتجدد لهم تكذيب بها فيزداد خسارهم قال قتادة لم يجالس القرآن أحد الا قام عنه بزيادة أو نقصان قضاء الله الذي قضى شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا قوله سبحانه وتعالى (واذا أنعمنا على الانسان) أي بالصحة والسعة (أعرض) اي عن ذكرنا ودعائنا (ونأى بجانبه) أي تباعد منا بنفسه وترك التقرب الينا بالدعاء وقيل معناه تكبر وتعظم (واذا مسه الشر) أي الشدة والضر (كان يؤسا) أي آيسا قنوطا وقيل معناه انه يتضرع ويدعو عند الضر والشدة فاذا تأخرت الاجابة يئس فلا ينبغي للمؤمن ان يدع الدعاء ولو تأخرت الاجابة قوله عز وجل (قل

كل

(عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) نصب على الظرف أي عسى ان يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقاما محمودا أو ضمن يبعثك معنى يقيمك وهو مقام الشفاعة عند الجمهور ويدل عليه الاخبار أو هو مقام يعطى فيه لواء الحمد (وقل رب أدخلني مدخل صدق) هو مصدر اي ادخلني القبر ادخالا مرضيا على طهارة من الزلات (وأخرجني مخرج صدق) أي اخرجني منه عند البعث اخراجا مرضيا ملقى بالكرامة آمنا من الملامة دليله ذكره على اثر ذكر البعث وقيل نزلت حين امر بالهجرة يريد ادخال المدينة والاخراج من مكة او هو عام في كل ما يدخل فيه ويلابسه من امر ومكان (واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) حجة تنصرني على من خالفني او ملكا وعزا قويا ناصرا للاسلام على الكفر مظهرا له عليه (وقل جاء الحق) الاسلام (وزهق) وذهب وهلك (الباطل) الشرك او جاء القرآن وهلك الشيطان (ان الباطل كان زهوقا) كان مضمحلا في كل أوان (وننزل) وبالتخفيف ابو عمرو (من القرآن) من للتبيين (ما هو شفاء) من امراض القلوب (ورحمة) وتفريج للكروب وتطهير للعيوب وتكفير للذنوب (للمؤمنين) وفي الحديث من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله (ولا يزيد الظالمين) الكافرين (الا خسارا) ضلالا لتكذيبهم به وكفرهم (واذا انعمنا على الانسان) بالصحة والسعة (أعرض) عن ذكر الله او انعمنا بالقرآن اعرض (ونأى بجانبه) تأكيد للاعراض لان الاعراض عن الشئ ان يوليه عرض وجهه والنأي بالجانب ان يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره او اراد الاستكبار لان ذلك من عادة المستكبرين نأى بالامالة حمزة ويكسرها علي (واذا مسه الشر) الفقر والمرض او نازلة من النوازل (كان يؤسا) شديد اليأس من روح الله (قل

٢ قوله لانها تنقسم الى نوعين أي الامراض الغير الجسمانية بدليل قوله بعد وأما كونه شفاء من الامراض الجسمانية والعبارة في الفخر الرازي بغاية التهذيب فليراجع

كل) أي كل احد (يعمل على شاكلته) قال ابن عباس على ناحيته وقيل الشاكلة الطريقة أي على طريقته التي جبل عليها وفيه وجه آخر وهو ان كل انسان يعمل على حسب جوهر نفسه فان كانت نفسه شريفة طاهرة صدرت عنه افعال جميلة واخلاق زكية طاهرة وان كانت نفسه كدرة خبيثة صدرت عنه افعال خبيثة فاسدة رديئة (فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أي أوضح طريقا وأحسن مذهبا واتباعا للحق قوله سبحانه وتعالى (و يسألونك عن الروح قل الروح من امر ربى) (ق) عن عبد الله بن مسعود قال بينما انا امشي مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه يسمعكم ما تكرهون فقاموا اليه وفي رواية فقام اليه رجل منهم فقال يا أبا القاسم ما الروح فسكت وفي رواية فقالوا احدثنا عن الروح فقام ساعة ينتظر الوحي وعرفت انه يوحى اليه فتأخرت حتى صعد الوحي قال و يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا فقال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لا تسألوه وفي رواية وما أوتوا من العلم الا قليلا قال الاعمش هكذا في قراءتنا العسيب جريد النخل وسعفه وقال ابن عباس ان قريشا اجتمعوا وقالوا ان محمدا نشأ فينا بالامانة والصدق وما اتهمناه بكذب قط وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفرا الى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فانهم اهل كتاب فبعثوا جماعة اليهم فقالت اليهود سلوه عن ثلاثة اشياء فان اجاب عن كلها او لم يجب عن شئ منها فليس بنبي وان اجاب عن اثنين ولم يجب عن واحدة فهو نبي فاسألوه عن فتية فقدوا في الزمن الاول ما كان شأنهم فانه كان لهم حديث عجيب وعن رجل بلغ مشرق الارض ومغربها ما خبره وعن الروح قال فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال اخبركم عما سألتم غدا ولم يقل ان شاء الله فلبث الوحي قال مجاهد اثنى عشر يوما وقيل خمسة عشر يوما وقيل اربعين يوما واهل مكة يقولون قد وعدنا محمد غدا وقد أصبحنا لا يخبرنا بشئ حتى حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكث الوحي وشق عليه ما يقوله اهل مكة ثم نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى ولا تقولن لشئ اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله ونزل في الفتية ام حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ونزل في من بلغ المشرق والمغرب قوله و يسألونك عن ذي القرنين ونزل في الروح و يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي واختلفوا في الذي وقع السؤال عنه فروي عن ابن عباس انه جبريل وعن علي انه ملك له سبعون ألف وجه في كل وجه سبعون الف لسان لكل لسان سبعون الف لغة يسبح الله تعالى بكلها وقال مجاهد خلق على صورة بني آدم لهم أيد وأرجل ورؤس ليسوا بملائكة ولا ناس يأكلون الطعام وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله خلقا أعظم من الروح غير العرش لو شاء ان يبتلع السموات والارض ومن فيها بلقمة واحدة لفعل ذلك صورة خلقه على صورة الملائكة وصورة وجهه على صورة وجه الآدميين يقوم يوم القيامة على يمين العرش وهو أقرب الخلق الى الله تعالى اليوم عند الحجب السبعين وأقرب الخلق الى الله يوم القيامة وهو ممن يشفع لاهل التوحيد ولولا ان بينه و بين الملائكة سترا من نور لاحترق أهل السموات من نوره وقيل الروح هو القرآن لان الله سماه روحا ولان به حياة القلوب وقيل هو الروح المركب في الخلق الذي به يحيا الانسان وهو أصح الاقوال وتكلم قوم في ماهية الروح فقال بعضهم هو الدم الا ترى ان الانسان اذا مات لا يفوت منه شئ الا الدم وقال قوم هو نفس الحيوان بدليل انه يموت باحتباس النفس وقال قوم هو عرض وقال قوم هو جسم لطيف يحيا به الانسان وقيل الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء ألا ترى انه اذا كان موجودا يكون الانسان موصوفا بجميع هذه الصفات واذا خرج منه ذهب الكل واقاويل الحكماء والصوفية في ماهية الروح كثيرة وليس هذا موضع استقصائها واولى الاقاويل ان يوكل علمه الى الله عز وجل وهو قول أهل السنة قال عبد الله بن بريدة ان الله لم يطلع على الروح ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا بدليل قوله قل الروح من امر ربي أي من علم ربي الذي استأثر به (وما أوتيتم من العلم) اي من علم ربي (الا قليلا) أي في جنب علم الله عز وجل الخطاب عام وقيل هو خطاب

كل) اى كل احد (يعمل على شاكلته) على مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلال (فربكم اعلم بمن هو اهدى سبيلا) اسد مذهبا وطريقة (و يسألونك عن الروح قل الروح من امر ربى) أى من أمر يعلمه ربي الجمهور على انه الروح الذي في الحيوان سألوه عن حقيقته فأخبر انه من امر الله أي مما استأثر بعلمه وعن ابي هريرة لقد مضى النبي صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح وقد عجزت الاوائل عن ادراك ماهيته بعد انفاق الاعمار الطويلة على الخوض فيه والحكمة في ذلك تعجيز العقل عن ادراك معرفة مخلوق مجاور له ليدل على انه عن ادراك خالقه اعجز ولذا رد ما قيل في حده انه جسم دقيق هوائي في كل جزء من الحيوان وقيل هو خلق عظيم روحاني اعظم من الملك وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو جبريل عليه السلام نزل به الروح الامين على قلبك وعن الحسن القرآن دليله وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ولان به حياة القلوب ومن امر ربي أي من وحيه وكلامه ليس من كلام البشر وروي ان اليهود بعثت الى قريش ان سلوه عن اصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فان اجاب عن الكل او سكت عن الكل فليس بنبي وان اجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي فبين لهم القصتين وابهم امر الروح وهو مبهم في التوراة فندموا على سؤالهم وقيل كان السؤال عن خلق الروح يعني اهو مخلوق ام لا وقوله من امر ربي دليل خلق الروح فكان هذا جوابا (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) الخطاب عام فقد روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب ام أنت معنا فيه فقال بل نحن وانتم لم نؤت من العلم الا قليلا وقيل هو خطاب لليهود خاصة لانهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم قد اوتينا التوراة وفيها الحكمة وقد تلوت ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا فقيل لهم ان علم التوراة قليل في جنب علم الله فالقلة والكثرة من الامور الاضافية فالحكمة التي اوتيها العبد خير كثير في نفسها الا انها اذا اضيفت الى علم الله تعالى فهي قليلة ثم نبه على نعمة الوحي وعزاه بالصبر على اذى الجدال في السؤال بقوله

لليهود فانهم كانوا يقولون أوتينا التوراة وفيها العلم الكثير فقيل لهم ان علم التوراة قليل فى جنب علم الله وقيل ان القلة والكثرة تدوران مع الاضافة فوصف الشئ بالقلة مضافا الى ما فوقه وبالكثرة مضافا الى ما تحته وقيل ان النبى صلى الله عليه وسلم علم معنى الروح ولكن لم يخبر به لان ترك الاخبار به كان علما لنبوته والقول الأصح هو ان الله عز وجل استأثر بعلم الروح قوله عز وجل (ولئن شئنا لنذهبن بالذى اوحينا اليك) معناه انا كما منعناك علم الروح عنك وعن غيرك ان شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من الصدور والمصاحف فلم نترك له أثرا وبقيت كما كنت ما تدرى ما الكتاب (ثم لا تجد لك به علينا وكيلا) معناه لا تجد بعد الذهاب به من يتوكل علينا باسترداده عليك واعادته محفوظا مسطورا (الا رحمة من ربك) معناه الا ان يرحمك ربك فيرده عليك وقيل هو على الاستثناء المقطع معناه لكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظا فان قلت كيف يذهب بالقرآن وهو كلام الله عز وجل قلت المراد منه محو ما فى المصاحف واذهاب ما فى الصدور وقال عبد الله بن مسعود اقرؤا القرآن قبل ان يرفع فانه لا تقوم الساعة حتى يرفع قيل هذه المصاحف ترفع فكيف بما فى صدور الناس قال يسرى عليه ليلا فيرفع ما فى صدورهم فيصبحون لا يحفظون شيئا ولا يجدون مما فى المصاحف شيئا ثم تفيضون فى الشعر وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال لا تقوم الساعة حتى يرفع القرآن من حيث نزل له دوى حول العرش كدوى النحل فيقول الرب مالك فيقول يارب أتلى ولا يعمل بى (ان فضله كان عليك كبيرا) اى بسبب بقاء العلم والقرآن عليك وجعلك سيد ولد آدم وختم النبيين بك واعطائك المقام المحمود قوله سبحانه وتعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) اى لا يقدرون على ذلك (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) أى عونا نزلت حين قال المشركون لو نشاء لقلنا مثل هذا فكذبهم الله عز وجل فالقرآن معجز فى النظم والتأليف والاخبار عن الغيوب وهو كلام فى اعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق لانه كلام الخالق وهو غير مخلوق ولو كان مخلوقا لاتوا بمثله قوله عز وجل (ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى رددنا وكررنا من كل معنى هو كالمثل فى غرابته وحسنه وقيل معناه من كل وجه من العبر والاحكام والوعد والوعيد والقصص وغيرها (فأبى اكثر الناس الا كفورا) اى جحودا قوله سبحانه وتعالى (وقالوا لن نؤمن لك) أى لن نصدقك (حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا) لما تبين اعجاز القرآن وانضمت اليه معجزات أخر وبينات ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فقالوا لن نؤمن لك روى عكرمة عن ابن عباس ان عتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبا البخترى بن هشام والاسود بن عبد المطلب وزمعة بن الاسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى امية وامية بن خلف والعاص بن وائل ونبيها ومنبها ابنى الحجاج اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا اليه ان اشراف قومك قد اجتمعوا اليك ليكلموك فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا وهو يظن انه بدا لهم فى أمره بداء وكان حريصا يحب رشدهم حتى جلس اليهم فقالوا يا محمد انا بعثنا اليك لنعذر فيك وانا والله لا نعلم رجلا من العرب ادخل على قومه ما ادخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الاحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة وما بقى من قبيح الا وقد جئته فيما بيننا وبينك فان كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جعلنا لك من أموالنا حتى تكون اكثرنا مالا وان كنت تريد الشرف سودناك علينا وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك لا تستطيع رده بذلنا لك اموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه ونعذر فيك وكانوا يسمون التابع من الجن الرئى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بى ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا للشرف عليكم ولا للملك عليكم ولكن الله بعثنى اليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرنى ان

(ولئن شئنا لنذهبن بالذى اوحينا اليك) لنذهبن جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط واللام الداخلة على ان موطئة للقسم والمعنى ان شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من الصدور والمصاحف فلم نترك له اثرا (ثم لا تجد لك به علينا وكيلا) اى ثم لا تجد لك بعد الذهاب به من يتوكل علينا باسترداده واعادته محفوظا مسطورا (الا رحمة من ربك ان فضله كان عليك كبيرا) اى الا ان يرحمك ربك فيرده عليك كان رحمته تتوكل عليه بالرد او يكون على الاستثناء المنقطع اى ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظا بعد المنة العظيمة فى تنزيله وتحفيظه ونزل جوابا لقول النضر لو نشاء لقلنا مثل هذا (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) معينا ولا يأتون جواب قسم محذوف ولولا اللام الموطئة لجاز ان يكون جوابا للشرط كقوله * يقول لا غائب مالى ولا حرم * لان الشرط وقع ماضيا اى لو تظاهروا على ان يأتوا بمثل هذا القرآن فى بلاغته وحسن نظمه وتأليفه لعجزوا عن الاتيان بمثله (ولقد صرفنا) رددنا وكررنا (للناس فى هذا القرآن من كل مثل) من كل معنى هو كالمثل فى غرابته وحسنه (فأبى اكثر الناس الا كفورا) جحودا وانما جاز فأبى اكثر الناس الا كفورا ولم يجز ضربت الا زيدا لان ابى متأول بالنفى كأنه قيل فلم يرضوا الا كفورا ولما تبين اعجاز القرآن وانضمت اليه المعجزات الاخر ولزمتهم الحجة وغلبوا اقترحوا الآيات فعل المبهوت المحجوج المتحير (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا) وبالتخفيف كوفى (من الارض) اى مكة (ينبوعا) عينا غزيرة من شأنها ان تنبع بالماء لا تقطع يفعول من نبع الماء

اكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني فهو حظكم من الدنيا والآخرة وان تردوه على أصبر لامر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم فقالوا يا محمد ان كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت انه ليس أحد أضيق بلادا ولا أشد عيشا منا فسل لنا ربك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وبسط لنا بلادنا ويفجر لنا فيها الانهار كانهار الشأم والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن معهم قصى بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل فان صدقوك صدقناك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهذا بعثت فقد بلغتكم ما أرسلت به فان تقبلوه فهو حظكم وان تردوه أصبر لامر الله تعالى قالوا فان لم تفعل هذا فسل لنا ربك أن يبعث ملكا يصدقك واسأله ان يجعل لك جنات وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها على ما تريد فانك تقوم بالاسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه فقال ما بعثت بهذا ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا قالوا فأسقط السماء كما زعمت ان ربك ان شاء فعل فقال ذلك الى الله ان شاء فعل ذلك بكم وقال قائل منهم لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا فلما قالوا ذلك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام معه عبد الله بن أبي أمية وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب فقال يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك لانفسهم امورا يعرفون بها منزلتك من الله فلم تفعل ثم سألوك ان تعجل ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل فوالله ما أومن لك أبدا حتى تتخذ الى السماء سلما ترقى فيه وانا أنظر حتى تأتيها فتأتي بنسخة منشورة معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول وأيم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهله حزينا لما رأى من مباعدتهم فأنزل الله تعالى وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض يعني أرض مكة ينبوعا أي عيونا (أو تكون لك جنة من نخيل وعنب) أي بستان فيه نخيل وعنب (فتفجر الانهار خلالها تفجيرا) أي تشقيقا (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) أي قطعا (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) قال ابن عباس كفيلا أي يكفلون بما تقول وقيل هو جمع القبيلة أي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة يشهدون لك بصحة ما تقول وقيل معناه نراهم مقابلة عيانا (أو يكون لك بيت من زخرف) أي من ذهب وأصله الزينة (أو ترقى) أي تصعد (في السماء ولن نؤمن لرقيك) أي لاجل رقيك (حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) أمرنا فيه باتباعك وهذا قول عبد الله بن أبي أمية (قل) أي قل يا محمد (سبحان ربي) أمره بتنزيهه وتمجيده وفيه معنى التعجب (هل كنت الا بشرا رسولا) أي كسائر الرسل لاممهم وكان الرسل لا يأتون قومهم الا بما يظهره الله عليهم من الآيات فليس أمر الآيات اليهم انما هو الى الله تعالى ولو أراد ان ينزل ما طلبوا لفعل ولكن لا ينزل الآيات على ما اقترحه البشر وما أنا الا بشر وليس ما سألتم في طوق البشر واعلم ان الله سبحانه وتعالى قد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه وما أشبهها من الآيات وليست بدون ما اقترحوه بل هي أعظم مما اقترحوه والقوم عامتهم كانوا متعنتين ولم يكن قصدهم طلب الدليل ليؤمنوا فرد الله تعالى عليهم سؤالهم قوله عز وجل (وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى) اى الوحي والمعنى وما منعهم الايمان بالقرآن وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم الا شبهة تلجلجت في صدورهم وهي انكارهم ان يرسل الله البشر وهو قوله تعالى (الا ان قالوا) اى جهلا منهم (ابعث الله بشرا رسولا) وذلك ان الكفار كانوا يقولون لن نؤمن لك لانك بشر وهلا بعث الله الينا ملكا فأجابهم الله بقوله (قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين) اى مستوطنين مقيمين فيها (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) اى من جنسهم لان الجنس الى الجنس اميل (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) اى على انى رسوله اليكم وانى قد بلغت ما ارسلت به اليكم وانكم كذبتم وعاندتم (انه كان بعباده) يعني المنذرين والمنذرين (خبيرا بصيرا) أي عالما بأحوالهم فهو مجازيهم وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم

(اوتكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر) والتشديد هنا مجمع عليه (الانهار خلالها) وسطها (تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) بفتح السين مدني وعاصم أي قطعا يقال اعطني كسفة من هذا الثوب وبسكون السين غيرهما جمع كسفة كسدرة وسدر يعنون قوله ان نشأ نخسف بهم الارض او نسقط عليهم كسفا من السماء (او تأتي بالله والملائكة قبيلا) كفيلا بما تقول شاهدا بصحته والمعنى او تأتي بالله قبيلا وبالملائكة قبيلا كقوله كنت منه ووالدي بريا او مقابلا كالعشير بمعنى المعاشر ونحوه لولا انزل علينا الملائكة او نرى ربنا او جماعة حالا من الملائكة (او يكون لك بيت من زخرف) ذهب (او ترقى في السماء) تصعد اليها (ولن نؤمن لرقيك) لاجل رقيك (حتى تنزل علينا) وبالتخفيف ابو عمرو (كتابا) أي من السماء فيه تصديقك (نقرؤه) صفة كتاب (قل) قال مكي وشامي أي قال الرسول (سبحان ربي) تعجب من اقتراحاتهم عليه (هل كنت الا بشرا رسولا) أي انا رسول كسائر الرسل بشر مثلهم وكان الرسل لا يأتون قومهم الا بما يظهره الله عليهم من الآيات فليس امر الآيات الي انما هو الى الله فما بالكم تتخيرونها على (وما منع الناس) يعني اهل مكة ومحل (ان يؤمنوا) نصب بانه مفعول ثان لمنع (اذ جاءهم الهدى) النبي والقرآن (الا أن قالوا) فاعل منع والتقدير وما منعهم الايمان بالقرآن وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم الا قولهم (أبعث الله بشرا رسولا) اي الا شبهة تمكنت في صدورهم وهي انكارهم ان يرسل الله البشر والهمزة في أبعث الله للانكار وما انكروه فقضية حكمته منكر ثم رد الله عليهم بقوله (قل لو كان في الارض ملائكة يمشون) على اقدامهم كما يمشي الانس ولا يطيرون باجنحتهم الى السماء فيسمعوا من اهلها ويعلموا ما يجب علمه (مطمئنين) حال اى ساكنين في الارض قارين (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) يعلمهم الخير ويهديهم المراشد فأما الانس فانما يرسل الملك الى مختار منهم للنبوة فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وارشادهم وبشرا وملكا حالان من رسولا (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) على اني بلغت ما ارسلت به اليكم وانكم كذبتم وعاندتم شهيدا تمييز أو حال (انه كان بعباده) المنذرين والمنذرين (خبيرا) عالما باحوالهم (بصيرا) بافعالهم فهو مجازيهم وهذه تسلية لرسول الله عليه السلام ووعيد للكفرة

(ومن يهد الله فهو المهتد) وبالياء يعقوب وسهل وافقهما ابو عمرو ومدني في الوصل أي من وفقه الله لقبول ما كان من الهدى فهو المهتدى عند الله (ومن يضلل) اى ومن يخذله ولم يعصمه حتى قبل وساوس الشيطان (فلن تجد لهم اولياء من دونه) اى انصارا (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) أى يسحبون عليها كقوله يوم يسحبون في النار على وجوههم وقيل لرسول الله عليه السلام كيف يمشون على وجوههم قال ان الذى امشاهم على اقدامهم قادر على ان يمشيهم على وجوههم (عميا وبكما وصما) كما كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ويتصامون عن استماعه فهم في الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم ولا ينطقون بما يقبل منهم (مأواهم جهنم كلما خبت) طفئ لهبها (زدناهم سعيرا) توقدا (ذلك جزاؤهم بانهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) أى ذلك العذاب بسبب انهم كذبوا بالاعادة بعد الافناء فجعل الله جزاءهم ان سلط النار على اجزائهم تأكلها ثم يعيدها لا يزالون على ذلك ليزيد في تحسرهم على تكذيبهم البعث (اولم يروا) اولم يعلموا (ان الله الذى خلق السموات والارض قادر على ان يخلق مثلهم) من الانس (وجعل لهم اجلا لا ريب فيه) وهو الموت او القيامة (فأبى الظالمون الا كفورا) جحودا مع وضوح الدليل (قل لو انتم تملكون) تقديره لو تملكون انتم لان لو تدخل على الافعال دون الاسماء فلابد من فعل بعدها فاضمر تملك على شريطة التفسير وابدل من الضمير المتصل وهو الواو ضمير منفصل وهو انتم لسقوط ما يتصل به من اللفظ فأنتم فاعل الفعل المضمر وتملكون تفسيره وهذا هو الوجه الذى يقتضيه علم الاعراب واما ما يقتضيه علم البيان فهو ان انتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص وان الناس هم المختصون بالشح المتبالغ (خزائن رحمة ربى) رزقه وسائر نعمه على خلقه (اذا لامسكتم خشية الانفاق) أى لبخلتم خشية ان يفنيه الانفاق (وكان الانسان قتورا) بخيلا (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) عن ابن عباس رضى الله عنهما هى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والطور الذى نتقه على بنى اسرائيل وعن الحسن الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور

آياتٍ

ووعيد الكفار (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه) أى يهدونهم وفيه أيضا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وهو ان الذين حكم لهم بالايمان والهداية وجب ان يصيروا مؤمنين ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل استحال ان ينقلبوا عن ذلك (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) (ق) عن أنس ان رجلا قال يارسول الله قال الله الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أيحشر الكافر على وجهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس الذى امشاه على الرجلين فى الدنيا قادرا على ان يمشيه على وجهه يوم القيامة قال قتادة حين بلغه بلى وعزة ربى وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفا مشاة وصنفا ركبانا وصنفا على وجوههم قيل يارسول الله وكيف يمشون على وجوههم قال ان الذى امشاهم على أقدامهم قادر على ان يمشيهم على وجوههم أما انهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك أخرجه الترمذى الحدب كل ما ارتفع من الارض (عميا وبكما وصما) أى لا يبصرون ولا ينطقون ولا يسمعون فان قلت كيف وصفهم بأنهم عمى وبكم وصم وقد قال الله تعالى ورأى المجرمون النار وقال دعوا هنالك ثبورا وقال سمعوا لها تغيظا وزفيرا فأثبت لهم الرؤية والكلام والسمع قلت فيه أوجه أحدها قال ابن عباس معناه عميا لا يبصرون ما يسرهم بكما لا ينطقون بحجة صما لا يسمعون ما يسرهم الوجه الثانى قيل معناه يحشرون على ما وصفهم الله تعالى ثم تعاد اليهم هذه الاشياء الوجه الثالث قيل معناه هذا حين يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون فيصيرون بأجمعهم عميا وبكما وصما لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون (مأواهم جهنم كلما خبت) أى سكن لهبها وقيل ضعفت وهدأت من غير ان يوجد نقصان فى ايلام الكفار لان الله سبحانه وتعالى قال لا يفتر عنهم وقيل معناه أرادت ان تخبو (زدناهم سعيرا) أى وقودا وقيل معناه خبت أى نضجت جلودهم واحترقت أعيدوا الى ما كانوا عليه وزيد فى سعير النار لتحرقهم (ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا) لما ذكر الوعيد المتقدم قال ذلك جزاؤهم بما كفروا يعنى ذلك العذاب جزاؤهم بسبب كفرهم بآياتنا (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) أجابهم الله ورد عليهم بقوله (أولم يروا ان الله الذى خلق السموات والارض) أى فى عظمها وشدتها (قادر على ان يخلق مثلهم) أى فى صغرهم وضعفهم (وجعل لهم أجلا) أى وقتا لعذابهم (لا ريب فيه) أى لا شك فيه أنه يأتيهم قيل الموت وقيل يوم القيامة (فأبى الظالمون الا كفورا) أى جحودا وعنادا (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى) أى خزائن نعمه ورزقه وقيل ان خزائن الله غير متناهية والمعنى لو أنكم ملكتم من النعم خزائن لا نهاية لها (اذا لامسكتم) أى لبخلتم وحبستم (خشية الانفاق) والفقر والنفاد وهذا مبالغة عظيمة فى وصفهم بهذا الشئ (وكان الانسان قتورا) أى ممسكا بخيلا فان قلت قد يوجد فى جنس الانسان من هو جواد كريم فكيف وصفه بالبخل قلت الاصل فى الانسان البخل لانه خلق محتاج والمحتاج لابد وان يحب ما يدفع به عنه ضرر الحاجة ويمسكه لنفسه الا انه قد يجود لاسباب خارجة مثل أن يحب المدحة أو رجاء ثواب فثبت بهذا أن الاصل فى الانسان البخل قوله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) أى دلالات واضحات قال ابن عباس هى العصا واليد البيضاء والعقدة التى كانت بلسانه فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وقيل عوض فلق البحر واليد السنون ونقص من الثمرات وقيل الطمس والبحر بدل السنين والنقص قيل كان الرجل منهم مع أهله فى الفراش وقد صارا حجرين والمرأة قائمة تخبز وقد صارت حجرا وروى ان عمر بن عبد العزيز سأل محمد بن كعب القرظى عن الآيات فذكر منها الطمس فقال عمر هذا يجب ان يكون الفقيه ثم قال يا غلام اخرج ذلك الجراب فأخرجه فاذا فيه بيض مكسر نصفين وجوز مكسر نصفين وثوم وحمص وعدس كلها حجارة وقيل التسع آيات هى آيات الكتاب وهى الاحكام يدل عليه ما روى عن صفوان بن عسال ان يهوديا قال لصاحبه تعال حتى نسأل هذا النبى فقال الآخر لا تقل نبى فانه لو سمع صارت له أربعة أعين فأتياه فسألاه عن هذه الآية ولقد آتينا موسى تسع

(فاسأل بنى اسرائيل) فقلنا له سل بنى اسرائيل أى سلهم من فرعون وقل له ارسل معى بنى اسرائيل وقوله (اذ جاءهم) متعلق بقوله المحذوف اى فقلنا له سلهم حين جاءهم (فقال له فرعون انى لاظنك ياموسى مسحورا) سحرت فخولط عقلك (قال) اى موسى (لقد علمت) يافرعون (ماانزل هؤلاء) الآيات (الارب السموات والارض) خالقهما (بصائر) حال أى بينات مكشوفات لانك معاند ونحوه وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا اعات على انى لست بمسحور كما وصفتنى بل انا عالم بصحة الامر وان هذه الآيات منزلها رب السموات والارض ثم قارع ظنه بظنه بقوله (وانى لاظنك يافرعون مثبورا) كانه قال ان ظننتنى مسحورا فأنا اظنك مثبورا وظنى أصح من ظنك لان له امارة ظاهرة وهى انكارك ماعرفت صحته ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها واما ظنك فكذب بحت لان قولك مع علمك بصحة امرى انى لاظنك مسحورا قول كذب وقال الفراء مثبورا مصروفا عن الخير من قولهم ماثبرك عن هذا أى مامنعك وصرفك (فأراد) فرعون (ان يستفزهم) يخرجهم أى موسى وقومه (من الارض) اى ارض مصر او ينفيهم عن ظهر الارض بالقتل والاستئصال (فأغرقناه ومن معه جميعا) فحاق به مكره بأن استفزه الله باغراقه مع قبطه (وقلنا من بعده) من بعد فرعون (لبنى اسرائيل اسكنوا الارض) التى أراد فرعون ان يستفزكم منها (فاذا جاء وعد الآخرة) أى القيامة (جئنا بكم لفيفا) جميعا مختلطين اياكم واياهم ثم نحكم بينكم ونميز بين سعدائكم واشقيائكم واللفيف الجماعات من قبائل شتى (وبالحق انزلناه وبالحق نزل) وما انزلنا القرآن الا بالحكمة وما نزل الا ملتبسا بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية الى كل خير اوما أنزلناه من السماء الا بالحق محفوظا بالرصد من الملائكة وما نزل على الرسول الا محفوظا بهم من تخليط الشياطين قال الراوى اشتكى محمد ابن السماك فأخذنا ماءه وذهبنا به الى طبيب نصرانى فاستقبلنا رجل حسن الوجه طيب الرائحة نقى الثوب فقال لنا الى اين فقلنا له الى فلان الطبيب نريه ماء ابن السماك فقال سبحان الله تستعينون على ولى الله بعدو الله اضربوه على الارض وارجعوا الى ابن السماك وقولوا له ضع يدك على موضع الوجع وقل وبالحق انزلناه وبالحق نزل ثم غاب عنا فلم نره فرجعنا الى ابن السماك فأخبرناه بذلك فوضع يده على موضع الوجع وقال ماقال الرجل وعوفى فى الوقت وقال كان ذلك الخضر عليه السلام (وما ارسلناك

45 ث

(الا مبشرا) بالجنة (ونذيرا) من النار (وقرآنا) منصوب بفعل يفسره (فرقناه) اى فصلناه او فرقنا فيه الحق من الباطل (لتقرأه على الناس على مكث) على تؤدة وتثبت (ونزلناه تنزيلا) على حسب الحوادث (قل آمنوا به اولا تؤمنوا) أى اختاروا لانفسكم النعيم المقيم او العذاب الاليم ثم علل بقوله (ان الذين اوتوا العلم من قبله) أى التوراة من قبل القرآن (اذا يتلى عليهم) القرآن (يخرون للاذقان سجدا) حال (ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا) لقوله آمنوا به اولا تؤمنوا أى أعرض عنهم فانهم ان لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بالقرآن فان خيرا منهم وهم العلماء الذين قرؤا الكتب قد آمنوا به وصدقوه فاذا تلى عليهم خروا سجدا وسبحوا الله تعظيما لامره ولانجازه ما وعد فى الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وانزال القرآن عليه وهو المراد بالوعد المذكور ان بمعنى انه وهى تؤكد الفعل كما ان ان تؤكد الاسم وكما اكدت ان باللام فى انهم لمحضرون اكدت ان باللام فى لمفعولا

آيات بينات فقال لا تشركوا بالله شيئا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا بالبرىء الى سلطان ليقتله ولا تسرفوا ولا تقذفوا المحصنات ولا تفروا يوم الزحف وعليكم خاصة اليهود ان لا تعدوا فى السبت فقبلا يده وقالا نشهد انك نبى قال فما يمنعكم ان تتبعونى قالوا ان داود دعا ربه ان لا يزال فى ذريته نبى وانا نخاف ان اتبعناك ان تقتلنا اليهود (فاسأل) يامحمد (بنى اسرائيل) يجوز الخطاب معه والمراد غيره ويجوز ان يكون خاطبه وأمره بالسؤال ليتبين كذبهم مع قومهم (اذ جاءهم) يعنى جاءهم موسى الى فرعون بالرسالة من عند الله عز وجل (فقال له فرعون انى لاظنك ياموسى مسحورا) قال ابن عباس مخدوعا وقيل مطبوبا أى سحروك وقيل معناه ساحرا معطى علم السحر فهذه العجائب التى تفعل من سحرك (قال) موسى (لقد علمت) خطابا لفرعون قال ابن عباس علمه فرعون ولكنه عاند (ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض) يعنى الآيات التسع (بصائر) أى بينات يبصر بها (وانى لاظنك يافرعون مثبورا) قال ابن عباس ملعونا وقيل هالكا وقيل مصروفا عن الخير (فأراد ان يستفزهم من الارض) معناه أراد فرعون ان يخرج موسى وبنى اسرائيل من أرض مصر (فأغرقناه ومن معه جميعا) أى اغرقنا فرعون وجنوده ونجينا موسى وقومه (وقلنا من بعده) أى من بعد هلاك فرعون (لبنى اسرائيل اسكنوا الارض) يعنى أرض مصر والشام (فاذا جاء وعد الآخرة) يعنى القيامة (جئنا بكم لفيفا) أى جميعا الى موقف القيامة واللفيف الجمع الكثير اذا كانوا مختلطين من كل نوع فيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر وقيل أراد بوعد الآخرة نزول عيسى من السماء قوله سبحانه وتعالى (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) يعنى انا ما أردنا بانزال القرآن الا تقريره للحق فلما أردناه هذا المعنى فكذلك وقع وحصل وقيل معناه وما أنزلنا القرآن الا بالحق المقتضى لانزاله وما نزل الا ملتبسا بالحق لاشتماله على الهداية الى كل خير (وما أرسلناك الا مبشرا) يعنى بالجنة للطائعين (ونذيرا) أى مخوفا بالنار للعاصين قوله عز وجل (وقرآنا فرقناه) أى فصلناه وبيناه وقيل فرقنا به بين الحق والباطل وقيل معناه انزلناه نجوما لم ينزل مرة واحدة بدليل قوله تعالى (لتقرأه على الناس على مكث) أى على تؤدة وترسل فى ثلاث وعشرين سنة (ونزلناه تنزيلا) اى على حسب الحوادث (قل آمنوا به اولا تؤمنوا) فيه وعيد وتهديد (ان الذين اوتوا العلم من قبله) قيل هم مؤمنوا أهل الكتاب الذين كانوا يطلبون الدين قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم اسلموا بعد مبعثه مثل زيد بن عمرو بن نفيل وسلمان الفارسى وابى ذر وغيرهم (اذا يتلى عليهم) يعنى القرآن

(يخرّون للاذقان) قال ابن عباس اراد بها الوجوه (سجدا) اى يقعون على الوجوه سجدا (و يقولون سبحان ربنا) اى تعظيما لربنا لانجازه ما وعد فى الكتب المنزلة من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم (ان كان وعد ربنا لمفعولا) اى كائنا واقعا (ويخرّون للاذقان يبكون و يزيدهم خشوعا) اى خضوعا لربهم وقيل يزيدهم القرآن لين قلب و رطوبة عين والبكاء مستحب عند قراءة القرآن عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع ولا اجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم اخرجه الترمذى والنسائى وزاد النسائى فى منخرى مسلم ابدا الولوج الدخول والمنخر الانف عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله اخرجه الترمذى قوله عز وجل (قل ادعوا الله اوادعوا الرحمن) قال ابن عباس سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فجعل يقول فى سجوده يا الله يا رحمن فقال ابو جهل ان محمدا ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو الهين فأنزل الله هذه الآية ومعناه انهما اسمان لله تعالى فسموه بهذا الاسم وبهذا الاسم (أيا ما تدعوا) ما صلة ومعناه أى هذين الاسمين سميتم وذكرتم اومن جميع أسمائه (فله الاسماء الحسنى) يعنى اذا حسنت اسماؤه كلها فهذان الاسمان منها ومعنى كونها حسنى انها مشتملة على معانى التقديس والتعظيم والتمجيد (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) (ق) عن ابن عباس فى قوله ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قال نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختف بمكة وكان اذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فاذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به فقال الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ولا تجهر بصلاتك أى بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم وابتغ بين ذلك سبيلا زاد فى رواية وابتغ بين ذلك سبيلا اسمعهم ولا تجهر حتى يأخذوا عنك القرآن وقيل نزلت الآية فى الدعاء وهو قول عائشة والنخعى ومجاهد ومكحول (ق) عن عائشة ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها قالت نزل ذلك فى الدعاء وقيل كان اعراب من بنى تميم اذا سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا اللهم ارزقنا مالا وولدا يجهرون بذلك فأنزل الله عز وجل ولا تجهر بصلاتك أى لا ترفع صوتك بقراءتك ودعائك ولا تخافت بها المخافتة خفض الصوت والسكوت (وابتغ) أى اطلب (بين ذلك سبيلا) أى طريقا وسطا بين الجهر والاخفاء عن أبى قتادة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لابى بكر مررت بك وأنت تقرأ القرآن وانت تخفض من صوتك فقال انى أسمعت من ناجيت فقال ارفع قليلا وقال لعمر مررت بك وانت تقرأ وانت ترفع من صوتك فقال انى أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان فقال اخفض قليلا أخرجه الترمذى (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بان يحمده على وحدانيته وقيل معناه الحمد لله الذى عرفنى انه لم يتخذ ولدا وقيل ان كل من له ولد فهو يمسك جميع النعم لولده واذا لم يكن له ولد أفاض نعمه على عبيده وقيل ان الولد يقوم مقام والده بعد انقضائه والله عز وجل يتعالى عن جميع النقائص فهو المستحق لجميع المحامد (ولم يكن له شريك فى الملك) والسبب فى اعتبار هذه الصفة انه لو كان له شريك لم يكن مستحقا للحمد والشكر وكذا قوله (ولم يكن له ولى من الذل) ومعناه انه لم يذل فيحتاج الى ناصر يتعزز به (وكبره تكبيرا) أى وعظمه عن ان يكون له ولد أو شريك أو ولى وقيل اذا كان منزها عن الولد والشريك والولى كان مستوجبا لجميع أنواع المحامد عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده عن جابر بن عبد الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أفضل الدعاء الحمد لله وأفضل الذكر لا اله الا الله أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الكلام الى الله أربع لا اله الا الله والله اكبر وسبحان الله والحمد لله لا يضرك بأيهن بدأت أخرجه مسلم والله أعلم

(يخرون للاذقان يبكون) ومعنى الخرور للذقن السقوط على الوجه وانما خص الذقن لان أقرب الاشياء من وجهه الى الارض عند السجود الذقن يقال خر على وجهه وعلى ذقنه وخر لوجهه ولذقنه اما معنى على فظاهر واما معنى اللام فكانه جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به اذ اللام للاختصاص وكرر يخرون للاذقان لاختلاف الحالين وهما خرورهم فى حال كونهم ساجدين وخرورهم فى حال كونهم باكين (ويزيدهم) القرآن (خشوعا) لين قلب ورطوبة عين (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) لما سمعه ابو جهل يقول يا الله يا رحمن قال انه ينهانا ان نعبد الهين وهو يدعو الها آخر فنزلت وقيل ان أهل الكتاب قالوا انك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله فى التوراة هذا الاسم فنزلت والدعاء بمعنى التسمية لا بمعنى النداء واو للتخيير اى سموا بهذا الاسم أو بهذا او اذكروا اما هذا او اما هذا والتنوين فى (ايا ما تدعوا) عوض من المضاف اليه وما زيدت للتوكيد وأيا نصب بتدعوا وهو مجزوم بأى أى أى هذين الاسمين ذكرتم وسميتم (فله الاسماء الحسنى) والضمير فى فله يرجع الى ذات الله تعالى والفاء لانه جواب الشرط أى أيا ما تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله فله الاسماء الحسنى لانه اذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان لانهما منها ومعنى كونها أحسن الاسماء انها مستقلة بمعانى التمجيد والتقديس والتعظيم (ولا تجهر بصلاتك) بقراءة صلاتك على حذف المضاف لانه لا يلبس اذ الجهر والمخافتة تعتقبان على الصوت لا غير والصلاة أفعال وأذكار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بقراءته فاذا سمعها المشركون لغوا وسبوا فأمر بان يخفض من صوته والمعنى ولا تجهر حتى تسمع المشركين (ولا تخافت بها) حتى لا تسمع من خلفك (وابتغ بين ذلك) بين الجهر والمخافتة (سبيلا) وسطا أو معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك سبيلا بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار أو بصلاتك بدعائك (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) كما زعمت اليهود والنصارى وبنو مليح (ولم يكن له شريك فى الملك) كما زعم المشركون (ولم يكن له ولى من الذل) أى لم يذل فيحتاج الى ناصر او لم يوال احدا من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته (وكبره تكبيرا) وعظمه وصفه بانه أكبر من ان يكون له ولد او شريك وسمى النبى عليه السلام الآية آية العز وكان اذا افصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه هذه الآية

سورة الكهف مائة واحدى عشرة آية بصرى وعشر آيات كوفى *(بسم الله الرحمن الرحيم)* (الحمد لله الذى انزل على عبده) محمد صلى الله عليه وسلم (الكتاب) القرآن لقن الله عباده وفقههم كيف يثنون عليه ويحمدونه على اجزل نعمائه عليهم وهى نعمة الاسلام وما انزل على محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب الذى هو سبب نجاتهم (ولم يجعل له عوجا) اى شيئا من العوج والعوج فى المعانى كالعوج فى الاعيان يقال فى رأيه عوج وفى عصاه عوج والمراد نفى الاختلاف والتناقض عن معانيه وخروج شئ منه من الحكمة (قيما) مستقيما وانتصابه بمضمر وتقديره جعله قيما لانه اذا نفى عنه العوج فقد اثبت له الاستقامة وفائدة الجمع بين نفى العوج واثبات الاستقامة وفى احدهما غناء عن الآخر التأكيد فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من ادنى عوج عند التصفح او قيما على سائر الكتب مصدقا لها شاهدا بصحتها (لينذر) انذر متعد الى مفعولين كقوله انا انذرناكم عذابا قريبا فاقتصر على احدهما واصله لينذر الذين كفروا (بأسا) عذابا (شديدا) وانما اقتصر على احد مفعولى انذر لان المنذر به هو المسوق اليه فاقتصر عليه (من لدنه) صادرا من عنده (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم) أى بان لهم (اجرا حسنا) أى الجنة ويبشر حمزة وعلى (ماكثين) حال من هم فى لهم (فيه) فى الاجر وهو الجنة (ابدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) ذكر المنذرين دون المنذر به بعكس الاول استغناء بتقديم ذكره (ما لهم به من علم) أى بالولد او باتخاذه يعنى ان قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط فان قلت اتخاذ الله ولدا فى نفسه محال فكيف قيل ما لهم به من علم قلت معناه ما لهم به من علم لانه ليس مما يعلم لاستحالته وانتفاء العلم بالشئ اما للجهل بالطريق الموصل اليه او لانه فى نفسه محال (ولا لآبائهم) المقلدين (كبرت كلمة) نصب على التمييز وفيه معنى التعجب كانه قيل ما اكبرها كلمة والضمير فى كبرت يرجع الى قولهم اتخذ الله ولدا وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها (تخرج من افواههم) صفة لكلمة تفيد استعظاما لاجترائهم على النطق بها واخراجها من افواههم فان كثيرا مما يوسوسه الشيطان فى قلوب الناس من المنكرات لا يتمالكون ان يتفوهوا به بل يكظمون عليه فكيف بمثل هذا المنكر (ان يقولون الا كذبا) ما يقولون ذلك الا كذبا هو صفة لمصدر محذوف اى قولا كذبا (فلعلك باخع نفسك) قاتل نفسك (على آثارهم) أى اثار الكفار شبهه واياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الاسف على توليهم برجل فارقه احبته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجدا عليهم وتلهفا على فراقهم (ان لم يؤمنوا بهذا الحديث) بالقرآن (أسفا) مفعول له أى لفرط الحزن والاسف المبالغة فى الحزن والغضب (انا جعلنا ما على الارض زينة لها) اى ما يصلح ان يكون زينة لها ولاهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها

بمراده واسرار كتابه

(تفسير سورة الكهف)

وهى مكية وآياتها مائة واحدى عشرة آية وكلماتها الف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة وحروفها ستة آلاف وثلثمائة وستون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) أثنى الله سبحانه وتعالى على نفسه بانعامه على خلقه وعلم عباده كيف يثنون عليه ويحمدونه على اجزل نعمائه عليهم وهى الاسلام وما أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب الذى هو سبب نجاتهم وفوزهم وخص رسوله صلى الله عليه وسلم بالذكر لان انزال القرآن كان نعمة عليه على الخصوص وعلى سائر الناس على العموم (ولم يجعل له عوجا) أى لم يجعل له شيئا من العوج قط والعوج فى المعانى كالعوج فى الاعيان والمراد نفى الاختلاف والتناقض عن معانيه وقيل معناه لم يجعله مخلوقا روى عن ابن عباس فى قوله تعالى قرآنا عربيا غير ذى عوج قال غير مخلوق (قيما) أى مستقيما وقال ابن عباس عدلا وقيل قيما على الكتب كلها ومصدقا لها وناسخا لشرائعها (لينذر بأسا شديدا) معناه لينذر الذين كفروا بأسا شديدا وهو قوله سبحانه وتعالى بعذاب بئيس (من لدنه) أى من عنده (ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا حسنا) يعنى الجنة (ماكثين فيه) أى مقيمين فيه (أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم) أى بالولد وباتخاذه يعنى ان قولهم لم يصدر عن علم بل عن جهل مفرط فان قلت اتخاذ الله ولدا فى نفسه محال فكيف قيل ما لهم به من علم قلت انتفاء العلم قد يكون للجهل بالطريق الموصل اليه وقد يكون فى نفسه محالا لا يستقيم تعلق العلم به (ولا لآبائهم) أى ولا لاسلافهم من قبل (كبرت) أى عظمت (كلمة تخرج من افواههم) اى هذا الذى يقولونه لا تحكم به عقولهم وفكرهم البتة لكونه فى غاية الفساد والبطلان فكأنه يجرى على لسانهم على سبيل التقليد (ان يقولون الا كذبا) أى ما يقولون الا كذبا قيل حقيقة الكذب انه الخبر الذى لا يطابق المخبر عنه وزاد بعضهم مع علم قائله انه غير مطابق وهذا القيد باطل لان الله سبحانه وتعالى وصف قولهم باثبات الولد بكونه كذبا مع ان الكثير منهم يقولون ذلك ولا يعلمون كونه باطلا فعلمنا ان كل خبر لا يطابق المخبر عنه فهو كذب والكذب خلاف الصدق وقيل هو الانصراف عن الحق الى الباطل ورجل كذاب وكذوب اذا كان كثير الكذب قوله عز وجل (فلعلك باخع نفسك) أى قاتل نفسك (على آثارهم) أى من بعدهم (ان لم يؤمنوا بهذا الحديث) يعنى القرآن (أسفا) اى حزنا وقيل غيظا (انا جعلنا ما على الارض زينة لها) أى مما يصلح أن يكون زينة لها ولاهلها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها وقيل يعنى النبات والشجر والانهار وقيل أراد به الرجال خاصة فهم زينة الارض وقيل أراد به العلماء والصلحاء وقيل جميع ما فى الارض هو زينة لها فان قلت أى زينة فى الحيات والعقارب والشياطين قلت زينتها كونها تدل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته وقيل ان جميع ما فى الارض ثلاثة معدن ونبات وحيوان وأشرف انواع

الحيوان الانسان قيل الاولى ان لا يدخل فى هذه الزينة المكلف بدليل قوله تعالى (لنبلوهم) فمن يبلو يجب ان لا يدخل فى ذلك ومعنى لنبلوهم نختبرهم (ايهم احسن عملا) أى أصلح عملا وقيل أيهم أترك للدنيا وأزهد فيها (وانا لجاعلون ما عليها) أى من الزينة (صعيدا جرزا) يعنى مثل ارض لا نبات فيها بعد ان كانت خضراء معشبة والصعيد وجه الارض وقيل هو التراب والجرز الاملس اليابس الذى لا ينبت فيه شئ قوله سبحانه وتعالى (أم حسبت) أى ظننت يا محمد (ان أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) أى هم عجب من آياتنا وقيل معناه انهم ليسوا بأعجب آياتنا فان ما خلقت من السموات والارض وما فيهن من العجائب أعجب منهم والكهف الغار الواسع فى الجبل والرقيم هو لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وقصتهم ثم وضع على باب الكهف وكان اللوح من رصاص وقيل من حجارة وعن ابن عباس ان الرقيم اسم الوادى الذى فيه أصحاب الكهف وقال كعب الاحبار هو اسم للقرية التى خرج منها أصحاب الكهف وقيل اسم للجبل الذى فيه اصحاب الكهف ثم ذكر الله عز وجل قصة أصحاب الكهف فقال عز من قائل (اذ أوى الفتية الى الكهف) أى صاروا اليه وجعلوه مأواهم والفتية جمع فتى وهو الطرى من الشباب (فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة) أى رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك واحسانك وهب لنا الهداية والنصر والامن من الاعداء (وهيئ لنا) أى اصلح لنا (من أمرنا رشدا) أى حتى نكون بسببه راشدين مهديين وقيل معناه واجعل أمرنا رشدا كله

* ذكر قصة أصحاب الكهف وسبب خروجهم اليه قال محمد بن اسحاق بن يسار مرج أمر اهل الانجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت الملوك حتى عبدوا الاصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكون بعبادة الله وتوحيده وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس عبد الاصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه وكان ينزل قرى الروم فلا ينزل فى قرية نزلها احد الا فتنه عن دينه حتى يعبد الاصنام او يقتله فلما نزل مدينة اصحاب الكهف واسمها افسوس استخفى منه اهل الايمان وهربوا فى كل وجه فاتخذ شرطا من الكفار وامرهم ان يتبعوهم فجعل اولئك الشرط يتبعون اهل الايمان فى اماكنهم ويخرجونهم الى دقيانوس فيخيرهم بين القتل و بين عبادة الاصنام فمنهم من يرغب فى الحياة ومنهم من يأبى ان يعبد غير الله فيقتل فلما رأى ذلك اهل الشدة فى الايمان جعلوا يسلمون انفسهم للعذاب والقتل فيقتلون و يقطعون ويجعل ما قطع من اجسادهم على اسوار المدينة وابوابها فلما عظمت الفتنة وكثرت ورأى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا فقاموا واشتغلوا بالصلاة والصيام والصدقة والتسبيح والدعاء وكانوا من اشراف الروم وهم ثمانية نفر و بكوا وتضرعوا الى الله عز وجل وجعلوا يقولون ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة وارفع عنهم البلاء حتى يعلنوا عبادتك فبينما هم على ذلك وقد دخلوا مصلاهم ادركهم الشرط فوجدوهم سجودا يبكون ويتضرعون الى الله عز وجل فقال لهم الشرط ما خلفكم عن أمر الملك ثم انطلقوا الى الملك فأخبروه خبر الفتية فبعث اليهم فأتى بهم تفيض أعينهم من الدمع معفرة وجوههم بالتراب فقال لهم ما منعكم ان تشهدوا الذبح لآلهتنا التى تعبد فى الارض وتجعلوا أنفسكم اسوة أهل مدينتكم اختاروا اما ان تذبحوا لآلهتنا واما ان اقتلكم فقال مكسلمينا وهو أكبرهم ان لنا الها ملء السموات والارض عظمته لن ندعو من دونه الها ابدا له الحمد والتكبير من انفسنا خالصا ابدا اياه نعبد واياه نسأل النجاة والخير فأما الطواغيت فلن نعبدها أبدا اصنع بنا ما بدا لك وقال اصحابه مثل ذلك فلما سمع الملك كلامهم امر بنزع ثيابهم وحلية كانت عليهم من الذهب والفضة وقال سأفرغ لكم وأنجز لكم ما أوعدتكم من العقوبة وما يمنعنى ان اعجل ذلك لكم الا انى اراكم شبابا حديثة اسنانكم فلا احب ان اهلككم حتى اجعل لكم اجلا تذكرون فيه فترجعون الى عقولكم ثم امر بهم فأخرجوا من عنده وانطلق دقيانوس الى مدينة اخرى قريبة منهم لبعض اموره فلما رأى الفتية خروجه بادروا وخافوا اذا قدم ان يذكرهم

فائتمروا

(لنبلوهم أيهم احسن عملا) وحسن العمل الزهد فيها وترك الاغترار بها ثم زهد فى الميل من هذه الزينة بقوله (وانا لجاعلون ما عليها) (صعيدا) ارضا ملساء (جرزا) يابسا لا نبات فيها بعد ان كانت خضراء معشبة والمعنى نعيدها بعد عمارتها خرابا باماتة الحيوان وتجفيف النبات والاشجار وغير ذلك وما ذكر من الآيات الكائنة تزيين الارض بما خلق فوقها من الاجناس التى لا حصر لها وازالة ذلك كله كان لم يكن قال (ام حسبت) ان اصحاب الكهف والرقيم) يعنى ان ذلك اعظم من قصة اصحاب الكهف وابقاء حياتهم مدة طويلة والكهف الغار الواسع فى الجبل والرقيم اسم كلبهم أو قريتهم او اسم كتاب كتب فى شأنهم او اسم الجبل الذى فيه الكهف (كانوا من آياتنا عجبا) اى كانوا آية عجبا من آياتنا وصفا بالمصدر او على ذات عجب (اذ) أى اذكر (أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة) أى رحمة من خزائن رحمتك وهى المغفرة والرزق والامن من الاعداء (وهيئ لنا من امرنا) أى الذى نحن عليه من مفارقة الكفار (رشدا) حتى نكون بسببه راشدين مهتدين أو اجعل امرنا رشدا كله كقولك رأيت منك اسدا او يسر لنا طريق رضاك

فأتمروا بينهم واتفقوا على ان يأخذ كل واحد منهم نفقة من بيت ابيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقي ثم ينطلقوا الى كهف قريب من المدينة في جبل يقال له مخلوس فيمكثوا فيه ويعبدوا الله حتى اذا جاء دقيانوس اتوه فيصنع بهم ما يشاء فلما اتفقوا على ذلك عمد كل فتى منهم الى بيت أبيه فأخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقي معهم واتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك الكهف فمكثوا فيه وقال كعب الاحبار مروا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مرارا فقال لهم الكلب ما تريدون مني لا تخشوا مني انا احب أحباب الله عز وجل فناموا حتى أحرسكم وقال ابن عباس هربوا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم وتبعهم الكلب فخرجوا من البلد الى الكهف قال ابن اسحاق فلبثوا فيه ليس لهم عمل الا الصلاة والصيام والتسبيح والتحميد ابتغاء لوجه الله عز وجل وجعلوا نفقتهم الى فتى منهم اسمه تمليخا فكان يبتاع ارزاقهم من المدينة سرا وكان من اجملهم واجلدهم وكان اذا دخل المدينة لبس ثيابا رثة كثياب المساكين ثم يأخذ ورقه فينطلق الى المدينة فيشتري لهم طعاما وشرابا ويتجسس لهم الخبر هل ذكر هو وأصحابه بشيء ثم يرجع الى اصحابه فلبثوا بذلك ما شاء الله ان يلبثوا ثم قدم دقيانوس المدينة وأمر عظماء أهلها ان يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الايمان وكان تمليخا بالمدينة يشتري لاصحابه طعامهم فرجع الى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل فأخبرهم ان الجبار قد دخل المدينة وانهم قد ذكروا والتمسوا مع عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا سجودا يدعون الله ويتضرعون اليه ويتعوذون من الفتنة فقال لهم تمليخا يا اخوتاه ارفعوا رؤسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم فرفعوا رؤسهم واعينهم تفيض من الدمع وذلك عند غروب الشمس ثم جلسوا يتحدثون ويذكر بعضهم بعضا فبيناهم على ذلك اذ ضرب الله عز وجل على آذانهم في الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فأصابه ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رؤسهم فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس والتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض عظماء المدينة لقد ساءني شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد ظنوا ان بي غضبا عليهم لجهلهم ما جهلوا من أمري ما كنت لاجهل عليهم ان هم تابوا وعبدوا آلهتي فقال عظماء المدينة ما أنت بحقيق ان ترحم قوما فجرة مردة عصاة قد كنت أجلت لهم أجلا ولو شاؤا لرجعوا في ذلك الاجل ولكنهم لم يتوبوا فلما قالوا ذلك غضب غضبا شديدا ثم أرسل الى آبائهم فأتي بهم فقال أخبروني عن ابنائكم المردة الذين عصوني فقالوا اما نحن فلم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة انهم ذهبوا بأموالنا واهلكوها في اسواق المدينة ثم انطلقوا الى جبل يدعى مخلوس فلما قالوا له ذلك خلى سبيلهم وجعل ما يدري ما يصنع بالفتية فألقى الله سبحانه وتعالى في نفسه ان يأمر بسد باب الكهف عليهم واراد الله عز وجل ان يكرمهم بذلك ويجعلهم آية لامة تستخلف من بعدهم وان يبين لهم ان الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور فأمر دقيانوس بالكهف فسد عليهم وقال دعوهم كما هم في كهفهم يموتون جوعا وعطشا ويكون كهفهم الذي اختاروه قبرا لهم وهو يظن انهم ايقاظ يعلمون ما يصنع بهم وقد توفى الله عز وجل ارواحهم وفاة نوم وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال ثم ان رجلين مؤمنين في بيت الملك دقيانوس يكتمان ايمانهما اسم احدهما بيدروس واسم الآخر روناس اهتما ان يكتبا شأن هؤلاء الفتية واسماءهم وانسابهم وأخبارهم في لوحين من رصاص ويجعلاهما في تابوت من نحاس ويجعلا التابوت في البنيان وقالا لعل الله ان يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ الكتاب ففعلا ذلك وبنيا عليه وبقي دقيانوس ما بقي ثم مات هو وقومه وقرون بعده كثيرة وخلفت الملوك بعد الملوك وقال عبيد بن عمير كان أصحاب الكهف فتيانا مطوقين مسورين ذوي ذوائب فخرجوا في عيد لهم عظيم في زي وموكب واخرجوا معهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها وكان معهم كلب صيد لهم وكان أحدهم وزير الملك فقذف الله سبحانه وتعالى الايمان في قلوبهم فآمنوا وأخفى كل واحد ايمانه وقال في نفسه أخرج من بين

اطهر هؤلاء القوم لا يصيبني عقاب بجرمهم فخرج شاب منهم حتى انتهى الى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج آخر فرآه جالسا وحده فرجا ان يكون على مثل أمره وجلس اليه من غير ان يظهره على أمره ثم خرج آخر فخرجوا جميعا فاجتمعوا فقال بعضهم لبعض ما جمعكم وكل واحد يكتم ايمانه من صاحبه مخافة على نفسه ثم قالوا ليخرج كل فتيين فيخلوا ويفش كل واحد سره الى صاحبه ففعلوا ذلك فاذا هم جميعا على الايمان واذا الكهف في جبل قريب منهم فقال بعضهم لبعض فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته فدخلوا الكهف ومعهم كلب صيد فناموا ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا وفقدهم قومهم وطلبوهم فعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم فكتبوا أسماءهم وانسابهم في لوح فلان وفلان أبناء ملوكنا فقدناهم في شهر كذا في سنة كذا في مملكة فلان بن فلان الملك ووضعوا اللوح في خزانة الملك وقالوا ليكون لهؤلاء شان ومات ذلك الملك وجاء قرن بعد قرن قال محمد بن اسحاق ثم ملك أهل تلك البلاد رجل صالح يقال له بندوسيس فلما ملك بقي ملكه ثماني وستين سنة فتحزب الناس في ملكه فكانوا احزابا منهم من يؤمن بالله ويعلم ان الساعة حق ومنهم من يكذب بها فكبر ذلك على الملك الصالح وتضرع الى الله وحزن حزنا شديدا لما رأى أهل الباطل يزيدون ويظهرون على أهل الحق ويقولون لا حياة الا الحياة الدنيا وانما تبعث الارواح دون الاجساد وجعل بندوسيس الملك يرسل الى من يظن فيهم خيرا وانهم أئمة في الخلق فلم يقبلوا منه وجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا يخرجون الناس عن الحق وملة الحواريين فلما رأى ذلك الملك الصالح دخل بيته وأغلق بابه عليه ولبس مسحا وجعل تحته رمادا فجلس عليه فدأب ليله ونهاره يتضرع الى الله تعالى ويبكي ويقول رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم بطلان ما هم عليه ثم ان الله سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم الذي يكره هلكة عباده اراد ان يظهر على الفتية أصحاب الكهف ويبين للناس شأنهم ويجعلهم آية وحجة عليهم ليعلموا ان الساعة آتية لا ريب فيها ويستجيب لعبده الصالح بندوسيس ويتم نعمته عليه وان يجمع من كان تبدد من المؤمنين فالقى الله سبحانه وتعالى في نفس رجل من أهل ذلك البلد الذي فيه الكهف وكان اسمه اولياس ان يهدم ذلك البنيان الذي على فم الكهف ويبني به حظيرة لغنمه فاستأجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى نزعا ما كان على باب الكهف وفتحا باب الكهف وحجبهم الله تعالى عن الناس بالرعب فلما فتح باب الكهف أذن الله سبحانه وتعالى ذو القدرة والسلطان محيي الموتى للفتية ان يجلسوا بين ظهراني الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة أنفسهم فسلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون منها اذا أصبحوا من ليلتهم ثم قاموا الى الصلاة فصلوا كما كانوا يفعلون لا يرى في وجوههم ولا ألوانهم شيء ينكرونه وانهم كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن دقيانوس في طلبهم فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم أنبئنا ما قال الناس في شأننا عشية أمس عند هذا الجبار وهم يظنون انهم قد رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون وقد خيل اليهم انهم قد ناموا أطول مما كانوا ينامون حتى تساءلوا بينهم فقال بعضهم لبعض كم لبثتم نياما قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكل ذلك في أنفسهم يسير فقال لهم تمليخا قد التمستم في المدينة وهو يريد ان يؤتى بكم اليوم فتذبحون للطواغيت أو يقتلكم فما شاء الله بعد ذلك فعل فقال لهم مكسلمينا يا اخوتاه اعلموا انكم ملاقو الله فلا تكفروا بعد ايمانكم اذا دعاكم عدو الله ثم قال لتمليخا انطلق الى المدينة فتسمع ما يقال لنا بها وما الذي يذكر عند دقيانوس وتلطف ولا يشعرن بك أحد وابتع لنا طعاما فأتنا به وزدنا على الطعام الذي جئتنا به فقد أصبحنا جياعا ففعل تمليخا كما كان يفعل ووضع ثيابه وأخذ الثياب التي كان يتنكر فيها وأخذ ورقا من نفقتهم التي كانت معهم التي ضربت بطابع دقيانوس وكانت كخفاف الربع فانطلق تمليخا خارجا فلما مر بباب الكهف رأى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ثم مر ولم يبال بها حتى أتى باب المدينة مستخفيا يصد عن الطريق تخوفا ان يراه أحد من أهلها فيعرفه ولا يشعر ان دقيانوس

وأهله هلكوا قبل ذلك بثلاثمائة سنة فلما أتى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة كانت لأهل الايمان اذ كان أمر الايمان ظاهرا فيها فلما رآها عجب وجعل ينظر اليها يمينا وشمالا ثم ترك ذلك الباب ومضى الى باب آخر فرأى مثل ذلك فخيل اليه ان المدينة ليست بالتي كان يعرف ورأى أشخاصا كثيرا محدثين لم يكن رآهم قبل ذلك فجعل يمشي و يتعجب ويخيل اليه انه حيران ثم رجع الى الباب الذي أتى منه فجعل يتعجب بينه و بين نفسه و يقول ياليت شعري ما هذا أما عشية أمس كان المسلمون يخفون هذه العلامة في هذه المدينة و يستخفون بها واليوم ظاهرة لعلي نائم حالم ثم يرى انه ليس بنائم فأخذ كساءه فجعله على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشي في أسواقها فسمع ناسا يحلفون باسم عيسى بن مريم فزاده ذلك تعجبا ورأى انه حيران فقام مسندا ظهره الى جدار من جدران المدينة وهو يقول في نفسه والله ما أدري ما هذا اما عشية أمس فليس على الارض من يذكر عيسى بن مريم الا قتل واما اليوم فأسمع كل انسان يذكر عيسى بن مريم لا يخاف ثم قال في نفسه لعل هذه ليست بالمدينة التي اعرف والله ما أعلم مدينة بقرب مدينتنا فقام كالحيران ثم لقي فتى فقال له ما اسم هذه المدينة يا فتى فقال اسمها افسوس فقال في نفسه لعل بي مسا أو أمرا أذهب عقلي والله يحق لي ان أسرع الخروج قبل ان يصيبني فيها شر فأهلك فدنا الى الذين يبتاعون الطعام فأخرج لهم الورق التي كانت معه وأعطاها رجلا منهم وقال له بعني بهذه الورق طعاما فأخذها الرجل ونظر الى ضرب الورق ونقشها فعجب منها فناولها رجلا آخر من أصحابه فنظر ثم جعلوا يتطارحونها بينهم من رجل الى رجل و يتعجبون منها ويتشاورون بينهم و يقول بعضهم لبعض ان هذا أصاب كنزا خبيئا في الارض منذ زمان طويل فلما رآهم تمليخا يتحدثون فيه فرق فرقا شديدا وخاف وجعل يرعد و يظن انهم قد فطنوا به وعرفوه وانهم انما يريدون ان يذهبوا به الى ملكهم دقيانوس وجعل اناس يأتونه و يتعرفونه فلا يعرفونه فقال لهم وهو شديد الخوف منهم افضلوا على قد أخذتم ورقي فأمسكوها واما طعامكم فلا حاجة لي به فقالوا له يافتى من أنت وما شأنك والله لقد وجدت كنزا من كنوز الاولين وأنت تريد ان تخفيه منا انطلق معنا وأرناه وشاركنا فيه نخفف عليك ما وجدت وانك ان لم تفعل نحملك الى السلطان فنسلمك اليه فيقتلك فلما سمع قولهم قال والله وقعت في كل شئ كنت أحذر منه فقالوا له يافتى انك والله لا تستطيع ان تكتم ما وجدت وجعل تمليخا مايدري مايقول لهم وخاف حتى لم يحر على لسانه اليهم شئ فلما رأوه لا يتكلم أخذوا كساءه فطرحوه في عنقه و جعلوا يسحبونه في سكك المدينة حتى سمع به من فيها وقيل قد أخذ رجل معه كنز فاجتمع عليه أهل المدينة وجعلوا ينظرون اليه و يقولون والله ما هذا الفتى من أهل هذه المدينة وما رأيناه فيها قط وما نعرفه وجعل تمليخا لا يدري ما يقول لهم وكان متيقنا ان أباه واخوته بالمدينة وانه من عظماء أهلها وانهم سيأتونه اذ سمعوا به فبينما هو قائم كالحيران ينتظر متى يأتيه بعض أهله فيخلصه من أيديهم اذ اختطفوه وانطلقوا به الى رئيسي المدينة ومدبريها اللذين يدبران أمرها وهما رجلان صالحان اسم أحدهما اريوس واسم الآخر طنطيوس فلما انطلقوا به اليهما ظن تمليخا انه انما ينطلق به الى دقيانوس الجبار فجعل يلتفت يمينا وشمالا وهو يبكي والناس يسخرون منه كما يسخرون من المجنون ثم رفع رأسه الى السماء وقال اللهم اله السماء واله الارض أفرغ على اليوم صبرا وأولج معي روحا منك تؤيدني به عند هذا الجبار وجعل يقول في نفسه فرقوا بيني و بين اخوتي ياليتهم يعلمون مالقيت و ياليتهم يأتوني فنقوم جميعا بين يدي هذا الجبار فانا قد كنا تواثقنا على الايمان بالله وأن لا نشرك به احدا أبدا ولا نفترق في حياة ولا موت فلما انتهى الى الرجلين الصالحين اريوس وطنطيوس ورأى انه لم يذهب الى دقيانوس أفاق وذهب عنه البكاء وأخذ اريوس وطنطيوس الورق ونظرا اليها وعجبا منها وقالا أين الكنز الذي وجدت يا فتى فقال تمليخا ما وجدت كنزا ولكن هذا ورق آبائي ونقش هذه المدينة وضربها ولكن والله ما أدري ما شأني وما أقول لكم فقال له أحدهما ممن انت فقال تمليخا أما انا فكنت أرى اني من أهل هذه المدينة فقيل له

ومن ابوك ومن يعرفك بها فأخبرهم باسم أبيه فلم يوجد من يعرفه ولا أباه فقال له أحدهما انت رجل كذاب لا تنبئنا بالحق فلم يدر تمليخا ما يقول غير انه نكس بصره الى الارض فقال بعض من حوله هذا رجل مجنون وقال بعضهم ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه عمدا لكى ينفلت منكم فقال له أحدهما ونظر اليه نظرا شديدا أتظن انا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ونقش هذه المدينة وضربها ولهذه الورق اكثر من ثلثمائة سنة وأنت غلام شاب اتظن انك تأفكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ شمط وحولك سراة هذه المدينة وولاة أمرها وخزائن هذه المدينة بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار وانى لاظنني سآمر بك فتعذب عذابا شديدا ثم أوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذى وجدته فقال لهم تمليخا أخبرونى عما اسألكم عنه فان انتم فعلتم صدقتكم عما عندى فقالوا سل لا نكتمك شيئا قال فما فعل الملك دقيانوس فقالا ما نعرف على وجه الارض من اسمه دقيانوس ولم يكن الا ملك هلك فى الزمان الاول وله دهر طويل وهلك بعده قرون كثيرة فقال تمليخا انى اذا لحيران وما يصدقنى أحد من الناس فيما اقول لقد كنا فتية على دين واحد وان الملك أكرهنا على عبادة الاصنام والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فأتينا الى الكهف الذى فى جبل ينجلوس فنمنا فيه فلما انتبهنا خرجت لاشترى لاصحابى طعاما واتجسس الاخبار فاذا انا معكم كما ترون فانطلقوا معى الى الكهف اريكم أصحابى فلما سمع اريوس قول تمليخا قال يا قوم لعل هذه آية من آيات الله جعلها الله عز وجل لكم على يدى هذا الفتى فانطلقوا معه حتى يرينا اصحابه فانطلق اريوس وطنطيوس ومعهما جميع اهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو اصحاب الكهف لينظروا اليهم فلما رأى الفتية اصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذى كان يأتى فيه ظنوا انه قد أخذ وذهب به الى ملكهم دقيانوس فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفونه اذ سمعوا الاصوات وجلبة الخيل مصعدة فظنوا انهم رسل الجبار دقيانوس بعثهم اليهم ليؤتى بهم فقاموا الى الصلاة وسلم بعضهم على بعض واوصى بعضهم بعضا وقالوا انطلقوا بنا نأت اخانا تمليخا فانه الآن بين يدى الجبار وهو ينتظرنا حتى نأتيه فبينما هم يقولون ذلك وهم جلوس على هذه الحالة اذ هم بأريوس واصحابه وقفوا على باب الكهف فسبقهم تمليخا ودخل وهو يبكى فلما رأوه يبكى بكوا معه ثم سألوه عن خبره فقص عليهم الخبر كله فعرفوا انهم كانوا نياما بأمر الله ذلك الزمن الطويل وانما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث وليعلموا ان الساعة لا ريب فيها ثم دخل على اثر تمليخا اريوس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم فضة فوقف على الباب ودعا جماعة من عظماء اهل المدينة وامر بفتح التابوت بحضرتهم فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوبا فيهما مكسلمينا ومخشلمينا وتمليخا ومرطونس وكشطونس ويبرونس وديموس ويطيوش وقالوس والكلب اسمه قطمير كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف فلما أخبر بمكانهم أمر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وانا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم ان عثر بهم فلما قرؤه عجبوا وحمدوا الله سبحانه وتعالى الذى أراهم آية تدل على البعث ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخر اريوس وأصحابه سجودا لله وحمدوا الله سبحانه وتعالى الذى أراهم آية من آياته ثم كلم بعضهم بعضا وأخبرهم الفتية عن الذى لقوا من ملكهم دقيانوس ثم ان اريوس وأصحابه بعثوا بريدا الى ملكهم الصالح بيدوسيس أن عجل لعلك تنظر الى آية من آيات الله جعلها الله على ملكك للناس آية لتكون لهم نورا وضياء وتصديقا للبعث وذلك ان فتية بعثهم الله وقد كان توفاهم منذ ثلثمائة سنة واكثر فلما أتى الملك الخبر رجع عقله اليه وذهب همه وقال أحمدك اللهم رب السموات والارض وأعبدك وأسبح لك تطولت على ورحمتنى ولم تطفئ النور الذى جعلته لآبائى وللعبد الصالح قسطنطينوس الملك ثم أخبر بذلك أهل مدينته فركب وركبوا معه حتى أتوا مدينة أفسوس فتلقاهم أهلها وساروا معه نحو الكهف فلما صعد الجبل ورأى الفتية بيدوسيس فرح بهم وخر

ساجدا على وجهه وقام يندوسيس الملك قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الارض يسبحون الله ويحمدونه ثم قال الفتية ليندوسيس الملك نستودعك الله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته حفظك الله وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الانس والجن فبينما الملك قائم اذاهم رجعوا الى مضاجعهم فناموا وتوفى الله انفسهم فقام الملك اليهم وجعل ثيابه عليهم وأمر أن يجعل كل رجل منهم فى تابوت من ذهب فلما أمسى ونام أتوه فى منامه فقالوا له انا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكنا خلقنا من تراب والى التراب نصير فاتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله تعالى منه فأمر الملك عند ذلك بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب ولم يقدر أحد أن يدخل عليهم وأمر الملك أن يتخذوا على باب الكهف مسجدا يصلى فيه وجعل لهم عيدا عظيما وأمر أن يؤتى كل سنة وقيل ان تمليخا حمل الى الملك الصالح فقال له الملك من أنت قال أنا رجل من أهل هذه المدينة وذكر انه خرج أمس أو منذ أيام وذكر منزله وأقواما لم يعرفهم أحد وكان الملك قد سمع ان فتية قد فقدوا فى الزمان الاول وان اسماءهم مكتوبة على لوح فى خزانته فدعا باللوح ونظر فى أسمائهم فاذا اسمه مكتوب وذكر اسماء الآخرين فقال تمليخا هم أصحابى فلما سمع الملك ركب ومن معه من القوم فلما أتوا باب الكهف قال تمليخا دعونى حتى أدخل على أصحابى فابشرهم فانهم ان رأوكم معى أرعبتموهم فدخل تمليخا فبشرهم فقبض الله روحه وأرواحهم وأعمى على الملك وأصحابه أثرهم فلم يهتدوا اليهم فذلك قوله عز وجل اذ أوى الفتية الى الكهف أى صاروا الى الكهف واسمه خيرم وقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة أى هداية فى الدين وهيئ لنا أى يسر لنا من أمرنا رشدا أى ما نلتمس منه رضاك وما فيه رشدنا وقال ابن عباس أى مخرجا من الغار فى سلامة قوله سبحانه وتعالى (فضربنا على آذانهم) أى ألقينا عليهم النوم وقيل منعنا نفوذ الاصوات الى مسامعهم فان النائم اذا سمع الصوت ينتبه (فى الكهف سنين عددا) أى أنمناهم سنين كثيرة فان العدد يدل على الكثرة (ثم بعثناهم) أى من نومهم (لنعلم) أى علم المشاهدة وذلك ان الله عز وجل لم يزل عالما وانما أراد ما تعلق به العلم من ظهور الامر لهم ليزدادوا ايمانا واعتبارا (أى الحزبين) أى الطائفتين (أحصى لما لبثوا أمدا) أى احفظ لما مكثوا فى كهفهم نياما وذلك ان أهل المدينة تنازعوا فى مدة لبثهم فى الكهف قوله تعالى (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) أى نقرأ عليك خبر أصحاب الكهف بالحق أى بالصدق (انهم فتية) أى شبان (آمنوا بربهم وزدناهم هدى) أى ايمانا وبصيرة (وربطنا على قلوبهم) أى شددنا على قلوبهم بالصبر والتثبيت وقويناهم بنور الايمان حتى صبروا على هجران دار قومهم ومفارقة ما كانوا عليه من خفض العيش وفروا بدينهم الى الكهف (اذ قاموا) يعنى بين يدى دقيانوس الجبار حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام (فقالوا) أى الفتية (ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها) أى قالوا ذلك لان قومهم كانوا يعبدون الاصنام (لقد قلنا اذا شططا) قال ابن عباس يعنى جورا وقيل كذبا يعنى ان دعونا غير الله (هؤلاء قومنا) يعنى أهل بلدهم (اتخذوا من دونه) أى من دون الله (آلهة) يعنى أصناما يعبدونها (لولا) أى هلا (يأتون عليهم) أى على عبادة الاصنام (بسلطان بين) أى بحجة واضحة وفيه تبكيت لان الاتيان بحجة على عبادة الاصنام محال (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أى وزعم ان له شريكا أو ولدا ثم قال بعضهم لبعض (واذ اعتزلتموهم) يعنى قومكم (وما

(فضربنا على آذانهم فى الكهف) أى ضربنا عليها حجابا من النوم يعنى أنمناهم انامة ثقيلة لا تنبههم فيها الاصوات فحذف المفعول الذى هو الحجاب (سنين عددا) ذوات عدد فهو وصفة لسنين قال الزجاج أى تعد عددا لكثرتها لان القليل يعلم مقداره من غير عدد فاذا كثر عد فأما دراهم معدودة فهى على القلة لانهم كانوا يعدون القليل ويزنون الكثير (ثم بعثناهم) ايقظناهم من النوم (لنعلم أى الحزبين) المختلفين منهم فى مدة لبثهم لانهم لما انتبهوا اختلفوا فى ذلك وذلك قوله قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم اعلم بما لبثتم وكان الذين قالوا ربكم اعلم بما لبثتم هم الذين علموا ان لبثهم قد تطاول او اى الحزبين المختلفين من غيرهم (احصى لما لبثوا امدا) غاية واحصى فعل ماض وامدا ظرف لاحصى او مفعول له والفعل الماضى خبر المبتدا وهو اى والمبتدا مع خبره سد مسد مفعولى اعلم والمعنى أيهم ضبط امد الاوقات لبثهم واحاط علما بامد لبثهم ومن قال احصى افعل من الاحصاء وهو العد فقد زل لان بناءه من غير الثلاثى المجرد ليس بقياس وانما قال لنعلم مع انه تعالى لم يزل عالما بذلك لان المراد ما تعلق به العلم من ظهور الامر لهم ليزدادوا ايمانا واعتبارا وليكون لطفا لمؤمنى زمانهم وآية بينة لكفاره أو المراد لنعلم اختلافهما موجودا كما علمناه قبل وجوده (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) بالصدق (انهم فتية) جمع فتى والفتوة بذل الندى وكف الاذى وترك الشكوى واجتناب المحارم واستعمال المكارم وقيل الفتى من لا يدعى قبل الفعل ولا يزكى نفسه بعد الفعل (آمنوا بربهم وزدناهم هدى) يقينا وكانوا من خواص دقيانوس قد قذف الله فى قلوبهم الايمان وخاف بعضهم بعضا وقالوا ليخل اثنان اثنان منا فيظهر كل منهما ما يضمر لصاحبه ففعلوا فحصل اتفاقهم على الايمان (وربطنا على قلوبهم) وقويناها بالصبر على هجران الاوطان والفرار بالدين الى بعض الغيران وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالاسلام (اذ قاموا) بين يدى الجبار وهو دقيانوس من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام (فقالوا ربنا رب السموات والارض) مفتخرين (لن ندعو من دونه الها) ولئن سميناهم آلهة (لقد قلنا اذا شططا) قولا ذا شطط وهو الافراط فى الظلم والابعاد فيه من شط يشط ويشط اذا بعد (هؤلاء) مبتدأ (قومنا) عطف بيان (اتخذوا من دونه آلهة) خبر وهو اخبار فى معنى الانكار (لولا يأتون عليهم) هلا يأتون على عبادتهم فحذف المضاف (بسلطان بين) بحجة ظاهرة وهو تبكيت لان الاتيان بالسلطان على عبادة الاوثان محال (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بنسبة الشريك اليه (واذ اعتزلتموهم خطاب من بعضهم لبعض حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم (وما

يعبدون) نصب عطف على الضمير اى واذا اعتزلتموهم واعتزلتم معبوديهم (الا الله) استثناء متصل لانهم كانوا يقرون بالخالق و يشركون معه غيره كاهل مكة أو منقطع أي واذا اعتزلتم الكفار والاصنام التي يعبدونها من دون الله اوهو كلام معترض اخبار من الله تعالى عن الفتية انهم لم يعبدوا غير الله (فأووا الى الكهف) صيروا اليه او اجعلوا الكهف مأواكم (ينشر لكم ربكم من رحمته) من رزقه (ويهيئ لكم من امركم مرفقا) مرفقا مدني وشامي وهو ما يرتفق به اى ينتفع وانما قالوا ذلك ثقة بفضل الله وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه ونصوع يقينهم او اخبرهم به نبي في عصرهم (وترى الشمس اذا طلعت تزاور) بتخفيف الزاي كوفي تزور شامي تزاور غيرهم واصله تتزاور فخفف بادغام التاء في الزاي أو حذفها والكل من الزور وهو الميل ومنه زاره اذا مال اليه والزور الميل عن الصدق (عن كهفهم) أي تميل عنه ولا يقع شعاعها عليهم (ذات اليمين) جهة اليمين وحقيقتها الجهة المسماة باليمين (واذا غربت تقرضهم) تقطعهم اى تتركهم وتعدل عنهم (ذات الشمال وهم في فجوة منه) في متسع من الكهف والمعنى انهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها مع انهم في مكان واسع منفتح معرض لاصابة الشمس لولا ان الله يحجبها عنهم وقيل منفسح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسون كرب الغار (ذلك من آيات الله) اى ما صنعه الله بهم من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة آية من آيات الله يعنى ان ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم اختصاصا لهم بالكرامة وقيل باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش فهم في مقناة ابدا ومعنى ذلك من آيات الله أن شأنهم وحديثهم من آيات الله (من يهد الله فهو المهتد) مثل ما مر في سبحان وهو ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في الله واسلموا له وجوههم فأرشدهم الى نيل تلك الكرامة السنية (ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) أى من اضله فلا هادي له (وتحسبهم) بفتح السين شامي وحمزة وعاصم غير الاعشى وهو خطاب لكل احد (ايقاظا) جمع يقظ (وهم رقود) نيام قيل عيونهم مفتحة وهم نيام فيحسبهم الناظر لذلك ايقاظا (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) قيل لهم تقلبتان في السنة وقيل تقلبة واحدة في يوم عاشوراء (وكلبهم باسط ذراعيه) حكاية حال ماضية لان اسم الفاعل لا يعمل اذا كان في معنى المضى (بالوصيد) بالفناء أو بالعتبة (لو اطلعت عليهم) لو اشرفت عليهم فنظرت اليهم (لوليت منهم) لأعرضت عنهم وهربت منهم (فرارا) منصوب على المصدر لان معنى وليت منهم فررت منهم (ولملئت منهم) وبتشديد اللام حجازي للمبالغة (رعبا) تمييز وبضم العين شامي وعلي وهو الخوف الذي يرعب الصدر أي يملأه وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة او لطول اظفارهم وشعورهم وعظم اجرامهم وعن معاوية انه غزا الروم فمر بالكهف فقال اريد ان ادخل فقال ابن عباس رضي الله عنهما لقد قيل لمن هو خير منك لوليت منهم فرارا فدخلت جماعة بامره فأحرقتهم ريح (وكذلك بعثناهم) وكما انمناهم تلك النومة كذلك ايقظناهم اظهارا للقدرة على الانامة والبعث جميعا

يعبدون الا الله) وذلك انهم كانوا يعبدون الله و يعبدون معه الاصنام والمعنى واذا اعتزلتموهم وجميع ما يعبدون الا الله فانكم لم تعتزلوا عبادته (فأووا الى الكهف) أي الجؤا اليه (ينشر لكم) أي يبسط لكم (ربكم من رحمته ويهيئ) أي يسهل (لكم من أمركم مرفقا) أي ما يعود اليه يسركم و رفقكم قوله سبحانه وتعالى (وترى الشمس اذا طلعت تزاور) أي تميل وتعدل (عن كهفهم ذات اليمين) اى جانب اليمين (واذا غربت تقرضهم) أي تتركهم وتعدل عنهم (ذات الشمال وهم في فجوة منه) اى متسع من الكهف (ذلك من آيات الله) أي من عجائب صنعه ودلالات قدرته وذلك ان ما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس ولا تصيبهم اختصاصا لهم بالكرامة وقيل ان باب الكهف شمالي مستقبل لبنات نعش وهم في مقناة أبدا لا تقع الشمس عليهم عند الطلوع ولا عند الغروب ولا عند الاستواء فتؤذيهم بحرها ولكن اختار الله لهم مضجعا في متسع ينالهم فيه برد الريح ونسيمها ويدفع عنهم كرب الغار وغمه وعلى هذا القول يكون معنى ذلك من آيات الله أي ان شأنهم وحديثهم من آيات الله (من يهد الله فهو المهتد) يعنى مثل أصحاب الكهف وفيه ثناء عليهم (ومن يضلل) أي ومن يضلله الله ولم يرشده (فلن تجد له وليا) أي معينا (مرشدا) قوله سبحانه وتعالى (وتحسبهم) خطاب لكل أحد (أيقاظا) اى منتبهين أعينهم مفتحة (وهم رقود) أي نيام (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) قال ابن عباس كانوا يقلبون في السنة مرة من جانب الى جانب لئلا تأكل الارض لحومهم قيل كانوا يقلبون في يوم عاشوراء وقيل كان لهم في السنة تقلبتان (وكلبهم باسط ذراعيه) قال ابن عباس كان كلبا أغر وعنه انه كان فوق القلطي ودون الكرزي والقلطي كلب صيني وقيل كان أصفر وقيل كان شديد الصفرة يضرب الى حمرة وقال ابن عباس كان اسمه قطمير وقيل ريان وقيل صهبان قيل ليس في الجنة دواب سوى كلب أصحاب الكهف وحمار بلعم (بالوصيد) أي فناء الكهف وقيل عتبة الباب وكان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل وجهه عليهم قيل كان يتقلب مع أصحابه فاذا انقلبوا ذات اليمين كسر الكلب أذنه اليمنى ورقد عليها واذا انقلبوا ذات الشمال كسر أذنه اليسرى ورقد عليها (لو اطلعت عليهم) يا محمد (لوليت منهم فرارا) وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة حتى لا يصل اليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله فيوقظهم الله من رقدتهم (ولملئت منهم رعبا) أي خوفا من وحشة المكان وقيل لان أعينهم مفتحة كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم وهم نيام وقيل لكثرة شعورهم وطول أظفارهم ولتقلبهم من غير حس ولا اشعار وقيل ان الله سبحانه وتعالى منعهم بالرعب لئلا يراهم أحد قال ابن عباس غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف فقال معاوية لو كشف الله لنا عن هؤلاء لنظرنا اليهم فقال ابن عباس قد منع ذلك من هو خير منك فقيل له لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا فبعث معاوية ناسا فقال اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأحرقتهم قوله سبحانه وتعالى (وكذلك بعثناهم) يعنى كما أنمناهم

(ليتساءلوا بينهم) ليسأل بعضهم بعضا ويتعرفوا حالهم وما صنع الله بهم فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله ويزدادوا يقينا ويشكروا ما انعم الله به عليهم (قال قائل منهم) رئيسهم (كم لبثتم) كم مدة لبثتم (قالوا لبثنا يوما او بعض يوم) جواب مبنى على غالب الظن وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب (قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) بمدة لبثكم انكار عليهم من بعضهم كانهم قد علموا بالادلة او بالهام ان المدة متطاولة وان مقدارها لا يعلمه الا الله وروى انهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم بعد الزوال فظنوا أنهم في يومهم فلما نظروا الى طول اظفارهم واشعارهم قالوا ذلك وقد استدل ابن عباس رضي الله عنهما على ان الصحيح ان عددهم سبعة لانه قد قال في الآية قال قائل منهم كم لبثتم وهذا واحد وقالوا في جوابه لبثنا يوما او بعض يوم وهو جمع واقله ثلاثة ثم قالوا (ربكم اعلم بما لبثتم) وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة (فابعثوا أحدكم) كأنهم قالوا ربكم اعلم بذلك لا طريق لكم الى علمه فخذوا في شئ آخر مما يهمكم فابعثوا أحدكم أي يمليخا (بورقكم) هى الفضة مضروبة كانت او غير مضروبة وبسكون الراء ابو عمرو وحمزة وابو بكر (هذه الى المدينة) هى طرسوس وحملهم الورق عند فرارهم دليل على ان حمل النفقة وما يصلح للمسافر هو رأى المتوكلين على الله دون المتكلين على الاتفاقات وعلى ما فى اوعية القوم من النفقات وعن بعض العلماء انه كان شديد الحنين الى بيت الله ويقول ما لهذا السفر الا شيئان شد الهميان والتوكل على الرحمن (فلينظر ايها) أى اهلها فحذف كما فى واسأل القرية وأى مبتدأ وخبره (ازكى) احل واطيب او اكثر وارخص (طعاما) تمييز (فليأتكم برزق منه وليتلطف) وليتكلف اللطف فيما يباشره من امر المبايعة حتى لا يغبن او فى امر التخفى حتى لا يعرف (ولا يشعرن بكم أحدا) ولا يفعلن ما يؤدى الى الشعور بنا من غير قصد منه فسمى ذلك اشعارا منه بهم لانه سبب فيه والضمير فى (انهم) راجع الى الاهل المقدر فى ايها (ان يظهروا عليكم) يطلعوا عليكم (يرجموكم) يقتلوكم اخبث القتلة (او يعيدوكم فى ملتهم) بالاكراه والعود بمعنى الصيرورة كثير فى كلامهم (ولن تفلحوا اذا ابدا) اذا يدل على الشرط أى ولن تفلحوا ان دخلتم فى دينهم ابدا (وكذلك اعثرنا عليهم) وكما أنمناهم وبعثناهم لما فى ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم (ليعلموا) أى الذين اطلعناهم على حالهم (أن وعد الله) وهو البعث (حق) كائن لان حالهم فى نومهم وانتباههم بعدها كحال من يموت ثم يبعث (وأن الساعة لا ريب فيها) فانهم يستدلون بامرهم على صحة البعث (اذ يتنازعون) متعلق باعثرنا أى اعثرناهم عليهم حين يتنازع اهل ذلك الزمان (بينهم امرهم) امر دينهم ويختلفون فى حقيقة البعث فكان بعضهم يقول بعث الارواح دون الاجساد وبعضهم يقول تبعث الاجساد مع الارواح ليرتفع الخلاف وليتبين ان الاجساد تبعث حية حساسة فيها ارواحها كما كانت قبل الموت (فقالوا) حين توفى الله اصحاب الكهف (ابنوا عليهم بنيانا) اى على باب كهفهم لئلا يتطرق اليهم الناس ضنا بتربتهم ومحافظة عليها كما حفظت تربة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحظيرة (ربهم أعلم بهم) من كلام المتنازعين كأنهم تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام فى انسابهم واحوالهم ومدة لبثهم فلما لم يهتدوا الى حقيقة ذلك قالوا ربهم اعلم بهم او من كلام الله عز وجل رد لقول الخائضين فى حديثهم (قال الذين غلبوا على أمرهم) من المسلمين وملكهم وكانوا اولى بهم وبالبناء عليهم (لنتخذن عليهم) على باب الكهف (مسجدا) يصلى فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم روى ان أهل الانجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الاصنام واكرهوا على عبادتها وممن شدد فى ذلك دقيانوس فأراد فتية من اشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل فأبوا الا الثبات على الايمان والتصلب فيه ثم هربوا الى الكهف ومروا بكلب فتبعهم فطردوه فانطقه الله تعالى فقال ما تريدون منى انى احب احباء الله فناموا وأنا أحرسكم وقيل مروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم ودخلوا الكهف فضرب الله على آذانهم وقبل ان يبعثهم الله ملك مدينتهم رجل صالح مؤمن وقد اختلف أهل مملكته

في الكهف وحفظنا أجسامهم من البلاء على طول الزمان بعثناهم من النومة التي تشبه الموت (ليتساءلوا بينهم) أى ليسأل بعضهم بعضا (قال قائل منهم) وهو رئيسهم وكبيرهم مكسلمينا (كم لبثتم) أى فى نومكم وذلك انهم استنكروا طول نومهم وقيل انهم راعهم ما فاتهم من الصلاة فقالوا ذلك (قالوا لبثنا يوما) ثم نظروا فوجدوا الشمس قد بقى منها بقية فقالوا (أو بعض يوم) فلما نظروا الى طول شعورهم واظفارهم علموا انهم لبثوا أكثر من يوم (قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) وقيل ان مكسلمينا لما سمع الاختلاف بينهم قال دعوا الاختلاف ربكم أعلم بما لبثتم (فابعثوا احدكم) يعنى تمليخا (بورقكم) هى الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة (هذه الى المدينة) قيل هى طرسوس وكان اسمها فى الزمن الاول قبل الاسلام افسوس (فلينظر أيها ازكى طعاما) أى احل طعاما وقيل أمروه ان يطلب ذبيحة مؤمن ولا تكون من ذبح من يذبح لغير الله وكان فيهم مؤمنون يخفون ايمانهم وقيل اطيب طعاما واجوده وقيل اكثر طعاما وارخصه (فليأتكم برزق منه) أى قوت وطعام تأكلونه (وليتلطف) أى وليترفق فى الطريق وفى المدينة وليكن فى ستر وكتمان (ولا يشعرن) أى ولا يعلمن (بكم أحدا) أى من الناس (انهم ان يظهروا عليكم) أى يعلموا بمكانكم (يرجموكم) قيل معناه يشتموكم ويؤذوكم بالقول وقيل يقتلوكم وكان من عادتهم القتل بالحجارة وهو اخبث القتل وقيل يعذبوكم (أو يعيدوكم فى ملتهم) أى الكفر (ولن تفلحوا اذا أبدا) أى ان عدتم اليه قوله عز وجل (وكذلك اعثرنا عليهم) أى اطلعنا عليهم (ليعلموا ان وعد الله حق) يعنى قوم بيدوسيس الذين انكروا البعث (وان الساعة لا ريب فيها) أى لا شك فيها انها آتية (اذ يتنازعون بينهم أمرهم) قال ابن عباس فى البنيان فقال المسلمون نبنى عليهم مسجدا يصلى فيه الناس لانهم على ديننا وقال المشركون نبنى بنيانا لانهم على ملتنا وقيل كان تنازعهم فى البعث فقال المسلمون تبعث الاجساد والارواح وقال قوم تبعث الارواح فأراهم الله آية وان البعث للارواح والاجساد وقيل تنازعوا فى مدة لبثهم وقيل فى عددهم (فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم اعلم بهم قال الذين غلبوا على امرهم) يعنى بيدوسيس وأصحابه (لنتخذن عليهم مسجدا) قوله

في البيت معترفين وهاحدين فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحا وجلس على رماد وسأل ربه أن يبين لهم الحق فألقى الله في نفس رجل من رعيانهم فهدم ما سد به فم الكهف لتخذه حظيرة لغنمه ولما دخل المدينة من بعثوه لابتياع الطعام واخرج الورق وكان من ضرب دقيانوس اتهموه بانه وجد كنزا فذهبوا به الى الملك فقص عليه القصة فانطلق الملك واهل المدينة معه وابصروهم وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والانس ثم رجعوا الى مضاجعهم وتوفى الله انفسهم فالقى الملك عليهم ثيابه وامر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب فرآهم في المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجدا (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) الضمير في سيقولون لمن خاض في قصتهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المؤمنين واهل الكتاب سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فاخر الجواب الى ان يوحي اليه فيهم فنزلت اخبارا بما سيجري بينهم من اختلافهم في عددهم وان المصيب منهم من يقول سبعة وثامنهم كلبهم وروى ان السيد والعاقب واصحابهما من اهل نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر اصحاب الكهف فقال السيد وكان يعقوبيا كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم وقال العاقب وكان نسطوريا كانوا خمسة سادسهم كلبهم وقال المسلمون كانوا سبعة وثامنهم كلبهم فحقق الله قول المسلمين وانما عرفوا ذلك باخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن على رضى الله عنه هم سبعة نفر أسماؤهم يمليخا ومكشلينا ومشلينا هؤلاء أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان يستشير هؤلاء الستة في امره والسابع الراعي الذي وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس واسم مدينتهم افسوس واسم كلبهم قطمير

وسين الاستقبال وان دخل في الاول دون الآخرين فهما داخلان في حكم السين كقولك قد اكرم وانعم تريد معنى التوقع في الفعلين جميعا اوأريد بيفعل معنى الاستقبال الذي هو صالح له ثلاثة خبر مبتدا محذوف اى هم ثلاثة وكذلك خمسة وسبعة ورابعهم كلبهم جملة من مبتدا وخبر واقعة صفة لثلاثة وكذلك سادسهم كلبهم وثامنهم كلبهم رجما بالغيب رميا بالخبر الخفي واتيانا به كقوله ويقذفون بالغيب اى يأتون به اووضع الرجم موضع الظن فكانه قيل ظنا بالغيب لانهم اكثروا ان يقولوا رجم بالظن مكان قولهم ظن حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين والواو الداخلة على الجملة الثالثة هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة في قولك جاءني رجل ومعه آخر ومررت بزيد وفي يده سيف وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف والدلالة على ان اتصافه بها امر ثابت مستقر

سبحانه وتعالى (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم) روى ان السيد والعاقب واصحابهما من نصارى نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم فجرى ذكر اصحاب الكهف عندهم فقال السيد وكان يعقوبيا كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم (ويقولون) أى وقال العاقب وكان نسطوريا (خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون) وقال المسلمون (سبعة وثامنهم كلبهم) فحقق الله قول المسلمين وانما عرفوا ذلك باخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم على لسان جبريل صلى الله عليه وسلم بعدما حكى قول النصارى اولا ثم اتبعه بقوله سبحانه وتعالى رجما بالغيب أى ظنا وحدسا من غير يقين ولم يقل في السبعة وتخصيص الشئ بالوصف يدل على ان الحال في الباقي بخلافه فوجب ان يكون المخصوص بالظن هو قول النصارى وان يكون قول المسلمين مخالفا لقول النصارى في كونه رجما بالغيب وظنا ثم اتبعه بقوله سبحانه وتعالى (قل ربي اعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل) هذا هو الحق لان العلم بتفاصيل العوالم والكائنات فيه في الماضي والمستقبل لا يكون الا لله تعالى أو من اخبره الله سبحانه وتعالى بذلك قال ابن عباس أنا من أولئك القليل كانوا سبعة وهم مكسلمينا ويمليخا ومرطونس وبينونس وساربنونس وذونوانس وكشفيططنونس وهو الراعي واسم كلبهم قطمير (فلا تمار فيهم) أى لا تجادل ولا تقل في عددهم وشأنهم (الا مراء ظاهرا) أى الا ظاهر ما قصصنا عليك فقف عنده ولا تزد عليه (ولا تستفت فيهم) أى في اصحاب الكهف (منهم) أى من اهل الكتاب (أحدا) اى لا ترجع الى قول احد منهم بعد ان اخبرناك قصتهم قوله سبحانه وتعالى (ولا تقولن لشئ اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله) يعني اذا عزمت على فعل شئ غدا فقل ان شاء الله ولا تقله بغير استثناء وذلك ان أهل مكة سألوا

وهذه الواو هي التي اذنت بان الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات علم ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم دليله ان الله تعالى اتبع القولين الاولين قوله رجما بالغيب واتبع القول الثالث قوله (قل ربي اعلم بعدتهم) أى قل ربي اعلم بعدتهم وقد اخبركم بها بقوله سبعة وثامنهم كلبهم (ما يعلمهم الا قليل) قال ابن عباس رضى الله عنهما انا من ذلك القليل وقيل الا قليل من اهل الكتاب والضمير في سيقولون على هذا لاهل الكتاب خاصة أى سيقول اهل الكتاب فيهم كذا وكذا ولا علم بذلك الا في قليل منهم واكثرهم على ظن وتخمين (فلا تمار فيهم) فلا تجادل اهل الكتاب في شأن اصحاب الكهف (الا مراء ظاهرا) الا جدالا ظاهرا غير متعمق فيه وهو ان تقص عليهم ما اوحى الله اليك فحسب ولا تزيد من غير تجهيل لهم او يشهد من الناس ليظهر صدقك (ولا تستفت فيهم منهم احدا) ولا تسأل احدا منهم عن قصتهم سؤال متعنت له حتى يقول شيئا فترده عليه وتزيف ما عنده ولا سؤال مسترشد لان الله تعالى قد ارشدك بان اوحى اليك قصتهم (ولا تقولن لشئ) لاجل شئ تعزم عليه (اني فاعل ذلك) الشئ (غدا) اى فيما يستقبل من الزمان ولم يرد الغد خاصة (الا ان يشاء الله) ان تقوله بان يأذن لك فيه اوولا تقولنه الا بان يشاء الله اى الا بمشيئته وهو في موضع الحال أى لا ملتبسا بمشيئة الله قائلا ان شاء الله وقال الزجاج معناه ولا تقولن اني افعل ذلك الا بمشيئة الله تعالى لان قول القائل انا افعل ذلك ان شاء الله معناه لا افعله الا بمشيئة الله وهذا نهي تأديب من الله لنبيه حين قالت اليهود لقريش سلوه عن الروح وعن اصحاب الكهف وذي القرنين فسألوه فقال ائتوني غدا اخبركم ولم يستثن فابطأ عليه الوحي حتى شق عليه

(واذكر ربك) اى مشيئة ربك وقل ان شاء الله (اذا نسيت) اذا فرط منك نسيان لذلك والمعنى اذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنبهت عليها فتداركها بالذكر عن الحسن مادام فى مجلس الذكر وعن ابن عباس رضى الله عنهما ولو بعد سنة وهذا محمول على تدارك التبرك بالاستثناء فاما الاستثناء المغير حكما فلا يصح الا متصلا وحكى انه بلغ المنصور ان ابا حنيفة رحمه الله خالف ابن عباس رضى الله عنهما فى الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال له ابو حنيفة هذا يرجع عليك انك تأخذ البيعة بالايمان افترضى ان يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن كلامه وامر الطاعن فيه باخراجه من عنده او معناه واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار اذا نسيت كلمة الاستثناء تشديدا فى البعث على الاهتمام بها او صل صلاة نسيتها اذا ذكرتها او اذا نسيت شيئا فاذكره ليذكرك المنسى (وقل عسى ان يهدين ربى لاقرب من هذا رشدا) يعنى اذا نسيت شيئا فاذكر ربك عند نسيانه بان تقول عسى ربى ان يهدينى لشئ آخر بدل هذا المنسى اقرب منه رشدا او ادنى خيرا ومنفعة ان يهدين ان ترن ان يؤتين ان تعلمن مكى فى الحالين ووافقه ابو عمرو ومدنى فى الوصل (ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين) يريد لبثهم فيه احياء مضروبا على آذانهم هذه المدة وهو بيان لما اجمل فى قوله فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا وسنين عطف بيان لثلاثمائة ثلاثمائة سنين بالاضافة حمزة وعلى على وضع الجمع موضع الواحد فى التمييز كقوله بالاخسرين اعمالا (وازدادوا تسعا) اى تسع سنين لدلالة ما قبله عليه وتسعا مفعول به لان زاد يقتضى مفعولين فازداد يقتضى مفعولا واحدا (قل الله اعلم بما لبثوا) اى هو اعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدة لبثهم والحق ما اخبرك به او هو حكاية لكلام اهل الكتاب وقل الله اعلم رد عليهم والجمهور على ان هذا اخبار من الله سبحانه وتعالى انهم لبثوا فى كهفهم كذا مدة (له غيب السموات والارض) ذكر اختصاصه بعلم ما غاب فى السموات والارض وخفى فيها من احوال اهلها (ابصر به واسمع) اى واسمع به والمعنى ما ابصره بكل موجود وما اسمعه لكل مسموع (مالهم) لاهل السموات والارض (من دونه من ولى) من متول لامورهم (ولا يشرك فى حكمه) فى قضائه (احدا) منهم ولا تشرك على النهى شامى كانوا يقولون له ائت بقرآن غير هذا او بدله فقيل له (واتل ما اوحى اليك من كتاب ربك) اى من القرآن ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل فانه (لا مبدل لكلماته) اى لا يقدر احد على تبديلها وتغييرها انما يقدر على ذلك هو وحده

سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وعن اصحاب الكهف وعن ذى القرنين فقال اخبركم غدا ولم يقل ان شاء الله فلبث الوحى اياما ثم نزلت الآية وقد تقدمت القصة فى سورة بنى اسرائيل (واذكر ربك اذا نسيت) قال ابن عباس معناه اذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن وجوز ابن عباس الاستثناء المنقطع وان كان بعد سنة وجوزه الحسن مادام فى المجلس وجوزه بعضهم اذا قرب الزمان فان بعد لم يصح ولم يجوزه جماعة حتى يكون الكلام متصلا بالاستثناء وقيل فى معنى الآية واذكر ربك اذا غضبت قال وهب مكتوب فى التوراة والانجيل ابن آدم اذكرنى حين تغضب اذكرك حين اغضب وقيل الآية فى الصلاة يدل عليه ما روى عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسى صلاة فليصلها اذا ذكرها اقم الصلاة لذكرى متفق عليه زاد مسلم او نام عنها فكفارتها ان يصليها اذا ذكرها (وقل عسى ان يهدين ربى لاقرب من هذا رشدا) اى يثبتنى على طريق هو اقرب اليه وارشد وقيل ان الله سبحانه وتعالى امره ان يذكره اذا نسى شيئا ويسأله ان يذكره او يهديه لما هو خير له من ان يذكر ما نسى وقيل ان القوم لما سألوه عن قصة اصحاب الكهف على وجه العناد امره الله سبحانه وتعالى ان يخبرهم ان الله سبحانه وتعالى سيؤتيه من الحجج على صحة نبوته ما هو ادل لهم من قصة اصحاب الكهف وقد فعل حيث آتاه من علم غيب المرسلين وقصصهم ما هو اوضح واقرب الى الرشد من خبر اصحاب الكهف وقيل هذا شئ امره الله ان يقوله مع قوله ان شاء الله اذا ذكر الاستثناء بعد النسيان واذا نسى الانسان قوله ان شاء الله فتوبته من ذلك ان يقول مع قوله ان شاء الله عسى ان يهدين ربى لاقرب من هذا رشدا قوله عز وجل (ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا) قيل هذا خبر عن قول اهل الكتاب ولو كان خبرا من الله عن قدر لبثهم لم يكن لقوله قل الله اعلم بما لبثوا وجه ولكن الله رد قولهم بقوله (قل الله اعلم بما لبثوا) والاصح انه اخبار من الله تعالى عن قدر لبثهم فى الكهف ويكون معنى قوله قل الله اعلم بما لبثوا ان نازعوك فى مدة لبثهم فى الكهف فقل انت الله اعلم بما لبثوا اى هو اعلم منكم وقد اخبر بمدة لبثهم وقيل ان اهل الكتاب قالوا ان المدة من حين دخلوا الكهف الى يومنا هذا وهو اجتماعهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ثلثمائة وتسع سنين فرد الله عليهم بذلك وقال قل الله اعلم بما لبثوا يعنى بعد قبض ارواحهم الى يومنا هذا لا يعلمه الا الله فان قلت لم قال سنين ولم يقل سنة قلت قيل نزل قوله سبحانه وتعالى ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة فقالوا اياما او شهورا او سنين فنزلت سنين على وفق قولهم وقيل هو تفسير لما اجمل فى قوله فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا وازدادوا تسعا وقيل قالت نصارى نجران اما الثلاثمائة فقد عرفناها واما التسع فلا علم لنا بها فنزلت قل الله اعلم بما لبثوا وقيل ان عند اهل الكتاب لبثوا ثلثمائة سنة شمسية والله سبحانه وتعالى ذكر ثلاثمائة سنة وتسع سنين قمرية والتفاوت بين القمرية والشمسية فى كل مائة سنة ثلاث سنين فتكون الثلاثمائة الشمسية ثلثمائة وتسع سنين قمرية (له غيب السموات والارض) يعنى انه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شئ من احوال اهلها وانه العالم وحده به فكيف يخفى عليه حال اصحاب الكهف (ابصر به واسمع) معناه ما ابصر الله بكل موجود واسمعه بكل مسموع لا يغيب عن سمعه وبصره شئ يدرك البواطن كما يدرك الظواهر لا تخفى عليه خافية (مالهم) اى ما لاهل السموات والارض (من دونه) اى من دون الله (من ولى) اى ناصر (ولا يشرك فى حكمه احدا) قيل معناه لا يشرك الله فى علم غيبه احدا وقيل فى قضائه قوله سبحانه وتعالى (واتل) اى واقرأ يا محمد (ما اوحى اليك من كتاب ربك) يعنى القرآن واتبع ما فيه واعمل به (لا مبدل لكلماته) اى لا مغير

(ولن تجد من دونه ملتحدا) ملجأ تعدل اليه ان هممت بذلك ولما قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم نح هؤلاء الموالى وهم صهيب
وعمار وخباب وسلمان وغيرهم من فقراء المسلمين حتى نجالسك نزل (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم) واحبسها معهم وثبتها (بالغداة

والعشى) دائبين على الدعاء فى كل وقت او بالغداة لطلب التوفيق والتيسير والعشى لطلب عفو التقصير او هما صلاة الفجر والعصر بالغدوة شامى (يريدون وجهه) رضا الله (ولا تعد عيناك عنهم) ولا تجاوز عداه اذا جاوزه وعدى بعن لتضمن عدا معنى نبا فى قولك نبت عنه عينه وفائدة التضمين اعطاء مجموع معنيين وذلك اقوى من اعطاء معنى فذ (تريد زينة الحياة الدنيا) فى موضع الحال (ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا) من جعلنا قلبه غافلا عن الذكر وهو دليل لنا على انه تعالى خالق افعال العباد (واتبع هواه وكان امره فرطا) مجاوزا عن الحق (وقل الحق من ربكم) اى الاسلام او القرآن والحق خبر مبتدا محذوف أى هو (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) اى جاء الحق وزاحت العلل فلم يبق الا اختياركم لانفسكم ما شئتم من الاخذ فى طريق النجاة او فى طريق الهلاك وجىء بلفظ الامر والتخيير لانه لما مكن من اختيار ايهما شاء فكانه مخير مأمور بان يتخير ما شاء من النجدين ثم ذكر جزاء من اختار الكفر فقال (انا اعتدنا) هيأنا (للظالمين) للكافرين فقيد بالسياق كما ترك حقيقة الامر والتخيير بالسياق وهو قوله انا اعتدنا للظالمين (نارا احاط بهم سرادقها) شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق وهو الحجرة التى تكون حول الفسطاط او هو دخان يحيط بالكفار قبل دخولهم النار او هو حائط من نار يطيف بهم (وان يستغيثوا) من العطش (يغاثوا بماء كالمهل) هو دردى الزيت او ما اذيب من جواهر الارض وفيه تهكم بهم (يشوى الوجوه) اذا قدم ليشرب انشوى الوجه من حرارته (بئس الشراب) ذلك (وساءت) النار (مرتفقا) متكأ من المرفق وهذا لمشاكلة قوله وحسنت مرتفقا والا فلا ارتفاق لاهل النار وبين جزاء من اختار الايمان فقال (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا أولئك لهم جنات عدن) كلام مستأنف بيان للاجر المبهم ولك أن تجعل انا لا نضيع وأولئك خبرين معا والمراد من أحسن منهم عملا كقولك السمن منوان بدرهم ولان من أحسن عملا والذين آمنوا وعملوا الصالحات ينتظمهما معنى واحد فأقام من أحسن مقام الضمير (تجرى من تحتهم الانهار

للقرآن ولا يقدر احد على التطرق اليه بتغيير او تبديل فان قلت موجب هذا أن لا يتطرق النسخ اليه قلت النسخ فى الحقيقة ليس بتبديل لان المنسوخ ثابت فى وقته الى وقت طريان الناسخ فالناسخ كالمغاير فكيف يكون تبديلا وقيل معناه لا مغير لما اوعد الله بكلماته اهل معاصيه (ولن تجد من دونه) اى من دون الله ان لم تتبع القرآن (ملتحدا) اى ملجأ وحرزا تعدل اليه قوله عز وجل (واصبر نفسك) الآية نزلت فى عيينة بن حصن الفزارى اتى النبى صلى الله عليه وسلم قبل ان يسلم وعنده جماعة من الفقراء منهم سلمان وعليه شملة صوف قد عرق بها وبيده خوص يشقه وينسجه فقال عيينة للنبى صلى الله عليه وسلم اما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر واشرافها ان اسلمنا اسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك الا هؤلاء فنحهم حتى نتبعك أو اجعل لنا مجلسا فأنزل الله عز وجل واصبر نفسك أى احبس يا محمد نفسك (مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) يعنى طرفى النهار (يريدون وجهه) اى يريدون وجه الله لا يريدون عرض الدنيا وقيل نزلت فى اصحاب الصفة وكانوا سبعمائة رجل فقراء فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرجعون الى تجارة ولا الى زرع ولا ضرع يصلون صلاة وينتظرون اخرى فلما نزلت هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت ان أصبر معهم (ولا تعد) أى لا تصرف (عيناك عنهم) الى غيرهم (تريد زينة الحياة الدنيا) أى تطلب مجالسة الاغنياء والاشراف وصحبة أهل الدنيا (ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا) اى جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا يعنى عيينة بن حصن وقيل أمية بن خلف (واتبع هواه) أى فى طلب الشهوات (وكان أمره فرطا) ضياعا ضيع امره وعطل ايامه وقيل سرفا وباطلا وقيل مخالفا للحق (وقل الحق من ربكم) أى قل يا محمد لهؤلاء الذين اغفلنا قلوبهم عن ذكرنا من ربكم الحق واليه التوفيق والخذلان وبيده الهدى والضلال ليس الى من ذلك شئ (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) هذا على طريق التهديد والوعيد كقوله اعملوا ما شئتم وقيل معنى الآية وقل الحق من ربكم اى لست بطارد المؤمنين لهواكم فان شئتم فآمنوا وان شئتم فاكفروا فان كفرتم فقد اعد لكم ربكم نارا وان آمنتم فلكم ما وصف الله لاهل طاعته وعن ابن عباس فى معنى الآية من شاء الله له الايمان آمن ومن شاء له الكفر كفر (انا أعتدنا) اى هيأنا من العتاد وهو العدة (للظالمين) اى الكافرين (نارا أحاط بهم سرادقها) السرادق الحجرة التى تطيف بالفساطيط عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال سرادق النار اربعة جدر كثف كل جدار مسيرة اربعين سنة أخرجه الترمذى قال ابن عباس هو حائط من نار وقيل هو عنق يخرج من النار فيحيط بالكافر كالحظيرة وقيل هو دخان يحيط بالكفار (وان يستغيثوا) أى من شدة العطش (يغاثوا بماء كالمهل) قال ابن عباس هو ماء غليظ مثل دردى الزيت عن ابى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى قوله سبحانه وتعالى بماء كالمهل قال كعكر الزيت فاذا قرب اليه سقطت فروة وجهه منه اخرجه الترمذى وقال رشدين احد رواة الحديث قد تكلم فيه من قبل حفظه الفروة جلدة الوجه وقيل المهل الدم والقيح وقيل هو الرصاص والصفر المذاب (يشوى الوجوه) اى ينضج الوجوه من حره (بئس الشراب) اى ذلك الذى يغاثون به (وساءت) اى النار (مرتفقا) قال ابن عباس منزلا وقيل مجتمعا واصل المرتفق المتكأ وانما جاء كذلك لمشاكلة قوله وحسنت مرتفقا والا فلا ارتفاق لاهل النار ولا متكأ قوله عز وجل (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من احسن عملا) اى لا نترك اعمالهم تذهب ضياعا بل نجازيهم بأعمالهم الصالحة وقيل ان قوله انا لا نضيع اجر من احسن عملا كلام معترض وتقديره ان الذين امنوا وعملوا الصالحات (اولئك لهم جنات عدن) اى دار اقامة سميت عدنا لخلود المؤمنين فيها (تجرى من تحتهم الانهار) وذلك لان

يحلون فيها من اساور) من للابتداء وتنكير أساور وهى جمع اسورة التى هى جمع سوار لابهام امرها فى الحسن (من ذهب) من للتبيين (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس) مارق من الديباج (واستبرق) ماغلظ منه أى يجمعون بين النوعين (متكئين فيها على الارائك) خص الاتكاء لانه هيئة المتنعمين والملوك على اسرتهم (نعم الثواب) الجنة (وحسنت) الجنة والارائك (مرتفقا) متكأ (واضرب لهم مثلا رجلين) مثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين وكانا اخوين فى بنى اسرائيل احدهما كافر اسمه قطروس والآخر مؤمن اسمه يهوذا وقيل هما المذكوران فى والصافات فى قوله

قال قائل منهم انى كان لى قرين ورثا من ابيهما ثمانية آلاف دينار فجعلاها شطرين فاشترى الكافر ارضا بالف دينار فقال المؤمن اللهم ان أخى اشترى ارضا بالف دينار وانا اشترى منك ارضا فى الجنة بالف فتصدق به ثم بنى اخوه دارا بالف فقال اللهم انى اشترى منك دارا فى الجنة بالف فتصدق به ثم تزوج اخوه امرأة بالف فقال اللهم انى جعلت الفا صداقا للحور ثم اشترى اخوه خدما ومتاعا بالف دينار فقال اللهم انى اشتريت منك الولدان المخلدين بالف فتصدق به ثم اصابته حاجة فجلس لاخيه على طريقه فمر به فى حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله (جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب) بساتين من كروم (وحففناهما بنخل) وجعلنا النخل محيطا بالجنتين وهذا مما يؤثره الدهاقين فى كرومهم ان يجعلوها مؤزرة بالاشجار المثمرة يقال حفوه اذا طافوا به وحففته بهم اى جعلتهم حافين حوله وهو متعد الى مفعول واحد فتزيده الباء مفعولا ثانيا (وجعلنا بينهما زرعا) جعلناها ارضا جامعة للاقوات والفواكه ووصف العمارة بانها متواصلة متشابكة لم يتوسطها ما يقطعها مع الشكل الحسن والترتيب الانيق (كلتا الجنتين آتت) اعطت حمل على اللفظ لان لفظ كلتا مفرد ولو قيل آتتا على المعنى لجاز (اكلها) ثمرها (ولم تظلم منه) ولم تنقص من اكلها (شيئا وفجرنا خلالهما نهرا) ليتهما لوفاء الثمار وتمام الاكل من غير نقص ثم بما هو اصل الخير ومادته من امر الشرب فجعله افضل ما يسقى به وهو النهر الجارى فيها (وكان له) لصاحب الجنتين (ثمر) انواع من المال من ثمر ماله اذا كثره اى كانت له الى الجنتين الموصوفتين الاموال الكثيرة من الذهب والفضة وغيرهما ثمر واحيط بثمره بفتح الميم والثاء عاصم وبضم الثاء وسكون الميم ابو عمرو وبضمهما غيرهما (فقال لصاحبه وهو يحاوره) يراجعه الكلام من حار يحور اذا رجع يعنى قطروس أخذ بيد المسلم يطوف به فى الجنتين ويريه ما فيهما ويفاخره بما ملك من المال دونه (انا اكثر منك مالا واعز نفرا) انصارا وحشما واولادا ذكورا لانهم ينفرون معه دون الاناث (ودخل جنته) احدى جنتيه او سماهما جنة لاتحاد الحائط وجنتين للنهر الجارى بينهما

افضل المساكن ما كان يجرى فيه الماء (يحلون فيها من اساور من ذهب) قيل يحلى كل انسان منهم ثلاثة اساور سوار من ذهب لهذه الآية وسوار من فضة لقوله تعالى وحلوا أساور من فضة وسوار من لؤلؤ لقوله ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس) هو الديباج الرقيق (واستبرق) هو الديباج الصفيق الغليظ وقيل السندس المنسوج بالذهب (متكئين) خص الاتكاء لانه هيئة المتنعمين والملوك (فيها) أى فى الجنة (على الارائك) جمع اريكة وهى السرر فى الحجال ولما وصف الله سبحانه وتعالى هذه الاشياء قال (نعم الثواب) أى نعم الجزاء (وحسنت) اى الجنات (مرتفقا) اى مقرا ومجلسا والمراد بقوله وحسنت مرتفقا مقابلة ما تقدم ذكره من قوله سبحانه وتعالى وساءت مرتفقا قوله عز وجل (واضرب لهم مثلا رجلين) قيل نزلت فى اخوين من اهل مكة من بنى مخزوم وهما ابو سلمة عبد الله بن عبد الاسد بن عبد ياليل وكان مؤمنا واخوه الاسود بن عبد الاسد وكان كافرا وقيل هذا مثل لعيينة بن حصن واصحابه وسلمان واصحابه وشبههما برجلين من بنى اسرائيل اخوين احدهما مؤمن واسمه يهوذا فى قول ابن عباس وقيل تمليخا والآخر كافر واسمه قطروس وهما اللذان وصفهما الله سبحانه وتعالى فى سورة والصافات وكانت قصتهما على ما ذكره عطاء الخراسانى قال كان رجلان شريكان لهما ثمانية آلاف دينار وقيل كانا اخوين ورثا من ابيهما ثمانية آلاف دينار فاقتسماها فاشترى احدهما ارضا بالف دينار فقال صاحبه اللهم ان فلانا قد اشترى أرضا بالف دينار وانى قد اشتريت منك أرضا فى الجنة بالف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه بنى دارا بالف دينار فقال اللهم ان فلانا بنى دارا بالف دينار وانى اشتريت منك دارا فى الجنة بالف دينار فتصدق بها ثم تزوج صاحبه امرأة وأنفق عليها الف دينار فقال هذا اللهم انى اخطب اليك امرأة من نساء الجنة بالف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه اشترى خدما ومتاعا بالف دينار فقال هذا اللهم انى اشترى منك خدما ومتاعا بالف دينار فى الجنة فتصدق بها ثم أصابته حاجة شديدة فقال لو اتيت صاحبى لعله ينالنى منه معروف فجلس على طريقه حتى مر به فى خدمه وحشمه فقام اليه فنظر اليه صاحبه فعرفه فقال فلان قال نعم قال ما شأنك قال اصابتنى حاجة بعدك فأتيتك لتصيبنى بخير قال فما فعلت بمالك وقد قاسمتك مالا واخذت شطره فقص عليه قصته فقال وانك لمن المصدقين بهذا اذهب فلا اعطيك شيئا فطرده فنزل فيهما قوله فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم انى كان لى قرين وروى انه لما أتاه أخذ بيده وجعل يطوف به ويريه امواله فنزل فيهما واضرب لهم مثلا رجلين (جعلنا لاحدهما جنتين) أى بستانين (من اعناب وحففناهما) أى اطفناهما من جوانبهما (بنخل وجعلنا بينهما زرعا) أى وجعلنا بين النخل والاعناب الزرع وقيل بينهما أى بين الجنتين يعنى لم يكن بين الجنتين خراب بغير زرع (كلتا الجنتين آتت) اى اعطت كل واحدة من الجنتين (أكلها) أى ثمرها تاما (ولم تظلم منه شيئا) اى ولم تنقص منه شيئا (وفجرنا خلالهما) اى شققنا وسطهما (نهرا وكان له) اى لصاحب البستان (ثمر) قرئ بالفتح جمع ثمرة وقرئ بالضم وهو الاموال الكثيرة المثمرة من كل صنف من الذهب والفضة وغيرهما (فقال) يعنى صاحب البستان (لصاحبه) يعنى المؤمن (وهو يحاوره) أى يخاطبه (أنا اكثر منك مالا واعز نفرا) اى عشيرة ورهطا وقيل خدما وحشما (ودخل جنته) يعنى الكافر آخذا بيد اخيه المؤمن

(وهو ظالم لنفسه) ضار لها بالكفر (قال ما أظن ان تبيد هذه ابدا) اى ان تهلك هذه الجنة شك فى بيدودة جنته لطول امله وتمادى غفلته واغتراره بالمهلة وترى اكثر الاغنياء من المسلمين تنطق السنة احوالهم بذلك (وما أظن الساعة قائمة) كائنة (ولئن رددت الى ربى لاجدن خيرا منها منقلبا) اقسام منه على انه ان رد الى ربه على سبيل الفرض كما يزعم صاحبه ليجدن فى الآخرة خيرا من جنته فى الدنيا ادعاء لكرامته عليه ومكانته عنده (منقلبا) تمييز اى مرجعا وعاقبة (قال له صاحبه وهو يحاوره اكفرت بالذى خلقك من تراب) اى خلق اصلك لان خلق اصله سبب فى خلقه وكان خلقه خلقا له (ثم من نطفة) اى خلقك من نطفة (ثم سواك رجلا) عدلك وكملك انسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال جعله كافرا بالله لشكه فى البعث (لكنا) بالالف فى الوصل شامى الباقون بغير الف وبالالف فى الوقف اتفاق وأصله لكن انا فحذفت الهمزة والقيت حركتها على نون لكن فتلاقت النونان فأدغمت الاولى فى الثانية بعد أن سكنت (هو الله ربى) هو ضمير الشأن والشأن الله ربى والجملة خبر انا والراجع منها اليه ياء الضمير وهو استدراك لقوله اكفرت قال لاخيه أنت كافر بالله لكنى مؤمن موحد كما تقول زيد غائب لكن عمرا حاضر وفيه حذف أى أقول هو الله بدليل عطف (ولا اشرك بربى احدا ولولا) وهلا (اذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله) ما موصولة مرفوعة المحل على انها خبر مبتدا محذوف تقديره الامر ماشاء الله او شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف يعنى أى شئ شاء الله كان والمعنى هلا قلت عند دخولها والنظر الى مارزقك الله منها الامر ماشاء الله اعترافا بانها وكل ما فيها انما حصل بمشيئة الله وان امرها بيده ان شاء تركها عامرة وان شاء خربها (لا قوة الا بالله) اقرارا بانما قويت به على عمارتها وتدبير امرها هو بمعونته وتأييده من قرأ (ان ترنى انا أقل منك مالا) نصب اقل فقد جعل انا فصلا ومن رفع وهو الكسائى جعله مبتدأ واقل خبره والجملة مفعولا ثانيا لترنى وفى قوله (وولدا) نصرة لمن فسر النفر بالاولاد فى قوله واعز نفرا (فعسى ربى ان يؤتينى خيرا من جنتك) فى الدنيا اوفى العقبى (ويرسل عليها حسبانا) عذابا (من السماء فتصبح صعيدا زلقا) أرضا بيضاء يزلق عليها لملاستها (او يصبح ماؤها غورا) غائرا أى ذاهبا فى الارض (فلن تستطيع له طلبا) فلا يتأتى منك طلبه فضلا عن الوجود والمعنى ان ترن افقر منك فأنا اتوقع من صنع الله ان يقلب مابى ومابك من الفقر والغنى فيرزقنى لايمانى جنة خيرا من جنتك ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب بساتينك (واحيط بثمره) هو عبارة عن اهلاكه واصله من احاط به العدو لانه اذا احاط به فقد ملكه واستولى عليه ثم استعمل فى كل اهلاك (فأصبح) اى الكافر (يقلب كفيه) يضرب احداهما على الاخرى ندما وتحسرا وانما صار تقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر لان النادم يقلب كفيه ظهرا لبطن كما كنى عن ذلك بعض الكف والسقوط فى اليد ولانه فى معنى الندم عدى تعديته بعلى كانه قيل فأصبح يندم (على ما انفق فيها) أى فى عمارتها (وهى خاوية على عروشها) يعنى ان كرومها المعرشة سقطت عروشها على الارض وسقطت فوقها الكروم (ويقول ياليتنى لم اشرك بربى احدا) تذكر موعظة أخيه فعلم انه اتى من جهة كفره وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركا حتى لا يهلك الله بستانه حين لم ينفعه التمنى ويجوز ان يكون توبة من الشرك وندما على ما كان منه ودخولا فى الايمان (ولم تكن له فئة ينصرونه) يقدرون على نصرته (من دون الله) اى هو وحده القادر على نصرته لا يقدر أحد غيره ان ينصره الا انه لم ينصره لحكمة (وما كان منتصرا) وما كان ممتنعا بقوته عن انتقام الله

لنفسه

يطوف به فيها ويريه اياها (وهو ظالم لنفسه) اى بكفره (قال ما أظن ان تبيد) اى تهلك (هذه) يعنى جنته (ابدا) وذلك انه راقه حسنها وغرته زهرتها فتوهم انها لا تفنى ابدا وانكر البعث فقال (وما اظن الساعة قائمة) اى كائنة (ولئن رددت الى ربى) فان قلت كيف قال ولئن رددت الى ربى وهو منكر للبعث قلت معناه ولئن رددت الى ربى على ماتزعم من ان الساعة آتية (لأجدن خيرا منها منقلبا) اى يعطينى هنالك خيرا منها لانه لم يعطنى الجنة فى الدنيا الا ليعطينى فى الآخرة افضل منها (قال له صاحبه) يعنى المؤمن (وهو يحاوره اكفرت بالذى خلقك من تراب) اى خلق اصلك من تراب لان خلق اصله سبب فى خلقه فكان خلقا له (ثم من نطفة ثم سواك رجلا) اى عدلك بشرا سويا وكملك انسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال (لكنا هو الله ربى) مجازه لكن الله هو ربى (ولا اشرك بربى احدا ولولا) اى هلا (اذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله) والمعنى هلا قلت عند دخولها والنظر الى مارزقك الله منها ماشاء الله اعترافا بأنها وكل خير فيها انما حصل بمشيئة الله تعالى وفضله وان امرها بيده وانه ان شاء تركها عامرة وان شاء تركها خرابا (لا قوة الا بالله) اى وقلت لا قوة الا بالله اقرارا بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها هو بمعونة الله وتأييده ولا اقدر على حفظ مالى ودفع شئ عنه الا بالله روى عن عروة بن الزبير انه كان اذا رأى من ماله شيئا يعجبه او دخل حائطا من حيطانه قال ماشاء الله لا قوة الا بالله الحائط البستان (ان ترن انا اقل منك مالا وولدا) اى لاجل ذلك تكبرت على وتعظمت (فعسى ربى) اى فلعل ربى (ان يؤتينى) فى الآخرة (خيرا من جنتك ويرسل عليها) اى على جنتك (حسبانا) قال ابن عباس نارا وقيل مرامى (من السماء) وهى الصواعق فتهلكها (فتصبح صعيدا زلقا) اى ارضا جرداء ملساء لا نبات فيها وقيل تزلق فيها الاقدام وقيل رملا هائلا (أو يصبح ماؤها غورا) ذاهبا لا تناله الايدى ولا الدلاء (فلن تستطيع له طلبا) يعنى ان طلبته لم تجده (وأحيط بثمره) يعنى احاط العذاب بثمر جنته وذلك ان الله تعالى أرسل عليها من السماء نارا فأهلكتها وغار ماؤها (فأصبح) يعنى صاحبها الكافر (يقلب كفيه) يصفق بكف على كف ويقلب كفيه ظهرا لبطن تأسفا وتلهفا (على ما انفق فيها) المعنى فأصبح يندم على ما أنفق فى عمارتها (وهى خاوية على عروشها) اى ساقطة سقوفها وقيل ان كرومها المعرشة سقطت عروشها على الارض (ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا) يعنى انه تذكر موعظة أخيه المؤمن فعلم انه أتى من جهة شركه وطغيانه فتمنى لو لم يكن مشركا (ولم تكن له فئة) أى جماعة (ينصرونه من دون الله) أى يمنعونه من عذاب الله (وما كان منتصرا) أى ممتنعا لا يقدر على الانتصار

(هنالك الولاية لله الحق) بكسر الواو حمزة وعلى فهي بالفتح النصرة والتولي وبالكسر السلطان والملك والمعنى هنالك أي في ذلك المقام وتلك الحال النصرة لله وحده لا يملكها غيره ولا يستطيعها احد سواه تقريراً لقوله ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله او هنالك السلطان والملك لله لا يغلب أو في مثل تلك الحال الشديد يتولى الله ويؤمن به كل مضطر يعني ان قوله يا ليتني لم أشرك بربي أحدا كلمة الجئ اليها فقالها جزعا مما دهاه من شؤم كفره ولولا ذلك لم يقلها وهنالك الولاية لله ينصر فيها اولياءه المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم يعني انه نصر فيما فعل بالكافر اخاه المؤمن وصدق

لنفسه وقيل معناه لا يقدر على رد ما ذهب منه قوله سبحانه وتعالى (هنالك الولاية) قرئ بكسر الواو يعني السلطان في القيامة (لله الحق) وقرئ بفتحها من الموالاة والنصرة يعني انهم يتولونه يومئذ ويتبرؤن مما كانوا يعبدون من دونه في الدنيا (هو خير ثوابا) أي أفضل جزاء لاهل طاعته لو كان غيره يثيب (وخير عقبا) يعني عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره فهو خير اثابة وعاقبة قوله عز وجل (واضرب لهم) أي اضرب يا محمد لقومك (مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) يعني المطر (فاختلط به نبات الارض) أي خرج من كل لون وزهرة (فأصبح) أي عن قريب (هشيما) قال ابن عباس يابسا (تذروه الرياح) قال ابن عباس تذريه وقيل تفرقه وتنسفه (وكان الله على كل شئ مقتدرا) أي قادرا قوله سبحانه وتعالى (المال والبنون) يعني التي يفتخر بها عيينة واصحابه الاغنياء (زينة الحياة الدنيا) يعني ليست من زاد الآخرة قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه المال والبنون حرث الدنيا والاعمال الصالحة حرث الآخرة وقد يجمعهما الله لاقوام (والباقيات الصالحات) قال ابن عباس هي قوله سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر (م) عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر احب الي مما طلعت عليه الشمس عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال استكثروا من قول الباقيات الصالحات قيل وما هي يا رسول الله قال التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قلت يا رسول الله وما رياض الجنة قال المساجد قلت وما الرتع قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر أخرجه الترمذي وقال حديث غريب عن ابن المسيب ان الباقيات الصالحات هي قول العبد الله أكبر وسبحان الله ولا اله الا الله ولا حول ولا قوة الا بالله أخرجه مالك في الموطأ موقوفا عليه وعن ابن عباس ان الباقيات الصالحات الصلوات الخمس وعنه انها الاعمال الصالحة (خير عند ربك ثوابا) أي جزاء (وخير املا) اي ما يؤمله الانسان قوله سبحانه وتعالى (ويوم نسير الجبال) أي نذهب بها وذلك ان تجعل هباء منثورا كما يسير السحاب (وترى الارض بارزة) اي ظاهرة ليس عليها شجر ولا جبل ولا بناء وقيل هو بروز ما في بطنها من الموتى وغيرهم فيصير باطن الارض ظاهرها (وحشرناهم) يعني جميعا الى موقف الحساب (فلم نغادر منهم أحدا) اي لم نترك منهم احدا (وعرضوا على ربك صفا) اي صفا صفا وفوجا فوجا لا انهم صف واحد وقيل قياما وقيل كل امة وزمرة صف ثم يقال لهم (لقد جئتمونا كما خلقناكم اول مرة) يعني احياء وقيل حفاة عراة غرلا (بل زعمتم ان لن نجعل لكم موعدا) يعني القيامة يقول ذلك لمنكري البعث (ق) عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين الا ان اول الخلائق يكسى يوم القيامة ابراهيم عليه السلام الا وانه سيجاء برجال من امتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقول انك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم الى قوله العزيز الحكيم قال

قوله فعسى ربي ان يؤتيني خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء ويؤيده قوله (هو خير ثوابا وخير عقبا) أي لاوليائه أو هنالك اشارة الى الآخرة اي في تلك الدار الولاية لله كقوله لمن الملك اليوم الحق بالرفع أبو عمرو وعلي صفة للولاية او خبر مبتدا محذوف اي هي الحق او هو الحق غيرهما بالجر صفة لله عقبا بسكون القاف عاصم وحمزة وبضمها غيرهما وفي الشواذ عقبى على وزن فعلى وكلها بمعنى العاقبة (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) أي هو كماء انزلناه (فاختلط به نبات الارض) فالتف بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضا او اثر في النبات الماء واختلط به حتى روي (فأصبح هشيما) يابسا متكسرا الواحدة هشيمة (تذروه الرياح) تنسفه وتطيره الريح حمزة وعلي (وكان الله على كل شئ) من الانشاء والافناء (مقتدرا) قادرا شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والافناء بحال النبات يكون اخضر ثم يهيج فتطيره الريح كأن لم يكن (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) لا زاد القبر وعدة العقبى (والباقيات الصالحات) اعمال الخير التي تبقى ثمرتها للانسان او الصلوات الخمس او سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر (خير عند ربك ثوابا) جزاء (وخير أملا) لانه وعد صادق واكثر الآمال كاذبة يعني ان صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله ويصيبه في الآخرة (ويوم) واذكر يوم (نسير الجبال) تسير الجبال مكي وشامي وابو عمرو اي تسير في الجو ويذهب بها بان تجعل هباء منثورا منبثا (وترى الارض بارزة) ليس عليها ما يسترها مما كان عليها

من الجبال والاشجار (وحشرناهم) اي الموتى (فلم نغادر منهم أحدا) أي فلم نترك غادره أي تركه ومنه الغدر ترك الوفاء والغدير ما غادره السيل (وعرضوا على ربك صفا) مصطفين ظاهرين ترى جماعتهم كما ترى كل واحد لا يحجب احد احدا شبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان (لقد جئتمونا) اي قلنا لهم لقد جئتمونا وهذا المضمر يجوز ان يكون عامل النصب في يوم نسير (كما خلقناكم اول مرة) اي لقد بعثناكم كما أنشأناكم اول مرة او جئتمونا عراة لا شئ معكم كما خلقناكم اولا وانما قال وحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى للدلالة على حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الاهوال كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) وقتا لانجاز ما وعدتم على السنة الانبياء من البعث والنشور او مكان وعد للمحاسبة

فيقال لى انهم لم يزالوا مرتدين على اعقابهم منذ فارقتهم زاد فى رواية فأقول سحقا سحقا قوله غرلا أى قلفا والغرلة القلفة التى تقطع من جلد الذكر وهو موضع الختان وقوله سحقا اى بعدا قال بعض العلماء ان المراد بهؤلاء أصحاب الردة الذين ارتدوا من العرب ومنعوا الزكاة بعده (ق) عن عائشة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الناس حفاة عراة غرلا قالت عائشة فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم الى بعض قال الامر اشد من ان يهمهم ذلك زاد النسائى فى رواية له لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه قوله عز وجل (ووضع الكتاب) يعنى صحائف اعمال العباد توضع فى أيدى الناس فى ايمانهم وشمائلهم وقيل توضع بين يدى الله تعالى (فترى المجرمين مشفقين مما فيه) أى خائفين مما فيه من الأعمال السيئة (ويقولون) يعنى اذا رأوها (يا ويلتنا) أى يا هلاكنا وكل من وقع فى هلكة دعا بالويل (مالهذا الكتاب لا يغادر) أى لا يترك صغيرة ولا كبيرة) أى من ذنوبنا (الا أحصاها) أى عدها وكتبها وأثبتها فيه وحفظها قال ابن عباس الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة وقال سعيد بن جبير الصغيرة اللمم والمس والقبلة والكبيرة الزنا عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم ومحقرات الذنوب فانما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا فى بطن واد فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود وجاء هذا بعود فأنضجوا خبزهم وان محقرات الذنوب لموبقات الحقير الشئ الصغير التافه وقوله لموبقات أى مهلكات (ووجدوا ما عملوا حاضرا) أى مكتوبا مثبتا فى كتابهم (ولا يظلم ربك أحدا) أى لا ينقص ثواب أحد عمل خيرا ولا يؤاخذ أحدا بجرم لم يعمله عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الايدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله أخرجه الترمذى وقال لا يصح هذا الحديث من قبل ان الحسن لم يسمع من أبى هريرة وقد رواه بعضهم عن الحسن عن أبى موسى قوله سبحانه وتعالى (واذ قلنا) أى واذكر يا محمد اذ قلنا (للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن) قال ابن عباس كان من حى من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم وقال الحسن كان من الجن ولم يكن من الملائكة فهو أصل الجن كما ان آدم أصل الانس وكونه من الملائكة لا ينافى كونه من الجن بدليل قوله سبحانه وتعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا وذلك ان قريشا قالت الملائكة بنات الله فهذا يدل على ان الملك يسمى جنا ويعضده اللغة لان الجن مأخوذ من الاجتنان وهو الستر فعلى هذا تدخل الملائكة فيه فكل الملائكة جن لاستتارهم وليس كل جن ملائكة ووجه كونه من الملائكة ان الله سبحانه وتعالى استثناه من الملائكة والاستثناء يفيد اخراج ما لولاه لدخل ويصح دخوله وذلك يوجب كونه من الملائكة ووجه من قال انه من الجن ولم يكن من الملائكة قوله كان من الجن والجن جنس مخالف للملائكة وقوله أفتتخذونه وذريته فأثبت له ذرية والملائكة لا ذرية لهم وأجيب عن الاستثناء انه استثناء منقطع وهو مشهور فى كلام العرب قال الله سبحانه وتعالى واذ قال ابراهيم لابيه وقومه اننى براء مما تعبدون الا الذى فطرنى وقال تعالى لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما قيل انه كان من الملائكة فلما خالف الامر مسخ وغير وطرد ولعن وقوله تعالى (ففسق عن أمر ربه) أى خرج عن طاعة ربه (أفتتخذونه) يعنى يا بنى آدم أفتتخذون ابليس (وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو) يعنى أعداء روى مجاهد عن الشعبى قال انى لقاعد يوما اذ قبل رجل فقال اخبرنى هل لابليس زوجة قلت ان ذلك العرس ما شهدته ثم ذكرت قول الله عز وجل أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى فعلمت انه لا تكون ذرية الا من زوجة فقلت نعم قيل يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل انه يدخل ذنبه فى دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين قال مجاهد من ذرية ابليس لاقيس وولهان وهو صاحب الطهارة والصلاة والهفاف ومرة وبه يكنى وزلنبور وهو صاحب الاسواق يزين اللغو والحلف الكاذب ومدح السلع وثبر وهو صاحب المصائب يزين خمش

(ووضع الكتاب) اى صحف الاعمال (فترى المجرمين مشفقين) خائفين (مما فيه) من الذنوب (ويقولون) يا ويلتنا مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة) اى لا يترك شيئا من المعاصى (الا احصاها) حصرها وضبطها (ووجدوا ما عملوا حاضرا) فى الصحف عتيدا او جزاء ما عملوا (ولا يظلم ربك احدا) فيكتب عليه مالم يعمل او يزيد فى عقابه او يعذبه بغير جرم (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) سجود تحية او سجود انقياد (فسجدوا الا ابليس كان من الجن) هو مستانف كان قائلا قال ماله لم يسجد فقيل كان من الجن (ففسق عن امر ربه) خرج عما امره به من السجود وهو دليل على انه كان مامورا بالسجود ومع الملائكة (افتتخذونه وذريته) الهمزة للانكار والتعجب كانه قيل اعقيب ما وجد منه تتخذونه وذريته (اولياء من دونى) وتستبدلونهم بى ومن ذريته لاقيس صاحب الربا وثبر وسوس الصلاة والاعور صاحب الزنا ومسوط صاحب الاراجيف صاحب المصائب وداسم يدخل ويأكل مع من لم يسم الله تعالى (وهم لكم عدو) اعداء

(بئس للظالمين بدلا) بئس البدل من الله ابليس لمن استبدله فأطاعه بدل طاعة الله (ما اشهدتهم) اى ابليس وذريته (خلق السموات والارض) يعنى انكم اتخذتموهم شركاء لى فى العبادة وانما يكونون شركاء فيها لو كانوا شركاء فى الالهية فنفى مشاركتهم فى الالهية بقوله ما اشهدتهم خلق السموات والارض لاعتضد بهم فى خلقها او اشاورهم فيه اى تفردت بخلق الاشياء فأفردونى فى العبادة (ولا خلق انفسهم) اى ولا اشهدت بعضهم خلق بعض كقوله ولا تقتلوا انفسكم (وما كنت متخذ المضلين) اى وما كنت متخذهم (عضدا) اى اعوانا فوضع المضلين موضع الضمير ذما لهم بالاضلال فاذا لم يكونوا عضدا لى فى الخلق فما لكم تتخذونهم شركاء لى فى العبادة (ويوم يقول) الله للكفار وبالنون حمزة (نادوا) ادعوا بصوت عال (شركائى الذين زعمتم) انهم فيكم شركائى ليمنعوكم من عذابى واراد الجن واضاف الشركاء اليه على زعمهم توبيخا لهم (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا) مهلكا من وبق يبق وبوقا اذا هلك او مصدرا كالموعد اى وجعلنا بينهم واديا من اودية جهنم وهو مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركا يهلكون فيه جميعا او الملائكة وعزيرا وعيسى والموبق البرزخ البعيد أى وجعلنا بينهم امدا بعيدا لانهم فى قعر جهنم وهم فى أعلى الجنان (ورأى المجرمون النار فظنوا) فأيقنوا (انهم مواقعوها) مخالطوها واقعون فيها (ولم يجدوا عنها) عن النار (مصرفا) معدلا (ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل) يحتاجون اليه (وكان الانسان اكثر شئ جدلا) تمييز اى أكثر الاشياء التى يتأتى منها الجدل ان فصلتها واحدا بعد واحد خصومة ومماراة بالباطل يعنى ان جدل الانسان أكثر من جدل كل شئ (وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى) أى سببه وهو الكتاب والرسول (ويستغفروا ربهم الا ان تأتيهم سنة الاولين او يأتيهم العذاب) ان الاولى نصب والثانية رفع وقبلها مضاف محذوف تقديره وما منع الناس الايمان والاستغفار الا انتظار ان تأتيهم سنة الاولين وهى الاهلاك أو انتظار أن يأتيهم العذاب أى عذاب الآخرة (قبلا) كوفى أى أنواعا جمع قبيل الباقون قبلا اى عيانا (وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين) يوقف عليه ويستأنف بقوله (ويجادل الذين كفروا بالباطل) هو قولهم للرسل ما أنتم الا بشر مثلنا ولو شاء الله لانزل ملائكة ونحو ذلك

الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب والاعور وهو صاحب الربا ينفخ فى احليل الرجل وعجيزة المرأة ومسوط وهو صاحب الاخبار الكاذبة يلقيها فى أفواه الناس لا يجدون لها أصلا وداسم وهو الذى اذا دخل الرجل بيته ولم يسلم ولم يذكر الله بصره من المتاع ما لم يرفع أو يحسن موضعه واذا أكل ولم يسم أكل معه قال الاعمش ربمادخلت البيت ولم أذكر اسم الله ولم اسلم فرأيت مطهرة فقلت ارفعوا هذه وخاصمتهم ثم أذكر فأقول داسم داسم أعوذ بالله منه روى أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء أخرجه الترمذى (م) عن عثمان بن ابى العاص قال قلت يا رسول الله ان الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى وبين قراءتى يلبسها على فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك شيطان يقال له خنزب فاذا احسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عنى (م) عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة اعظمهم فتنة يجىء احدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئا ثم يجئ أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه ويقول نعم أنت قال الاعمش أراه قال فيلتزمه وقوله (بئس للظالمين بدلا) يعنى بئس ما استبدلوا طاعة ابليس وذريته بعبادة ربهم وطاعته قوله سبحانه وتعالى (ما أشهدتهم) أى ما أحضرتهم يعنى ابليس وذريته وقيل الكفار وقيل الملائكة (خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) والمعنى ما أشهدتهم خلقها فأستعين بهم على خلقها او أشاورهم فيها (وما كنت متخذ المضلين) يعنى الشياطين الذين يضلون الناس (عضدا) يعنى انصارا واعوانا قوله عز وجل (ويوم يقول نادوا) يعنى يقول الله تعالى يوم القيامة نادوا (شركائى) يعنى الاصنام (الذين زعمتم) يعنى انهم شركائى (فدعوهم) أى فاستغاثوا بهم (فلم يستجيبوا لهم) أى فلم يجيبوهم ولم ينصروهم (وجعلنا بينهم) يعنى بين الاصنام وعبدتها وقيل بين أهل الهدى وبين أهل الضلال (موبقا) يعنى مهلكا قال ابن عباس هو واد فى النار وقيل نهر تسيل منه نار وعلى حافتيه حيات مثل البغال الدهم وقيل كل حاجز بين شيئين فهو موبق وأصله الهلاك (ورأى المجرمون) اى المشركون (النار فظنوا) أى ايقنوا (انهم مواقعوها) أى داخلوها وواقعون فيها (ولم يجدوا عنها مصرفا) أى معدلا لانها أحاطت بهم من كل جانب وقيل لان الملائكة تسوقهم اليها قوله سبحانه وتعالى (ولقد صرفنا) أى بينا (فى هذا القرآن للناس من كل مثل) أى ليتذكروا ويتعظوا (وكان الانسان أكثر شئ جدلا) أى خصومة فى الباطل قال ابن عباس أراد النضر بن الحارث وجداله فى القرآن وقيل اراد به أبى بن خلف وقيل اراد به جميع الكفار وقيل الآية على العموم وهو الاصح (ق) عن على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلا فقال ألا تصليان فقلت يا رسول الله أنفسنا بيد الله تعالى فاذا شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت ذلك ولم يرجع الى شيئا ثم سمعته يقول وهو مول يضرب فخذه بيده وكان الانسان أكثر شئ جدلا قوله عز وجل (وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى) يعنى القرآن واحكام الاسلام والبيان من الله تعالى وقيل انه رسول الله صلى الله عليه وسلم (ويستغفروا ربهم) والمعنى انه لا مانع لهم من الايمان ولا من الاستغفار والتوبة والتخلية حاصلة والاعذار زائلة فلم لم تقدموا على الايمان والاستغفار (الا أن تأتيهم سنة الاولين) يعنى سنتنا فى اهلاك الاولين ان لم يؤمنوا وهو عذاب الاستئصال (أو يأتيهم العذاب قبلا) قال ابن عباس اى عيانا من المقابلة وقيل فجأة قوله سبحانه وتعالى (وما نرسل المرسلين الا مبشرين) اى بالثواب على الطاعة (ومنذرين) بالعقاب لمن عصى (ويجادل الذين كفروا بالباطل) هو قولهم أبعث الله بشرا رسولا وقولهم للرسل ما انتم الا بشر

مثلما وشبه ذلك (ليدحضوا) أي ليبطلوا (به الحق) ويزيلوه (واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا) فيه إضمار يعني اتخذوا وما أنذروا به وهو القرآن استهزاء قوله عز وجل (ومن أظلم ممن ذكر) أي وعظ (بآيات ربه فأعرض عنها) أي تولى عنها وتركها ولم يؤمن بها (ونسي ما قدمت يداه) أي ما عمل من المعاصي من قبل (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة) أي أغطية (أن يفقهوه) يريد لئلا يفقهوه (وفي آذانهم وقرا) أي ثقلا وصمما (وإن تدعهم) يا محمد (إلى الهدى) أي الدين (فلن يهتدوا إذا أبدا) وهذا في أقوام علم الله منهم أنهم لا يؤمنون (وربك الغفور) أي البليغ المغفرة (ذو الرحمة) أي الموصوف بالرحمة (لو يؤاخذهم) أي يعاقب الكفار (بما كسبوا) من الذنوب (لعجل لهم العذاب) أي في الدنيا (بل لهم موعد) يعني البعث والحساب (لن يجدوا من دونه موئلا) أي ملجأ (وتلك القرى) يعني قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم (أهلكناهم لما ظلموا) أي كفروا (وجعلنا لمهلكهم موعدا) أي أجلا لإهلاكهم قوله سبحانه وتعالى (وإذ قال موسى لفتاه) الآيات أكثر العلماء على أن موسى المذكور في هذه الآية هو موسى بن عمران من سبط لاوي بن يعقوب صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة وعن كعب الأحبار أنه موسى بن ميشا من أولاد يوسف بن يعقوب وكان قد تنبأ قبل موسى بن عمران والقول الأول أصح بدليل أن الله سبحانه وتعالى لم يذكر في كتابه العزيز موسى إلا أراد به صاحب التوراة فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه ولو أراد شخصا آخر لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز بينهما وتزيل الشبهة فلما لم يميزه بصفة علمنا أنه موسى بن عمران صاحب التوراة وأما فتاه فالأصح أنه يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف وهو صاحب موسى وولي عهده بعد وفاته وقيل إنه أخو يوشع وقيل إنه فتاه يعني عبده بدليل قوله صلى الله عليه وسلم لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي (ق) عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس إن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل فقال ابن عباس كذب عدو الله حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن موسى عليه السلام قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه أن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يا رب فكيف لي به قال تأخذ معك حوتا فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فأخذ حوتا فجعله في مكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤسهما فناما فاضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربا وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت وانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به فقال له فتاه أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا قال فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا فقال موسى ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصا قال رجعا فقصا آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب أبيض فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنى بأرضك السلام فقال أنا موسى قال موسى بني إسرائيل قال نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا قال إنك لن تستطيع معي صبرا يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه فقال موسى ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا فقال له الخضر فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول فلما ركبا السفينة لم يفجأ موسى إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا

(ليدحضوا به الحق) ليزيلوا ويبطلوا بالجدال النبوة (واتخذوا آياتي) القرآن (وما أنذروا) ما موصولة والراجع من الصلة محذوف أي وما أنذروه من العقاب أو مصدرية أي وإنذارهم (هزوا) موضع استهزاء بسكون الزاي والهمزة حمزة وبإبدال الهمزة واوا حفص وبضم الزاي والهمزة غيرهما (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه) بالقرآن ولذلك رجع الضمير إليها مذكرا في قوله أن يفقهوه (فأعرض عنها) فلم يتذكر حين ذكر ولم يتدبر (ونسي ما قدمت يداه) عاقبة ما قدمت يداه من الكفر والمعاصي غير متفكر فيها ولا ناظر في أن المسيء والمحسن لا بد لهما من جزاء ثم علل إعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم بقوله (إنا جعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية جمع كنان وهو الغطاء (أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) ثقلا عن استماع الحق وجمع بعد الإفراد حملا على لفظ من ومعناه (وإن تدعهم) يا محمد (إلى الهدى) إلى الإيمان (فلن يهتدوا) فلا يكون منهم اهتداء البتة (إذا) جزاء وجواب فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول بمعنى أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سببا في انتفائه وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله ما لي لا أدعوهم حرصا على إسلامهم فقيل وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا (أبدا) مدة التكليف كلها (وربك الغفور) البليغ المغفرة (ذو الرحمة) الموصوف بالرحمة (لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب) أي ومن رحمته ترك مؤاخذته أهل مكة عاجلا مع فرط عداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم (بل لهم موعد) وهو يوم بدر (لن يجدوا من دونه موئلا) منجا ولا ملجأ يقال وأل إذا نجا ووأل إليه إذا لجأ إليه (وتلك) مبتدأ (القرى) صفة لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس والخبر (أهلكناهم) أو تلك القرى نصب بإضمار أهلكنا على شريطة التفسير والمعنى وتلك أصحاب القرى أهلكناهم والمراد قوم نوح وعاد وثمود (لما ظلموا) مثل ظلم أهل مكة (وجعلنا لمهلكهم موعدا) وضربنا لإهلاكهم وقتا معلوما لا يتأخرون عنه كما ضربنا لأهل مكة يوم بدر والمهلك الإهلاك ووقته وبفتح الميم وكسر اللام حفص وبفتحهما أبو بكر أي لوقت هلاكهم أو لهلاكهم والموعد وقت أو مصدر (وإذ) واذكر إذ (قال موسى لفتاه) هو يوشع بن نون وإنما قيل فتاه لأنه كان يخدمه ويتبعه ويأخذ منه العلم قال

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت الاولى من موسى نسيانا قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة فقال له الخضر ما نقص علمى وعلمك من علم الله الا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل اذ ابصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا قال ألم اقل لك انك لن تستطيع معى صبرا قال وهذه اشد من الاولى قال ان سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا فانطلقا حتى اذا اتيا اهل قرية استطعما اهلها فأبوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض أى مائلا فقال الخضر بيده هكذا فأقامه فقال موسى قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا لو شئت لاتخذت عليه اجرا قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرحم الله موسى لوددت انه صبر حتى يقص علينا من اخبارهما قال سعيد بن جبير كان ابن عباس يقرأ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا وكان يقرأ واما الغلام فكان كافرا وكان ابواه مؤمنين وفى رواية عن ابى بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قام موسى عليه السلام ذكر الناس يوما حتى اذا فاضت العيون ورقت القلوب ولى فأدركه رجل فقال اى رسول الله هل فى الارض احد اعلم منك قال لا فعتب الله عليه اذ لم يرد العلم الى الله تعالى فقال بلى قال اى رب واين هو قال بمجمع البحرين قال خذ حوتا ميتا حيث ينفخ فيه الروح وفى رواية تزود حوتا مالحا فانه حيث يفقد الحوت زاد فى رواية وفى أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شئ الا حيى فأصاب الحوت من ماء تلك العين فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر ورجعنا الى التفسير قوله سبحانه وتعالى (لا أبرح) أى لا ازال أسير (حتى أبلغ مجمع البحرين) قيل أراد بحر فارس والروم مما يلى المشرق وقيل طنجة وقيل افريقية (أو أمضى حقبا) يعنى او أسير دهرا طويلا والحقب ثمانون سنة فحمل خبزا وسمكة مالحة فى المكتل وهو الزنبيل الذى يسع خمسة عشر صاعا ومضيا حتى انتهيا الى الصخرة التى عند مجمع البحرين وعندها عين تسمى عين الحياة لا تصيب شيئا الا حيى فلما أصاب السمكة روح الماء وبرده اضطربت فى المكتل وهاجت ودخلت فى البحر (فلما بلغا) يعنى موسى وفتاه (مجمع بينهما) أى بين البحرين (نسيا) أى تركا (حوتهما) وانما كان الحوت مع يوشع بن نون وهو الذى نسيه وانما أضاف النسيان اليهما لانهما تزوداه لسفرهما وقيل المراد من قوله نسيا حوتهما أى نسيا كيفية الاستدلال بهذه الحالة المخصوصة على الوصول للمطلوب (فاتخذ) أى الحوت (سبيله فى البحر سربا) أى مسلكا وروى أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال انجاب الماء عن مسلك الحوت فصار كوة لم يلتئم فدخل موسى الكوة على أثر الحوت فاذا هو بالخضر قال ابن عباس جعل الحوت لا يمس شيئا من البحر الا يبس حتى صار صخرة وقد روينا انهما لما انتهيا الى الصخرة وضعا رؤسهما فناما واضطرب الحوت فخرج فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ موسى نسى صاحبه ان يخبره فانطلقا حتى اذا كانا من الغد وهو قوله سبحانه وتعالى (فلما جاوزا) يعنى ذلك الموضع وهو مجمع البحرين (قال) يعنى موسى (لفتاه آتنا غداءنا) أى طعامنا (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) أى تعبا وشدة وذلك انه القى على موسى الجوع بعد ما جاوز الصخرة ليتذكر الحوت ويرجع فى طلبه (قال) يعنى يوشع (أرأيت اذ أوينا الى الصخرة) وهى صخرة كانت بالموضع الموعود (فانى نسيت الحوت) أى تركته وفقدته وذلك ان يوشع حين رأى من الحوت ذلك قام ليدرك موسى فيخبره فنسى ان يخبره فمكثا يومهما حتى صليا الظهر من الغد ثم قال (وما أنسانيه الا الشيطان ان اذكره) اى وما انسانى ان اذكر لك امر الحوت الا الشيطان قيل المراد من النسيان شغل قلب الانسان بوساوس الشيطان التى هى من فعله دون النسيان الذى يضاد الذكر لان ذلك لا يصح الا من قبل الله تعالى (واتخذ سبيله فى البحر عجبا) قيل هذا من قول يوشع بن نون

(لابرح) لأزال وقد حذف الخبر لدلالة الحال والكلام عليه أما الاولى فلانها كانت حال سفر وأما الثانى فلان قوله (حتى ابلغ مجمع البحرين) غاية مضروبة تستدعى ما هى غاية له فلابد ان يكون المعنى لا ابرح اسير حتى ابلغ مجمع البحرين وهو المكان الذى وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام وهو ملتقى بحر فارس والروم وسمى خضرا لانه اينما يصلى يخضر ما حوله (او امضى حقبا) او اسير زمانا طويلا وقيل ثمانون سنة روى انه لما ظهر موسى عليه السلام على مصر مع بنى اسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط سأل ربه أى عبادك احب اليك قال الذى يذكرنى ولا ينسانى قال فأى عبادك اقضى قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى قال فأى عبادك اعلم قال الذى يبتغى علم الناس الى علمه عسى يصيب كلمة تدله على هدى او ترده عن ردى فقال ان كان فى عبادك من هو اعلم منى فدلنى عليه قال اعلم منك الخضر قال أين اطلبه قال على الساحل عند الصخرة قال يارب كيف لى به قال تأخذ حوتا فى مكتل فحيث فقدته فهو هناك فقال لفتاه اذا فقدت الحوت فأخبرنى فذهبا يمشيان فرقد موسى فاضطرب الحوت ووقع فى البحر فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فأخبره فتاه بوقوعه فى البحر فأتيا الصخرة فاذا رجل مسجى بثوبه فسلم عليه موسى فقال وانى بأرضنا السلام فعرفه نفسه فقال ياموسى انا على علم علمنيه الله لا تعلمه انت وانت على علم علمكه الله لا اعلمه انا (فلما بلغا مجمع بينهما) مجمع البحرين (نسيا حوتهما) أى نسى احدهما وهو يوشع لانه كان صاحب الزاد دليله فانى نسيت الحوت وهو كقولهم نسوا زادهم وانما ينساه متعهد الزاد قيل كان الحوت سمكة مملوحة فنزلا ليلة على شاطئ عين الحياة ونام موسى فلما اصاب السمكة روح الماء وبرده عاشت ووقعت فى الماء (فاتخذ سبيله فى البحر) أى اتخذ طريقه من البر الى البحر (سربا) نصب على المصدر اى سرب فيه سربا يعنى دخل فيه واستتر به (فلما جاوزا) مجمع البحرين ثم نزلا وقد سارا ما شاء الله (قال) موسى (لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) تعبا ولم يتعب ولا جاع قبل ذلك (قال أرأيت اذ اوينا الى الصخرة) هى موضع الموعد (فانى نسيت الحوت) ثم اعتذر فقال (وما انسانيه) وبضم الهاء حفص (الا الشيطان) بالقاء الخواطر فى القلب (أن اذكره) بدل من الهاء فى انسانيه أى وما انسانى ذكره الا الشيطان (واتخذ سبيله فى البحر عجبا) وهو ان اثره بقى الى حيث سار

(قال ذلك ما كنا نبغ) نطلب وبالياء مكي ووافقه ابو عمرو وعلي ومدني في الوصل وبغير ياء فيهما غيرهما اتباعا لخط المصحف وذلك اشارة الى اتخاذه سبيلا أي ذلك الذي كنا نطلب لان ذهاب الحوت كان علما على لقاء الخضر عليه السلام (فارتدا على آثارهما) فرجعا في الطريق الذي جاآ فيه (قصصا) يقصان قصصا أي يتبعان آثارهما اتباعا قال الزجاج القصص اتباع الاثر **١٩٨** (فوجدا عبدا من عبادنا) أي الخضر راقدا تحت ثوب او جالسا في البحر (آتيناه رحمة من عندنا) هي الوحي والنبوة او العلم او طول الحياة (وعلمناه من لدنا علما) يعني الاخبار بالغيوب وقيل العلم اللدني ما حصل للعبد بطريق الالهام (قال له موسى هل اتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا) أي علما ذا رشد ارشد به في ديني رشدا ابو عمرو وهما لغتان كالبخل والبخل وفيه دليل على انه لا ينبغي لاحد ان يترك طلب العلم وان كان قد بلغ نهايته وان يتواضع لمن هو اعلم منه (قال انك لن تستطيع معي) وبفتح الياء حفص وكذا ما بعده في هذه السورة (صبرا) أي عن الانكار والسؤال (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) تمييز نفي استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد وعلل ذلك بأنه يتولى أمورا هي في ظاهرها مناكير والرجل الصالح لا يتمالك ان لا يخرج اذا رأى ذلك فكيف اذا كان نبيا (قال ستجدني ان شاء الله صابرا) من الصابرين عن الانكار والاعتراض (ولا اعصي لك أمرا) في محل النصب عطف على صابرا أي ستجدني صابرا وغير عاص او هو عطف على ستجدني ولا محل له (قال فان اتبعتني فلا تسألني) بفتح اللام وتشديد النون مدني وشامي وبسكون اللام وتخفيف النون غيرهما والياء ثابتة فيهما اجماعا (عن شيء حتى احدث لك منه ذكرا) أي من شرط اتباعك لي انك اذا رأيت مني شيئا وقد علمت انه صحيح الا انه خفي عليك وجه صحته فأنكرت في نفسك ان لا تفاتحني بالسؤال ولا تراجعني فيه حتى اكون انا الفاتح عليك وهذا من أدب المتعلم مع العالم أو المتبوع مع التابع (فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة خرقها) فانطلقا على ساحل البحر يطلبان السفينة فلما ركباها قال اهلها هما من اللصوص وقال صاحب السفينة أرى وجوه الانبياء فحملوهما بغير نول فلما لججوا أخذ الخضر الفأس فخرق السفينة بان قلع لوحين من الواحها مما يلي الماء فجعل موسى يسد الخرق بثيابه ثم (قال أخرقتها لتغرق اهلها) ليغرق حمزة وعلي من غرق (لقد جئت شيئا إمرا) أتيت شيئا عظيما من امر الامر اذا عظم (قال) أي الخضر (ألم أقل انك لن تستطيع معي صبرا) فلما رأى موسى ان الخرق لا يدخله الماء ولم يفر من السفينة (قال لا تؤاخذني بما نسيت) بالذي نسيته او بشيء نسيته او بنسياني اراد انه نسي وصيته ولا مؤاخذة على الناسي أو أراد بالنسيان الترك أي لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك اول مرة الاولى

يعني وقع الحوت في البحر فاتخذ سبيله فيه مسلكا وروي في الخبر كان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا وقيل اي شيء اعجب من حوت يؤكل منه دهرا ثم صار حيا بعدما اكل بعضه قوله عز وجل (قال) يعني موسى (ذلك ما كنا نبغ) نطلب (فارتدا على آثارهما قصصا) اي رجعا يقصان الذي جاآ منه ويتبعانه (فوجدا عبدا من عبادنا) قيل كان ملكا من الملائكة والصحيح الذي ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء في التواريخ انه الخضر واسمه ايليا بن ملكان وكنيته ابو العباس قيل كان من بني اسرائيل وقيل كان من ابناء الملوك الذين تزهدوا وتركوا الدنيا والخضر لقب له سمي به لانه جلس على فروة بيضاء فاخضرت (خ) عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما سمي خضرا لانه جلس على فروة بيضاء فاذا هي تهتز تحته خضراء الفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة وقيل سمي خضرا لانه كان اذا صلى اخضر ما حوله وروينا ان موسى رأى الخضر مسجى بثوب فسلم عليه فقال الخضر واني بارضك السلام قال انا موسى اتيتك لتعلمني مما علمت رشدا ومعنى مسجى بثوب اي مغطى بثوب وقوله واني بارضك السلام معناه من اين بارضك التي انت فيها الآن السلام وروي انه لقيه على طنفسة خضراء على جانب البحر فذلك قوله سبحانه وتعالى فوجدا عبدا من عبادنا (آتيناه رحمة) اي نعمة (من عندنا وعلمناه من لدنا علما) اي علم الباطن الهاما ولم يكن الخضر نبيا عند اكثر اهل العلم فان قلت ظاهر هذه الآية يدل على ان الخضر كان اعلى شأنا من موسى وكان موسى يظهر التواضع له والتأديب معه قلت لا يخلو اما ان يكون الخضر من بني اسرائيل او من غيرهم فان كان من بني اسرائيل فهو من أمة موسى ولا جائز ان يكون أحد الامة افضل من نبيها أو اعلى شأنا منه وان كان من غير بني اسرائيل فقد قال الله تعالى لبني اسرائيل واني فضلتكم على العالمين أي على عالمي زمانكم (قال له موسى هل أتبعك) معناه جئت لاصحبك واتبعك (على ان تعلمن مما علمت رشدا) أي صوابا وقيل علما ترشدني به وفي بعض الاخبار قال الخضر لموسى كفى بالتوراة علما وببني اسرائيل شغلا فقال له موسى ان الله أمرني بهذا فحينئذ (قال) الخضر لموسى (انك لن تستطيع معي صبرا) وانما قال ذلك لانه علم انه يرى أمورا منكرة ولا يجوز للانبياء الصبر مع المنكرات ثم بين عذره في ترك الصبر فقال (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) أي علما (قال) موسى (ستجدني ان شاء الله صابرا) انما استثنى لانه لم يثق من نفسه بالصبر (ولا أعصي لك امرا) أي لا اخالفك فيما تأمرني به (قال فان اتبعتني) أي فان صحبتني ولم يقل اتبعني ولكن جعل الاختيار اليه ثم شرط عليه شرطا فقال (فلا تسألني عن شيء) أي مما اعمله مما تنكره ولا تعترض عليه (حتى أحدث لك منه ذكرا) معناه حتى أبتدئ بذكره فأبين لك شأنه قوله سبحانه وتعالى (فانطلقا) أي يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها فوجدا سفينة فركباها فقال أهل السفينة هؤلاء لصوص وأمروهما بالخروج فقال صاحب السفينة ما هم بلصوص ولكن أرى وجوه الانبياء وروينا عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم مرت بهم سفينة فكلموهم ان يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول اي بغير عوض ولا عطاء فلما لججوا في البحر أخذ الخضر فأسا فخرق لوحا من ألواح السفينة فذلك قوله تعالى (حتى اذا ركبا في السفينة خرقها قال) يعني موسى له (أخرقتها لتغرق اهلها لقد جئت شيئا امرا) اي اتيت شيئا عظيما منكرا روي ان الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء وروي ان موسى لما رأى ذلك اخذ ثوبه فحشا به الخرق (قال) العالم وهو الخضر (ألم اقل انك لن تستطيع معي صبرا قال) يعني موسى (لا تؤاخذني بما نسيت) قال ابن عباس لم ينس ولكنه من معاريض الكلام فكأنه نسي شيئا آخر وقيل معناه بما تركت من عهدك والنسيان الترك وقال أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم كانت

(ولا ترهقني من أمري عسرا) رهقه إذا غشيه وأرهقه إياه أي ولا تغشني عسرا من أمري وهو اتباعه إياه أي ولا تعسر على متابعتك ويسرها علي بالإغضاء وترك المناقشة (فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله) قيل ضرب برأسه الحائط وقيل أضجعه ثم ذبحه بالسكين وإنما قال فقتله بالفاء وقال خرقها بغير فاء لأن خرقها جعل جزاء للشرط وجعل قتله من جملة الشرط معطوفا عليه والجزاء (قال أقتلت نفسا) وإنما خولف بينهما لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب وقد تعقب القتل لقاء الغلام (زكية) زاكية حجازي وأبو عمرو وهي الطاهرة من الذنوب أما لأنها طاهرة عنده لأنه لم يرها قد أذنبت أو لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث (بغير نفس) أي لم تقتل نفسا فيقتص منها وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن نجدة الحروري كتب إليه كيف جاز قتله وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان فكتب إليه إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل (لقد جئت شيئا نكرا) وبضم الكاف حيث كان مدني وأبو بكر وهو المنكر وقيل النكر أقل من الأمر لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة أو معناه جئت شيئا أنكر من الأول لأن الخرق يمكن تداركه بالسد ولا يمكن تدارك القتل (قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا) زاد لك هنا لأن النكر فيه أكثر (قال إن سألتك عن شيء بعدها) بعد هذه الكرة أو المسألة (فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا) أعذرت فيما بيني وبينك في الفراق ولدني بتخفيف النون مدني وأبو بكر (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية) هي أنطاكية أو الأبلة وهي أبعد أرض الله من السماء (استطعما أهلها) استضافا (فأبوا أن يضيفوهما) ضيفه أنزله وجعله ضيفه قال عليه السلام كانوا أهل قرية لئاما وقيل شر القرى التي تبخل بالقرى (فوجدا فيها) في القرية (جدارا) طوله مائة ذراع (يريد أن ينقض) يكاد يسقط استعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة كما استعير الهم والعزم لذلك (فأقامه) بيده أو مسحه بيده فقام واستوى أو نقضه وبناه كانت الحال حال اضطرار وافتقار إلى المطعم وقد لزتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسألة فلم يجدا مواسيا فلما أقام الجدار لم يتمالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة أن (قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا) أي لطلبت على عملك جعلا حتى تستدفع به الضرورة لتخذت بتخفيف التاء وكسر الخاء وإدغام الذال بصري وبإظهارها مكي وبتشديد التاء وفتح الخاء وإظهار الذال حفص وبتشديد التاء وفتح الخاء وإدغام الذال في التاء غيرهم والتاء في تخذ أصل كما في تبع واتخذ افتعل منه كاتبع من تبع وليس من الأخذ في شيء

الأولى من موسى نسيانا والثانية شرطا والثالثة عمدا (ولا ترهقني) أي لا تغشني (من أمري عسرا) والمعنى لا تعسر علي متابعتك ويسرها بالإغضاء وترك المناقشة وقيل لا تكلفني مشقة ولا تضيق علي أمري (فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله) في القصة أنهما خرجا من البحر يمشيان فمرا بغلمان يلعبون فأخذ الخضر غلاما ظريفا وضيء الوجه كان وجهه يتوقد حسنا فأضجعه ثم ذبحه بالسكين وروينا أنه أخذ برأسه فاقتلعه بيده وروى عبد الرزاق هذا الخبر وفيه وأشار بأصابعه الثلاث الإبهام والسبابة والوسطى وقلع رأسه وروي أنه رضخ رأسه بحجر وقيل ضرب رأسه بالجدار فقتله قال ابن عباس كان غلاما لم يبلغ الحنث ولم يكن نبي الله موسى يقول أقتلت نفسا زاكية إلا وهو صبي لم يبلغ الحنث وقيل كان رجلا وقيل كان اسمه حيسور وقيل كان فتى يقطع الطريق ويأخذ المتاع ويلجأ إلى أبويه وقيل كان غلاما يعمل بالفساد ويتأذى منه أبواه (ق) عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرا ولو عاش لأرهق أبويه طغيانا وكفرا لفظ مسلم (قال) يعني موسى (أقتلت نفسا زاكية) أي لم تذنب قط وقرئ زكية وهي التي أذنبت ثم تابت (بغير نفس) أي لم تقتل نفسا حتى يجب عليها القتل (لقد جئت شيئا نكرا) أي منكرا عظيما وقيل النكر أعظم من الإمر لأنه حقيقة الهلاك وفي خرق السفينة خوف الهلاك وقيل الإمر أعظم لأن فيه تغريق جمع كثير وقيل معناه لقد جئت شيئا أنكر من الأول لأن ذاك كان خرقا يمكن تداركه بالسد وهذا لا سبيل إلى تداركه (قال) يعني الخضر (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا) قيل زاد في هذه الآية قوله لك لأنه نقض العهد مرتين وقيل إن هذه اللفظة توكيد للتوبيخ فعند هذا (قال) موسى (إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني) قيل إن يوشع كان يقول لموسى يا نبي الله اذكر العهد الذي أنت عليه قال موسى إن سألتك عن شيء بعد هذه المرة فلا تصاحبني أي فارقني ولا تصاحبني (قد بلغت من لدني عذرا) قال ابن عباس أي قد أعذرت فيما بيني وبينك وقيل معناه اتضح لك العذر في مفارقتي والمعنى أنه مدحه بهذه الطريقة من حيث أنه احتمله مرتين أولا وثانيا مع قرب المدة (ق) عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة الله علينا وعلى موسى وكان إذا ذكر أحدا من الأنبياء بدأ بنفسه لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة فقال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا فلو صبر لرأى العجب قوله ذمامة هو بذال معجمة أي حياء وإشفاق من الذم واللوم يقال ذممته ذمامة يعني لمته ملامة ويشهد له قول الخضر هذا فراق بيني وبينك قوله سبحانه وتعالى (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية) قال ابن عباس يعني أنطاكية وقيل الأبلة وهي أبعد الأرض من السماء وقيل هي بلدة بالأندلس (استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما) قال أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أتيا أهل قرية لئاما فطافا في المجالس فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما وروي أنهما طافا في القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم فلم يضيفوهما وعن أبي هريرة قال أطعمتهما امرأة من أهل بربر بعد أن طلبا من الرجال فلم يطعموهما فدعا لنسائهم ولعن رجالهم وعن قتادة قال شر القرى التي لا تضيف الضيف (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض) أي يسقط وهذا من مجاز الكلام لأن الجدار لا إرادة له وإنما معناه قرب ودنا من السقوط كما تقول داري تنظر إلى دار فلان إذا كانت تقابلها فاستعير لها النظر كما استعير للجدار الإرادة (فأقامه) أي سواه وفي حديث أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال الخضر بيده هكذا فأقامه وقال ابن عباس هدمه وقعد يبنيه (قال) يعني موسى (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) يعني على إصلاح الجدار جعلا والمعنى أنك قد علمت أنا جياع وأن أهل القرية لم يطعمونا فلو اتخذت على عملك أجرا

(قال هذا فراق بيني وبينك) هذا اشارة الى السؤال الثالث أى هذا الاعتراض سبب الفراق والاصل هذا فراق بيني وبينك وقد قرئ به فأضيف المصدر الى الظرف كما يضاف الى المفعول به (سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر) قيل كانت لعشرة اخوة خمسة منهم زمنى وخمسة يعملون فى البحر (فأردت ان اعيبها) اجعلها ذات عيب (وكان وراءهم ملك) امامهم او خلفهم وكان طريقهم فى رجوعهم عليه وما كان عندهم خبره فأعلم الله به الخضر وهو جلندى (يأخذ كل سفينة غصبا) أى يأخذ كل سفينة صالحة لا عيب فيها غصبا وان كانت معيبة تركها وهو مصدر او مفعول له فان قلت قوله فأردت ان اعيبها مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه ان يتأخر عن السبب قلت المراد به التأخير وانما قدم للعناية (وأما الغلام) وكان اسمه الحسين (فكان ابواه مؤمنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا) فخفنا ان يغشى الوالدين المؤمنين طغيانا عليهما وكفرا لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويلحق بهما شرا وبلاء او يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه وهو من كلام الخضر وانما خشى الخضر منه ذلك لانه تعالى اعلمه بحاله واطلعه على سر امره وان كان من قول الله تعالى فمعنى فخشينا فعلمنا ان عاش ان يصير سببا لكفر والديه (فأردنا ان يبدلهما ربهما) يبدلهما مدنى وابو عمرو (خيرا منه زكاة) طهارة ونقاء من الذنوب (واقرب رحما) رحمة وعطفا وزكاة ورحما تمييز روى انه ولدت لهما جارية تزوجها نبى فولدت نبيا او سبعين نبيا او ابدلهما ابنا مؤمنا مثلهما رحما شامى وهما لغتان (وأما الجدار فكان لغلامين) اصرم وصريم (يتيمين فى المدينة) هى القرية المذكورة (وكان تحته كنزلهما) أى لوح من ذهب مكتوب فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها باهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله او مال مدفون من ذهب وفضة او صحف فيها علم والاول اظهر وعن قتادة احل الكنز لمن قبلنا وحرم علينا وحرمت الغنيمة عليهم واحلت لنا (وكان ابوهما) قيل جدهما السابع (صالحا) ممن يصحبني وعن الحسين بن على رضى الله عنهما انه قال لبعض الخوارج فى كلام جرى بينهما بم حفظ الله الغلامين قال بصلاح ابيهما قال فأبى وجدى خير منه

(قال) يعنى الخضر (هذا فراق بيني وبينك) يعنى هذا وقت فراق بيني وبينك وقيل هذا الانكار على ترك أخذ الاجر هو المفرق بيننا (سأنبئك) أى سوف أخبرك (بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) وقيل ان موسى أخذ بثوب الخضر وقال أخبرني بمعنى ما عملت قبل أن تفارقني فقال الخضر (اما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر) قيل كانت لعشرة اخوة خمسة زمنى وخمسة يعملون فى البحر أى يؤجرونها ويكتسبون بها وفيه دليل على ان المسكين وان كان يملك شيئا لا يزول عنه اسم المسكنة اذا لم يقم ما يملكه بكفايته وان حال الفقير فى الضر والحاجة أشد من حال المسكين لان الله سبحانه وتعالى سماهم مساكين مع انهم كانوا يملكون تلك السفينة (فأردت أن أعيبها) أى اجعلها ذات عيب (وكان وراءهم ملك) أى امامهم وقيل خلفهم وكان رجوعهم فى طريقهم عليه والاول أصح (يأخذ كل سفينة غصبا) أى كل سفينة صالحة فخرقتها وعبتها حتى لا يأخذها الملك الغاصب وكان اسمه الجلندى الازدى وكان كافرا وقيل كان اسمه هدد بن بدد وروى ان الخضر اعتذر الى القوم وذكر لهم شأن الملك الغاصب ولم يكونوا يعلمون بخبره وقال أردت اذا هى مرت به ان يدعها لعيبها فاذا جاوزوا اصلحوها وانتفعوا بها قوله عز وجل (واما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا) أى خفنا والخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه وقيل معناه فعلمنا (أن يرهقهما) أى يغشيهما وقيل يكلفهما (طغيانا وكفرا) قيل معناه فخشينا أن يحملهما حبه على أن يتبعاه على دينه (فأردنا أن يبدلهما ربهما) الابدال رفع الشئ ووضع آخر مكانه (خيرا منه زكاة) اى صلاحا وتقوى وقيل هو فى مقابلة قوله تعالى اقتلت نفسا زاكية فقال الخضر اردنا أن يرزقهما الله خيرا منه زكاة (واقرب رحما) أى ويكون المبدل منه اقرب عطفا ورحمة بابويه بان يبرهما ويشفق عليهما قيل ابدلهما جارية فتزوجها نبى من الانبياء فولدت له نبيا فهدى الله على يديه امة من الامم وقيل ولدت سبعين نبيا وقيل ابدلهما بغلام مسلم وقيل ان الغلام الذى قتل فرح به ابوه حين ولد وحزن عليه حين قتل ولو بقى لكان فيه هلاكهما فليرض العبد بقضاء الله تعالى فان قضاء الله سبحانه وتعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب قوله سبحانه وتعالى (واما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة) قيل كان اسمهما اصرم وصريم (وكان تحته كنزلهما) روى ابو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال كان الكنز ذهبا وفضة اخرجه الترمذى وقيل كان الكنز صحفا فيها علم وقال ابن عباس كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبا لمن ايقن بالموت كيف يفرح عجبا لمن ايقن بالقدر كيف يغضب عجبا لمن ايقن بالرزق كيف يتعب عجبا لمن يوقن بالحساب كيف يغفل عجبا لمن ايقن بزوال الدنيا وتقلبها باهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله وفى الجانب الآخر مكتوب انا الله لا اله الا انا وحدى لا شريك لى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير واجريته على يديه والويل لمن خلقته للشر واجريته على يديه وقيل الكنز اذا اطلق يراد به المال ومع التقييد يراد به غيره يقال عند فلان كنز علم وكان هذا اللوح جامعا لهما (وكان ابوهما صالحا) قيل كان اسمه كاشح وكان من الاتقياء قال ابن عباس حفظا بصلاح ابيهما وقيل كان بينهما وبين الاب الصالح سبعة آباء قال محمد بن المنكدر ان الله سبحانه وتعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته واهل دويرات حوله فلا يزالون فى حفظ الله ما دام فيهم وقال سعيد بن المسيب انى لاصلى فاذكر ولدى فأزيد فى صلاتى (فاراد ربك أن يبلغا أشدهما) اى يدركا ويعقلا قوتهما وهو البلوغ وهى ثمانية عشرة سنة فان قلت كيف قال فى الاولى فأردت وفى الثانية فأردنا وفى الثالثة فأراد ربك وما وجه كل واحدة من هذه الالفاظ قلت انه لما ذكر العيب

اضافه

(فأراد ربك ان يبلغا اشدهما) أي الحلم (ويستخرجا كنزهما رحمة) مفعول له او مصدر منصوب باراد ربك لانه في معنى رحمهما (من ربك وما فعلته) وما فعلت ما رأيت (عن أمري) عن اجتهادي وانما فعلته بامر الله والهاء يعود الى الكل أو الى الجدار (ذلك) أي الاجوبة الثلاثة (تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) حذف التاء تخفيفا وقد زل أقدام اقوام من الضلال في تفضيل الولي على النبي وهو كفر جلي حيث قالوا امر موسى بالتعلم من الخضر وهو ولي والجواب ان الخضر نبي وان لم يكن كما زعم البعض فهذا ابتلاء في حق موسى عليه السلام على ان أهل الكتاب يقولون ان موسى هذا ليس موسى بن عمران انما هو موسى بن ماثان ومن المحال ان يكون الولي وليا الا بايمانه بالنبي ثم يكون النبي دون الولي ولا غضاضة في طلب موسى العلم لان الزيادة في العلم مطلوبة وانما ذكر أولا فأردت لانه افساد في الظاهر وهو فعله وثالثا فأراد ربك لانه انعام محض وغير مقدور البشر وثانيا فأردنا لانه افساد من حيث الفعل انعام من حيث التبديل وقال الزجاج معنى فأردنا فأراد الله عز وجل ومثله في القرآن كثير (ويسألونك) اى اليهود على جهة الامتحان او ابو جهل واشياعه (عن ذي القرنين) هو الاسكندر الذي ملك الدنيا قيل ملكها مؤمنان ذو القرنين وسليمان وكافران نمرود وبختنصر وكان بعد نمرود وقيل كان عبدا صالحا ملكه الله الارض وأعطاه العلم والحكمة وسخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور من امامه وتحوطه الظلمة من ورائه وقيل نبيا وقيل ملكا من الملائكة وعن علي رضي الله عنه انه قال ليس بملك ولا نبي ولكن كان عبدا صالحا ضرب على قرنه الايمن في طاعة الله فمات ثم بعثه الله فضرب على قرنه الايسر فمات فبعثه الله فسمي ذا القرنين وفيكم مثله أراد نفسه قيل كان يدعوهم الى التوحيد فيقتلونه فيحييه الله تعالى وقال عليه السلام سمي ذا القرنين لانه طاف قرني الدنيا يعني جانبيها شرقها وغربها وقيل كان له قرنان اى ضفيرتان او انقرض في وقته قرنان من الناس او لانه ملك الروم وفارس او الترك والروم او كان لتاجه قرنان او على رأسه ما يشبه القرنين او كان كريم الطرفين أبا واما وكان من الروم

أضافه الى نفسه على سبيل الادب مع الله تعالى فقال فأردت أن أعيبها ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيها على انه من العلماء العظماء في علم الباطن وعلوم الحكمة وانه لم يقدم على مثل هذا القتل الا بحكمة عالية ولما ذكر رعاية المصالح في مال اليتيمين لاجل صلاح ابيهما اضافه الى الله سبحانه وتعالى لان حفظ الابناء وصلاح احوالهم لرعاية حق الآباء ليس الا لله سبحانه وتعالى فلاجل ذلك اضافه الى الله تعالى (ويستخرجا كنزهما) يعني اذا بلغا وعقلا وقويا (رحمة من ربك) اى نعمة من ربك (وما فعلته عن امري) أي باختياري ورأيي بل فعلته بأمر الله والهامه اياي لان تنقيص أموال الناس واراقة دمائهم وتغيير احوالهم لا يكون الا بالنص وأمر الله تعالى واستدل بعضهم بقوله سبحانه وتعالى وما فعلته عن امري على ان الخضر كان نبيا لان هذا يدل على الوحي وذلك للانبياء والصحيح انه ولي لله وليس بنبي واجيب عن قوله سبحانه وتعالى وما فعلته عن امري انه الهام من الله سبحانه وتعالى له بذلك وهذه درجة الاولياء وقيل معناه انما فعلت هذه الافعال لغرض ان تظهر رحمة الله لانها باسرها ترجع الى معنى واحد وهي تحمل الضرر الادنى لدفع الضرر الاعلى (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) أي لم تطق ان تصبر عليه روي ان موسى عليه السلام لما اراد ان يفارق الخضر قال اوصني قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلب العلم لتعمل به واختلف العلماء في ان الخضر حي ام ميت فقيل انه حي وهو قول الاكثرين من العلماء وهو متفق عليه عند مشايخ الصوفية واهل الصلاح والمعرفة والحكايات في رؤيته والاجتماع به ووجوده في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من ان تحصر قال الشيخ ابو عمرو بن الصلاح في فتاواه هو حي عند جماهير العلماء والصالحين والعامة هذا آخر كلامه وقيل ان الخضر والياس حيان يلتقيان كل سنة بالموسم وكان السبب في حياة الخضر فيما حكي أنه شرب من عين الحياة وذلك ان ذا القرنين دخل الظلمة لطلب عين الحياة وكان الخضر على مقدمته فوقع الخضر على العين فاغتسل وشرب منها وصلى شكر الله تعالى وأخطأ ذو القرنين الطريق فرجع وذهب آخرون الى أنه ميت لقوله سبحانه وتعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد وقال النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما صلى العشاء ليلة أرأيتكم ليلتكم هذه فان رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الارض أحد ولو كان الخضر حيا لكان لا يعيش بعده وقوله عز وجل (ويسألونك عن ذي القرنين) قيل اسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح وقيل اسمه الاسكندر بن فيلقوس الرومي كذا صح الرومي وكان ولد عجوز ليس لها ولد غيره ونقل الامام فخر الدين في تفسيره عن أبي الريحان البيروني المنجم في كتابه المسمى بالآثار الباقية عن القرون الخالية انه من حمير واسمه ابو كرب سمي بن عبير بن افريقيس الحميري وهو الذي افتخر به أحد شعراء حمير حيث يقول

قد كان ذو القرنين جدي مسلما * ملكا علا في الارض غير معند
بلغ المشارق والمغارب يبتغي * أسباب ملك من كريم مرشد
فرأى مآب الشمس عند غروبها * في عين ذي خلب وثأطة حرمد

قوله فرأى مآب الشمس أي ذهاب الشمس وقوله في عين ذي خلب أي حمأة والثأطة الحمأة أيضا والجمع ثأط والحرمد الطين الاسود وقيل سمي ذا القرنين لانه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها وقيل لانه ملك فارس والروم وقيل لانه دخل النور والظلمة وقيل لانه رأى في المنام كأنه اخذ بقرني الشمس وقيل لانه كان له ذؤابتان حسنتان وقيل كان له قرنان تواريهما العمامة وروي عن علي أنه أمر قومه بتقوى الله فضربوه على قرنه الايمن فمات وأحياه الله ثم بعثه فأمرهم بتقوى الله فضربوه على قرنه الايسر فمات فأحياه الله واختلفوا في نبوته فقيل كان نبيا ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى قلنا يا ذا القرنين وخطاب الله لا يكون الا مع الانبياء وقيل لم يكن نبيا قال أبو الطفيل سئل علي عن ذي القرنين أكان نبيا فقال لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان عبدا أحب الله فأحبه الله وناصح الله فناصحه الله وروي

(قل سأتلوا عليكم منه) من ذي القرنين (ذكرا انا مكنا له في الارض) جعلنا الله فيها مكانة واعتلاء (وآتيناه من كل شئ) اراده من اغراضه ومقاصده في ملكه (سببا) طريقا موصلا اليه (فأتبع سببا) والسبب ما يتوصل به الى المقصود من علم أو قدرة فأراد بلوغ المغرب فأتبع سببا يوصله اليه حتى بلغ وكذلك اراد المشرق فأتبع سببا واراد بلوغ السدين فأتبع سببا فاتبع ثم اتبع كوفي وشامي الباقون بوصل الالف وتشديد التاء عن الاصمعي أتبع لحق واتبع اقتفى وان لم يلحق (حتى اذا بلغ مغرب الشمس) اى منتهى العمارة نحو المغرب وكذا المطلع قال صلى الله عليه وسلم بدء أمره انه وجد في الكتب ان احدا اولاد سام يشرب من عين الحياة فيخلد

فجعل يسير في طلبها والخضر وزيره وابن خالته فظفر فشرب ولم يظفر ذو القرنين (وجدها تغرب في عين حمئة) ذات حمأة من حمئت البئر اذا صارت فيها الحمأة حامية شامي وكوفي غير حفص بمعنى حارة وعن ابي ذر كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال اتدري يا ابا ذر اين تغرب هذه قلت الله ورسوله أعلم قال فانها تغرب في عين حمئة وكان ابن عباس رضي الله عنهما عند معاوية فقرأ معاوية حامية فقال ابن عباس حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمر كيف تقرأها فقال كما يقرأ امير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار كيف تجد الشمس تغرب قال في ماء وطين كذلك نجده في التوراة فوافق قول ابن عباس رضي الله عنهما ولا تنافي فجاز ان تكون العين جامعة للوصفين جميعا (ووجد عندها) عند تلك العين (قوما) عراة من الثياب لباسهم جلود الصيد وطعامهم ما لفظ البحر وكانوا كفارا (قلنا يا ذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا) ان كان نبيا فقد اوحى الله اليه بهذا والا فقد اوحى الى نبي فأمره النبي به أو كان الهاما خير بين ان يعذبهم بالقتل ان اصروا على امرهم وبين ان يتخذ فيهم حسنا باكرامهم وتعليم الشرائع ان آمنوا او التعذيب القتل واتخاذ الحسن الاسر لانه بالنظر الى القتل احسان (قال) ذو القرنين (اما من ظلم فسوف نعذبه) بالقتل (ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا) في القيامة يعني اما من دعوته الى الاسلام وأبى الا البقاء على الظلم العظيم وهو الشرك فذاك هو المعذب في الدارين (وأما من آمن وعمل صالحا) اى عمل ما يقتضيه الايمان (فله جزاء الحسنى) فله جزاء الفعلة الحسنى التي هي كلمة الشهادة جزاء الحسنى كوفي غير ابي بكر اى فله الفعلة الحسنى جزاء (وسنقول له من أمرنا يسرا) اى ذا يسر اى لا نأمره بالصعب الشاق ولكن بالسهل المتيسر من الزكاة والخراج وغير ذلك (ثم أتبع سببا حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم) هم الزنج (لم نجعل لهم من دونها) من دون الشمس (سترا) اى ابنية عن كعب ارضهم لا تمسك الابنية وبها اسراب فاذا طلعت الشمس دخلوها فاذا ارتفع النهار خرجوا الى معايشهم او الستر اللباس عن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس اكثر من جميع اهل الارض

ان عمر سمع رجلا يقول لآخر يا ذا القرنين فقال تسميتم باسماء الانبياء فلم ترضوا حتى تسميتم باسماء الملائكة والاصح الذي عليه الاكثرون انه كان ملكا صالحا عادلا وانه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال والجنوب وهذا هو القدر المعمور من الارض وذلك انه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد أن دان له طوائف ثم مضى الى ملوك العرب وقهرهم ومضى حتى انتهى الى البحر الاخضر ثم رجع الى مصر وبنى الاسكندرية وسماها باسمه ثم دخل الشام وقصد بيت المقدس وقرب فيه القربان ثم انعطف على ارمينية وباب الابواب وبنى السد ودانت له ملوك العراق والنبط والبربر واستولى على ممالك الفرس ثم مضى الى الهند والصين وغزا الامم البعيدة ثم رجع الى العراق ومرض بشهرزور ومات بها وحمل الى حيث هو مدفون وقيل ان عمره كان ألفا وثلاثين سنة ومثل هذا الملك البسيط الذي على خلاف العادات وجب أن يبقى ذكره مخلدا على وجه الارض فذلك قوله سبحانه وتعالى ويسألونك عن ذي القرنين (قل سأتلوا عليكم منه ذكرا) أى خبرا يتضمن حاله قوله سبحانه وتعالى (انا مكنا له في الارض) أى وطأنا له والتمكين تمهيد الاسباب قال علي سخر الله له السحاب فحمل عليه ومد له في الاسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء وسهل عليه السير في الارض وذلل له طريقها (وآتيناه من كل شئ) يحتاج اليه الخلق وكل ما يستعين به الملوك على فتح المدن ومحاربة الاعداء (سببا) اى علما يتسبب به كل ما يريد ويسير به الى اقطار الارض وقيل بلاغا الى حيث اراد وقيل قربنا له أقطار الارض (فأتبع سببا) أى سلك طريقا (حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة) أى ذات حمأة وهي الطينة السوداء وقرئ حامية أى حارة وسأل معاوية كعبا كيف تجد في التوراة تغرب الشمس وأين تغرب قال نجد في التوراة انها تغرب في ماء وطين وقيل يجوز ان يكون معنى في عين حمئة أى عندها عين حمئة أو في رأى العين وذلك انه بلغ موضعا من المغرب لم يبق بعده شئ من العمران فوجد الشمس كأنها تغرب في وهدة مظلمة كما ان راكب البحر يرى ان الشمس كأنها تغيب في البحر (ووجد عندها قوما) أى عند العين أمة قال ابن جريج مدينة لها اثنا عشر ألف باب يقال لها جابرس واسمها بالسريانية جرجيسا يسكنها قوم من نسل ثمود الذين آمنوا بصالح لولا ضجيج أهلها لسمع الناس وجبة الشمس حين تجب أى تغيب (قلنا يا ذا القرنين) يستدل بهذا من يزعم انه كان نبيا فان الله خاطبه ومن قال انه لم يكن نبيا قال المراد منه الالهام وقيل يحتمل ان يكون الخطاب على لسان غيره (إما ان تعذب) يعني تقتل من لم يدخل في الاسلام (وإما ان تتخذ فيهم حسنا) يعني تعفو وتصفح وقيل تأسرهم فتعلمهم الهدى خيره الله سبحانه وتعالى بين الامرين (قال أما من ظلم) أى كفر (فسوف نعذبه) أى نقتله (ثم يرد الى ربه) أى في الآخرة (فيعذبه عذابا نكرا) أى منكرا يعني بالنار لانها أنكر من القتل (وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى) أى جزاء أعماله الصالحة (وسنقول له من أمرنا يسرا) أى نلين له القول ونعامله باليسر من أمرنا (ثم أتبع سببا) أى سلك طريقا ومنازل (حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) قيل انهم كانوا في مكان ليس بينهم وبين الشمس ستر من جبل ولا شجر ولا

يستقر عليهم بناء فاذا طلعت الشمس دخلوا في اسراب لهم تحت الارض فاذا زالت الشمس عنهم خرجوا الى معايشهم وحروثهم وقيل انهم كانوا اذا طلعت الشمس نزلوا في الماء فاذا ارتفعت عنهم خرجوا فرعوا كالبهائم وقيل هم قوم عراة يفترش أحدهم احدى أذنيه ويلتحف بالاخرى وقيل انهم قوم من نسل مؤمني قوم هود واسم مدينتهم جابلق واسمها بالسريانية مرقسا وهم مجاورون ياجوج وماجوج قوله سبحانه وتعالى (كذلك) أي كما بلغ مغرب الشمس كذلك بلغ مطلعها وقيل معناه انه حكم في القوم الذين هم عند مطلع الشمس كما حكم في القوم الذين عند مغربها وهو الاصح (وقد أحطنا بما لديه خبرا) أي علما بما عنده ومن معه من الجند والعدة وآلات الحرب وقيل معناه وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به والقيام بأمره قوله عز وجل (ثم اتبع سببا حتى اذا بلغ بين السدين) هما جبلان في ناحية الشمال في منقطع أرض الترك حكى ان الواثق بعث بعض من يثق به من اتباعه اليه ليعاينوه فخرجوا من باب من الابواب حتى وصلوا اليه وشاهدوه فوصفوا انه بناء من لبن حديد مشدود بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل (وجد من دونهما قوما) أي امام السدين قيل هم الترك (لا يكادون يفقهون قولا) قال ابن عباس لا يفهمون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم (قالوا يا ذا القرنين) فان قلت كيف أثبت لهم القول وهم لا يفهمون قلت تكلم عنهم مترجم ممن هو مجاورهم ويفهم كلامهم وقيل معناه لا يكادون يفقهون قولا الا بجهد ومشقة من اشارة ونحوها كما يفهم الخرس (ان يأجوج ومأجوج) أصلهما من أجيج النار وهو ضوءها وشررها شبهوا به لكثرتهم وشدتهم وهم من أولاد يافث بن نوح والترك منهم قيل ان طائفة منهم خرجت تغير فضرب ذو القرنين السد فبقوا خارجه فسموا الترك لذلك لانهم تركوا خارجين قال أهل التواريخ أولاد نوح ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج قال ابن عباس هم عشرة اجزاء وولد آدم كلهم جزء وروى حذيفة مرفوعا ان يأجوج أمة ومأجوج أمة وكل أمة اربعة آلاف امة لا يموت الرجل منهم حتى ينظر الف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح وهم من ولد آدم يسيرون الى خراب الدنيا وقال هم ثلاثة أصناف صنف منهم امثال الارز شجر بالشام طوله عشرون ومائة ذراع في السماء وصنف منهم عرضه وطوله سواء عشرون ومائة ذراع وهؤلاء لا يقوم لهم جبل ولا حديد وصنف منهم يفترش أحدهم أذنه ويلتحف بالاخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير الا أكلوه ومن مات منهم أكلوه مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبرية وعن علي منهم من طوله شبر ومنهم من هو مفرط في الطول وقال كعب هم نادرة في ولد آدم وذلك ان آدم احتلم ذات يوم وامتزجت نطفته بالتراب فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج فهم متصلون بنا من جهة الاب دون الام وذكر وهب بن منبه ان ذا القرنين كان رجلا من الروم ابن عجوز فلما بلغ كان عبدا صالحا قال الله سبحانه وتعالى له اني باعثك الى أمم مختلفة ألسنتهم منهم أمتان بينهما طول الارض احداهما عند مغرب الشمس يقال لها ناسك والاخرى عند مطلعها يقال لها منسك وأمتان بينهما عرض الارض احداهما في القطر الايمن يقال لها هاويل والاخرى في قطر الارض الايسر يقال لها تاويل وأمم في وسط الارض منهم الجن والانس ويأجوج ومأجوج فقال ذو القرنين بأي قوة أكابدهم وبأي جمع أكاثرهم وبأي لسان أناطقهم فقال الله سبحانه وتعالى اني سأقويك وابسط لسانك وأشد عضدك فلا يهولنك شيء وألبسك الهيبة فلا يروعك شيء وأسخر لك النور والظلمة واجعلهما من جنودك فالنور يهديك من امامك والظلمة تحوطك من ورائك فانطلق حتى أتى مغرب الشمس فوجد جمعا وعددا لا يحصيهم الا الله تعالى فكابدهم بالظلمة حتى جمعهم في مكان واحد فدعاهم الى الله تعالى وعبادته فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه فعمد الى الذين تولوا عنه فادخل عليهم الظلمة فدخلت أجوافهم وبيوتهم فدخلوا في دعوته فجند من أهل المغرب جندا عظيما وانطلق

(كذلك) أي أمر ذو القرنين كذلك اي كما
وصفناه تعظيما لامره (وقد احطنا بما لديه)
من الجنود والالات واسباب الملك (خبرا)
نصب على المصدر لان في احطنا معنى خبرنا
او بلغ مطلع الشمس مثل ذلك اي كما بلغ مغربها
او تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب
عليهم يعني انهم كفرة مثلهم وحكمهم مثل حكمهم
في تعذيبه لمن بقي منهم على الكفر واحسانه
الى من آمن منهم (ثم اتبع سببا حتى اذا بلغ
بين السدين) بين الجبلين وهما جبلان سد
ذو القرنين ما بينهما السدين وسدا حمزة وعلى
وابو عمرو وحفص السدين وسدا
وضمهما الباقون وقيل ما كان من عمل العباد فهو مفتوح
فهو مضموم وما كان من عمل الله كالجبر
وانتصب بين على انه مفعول به لبلغ وكما ارتفع
بالاضافة في هذا فراق بيني وبينك وكما استعمل
في لقد تقطع بينكم لانه من الظروف التي تستعمل
اسماء وظروفا وهذا المكان في منقطع ارض
الترك مما يلي المشرق (وجد من دونهما) من
ورائهما (قوما) هم الترك (لا يكادون يفقهون
قولا) اي لا يكادون يفهمونه الا بجهد ومشقة
من اشارة ونحوها يفقهون حمزة وعلى اي
لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه لان
لغتهم غريبة مجهولة (قالوا يا ذا القرنين
ان ياجوج وماجوج) هما اسمان اعجميان
بدليل منع الصرف وهمزهما عاصم فقط وهما
من ولد يافث او ياجوج من الترك وماجوج
من الجيل والديلم

يقودهم والظلمة تسوقهم حتى أتى ماويل ففعل فيهم كفعله في ناسك ثم مضى حتى أتى منسك ففعل فيهم كفعله في الامتين وجند منهم جندا عظيما ثم اخذ ناحية اليسرى فأتى تاويل ففعل بهم كفعله فيما قبلها ثم عمد الى الامم التي في وسط الارض فلما كان فيما يلي منقطع الترك مما يلي المشرق قالت له أمة صالحة من الانس ياذا القرنين ان بين هذين الجبلين خلقا اشباه البهائم يفترسون الدواب والوحوش والسباع ويأكلون الحيات والعقارب وكل ذي روح خلق في الارض وليس يزداد خلق كزيادتهم فلا شك انهم يملكون الارض ويظهرون عليها ويفسدون فيها فهل نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا وبينهم سدا قال ما مكني فيه ربي خير وقال أعدوا الى الصخور والحديد والنحاس حتى أعلم علمهم فانطلق حتى توسط بلادهم فوجدهم على مقدار واحد يبلغ طول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منهم مخالب وأضراس كالسباع ولهم هدب شعر يواري أجسادهم ويتقون به من الحر والبرد ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان يفترش احداهما ويلتحف بالاخرى يصيف في واحدة ويشتي في واحدة يتسافدون تسافد البهائم حيث التقوا فلما عاين ذو القرنين ذلك انصرف الى بين الصدفين فقاس ما بينهما وحفر له الاساس حتى بلغ الماء فذلك قوله تعالى قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج (مفسدون في الارض) قيل فسادهم انهم كانوا يخرجون أيام الربيع الى أرضهم فلا يدعون فيها شيئا أخضر الا أكلوه ولا يابسا الا احتملوه وأدخلوه أرضهم فلقوا منهم أذى شديدا وقيل فسادهم انهم كانوا يأكلون الناس وقيل معناه انهم سيفسدون عند خروجهم (فهل نجعل لك خرجا) أي جعلا واخراجا من الاموال (على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) أي حاجزا فلا يصلون الينا (قال) لهم ذو القرنين (ما مكني فيه ربي خير) أي ما قواني به ربي خير من جعلكم (فأعينوني بقوة) يعني لا أريد منكم المال بل أعينوني بأبدانكم وقوتكم (اجعل بينكم وبينهم ردما) أي سدا قالوا وما تلك القوة قال فعلة وصناع يحسنون البناء والآلة قالوا وما تلك الآلة قال (آتوني) أي اعطوني وقيل جيئوني (زبر الحديد) أي قطع الحديد فأتوه بها وبالحطب فجعل الحطب على الحديد والحديد على الحطب (حتى اذا ساوى بين الصدفين) أي بين طرفي الجبلين (قال انفخوا) يعني في النار (حتى اذا جعله نارا) أي صار نارا (قال آتوني أفرغ عليه) أي أصب عليه (قطرا) أي نحاسا مذابا فجعلت النار تأكل الحطب وجعل النحاس يسيل مكانه حتى لزم الحديد النحاس قيل ان السد كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء وقيل ان عرضه خمسون ذراعا وارتفاعه مائة ذراع وطوله فرسخ واعلم ان هذا السد معجزة عظيمة ظاهرة لان الزبرة الكبيرة اذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر أحد على القرب منها والنفخ عليها لا يمكن الا بالقرب منها فكأنه تعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك النافخين حتى تمكنوا من العمل فيه (فما اسطاعوا ان يظهروه) أي يعلوا عليه لعلوه وملاسته (وما استطاعوا له نقبا) أي من أسفله لشدته وصلابته (قال) يعني ذو القرنين (هذا) أي السد (رحمة من ربي) أي نعمة من ربي (فاذا جاء وعد ربي) قيل يعني يوم القيامة وقيل وقت خروجهم (جعله دكاء) أي أرضا ملساء وقيل مدكوكا مستويا مع الارض (وكان وعد ربي حقا) (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد بيده تسعين قوله وعقد بيده تسعين هو من موضوعات الحساب وهو ان تجعل رأس أصبعك السبابة في وسط الابهام من باطنها شبه الحلقة لكن لا يتبين لها لا خلل يسير وعنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في السد يحفرونه كل يوم حتى اذا كادوا يخرقونه قال بعضهم ارجعوا فستحفرونه غدا قال فيعيده الله كأشد ما كان حتى اذا بلغوا مدتهم وأراد الله تعالى ان يبعثهم على الناس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا ان شاء الله تعالى واستثنى قال فيرجعون فيجدونه على هيئته حين تركوه فيخرقونه فيخرجون على الناس فيستقون المياه وتفر منهم الناس وفي رواية فتحصن الناس في حصونهم فيرمون بسهامهم الى السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون قهرنا من في الارض وعلونا من في السماء فيزدادون

(مفسدون في الارض) قيل كانوا يأكلون الناس وقيل كانوا يخرجون ايام الربيع فلا يتركون شيئا اخضر الا أكلوه ولا يابسا الا احتملوه ولا يموت احدهم حتى ينظر الى الف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح وقيل هم على صنفين طوال مفرطو الطول وقصار مفرطو القصر (فهل نجعل لك خرجا) خراجا حمزة وعلي أي جعلا نخرجه من اموالنا ونظيرهما النول والنوال (على ان تجعل بيننا وبينهم سدا قال ما مكني) بالادغام وبفكه مكي (فيه ربي خير) اي ما جعلني فيه مكينا من كثرة المال واليسار خير مما تبذلون لي من الخراج فلا حاجة لي اليه (فأعينوني بقوة) بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل وبالآلات (أجعل بينكم وبينهم ردما) جدارا وحاجزا حصينا موثقا والردم أكبر من السد (آتوني زبر الحديد) قطع الحديد والزبرة القطعة الكبيرة قيل حفر الاساس حتى بلغ الماء وجعل الاساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد بينها الحطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين الى أعلاهما ثم وضع المنافيخ حتى اذا صارت كالنار صب النحاس المذاب على الحديد المحمي فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلا صلدا وقيل بعد ما بين السدين مائة فرسخ (حتى اذا ساوى بين الصدفين) بفتحتين جانبي الجبلين لانهما يتصادفان أي يتقابلان الصدفين مكي وبصري وشامي الصدفين ابو بكر (قال انفخوا) اي قال ذو القرنين للعملة انفخوا في الحديد (حتى اذا جعله) اي المنفوخ فيه وهو الحديد (نارا) كالنار (قال آتوني) اعطوني (أفرغ) اصب (عليه قطرا) نحاسا مذابا لانه يقطر وهو منصوب بافرغ وتقديره آتوني قطرا أفرغ عليه قطرا فحذف الاول لدلالة الثاني عليه قال ائتوني بوصل الالف حمزة واذا ابتدأ كسر الالف اي جيئوني (فما اسطاعوا) بحذف التاء للخفة لان التاء قريبة المخرج من الطاء (ان يظهروه) ان يعلوا السد (وما استطاعوا له نقبا) اي لا حيلة لهم فيه من صعود لارتفاعه ولا نقب لصلابته (قال هذا رحمة من ربي) اي هذا السد نعمة من الله ورحمة على عباده او هذا الاقدار والتمكين من تسويته (فاذا جاء وعد ربي) فاذا دنا مجيء يوم القيامة وشارف ان يأتي (جعله) اي السد (دكا) أي مدكوكا مبسوطا مسوى بالارض وكل ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندك دكاء كوفي أي ارضا مستوية (وكان وعد ربي حقا) آخر قول ذي القرنين

ذرة

قسوة وعتوا فيبعث الله عليهم نغفا في رقابهم فيهلكون فوالذي نفس محمد بيده ان دواب الارض لتسمن وتشكر من لحومهم شكرا أخرجه الترمذي وقوله قسوة وعتوا أي غلظة وفظاظة وتكبرا والنغف دود يكون في أنوف الابل والغنم وقوله وتشكر يقال شكرت الشاة تشكر شكرا اذا امتلأ ضرعها لبنا والمعنى انها تمتلئ اجسادها لحما وتسمن (خ) عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج قوله عز وجل (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) قيل هذا عند فتح السد يقول تركنا يأجوج ومأجوج يموج أي يدخل بعضهم في بعض كموج الماء ويختلط بعضهم في بعض لكثرتهم وقيل هذا عند قيام الساعة يدخل الخلق بعضهم في بعض ويختلط انسهم بجنهم حيارى (ونفخ في الصور) فيه دليل على ان خروج يأجوج ومأجوج من علامات قرب الساعة (فجمعناهم جمعا) أي في صعيد واحد (وعرضنا) أي ابرزنا (جهنم يومئذ للكافرين عرضا) ليشاهدوها عيانا (الذين كانت أعينهم في غطاء) أي غشاوة وستر (عن ذكري) أي عن الايمان والقرآن والهدى والبيان وقيل عن رؤية الدلائل وتبصرها (وكانوا لا يستطيعون سمعا) أي سمع القرآن والايمان لغلبة الشقاء عليهم وقيل معناه لا يستطيعون ان يسمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم لشدة عداوتهم له قوله تعالى (أفحسب) أي أفظن (الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء) يعني أربابا يريد عيسى والملائكة بل هم لهم اعداء يتبرؤن منهم وقال ابن عباس يعني الشياطين أطاعوهم من دون الله والمعنى أفظن الذين كفروا ان يتخذوا غيري أولياء واني لا اغضب لنفسي فلا أعاقبهم وقيل معناه أفظنوا انه ينفعهم ان يتخذوا عبادي من دوني أولياء (انا اعتدنا) أي هيأنا (جهنم للكافرين نزلا) أي منزلا قال ابن عباس رضي الله عنهما هي مثواهم وقيل معده لهم عندنا كالنزل للضيف قوله تعالى (قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا) يعني الذين اتعبوا أنفسهم في عمل يرجون به فضلا ونوالا فنالوا هلاكا وبوارا قال ابن عباس هم اليهود والنصارى وقيل هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في الصوامع وقال علي بن أبي طالب هم أهل حروراء يعني الخوارج (الذين ضل سعيهم) أي بطل عملهم واجتهادهم (في الحياة الدنيا وهم يحسبون) أي يظنون (انهم يحسنون صنعا) أي عملا ثم وصفهم فقال تعالى (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه) يعني انهم جحدوا دلائل توحيده وقدرته وكفروا بالبعث والثواب والعقاب وذلك لانهم كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالقرآن فصاروا كافرين بهذه الاشياء (فحبطت أعمالهم) أي بطلت (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) قيل لا نقيم لهم ميزانا لان الميزان انما توضع لاهل الحسنات والسيئات من الموحدين لتمييز مقدار الطاعات ومقدار السيئات قال أبو سعيد الخدري يأتي الناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم من العظم كجبال تهامة فاذا وزنوها لم تزن شيئا فذلك قوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا وقيل معناه نزدري بهم فليس لهم عندنا حظ ولا قدر ولا وزن (ق) عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرؤا ان شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا (ذلك) اشارة الى ما ذكر من حبوط أعمالهم وخسة قدرهم ثم ابتدأ فقال (جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا) يعني سخرية واستهزاء قوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر انهار الجنة قال كعب ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وقال قتادة الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وأرفعها وقيل الفردوس هو البستان الذي فيه الاعناب وقيل هي الجنة الملتفة بالاشجار التي تنبت ضروبا من النبات وقيل الفردوس البستان بالرومية وقيل بلسان الحبش منقول الى العربية نزلا هو ما يهيأ للنازل على معنى

(وتركنا) وجعلنا (بعضهم) بعض الخلق (يومئذ يموج) يختلط (في بعض) اي يضطربون ويختلطون انسهم وجنهم حيارى ويجوز ان يكون الضمير ليأجوج ومأجوج وانهم يموجون حين يخرجون مما وراء السد مزدحمين في البلاد وروي انهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به من الناس ولا يقدرون ان يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ثم يبعث الله عليهم في اقفائهم فيدخل آذانهم فيموتون (ونفخ في الصور) لقيام الساعة (فجمعناهم) اي جمع الخلائق للثواب والعقاب (جمعا) تأكيد (وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا) واظهرناها لهم فرأوها وشاهدوها (الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري) عن آياتي التي ينظر اليها فأذكر بالتعظيم او عن القرآن وتأمل معانيه (وكانوا لا يستطيعون سمعا) اي وكانوا صما عنه الا انه ابلغ اذ الاصم قد يستطيع السمع اذا صيح به وهؤلاء كأنهم اصميت اسماعهم فلا استطاعة بهم للسمع (أفحسب الذين كفروا ان يتخذوا عبادي من دوني أولياء) اي افظن الكفار اتخاذهم عبادي يعني الملائكة وعيسى عليهم السلام اولياء نافعهم بئس ما ظنوا وقيل ان بصلتها سد مسد مفعولي افحسب وعبادي اولياء مفعولا ان يتخذوا وهذا اوجه يعني انهم لا يكونون لهم اولياء (انا اعتدنا جهنم للكافرين نزلا) هو ما يقام للنزيل وهو الضيف ونحوه فبشرهم بعذاب اليم (قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا) اعمالا تمييز وانما جمع والقياس ان يكون مفردا لتنوع الاهواء وهم اهل الكتاب او الرهبان (الذين ضل سعيهم) ضاع وبطل وهو في محل الرفع اي هم الذين (في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) فلا يكون لهم عندنا وزن ومقدار (ذلك جزاؤهم جهنم) هي عطف بيان لجزاؤهم (بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا) اي جزاؤهم جهنم بكفرهم واستهزائهم بآيات الله

(خالدين فيها) حال (لا يبغون عنها حولا) تحولا الى غيرها رضى بما اعطوا قال حال من مكانه حولا اى لا مزيد عليها حتى تنازعهم انفسهم الى اجمع لاغراضهم وامانيهم وهذه غاية الوصف لان الانسان في الدنيا في اى نعيم كان فهو طامح مائل الطرف الى ارفع منه والمراد في التحول تأكيد الخلود

كانت لهم ثمار جنات الفردوس ونعيمها نزلا وقيل في معنى كانت لهم أى في علم الله تعالى قبل ان يخلقوا (خالدين فيها لا يبغون) أى لا يطلبون (عنها حولا) أى تحولا الى غيرها قال ابن عباس لا يريدون ان يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار اذا لم توافقه الى دار أخرى قوله تعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي) قال ابن عباس قالت اليهود يا محمد تزعم اننا قد أوتينا الحكمة وفي كتابك ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ثم تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل لما انزل وما أوتيتم من العلم الا قليلا قالت اليهود أوتينا علم التوراة وفيها علم كل شئ فأنزل الله تعالى قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي أى ما يستمده الكاتب ويكتب به وأصله من الزيادة قال مجاهد لو كان البحر مدادا للقلم والقلم يكتب قيل والخلائق يكتبون (لنفد البحر) أى لنفد ماؤه (قبل ان تنفد كلمات ربي) أى علمه وحكمه (ولو جئنا بمثله مددا) والمعنى ولو كان الخلائق يكتبون والبحر يمدهم لفنى ماء البحر ولم تفن كلمات ربي ولو جئنا بمثل ماء البحر في كثرته مددا وزيادة قوله تعالى (قل انما أنا بشر مثلكم) قال ابن عباس علم الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم التواضع لئلا يزهى على خلقه وأمره ان يقر فيقول انا آدمي مثلكم الا اني خصصت بالوحي وأكرمني الله به وهو قوله تعالى (يوحى الي انما الهكم اله واحد) لا شريك له في ملكه (فمن كان يرجو لقاء ربه) أى يخاف المصير اليه وقيل يؤمل رؤية ربه (فليعمل عملا صالحا) أى من حصل له رجاء لقاء الله تعالى والمصير اليه فليستعمل نفسه في العمل الصالح (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) أى لا يرائي بعمله ولما كان العمل الصالح قد يراد به وجه الله سبحانه وتعالى وقد يراد به الرياء والسمعة اعتبر فيه قيدان أحدهما ان يراد به الله سبحانه وتعالى والثاني ان يكون مبرأ من جهات الشرك جميعا (ق) عن جندب بن عبد الله البجلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سمع سمع الله به ومن يرائي يرائي الله به قوله من سمع سمع الله به أى من عمل عملا مراآة للناس يشتهر بذلك شهره الله يوم القيامة وقيل سمع الله به أى أسمعه المكروه (م) عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تعالى يقول أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه ولغير مسلم فأنا منه برئ هو والذي عمله عن سعيد بن أبي فضالة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا جمع الناس ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان يشرك في عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه منه فان الله أغنى الشركاء عن الشرك أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر قال الرياء (م) عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال وفي رواية من آخرها والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

(تفسير سورة مريم عليها السلام)

هي مكية وهي ثمان وتسعون آية وثمانون وسبعمائة كلمة وثلاثة آلاف وسبعمائة حرف

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (كهيعص) قال ابن عباس رضي الله عنهما هو اسم من أسماء الله تعالى وقيل اسم للقرآن وقيل هو قسم أقسم الله تعالى به وعن ابن عباس قال الكاف من كريم وكبير والهاء من هاد والياء من رحيم والعين من عليم والصاد من صادق وقيل معناه كاف لخلقه هاد لعباده يده فوق أيديهم عالم ببريته صادق في وعده (ذكر) أى هذا الذي نتلو عليك ذكر (رحمة ربك عبده زكريا) قيل معناه ذكر ربك عبده زكريا برحمته (اذ نادى) أى دعا (ربه) في المحراب (نداء خفيا) أى دعا سرا من قومه في جوف الليل وقيل راعى سنة الله في اخفاء دعائه لان الجهر والاسرار عند الله تعالى سيان لكن الاخفاء اولى لانه أبعد عن الرياء وادخل في الاخلاص وقيل أخفاه لئلا يلام على طلب الولد في زمن

(قل لو كان البحر) اى ماء البحر (مدادا لكلمات ربي) قال ابو عبيدة المداد ما يكتب به اى لو كتب كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مدادا لها والمراد بالبحر الجنس (لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله) بمثل البحر (مددا) لنفد ايضا والكلمات غير نافدة ومددا تمييز نحو لي مثله رجلا والمدد مثل المداد وهو ما يمد به ينفد حمزة وعلي وقيل قال حيي بن أخطب في كتابكم ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ثم تقرؤن وما اوتيتم من العلم الا قليلا فنزلت يعني ان ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه) فمن كان يأمل حسن لقاء ربه وان يلقاه لقاء رضى وقبول او فمن كان يخاف سوء لقاء ربه والمراد باللقاء القدوم عليه وقيل رؤيته كما هو حقيقة اللفظ والرجاء على هذا مجرى على حقيقته (فليعمل عملا صالحا) خالصا لا يريد به الا وجه ربه ولا يخلط به غيره وعن يحيى بن معاذ هو ما لا يستحي منه (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) هو نهي عن الشرك او عن الرياء قال صلى الله عليه وسلم اتقوا الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر قال الرياء قال صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكهف فهو معصوم ثمانية ايام من كل فتنة تكون فان يخرج الدجال في تلك الثمانية عصمه الله من فتنة الدجال ومن قرأ قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الي الى آخرها عند مضجعه كان له نور يتلألأ من مضجعه الى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم من مضجعه وان كان مضجعه بمكة فتلاها كان له نور يتلألأ من مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه ويستغفرون له حتى يستيقظ

سورة مريم عليها السلام مكية وهي ثمان اوتسع وتسعون آية مدني وشامي

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(كهيعص) قال السدي هو اسم الله الاعظم وقيل هو اسم للسورة قرأ علي ويحيى بكسر الهاء والياء ونافع بين الفتح والكسر والى الفتح اقرب وابو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء وحمزة بعكسه وغيرهم بفتحهما (ذكر رحمة ربك) خبر مبتدإ اى هذا ذكر (عبده) مفعول الرحمة (زكريا) بالقصر

الشيخ وحفص

حمزة وعلي وحفص بدل من عبده (اذ) ظرف للرحمة (نادى ربه نداء خفيا) دعاه دعاء سرا كما هو المأمور به وهو ابعد عن الرياء واقرب الى الصفاء او اخفاه لئلا يلام على طلب الولد في اوان الكبر لانه كان ابن خمس وسبعين او ثمانين سنة (قال رب) هذا تفسير الدعاء واصله يا ربي فحذف حرف النداء والمضاف اليه اختصارا (اني وهن العظم مني) ضعف وخص العظم لانه عمود البدن وبه قوامه فاذا وهن تداعى وتساقطت قوته ولانه اشد ما فيه واصلبه فاذا وهن كان ما وراءه اوهن ووحده لان الواحد هو الدال على معنى الجنسية والمراد ان هذا الجنس الذي هو العمود والقوام واشد ما تركب منه الجسد قد اصابه الوهن (واشتعل الرأس شيبا) تمييز اي فشا في رأسي الشيب واشتعلت النار اذا تفرقت في التهابها وصارت شعلا فشبه الشيب بشواظ النار في بياضه وانتشاره في الشعر واخذه منه كل مأخذ كاشتعال النار ولا ترى كلاما افصح من هذا الا ترى ان اصل الكلام يا رب قد شخت اذ الشيخوخة تشتمل على ضعف البدن وشيب الرأس المتعرض لهما واقوى منه ضعف بدني وشاب رأسي ففيه مزيد التقرير للتفصيل واقوى منه وهنت عظام بدني ففيه عدول عن التصريح الى الكناية فهي ابلغ منه واقوى منه انا وهنت عظام بدني واقوى منه اني وهنت عظام بدني واقوى منه اني وهنت العظام من بدني ففيه سلوك طريق الاجمال والتفصيل واقوى منه اني وهنت العظام مني ففيه ترك توسيط البدن واقوى منه

اني وهن العظم مني لشمول الوهن العظام فردا فردا باعتبار ترك جمع العظم الى الافراد لصحة حصول وهن المجموع بالبعض دون كل فرد فرد ولهذا تركت الحقيقة في شاب رأسي الى ابلغ وهي الاستعارة فحصل اشتعل شيب رأسي وابلغ منه اشتعل رأسي شيبا لاسناد الاشتعال الى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس لافادة شمول الاشتعال الرأس اذ وزان . اشتعل شيب رأسي واشتعل رأسي شيبا وزان اشتعل النار في بيتي واشتعل بيتي نارا والفرق نير ولان فيه الاجمال والتفصيل كما عرف في طريق التمييز وابلغ منه واشتعل الرأس مني شيبا لما مر وابلغ منه واشتعل الرأس شيبا ففيه اكتفاء بعلم المخاطب انه رأس زكريا بقرينة العطف على وهن العظم (ولم اكن بدعائك) مصدر مضاف الى المفعول اي بدعائي اياك (رب شقيا) اي كنت مستجاب الدعوة قبل اليوم سعيدا به غير شقي فيه يقال سعد فلان بحاجته اذا ظفر بها وشقي اذا خاب ولم ينلها وعن بعضهم ان محتاجا سأله وقال انا الذي احسنت الي وقت كذا فقال مرحبا بمن توسل بنا الينا وقت حاجته وقضى حاجته

الشيخوخة وقيل خفت صوته لضعفه وهرمه يدل عليه قوله تعالى (قال رب اني وهن) اي رق وضعف (العظم مني) اي من الكبر وقيل اشتكى سقوط الاضراس (واشتعل الرأس) اي ابيض الشعر (شيبا) اي شمطا (ولم اكن بدعائك رب شقيا) اي عودتني الاجابة فيما مضى ولم تخيبني وقيل معناه لما دعوتني الى الايمان آمنت ولم اشق بترك الايمان (واني خفت الموالي من ورائي) اي من بعد موتي والموالي هم بنو العم وقيل العصبة وقيل الكلالة وقيل جميع الورثة (وكانت امرأتي عاقرا) اي لا تلد (فهب لي من لدنك وليا) اي اعطني من عندك وليا مرضيا (يرثني ويرث من آل يعقوب) اي وليا ذا رشاد وقيل اراد به يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة والحبورة وقيل اراد ميراث النبوة والعلم وقيل اراد به الحبورة لان زكريا كان رأس الاحبار والاولى ان يحمل على ميراث غير المال لان الانبياء لم يورثوا المال وانما يورثون العلم ويبعد من زكريا وهو نبي من الانبياء ان يشفق على ماله ان يرثه بنو عمه وانما خاف ان يضيع بنو عمه دين الله ويغير واحكامه وذلك لما شاهد من بني اسرائيل تبديل الدين وقتل الانبياء فسأل ربه ولدا صالحا يأمنه على امته ويرث نبوته وعلمه لئلا يضيع وهذا قول ابن عباس (واجعله رب رضيا) اي برا تقيا مرضيا قوله تعالى (يا زكريا) المعنى فاستجاب الله له دعاءه فقال يا زكريا (انا نبشرك بغلام) اي بولد ذكر (اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا) اي لم يسم احد قبله بيحيى وقيل معناه لم نجعل له شبها ومثلا وذلك لانه لم يعص الله ولم يهم بمعصية قط وقال ابن عباس لم تلد العواقر مثله ولدا قيل لم يرد الله تعالى بذلك اجتماع الفضائل كلها ليحيى وانما اراد بعضها لان الخليل والكليم كانا قبله وهما افضل منه (قال رب انى يكون لي) اي من اين يكون لي (غلام وكانت امرأتي عاقرا) اي وامرأتي عاقر (وقد بلغت من الكبر عتيا) اي يأسا يريد بذلك نحول الجسم ودقة العظم ونحول الجلد (قال كذلك قال ربك هو علي هين) اي يسير (وقد خلقتك من قبل) اي من قبل يحيى (ولم تك شيئا قال

(واني خفت الموالي) هم عصبته اخوته وبنو عمه وكانوا اشرار بني اسرائيل فخافهم ان يغيروا الدين وان لا يحسنوا الخلافة على امته فطلب عقبا صالحا من صلبه يقتدى به في احياء الدين (من ورائي) بعد موتي وبالقصر وفتح الياء كهداي مكي وهذا الظرف لا يتعلق بخفت لان وجود خوفه بعد موته لا يتصور ولكن بمحذوف او بمعنى الولاية في الموالي اي خفت فعل الموالي وهو تبديلهم وسوء خلافتهم من ورائي او خفت الذين يلون الامر من ورائي (وكانت امرأتي عاقرا) عقيما لا تلد (فهب لي من لدنك) اختراعا منك بلا سبب لان امرأتي لا تصلح للولادة (وليا) ابنا يلي امرك بعدي (يرثني ويرث) برفعهما صفة لوليا اي هب لي ولدا وارثا مني العلم ومن آل يعقوب النبوة ومعنى وراثة النبوة انه يصلح لان يوحى اليه ولم يرد ان نفس النبوة تورث وبجزمهما ابو عمرو وعلي على انه جواب للدعاء يقال ورثته وورثت منه (من آل يعقوب) يعقوب بن اسحاق (واجعله رب رضيا) مرضيا ترضاه او راضيا عنك وبحكمك فاجاب الله تعالى دعاءه وقال (يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى) تولى الله تسميته تشريفا له نبشرك بالتخفيف حمزة (لم نجعل له من قبل سميا) لم يسم احد بيحيى قبله وهذا دليل على ان الاسم الغريب جدير بالاثرة وقيل مثلا وشبيها ولم يكن له مثل في انه لم يعص ولم يهم بمعصية قط وانه ولد بين شيخ وعجوز وانه كان حصورا فلما بشرته الملائكة به (قال رب انى) كيف (يكون لي غلام) وليس هذا باستبعاد بل هو استكشاف انه باي طريق يكون اوهب له وهو وامرأته بتلك الحال ام يحولان شابين (وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا) اي بلغت عتيا وهو اليبس والجساوة في المفاصل والعظام كالعود اليابس من اجل الكبر والطعن في السن العالية عتيا وصليا وجثيا وبكيا بكسر الاوائل حمزة وعلي وحفص الا في بكيا (قال كذلك) الكاف رفع اي الامر كذلك تصديق له ثم ابتدأ (قال ربك) او نصب بقال وذلك اشارة الى مبهم يفسره (هو علي هين) اي خلق يحيى من كبيرين سهل (وقد خلقتك من قبل) اوجدتك من قبل يحيى خلقناك حمزة وعلي (ولم تك شيئا) لان المعدوم ليس بشيء (قال

رب اجعل لي آية) أي دلالة على حمل امرأتي (قال آيتك) أي علامتك (أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) أي صحيحا سليما من غير ما بأس ولا خرس وقيل ثلاث ليال متتابعات والأول أصح قيل انه لم يقدر فيها أن يتكلم مع الناس فاذا أراد ذكر الله انطلق لسانه قوله عز وجل (فخرج على قومه من المحراب) أي من الموضع الذي كان يصلي فيه وكان الناس من وراء المحراب ينتظرونه حتى يفتح لهم الباب فيدخلون ويصلون اذ خرج اليهم زكريا متغير اللون فأنكروا ذلك عليه وقالوا له مالك (فأوحى) أي فأومأ وأشار (اليهم) وقيل كتب لهم في الأرض (ان سبحوا) أي صلوا لله (بكرة وعشيا) المعنى انه كان يخرج على قومه بكرة وعشيا فيأمرهم بالصلاة فلما كان وقت حمل امرأته ومنع من الكلام خرج اليهم فأمرهم بالصلاة اشارة قوله عز وجل (يا يحيى) فيه اضمار ومعناه وهبنا له يحيى وقلنا له يا يحيى (خذ الكتاب) أي التوراة (بقوة) أي بجد واجتهاد (وآتيناه الحكم) قال ابن عباس يعني النبوة (صبيا) وهو ابن ثلاث سنين وذلك ان الله تعالى احكم عقله وأوحى اليه فان قلت كيف يصح حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبي قلت لان أصل النبوة مبني على خرق العادات اذا ثبت هذا فلا تمنع صيرورة الصبي نبيا وقيل أراد بالحكم فهم الكتاب فقرأ التوراة وهو صغير وعن بعض السلف قال من قرأ القرآن قبل ان يبلغ فهو ممن أوتي الحكم صبيا (وحنانا من لدنا) أي رحمة من عندنا قال الحطيئة يخاطب عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه

تحنن على هداك المليك * فان لكل مقام مقالا

أي ترحم علي (وزكاة) قال ابن عباس يعني بالزكاة الطاعة والاخلاص وقيل هي العمل الصالح ومعنى الآية وآتيناه رحمة من عندنا وتحننا على العباد ليدعوهم الى طاعة ربهم وعملا صالحا في اخلاصه (وكان تقيا) أي مسلما مخلصا مطيعا وكان من تقواه انه لم يعمل خطيئة ولم يهم بها قط (وبرا بوالديه) أي بارا لطيفا بهما محسنا اليهما لانه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى أعظم من بر الوالدين يدل عليه قوله تعالى وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا الآية (ولم يكن جبارا) الجبار المتكبر وقيل الذي يقتل ويضرب على الغضب وقيل الجبار الذي لا يرى لأحد على نفسه حقا وهو من التعظيم بنفسه يرى أن لا يلزمه قضاء لأحد (عصيا) قيل هو أبلغ من العاصي والمراد وصف يحيى بالتواضع ولين الجانب وهو من صفات المؤمنين (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) معناه وأمان له من الله يوم ولد من ان يناله الشيطان كما ينال سائر بني آدم وأمان له يوم يموت من عذاب القبر ويوم يبعث حيا من عذاب يوم القيامة وقيل أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن يوم يولد لانه يرى نفسه خارجا من مكان قد كان فيه ويوم يموت لانه يرى قوما ما شاهدهم قط ويوم يبعث لانه يرى مشهدا عظيما فأكرم الله تعالى يحيى في هذه المواطن كلها فخصه بالسلامة فيها قوله عز وجل (واذكر في الكتاب) أي في القرآن (مريم اذ انتبذت) أي تنحت واعتزلت (من أهلها) أي من قومها (مكانا شرقيا) أي مكانا في الدار مما يلي المشرق وكان ذلك اليوم شاتيا شديد البرد فجلست في مشرقة تفلي رأسها وقيل ان مريم كانت قد طهرت من الحيض فذهبت تغتسل قيل ولهذا المعنى اتخذت النصارى المشرق قبلة (فاتخذت) أي فضربت (من دونهم حجابا) قال ابن عباس أي سترا وقيل جلست وراء جدار وقيل ان مريم كانت تكون في المسجد فاذا حاضت تحولت الى بيت خالتها حتى اذا طهرت عادت الى المسجد فبينما هي تغتسل من الحيض قد تجردت اذ عرض لها جبريل في صورة شاب أمرد وضيء الوجه سوي الخلق فذلك قوله تعالى (فأرسلنا اليها روحنا) يعني جبريل (فتمثل لها بشرا سويا) أي سوي الخلق لم ينقص من الصورة الآدمية شيئا وانما مثل لها في صورة الانسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ولو بدا لها في صورة الملائكة لنفرت عنه ولم تقدر على استماع كلامه وقيل المراد من الروح روح عيسى جاء في صورة بشر فحملت به والقول الأول أصح فلما رأت مريم جبريل عليه السلام يقصد نحوها بادرته من بعيد (قالت اني أعوذ بالرحمن

رب اجعل لي آية) علامة أعرف بها حبل امرأتي (قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) حال من ضمير تكلم أي حال كونك سوي الأعضاء واللسان يعني علامتك ان تمنع الكلام فلا تطيقه وانت سليم الجوارح ما بك خرس ولا بكم ودل ذكر الليالي هنا والأيام في آل عمران على ان المنع من الكلام استمر به ثلاثة أيام ولياليهن اذ ذكر الأيام يتناول ما بازائها من الليالي وكذا ذكر الليالي يتناول ما بازائها من الأيام عرفا (فخرج على قومه من المحراب) من موضع صلاته وكانوا ينتظرونه ولم يقدر ان يتكلم (فأوحى اليهم) اشار بأصبعه (ان سبحوا) صلوا وان هي المفسرة (بكرة وعشيا) صلاة الفجر والعصر (يا يحيى) أي وهبنا له يحيى وقلنا له بعد ولادته وأوان الخطاب يا يحيى (خذ الكتاب) التوراة (بقوة) حال أي بجد واستظهار بالتوفيق والتأييد (وآتيناه الحكم) الحكمة وهو فهم التوراة والفقه في الدين (صبيا) حال قيل دعاه الصبيان الى اللعب وهو صبي فقال ما للعب خلقنا (وحنانا) شفقة ورحمة لأبويه وغيرهما عطفا على الحكم (من لدنا) من عندنا (وزكاة) أي طهارة وصلاحا فلم يعمل بذنب (وكان تقيا) مسلما مطيعا (وبرا بوالديه) وبارا بهما لا يعصيهما (ولم يكن جبارا) متكبرا (عصيا) عاصيا ربه (وسلام عليه) امان من الله له (يوم ولد) من ان يناله الشيطان (ويوم يموت) من فتاني القبر (ويوم يبعث حيا) من الفزع الأكبر قال ابن عيينة انها أوحش المواطن (واذكر) يا محمد (في الكتاب) القرآن (مريم) أي اقرأ عليهم في القرآن قصة مريم ليقفوا عليها ويعلموا ما جرى عليها (اذ) بدل من مريم بدل اشتمال اذ الأحيان مشتملة على ما فيها وفيه ان المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا لوقوع هذه القصة العجيبة فيه (انتبذت من أهلها) أي اعتزلت (مكانا) طرف (شرقيا) أي تخلت للعبادة في مكان مما يلي شرقي بيت المقدس أو من دارها معتزلة عن الناس وقيل قعدت في مشرقة للاغتسال من الحيض (فاتخذت من دونهم حجابا) جعلت بينها وبين أهلها حجابا يسترها لتغتسل وراءه (فأرسلنا اليها روحنا) جبريل عليه السلام والاضافة للتشريف وانما سمي روحا لان الدين يحيى به وبوحيه (فتمثل لها بشرا) أي تمثل لها جبريل في صورة آدمي شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر (سويا) مستوي الخلق وانما مثل لها في صورة الانسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ولو بدا لها في صورة الملائكة لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه (قالت اني أعوذ بالرحمن منك

منك ان كنت تقيا) اى مؤمنا مطيعا لله تعالى دل تعوذها من تلك الصورة الحسنة على عفتها وورعها فان قلت انما يستعاذ من الفاجر فكيف قالت ان كنت تقيا قلت هذا كقول القائل ان كنت مؤمنا فلا تظلمني أي ينبغي ان يكون ايمانك مانعا لك من الظلم كذلك ههنا معناه ينبغي ان تكون تقواك مانعة لك من الفجور (قال) لها جبريل عليه السلام (انما انا رسول ربك لاهب) اسند الفعل اليه وان كانت الهبة من الله تعالى لانه أرسل به (لك غلاما زكيا) قال ابن عباس ولدا صالحا طاهرا من الذنوب (قالت) مريم (أنى يكون لي) اى من اين يكون لي (غلام ولم يمسسني بشر) أي ولم يقربني زوج (ولم أك بغيا) اى فاجرة تريد ان الولد انما يكون من نكاح أو سفاح ولم يكن ههنا واحد منهما (قال) جبريل (كذلك قال ربك) اى هكذا قال ربك (هو على هين) أي خلق ولدك بلا أب (ولنجعله آية للناس) أي علامة لهم ودلالة على قدرتنا (ورحمة منا) اى ونعمة لمن تبعه على دينه الى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم (وكان أمرا مقضيا) أى محكوما مفروغا منه لا يرد ولا يبدل قوله عز وجل (فحملته) قيل ان جبريل رفع درعها فنفخ في جيبه فحملت حين لبست الدرع وقيل مد جيب درعها باصبعه ثم نفخ في الجيب وقيل نفخ في كمها وقيل في ذيلها وقيل في فيها وقيل نفخ من بعيد فوصل النفخ اليها فحملت بعيسى في الحال (فانتبذت به) اى لما حملته تمت بالحمل وانفردت (مكانا قصيا) أى بعيدا من اهلها قال ابن عباس أقصى الوادي وهو بيت لحم فرارا من أهلها وقومها ان يعيروها بولادتها من غير زوج قال ابن عباس كان الحمل والولادة في ساعة واحدة وقيل حملته في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها وقيل كانت مدته تسعة أشهر كحمل سائر الحوامل من النساء وقيل كانت مدة حملها ثمانية أشهر وذلك آية أخرى له لانه لا يعيش من ولد لثمانية أشهر وولد عيسى لهذه المدة وعاش وقيل ولد لستة أشهر وهي بنت عشر سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وقيل ست عشرة سنة وقد كانت حاضت حيضتين قبل ان تحمل بعيسى وقال وهب ان مريم لما حملت بعيسى كان معها ابن عم لها يقال له يوسف النجار وكانا منطلقين الى المسجد الذي عند جبل صهيون وكانا يخدمان ذلك المسجد ولا يعلم من أهل زمانهما أحد أشد عبادة واجتهادا منهما وأول من علم بحمل مريم يوسف فبقي متحيرا في أمرها كلما أراد ان يتهمها ذكر عبادتها وصلاحها وانها لم تغب عنه واذا أراد ان يبرئها رأى ما ظهر منها من الحمل فأول ما تكلم به ان قال انه وقع في نفسي من أمرك شئ وقد حرصت على كتمانه فغلبني ذلك فرأيت ان أتكلم به أشفي صدري فقالت قل قولا جميلا قال اخبريني يا مريم هل ينبت زرع بغير بذر وهل ينبت شجر بغير غيث وهل يكون ولد من غير ذكر قالت نعم ألم تعلم ان الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ألم تر ان الله أنبت الشجرة بالقدرة من غير غيث أو تقول ان الله تعالى لا يقدر على ان ينبت الشجرة حتى استعان بالماء ولولا ذلك لم يقدر على انباتها قال يوسف لا أقول هذا ولكني أقول ان الله تعالى يقدر على كل شئ يقول له كن فيكون قالت له مريم ألم تعلم ان الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى فعند ذلك زال ما عنده من التهمة وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل فلما دنت ولادتها أوحى الله اليها ان اخرجي من أرض قومك فذلك قوله تعالى فانتبذت به مكانا قصيا قوله عز وجل (فأجاءها المخاض) أي ألجأها وجاء بها المخاض وجع الولادة (الى جذع النخلة) وكانت نخلة يابسة في الصحراء في شدة البرد ولم يكن لها سعف وقيل التجأت اليها لتستند اليها وتتمسك بها من شدة الطلق ووجع الولادة (قالت يا ليتني مت قبل هذا) تمنت الموت استحياء من الناس وخوفا من الفضيحة (وكنت نسيا منسيا) يعني شيئا حقيرا متروكا لم يذكر ولم يعرف

منك ان كنت تقيا) اى ان كان يرجى منك ان تتقي الله فاني عائذة به منك (قال) جبريل عليه السلام (انما أنا رسول ربك) أمنها مما خافت واخبر أنه ليس بآدمي بل هو رسول من استعاذت به (لاهب لك) باذن الله تعالى أو لأكون سببا في هبة الغلام بالنفخ في الدرع ليهب لك اى الله ابو عمرو ونافع (غلاما زكيا) طاهرا من الذنوب او ناميا على الخير والبركة (قالت أنى) كيف (يكون لي غلام) ابن (ولم يمسسني بشر) زوج بالنكاح (ولم أك بغيا) فاجرة تبغي الرجال اى تطلب الشهوة من اى رجل كان ولا يكون الولد عادة الا من أحد هذين والبغي فعول عند المبرد بغوى فقلبت الواو ياء وادغمت وكسرت الغين اتباعا ولذا لم تلحق تاء التأنيث كما لم تلحق في امرأة صبور وشكور وعند غيره هي فعيل ولم تلحقها الهاء لانها بمعنى مفعولة وان كانت بمعنى فاعلة فهو قد يشبه به مثل ان رحمة الله قريب (قال) جبريل (كذلك) اى الامر كما قلت لم يمسك رجل نكاحا او سفاحا (قال ربك هو على هين) اى اعطاء الولد بلا اب على سهل (ولنجعله آية للناس) تعليل معلله محذوف اى ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك او هو معطوف على تعليل مضمر اى لنبين به قدرتنا ولنجعله آية للناس اى عبرة وبرهانا على قدرتنا (ورحمة منا) لمن آمن به (وكان) خلق عيسى (أمرا مقضيا) مقدرا مسطورا في اللوح فلما اطمأنت الى قوله دنا منها فنفخ في جيب درعها فوصلت النفخة الى بطنها (فحملته) اى الموهوب وكان سنها ثلاث عشرة سنة او عشرا او عشرين (فانتبذت به) اعتزلت وهو في بطنها والجار والمجرور في موضع الحال عن ابن عباس رضي الله عنهما كانت مدة الحمل ساعة واحدة كما حملته نبذته وقيل ستة أشهر وقيل سبعة وقيل ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية الا عيسى وقيل حملته في ساعة ووضعته في ساعة (مكانا قصيا) بعيدا من أهلها وراء الجبل وذلك لانها لما احست بالحمل هربت من قومها مخافة اللائمة (فأجاءها) جاء بها وقيل ألجأها وهو منقول من جاء الا ان استعماله قد تغير بعد النقل الى معنى الالجاء الا تراك لا تقول جئت المكان وأجاءنيه زيد (المخاض) وجع الولادة (الى جذع النخلة) أصلها وكانت يابسة وكان الوقت شتاء وتعريفها مشعر بانها كانت نخلة معروفة وجاز ان يكون التعريف للجنس اى جذع هذه الشجرة كانه تعالى ارشدها الى النخلة ليطعمها منها الرطب لانه خرسة النفساء اى طعامها ثم (قالت) جزعا مما أصابها (يا ليتني مت قبل هذا) اليوم مدني وكوفي غير ابي بكر وغيرهم بالضم يقال مات يموت ومات يمات (وكنت نسيا منسيا) شيئا متروكا لا يعرف ولا يذكر بفتح النون حمزة وحفص وبالكسر غيرهما ومعناهما واحد وهو الشئ الذي حقه ان يطرح وينسى لحقارته

(فناداها من تحتها) اى الذى تحتها فى فاعل وهو جبريل عليه السلام لانه كان بمكان منخفض عنها او عيسى عليه السلام لانه خاطبها من تحت ذيلها من تحتها مدنى وكوفى سوى أبى بكر والفاعل مضمر وهو عيسى عليه السلام او جبريل والهاء فى تحتها للنخلة ولشدة ما لقيت سليت بقوله (أن لا تحزنى) لا تهتمى بالوحدة وعدم الطعام والشراب ومقالة الناس وان بمعنى اى (قد جعل ربك تحتك) بقربك او تحت امرك ان أمرته ان يجرى جرى وان أمرته ان يقف وقف (سريا) نهرا صغيرا عند الجمهور وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن السرى فقال هو الجدول وعن الحسن سيدا كريما يعنى عيسى عليه السلام وروى ان خالد بن صفوان قال له ان العرب تسمى الجدول سريا فقال الحسن صدقت ورجع الى قوله وقال ابن عباس رضى الله عنهما ضرب عيسى او جبريل عليهما السلام بعقبه الارض فظهرت عين ماء عذب فجرى النهر اليابس فاخضرت النخلة واثمرت واينعت ثمرتها فقيل لها (وهزى) حركى (اليك) الى نفسك (بجذع النخلة) قال ابو على الباء زائدة اى هزى جذع النخلة (تساقط عليك) بادغام التاء الاولى فى الثانية مكى ومدنى وشامى وابو عمرو وعلى وأبو بكر والاصل تتساقط باظهار التاءين وتساقط بفتح التاء والقاف وطرح التاء الثانية وتخفيف السين حمزة ويساقط بفتح الياء والقاف وتشديد السين يعقوب وسهل وحماد ونصير وتساقط حفص من المفاعلة وتسقط ويسقط وتسقط ويسقط التاء للنخلة والياء للجذع فهذه تسع قرا آت (رطبا) تمييز او مفعول به على حسب القراءة (جنيا) طريا وقالوا التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت وقيل ما للنفساء خير من الرطب ولا للمريض من العسل (فكلى) من الجنى (واشربى) من السرى (وقرى عينا) بالولد الرضى وعينا تمييز اى طيبى نفسا بعيسى وارفضى عنك ما أحزنك (فاما) اصله ان ما فضمت ان الشرطية الى ما وادغمت فيها (ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما) اى فان رأيت آدميا يسألك عن حالك فقولى انى نذرت للرحمن صمتا وامساكا عن الكلام وكانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الاكل والشرب وقيل صياما حقيقة وكان صيامهم فيه الصمت فكان التزامه التزامه وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم الصمت فصار ذلك منسوخا فينا وانما أمرت ان تنذر السكوت لان عيسى عليه السلام يكفيها الكلام بما يبرئ به ساحتها ولئلا تجادل السفهاء وفيه دليل على ان السكوت عن السفيه واجب وما قدع سفيها مثل الاعراض ولا اطلق عنانه مثل العراض وانما أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالاشارة وقد تسمى الاشارة كلاما وقولا الا ترى الى قول الشاعر فى وصف القبور * وتكلمت عن أوجه تبلى * وقيل كان وجوب الصمت بعد هذا الكلام او سوغ لها هذا القدر بالنطق (فلن أكلم اليوم انسيا) آدميا (فأتت به) بعيسى (قومها) بعد ما طهرت من نفاسها (تحمله) حال منها اى اقبلت نحوهم حاملة اياه فلما رأوه معها (قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا) بديعا عجيبا والفرى القطع كانه يقطع العادة (يا أخت هارون) وكان أخاها من أبيها ومن أفضل بنى اسرائيل او هو أخو موسى عليه السلام وكانت من اعقابه وبينهما ألف سنة وهذا كما يقال يا أخا همدان أى يا واحدا منهم او رجل صالح او طالح فى زمانها شبهوها به فى الصلاح او شتموها به

لحقارته وقيل جيفة ملقاة وقيل معناه انها تمنت انها لم تخلق (فناداها من تحتها) قيل ان مريم كانت على اكمة وجبريل وراء الاكمة تحتها وقيل ناداها من سفح الجبل وقيل هو عيسى وذلك انه لما خرج من بطن أمه ناداها (أن لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا) أى نهرا قال ابن عباس رضى الله عنهما ضرب جبريل عليه السلام وقيل عيسى عليه السلام برجله فى الارض فظهرت عين ماء عذبة وجرت وقيل كان هناك نهر يابس يجرى فيه الماء بقدرة الله سبحانه وتعالى وحنت النخلة اليابسة فأورقت واثمرت وارطبت وقيل معنى تحتك أى تحت أمرك ان أمرته ان يجرى جرى وان أمرته بالامساك امسك وقيل معنى سريا أى عيسى وكان عبدا سريا رفيعا (وهزى اليك) أى حركى اليك (بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) قيل الجنى الذى بلغ الغاية وجاء أوان اجتنائه قال الربيع بن خيثم ما للنفساء عندى خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل (فكلى واشربى) أى يا مريم كلى من الرطب واشربى من النهر (وقرى عينا) اى طيبى نفسا وقيل قرى عينك بولدك عيسى يقال اقر الله عينك اى صادف فؤادك ما يرضيك فتقر عينك عن النظر الى غيره (فاما ترين من البشر احدا) معناه يسألك عن ولدك (فقولى انى نذرت للرحمن صوما) اى صمتا قيل كان فى بنى اسرائيل من أراد ان يجتهد صام عن الكلام كما يصوم عن الطعام فلا يتكلم حتى يمسى وقيل ان الله أمرها ان تقول هذا اشارة وقيل أمرها ان تقول هذا القول نطقا ثم تمسك عن الكلام بعده وانما منعت من الكلام لامرين أحدهما ان يكون عيسى عليه السلام هو المتكلم عنها ليكون أقوى لحجتها فى ازالة التهمة عنها وفيه دلالة على أن تفويض الكلام الى الافضل أولى الثانى كراهة مجادلة السفهاء وفيه ان السكوت عن السفيه واجب (فلن أكلم اليوم انسيا) يقال انها كانت تكلم الملائكة ولا تكلم الانس قوله تعالى (فأتت به قومها تحمله) قيل انها لما ولدت عيسى عليه السلام حملته فى الحال الى قومها وقيل ان يوسف النجار احتمل مريم وابنها عيسى الى غار فمكثت فيه أربعين يوما حتى طهرت من نفاسها ثم حملته الى قومها فكلمها عيسى فى الطريق فقال يا أماه ابشرى فانى عبد الله ومسيحه فلما دخلت على أهلها ومعها الصبى بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين (قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا) أى عظيما منكرا وقيل معناه جئت بأمر عجيب بديع (يا أخت هارون) أى يا شبيهة هارون قيل كان رجلا صالحا فى بنى اسرائيل شبهت به فى عفتها وصلاحها وليس المراد الاخوة فى النسب قيل انه تبع جنازته يوم مات أربعون ألفا من بنى اسرائيل كلهم يسمى هارون سوى سائر الناس (م) عن المغيرة بن شعبة قال لما قدمت خراسان سألونى فقالوا انكم تقرؤن يا أخت هارون وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك فقال انهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم وقيل كان هارون أخا مريم لابيها وقيل كان من أمثل رجل فى بنى اسرائيل وقيل انما عنوا هارون أخا موسى لانها كانت من نسله كما يقال للتميمى يا أخا تميم وقيل كان

هارون

(ما كان أبوك) عمران (امرأ سوء) زانيا (وما كانت أمك) حنة (بغيا) زانية (فأشارت اليه) الى عيسى ان يجيبهم وذلك ان عيسى عليه السلام قال لها لا تحزني واحيلي بالجواب علي وقيل أمرها جبريل بذلك ولما اشارت اليه غضبوا وتعجبوا و (قالوا كيف نكلم من كان) حدث ووجد (في المهد) المعهود (صبيا) حال (قال اني عبد الله) ولما اسكتت بأمر الله لسانها الناطق انطق الله لها اللسان الساكت حتى اعترف بالعبودية وهو ابن أربعين ليلة او ابن يوم روى انه أشار بسبابته وقال بصوت رفيع اني عبد الله وفيه رد لقول النصارى (آتاني الكتاب) الانجيل (وجعلني نبيا) روي عن الحسن انه كان في المهد نبيا وكلامه معجزته وقيل معناه ان ذلك سبق في قضائه او جعل الآتي لا محالة كانه وجد (وجعلني مباركا أينما كنت) نفاعا حيث كنت او معلما للخير (وأوصاني) وأمرني (بالصلاة والزكاة) ان ملكت مالا وقيل صدقة الفطر او تطهير البدن ويحتمل وأوصاني بأن آمركم بالصلاة والزكاة (مادمت حيا) نصب على الظرف اي مدة حياتي (وبرا بوالدتي) عطفا على مباركا اي بارا بها اكرمها واعظمها (ولم يجعلني جبارا) متكبرا (شقيا) عاقا (والسلام علي يوم ولدت) يوم ظرف والعامل فيه الخبر وهو علي (ويوم أموت ويوم أبعث حيا) أي ذلك السلام الموجه الى يحيى في المواطن الثلاثة موجه الي ان كان حرف التعريف للعهد وان كان للجنس فالمعنى وجنس السلام علي وفيه تعريض باللعنة على أعداء مريم وابنها لانه اذا قال وجنس السلام علي فقد عرض بأن ضده عليكم اذ المقام مقام مناكرة وعناد فكان مئنة لمثل هذا التعريض (ذلك) مبتدأ (عيسى) خبره (ابن مريم) نعته او خبر ثان أي ذلك الذي قال اني كذا وكذا عيسى ابن مريم لا كما قالت النصارى انه اله او ابن الله (قول الحق) كلمة الله فالقول الكلمة والحق الله وقيل له كلمة الله لانه ولد بقوله كن بلا واسطة أب وارتفاعه على انه خبر بعد خبر او خبر مبتدأ محذوف او بدل من عيسى ونصبه شامي وعاصم على المدح او على المصدر اي اقول قول الحق هو ابن مريم وليس باله كما يدعونه (الذي فيه يمترون) يشكون من المرية الشك أو يمترون من المراء فقالت اليهود ساحر كذاب وقالت النصارى ابن الله وثالث ثلاثة. (ما كان لله) ما ينبغي له (أن يتخذ من ولد) جيء بمن لتأكيد النفي (سبحانه) نزه ذاته عن اتخاذ الولد (اذا قضى امرا) بها

هارون في بني اسرائيل فاسقا أعظم الفسق فشبهوها به (ما كان أبوك) يعني عمران (امرأ سوء) قال ابن عباس زانيا (وما كانت أمك) يعني حنة (بغيا) أي زانية فمن أين لك هذا الولد (فأشارت اليه) أي أشارت مريم الى عيسى ان كلمهم قال ابن مسعود لما لم يكن لها حجة أشارت اليه ليكون كلامه حجة لها وقيل لما اشارت اليه غضب القوم وقالوا مع ما فعلت تسخرين بنا (قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا) قيل أراد بالمهد الحجر وهو حجرها وقيل هو المهد بعينه قيل لما سمع عيسى كلامهم ترك الرضاع وأقبل عليهم وقيل لما أشارت اليه ترك الرضاع واتكأ على يساره وأقبل عليهم وجعل يشير بيمينه و (قال اني عبد الله) قال وهب أتاها زكريا عند مناظرتها اليهود فقال لعيسى انطق بحجتك ان كنت أمرت بها فقال عند ذلك عيسى وهو ابن اربعين يوما وقيل بل يوم ولد اني عبد الله أقر على نفسه بالعبودية لله تعالى أول ما تكلم لئلا يتخذ الها فان قلت ان الذي اشتدت اليه الحاجة في ذلك الوقت نفي التهمة عن أمه وان عيسى لم ينص على ذلك وانما نص على اثبات عبوديته لله تعالى قلت كأنه جعل ازالة التهمة عن الله تعالى اولى من ازالة التهمة عن امه فلهذا أول ما تكلم انما تكلم باعترافه على نفسه بالعبودية لتحصل ازالة التهمة عن الام لان الله تعالى لم يختص بهذه المرتبة العظيمة من ولد في زنى والتكلم بازالة التهمة عن أمه لا يفيد ازالة التهمة عن الله سبحانه وتعالى فكان الاشتغال بذلك أولى (آتاني الكتاب وجعلني نبيا) قيل معناه سيجعلني نبيا ويؤتيني الكتاب وهو الانجيل وهذا اخبار عما كتب له في اللوح المحفوظ كما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم متى كنت نبيا قال كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد وقال الاكثرون انه أوتي الانجيل وهو صغير وكان يعقل عقل الرجال الكمل وعن الحسن انه الهم التوراة وهو في بطن أمه (وجعلني مباركا أينما كنت) معناه اني نفاع أينما توجهت وقيل معلما للخير أدعو الى الله والى توحيده وعبادته وقيل مباركا على من يتبعني (وأوصاني بالصلاة والزكاة) أي امرني بهما وكلفني فعلهما فان قلت كيف يؤمر بالصلاة والزكاة في حال طفوليته وقد قال صلى الله عليه وسلم رفع القلم عن ثلاث الصبي حتى يبلغ الحديث قلت ان قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة لا يدل على أنه تعالى اوصاه بادائهما في الحال بل المراد وصاه بادائهما في الوقت المعين لهما وهو البلوغ وقيل ان الله تعالى صيره حين انفصل عن أمه بالغا عاقلا وهذا القول اظهر في سياق قوله (مادمت حيا) فانه يفيد ان هذا التكليف متوجه اليه في زمان جميع حياته حين كان في الارض وحين رفع الى السماء وحين ينزل الارض بعد رفعه (وبرا بوالدتي) اي وجعلني برا بوالدتي (ولم يجعلني جبارا شقيا) اي عاصيا لربي متكبرا على الخلق بل انا خاضع متواضع وروي انه قال قلبي لين وانا صغير في نفسي قال بعض العلماء لا تجد العاق الا جبارا شقيا وتلا هذه الآية وقيل الشقي الذي يذنب ولا يتوب (والسلام علي يوم ولدت) أي السلامة عند الولادة من طعن الشيطان (ويوم أموت) أي عند الموت من الشرك (ويوم أبعث حيا) اي من أهوال يوم القيامة فلما كلمهم عيسى بذلك علموا براءة مريم ثم سكت عيسى فلم يتكلم حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الاطفال (ذلك عيسى ابن مريم) اي ذلك الذي قال أنا عبد الله هو عيسى بن مريم (قول الحق) اي هذا الكلام هو القول الحق أضاف القول الى الحق وقيل هو نعت لعيسى يعني بذلك عيسى بن مريم كلمة الله الحق والحق هو الله (الذي فيه يمترون) اي يشكون ويختلفون فقائل يقول هو ابن الله وقائل يقول الله وقائل يقول ثالث ثلاثة تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ثم نزه نفسه عن اتخاذ الولد ونفاه عنه فقال تعالى (ما كان لله ان يتخذ من ولد) اي ما كان من صفاته اتخاذ الولد ولا ينبغي له ذلك (سبحانه اذا قضى أمرا) أي اذا أراد ان يحدث أمرا (فانما

يقول له كن فيكون) بالنصب شامي اى كما قال لعيسى كن فكان من غير أب ومن كان متصفا بهذا كان منزها ان يشبه الحيوان الوالد (وان الله ربى وربكم فاعبدوه) بالكسر شامي وكوفي على الابتداء وهو من كلام عيسى يعنى كما أنا عبده وأنتم عبيده علي وعليكم ان نعبده ومن فتح عطف على بالصلاة اى وأوصانى بالصلاة وبالزكاة وبأن الله ربى وربكم اوعلقه بما بعده اى ولان الله ربى وربكم فاعبدوه (هذا) الذى ذكرت (صراط مستقيم) فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا (فاختلف الاحزاب) الحزب الفرقة المنفردة برأيها عن غيرها وهم ثلاث فرق نسطورية ويعقوبية وملكانية (من بينهم) من بين أصحابه اومن بين قومه اومن بين الناس وذلك ان النصارى اختلفوا فى عيسى حين رفع ثم اتفقوا على ان يرجعوا الى قول ثلاثة كانوا عندهم اعلم أهل زمانهم وهم يعقوب ونسطور وملكا فقال يعقوب هو الله هبط الى الارض ثم صعد الى السماء وقال نسطور كان ابن الله اظهره ماشاء ثم رفعه اليه وقال الثالث كذبوا كان عبدا مخلوقا نبيا فتبع كل واحد منهم قوم (فويل للذين كفروا) من الاحزاب اذ الواحد منهم على الحق (من مشهد يوم عظيم) هو يوم القيامة اومن شهودهم هول الحساب والجزاء فى يوم القيامة أومن شهادة ذلك اليوم عليهم وان تشهد عليهم الملائكة والانبياء وجوارحهم بالكفر أومن مكان الشهادة او وقتها اوالمراد يوم اجتماعهم للتشاور فيه وجعله عظيما لفظاعة ماشهدوا به فى عيسى (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) الجمهور على ان لفظه أمر ومعناه التعجب والله تعالى لا يوصف بالتعجب ولكن المراد ان اسماعهم وأبصارهم جدير بأن يتعجب منهما بعدما كانوا صما وعميا فى الدنيا قال قتادة ان عموا وصموا عن الحق فى الدنيا فما أسمعهم وما أبصرهم بالهدى يوم لا ينفعهم وبهم مرفوع المحل على الفاعلية كاكرم بزيد فمعناه كرم زيد جدا (لكن الظالمون اليوم) اقيم الظاهر مقام المضمر أى لكنهم اليوم فى الدنيا بظلمهم أنفسهم حيث تركوا الاستماع والنظر حين يجدى عليهم ووضعوا العبادة فى غير موضعها (فى ضلال) عن الحق (مبين) ظاهر وهو اعتقادهم عيسى الها معبودا مع ظهور آثار الحدث فيه اشعارا بأن لا ظلم أشد من ظلمهم (وأنذرهم) خوفهم (يوم الحسرة) يوم القيامة لانه يقع فيه الندم على مافات وفى الحديث اذا رأوا منازلهم فى الجنة ان لو آمنوا (اذ) بدل من يوم الحسرة اوظرف للحسرة وهو مصدر (قضى الامر) فرغ من الحساب وتصادر الفريقان الى الجنة والنار (وهم فى غفلة) هنا عن الاهتمام لذلك المقام (وهم لا يؤمنون) لا يصدقون به وهم وهم حالان اى وانذرهم على هذه الحال غافلين غير مؤمنين (انا نحن نرث الارض ومن عليها) أى نتفرد بالملك والبقاء عند تعميم الهلك والفناء وذكر من لتغليب العقلاء

يقول له كن فيكون) اى لا يتعذر عليه اتخاذه على الوجه الذى أراده (وان الله ربى وربكم فاعبدوه) هذا اخبار عن عيسى انه قال ذلك يعنى ولان الله ربى وربكم لا رب للمخلوقات سواه (هذا صراط مستقيم) اى هذا الذى اخبرتكم به ان الله امرنى به هو الصراط المستقيم الذى يؤدى الى الجنة (فاختلف الاحزاب من بينهم) يعنى النصارى سموا احزابا لانهم تحزبوا ثلاث فرق فى امر عيسى النسطورية والملكية واليعقوبية (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) يعنى يوم القيامة (أسمع بهم وأبصر) اى ما اسمعهم وابصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم السمع والبصر اخبر انهم يسمعون ويبصرون فى الآخرة مالم يسمعوا ويبصروا فى الدنيا وقيل معناه التهديد بما يسمعون ويبصرون مما يسوءهم ويصدع قلوبهم (يوم يأتوننا) اى يوم القيامة (لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين) قيل اراد باليوم الدنيا يعنى انهم فى الدنيا فى خطا بين وفى الآخرة يعرفون الحق وقيل معناه لكن الظالمون فى الآخرة فى ضلال عن طريق الجنة بخلاف المؤمنين قوله تعالى (وأنذرهم يوم الحسرة) يعنى خوف يا محمد كفار مكة يوم الحسرة سمى بذلك لان المسىء يتحسر هلا احسن العمل والمحسن هلا ازداد فى الاحسان يدل عليه ماروى ابو هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال مامن أحد يموت الا ندم قالوا وما ندمه يارسول الله قال ان كان محسنا ندم ان لا يكون ازداد وان كان مسيئا ندم ان لا يكون نزع أخرجه الترمذى قوله ان لا يكون نزع النزع عن الشئ الكف عنه وقال أكثر المفسرين يعنى بيوم الحسرة حين يذبح الموت (ق) عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالموت على هيئة كبش املح فينادى مناد يا اهل الجنة فيشرفون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رأوه ثم ينادى مناد آخر يا اهل النار فيشرفون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رأوه فيذبح بين الجنة والنار ثم يقول يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا اهل النار خلود بلا موت ثم قرأ وانذرهم يوم الحسرة (اذ قضى الامر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون) واشار بيده الى الدنيا زاد الترمذى فيه فلو ان احدا مات فرحا لمات أهل الجنة ولو ان احدا مات حزنا لمات أهل النار قوله كهيئة كبش أملح الاملح المختلط بالبياض والسواد قوله فيشرفون يقال أشرف الى الشئ اذا اطلع ينظر اليه ومالت نحوه نفسه قوله فيذبح بين الجنة والنار اعلم ان الموت عرض ليس بجسم فى صورة كبش أوغيره فعلى هذا يتأول الحديث على ان الله تعالى يخلق هذا الجسم وهو حيوان فيذبح فيموت فلا يبقى يرجى له حياة ولا وجود وكذلك حال أهل الجنة والنار بعد الاستقرار فيهما لا زوال لهما ولا انتقال (ق) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صار اهل الجنة الى الجنة واهل النار الى النار جىء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار فيذبح ثم ينادى مناد يا اهل الجنة لا موت ويا اهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحا الى فرحهم ويزداد اهل النار حزنا الى حزنهم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة أحد الا أرى مقعده من النار لو اساء ليزداد شكرا ولا يدخل النار احد الا أرى مقعده من الجنة لو احسن ليكون عليه حسرة أخرجه البخارى وقوله تعالى اذ قضى الامر اى فرغ من الحساب وادخل أهل الجنة الجنة واهل النار النار وذبح الموت وهم فى غفلة اى عما يراد بهم فى الآخرة وهم لا يؤمنون اى لا يصدقون (انا نحن نرث الارض ومن عليها)

(والينا يرجعون) بضم الياء وفتح الجيم وفتح الياء يعقوب اى يردون فيجازون جزاء وفاقا (واذكر) لقومك (فى الكتاب) القرآن (ابراهيم) قصته مع أبيه (انه كان صديقا نبيا) بغير همز وهمزه نافع قيل الصادق المستقيم فى الافعال والصديق المستقيم فى الاحوال فالصديق من أبنية المبالغة ونظيره الضحيك والمراد فرط صدقه وكثرة ما صدق به من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله أى كان مصدقا لجميع الانبياء وكتبهم وكان نبيا فى نفسه وهذه الجملة وقعت اعتراضا بين ابراهيم و بين ما هو بدل منه وهو (اذ قال) وجاز ان يتعلق اذ بكان او بصديقا نبيا اى كان جامعا لخصائص الصديقين والانبياء حين خاطب اباه بتلك المخاطبات والمراد بذكر الرسول اياه وقصته فى الكتاب ان يتلو ذلك على الناس و يبلغه اياهم كقوله واتل عليهم نبأ ابراهيم والا فالله عز وعلا هو ذاكره ومورده فى تنزيله (لابيه يا أبت) بكسر التاء وفتحها ابن عامر والتاء عوض من ياء الاضافة ولا يقال يا أبتى لئلا يجمع بين العوض والمعوض منه

اى يميت سكان الارض جميعا و يبقى الله سبحانه وتعالى وحده فيرثهم (والينا يرجعون) فيجزيهم بأعمالهم قوله عز وجل (واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا) اى كثير الصدق وهو مبالغة فى كونه صديقا وقيل التصديق الكثير التصديق قيل من صدق الله فى وحدانيته وصدق انبياءه ورسله وصدّق بالبعث بعد الموت وقام بالاوامر فعمل بها فهو صديق ولما قربت رتبة الصديق من رتبة النبى انتقل من ذكر كونه صديقا الى ذكر كونه نبيا والنبى العالى فى الرتبة بارسال الله اياه واى رتبة أعلى من رتبة من جعله الله واسطة بينه و بين عباده (اذ قال لابيه) يعنى آزر وهو يعبد الاصنام (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع) يعنى صوتا (ولا يبصر) ولا ينظر شيئا (ولا يغنى عنك) اى يكفيك (شيئا) وصف الاصنام بثلاثة اشياء كل واحد منها قادح فى الالهية وذلك ان العبادة هى غاية التعظيم للمعبود فلا يستحقها الا من له ولاية الانعام وله اوصاف الكمال وهو الله تعالى ولا يستحق العبادة الا هو (يا أبت انى قد جاءنى من العلم) يعنى بالله والمعرفة (ما لم يأتك فاتبعنى) اى على دينى (اهدك صراطا سويا) اى مستقيما (يا أبت لا تعبد الشيطان) اى لا تطعه فيما يزين لك من الكفر والشرك (ان الشيطان كان للرحمن عصيا) اى عاصيا (يا أبت انى اخاف) اى اعلم وقيل هو على ظاهره لانه يمكن ان يؤمن فيكون من اهل الجنة او يصر على الكفر فيكون من اهل النار فحمل الخوف على ظاهره اولى واعلم ان ابراهيم عليه الصلاة والسلام رتب هذا الكلام فى غاية الحسن مقرونا بالتلطف والرفق فان قوله فى مقدمة كلامه يا أبت دليل على شدة الحب والرغبة فى صرفه عن العقاب وارشاده الى الصواب لانه نبهه اولا على ما يدل على المنع من عبادة الاصنام ثم امره باتباعه فى الايمان ثم نبهه ان طاعة الشيطان غير جائزة فى العقول ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الاقدام على ما لا ينبغى بقوله انى اخاف (ان يمسك) اى يصيبك (عذاب من الرحمن) اى ان اقمت على الكفر (فتكون للشيطان وليا) اى قرينا فى النار وقيل صديقا له فى النار وانما فعل ابراهيم عليه الصلاة والسلام هذا مع ابيه لامور احدها لشدة تعلق قلبه بصلاحية ابيه واداء حق الابوة والرفق به وثانيها ان النبى الهادى الى الحق لابد ان يكون رفيقا لطيفا حتى يقبل منه كلامه وثالثها النصح لكل أحد فالاب اولى (قال) يعنى اباه مجيبا له (اراغب انت عن آلهتى يا ابراهيم) اى أتارك انت وتارك عبادتها (لئن لم تنته) اى ترجع وتسكت عن عيبك آلهتنا وشتمك اياها (لارجمنك) قال ابن عباس معناه لاضربنك وقيل لاقتلنك بالحجارة وقيل لاشتمنك وقيل لابعدنك عنى بالقول القبيح والقول الاول هو الصحيح (واهجرنى) اى اجتنبنى قال ابن عباس اعتزلنى سالما لا يصيبنك منى معرة (مليا) اى دهرا طويلا (قال) يعنى ابراهيم

(لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر) المفعول فيهما منسى غير منوى و يجوز ان يقدر أى لا يسمع شيئا ولا يبصر شيئا (ولا يغنى عنك شيئا) يحتمل ان يكون شيئا فى موضع المصدر أى شيئا من الاغناء وان يكون مفعولا به من قولك اغن عنى وجهك أى بعد (يا أبت انى قد جاءنى من العلم) الوحى اومعرفة الرب (ما لم يأتك) ما فى ما لا يسمع وما لم يأتك يجوز ان تكون موصولة اوموصوفة (فاتبعنى أهدك) ارشدك (صراطا سويا) مستقيما (يا أبت لا تعبد الشيطان) لا تطعه فيما سول من عبادة الصنم (ان الشيطان كان للرحمن عصيا) عاصيا (يا أبت انى أخاف) قيل اعلم (أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا) قرينا فى النار تليه و يليك فانظر فى نصيحته كيف راعى المجاملة والرفق والخلق الحسن كما امر فى الحديث اوحى الى ابراهيم انك خليلى حسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الابرار فطلب منه اولا العلة فى خطئه طلب منبه على تماديه موقظ لافراطه وتناهيه لان من يعبد اشرف الخلق منزلة وهم الانبياء كان محكوما عليه بالغى المبين فكيف بمن يعبد حجرا او شجرا لا يسمع ذكر عابده ولا يرى هيئات عبادته ولا يرفع عنه بلاء ولا يقضى له حاجة ثم ثنى بدعوته الى الحق مترفقا به متلطفا فلم يسم اباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال ان معى شيئا من العلم ليس معك وذلك علم

٥٤ ث الدلالة على الطريق السوى فهب انى واياك فى مسير وعندى معرفة بالهداية دونك فاتبعنى انجك من ان تضل وتتيه ثم ثلث بنهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذى عصى الرحمن الذى جميع النعم منه اوقعك فى عبادة الصنم وزينها لك فأنت عابده فى الحقيقة ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال مع مراعاة الادب حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق به وان العذاب لاصق به بل قال اخاف ان يمسك عذاب بالتنكير المشعر بالتقليل كانه قال انى أخاف ان يصيبك نفيان من عذاب الرحمن وجعل ولاية الشيطان ودخوله فى جملة اشياعه واوليائه أكبر من العذاب كما ان رضوان الله أكبر من الثواب فى نفسه وصدر كل نصيحة بقوله يا ابت توسلا اليه واستعطافا واشعارا بوجوب احترام الاب وان كان كافرا ثم (قال) آزر توبيخا (أراغب انت عن آلهتى يا ابراهيم) اى اترغب عن عبادتها فناداه باسمه ولم يقابل يا ابت بيا بنى وقدم الخبر على المبتدا لانه كان اهم عنده (لئن لم تنته) عن شتم الاصنام (لارجمنك) لاقتلنك بالرجام أو لاضربنك بها حتى تتباعد أو لاشتمنك (واهجرنى) عطف على محذوف يدل عليه لارجمنك تقديره فاحذرنى واهجرنى (مليا) ظرف أى زمانا طويلا من الملاوة

(قال سلام عليك) سلام توديع ومتاركة أو تقريب وملاطفة ولذا وعده بالاستغفار بقوله (سأستغفر لك ربى) سأسأل الله أن يجعلك من اهل المغفرة بأن يهديك للاسلام (انه كان بى حفيا) ملطفا بعموم النعم او رحيما أو مكرما والحفاوة الرأفة والرحمة والكرامة (واعتزلكم) اراد بالاعتزال المهاجرة من ارض بابل الى الشام (وماتدعون من دون الله) اى ماتعبدون من اصنامكم (وادعو) واعبد (ربى) ثم قال تواضعا وهضما للنفس ومعرضا بشقاوتهم بدعاء آلهتهم (عسى ان لا اكون بدعاء ربى شقيا) اى كما شقيتم انتم بعبادة الاصنام (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله) فلما اعتزل الكفار ومعبودهم (وهبنا له اسحاق) ولدا (ويعقوب) نافلة ليستأنس بهما (وكلا) كل واحد منهما (جعلنا نبيا) اى لما ترك الكفار الفجار لوجهه عوضه اولادا مؤمنين انبياء (ووهبنا لهم من رحمتنا) هى المال والولد (وجعلنا لهم لسان صدق) ثناء حسنا وهو الصلاة على ابراهيم وآل ابراهيم فى الصلوات وعبر باللسان كما عبر باليد عما يطلق باليد وهى العطية (عليا) رفيعا مشهورا (واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا) كوفى غير المفضل أى اخلصه الله واصطفاه ومخلصا بالكسر غيرهم اى اخلص هو العبادة لله تعالى فهو مخلص مما له من السعادة بأصل الفطرة ومخلص فيما عليه من العبادة بصدق الهمة (وكان رسولا نبيا) الرسول الذى معه كتاب من الانبياء والنبى الذى ينبئ عن الله عز وجل وان لم يكن معه كتاب كيوشع (وناديناه) دعوناه وكلمناه ليلة الجمعة (من جانب الطور) هو جبل بين مصر ومدين (الايمن) من اليمين اى من ناحية اليمين والجمهور على ان المراد ايمن موسى عليه السلام لان الجبل لا يمين له والمعنى انه حين اقبل من مدين يريد مصر نودى من الشجرة وكانت فى جانب الجبل على يمين موسى عليه السلام (وقربناه) تقريب منزلة ومكانة لا منزل ومكان (نجيا) حال اى مناجيا كنديم بمعنى منادم (ووهبنا له من رحمتنا) من اجل رحمتنا له وترؤفنا عليه (اخاه) مفعول (هارون) بدل منه (نبيا) حال اى وهبنا له نبوة اخيه والا فهارون كان اكبر سنا منه (واذكر فى الكتاب اسماعيل) هو ابن ابراهيم فى الاصح (انه كان صادق الوعد) وافيه وعد رجلا ان يقيم مكانه حتى يعود اليه فانتظره سنة فى مكانه حتى عاد وناهيك انه وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى وقيل لم يعد ربه موعدا الا انجزه وانما خصه بصدق الوعد وان كان موجودا فى غيره من الانبياء تشريفا له وكأنه المشهور من خصاله (وكان رسولا) الى جرهم (نبيا) مخبرا منذرا (وكان يأمر اهله) امته لان النبى ابو امته واهل بيته وفيه دليل على انه لم يداهن غيره (بالصلاة والزكاة) يحتمل انه انما خصت هاتان العبادتان لانهما أما العبادات البدنية والمالية (وكان عند ربه مرضيا) قرئ مرضوا على الاصل

(سلام عليك) اى سلمت منى لا اصيبك بمكروه وذلك لانه لم يؤمر بقتاله على كفره وقيل هذا سلام هجران ومفارقة وقيل هو سلام بر ولطف وهو جواب الحليم للسفيه (سأستغفر لك ربى) قيل انه لما اعياه امره وعده ان يراجع الله فيه فيسأله ان يرزقه التوحيد ويغفر له وقيل معناه سأسأل لك ربى توبة تنال بها المغفرة (انه كان بى حفيا) اى برا لطيفا والمراد انه يستجيب لى اذا دعوته لانه عودنى الاجابة لدعائى (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله) اى افارقكم وافارق ما تعبدون من دون الله وذلك انه فارقهم وهاجر الى الارض المقدسة (وادعو ربى) اى اعبد ربى الذى خلقنى وانعم على (عسى ان لا اكون بدعاء ربى شقيا) اى ارجو ان لا اشقى بدعاء ربى وعبادته كما تشقون انتم بعبادة الاصنام ففيه التواضع له مع التعريض بشقاوتهم قوله عز وجل (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله) اى ذهب مهاجرا (وهبنا له) اى بعد الهجرة (اسحاق ويعقوب) اى انسنا وحشته من فراقهم باولاد اكرم على الله من ابيه (وكلا جعلنا نبيا) اى انعمنا عليهما بالنبوة (ووهبنا لهم من رحمتنا) اى مع ما وهبنا لهم من النبوة وهبنا لهم المال والولد وذلك انه بسط لهم فى الدنيا من سعة الرزق وكثرة الاولاد (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) يعنى ثناء حسنا رفيعا فى اهل كل دين حتى ادعاهم اهل الاديان كلهم فهم يتولونهم ويثنون عليهم قوله عز وجل (واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا) قرئ بكسر اللام اى اخلص العبادة والطاعة لله تعالى ولم يرائ وقرئ بالفتح اى مختارا اختاره الله تعالى ثم استخلصه واصطفاه (وكان رسولا نبيا) فهذان وصفان مختلفان فكل رسول نبى ولا عكس (وناديناه من جانب الطور الايمن) اى من ناحية يمين موسى والطور جبل معروف بين مصر ومدين ويقال ان اسمه الزبير وذلك حين اقبل من مدين ورأى النار فنودى يا موسى انى انا الله رب العالمين (وقربناه) قال ابن عباس قربه وكلمه ومعنى التقريب اسماعه كلامه وقيل رفعه على الحجب حتى سمع صرير الاقلام وقيل معناه رفع قدره ومنزلته أى وشرفناه بالمناجاة وهو قوله تعالى (نجيا) اى مناجيا (ووهبنا له من رحمتنا اخاه هارون نبيا) وذلك ان موسى دعا ربه فقال واجعل لى وزيرا من اهلى هارون أخى فأجاب الله دعوته وارسل الى هارون ولذلك سماه هبة له وكان هارون اكبر من موسى قوله عز وجل (واذكر فى الكتاب اسماعيل) هو اسماعيل بن ابراهيم وهو جد النبى صلى الله عليه وسلم (انه كان صادق الوعد) قيل انه لم يعد شيئا الا وفى به وقيل انه وعد رجلا ان يقوم مكانه حتى يرجع الرجل فوقف اسماعيل مكانه ثلاثة ايام للميعاد حتى رجع اليه الرجل وقيل انه وعد نفسه الصبر على الذبح فوفى به فوصفه الله بهذا الخلق الحسن الشريف. سئل الشعبى عن الرجل يعد ميعادا الى اى وقت ينتظر فقال ان وعده نهارا فكل النهار وان وعده ليلا فكل الليل وسئل بعضهم عن مثل ذلك فقال ان وعده فى وقت صلاة ينتظر الى وقت صلاة أخرى (وكان رسولا) الى جرهم وهم قبيلة من عرب اليمن نزلوا على هاجر ام اسماعيل بوادى مكة حين خلفهم ابراهيم وجرهم هو جرهم بن قحطان ابن عامر بن سالم وقحطان ابو قبائل اليمن (نبيا) اى مخبرا عن الله تعالى (وكان يأمر أهله) اى قومه وجميع امته (بالصلاة والزكاة) قال ابن عباس يريد بالصلاة المفروضة عليهم وهى الحنيفية التى افترضت علينا وقيل كان يبدأ بأهله فى الامر بالصلاة والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم (وكان عند ربه مرضيا) اى قائما لله بطاعته وقيل رضيه لنبوته ورسالته وهذا نهاية فى المدح لان المرضى عند الله هو الفائز فى كل طاعة

باعلى الدرجات قوله عز وجل (واذكر في الكتاب ادريس) هو جد ابي نوح واسمه اخنوخ سمي ادريس لكثرة درسه الكتب وكان خياطا وهو أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط وكانوا من قبل يلبسون الجلود وهو أول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار وأول من نظر في علم الحساب (انه كان صديقا نبيا) وذلك ان الله تعالى شرفه بالنبوة وانزل عليه ثلاثين صحيفة (ورفعناه مكانا عليا) قيل هي الرفعة بعلو المرتبة في الدنيا وقيل انه رفع الى السماء وهو الاصح يدل عليه ماروى عن انس بن مالك ابن صعصعة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه رأى ادريس في السماء الرابعة ليلة المعراج متفق عليه وكان سبب رفع ادريس الى السماء الرابعة على ماقاله كعب الاحبار وغيره انه سار ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس فقال يارب اني مشيت يوما فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما اصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها مالا يعرف فقال يارب خلقتني لحر الشمس فما الذي قضيت فيه قال ان عبدي ادريس سألني ان اخفف عنك حملها وحرها فاجبته قال يارب فاجمع بيني وبينه واجعل بيني وبينه خلة فأذن له حتى اتى ادريس فكان ادريس يسأله فكان مما سأله ان قال اني اخبرت انك اكرم الملائكة وامكنهم عند ملك الموت فاشفع لي اليه ليؤخر اجلي لعلي ازداد شكرا وعبادة فقال الملك لا يؤخر الله نفسا اذا جاء اجلها وانا مكلمه فرفعه الى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ثم اتى ملك الموت فقال له لي اليك حاجة صديق لي من بني آدم تشفع بي اليك لتؤخر اجله فقال ملك الموت ليس لي ذلك ولكن ان احببت اعلمته اجله فيقدم لنفسه قال نعم فنظر في ديوانه فقال انك كلمتني في انسان ما اراه يموت ابدا قال وكيف ذلك فقال لا اجده يموت الا عند مطلع الشمس قال اني اتيتك وتركته هناك قال انطلق فلا اراك تجده الا وقد مات فوالله ما بقي من عمر ادريس شئ فرجع الملك فوجده ميتا وقال وهب كان يرفع لادريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الارض في زمانه فعجب منه الملائكة واشتاق اليه ملك الموت فاستأذن ربه في زيارته فأذن له فأتاه في صورة بني آدم وكان ادريس يصوم الدهر فلما كان وقت افطاره دعاه الى الطعام فأبى ان يأكل معه ففعل ذلك ثلاث ليال فأنكره ادريس وقال له في الليلة الثالثة اني أريد ان أعلم من أنت قال أنا ملك الموت استأذنت ربي ان أصحبك فقال لي اليك حاجة قال وماهي قال تقبض روحي فأوحى الله اليه ان اقبض روحه فقبض روحه وردها الله اليه بعد ساعة فقال له ملك الموت ما الفائدة في سؤالك قبض الروح قال لاذوق كرب الموت وغمه فأكون اشد استعدادا له ثم قال له ادريس لي اليك حاجة أخرى قال وماهي قال ترفعني الى السماء لانظر اليها والى الجنة والنار فأذن الله له فرفعه فلما قرب من النار قال لي اليك حاجة قال وماهي قال اريد ان أسأل مالكا ان يرفع أبوابها فأردها ففعل قال فكما أريتني النار فأرني الجنة فذهب به الى الجنة فاستفتح ففتحت أبوابها فأدخله الجنة ثم قال له ملك الموت اخرج لتعود الى مقرك فتعلق بشجرة وقال ما أخرج منها فبعث الله اليه ملكا حكما بينهما قال له الملك مالك لا تخرج قال لان الله تعالى قال كل نفس ذائقة الموت وقد ذقته ثم قال وان منكم الا واردها فأنا وردتها وقال وماهم منها بمخرجين فلست أخرج فأوحى الله تعالى الى ملك الموت باذني دخل الجنة وبأمري لا يخرج فهو حي هناك وذلك قوله تعالى ورفعناه مكانا عليا واختلفوا في أنه حي في السماء أم ميت فقال قوم هو ميت واستدل بالاول وقال قوم هو حي واستدل بهذا وقالوا أربعة من الانبياء احياء اثنان في الارض وهما الخضر والياس واثنان في السماء وهما ادريس وعيسى قوله عز وجل (اولئك الذين انعم الله عليهم من النبيين) اولئك اشارة الى المذكورين في هذه السورة انعم الله عليهم بالنبوة وغيرها مما تقدم وصفه (من ذرية آدم) يعني ادريس ونوحا (وممن حملنا مع نوح) اي ومن ذرية من حملنا مع نوح في السفينة يريد ابراهيم لانه من ولد سام بن نوح (ومن ذرية ابراهيم) يعني اسحاق واسماعيل ويعقوب (واسرائيل) اي ومن ذرية اسرائيل وهو يعقوب وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم فرتب الله

(واذكر في الكتاب ادريس) هو اخنوخ اول مرسل بعد آدم عليه السلام واول من خط بالقلم وخاط اللباس ونظر في علم النجوم والحساب واتخذ الموازين والمكاييل والاسلحة فقاتل بني قابيل وقولهم سمي به لكثرة دراسته كتب الله لا يصح لانه لو كان افعيلا من الدرس لم يكن فيه الا سبب واحد وهو العلمية وكان منصرفا فامتناعه من الصرف دليل العجمة (انه كان صديقا نبيا) انزل الله عليه ثلاثين صحيفة (ورفعناه مكانا عليا) هو شرف النبوة والزلفى عند الله وقيل معناه رفعته الملائكة الى السماء الرابعة وقد رآه النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فيها وعن الحسن الى الجنة لا شئ اعلى من الجنة وذلك انه حبب لكثرة عبادته الى الملائكة فقال لملك الموت اذقني الموت يهن علي ففعل ذلك باذن الله فحيي وقال ادخلني النار ازدد رهبة ففعل ثم قال ادخلني الجنة ازدد رغبة ثم قال له اخرج فقال قد ذقت الموت ووردت النار فما انا بخارج من الجنة فقال الله عز وجل باذني فعل وباذني دخل فدعه (أولئك) اشارة الى المذكورين في السورة من زكريا الى ادريس (الذين أنعم الله عليهم من النبيين) من للبيان لان جميع الانبياء منعم عليهم (من ذرية آدم) من للتبعيض وكان ادريس من ذرية آدم لقربه منه لانه جد ابي نوح (وممن حملنا مع نوح) ابراهيم من ذرية من حمل مع نوح لانه ولد سام بن نوح (ومن ذرية ابراهيم) اسماعيل واسحاق ويعقوب (واسرائيل) اي ومن ذرية اسرائيل أي يعقوب وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى لان مريم من ذريته

(ومن) يحتمل العطف على من الاولى والثانية (هدينا) لمحاسن الاسلام (واجتبينا) من الانام أو لشرح الشريعة وكشف الحقيقة (اذا تتلى عليهم آيات الرحمن) أي اذا تليت عليهم كتب الله المنزلة وهو كلام مستأنف ان جعلت الذين خبر الاولئك وان جعلته صفة له كان خبرا يتلى بالياء قتيبة لوجود الفاصل مع ان التأنيث غير حقيقي (خروا سجدا) سقطوا على وجوههم ساجدين رغبة (وبكيا) باكين رهبة جمع باك كسجود وقعود في جمع ساجد وقاعد في الحديث اتلوا القرآن وابكوا وان لم تبكوا فتباكوا وعن صالح المري قرأت القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي يا صالح هذه القراءة فأين البكاء ويقول في سجود التلاوة سبحان ربي الاعلى ثلاثا (فخلف من بعدهم) فجاء من بعد هؤلاء المفضلين (خلف) أولاد سوء وبفتح اللام العقب الخير عن ابن عباس هم اليهود (أضاعوا الصلاة) تركوا الصلاة المفروضة (واتبعوا الشهوات) ملاذ النفوس وعن علي رضي الله عنه من بني الشديد وركب المنظور ولبس المشهور وعن قتادة رضي الله عنه هو في هذه الامة (فسوف يلقون غيا) جزاء غي وكل شر عند العرب غي وكل خير رشاد وعن ابن عباس وابن مسعود هو واد في جهنم أعد للمصرين على الزنا وشارب الخمر وآكل الربا والعاق وشاهد الزور (الا من تاب) رجع عن كفره (وآمن) بشرطه (وعمل صالحا) بعد ايمانه (فأولئك يدخلون الجنة) بضم الياء وفتح الخاء مكي وبصري وأبو بكر (ولا يظلمون شيئا) أي لا ينقصون شيئا من جزاء أعمالهم ولا يمنعونه بل يضاعف لهم أو لا يظلمون شيئا من الظلم (جنات) بدل من الجنة لان الجنة تشتمل على جنات عدن لانها جنس أو نصب على المدح (عدن) معرفة لانها علم لمعنى العدن وهو الاقامة أو علم لارض الجنة لكونها مقام اقامة (التي وعد الرحمن عباده) أي عباده التائبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات كما سبق ذكرهم ولانه أضافهم اليه وهو للاختصاص وهؤلاء أهل الاختصاص (بالغيب) أي وعدها وهي غائبة عنهم غير حاضرة أو هم غائبون عنها لا يشاهدونها (انه) ضمير الشأن أو ضمير الرحمن (كان وعده) أي موعوده وهو الجنة (مأتيا) أي هم يأتونها (لا يسمعون فيها) في الجنة (لغوا) فحشا أو كذبا أو ما لا طائل تحته من الكلام وهو المطروح منه وفيه تنبيه على وجوب تجنب اللغو واتقائه حيث نزه الله عنه داره التي لا تكليف فيها (الا سلاما) أي لكن يسمعون سلاما من الملائكة أو من بعضهم على بعض أو لا يسمعون فيها الا قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة فهو استثناء منقطع عند الجمهور وقيل معنى السلام هو الدعاء بالسلامة ولما كان أهل دار السلام أغنياء عن الدعاء بالسلامة كان ظاهره من باب اللغو وفضول الحديث لولا ما فيه من فائدة الاكرام (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) اي يؤتون بارزاقهم على مقدار طرفي النهار من الدنيا اذ لا ليل ولا نهار ثم لانهم في النور ابدا وانما يعرفون مقدار النهار برفع الحجب ومقدار الليل بارخائها والرزق بالبكرة والعشي افضل العيش عند العرب فوصف الله جنته بذلك وقيل أراد دوام الرزق كما تقول انا عند فلان بكرة وعشيا تريد الدوام

تعالى احوال الانبياء الذين ذكرهم على هذا الترتيب منبها بذلك على انهم كما شرفوا بالنبوة شرفوا بالنسب ثم قال تعالى (وممن هدينا واجتبينا) اى هؤلاء ممن ارشدنا واصطفينا وقيل ممن هدينا الى الاسلام واجتبينا على الانام (اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا) جمع ساجد (وبكيا) جمع باك اخبر الله تعالى ان الانبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا اذا سمعوا آيات الله سجدوا وبكوا خضوعا وخشوعا وخوفا وحذرا والمراد من الآيات ما خصهم به من الكتب المنزلة عليهم وقيل المراد من الآيات ذكر الجنة والنار والوعد والوعيد وفيه استحباب البكاء وخشوع القلب عند سماع القرآن

(فصل) وسجدة سورة مريم من عزائم سجود القرآن فيسن للقارئ والمستمع ان يسجد عند تلاوة هذه السجدة وقيل يستحب لمن قرأ آية سجدة فسجد ان يدعو بما يناسب تلك السجدة فان قرأ سجدة سبحان قال اللهم اجعلني من الباكين اليك والخاشعين لك وان قرأ سجدة مريم قال اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك وان سجد سجدة الم السجدة قال اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك ان أكون من المستكبرين عن أمرك قوله تعالى (فخلف من بعدهم) أى من بعد النبيين المذكورين (خلف) أى قوم سوء اراد بهم اليهود ومن لحق بهم وتابعهم وقيل هم في هذه الامة (اضاعوا الصلاة) اى تركوا الصلاة المفروضة وقيل اخروها عن وقتها وهو ان لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا العصر حتى تأتي المغرب (واتبعوا الشهوات) اى آثروا شهوات انفسهم على طاعة الله تعالى وقيل اتبعوا المعاصي وشرب الخمور وقيل هؤلاء قوم يظهرون في آخر الزمان ينزو بعضهم على بعض في الاسواق والازقة (فسوف يلقون غيا) قال ابن عباس الغي واد في جهنم وان اودية جهنم لتستعيذ من حره اعد للزاني المصر عليه ولشارب الخمر المدمن له ولآكل الربا الذي لا ينزع عنه ولاهل العقوق ولشاهد الزور وقيل هو واد في جهنم بعيد قعره خبيث طعمه يسيل قيحا ودما وقيل هو واد في جهنم أبعدها قعرا وأشدها حرا فيه بئر تسمى الهيم كلما خبت جهنم فتح الله تلك البئر فتسعر بها جهنم وقيل معنى غيا خسرانا وقيل هلاكا وعذابا وليس معنى يلقون يرون فقط بل معناه الاجتماع والملابسة مع الرؤية قوله تعالى (الا من تاب وآمن وعمل صالحا) يعني الا من تاب من التقصير في الصلوات والمعاصي وآمن من الكفر وعمل صالحا بطاعة الله تعالى (فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا) أي لا ينقصون شيئا ثم وصف الجنة فقال تعالى (جنات عدن) أي بساتين اقامة وصفها بالدوام بخلاف جنات الدنيا فانها لا تدوم (التي وعد الرحمن عباده بالغيب) أي انهم لا يرونها فهي غائبة عنهم وهم غائبون عنها (انه كان وعده مأتيا) أى آتيا وقيل معنى وعده موعوده وهو الجنة مأتيا أي يأتيه أولياء الله وأهل طاعته (لا يسمعون فيها لغوا) أي باطلا وفحشا وهو فضول الكلام (الا سلاما) يعني بل يسمعون فيها سلاما والسلام اسم جامع للخير لانه يتضمن معنى السلامة وذلك ان أهل الجنة لا يسمعون فيها ما يؤلمهم انما يسمعون تسليمهم وقيل هو تسليم بعضهم على بعض وتسليم الملائكة عليهم وقيل هو تسليم الله عليهم (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) قال أهل التفسير ليس في الجنة ليل

(تلك الجنة التي نورث من عبادنا) اى نجعلها ميراث اعمالهم يعني ثمرتها وعاقبتها وقيل يرثون المساكن التي كانت لاهل النار لو آمنوا لان الكفر موت حكما (من كان تقيا) عن الشرك عن ابن عباس رضي الله عنهما ان النبي عليه السلام قال يا جبريل ما منعك ان تزورنا اكثر مما تزورنا فنزل (وما نتنزل الا بامر ربك) والتنزيل على معنيين معنى النزول على مهل ومعنى النزول على الاطلاق والاول اليق هنا يعني ان نزولنا في الاحايين وقتا غب وقت ليس الا بامر الله (له ما بين ايدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا) اى له ما قدامنا وما خلفنا من الاماكن وما نحن فيها فلا نتمالك ان ننتقل من مكان الى مكان الا بامر الملك ومشيئته وهو الحافظ العالم بكل حركة وسكون وما يحدث من الاحوال

لا تجوز عليه الغفلة والنسيان فأنى لنا ان نتقلب في ملكوته الا اذا اذن لنا فيه (رب السموات والارض وما بينهما) بدل من ربك او خبر مبتدا محذوف اى هو رب السموات والارض ثم قال لرسوله لما عرفت انه متصف بهذه الصفات (فاعبده) فاثبت على عبادته (واصطبر لعبادته) اى اصبر على مكافاة الحسود لعبادة المعبود واصبر على المشاق لاجل عبادة الخلاق اى لتتمكن من الاتيان بها (هل تعلم له سميا) شبيها ومثلا او هل يسمى احد باسم الله غيره لانه مخصوص بالمعبود بالحق اى اذا صح ان لا معبود توجه اليه العباد العبادة الا هو وحده لم يكن بد من عبادته والاصطبار على مشاقها فت ابى بن خلف عظما وقال انبعث بعد ما صرنا كذا فنزل (ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا) والعامل في اذا ما دل عليه الكلام وهو ابعث اى اذا ما مت ابعث وانتصابه باخرج ممتنع لان ما بعد لام الابتداء لا يعمل فيما قبلها ولا تقول اليوم لزيد قائم ولام الابتداء الداخلة على المضارع تعطي معنى الحال وتؤكد مضمون الجملة فلما جامعت حرف الاستقبال خلصت للتوكيد واضمحل معنى الحال وما في اذا ما للتوكيد ايضا فكأنه قال احقا انا سنخرج من القبور احياء حين يتمكن فينا الموت والهلاك على وجه الاستنكار والاستبعاد وتقديم الظرف وايلاؤه حرف الانكار من قبل ان ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة ومنه جاء انكارهم (اولا يذكر الانسان) خفيف شامي ونافع وعاصم من الذكر والاستار ٥٥ ث بتشديد الدال والكاف واصله يتذكر كقراءة أبي فادغمت التاء في الدال أي أولا يتدبر والواو عطفت لا يذكر على يقول ووسطت همزة الانكار بين المعطوف عليه وحرف العطف يعني أيقول ذلك ولا يتذكر حال النشأة الاولى حتى لا ينكر النشأة الاخرى فان تلك أدل على قدرة الخالق حيث أخرج الجواهر والاعراض من العدم الى الوجود وأما الثانية فليس فيها الا تأليف الاجزاء الموجودة وردها الى ما كانت عليه مجموعة بعد التفريق (أنا خلقناه من قبل) من قبل الحالة التي هو فيها وهي حالة بقائه (ولم يك شيئا) هو دليل على ما بينا وعلى ان المعدوم ليس بشيء خلافا للمعتزلة (فوربك لنحشرنهم) أي الكفار المنكرين للبعث (والشياطين) الواو للعطف وبمعنى مع أوقع أي يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم يقرن كل كافر مع شيطان في سلسلة وفي اقسام الله باسمه مضافا الى رسوله تفخيم لشأن رسوله

ولا نهار حتى يعرف به البكرة والعشي بل هم في نور أبدا ولكنهم يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار كعادتهم في الدنيا وقيل انهم يعرفون وقت النهار برفع الحجب ووقت الليل بارخاء الحجب وقيل المراد منه رفاهية العيش وسعة الرزق من غير تضييق ولا تقتير وقيل كانت العرب لا تعرف أفضل من الرزق الذي يؤتى به بالبكرة والعشي فوصف الله تعالى الجنة بذلك وقوله تعالى (تلك الجنة التي نورث من عبادنا) أي نعطي وننزل وقيل يورث عباده المؤمنين المساكن التي كانت لأهل النار لو آمنوا (من كان تقيا) أي المتقين من عباده قوله عز وجل (وما نتنزل الا بأمر ربك) (خ) عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يا جبريل ما يمنعك ان تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت وما نتنزل الا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا الآية قال فكان هذا جواب جبريل لمحمد صلى الله عليه وسلم وقيل احتبس جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم حين سأله اليهود عن أمر الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين فقال أخبركم غدا ولم يقل ان شاء الله حتى شق على النبي صلى الله عليه وسلم ثم نزل بعد أيام فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أبطأت علي حتى ساء ظني واشتقت اليك فقال له جبريل واني كنت أشوق اليك ولكني عبد مأمور اذا بعثت نزلت واذا حبست احتبست وأنزل الله تعالى وما نتنزل الا بأمر ربك وأنزل الله تعالى والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وقوله (له ما بين أيدينا وما خلفنا) أي له علم ما بين أيدينا وما خلفنا وقيل أي كذلك بقوله له ما بين أيدينا وما خلفنا أي هو المدبر لنا في كل الاوقات الماضي والمستقبل وقيل معناه له ما بين أيدينا من أمر الآخرة والثواب والعقاب وما خلفنا أي ما مضى من الدنيا (وما بين ذلك) أي من هذا الوقت الى أن تقوم الساعة وقيل ما بين ذلك أي ما بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة وقيل ما بين أيدينا ما بقي من الدنيا وما خلفنا ما مضى منها وما بين ذلك أي مدة حياتنا (وما كان ربك نسيا) أي ناسيا أي ما نسيك ربك وما تركك (رب السموات والارض وما بينهما) أي من يكون كذلك لا يجوز عليه النسيان لانه لا بد ان يدبر أحوالها كلها وفيه دليل على ان فعل العبد خلق الله لانه حاصل بين السموات والارض فكان لله تعالى (فاعبده واصطبر لعبادته) أي اصبر على أمره ونهيه (هل تعلم له سميا) قال ابن عباس مثلا وقيل هل تعلم أحدا يسمى الله غير الله قوله تعالى (ويقول الانسان) أي جنس الانسان والمراد به الكفار الذين أنكروا البعث وقيل هو أبي بن خلف الجمحي وكان منكرا للبعث (أئذا ما مت لسوف أخرج حيا) قاله استهزاء وتكذيبا بالبعث قال الله تعالى (أولا يذكر الانسان) أي يتذكر ويتفكر يعني منكر البعث (انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا) والمعنى أولا يتفكر هذا الجاحد في بدء خلقه فيستدل به على الاعادة قال بعض العلماء لو اجتمع كل الخلائق على ايراد حجة في البعث على هذا الاختصار ما قدروا عليه اذ لا شك ان الاعادة ثانيا أهون من الايجاد أولا ثم اقسم بنفسه فقال تعالى (فوربك) وفيه تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم (لنحشرنهم) أي لنجمعنهم في المعاد يعني المشركين المنكرين للبعث (والشياطين) أي مع الشياطين وذلك انه يحشر كل كافر مع شيطان في سلسلة

(ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) حال جمع جاث أى بارك على الركب ووزنه فعول لان أصله جثوو كسجود وساجد أى يقبلون من المحشر الى شاطئ جهنم عتلا على حالهم التى كانوا عليها فى الموقف جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم (ثم لننزعن من كل شيعة) طائفة شاعت أى تبعت غاويا من الغواة (أيهم أشد على الرحمن عتيا) جراءة أو فجورا أى لنخرجن من كل طائفة من طوائف الغى أعتاهم فأعتاهم فاذا اجتمعوا طرحناهم فى النار على الترتيب نقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم وقيل المراد بأشدهم عتيا الرؤساء لتضاعف جرمهم لكونهم ضلالا ومضلين قال سيبويه أيهم مبنى على الضم لسقوط صدر الجملة التى هى صلته وهو هو من هو أشد حتى لو جىء به لاعرب بالنصب وقيل أيهم هو أشد وهذا لان الصلة توضح الموصول وتبينه كما ان المضاف اليه يوضح المضاف ويخصصه فكما أن حذف المضاف اليه فى من قبل يوجب بناء المضاف وجب أن يكون حذف الصلة أو شئ منها موجبا للبناء وموضعها نصب بننزع وقال الخليل هى معربة وهى مبتدأ وأشد خبره وهو رفع على الحكاية تقديره لننزعن الذين يقال فيهم أيهم أشد على الرحمن عتيا ويجوز أن يكون النزع واقعا على من كل شيعة كقوله ووهبنا لهم من رحمتنا أى لننزعن بعض كل شيعة فكان قائلا قال من هم فقيل أيهم أشد عتيا وعلى يتعلق بأفعل أى عتوهم أشد على الرحمن (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها) أحق بالنار (صليا) تمييز أى دخولا والباء تتعلق بأولى (وان منكم) أحد (الا واردها) داخلها والمراد النار والورود الدخول عند على وابن عباس رضى الله عنهم وعليه جمهور أهل السنة لقوله تعالى فأوردهم النار ولقوله تعالى لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ولقوله ثم ننجى الذين اتقوا اذ النجاة انما تكون بعد الدخول ولقوله عليه السلام الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر الا دخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على ابراهيم وتقول النار للمؤمن جز يا مؤمن فان نورك أطفأ لهبى وقيل الورود بمعنى الدخول لكنه يختص بالكفار لقراءة ابن عباس وان منهم وتحمل القراءة المشهورة على الالتفات وعن عبد الله الورود الحضور لقوله تعالى ولما ورد ماء مدين وقوله أولئك عنها مبعدون وأجيب عنه بأن المراد عن عذابها وعن الحسن وقتادة الورود المرور على الصراط لان الصراط ممدود عليها فيسلم أهل الجنة ويتقاذف أهل النار وعن مجاهد ورود المؤمن النار هو مس الحمى جسده فى الدنيا لقوله عليه السلام الحمى حظ كل مؤمن من النار وقال رجل من الصحابة لآخر أيقنت بالورود قال نعم قال وأيقنت بالصدر قال لا قال ففيم الضحك وفيم التثاقل وان

(ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) قال ابن عباس جماعات وقيل جاثين على الركب لضيق المكان وقيل ان البارك على ركبتيه صورته كصورة الذليل فان قلت هذا المعنى حاصل للكل بدليل قوله تعالى وترى كل أمة جاثية قلت وصفوا بالجثو على العادة المعهودة فى مواقف المقالات والمناقلات وذلك لما فيه من القلق مما يدهمهم من شدة الامور التى لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثوا (ثم لننزعن) أى لنخرجن (من كل شيعة) أى من كل أمة وأهل دين من الكفار (أيهم أشد على الرحمن عتيا) قال ابن عباس يعنى جراءة وقيل فجورا وتمردا وقيل قائدهم ورئيسهم فى الشرك والمعنى انه يقدم فى ادخال النار الاعتى فالاعتى ممن هو أكبر جرما وأشد كفرا وفى بعض الاخبار انهم يحضرون جميعا حول جهنم مسلسلين مغلولين ثم يقدم الاكفر فالاكفر فمن كان أشدهم تمردا فى كفره خص بعذاب أعظم وأشد لان عذاب الضال المضل واجب ان يكون فوق عذاب الضال التابع لغيره فى الضلال وفائدة هذا التمييز التخصيص بشدة العذاب لا التخصيص بأصل العذاب فلذلك قال فى جميعهم (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) ولا يقال أولى الامع اشتراك القوم فى العذاب وقيل معنى الآية انهم أحق بدخول النار قوله عز وجل (وان منكم الا واردها) أى وما منكم الا واردها وقيل القسم فيه مضمر أى والله ما منكم من أحد الا واردها والورود موافاة المكان واختلفوا فى معنى الورود هنا وفيما تنصرف اليه الكناية فى قوله واردها فقال ابن عباس والاكثرون معنى الورود هنا الدخول والكناية راجعة الى النار فيدخلها البر والفاجر ثم ينجى الله الذين اتقوا ومنها ما يدل عليه ما روى ان نافع بن الازرق سأل ابن عباس فى الورود فقال ابن عباس هو الدخول فقال نافع ليس الورود الدخول فقرأ ابن عباس انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون أدخلها هؤلاء أم لا ثم قال يا نافع والله انا وأنت سنردها وانا أرجو ان يخرجنى الله منها وما أرى ان يخرجك منها بتكذيبك فمن قال بدخول المؤمنين النار يقول من غير خوف ولا ضرر ولا عذاب البتة بل مع الغبطة والسرور لان الله تعالى أخبر عنهم انهم لا يحزنهم الفزع الاكبر فان قلت كيف يدفع عن المؤمنين حر النار وعذابها قلت يحتمل ان الله تعالى يخمد النار فتعبرها المؤمنون ويحتمل ان الله تعالى يجعل الاجزاء الملاصقة لابدان الكفار من النار محرقة والاجزاء الملاصقة لابدان المؤمنين تكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت فى حق ابراهيم عليه السلام وكما ان الملائكة الموكلين بها لا يجدون ألمها فان قلت اذا لم يكن على المؤمنين عذاب فما فائدة دخولهم النار قلت فيه وجوه أحدها ان ذلك مما يزيدهم سرورا اذا علموا الخلاص منه وثانيها ان فيه مزيد غم على أهل النار حيث يرون المؤمنين يتخلصون منها وهم باقون فيها وثالثها انهم اذا شاهدوا ذلك العذاب الذى على الكفار صار ذلك سببا لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة وقال قوم ليس المراد من الورود الدخول وقالوا لا يدخل النار مؤمن أبدا لقوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وعلى هذا يكون المراد من الورود الحضور والرؤية لا الدخول كما قال تعالى ولما ورد ماء مدين أراد به الحضور وقال عكرمة الآية فى الكفار فانهم يدخلونها ولا يخرجون منها وروى عن ابن مسعود انه قال وان منكم الا واردها يعنى القيامة والكناية راجعة اليها والقول الاول أصح وعليه أهل السنة فانهم جميعا يدخلون النار ثم يخرج الله منها أهل الايمان بدليل قوله تعالى ثم ننجى الذين اتقوا أى الشرك وهم المؤمنون والنجاة انما تكون مما دخلت فيه يدل عليه ما روى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت لاحد من المؤمنين ثلاثة من الولد فتمسه النار الا تحلة القسم وفى رواية فيلج النار الا تحلة القسم أخرجاه فى الصحيحين أراد بالقسم قوله تعالى

وان منكم الا واردها (م) عن أم مبشر الانصارية انها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة لا يدخل النار ان شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها قالت بلى يارسول الله فانتهرها فقالت حفصة وان منكم الا واردها فقال النبي صلى الله عليه وسلم قد قال الله تعالى ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا وقال خالد بن معدان يقول اهل الجنة ألم يعدنا ربنا ان نرد النار فيقال بلى ولكنكم مررتم بها وهي خامدة وفي الحديث تقول النار للمؤمن جز يا مؤمن فقد اطفأ نورك لهبي وروي عن مجاهد في قوله تعالى وان منكم الا واردها قال من حم من المسلمين فقد وردها وفي الخبر الحمى كير من جهنم وهي حظ المؤمن من النار (ق) عن عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الحمى من فيح جهنم فابردوها بالماء قوله فيح جهنم اي وهجها وحرها وقوله تعالى (كان على ربك حتما مقضيا) اي كان ورودهم جهنم قضاء لازما قضاه الله تعالى عليكم واوجبه (ثم ننجي الذين اتقوا) اي الشرك (ونذر الظالمين فيها جثيا) اي جميعا وقيل جاثين على الركب قالت المعتزلة في الآية دليل على صحة مذهبهم في ان صاحب الكبيرة والفاسق يخلد في النار بدليل ان الله بين ان الكل يردونها ثم بين صفة من ينجو منها وهم المتقون والفاسق لا يكون متقيا فبقي في النار ابدا واجيب عنه بأن المتقي هو الذي يتقي الشرك بقول لا اله الا الله ويشهد لصحة ذلك أن من آمن بالله ورسوله صح ان يقال انه متق من الشرك ومن صدق عليه انه متق من الشرك صح انه متق لان المتقي جزء من المتقي من الشرك ومن صدق عليه المركب صدق عليه المفرد فثبت ان صاحب الكبيرة متق واذا ثبت ذلك وجب ان يخرج من النار بعموم قوله تعالى ثم ننجي الذين اتقوا فصارت الآية التي توهموها دليلا لهم من اقوى الدلائل على فساد قولهم وهذا من حيث البحث واما من حيث النص فقد وردت أحاديث تدل على اخراج المؤمن الموحد من النار (خ) عن انس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يخرج من النار من قال لا اله الا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفي قلبه وزن برة من خير ويخرج من النار من قال لا اله الا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير وفي رواية من ايمان (ق) عن ابي هريرة رضي الله عنه ان الناس قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا يارسول الله قال هل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب قالوا لا يارسول الله قال فانكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة فيقول الله من كان يعبد شيئا فليتبعه فمنهم من يتبع الشمس ومنهم من يتبع القمر ومنهم من يتبع الطواغيت وتبقى هذه الامة فيها منافقوها فيقولون هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فاذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم فيقولون انت ربنا فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ الا الرسل وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان قالوا نعم قال فانها مثل شوك السعدان غير انه لا يعلم قدر عظمها الا الله تعالى تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو حتى اذا أراد الله رحمة من اراد من اهل النار امر الله الملائكة ان يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود وحرم الله على النار ان تأكل اعضاء السجود فيخرجون من النار وقد امتحشوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ثم يفرغ من القضاء بين العباد ويبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر اهل النار دخولا الجنة مقبل بوجهه قبل النار فيقول يارب اصرف وجهي عن النار فقد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها فيقول هل عسيت ان افعل ذلك بك ان تسأل غير ذلك فيقول لا وعزتك فيعطي الله ما شاء من عهد وميثاق فيصرف الله وجهه عن النار فاذا اقبل به على الجنة رأى نكهتها وبهجتها سكت ما شاء الله تعالى ان يسكت ثم يقول يارب قدمني عند باب الجنة فيقول الله أليس قد اعطيت المواثيق والعهود ان لا تسأل غير الذي كنت سألت فيقول يارب لا اكون اشقى خلقك فيقول فما عسيت ان اعطيت

(كان على ربك حتما مقضيا) أي كان ورودهم واجبا كائنا محتوما والحتم مصدر حتم الامر اذا أوجبه فسمي به الموجب كقولهم ضرب الامير (ثم ننجي) وعلي بالتخفيف (الذين اتقوا) عن الشرك وهم المؤمنون (ونذر الظالمين فيها جثيا) فيه دليل على دخول الكل لانه قال ونذرهم ولم يقل وندخل والمذهب ان صاحب الكبيرة قد يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو لا محالة وقالت المرجئة الخبيثة لا يعاقب لان المعصية لا تضر مع الاسلام عندهم وقالت المعتزلة يخلد

ذلك ان لا تسأل غيره فيقول وعزتك لا اسأل غير ذلك فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق فيقدمه الى باب
الجنة فاذا بلغ بابها رأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور فيسكت ما شاء الله ان يسكت فيقول يارب
ادخلني الجنة فيقول الله تبارك وتعالى ويحك يا ابن آدم ما اغدرك أليس قد اعطيت العهد والميثاق
ان لا تسأل غير الذي اعطيت فيقول يارب لا تجعلني اشقى خلقك فيضحك الله عز وجل منه ثم يؤذن له
في دخول الجنة فيقول تمن فيتمنى حتى اذا انقطعت امنيته قال الله تمن كذا وكذا اقبل يذكره ربه حتى اذا
انتهت به الاماني قال الله لك ذلك ومثله معه قال أبو سعيد الخدري لابي هريرة وعشرة امثاله قال أبو هريرة
لم احفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم الا قوله لك ذلك ومثله معه قال أبو سعيد رضي الله تعالى عنه
سمعته يقول لك ذلك وعشرة امثاله وفي رواية للبخاري قال فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفونها
فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فاذا اتانا عرفناه فيأتيهم الله في
الصورة التي يعرفونها فيقول انا ربكم فيقولون انت ربنا فيتبعونه قلت اما ما يتعلق بمعاني الحديث
والكلام على الرؤية فسيأتي في تفسير سورة ن والقيامة ونتكلم هاهنا على شرح غريب الفاظه
قوله مثل شوك السعدان هو نبت ذو شوك معقف وهو من اجود مراعي الابل وقوله فمنهم من يوبق
بعمله يقال او بقته الذنوب اى اهلكته والمخردل المرمي المصروع وقيل هو المقطع والمعنى انه تقطعه
كلاليب الصراط حتى يقع في النار قوله وقد امتحشوا اى احترقوا وقيل هو ان تذهب النار الجلد
وتبدي العظم قوله كما تنبت الحبة في حميل السيل الحبة بكسر الحاء وهي البزورات جميعا وحميل
السيل هو الزبد وما يلقيه الماء على شاطئه قوله قشبني ريحها أي آذاني والقشب السم فكأنه قال
قد سمني ريحها قوله واحرقني ذكاؤها اى اشتعالها ولهبها قوله رأى زهرتها الزهرة الحسن والنضارة
والبهجة (ق) عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اني لاعلم آخر اهل النار خروجا منها
وآخر اهل الجنة دخولا الجنة رجل يخرج من النار حبوا فيقول الله له اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل
اليه انها ملأى فيرجع فيقول يارب وجدتها ملأى فيقول الله له اذهب فادخل الجنة فان لك مثل
الدنيا وعشرة امثالها او ان لك مثل عشرة أمثال الدنيا فيقول اتسخر بي وانت الملك فلقد رأيت
رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه وكان يقال ذلك ادنى اهل الجنة منزلة
قوله حتى بدت نواجذه اى اضراسه وانيابه وقيل هي آخر الاسنان عن جابر قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم يعذب ناس من اهل التوحيد في النار حتى يكونوا حمما ثم تدركهم الرحمة قال فيخرجون
فيطرحون على ابواب الجنة قال فيرش عليهم اهل الجنة من الماء فينبتون كما تنبت الحبة في حمالة السيل
أخرجه الترمذي الحمم الفحم والحمالة كل ما حمله السيل فدلت الآية الاولى على ان الكل دخلوا النار
ودلت الآية الثانية والاحاديث ان الله أخرج منها المتقين وجميع الموحدين وترك فيها الظالمين وهم
المشركون قوله تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) اى دلائل واضحات (قال الذين كفروا) يعني
النضر بن الحارث ومن دونه من كفار قريش (للذين آمنوا) يعني فقراء اصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم وكانت فيهم قشافة وفي عيشهم خشونة وفي ثيابهم رثاثة وكان المشركون يرجلون شعورهم ويدهنون
رؤسهم ويلبسون افخر ثيابهم (أي الفريقين خير مقاما) اى منزلا ومسكنا وهو موضع الاقامة
(وأحسن نديا) اى مجلسا فأجابهم الله تعالى بقوله (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا)
اى متاعا واموالا وقيل احسن ثيابا ولباسا (ورئيا) اى منظرا من الرؤية (قل من كان في الضلالة
فليمدد له الرحمن مدا) هذا امر بمعنى الخبر معناه يدعه في طغيانه ويمهله في كفره (حتى اذا رأوا ما يوعدون
اما العذاب) اى الاسر والقتل في الدنيا (واما الساعة) يعني القيامة فيدخلون النار (فسيعلمون)
اى عند ذلك (من هو شر مكانا) اى منزلا (وأضعف جندا) اى اقل ناصرا والمعنى فسيعلمون

(واذا تتلى عليهم آياتنا) أي القرآن (بينات) ظاهرات الاعجاز أو حججا وبراهين حال مؤكدة كقوله وهو الحق مصدقا فاذا آيات الله لا تكون
الا واضحة وحججا (قال الذين كفروا) اى
مشركو قريش وقد رجلوا شعورهم وتكلفوا
في زيهم (للذين آمنوا) للفقراء ورؤسهم شعثة
وثيابهم خشنة (أي الفريقين) نحن ام انتم (خير
مقاما) بالفتح وهو موضع القيام والمراد المكان
والمسكن وبالضم مكي وهو موضع الاقامة
والمنزل (وأحسن نديا) مجلسا يجتمع القوم فيه
للمشاورة ومعنى الآية ان الله تعالى يقول اذا
انزلنا آية فيها دلائل وبراهين اعرضوا عن
التدبر فيها الى الافتخار بالثروة والمال وحسن
المنزل والحال فقال تعالى (وكم اهلكنا قبلهم من
قرن) فكم مفعول أهلكنا ومن تبيين لابهامها
اى كثيرا من القرون اهلكنا وكل اهل عصر قرن
لمن بعدهم (هم احسن) في محل النصب صفة
لكم الا ترى انك لو تركت هم كان احسن نصبا
على الوصفية (اثاثا) هو متاع البيت او ما جد
من الفرش (ورئيا) منظرا وهيئة فعل بمعنى
مفعول من رأيت وريا بغير همز مشددا نافع وابن
عامر على قلب الهمزة ياء لسكونها وانكسار
ما قبلها ثم الادغام او من الري الذي هو النعمة
(قل من كان في الضلالة) الكفر (فليمدد له
الرحمن مدا) جواب من لانها شرطية وهذا الامر
بمعنى الخبر اى من كفر مد له الرحمن يعني امهله
واملى له في العمر ليزداد طغيانا وضلالا كقوله
تعالى انما نملي لهم ليزدادوا اثما وانما اخرج على لفظ
الامر ايذانا بوجوب ذلك وانه مفعول لا محالة
كالمأمور به الممتثل ليقطع معاذير الضلال (حتى
اذا رأوا ما يوعدون) هي متصلة بقوله خير مقاما
وأحسن نديا وما بينهما اعتراض اى لا يزالون
يقولون هذا القول الى ان يشاهدوا الموعود
رأي عين (اما العذاب) في الدنيا وهو تعذيب
المسلمين اياهم بالقتل والاسر (واما الساعة)
اى القيامة وما ينالهم من الخزي والنكال فهما
بدلان مما يوعدون (فسيعلمون من هو شر مكانا)
منزلا (واضعف جندا) اعوانا وانصارا اى
فحينئذ يعلمون ان الامر على عكس ما قدروه وانهم
شر مكانا واضعف جندا لا خير مقاما واحسن نديا
وان المؤمنين على خلاف صفتهم وجاز ان تتصل بما يليها والمعنى ان الذين في الضلالة ممدود لهم في ضلالتهم لا ينفكون عن ضلالتهم الى ان أهم
يعاينوا نصرة الله المؤمنين او يشاهدوا الساعة وحتى هي التي يحكى بعدها الجمل الا ترى ان الجملة الشرطية واقعة بعدها وهي قوله اذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون

(ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) معطوف على موضع فليمدد لوقوعه موقع الخبر تقديره من كان في الضلالة مدّ او يمدّ له الرحمن ويزيد اى يزيد في ضلال الضال بخذلانه و يزيد المهتدين اى المؤمنين هدى ثباتا على الاهتداء أو يقينا و بصيرة بتوفيقه (والباقيات الصالحات) أعمال الآخرة كلها او الصلوات الخمس أو سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر (خير عند ربك ثوابا) مما يفتخر به الكفار (وخير مردا) أي مرجعا وعاقبة تهكم بالكفار لانهم قالوا للمؤمنين أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا (أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا و ولدا) ثم و بضم الواو وسكون اللام في أربعة مواضع ههنا و في الزخرف ونوح حمزة وعلى جمع ولد كأسد في أسد او بمعنى الولد كالعرب في العرب ولما كانت رؤية الاشياء طريقا الى العلم بها وصحة الخبر عنها استعملوا أرأيت في معنى أخبر والفاء أفادت التعقيب كأنه قال أخبر أيضا بقصة هذا الكافر واذكر حديثه عقب حديث أولئك

وقوله لأوتين جواب قسم مضمر (أطلع الغيب) من قولهم اطلع الجبل اذا ارتقى الى أعلاه الهمزة للاستفهام وهمزة الوصل محذوفة أى أنظر في اللوح المحفوظ فرأى منيته (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) موثقا أن يؤتيه ذلك أو العهد كلمة الشهادة وعن الحسن نزلت في الوليد ابن المغيرة والمشهور انها في العاص بن وائل فقد روى ان خباب بن الارت صاغ للعاص بن وائل حليا فاقتضاه الاجر فقال انكم تزعمون انكم تبعثون وان في الجنة ذهبا وفضة فانا أقضيك ثم فاني أوتى مالا و ولدا حينئذ (كلا) ردع وتنبيه على الخطأ وهو مخطئ فيما تصوره لنفسه فليرتدع عنه (سنكتب ما يقول) اى قوله والمراد سنظهر له ونعلمه انا كتبنا قوله لانه كما قال كتب من غير تأخير قال الله تعالى ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد وهو كقوله

* اذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة *

أي علم وتبين بالانتساب انى لست بابن لئيمة (ونمد له من العذاب) نزيده من العذاب كما يزيد في الافتراء والاجتراء من المدد يقال مده وامده بمعنى (مدا) أكد بالمصدر لفرط غضبه تعالى (ونرثه ما يقول) أى نزوى عنه ما زعم انه يناله في الآخرة والمعنى مسمى ما يقول وهو المال والولد (ويأتينا فردا) حال أي بلا مال ولا

٥٦ ث

ولد كقوله ولقد جئتمونا فرادى فما يجدى عليه تمنيه وتأليه (واتخذوا من دون الله آلهة) أي اتخذ هؤلاء المشركون أصناما يعبدونها (ليكونوا لهم عزا) أى ليعتزوا بآلهتهم ويكونوا لهم شفعاء وأنصارا ينقذونهم من العذاب (كلا) ردع لهم عما ظنوا (سيكفرون بعبادتهم) الضمير للآلهة أي سيجحدون عبادتهم وينكرونها ويقولون والله ما عبدتمونا وأنتم كاذبون أو للمشركين أي ينكرون أن يكونوا قد عبدوها كقوله والله ربنا ما كنا مشركين (ويكونون) أي المعبودون (عليهم) على المشركين (ضدا) خصما لأن الله تعالى ينطقهم فتقول يا رب عذب هؤلاء الذين عبدونا من دونك والضد يقع على الواحد والجمع وهو في مقابلة لهم عزا والمراد ضد العز وهو الذل والهوان أي يكونون عليهم ضد ما قصدوه أي يكونون عليهم لا لهم عزا وان رجع الضمير في سيكفرون ويكونون الى المشركين فالمعنى ويكونون عليهم أي أعداؤهم ضدا أي كفرة بهم بعد ان كانوا يعبدونها ثم تعجب نبيه عليه السلام بقوله (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين) اى خليناهم واياهم من أرسلت البعير أطلقته أو سلطناهم عليهم بالاغواء (تؤزهم أزا) تغريهم على المعاصي اغراء والأز والهز أخوان ومعناهما التهييج وشدة الازعاج (فلا تعجل عليهم) بالعذاب (انما نعد لهم عدا) أي أعمالهم للجزاء وأنفاسهم للفناء وقرأها ابن السماك عند المأمون فقال اذا كانت الانفاس بالعدد ولم يكن لها مدد فما أسرع ما تنفد

اهم خير وهم في النار المؤمنون وهم في الجنة وهذا رد عليهم في قولهم اى الفريقين خير مقاما واحسن نديا قوله عز وجل (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) اى ايمانا وايقانا على يقينهم (والباقيات الصالحات) اى الاذكار والاعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها (خير عند ربك ثوابا وخير مردا) اى عاقبة ومرجعا قوله تعالى (أفرأيت الذي كفر بآياتنا) الآية (ق) عن خباب بن الارت ان رجلا من الازد قال كنت رجلا قينا في الجاهلية وكان لي على العاص بن وائل السهمي دين فأتيته اتقاضاه وفي رواية فعملت للعاص بن وائل سيفا فجئته اتقاضاه فقال لا اعطيك حتى تكفر بمحمد فقلت لا اكفر حتى يميتك الله ثم تبعث قال واني لميت ثم مبعوث قلت بلى قال دعني حتى أموت وابعث فسأوتى مالا وولدا فأقضيك فنزلت افرأيت الذي كفر بآياتنا (وقال لأوتين مالا وولدا) الى قوله ويأتينا فردا فرد الله عليه بقوله (أطلع الغيب) قال ابن عباس معناه أنظر في اللوح المحفوظ وقيل أعلم علم الغيب حتى يعلم اهو في الجنة ام لا (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) يعني قال لا اله الا الله محمد رسول الله وقيل يعني عمل عملا صالحا قدمه وقيل عهد اليه انه يدخله الجنة (كلا) رد عليه يعني لم يفعل ذلك (سنكتب ما يقول) اى سنحفظ عليه ما يقول فنجازيه به في الآخرة وقيل يأمر الملائكة حتى يكتبوا ما يقول (ونمد له من العذاب مدا) اى نزيده عذابا فوق العذاب وقيل نطيل مدة عذابه (ونرثه ما يقول) معناه اى ما عنده من المال والولد باهلاكنا اياه وابطال ملكه وقيل نزول عنه ما عنده من مال وولد فيعود الارث الى من خلفه واذا سلب ذلك بقي فردا فذلك قوله (ويأتينا) يعني يوم القيامة (فردا) بلا مال ولا ولد فلا يصح ان يبعث في الآخرة بمال وولد قوله تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة) يعني مشركي قريش اتخذوا الاصنام آلهة يعبدونها (ليكونوا لهم عزا) اى منعة يعني يكونوا شفعاء يمنعونهم من العذاب (كلا) اى ليس الامر كما زعموا (سيكفرون بعبادتهم) يعني تجحد الاصنام والآلهة التي كانوا يعبدونها عبادة المشركين ويتبرؤن منهم (ويكونون عليهم ضدا) اى اعوانا عليهم يكذبونهم ويلعنونهم وقيل اعداء لهم وكانوا اولياءهم في الدنيا قوله عز وجل (ألم تر انا أرسلنا الشياطين على الكافرين) اى سلطناهم عليهم (تؤزهم أزا) اى تزعجهم ازعاجا من الطاعات الى المعصية والمعنى تحثهم وتحرضهم على المعاصي تحريضا شديدا وفي الآية دليل على ان الله مدبر لجميع الكائنات (فلا تعجل عليهم) اى لا تعجل بطلب عقوبتهم (انما نعد لهم عدا) يعني الليالي والايام والشهور والاعوام وقيل الانفاس التي يتنفسونها في الدنيا الى الاجل

(يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا) ركبانا على نوق رحالها ذهب وعلى نجائب سروجها ياقوت (ونسوق المجرمين) الكافرين سوق الانعام لانهم كانوا أضل من الانعام (الى جهنم وردا) عطاشا لان من يرد الماء لا يرده الا لعطش وحقيقة الورد المسير الى الماء فيسمى به الواردون فالوفد جمع وافد كركب وراكب والورد جمع وارد ونصب يوم بمضمر أى يوم نحشر ونسوق نفعل بالفريقين ما لا يوصف أى اذكر يوم نحشر ذكر المتقون بأنهم يجمعون الى ربهم الذى غمرهم برحمته كما يفد الوفود على الملوك تبجيلا لهم والكافرون بأنهم مساقون الى النار كأنهم نعم عطاش يساقون الى الماء استخفافا بهم (لا يملكون الشفاعة) حال والواو ان جعل ضميرا فهو للعباد ودل عليه ذكر المتقين والمجرمين لانهم على هذه القسمة ويجوز أن يكون علامة للجمع كالتى فى أكلونى البراغيث والفاعل من اتخذ لانه فى معنى الجمع ومحل من اتخذ رفع على البدل من واو يملكون أو على الفاعلية أو نصب على تقدير حذف المضاف أى الا شفاعة من اتخذ والمراد لا يملكون أن يشفع لهم (الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) بان آمن فى الحديث من قال لا اله الا الله كان له عند الله عهد وعن ابن مسعود رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه ذات يوم أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا قالوا وكيف ذلك قال يقول كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انى أعهد اليك بأنى أشهد أن لا اله الا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك وانك ان تكلنى الى نفسى تقربنى من الشر وتباعدنى من الخير وانى لا أثق الا برحمتك فاجعل لى عهدا توفينيه يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد فاذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش فاذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين كان لهم عند الله عهد فيدخلون الجنة أو يكون من عهد الامير الى فلان بكذا اذا أمره به أى لا يشفع الا المأمور بالشفاعة المأذون له فيها (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) أى النصارى واليهود ومن زعم أن الملائكة بنات الله (لقد جئتم شيئا إدّا) خاطبهم بهذا الكلام بعد الغيبة وهو التفات أو أمر نبيه عليه السلام بأنه يقول لهم ذلك والاد العجب او العظيم المنكر والادة الشدة وأدنى الامر اثقلنى وعظم علىّ ادّا (تكاد السموات) تقرب وبالياء نافع وعلى (يتفطرن) وبالنون بصرى وشامى وحمزة وخلف وابو بكر الانفطار من فطره اذا شقه والتفطر من فطره اذا شققه (منه) من عظم هذا القول (وتنشق الارض) تخسف وتنفصل اجزاؤها (وتخر الجبال) تسقط (هدّا) كسرا وقطعا او هدما والهدة صوت الصاعقة من السماء وهو مصدر اى تهد هدا من سماع قولهم او مفعول له او حال اى مهدودة (ان دعوا) لان سموا ومحله جر بدل من الهاء فى منه او نصب مفعول له على الخرور بالهد والهد بدعاء الولد للرحمن او رفع فاعل هدّا أى هدها دعاؤهم (للرحمن ولدا وما ينبغى للرحمن ان يتخذ ولدا) انبغى مطاوع بغى اذا طلب اى ما يتأتى له اتخاذ الولد وما يتطلب لو طلب مثلا لانه محال غير داخل تحت الصحة وهذا لان اتخاذ الولد لحاجة ومجانسة وهو منزه عنهما وفى اختصاص الرحمن وتكريره كرات بيان انه الرحمن وحده لا يستحق هذا الاسم غيره لان اصول النعم وفروعها منه فلينكشف عن بصرك غطاؤه فأنت وجميع ما عندك عطاؤه فمن اضاف اليه ولدا فقد جعله كبعض خلقه واخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن (ان كل من) نكرة موصوفة صفتها (فى السموات

الذى اجل لهم بعذابهم قوله تعالى (يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا) اى اذكر لهم يا محمد اليوم الذى يجتمع فيه من اتقى الله فى الدنيا بطاعته الى جنته وفدا اى جماعات قال ابن عباس ركبانا قال ابو هريرة على الابل وقال على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه ما يحشرون والله على ارجلهم ولكن على نوق رحالها من الذهب ونجائب سروجها يواقيت ان هموا بها سارت وان هموا بها طارت (ونسوق المجرمين) اى الكافرين (الى جهنم وردا) اى مشاة عطاشا قد تقطعت اعناقهم من العطش والورد جماعة يردون الماء ولا يرد احد الا بعد العطش وقيل يساقون الى النار باهانة واستخفاف كأنهم نعم عطاش تساق الى الماء (ق) عن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير واربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر معهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث اصبحوا وتمسى معهم حيث امسوا قوله تقيل معهم حيث قالوا من القيلولة وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة اصناف صنفا مشاة وصنفا ركبانا وصنفا على وجوههم قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال الذى امشاهم على اقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم اما انهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك اخرجه الترمذى قوله عز وجل (لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا) يعنى لا اله الا الله وقيل لا يشفع الشافعون الا للمؤمنين وقيل لا يشفع الا لمن قال لا اله الا الله اى لا يشفع الا للمؤمن (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) يعنى اليهود والنصارى ومن زعم ان الملائكة بنات الله من العرب (لقد جئتم شيئا إدّا) قال ابن عباس منكرا وقيل معناه لقد قلتم قولا عظيما (تكاد السموات يتفطرن منه) من الانفطار وهو الشق (وتنشق الارض) اى تخسف بهم (وتخر الجبال هدّا) اى تسقط وتنطبق عليهم (أن دعوا) اى من اجل ان جعلوا (للرحمن ولدا) فان قلت ما معنى انفطار السموات وانشقاق الارض وخرور الجبال ومن اين تؤثر هذه الكلمة فى هذه الجمادات قلت فيه وجهان أحدهما ان الله تعالى يقول كدت ان افعل هذا بالسموات والارض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا منى على من تفوه بها لولا حلمى وانى لا اعجل بالعقوبة الثانى ان يكون استعظاما للكلمة وتهويلا من فظاعتها وتصويرا لاثرها فى الدين وهدمها لاركانه وقواعده قال ابن عباس فزعت السموات والارض والجبال وجميع الخلائق الا الثقلين وكادت ان تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا اتخذ الله ولدا ثم نزه الله نفسه عن اتخاذ الولد ونفاه عنه فقال تعالى (وما ينبغى للرحمن ان يتخذ ولدا) اى ما يليق به اتخاذ الولد ولا يوصف به لان الولد لا بد ان يكون شبيها بالوالد ولا شبيه لله تعالى ولان اتخاذ الولد انما يكون لاغراض لا تصح فى الله تعالى من سروره به واستعانة وذكر جميل بعده وكل ذلك لا يليق بالله تعالى (ان كل من فى السموات

والارض الا آتى الرحمن عبدا) اى آتيه يوم القيامة عبدا ذليلا خاضعا والمعنى ان الخلائق كلهم عبيده (لقد أحصاهم وعدهم عدا) اى عدّ انفاسهم وايامهم وآثارهم فلا يخفى عليه شئ من امورهم وكلهم تحت تدبيره وقهره وقدرته (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) اى وحيدا ليس معه من احوال الدنيا شئ قوله عز وجل (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) اى محبة قيل يحبهم الله ويحببهم الى عباده المؤمنين (ق) عن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا احب الله سبحانه وتعالى عبدا دعا جبريل عليه السلام ان الله تعالى يحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل فينادى جبريل فى اهل السماء ان الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الارض وفى رواية لمسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالى اذا احب عبدا دعا جبريل فقال انى احب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى السماء فيقول ان الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه اهل السماء ثم يوضع له القبول فى الارض واذا ابغض الله عبدا دعا جبريل عليه السلام فيقول انى ابغض فلانا فابغضه فيبغضه جبريل ثم ينادى فى اهل السماء ان الله يبغض فلانا فابغضوه ثم يوضع له البغضاء فى الارض قال هرم ما اقبل عبد بقلبه الى الله عز وجل الا اقبل الله بقلوب المؤمنين اليه حتى يرزقه مودتهم وقال كعب مكتوب فى التوراة لا محبة لاحد فى الارض حتى يكون ابتداؤها من الله عز وجل ينزلها على أهل السماء ثم على اهل الارض وتصديق ذلك فى القرآن سيجعل لهم الرحمن ودا قوله تعالى (فانما يسرناه) اى سهلنا القرآن (بلسانك) يا محمد (لتبشر به المتقين) يعنى المؤمنين (وتنذر به) اى بالقرآن (قوما لدا) اى شدادا فى الخصومة وقيل صماء عن الحق وقيل الالد الظالم الذى لا يستقيم ولا يقبل الحق ويدعى الباطل (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) ختم الله هذه السورة بموعظة بليغة لانهم اذا علموا وأيقنوا انه لابد من زوال الدنيا بالموت خافوا ذلك وخافوا سوء العاقبة فى الآخرة فكانوا الى الحذر من المعاصى اقرب ثم اكد ذلك فقال تعالى (هل تحس منهم) اى هل ترى وقيل هل تجد منهم اى من القرون (من أحد أو تسمع لهم ركزا) اى صوتا خفيا قال الحسن بادوا جميعا فلم يبق منهم عين ولا اثر والله أعلم بمراده واسرار كتابه

(تفسير سورة طه)

وهى مكية وهى مائة واربعة وقيل خمس وثلاثون آية وألف وستمائة واحدى واربعون كلمة وخمسة آلاف ومائتان واثنان واربعون حرفا

عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اعطيت السورة التى فيها البقرة من الذكر الاول واعطيت طه والطواسين من الواح موسى واعطيت فواتح القرآن وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش واعطيت المفصل نافلة النافلة الزائدة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (طه) قيل هو قسم اقسم الله بطوله وهدايته وقيل هو من اسماء الله فالطاء افتتاح اسمه طاهر والهاء افتتاح اسمه هادى وقيل معناه يا رجل والمراد به النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك بالنسان وقيل هو بالسريانية وقيل بالقبطية فعلى هذا يكون قد وافقت لغة العرب هذه اللغات فى هذه الكلمة وقيل هو بلسان عك وعك قبيلة من قبائل العرب وقيل معناه طأ الارض بقدميك يريد فى التهجد وذلك لما نزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة اجتهد فى العبادة حتى كان يراوح بين قدميه فى الصلاة لطول قيامه وكان يصلى الليل كله فأنزل الله تعالى هذه الآية وامره ان يخفف على نفسه فقال طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى وقيل لما رأى المشركون اجتهاده فى العبادة

والارض) وخبر كل (الا آتى الرحمن) ووحد آتى وآتيه حملا على لفظ كل وهو اسم فاعل من اتى وهو مستقبل اى يأتيه (عبدا) حال اى خاضعا ذليلا منقادا والمعنى ما كل من فى السموات والارض من الملائكة والناس الا هو يأتى الله يوم القيامة مقرا بالعبودية والعبودية والبنوة تتنافيان حتى لو ملك الاب ابنه يعتق عليه ونسبة الجميع اليه نسبة العبد الى المولى فكيف يكون البعض ولدا والبعض عبدا وقرأ ابن مسعود آت الرحمن على أصله قبل الاضافة (لقد أحصاهم وعدهم عدا) أى حصرهم بعلمه وأحاط بهم (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) أى كل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفردا بلا مال ولا ولد أو بلا معين ولا ناصر (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) مودة فى قلوب العباد قال الربيع يحبهم ويحببهم الى الناس وفى الحديث يعطى المؤمن مقة فى قلوب الابرار ومهابة فى قلوب الفجار وعن قتادة وهرم ما أقبل العبد الى الله الا أقبل الله بقلوب العباد اليه وعن كعب ما يستقر لعبد ثناء فى الارض حتى يستقر له فى السماء (فانما يسرناه) سهلنا القرآن (بلسانك) بلغتك حال (لتبشر به المتقين) المؤمنين (وتنذر به قوما لدا) شدادا فى الخصومة بالباطل أى الذين يأخذون فى كل لديد أى شق من المراء والجدال جمع الالد يريد به أهل مكة (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) تخويف لهم وانذار (هل تحس منهم من أحد) أى هل تجد وترى أو تعلم والاحساس الادراك بالحاسة (أو تسمع لهم ركزا) صوتا خفيا ومنه الركاز أى لما أتاهم عذابنا لم يبق شخص يرى ولا صوت يسمع يعنى هلكوا كلهم فكذا هؤلاء ان اعرضوا عن تدبر ما أنزل عليك فعاقبتهم الهلاك فليهن عليك أمرهم والله أعلم

(سورة طه صلى الله عليه وسلم مكية وهى مائة وخمس وثلاثون آية كوفى)

بسم الله الرحمن الرحيم

(طه) فخم الطاء لاستعلائها وأمال الهاء أبو عمرو وأمالهما حمزة وعلى وخلف وأبو بكر وتفخيمهما على الاصل غيرهم وما روى عن مجاهد والحسن والضحاك وعطاء وغيرهم ان معناه يا رجل فان صح فظاهر والا فالحق ما هو المذكور فى سورة البقرة

(ما أنزلنا عليك القرآن) ان جعلت طه تعديدا الاسماء الحروف فهو ابتداء كلام وان جعلتها اسما للسورة احتملت أن تكون خبرا عنها وهي في موضع المبتدا والقرآن ظاهرا وقع موقع المضمر لانها قرآن وان يكون جوابا لها وهي قسم (لتشقى) لتتعب لفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم وتحسرك على أن يؤمنوا أو بقيام الليل وانه روى أنه عليه السلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل أبق على نفسك فان لها عليك حقا أي ما أنزلناه لتنهك نفسك بالعبادة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة (الا تذكرة) استثناء منقطع أي لكن أنزلناه تذكرة أو حال (لمن يخشى) لمن خاف الله أو لمن يؤل أمره الى الخشية (تنزيلا) بدل من تذكرة اذا جعل حالا ويجوز أن ينتصب بنزل مضمرا أو على المدح أو بيخشى مفعولا به أي أنزله الله تذكرة لمن يخشى تنزيل الله (ممن خلق الارض والسموات) من يتعلق بتنزيلا صلة له (العلى) جمع العليا تأنيث الاعلى ووصف السموات بالعلى دليل ظاهر على عظم قدرة خالقها (الرحمن) رفع على المدح أي هو الرحمن (على العرش) خبر مبتدا محذوف (استوى) استولى عن الزجاج وبه يذكر العرش وهو أعظم المخلوقات على غيره وقيل لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا استوى فلان على العرش أي ملك وان لم يقعد على السرير البتة وهذا كقولك يد فلان مبسوطة أي جواد وان لم يكن له يد رأسا والمذهب قول علي رضي الله عنه الاستواء غير مجهول والتكييف غير معقول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة لانه تعالى كان ولا مكان فهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان (له ما في السموات وما في الارض) خبر ومبتدأ ومعطوف (وما بينهما) أي ذلك كله ملكه (وما تحت الثرى) ما تحت سبع الارضين أو هو الصخرة التي تحت الارض السابعة (وان تجهر بالقول) ترفع صوتك (فانه يعلم السر) ما أسررته الى غيرك (وأخفى) منه وهو ما أخطرته ببالك أو ما أسررته في نفسك وما ستسره فيها (الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى) أي هو واحد بذاته وان افترقت عبارات صفاته رد لقولهم انك تدعو آلهة حين سمعوا أسماءه تعالى والحسنى تأنيث الاحسن (وهل) أي وقد (أتاك حديث موسى) خبره قفاه بقصة موسى عليه السلام ليتأسى به في تحمل أعباء النبوة بالصبر على المكاره ولينال الدرجة العليا كما نالها موسى (اذ رأى) ظرف لمضمر أي حين رأى (نارا) كان كيت وكيت أو مفعول به لاذكر روي ان موسى عليه السلام استأذن شعيبا في الخروج الى امه وخرج بأهله فولد له ابن في الطريق في ليلة مظلمة مثلجة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولا ماء عنده وقدح فصلد زنده فرأى عند ذلك نارا في زعمه وكان نورا (فقال لاهله امكثوا) أقيموا في مكانكم (اني آنست) أبصرت (نارا) والايناس رؤية شيء يؤنس به (لعلي آتيكم منها) بني الامر على الرجاء لئلا يعد ما ليس يستيقن الوفاء به (بقبس) نار مقتبس في رأس عود أو فتيلة (أو أجد على النار هدى) ذوي هدى أو قوما يهدوني الطريق ومعنى الاستعلاء في على النار ان أهل النار يستعلون المكان القريب منها

قالوا ما انزل عليك القرآن يا محمد الا لشقائك فنزلت (ما انزلنا عليك القرآن لتشقى) اى لتتعنى وتتعب (الا تذكرة لمن يخشى) اى لكن أنزلناه عظة لمن يخشى وانما خص من يخشى بالتذكرة لانهم هم المنتفعون بها (تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى) اى من الله الذى خلق الارض والسموات العلية الرفيعة التى لا يقدر على خلقها فى عظمها وعلوها الا الله تعالى (الرحمن على العرش استوى) تقدم الكلام عليه فى سورة الاعراف مستوفى (له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما) يعنى الهواء (وما تحت الثرى) اى انه مالك لجميع ما فى الاربعة الاقسام والثرى هو التراب الندى وقيل معناه ما وارى الثرى من شئ وقال ابن عباس ان الارضين على ظهر النون والنون على بحر ورأسه وذنبه يلتقيان تحت العرش والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها وهى الصخرة التى ذكرها الله تعالى فى قصة لقمان والصخرة على قرن ثور والثور على الثرى ولا يعلم ما تحت ذلك الثرى الا الله تعالى وذلك الثور فاتح فاه اذا جعل الله البحار بحرا واحدا سالت فى جوف ذلك الثور فاذا وقعت فى جوفه يبست قوله تعالى (وان تجهر بالقول) اى تعلن به (فانه يعلم السر واخفى) قال ابن عباس السر ما تسر فى نفسك واخفى من السر ما يلقيه الله فى قلبك من بعد ولا تعلم انك ستحدث به نفسك لانك لا تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غدا والله يعلم ما اسررت به اليوم وما تسر به غدا وعنه ان السر ما اسر به ابن آدم فى نفسه واخفى ما هو فاعله قبل ان يعلمه وقيل السر ما اسره الرجل الى غيره واخفى من ذلك ما اسره فى نفسه وقيل السر هو العمل الذى يسر من الناس واخفى هو الوسوسة وقيل السر ان يعلم الله تعالى اسرار العباد واخفى هو سره من عباده فلا يعلم احد سره وقيل مقصود الآية زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت او باطنة والترغيب فى الطاعات ظاهرة كانت او باطنة فعلى هذا الوجه ينبغى ان يحمل السر والاخفاء على ما فيه ثواب اوعقاب فالسر هو الذى يسره المرء فى نفسه من الامور التى عزم عليها والاخفاء هو الذى لم يبلغ حد العزيمة ثم وحد نفسه فقال تعالى (الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى) تأنيث الاحسن والذى فضلت به اسماؤه فى الحسن دون سائر الاسماء دلالتها على معنى التقديس والتحميد والتعظيم والربوبية والافعال التى هى النهاية فى الحسن قوله عز وجل (وهل اتاك حديث موسى) اى وقد اتاك لما قدم ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قفاه بقصة موسى عليه الصلاة والسلام ليتأسى به فى تحمل اعباء النبوة وتكاليف الرسالة والصبر على مقاساة الشدائد حتى ينال عند الله الفوز والمقام المحمود (اذ رأى نارا) وذلك ان موسى استأذن شعيبا فى الرجوع من مدين الى مصر ليزور والدته واخاه فأذن له فخرج بأهله وماله وكانت ايام الشتاء فأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته حامل فى شهرها لا يدرى أليلا تضع ام نهارا فسار فى البرية غير عارف بطرقها فألجأه المسير الى جانب الطور الغربى الايمن وذلك فى ليلة مظلمة مثلجة شاتية شديدة البرد لما اراد الله من كرامته فأخذ امرأته الطلق فأخذ زنده فجعل يقدح فلا يورى فأبصر نارا من بعيد عن يسار الطريق من جانب الطور (فقال لاهله امكثوا) اى اقيموا (انى آنست نارا) اى ابصرت نارا (لعلى آتيكم منها بقبس) اى شعلة من نار فى طرف عود (أو أجد على النار هدى)

(فلما أتاها) أى النار وجد نارا بيضاء تتوقد فى شجرة خضراء من أسفلها الى أعلاها وكانت شجرة العناب أو العوسج ولم يجد عندها أحدا وروى انه كلما طلبها بعدت عنه واذا تركها قربت منه فثم (نودى) موسى (ياموسى انى) بكسر الهمزة أى نودى فقيل ياموسى انى أو لان النداء ضرب من القول فعومل معاملته وبالفتح مكى وأبو عمرو أى نودى بأنى (أنا ربك) انا مبتدأ أو تأكيد أو فصل وكرر الضمير لتحقيق المعرفة واماطة الشبهة روى انه لما نودى ياموسى قال من المتكلم فقال الله عز وجل أنا ربك فعرف انه كلام الله عز وجل بأنه سمعه من جميع جهاته الست وسمعه بجميع أعضائه (فاخلع نعليك) انزعهما لتصيب قدميك بركة الوادى المقدس أو لانها كانت من جلد حمار ميت غير مدبوغ أو لان الحفوة تواضع لله ومن ثم طاف السلف بالكعبة حافين والقرآن يدل على ان ذلك احترام للبقعة وتعظيم لها فخلعهما والقاهما من وراء الوادى (انك بالواد المقدس) المطهر أو المبارك (طوى) حيث كان منون شامى وكوفى لانه اسم علم للوادى وهو بدل منه وغيرهم بغير تنوين بتأويل البقعة وقرأ أبو زيد بكسر الطاء بلا تنوين (وانا اخترتك) اصطفيتك للنبوة وانا اخترناك حمزة (فاستمع لما يوحى) اليك للذى يوحى أو للوحى واللام تتعلق باستمع أو باخترتك (انى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى) وحدنى واطعنى (وأقم الصلاة لذكرى) لتذكرنى فيها لاشتمال الصلاة على الاذكار أو لانى ذكرتها فى الكتب وأمرت بها أو لان أذكرك بالمدح والثناء أو لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى أو لتكون لى ذاكرا غير ناس أو لاوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة لقوله ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا وقد حمل على ذكر الصلاة بعد نسيانها وذا يصح بتقدير حذف المضاف أى لذكر صلاتى وهذا دليل على انه لا فريضة بعد التوحيد أعظم منها (ان الساعة آتية) لا محالة (أكاد) أريد عن الاخفش وقيل صلة (اخفيها) قيل هو من الاضداد أى أظهرها أو استرها عن العباد فلا أقول هى آتية لارادتى اخفاءها ولولا ما فى الاخبار باتيانها مع تعمية وقتها من الحكمة وهو انهم اذا لم يعلموا متى تقوم كانوا على وجل منها فى كل

وقت لما أخبرت به (لتجزى) متعلق بآتية (كل نفس بما تسعى) بسعيها من خير أو شر (فلا يصدنك عنها) فلا يصرفنك عن العمل للساعة أو عن اقامة الصلاة أو عن الايمان بالقيامة فالخطاب لموسى والمراد به أمته (من لا يؤمن بها) لا يصدق بها (واتبع هواه) فى مخالفة أمره (فتردى) فتهلك (وما تلك بيمينك ياموسى) ما مبتدأ وتلك خبره وهى بمعنى هذه وبيمينك حال عمل فيها معنى الاشارة أى قارة أو مأخوذة بيمينك أو تلك موصول صلته بيمينك والسؤال للتنبيه لتقع المعجزة بها بعد التثبت أو للتوطين لئلا يهول انقلابها حية أو للايناس ورفع الهيبة للمكالمة

اى اجد عند النار من يدلنى على الطريق (فلما أتاها) اى اتى النار رأى شجرة خضراء من اعلاها الى اسفلها اطافت بها نار بيضاء تتقد كاضوء ما يكون فلا ضوء النار يغير خضرة الشجرة ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار قيل كانت الشجرة سمرة خضراء وقيل كانت من العوسج وقيل كانت من العليق وقيل كانت شجرة من العناب روى ذلك عن ابن عباس وقال اهل التفسير لم يكن الذى رآه موسى نارا بل كان نورا ذكر بلفظ النار لان موسى عليه الصلاة والسلام حسبه نارا قال ابن عباس هو من نور الرب سبحانه وتعالى وقيل هى النار بعينها وهى احدى حجب الرب تبارك وتعالى يدل عليه ما روى عن ابى موسى الاشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال حجابه النار لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه اخرجه مسلم قيل ان موسى اخذ شيئا من الحشيش اليابس وقصد الشجرة فكان كلما دنا نأت عنه واذا نأى دنت منه فوقف متحيرا وسمع تسبيح الملائكة والقيت عليه السكينة فعند ذلك (نودى ياموسى انى أنا ربك) قال وهب نودى من الشجرة فقيل ياموسى فأجاب سريعا وما يدرى من دعاه فقال انى اسمع صوتك ولا ارى مكانك فأين انت فقال انا فوقك ومعك وامامك وخلفك واقرب اليك منك فعلم ان ذلك لا ينبغى الا لله تعالى فأيقن به وقيل انه سمعه بكل اجزائه حتى ان كل جارحة منه كانت اذنا وقوله (فاخلع نعليك) كان السبب فيه ما روى عن ابن مسعود مرفوعا فى قوله فاخلع نعليك قال كانتا من جلد حمار ميت ويروى غير مدبوغ وانما امر بخلعهما صيانة للوادى المقدس وقيل امر بخلعهما ليباشر بقدميه تراب الارض المقدسة لتناله بركتها فانها قدست مرتين فخلعهما موسى فالقاهما من وراء الوادى (انك بالواد المقدس) اى المطهر (طوى) اسم للوادى الذى حصل فيه وقيل طوى واد مستدير عميق مثل المطوى فى استدارته (وانا اخترتك) اصطفيتك برسالاتى وبكلامى (فاستمع لما يوحى) فيه نهاية الهيبة والجلال له كانه قال له لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له (اننى انا الله لا اله الا انا فاعبدنى) ولا تعبد غيرى (واقم الصلاة لذكرى) اى لتذكرنى فيها وقيل لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى وقيل لاخلاص ذكرى وطلب وجهى ولا ترائى فيها ولا تقصد بها غرضا آخر وقيل معناه اذا تركت صلاة ثم ذكرتها فأقمها (ق) عن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسى صلاة فليصل اذا ذكرها لا كفارة لها الا ذلك وتلا قتادة واقم الصلاة لذكرى وفى رواية اذا رقد احدكم عن الصلاة او غفل عنها فليصلها اذا ذكرها فان الله عز وجل يقول وأقم الصلاة لذكرى (ان الساعة آتية اكاد أخفيها) قال اكثر المفسرين اكاد أخفيها من نفسى فكيف يعلمها مخلوق وكيف اظهرها لكم ذكر ذلك على عادة العرب اذا بالغوا فى الكتمان للشئ يقولون كتمت سرك فى نفسى اى اخفيته غاية الاخفاء والله تعالى لا يخفى عليه شئ والمعنى فى اخفائها التهويل والتخويف لانهم اذا لم يعلموا متى تقوم الساعة كانوا على حذر منها كل وقت وكذلك المعنى فى اخفاء وقت الموت على الانسان لانه اذا عرف وقت موته وانقضاء اجله اشتغل بالمعاصى الى ان يقرب من ذلك الوقت فيتوب ويصلح العمل فيتخلص من عقاب المعاصى بتعريف وقت الموت وانه اذا لم يعرف وقت موته لا يزال على قدم الخوف والوجل فيترك المعاصى او يتوب عنها فى كل وقت مخافة معاجلة الاجل قوله تعالى (لتجزى كل نفس بما تسعى) اى بما تعمل من خير وشر (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها) اى فلا يصرفنك عن الايمان بالساعة ومجيئها من لا يؤمن بها (واتبع هواه) اى مراده وخالف امر الله (فتردى) اى فتهلك قوله عز وجل (وما تلك بيمينك ياموسى) سؤال تقرير والحكمة فيه تنبيه

وتوقيفه على انها عصا حتى اذا قلبها حية علم انها معجزة عظيمة (قال هي عصاي) قيل كان لها شعبتان وفي اسفلها سنان ولها محجن واسمها نبعة (أتوكأ عليها) اى اعتمد عليها اذا مشيت واذا اعييت وعند الوثبة (واهش بها على غنمي) اى اضرب الشجرة اليابسة ليسقط ورقها فترعاه الغنم (ولي فيها مآرب أخرى) اى حاجة ومنافع أخرى وأراد بالمآرب ما كان يستعمل فيه العصا في السفر فكان يحمل بها الزاد ويشد بها الحبل ويستقي بها الماء من البئر ويقتل بها الحيات ويحارب بها السباع ويستظل بها اذا قعد وروى عن ابن عباس ان موسى كان يحمل عليها زاده وسقاءه فجعلت تماشيه وتحدثه وكان يضرب بها الارض فتخرج له ما يأكل يومه ويركزها فيخرج الماء فاذا رفعها ذهب الماء وكان اذا اشتهى ثمرة ركزها فتصير غصن تلك الشجرة وتورق وتثمر واذا اراد الاستقاء من البئر ادلاها فطالت على طول البئر وصارت شعبتاها كدلو حتى يستقي وكانت تضيء بالليل كالسراج واذا ظهر له عدو كانت تحارب وتناضل عنه (قال) الله تعالى (ألقها يا موسى) اى انبذها واطرحها قال وهب ظن موسى انه يقول ارفضها (فألقاها) اى فطرحها على وجه الرفض ثم حانت منه نظرة (فاذا هي حية) صفراء من اعظم ما يكون من الحيات (تسعى) أي تمشي بسرعة على بطنها وقال في موضع آخر كأنها جان وهي الحية الصغيرة الجسم الخفيفة وقال في موضع آخر كأنها ثعبان وهو اكبر ما يكون من الحيات ووجه الجمع ان الحية اسم جامع للكبير والصغير والذكر والانثى فالجان عبارة عن ابتداء حالها فانها كانت حية على قدر العصا ثم كانت تتورم وتنتفخ حتى صارت ثعبانا وهو انتهاء حالها وقيل انها كانت في عظم الثعبان وسرعة الجان قال محمد بن اسحاق نظر موسى فاذا العصا حية من أعظم ما يكون من الحيات وصارت شعبتاها شدقين لها والمحجن عنقا وعرفا يهتز كالنيازك وعيناها يتقدان كالنار تمر بالصخرة العظيمة مثل الخلفة من الابل فتلتقمها وتقصف الشجرة العظيمة بأنيابها ويسمع لاسنانها صريف عظيم فلما عاين ذلك موسى ولى مدبرا وهرب ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه ثم نودي يا موسى أقبل ارجع حيث كنت فرجع وهو شديد الخوف (قال خذها) أي بيمينك (ولا تخف) قيل كان خوفه لما عرف ما لقي آدم من الحية وقيل لما قال له ربه لا تخف بلغ من طمأنينة نفسه وذهاب الخوف عنه ان أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها (سنعيدها سيرتها الاولى) أي الى هيئتها فنردها عصا كما كانت وقيل كان على موسى مدرعة صوف قد خللها بعود فلما قال الله تعالى له خذها الف طرف المدرعة على يده فأمره الله تعالى أن يكشف يده فكشفها وذكر بعضهم انه الف كم المدرعة على يده فقال له ملك أرأيت لو أمر الله بما تحاذره أكانت المدرعة تغني عنك شيئا قال لا ولكني ضعيف من ضعف خلقت قال فكشف عن يده ثم وضعها في فم الحية فاذا هي عصا كما كانت ويده في شعبها في الموضع الذي كان يضعها اذا توكأ قال المفسرون أراد الله أن يري موسى ما أعطاه من الآية التي لا يقدر عليها مخلوق ولئلا يفزع منها اذا ألقاها عند فرعون قوله تعالى (واضمم يدك الى جناحك) اى الى ابطك وقيل تحت عضدك (تخرج بيضاء) أي نيرة مشرقة (من غير سوء) أي من غير عيب والسوء ههنا بمعنى البرص قال ابن عباس كان ليده نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر (آية أخرى) أي دلالة أخرى على صدقك سوى العصا (لنريك من آياتنا الكبرى) قال ابن عباس كانت يد موسى اكبر آياته قوله عز وجل (اذهب الى فرعون انه طغى) أي جاوز الحد في العصيان والتمرد وانما خص فرعون

(قال هي عصاي أتوكأ عليها) اعتمد عليها اذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع وعند الطفرة (وأهش بها على غنمي) اخبط ورق الشجر على غنمي لتأكل (ولي فيها) حفص (مآرب) جمع مأربة بالحركات الثلاث وهي الحاجة (أخرى) والقياس أخر وانما قال أخرى ردا الى الجماعة أو لنسق الآي وكذا الكبرى ولما ذكر بعضها شكرا أجمل الباقي حياء من التطويل أو ليسأل عنها الملك العلام فيزيد في الاكرام والمآرب الاخر انها كانت تماشيه وتحدثه وتحارب العدو والسباع وتصير رشاء فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا وتكونان شمعتين بالليل وتحمل زاده ويركزها فتثمر ثمرة يشتهيها ويركزها فينبع الماء فاذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام والزيادة على الجواب لتعداد النعم شكرا أو لانها جواب سؤال آخر لانه لما قال هي عصاي قيل له ما تصنع بها فأخذ يعدد منافعها (قال ألقها يا موسى) اطرح عصاك لتفزع مما تتكئ عليه فلا تسكن الا بنا وترى فيها كنه ما فيها من المآرب فتعتمد علينا في المطالب (فألقاها) فطرحها (فاذا هي حية تسعى) تمشي سريعا قيل انقلبت ثعبانا يبتلع الصخر والشجر فلما رآها تبتلع كل شيء خاف وانما وصف بالحية هنا وبالثعبان وهو العظيم من الحيات وبالجان وهو الدقيق في غيرها لان الحية اسم جنس يقع على الذكر والانثى والصغير والكبير وجاز ان تنقلب حية صفراء دقيقة ثم يتزايد جرمها حتى تصير ثعبانا فاريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها أو لانها كانت في عظم الثعبان وسرعة الجان وقيل كان بين لحييها أربعون ذراعا ولما (قال) له ربه (خذها ولا تخف) بلغ من ذهاب خوفه ان أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها (سنعيدها) سنردها (سيرتها الاولى) تأنيث الاول والسيرة الحالة التي يكون عليها الانسان غريزية كانت أو مكتسبة وهي في الاصل فعلة من السير كالركبة من الركوب ثم استعملت بمعنى الحالة والطريقة وانتصبت على الظرف أي سنعيدها في طريقتها الاولى أي في حال ما كانت عصا والمعنى نردها عصا كما كانت وأرى ذلك موسى عند المخاطبة لئلا يفزع منها اذا انقلبت حية عند فرعون ثم نبه على آية أخرى فقال (واضمم يدك الى جناحك) الى جنبك تحت العضد وجناحا الانسان جنباه والاصل المستعار منه جناحا الطائر سميا جناحين لانه يجنحهما أي يميلهما عند الطيران والمعنى ادخلها تحت عضدك (تخرج بيضاء) لها شعاع كشعاع الشمس يغشي البصر (من غير سوء) برص بالذكر (آية أخرى) لنبوتك بيضاء وآية حالان معا ومن غير سوء صلة بيضاء كقولك ابيضت من غير سوء وجاز ان ينتصب آية بفعل محذوف يتعلق به الامر (لنريك من آياتنا الكبرى) أي خذ هذه الآية أيضا بعد قلب العصا حية لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى العظمى أو نريك بهما الكبرى من آياتنا والمعنى فعلنا ذلك لنريك من آياتنا الكبرى (اذهب الى فرعون انه طغى) جاوز حد العبودية الى دعوى الربوبية ولما أمره بالذهاب الى فرعون الطاغي وعرف انه كلف أمرا عظيما يحتاج الى صدر فسيح

(قال رب اشرح لي صدري) وسعه ليحتمل الوحي والمشاق وردىء الاخلاق من فرعون وجنده (ويسر لي أمري) وسهل علي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة الى فرعون واشرح لي صدري آكد من اشرح صدري لانه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الاجمال والتفصيل لانه يقول اشرح لي ويسر لي علم ان ثمة مشروحا وميسرا ثم رفع الابهام بذكر الصدر والامر (واحلل) افتح (عقدة من لساني) وكان في لسانه رتة للجمرة التي وضعها على لسانه في صباه وذلك ان موسى أخذ لحية فرعون ولطمه لطمة شديدة في صغره فاراد قتله فقالت آسية أيها الملك انه صغير لا يعقل فجعلت في طشت نارا وفي طشت يواقيت ووضعتهما لدى موسى فقصد اليواقيت فامال الملك يده الى النار فرفع جمرة فوضعها على لسانه فاحترق لسانه فصار لكنة منها وروى ان يده احترقت واجتهد فرعون في علاجها فلم تبرأ ولما دعاه قال الى أي رب تدعوني قال الى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنها ومن لساني صفة لعقدة كأنه قيل عقدة من عقد لساني وهذا يشعر بانه لم تزل العقدة بكمالها وأكثرهم على ذهاب جميعها (يفقهوا قولي) عند تبليغ الرسالة (واجعل لي وزيرا) ظهيرا اعتمد عليه من الوزر الثقل لانه يتحمل من الملك أوزاره ومؤنته او من الوزر الملجأ لان الملك يعتصم برأيه ويلتجئ اليه في أموره أو معينا من الموازرة وهي المعاونة فوزيرا مفعول أول لاجعل والثاني (من أهلي) أولي وزيرا مفعولاه وقوله (هارون) عطف بيان لوزيرا وقوله (أخي) بدل أو عطف بيان آخر ووزيرا وهارون مفعولاه وقدم ثانيهما على اولهما عناية بأمر الوزارة (اشدد به أزري) قوبه ظهري وقيل الازر القوة (وأشركه في أمري) اجعله شريكي في النبوة والرسالة واشدد وأشركه على حكاية النفس شامي على الجواب والباقون على الدعاء والسؤال (كي نسبحك) نصلي لك وننزهك تسبيحا (كثيرا ونذكرك كثيرا) في الصلوات وخارجها (انك كنت بنا بصيرا) عالما باحوالنا فاجابه الله تعالى حيث (قال قد أوتيت سؤلك ياموسى) اعطيت مسؤلك فالسؤل الطلبة فعل بمعنى مفعول كخبز بمعنى مخبوز سولك بلا همز ابو عمرو (ولقد مننا) انعمنا (عليك مرة) كرة (أخرى) قبل هذه ثم فسرها فقال (اذ أوحينا الى امك ما يوحى) الهاما ومناما حين ولدت وكان فرعون يقتل امثالك واذ ظرف انعمنا ثم فسر ما يوحى بقوله (ان اقذفيه) القيه (في التابوت) وان مفسرة لان الوحي بمعنى القول (فاقذفيه في اليم) النيل (فليلقه اليم بالساحل) الجانب وسمي ساحلا لان الماء يسحله أي يقشره والصيغة أمر ليناسب ما تقدم ومعناه الاخبار أي يلقيه اليم بالساحل (يأخذه عدو لي وعدو له) يعني فرعون والضمائر كلها راجعة الى موسى ورجوع بعضها اليه وبعضها الى التابوت يفضي الى تنافر النظم والمقذوف في البحر والملقى الى الساحل وان كان هو التابوت لكن موسى في جوف التابوت روى أنها جعلت في التابوت قطنا محلوجا فوضعته فيه وقيرته ثم القته في اليم وكان يشرع منه الى بستان فرعون نهر كبير فبينما هو جالس على رأس بركة مع آسية اذا بالتابوت فأمر به فأخرج ففتح فاذا بصبي أصبح الناس وجها فأحبه فرعون حبا شديدا فذلك

بالدكر مع ان موسى كان مبعوثا الى الكل لانه ادعى الالهية وتكبر وكان متبوعا فكان ذكره اولى قال وهب قال الله تعالى لموسى اسمع كلامي واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي وانك بعيني وسمعي وان معك يدي وبصري واني ألبسك حلة من سلطاني تستكمل بها القوة في أمري بعثتك الى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتي وامن مكري حتى جحد حقي وانكر ربوبيتي واني أقسم بعزتي لولا الحجة التي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار ولكن هان علي وسقط من عيني فبلغه رسالتي وادعه الى عبادتي وحذره نقمتي وقل له قولا لينا لا يغتر بلباس الدنيا فان ناصيته بيدي ولا يتنفس الا بعلمي قال فسكت موسى جمعة ثم جاءه ملك وقال له أجب ربك (قال) يعني موسى (رب اشرح لي صدري) أي وسعه للحق قال ابن عباس يريد حتى لا أخاف غيرك وذلك ان موسى كان يخاف فرعون خوفا شديدا لشدة شوكته وكثرة جنوده فكان يضيق بما كلف من مقاومة فرعون وحده فسأل الله تعالى أن يوسع قلبه للحق حتى يعلم ان أحدا لا يقدر على مضرته الا باذن الله تعالى واذا علم ذلك لم يخف من فرعون وشدة شوكته وكثرة جنوده (ويسر لي أمري) أي سهل علي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة الى فرعون (واحلل عقدة من لساني) وذلك ان موسى كان في حجر فرعون ذات يوم في صغره فلطم فرعون لطمة وأخذ بلحيته فقال فرعون لامرأته آسية ان هذا عدوي واراد أن يقتله فقالت له آسية انه صبي لا يعقل وقيل ان أم موسى لما فطمته ردته الى فرعون فنشأ في حجره وحجر امرأته يربيانه واتخذاه ولدا فبينما هو يلعب بين يدي فرعون وبيده قضيب اذ رفعه فضرب به رأس فرعون فغضب فرعون وتطير منه حتى هم بقتله فقالت آسية أيها الملك انه صبي لا يعقل جربه ان شئت فجاءت بطستين في أحدهما جمر وفي الآخر جوهر فوضعتهما بين يدي موسى فاراد أن يأخذ الجوهر فأخذ جبريل يد موسى فوضعها على الجمر فأخذ جمرة فوضعها في فيه فاحترق لسانه وصارت فيه عقدة (يفقهوا قولي) أي احلل العقدة كي يفقهوا قولي (واجعل لي وزيرا من أهلي) أي معينا وظهيرا والوزير من يوازرك ويحتمل عنك بعض ثقل عملك ثم بين من هو فقال (هارون أخي) وكان هارون أكبر من موسى وأفصح لسانا وأجمل وأوسم وكان أبيض اللون وكان موسى آدم أقنى جعدا (اشدد به أزري) أي قو به ظهري (وأشركه في أمري) أي في أمر النبوة وتبليغ الرسالة (كي نسبحك كثيرا) أي نصلي لك كثيرا (ونذكرك كثيرا) أي نحمدك ونثني عليك بما أوليتنا من جميل نعمك (انك كنت بنا بصيرا) أي خبيرا عليما (قال) الله تعالى (قد أوتيت سؤلك ياموسى) أي أعطيت جميع ما سألته (ولقد مننا عليك مرة أخرى) أي قبل هذه المرة ثم بين تلك المنة بقوله تعالى (اذ أوحينا الى أمك ما يوحى) أي ما يلهم ثم فسر ذلك الالهام وعدد نعمه عليه فقال (أن اقذفيه في التابوت) أي ألهمناها أن اجعليه في التابوت (فاقذفيه في اليم) يعني نهر النيل (فليلقه اليم بالساحل) يعني شاطئ البحر (يأخذه عدو لي وعدو له) يعني فرعون فاتخذت تابوتا وجعلت فيه قطنا ووضعت فيه موسى وقيرت رأسه وشقوقه ثم ألقته في النيل وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون فبينما

قوله (وألقيت عليك محبة مني) يتعلق مني بألقيت يعني اني أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب فما رآه أحد الا أحبه قال قتادة كان في عيني موسى ملاحة ما رآه أحد الا أحبه (ولتصنع) معطوف على محذوف تقديره وألقيت عليك محبة لتحب ولتصنع (على عيني) أي لتربى بمرأى مني وأصله من صنع الفرس أي أحسن القيام عليه يعني أنا مراعيك ومراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينه اذا اعتنى به ولتصنع بسكون اللام والجزم يزيد على أنه أمر منه (اذ تمشي) بدل من اذ أوحينا لان مشي أخته كان منة عليه (أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله) روى أن أخته مريم جاءت متعرفة خبره فصادفتهم يطلبون له مرضعة يقبل ثديها وكان لا يقبل ثدي امرأة فقالت هل أدلكم على من يضمه الى نفسه فيربيه وأرادت بذلك المرضعة الام وتذكير الفعل للفظ من فقالوا نعم فجاءت بالام فقبل ثديها وذلك قوله (فرجعناك) فرددناك (الى أمك) كما وعدناها بقولنا انا رادوه اليك (كي تقر عينها) بلقائك (ولا تحزن) على فراقك (وقتلت نفسا) قبطيا كافرا (فنجيناك من الغم) من القود وقيل الغم القتل بلغة قريش وقيل اغتم بسبب القتل خوفا من عقاب الله تعالى ومن اقتصاص فرعون فغفر الله له باستغفاره قال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي ونجاه من فرعون بان ذهب به من مصر الى مدين (وفتناك فتونا) ابتليناك ابتلاء بايقاعك في المحن وتخليصك منها والفتون مصدر كالقعود أو جمع فتنة أي فتناك ضروبا من الفتن والفتنة المحنة وكل ما يبتلي الله به عباده فتنة ونبلوكم بالشر والخير فتنة (فلبثت سنين في أهل مدين) هي بلدة شعيب عليه السلام على ثمان مراحل من مصر قال وهب لبث عند شعيب ثمانيا وعشرين سنة عشر منها مهر لصفورا وأقام عنده ثمان عشرة سنة بعدها حتى ولد له أولاد (ثم جئت على قدر ياموسى) أي موعد ومقدار للرسالة وهو أربعون سنة (واصطنعتك لنفسي) اخترتك واصطفيتك لوحيي ورسالتي لتتصرف على ارادتي ومحبتي قال الزجاج اخترتك لامري وجعلتك القائم بحجتي والمخاطب بيني وبين خلقي كأني أقمت عليهم الحجة وخاطبتهم (اذهب أنت وأخوك بآياتي) بمعجزاتي (ولا تنيا) تفترا من الونى وهو الفتور والتقصير (في ذكري) أي اتخذا ذكري جناحا تطيران به أو أريد بالذكر تبليغ الرسالة فالذكر يقع على سائر العبادات وتبليغ الرسالة من أعظمها (اذهبا الى فرعون) (العله كرر لان الاول مطلق والثاني مقيد (انه طغى) جاوز الحد بادعائه الربوبية (فقولا له قولا لينا) الطفا له في القول لما له من حق تربية موسى أو كنياه وهو من ذوي الكنى الثلاث أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة أو عداه شبابا لا يهرم بعده وملكا لا ينزع عنه الا بالموت أو هو قوله هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى فظاهره الاستفهام والمشورة

فرعون جالس على البركة مع امرأته آسية اذا بتابوت يجيء به الماء فأمر الغلمان والجواري باخراجه فأخرجوه وفتحوا رأسه فاذا الصبي من أصبح الناس وجها فلما رآه فرعون أحبه بحيث لم يتمالك نفسه وعقله فذلك قوله تعالى (وألقيت عليك محبة مني) قال ابن عباس أحبه وحببه الى خلقه قيل ما رآه أحد الا أحبه لملاحة كانت في عيني موسى (ولتصنع على عيني) لتربى ويحسن اليك وأنا مراعيك ومراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينه اذا اعتنى به ونظر اليه (اذ تمشي أختك) واسمها مريم متعرفة خبره (فتقول هل أدلكم على من يكفله) أي على امرأة ترضعه وتضمه اليها وذلك انه كان لا يقبل ثدي امرأة فلما قالت لهم أخته ذلك قالوا نعم فجاءت بالام فقبل ثديها فذلك قوله تعالى (فرجعناك الى أمك كي تقر عينها) أي بلقائك ورؤيتك (ولا تحزن) أي وليذهب عنها الحزن (وقتلت نفسا) قال ابن عباس كان قتل قبطيا كافرا قيل كان عمره اذ ذاك اثنتي عشرة سنة (فنجيناك من الغم) أي من غم القتل وكربه (وفتناك فتونا) قال ابن عباس اختبرناك اختبارا وقيل ابتليناك ابتلاء قال ابن عباس الفتون وقوعه في محنة بعد محنة وخلصه الله منها أولها ان أمه حملته في السنة التي كان فرعون يذبح فيها الاطفال ثم القاؤه في البحر في التابوت ثم منعه من الرضاع الا من ثدي أمه ثم أخذه بلحية فرعون حتى هم بقتله ثم تناوله الجمرة بدل الجوهرة ثم قتله القبطي وخروجه الى مدين خائفا (فلبثت) أي مكثت (سنين في أهل مدين) هي بلدة شعيب على ثمان مراحل من مصر هرب اليها موسى قال وهب لبث موسى عند شعيب ثماني وعشرين سنة عشر سنين منها رعي الغنم مهر زوجته صفورا ابنة شعيب وثمانية عشر أقام عنده بعد ذلك حتى ولد له وخرج من مصر ابن اثنتي عشرة سنة هاربا (ثم جئت على قدر ياموسى) أي جئت على القدر الذي قدرت ان تجيء فيه قيل على رأس أربعين سنة وهو القدر الذي يوحي الى الانبياء فيه (واصطنعتك لنفسي) أي اخترتك واصطفيتك لوحيي ورسالتي لتتصرف على ارادتي ومحبتي وذلك ان قيامه باداء الرسالة تصرف على ارادة الله ومحبته وقيل معناه اخترتك لامري وجعلتك القائم بحجتي والمخاطب بيني وبين خلقي كأني الذي أقمت عليهم الحجة وخاطبتهم (اذهب أنت وأخوك بآياتي) أي بدلائلي قال ابن عباس يعني الآيات التسع التي بعث بها موسى عليه السلام (ولا تنيا) أي لا تضعفا وقيل لا تفترا ولا تقصرا (في ذكري) أي لا تقصرا في ذكري بالاحسان اليكما والانعام عليكما ومن ذكر النعمة شكرها (اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا) أي داریاه وارفقا به قال ابن عباس لا تعنفا في قولكما وقيل كنياه فقولا له يا أبا العباس وقيل يا أبا الوليد وقيل أراد بالقول اللين هل لك الى ان تزكى وقيل أمرهما باللطافة لما له في حق تربية موسى وقيل عداه على قبول الايمان شبابا لا يهرم وملكا لا ينزع منه الا بالموت وتبقى عليه لذة المطعم والمشرب والمنكح الى حين موته واذا مات دخل الجنة فلما أتاه موسى ووعده بذلك أعجبه وكان لا يقطع امرا دون هامان وكان غائبا فلما قدم أخبره بالذي دعاه اليه موسى وقال أردت ان أقبل منه فقال له هامان كنت أرى ان لك عقلا ورأيا أنت رب تريد ان تكون مربوبا وأنت تعبد تريد ان تعبد فقال فرعون صواب ما قلت فغلبه على رأيه وكان هارون بمصر فأمر الله موسى ان يأتي هارون وأوحى الله الى هارون وهو بمصر ان يتلقى موسى فتلقاه الى مرحلة وأخبره بما أوحى اليه وقوله تعالى

(لعله يتذكر) أي يتعظ ويتأمل فيذعن للحق (أو يخشى) أي يخاف أن يكون الأمر كما تصفان فيجره انكاره الى الهلكة وانما قال لعله يتذكر مع علمه انه لا يتذكر لان الترجي لهما أي اذهبا على رجائكما وطمعكما وباشرا الامر مباشرة من يطمع ان يثمر عمله وجدوى ارسالهما اليه مع العلم بأنه لن يؤمن الزام الحجة وقطع المعذرة وقيل معناه لعله يتذكر متذكر او يخشى خاش وقد كان ذلك من كثير من الناس وقيل لعل من الله تعالى واجب وقد تذكر ولكن حين لم ينفعه التذكر وقيل تذكر فرعون وخشي وأراد اتباع موسى فمنعه هامان وكان لا يقطع أمرا دونه وتليت عند يحيى بن معاذ فبكى وقال هذا رفقك بمن يقول أنا الاله فكيف بمن قال أنت الاله وهذا رفقك بمن قال أنا ربكم الاعلى فكيف بمن قال سبحان ربي الاعلى (قالا ربنا اننا نخاف ان يفرط علينا) يعجل علينا

بالعقوبة ومنه الفارط يقال فرط عليه أي عجل (أو ان يطغى) يجاوز الحد في الاساءة الينا (قال لا تخافا انني معكما) أي حافظكما وناصركما

(لعله يتذكر أو يخشى) اي يتعظ ويخاف فيسلم فان قلت كيف قال لعله يتذكر وقد سبق في علمه انه لا يتذكر ولا يسلم قلت معناه اذهبا على رجائكما وطمعكما وقضاء الله وراء أمركما وقيل هو الزام الحجة وقطع المعذرة لقوله تعالى ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك وقيل هو ينصرف الى غير فرعون مجازه لعله يتذكر متذكر او يخشى خاش اذا رأى بري والطافي بمن خلقته وانعمت عليه ثم ادعى الربوبية وقيل لعل من الله واجب ولقد تذكر فرعون وخشي حين لم تنفعه الذكرى والخشية وذلك حين ألجمه الغرق وقرأ رجل عند يحيى بن معاذ الرازي فقولا له قولا لينا الآية فبكى يحيى وقال الهي هذا رفقك بمن يقول أنا الاله فكيف رفقك بمن يقول أنت الاله (قالا) يعني موسى وهارون (ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا) قال ابن عباس أي يعجل علينا بالقتل والعقوبة (أو ان يطغى) أي يجاوز الحد في الاساءة الينا (قال) الله تعالى (لا تخافا انني معكما أسمع وأرى) قال ابن عباس اسمع دعاءكما فاجيبه وأرى ما يراد بكما فأمنع لست بغافل عنكما فلا تهتما (فأتياه فقولا انا رسولا ربك) أي أرسلنا اليك ربك (فأرسل معنا بني اسرائيل) أي خل عنهم وأطلقهم من أعمالك (ولا تعذبهم) أي لا تتعبهم في العمل وكان فرعون يستعملهم في الاعمال الشاقة كالبناء وقطع الصخور مع قتل الولدان وغير ذلك (قد جئناك بآية من ربك) قال فرعون وما هي فاخرج موسى يده لها شعاع كشعاع الشمس وقيل معناه قد جئناك بمعجزة وبرهان يدل على صدقنا على ما ادعيناه من الرسالة (والسلام على من اتبع الهدى) ليس المراد منه سلام التحية بل انما معناه سلم من العذاب من أسلم (انا قد أوحي الينا أن العذاب على من كذب وتولى) اي انما يعذب الله من كذب بما جئنا به وأعرض عنه (قال) يعني فرعون (فمن ربكما يا موسى) أي من الهكما الذي أرسلكما (قال ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) اي كل شئ يحتاجون اليه ويرتفقون به وقيل أعطى كل شئ صلاحه وهداه وقيل أعطى كل شئ صورته فخلق اليد للبطش والرجل للمشي واللسان للنطق والعين للنظر والاذن للسمع ثم هداه الى منافعه من المطعم والمشرب والمنكح وقيل يعني جعل زوجة الرجل المرأة والبعير الناقة والفرس الرمكة وهي الحجرة والحمار الاتان ثم هدى الجميع كيف يأتي الذكر الانثى (قال) يعني فرعون (فما بال القرون الاولى) أي فما حال القرون الماضية والامم الخالية مثل قوم نوح وعاد وثمود فانها كانت تعبد الاوثان وتنكر البعث وانما قال فرعون ذلك لموسى حين خوفهم مصارع الامم الخالية فحينئذ قال فرعون فما بال القرون الاولى (قال) يعني موسى (علمها عند ربي) أي أعمالهم محفوظة عند الله يجازي بها وقيل انما رد موسى علم ذلك الى الله تعالى لانه لم يعلم ذلك لان التوراة انما نزلت بعد هلاك فرعون وقومه (في كتاب) يعني اللوح المحفوظ (لا يضل ربي) اي لا يخطئ وقيل لا يغيب عنه شئ (ولا ينسى) اي ما يذكر وقيل لا ينسى ما كان من أعمالهم حين يجازيهم بها (الذي جعل

(أسمع) أقوالكم (وأرى) أفعالكم قال ابن عباس رضي الله عنهما أسمع دعاءكما فأجيبه وأرى ما يراد بكما فامنع لست بغافل عنكما فلا تهتما (فأتياه) أي فرعون (فقولا انا رسولا ربك) اليك (فأرسل معنا بني اسرائيل) أي أطلقهم عن الاستعباد والاسترقاق (ولا تعذبهم) بتكاليف المشاق (قد جئناك بآية من ربك) بحجة على صدق ما ادعيناه وهذه الجملة جارية من الجملة الاولى وهي انا رسولا ربك مجرى البيان والتفسير والتفصيل لان دعوى الرسالة لا تثبت الا ببينتها وهي المجيء بالآية فقال فرعون وما هي فاخرج يده لها شعاع كشعاع الشمس (والسلام على من اتبع الهدى) أي سلم من العذاب من أسلم وليس بتحية وقيل وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين (انا قد أوحي الينا ان العذاب) في الدنيا والعقبى (على من كذب) بالرسل (وتولى) اعرض عن الايمان وهي أرجى آي القرآن لانه جعل جنس السلام للمؤمن وجنس العذاب على المكذب وليس وراء الجنس شئ فأتياه وأديا الرسالة وقالا له ما أمرا به (قال فمن ربكما يا موسى) خاطبهما ثم نادى أحدهما لان موسى هو الاصل في النبوة وهارون تابعه (قال ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه) خلقه أول مفعولي أعطى أي أعطى خليقته كل شئ يحتاجون اليه ويرتفقون به أو ثانيهما اي أعطى كل شئ صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الابصار

والاذن الشكل الذي يوافق الاستماع وكذا الانف والرجل واليد كل واحد منها مطابق للمنفعة المنوطة بها وقرأ نصير خلقه صفة للمضاف أو للمضاف اليه أي أعطى كل شئ مخلوق عطاءه (ثم هدى) عرف كيف يرتفق بما أعطى للمعيشة في الدنيا والسعادة في العقبى (قال فما بال القرون الاولى) فما حال الامم الخالية والرمم البالية سأله عن حال من تقدم من القرون وعن شقاء من شقي منهم وسعادة من سعد (قال) موسى مجيبا (علمها عند ربي) مبتدأ وخبر (في كتاب) أي اللوح خبر ثان أي هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به لا يعلمه الا هو وما أنا الا عبد مثلك لا أعلم منه الا ما أخبرني به علام الغيوب وعلم أحوال القرون مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ (لا يضل ربي) أي لا يخطئ شيئا يقال ضللت الشئ اذا أخطأته في مكانه فلم تهتد له أي لا يخطئ في سعادة الناس وشقاوتهم (ولا ينسى) ثوابهم وعقابهم وقيل لا ينسى ما علم فيذكره الكتب ولكن ليعلم الملائكة ان معمول الخالق يوافق معلومه (الذي) مرفوع صفة لربي أو خبر مبتدأ محذوف أو منصوب على المدح (جعل

لكم الارض مهدا) كوفي وغيرهم مهادا وهما لغتان لما يبسط ويفرش (وسلك) أي جعل (لكم فيها سبلا) طرقا (وأنزل من السماء ماء) أي مطرا (فأخرجنا به) بالماء نقل الكلام من الغيبة الى لفظ المتكلم المطاع للافتنان وقيل تم كلام موسى ثم أخبر الله تعالى عن نفسه بقوله فأخرجنا به وقيل هذا كلام موسى أي فأخرجنا نحن بالحراثة والغرس (أزواجا) أصنافا (من نبات) هو مصدر سمي به النابت فاستوى فيه الواحد والجمع (شتى) صفة للازواج أو للنبات جمع شتيت كمريض ومرضى أي انها مختلفة النفع والطعم واللون والرائحة والشكل بعضها للناس وبعضها للبهائم ومن نعمته تعالى ان أرزاقنا تحصل بعمل الانعام وقد جعل الله علفها مما يفضل عن حاجتنا مما لا نقدر على أكله قائلين (كلوا وارعوا أنعامكم) حال من الضمير في فأخرجنا والمعنى أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها مبيحين ان تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها (ان في ذلك) في الذي ذكرت (لآيات) لدلالات (لأولي النهى) لذوي العقول واحدها نهية لانها تنهى عن المحظور أو ينتهى اليها في الامور (منها) من الارض (خلقناكم) أي أباكم آدم عليه السلام وقيل يعجن كل نطفة بشيء من تراب مدفنه فيخلق من التراب والنطفة معا أو لان النطفة من الاغذية وهي من الارض (وفيها نعيدكم) اذا متم فدفنتم (ومنها نخرجكم) عند البعث (تارة أخرى) مرة أخرى والمراد باخراجهم أنه يؤلف أجزاءهم المتفرقة المختلطة بالتراب ويردهم كما كانوا أحياء ويخرجهم الى المحشر عدد الله عليهم ما علق بالارض من مرافقهم حيث

جعلها لهم فراشا ومهادا يتقلبون عليها وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف شاؤا وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم وعلوفات بهائمهم وهي أصلهم الذي منه تفرعوا وأمهم التي منها ولدوا وهي كفاتهم اذا ماتوا (ولقد أريناه) أي فرعون (آياتنا كلها) وهي تسع آيات العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل (فكذب) الآيات (وأبى) قبول الحق (قال) فرعون (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا) مصر (بسحرك يا موسى) فيه دليل على انه خاف منه خوفا شديدا وقوله بسحرك تعلل والا فأي ساحر يقدر أن يخرج ملكا من أرضه (فلنأتينك بسحر مثله) فلنعارضنك بسحر مثل سحرك (فاجعل بيننا وبينك موعدا) هو مصدر بمعنى الوعد ويقدر مضاف أي مكان موعد والضمير في (لا نخلفه) للموعد قرأ يزيد بالجزم على جواب الامر وغيره بالرفع على الوصف للموعد (نحن ولا أنت مكانا) هو بدل من المكان المحذوف ويجوز أن لا يقدر مضاف ويكون المعنى اجعل بيننا وبينك وعدا لا نخلفه وانتصب مكانا بالمصدر او بفعل يدل عليه المصدر (سوى) بالكسر حجازي وأبو عمرو وعلي وغيرهم بالضم وهو نعت لمكانا اي منصفا بيننا وبينك وهو من الاستواء لان المسافة من الوسط الى الطرفين مستوية (قال موعدكم يوم الزينة) مبتدأ وخبر وهو يوم عيد كان لهم او يوم النيروز او يوم عاشوراء وانما استقام الجواب بالزمان وان كان السؤال عن المكان على تأويل الاول لان اجتماعهم يوم الزينة يكون في مكان لا محالة فبذكر الزمان علم المكان وعلى الثاني تقديره وعدكم وعد يوم الزينة (وان يحشر الناس) اي تجمع في موضع رفع او جر عطفا على يوم او الزينة (ضحى) اي وقت الضحوة لتكون ابعد عن الريبة وابين لكشف الحق وليشيع في جميع اهل الوبر والمدر (فتولى فرعون) ادبر عن موسى معرضا (فجمع كيده) مكره وسحرته وكانوا اثنين وسبعين او اربعمائة او سبعين الفا (ثم أتى) للموعد (قال لهم موسى) اي للسحرة (ويلكم لا تفتروا على الله كذبا) لا تدعوا آياته ومعجزاته سحرا (فيسحتكم) كوفي غير أبي بكر يهلككم وبفتح الياء والحاء غيرهم والسحت والاسحات بمعنى الاعدام وانتصب على جواب النهي (بعذاب) عظيم (وقد خاب من افترى) من كذب على الله (فتنازعوا) اختلفوا أي السحرة فقال بعضهم هو ساحر مثلنا وقال بعضهم ليس هذا بكلام السحرة أي لا تفتروا على الله كذبا الآية (أمرهم بينهم

لكم الارض مهادا) اى فراشا وقيل مهدها لكم (وسلك لكم فيها سبلا) اى ادخل في الارض لاجلكم طرقا وسهلها لكم لتسلكوها (وانزل من السماء ماء) يعني المطر تم الاخبار عن موسى ثم قال الله تعالى (فأخرجنا به) اى بذلك الماء (ازواجا) اى اصنافا (من نبات شتى) اى مختلف الالوان والطعوم والمنافع فمنها ما هو للناس ومنها ما هو للدواب (كلوا وارعوا انعامكم) اى اخرجنا اصناف النبات للانتفاع بالاكل والرعي (ان في ذلك) اى الذي ذكر (لآيات لاولي النهى) اى لذوي العقول قيل هم الذين ينتهون عما حرم الله عليهم (منها خلقناكم) اى من الارض خلقنا آدم وقيل ان الملك ينطلق فيأخذ من التراب الذي يدفن فيه فيذره في النطفة فيخلق من التراب ومن النطفة (وفيها نعيدكم) اى عند الموت والدفن (ومنها نخرجكم تارة اخرى) اى يوم القيامة للبعث والحساب قوله تعالى (ولقد اريناه) يعني فرعون (آياتنا كلها) يعني الآيات التسع التي اعطاها الله موسى (فكذب وأبى) يعني فرعون وزعم انها سحر وأبى ان يسلم (قال) يعني فرعون (اجئتنا لتخرجنا من ارضنا) يعني مصر (بسحرك يا موسى) تريد ان تغلب على ديارنا فيكون لك الملك وتخرجنا منها (فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا) أي اضرب اجلا وميقاتا (لا نخلفه) أي لا نجاوزه (نحن ولا أنت مكانا سوى) اى مكانا عدلا وقال ابن عباس نصفا تستوي مسافة الفريقين اليه وقيل معناه سوى هذا المكان (قال) يعني موسى (موعدكم يوم الزينة) قيل كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ويجتمعون في كل سنة وقيل هو يوم النيروز وقال ابن عباس يوم عاشوراء (وان يحشر الناس ضحى) اى وقت الضحوة نهارا جهارا ليكون ابعد من الريبة (فتولى فرعون فجمع) يعني فرعون (كيده) يعني مكره وسحرته وحيله (ثم أتى) يوم الميعاد (قال لهم موسى) يعني للسحرة التي جمعهم فرعون وكانوا اثنين وسبعين ساحرا مع كل ساحر حبل وعصا وقيل كانوا اربعمائة وقيل كانوا اثني عشر الفا (ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب) اى فيهلككم ويستأصلكم (وقد خاب من افترى) اى خسر من ادعى مع الله الها آخر وقيل معناه خسر من كذب على الله تعالى قوله تعالى (فتنازعوا امرهم بينهم) اى تناظروا وتشاوروا يعني السحرة في امر موسى سرا من فرعون وقالوا ان غلبنا موسى اتبعناه وقيل معناه لما

وأسروا النجوى) أي تشاوروا في السر وقالوا ان كان ساحرا فسنغلبه وان كان من السماء فله أمر والنجوى يكون مصدرا واسما ثم اتفقوا هذا الكلام ثني
(قالوا ان هذان لساحران) يعني موسى وهارون قرأ أبو عمرو ان هذين لساحران وهو ظاهر ولكنه مخالف للامام وابن كثير وحفص والخليل وهو أعرف
بالنحو واللغة ان هذان لساحران بتخفيف ان مثل قولك ان زيد لمنطلق واللام هي الفارقة بين ان النافية والمخففة من الثقيلة وقيل هي بمعنى ما واللام
بمعنى الا أي ما هذان الا ساحران دليله قراءة أبي ان ذان الا ساحران وغيرهم ان هذان لساحران قيل هي لغة بلحارث بن كعب وخثعم ومراد وكنانة
فالتثنية في لغتهم بالالف أبدا فلم يقلبوها ياء في الجر والنصب كعصا وسعدى قال ان أباها وأبا أباها * قد بلغا في المجد غايتاها وقال الزجاج ان بمعنى
نعم قال الشاعر ويقلن شيب قد علا * لك وقد كبرت فقلت انه أي نعم والهاء للوقف وهذان مبتدأ وساحران خبر مبتدا محذوف واللام داخلة
على المبتدا المحذوف تقديره هذان لهما ساحران فيكون دخولها في موضعها الموضوع لها وهو الابتداء وقد يدخل اللام في الخبر كما يدخل في المبتدا قال
خالي لانت ومن جرير خاله قال فعرضته على المبرد فرضيه وقد زيفه أبو علي (يريدان أن يخرجاكم من أرضكم) مصر (بسحرهما ويذهبا بطريقتكم)
بدينكم وشريعتكم (المثلى) الفضلى تأنيث الامثل وهو الافضل (فأجمعوا) فأحكموا أي اجعلوه مجمعا عليه حتى لا تختلفوا فاجمعوا أبو عمرو ويعضده
فجمع كيده (كيدكم) هو ما يكاد به (ثم ائتوا صفا) مصطفين حال أمروا بأن يأتوا صفا لانه أهيب في صدور الرائين (وقد أفلح اليوم من
استعلى) وقد فاز من غلب وهو اعتراض (قالوا) أي السحرة (يا موسى اما أن تلقي) عصاك أولا (واما أن نكون أول من ألقى) ما معنا وموضع أن مع ما بعده فيهما نصب بفعل مضمر أو رفع بانه خبر مبتدا محذوف معناه اختر أحد الامرين أو الامر القاؤك أو القاؤنا وهذا التخيير منهم استعمال أدب حسن معه وكأنه تعالى الهمهم ذلك وقد وصلت اليهم بركته وعلم موسى اختيار القائهم أولا حتى (قال بل ألقوا) أنتم أولا ليبرزوا ما معهم من مكايد السحر ويظهر الله سلطانه ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه ويسلط المعجزة على السحر فتمحقه فيصير آية نيرة للناظرين وعبرة بينة للمعتبرين فألقوا (فاذا حبالهم وعصيهم) يقال في اذا هذه اذا المفاجأة والتحقيق انها اذا المكانية بمعنى الوقت الطالبة ناصبا لها وجملة تضاف اليها وخصت في بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلا مخصوصا وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير والتقدير ففاجأ موسى وقت
تخيل سعي حبالهم وعصيهم والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة اليه السعي (يخيل) وبالتاء ابن ذكوان (اليه) الى موسى (من سحرهم انها تسعى)
رفع بدل اشتمال من الضمير في يخيل اي يخيل الملقى روي انهم لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت فخيلت ذلك (فأوجس
في نفسه خيفة موسى) اضمر في نفسه خوفا ظنا منه انها تقصده للجبلة البشرية او خاف ان يخالج الناس شك فلا يتبعوه (قلنا لا تخف انك انت الاعلى)
الغالب القاهر وفي ذكر ان وانت وحرف التعريف ولفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة مبالغة بينة (وألق ما في يمينك تلقف) بسكون اللام والفاء
وتخفيف القاف حفص وتلقف ابن ذكوان الباقون تلقف (ما صنعوا) زوروا وافتعلوا اي اطرح عصاك تبتلع عصيهم وحبالهم ولم يقل عصاك تعظيما
لها اي لا تحتفل بما صنعوا فان ما في يمينك اعظم منها او تحقيرا اي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم والق العويد الفرد الذي في يمينك فانه بقدرتنا يتلقفها على
وحدته وكثرتها (انما صنعوا كيد ساحر) كوفي غير عاصم سحر بمعنى ذي سحر او ذوي سحر او هم لتوغلهم في السحر كأنهم السحر وكيد بالرفع
على القراءتين وما موصولة او مصدرية وانما وحد ساحر ولم يجمع لان القصد في هذا الكلام الى معنى الجنسية لا الى معنى العدد فلو جمع لخيل ان المقصود
هو العدد الا ترى الى قوله (ولا يفلح الساحر) اي هذا الجنس (حيث أتى) اينما كان فالقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا فلعظم ما رأوا من الآية
وقعوا الى السجود فذلك قوله (فألقي السحرة سجدا) قال الاخفش من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا فما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر
والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الالقاءين روي انهم رأوا الجنة ومنازلهم فيها في السجود فرفعوا رؤسهم ثم
(قالوا آمنا برب هارون وموسى) وانما قدم هارون هنا واخر في الشعراء محافظة للفاصلة ولان الواو لا توجب ترتيبا

قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا قال بعضهم لبعض ما هذا بقول ساحر (واسروا النجوى) أي المناجاة (قالوا) قال بعضهم لبعض سرا (ان هذان لساحران) يعني موسى وهارون (يريدان ان يخرجاكم من أرضكم) يعني من مصر (بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) قال ابن عباس يعني بسراة قومكم وأشرافكم وقيل معناه يصرفان وجوه الناس عنكم وقيل اراد اهل طريقتكم المثلى وهم بنو اسرائيل يعني يريدان ان يذهبا بهم لانفسهما وقيل معناه يذهبا بسنتكم وبدينكم الذي انتم عليه (فأجمعوا كيدكم) اي لا تدعوا شيئا من كيدكم الا جئتم به وقيل معناه اعزموا كلكم على كيده مجتمعين له ولا تختلفوا فيختل امركم (ثم ائتوا صفا) اي جميعا مصطفين ليكون اشد لهيبتكم وقيل معناه ثم ائتوا المكان الموعود به (وقد أفلح اليوم من استعلى) اي فاز من غلب (قالوا) يعني السحرة (يا موسى اما ان تلقي) اي عصاك (واما ان نكون اول من ألقى) اي عصينا (قال) يعني موسى (بل ألقوا) يعني انتم اولا (فاذا حبالهم) فيه اضمار اي فألقوا فاذا حبالهم (وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى) قيل انهم لما ألقوا الحبال والعصي اخذوا اعين الناس فرأى موسى كأن الارض امتلأت حيات وكانت قد اخذت ميلا في ميل من كل جانب ورآها كأنها تسعى (فأوجس) اي اضمر وقيل وجد (في نفسه خيفة موسى) قيل هو طبع البشرية وذلك انه ظن انها تقصده وقيل انه خاف على القوم ان يلتبس عليهم الامر فيشكوا في امره فلا يتبعوه (قلنا لا تخف) اي قال الله تعالى لموسى لا تخف (انك انت الاعلى) أي الغالب عليهم ولك الغلبة عليهم والظفر (وألق ما في يمينك) أي عصاك والمعنى لا يخيفنك كثرة حبالهم وعصيهم فان في يمينك شيئا أعظم منها كلها (تلقف) أي تلتقم وتبتلع (ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر) أي حيلة ساحر (ولا يفلح الساحر حيث أتى) أي من الارض وقال ابن عباس لا يسعد حيث كان (فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى) قال صاحب الكشاف سبحان الله

(قال آمنتم) بغير مد حفص وبهمزة ممدودة بصري وشامي وحجازي وبهمزتين غيرهم (له قبل أن آذن لكم) اى لموسى يقال آمن له وآمن به (انه لكبيركم الذى علمكم السحر) لعظيمكم او لمعلمكم تقول أهل مكة للمعلم امرني كبيري (فلأقطعن ايديكم وأرجلكم من خلاف) القطع من خلاف ان تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لان كل واحد من العضوين يخالف الآخر بأن هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال ومن لابتداء الغاية لان القطع مبتدأ وناشئ من مخالفة العضو ومحل الجار والمجرور النصب على الحال يعني لاقطعنها مختلفات لانها اذا خالف بعضها بعضا فقد اتصفت بالاختلاف شبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكن المظروف فى الظرف ولهذا قال (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) وخص النخل لطول جذوعها (ولتعلمن أينا أشد عذابا) انا على ايمانكم بي او رب موسى على ترك الايمان به وقيل يريد نفسه لعنه الله وموسى صلوات الله وسلامه عليه بدليل قوله آمنتم له واللام مع الايمان فى كتاب الله لغير الله كقوله يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين (وابقى) ادوم (قالوا لن نؤثرك) لن نختارك (على ما جاءنا من البينات) القاطعة الدالة على صدق موسى (والذى فطرنا) عطف على ما جاءنا اى لن نختارك على الذى جاءنا ولا على الذى خلقنا أو قسم وجوابه لن نؤثرك مقدم على القسم (فاقض ما أنت قاض) فاصنع ما أنت صانع من القتل والصلب قال

وعليهما مسرودتان قضاهما

اى صنعهما (او احكم ما أنت حاكم) (انما تقضي هذه الحياة الدنيا) أى فى هذه الحياة الدنيا فانتصب على الظرف اى انما تحكم فينا مدة حياتنا (انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه) ما موصولة منصوبة بالعطف على خطايانا (من السحر) حال من ما روى أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائما ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ما هذا بسحر الساحر اذا نام بطل سحره فكرهوا معارضته خوف الفضيحة فأكرههم فرعون على الاتيان بالسحر وضر فرعون جهله به ونفعهم علمهم بالسحر فكيف بعلم الشرع (والله خير) ثوابا لمن أطاعه (وأبقى) عقابا لمن عصاه وهو رد لقول فرعون ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى (انه) هو ضمير الشأن (من يأت ربه مجرما) كافرا (فان له) للمجرم (جهنم لا يموت فيها) فيستريح بالموت (ولا يحيى) حياة ينتفع بها (ومن يأته مؤمنا) مات على الايمان (قد عمل الصالحات) بعد الايمان (فأولئك لهم الدرجات العلى) جمع العليا ولا طين (جنات عدن) بدل من الدرجات (تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها) دائمين (وذلك جزاء من تزكى) تطهر من الشرك بقول لا اله الا الله قيل هذه الآيات الثلاث حكاية قولهم وقيل خبر من الله تعالى لا على وجه الحكاية وهو اظهر (ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى) لما اراد الله تعالى اهلاك فرعون وقومه أمر موسى ان يخرج بهم من مصر ليلا ويأخذ بهم طريق البحر (فاضرب لهم طريقا فى البحر) اجعل لهم من قولهم ضرب له فى ماله سهما (يبسا) أى يابسا وهو مصدر وصف به يقال يبس يبسا ويبسا

ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الالقاءين وقيل انهم لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار وقيل انهم لما سجدوا أراهم الله تعالى فى سجودهم منازلهم التى يصيرون اليها فى الجنة (قال) يعني فرعون (آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم) أى لرئيسكم وعظيمكم يعني انه أسحركم واعلاكم فى صناعة السحر ومعلمكم (الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وارجلكم من خلاف) أى أقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) أى على جذوع النخل (ولتعلمن أينا أشد عذابا) أى على ايمانكم به أنا أو رب موسى على ترك الايمان به (وأبقى) أى أدوم (قالوا) يعني السحرة (لن نؤثرك) أى لن نختارك (على ما جاءنا من البينات) يعني الدلالات الواضحات قيل هي اليد البيضاء والعصا وقيل كان استدلالهم انهم قالوا لو كان هذا سحرا فأين حبالنا وعصينا وقيل انهم لما سجدوا رأوا الجنة والنار ورأوا منازلهم فى الجنة وعند ذلك قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات (والذى فطرنا) قيل هو قسم وقيل معناه لن نؤثرك على الله الذى فطرنا (فاقض ما أنت قاض) أى فاصنع ما أنت صانع (انما تقضي هذه الحياة الدنيا) أى انما أمرك وسلطانك فى الدنيا وسيزول عن قريب (انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر) فان قلت كيف قالوا هذا وقد جاؤا مختارين غير مكرهين قلت كان فرعون أكرههم فى الابتداء على تعلمهم السحر لكي لا يذهب أصله وقيل كانت السحرة اثنين وسبعين اثنان من القبط وسبعون من بنى اسرائيل وكان فرعون أكره الذين هم من بنى اسرائيل على تعلم السحر وقيل قال السحرة لفرعون أرنا موسى اذا هو نام فأراهم موسى نائما وعصاه تحرسه فقالوا لفرعون هذا ليس بساحر ان الساحر اذا نام بطل سحره فأبى عليهم فأكرههم على ان يعملوا فذلك قولهم وما أكرهتنا عليه من السحر (والله خير وأبقى) اى خير منك ثوابا وابقى عقابا وقيل خير منك ان اطيع وابقى عذابا ان عصى وهذا جواب لقوله ولتعلمن اينا اشد عذابا وابقى (انه من يأت ربه مجرما) قيل هذا ابتداء كلام من الله تعالى وقيل هو من تمام قول السحرة معناه من مات على الشرك (فان له جهنم لا يموت فيها) فيستريح (ولا يحيى) حياة ينتفع بها (ومن يأته مؤمنا) اى من مات على الايمان (قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) اى الرفيعة العلية ثم فسر الدرجات بقوله (جنات عدن تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) اى تطهر من الذنوب وقيل أعطى زكاة نفسه وقال لا اله الا الله عن ابى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع فى افق السماء وان ابا بكر وعمر منهم وأنعما اخرجه الترمذى قوله وأنعما يقال احسن فلان الى فلان وانعم اى افضل وزاد فى الاحسان والمعنى انهما منهم وزادا وتناهيا الى غايته قوله تعالى (ولقد اوحينا الى موسى ان اسر بعبادى) اى اسر بهم ليلا من ارض مصر (فاضرب لهم طريقا) اى اجعل لهم طريقا (فى البحر) بالضرب بالعصا (يبسا) اى يابسا ليس فيه ماء

(لاتخاف) حال من الضمير فى فاضرب أى اضرب لهم طريقا غير خائف لاتخف حمزة على الجواب (دركا) هو اسم من الادراك أى لا يدركك فرعون وجنوده ولا يلحقونك (ولاتخشى) الغرق وعلى قراءة حمزة ولاتخشى استئناف أى وانت لاتخشى أو يكون الالف للاطلاق كما فى وتظنون بالله الظنونا فخرج بهم موسى من أول الليل وكانوا سبعين ألفا وقد استعاروا حليهم فركب فرعون فى ستمائة ألف من القبط فقص أثرهم فذلك قوله (فأتبعهم فرعون بجنوده) وهو حال أى خرج خلفهم ومعه جنوده (فغشيهم من اليم) أصابهم من البحر (ماغشيهم) هو من جوامع الكلم التى تستقل مع قلتها بالمعانى الكثيرة أى غشيهم مالا يعلم كنهه الا الله عز وجل (وأضل فرعون قومه) عن سبيل الرشاد (وماهدى) وما ارشدهم الى الحق والسداد وهذا رد لقوله وما اهديكم الا سبيل الرشاد ثم ذكر منته على بنى اسرائيل بعد ما انجاهم من البحر وأهلك فرعون وقومه بقوله (يابنى اسرائيل) اى اوحينا الى موسى ان اسر بعبادى وقلنا يابنى اسرائيل (قد انجيناكم من عدوكم) اى فرعون (وواعدناكم) بايتاء الكتاب (جانب الطور الايمن) وذلك ان الله عز وجل وعد موسى ان يأتى هذا المكان ويختار سبعين رجلا يحضرون معه لنزول التوراة وانما نسب اليهم المواعدة لانها كانت لنبيهم ونقباءهم واليهم رجعت منافعها التى قام بها شرعهم ودينهم والايمن نصب لانه صفة جانب وقرئ بالجر على الجوار (ونزلنا عليكم المن والسلوى) فى التيه وقلنا لكم (كلوا من طيبات) حلالات (مارزقناكم) انجيتكم وواعدتكم ورزقتكم كوفى غير عاصم (ولاتطغوا فيه) ولا تتعدوا حدود الله فيه بأن تكفروا النعم وتنفقوها فى المعاصى او لا يظلم بعضكم بعضا (فيحل عليكم غضبى) عقوبتى (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) هلك أو سقط سقوطا لانهوض بعده وأصله أن يسقط من جبل فيهلك وتحقيقه سقط من شرف الايمان الى حفرة من حفر النيران قرأ على فيحل و يحلل والباقون بكسرهما فالمكسور فى معنى الوجوب من حل الدين يحل اذا وجب أداؤه والمضموم فى معنى النزول (وانى لغفار لمن تاب) عن الشرك (وآمن) وحد الله تعالى وصدقه فيما أنزل (وعمل صالحا) أدى الفرائض (ثم اهتدى) ثم استقام وثبت على الهدى المذكور وهو التوبة والايمان والعمل الصالح (وما أعجلك) أى وأى شئ عجل بك (عن قومك

ياموسى) أي عن السبعين الذين اختارهم وذلك أنه مضى معهم الى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقا الى كلام ربه وأمرهم أن يتبعوه قال الله تعالى وما أعجلك أى أى شئ أوجب عجلتك استفهام انكار وما مبتدا وأعجلك الخبر (قال هم أولاء على أثرى) أى هم خلفى يلحقون بى وليس بينى و بينهم الا مسافة يسيرة ثم ذكر موجب العجلة فقال (وعجلت اليك رب) أى الى الموعد الذى وعدت (لترضى) لتزداد عنى رضا وهذا دليل على جواز الاجتهاد (قال فانا قد فتنا قومك) ألقيناهم فى فتنة (من بعدك) من بعد خروجك من بينهم والمراد بالقوم الذين خلفهم مع هارون (وأضلهم السامرى) بدعائه اياهم الى عبادة العجل واجابتهم له وهو منسوب الى قبيلة من بنى اسرائيل يقال لها السامرة وقيل كان علجا من كرمان فاتخذ عجلا واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا (فرجع موسى) من مناجاة ربه (الى قومه غضبان أسفا) شديد الغضب أو حزينا

ولاطين وذلك ان الله تعالى ايبس لهم الطريق فى البحر (لاتخاف دركا ولاتخشى) قيل معناه لاتخاف ان يدركك فرعون من ورائك ولاتخشى ان يغرقك البحر امامك (فاتبعهم) اى فلحقهم (فرعون بجنوده فغشيهم) اى اصابهم (من اليم ماغشيهم) وهو الغرق وقيل علاهم وسترهم من اليم مالم يعلم كنهه الا الله تعالى فغرق فرعون وجنوده ونجا موسى وقومه (واضل فرعون قومه وماهدى) اى وما ارشدهم وهو تكذيب لفرعون فى قوله وما اهديكم الا سبيل الرشاد قوله عز وجل (يابنى اسرائيل قد انجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الايمن ونزلنا عليكم المن والسلوى) ذكرهم الله النعمة فى نجاتهم وهلاك عدوهم وفيما وعد موسى من المناجاة بجانب الطور وكتب التوراة فى الالواح وانما قال وواعدناكم لانها اتصلت بهم حيث كانت لنبيهم ورجعت منافعها اليهم وبها قوام دينهم وشريعتهم وفيما أفاض الله عليهم من سائر نعمه وأرزاقه (كلوا من طيبات مارزقناكم ولاتطغوا فيه) قال ابن عباس لا تظلموا وقيل لا تكفروا النعمة فتكونوا طاغين وقيل لا تتقووا بنعمتى على المعاصى وقيل لا تدخروا (فيحل عليكم غضبى) أى يجب عليكم غضبى (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) أى هلك وسقط فى النار (وانى لغفار لمن تاب) قال ابن عباس تاب عن الشرك (وآمن) أى وحد الله وصدق رسوله (وعمل صالحا) أى أدى الفرائض (ثم اهتدى) قال ابن عباس علم ان ذلك توفيق من الله تعالى وقيل لزم الاسلام حتى مات عليه وقيل علم ان لذلك ثوابا وقيل أقام على السنة قوله عز وجل (وما أعجلك) أى وما حملك على العجلة (عن قومك ياموسى) وذلك ان موسى اختار من قومه سبعين رجلا يذهبون معه الى الطور ليأخذوا التوراة فسار بهم ثم عجل موسى من بينهم شوقا الى ربه وخلف السبعين وأمرهم ان يتبعوه الى الجبل فقال الله له وما أعجلك عن قومك ياموسى فأجاب ربه (قال هم أولاء على أثرى) أى هم بالقرب منى يأتون على أثرى من بعدى فان قلت لم يطابق السؤال الجواب فانه سأله عن سبب العجلة فعدل عن الجواب فقال هم أولاء على أثرى قلت كان هم موسى بسط العذر وتمهيد العلة فى نفس ما أنكر عليه فاعتل بانه لم يوجد منه الا تقدم يسير ثم اعقبه بجواب السؤال فقال (وعجلت اليك رب لترضى) أى لتزداد رضى (قال فانا قد فتنا قومك) أى فانا ابتلينا الذين خلفتهم مع هارون وكانوا ستمائة ألف فافتتنوا بالعجل غير اثنى عشر ألفا (من بعدك) أى من بعد انطلاقك الى الجبل (وأضلهم السامرى) أى دعاهم وصرفهم الى الضلال وهو عبادة العجل وانما أضاف الضلال الى السامرى لانهم ضلوا بسببه وقيل ان جميع المنشآت تضاف الى منشئها فى الظاهر وان كان الموجد لها فى الاصل هو الله تعالى فذلك قوله هنا وأضلهم السامرى قيل كان السامرى من عظماء بنى اسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة وقيل كان من القبط وكان جار الموسى وآمن به وقيل كان علجا من علوج كرمان رفع الى مصر وكان من قوم يعبدون البقر (فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا)

(قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) وعدهم الله ان يعطيهم التوراة التي فيها هدى ونور وكانت ألف سورة كل سورة ألف آية يحمل أسفارها سبعون جملا ولا وعد أحسن من ذلك (أفطال عليكم العهد) أي مدة مفارقتي اياكم والعهد الزمان يقال طال عهدي بك أي طال زماني بسبب مفارقتك (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) أي أردتم أن تفعلوا فعلا يجب به عليكم الغضب من ربكم (فأخلفتم موعدي) وعدوه أن يقيموا على أمره وما تركهم عليه من الآيات فأخلفوا موعده باتخاذ العجل (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) بفتح الميم مدني وعاصم وبضمها حمزة وعلي وبكسرها غيرهم اي ما أخلفنا موعدك بان ملكنا امرنا أي لو ملكنا أمرنا وخلينا ورأينا لما أخلفناك موعدك ولكنا غلبنا من جهة السامري وكيده (ولكنا حملنا) بالضم والتشديد حجازي وشامي وحفص وبفتح الحاء والميم مع التخفيف غيرهم (أوزارا من زينة القوم) أثقالا من حلي القبط أو أرادوا بالأوزار انها آثام وتبعات لانهم قد استعاروها ليلة الخروج من مصر بعلة ان لنا غدا عيدا فقال السامري انما احتبس موسى لشؤم حرمتها لانهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب وليس للمستأمن ان يأخذ مال الحربي على ان الغنائم لم تكن تحل حينئذ فأحرقوها فخبأ في حفرة النار قالب عجل فانصاغت عجلا مجوفا فخار بدخول الريح في مجاريه أشباه العروق وقيل نفخ فيه ترابا من موضع قوائم فرس جبريل عليه السلام يوم الغرق وهو فرس حياة فحيي فخار ومالت طباعهم الى الذهب فعبدوه (فقذفناها) في نار السامري التي أوقدها في الحفرة وامرنا ان نطرح فيها الحلي (فكذلك ألقى السامري) ما معه من الحلي في النار أو ما معه من التراب الذي أخذه من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام (فأخرج لهم) السامري من الحفرة (عجلا) خلقه الله تعالى من الحلي التي سبكتها النار ابتلاء (جسدا) مجسدا (له خوار) صوت وكان يخور كما تخور العجاجيل (فقالوا) أي السامري وأتباعه (هذا إلهكم وإله موسى) فأجاب عامتهم الا اثنا عشر ألفا (فنسي) أي فنسي موسى ربه هنا وذهب يطلبه عند الطور أو هو ابتداء كلام من الله تعالى اي نسي السامري ربه وترك ما كان عليه من الايمان الظاهر أو نسي السامري الاستدلال على ان العجل لا يكون إلها بدليل قوله (أفلا يرون أن لا يرجع) أي انه لا يرجع فان مخففة من الثقيلة (اليهم قولا) اي لا يجيبهم (ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) أي هو عاجز عن الخطاب والضر والنفع فكيف تتخذونه إلها وقيل انه ما خار الا مرة (ولقد قال لهم) لمن عبدوا العجل (هارون من قبل) من قبل رجوع موسى اليهم (يا قوم انما فتنتم به) ابتليتم بالعجل فلا تعبدوه (وان ربكم الرحمن) لا العجل (فاتبعوني) كونوا على ديني الذي هو الحق (وأطيعوا أمري) في ترك عبادة العجل (قالوا لن نبرح عليه عاكفين) أي لن نزال مقيمين على العجل وعبادته (حتى يرجع الينا موسى) فننظر هل يعبده كما عبدناه وهل صدق السامري أم لا فلما رجع موسى فاعتزلهم

أي خزينا خزيا (قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) أي صدقا انه يعطيكم التوراة (أفطال عليكم العهد) أي مدة مفارقتي اياكم (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) أي أردتم ان تفعلوا فعلا يجب عليكم الغضب من ربكم بسببه (فأخلفتم موعدي) يعني ما وعدوه من الاقامة على دينه الى ان يرجع (قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا) اي بملك أمرنا وقيل باختيارنا وذلك ان المرء اذا وقع في الفتنة لم يملك نفسه (ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم) أي حملنا مع أنفسنا ما كنا استعرناه من قوم فرعون والأوزار الأثقال سميت أوزارا لكثرتها وثقلها وقيل الأوزار الآثام أي حملنا آثاما وذلك ان بني اسرائيل استعاروا حليا من القبط ولم يردوها وبقيت معهم الى حين خروجهم من مصر وقيل ان الله لما أغرق فرعون نبذ البحر حليهم فأخذها بنو اسرائيل فكانت غنيمة ولم تكن الغنائم تحل لهم (فقذفناها) أي ألقيناها قيل ان السامري قال لهم احفروا حفيرة والقوها فيها حتى يرجع موسى فيرى رأيه فيها وقيل ان هارون أمرهم بذلك ففعلوا (فكذلك ألقى السامري) أي ما كان معه من الحلي فيها قال ابن عباس أوقد هارون نارا وقال اقذفوا ما معكم فيها وقيل ان هارون مر على السامري وهو يصوغ العجل فقال له ما هذا قال اصنع ما ينفع ولا يضر فادع لي فقال هارون اللهم اعطه ما سألك على ما في نفسه فألقى السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل في فم العجل وقال كن عجلا يخور فكان كذلك بدعوة هارون فذلك قوله تعالى (فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار) اختلفوا هل كان الجسد حيا أم لا على قولين أحدهما لا لانه لا يجوز اظهار خرق العادة على يد ضال بل السامري صور صورة على شكل العجل وجعل فيه منافذ بحيث اذا دخل فيها الريح صوت كصوت العجل الثاني انه صار حيا وخار كما يخور العجل (فقالوا هذا إلهكم وإله موسى) يعني قال ذلك السامري ومن تابعه ممن افتتن به وقيل عكفوا عليه وأحبوه حبا لم يحبوا شيئا قط مثله (فنسي) قيل هو اخبار عن قول السامري أي ان موسى نسي الهه وتركه ههنا وذهب يطلبه وقيل معناه ان موسى انما طلب هذا ولكنه نسيه وخالفه في طريق آخر فأخطأ الطريق وضل وقيل هو من كلام الله تعالى وكأنه أخبر عن السامري انه نسي الاستدلال على حدوث الأجسام وان الاله لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء ثم بين سبحانه وتعالى المعنى الذي يجب الاستدلال به فقال (أفلا يرون ان لا يرجع اليهم قولا) أي ان العجل لا يرد لهم جوابا اذا دعوه ولا يكلمهم (ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) هذا توبيخ لهم اذ عبدوا ما لا يملك ضرا من ترك عبادته ولا نفعا من عبده وكان العجل فتنة من الله ابتلى به بني اسرائيل قوله عز وجل (ولقد قال لهم هارون من قبل) أي من قبل رجوع موسى (ياقوم انما فتنتم به) أي ابتليتم بالعجل (وان ربكم الرحمن فاتبعوني) على ديني في عبادة الله (وأطيعوا أمري) أي في ترك عبادة العجل اعلم ان هارون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه لانه زجرهم أولا عن الباطل بقوله انما فتنتم به ثم دعاهم الى معرفة الله تعالى بقوله وان ربكم الرحمن ثم دعاهم الى معرفة النبوة بقوله فاتبعوني ثم دعاهم الى الشرائع بقوله وأطيعوا أمري فهذا هو الترتيب الجيد لانه لا بد من اماطة الأذى عن الطريق وهي ازالة الشبهات ثم معرفة الله فانها هي الأصل ثم النبوة ثم الشريعة وانما قال وان ربكم الرحمن فخص هذا الموضع بهذا الاسم لانه لينبههم بأنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لانه هو التواب الرحيم فقابلوا هذا القول بالاصرار والجحود (قالوا لن نبرح) أي لن نزال (عليه) أي على عبادة العجل (عاكفين) أي مقيمين (حتى يرجع الينا موسى) كأنهم قالوا لن نقبل حجتك ولا نقبل الا قول موسى

(قال يا هارون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا) بعبادة العجل (ألا تتبعني) بالياء في الوصل والوقف مكي ووافقه أبو عمرو ونافع في الوصل وغيرهم بلا ياء أي ما دعاك الى أن لا تتبعني لوجود التعلق بين الصارف عن فعل الشيء وبين الداعي الى تركه وقيل لا مزيدة والمعنى أي شيء منعك أن تتبعني حين لم يقبلوا قولك وتلحق بي وتخبرني أو ما منعك ان تتبعني في الغضب لله وهلا قاتلت من كفر بمن آمن ومالك لم تباشر الامر كما كنت اباشره انا لو كنت شاهدا (افعصيت امري) اي الذي امرتك به من القيام بمصالحهم ثم اخذ بشعر راسه بيمينه ولحيته بشماله غضبا وانكارا عليه لان الغيرة في الله ملكته

(قال يا ابن ام) وبخفض الميم شامي وكوفي غير حفص وكان لابيه وامه عند الجمهور ولكنه ذكر الام استعطافا وترفيقا (لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) ثم ذكر عذره فقال (اني خشيت أن تقول) ان قاتلت بعضهم ببعض (فرقت بين بني اسرائيل) أو خفت أن تقول ان فارقتهم واتبعتك ولحق بي فريق وتبع السامري فريق فرقت بين بني اسرائيل (ولم ترقب) ولم تحفظ (قولي) اخلفني في قومي واصلح وفيه دليل على جواز الاجتهاد ثم أقبل موسى على السامري منكرا عليه حيث (قال فما خطبك) ما أمرك الذي تخاطب عليه (يا سامري قال بصرت بما لم يبصروا به) وبالتاء حمزة وعلي قال الزجاج بصر علم وابصر نظر أي علمت ما لم يعلمه بنو اسرائيل قال موسى وما ذاك قال رأيت جبريل على فرس الحياة والقي في نفسي أن اقبض من أثرها فما ألقيته على شيء الا صار له روح ولحم ودم (فقبضت قبضة) القبضة المرة من القبض واطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الامير وقرئ فقبصت قبصة بالصاد فالضاد بجميع الكف والصاد باطراف الاصابع (من أثر الرسول) أي من أثر فرس الرسول وقرئ بها (فنبذتها) فطرحتها في جوف العجل (وكذلك سولت) زينت (لي نفسي) أن أفعله ففعلته اتباعا لهواي وهو اعتراف بالخطا واعتذار (قال) له موسى (فاذهب) من بيننا طريدا (فان لك في الحياة) ما عشت (أن تقول) لمن أراد مخالطتك جاهلا بحالك (لا مساس) أي لا يمسني أحد ولا أمسه فمنع من مخالطة الناس منعا كليا وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته واذا اتفق أن يماس أحدا حم الماس والممسوس وكان يهيم في البرية يصيح لا مساس ويقال ان ذلك موجود في أولاده الى الآن وقيل أراد موسى عليه السلام أن يقتله فمنعه الله تعالى منه لسخائه (وان لك موعدا لن تخلفه) أي لن يخلفك الله موعده الذي وعدك على الشرك والفساد في الارض ينجزه لك في الآخرة بعدما عاقبك بذلك في الدنيا لن تخلفه مكي وأبو عمرو وهذا من اخلفت الموعد اذا وجدته خلفا (وانظر الى الهك الذي ظلت عليه) وأصله ظللت فحذف اللام الاولى تخفيفا (عاكفا) مقيما (لنحرقنه) بالنار (ثم لننسفنه) لنذرينه (في اليم نسفا) فحرقه وذراه في البحر فشرب بعضهم من مائه حبا له فظهرت على شفاههم صفرة الذهب (انما الهكم الله

فاعتزلهم هارون ومعه اثنا عشر ألفا الذين لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى سمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل فقال للسبعين الذين معه هذا صوت الفتنة فلما رأى هارون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله و(قال) له (يا هارون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا) أي اشركوا (ألا تتبعني) أي تتبع أمري ووصيتي وهلا قاتلتهم وقد علمت اني لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم وقيل معناه ما منعك من اللحوق بي واخباري بضلالتهم فتكون مفارقتك اياهم زجرا لهم عما أتوه (أفعصيت أمري) أي خالفت أمري (قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) أي بشعر رأسي وكان قد أخذ بذؤابته (اني خشيت أن تقول) أي لو أنكرت عليهم لصاروا أحزابا يقتل بعضهم بعضا فتقول (فرقت بين بني اسرائيل) أي خشيت ان فارقتهم واتبعتك ان يصيروا أحزابا فيتقاتلون فتقول فرقت بين بني اسرائيل (ولم ترقب قولي) أي تحفظ وصيتي حين قلت لك اخلفني في قومي واصلح وارفق بهم ثم أقبل موسى على السامري (قال فما خطبك يا سامري) أي فما أمرك وشأنك وما الذي حملك على ما صنعت (قال) يعني السامري (بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول) أي من تراب حافر فرس جبريل (فنبذتها) أي فقذفتها في فم العجل فخار فان قلت كيف عرف السامري جبريل ورآه من بين سائر الناس قلت ذكروا فيه وجهين أحدهما ان أمه ولدته في السنة التي كان يقتل فيها البنون فوضعته في كهف حذرا عليه من القتل فبعث الله اليه جبريل ليربيه لما قضى الله على يديه من الفتنة الوجه الثاني انه لما نزل جبريل الى موسى ليذهب به الى الطور رآه السامري من بين سائر الناس فلما رآه قال ان لهذا لشأنا فقبض القبضة من تربة أثر موطئه فلما سأله موسى قال قبضت قبضة من أثر الرسول اليك يوم جاء للميعاد وقيل رآه يوم فلق البحر فأخذ القبضة وجعلها في عمامته لما يريد الله ان يظهره من الفتنة على يديه وهو قوله (وكذلك سولت) أي زينت (لي نفسي) وقيل انه من السؤال والمعنى انه لم يدعني الى فعله غيري واتبعت فيه هواي (قال) يعني موسى للسامري (فاذهب فان لك في الحياة) أي ما دمت حيا (أن تقول لا مساس) أي لا تخالط أحدا ولا يخالطك أحد فعوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أوحش منها ولا أعظم وذلك ان موسى أمر بني اسرائيل ان لا يخالطوه ولا يقربوه وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وقال ابن عباس لا مساس لك ولولدك فصار السامري يهيم في البرية مع الوحش والسباع لا يمس أحدا ولا يمسه أحد وقيل كان اذا مس أحدا او مسه أحد حما جميعا فتحامى الناس وتحاموه وكان يصيح لا مساس حتى ان بقاياهم اليوم يقولون ذلك (وان لك) أي يا سامري (موعدا) أي بعذابك في الآخرة (لن تخلفه) قرئ بكسر اللام ومعناه لن تغيب عنه ولا مذهب لك منه بل توافيه يوم القيامة وقرئ بالفتح أي لن تكذبه ولن يخلفكه الله بل يكافئك على فعلك (وانظر الى الهك) أي الذي تزعم (الذي ظلت عليه عاكفا) أي دمت عليه مقيما تعبده (لنحرقنه) بالنار (ثم لننسفنه) أي لنذرينه (في اليم) أي في البحر (نسفا) روي ان موسى أخذ العجل فذبحه فسال منه دم وحرقه في النار ثم ذراه في البحر وقيل معناه لنحرقنه أي لنبردنه فعلى هذا التأويل لم ينقلب لحما ودما لان ذلك لا يمكن ان يبرد بالمبرد ويمكن ان يقال صار لحما ودما فذبح ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث ان يمكن نسفها في البحر فلما فرغ موسى من أمر العجل وابطال ما ذهب اليه السامري رجع الى بيان الدين الحق فقال مخاطبا لبني اسرائيل (انما الهكم الله) أي المستحق

الذي لا اله الا هو وسع كل شيء علما) تمييز أي وسع علمه كل شيء ومحل الكاف في (كذلك) نصب أي مثل ما اقتصصنا عليك قصة موسى وفرعون (نقص عليك من انباء ما قد سبق) من أخبار الامم الماضية تكثيرا لبيناتك وزيادة في معجزاتك (وقد آتيناك) أي أعطيناك (من لدنا) من عندنا (ذكرا) قرآنا فهو ذكر عظيم وقرآن كريم فيه النجاة لمن أقبل عليه وهو مشتمل على الاقاصيص والاخبار الحقيقة بالتفكر والاعتبار (من أعرض عنه) عن هذا الذكر وهو القرآن ولم يؤمن به (فانه يحمل يوم القيامة وزرا) عقوبة ثقيلة سماها وزرا تشبيها في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الثقيل الذي ينقض ظهره ويلقى عليه بهره أو لانها جزاء الوزر وهو الاثم (خالدين) حال من الضمير في يحمل وانما جمع على المعنى ووحد في فانه حملا على لفظ من (فيه) في الوزر اي في جزاء الوزر وهو العذاب (وساء لهم يوم القيامة حملا) ساء في حكم بئس وفيه ضمير مبهم يفسره حملا وهو تمييز واللام في لهم للبيان كما في هيت لك والمخصوص بالذم محذوف لدلالة الوزر السابق عليه تقديره ساء الحمل حملا وزرهم (يوم ينفخ) بدل من يوم القيامة ننفخ أبو عمرو (في الصور) القرآن أو هو جمع صورة أي ننفخ الارواح فيها دليله قراءة قتادة في الصور بفتح الواو جمع صورة (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) حال أي عميا كما قال ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وهذا لان حدقة من يذهب نور بصره تزرق (يتخافتون) يتسارون (بينهم) أي يقول بعضهم لبعض سرا لهول ذلك اليوم (ان لبثتم) ما لبثتم في الدنيا (الا عشرا) أي عشر ليال يستقصرون مدة لبثهم في القبور أو في الدنيا لما يعاينون من الشدائد التي تذكرهم أيام النعمة والسرور فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر لان أيام السرور قصار أو لانها ذهبت عنهم والذاهب وان طالت مدته قصير بالانتهاء أو لاستطالتهم الآخرة لانها أبد يستقصر اليها عمر الدنيا ويتقال لبث أهلها فيها بالقياس الى لبثهم في الآخرة وقد رجح الله قول من يكون أشد تقالا منهم بقوله (نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة) أعدلهم قولا (ان لبثتم الا يوما) وهو كقوله قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين (ويسألونك عن الجبال) سألوا النبي صلى الله عليه وسلم ما يصنع بالجبال يوم القيامة وقيل لم يسئل وتقديره ان سألوك (فقل) ولذا قرن بالفاء بخلاف سائر السؤالات مثل قوله ويسألونك عن المحيض قل هو أذى وقوله ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير يسألونك عن الساعة ايان مرساها قل انما علمها عند ربي ويسألونك عن الروح قل الروح ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو لانها سؤالات تقدمت فورد جوابها ولم يكن فيها معنى الشرط فلم يذكر الفاء (ينسفها ربي نسفا) أي يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فيفرقها كما يذري الطعام وقال الخليل يقلعها (فيذرها) فيذر مقارها أو يجعل الضمير للارض للعلم بها كقوله ما ترك على ظهرها (قاعا صفصفا) مستوية ملساء (لا ترى فيها عوجا) انخفاضا (ولا أمتا) ارتفاعا والعوج بالكسر وان كان في المعاني كما ان المفتوح في الاعيان والارض عين ولكن لما استوت الارض استواء لا يمكن ان يوجد فيها اعوجاج بوجه ما وان دقت الحيلة ولطفت جرت مجرى المعاني (يومئذ) أضاف اليوم الى وقت نسف الجبال أي يوم اذ نسفت وجاز ان يكون بدلا بعد بدل من يوم القيامة (يتبعون الداعي) الى المحشر أي صوت الداعي وهو اسرافيل حين ينادي على صخرة بيت المقدس أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلمي الى عرض الرحمن فيقبلون من كل أوب الى صوبه لا يعدلون عنه (لا عوج له) اي لا يعوج له مدعو بل يستوون اليه من غير انحراف متبعين لصوته (وخشعت) وسكنت (الاصوات للرحمن) هيبة واجلالا (فلا تسمع الا همسا) صوتا خفيفا لتحريك الشفاه وقيل هو من همس الابل وهو صوت اخفافها اذا مشت أي لا تسمع الا خفق الاقدام ونقلها الى المحشر

للعبادة والتعظيم هو الله (الذي لا اله الا هو وسع كل شيء علما) أي وسع علمه كل شيء وقيل يعلم من يعبده قوله عز وجل (كذلك نقص عليك من انباء) يعني من أخبار (ما قد سبق) يعني الامم الخالية وقيل ما سبق من الامور (وقد آتيناك من لدنا ذكرا) وهو القرآن (من أعرض عنه) أي عن القرآن ولم يؤمن به ولم يعمل بما فيه (فانه يحمل يوم القيامة وزرا) أي حملا ثقيلا من الاثم (خالدين فيه) أي مقيمين في عذاب الوزر (وساء لهم يوم القيامة حملا) أي بئس ما حملوا أنفسهم من الاثم (يوم ينفخ في الصور) قيل هو قرن ينفخ فيه يدعى به الناس للحشر والمراد بهذه النفخة النفخة الثانية لانه أتبعه بقوله (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) أي نحشر المجرمين زرق العيون سود الوجوه وقيل عميا وقيل عطاشا (يتخافتون) أي يتشاورون (بينهم) ويتكلمون خفية (ان لبثتم) أي مكثتم في الدنيا (الا عشرا) أي عشر ليال وقيل في القبور وقيل بين النفختين وهو مقدار أربعين سنة وذلك ان العذاب رفع عنهم بين النفختين فاستقصروا مدة لبثهم لهول ما عاينوا فقال الله تعالى (نحن أعلم بما يقولون) أي يتشاورون فيما بينهم (اذ يقول أمثلهم طريقة) أي أوفاهم عقلا وأعدلهم قولا (ان لبثتم الا يوما) أي قصر ذلك في أعينهم في جنب ما استقبلهم من أهوال يوم القيامة وقيل نسوا مقدار لبثهم لشدة ما دهمهم قوله عز وجل (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا) قال ابن عباس سأل رجل من ثقيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كيف تكون الجبال يوم القيامة فأنزل الله تعالى هذه الآية والنسف هو القلع أي يقلعها من أصولها ويجعلها هباء منثورا (فيذرها) أي يدع أماكن الجبال من الارض (قاعا صفصفا) أي أرضا ملساء لا نبات فيها (لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) أي لا انخفاضا ولا ارتفاعا أي لا ترى واديا ولا رابية (يومئذ يتبعون الداعي) أي صوت الداعي الذي يدعوهم الى موقف يوم القيامة وهو اسرافيل وذلك انه يضع الصور في فيه ويقف على صخرة بيت المقدس ويقول أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلموا الى عرض الرحمن (لا عوج له) أي لا عوج لهم عن دعائه ولا يزيغون عنه يمينا ولا شمالا بل يتبعونه سراعا (وخشعت الاصوات للرحمن) أي سكنت وذلت وخضعت وضعفت والمراد به أصحاب الاصوات وقيل خضعت الاصوات من شدة الفزع (فلا تسمع الا همسا) وهو الصوت الخفي قال ابن عباس هو تحريك الشفاه من غير نطق وقيل أراد

بالهمس

(يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن) محل من رفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف أى لا تنفع الشفاعة الا شفاعة من أذن له الرحمن أى أذن للشافع فى الشفاعة (ورضى له قولا) أى رضى قولا لاجله بأن يكون المشفوع له مسلما أو نصب على المدح لانه مفعول تنفع (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى يعلم ما تقدمهم من الاحوال وما يستقبلونه (ولا يحيطون به علما) اى بما أحاط به علم الله فيرجع الضمير الى ما أو يرجع الضمير الى الله لانه تعالى ليس بمحاط (وعنت) خضعت وذلت ومنه قيل للاسير عان (الوجوه)

أى أصحابها (للحى) الذى لا يموت وكل حياة يتعقبها الموت فهى كأن لم تكن (القيوم) الدائم القائم على كل نفس بما كسبت أو القائم بتدبير الخلق (وقد خاب) يئس من رحمة الله (من حمل ظلما) من حمل الى موقف القيامة شركا لان الظلم وضع الشئ فى غير موضعه ولا ظلم أشد من جعل المخلوق شريك من خلقه (ومن يعمل من الصالحات) الصالحات الطاعات (وهو مؤمن) مصدق بما جاء به محمد عليه السلام وفيه دليل انه يستحق اسم الايمان بدون الاعمال الصالحة وان الايمان شرط قبولها (فلا يخاف) أى فهو لا يخاف فلا يخف على النهى مكى (ظلما) ان يزاد فى سيئاته (ولا هضما) ولا ينقص من حسناته واصل الهضم النقص والكسر (وكذلك) عطف على كذلك نقص اى ومثل ذلك الانزال (انزلناه قرآنا عربيا) بلسان العرب (وصرفنا) كررنا (فيه من الوعيد لعلهم يتقون) يجتنبون الشرك (او يحدث لهم) الوعيد او القرآن (ذكرا) عظة وشرفا بايمانهم به وقيل او بمعنى الواو (فتعالى الله) ارتفع عن فنون الظنون واوهام الافهام وتنزه عن مضاهاة الانام ومشابهة الاجسام (الملك) الذى يحتاج اليه الملوك (الحق) المحق فى الالوهية ولما ذكر القرآن وانزاله قال استطرادا واذا لقنك جبريل ما يوحى اليك من القرآن فتأن عليك ريثما يسمعك ويفهمك (ولا تعجل بالقرآن) بقراءته (من قبل ان يقضى اليك وحيه) من قبل ان يفرغ جبريل من الابلاغ (وقل رب زدنى علما) بالقرآن ومعانيه وقيل ما امر الله رسوله بطلب الزيادة فى شئ الا فى العلم (ولقد عهدنا الى آدم) اى اوحينا اليه ان لا يأكل من الشجرة يقال فى اوامر الملوك ووصاياهم تقدم الملك الى فلان واوصى اليه وعزم عليه وعهد اليه وعطف قصة آدم على وصرفنا فيه من الوعيد والمعنى واقسم قسما لقد امرنا اباهم آدم ووصيناه ان لا يقرب الشجرة (من قبل) من قبل وجودهم فخالف الى ما نهى عنه كما انهم يخالفون يعنى ان اساس امر بنى آدم على ذلك وعرقهم راسخ فيه (فنسى) العهد اى النهى والانبياء عليهم السلام يؤاخذون بالنسيان الذى لو تكلفوا لحفظوه

بالهمس صوت وطء الاقدام الى المحشر كصوت اخفاف الابل (يومئذ لا تنفع الشفاعة) لاحد من الناس (الا من أذن له الرحمن) أى الا من أذن له ان يشفع (ورضى له قولا) قال ابن عباس يعنى قال لا اله الا الله وفيه دليل على انه لا يشفع غير المؤمن وقيل ان درجة الشافع درجة عظيمة فهى لا تحصل الا لمن يأذن الله له فيها وكان عند الله مرضيا (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) قيل الكناية راجعة الى الذين يتبعون الداعى أى يعلم الله ما قدموا من الاعمال وما خلفوا من الدنيا وقيل الضمير يرجع الى من أذن له الرحمن وهو الشافع والمعنى لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ان يشفع ثم قال يعلم ما بين أيديهم أى أيدى الشافعين وما خلفهم (ولا يحيطون به علما) قيل الكناية ترجع الى ما أى هو يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وهم لا يعلمونه والمعنى ان العباد لا يحيطون بما بين أيديهم وما خلفهم علما وقيل الكناية راجعة الى الله تعالى اى ولا يحيطون بالله علما (وعنت الوجوه) أى ذلت وخضعت فى ذلك اليوم ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره وذكر الوجوه وأراد بها المكلفين لان عنت من صفات المكلفين لا من صفات الوجوه وانما خص الوجوه بالذكر لان الخضوع بها يتبين وفيها يظهر وقوله تعالى (للحى القيوم) تقدم تفسيره (وقد خاب من حمل ظلما) قال ابن عباس خسر من أشرك بالله (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) قال ابن عباس معناه لا يخاف أن يزاد على سيئاته ولا ينقص من حسناته وقيل لا يؤاخذ بذنب لم يعمله ولا تبطل عنه حسنة عملها قوله تعالى (وكذلك أنزلناه) أى كما بينا فى هذه السورة هذه الآيات المتضمنة للوعيد أنزلنا القرآن كله كذلك وقوله (قرآنا عربيا) أى بلسان العرب ليفهموه ويقفوا على اعجازه وحسن نظمه وخروجه عن كلام البشر (وصرفنا فيه من الوعيد) أى كررنا وفصلنا القول فيه بذكر الوعيد ويدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم لان الوعيد بهما يتعلق فتكريره وتصريفه يقتضى بيان الاحكام فلذلك قال تعالى (لعلهم يتقون) أى يجتنبون الشرك والمحارم وترك الواجبات (أو يحدث لهم ذكرا) أى انه أنزلنا القرآن ليصيروا متقين محترزين ما لا ينبغى ويحدث لهم القرآن ذكرا يبعثهم فى الطاعات وفعل ما ينبغى وقيل معناه يحدث لهم القرآن عبرة وعظة فيعتبرون ويتعظون بذكر عقاب الله الامم السالفة قوله تعالى (فتعالى الله الملك الحق) أى جل الله وعظم عن الحاد الملحدين وعما يقوله المشركون والجاحدون وقيل فيه تنبيه على ما يلزم خلقه من تعظيمه وتمجيده وقيل انما وصف نفسه بالملك الحق لان ملكه لا يزول ولا يتغير وليس بمستفاد من قبل الغير ولا غيره أولى به منه (ولا تعجل بالقرآن) أراد النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا نزل عليه جبريل بالقرآن يبادره فيقرأ معه قبل أن يفرغ جبريل مما يريده من التلاوة مخافة الانفلات او النسيان فنهاه الله تعالى عن ذلك فقال تعالى ولا تعجل بالقرآن أى ولا تعجل بقراءته (من قبل أن يقضى اليك وحيه) أى من قبل أن يفرغ جبريل من الابلاغ وقيل معناه لا تقرئه أصحابك ولا تمله عليهم حتى يتبين لك معناه (وقل رب زدنى علما) فيه التواضع والشكر لله والمعنى زدنى علما الى ما علمت فان لك فى كل شئ علما وحكمة قيل ما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بطلب الزيادة فى شئ الا فى العلم وكان ابن مسعود اذا قرأ هذه الآية يقول اللهم زدنى علما وايمانا ويقينا قوله عز وجل (ولقد عهدنا الى آدم) يعنى أمرناه وأوحينا اليه أن لا يأكل من الشجرة (من قبل) أى من قبل هؤلاء الذين نقضوا عهدى وتركوا الايمان بى وهم الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله تعالى لعلهم يتقون (فنسى) أى فترك ما عهدنا اليه من

(ولم نجد له عزما) قصدا الى الخلاف لامره اولم يكن آدم من أولى العزم والوجود بمعنى العلم ومفعولاه له عزما او بمعنى نقيض العدم اى وعدمنا له عزما وله متعلق بنجد (واذ قلنا) منصوب باذكر (للملائكة اسجدوا لآدم) قيل هو السجود اللغوى الذى هو الخضوع والتذلل او كان آدم كالقبلة لضرب تعظيم له فيه (فسجدوا الا ابليس) عن ابن عباس

رضى الله عنهما ان ابليس كان ملكا من جنس المستثنى منهم وقال الحسن الملائكة لباب الخليقة من الارواح ولا يتناسلون وابليس من نار السموم وانما صح استثناؤه منهم لانه كان يصحبهم ويعبد الله معهم (أبى) جملة مستأنفة كأنه جواب لمن قال لم لم يسجد والوجه ان لا يقدر له مفعول وهو السجود المدلول عليه بقوله فسجدوا وان يكون معناه أظهر الاباء وتوقف (فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك) حيث لم يسجد لك ولم يرفضلك (فلا يخرجنكما من الجنة) فلا يكونن سببا لاخراجكما (فتشقى) فتتعب فى طلب القوت ولم يقل فتشقيا مراعاة لرؤس الآى اودخلت تبعا ولان الرجل هو الكافل لنفقة المرأة وروى انه أهبط الى آدم ثور أحمر وكان يحرث عليه ويمسح العرق من جبينه (ان لك الا تجوع فيها) فى الجنة (ولا تعرى) عن الملابس لانها معدة أبدا فيها (وانك) بالكسر نافع وأبو بكر عطفا على ان الاولى وغيرهما بالفتح عطفا على ان لا تجوع ومحله نصب بأن وجاز للفصل كما تقول ان فى على أنك جالس (لا تظمأ فيها) لا تعطش لوجود الاشربة فيها (ولا تضحى) لا يصيبك حر الشمس اذ ليس فيها شمس وأهلها فى ظل ممدود (فوسوس اليه الشيطان) أى أنهى اليه الوسوسة كأسر اليه (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) أضاف الشجرة الى الخلد وهو الخلود لان من أكل منها خلد بزعمه ولا يموت (وملك لا يبلى) لا يفنى (فأكلا) أى آدم وحواء (منها فبدت لهما سوآتهما) عوراتهما (وطفقا) طفق يفعل كذا مثل جعل يفعل وهو كذا فى وقوع الخبر فعلا مضارعا الا انه للشروع فى أول الامر وكاد للدنو منه (يخصفان عليهما من ورق الجنة) أى يلزقان الورق بسوآتهما للتستر وهو ورق التين (وعصى آدم ربه فغوى) ضل عن الرأى وعن ابن عيسى خاب والحاصل ان العصيان وقوع الفعل على خلاف الامر والنهى وقد يكون عمدا فيكون ذنبا وقد لا يكون عمدا فيكون زلة ولما وصف فعله بالعصيان خرج فعله من ان يكون رشدا فكان غيا لان الغى خلاف الرشد وفى التصريح بقوله وعصى آدم ربه فغوى والعدول عن قوله وزل آدم مزجرة بليغة وموعظة كافة للمكلفين كأنه قيل لهم انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبى المعصوم حبيب الله زلته بهذه الغلظة فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من الصغائر فضلا عن الكبائر والمخاصمة

الاحتراز عن أكل هذه الشجرة وأكل منها وقيل أراد النسيان الذى هو ضد الذكر (ولم نجد له عزما) أى صبرا عما نهى عنه وحفظا لما أمر به وقيل معناه لم نجد له رأيا معزوما حيث أطاع عدوه ابليس الذى حسده وأبى أن يسجد له وقيل معناه لم نجد له عزما على المقام على المعصية فيكون الى المدح أقرب قوله عز وجل (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى) أن يسجد (فقلنا يا آدم ان هذا) أى ابليس (عدو لك ولزوجك) أى حواء وسبب العداوة ما رأى من آثار نعمة الله على آدم فحسده فصار عدواله (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) أسند الخروج اليه وان كان الله تعالى هو المخرج لانه لما كان بوسوسته فعل آدم ما يترتب عليه الخروج صح ذلك ومعنى تشقى تتعب وتنصب ويكون عيشك من كد يمينك بعرق جبينك وهو الحرث والزرع والحصد والطحن والخبز قيل أهبط الى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه فكان ذلك شقاءه فان قلت أسند الشقاء الى آدم دون حواء قلت فيه وجهان أحدهما ان فى ضمن شقاء الرجل شقاء أهله كما ان فى سعادته سعادتهم لانه القيم عليهم الثانى أريد بالشقاء التعب فى طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة لان الرجل هو الساعى على زوجته (ان لك الا تجوع فيها) أى فى الجنة (ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها) أى تعطش (ولا تضحى) أى تبرز للشمس فيؤذيك حرها لانه ليس فى الجنة شمس وأهلها فى ظل ممدود والمعنى ان الشبع والرى والكسوة والكن هى الامور التى يدور عليها كفاف الانسان فذكر الله تعالى حصول هذه الاشياء فى الجنة وانه مكفى لا يحتاج الى كفاية كاف ولا الى كسب كاسب كما يحتاج اليه أهل الدنيا (فوسوس اليه الشيطان) أى أنهى اليه الوسوسة كأسر اليه ثم بين تلك الوسوسة ما هى فقال (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) أى على الشجرة التى ان أكلت منها بقيت مخلدا (وملك لا يبلى) أى لا يبيد ولا يفنى رغبه فى دوام الراحة وكان الشئ الذى رغب الله فيه آدم رغبه ابليس فيه الا ان الله تعالى وقف ذلك على الاحتراز عن تلك الشجرة وابليس وقفه على الاقدام عليها وآدم مع كمال علمه بأن الله تعالى هو خالقه وربه ومولاه وناصره وابليس هو عدوه أعرض عن قول الله تعالى ولم يرد المخالفة ومن تأمل هذا السر عرف أنه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه وقوله تعالى (فأكلا منها) يعنى أكل آدم وحواء من الشجرة (فبدت لهما سوآتهما) أى عريا من الثياب التى كانت عليهما حتى بدت فروجهما وظهرت عوراتهما (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) أى يلزقان بسوآتهما من ورق التين (وعصى آدم ربه) أى بأكل الشجرة (فغوى) أى فعل ما لم يكن له فعله وقيل أخطأ طريق الحق وضل حيث طلب الخلد بأكل ما نهى عنه فخاب ولم ينل مراده وصار من العز الى الذل ومن الراحة الى التعب قال ابن قتيبة يجوز أن يقال عصى آدم ولا يجوز أن يقال آدم عاص لانه انما يقال لمن اعتاد فعل المعصية كالرجل يخيط ثوبه يقال خاط ثوبه ولا يقال هو خياط حتى يعاود ذلك مرارا ويعتاده (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا أخرجتنا من الجنة فقال له آدم أنت يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده أتلومنى على أمر قدره الله تعالى على قبل أن يخلقنى بأربعين عاما فحج آدم موسى وفى رواية لمسلم قال آدم بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين سنة قال فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال له نعم قال فهل تلومنى على أن عملت عملا كتب الله على أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى الكلام على معنى الحديث وشرحه قوله احتج آدم وموسى المحاجة المجادلة

والمخاصمة يقال حاججت فلانا فحججته أي جادلته فغلبته قال أبو سليمان الخطابي قد يحسب كثير من الناس ان معنى القدر والقضاء من الله تعالى على معنى الاجبار والقهر للعبد على ما قضاه وقدره ويتوهم ان قوله فحج آدم موسى من هذا الوجه وليس كذلك وانما معناه الاخبار عن تقدم علم الله بما يكون من أفعال العباد واكسابهم وصدورها على تقدير منه وخلق لها خيرها وشرها والقدر اسم لما صدر مقدرا عن فعل القادر والقضاء في هذا معناه الخلق واذا كان الامر كذلك فقد بقي عليهم من وراء علم الله فيهم أفعالهم واكسابهم ومباشرتهم الامور وملابستهم اياها عن قصد وتعمد وتقدم ارادة واختيار فالحجة انما تلزمهم بها واللائمة تلحقهم عليها وجماع القول في هذا انهما أمران لا ينفك أحدهما عن الآخر لان أحدهما بمنزلة الاساس والآخر بمنزلة البناء فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه وانما موضع الحجة لآدم على موسى ان الله تعالى كان قد علم من آدم أنه يتناول الشجرة ويأكل منها فكيف يمكنه أن يرد علم الله فيه وأن يبطله بعد ذلك وانما كان تناوله الشجرة سببا لنزوله الى الارض التي خلق لها وانما أدلى آدم بالحجة على هذا المعنى ودفع لائمة موسى عن نفسه ولذلك قال أتلومني على أمر قدره الله على من قبل أن يخلقني

(فصل في عصمة الانبياء وما قيل في ذلك) قال الامام فخر الدين الرازي اختلف الناس في عصمة الانبياء وضبط القول فيها يرجع الى أقسام أربعة أحدها ما يقع في باب الاعتقاد وهو اعتقاد الكفر والضلال فان ذلك غير جائز عليهم الثاني ما يتعلق بالتبليغ فقد اجمعت الامة على كونهم معصومين عن الكذب مواظبين على التبليغ والتحريض والا لارتفع الوثوق بالاداء واتفقوا على ان ذلك لا يجوز وقوعه منهم عمدا ولا سهوا ومن الناس من جوز ذلك سهوا قالوا لان الاحتراز عنه غير ممكن الثالث ما يتعلق بالفتيا فأجمعوا على انه لا يجوز خطأهم فيها على سبيل العمد وأجازه بعضهم على سبيل السهو الرابع ما يقع في أفعالهم فقد اختلفت الامة فيه على خمسة أقوال أحدها قول من جوز عليهم الكبائر الثاني قول من منع من الكبائر وجوز الصغائر على جهة العمد وهو قول أكثر المعتزلة الثالث لا يجوز أن يأتوا صغيرة ولا كبيرة البتة بل على جهة التأويل وهو قول الجبائي الرابع انه لا يقع منهم الذنب الا على جهة السهو والخطأ الخامس أنه لا يقع منهم لا كبيرة ولا صغيرة لا على سبيل العمد ولا على سبيل السهو ولا على سبيل التأويل وهو قول الشيعة واختلف الناس في وقت العصمة على ثلاثة أقوال أحدها قول من ذهب الى انهم معصومون من حين وقت الولادة وهو قول الشيعة الثاني قول من ذهب الى عصمتهم من وقت بلوغهم وهم أكثر المعتزلة الثالث قول من ذهب الى ان ذلك لا يجوز منهم بعد النبوة وهو قول أكثر أصحابنا وأبي الهذيل وأبي علي من المعتزلة قال الامام والمختار عندنا انه لم يصدر عنهم ذنب لا صغيرة ولا كبيرة من حين جاءتهم النبوة ويدل عليه وجوه أحدها لو صدر الذنب عنهم لكانوا أقل درجة من آحاد الامة وذلك غير جائز لان درجة الانبياء غاية في الرفعة والشرف الثاني لو صدر منه وجب أن لا يكون مقبول الشهادة فكان أقل حالا من عدول الامة وذلك غير جائز أيضا لان معنى النبوة والرسالة هو أن يشهد على الله أنه شرع هذا الحكم وأيضا فانه يوم القيامة شاهد على الكل الثالث لو صدر من النبي ذنب وجب الاقتداء به فيه وذلك محال الرابع ثبت ببديهة العقل أنه لا شيء أقبح بمن رفع الله درجته وائتمنه على وحيه وجعله خليفته في عباده وبلاده يسمع ربه يناديه لا تفعل كذا فيقدم عليه ويفعله ترجيحا لغرضه واجمعت الامة على ان الانبياء كانوا يأمرون الناس بطاعة الله فلو لم يطيعوه لدخلوا تحت قوله أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون وقال وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه الخامس قال الله تعالى انهم كانوا يسارعون في الخيرات ولفظه للعموم فيتناول الكل ويدل على فعل ما ينبغي فعله وترك ما ينبغي تركه فثبت ان الانبياء كانوا فاعلين لكل خير وتاركين لكل منهي وذلك ينافي صدور الذنب عنهم السادس قال الله

تعالى الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ان الله سميع بصير وقال تعالى ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين وقال فى حق موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى وقال تعالى واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب اولى الايدى والابصار انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار وغير ذلك من الآيات التى تدل على كونهم موصوفين بالاصطفاء والخيرة وذلك ينافى صدور الذنب عنهم وذكر غير ذلك من الوجوه قال وأما المخالف فقد تمسك بآيات منها قصة آدم هذه والجواب عنها أن نقول ان كلامهم انما يتم أن لو بينوا بالدلالة ان ذلك كان حال النبوة وذلك ممنوع ولم لا يجوز أن يقال ان آدم حال ما صدرت عنه هذه الاشياء ما كان نبيا وان هذه الواقعة كانت قبل النبوة وان الله تعالى قبل توبته وشرفه بالنبوة والرسالة وقال القاضى عياض وأما قصة آدم وقوله وعصى آدم ربه فغوى أى جهل وقيل أخطأ وقد أخبر الله تعالى بعذره فى قوله ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما أى نسى عداوة ابليس له وما عهد الله اليه وقيل لم يقصد المخالفة استحلالا لها ولكنه اغتر بحلف ابليس له انى لكما لمن الناصحين وتوهم ان أحدا لا يحلف بالله كاذبا وقيل نسى ولم ينو المخالفة فلذلك قال ولم نجد له عزما أى قصدا للمخالفة وقيل بل أكل من الشجرة متأولا وهو لا يعلم انها الشجرة التى نهى عنها لانه تأول نهى الله عن شجرة مخصوصة لا على الجنس ولهذا قيل انما كانت التوبة من ترك التحفظ لا من المخالفة وقيل تأول ان الله لم ينهه عنها نهى تحريم فان قلت اذا نفيت عنهم الذنوب والمعاصى فما معنى قوله وعصى آدم ربه فغوى وما تكرر فى القرآن والحديث من اعتراف الانبياء بذنوبهم وتوبتهم واستغفارهم واشفاقهم وبكائهم على ما سلف منهم وهل يتوب ويستغفر من لا شئ عليه قلت ان درجة الانبياء فى الرفعة والعلو والمعرفة بالله وسنته فى عباده وعظيم سلطانه وقوة بطشه مما يحملهم على الخوف منه جل جلاله والاشفاق من المؤاخذة بما لا يؤاخذ به غيرهم وانهم فى تصرفهم بأمور لم ينهوا عنها ولم يؤمروا بها وأتوها على وجه التأويل أو السهو وتزيدوا من أمور الدنيا المباحة أو خذوا عليها وعوتبوا بسببها وحذروا من المؤاخذة بها فهم خائفون وجلون وهى ذنوب بالاضافة الى علو منصبهم ومعاص بالنسبة الى كمال طاعتهم لا انها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاصيهم كان هذا أدنى أفعالهم وأسوأ ما يجرى من أحوالهم كما قيل حسنات الابرار سيئات المقربين أى يرونها بالاضافة الى علو أحوالهم كالسيئات وسنذكر فى كل موضع ما يليق به وما قيل فيه ان شاء الله تعالى قوله عز وجل (ثم اجتباه ربه) أى اختاره واصطفاه (فتاب عليه) أى عاد عليه بالعفو والمغفرة (وهدى) أى هداه لرشده حتى رجع الى الندم والاستغفار (قال اهبطا منها جميعا) قيل الخطاب لآدم ومعه ذريته ولابليس ومعه ذريته فصح قوله اهبطا لاشتمال كل واحد من الجنسين على الكثرة وقيل الخطاب لآدم وحواء لانهما أصل البشر فعلا كأنهما البشر فخوطبا بلفظ الجمع (بعضكم لبعض عدو) وقيل فى تقوية هذا الظاهر حقه أن يكون ابليس والشياطين أعداء الناس ويحتمل أن يكون بعض الفريقين لبعض عدوا (فاما يأتينكم منى هدى) أى كتاب ورسول (فمن اتبع هداى) أى الكتاب والرسول (فلا يضل ولا يشقى) قال ابن عباس من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ووقاه يوم القيامة سوء الحساب وذلك لأن الله تعالى يقول فمن اتبع هداى فلا يضل أى فى الدنيا ولا يشقى أى فى الآخرة (ومن أعرض عن ذكرى) يعنى القرآن فلم يؤمن به ولم يتبعه (فان له معيشة ضنكا) روى عن ابن مسعود وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى انهم قالوا هو عذاب القبر قال أبو سعيد يضغط فى القبر حتى تختلف أضلاعه وفى بعض الاسانيد مرفوعا يلتئم عليه القبر حتى تختلف أضلاعه فلا يزال يعذب حتى يبعث وقيل هو الزقوم والضريع والغسلين فى النار وقيل هو الحرام والكسب الخبيث وقال ابن عباس الشقاء وعنه قال كل ما أعطى العبد قل أم كثر فلم يتق فيه فلا خير فيه وهو الضنك فى المعيشة وان قوما أعرضوا عن الحق وكانوا أولى سعة من الدنيا مكثرين فكانت معيشتهم

(ثم اجتباه ربه) قربه اليه واصطفاه وقرئ به وأصل الكلمة الجمع يقال جبى الى كذا فاجتبيته (فتاب عليه) قبل توبته (وهدى) وهداه الى الاعتذار والاستغفار (قال اهبطا منها جميعا) يعنى آدم وحواء (بعضكم) يا ذرية آدم (لبعض عدو) بالتحاسد فى الدنيا والاختلاف فى الدين (فاما يأتينكم منى هدى) كتاب وشريعة (فمن اتبع هداى فلا يضل) فى الدنيا (ولا يشقى) فى العقبى قال ابن عباس رضى الله عنهما ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة يعنى ان الشقاء فى الآخرة هو عقاب من ضل فى الدنيا عن طريق الدين فمن اتبع كتاب الله وامتثل أوامره وانتهى عن نواهيه نجا من الضلال ومن عقابه (ومن أعرض عن ذكرى) عن القرآن (فان له معيشة ضنكا) ضيقا وهو مصدر يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث عن ابن جبير يسلبه القناعة حتى لا يشبع فمع الدين التسليم والقناعة والتوكل فتكون حياته طيبة ومع الاعراض الحرص والشح فعيشه ضنك وحاله مظلمة كما قال بعض المتصوفة لا يعرض أحدكم عن ذكر ربه الا أظلم عليه وقته وتشوش عليه رزقه

(ونحشره يوم القيامة أعمى) عن الحجة عن ابن عباس أعمى البصر وهو كقوله ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وهو الوجه (قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا) في الدنيا (قال كذلك) أي مثل ذلك فعلت أنت ثم فسر فقال (أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أي أتتك آياتنا واضحة فلم تنظر إليها بعين المعتبر وتركتها وعميت عنها فكذلك اليوم نتركك على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك (وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) لما توعد المعرض عن ذكره بعقوبتين المعيشة الضنك في الدنيا وحشره أعمى في العقبى ختم آيات الوعيد بقوله والعذاب الآخرة أشد وأبقى أي للحشر على العمى الذي لا يزول أبدا أشد من ضيق العيش المنقضي (أفلم يهد لهم) أي الله بدليل قراءة زيد عن يعقوب بالنون (كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون) حال من الضمير المجرور في لهم (في مساكنهم) يريد أن قريشا يمشون في مساكن عاد وثمود وقوم لوط ويعاينون آثار هلاكهم (إن في ذلك لآيات لأولي النهى) لذوي العقول إذا تفكروا علموا أن استئصالهم لكفرهم فلا يفعلون مثل ما فعلوا (ولولا كلمة سبقت من ربك) أي الحكم بتأخير العذاب عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم (لكان لزاما) لازما فاللزام مصدر لزم فوصف به (وأجل مسمى) القيامة وهو معطوف على كلمة والمعنى ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم وأجل مسمى وهو القيامة لكان العذاب لازما لهم في الدنيا كما لزم القرون الماضية الكافرة (فاصبر على ما يقولون) فيك (وسبح) وصل (بحمد ربك) في موضع الحال وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه (قبل طلوع الشمس) يعني صلاة الفجر (وقبل غروبها) يعني الظهر والعصر لأنهما واقعتان في النصف الأخير من النهار بين زوال الشمس وغروبها (ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار) أي وتعهد آناء الليل أي ساعاته وأطراف النهار مختصا لها بصلاتك وقد تناول التسبيح في آناء الليل صلاة العتمة وفي أطراف النهار صلاة المغرب وصلاة الفجر على التكرار إرادة الاختصاص كما اختصت في قوله والصلاة الوسطى عند البعض وإنما جمع وأطراف النهار وهما طرفان لأمن الالباس وهو عطف على قبل (لعلك ترضى) لعل للمخاطب أي اذكر الله في هذه الأوقات

رجاء أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك ويسر قلبك وترضى علي وأبو بكر أي يرضيك ربك (ولا تمدن عينيك) أي نظر عينيك ومد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحسانا للمنظور إليه وإعجابا به وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه وذلك أن يبادر الشيء بالنظر ثم يغض الطرف ولقد شدد المتقون في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة في ملابسهم ومراكبهم حتى قال الحسن لا تنظروا إلى دقدقة هماليج الفسقة ولكن انظروا كيف يلوح ذل المعصية من تلك الرقاب وذا لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة فالناظر إليها محصل لغرضهم ومغر لهم على اتخاذها

ضنكا وذلك أنهم يرون أن الله ليس مخلفا لهم فاشتدت عليهم معايشهم من سوء ظنهم بالله تعالى وقال بسلب القناعة حتى لا يشبع (ونحشره يوم القيامة أعمى) قال ابن عباس أعمى البصر وقيل أعمى عن الحجة (قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا) أي بصير العين أو بصيرا بالحجة (قال كذلك) أي كما (أتتك آياتنا فنسيتها) أي فتركتها وأعرضت عنها (وكذلك اليوم تنسى) أي تترك في النار وقيل نسوا من الخير والرحمة ولم ينسوا من العذاب (وكذلك نجزي من أسرف) أي كما جزينا من أعرض عن القرآن كذلك نجزي من أسرف أي أشرك (ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد) أي مما يعذبهم الله به في الدنيا والقبر (وأبقى) أي وأدوم قوله تعالى (أفلم يهد لهم) أي أفلم يبين القرآن لكفار مكة (كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم) يعني في ديارهم ومنازلهم إذا سافروا وذلك أن قريشا كانوا يسافرون إلى الشام فيرون ديار المهلكين من أصحاب الحجر وهم ثمود وقريات قوم لوط (إن في ذلك لآيات لأولي النهى) أي لذوي العقول (ولولا كلمة سبقت من ربك) أي ولولا حكم سبق بتأخير العذاب عنهم (لكان لزاما وأجل مسمى) تقديره ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى وهو القيامة لكان العذاب لازما لهم في الدنيا كما لزم القرون الماضية (فاصبر على ما يقولون) نسختها آية السيف (وسبح بحمد ربك) أي صل بأمر ربك (قبل طلوع الشمس) يعني صلاة الفجر (وقبل غروبها) أي صلاة العصر (ومن آناء الليل) أي ومن ساعاته (فسبح) يعني فصل المغرب والعشاء قال ابن عباس يريد أول الليل (وأطراف النهار) يعني صلاة الظهر سمي وقت الظهر أطراف النهار لأن وقته عند الزوال وهو طرف النصف الأول انتهاء وطرف النصف الآخر ابتداء (لعلك ترضى) أي ترضى ثوابه في المعاد وقيل معناه لعلك ترضى بالشفاعة وقرئ ترضى بضم التاء أي تعطى ثوابه وقيل يرضاك ربك (ق) عن جرير بن عبد الله قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها قوله لا تضامون بتخفيف الميم من الضيم وهو الظلم والمعنى أنكم ترونه جميعا لا يظلم بعضكم بعضا في رؤيته وروي بتشديد الميم من الانضمام والازدحام أي لا يزدحم ولا ينضم بعضكم إلى بعض في رؤيته والكاف في قوله كما ترون هذا القمر كاف التشبيه للرؤية لا للمرئي وهي فعل الرائي ومعناه ترون ربكم رؤية ينزاح معها الشك كرؤيتكم هذا القمر ليلة البدر لا ترتابون فيه ولا تشكون قوله عز وجل (ولا تمدن عينيك) قال أبو رافع نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فبعثني إلى يهودي وقال قل له إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعني كذا وكذا من الدقيق أو أسلفني إلى هلال رجب فأتيته فقلت له ذلك فقال والله لا أبيعه ولا أسلفه إلا برهن فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال والله لئن باعني أو أسلفني لقضيته وإني لأمين في السماء وأمين في الأرض اذهب بدرعي الحديد إليه فنزلت هذه الآية ولا تمدن عينيك أي لا تنظر نظرا تكاد تردده استحسانا للمنظور إليه وإعجابا به وتمنيا له

(الى مامتعنا به أزواجا منهم) أصنافا من الكفرة ويجوز أن ينتصب حالا من هاء الضمير والفعل واقع على منهم كأنه قال الى الذى متعنا به وهو أصناف بعضهم وناسا منهم (زهرة الحياة الدنيا) زينتها وبهجتها وانتصب على الذم أو على ابداله من محل به أو على ابداله من أزواجا على تقدير ذوى زهرة (لنفتنهم فيه) لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب لوجود الكفران منهم أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه (ورزق ربك) ثوابه وهو الجنة أو الحلال الكافى (خير وأبقى) مما رزقوا (وأمر أهلك) امتك أو أهل بيتك (بالصلاة واصطبر) أنت داوم (عليها لانسألك رزقا) أى لا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك (نحن نرزقك) واياهم ففرغ بالك لامر الآخرة لان من كان فى عمل الله كان الله فى عمله وعن الرزق وفرغ بالك لامر الآخرة لان من كان فى عمل الله كان الله فى عمله وعن

عروة بن الزبير انه كان اذا رأى ما عند السلاطين قرأ ولا تمدن عينيك الآية ثم ينادى الصلاة الصلاة رحمكم الله وكان بكر بن عبد الله المزنى اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا فصلوا بهذا أمر الله رسوله وعن مالك بن دينار مثله وفى بعض المسانيد أنه عليه السلام كان اذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية (والعاقبة للتقوى) أى وحسن العاقبة لاهل التقوى بحذف المضافين (وقالوا) أى الكافرون (لولا يأتينا بآية من ربه) هلا يأتينا محمد بآية من ربه تدل على صحة نبوته (أولم يأتهم) أولم تأتهم مدنى وحفص وبصرى (بينة مافى الصحف الاولى) أى الكتب المتقدمة يعنى أنهم اقترحوا على عادتهم فى التعنت آية على النبوة فقيل لهم أولم تأتكم آية هى أم الآيات وأعظمها فى باب الاعجاز يعنى القرآن من قبل أن القرآن برهان مافى سائر الكتب المنزلة ودليل صحته لانه معجزة وتلك ليست بمعجزات فهى مفتقرة الى شهادته على صحة مافيها (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله) من قبل الرسول أو القرآن (لقالوا ربنا لولا) هلا (أرسلت الينا رسولا فنتبع) بالنصب على جواب الاستفهام بالفاء (آياتك من قبل أن نذل) بنزول العذاب (ونخزى) فى العقبى (قل كل) واحد منا ومنكم (متربص) منتظر للعاقبة ولما يؤول اليه أمرنا وأمركم (فتربصوا) أنتم (فستعلمون) اذا جاءت القيامة (من أصحاب) مبتدأ وخبر ومحلهما نصب (الصراط السوى) المستقيم (ومن اهتدى) الى النعيم المقيم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقرأ أهل الجنة الا سورة طه ويس والله أعلم بالصواب

(سورة الانبياء مكية وهى مائة واثنتا عشرة آية كوفى وواحدى عشرة آية مدنى وبصرى)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اقترب) دنا (للناس) اللام صلة لاقترب عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بالناس المشركون لان ما يتلوه من صفات المشركين (حسابهم) وقت محاسبة الله اياهم ومجازاته على أعمالهم يعنى يوم القيامة وانما وصفه بالاقتراب لقلة ما بقى بالاضافة الى ما مضى ولان كل آت قريب

الجلس

(الى مامتعنا به) أى أعطينا (ازواجا) أى أصنافا (منهم زهرة الحياة الدنيا) أى زينتها وبهجتها (لنفتنهم فيه) أى لنجعل ذلك فتنة لهم بأن نزيد لهم النعمة فيزيدوا كفرا وطغيانا (ورزق ربك) أى فى المعاد فى الجنة (خير وأبقى) أى أدوم وقال أبى بن كعب من لم يعتز بعز الله تقطعت نفسه حسرات ومن أتبع بصره مافى أيدى الناس يطل حزنه ومن ظن ان نعمة الله عليه فى مطعمه ومشربه وملبسه فقد قل عمله وحضر عذابه قوله تعالى (وامر أهلك) أى قومك وقيل من كان على دينك (بالصلاة) أى بالمحافظة عليها (واصطبر عليها) أى اصبر على الصلاة فانها تنهى عن الفحشاء والمنكر وقيل اصبر عليها فعلا فان الوعظ بلسان الفعل أبلغ منه بلسان القول (لانسألك رزقا) أى لا نكلفك أن ترزق أحدا من خلقنا ولا أن ترزق نفسك بل نكلفك عملا (نحن نرزقك) أى بل نحن نرزقك ونرزق أهلك (والعاقبة للتقوى) أى الخصلة المحمودة لاهل التقوى قال ابن عباس الذين صدقوك واتبعوك وآمنوا بك وفى بعض المسانيد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية قوله تعالى (وقالوا) يعنى المشركين (لولا يأتينا بآية من ربه) أى بالآية المقترحة فانه كان قد أتاهم بآيات كثيرة (أولم تأتهم بينة مافى الصحف الاولى) اى بيان مافيها وهو القرآن لانه أقوى دلالة وأوضح آية وقيل معنى مافى الصحف مافى التوراة والانجيل وغيرهما من اخبار الامم انهم اقترحوا الآيات فلما اتتهم لم يؤمنوا بها فجعلنا لهم العذاب والهلاك فما يؤمنهم ان اتتهم الآية ان يكون حالهم كحال أولئك وقيل بينة مافى الصحف الاولى هى البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ونبوته وبعثته (ولو انا اهلكناهم بعذاب من قبله) أى من قبل ارسال الرسل وانزال القرآن (لقالوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا) اى لقالوا يوم القيامة لولا ارسلت الينا رسولا يدعونا (فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) بالعذاب والهوان والافتضاح (قل كل متربص) اى منتظر دوائر الزمان وذلك ان المشركين قالوا نتربص بمحمد ريب المنون وحوادث الدهر فاذا مات تخلصنا قال الله (فتربصوا) اى فانتظروا (فستعلمون) اى اذا جاء أمر الله وقامت القيامة (من أصحاب الصراط السوى) اى المستقيم (ومن اهتدى) اى من الضلالة نحن ام انتم والله أعلم

(تفسير سورة الانبياء عليهم الصلاة والسلام)

وهى مكية وعدد آياتها مائة واثنتا عشرة آية وألف ومائة وثمان وستون كلمة وأربعة آلاف وثمانمائة وتسعون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (اقترب للناس حسابهم) اى وقت محاسبة الله اياهم على اعمالهم يوم القيامة نزلت فى منكرى البعث وانما ذكر الله هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين فيكونون اقرب الى التأهب له والمراد بالناس المحاسبون وهم المكلفون دون غيرهم وقيل هم المشركون وهذا من باب اطلاق اسم

(وهم في غفلة) عن حسابهم وعما يفعل بهم ثم (معرضون) عن التأهب لذلك اليوم فالاقتراب عام والغفلة والاعراض يتفاوتان بتفاوت المكلفين فرب غافل عن حسابه لاستغراقه في دنياه واعراضه عن مولاه ورب غافل عن حسابه لاستهلاكه في مولاه واعراضه عن دنياه وهو لا يفيق الا برؤية المولى والاول انما يفيق في عسكر الموتى فالواجب عليك أن تحاسب نفسك قبل أن تحاسب وتتنبه للعرض قبل أن تنبه وتعرض عن الغافلين وتشتغل بذكر خالق الخلق أجمعين لتفوز بلقاء رب العالمين (ما يأتيهم من ذكر) شئ من القرآن (من ربهم محدث) في التنزيل اتيانه مبتدأة تلاوته قريب عهده باستماعهم والمراد به الحروف المنظومة ولا خلاف في حدوثها (الا استمعوه) من النبي عليه السلام او غيره ممن يتلوه (وهم يلعبون) يستهزؤن به (لاهية) حال من ضمير يلعبون أو وهم يلعبون ولاهية حالان من الضمير في استمعوه ومن قرأ لاهية بالرفع يكون خبرا بعد خبر لقوله وهم وارتفعت (قلوبهم) بلاهية وهي من لها عنه اذا ذهل وغفل والمعنى قلوبهم غافلة عما يراد بها ومنها قال أبو بكر ٢٤٣ الوراق القلب اللاهي المشغول بزينة الدنيا وزهرتها الغافل عن الآخرة وأهوالها (وأسروا) وبالغوا في اخفاء (النجوى) وهي اسم من التناجي ثم ابدل (الذين ظلموا) من واو وأسروا ايذانا بأنهم الموسومون بالظلم فيما أسروا به أو جاء على لغة من قال أكلوني البراغيث أو هو مجرور المحل لكونه صفة أو بدلا من الناس أو هو منصوب المحل على الذم أو هو مبتدأ خبره أسروا النجوى فقدم عليه أي والذين ظلموا أسروا النجوى (هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) هذا الكلام كله في محل النصب بدل من النجوى أي وأسروا هذا الحديث ويجوز أن يتعلق بقالوا مضمرا والمعنى أنهم اعتقدوا أن الرسول لا يكون الا ملكا وان كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة فهو ساحر ومعجزته سحر فلذلك قالوا على سبيل الانكار أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر (قال ربي) حمزة وعلي وحفص أي قال محمد وغيرهم قل ربي أي قل يا محمد للذين أسروا النجوى (يعلم القول في السماء والارض) أي يعلم قول كل قائل هو في السماء او الارض سرا كان أو جهرا (وهو السميع) لاقوالهم (العليم) بما في ضمائرهم (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر) اضربوا عن قولهم هو سحر الى أنه تخاليط أحلام رآها في نومه فتوهمها وحيا من الله اليه ثم الى أنه كلام مفترى من عنده ثم الى انه قول شاعر وهكذا الباطل لجلج والمبطل رجاع غير ثابت على قول واحد ثم قالوا ان كان صادقا في دعواه وليس الامر كما نظن (فليأتنا بآية) معجزة (كما أرسل الاولون) كما أرسل من قبله باليد البيضاء والعصا وابراء الاكمه واحياء الموتى وصحة التشبيه في قوله كما أرسل الاولون من حيث انه في معنى كما أتى الاولون بالآيات لان ارسال الرسل متضمن للاتيان بالآيات ألا ترى أنه لا فرق بين قولك أرسل محمد وبين قولك أتى محمد بالمعجزة فرد الله عليهم قولهم بقوله (ما آمنت قبلهم من قرية) من أهل قرية (أهلكناها) صفة لقرية عند مجئ الآيات المقترحة لانهم طلبوها تعنتا (أفهم يؤمنون) أي اولئك لم يؤمنوا بالآيات لما أتتهم أفيؤمن هؤلاء المقترحون لو أتيناهم بما اقترحوا مع أنهم أعتى منهم والمعنى أن أهل القرى اقترحوا على انبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فأهلكهم الله فلو أعطينا هؤلاء ما يقترحون لنكثوا أيضا (وما أرسلنا قبلك الا رجالا) هذا جواب قولهم هل هذا الا بشر مثلكم (يوحى اليهم) نوحي حفص (فاسألوا أهل الذكر) العلماء بالكتابين فانهم يعرفون أن الرسل الموحى اليهم كانوا بشرا ولم يكونوا ملائكة وكان أهل مكة يعتمدون على قولهم (ان كنتم لا تعلمون) ذلك ثم بين أنه كمن تقدمه من الانبياء بقوله

الجنس على بعضه (وهم في غفلة معرضون) اي عن التأهب له وقيل معناه انهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم مع اقتضاء عقولهم انه لا بد من جزاء المحسن والمسئ ثم انهم امرسنة الغفلة عما يتلى عليهم من الآيات والنذر فأعرضوا عنه (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) يعني ما يحدث الله من تنزيل شئ من القرآن يذكرهم ويعظهم به وقيل معناه ان الله يحدث الامر بعد الامر فينزل الآية بعد الآية والسورة بعد السورة في وقت الحاجة لبيان الاحكام وغيرها من الامور والوقائع وقيل الذكر المحدث ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وبينه من السنن والمواعظ سوى ما في القرآن وأضافه اليه لان الله تعالى قال وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى (الا استمعوه وهم يلعبون) اي لاعبين لا يعتبرون ولا يتعظون (لاهية قلوبهم) اي ساهية معرضة غافلة عن ذكر الله (وأسروا النجوى الذين ظلموا) اي بالغوا في اخفاء التناجي وهم الذين اشركوا ثم بين سرهم الذي تناجوا به فقال تعالى مخبرا عنهم (هل هذا الا بشر مثلكم) يعني انهما انكروا ارسال البشر وطلبوا ارسال الملائكة والاولى ارسال البشر الى البشر لان الانسان الى القبول من أشكاله اقرب (أفتأتون السحر) اي أتحضرون السحر وتقبلونه (وانتم تبصرون) اي تعلمون انه سحر (قل) لهم يا محمد (ربي يعلم القول في السماء والارض) اي لا يخفى عليه شئ (وهو السميع) لاقوالهم (العليم) بأفعالهم قوله عز وجل (بل قالوا أضغاث احلام) يعني اباطيل واهاويل رآها في النوم (بل افتراه) اي اختلقه (بل هو شاعر) وذلك ان المشركين اقتسموا القول في النبي صلى الله عليه وسلم وفيما يقوله فقال بعضهم أضغاث أحلام وقال بعضهم بل هو فرية وقال بعضهم هو شاعر وما جاءكم به شعر (فليأتنا) يعني النبي صلى الله عليه وسلم (بآية) أي بحجة ان كان صادقا (كما أرسل الاولون) أي من الرسل بالآيات قال الله تعالى مجيبا لهم (ما آمنت قبلهم) أي قبل مشركي مكة (من قرية) أي من أهل قرية أتتهم الآيات (أهلكناها) أي بالتكذيب (أفهم يؤمنون) أي ان جاءتهم آية والمعنى ان أولئك لم يؤمنوا بالآيات لما جاءتهم أفيؤمن هؤلاء قوله تعالى (وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم) هذا جواب لقولهم هل هذا الا بشر مثلكم والمعنى انا لم نرسل الملائكة الى الاولين انما أرسلنا رجالا نوحي اليهم مثلك (فاسألوا أهل الذكر) يعني أهل التوراة والانجيل يريد علماء أهل الكتاب فانهم لا ينكرون ان الرسل كانوا بشرا وان أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أمر الله المشركين بسؤال أهل الكتاب لان المشركين أقرب الى تصديقهم من تصديق من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وقيل أراد بالذكر القرآن أي فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن (ان كنتم لا تعلمون) قوله

(وما جعلناهم جسدا) وحد الجسد لارادة الجنس (لا يأكلون الطعام) صفة لجسدا يعني وما جعلنا الانبياء قبله ذوي جسد غير طاعمين (وما كانوا خالدين) كأنهم قالوا هلا كان ملكا لا يطعم ويخلد اما معتقدين أن الملائكة لا يموتون أو مسمين بقاءهم الممتد وحياتهم المتطاولة خلودا (ثم صدقناهم الوعد) بانجائهم والاصل في الوعد مثل واختار موسى قومه أي من قومه (فأنجيناهم) مما حل بقومهم (ومن نشاء) هم المؤمنون (وأهلكنا المسرفين) المجاوزين الحد بالكفر ودل الاخبار باهلاك المسرفين على أن من نشاء غيرهم (لقد أنزلنا اليكم) يا معشر قريش (كتابا فيه ذكركم) شرفكم ان عملتم به او لانه بلسانكم او فيه موعظتكم او فيه ذكر دينكم ودنياكم والجملة اي فيه ذكركم صفة لكتابا (افلا تعقلون) ما فضلتكم به على غيركم فتؤمنوا (وكم) نصب بقوله (قصمنا) اى اهلكنا (من قرية) اى اهلها بدليل قوله (كانت ظالمة) كافرة وهي واردة عن غضب شديد وسخط عظيم لان القصم افظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الاجزاء بخلاف الفصم فانه كسر بلا ابانة (وانشأنا) خلقنا (بعدها قوما آخرين) فسكنوا مساكنهم (فلما احسوا) أي المهلكون (بأسنا) عذابنا اى علموا علم حس ومشاهدة (اذاهم منها) من القرية واذا للمفاجأة وهم مبتدأ والخبر (يركضون) يهربون مسرعين والركض ضرب الدابة بالرجل فيجوز ان ركبوا دوابهم يركضونها هاربين من قريتهم لما ادركتهم مقدمة العذاب او شبهوا في سرعة عدوهم على ارجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم فقيل لهم (لا تركضوا) والقائل بعض الملائكة (وارجعوا الى ما اترفتم فيه) نعمتم فيه من الدنيا ولين العيش قال الخليل المترف الموسع عليه عيشه القليل فيه همه (ومساكنكم لعلكم تسئلون) اى يقال لهم استهزاء بهم ارجعوا الى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسئلون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم حتى يسألكم عبيدكم ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقولوا لكم بم تأمرون وكيف نأتي ونذر كعادة المنعمين المخدمين أو يسألكم الناس في أنديتكم المعاون في نوازل الخطوب او يسألكم الوافدون عليكم والطماع ويستمطرون سحاب اكفكم أو قال بعضهم لبعض لا تركضوا وارجعوا الى منازلكم وأموالكم لعلكم تسئلون مالا وخراجا فلا تقتلون فنودي من السماء يا لثارات الانبياء وأخذتهم السيوف فثم (قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين) اعترافهم بذلك حين لا ينفعهم الاعتراف (فما زالت تلك) هي اشارة الى يا ويلنا (دعواهم) دعاءهم وتلك مرفوع على انه اسم زالت ودعواهم الخبر ويجوز العكس (حتى جعلناهم حصيدا) مثل الحصيد اى الزرع المحصود ولم يجمع كما لم يجمع المقدر (خامدين) ميتين خمود النار وحصيدا خامدين مفعول ثان لجعل اى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصد والخمود كقولك جعلته حلوا حامضا اى جعلته جامعا للطعمين (وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين) اللعب فعل يروق اوله ولا ثبات له ولاعبين حال من فاعل خلقنا والمعنى وما سويناهذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من اصناف الخلائق للهو واللعب وانما سويناها ليستدل بها على قدرة مدبرها وليجازي المحسن والمسيء على ما تقتضيه حكمتنا ثم نزه ذاته عن سمات الحدث بقوله (لو أردنا أن نتخذ لهوا) أي ولدا او امرأة كأنه رد على من قال عيسى ابنه ومريم صاحبته (لاتخذناه من لدنا) من الولدان أو الحور

عز وجل (وما جعلناهم) أي الرسل (جسدا لا يأكلون الطعام) هذا رد لقولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام والمعنى لم نجعلهم ملائكة بل جعلناهم بشرا يأكلون الطعام (وما كانوا خالدين) أي في الدنيا بل يموتون كغيرهم (ثم صدقناهم الوعد) أي الذي وعدناهم باهلاك أعدائهم (فأنجيناهم ومن نشاء) أي من المؤمنين الذين صدقوهم (وأهلكنا المسرفين) أي المشركين لان المشرك مسرف على نفسه قوله عز وجل (لقد أنزلنا اليكم) أي يا معشر قريش (كتابا فيه ذكركم) أي شرفكم وفخركم وهو شرف لمن آمن به وقيل معناه فيه حديثكم وقيل فيه ذكر ما تحتاجون اليه من أمر دينكم وقيل فيه تذكرة لكم لتحذروا فيكون الذكر بمعنى الوعد والوعيد (أفلا تعقلون) فيه بعث على التدبر لان الخوف من لوازم العقل قوله تعالى (وكم قصمنا) أي أهلكنا (من قرية كانت ظالمة) أي كافرة والمراد أهل القرية (وأنشأنا بعدها) أي أحدثنا بعد هلاك أهلها (قوما آخرين فلما أحسوا بأسنا) أي عذابنا بحاسة البصر (اذاهم منها يركضون) أي يسرعون هاربين من قريتهم لما رأوا مقدمة العذاب (لا تركضوا) أي قيل لهم لا تهربوا (وارجعوا الى ما أترفتم فيه) أي تنعمتم فيه من العيش (ومساكنكم لعلكم تسئلون) قال ابن عباس عن قتل نبيكم قيل نزلت هذه الآية في أهل حضور قرية باليمن وكان أهلها عربا فبعث الله اليهم نبيا يدعوهم الى الله فكذبوه وقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر فقتلهم وسباهم فلما استمر فيهم القتل هربوا فقالت الملائكة لهم استهزاء لا تركضوا أي لا تهربوا وارجعوا الى مساكنكم وأموالكم لعلكم تسئلون شيئا من دنياكم فتعطون من شئتم وتمنعون من شئتم فانكم أهل ثروة ونعمة فاتبعهم بختنصر وأخذتهم السيوف ونادى مناد من جو السماء يا لثارات الانبياء فلما رأوا ذلك أقروا بالذنوب حين لم ينفعهم (قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين) أي لانفسنا حين كذبنا الرسل وذلك انهم اعترفوا بالذنب حين عاينوا العذاب وقالوا ذلك على سبيل الندامة ولم ينفعهم الندم (فما زالت تلك دعواهم) أي تلك الكلمة وهي قولهم يا ويلنا (حتى جعلناهم حصيدا) أي بالسيوف كما يحصد الزرع (خامدين) أي ميتين قوله عز وجل (وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين) معناه ما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب للعب واللهو وانما سويناهما لفوائد منها التفكر في خلقهما وما فيهما من العجائب والمنافع التي لا تعد ولا تحصى (لو أردنا ان نتخذ لهوا) قال ابن عباس اللهو المرأة وعنه انه الولد (لاتخذناه من لدنا) أي من عندنا من الحور العين لا من عندكم من أهل الارض وقيل معناه لو كان ذلك جائزا في حقنا لم نتخذه بحيث يظهر لكم بل نستر ذلك حتى لا تطلعوا عليه وذلك ان النصارى لما قالوا في المسيح وأمه ما قالوا رد الله عليهم بقوله لاتخذناه من لدنا

(ان كنا فاعلين) أي ان كنا ممن يفعل ذلك ولسنا ممن يفعله لاستحالته في حقنا وقيل هو نفي كقوله وان أدري أي ما كنا فاعلين (بل نقذف) بل اضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه منه لذاته كأنه قال سبحاننا ان نتخذ اللهو بل من سنتنا ان نقذف أي نرمي ونسلط (بالحق) بالقرآن (على الباطل) الشيطان أو بالاسلام على الشرك أو بالجد على اللعب (فيدمغه) فيكسره ويدحض الحق الباطل وهذه استعارة لطيفة لان اصل استعمال القذف والدمغ في الاجسام ثم استعير القذف لايراد الحق على الباطل والدمغ لاذهاب الباطل فالمستعار منه حسي والمستعار له عقلي فكأنه قيل بل نورد الحق الشبيه بالجسم القوي على الباطل الشبيه بالجسم الضعيف فيبطله ابطال الجسم القوي الضعيف (فاذا هو) أي الباطل (زاهق) هالك ذاهب (ولكم الويل مما تصفون) الله من الولد ونحوه (وله من في السموات والارض) خلقا وملكا فأنى يكون شيء منه ولدا له وبينهما تناف وتوقف على الارض لان (ومن عنده) منزلة ومكانة لا منزلا ومكانا يعني الملائكة مبتدأ خبره (لا يستكبرون) لا يتعظمون (عن عبادته ولا يستحسرون) ولا يعيون (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) حال من فاعل يسبحون أي تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا تتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر فتسبيحهم جار مجرى التنفس منا ثم أضرب عن المشركين منكرا عليهم ومو بخا جاء بأم التي بمعنى بل والهمزة فقال (أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون) يحيون الموتى ومن الارض صفة لآلهة لان آلهتهم كانت متخذة من جواهر الارض كالذهب والفضة والحجر وتعبد في الارض فنسبت اليها كقولك فلان من المدينة أي مدني أو متعلق باتخذوا ويكون فيه بيان غاية الاتخاذ وفي قوله هم ينشرون زيادة توبيخ وان لم يدعوا ان أصنامهم تحيي الموتى وكيف يدعون ومن أعظم المنكرات ان ينشر الموتى بعض الموات لانه يلزم من دعوى الالوهية لها دعوى الانشار لان العاجز عنه لا يصح ان يكون الها اذ لا يستحق هذا الاسم الا القادر على كل مقدور والانشار من جملة المقدورات وقرأ الحسن ينشرون بفتح الياء وهما لغتان انشر الله الموتى ونشرها أي أحياها (لو كان فيهما آلهة الا الله) أي غير الله وصفت آلهة بالا كما وصفت بغير لو قيل آلهة غير الله ولا يجوز رفعه على البدل لان لو بمنزلة ان في ان الكلام معه موجب والبدل لا يسوغ الا في الكلام غير الموجب كقوله تعالى ولا يلتفت منكم أحد الا امرأتك ولا يجوز نصبه استثناء لان الجمع اذا كان منكرا لا يجوز ان يستثنى منه عند المحققين لانه لا عموم له بحيث يدخل فيه المستثنى لولا الاستثناء والمعنى لو كان يدبر أمر السموات والارض آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما (لفسدتا) لخربتا لوجود التمانع وقد قررناه في اصول الكلام ثم نزه ذاته فقال

لانكم تعلمون ان ولد الرجل وزوجته يكونان عنده لا عند غيره (ان كنا فاعلين) أي ما كنا فاعلين وقيل ما كنا ممن يفعل ذلك لانه لا يليق بالربوبية (بل) أي دع ذلك الذي قالوه فانه كذب وباطل (نقذف) أي نرمي ونسلط (بالحق) أي بالايمان (على الباطل) أي على الكفر وقيل الحق قول الله انه لا ولد له والباطل قولهم اتخذ الله ولدا (فيدمغه) فيهلكه (فاذا هو زاهق) أي ذاهب والمعنى انا نبطل كذبهم بما نبين من الحق حتى يذهب ويضمحل ثم أوعدهم على كذبهم فقال تعالى (ولكم الويل) يا معشر الكفار (مما تصفون) الله بما لا يليق به من الصاحبة والولد (وله من في السموات والارض) أي عبيدا وملكا وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم (ومن عنده) يعني الملائكة وانما خص الملائكة وان كانوا داخلين في جملة من في السموات لكرامتهم ومزيد الاعتناء بهم (لا يستكبرون عن عبادته) أي لا يتكبرون ولا يتعظمون عنها (ولا يستحسرون) أي لا يعيون ولا يتعبون وقيل لا ينقطعون عن العبادة ثم وصفهم الله تعالى بقوله (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) أي لا يضعفون ولا يسأمون وذلك ان تسبيحهم متصل دائم لا يفتر في جميع أوقاتهم لا تتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر قال كعب الاحبار التسبيح لهم كالنفس لبني آدم (أم اتخذوا آلهة من الارض) يعني الاصنام من الحجارة والخشب وغيرهما من المعادن وهي من الارض (هم ينشرون) أي يحيون الاموات اذ لا يستحق الالهية الا من يقدر على الاحياء والايجاد من العدم والانعام بأبلغ وجوه النعم وهو الله عز وجل (لو كان فيهما) أي في السماء والارض (آلهة الا الله) أي غير الله (لفسدتا) أي لخربتا وهلك من فيهما لوجود التمانع من الآلهة لان كل أمر صدر عن الاثنين فأكثر لم يجر على النظام وقال الامام فخر الدين الرازي قال المتكلمون القول بوجود الهين يفضي الى المحال فوجب ان يكون القول بوجود الهين محالا وانما قلنا انه يفضي الى المحال لانا لو فرضنا وجود الهين فلا بد وان يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه ولو فرضنا ان أحدهما أراد تحريكه وأراد الآخر تسكينه فاما ان يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أو لا يقع واحد منهما وهو محال لان المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا الا عند وجود مراد ذلك وبالعكس فلو امتنعا معا لوجدا معا وذلك محال أو يقع مراد أحدهما دون الثاني وذلك أيضا محال لوجهين أحدهما انه لو كان كل واحد منهما قادرا على ما لا نهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر بل لا بد وان يستويا في القدرة واذا استويا في القدرة استحال ان يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثاني والا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح وثانيهما انه اذا وقع مراد أحدهما دون الآخر فالذي وقع مراده يكون قادرا والذي لم يقع مراده يكون عاجزا والعجز نقص وهو على الاله محال ولو فرضنا الهين لكان كل واحد منهما قادرا على جميع المقدورات فيفضي الى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد وهو محال لان استناد الفعل الى الفاعل انما كان لامكانه فاذا كان كل واحد منهما مستقلا بالايجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل اسناده الى هذا لكونه حاصلا منهما جميعا فيلزم استغناؤه عنهما معا واحتياجه اليهما معا وذلك محال وهذه حجة تامة في مسألة التوحيد فنقول القول بوجود الهين يفضي الى امتناع وقوع المقدور بواحد منهما واذا كان كذلك وجب ان لا يقع البتة وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعا أو نقول لو قدرنا الهين فاما ان يتفقا أو يختلفا فان اتفقا على الشيء الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال وان اختلفا فاما ان يقع المرادان

(فسبحان الله رب العرش عما يصفون) من الولد والشريك (لا يسئل عما يفعل) لانه المالك على الحقيقة ولو اعترض على السلطان بعض عبيده مع وجود التجانس وجواز الخطاء عليه وعدم الملك الحقيقى لاستقبح ذلك وعد سفها فمن هو مالك الملوك ورب الارباب وفعله صواب كله أولى بأن لا يعترض عليه (وهم يسئلون) لانهم مملوكون خطاؤن فما أخلقهم بأن يقال لهم لم فعلتم فى كل شئ فعلوه وقيل وهم يسئلون يرجع الى المسيح والملائكة أى هم مسؤلون فكيف يكونون آلهة والالوهية تنافى الجنسية والمسؤلية (أم اتخذوا من دونه آلهة) الاعادة لزيادة الافادة فالاول للانكار من حيث العقل والثانى من حيث النقل أى وصفتم الله تعالى بأن يكون له شريك فقيل لمحمد (قل هاتوا برهانكم) حجتكم على ذلك وذا عقلى وهو يأباه كما مر أو نقلى وهو الوحى وهو أيضا يأباه فانكم لا تجدون كتابا من الكتب السماوية الا وفيه توحيده وتنزيهه عن الانداد (هذا) أى القرآن (ذكر من معى) يعنى أمته (وذكر من قبلى) يعنى أمم الانبياء من قبلى وهو وارد فى توحيد الله ونفى الشركاء عنه معى حفص فلما لم يمتنعوا عن كفرهم أضرب عنهم فقال (بل أكثرهم لا يعلمون الحق) أى القرآن وهو نصب بيعلمون وقرئ الحق أى هو الحق (فهم) لاجل ذلك (معرضون) عن النظر فيما يجب عليهم (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه) الا نوحى كوفى غير أبى بكر وحماد (انه لا اله الا أنا فاعبدون) وحدونى فهذه الآية مقررة لما سبقها من آى التوحيد (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه) نزلت فى خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله فنزه ذاته عن ذلك ثم أخبر عنهم بأنهم عباد بقوله (بل عباد مكرمون) أى بل هم عباد مكرمون مشرفون مقربون وليسوا بأولاد اذ العبودية تنافى الولادة (لا يسبقونه بالقول) أى بقولهم فأنيبت اللام مناب الاضافة والمعنى انهم يتبعون قوله فلا يسبق قولهم قوله ولا يتقدمون قوله بقولهم (وهم بأمره يعملون) اى كما ان قولهم تابع لقوله فعملهم أيضا مبنى على أمره لا يعملون عملا لم يؤمروا به (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى ما قدموا وأخروا من أعمالهم (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) أى لمن رضى الله عنه وقال لا اله الا الله (وهم من خشيته مشفقون) خائفون (ومن يقل منهم) من الملائكة (انى اله من دونه) من دون الله انى مدنى وأبو عمرو (فذلك) مبتدأ أى فذلك القائل خبره (نجزيه جهنم) وهو جواب الشرط (كذلك نجزى الظالمين) الكافرين الذين وضعوا الالهية فى غير موضعها وهذا على سبيل الفرض والتمثيل لتحقق عصمتهم وقال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة والضحاك قد تحقق الوعيد فى ابليس فانه ادّعى الالهية لنفسه ودعا الى طاعة نفسه وعبادته (أولم ير الذين كفروا) ألم ير مكى (ان السموات والارض

أو لا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الثانى والكل محال فثبت ان الفساد لازم على كل التقديرات واعلم انك اذا وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت ان جميع ما فى العالم العلوى والسفلى من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى وأما الدلائل السمعية على الوحدانية فكثيرة فى القرآن واعلم ان كل من طعن فى دلالة التمانع فسر الآية بأن المراد لو كان فى السماء والارض آلهة يقول بالهتها عبدة الاصنام لزم فساد العالم لانها جمادات لا تقدر على تدبير العالم فلزم افساد العالم قالوا وهذا أولى لانه تعالى حكى عنهم فى قوله أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب ان يختص الدليل به وأما قوله (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) ففيه تنزيه الله سبحانه وتعالى عما يصفه به المشركون من الشريك والولد (لا يسئل عما يفعل) أى لا يسئل الله عما يفعله ويقضيه فى خلقه (وهم يسئلون) أى والناس يسئلون عن أعمالهم والمعنى انه لا يسئل عما يحكم فى عباده من اعزاز واذلال وهدى واضلال واسعاد واشقاء لانه الرب مالك الاعيان والخلق يسئلون سؤال توبيخ يقال لهم يوم القيامة لم فعلتم كذا لانهم عبيد يجب عليهم امتثال أمر مولاهم والله تعالى ليس فوقه أحد يقول له لشئ فعله لم فعلته قوله عز وجل (أم اتخذوا من دونه آلهة) لما أبطل الله تعالى ان تكون آلهة سواه بقوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا أنكر عليهم اتخاذهم الآلهة فقال أم اتخذوا من دونه آلهة وهو استفهام انكار وتوبيخ (قل هاتوا برهانكم) أى حجتكم على ذلك ثم قال تعالى مستأنفا (هذا) يعنى القرآن (ذكر من معى) أى فيه خبر من معى على دينى ومن يتبعنى الى يوم القيامة بما لهم من الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية (وذكر) أى خبر (من قبلى) أى من الامم السالفة وما فعل بهم فى الدنيا وما يفعل بهم فى الآخرة وقال ابن عباس ذكر من معى القرآن وذكر من قبلى التوراة والانجيل والمعنى راجعوا القرآن والتوراة والانجيل وسائر الكتب هل تجدون فيها ان الله اتخذ ولدا أو كان معه آلهة (بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون) قوله عز وجل (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون) أى فوحدونى وقيل لما توجهت الحجة عليهم ذمهم على جهلهم بمواضع الحق فقال بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون أى عن التأمل والتفكر وما يجب عليهم من الايمان بأنه لا اله الا هو وقوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) نزلت فى خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله (سبحانه) نزه نفسه عما قالوا (بل عباد) أى هم عباد يعنى الملائكة (مكرمون) أى أكرمهم الله واصطفاهم (لا يسبقونه) أى لا يتقدمونه (بالقول) أى لا يتكلمون الا بما يأمرهم به (وهم بأمره يعملون) المعنى انهم لا يخالفونه قولا ولا عملا (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى ما عملوا وما هم عاملون وقيل ما كان قبل خلقهم وما يكون بعد خلقهم (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) قال ابن عباس الا لمن قال لا اله الا الله وقيل الا لمن رضى الله تعالى عنه (وهم من خشيته مشفقون) أى خائفون وجلون لا يأمنون مكره (ومن يقل منهم انى اله من دونه) قيل عنى به ابليس حيث دعا الى عبادة نفسه فان أحدا من الملائكة لم يقل انى اله من دون الله (فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) أى الواضعين الالهية والعبادة فى غير موضعها قوله عز وجل (أولم ير الذين كفروا) أى ألم يعلم الذين كفروا (ان السموات

والارض كانتا) أي جماعة السموات وجماعة الارض فلذا لم يقل كن (رتقا) بمعنى المفعول أي كانتا مرتوقتين وهو مصدر فلذا صلح ان يقع موقع مرتوقتين (ففتقناهما) فشققناهما والفتق الفصل بين الشيئين والرتق ضد الفتق فان قيل متى رأوهما رتقا حتى جاء تقريرهم بذلك قلنا انه وارد في القرآن الذي هو معجزة فقام مقام المرئي المشاهد ولان الرؤية بمعنى العلم وتلاصق الارض والسماء وتباينهما جائزان في العقل فالاختصاص بالتباين دون التلاصق لا بد له من مخصص وهو القديم جل جلاله ثم قيل ان السماء كانت لاصقة بالارض لا فضاء بينهما ففتقناهما أي فصلنا بينهما بالهواء وقيل كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها الله تعالى وجعلها سبع سموات وكذلك الارض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها وجعلها سبع أرضين وقيل كانت السماء رتقا لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات (وجعلنا من الماء كل شيء حي) أي خلقنا من الماء كل حيوان كقوله والله خلق كل دابة من ماء أو كأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه اليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله خلق الانسان من عجل (أفلا يؤمنون) يصدقون بما يشاهدون (وجعلنا في الارض رواسي) جبالا ثوابت من رسا اذا ثبت (ان تميد بهم) لئلا تضطرب بهم فحذف لا واللام وانما جاز حذف لا لعدم الالتباس كما تزاد لذلك في لئلا يعلم أهل الكتاب (وجعلنا فيها فجاجا) أي طرقا واسعة جمع فج وهو الطريق الواسع ونصب على الحال من (سبلا) متقدمة فان قلت أي فرق بين قوله تعالى لتسلكوا منها سبلا فجاجا وبين هذه قلت الاول للاعلام بأنه جعل فيها طرقا واسعة والثاني لبيان انه حين خلقها خلقها على تلك الصفة فهو بيان لما أبهم ثم (لعلهم يهتدون) ليهتدوا بها الى البلاد المقصودة (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) في موضعه عن السقوط كما قال ويمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه أو محفوظا بالشهب عن الشياطين كما قال وحفظناها من كل شيطان رجيم (وهم) أي الكفار (عن آياتها) عن الادلة التي فيها كالشمس والقمر والنجوم (معرضون) غير متفكرين فيها فيؤمنون (وهو الذي خلق الليل) لتسكنوا فيه (والنهار) لتتصرفوا فيه (والشمس) لتكون سراج النهار (والقمر) ليكون سراج الليل (كل) التنوين فيه عوض عن المضاف اليه أي كلهم والضمير للشمس والقمر والمراد بهما جنس الطوالع وجمع جمع العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة (في فلك) عن ابن عباس رضي الله عنهما الفلك السماء والجمهور على ان الفلك موج مكفوف تحت السماء تجري فيه الشمس والقمر والنجوم وكل مبتدأ خبره (يسبحون) يسيرون أي يدورون والجملة في محل النصب على الحال من الشمس والقمر (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) البقاء الدائم (أفان مت) بكسر الميم مدني وكوفي غير أبي بكر (فهم الخالدون) والفاء الاول لعطف جملة على جملة والثاني لجزاء الشرط كانوا يقدرون انه سيموت فنفى الله عنه الشماتة بهذا أي قضى الله ان لا يخلد في الدنيا بشرا فان مت أنت أيبقى هؤلاء (كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم) ونختبركم سمي ابتلاء وان كان عالما بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم لانه في صورة الاختبار

والارض كانتا رتقا) قال ابن عباس كانتا شيئا واحدا ملتزقتين (ففتقناهما) أي فصلنا بينهما بالهواء قال كعب خلق الله السموات والارض بعضها على بعض ثم خلق ريحا توسطهما ففتحهما بها وقيل كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الارض وقيل كانت السماء رتقا لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات (وجعلنا من الماء كل شيء حي) أي وأحيينا بالماء الذي ينزل من السماء كل شيء من الحيوان ويدخل فيه النبات والشجر وذلك لانه سبب لحياة كل شيء وقال المفسرون معناه ان كل شيء حي فهو مخلوق من الماء وقيل يعني النطفة فان قلت قد خلق الله بعض ما هو حي من غير الماء كآدم وعيسى والملائكة والجان قلت خرج هذا اللفظ مخرج الاغلب والاكثر يعني ان أكثر ما على وجه الارض مخلوق من الماء أو بقاؤه بالماء (أفلا يؤمنون) أي أفلا يصدقون (وجعلنا في الارض رواسي) أي جبالا ثوابت (ان تميد بهم) أي لئلا تميد بهم قيل ان الارض بسطت على الماء فكانت تتحرك كما تتحرك السفينة في الماء فأرساها الله وأثبتها بالجبال (وجعلنا فيها) أي في الرواسي (فجاجا) أي طرقا ومسالك والفج الطريق الواسع بين الجبلين (سبلا) هو تفسير الفجاج (لعلهم يهتدون) أي الى مقاصدهم (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) أي من ان يسقط ويقع وقيل محفوظا من الشياطين بالشهب (وهم) يعني الكفار (عن آياتها معرضون) أي عما خلق الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وكيفية حركاتها في أفلاكها ومطالعها ومغاربها والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة القاهرة لا يتفكرون ولا يعتبرون بها (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) أي يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح في الماء وانما قال يسبحون ولم يقل تسبح على ما يقال لما لا يعقل لانه ذكر عنها فعل العقلاء وهو السباحة والجري والفلك مدار النجوم الذي يضمها وهو في كلام العرب كل شيء مستدير وجمعه أفلاك وقيل الفلك طاحونة كهيئة فلكة المغزل يريد الذي تجري فيه النجوم مستدير كاستدارة الرحى وقيل الفلك السماء الذي فيه ذلك الكوكب فكل كوكب يجري في السماء الذي قدر فيه وقيل الفلك استدارة السماء وقيل الفلك موج مكفوف دون السماء تجري فيه الشمس والقمر والنجوم وقال أصحاب الهيئة الافلاك أجرام صلبة لا ثقيلة ولا خفيفة غير قابلة للخرق والالتئام والنمو والذبول والحق انه لا سبيل الى معرفة صفة السموات الا بالخبر الصادق فسبحان الخالق المدبر لخلقه بالحكمة والقدرة الباهرة غير المتناهية قوله عز وجل (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) يعني الدوام والبقاء في الدنيا (أفان مت فهم الخالدون) نزلت هذه الآية حين قالوا نتربص بمحمد ريب المنون شمت بموته فنفى الله الشماتة عنه بهذا والمعنى ان الله تعالى قضى ان لا يخلد في الدنيا بشرا لا أنت ولا هم فان مت أنت أيبقى هؤلاء وفي معناه قول القائل

فقل للشامتين بنا أفيقوا * سيلقى الشامتون كما لقينا

(كل نفس ذائقة الموت) هذا العموم مخصوص بقوله تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك فان الله حي لا يموت ولا يجوز عليه الموت والذوق ههنا عبارة عن مقدمات الموت وآلامه العظيمة قبل حلوله (ونبلوكم)

(بالشر) بالفقر والضر (والخير) الغنى والنفع (فتنة) مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه (والينا ترجعون) فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر والشكر وعن ابن ذكوان ترجعون (واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك) ما يتخذونك (الاهزوا) مفعول ثان ليتخذونك نزلت فى أبى جهل مر به النبى صلى الله عليه وسلم فضحك وقال هذا نبى بنى عبد مناف (اهذا الذى يذكر) يعيب (آلهتكم) والذكر يكون بخير وبخلافه فان كان الذاكر صديقا فهو ثناء وان كان عدوا فذم (وهم بذكر الرحمن) أى بذكر الله وما يجب ان يذكر به من الوحدانية (هم كافرون) لا يصدقون به أصلا فهم أحق ان يتخذوا هزوا منك فانك محق وهم مبطلون وقيل بذكر الرحمن أى بما أنزل عليك من القرآن هم كافرون جاحدون والجملة فى موضع الحال أى يتخذونك هزوا وهم على حال هى أصل الهزء والسخرية وهى الكفر بالله تعالى وكرر هم للتأكيد أو لان الصلة حالت بينه وبين الخبر فأعيد المبتدأ (خلق الانسان من عجل) فسر بالجنس وقيل نزلت حين كان النضر بن الحارث يستعجل بالعذاب والعجل والعجلة مصدران وهو تقديم الشئ على وقته والظاهر ان المراد الجنس وانه ركب فيه العجلة فكأنه خلق من العجل ولانه يكثر منه والعرب تقول لمن يكثر منه الكرم خلق من الكرم فقدم أولا ذم الانسان على افراط العجلة وانه مطبوع عليها ثم منعه وزجره كأنه قال ليس ببدع منه ان يستعجل فانه مجبول على ذلك وهو طبعه وسجيته فقد ركب فيه وقيل العجل الطين بلغة حمير قال شاعرهم

والنخل ينبت بين الماء والعجل

وانما منع عن الاستعجال وهو مطبوع عليه كما أمره بقمع الشهوة وقد ركبها فيه لانه أعطاه القوة التى يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة ومن عجل حال أى عجلا (سأريكم آياتى) نقماتى (فلا تستعجلون) بالاتيان بها وهو بالياء عند يعقوب وافقه سهل وعياش فى الوصل (ويقولون متى هذا الوعد) اتيان العذاب او القيامة (ان كنتم صادقين) قيل هو أحد وجهى استعجالهم (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولاهم ينصرون) جواب لو محذوف وحين مفعول به ليعلم أى لو يعلمون الوقت الذى يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد وهو وقت تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم ولا يجدون ناصرا ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذى هونه عندهم (بل تأتيهم) الساعة (بغتة) اى فجأة (فتبهتهم) فتحيرهم أى لا يكفونها بل تفجأهم فتغلبهم (فلا يستطيعون ردها) فلا يقدرون على دفعها (ولاهم ينظرون) يمهلون (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق) فحل ونزل (بالذين سخروا منهم) جزاء (ما كانوا به يستهزؤن) سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به بأن له فى الانبياء اسوة وان ما فعلوه به يحيق بهم كما حاق بالمستهزئين بالانبياء ما فعلوا (قل من يكلؤكم) يحفظكم (بالليل والنهار من الرحمن) اى من عذابه ان أتاكم ليلا أو نهارا (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) أى بل هم معرضون عن ذكره ولا يخطرونه ببالهم فضلا ان يخافوا بأسه حتى اذا رزقوا الكلاءة منه

أى نختبركم (بالشر والخير) أى بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر وقيل بما تحبون وما تكرهون (فتنة) أى ابتلاء لننظر كيف شكركم فيما تحبون وصبركم فيما تكرهون (والينا ترجعون) أى للحساب والجزاء قوله عز وجل (واذا رآك الذين كفروا إن) أى ما (يتخذونك الا هزوا) أى سخريا قيل نزلت فى أبى جهل مر به النبى صلى الله عليه وسلم فضحك وقال هذا نبى بنى عبد مناف (أهذا الذى يذكر آلهتكم) أى يقول بعضهم لبعض هذا الذى يعيب آلهتكم والذكر يطلق على المدح والذم مع القرينة (وهم بذكر الرحمن هم كافرون) وذلك انهم كانوا يقولون لا نعرف الرحمن الا رحمان اليمامة وهو مسيلمة قوله تعالى (خلق الانسان من عجل) قيل معناه ان بنيته وخلقته من العجلة وعليها طبع وقيل لما دخل الروح فى رأس آدم وعينيه نظر الى ثمار الجنة فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل ان تبلغ الروح الى رجليه عجلا الى ثمار الجنة فوقع فقيل خلق الانسان من عجل وأورث بنيه العجلة وقيل معناه خلق الانسان من تعجيل فى خلق الله اياه لان خلقه كان بعد كل شئ فى آخر النهار يوم الجمعة فاسرع فى خلقه قبل مغيب الشمس فلما أحيا الروح رأسه قال يارب استعجل بخلقى قبل غروب الشمس وقيل خلق بسرعة وتعجيل على غير قياس خلق بنيه لانهم خلقوا من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة أطوارا طورا بعد طور وقيل معنى خلق الانسان من عجل أى من طين قال الشاعر

* والنخل ينبت بين الماء والعجل *

أى بين الماء والطين وقيل أراد بالانسان النوع الانسانى يدل عليه قوله (سأريكم آياتى فلا تستعجلون) وذلك ان المشركين كانوا يستعجلون العذاب وقيل نزلت فى النضر بن الحارث ومعنى سأريكم آياتى أى مواعيدى فلا تطلبوا العذاب قبل وقته فأراهم يوم بدر وقيل كانوا يستعجلون القيامة ولذلك قال تعالى (ويقولون) يعنى المشركين (متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) وهذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء فبين تعالى انهم انما يقولون ذلك لجهلهم وغفلتهم ثم بين ما لهؤلاء المستهزئين فقال تعالى (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون) أى لا يدفعون (عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) قيل السياط (ولاهم ينصرون) أى لا يمنعون من العذاب والمعنى لو علموا لما أقاموا على كفرهم ولما استعجلوا بالعذاب ولما قالوا متى هذا الوعد ان كنتم صادقين (بل تأتيهم) يعنى الساعة (بغتة) أى فجأة (فتبهتهم) أى تحيرهم (فلا يستطيعون ردها) أى صرفها ودفعها عنهم (ولاهم ينظرون) أى لا يمهلون للتوبة والمعذرة (ولقد استهزئ برسل من قبلك) أى يا محمد كما استهزأ بك قومك (فحاق) أى نزل وأحاط (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) أى عقوبة استهزائهم وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم أى فكذلك يحيق بهؤلاء وبال استهزائهم قوله تعالى (قل من يكلؤكم) أى يحفظكم (بالليل) اذا نمتم (والنهار) اذا انصرفتم فى معايشكم (من الرحمن) قال ابن عباس معناه من يمنعكم من عذاب الرحمن (بل هم عن ذكر ربهم) أى عن القرآن ومواعظه (معرضون)

أي لا يتأملون في شيء منها (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) معناه ألهم آلهة من دوننا تمنعهم ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال (لا يستطيعون نصر أنفسهم) أي لا يقدرون على نصر أنفسهم فكيف ينصرون من عبدهم (ولا هم منا يصحبون) قال ابن عباس يمنعون وقيل يجارون وقيل ينصرون وقيل معناه لا يصحبون من الله بخير (بل متعنا هؤلاء) يعني الكفار (وآباءهم) أي في الدنيا بأن أنعمنا عليهم وأمهلناهم (حتى طال عليهم العمر) أي امتد بهم الزمان فاغتروا (أفلا يرون) يعني هؤلاء المشركين (أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) يعني ننقص من أطراف المشركين ونزيد في أطراف المؤمنين يريد بذلك ظهور النبي صلى الله عليه وسلم وفتحه ديار الشرك أرضا فأرضا وقرية وقرية والمعنى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب آثار قدرتنا في إتيان الأرض من جوانبها بأخذ الواحد بعد الواحد وفتح البلاد والقرى مما حول مكة وإدخالها في ملك محمد صلى الله عليه وسلم وموت رؤس المشركين المتنعمين بالدنيا أما كان لهم عبرة في ذلك فيؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ويعلموا أنهم لا يقدرون على الامتناع منا ومن إرادتنا فيهم ثم قال (أفهم الغالبون) استفهام بمعنى التقريع معناه بل نحن الغالبون وهم المغلوبون (قل) يا محمد (إنما أنذركم بالوحي) أي أخوفكم بالقرآن (ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون) أي يخوفون (ولئن مستهم) أي أصابتهم (نفحة من عذاب ربك) قال ابن عباس طرف وقيل شيء قليل (ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين) دعوا على أنفسهم بالويل بعد ما أقروا على أنفسهم بالظلم والشرك قوله عز وجل (ونضع الموازين القسط) أي ذوات العدل وصفها بذلك لأن الميزان قد يكون مستقيما وقد يكون بخلافه فبين أن تلك الموازين تجري على حد العدل ومعنى وضعها إحضارها (ليوم القيامة) أي لأهل يوم القيامة قيل المراد بالميزان العدل والقسط بينهم في الأعمال فمن أحاطت حسناته بسيئاته فاز ونجا وبالعكس ذل وخسر والصحيح الذي عليه أئمة السلف أن الله سبحانه وتعالى يضع الموازين الحقيقية ويزن بها أعمال العباد وقال الحسن هو ميزان له كفتان ولسان وأكثر الأقوال أنه ميزان واحد وإنما جمع لاعتبار تعدد الأعمال الموزونة به وروي أن داود عليه السلام سأل ربه عز وجل أن يريه الميزان فأراه كل كفة ما بين المشرق والمغرب فلما رآه غشي عليه ثم أفاق فقال إلهي من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات قال يا داود إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة فعلى هذا في كيفية وزن الأعمال مع أنها أعراض طريقان أحدهما أن توزن صحائف الأعمال فتوضع صحائف الحسنات في كفة وصحائف السيئات في كفة والثاني أن يجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة فإن قلت كيف تصنع بقوله ونضع الموازين القسط مع قوله ولا نقيم لهم يوم القيامة وزنا قلت هذه في حق الكفار لأنهم ليس لهم أعمال توزن مع الكفر وقوله (فلا تظلم نفس شيئا) أي تبخس مما لها وما عليها من خير وشر (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها) معناه أنه لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد في إساءة مسيء وأراد بالحبة الجزء اليسير من الخردل ومعنى أتينا بها أي أحضرناها لنجازي بها عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رؤس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيئا أظلمك كتبتي

عرفوا من الكالئ وصلحوا للسؤال عنه والمعنى أنه أمر رسوله بسؤالهم عن الكالئ ثم بين أنهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم ثم أضرب عن ذلك بقوله (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) الميم في أم معنى بل فقال ألهم آلهة تمنعهم من العذاب تتجاوز منعنا وحفظنا ثم استأنف بقوله (لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون) فبين أن ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعها ولا مصحوب من الله بالنصر والتأييد كيف يمنع غيره وينصره ثم قال (بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر) أي ما هم فيه من الحفظ والكلاءة إنما هو منا لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا وما كلأناهم وآباءهم الماضين إلا تمتيعا لهم بالحياة الدنيا وإمهالا كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وظنوا أنهم دائمون على ذلك وهو أمل كاذب (أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) أي ننقص أرض الكفر ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردها دار إسلام وذكر نأتي يشير بأن الله يجريه على أيدي المسلمين وأن عساكرهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها ناقصة من أطرافها (أفهم الغالبون) أفكفار مكة يغلبون بعد أن نقصنا من أطراف أرضهم أي ليس كذلك بل يغلبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بنصرنا (قل إنما أنذركم بالوحي) أخوفكم من العذاب بالقرآن (ولا يسمع الصم الدعاء) بفتح الياء والميم ورفع الصم ولا تسمع الصم شامي على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم (إذا ما ينذرون) يخوفون واللام في الصم للعهد وهو إشارة إلى هؤلاء المنذرين والأصل ولا يسمعون إذا ما ينذرون فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم أسماعهم إذا ما أنذروا (ولئن مستهم نفحة) دفعة يسيرة (من عذاب ربك) صفة لنفحة (ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين) أي ولئن مسهم من هذا الذي ينذرون به أدنى شيء لذلوا ودعوا بالويل على أنفسهم وأقروا أنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا وقد بولغ حيث ذكر المس والنفحة لأن النفح يدل على القلة يقال نفحه بعطية رضخه بها ومع أن بناءها للمرة وفي المس والنفحة ثلاث مبالغات لأن النفح في معنى القلة والنزارة يقال نفحته الدابة وهو رمح لين ونفحه بعطية رضخه ولبناء المرة

(ونضع الموازين) جمع ميزان وهو ما يوزن به الشيء فتعرف كميته وعن الحسن هو ميزان له كفتان ولسان وإنما جمع الموازين لتعظيم شأنها كما في قوله يا أيها الرسل والوزن لصحائف الأعمال في قول (القسط) وصفت الموازين بالقسط وهو العدل مبالغة كأنها في نفسها قسط أو على حذف المضاف أي ذوات القسط (ليوم القيامة) لأهل يوم القيامة أي لأجلهم (فلا تظلم نفس شيئا) من الظلم (وإن كان مثقال حبة) وإن كان الشيء مثقال حبة مثقال بالرفع مدني وكذا في لقمان على كان التامة (من خردل) صفة لحبة (أتينا بها) أحضرناها وأنث ضمير المثقال لإضافته إلى الحبة كقولهم ذهبت بعض أصابعه

الحافظون فيقول لا يارب فيقول أفلك عذر فقال لا يارب فيقول الله تعالى بلى ان لك عندنا حسنة فانه لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فيقول احضر وزنك فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال فانك لا تظلم فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شئ أخرجه الترمذى السجل الكتاب الكبير وأصله من التسجيل لانه يجمع أحكاما والبطاقة ورقة صغيرة تجعل فى طى الثوب يكتب فيها ثمنه والطيش الخفة قلت فى الحديث دليل على ان صحائف الاعمال هى التى توزن لا أن الاعمال تجسد جواهر فتوزن والله أعلم قوله تعالى (وكفى بنا حاسبين) قال ابن عباس معناه كفى بنا عالمين حافظين لان من حسب شيئا فقد علمه وحفظه والغرض منه التحذير فان المحاسب اذا كان فى العلم بحيث لا يمكن ان يشتبه عليه شئ وفى القدرة بحيث لا يعجز عن شئ فحقيق بالعاقل ان يكون بأشد الخوف منه ويروى عن الشبلى انه رئى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال

حاسبونا فدققوا * ثم منوا فاعتقوا

وكذا كل مالك * بالمماليك يرفق

قوله عز وجل (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان) يعنى الكتاب المفرق بين الحق والباطل وهو التوراة وقيل الفرقان النصر على الاعداء فعلى هذا يكون (وضياء) يعنى التوراة ومن قال الفرقان هو التوراة جعل الواو زائدة فى وضياء والمعنى آتينا موسى التوراة ضياء (وذكرا للمتقين) يعنى يتذكرون بمواعظها ويعملون بما فيها (الذين يخشون ربهم بالغيب) أى يخافونه ولم يروه وقيل يخافونه فى الخلوات اذا غابوا عن أعين الناس (وهم من الساعة مشفقون) أى خائفون (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) أى كما آتينا موسى التوراة فكذلك أنزلنا القرآن ذكرا مباركا أى هو ذكر لمن آمن به مبارك يتبرك به ويطلب منه الخير (أفأنتم) يا أهل مكة (له منكرون) أى جاحدون قوله تعالى (ولقد آتينا ابراهيم رشده) أى صلاحه وهداه (من قبل) أى من قبل موسى وهارون وقيل من قبل البلوغ وهو حين خرج من السرب وهو صغير (وكنا به عالمين) أى انه من أهل الهداية والنبوة (اذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل) يعنى الصور والاصنام (التى أنتم لها عاكفون) أى مقيمون على عبادتها (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) أى فاقتدينا بهم (قال) يعنى ابراهيم (لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) أى فى خطأ بين بعبادتكم اياها (قالوا أجئتنا بالحق) أى بالصدق (أم أنت من اللاعبين) يعنون أجاد أنت فيما تقول أم أنت لاعب (قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن) أى خلقهن (وأنا على ذلكم من الشاهدين) أى بلى انه الاله الذى يستحق العبادة وقيل شاهد على انه خالق السموات والارض (وتالله لأكيدن أصنامكم) أى لأمكرن بها (بعد أن تولوا مدبرين) أى منطلقين الى عيدكم قيل انما قال ابراهيم هذا القول سرا فى نفسه ولم يسمع ذلك الا رجل واحد من قومه وأفشاه عليه وهو القائل انا سمعنا فتى يذكرهم وقيل كان لهم فى كل سنة مجمع وعيد فكانوا اذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الاصنام فيسجدون لها ثم يرجعون الى منازلهم فلما كان ذلك العيد قال أبو ابراهيم يا ابراهيم لو خرجت معنا الى عيدنا أعجبك ديننا فخرج معهم ابراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه الى الارض وقال انى سقيم اشتكى رجلى فتركوه ومضوا فنادى فى آخرهم وقد بقى ضعفاء الناس تالله لأكيدن أصنامكم فسمعوها منه ثم رجع ابراهيم الى بيت الآلهة وهن فى بهو عظيم ومستقبل باب البهو صنم عظيم الى جنبه صنم أصغر منه والاصنام جنبها الى جنب بعض كل صنم الذى يليه أصغر منه وهكذا الى باب البهو واذا هم قد جعلوا طعاما بين يدى الآلهة وقالوا اذا رجعنا وقد بركت الآلهة عليه أكلنا منه فلما

(وكفى بنا حاسبين) عالمين حافظين عن ابن عباس رضى الله عنهما لان من حفظ شيئا حسبه وعلمه (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا) قيل هذه الثلاثة هى التوراة فهى فرقان بين الحق والباطل وضياء يستضاء به ويتوصل به الى سبيل النجاة وذكر أى شرف أو وعظ وتنبيه أو ذكر ما يحتاج الناس اليه فى مصالح دينهم ودخلت الواو على الصفات كما فى قوله وسيدا وحصورا ونبيا وتقول مررت بزيد الكريم والعالم والصالح ولما انتفع بذلك المتقون خصهم بقوله (للمتقين) ومحل (الذين) جر على الوصفية او نصب على المدح أو رفع عليه (يخشون ربهم) يخافونه (بالغيب) حال أى يخافونه فى الخلا (وهم من الساعة) القيامة وأهوالها (مشفقون) خائفون (وهذا) القرآن (ذكر مبارك) كثير الخير غزير النفع (أنزلناه) على محمد (أفأنتم له منكرون) استفهام توبيخ أى جاحدون انه منزل من عند الله (ولقد آتينا ابراهيم رشده) هداه (من قبل) من قبل موسى وهارون او من قبل محمد عليه السلام (وكنا به) بابراهيم او برشده (عالمين) اى علمنا انه اهل لما آتيناه (اذ) اما ان تتعلق بآتينا او برشده (قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل) اى الاصنام المصورة على صورة السباع والطيور والانسان وفيه تجاهل لهم ليحقر آلهتهم مع علمه بتعظيمهم لها (التى انتم لها عاكفون) اى لاجل عبادتها مقيمون فلما عجزوا عن الاتيان بالدليل على ذلك (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) فقلدناهم (قال) ابراهيم (لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) اراد ان المقلدين والمقلدين منخرطون فى سلك ضلال ظاهر لا يخفى على عاقل واكد بانتم ليصح العطف لان العطف على ضمير هو فى حكم بعض الفعل ممتنع (قالوا أجئتنا بالحق) بالجد (ام انت من اللاعبين) اى اجاد انت فيما تقول ام لاعب استعظاما منهم انكاره عليهم واستبعادا لان يكون ما هم عليه ضلالا ثم اضرب عنهم مخبرا بانه جاد فيما قال غير لاعب مثبتا الربوبية لمالك الملك العلام وحدوث الاصنام بقوله (قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن) اى التماثيل فانى يعبد المخلوق ويترك الخالق (وانا على ذلكم) المذكور من التوحيد شاهد (من الشاهدين وتالله) اصله والله وفى التاء معنى التعجب من تسهيل الكيد على يده مع صعوبته وتعذره لقوة سلطة نمرود (لأكيدن اصنامكم) لأكسرنها (بعد ان تولوا مدبرين) بعد ذهابكم عنها الى عيدكم قال ذلك سرا من قومه فسمعه رجل واحد فعرض بقوله انى سقيم اى سأسقم ليتخلف فرجع الى بيت الاصنام

(فجعلهم جذاذا) قطعا من الجذ وهو القطع جمع جذاذة كزجاجة وزجاج جذاذا بالكسر على جمع جذيذ اى مجذوذ كخفيف وخفاف (الا كبيرا لهم) للاصنام او للكفار اى فكسرها كلها بفأس في يده الا كبيرها وعلق الفأس في عنقه (لعلهم اليه) الى الكبير (يرجعون) فيسألونه عن كاسرها فيتبين لهم عجزه او الى ابراهيم ليحتج عليهم او الى الله لما رأوا عجز آلهتهم (قالوا) اى الكفار حين رجعوا من عيدهم ورأوا ذلك (من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين) أى ان من فعل هذا الكسر لشديد الظلم لجراءته على الآلهة الحقيقة عندهم بالتوقير والتعظيم (قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) الجملتان صفتان لفتى الا ان الاول وهو يذكرهم أى يعيبهم لابد منه للسمع لانك لا تقول سمعت زيدا وتسكت حتى تذكر شيئا مما يسمع بخلاف الثاني وارتفاع ابراهيم بانه فاعل يقال فالمراد الاسم لا المسمى أى الذي يقال له هذا الاسم (قالوا) أى نمرود واشراف قومه (فأتوا به) أحضروا ابراهيم (على أعين الناس) في محل الحال بمعنى معاينا مشاهدا أى بمرأى منهم ومنظر (لعلهم يشهدون) عليه بما سمع منه أو بما فعله كانهم كرهوا عقابه بلا بينة أو يحضرون عقوبتنا له فلما أحضروه (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال) ابراهيم (بل فعله) عن الكسائي انه يقف عليه أي فعله من فعله وفيه حذف الفاعل وانه لا يجوز وجاز ان يكون الفاعل مسندا الى الفتى المذكور في قوله سمعنا فتى يذكرهم أو الى ابراهيم في قوله يا ابراهيم ثم قال (كبيرهم هذا) وهو مبتدأ وخبر والاكثر انه لا وقف والفاعل كبيرهم وهذا وصف أو بدل ونسبة الفعل الى كبيرهم وقصده تقريره لنفسه واثباته لها على اسلوب تعريضي تبكيتا لهم والزاما للحجة عليهم لانهم اذا نظروا النظر الصحيح علموا عجز كبيرهم وانه لا يصلح الها وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق انيق أنت كتبت هذا وصاحبك أمي فقلت له بل كتبته أنت كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك واثباته للأمي لان اثباته للعاجز منكما والامر دائر بينكما استهزاء به واثبات للقادر ويمكن ان يقال غاظته تلك الاصنام حين ابصرها مصطفة وكان غيظ كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فاسند الفعل اليه لان الفعل كما يسند الى مباشره يسند الى الحامل عليه ويجوز ان يكون حكاية لما يقود الى تجويزه مذهبهم كأنه قال لهم ما تنكرون ان يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد ويدعى الها ان يقدر على هذا ويحكى انه قال غضب ان تعبد هذه الصغار معه وهو أكبر منها فكسرهن أو هو متعلق بشرط لا يكون وهو نطق الاصنام فيكون نفيا للمخبر عنه أي بل فعله كبيرهم ان كانوا ينطقون وقوله فاسألوهم اعتراض وقيل عرض بالكبير لنفسه وانما أضاف نفسه اليهم لاشتراكهم في الحضور (فاسألوهم) عن حالهم (ان كانوا ينطقون) وأنتم تعلمون عجزهم عنه (فرجعوا الى أنفسهم) فرجعوا الى عقولهم وتفكروا بقلوبهم لما أخذ بمخانقهم

نظر ابراهيم اليهم والى ما بين أيديهم من الطعام قال لهم على طريق الاستهزاء الا تأكلون فلما لم يجيبوه قال ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين وجعل يكسرهن بفأس في يده حتى اذا لم يبق الا الصنم العظيم علق الفأس في عنقه وقيل في يده ثم خرج فذلك قوله تعالى (فجعلهم جذاذا) أى كسرا وقطعا (الا كبيرا لهم) أى تركه ولم يكسره ووضع الفأس في عنقه ثم خرج وقيل ربطه على يده وكانت اثنين وسبعين صنما بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من حديد وبعضها من نحاس ورصاص وحجر وخشب وكان الصنم الكبير من الذهب مكللا بالجواهر في عينيه ياقوتتان تتقدان وقوله (لعلهم اليه يرجعون) قيل معناه يرجعون الى ابراهيم والى دينه وما يدعوهم اليه اذا علموا ضعف الآلهة وعجزها وقيل معناه لعلهم يرجعون الى الصنم فيسألونه ما لهؤلاء تكسروا وأنت صحيح والفأس في عنقك فلما رجع القوم من عيدهم الى بيت آلهتهم رأوا أصنامهم مكسرة (قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين) أى في تكسيرها واجترائه عليها (قالوا سمعنا فتى يذكرهم) أى يسبهم ويعيبهم (يقال له ابراهيم) أى هو الذي نظن انه صنع هذا فبلغ ذلك نمرود الجبار وأشراف قومه (قالوا فأتوا به على أعين الناس) أى جيئوا به ظاهرا بمرأى من الناس وانما قاله نمرود (لعلهم يشهدون) أى عليه بانه الذي فعل ذلك كرهوا ان يأخذوه بغير بينة وقيل معناه لعلهم يحضرون عذابه وما يصنع به فلما أتوا به (قالوا) له (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال) يعني ابراهيم (بل فعله كبيرهم هذا) غضب اذ تعبدون معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرهن وأراد ابراهيم بذلك اقامة الحجة عليهم فذلك قوله (فاسألوهم ان كانوا ينطقون) أى حتى يخبروا من فعل ذلك بهم وقيل معناه ان قدروا على النطق قدروا على الفعل فأراهم عجزهم عن النطق وفي ضمنه أنا فعلت ذلك عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات ثنتين منهن في ذات الله قوله اني سقيم وقوله فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هذه أختي لفظ الترمذي قيل في قوله اني سقيم أى سأسقم وقيل سقيم القلب مغتم بضلالتكم وأما قوله بل فعله كبيرهم هذا فانه علق خبره بشرط نطقه كأنه قال ان كان ينطق فهو فعل على طريق التبكيت لقومه وقوله لسارة هذه أختي أى في الدين والايمان قال الله تعالى انما المؤمنون اخوة وكل هذه الالفاظ صدق في نفسها ليس فيها كذب فان قلت قد سماها النبي صلى الله عليه وسلم كذبات بقوله لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات وقال في حديث الشفاعة ويذكر كذباته قلت معناه انه لم يتكلم بكلام صورته صورة الكذب وان كان حقا في الباطن الا هذه الكلمات ولما كان مفهوم ظاهرها خلاف باطنها اشفق ابراهيم عليه السلام منها بمؤاخذته بها قال البغوي وهذه التأويلات لنفي الكذب عن ابراهيم والاولى هو الاول للحديث ويجوز ان يكون الله أذن له في ذلك لقصد الصلاح وتوبيخهم والاحتجاج عليهم كما أذن ليوسف حين أمر مناديه فقال أيتها العير انكم لسارقون ولم يكونوا سرقوا قال الامام فخر الدين وهذا القول مرغوب عنه والدليل القاطع عليه انه لو جاز ان يكذب لمصلحة ويأذن الله فيه فلنجوز هذا الاحتمال في كل ما أخبر الانبياء عنه وفي كل ما أخبر الله تعالى عنه وذلك يبطل الوثوق بالشرائع ويطرق التهمة الى كلها والحديث محمول على المعاريض فان فيها مندوحة عن الكذب وقوله (فرجعوا الى

(فقالوا انكم أنتم الظالمون) على الحقيقة بعبادة مالا ينطق لا من ظلمتموه حين قلتم من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين فان من لا يدفع عن رأسه الفأس كيف يدفع عن عابديه البأس (ثم نكسوا على رؤسهم) قال أهل التفسير أجرى الله تعالى الحق على لسانهم في القول الاول ثم أدركتهم الشقاوة أي ردّوا الى الكفر بعد ان أقروا على انفسهم بالظلم يقال نكسته قلبته جعلت أسفله اعلاه أي استقاموا حين رجعوا الى أنفسهم وجاؤا بالفكرة الصالحة ثم انقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة وقالوا (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) فكيف تأمرنا بسؤالها والجملة سدت مسد مفعولي علمت والمعنى لقد علمت عجزهم عن النطق فكيف نسألهم (قال) محتجا عليهم (أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا) هو في موضع المصدر أي نفعا (ولا يضركم) ان لم تعبدوه (أف لكم ولما تعبدون من دون الله) أف صوت اذا صوت به علم ان صاحبه متضجر ضجر مما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق فتأفف بهم واللام لبيان المتأفف به أي لكم ولآلهتكم هذا التأفف أف مدني وحفص اف مكي وشامي أف غيرهم (أفلا تعقلون) ان من هذا وصفه لا يجوز ان يكون الها فلما ألزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب (قالوا حرقوه) بالنار لانها أهول ما يعاقب به وافظع (وانصروا آلهتكم) بالانتقام منه (ان كنتم فاعلين) أي ان كنتم ناصرين آلهتكم نصرا مؤزرا فاختاروا له أهول المعاقبات وهو الاحراق بالنار والا فرطتم في نصرتها والذي أشار باحراقه نمرود أو رجل من اكراد فارس وقيل انهم حين هموا باحراقه حبسوه ثم بنوا بيتا بكوثى وجمعوا شهرا أصناف الخشب ثم اشعلوا نارا عظيمة كادت الطير تحترق في الجو من وهجها ثم وضعوه في المنجنيق مقيدا مغلولا فرموا به فيها وهو يقول حسبي الله ونعم الوكيل وقال له جبريل هل لك حاجة فقال أما اليك فلا قال فسل ربك قال حسبي من سؤالي علمه بحالي وما أحرقت النار الا وثاقه وعن ابن عباس انما نجا بقوله حسبي الله ونعم الوكيل (قلنا يا نار كوني بردا وسلاما) أي ذات برد وسلام فبولغ في ذلك كان ذاتها برد وسلام (على ابراهيم) أراد ابردي فيسلم منك ابراهيم وعن ابن عباس رضي الله عنهما لو لم يقل ذلك لاهلكته ببردها والمعنى ان الله تعالى نزع عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحر والاحراق وابقاها على الاضاءة والاشراق كما كانت وهو على كل شئ قدير

أنفسهم) أي تفكروا بقلوبهم ورجعوا الى عقولهم (فقالوا) ما نراه الا كما قال (انكم انتم الظالمون) يعني بعبادتكم ما لا يتكلم وقيل معناه أنتم الظالمون لهذا الرجل في سؤالكم اياه وهذه آلهتكم حاضرة فاسألوها (ثم نكسوا على رؤسهم) قال أهل التفسير أجرى الله الحق على ألسنتهم في القول الاول وأقرارهم على أنفسهم بالظلم ثم أدركتهم الشقاوة فرجعوا الى حالهم الاولى وهو قوله ثم نكسوا على رؤسهم أي ردوا الى الكفر وقالوا (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) أي فكيف نسألهم فلما اتجهت الحجة لابراهيم (قال) لهم (أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا) أي ان عبدتموه (ولا يضركم) أي ان تركتم عبادته (أف لكم) أي تبا لكم (ولما تعبدون من دون الله) والمعنى انه حقرهم وحقر معبودهم (أفلا تعقلون) أي أليس لكم عقل تعلمون به ان هذه الاصنام لا تستحق العبادة فلما ألزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم) يعني انكم لا تنصرونها الا بتحريق ابراهيم لانه يعيبها ويطعن فيها (ان كنتم فاعلين) أي ناصرين آلهتكم قال ابن عمر الذي قال هذا رجل من الاكراد قيل اسمه هيزن خسف الله به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وقيل قاله نمرود بن كنعان بن سنجاريب بن نمرود ابن كوش بن حام بن نوح

(ذكر القصة في ذلك)

فلما اجتمع نمرود وقومه لاحراق ابراهيم حبسوه في بيت وبنوا بنيانا كالحظيرة بقرية يقال لها كوثى ثم جمعوا له صلاب الحطب وأصناف الخشب مدة شهر حتى كان الرجل يمرض فيقول لئن عوفيت لاجمعن حطبا لابراهيم وكانت المرأة تنذر في بعض ما تطلب لئن أصابته لتحطبن في نار ابراهيم وكانت المرأة تغزل وتشتري الحطب بغزلها احتسابا في دينها وكان الرجل يوصي بشراء الحطب من ماله لابراهيم فلما جمعوا ما أرادوا وأشعلوا في كل ناحية من الحطب نارا فاشتعلت النار واشتدت حتى ان الطير ليمر بها فيحترق من شدة وهجها وحرها فأوقدوا عليها سبعة أيام فلما أرادوا ان يلقوا ابراهيم لم يعلموا كيف يلقونه فقيل ان ابليس جاء وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه ثم عمدوا الى ابراهيم فقيدوه ورفعوه على رأس البنيان ووضعوه في المنجنيق مقيدا مغلولا فصاحت السماء والارض ومن فيهما من الملائكة وجميع الخلق الا الثقلين صيحة واحدة أي ربنا ابراهيم خليلك يلقى في النار وليس في أرضك أحد يعبدك غيره فائذن لنا في نصرته فقال الله تعالى انه خليلي ليس لي خليل غيره وأنا الهه ليس له اله غيري فان استغاث بأحد منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك وان لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه فخلوا بيني وبينه فلما أرادوا القاءه في النار أتاه خازن المياه وقال ان أردت أخمدت النار وأتاه خازن الهواء وقال ان شئت طيرت النار في الهواء فقال ابراهيم لا حاجة لي اليكم حسبي الله ونعم الوكيل وروي عن أبي بن كعب ان ابراهيم قال حين أوثقوه ليلقوه في النار لا اله الا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم رموا به في المنجنيق الى النار فاستقبله جبريل فقال يا ابراهيم ألك حاجة قال أما اليك فلا قال جبريل فاسأل ربك فقال ابراهيم حسبي من سؤالي علمه بحالي (خ) عن ابن عباس في قوله تعالى وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل قال قالها ابراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم قال كعب الاحبار جعل كل شئ يطفئ النار الا الوزغ فانه كان ينفخ في النار (ق) عن أم شريك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الاوزاغ زاد البخاري وقال كان ينفخ على ابراهيم (قلنا) أي قال الله عز وجل (يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم) قال ابن عباس لو لم يقل سلاما لمات ابراهيم من بردها وفي الآثار انه لم يبق يومئذ نار في الارض الا طفئت فلم ينتفع في ذلك اليوم بنار في العالم ولو لم يقل على ابراهيم بقيت ذات برد أبدا وقيل أخذت الملائكة بضبعي ابراهيم فأقعدوه على الارض فاذا عين

ماء عذب وورد أحمر ونرجس قال كعب ما أحرقت النار من ابراهيم الا وثاقه قالوا وكان ابراهيم في ذلك الموضع سبعة أيام قال المنهال بن عمرو قال ابراهيم ما كنت أياما قط أنعم مني من الايام التي كنت في النار قيل وبعث الله تعالى ملك الظل في صورة ابراهيم فقعد الى جنب ابراهيم يؤنسه قالوا وبعث الله عز وجل جبريل بقميص من حرير الجنة وطنفسة فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة وقعد معه يحدثه وقال جبريل يا ابراهيم ان ربك يقول أما علمت ان النار لا تضر أحبائي ثم نظر نمرود وأشرف على ابراهيم من صرح له فرآه جالسا في روضة والملك قاعد الى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب فناداه يا ابراهيم كبير الهك الذي بلغت قدرته ان حال بينك وبين النار يا ابراهيم هل تستطيع ان تخرج منها قال نعم قال هل تخشى ان أقمت ان تضرك قال لا قال فقم فاخرج منها فقام ابراهيم يمشي فيها حتى خرج منها فلما وصل اليه قال له يا ابراهيم من الرجل الذي رأيته معك مثلك في صورتك قاعدا الى جنبك قال ذلك ملك الظل أرسله الي ربي ليؤنسني فيها فقال نمرود يا ابراهيم اني مقرب الى الهك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك حين أبيت الا عبادته وتوحيده واني ذابح له أربعة آلاف بقرة قال ابراهيم لا يقبل الله منك ما دمت على دينك حتى تفارقه وترجع الى ديني فقال لا أستطيع ترك ملكي ولكن سوف أذبحها له فذبحها نمرود وكف عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام ومنعه الله عز وجل منه قوله عز وجل (وأرادوا به كيدا) أي أرادوا ان يكيدوه (فجعلناهم الاخسرين) قيل معناه انهم خسروا السعي والنفقة ولم يحصل لهم مرادهم وقيل ان الله تعالى ارسل على نمرود وقومه البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت في دماغه بعوضة فأهلكته قوله تعالى (ونجيناه ولوطا) يعني من نمرود وقومه (الى الارض التي باركنا فيها للعالمين) يعني الى ارض الشام بارك الله فيها بالخصب وكثرة الاشجار والثمار والانهار وقال ابي بن كعب بارك الله فيها وسماها مباركة لانه ما من ماء عذب الا وينبع اصله من تحت الصخرة التي ببيت المقدس وقيل لان اكثر الانبياء منها (ق) عن ابي قتادة ان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال لكعب الا تتحول الى المدينة فيها مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره فقال كعب اني وجدت في كتاب الله المنزل يا أمير المؤمنين ان الشام كنز الله من ارضه وبها كنزه من عباده عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ستكون هجرة بعد هجرة فخيار اهل الارض الزمهم مهاجر ابراهيم اخرجه ابو داود أراد بالهجرة الثانية الهجرة الى الشام يرغب في المقام بها عن زيد بن ثابت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طوبى لاهل الشام فقلت وما ذاك يا رسول الله قال لان الملائكة باسطة أجنحتها عليها أخرجه الترمذي عن بهز بن حكيم عن ابيه عن جده قال قلت يا رسول الله اين تأمرني قال ههنا ونحا بيده نحو الشام اخرجه الترمذي قال محمد بن اسحاق استجاب لابراهيم رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله به من جعل النار عليه بردا وسلاما على خوف من نمرود وملئهم وآمنت به سارة بنت هاران الاكبر عم ابراهيم وتبعه لوط وكان ابن اخيه وهو لوط بن هاران وهو اخو ابراهيم وكان لهما اخ ثالث اسمه ناحور فثلاثتهم اولاد تارخ وهو آزر فخرج ابراهيم من كوثى من ارض العراق مهاجرا الى ربه ومعه لوط وسارة فخرج يلتمس الفرار بدينه والامان على عبادة ربه حتى نزل حران فمكث بها ما شاء الله ثم خرج مهاجرا حتى قدم مصر ثم خرج ورجع الى الشام فنزل السبع من ارض فلسطين ونزل لوط بالمؤتفكة وهي على مسيرة يوم وليلة من السبع فبعثه الله نبيا الى اهلها وما قرب منها فذلك قوله تعالى ونجيناه ولوطا الى الارض التي باركنا فيها للعالمين قوله تعالى (ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة) اي عطية من عطاء الله قال ابن عباس النافلة هو يعقوب لان الله تعالى اعطى ابراهيم اسحاق بدعائه حيث قال رب هب لي من الصالحين وزاده يعقوب نافلة وهو ولد الولد (وكلا جعلنا صالحين) يعني ابراهيم واسحاق ويعقوب (وجعلناهم أئمة) اي يهتدى بهم في الخير (يهدون بأمرنا) اي يدعون الناس الى ديننا بأمرنا (واوحينا اليهم فعل الخيرات) اي العمل بالشرائع (واقام الصلاة)

(وأرادوا به كيدا) احراقا (فجعلناهم الاخسرين) فأرسل على نمرود وقومه البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ودخلت بعوضة في دماغ نمرود فأهلكته (ونجيناه) أي ابراهيم (ولوطا) ابن أخيه هاران من العراق (الى الارض التي باركنا فيها للعالمين) أي أرض الشام وبركتها أن أكثر الانبياء منها فانتشرت في العالمين آثارهم الدينية وهي أرض خصب يطيب فيها عيش الغني والفقير وقيل ما من ماء عذب في الارض الا وينبع أصله من صخرة بيت المقدس روي انه نزل بفلسطين ولوط بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة وقال عليه السلام انها ستكون هجرة بعد هجرة فخيار الناس الى مهاجر ابراهيم (ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة) قيل هو مصدر كالعافية من غير لفظ الفعل السابق أي وهبناه له هبة وقيل هي ولد الولد وقد سأل ولدا فأعطيه وأعطي يعقوب نافلة أي زيادة وفضلا من غير سؤال وهي حال من يعقوب (وكلا) أي ابراهيم واسحاق ويعقوب وهو المفعول الاول لقوله (جعلنا) والثاني (صالحين) في الدين والنبوة (وجعلناهم أئمة) يقتدى بهم في الدين (يهدون الناس) (بأمرنا) بوحينا (وأوحينا اليهم فعل الخيرات) وهي جميع الاعمال الصالحة وأصله ان تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات وكذلك قوله (واقام الصلاة)

وإيتاء الزكاة) والأصل وإقامة الصلاة الا ان المضاف اليه جعل بدلا من الهاء (وكانوا لنا عابدين) لا للأصنام فأنتم يا معشر العرب أولاد إبراهيم فاتبعوه في ذلك (ولوطا) انتصب بفعل يفسره (آتيناه حكما) حكمة وهي ما يجب فعله من العمل أو فصلا بين الخصوم أو نبوة (وعلما) فقها

(ونجيناه من القرية) من أهلها وهي سدوم (التي كانت تعمل الخبائث) اللواطة والضراط وحذف المارة بالحصى وغيرها (إنهم كانوا قوم سوء فاسقين) خارجين عن طاعة الله (وأدخلناه في رحمتنا) في أهل رحمتنا أو في الجنة (إنه من الصالحين) أي جزاء له على صلاحه كما أهلكنا قومه عقابا على فسادهم (ونوحا) أي واذكر نوحا (إذ نادى) أي دعا على قومه بالهلاك (من قبل) من قبل هؤلاء المذكورين (فاستجبنا له) أي دعاءه (فنجيناه وأهله) أي المؤمنين من ولده وقومه (من الكرب العظيم) من الطوفان وتكذيب أهل الطغيان (ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا) معناه منعناه منهم أي من أذاهم (إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم (وداود وسليمان) أي واذكرهما (إذ) بدل منهما (يحكمان في الحرث) في الزرع أو الكرم (إذ) ظرف ليحكمان (نفشت) دخلت (فيه غنم القوم) ليلا فأكلته وأفسدته والنفش انتشار الغنم ليلا بلا راع (وكنا لحكمهم) أرادهما والمتحاكمين إليهما (شاهدين) أي كان ذلك بعلمنا ومرأى منا (ففهمناها) أي الحكومة أو الفتوى (سليمان) وفيه دليل على أن الصواب كان مع سليمان صلوات الله عليه وقصته أن الغنم رعت الحرث وأفسدته بلا راع ليلا فتحاكما إلى داود فحكم بالغنم لأهل الحرث وقد استوت قيمتاهما أي قيمة الغنم كانت على قدر النقصان من الحرث فقال سليمان وهو ابن إحدى عشرة سنة غير هذا أرفق بالفريقين فعزم عليه ليحكم فقال أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها والحرث إلى رب الغنم حتى يصلح الحرث ويعود كهيئته يوم أفسد ثم يترادان فقال القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك وكان ذلك باجتهاد منهما وهذا كان في شريعتهم فأما في شريعتنا فلا ضمان عند أبي حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم بالليل أو بالنهار إلا أن يكون مع البهيمة سائق أو قائد وعند الشافعي رحمه الله يجب الضمان بالليل وقال الجصاص إنما ضمنوا لأنهم أرسلوها ونسخ الضمان بقوله عليه السلام العجماء جبار وقال مجاهد كان هذا صلحا وما فعله داود كان حكما والصلح خير (وكلا) من داود وسليمان (آتينا حكما) نبوة (وعلما) معرفة بموجب الحكم

أي المحافظة عليها (وإيتاء الزكاة) أي الواجبة وخصهما لأن الصلاة أفضل العبادات البدنية وشرعت لذكر الله والزكاة أفضل العبادات المالية ومجموعهما التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله (وكانوا لنا عابدين) أي موحدين قوله عز وجل (ولوطا آتيناه حكما) أي الفصل بين الخصوم بالحق وقيل أراد الحكمة والنبوة (وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث) يعني قرية سدوم وأراد أهلها وأراد بالخبائث إتيان الذكور في أدبارهم وكانوا يتضارطون في مجالسهم مع أشياء أخر كانوا يعملونها من المنكرات (إنهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناه في رحمتنا) قيل أراد بالرحمة النبوة وقيل أراد بها الثواب (إنه من الصالحين) يعني الأنبياء قوله تعالى (ونوحا إذ نادى من قبل) أي من قبل إبراهيم ولوط (فاستجبنا له) أي أجبنا دعاءه (فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) قال ابن عباس من الغرق وتكذيب قومه له وقيل إنه كان أطول الأنبياء عمرا وأشدهم بلاء والكرب أشد الغم (ونصرناه) أي منعناه (من القوم الذين كذبوا بآياتنا) من أن يصلوا إليه بسوء وقيل من بمعنى على (إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) قوله عز وجل (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث) قال ابن عباس وأكثر المفسرين كان الحرث كرما قد تدلت عناقيده وقيل كان زرعا وهو أشبه بالعرف (إذ نفشت فيه غنم القوم) أي رعته ليلا فأفسدته وكانت بلا راع (وكنا لحكمهم شاهدين) أي كان ذلك بعلمنا ومرأى منا لا يخفى علينا علمه وفيه دليل لمن يقول بأن أقل الجمع اثنان لقوله وكنا لحكمهم والمراد به داود وسليمان قال ابن عباس وغيره إن رجلين دخلا على داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الزرع إن غنم هذا دخلت زرعي ليلا فوقعت فيه فأفسدته فلم تبق منه شيئا فأعطاه رقاب الغنم بالزرع فخرجا فمرا على سليمان فقال كيف قضى بينكما فأخبراه فقال سليمان لو وليت أمركما لقضيت بغير هذا وروي أنه قال غير هذا أرفق بالفريقين فأخبر بذلك داود فدعاه وقال كيف تقضي ويروى أنه قال له بحق النبوة والأبوة إلا ما أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين قال ادفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بدرها ونسلها وصوفها ومنافعها ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه فإذا صار الحرث كهيئته يوم أكل دفع إلى صاحبه وأخذ صاحب الغنم غنمه فقال داود القضاء ما قضيت وحكم بذلك فقيل كان لسليمان يوم حكم بذلك من العمر إحدى عشرة سنة وحكم الإسلام في هذه المسألة أن ما أفسدت الماشية المرسلة من مال الغير بالنهار فلا ضمان على ربها وما أفسدته بالليل ضمنه ربها لأن في عرف الناس أن أصحاب الزرع يحفظونه بالنهار والمواشي تسرح بالنهار وترد بالليل إلى المراح ويدل على هذه المسألة ما روى حرام بن سعد بن محيصة أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائط رجل من الأنصار فأفسدت فيه فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن على أهل الأموال حفظها بالنهار وعلى أهل المواشي حفظها بالليل زاد في رواية وأن على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل أخرجه أبو داود مرسلا وذهب أصحاب الرأي أن المالك إذا لم يكن مع ماشيته فلا ضمان عليه فيما أتلفت ليلا كان أو نهارا قوله تعالى (ففهمناها سليمان) أي علمناه وألهمناه حكم القضية (وكلا) يعني داود وسليمان (آتينا حكما وعلما) أي بوجوه الاجتهاد وطرق الأحكام قال الحسن لولا هذه الآية لرأيت الحكام قد هلكوا ولكن الله حمد هذا بصوابه وأثنى على هذا باجتهاده واختلف العلماء في أن حكم داود كان باجتهاده أم بنص وكذلك حكم سليمان فقال بعضهم حكما بالاجتهاد قال ويجوز الاجتهاد للأنبياء ليدركوا ثواب المجتهدين والعلماء لهم الاجتهاد في الحوادث إذا لم يجدوا فيها نص كتاب أو سنة وإذا أخطؤوا فلا إثم عليهم (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر وقال قوم إن داود وسليمان حكما بالوحي فكان حكم سليمان ناسخا لحكم داود

ومن قال بهذا يقول لا يجوز للانبياء الحكم بالاجتهاد لانهم مستغنون عنه بالوحي واحتج من ذهب الى ان كل مجتهد مصيب بظاهر هذه الآية وبالحديث حيث وعد الثواب للمجتهد على الخطا وهو قول أصحاب الرأي وذهب جماعة الى انه ليس كل مجتهد مصيبا بل اذا اختلف اجتهاد المجتهدين في حادثة كان الحق مع واحد لا بعينه ولو كان كل واحد مصيبا لم يكن للتقسيم معنى وقوله صلى الله عليه وسلم اذا اجتهد فأخطأ فله أجر لم يرد به انه يؤجر على الخطا بل يؤجر على اجتهاده في طلب الحق لان اجتهاده عبادة والاثم في الخطا عنه موضوع اذا لم يأل جهدا ووجه الاجتهاد في هذا الحكم ان داود قوم قدر الضرر في الحرث فكان مساويا لقيمة الغنم وكان عنده ان الواجب في ذلك الضرر في الحرث قيمة المثل فلا جرم سلم الغنم الى المجني عليه وأما سليمان فان اجتهاده أدى الى انه يجب مقابلة الاصول بالاصول والزوائد بالزوائد فأما مقابلة الاصول بالزوائد فغير جائزة ولعل منافع الغنم في تلك السنة كانت موازية لمنافع الحرث فحكم به ومن أحكام داود وسليمان عليهما السلام ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن احداهما فقالت لصاحبتها انما ذهب بابنك وقالت الاخرى انما ذهب بابنك فتحاكما الى داود فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه فقال ائتوني بالسكين أشقه بينهما فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى أخرجاه في الصحيحين قوله تعالى (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) أي يسبحن مع داود اذا سبح قال ابن عباس كان يفهم تسبيح الحجر والشجر قيل كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير وقيل معنى يسبحن يصلين معه اذا صلى وقيل كان داود اذا فتر يسمعه الله تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق اليه (وكنا فاعلين) يعني ما ذكر من التفهيم وايتاء الحكم والتسخير (وعلمناه صنعة لبوس لكم) أي صنعة الدروع التي تلبس في الحرب قيل أول من صنع الدروع وسردها واتخذها حلقا داود وكانت من قبل صفائح قالوا ان الله ألان الحديد لداود بأن يعمل منه بغير نار كأنه طين والدرع يجمع بين الخفة والحصانة وهو قوله (لتحصنكم) أي تمنعكم (من بأسكم) أي حرب عدوكم وقيل من وقع السلاح فيكم وقيل ليحصنكم الله به (فهل أنتم شاكرون) أي يقول ذلك لداود وأهل بيته قوله عز وجل (ولسليمان الريح) أي وسخرنا لسليمان الريح وهو جسم متحرك لطيف ممتنع بلطفه من القبض عليه يظهر للحس بحركته ويخفى عن البصر بلطفه (عاصفة) أي شديدة الهبوب فان قلت قد وصفها الله بالرخاء وهي الريح اللينة قلت كانت الريح تحت أمره ان أراد ان تشتد اشتدت وان أراد ان تلين لانت (تجري بأمره الى الارض التي باركنا فيها) يعني الشأم وذلك لانها كانت تجري بسليمان وأصحابه حيث يشاء سليمان ثم يعود الى منزله بالشأم (وكنا بكل شيء عالمين) أي بصحة التدبير فيه وعلمنا ان ما يعطى سليمان من تسخير الريح وغيره يدعوه الى الخضوع لربه قال وهب كان سليمان عليه السلام اذا خرج الى مجلسه حلقت عليه الطير وقام له الانس والجن حتى يجلس على سريره وكان امرأ غزاء قلما كان يقعد عن الغزو ولا يسمع في ناحية من الارض بملك الا أتاه حتى يذله وكان فيما يزعمون اذا أراد الغزو أمر بعسكره فضرب له بخشب ثم نصب له على الخشب ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب فاذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الريح فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته حتى اذا استقلت به أمر الرخاء فمرت به شهرا في روحته وشهرا في غدوته الى حيث أراد وكانت تمر بعسكره الريح الرخاء وبالمزرعة فما تحركها ولا تثير ترابا ولا تؤذي طائرا قال وهب ذكر لي ان منزلا بناحية دجلة مكتوب فيه كتبه بعض صحابة سليمان اما من الانس أو من الجن نحن نزلناه وما بنيناه ومبنيا وجدناه غدونا من اصطخر فقلناه ونحن رائحون منه ان شاء الله فنازلون بالشأم وقال مقاتل نسجت الشياطين لسليمان بساطا فرسخا في فرسخ ذهبا في ابريسم وكان يوضع له منبر من ذهب وسط البساط فيقعد عليه وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة تقعد الانبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه

(وسخرنا) وذللنا (مع داود الجبال يسبحن) وهو حال بمعنى مسبحات أو استئناف كأن قائلا قال كيف سخرهن فقال يسبحن (والطير) معطوف على الجبال أو مفعول معه وقدمت الجبال على الطير لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأغرب وأدخل في الاعجاز لانها جماد وروي انه كان يمر بالجبال مسبحا وهي تجاوبه وقيل كانت تسير معه حيث سار (وكنا فاعلين) بالانبياء مثل ذلك وان كان عجبا عندكم (وعلمناه صنعة لبوس لكم) أي عمل اللبوس والمراد الدرع والدروع واللبوس اللباس (لتحصنكم) شامي وحفص أي الصنعة وبالياء غيرهم أي اللبوس أو الله عز وجل وبالنون أبو بكر وحماد أي الله عز وجل (من بأسكم) من حرب عدوكم (فهل أنتم شاكرون) استفهام بمعنى الامر أي فاشكروا الله على ذلك (ولسليمان الريح) أي وسخرنا له الريح (عاصفة) حال أي شديدة الهبوب ووصفت في موضع آخر بالرخاء لانها تجري باختياره فكانت في وقت رخاء وفي وقت عاصفة لهبوبها على حكم ارادته (تجري بأمره) أمر سليمان (الى الارض التي باركنا فيها) بكثرة الانهار والاشجار والثمار والمراد الشام وكان منزله بها وتحمله الريح من نواحي الارض اليها (وكنا بكل شيء عالمين) وقد أحاط علمنا بكل شيء فتجري الاشياء كلها على ما يقتضيه علمنا

شمس وترفع ريح الصبا البساط مسيرة شهر من الصباح الى الرواح وقال الحسن لما شغلت نبي الله سليمان الخيل حتى فاتته صلاة العصر غضب لله فعقر الخيل وأبدله الله مكانها خيرا منها وأسرع الريح تجري بأمره كيف شاء فكان يغدو من ايلياء فيقيل باصطخر ثم يروح منها فيكون رواحه ببابل وروي ان سليمان سار من أرض العراق فقال بمدينة بلخ متخللا بلاد الترك ثم جاوزهم الى أرض الصين يغدو على مسيرة شهر ويروح على مثل ذلك ثم عطف يمنة عن مطلع الشمس على ساحل البحر حتى أتى أرض السند وجاوزها وخرج منها الى مكران وكرمان ثم جاوزها حتى أتى أرض فارس فنزلها أياما وغدا منها فقال بكسكر ثم راح الى الشام وكان مستقره بمدينة تدمر وكان أمر الشياطين قبل شخوصه الى العراق فبنوها له بالصفاح والعمد والرخام الاصفر والابيض وفي ذلك يقول النابغة

أيا سليمان اذ قال المليك له * قم في البرية فاحددها عن الفند
وجيش الجن اني قد أذنت لهم * يبنون تدمر بالصفاح والعمد

قوله عز وجل (ومن الشياطين) أي وسخرنا له من الشياطين (من يغوصون له) أي يدخلون تحت الماء فيخرجون له من قعر البحر الجواهر (ويعملون عملا دون ذلك) أي دون الغوص وهو اختراع الصنائع العجيبة كما قال يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل الآية ويتجاوزون في ذلك الى أعمال المدن والقصور والصناعات كاتخاذ النورة والقوارير والصابون وغير ذلك (وكنا لهم حافظين) أي حتى لا يخرجوا عن أمره وقيل حفظناهم من ان يفسدوا ما عملوا وذلك انهم كانوا اذا عملوا عملا في النهار وفرغ قبل الليل أفسدوه وخربوه قيل ان سليمان كان اذا بعث شيطانا مع انسان ليعمل له عملا قال له اذا فرغ من عمله قبل الليل اشغله بعمل آخر لئلا يفسد ما عمل ويخربه قوله تعالى (وأيوب اذ نادى ربه) أي دعا ربه

(ذكر قصة أيوب عليه السلام)

قال وهب بن منبه كان أيوب رجلا من الروم وهو أيوب بن أموص بن تارخ بن روم بن عيص بن اسحاق ابن ابراهيم وكانت أمه من ولد لوط بن هاران وكان الله تعالى قد اصطفاه ونبأه وبسط له الدنيا وكانت له البثنية من أرض البلقاء من أعمال حوران من أرض الشام كلها سهلها وجبلها وكان له فيها من أصناف المال كله من الابل والبقر والغنم والخيل والحمير ما لا يكون لرجل أفضل منه في العدد والكثرة وكان له خمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ومال ويحمل له كل آلة فدان أتان لكل أتان من الولد اثنان أو ثلاثة أو أربع أو خمس وفوق ذلك وكان الله تعالى قد أعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء وكان برا تقيا رحيما بالمساكين يطعمهم ويكفل الايتام والارامل ويكرم الضعيف ويبلغ ابن السبيل وكان شاكرا لانعم الله مؤديا لحق الله قد امتنع من عدو الله ابليس ان يصيب منه ما يصيب من اهل الغنى من الغرة والغفلة والتشاغل عن أمر الله بما هو فيه من أمر الدنيا وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وصدقوه رجل من أهل اليمن يقال له اليفن وقيل نفير ورجلان من أهل بلده يقال لاحدهما بلدد والآخر صافر وكان لهؤلاء مال وكان ابليس لا يحجب عن شيء من السموات وكان يقف فيهن حيثما أراد حتى رفع الله عيسى فحجب عن أربع فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حجب عن السموات كلها الا من استراق السمع فسمع ابليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه فادرك ابليس الحسد والبغي فصعد سريعا حتى وقف من السماء حيث كان يقف وقال الهي نظرت في أمر عبدك أيوب فوجدته عبدا أنعمت عليه فشكرك وعافيته فحمدك ولو ابتليته بنزع ما أعطيته لحال عما هو عليه من شكرك وعبادتك ولخرج من طاعتك قال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض عدو الله ابليس حتى وقع على الارض فجمع عفاريت الجن ومردة الشياطين وقال لهم ماذا عندكم من القوة فقد سلطت على مال أيوب وهي المصيبة الفادحة والفتنة التي لا تصبر عليها الرجال فقال عفريت من الشياطين أعطيت

(ومن الشياطين) أي وسخرنا منهم (من يغوصون له) في البحار بأمره لاستخراج الدر وما يكون فيها (ويعملون عملا دون ذلك) أي دون الغوص وهو بناء المحاريب والتماثيل والقصور والقدور والجفان (وكنا لهم حافظين) أن يزيغوا عن أمره أو يبدلوا أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه (وأيوب) أي واذكر أيوب (اذ نادى ربه)

من القوة ما اذا شئت تحولت إعصارا من نار فأحرق كل شئ آتي عليه قال ابليس اذهب فأت الابل
ورعاتها فأتى الابل حين وضعت رؤسها ورعت فلم يشعر الناس حتى ثار من تحت الارض إعصار من نار
فأحرق الابل ورعاتها حتى أتى على آخرها ثم جاء عدو الله ابليس في صورة قيم ممن كانوا عليها على قعود الى
أيوب فوجده قائما يصلي فقال يا أيوب أقبلت نار حتى غشيت ابلك وأحرقتها ومن فيها غيري فقال أيوب
بعد أن فرغ من الصلاة الحمد لله هو أعطانيها وهو أخذها وانها مال الله أعارنيها وهو أولى بها اذا شاء
نزعها قال فتركت الناس مبهوتين يتعجبون منها منهم من يقول ما كان أيوب يعبد شيئا وما كان الا في
غرور ومنهم من يقول لو كان اله أيوب يقدر على ان يصنع شيئا لمنع وليه ومنهم من يقول بل هو الذي فعل
ما فعل ليشمت به عدوه ويفجع صديقه فقال أيوب الحمد لله حين أعطاني وحين نزع مني عريانا خرجت
من بطن أمي وعريانا أعود الى التراب وعريانا أحشر الى الله عز وجل ليس ينبغي لك ان تفرح حين أعارك
وتجزع حين قبض عاريته الله أولى بك وبما أعطاك ولو علم الله فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك مع تلك
الارواح وصرت شهيدا ولكنه علم منك شرا فأخرك فرجع ابليس الى أصحابه خاسئا ذليلا فقال ما عندكم
من القوة فاني لم أكلم قلبه قال عفريت من الجن عندي من القوة ما اذا شئت صحت صيحة لا يسمعها
ذو روح الا خرجت روحه قال ابليس فأت الغنم ورعاتها فانطلق حتى توسطها ثم صاح صيحة فتجثمت
أمواتا من الى آخرها ومات رعاتها فجاء ابليس متمثلا بقهرمان الرعاة الى أيوب فوجده يصلي فقال له مثل
القول الاول فرد عليه أيوب مثل الرد الاول فرجع ابليس الى أصحابه فقال ماذا عندكم من القوة فاني
لم أكلم قلب أيوب فقال عفريت عندي من القوة ما اذا شئت تحولت ريحا عاصفة تقلع كل شئ تأتي
عليه قال فأت الفدادين والحرث فانطلق يؤمهم وذلك حين شرع الفدادون في الحرث والزرع فلم يشعروا
حتى هبت ريح عاصفة فنسفت كل شئ من ذلك حتى كأنه لم يكن ثم جاء ابليس متمثلا بقهرمانهم الى أيوب
وهو قائم يصلي فقال له مثل قوله الاول ورد عليه أيوب مثل رده الاول وجعل ابليس يصيب ماله
مالا مالا حتى مر على آخره كلما انتهى الى هلاك مال من أمواله حمد الله وأحسن الثناء عليه ورضي
عنه بالقضاء ووطن نفسه بالصبر والبلاء حتى لم يبق له مال فلما رأى ابليس انه قد أفنى ماله ولم ينجح منه
بشئ صعد سريعا حتى وقف في الموقف الذي يقف فيه وقال الهي ان أيوب يرى انك ما متعته بولده فأنت
معطيه المال فهل أنت مسلطي على ولده فانها المصيبة التي لا تقوم لها قلوب الرجال قال الله عز وجل
انطلق فقد سلطتك على ولده فانقض عدو الله حتى أتى بني أيوب وهم في قصرهم فلم يزل يزلزل بهم
القصر حتى تداعى من قواعده وجعل جدره يضرب بعضها بعضا يرميهم بالخشب والحجارة فلما مثل
بهم كل مثلة رفع القصر وقلبه عليهم وانطلق الى أيوب متمثلا بالمعلم الذي كان يعلمهم الحكمة وهو جريح
مشدوخ الوجه يسيل دمه فأخبره وقال لو رأيت بنيك كيف عذبوا وكيف انقلبوا منكوسين على رؤسهم
تسيل دماؤهم وأدمغتهم ولو رأيت كيف شقت بطونهم فتناثرت أمعاؤهم لتقطع قلبك عليهم فلم يزل
يقول هذا ونحوه حتى رق أيوب وبكى وقبض قبضة من التراب فوضعها على رأسه وقال يا ليت أمي
لم تلدني فاغتنم ابليس ذلك فصعد سريعا بالذي كان من جزع أيوب مسرورا به ثم لم يلبث أيوب ان فاء
وأبصر واستغفر فصعد قرناؤه من الملائكة بتوبته فسبقت توبته الى الله وهو أعلم فوقف ابليس خاسئا
ذليلا وقال الهي انما هون على أيوب المال والولد انه يرى انك ما متعته بنفسه فأنت تعيد له المال والولد
فهل أنت مسلطي على جسده فقال الله عز وجل انطلق فقد سلطتك على جسده ولكن ليس لك
سلطان على لسانه وقلبه وعقله وكان الله أعلم به ولم يسلطه عليه الا رحمة ليعظم له الثواب ويجعله عبرة
للصابرين وذكرى للعابدين في كل بلاء نزل بهم ليتأسوا به في الصبر ورجاء الثواب فانقض عدو الله ابليس
سريعا اليه فوجد أيوب ساجدا فعجل قبل ان يرفع رأسه فأتاه من قبل وجهه فنفخ في منخريه نفخة
اشتعل منها جسده فخرج من قرنه الى قدمه ثآليل ووقعت فيه حكة فحك بأظفاره حتى سقطت

كلها ثم حكها بالمسوح الخشنة حتى قطعها ثم حكها بالفخار والحجارة الخشنة فلم يزل يحكها حتى قرح لحمه
وتقطع وتغير وانتن فأخرجه أهل القرية فجعلوه على كناسة لهم وجعلوا له عريشة ورفضه خلق الله
كلهم غير امرأته وهي رحمة بنت أفرائيم بن يوسف بن يعقوب فكانت تختلف إليه بما يصلحه وتلزمه
فلما رأى الثلاثة من أصحابه ما ابتلاه الله به اتهموه ورفضوه من غير أن يتركوا دينه فلما طال به البلاء
انطلق إليه أصحابه فبكتوه ولاموه وقالوا تب إلى الله من الذنب الذي عوقبت به قال وحضر معهم فتى
حديث السن قد آمن به وصدقه فقال لهم الفتى إنكم تكلمتم أيها الكهول وأنتم أحق بالكلام مني
لأسنانكم ولكن تركتم من القول ما هو أحسن من الذي قلتم ومن الرأي أصوب من الذي رأيتم ومن
الأمر أجمل من الذي أتيتم وقد كان لأيوب عليكم من الحق والذمام أفضل من الذي وصفتم فهل تدرون
أيها الكهول حق من انتقصتم وحرمة من انتهكتم ومن الرجل الذي عبتم واتهمتم ألم تعلموا أن أيوب
نبي الله وصفوته وخيرته من أهل الأرض يومكم هذا ثم لم تعلموا ولم يطلعكم الله على أنه سخط شيئا من
أمره منذ آتاه الله ما آتاه إلى يومكم هذا ولا على أنه نزع منه شيئا من الكرامة التي أكرمه الله بها
ولا أن أيوب قال على الله غير الحق في طول ما صحبتموه إلى يومكم هذا فإن كان البلاء هو الذي أزرى به
عندكم ووضعه في أنفسكم فقد علمتم أن الله تعالى يبتلي المؤمنين والصديقين والشهداء والصالحين
وليس بلاؤه لأولئك دليلا على سخطه عليهم ولا لهوانهم عليه ولكنها كرامة وخيرة لهم ولو كان أيوب ليس
من الله بهذه المنزلة إلا أنه أخ أحببتموه على وجه الصحبة لكان لا يجمل بالحليم أن يعذل أخاه عند البلاء
ولا يعيره بالمصيبة ولا يعيبه بما لا يعلم وهو مكروب حزين ولكنه يرحمه ويبكي ويستغفر له ويحزن لحزنه
ويدله على مراشد أمره وليس بحكيم ولا رشيد من جهل هذا فالله الله أيها الكهول وقد كان في عظمة
الله وجلاله وذكر الموت ما يقطع ألسنتكم ويكسر قلوبكم ألم تعلموا أن لله عبادا أسكتتهم الخشية من
غير عي ولا بكم وإنهم لهم الفصحاء البلغاء النبلاء الألباء العالمون بالله ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله
انقطعت ألسنتهم واقشعرت جلودهم وانكسرت قلوبهم وطاشت عقولهم إعظاما لأمر الله وإجلالا فإذا
استفاقوا من ذلك استبقوا إلى الله بالأعمال الزاكية يعدون أنفسهم من الظالمين والخاطئين وإنهم لأبرار
برآء ومع المقصرين المفرطين وإنهم لأكياس أقوياء فقال أيوب عليه السلام إن الله يزرع الحكمة بالرحمة
في قلب الصغير والكبير فإذا نبتت في القلب يظهرها الله على اللسان وليست تكون الحكمة من قبل
السن ولا طول التجربة وإذا جعل الله العبد حكيما في الصبا لم تسقط منزلته عند الحكماء وهم يرون من
الله سبحانه وتعالى عليه نور الكرامة ثم أقبل أيوب على الثلاثة وقال أتيتموني غضابا رهبتم قبل أن
تسترهبوا وبكيتم قبل أن تضربوا كيف بي لو قلت تصدقوا عني بأموالكم لعل الله أن يخلصني أو قربوا
عني قربانا لعل الله أن يتقبله ويرضى عني وإنكم قد أعجبتكم أنفسكم وظننتم أنكم قد عوفيتم بإحسانكم
ولو نظرتم فيما بيني وبينكم ثم صدقتم لوجدتم لكم عيوبا قد سترها الله تعالى بالعافية التي ألبسكم وقد كنتم
فيما خلا توقرونني وأنا مسموع كلامي معروف حقي منتصف من خصمي فأصبحت اليوم وليس لي رأي
ولا كلام معكم فأنتم كنتم أشد من مصيبتي ثم أعرض عنهم أيوب وأقبل على ربه مستغيثا به متضرعا إليه
فقال يا رب لأي شيء خلقتني ليتني إذ كرهتني لم تخلقني يا ليتني عرفت الذنب الذي أذنبت والعمل الذي
عملت فصرفت وجهك الكريم عني لو كنت أمتني فألحقتني بآبائي فالموت كان أجمل بي ألم أكن للغريب
دارا وللمسكين قرارا ولليتيم وليا وللأرملة قيما إلهي أنا عبد ذليل إن أحسنت فالمن لك وإن أسأت فبيدك
عقوبتي جعلتني للبلاء غرضا وللفتنة نصيبا وقد وقع علي من البلاء ما لو سلطته على جبل لضعف عن
حمله فكيف يحمله ضعفي وإن قضاءك هو الذي أذلني وإن سلطانك هو الذي أسقمني وأنحل جسمي ولو أن
ربي نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم بملء فمي فأدلي بعذري وأتكلم ببراءتي وأخاصم
عن نفسي لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي ولكنه ألقاني وتعالى عني فهو يراني ولا أراه ويسمعني

ولا أسمعه فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظله غمام حتى ظن أصحابه انه عذاب ثم نودى يا أيوب ان الله
يقول ها أنا قد دنوت منك ولم أزل بك قريبا قم فادل بعذرك وتكلم ببراءتك وخاصم عن نفسك واشدد
ازارك وقم مقام جبار يخاصم جبارا ان استطعت فانه لا ينبغي ان يخاصمني الا جبار مثلي لقد منت
نفسك يا أيوب أمرا ما يبلغ لمثله مثلك أين أنت مني يوم خلقت الارض فوضعتها على أساسها هل كنت
معي تمد بأطرافها هل علمت بأي مقدار قدرتها أم على أي شئ وضعت أكنافها أبطاعتك حمل الماء الارض
أم بحكمتك كانت الارض للماء غطاء أين كنت مني يوم رفعت السماء سقفا في الهواء لا تعلق بسبب من فوقها
ولا يقلها دعم من تحتها هل تبلغ من حكمتك ان تجرى نورها أو تسير نجومها أو يختلف بأمرك ليلها ونهارها
أين كنت مني يوم أنبعت الانهار وسكرت البحار أبسلطانك حبست أمواج البحار على حدودها أم
بقدرتك فتحت الارحام حين بلغت مدتها أين كنت مني يوم صببت الماء على التراب ونصبت شوامخ
الجبال هل تدرى على أى شئ أرسيتها أم بأى مثقال وزنتها أم هل لك من ذراع تطيق حملها أم هل
تدرى من أين الماء الذى أنزلت من السماء أم هل تدرى من اى شئ انشأت السحاب ام هل تدرى اين
خزانة الثلج ام اين جبال البرد ام اين خزانة الليل بالنهار وخزانة النهار بالليل واين خزانة الريح وبأى لغة تتكلم
الاشجار ومن جعل العقول في أجواف الرجال وشق الاسماع والابصار ومن ذلت الملائكة لملكه وقهر
الجبارين بجبروته وقسم الارزاق بحكمته في كلام كثير يدل على آثار قدرته ذكرها لايوب فقال ايوب
صغر شأني وكل لساني وعقلي ورأيي وضعفت قوتي عن هذا الامر الذى يعرض على الهي قد علمت ان كل
الذى قد ذكرت صنع يديك وتدبير حكمتك واعظم من ذلك واعجب لو شئت عملت ولا يعجزك شئ ولا تخفى
عليك خافية الهي او ثقني البلاء فتكلمت ولم املك نفسي فكان البلاء هو الذى انطقني ليت الارض
انشقت بي فذهبت فيها ولم اتكلم بشئ يسخطك ربي وليتني مت بغمي في اشد بلائي قبل ذلك انما
تكلمت حين تكلمت بعذرى وسكت حين سكت لترحمني كلمة زلت مني فلن اعود وقد وضعت يدى على
في وعضضت على لساني والصقت بالتراب خدى اعوذ بك اليوم منك واستجير بك من جهد البلاء
وأجرني واستغيث بك من عقابك فأغثني واستعينك على أمرى فأعني واتوكل عليك فاكفني واعتصم بك
فاعصمني واستغفرك فاغفر لي فلن أعود لشئ تكرهه مني قال الله تعالى يا أيوب نفذ فيك علمي وسبقت
رحمتي غضبي فقد غفرت لك ورددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم لتكون لمن خلفك آية وتكون
عبرة لاهل البلاء وعزاء للصابرين فاركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب فيه شفاء وقرب عن
أصحابك قربانا واستغفر لهم فانهم قد عصوني فيك روى عن أنس مرفوعا ان أيوب لبث ببلائه ثماني عشرة
سنة وقال وهب ثلاث سنين لم يزد يوما وقال كعب سبع سنين وقال الحسن مكث أيوب مطروحا على كناسة
لبنى اسرائيل سبع سنين واشهرا تختلف فيه الدود لا يقربه أحد غير رحمة صبرت معه بصدق وكانت تأتيه
بالطعام وتحمد الله معه اذا حمد وأيوب مع ذلك لا يفتر عن ذكر الله تعالى والصبر على بلائه فصرخ ابليس
صرخة جمع فيها جنوده من أقطار الارض فلما اجتمعوا اليه قالوا ما أحزنك قال أعياني هذا العبد الذى
لم ادع له مالا ولا ولدا ولم يزدد الا صبرا ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقاة على كناسة لا تقربه الا
امرأته فاستعنت بكم لتعينوني عليه فقالوا له فأين مكرك الذى أهلكت به من مضى قال بطل ذلك كله
في أيوب فاشيروا على قالوا من أين أتيت آدم حين أخرجته من الجنة قال من قبل امرأته قالوا فشأنك
بأيوب من قبل امرأته فانه لا يستطيع ان يعصيها وليس يقربه أحد غيرها قال أصبتم فانطلق ابليس
حتى أتى رحمة امرأة أيوب وهي تصدق فتمثل لها في صورة رجل وقال لها أين بعلك يا أمة الله قالت
هو ذاك يحك قروحه ويتردد الديدان في جسده فلما سمعها طمع ان تكون كلمة جزع فوسوس اليها
وذكرها ما كانت فيه من النعم والمال وذكرها جمال أيوب وشبابه وما هو فيه من الضر وان ذلك لا ينقطع
عنه أبدا فصرخت فعلم انها قد جزعت فأتاها بسخلة وقال ليذبح لي هذا أيوب ويبرأ فجاءت تصرخ يا أيوب

حتى متى يعذبك ربك أين المال أين الولد أين الصديق أين لونك الحسن أين جسمك الحسن اذبح هذه السخلة واسترح قال أيوب أتاك عدو الله فنفخ فيك ويلك أرأيت ما تبكين عليه من المال والولد والصحة من أعطانيه قالت الله قال كم متعنا به قالت ثمانين سنة قال فمذ كم ابتلانا قالت منذ سبع سنين وأشهر قال ويلك ما انصفت ربك الا صبرت في البلاء ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ثمانين سنة والله لئن شفاني الله لاجلدنك مائة جلدة أمرتني ان اذبح لغير الله طعامك وشرابك الذي تأتيني به على حرام ان أذوق منه شيئا اعزبي دعيني فلا أراك فطردها فذهبت فلما نظر أيوب وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق خر ساجدا لله وقال رب (اني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) فقيل له ارفع رأسك فقد استجبت لك اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل منها فلم يبق عليه من درنه ودائه شيء ظاهر الا سقط وعاد شبابه وجماله أحسن ما كان ثم ضرب برجله فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق في جوفه داء الا خرج فقام صحيحا وكسي حلة فجعل يلتفت فلا يرى شيئا مما كان عليه وما كان له من أهل ومال الا وقد ضعفه الله له وذكر لنا ان الماء الذي اغتسل منه تطاير على صدره جرادا من ذهب فجعل يضمه بيده فأوحى الله اليه يا أيوب الم أغنك قال بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها قال فخرج حتى جلس على مكان مشرف ثم ان امرأته قالت أرأيت ان كان طردني الى من أكله أدعه يموت جوعا ويضيع فتأكله السباع لارجعن اليه فرجعت اليه فلا الكناسة رأت ولا تلك الحالة التي كانت تعرف واذا الامور قد تغيرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وذلك بعين أيوب وهابت صاحب الحلة ان تأتيه فتسأل عن أيوب فدعاها وقال ما تريدين يا أمة الله فبكت وقالت أردت ذلك المبتلى الذي كان منبوذا على الكناسة لا أدري اضاع أم ما فعل به فقال أيوب ما كان منك فبكت وقالت بعلي فقال هل تعرفينه اذا رأيته قالت وهل يخفى على أحد رآه ثم جعلت تنظر وهي تهابه ثم قالت أما انه أشبه خلق الله بك اذ كان صحيحا قال فاني انا أيوب الذي أمرتني ان أذبح سخلة لابليس واني اطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله فرد علي ما ترين وقال وهب لبث أيوب في البلاء ثلاث سنين فلما غلب أيوب ابليس ولم يستطع منه شيئا اعترض امرأته في هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجسم والجمال على مركب ليس من مراكب الناس له عظم وبهاء فقال لها أنت صاحبة أيوب هذا الرجل المبتلى قالت نعم قال هل تعرفيني قالت لا قال انا اله الارض وانا الذي صنعت بصاحبك ما صنعت لانه عبد اله السماء وتركني فأغضبني ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليك وعليه كل ما كان لكما من مال وولد فانه عندي ثم أراها اياه ببطن الوادي الذي لقيها فيه وفي بعض الكتب ان ابليس قال لها اسجدي لي سجدة حتى أرد عليك المال والولد وأعافي زوجك فرجعت الى أيوب فأخبرته بما قال لها وما أراها قال لقد أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك ثم اقسم ان عافاه الله ليضربنها مائة جلدة وقال عند ذلك مسني الضر من طمع ابليس في سجود حرمتي له ودعائه اياها واياي الى الكفر ثم ان الله تعالى رحم امرأة أيوب بصبرها معه على البلاء وخفف عليها واراد ان يبر يمين أيوب فأمره ان يأخذ ضغثا يشتمل على مائة عود صغير فيضربها به ضربة واحدة وقيل انما قال مسني الضر حين قصد الدود الى قلبه ولسانه فخشي ان يفتر عن الذكر والفكر وقيل لم يدع الله بالكشف عنه حتى ظهرت له ثلاثة أشياء احدها ما قيل في حقه لو كان لك عند الله منزلة ما أصابك هذا والثاني ان امرأته طلبت طعاما فلم تجد ما تطعمه فباعت ذؤابتها فأتته بطعام والثالث قول ابليس اني اداويه على ان يقول انت شفيتني وقيل مسني الضر أي من شماتة الاعداء فان قلت كيف سماه الله صابرا وقد اظهر الشكوى والجزع بقوله مسني الضر وقوله مسني الشيطان بنصب وعذاب قلت ليس هذا شكاية وانما هو دعاء بدليل قوله تعالى فاستجبنا له والشكوى انما تكون الى الخلق لا الى الخالق بدليل قول يعقوب انما اشكو بثي وحزني الى الله وقال سفيان بن عيينة من اظهر الشكوى الى الناس وهو راض بقضاء الله تعالى لا يكون ذلك جزعا كما روي ان جبريل عليه السلام

(إني) أي دعاه بأني (مسني الضر) الضر بالفتح الضرر في كل شيء وبالضم الضرر في النفس من مرض وهزال (وأنت أرحم الراحمين) الطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب فكأنه قال أنت أهل أن ترحم وأيوب أهل أن يرحم فارحمه واكشف عنه الضر الذي مسه عن أنس رضي الله عنه أخبر عن ضعفه حين لم يقدر على النهوض الى الصلاة ولم يشتك وكيف يشكو من قيل له انا وجدناه صابرا نعم العبد وقيل انما شكا اليه تلذذا بالنجوى لا منه تضررا بالشكوى والشكاية اليه غاية القرب كما أن الشكاية منه غاية البعد

دخل على النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه فقال كيف تجدك قال اجدني مغموما واجدني مكروبا وقال لعائشة حين قالت وارأساه بل انا وارأساه قوله تعالى (فاستجبنا له) اى اجبنا دعاءه (فكشفنا ما به من ضر) وذلك انه قال له اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين ماء فأمره ان يغتسل منها ففعل فذهب كل داء كان بظاهره ثم مشى اربعين خطوة فأمره ان يضرب برجله الارض مرة اخرى ففعل فنبعت عين ماء بارد فأمره ان يشرب منها فشرب فذهب كل داء كان بباطنه فصار كاصح ما كان (وآتيناه اهله ومثلهم معهم) قال ابن مسعود وابن عباس واكثر المفسرين ردّ الله اليه اهله واولاده باعيانهم احياهم الله واعطاه مثلهم معهم وهو ظاهر القرآن وعن ابن عباس رواية اخرى ان الله ردّ الى المرأة شبابها فولدت له ستة وعشرين ذكرا وقيل كان له سبع بنين وسبع بنات وعن انس يرفعه انه كان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله سحابتين فأفرغت احداهما على أندر القمح الذهب وافرغت الاخرى على أندر الشعير الورق حتى فاضا وروى ان الله تعالى بعث اليه ملكا وقال له ان ربك يقرئك السلام بصبرك فاخرج الى أندرك فخرج اليه فأرسل الله عليه جرادا من ذهب فذهبت واحدة فاتبعها وردها الى أندره فقال له الملك ما يكفيك ما في اندرك فقال هذه بركة من بركات ربي ولا اشبع من بركاته (خ) عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما ايوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل ايوب يحثي في ثوبه فناداه ربه يا ايوب الم اكن اغنيتك عما ترى قال بلى يا رب ولكني لا غنى لي عن بركتك وقيل آتى الله ايوب مثل اهله الذين هلكوا قال عكرمة قيل لايوب ان اهلك في الآخرة فان شئت عجلناهم لك في الدنيا وان شئت كانوا لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا فقال بل يكونون لي في الآخرة واوتى مثلهم في الدنيا فعلى هذا يكون معنى الآية وآتيناه اهله في الآخرة ومثلهم معهم في الدنيا واراد بالاهل الاولاد (رحمة من عندنا) اى نعمة (وذكرى للعابدين) اى عظة وعبرة لهم قوله عز وجل (واسماعيل) هو ابن ابراهيم صلى الله عليه وسلم (وادريس) هو اخنوخ (وذا الكفل كل من الصابرين) لما ذكر الله امر ايوب وصبره على البلاء اتبعه بذكر هؤلاء الانبياء لانهم صبروا على المحن والشدائد والعبادة ايضا اما اسماعيل صلى الله عليه وسلم فانه صبر على الانقياد الى الذبح واما ادريس فقد تقدمت قصته وأما ذو الكفل فاختلفوا فيه فقيل ان نبيا من بني اسرائيل وكان ملكا اوحى الله اليه انى اريد قبض روحك فاعرض ملكك على بني اسرائيل من يكفل انه يصلي الليل ويصوم النهار ولا يفطر ويقضي بين الناس ولا يغضب فادفع ملكك اليه ففعل ذلك فقام شاب فقال أنا أتكفل لك بهذا فتكفل ووفى فشكر الله له ونبأه فسمي ذا الكفل وقيل لما كبر اليسع قال اني أستخلف رجلا على الناس يعمل عليهم في حياتي انظر كيف يعمل قال فجمع الناس وقال من يتقبل مني ثلاثا أستخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ويقضي ولا يغضب فقام رجل تزدريه العين فقال أنا فرده ذلك اليوم وقال مثلها في اليوم الآخر فسكت الناس وقام ذلك الرجل فقال أنا فاستخلفه فأتاه ابليس في صورة شيخ ضعيف حين أخذ مضجعه للقائلة وكان لا ينام من الليل والنهار الا تلك النومة فدق الباب فقال من هذا فقال شيخ كبير مظلوم فقام ففتح الباب فقال ان بيني وبين قومي خصومة وانهم ظلموني وفعلوا وفعلوا وجعل يطول عليه حتى ذهبت القائلة فقال اذا رحت فائتني حتى آخذ حقك فانطلق وراح فكان في مجلسه ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يبتغيه فلم يجده فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلم يره فلما رجع الى القائلة وقال وأخذ مضجعه دق الباب فقال من هذا فقال الشيخ المظلوم ففتح له وقال له ألم أقل اذا قعدت فأتني قال انهم أخبث قوم اذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك واذا قمت جحدوني قال فانطلق فاذا جلست فأتني وفاتته القائلة فلما جلس جعل ينظر فلا يراه وشق عليه النعاس فلما كان اليوم الثالث قال لبعض أهله لا تدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فانه قد شق على النعاس فلما كانت تلك الساعة نام فجاء فلم يأذن له الرجل فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها فاذا هو في البيت فدق الباب من

(فاستجبنا له) أجبنا دعاءه (فكشفنا ما به من ضر) فكشفنا ما مسه وانعمنا عليه (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) روي ان ايوب عليه السلام كان روميا من ولد اسحاق بن ابراهيم عليه السلام وله سبعة بنين وسبع بنات وثلاثة آلاف بعير وسبعة آلاف شاة وخمسمائة فدان يتبعها خمسمائة عبد لكل عبد امرأة وولد ونخيل فابتلاه الله تعالى بذهاب ولده وماله وبمرض في بدنه ثماني عشرة سنة او ثلاث عشرة سنة او ثلاث سنين وقالت له امرأته يوما لو دعوت الله عز وجل فقال لها كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال انا استحي من الله ان ادعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي فلما كشف الله عنه احيا اولاده باعيانهم ورزقه مثلهم معهم (رحمة من عندنا) هو مفعول له (وذكرى للعابدين) يعني رحمة لايوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كصبره فيثابوا كثوابه (واسماعيل) بن ابراهيم (وادريس) بن شيث بن آدم (وذا الكفل) أي اذكرهم وهو الياس او زكريا او يوشع بن نون وسمي به لانه ذو الحظ من الله والكفل الحظ (كل من الصابرين) أي هؤلاء المذكورون كلهم موصوفون بالصبر

داخل فاستيقظ فقال يا فلان ألم آمرك قال اما قبلي فلم تؤت فانظر من أين أتيت فقام الى الباب فاذا هو
مغلق كما أغلقه واذا الرجل معه فى البيت فقال أتنام والخصوم ببابك فنظر اليه فعرفه فقال اعدو الله
قال نعم أعييتني وفعلت ما فعلت لاغضبك فعصمك الله فسمى ذا الكفل لانه تكفل بأمر فوفى به واختلف
فى نبوته فقيل كان نبيا وهو الياس وقيل هو زكريا وقيل انه كان عبدا صالحا ولم يكن نبيا (وأدخلناهم
فى رحمتنا) يعنى ما أنعم عليهم من النبوة وصيرهم اليه فى الجنة من الثواب (انهم من الصالحين) قوله عز
وجل (وذا النون) أى واذكر صاحب الحوت أضيف الى الحوت لابتلاعه اياه وهو يونس بن متى (اذ ذهب
مغاضبا) قال ابن عباس فى رواية عنه كان يونس وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك فسبى منهم
تسعة اسباط ونصفا وبقى منهم سبطان ونصف فأوحى الله الى شعياء النبى ان سر الى حزقيل الملك وقل له
يوجه نبيا قويا فانى ألقى فى قلوب أولئك حتى يرسلوا معه بنى اسرائيل فقال له الملك فمن ترى وكان فى
مملكته خمسة من الانبياء قال يونس انه قوى أمين فدعا الملك يونس وأمره ان يخرج فقال يونس ان الله
أمرك باخراجى قال لا قال فهل سمانى الله لك قال لا قال فههنا غيرى أنبياء أقوياء فالحوا عليه فخرج مغاضبا
للنبى وللملك وقومه وأتى بحر الروم فركب وقيل ذهب عن قومه مغاضبا لربه لما كشف عنهم العذاب بعد
ما أوعدهم وكره ان يكون بين اظهر قوم جربوا عليه الخلف فيما أوعدهم واستحى منهم ولم يعلم السبب الذى
رفع العذاب عنهم به فكان غضبه أنفة من ظهور خلف وعده وانه يسمى كذابا لا كراهية لله وفى بعض
الاخبار انه كان من عادة قومه انهم يقتلون من جربوا عليه الكذب فخشى ان يقتلوه ما لم يأتهم العذاب للميعاد
فذهب مغاضبا وقال ابن عباس أتى جبريل يونس فقال انطلق الى أهل نينوى فانذرهم فقال التمس
دابة قال الامر أعجل من ذلك فغضب وانطلق الى السفينة وقال وهب ان يونس كان عبدا صالحا وكان فى
خلقه ضيق فلما حمل اثقال النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل الثقيل فقذفها من يديه وخرج
هاربا منها فلذلك أخرجه الله من أولى العزم من الرسل وقال ولا تكن كصاحب الحوت وقوله (فظن
أن لن نقدر عليه) أى ان لن نقضى عليه العقوبة قاله ابن عباس فى رواية عنه وقيل معناه فظن ان لن
نضيق عليه الحبس وقيل معناه فظن انه يعجز ربه فلا يقدر عليه قيل لما انطلق يونس مغاضبا لربه
واستزله الشيطان حتى ظن ان لن يقدر عليه وكان له سلف وعبادة أبى الله ان يدعه للشيطان فقذفه
فى بطن الحوت فمكث فيه أربعين ما بين يوم وليلة وقيل سبعة وقيل ثلاثة وقيل ان الحوت ذهب
به حتى بلغ تخوم الارض السابعة فتاب الى ربه وراجع نفسه فى بطن الحوت (فنادى فى الظلمات)
أى ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت (أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين) أى
حيث عصيتك وما صنعت من شئ فلم أعبد غيرك فأخرجه الله من بطن الحوت برحمته وروى أبو هريرة
مرفوعا قال أوحى الله تعالى الى الحوت ان خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فأخذه ثم اهوى
به الى مسكنه فى البحر فلما انتهى به الى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال فى نفسه ما هذا فأوحى الله اليه
هذا تسبيح دواب الارض قال فسبح وهو فى بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا يا ربنا نسمع صوتا
ضعيفا بأرض غريبة وفى رواية صوتا معروفا من مكان مجهول فقال ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته
فى بطن الحوت فقالوا العبد الصالح الذى كان يصعد اليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا
له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه فى الساحل فذلك قوله تعالى (فاستجبنا له ونجيناه من الغم) أى
من تلك الظلمات (وكذلك ننجى المؤمنين) أى من الكروب اذا دعونا واستغاثوا بنا فان قلت قد تمسك
بمواضع من هذه القصة من أجاز وقوع الذنب من الانبياء منها قوله اذ ذهب مغاضبا ومنها فظن ان لن
نقدر عليه ومنها قوله انى كنت من الظالمين قلت أما الجواب الكلى فقد اختلفوا فى هذه الواقعة هل
كانت قبل الرسالة أم لا فقال ابن عباس كانت رسالته بعد ان أخرجه من بطن الحوت بدليل قوله تعالى
فى الصافات بعد ذكر خروجه وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون فثبت بهذا ان هذه الواقعة كانت

(وأدخلناهم فى رحمتنا) نبوتنا أو النعمة فى
الآخرة (انهم من الصالحين) أى ممن لا يشوب
صلاحهم كدر الفساد (وذا النون) أى
اذكر صاحب الحوت والنون الحوت فاضيف
اليه (اذ ذهب مغاضبا) حال أى مراغما
لقومه ومعنى مغاضبته لقومه انه أغضبهم
بمفارقته لخوفهم حلول العقاب عليهم عندها
روى انه برم بقومه لطول ما ذكرهم فلم يتعظوا
وأقاموا على كفرهم فراغمهم وظن ان ذلك
يسوغ حيث لم يفعله الا غضبا لله وبغضا للكفر
وأهله وكان عليه ان يصابر وينتظر الاذن
من الله تعالى فى المهاجرة عنهم فابتلى ببطن
الحوت (فظن ان لن نقدر) نضيق (عليه)
وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه دخل يوما
على معاوية فقال لقد ضربتنى أمواج القرآن
البارحة فغرقت فيها فلم اجد لنفسى خلاصا الا
بك قال وما هى يا معاوية فقرأ الآية فقال
أو يظن نبى الله ان لا يقدر عليه قال هذا من
القدر لا من القدرة (فنادى فى الظلمات) اى
فى الظلمة الشديدة المتكاثفة فى بطن الحوت
كقوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات أو ظلمة
الليل والبحر وبطن الحوت (ان) اى بانه
(لا اله الا أنت) او بمعنى اى (سبحانك انى
كنت من الظالمين) لنفسى فى خروجى من قومى
قبل ان تأذن لى فى الحديث ما من مكروب يدعو
بهذا الدعاء الا استجيب له وعن الحسن ما نجاه
والله الا اقراره على نفسه بالظلم (فاستجبنا له
ونجيناه من الغم) غم الزلة والوحشة والوحدة
(وكذلك ننجى المؤمنين) اذا دعونا واستغاثوا
بنا نجى شامى وابو بكر بادغام النون فى الجيم عند
البعض لان النون لا تدغم فى الجيم وقيل تقديره
نجى النجاء المؤمنين فسكن الياء تخفيفا واسند
الفعل الى المصدر ونصب المؤمنين بالنجاء
لكن فيه اقامة المصدر مقام الفاعل مع وجود
المفعول وهذا لا يجوز وفيه تسكين الياء وبابه
الضرورات وقيل أصله ننجى من التنجية فحذفت
النون الثانية لاجتماع النونين كما حذفت
احدى التاءين فى تنزل الملائكة

(وزكريا اذنادى ربه رب لاتذرنى فردا) سأل ربه ان يرزقه ولدا يرثه ولا يدعه وحيدا بلا وارث ثم ردّ امره الى الله مستسلما فقال (وانت خير الوارثين) اى فان لم ترزقنى من يرثنى فلا أبالى فانك خير وارث اى باق (فاستجبناله ووهبناله يحيى) ولدا (واصلحناله زوجه) جعلناها صالحة للولادة بعد العقار اى بعد عقرها او حسنة وكانت سيئة الخلق (انهم) اى الانبياء المذكورين (كانوا يسارعون فى الخيرات) اى انهم انما استحقوا الاجابة الى طلباتهم لمبادرتهم ابواب الخير ومسارعتهم فى تحصيلها (ويدعوننا رغبا ورهبا) اى طمعا وخوفا كقوله يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه وهما مصدران فى موضع الحال او المفعول له اى للرغبة فينا والرهبة منا (وكانوا لنا خاشعين) متواضعين خائفين (والتى) اى واذكر التى (احصنت فرجها) حفظته من الحلال والحرام (فنفخنا فيها من روحنا) اجرينا فيها روح المسيح او امرنا جبريل فنفخ فى جيب درعها فاحدثنا بذلك النفخ عيسى فى بطنها واضافة الروح اليه تعالى لتشريف عيسى عليه السلام (وجعلناها وابنها آية) مفعول ثان (للعالمين) وانما لم يقل آيتين كما قال وجعلنا الليل والنهار آيتين لان حالهما بمجموعهما آية واحدة وهى ولادتها اياه من غير فحل او التقدير وجعلناها آية وابنها كذلك فآية مفعول المعطوف عليه ويدل عليه قراءة من قرأ آيتين (ان هذه أمّتكم أمّة واحدة) الامّة الملة وهذه اشارة الى ملة الاسلام وهى ملة جميع الانبياء وأمّة واحدة حال اى متوحدة غير متفرقة والعامل مادل عليه اسم الاشارة اى ان ملة الاسلام هى ملتكم التى يجب ان تكونوا عليها لا تنحرفون عنها يشار اليها ملة واحدة غير مختلفة (وانا ربكم فاعبدون) اى ربيتكم اختيارا فاعبدونى شكرا وافتخارا والخطاب للناس كافة (وتقطعوا أمرهم بينهم) اصل الكلام وتقطعتم الا ان الكلام صرف الى الغيبة على طريقة الالتفات والمعنى وجعلوا امر دينهم فيما بينهم قطعا وصاروا فرقا واحزابا ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة (كل الينا راجعون) فنجازيهم على اعمالهم (فمن يعمل من الصالحات) شيئا (وهو مؤمن) بما يجب الايمان به (فلا كفران لسعيه) اى فان سعيه مشكور مقبول والكفران مثل فى حرمان الثواب كما ان الشكر مثل فى اعطائه وقد نفى نفى الجنس ليكون ابلغ (وانا له) للسعى اى الحفظة بأمرنا (كاتبون) فى صحيفة عمله نثيبه به (وحرام) وحرم كوفى غير حفص وخلف وهما لغتان كحل وحلال وزنا وضده معنى والمراد بالحرام الممتنع وجوده (على قرية اهلكناها انهم لا يرجعون) والمعنى وممتنع على مهلك غير ممكن ان لا يرجع الى الله بالبعث او وحرام على قرية اهلكناها اى قدرنا اهلاكهم او حكمنا باهلاكهم ذلك وهو المذكور فى الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعى المشكور غير المكفور انهم لا يرجعون عن الكفر الى الاسلام (حتى) هى التى يحكى بعدها الكلام والكلام المحكى الجملة من الشرط والجزاء أعنى (اذا) وما فى حيزها (فتحت يأجوج ومأجوج) أى فتح سدهما

قبل النبوة وهو الصحيح وأما الجواب التفصيلى لقوله اذ ذهب مغاضبا فحمله على انه لقومه أو للملك أولى بحال الانبياء وأما قوله فظن ان لن نقدر عليه فقد تقدم معناه اى لن نضيق عليه وذلك ان يونس ظن أنه مخير ان شاء أقام وان شاء خرج وان الله تعالى لا يضيق عليه فى اختياره وقيل هو من القدر لا من القدرة وأما قوله انى كنت من الظالمين فالظلم وضع الشئ فى غير موضعه وهذا اعتراف عند بعضهم بذنبه فاما ان يكون لخروجه عن قومه بغير اذن ربه او لضعفه عما حمله أو لدعائه بالعذاب على قومه وفى هذه الاشياء ترك الافضل مع قدرته على تحصيله فكان ذلك ظلما وقيل كانت رسالته قبل هذه الواقعة بدليل قوله وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون فعلى هذا يكون الجواب عن هذه الواقعة ماتقدم من التفصيل والله أعلم قوله عز وجل (وزكريا اذ نادى ربه) أى دعا ربه فقال (رب لاتذرنى فردا) أى وحيدا لا ولد لى يساعدنى وارزقنى وارثا (وأنت خير الوارثين) هو ثناء على الله بأنه الباقى بعد فناء الخلق وانه الوارث لهم وهذا على سبيل التمثيل والمجاز فهو كقوله وأنت خير الرازقين (فاستجبناله ووهبناله يحيى) أى ولدا (وأصلحناله زوجه) اى جعلناها ولودا بعدما كانت عقيما وقيل كانت سيئة الخلق فاصلحها الله تعالى له بأن رزقها حسن الخلق (انهم كانوا يسارعون فى الخيرات) يعنى الانبياء المذكورين فى هذه السورة وقيل زكريا وأهل بيته والمسارعة فى الخيرات من أكبر ما يمدح به المرء لانها تدل على حرص عظيم فى طاعة الله عز وجل (ويدعوننا رغبا ورهبا) يعنى انهم ضموا الى فعل الطاعات أمرين أحدهما الفزع الى الله لمكان الرغبة فى ثوابه والرهبة من عقابه والثانى الخشوع وهو قوله تعالى (وكانوا لنا خاشعين) الخشوع هو الخوف اللازم للقلب فيكون الخاشع هو الحذر الذى لا ينبسط فى الامور خوفا من الوقوع فى الاثم قوله تعالى (والتى أحصنت فرجها) أى احصانا كليا من الحلال والحرام جميعا كما قالت لم يمسسنى بشر ولم أك بغيا وهى مريم بنت عمران (فنفخنا فيها من روحنا) أمرنا جبريل حتى نفخ فى جيب درعها فخلقنا بذلك النفخ المسيح فى بطنها وأضاف الروح اليه تشريفا لعيسى كبيت الله وناقة الله (وجعلناها وابنها آية) أى دلالة (للعالمين) على كمال قدرتنا على خلق ولد من غير أب فان قلت هما اثنان فكيف قال آية قلت معنى الكلام وجعلنا شأنهما وأمرهما آية واحدة أى ولادتها اياه من غير أب آية قوله تعالى (ان هذه أمّتكم) أى ملتكم ودينكم (أمّة واحدة) أى دينا واحدا وهو الاسلام فابطل ما سوى الاسلام من الاديان والامّة الجماعة التى هى على مقصد واحد وجعلت الشريعة أمّة لاجتماع أهلها على مقصد واحد (وأنا ربكم فاعبدون) أى لا دين سوى دينى ولا رب لكم غيرى فاعبدونى أى وحدونى (وتقطعوا أمرهم بينهم) أى اختلفوا فى الدين فصاروا فرقا وأحزابا حتى لعن بعضهم بعضا وتبرأ بعضهم من بعض (كل الينا راجعون) فنجزيهم بأعمالهم (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه) أى لا يجحد ولا يبطل سعيه بل يشكر ويثاب عليه (وانا له كاتبون) أى لعمله وحافظون له وقيل الشكر من الله المجازاة والكفران ترك المجازاة قوله عز وجل (وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون) قال ابن عباس معناه وحرام على أهل قرية أهلكناهم أن يرجعوا بعد الهلاك وقيل معناه وحرام على أهل قرية حكمنا بهلاكهم ان نقبل أعمالهم لانهم لا يتوبون قوله عز وجل (حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج) يريد فتح السد وذلك ان الله يفتحه أخبر عن يأجوج ومأجوج وهما قبيلتان يقال انهما

تسعة أعشار بنى ادم (وهم من كل حدب ينسلون) أى يسرعون النزول من الآكام والتلال وفى هذه الكناية وجهان أحدهما ان المراد بهم يأجوج ومأجوج وهو الاصح بدليل ماروى عن النواس بن سمعان قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه فى طائفة النخل فلما رحنا اليه عرف ذلك فينا فقال ماشأنكم قلنا يارسول الله ذكرت الدجال الغداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل فقال غير الدجال أخوفنى عليكم ان يخرج وأنا فيكم فانا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه والله خليفتى على كل مسلم انه شاب قطط عينه طافئة كأنى أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف انه خارج خلة بين الشأم والعراق فعاث يمينا وعاث شمالا ياعباد الله فاثبتوا قلنا يارسول الله وما لبثه فى الارض قال أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا يارسول الله فذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم قال لا أقدروا له قدره قلنا يارسول الله وما اسراعه فى الارض قال كالغيث استدبرته الريح فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والارض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرا وأسبغه ضروعا وأمده خواصر ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شئ من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها أخرجى كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك فبينما هو كذلك اذ بعث الله المسيح ابن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين واضعا كفيه على أجنحة ملكين اذا طأطأ رأسه قطر واذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه الامات ونفسه ينتهى الى حيث ينتهى طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله ثم يأتى عيسى عليه السلام الى قوم قد عصمهم الله منه فيمسح على وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة فبينما هو كذلك اذ أوحى الله الى عيسى عليه السلام انى قد أخرجت عبادا لى لايدان لاحد أن يقاتلهم فحرز عبادى الى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون مافيها ويمر آخرهم فيقول لقد كان بهذه مرة ماء ويحصر نبى الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لاحدهم خيرا من مائة دينار لاحدكم اليوم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه الى الله فيرسل الله عليهم النغف فى رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ثم يهبط نبى الله عيسى وأصحابه الى الارض فلا يجدون فى الارض موضع شبر الا ملأه زهمهم ونتنهم فيرغب نبى الله عيسى وأصحابه الى الله فيرسل الله طيرا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله مطرا لايكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الارض حتى يتركها كالزلفة ثم يقال للارض أنبتى ثمرتك وردى بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك فى الرسل حتى ان اللقحة من الابل لتكفى الفئام من الناس واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس فبينما هم كذلك اذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة أخرجه مسلم

شرح غريب ألفاظ الحديث قوله حتى ظنناه فى طائفة النخل أى ناحية النخل وجانبه والطائفة القطعة من الشئ وقوله فخفض فيه ورفع أى خفض صوته ورفع من شدة ماتكلم به فى أمره وقيل انه خفض من أمره تهوينا له ورفع من شدة فتنته والتخويف من أمره قوله انه شاب قطط أى جعد الشعر وقوله طافئة أى خارجة عن حدها قوله انه خارج خلة أى انه يخرج قصدا وطريقا بين جهتين والتخلل الدخول فى الشئ قوله فعاث أى افسد قوله أقدروا له قدره أى قدروا قدر يوم من أيامكم المعهودة وصلوا فيه بقدر أوقاته وقوله فتروح عليهم سارحتهم أى مواشيهم وقوله فيصبحون ممحلين أى مقحطين قد أجدبت أرضهم وغلت أسعارهم قوله كيعاسيب النحل جمع يعسوب وهو

فحذف المضاف كما حذف المضاف الى قرية
فتحت شامى وهما قبيلتان من جنس الانس
يقال الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج
ومأجوج (وهم) راجع الى الناس المسوقين
الى المحشر وقيل هم يأجوج ومأجوج يخرجون
حين يفتح السد (من كل حدب) نشز من
الارض أى ارتفاع (ينسلون) يسرعون

ثفل النحل ورئيسها قوله فيقطعه جزلتين رمية الغرض أي قطعتين والغرض الهدف الذي يرمى بالنشاب قوله بين مهرودتين رويت بالدال المهملة وبالمعجمة أي شقتين وقيل حلتين وقيل الهرد المصبوغ الاصفر بالورس والزعفران قوله لا يدان لاحد بقتالهم أي لا قدرة ولا قوة لاحد بقتالهم والنغف دود يكون في أنوف الابل والغنم فرسى جمع فريس وهو القتيل قوله زهمهم أي ريحهم المنتنة قوله كالزلفة أي كالمرآة وجمعها زلف ويروى بالقاف واراد به استواءها وطاقتها قوله تأكل العصابة أي الجماعة قيل يبلغون أربعين وقحف الرمانة في الحديث قشرها والرسل بكسر الراء اللبن واللقحة الناقة ذات اللبن والفئام الجماعة من الناس والفخذ دون القبيلة وقوله يتهارجون أي يختلطون والتهارج الاختلاف وأصله القتل * الوجه الثاني * في تفسير قوله تعالى وهم من كل حدب ينسلون قيل جميع الخلائق يخرجون من قبورهم الى موقف الحساب (م) عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال ما تذكرون قالوا نذكر الساعة قال انها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم قوله عز وجل (واقترب الوعد الحق) أي القيامة قال حذيفة لو أن رجلا اقتنى فلوا بعد خروج يأجوج ومأجوج لم يركبه حتى تقوم الساعة الفلو المهر (فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا) قيل معنى الآية ان القيامة اذا قامت شخصت أبصار الذين كفروا من شدة الاهوال ولا تكاد تطرف من هول ذلك اليوم ويقولون (يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا) يعني في الدنيا حيث كذبنا به وقلنا انه غير كائن (بل كنا ظالمين) أي في وضعنا العبادة في غير موضعها قوله عز وجل (انكم) الخطاب للمشركين (وما تعبدون من دون الله) يعني الاصنام (حصب جهنم) أي حطبها ووقودها وقيل يرمى بهم في النار كما يرمى بالحصباء وأصل الحصب الرمي (أنتم لها واردون) أي فيها داخلون (لو كان هؤلاء) يعني الاصنام (آلهة) أي على الحقيقة (ما وردوها) أي ما دخل الاصنام النار وعابدوها (وكل فيها خالدون) يعني العابدين والمعبودين (لهم فيها زفير) قيل الزفير أن يملأ الرجل صدره غما ثم يتنفس وقيل هو شدة ما ينالهم من العذاب (وهم فيها لا يسمعون) قال ابن مسعود في هذه الآية اذا بقي في النار من يخلد فيها جعلوا في توابيت من نار ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت أخر ثم تلك التوابيت في توابيت أخر عليها مسامير من نار فلا يسمعون شيئا ولا يرى أحد منهم ان في النار أحدا يعذب غيره قوله تعالى (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) قال العلماء ان هنا بمعنى الا أي الا الذين سبقت لهم منا الحسنى يعني السعادة والعدة الجميلة بالجنة (أولئك عنها) أي عن النار (مبعدون) قيل الآية عامة في كل من سبقت له من الله السعادة وقال أكثر المفسرين عنى بذلك كل من عبد من دون الله وهو لله طائع ولعبادة من يعبده كاره وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وصناديد قريش في الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه ثم تلا عليه انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم الآيات الثلاث ثم قام فأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمي فأخبره الوليد بن المغيرة بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن الزبعرى أما والله لو وجدته لخصمته فدعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن الزبعرى أأنت قلت انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم قال نعم قال أليست اليهود تعبد عزيرا والنصارى تعبد المسيح وبنو مليح يعبدون الملائكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم بل هم يعبدون الشيطان فأنزل الله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى يعني عزيرا والمسيح والملائكة أولئك عنها مبعدون وأنزل في ابن الزبعرى ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون وزعم جماعة ان المراد من الآية الاولى الاصنام لان الله تعالى قال انكم وما تعبدون

(واقترب الوعد الحق) أي القيامة وجواب اذا (فاذا هي) وهي اذا المفاجأة وهي تقع في المجازاة سادة مسد الفاء كقوله اذا هم يقنطون فاذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل فهي شاخصة أو اذا هي شاخصة كان سديدا وهي ضمير مبهم يوضحه الابصار ويفسره (شاخصة أبصار الذين كفروا) أي مرتفعة الاجفان لا تكاد تطرف من هول ما هم فيه (يا ويلنا) متعلق بمحذوف تقديره يقولون يا ويلنا ويقولون حال من الذين كفروا (قد كنا في غفلة من هذا) اليوم (بل كنا ظالمين) بوضعنا العبادة في غير موضعها (انكم وما تعبدون من دون الله) يعني الاصنام وابليس وأعوانه لانهم بطاعتهم له واتباعهم خطواتهم في حكم عبدتهم (حصب) حطب وقرئ حطب (جهنم أنتم لها واردون) فيها داخلون (لو كان هؤلاء آلهة) كما زعمتم (ما وردوها) ما دخلوا النار (وكل) أي العابد والمعبود (فيها) في النار (خالدون لهم) للكفار (فيها زفير) أنين وبكاء وعويل (وهم فيها لا يسمعون) شيئا ما لانهم صاروا صما وفي السماع نوع أنس فلم يعطوه (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) الخصلة المفضلة في الحسن تأنيث الاحسن وهي السعادة أو البشرى بالثواب أو التوفيق للطاعة نزلت جوابا لقول ابن الزبعرى عند تلاوته عليه السلام على صناديد قريش انكم وما تعبدون من دون الله الى قوله خالدون أليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى المسيح وبنو مليح الملائكة على ان قوله وما تعبدون لا يتناولهم لان ما لمن لا يعقل الا انهم أهل عناد فزيد في البيان (أولئك) يعني عزيرا والمسيح والملائكة (عنها) عن جهنم (مبعدون) لانهم لم يرضوا بعبادتهم وقيل المراد بقوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى جميع المؤمنين لما روي ان عليا رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن ابن عوف وقال الجنيد رحمه الله سبقت لهم منا العناية في البداية فظهرت لهم الولاية في النهاية

(لا يسمعون حسيسها) صوتها الذى يحس وحركة تلهبها وهذه مبالغة فى الابعاد عنها أى لا يقربونها حتى لا يسمعوا صوتها وصوت من فيها (وهم فيما اشتهت أنفسهم) من النعيم (خالدون) مقيمون والشهوة طلب النفس اللذة (لا يحزنهم الفزع الأكبر) النفخة الاخيرة (وتتلقاهم الملائكة) أى تستقبلهم الملائكة مهنئين على أبواب الجنة يقولون (هذا يومكم الذى كنتم توعدون) أى هذا وقت ثوابكم الذى وعدكم ربكم فى الدنيا العامل فى (يوم نطوى السماء) لا يحزنهم أو تتلقاهم تطوى السماء يزيد وطيها تكوير نجومها ومحو رسومها أو هو ضد النشر فجمعها وطويها (كطى السجل) أى الصحيفة (للكتب) حمزة وعلى وحفص أى للمكتوبات أى لما يكتب فيه من المعانى الكثيرة وغيرهم للكتاب أى كما يطوى الطومار للكتابة أى لما يكتب فيه لان الكتاب أصله المصدر كالبناء ثم يوقع على المكتوب وقيل السجل ملك يطوى كتب بنى آدم اذا رفعت اليه وقيل كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم والكتاب على هذا اسم الصحيفة المكتوب فيها والطى مضاف الى الفاعل وعلى الاول الى المفعول (كما بدأنا أول خلق نعيده) انتصب الكاف بفعل مضمر يفسره نعيده وما موصولة أى نعيده مثل الذى بدأناه نعيده وأول خلق ظرف لبدأنا أى أول ما خلق أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ الثابت فى المعنى وأول الخلق ايجاده أى فكما أوجده أولا يعيده ثانيا تشبيها للاعادة بالابداء فى تناول القدرة لهما على السواء والتنكير فى خلق مثله فى قولك هو أول رجل جاءنى تريد أول الرجال ولكنك وحدته ونكرته ارادة تفصيلهم رجلا رجلا فكذلك معنى أول خلق أول الخلق بمعنى اول الخلائق لان الخلق مصدر لا يجمع (وعدا) مصدر مؤكد لان قوله نعيده عدة للاعادة (علينا) اى وعدا كائنا لا محالة (انا كنا فاعلين) ذلك اى محققين هذا الوعد فاستعدوا له وقدموا صالح الاعمال للخلاص من هذه الاهوال (ولقد كتبنا فى الزبور) كتاب داود عليه السلام (من بعد الذكر) التوراة (ان الارض) اى الشام (يرثها عبادى) ساكنة الياء حمزة وغيره بفتح الياء (الصالحون) اى امة محمد عليه السلام او الزبور بمعنى المزبور اى المكتوب يعنى ما انزل على الانبياء من الكتب والذكر ام الكتاب يعنى اللوح لان الكل اخذوا منه دليله قراءة حمزة وخلف بضم الزاى على جمع الزبر بمعنى المزبور والارض ارض الجنة (ان فى هذا) اى القرآن او فى المذكور فى هذه السورة من الاخبار والوعد والوعيد والمواعظ (لبلاغا) لكفاية العذاب واصله ما يبلغ به البغية (لقوم عابدين) موحدين وهم امة محمد عليه السلام (وما ارسلناك الا رحمة) قال عليه السلام انما انا رحمة مهداة (للعالمين) لانه جاء بما يسعدهم ان اتبعوه ومن لم يتبع فانما أتى من عند نفسه حيث ضيع نصيبه منها وقيل هو رحمة للمؤمنين فى الدارين وللكافرين فى الدنيا بتأخير العقوبة فيها وقيل هو رحمة للمؤمنين والكافرين فى الدنيا بتأخير عذاب الاستئصال والمسخ والخسف ورحمة مفعول له او حال اى ذا رحمة

من دون الله ولو أراد به الملائكة والناس لقال انكم ومن تعبدون لان من لمن يعقل وما لمن لا يعقل (لا يسمعون حسيسها) يعنى صوتها وحركة تلهبها اذا نزلوا منازلهم فى الجنة (وهم فيما اشتهت أنفسهم) أى من النعيم والكرامة (خالدون) أى مقيمون قوله تعالى (لا يحزنهم الفزع الاكبر) قال ابن عباس يعنى النفخة الاخيرة وقيل هو حين يذبح الموت وينادى يا أهل النار خلود بلا موت وقيل هو حين يطبق على جهنم وذلك بعد ان يخرج الله منها من يريد ان يخرجه (وتتلقاهم الملائكة) أى تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم ويقولون (هذا يومكم الذى كنتم توعدون) أى فى الدنيا قوله عز وجل (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) قال ابن عباس السجل الصحيفة والمعنى كطى الصحيفة على مكتوبها والطى هو الدرج الذى هو ضد النشر وقيل السجل اسم ملك يكتب أعمال العباد اذا رفعت اليه والمعنى نطوى السماء كما يطوى السجل الطومار الذى يكتب فيه والتقدير لا يحزنهم الفزع الاكبر فى ذلك اليوم (كما بدأنا أول خلق نعيده) أى كما بدأناهم فى بطون أمهاتهم عراة غرلا كذلك نعيدهم يوم القيامة (ق) عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال أيها الناس انكم تحشرون الى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده قوله غرلا أى قلفا وقوله تعالى (وعدا علينا انا كنا فاعلين) يعنى الاعادة والبعث بعد الموت قوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر) قيل الزبور جميع الكتب المنزلة على الانبياء والذكر هو أم الكتاب الذى عنده ومن ذلك الكتاب تنسخ جميع الكتب ومعنى من بعد الذكر أى بعد ما كتب فى اللوح المحفوظ وقال ابن عباس الزبور التوراة والذكر الكتب المنزلة من بعد التوراة وقيل الزبور كتاب داود والذكر هو القرآن وبعد بمعنى قبل (ان الارض يرثها عبادى الصالحون) يعنى أرض الجنة يرثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى ان الله تعالى كتب فى اللوح المحفوظ فى كتب الانبياء ان الجنة يرثها من كان صالحا من عباده عاملا بطاعته وقال ابن عباس أراد ان أراضى الكفار يفتحها المسلمون وهذا حكم من الله تعالى باظهار الدين واعزاز المسلمين وقيل أراد الارض المقدسة يرثها الصالحون بعد من كان فيها (ان فى هذا) أى فى القرآن (لبلاغا) أى وصولا الى البغية يعنى من اتبع القرآن وعمل بما فيه وصل الى ما يرجو من الثواب وقيل البلاغ الكفاية أى فيه كفاية لما فيه من الاخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة فهو زاد العباد الى الجنة وهو قوله تعالى (لقوم عابدين) أى مؤمنين لا يعبدون أحدا من دون الله تعالى وقيل هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم أهل الصلوات الخمس وشهر رمضان والحج وقال ابن عباس عالمين وقيل هم العالمون العاملون قوله عز وجل (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) قيل كان الناس اهل كفر وجاهلية وضلال وأهل الكتابين كانوا فى حيرة من أمر دينهم لطول مدتهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف فى كتبهم فبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم حين لم يكن لطالب الحق سبيل الى الفوز والثواب فدعاهم الى الحق وبين لهم سبيل الصواب وشرع لهم الاحكام وبين الحلال من الحرام قال الله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين قيل يعنى المؤمنين خاصة فهو رحمة لهم وقال ابن عباس هو عام فى حق من آمن ومن لم يؤمن فمن آمن فهو رحمة له فى الدنيا والآخرة ومن لم يؤمن فهو رحمة له فى الدنيا بتأخير

(قل انما) انما القصر الحكم على شئ او لقصر الشئ على حكم نحو انما زيد قائم وانما يقوم زيد وفاعل (يوحى الى أنما الهكم اله واحد) والتقدير يوحى الى وحدانية الهى ويجوز ان يكون المعنى ان الذى يوحى الى فتكون ما موصولة (فهل انتم مسلمون) استفهام بمعنى الامر اى اسلموا (فان تولوا) عن الاسلام (فقل آذنتكم) اعلمتكم ما امرت به (على سواء) حال اى مستوين فى الاعلام به ولم اخصص بعضكم وفيه دليل بطلان مذهب الباطنية (وان ادرى أقريب ام بعيد ما توعدون) اى لا ادرى متى يكون يوم القيامة لان الله تعالى لم يطلعنى عليه ولكنى اعلم بانه كائن لا محالة أو لا أدرى متى يحل بكم العذاب ان لم تؤمنوا (انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) أى انه عالم بكل شئ يعلم ما تجاهرونى به من الطعن فى الاسلام وما تكتمونه فى صدوركم من الاحقاد للمسلمين وهو مجازيكم عليه (وان أدرى لعله فتنة لكم) وما أدرى لعل تأخير العذاب عنكم فى الدنيا امتحان لكم لينظر كيف تعملون (ومتاع الى حين) وتمتيع لكم الى الموت ليكون ذلك حجة عليكم (قل رب احكم بالحق) اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل أو بما يحق عليهم من العذاب ولا تحابهم وشدد عليهم كما قال واشدد وطأتك على مضر قال رب حفص على حكاية قول رسول الله صلى الله عليه وسلم رب احكم يزيد ربى احكم زيد عن يعقوب (وربنا الرحمن) العاطف على خلقه (المستعان) المطلوب منه المعونة (على ما تصفون) وعن ابن ذكوان بالياء كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه وكانوا يطمعون ان تكون الشوكة لهم والغلبة وكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وخذلهم أى الكفار وهو المستعان على ما يصفون

(سورة الحج مكية وهى ثمان وسبعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها الناس اتقوا ربكم) أمر بنى آدم بالتقوى ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة بقوله (ان زلزلة الساعة شئ عظيم) لينظروا الى تلك الصفة ببصائرهم ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردى بلباس التقوى الذى يؤمنهم من تلك الافزاع والزلزلة شدة التحريك والازعاج واضافة الزلزلة الى الساعة اضافة المصدر الى فاعله كانها هى التى تزلزل الارض على المجاز الحكمى أو الى الظرف لانها تكون فيها كقوله بل مكر الليل والنهار ووقتها يكون يوم القيامة وعند طلوع الشمس من مغربها ولا حجة فيها للمعتزلة فى تسمية المعدوم شيئا لان هذا اسم لها حال وجودها وانتصب (يوم ترونها) أى الزلزلة أو الساعة بقوله (تذهل) تغفل والذهول الغفلة (كل مرضعة عما أرضعت) عن ارضاعها أو عن الذى أرضعته وهو الطفل وقيل مرضعة ليدل على ان ذلك الهول اذا حدث وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة اذ المرضعة هى التى فى حال الارضاع ملقمة ثديها الصبى والمرضع التى شأنها ان ترضع وان لم تباشر الارضاع فى حال وصفها به (وتضع كل ذات حمل) أى حبلى (حملها) ولدها قبل تمامه عن الحسن تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام وتضع الحامل ما فى بطنها لغير تمام

العذاب عنه ورفع المسخ والخسف والاستئصال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أنا رحمة مهداة (قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون) أى منقادون لما يوحى الى من اخلاص الالهية والتوحيد لله والمراد بهذا الاستفهام الامر أى أسلموا (فان تولوا) أى أعرضوا ولم يسلموا (فقل آذنتكم) أى أعلمتكم بالحرب وان لا صلح بيننا (على سواء) أى انذارا بينا استوى فى علمه لا استبد أنا به دونكم لتتأهبوا لما يراد بكم والمعنى آذنتكم على وجه نستوى نحن وأنتم فى العلم به وقيل معناه لتستووا فى الايمان أعلمتكم بما هو الواجب عليكم من التوحيد وغيره (وان أدرى) أى وما أعلم (أقريب أم بعيد ما توعدون) يعنى يوم القيامة لا يعلمه الا الله (انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) أى لا يغيب عن علمه شئ منكم فى علانيتكم وسركم (وان أدرى لعله فتنة لكم) أى لعل تأخير العذاب عنكم اختبار لكم ليرى كيف صنيعكم وهو أعلم بكم (ومتاع الى حين) أى تتمتعون الى انقضاء آجالكم (قل رب احكم) أى افصل بينى وبين من كذبنى (بالحق) أى بالعذاب كأنه استعجل العذاب لقومه فعذبوا يوم بدر وقيل معناه افصل بينى وبينهم بما يظهر الحق للجميع وهو ان تنصرنى عليهم (الله يحكم بالحق طلب أو لم يطلب ومعنى الطلب ظهور الرغبة من الطالب (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) أى من الشرك والكفر والكذب والاباطيل كأنه سبحانه وتعالى قال قل داعيا الى رب احكم بالحق وقل متوعدا الكفار وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون والله أعلم بمراده وأسرار كتابه

(تفسير سورة الحج)

وهى مكية غير ست آيات من قوله عز وجل هذان خصمان الى قوله وهدوا الى صراط الحميد وهى ثمان وسبعون آية وألف ومائتان واحدى وتسعون كلمة وخمسة آلاف وخمسة وسبعون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (يا أيها الناس اتقوا ربكم) أى احذروا عقابه واعملوا بطاعته (ان زلزلة الساعة شئ عظيم) الزلزلة شدة الحركة على الحال الهائلة ووصفها بالعظيم ولا شئ أعظم مما عظمه الله تعالى قيل هى من اشراط الساعة قبل قيامها وقال ابن عباس زلزلة الساعة قيامها فتكون معها (يوم ترونها) أى الساعة وقيل الزلزلة (تذهل) قال ابن عباس تشغل وقيل تنسى (كل مرضعة عما أرضعت) أى كل امرأة معها ولد ترضعه (وتضع كل ذات حمل حملها) أى تسقط من هول ذلك اليوم كل حامل حملها قال الحسن تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام وتضع الحامل ما فى بطنها لغير تمام فعلى هذا القول تكون الزلزلة

في الدنيا لان بعد البعث لا يكون حبل ومن قال تكون الزلزلة في القيامة قال هذا على وجه تعظيم الامر وتهويله لا على حقيقته كما تقول أصابنا أمر يشيب فيه الوليد تريد به شدته (وترى الناس سكارى) على التشبيه (وما هم بسكارى) على التحقيق ولكن ما رهقهم من خوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم وأزال تمييزهم وقيل سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب (ولكن عذاب الله شديد) (ق) عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك وسعديك زاد في رواية والخير في يديك فينادي بصوت ان الله تعالى يأمرك ان تخرج من ذريتك بعث النار قال رب وما بعث النار قال من كل الف تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحوامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم زاد في رواية قالوا يا رسول الله أينا ذلك الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الابيض او كالشعرة البيضاء في جنب الثور الاسود وفي رواية كالرقمة في ذراع الحمار واني لارجو ان تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا ثم قال ثلث اهل الجنة فكبرنا ثم قال شطر أهل الجنة فكبرنا لفظ البخاري وفي حديث عمران بن حصين وغيره ان هاتين الآيتين نزلتا في غزوة بني المصطلق ليلا فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحثوا المطي حتى كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليهم فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا السروج عن الدواب ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا والناس من بين باك وجالس حزين متفكر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أي يوم ذلك قالوا الله ورسوله اعلم قال ذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث من ذريتك بعث النار وذكر نحو حديث أبي سعيد وزاد فيه ثم قال يدخل من أمتي سبعون ألفا الجنة بغير حساب فقال عمر سبعون ألفا قال نعم ومع كل واحد سبعون ألفا قوله عز وجل (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم) نزلت في النضر بن الحارث كان كثير الجدل وكان يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الاولين وكان ينكر البعث واحياء من صار ترابا (ويتبع) أي في جداله في الله بغير علم (كل شيطان مريد) أي المتمرد المستمر في الشر وفيه وجهان أحدهما انهم شياطين الانس وهم رؤساء الكفر الذين يدعون من دونهم الى الكفر والثاني انه ابليس وجنوده (كتب عليه) أي قضى على الشيطان (أنه من تولاه) أي اتبعه (فانه) يعني الشيطان (يضله) أي يضل من تولاه عن طريق الجنة (ويهديه الى عذاب السعير) وفي الآية زجر عن اتباعه والمعنى كتب عليه انه من يقبل منه فهو في ضلال ثم ألزم الحجة منكري البعث وقال (يا أيها الناس ان كنتم في ريب) أي شك (من البعث) اي بعد الموت (فانا خلقناكم من تراب) يعني أباكم آدم الذي هو أصل النسل (ثم من نطفة) يعني ذريته من المني وأصلها الماء القليل (ثم من علقة) اي من دم جامد غليظ وذلك ان النطفة تصير دما غليظا (ثم من مضغة) وهي لحمة قليلة قدر ما يمضغ (مخلقة وغير مخلقة) قال ابن عباس أي تامة الخلق وغير تامة الخلق وقيل مصورة وغير مصورة وهو السقط وقيل المخلقة الولد الذي تأتي به المرأة لوقته وغير المخلقة السقط فكأنه سبحانه وتعالى قسم المضغة الى قسمين أحدهما تام الصورة والحواس والتخطيط والقسم الثاني هو الناقص عن هذه الاحوال كلها وروي عن علقمة بن مسعود موقوفا عليه قال ان النطفة اذا استقرت في الرحم اخذها ملك بكفه وقال اي رب مخلقة أو غير مخلقة فان قال غير مخلقة قذفها في الرحم دما ولم تكن نسمة وان قال مخلقة قال الملك اي رب أذكر أم أنثى أشقي أم سعيد ما الاجل ما العمل ما الرزق

(وترى الناس) أيها الناظر (سكارى) على التشبيه لما شاهدوا بساط العزة وسلطنة الجبروت وسرادق الكبرياء حتى قال كل نبي نفسي نفسي (وما هم بسكارى) على التحقيق (ولكن عذاب الله شديد) فخوف عذاب الله هو الذي أذهب عقولهم وطير تمييزهم وردهم في نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه وعن الحسن وترى الناس سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب سكرى فيهما بالامالة حمزة وعلي وهو كعطشى في عطشان روي انه نزلت الآيتان ليلا في غزوة بني المصطلق فقرأهما النبي عليه السلام فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة (ومن الناس من يجادل في الله) في دين الله (بغير علم) حال نزلت في النضر بن الحارث وكان جدلا يقول الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الاولين والله غير قادر على احياء من بلي أو هي عامة في كل من يخاصم في الدين بالهوى (ويتبع) في ذلك (كل شيطان مريد) عات مستمر في الشر ولا وقف على مريد لان ما بعده صفته (كتب عليه) قضي على الشيطان (انه) ان الامر والشان وهو فاعل كتب (من تولاه) تبعه أي تبع الشيطان (فانه) فان الشيطان (يضله) عن سواء السبيل (ويهديه الى عذاب السعير) النار قال الزجاج الفاء في فانه للعطف وان مكررة للتأكيد ورد عليه أبو علي وقال ان من ان كان للشرط فالفاء دخل لجزاء الشرط وان كان بمعنى الذي فالفاء دخل على خبر المبتدا والتقدير فالامر انه يضله قال والعطف والتأكيد يكون بعد تمام الاول والمعنى كتب على الشيطان اضلال من تولاه وهدايته الى النار ثم ألزم الحجة على منكري البعث فقال (يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث) يعني ان ارتبتم في البعث فمزيل ريبكم ان تنظروا في بدء خلقكم وقد كنتم في الابتداء ترابا وماء وليس سبب انكاركم البعث الا هذا وهو صيرورة الخلق ترابا وماء (فانا خلقناكم) أي اباكم (من تراب ثم خلقتم (من نطفة ثم من علقة) أي قطعة دم جامدة (ثم من مضغة) أي لحمة صغيرة قدر ما يمضغ (مخلقة وغير مخلقة) المخلقة المسواة الملساء من النقصان والعيب كان الله عز وجل يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم وانما نقلنا كم من حال الى حال ومن خلقة الى خلقة

(لنبين لكم) بهذا التدريج كمال قدرتنا وحكمتنا وان من قدر على خلق البشر من تراب أوّلا ثم نطفة ثانيا ولا مناسبة بين التراب والماء وقدر ان يجعل النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاما قدر على اعادة ما بدأه (ونقر) بالرفع عند غير المفضل مستانف بعد وقف أى نحن نثبت (فى الارحام ما نشاء) ثبوته (الى أجل مسمى) أى وقت الولادة وما لم نشأ ثبوته اسقطته الارحام (ثم نخرجكم) من الرحم (طفلا) حال وأريد به الجنس فلذا لم يجمع أو أريد به ثم نخرج كل واحد منكم طفلا (ثم لتبلغوا) ثم نربيكم لتبلغوا (أشدّكم) كمال عقلكم وقوتكم وهو من ألفاظ الجموع التى لا يستعمل لها واحد (ومنكم من يتوفى) عند بلوغ الاشد أو قبله أو بعده (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) أخسه يعنى الهرم والخرف (لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) أى لكيلا يعلم شيئا من بعد ما كان يعلمه أو لكيلا يستفيد علما وينسى ما كان عالما به ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال (وترى الارض هامدة) ميتة يابسة (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت) تحركت بالنبات (وربت) وانتفخت وربأت حيث كان يزيد ارتفعت (وأنبتت من كل زوج) صنف (بهيج) حسن سارّ للناظرين اليه (ذلك) مبتدأ خبره (بأن الله هو الحق) أى ذلك الذى ذكرنا من خلق بنى آدم واحياء الارض مع ما فى تضاعيف ذلك من أصناف الحكم حاصل بهذا وهو ان الله هو الحق أى الثابت الوجود (وانه يحيى الموتى) كما أحيى الارض (وانه على كل شئ قدير) قادر (وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى القبور) أى انه حكيم لا يخلف الميعاد وقد وعد الساعة والبعث فلا بدّ ان يفى بما وعد (ومن الناس من يجادل فى الله) فى صفاته فيصفه بغير ما هو له نزلت فى أبى جهل (بغير علم) ضرورى (ولا هدى) أى استدلال لانه مهدى الى المعرفة (ولا كتاب منير) أى وحى والعلم للانسان من أحد هذه الوجوه الثلاثة (ثانى عطفه) حال أى لاويا عنقه عن طاعة الله كبرا وخيلاء وعن الحسن ثانى عطفه بفتح العين أى مانع تعطفه الى غيره (ليضل) تعليل للمجادلة ليضل مكى وأبو عمرو (عن سبيل الله) دينه (له فى الدنيا خزى) أى القتل يوم بدر (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) اى جمع له عذاب الدارين (ذلك بما قدمت يداك) أى السبب فى عذاب الدارين هو ما قدمت نفسه من الكفر

والتكذيب وكنى عنها باليد لان اليد آلة الكسب (وان الله ليس بظلام للعبيد) فلا يأخذ أحدا بغير ذنب ولا بذنب غيره وهو عطف على بما أى وبأن الله وذكر الظلام بلفظ المبالغة لاقترانه بلفظ الجمع وهو العبيد ولان قليل الظلم منه مع علمه بقبحه واستغنائه كالكثير منا (ومن الناس من يعبد الله على حرف) على طرف من الدين لا فى وسطه وقلبه وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكون وطمأنينة وهو حال اى مضطربا

بأى أرض يموت فيقال له اذهب الى أم الكتاب فانك تجد فيه كل ذلك فيذهب فيجدها فى أم الكتاب فينسخها فلا يزال معه حتى يأتى على آخر صفته والذى أخرجاه فى الصحيحين عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فوالذى لا اله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها وقوله تعالى (لنبين لكم) أى كمال قدرتنا وحكمتنا فى تصريف خلقكم ولتستدلوا بقدرته فى ابتداء الخلق على قدرته على الاعادة وقيل لنبين لكم ما تأتون وما تذرون وما تحتاجون اليه فى العبادة وقيل لنبين لكم ان تغير المضغة الى الخلقة هو اختيار الفاعل المختار وان القادر على هذه الاشياء كيف يكون عاجزا عن الاعادة (ونقر فى الارحام ما نشاء) أى لا تسقطه ولا تمجه (الى أجل مسمى) أى وقت خروجه من الرحم تام الخلق (ثم نخرجكم) أى وقت الولادة من بطون أمهاتكم (طفلا) أى صغارا وانما وحد الطفل لان الغرض الدلالة على الجنس (ثم لتبلغوا أشدّكم) أى كمال القوة والعقل والتمييز (ومنكم من يتوفى) أى قبل بلوغ الكبر (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) أى الهرم والخرف (لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) أى يبلغ من السن ما يتغير به عقله فلا يعقل شيئا فيصير كما كان فى أوّل طفوليته ضعيف البنية سخيف العقل قليل الفهم ثم ذكر دليلا آخر على البعث فقال تعالى (وترى الارض هامدة) أى يابسة لا نبات فيها (فاذا أنزلنا عليها الماء) يعنى المطر (اهتزت) أى تحركت بالنبات (وربت) أى ارتفعت وذلك ان الارض ترتفع بالنبات (وأنبتت) هو مجاز لان الله تعالى هو المنبت وأضيف الى الارض توسعا (من كل زوج بهيج) اى من كل صنف حسن نضير والبهيج هو المبهج وهو الشئ المشرق الجميل ثم ان الله تعالى لما ذكر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب فقال تعالى (ذلك) أى ذكرنا ذلك لتعلموا (بأن الله هو الحق) وان هذه الاشياء دالة على وجود الصانع (وأنه يحيى الموتى) أى انه اذا لم يستبعد منه ايجاد هذه الاشياء فكيف يستبعد منه اعادة الاموات (وانه على كل شئ قدير) أى من كان كذلك كان قادرا على جميع الممكنات (وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى القبور) أى ما ذكر من الدلائل لتعلموا أن الساعة كائنة لا شك فيها وانها حق وان البعث بعد الموت حق قوله تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) يعنى النضر بن الحارث (ولا هدى) أى ليس معه من الله بيان ولا رشاد (ولا كتاب منير) أى ولا كتاب من الله له نور (ثانى عطفه) أى لاوى جنبه وعنقه متبختر التكبر معرضا عما يدعى اليه من الحق تكبرا (ليضل عن سبيل الله) أى عن دين الله (له فى الدنيا خزى) أى عذاب وهوان وهو انه قتل يوم بدر صبرا هو وعقبة بن أبى معيط (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك) أى يقال له ذلك (بما قدمت يداك وان الله ليس بظلام للعبيد) أى فيعذبهم بغير ذنب والله تعالى على أى وجه أراد يتصرف فى عبده فحكمه عدل وهو غير ظالم قوله عز وجل (ومن الناس من يعبد الله على حرف) الآية نزلت فى قوم من الاعراب كانوا يقدمون المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم اذا قدم المدينة فصح بها جسمه ونتجت بها فرسه

(فان أصابه خير) صحة فى جسمه وسعة فى معيشته (اطمأن) سكن واستقر (به) بالخير الذى أصابه أو بالدين فعبد الله (وان اصابته فتنة) شر وبلاء فى جسده وضيق فى معيشته (انقلب على وجهه) جهته أى ارتد ورجع الى الكفر كالذى يكون على طرف من العسكر فان أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن والا فر وطار على وجهه قالوا نزلت فى أعاريب قدموا المدينة مهاجرين وكان أحدهم اذا صح بدنه ونتجت فرسه مهرا سويا
وولدت امرأته غلاما سويا وكثر ماله وماشيته
قال ما أصبت منذ دخلت فى دينى هذا الا خيرا
واطمأن وان كان الامر بخلافه قال ما أصبت
الا شرا وانقلب عن دينه (خسر الدنيا
والآخرة) حال وقد مقدرة دليله قراءة روح
وزيد خاسر الدنيا والآخرة والخسران فى الدنيا
بالقتل فيها وفى الآخرة بالخلود فى النار (ذلك)
أى خسران الدارين (هو الخسران المبين)
الظاهر الذى لا يخفى على أحد (يدعو من
دون الله) يعنى الصنم فانه بعد الردة يفعل
كذلك (ما لا يضره) ان لم يعبده (وما لا ينفعه)
ان عبده (ذلك هو الضلال البعيد) عن الصواب
(يدعو لمن ضره أقرب من نفعه) والاشكل
انه تعالى نفى الضر والنفع عن الاصنام قبل
هذه الآية وأثبتهما لها هنا والجواب ان المعنى
اذا فهم ذهب هذا الوهم وذلك ان الله تعالى
سفه الكافر بأنه يعبد جمادا لا يملك ضرا ولا
نفعا وهو يعتقد فيه انه يشفعه ثم قال يوم القيامة
يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى
استضراره بالاصنام ولا يرى لها أثر الشفاعة
لمن ضره أقرب من نفعه (لبئس المولى) أى
الناصر الصاحب (ولبئس العشير) المصاحب
وكرر يدعو كأنه قال يدعو يدعو من دون الله
ما لا يضره وما لا ينفعه ثم قال لمن ضره بكونه
معبودا أقرب من نفعه بكونه شفيعا (ان الله
يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات
تجرى من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد)
هذا وعد لمن عبد الله بكل حال لا لمن عبد
الله على حرف (من كان يظن ان لن ينصره
الله فى الدنيا والآخرة) المعنى ان الله ناصر
رسوله فى الدنيا والآخرة فمن ظن من أعاديه
غير ذلك (فليمدد بسبب) بحبل (الى السماء)
الى سماء بيته (ثم ليقطع) ثم ليختنق به وسمى
الاختناق قطعا لان المختنق يقطع نفسه بحبس
مجاريه وبكسر اللام بصرى وشامى (فلينظر
هل يذهبن كيده ما يغيظ) أى الذى يغيظه
أو ما مصدرية أى غيظه والمعنى فليصور فى نفسه انه ان فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذى يغيظه وسمى فعله كيدا على سبيل الاستهزاء
لانه لم يكد به محسوده انما كاد به نفسه والمراد ليس فى يده الا ما ليس بمذهب لما يغيظ

مهرا وولدت امرأته غلاما وكثر ماله قال هذا دين حسن وقد أصبت فيه خيرا واطمأن له وان أصابه
مرض وولدت امرأته جارية ولم تلد فرسه وقل ماله قال ما أصبت منذ دخلت فى هذا الدين الا شرا
فينقلب عن دينه وذلك هو الفتنة فأنزل الله تعالى ومن الناس من يعبد الله على حرف أى على شك
وأصله من حرف الشئ وهو طرفه نحو حرف الجبل والحائط الذى غير مستقر فقيل للشاك فى الدين انه
يعبد الله على حرف لانه لم يدخل فيه على الثبات والتمكن وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى
دينهم لا على سكينة وطمأنينة ولو عبدوا الله بالشكر على السراء والصبر على الضراء لم يكونوا على
حرف وقيل هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قلبه (فان أصابه خير) أى صحة فى جسمه وسعة
فى معيشته (اطمأن به) أى رضى به وسكن اليه (وان أصابته فتنة) أى بلاء فى جسمه وضيق
فى معيشته (انقلب على وجهه) أى ارتد ورجع على عقبه الى الوجه الذى كان عليه من الكفر
(خسر الدنيا والآخرة) أى خسر فى الدنيا العز والكرامة ولا يبقى دمه وماله مصونا وقيل خسر
فى الدنيا ما كان يؤمل والآخرة بذهاب الدين والخلود فى النار (ذلك هو الخسران المبين) أى الظاهر
(يدعو من دون الله ما لا يضره) ان عصاه ولم يعبده (وما لا ينفعه) أى ان أطاعه وعبده (ذلك هو
الضلال البعيد) أى عن الحق والرشد (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه) فان قلت قد قال الله تعالى
فى الآية الاولى يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه وقال فى هذه الآية يدعو لمن ضره أقرب من
نفعه وهذا تناقض فكيف الجمع بينهما قلت اذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم وذلك ان الله تعالى قال
فى الآية الاولى ما لا يضره أى لا يضره ترك عبادته وقوله لمن ضره أى ضر عبادته وقيل انها لا تضر ولا تنفع
بأنفسها ولكن عبادتها سبب الضرر وذلك يكفى فى اضافة الضرر اليها وقيل ان الله تعالى سفه الكافر
حيث عبد جمادا لا يضر ولا ينفع وهو يعتقد بجهله وضلاله انه ينتفع به حين يستشفع وقيل الآية
فى الرؤساء وهم الذين كانوا يفزعون اليهم لانه يصح منهم ان يضروا وينفعوا ووجه هذا القول ان الله تعالى
بين فى الآية الاولى ان الاوثان لا تضر ولا تنفع وهذه الآية تقتضى كون المذكور فيها ضارا نافعا
فلو كان المذكور فى هذه الاوثان لزم التناقض فثبت انهم الرؤساء بدليل قوله (لبئس المولى ولبئس
العشير) أى الناصر والمصاحب المعاشر قوله عز وجل (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات
جنات تجرى من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد) أى بأوليائه وأهل طاعته من الكرامة وبأهل
معصيته من الهوان قوله تعالى (من كان يظن ان لن ينصره الله) يعنى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم
(فى الدنيا) أى باعلاء كلمته واظهار دينه (والآخرة) أى وفى الآخرة باعلاء درجته والانتقام ممن
كذبه (فليمدد بسبب) أى بحبل (الى السماء) أى سقف البيت على قول الاكثرين والمعنى
ليشدد حبلا فى سقف بيته فليختنق به حتى يموت (ثم ليقطع) أى الحبل بعد الاختناق وقيل ليمد الحبل
حتى ينقطع فيموت مختنقا (فلينظر هل يذهبن كيده) أى صنيعه وحيلته (ما يغيظ) أى فليختنق
غيظا وليس هذا على سبيل الحتم لانه لا يمكنه القطع والنظر بعد الاختناق ولكنه كما يقال للحاسد مت
غيظا وقيل المراد بالسماء السماء المعروفة والمعنى من كان يظن ان لن ينصر الله نبيه ويكيد فى أمره ليقطعه
عنه فليقطعه من أصله فان أصله فى السماء فليطلب سببا يصل به الى السماء ثم ليقطع عن النبى صلى الله
عليه وسلم الوحى الذى يأتيه فلينظر هل يتهيأ له الوصول الى السماء بحيلة وهو يقدر على اذهاب غيظه
بهذا الفعل فاذا كان ذلك ممتنعا كان غيظه عديم الفائدة وفى الآية زجر للكفار عن الغيظ فيما لا فائدة
فيه روى ان الآية نزلت فى قوم من أسد وغطفان دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم الى الاسلام وكان بينهم
وبين اليهود محالفة فقالوا لا يمكننا ان نسلم لانا نخاف ان لا ينصر محمد ولا يظهر أمره فتنقطع المحالفة بيننا

وبين

و بين اليهود فلا يميرونا ولا يؤونا وقيل النصر معناه الرزق ومعنى الآية من كان يظن ان لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة وليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فان ذلك لا يجعله مرزوقا تقول العرب من ينصرني نصره الله أي من يعطيني أعطاه الله (وكذلك أنزلناه) يعني القرآن (آيات بينات وان الله يهدي من يريد ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا) يعني عبدة الاوثان قيل الاديان ستة واحد لله وهو الاسلام وخمسة للشيطان وهو ما عدا الاسلام (ان الله يفصل بينهم) أي يحكم بينهم (يوم القيامة) وقيل يفصل بينهم في الاحوال والاماكن جميعا فلا يجازيهم جزاء واحدا بغير تفاوت ولا يجمعهم في موطن واحد (ان الله على كل شئ شهيد) أي انه عالم بما يستحقه كل واحد منهم فلا يجري في ذلك الفصل ظلم ولا حيف وقد تقدم بسط الكلام على معنى هذه الآية في تفسير سورة البقرة قوله عز وجل (ألم تر) أي ألم تعلم وقيل ألم تر بقلبك (ان الله يسجد له من في السموات ومن في الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب) قيل سجود هذه الاشياء تحول ظلالها وقيل ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر الا يقع ساجدا حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع الى مطلعه وقيل معنى سجودها الطاعة فانه ما من جماد الا وهو مطيع لله تعالى خاشع ومسبح له كما وصفهم بالخشية والتسبيح وهذا مذهب أهل السنة وهو ان هذه الاجسام لما كانت قابلة لجميع الاعراض التي خلقها الله تعالى فيها من غير امتناع البتة أشبهت بطاعتها افعال المكلف وهو السجود الذي كل خضوع دونه فان قلت هذا التأويل يبطله قوله (وكثير من الناس) فان السجود بالمعنى الذي ذكر عام في الناس كلهم فاسناده الى كثير من الناس يكون تخصيصا من غير فائدة قلت المعنى الذي ذكرته وان كان عاما في حق الكل الا ان بعضهم تمرد وتكبر وترك السجود في الظاهر فهذا وان كان ساجدا بذاته لكنه متمرد بظاهره وأما المؤمن فانه ساجد بذاته وبظاهره أيضا فلاجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر وقيل معنى الآية ولله يسجد من في السموات ومن في الارض ويسجد له كثير من الناس فيكون السجود الاول بمعنى الانقياد والثاني بمعنى الطاعة والعبادة فان قلت قوله من في السموات ومن في الارض لفظ عموم فيدخل فيه الناس فلم قال وكثير من الناس قلت لو اقتصر على ما تقدم لاوهم ان كل الناس يسجدون فبين ان كثيرا من الناس يسجدون طوعا دون بعض وهم الذين قال فيهم (وكثير حق عليه العذاب) وهم الكفار أي حق عليهم العذاب بكفرهم وتركهم السجود ومع كفرهم وامتناعهم من السجود تسجد ظلالهم لله عز وجل (ومن يهن الله فماله من مكرم) أي من يذله الله فلا يكرمه أحد (ان الله يفعل ما يشاء) أي يكرم الله بالسعادة من يشاء ويهين بالشقاوة من يشاء وقيل هو الذي يصح منه الاكرام والهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب (فصل) هذه السجدة من عزائم سجود القرآن فيسن للقارئ والمستمع ان يسجد عند تلاوتها أو سماع تلاوتها قوله عز وجل (هذان خصمان اختصموا في ربهم) أي جادلوا في دينه وأمره واختلفوا في هذين الخصمين فروي عن قيس بن عبادة قال سمعت أبا ذر يقسم قسما ان هذه الآية هذان خصمان اختصموا في ربهم نزلت في الذين برزوا يوم بدر حمزة وعلي وعبيدة بن الحرث وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة أخرجاه في الصحيحين (خ) عن علي بن أبي طالب قال انا أول من يجثو للخصومة بين يدي الرحمن يوم القيامة قال قيس بن عبادة فيهم نزلت هذان خصمان اختصموا في ربهم قال هم الذين تبارزوا يوم بدر علي وحمزة وعبيدة بن الحرث وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وابن أخيه الوليد بن عتبة قال محمد بن اسحاق خرج يوم بدر عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وابن اخيه الوليد بن عتبة ودعوا الى المبارزة فخرج اليهم فتية من الانصار ثلاثة عوف ومعوذ ابنا الحارث وامهما عفراء وعبد الله بن رواحة فقالوا من أنتم قالوا رهط من الانصار فقالوا حين انتسبوا أكفاء كرام ثم نادى مناديهم يا محمد أخرج الينا أكفاءنا من قومنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قم يا عبيدة بن الحارث ويا حمزة بن عبد المطلب

(وكذلك أنزلناه) ومثل ذلك الانزال أنزل القرآن كله (آيات بينات) واضحات (وان الله يهدي من يريد) أي ولان الله يهدي به الذين يعلم انهم يؤمنون او يثبت الذين آمنوا ويزيدهم هدى أنزله كذلك مبينا (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا) قيل الاديان خمسة أربعة للشيطان وواحد للرحمن والصابئون نوع من النصارى فلا تكون ستة (ان الله يفصل بينهم يوم القيامة) في الاحوال والاماكن فلا يجازيهم جزاء واحدا ولا يجمعهم في موطن واحد وخبر ان الذين آمنوا ان الله يفصل بينهم كما تقول ان زيدا ان اباه قائم (ان الله على كل شئ شهيد) عالم به حافظ له فلينظر كل امرئ معتقده وقوله وفعله وهو أبلغ وعيد (ألم تر) ألم تعلم يا محمد علما يقوم مقام العيان (ان الله يسجد له من في السموات ومن في الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب) قيل ان الكل يسجد له ولكنا لا نقف عليه كما لا نقف على تسبيحها قال الله تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم وقيل سمي مطاوعة غير المكلف له فيما يحدث فيه من أفعاله وتسخيره له سجودا له تشبيها لمطاوعته بسجود المكلف الذي كل خضوع دونه (وكثير من الناس) أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة أو هو مرفوع على الابتداء ومن الناس صفة له والخبر محذوف وهو مثاب ويدل عليه قوله (وكثير حق عليه العذاب) أي وكثير منهم حق عليه العذاب بكفره وابائه السجود (ومن يهن الله) بالشقاوة (فماله من مكرم) بالسعادة (ان الله يفعل ما يشاء) من الاكرام والاهانة وغير ذلك وظاهر هذه الآية والتي قبلها ينقض على المعتزلة قولهم لانهم يقولون شاء أشياء ولم يفعل وهو يقول يفعل ما يشاء (هذان خصمان) أي فريقان مختصمان فالخصم صفة وصف بها الفريق وقوله (اختصموا) للمعنى وهذان للفظ والمراد المؤمنون والكافرون وقال ابن عباس رضي الله عنهما رجع الى اهل الاديان المذكورة فالمؤمنون خصم وسائر الخمسة خصم (في ربهم) في دينه وصفاته ثم بين جزاء كل خصم بقوله

وياعلي بن أبي طالب فلما دنوا منهم قالوا من أنتم فذكروا أنفسهم قالوا نعم أكفاء كرام فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة وبارز حمزة شيبة وبارز علي الوليد بن عتبة فأما حمزة فلم يمهل ان قتل شيبة وعلي الوليد واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتان كلاهما اثبت صاحبه فكر حمزة وعلي باسيافهما على عتبة فذففا عليه واحتملا عبيدة الى أصحابه وقد قطعت رجله ومخها يسيل فلما أتوا به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الست شهيدا يارسول الله قال بلى فقال عبيدة لو كان أبو طالب حيا لعلم انا أحق بما قال منه حيث يقول

ونسلمه حتى نصرع حوله * ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وقال ابن عباس نزلت الآية في المسلمين وأهل الكتاب قال أهل الكتاب نحن أولى بالله وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المسلمون نحن أحق بالله آمنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونبيكم وبما أنزل الله من كتاب وأنتم تعرفون نبينا وكتابنا وكفرتم حسدا فهذه خصومتهم في ربهم وقيل هم المؤمنون والكافرون من أي ملة كانوا فالمؤمنون خصم والكفار خصم وقيل الخصمان الجنة والنار (ق) عن أبي هريرة قال قال النبي صلى الله عليه وسلم تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة فمالي لا يدخلني الا ضعفاء الناس وسقطهم زاد في رواية وغراتهم فقال الله عز وجل للجنة انت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار انما أنت عذابي اعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله فتقول قط قط فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها الى بعض ولا يظلم ربك من خلقه أحدا وأما الجنة فان الله تعالى ينشئ لها خلقا وللبخاري اختصمت الجنة والنار وهذا القول ضعيف والاقوال الاولة أولى بالصحة لان حمل الكلام على ظاهره أولى وقوله هذان كالاشارة الى سبب تقدم ذكره وهو أهل الاديان الستة وأيضا فانه ذكر صنفين أهل طاعته وأهل معصيته وذكر مآل الخصمين فقال تعالى (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) قال سعيد بن جبير ثياب من نحاس مذاب وليس من الآنية شئ اذا حمي أشد حرا منه وسمي باسم الثياب لانها تحيط بهم كاحاطة الثياب وقيل يلبس أهل النار مقطعات من نار (يصب من فوق رؤسهم الحميم) أي الماء الحار الذي انتهت حرارته (يصهر به) أي يذاب بالحميم الذي يصب من فوق رؤسهم (ما في بطونهم) من الشحوم والاحشاء (والجلود) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الحميم ليصب على رؤسهم فينفذ حتى يخلص الى جوف احدهم فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب صحيح (ولهم مقامع من حديد) أي سياط من حديد وهي الجرز من الحديد وفي الخبر لو وقع مقمع من حديد في الارض ثم اجتمع عليه الثقلان ما أقلوه من الارض (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم) أي كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم والكرب الذي يأخذ بانفاسهم (أعيدوا فيها) أي ردوا اليها بالمقامع قيل ان جهنم لتجيش بهم فتلقيهم الى اعلاها فيريدون الخروج منها فتضربهم الزبانية بمقامع الحديد فيهوون فيها سبعين خريفا (وذوقوا عذاب الحريق) أي تقول لهم الملائكة ذلك والحريق بمعنى المحرق فهذا وصف حال أحد الخصمين وهم الكفار وقال تعالى في وصف الخصم الآخر وهم المؤمنون (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) وهو الابريسم الذي حرم لبسه على الرجال في الدنيا عن معاوية هو جد بهز بن حكيم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الانهار بعد أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح (ق) عن أبي موسى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين ان ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه في جنات عدن عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عليهم التيجان

(فالذين كفروا) وهو فصل الخصومة المعني بقوله ان الله يفصل بينهم يوم القيامة (قطعت لهم ثياب من نار) كأن الله يقدر لهم نيرانا على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة واختير لفظ الماضي لانه كائن لا محالة فهو كالثابت المتحقق (يصب من فوق رؤسهم) بكسر الهاء والميم بصري وبضمهما حمزة وعلي وخلف وبكسر الهاء وضم الميم غيرهم (الحميم) الماء الحار عن ابن عباس رضي الله عنهما لو سقطت منه نقطة على جبال الدنيا لاذابتها (يصهر) يذاب (به) بالحميم (ما في بطونهم والجلود) أي يذيب أمعاءهم واحشاءهم كما يذيب جلودهم فيؤثر في الظاهر والباطن (ولهم مقامع) سياط مختصة بهم (من حديد) يضربون بها (كلما أرادوا ان يخرجوا منها) من النار (من غم) بدل الاشتمال من منها باعادة الجار أو الاولى لابتداء الغاية والثانية بمعنى من أجل يعني كلما أرادوا الخروج من النار من أجل غم يلحقهم فخرجوا (أعيدوا فيها) بالمقامع ومعنى الخروج عند الحسن ان النار تضربهم بلهبها فتلقيهم الى أعلاها فضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا والمراد اعادتهم الى معظم النار لا انهم ينفصلون عنها بالكلية ثم يعودون اليها (وذوقوا) أي وقيل لهم ذوقوا (عذاب الحريق) هو الغليظ من النار المنتشر العظيم الاهلاك ثم ذكر جزاء الخصم الآخر فقال (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار يحلون فيها من أساور) جمع اسورة جمع سوار (من ذهب ولؤلؤا) بالنصب مدني وعاصم علي ويؤتون لؤلؤا وبالجر غيرهم عطفا على من ذهب وبترك الهمزة الاولى في كل القرآن أبو بكر وحماد (ولباسهم فيها حرير) ابريسم

أدنى لؤلؤة منها التضئ ما بين المشرق والمغرب أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة قوله تعالى (وهدوا) من الهداية أي أرشدوا (الى الطيب من القول) قال ابن عباس هو شهادة أن لا اله الا الله وقيل هو لا اله الا الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله وقيل الى القرآن وقيل هو قول أهل الجنة الحمد لله الذي صدقنا وعده (وهدوا الى صراط الحميد) أي الى دين الله وهو الاسلام والحميد هو الله المحمود في أفعاله قوله عز وجل (ان الذين كفروا) أي بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم (ويصدون عن سبيل الله) اى بالمنع من الهجرة والجهاد والاسلام (والمسجد الحرام) أي ويصدون عن المسجد الحرام (الذي جعلناه للناس) أي قبلة لصلاتهم ومنسكا ومتعبدا (سواء العاكف) أي المقيم (فيه) قال بعضهم ويدخل فيه الغريب اذا جاور وأقام به ولزم التعبد فيه (والباد) أي الطارئ المنتاب اليه من غيره واختلفوا في معنى الآية فقيل سواء العاكف فيه والبادي في تعظيم حرمته وقضاء النسك به واليه ذهب مجاهد والحسن وجماعة قالوا والمراد منه نفس المسجد الحرام ومعنى التسوية هو التسوية في تعظيم الكعبة وفي فضل الصلاة فيه والطواف به وعن جبير بن مطعم ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يا بني عبد مناف لا تمنعوا أحدا طاف بهذا البيت وصلى أية ساعة شاء من ليل أو نهار أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي وقيل المراد منه جميع الحرم ومعنى التسوية ان المقيم والبادي سواء في النزول به ليس أحدهما أحق بالمنزل من الآخر غير انه لا يزعج أحد أحدا اذا كان قد سبق الى منزل وقول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد قالوا هما سواء في البيوت والمنازل قال عبد الرحمن بن سابط كان الحجاج اذا قدموا مكة لم يكن احد من اهل مكة باحق بمنزله منهم وكان عمر بن الخطاب ينهى الناس ان يغلقوا ابوابهم في الموسم فعلى هذا القول لا يجوز بيع دور مكة واجارتها قالوا ان ارض مكة لا تملك لانها لو ملكت لم يستو العاكف فيها والبادي فلما استويا ثبت سبيلها سبيل المساجد واليه ذهب ابو حنيفة قالوا والمراد بالمسجد الحرام جميع الحرم وعلى القول الاول الاقرب الى الصواب انه يجوز بيع دور مكة واجارتها وهو قول طاوس وعمرو بن دينار واليه ذهب الشافعي احتج الشافعي في ذلك بقوله تعالى الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق اضاف الديار الى مالكها وقال النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة من اغلق بابه فهو آمن ومن دخل دار ابي سفيان فهو آمن فنسب الديار اليهم نسبة ملك واشترى عمر بن الخطاب دار السجن باربعة آلاف درهم فدلت هذه النصوص على جواز بيعها وقوله تعالى (ومن يرد فيه) اى في المسجد الحرام (بالحاد بظلم) اى بميل الى الظلم قيل الالحاد فيه هو الشرك وعبادة غير الله وقيل هو كل شئ كان منهيا عنه من قول او فعل حتى شتم الخادم وقيل هو دخول الحرم بغير احرام او ارتكاب شئ من محظورات الحرم من قتل صيد وقطع شجر وقال ابن عباس هو ان تقتل فيه من لا يقتلك أو تظلم فيه من لا يظلمك وقال مجاهد تضاعف السيئات بمكة كما تضاعف الحسنات وقيل احتكار الطعام بمكة بدليل ما روى يعلى بن أمية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان احتكار الطعام في الحرم الحاد فيه أخرجه أبو داود وقال عبد الله بن مسعود في قوله ومن يرد فيه بالحاد بظلم (نذقه من عذاب أليم) قال لو ان رجلا هم بخطيئة لم تكتب عليه ما لم يعملها ولو أن رجلا هم بقتل رجل بمكة وهو بعدن أبين أو ببلد آخر أذاقه الله من عذاب أليم قال السدي الا ان يتوب وروي عن عبد الله بن عمرو انه كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم فاذا أراد ان يعاتب أهله عاتبهم في الحل فسئل عن ذلك فقال كنا نحدث ان من الالحاد فيه ان يقول الرجل كلا والله وبلى والله قوله تعالى (واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت) قال ابن عباس جعلنا وقيل وطأنا وقيل بينا وانما ذكر مكان البيت لان الكعبة رفعت الى السماء من الطوفان فلما أمر الله تعالى ابراهيم عليه السلام ببناء البيت لم يدر أي جهة يبني فبعث الله تعالى ريحا خجوجا فكنست له ما حول البيت عن الاساس وقيل بعث الله سحابة بقدر البيت فقامت بحيال البيت

(وهدوا الى الطيب من القول) وهدوا الى كلمة التوحيد والى صراط الحميد أي الاسلام أو هداهم الله في الآخرة والهمهم ان يقولوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وهداهم الى طريق الجنة والحميد الله المحمود بكل لسان (ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله) أي يمنعون عن الدخول في الاسلام ويصدون حال من فاعل كفروا أي وهم يصدون أي الصدود منهم مستمر دائم كما يقال فلان يحسن الى الفقراء فانه يراد به استمرار وجود الاحسان منه في الحال والاستقبال (والمسجد الحرام) أي ويصدون عن المسجد الحرام والدخول فيه (الذي جعلناه للناس) مطلقا من غير فرق بين حاضر وباد فان أريد بالمسجد الحرام مكة ففيه دليل على انه لا تباع دور مكة وان اريد به البيت فالمعنى انه قبلة لجميع الناس (سواء) بالنصب حفص مفعول ثان لجعلناه أي جعلناه مستويا (العاكف فيه والباد) وغيره بالرفع على انه خبر والمبتدأ مؤخر أي العاكف فيه والباد سواء والجملة مفعول ثان وللناس حال (ومن يرد فيه) في المسجد الحرام (بالحاد بظلم) حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال ومن يرد فيه مرادا ما عادلا عن القصد ظالما (نذقه من عذاب أليم) في الآخرة وخبر ان محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره ان الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم وكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك (واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت) واذكر يا محمد حين جعلنا لابراهيم مكان البيت مباءة أي مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة وقد رفع البيت الى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله ابراهيم مكانه بريح أرسلها فكنست مكان البيت فبناه على اسه القديم

(ان) هى المفسرة للقول المقدر أى قائلين له (لا تشرك به شيئا وطهر بيتى) من الاصنام والاقذار وبفتح الياء مدنى وحفص (للطائفين) لمن يطوف به (والقائمين) والمقيمين بمكة (والركع السجود) المصلين جمع راكع وساجد (وأذن فى الناس بالحج) ناد فيهم والحج هو القصد البليغ الى مقصد منيع وروى انه صعد أبا قبيس فقال يا أيها الناس حجوا بيت ربكم وأجاب من قدر له ان يحج من الاصلاب والارحام بلبيك اللهم لبيك وعن الحسن انه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ان يفعل ذلك فى حجة الوداع والاول أظهر وجواب الامر (يأتوك رجالا) مشاة جمع راجل كقائم وقيام (وعلى كل ضامر) حال معطوفة على رجال كانه قال رجالا وركبانا والضامر البعير المهزول وقدم الرجال على الركبان اظهارا لفضيلة المشاة كما ورد فى الحديث (يأتين) صفة لكل ضامر لانه فى معنى الجمع وقرأ عبد الله يأتون صفة للرجال والركبان (من كل فج) طريق (عميق) بعيد قال محمد بن ياسين قال لى شيخ فى الطواف من أين أنت فقلت من خراسان قال كم بينكم وبين البيت قلت مسيرة شهرين أو ثلاثة قال فأنتم جيران البيت فقلت أنتم من أين جئت قال من مسيرة خمس سنوات وخرجت وانا شاب فاكتهلت قلت والله هذه الطاعة الجميلة والمحبة الصادقة فقال

زر من هويت وان شطت بك الدار
وحال من دونه حجب واستار

لا يمنعك بعد عن زيارته
ان المحب لمن يهواه زوار

واللام فى (ليشهدوا) ليحضروا متعلق بأذن أو بيأتوك (منافع لهم) نكرها لانه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد فى غيرها من العبادة وهذا لان العبادة شرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة والصوم أو بالمال كالزكاة وقد اشتمل الحج عليهما مع ما فيه من تحمل الاثقال وركوب الاهوال وخلع الاسباب وقطيعة الاصحاب وهجر البلاد والاوطان وفرقة الاولاد والخلان والتنبيه على ما يستمر عليه اذا انتقل من دار الفناء الى دار البقاء فالحاج اذا دخل البادية لا يتكل فيها الا على عتاده ولا يأكل الا من زاده فكذا المرء اذا خرج من شاطئ الحياة وركب بحر الوفاة لا ينفع وحدته الا ما سعى فى معاشه لمعاده ولا يؤنس وحشته الا ما كان يأنس به من أوراده وغسل من يحرم وتأهبه ولبسه غير المخيط وتطيبه مرآة لما سيأتى عليه من وضعه على سريره لغسله وتجهيزه مطيبا بالحنوط ملففا فى كفن غير مخيط ثم المحرم يكون اشعث حيران فكذا يوم الحشر يخرج من القبر لهفان ووقوف الحجيج بعرفات آملين رغبا ورهبا سائلين خوفا وطمعا وهم من بين مقبول ومخذول كموقف العرصات لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقى وسعيد والاضافة الى المزدلفة بالمساء هو السوق لفصل القضاء ومنى هو موقف المنى للمذنبين الى شفاعة الشافعين وحلق الرأس والتنظيف كالخروج من السيئات بالرحمة والتخفيف والبيت الحرام الذى من دخله كان آمنا من الايذاء والقتال انموذج لدار السلام التى هى من نزلها بقى سالما من الفناء والزوال غير ان الجنة حفت بمكاره النفس العادية كما ان الكعبة حفت بمتالف البادية فمرحبا بمن جاوزها لك البوادى شوقا الى اللقاء يوم التنادى (ويذكروا اسم الله) عند الذبح (فى أيام معلومات) هى عشر ذى الحجة عند أبى حنيفة رحمه الله وآخرها يوم النحر وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما وأكثر المفسرين رحمهم الله وعند صاحبيه هى أيام النحر وهو قول ابن عمر رضى الله عنهما (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) أى على ذبحه وهو يؤيد قولهما والبهيمة مبهمة فى كل ذات أربع فى البر والبحر فبينت بالانعام وهى الابل والبقر والضأن والمعز (فكلوا منها) من لحومها والامر للاباحة ويجوز الاكل من هدى التطوع والمتعة والقران لانه دم نسك فأشبه الاضحية ولا يجوز الاكل من بقية الهدايا

وفيها رأس يتكلم يا ابراهيم ابن على قدرى فبنى عليه (أن لا تشرك بى شيئا) أى عهدنا الى ابراهيم وقلنا له لا تشرك بى شيئا (وطهر بيتى) أى من الشرك والاوثان والاقذار (للطائفين) أى الذين يطوفون بالبيت (والقائمين) أى المقيمين فيه (والركع السجود) أى المصلين قوله عز وجل (وأذن) أى أعلم ونادوا الاذان فى اللغة الاعلام (فى الناس) قال ابن عباس أراد بالناس أهل القبلة (بالحج) فقال ابراهيم عليه السلام وما يبلغ صوتى فقال الله عليك الاذان وعلينا الابلاغ فقام ابراهيم على المقام حتى صار كاطول الجبال وأدخل أصبعه فى أذنيه وأقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا وقال يا أيها الناس الا ان ربكم قد بنى بيتا وكتب عليكم الحج الى البيت فأجيبوا ربكم فأجابه كل من يحج من اصلاب الآباء وأرحام الامهات لبيك اللهم لبيك قال ابن عباس فأول من أجابه أهل اليمن فهم أكثر الناس حجا وروى ان ابراهيم صعد ابا قبيس ونادى وزعم الحسن ان المأمور بالتأذين هو محمد صلى الله عليه وسلم أمر ان يفعل ذلك فى حجة الوداع (م) عن أبى هريرة قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا (يأتوك رجالا) أى مشاة على أرجلهم جمع راجل (وعلى كل ضامر) أى ركبانا على الابل المهزولة من كثرة السير وبدأ بذكر المشاة تشريفا لهم (يأتين) أى جماعة الابل (من كل فج عميق) أى من كل طريق بعيد فمن أتى مكة حاجا فكأنه قد أتى ابراهيم لانه مجيب نداءه قوله تعالى (ليشهدوا منافع لهم) قيل العفو والمغفرة وقيل التجارة وقال ابن عباس الاسواق وقيل ما يرضى به الله من أمر الدنيا والآخرة (ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات) يعنى عشر ذى الحجة فى قول أكثر المفسرين قيل لها معلومات للحرص عليها من أجل وقت الحج فى آخرها وعن ابن عباس انها أيام عرفة والنحر وأيام التشريق وقيل انها يوم النحر وثلاثة أيام بعده (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) يعنى الهدايا والضحايا تكون من النعم وهى الابل والبقر والغنم وفيه دليل على ان الايام المعلومات يوم النحر وأيام التشريق لان التسمية على بهيمة الانعام عند نحرها ونحر الهدايا يكون فى هذه الايام (فكلوا منها) أمر اباحة ليس بواجب وذلك ان أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون من لحوم هداياهم شيئا فأمر الله بمخالفتهم واتفق العلماء على ان الهدى اذا كان تطوعا يجوز للمهدى ان يأكل منه وكذلك أضحية التطوع لما روى عن جابر بن عبد الله فى قصة حجة الوداع قال وقدم على ببدن من اليمن وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فنحر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين بدنة ونحر على ما غبر وأشركه فى بدنه ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت فى قدر وطبخت فأكل من لحمها وشرب من مرقها أخرجه مسلم قوله ما غبر أى ما بقى قوله ببضعة أى بقطعة واختلف العلماء

(وأطعموا البائس) الذي أصابه بؤس أي شدة (الفقير) الذي أضعفه الإعسار (ثم ليقضوا تفثهم) ثم ليزيلوا عنهم أدرانهم كذا قاله نفطويه قيل قضاء التفث قص الشارب والأظفار ونتف الإبط والاستحداد والتفث الوسخ والمراد قضاء إزالة التفث وقال ابن عمر وابن عباس رضي

في الهدي الواجب بالشرع مثل دم التمتع والقران والدم الواجب بإفساد الحج وفوته وجزاء الصيد هل يجوز للمهدي أن يأكل منه شيئا قال الشافعي لا يأكل منه شيئا وكذلك ما أوجبه على نفسه بالنذر وقال ابن عمر لا يأكل من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك وبه قال أحمد وإسحاق وقال مالك يأكل من هدي التمتع ومن كل هدي وجب عليه إلا من فدية الأذى وجزاء الصيد والمنذور وعند أصحاب الرأي أنه يأكل من دم التمتع والقران ولا يأكل من واجب سواهما وقوله تعالى (وأطعموا البائس الفقير) الزمن الذي لا شيء له قوله تعالى (ثم ليقضوا تفثهم) أي ليزيلوا أدرانهم وأوساخهم والمراد منه الخروج عن الإحرام بالحلق وقص الشارب ونتف الإبط وقلم الأظفار والاستحداد ولبس الثياب والحاج أشعث أغبر إذا لم يزل هذه الأوساخ وقال ابن عمر وابن عباس قضاء التفث مناسك الحج كلها (وليوفوا نذورهم) أراد نذر الحج والهدي وما ينذر الإنسان من شيء يكون في الحج أي ليتموها بقضائها وقيل المراد منه الوفاء بما نذر وهو على ظاهره وقيل أراد به الخروج عما وجب عليه نذره أو لم ينذره (وليطوفوا بالبيت العتيق) أراد به طواف الواجب وهو طواف الإفاضة ووقته يوم النحر بعد الرمي والحلق والطواف ثلاثة طواف القدوم وهو أن من قدم مكة يطوف بالبيت سبعا يرمل ثلاثا من الحجر الأسود إلى أن ينتهي إليه ويمشي أربعا وهذا الطواف سنة لا شيء على من تركه (ق) عن عائشة أن أول شيء بدأ به حين قدم النبي صلى الله عليه وسلم أنه توضأ ثم طاف ثم لم تكن عمرة ثم حج أبو بكر وعمر مثله (ق) عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا طاف الطواف الأول خب ثلاثا ومشى أربعا زاد في رواية ثم يصلي ركعتين يعني بعد الطواف بالبيت ثم يطوف بين الصفا والمروة ولفظ أبي داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا طاف في الحج أو العمرة أول ما يقدم فإنه يسعى ثلاثة أشواط ويمشي أربعا ثم يصلي سجدتين والطواف الثاني هو طواف الإفاضة وذلك يوم النحر بعد الرمي والحلق (ق) عن عائشة قالت حاضت صفية ليلة النفر فقالت ما أراني إلا حابستكم قال النبي صلى الله عليه وسلم عقرى حلقى أطافت يوم النحر قيل نعم قال فانفري قوله عقرى حلقى معناه عقرها الله أي أصابها بالعقر وبوجع في حلقها وقيل معناه مشؤمة مؤذية ولم يرد به الدعاء عليها وإنما هو شيء يجري على ألسنة العرب كقولهم لا أم لك وتربت يمينك وفيه دليل على أن من لم يطف يوم النحر طواف الإفاضة لا يجوز له أن ينفر الثالث طواف الوداع لا رخصة لمن أراد مفارقة مكة إلى مسافة القصر في أن يفارقها حتى يطوف سبعا فمن تركه فعليه دم إلا المرأة الحائض فإنه يجوز لها تركه للحديث المتقدم ولما روى ابن عباس قال أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت إلا أنه رخص للمرأة الحائض متفق عليه والرمل سنة تختص بطواف القدوم ولا رمل في طواف الإفاضة والوداع وقوله بالبيت العتيق قال ابن عباس وغيره سمي عتيقا لأن الله أعتقه من أيدي الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه فلم يظهر عليه جبار قط وقيل لأنه أول بيت وضع للناس وقيل لأن الله أعتقه من الغرق فإنه رفع أيام الطوفان وقيل لأنه لم يملك قط قوله عز وجل (ذلك) أي الأمر ذلك يعني ما ذكر من أعمال الحج (ومن يعظم حرمات الله) أي ما نهى الله عنه من معاصيه وتعظيمها ترك ملابستها وقيل حرمات الله ما لا يحل انتهاكه وقيل الحرمة ما وجب القيام به وحرم التفريط فيه وقيل الحرمات هنا مناسك الحج وتعظيمها إقامتها وإتمامها وقيل الحرمات هنا البيت الحرام والبلد الحرام والمسجد الحرام والشهر الحرام ومعنى التعظيم العلم بأنه يجب القيام بمراعاتها وحفظ حرمتها (فهو خير له عند ربه) أي ثواب تعظيم الحرمات خير له عند الله في الآخرة (وأحلت لكم الأنعام) أي أن تأكلوها بعد الذبح وهي الإبل والبقر والغنم (إلا ما يتلى عليكم) أي تحريمه وهو قوله في سورة المائدة حرمت

الله عنهما قضاء التفث مناسك الحج كلها (وليوفوا نذورهم) مواجب حجهم والعرب تقول لكل من خرج عما وجب عليه وفى بنذره وإن لم ينذر أو ما ينذرونه من أعمال البر في حجهم وليوفوا بسكون اللام والتشديد أبو بكر (وليطوفوا) طواف الزيارة الذي هو ركن الحج ويقع به تمام التحلل اللامات الثلاث ساكنة عند غير ابن عياش وأبي عمرو (بالبيت العتيق) القديم لأنه أول بيت وضع للناس بناه آدم ثم جدده إبراهيم أو الكريم ومنه عتاق الخيل لكرائمها وعتاق الرقيق لخروجه من ذل العبودية إلى كرم الحرية أو لأنه أعتق من الغرق لأنه رفع زمن الطوفان أو من أيدي الجبابرة كم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله أو من أيدي الملاك فلم يملك قط وهو مطاف أهل الغبراء كما أن العرش مطاف أهل السماء فإن الطالب إذا هاجته معية الطرب وجذبته جواذب الطلب جعل يقطع مناكب الأرض مراحل ويتخذ مسالك المهالك منازل فإذا عاين البيت لم يزده التسلي به إلا اشتياقا ولم يفده التشفي باستلام الحجر إلا احتراقا فيرده الأسف لهفان ويردده اللهف حوله في الدوران وطواف الزيارة آخر فرائض الحج الثلاث وأولها الإحرام وهو عقد الالتزام يشبه الاعتصام بعروة الإسلام حتى لا ينتقض بارتكاب ما هو محظور فيه ويبقى عقده مع ما يفسده وينافيه كما أن عقد الإسلام لا ينحل بازدحام الآثام وترتفع الصحوبة بتوبة وثانيها الوقوف بعرفات بسمة الابتهال في صفة الاهتبال وصدق الاعتزال عن دفع الاتكال على مراتب الأعمال وشواهد الأحوال (ذلك) خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك أو تقديره ليفعلوا ذلك (ومن يعظم حرمات الله) الحرمة ما لا يحل هتكه وجميع ما كلفه الله عز وجل بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها فيحتمل أن يكون عاما في جميع تكاليفه ويحتمل أن يكون خاصا بما يتعلق بالحج وقيل حرمات الله البيت الحرام والمشعر الحرام والشهر الحرام والبلد الحرام والمسجد الحرام (فهو) أي التعظيم (خير له عند ربه) ومعنى التعظيم العلم بأنها واجبة المراعاة والحفظ والقيام بمراعاتها (وأحلت لكم الأنعام) أي كلها (إلا ما يتلى عليكم) آية تحريمه وذلك قوله حرمت عليكم الميتة الآية والمعنى أن الله تعالى أحل لكم الأنعام كلها إلا ما بين في كتابه فحافظوا على حدوده

عليكم الميتة والدم الآية (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) أى اتركوا عبادتها فانها سبب الرجس وهو العذاب وقيل سمى الاوثان رجسا لان عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات (واجتنبوا قول الزور) أى الكذب والبهتان وقال ابن عباس هى شهادة الزور وروى عن أيمن بن خزام قال ان النبى صلى الله عليه وسلم قام خطيبا فقال أيها الناس عدلت شهادة الزور الاشراك بالله ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور أخرجه الترمذى وقال قد اختلفوا فى روايته ولا نعرف لايمن سماعا من النبى صلى الله عليه وسلم وأخرجه أبو داود عن خريم بن فاتك بنحوه وقيل هو قول المشركين فى تلبيتهم لبيك لاشريك لك الاشريك هو لك تملكه وما ملك قوله تعالى (حنفاء لله) أى مخلصين له (غير مشركين به) فدل ذلك على ان المكلف ينوى بما يأتيه من العبادة الاخلاص لله بها لاغيره أى حجوا لله مسلمين موحدين ومن أشرك لا يكون حنيفا (ومن يشرك بالله فكأنما خر) أى سقط (من السماء) الى الارض (فتخطفه الطير) أى تسلبه وتذهب به (أو تهوى به الريح) أى تميل وتذهب به (فى مكان سحيق) أى بعيد ومعنى الآية ان من أشرك بالله بعد من الحق والايمان كبعد من سقط من السماء فذهبت به الطير او هوت به الريح فلا يصل بحال وقيل شبه حال المشرك بحال الهاوى من السماء لانه لا يملك لنفسه حيلة حتى يقع حيث تسقطه الريح فهو هالك لامحالة اما باستلاب الطير لحمه أو بسقوطه فى المكان السحيق وقيل معنى الآية من أشرك بالله فقد أهلك نفسه اهلاكا ليس وراءه اهلاك بان صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير ففرقت اجزاءه فى حواصلها او عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المهالك البعيدة وقيل شبه الايمان بالسماء فى علوه والذى ترك الايمان بالساقط من السماء والاهواء التى توزع أفكاره بالطير المختطفة والشياطين التى تطرحه فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة قوله عز وجل (ذلك) يعنى الذى ذكر من اجتناب الرجس وقول الزور (ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب) أى تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب قال ابن عباس شعائر الله البدن والهدى وأصلها من الاشعار وهو العلامة التى يعرف بها انها هدى وتعظيمها استسمانها واستحسانها وقيل شعائر الله أعلام دينه وتعظيمها من تقوى القلوب (لكم فيها) أى فى البدن (منافع) قيل هى درها ونسلها وصوفها ووبرها وركوب ظهرها (الى أجل مسمى) أى الى ان يسميها ويوجبها هديا فاذا فعل ذلك لم يكن له شئ من منافعها وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك ورواية عن ابن عباس وقيل معناه لكم فى الهدايا منافع بعد ايجابها وتسميتها هدايا بان تركبوها وتشربوا من ألبانها عند الحاجة الى أجل مسمى يعنى الى ان تنحروها وهو قول عطاء واختلف العلماء فى ركوب الهدى فقال مالك والشافعى وأحمد واسحاق يجوز ركوبها والحمل عليها من غير ضرر بها لما روى عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يسوق بدنة فقال اركبها فقال يارسول الله انها بدنة فقال أركبها ويلك فى الثانية والثالثة أخرجاه فى الصحيحين وكذلك يجوز له ان يشرب من لبنها بعد ما يفضل عن رى ولدها وقال أصحاب الرأى لا يركبها الا ان يضطر اليه وقيل أراد بالشعائر المناسك ومشاهدة مكة لكم فيها منافع أى بالتجارة والاسواق الى أجل مسمى أى الى الخروج من مكة وقيل لكم فيها منافع أى بالاجر والثواب فى قضاء المناسك الى انقضاء أيام الحج (ثم محلها الى البيت العتيق) أى منحرها عند البيت العتيق يريد به جميع أرض الحرم روى عن جابر فى حديث حجة الوداع ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نحرت ههنا ومنى كلها منحر فانحروا فى رحالكم ومن قال الشعائر المناسك قال معنى ثم محلها أى محل الناس من احرامهم الى البيت العتيق يطوفون به طواف الزيارة

ولاتحرموا اشياءها أحل كتحريم البعض البحيرة ونحوها ولاتحلوا مما حرم كاحلالهم أكل الموقوذة والميتة وغيرهما ولما حث على تعظيم حرماته أتبعه الامر باجتناب الاوثان وقول الزور بقوله (فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور) لان ذلك من أعظم الحرمات وأسبقها خطرا ومن الاوثان بيان للرجس لان الرجس مبهم يتناول غير شئ كأنه قيل فاجتنبوا الرجس الذى هو الاوثان وسمى الاوثان رجسا على طريقة التشبيه يعنى انكم كما تنفرون بطباعكم عن الرجس فعليكم أن تنفروا عنها وجمع بين الشرك وقول الزور أى الكذب والبهتان أو شهادة الزور وهو من الزور وهو الانحراف لان الشرك من باب الزور اذ المشرك زاعم ان الوثن يحق له العبادة (حنفاء لله) مسلمين (غير مشركين به) حال كحنفاء (ومن يشرك بالله فكأنما خر) سقط (من السماء) الى الارض (فتخطفه الطير) أى تسلبه بسرعة فتخطفه أى تختطفه مدنى (أو تهوى به الريح) أى تسقطه والهوى السقوط (فى مكان سحيق) بعيد يجوز ان يكون هذا تشبيها مركبا ويجوز ان يكون مفرقا فان كان تشبيها مركبا فكأنه قال من أشرك بالله فقد أهلك نفسه اهلاكا ليس بعده بان صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق قطعا فى حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المهالك البعيدة وان كان مفرقا فقد شبه الايمان فى علوه بالسماء والذى أشرك بالله بالساقط من السماء والاهواء المردية بالطير المختطفة والشيطان الذى هو يوقعه فى الضلال بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المختلفة (ذلك) أى الامر ذلك (ومن يعظم شعائر الله) تعظيم الشعائر وهى الهدايا لانها من معالم الحج ان يختارها عظام الاجرام حسانا سمانا غالية الاثمان (فانها من تقوى القلوب) أى فان تعظيمها من افعال ذوى تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات وانما ذكرت القلوب لانها مراكز التقوى (لكم فيها منافع) من الركوب عند الحاجة وشرب ألبانها عند الضرورة (الى أجل مسمى) الى أن تنحر (ثم محلها) أى وقت وجوب نحرها منتهية (الى البيت العتيق) والمراد نحرها فى الحرم الذى هو فى حكم البيت اذ الحرم حريم البيت ومثله فى الاتساع قولك بلغت البلد وانما اتصل مسيرك بحدوده وقيل الشعائر المناسك كلها وتعظيمها اتمامها ومحلها الى البيت العتيق يأباه قوله

(ولكل أمة) جماعة مؤمنة قبلكم (جعلنا منسكا) حيث كان بكسر السين بمعنى الموضع علي وحمزة أي موضع قربان وغيرهما بالفتح على المصدر أي اراقة الدماء وذبح القرابين (ليذكروا اسم الله) دون غيره (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) أي عند نحرها وذبحها (فالهكم اله واحد) أي اذكروا على الذبح اسم الله وحده فان الهكم اله واحد وفيه دليل على ان ذكر اسم الله شرط الذبح يعني أن الله تعالى شرع لكل أمة أن ينسكوا له أي يذبحوا له على وجه التقرب وجعل العلة في ذلك أن يذكر اسمه تقدست أسماؤه على النسائك وقوله (فله أسلموا) أي أخلصوا له الذكر خاصة واجعلوه له سالما أي خالصا لا تشوبوه باشراك (وبشر المخبتين) المطمئنين بذكر الله أو المتواضعين الخاشعين من الخبت

وهو المطمئن من الارض وعن ابن عباس رضي الله عنهما الذين لا يظلمون واذا ظلموا لم ينتصروا وقيل تفسيره ما بعده أي (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) خافت منه هيبة (والصابرين على ما أصابهم) من المحن والمصائب (والمقيمي الصلاة) في أوقاتها (ومما رزقناهم ينفقون) يتصدقون (والبدن) جمع بدنة سميت لعظم بدنها وفي الشريعة يتناول الابل والبقر وقرئ برفعها وهو كقوله والقمر قدرناه (جعلناها لكم من شعائر الله) أي من اعلام الشريعة التي شرعها الله واضافتها الى اسمه تعظيم لها ومن شعائر الله ثاني مفعولي جعلنا (لكم فيها خير) النفع في الدنيا والأجر في العقبى (فاذكروا اسم الله عليها) عند نحرها (صواف) حال من الهاء أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن (فاذا وجبت جنوبها) وجوب الجنوب وقوعها على الارض من وجب الحائط وجبة اذا سقط أي اذا سقطت جنوبها على الارض بعد نحرها وسكنت حركتها (فكلوا منها) ان شئتم (واطعموا القانع) السائل من قنعت اليه اذا خضعت له وسألته قنوعا (والمعتر) الذي يريك نفسه ويتعرض ولا يسأل وقيل القانع الراضي بما عنده وبما يعطى من غير سؤال من قنعت قنعا وقناعة والمعتر المتعرض للسؤال (كذلك سخرناها لكم) أي كما أمرناكم بنحرها سخرناها لكم أو هو كقوله ذلك ومن يعظم ثم استأنف فقال سخرناها لكم أي ذللناها لكم مع قوتها وعظم اجرامها لتتمكنوا من نحرها (لعلكم تشكرون) لكي تشكروا انعام الله عليكم (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) ان لن يتقبل الله

٧٠ ث اللحوم والدماء ولكن يتقبل التقوى أو لن يصيب رضا الله اللحوم المتصدق بها ولا الدماء المراقة بالنحر والمراد أصحاب اللحوم والدماء والمعنى لن يرضى المضحون والمتقربون ربهم الا بمراعاة النية والاخلاص ورعاية شروط التقوى وقيل كان أهل الجاهلية اذا نحروا الابل نضحوا الدماء حول البيت ولطخوه بالدم فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت (كذلك سخرها لكم) أي البدن (لتكبروا الله) لتسموا الله عند الذبح أو لتعظموا الله (على ما هداكم) على ما أرشدكم اليه (وبشر المحسنين) الممتثلين أوامره بالثواب (ان الله يدفع) مكي وبصري وغيرهما يدافع أي يبالغ في الدفع عنهم (عن الذين آمنوا) أي يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ونحوه انا لننصر رسلنا والذين آمنوا ثم علل ذلك بقوله (ان الله لا يحب كل خوان) في أمانة الله (كفور) لنعمة الله أي لانه لا يحب اضدادهم وهم الخونة الكفرة الذين يخونون الله والرسول ويخونون أماناتهم ويكفرون نعم الله ويغمطونها

قوله تعالى (ولكل أمة) أي جماعة مؤمنة سلفت قبلكم (جعلنا منسكا) قرئ بكسر السين أي مذبحا وهو موضع القربان وقرئ منسكا بفتح السين وهو اراقة الدم وذبح القرابين (ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام) أي عند ذبحها ونحرها سماها بهيمة لانها لا تتكلم وقيد بالانعام لان ما سواها لا يجوز ذبحه في القرابين وان جاز أكله قوله عز وجل (فالهكم اله واحد) أي سموا على الذبح اسم الله وحده فان الهكم اله واحد (فله أسلموا) أي أخلصوا وانقادوا وأطيعوا (وبشر المخبتين) قال ابن عباس المتواضعين وقيل المطمئنين الى الله وقيل الخاشعين الرقيقة قلوبهم وقيل هم الذين لا يظلمون واذا ظلموا لا ينتصرون ثم وصفهم فقال تعالى (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أي خافت من عقاب الله فيظهر عليها الخشوع والتواضع لله تعالى (والصابرين على ما أصابهم) أي من البلاء والمرض والمصائب ونحو ذلك مما كان من الله تعالى وما كان من غير الله فله ان يصبر عليه وله ان ينتصر لنفسه (والمقيمي الصلاة) أي في أوقاتها المحافظة عليها (ومما رزقناهم ينفقون) أي يتصدقون قوله تعالى (والبدن) جمع بدنة سميت بدنة لعظمها وضخامتها يريد الابل العظام الصحاح الاجسام والبقر ولا تسمى الغنم بدنة لصغرها (جعلناها لكم من شعائر الله) أي من أعلام دينه قيل لانها تشعر وهو ان تطعن بحديدة في سنامها فيعلم بذلك انها هدي (لكم فيها خير) أي نفع في الدنيا وثواب في العقبى (فاذكروا اسم الله عليها) أي عند نحرها (صواف) أي قياما على ثلاث قوائم قد صفت رجليها ويديها اليمنى والاخرى معقولة فينحرها كذلك (ق) عن زياد بن جبير قال رأيت ابن عمر أتى على رجل قد أناخ بدنة ينحرها قال ابعثها قياما مقيدة سنة محمد صلى الله عليه وسلم (فاذا وجبت جنوبها) أي سقطت بعد النحر ووقع جنبها على الارض (فكلوا منها) أمر اباحة (وأطعموا القانع والمعتر) قيل القانع الجالس في بيته المتعفف يقنع بما يعطى ولا يسأل والمعتر هو الذي يسأل وعن ابن عباس القانع هو الذي لا يسأل ولا يتعرض وقيل القانع هو الذي يسأل والمعتر هو الذي يريك نفسه ويتعرض ولا يسأل وقيل القانع المسكين والمعتر الذي ليس بمسكين ولا تكون له ذبيحة يجيء الى القوم فيتعرض لهم لاجل لحمهم (كذلك) أي مثل ما وصفنا من نحرها قياما (سخرناها لكم) أي لتتمكنوا من نحرها (لعلكم تشكرون) أي انعام الله عليكم (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها) وذلك ان أهل الجاهلية كانوا اذا نحروا البدن لطخوا الكعبة بدمائها يزعمون ان ذلك قربة الى الله تعالى فأنزل الله لن ينال الله لحومها ولا دماؤها أي لن ترفع الى الله لحومها ولا دماؤها (ولكن يناله التقوى منكم) أي ولكن ترفع اليه الاعمال الصالحة والاخلاص وهو ما أريد به وجه الله (كذلك سخرها لكم) يعني البدن (لتكبروا الله على ما هداكم) وأرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه وهو ان يقول الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا (وبشر المحسنين) قال ابن عباس الموحدين قوله تعالى (ان الله يدافع عن الذين آمنوا) أي يدفع غائلة المشركين عن المؤمنين ويمنعهم منهم وينصرهم عليهم (ان الله لا يحب كل خوان كفور) أي خوان في أمانة الله كفور لنعمته قال ابن عباس خانوا الله فجعلوا

(أذن) مدني وبصري وعاصم (للذين يقاتلون) بفتح التاء مدني وشامي وحفص والمعنى أذن لهم في القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه (بأنهم ظلموا) بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديدا وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون اليه فيقول لهم اصبروا فاني لم أومر بالقتال حتى هاجر فأنزلت هذه الآية وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعدما نهي عنه في بضع وسبعين آية (وان الله على نصرهم) على نصر المؤمنين (لقدير) قادر وهو بشارة للمؤمنين بالنصرة وهو مثل قوله ان الله يدافع عن الذين آمنوا (الذين) في محل جر بدل من للذين أو نصب بأعني أو رفع باضمارهم (أخرجوا من ديارهم) بمكة (بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله) اي بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي ان يكون موجب التمكين لا موجب الاخراج ومثله هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله ومحل ان يقولوا جر بدلا من حق والمعنى ما أخرجوا من ديارهم الا بسبب قولهم (ولولا دفع الله) دفاع مدني ويعقوب (الناس بعضهم ببعض لهدمت) وبالتخفيف حجازي (صوامع وبيع وصلوات ومساجد) أي لولا اظهاره وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم وعلى متعبداتهم فهدموها ولم يتركوا للنصارى بيعا ولا لرهبانهم صوامع ولا لليهود صلوات أي كنائس وسميت الكنيسة صلاة لانها يصلى فيها ولا للمسلمين مساجدا ولغلب المشركون في أمة محمد صلى الله عليه وسلم على المسلمين وعلى أهل الكتاب الذين في ذمتهم وهدموا متعبدات الفريقين وقدم غير المساجد عليها لتقدمها وجودا أو لقربها من التهديم (يذكر فيها اسم الله كثيرا) في المساجد أو في جميع ما تقدم (ولينصرن الله من ينصره) أي ينصر دينه وأولياءه (ان الله لقوي) على نصر أوليائه (عزيز) على انتقام أعدائه (الذين) محله نصب بدل من من ينصره أو جر تابع للذين أخرجوا (ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) هو اخبار من الله عما ستكون عليه سيرة المهاجرين ان مكنهم في الارض وبسط لهم في الدنيا وكيف يقومون بأمر الدين وفيه دليل صحة الخلفاء الراشدين لان الله عز وجل أعطاهم التمكين ونفاذ الامر مع السيرة العادلة وعن الحسن هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم (ولله عاقبة الامور) أي مرجعها الى حكمه وتقديره وفيه تأكيد لما وعده من اظهار أوليائه الله وإعلاء كلمتهم (وان يكذبوك) هذه تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم من تكذيب أهل مكة اياه أي لست بأوحدي في التكذيب (فقد كذبت قبلهم) قبل قومك (قوم نوح) نوحا (وعاد) هودا (وثمود) صالحا (وقوم ابراهيم) ابراهيم (وقوم لوط) لوطا (وأصحاب مدين) شعيبا (وكذب موسى) كذبه فرعون والقبط ولم يقل وقوم موسى لان موسى ما كذبه قومه بنو اسرائيل وانما كذبه غير قومه أو كأنه قيل بعدما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم وكذب موسى أيضا مع وضوح آياته وظهور معجزاته فما ظنك بغيره (فأمليت للكافرين) أمهلتهم وأخرت عقوبتهم (ثم أخذتهم) عاقبتهم على كفرهم (فكيف كان نكير) انكاري وتغييري حيث أبدلتهم بالنعم نقما وبالحياة هلاكا وبالعمارة خرابا نكيري بالياء في الوصل والوقف يعقوب

ومعه شريكا وكفر وأتبعه وقيل من تقرب الى الاصنام بذبيحته وسمى غير الله عليها فهو خوان كفور قوله عز وجل (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) أي أذن الله لهم بالجهاد ليقاتلوا المشركين قال المفسرون كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يزالون يجيئون من بين مضروب ومشجوج ويشكون ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول لهم اصبروا فاني لم أومر بقتال حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية وهي أول آية أذن الله فيها بالقتال وقيل نزلت هذه الآية في قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة الى المدينة فاعترضهم مشركو مكة فأذن الله لهم في قتال الكفار الذين يمنعونهم من الهجرة بأنهم ظلموا أي بسبب ما ظلموا واعتدوا عليهم بالايذاء (وان الله على نصرهم لقدير) فيه وعد من الله بنصر المؤمنين ثم وصفهم فقال تعالى (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله) يعني انهم أخرجوا بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي ان يكون موجب الاقرار والتعظيم والتمكين لا موجب الاخراج (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) أي بالجهاد واقامة الحدود (لهدمت صوامع) هي معابد الرهبان المتخذة في الصحراء (وبيع) هي معابد النصارى في البلد وقيل الصوامع للصابئين والبيع للنصارى (وصلوات) هي كنائس اليهود ويسمونها بالعبرانية صلوات (ومساجد) يعني مساجد المسلمين (يذكر فيها اسم الله كثيرا) يعني في المساجد ومعنى الآية ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في شريعة كل نبي مكان صلواتهم فهدم في زمن موسى الكنائس وفي زمن عيسى البيع والصوامع وفي زمن محمد صلى الله عليه وسلم المساجد (ولينصرن الله من ينصره) أي ينصر دينه ونبيه (ان الله لقوي) أي على نصر من ينصر دينه (عزيز) أي لا يضام ولا يمنع مما يريده قوله عز وجل (الذين ان مكناهم في الارض) أي نصرناهم على عدوهم حتى تمكنوا من البلاد (أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) هذا وصف أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقيل هم جميع هذه الامة وقيل هم المهاجرون وهو الاصح لان قوله الذين ان مكناهم صفة لمن تقدم ذكرهم وهو قوله الذين أخرجوا من ديارهم وهم المهاجرون (ولله عاقبة الامور) أي آخرة أمور الخلق مصيرها اليه وذلك انه يبطل فيها كل ملك سوى ملكه فتصير الامور اليه بلا منازع قوله تعالى (وان يكذبوك) فيه تسلية وتعزية للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى وان كذبك قومك (فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى) فان قلت لم قال وكذب موسى ولم يقل وقوم موسى قلت فيه وجهان أحدهما ان موسى لم يكذبه قومه وهم بنو اسرائيل وانما كذبه غير قومه وهم القبط الثاني كأنه بعدما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم قال وكذب موسى أيضا مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره (فأمليت للكافرين) أي امهلتهم وأخرت العقوبة عنهم (ثم أخذتهم) أي عاقبتهم (فكيف كان نكير) أي انكاري عليهم ما فعلوا من التكذيب بالعذاب والهلاك يخوف به من خالف رسول الله صلى

(فكأين من قرية أهلكناها) أهلكتها بصري (وهي ظالمة) حال أي وأهلها مشركون (فهي خاوية) ساقطة من خوى النجم إذا سقط (على عروشها) يتعلق بخاوية والمعنى أنها ساقطة على سقوفها أي خرت سقوفها على الارض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف ولا محل لفهي خاوية من الاعراب لانها معطوفة على أهلكناها وهذا الفعل ليس له محل وهذا إذا جعلنا كأين منصوب المحل على تقدير كثيرا من القرى أهلكناها (وبئر معطلة) أي متروكة لفقد دلوها ورشائها أو فقد تفقدها أو هي عامرة فيها الماء ومعها آلات الاستقاء إلا أنها عطلت أي تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها (وقصر مشيد) مجصص من الشيد الجص أو مرفوع البنيان من شاد البناء رفعه والمعنى كم قرية أهلكناها وكم بئر عطلناها عن سقاتها وقصر مشيد أخليناه عن ساكنه أي أهلكنا البادية والحاضرة جميعا فخلت القصور عن أربابها والآبار عن ورادها والاظهر أن البئر والقصر على العموم (أفلم يسيروا في الارض) هذا حث على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا (فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها) أي يعقلون ما يجب أن يعقل من التوحيد ونحوه ويسمعون ما يجب سماعه من الوحي (فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) الضمير في فإنها ضمير القصة أو ضمير مبهم يفسره الابصار أي فما عميت أبصارهم عن الابصار بل قلوبهم عن الاعتبار ولكل انسان أربع أعين عينان في رأسه وعينان في قلبه فإذا أبصر ما في القلب وعمي ما في الرأس لم يضره وإن أبصر ما في الرأس وعمي ما في القلب لم ينفعه وذكر الصدور لبيان أن محل العلم القلب ولئلا يقال إن القلب يعني به غير هذا العضو كما يقال القلب لب كل شيء (ويستعجلونك بالعذاب) الآجل استهزاء (ولن يخلف الله وعده) كأنه قال ولم يستعجلونك به كأنهم يجوزون الفوت وإنما يجوز ذلك على ميعاد من يجوز عليه الخلف ولن يخلف الله وعده وما وعده ليصيبنهم ولو بعد حين (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) يعدون مكي وكوفي غير عاصم أي كيف يستعجلون بعذاب من يوم واحد من أيام عذابه في طول ألف سنة من سنيكم لان أيام الشدائد طوال (وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة) أي وكم من أهل قرية كانوا مثلكم ظالمين قد أنظرتهم حينا (ثم أخذتها) بالعذاب (وإلي المصير) أي المرجع إلي فلا يفوتني شيء وإنما كانت الاولى أي فكأين معطوفة بالفاء وهذه أي وكأين بالواو لان الاولى وقعت بدلا عن فكيف كان نكير وأما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو وهما ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك (قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين) وإنما لم يقل بشير ونذير لذكر الفريقين بعده لان الحديث مسوق إلى المشركين ويا أيها الناس نداء لهم وهم الذين قيل فيهم أفلم يسيروا ووصفوا بالاستعجال وإنما أقحم المؤمنون وثوابهم ليغاظوا أو تقديره نذير مبين وبشير فبشر أولا فقال (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة) لذنوبهم (ورزق كريم) أي حسن ثم أنذر فقال (والذين سعوا) سعى في أمر فلان إذا أفسده بسعيه (في آياتنا) أي القرآن

الله عليه وسلم وكذبه قوله عز وجل (فكأين من قرية أهلكتها) وقرئ أهلكناها على التعظيم (وهي ظالمة) أي وأهلها ظالمون (فهي خاوية) أي ساقطة (على عروشها) أي على سقوفها (وبئر معطلة) أي وكم من بئر معطلة أي متروكة مخلاة عن أهلها (وقصر مشيد) أي رفيع طويل عال وقيل مجصص وقيل إن البئر المعطلة والقصر المشيد باليمن أما القصر فعلى قلة جبل والبئر في سفحه ولكل واحد منهما قوم كانوا في نعمة فكفروا فأهلكهم الله وبقي البئر والقصر خاليين وقيل إن هذه البئر كانت بحضرموت في بلدة يقال لها حاضوراء وذلك أن أربعة آلاف نفر ممن آمن بصالح عليه السلام لما نجوا من العذاب أتوا إلى حضرموت ومعهم صالح فلما حضروه مات صالح فسمي المكان حضرموت لذلك ولما مات صالح بنوا حاضوراء وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلا منهم فأقاموا دهرا وتناسلوا حتى كثروا وعبدوا الاصنام وكفروا فأرسل الله تعالى إليهم نبيا يقال له حنظلة بن صفوان وكان حمالا فيهم فقتلوه في السوق فأهلكهم الله وعطلت بئرهم وخرب قصرهم قوله تعالى (أفلم يسيروا في الارض) يعني كفار مكة فينظروا إلى مصارع المكذبين من الامم الخالية (فتكون لهم قلوب يعقلون بها) أي يعلمون بها (أو آذان يسمعون بها) يعني ما يذكر لهم من أخبار القرون الماضية فيعتبرون (فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) المعنى أن عمى القلب هو الضار في أمر الدين لا عمى البصر لان البصر الظاهر بلغة ومتعة وبصر القلوب هو البصر النافع (ويستعجلونك بالعذاب) نزلت في النضر بن الحارث (ولن يخلف الله وعده) أي أنه أنجز ذلك يوم بدر (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) قال ابن عباس يعني يوما من الايام الستة التي خلق الله فيها السموات والارض وقيل يوما من أيام الآخرة يدل عليه ما روي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك مقدار خمسمائة سنة أخرجه أبو داود بزيادة فيه وأخرج الترمذي نحوه ومعنى الآية أنهم يستعجلون بالعذاب وإن يوما من أيام عذابهم في الآخرة كألف سنة وقيل إن يوما من أيام العذاب في الثقل والاستطالة كألف سنة فكيف يستعجلونه وقيل معناه أن يوما عنده وألف سنة في الامهال سواء لانه قادر متى شاء أخذهم لا يفوته شيء بالتأخير فيستوي في قدرته وقوع ما يستعجلونه من العذاب وتأخيره وهذا معنى قول ابن عباس (وكأين من قرية أمليت لها) أي أمهلتها (وهي ظالمة) أي مع استمرار أهلها على الظلم (ثم أخذتها) أي أنزلت بهم العذاب (وإلي المصير) يعني مصيرهم إلي في الآخرة فيه وعيد وتهديد قوله عز وجل (قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين) أمر الله رسوله أن يديم لهم التخويف والانذار وأن يقول لهم إنما بعثت لكم منذرا (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم) لما أمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول إنما أنا نذير مبين أردف ذلك بأن أمره بوعد من آمن ووعيد من عصى فقال فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة أي ستر لصغائر ذنوبهم وقيل للكبائر أي مع التوبة ورزق كريم أي لا ينقطع أبدا وقيل هو الجنة (والذين سعوا في آياتنا) أي عملوا

(معاجزين) حال مجزين حيث كان مكي وأبو عمرو عاجزه سابقه كان كل واحد منهما في طلب اعجاز الآخر عن اللحاق به فاذا سبقه قيل أعجزه وعجزه والمعنى سعوا في معانيها بالفساد من الطعن فيها حيث سموها سحرا وشعرا وأساطير مسابقين في زعمهم وتقديرهم طامعين ان كيدهم للاسلام يتم لهم (أولئك أصحاب الجحيم) أي النار الموقدة (وما أرسلنا من قبلك) من لابتداء الغاية (من رسول) من زائدة لتأكيد النفي (ولا نبي) هذا دليل بين على ثبوت التغاير بين الرسول والنبي بخلاف ما يقول البعض انهما واحد وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الانبياء فقال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا فقيل فكم الرسل منهم فقال ثلاثمائة وثلاثة عشر والفرق بينهما ان الرسول من جمع الى المعجزة الكتاب المنزل عليه والنبي من لم ينزل عليه كتاب وانما أمر ان يدعو الى شريعة من قبله وقيل الرسول واضع شرع والنبي حافظ شرع غيره (الا اذا تمنى) قرأ قال

تمنى كتاب الله أول ليلة

تمنى داود الزبور على رسل

(ألقى الشيطان في أمنيته) تلاوته قالوا انه عليه السلام كان في نادي قومه يقرأ والنجم فلما بلغ قوله ومناة الثالثة الاخرى جرى على لسانه تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى ولم يفطن له حتى أدركته العصمة فتنبه عليه وقيل نبهه جبريل عليه السلام وأخبرهم ان ذلك كان من الشيطان وهذا القول غير مرضي لانه لا يخلو اما ان يتكلم النبي عليه السلام بها عمدا وانه لا يجوز لانه كفر لانه بعث طاعنا للاصنام لا مادحا لها أو أجرى الشيطان ذلك على لسان النبي عليه السلام جبرا بحيث لا يقدر على الامتناع منه وهو ممتنع لان الشيطان لا يقدر على ذلك في حق غيره لقوله تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ففي حقه أولى او جرى ذلك على لسانه سهوا وغفلة وهو مردود ايضا لانه لا يجوز مثل هذه الغفلة عليه في حال تبليغ الوحي ولو جاز ذلك لبطل الاعتماد على قوله ولانه تعالى قال في صفة المنزل عليه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقال انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون فلما بطلت هذه الوجوه لم يبق الا وجه واحد وهو انه عليه السلام سكت عند قوله ومناة الثالثة الاخرى فتكلم الشيطان بهذه الكلمات متصلا بقراءة النبي صلى الله عليه وسلم فوقع عند بعضهم انه عليه السلام هو الذي تكلم بها فيكون هذا القاء في قراءة النبي عليه السلام وكان الشيطان يتكلم في زمن النبي عليه السلام ويسمع كلامه فقد روى انه نادى يوم أحد الا ان محمدا قد قتل وقال يوم بدر لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم

متصل

في ابطال آياتنا (معجزين) أي مثبطين الناس عن الايمان وقرئ معاجزين أي معاندين مشاقين وقيل معاندين طانين ومقدرين انهم يعجزوننا ويفوتوننا فلا نقدر عليهم بزعمهم ان لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار (أولئك أصحاب الجحيم) قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) قال ابن عباس وغيره من المفسرين لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم تولي قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به من الله تعالى تمنى في نفسه ان يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه لحرصه على ايمانهم فكان يوما في مجلس لقريش فأنزل الله عز وجل سورة والنجم فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ألقى الشيطان على لسانه ما كان يحدث به نفسه ويتمناه تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى فلما سمعت قريش ذلك فرحوا به ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته فقرأ السورة كلها وسجد في آخرها وسجد المسلمون بسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر الا سجد غير الوليد بن المغيرة وأبي أحيحة سعيد بن العاص فانهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها الى جبهتيهما وسجدا عليها لانهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم ويقولون قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر وقالوا قد عرفنا ان الله يحيي ويميت ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده وان جعل لها محمد نصيبا فنحن معه فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل فقال يا محمد ماذا صنعت لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله تعالى فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله تعالى خوفا كبيرا فأنزل الله تعالى هذه الآية يعزيه وكان به رحيما وسمع بذلك من كان بأرض الحبشة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبلغهم سجود قريش وقيل قد أسلمت قريش وأهل مكة فرجع أكثرهم الى عشائرهم وقالوا هم أحب الينا حتى اذا دنوا من مكة بلغهم ان الذي كانوا تحدثوا به من اسلام أهل مكة كان باطلا فلم يدخل أحد منهم الا بجوار او مستخفيا فلما نزلت هذه الآية قالت قريش ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله فغير ذلك وكان الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقعا في فم كل مشرك فازدادوا شرا الى ما كانوا عليه وشدة على من أسلم وقوله وما أرسلنا من قبلك من رسول الرسول هو الذي يأتيه جبريل بالوحي عيانا ولا نبي النبي هو الذي تكون نبوته الهاما او مناما فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا الا اذا تمنى اي احب شيئا واشتهاه وحدث به نفسه مما لم يؤمر به ألقى الشيطان في امنيته اي في مراده وقال ابن عباس اذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ووجد اليه سبيلا والمعنى ما من نبي الا تمنى ان يؤمن قومه ولم يتمن ذلك نبي الا ألقى الشيطان عليه ما يرضي قومه فينسخ الله ما يلقي الشيطان وقال أكثر المفسرين معنى تمنى قرأ وتلا كتاب الله ألقى الشيطان في أمنيته أي في تلاوته قال حسان في عثمان حين قتل

تمنى كتاب الله أول ليلة * وآخرها لاقى حمام المقادر

فان قلت قد قامت الدلائل على صدقه وأجمعت الامة فيما كان طريقه البلاغ انه معصوم فيه من الاخبار عن شيء منه بخلاف ما هو به لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا قال الله تعالى وما ينطق عن الهوى وقال تعالى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد فكيف يجوز الغلط على النبي صلى الله عليه وسلم في التلاوة وهو معصوم منه قلت ذكر العلماء عن هذا الاشكال أجوبة أحدها توهين أصل هذه القصة وذلك انه لم يروها أحد من أهل الصحة ولا اسندها ثقة بسند صحيح أو سليم

متصل وانما رواه المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب الملفقون من الصحف كل صحيح وسقيم والذي يدل على ضعف هذه القصة اضطراب رواتها وانقطاع سندها واختلاف ألفاظها فقائل يقول ان النبي صلى الله عليه وسلم كان في الصلاة وآخر يقول قرأها وهو في نادي قومه وآخر يقول قرأها وقد أصابته سنة وآخر يقول بل حدث نفسه بها فجرى ذلك على لسانه وآخر يقول ان الشيطان قالها على لسان النبي صلى الله عليه وسلم وان النبي صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل قال ما هكذا أقرأتك الى غير ذلك من اختلاف ألفاظها والذي جاء في الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود ان النبي صلى الله عليه وسلم قرأ والنجم فسجد فيها وسجد من كان معه غير ان شيخا من قريش أخذ كفا من حصى أو تراب فرفعه الى جبهته قال عبد الله فلقد رأيته بعد قتل كافرا أخرجه البخاري ومسلم وصح من حديث ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس رواه البخاري وهذا الذي جاء في الصحيح لم يذكر فيه ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر تلك الالفاظ ولا قرأها والذي ذكره المفسرون عن ابن عباس في هذه القصة فقد رواه عنه الكلبي وهو ضعيف جدا وهذا توهين هذه القصة الجواب الثاني وهو من حيث المعنى هو ان الحجة قد قامت بالدليل الصحيح واجماع الامة على عصمة النبي صلى الله عليه وسلم ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة وهو تمنيه ان ينزل عليه مدح آلهة غير الله أو ان يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه حتى ينبهه جبريل عن ذلك وهذا كله ممتنع في حقه صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين الآية الجواب الثالث في تسليم وقوع هذه القصة وسبب سجود الكفار ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا قرأ يرتل القرآن ترتيلا ويفصل الآي تفصيلا كما صح عنه في قراءته فيحتمل ان الشيطان ترصد لتلك السكتات فدس فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكيا الصوت النبي صلى الله عليه وسلم فسمعه من دنا منه من الكفار فظنوها من قول النبي صلى الله عليه وسلم فسجدوا معه لسجوده فأما المسلمون فلم يقدح ذلك عندهم لتحققهم من حال النبي صلى الله عليه وسلم ذم الاوثان وعيبها وانهم كانوا يحفظون السورة كما أنزلها الله عز وجل الجواب الرابع في تحقيق تفسير الآية وقد تقدم ان التمني يكون بمعنى حديث النفس وبمعنى التلاوة فعلى الاول يكون معنى قوله الا اذا تمنى أي خطر بباله وتمنى بقلبه بعض الامور ولا يبعد انه اذا قوي التمني اشتغل الخاطر فحصل السهو في الافعال الظاهرة وعلى الثاني وهو تفسير التمني بالتلاوة فيكون معنى قوله الا اذا تمنى أي تلا وهو ما يقع للنبي صلى الله عليه وسلم من السهو في اسقاط آية أو آيات أو كلمة أو نحو ذلك ولكنه لا يقر على هذا السهو بل ينبه عليه ويذكر به للوقت والحين كما صح في الحديث لقد اذكرني كذا كذا آية كنت أنسيتها من سورة كذا وحاصل هذا ان الغرض من هذه الآية ان الانبياء والرسل وان عصمهم الله عن الخطأ في العلم فلم يعصمهم من جواز السهو عليهم بل حالهم في ذلك كحال سائر البشر والله تعالى أعلم قوله عز وجل (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) أي يبطله ويذهبه (ثم يحكم الله آياته) أي يثبتها (والله عليم حكيم) قوله عز وجل (ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة) أي محنة وبلية والله تعالى يمتحن عباده بما يشاء (للذين في قلوبهم مرض) أي شك ونفاق (والقاسية قلوبهم) أي الجافية قلوبهم عن قبول الحق وهم المشركون (وان الظالمين لفي شقاق بعيد) أي في خلاف شديد (وليعلم الذين أوتوا العلم) أي التوحيد والقرآن والتصديق بنسخ الله ما يشاء (انه الحق من ربك) أي الذي أحكم الله من آيات القرآن هو الحق من ربك (فيؤمنوا به) أي يعتقدوا انه من الله عز وجل (فتخبت له قلوبهم) أي تسكن اليه (وان الله لهادي الذين آمنوا الى صراط مستقيم) أي الى طريق قويم وهو الاسلام قوله عز وجل (ولا يزال الذين كفروا في مرية منه) أي في شك من القرآن وقيل من الدين الذي هو صراط مستقيم (حتى تأتيهم الساعة بغتة) أي فجأة قيل أراد بالساعة الموت (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) أي عذاب يوم لا ليلة له وهو يوم القيامة وقيل هو يوم بدر سمي عقيما لانه لم يكن في ذلك اليوم للكفار خير كالريح العقيم لا تأتي بخير

(فينسخ الله ما يلقي الشيطان) أي يذهب به ويبطله ويخبر انه من الشيطان (ثم يحكم الله آياته) أي يثبتها ويحفظها من لحوق الزيادة من الشيطان (والله عليم) بما أوحى الى نبيه (حكيم) لا يدعه حتى يكشفه ويزيله ثم ذكر ان ذلك ليفتن الله تعالى به قوما بقوله (ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة) محنة وابتلاء (للذين في قلوبهم مرض) شك ونفاق (والقاسية قلوبهم) هم المشركون المكذبون فيزدادوا به شكا وظلمة (وان الظالمين) أي المنافقين والمشركين وأصله وانهم فوضع الظاهر موضع الضمير قضاء عليهم بالظلم (لفي شقاق) خلاف (بعيد) عن الحق (وليعلم الذين أوتوا العلم) بالله وبدينه وبالآيات (انه) أي القرآن (الحق من ربك فيؤمنوا به) بالقرآن (فتخبت له قلوبهم) وتطمئن (وان الله لهادي الذين آمنوا الى صراط مستقيم) فيتأولون ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة ويطلبون لما أشكل منه المحمل الذي تقتضيه الأصول المحكمة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة (ولا يزال الذين كفروا في مرية) شك (منه) من القرآن أو من الصراط المستقيم (حتى تأتيهم الساعة بغتة) فجأة (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) يعني يوم بدر فهو عقيم عن ان يكون للكافرين فيه فرح أو راحة كالريح العقيم لا تأتي بخير أو شديد لا رحمة فيه أو لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه وعن الضحاك انه يوم القيامة وان المراد بالساعة مقدماته

(الملك يومئذ) أي يوم القيامة والتنوين عوض عن الجملة أي يوم يؤمنون أو يوم تزول مريتهم (لله) فلا منازع له فيه (يحكم بينهم) أي يقضي ثم بين حكمه فيهم بقوله (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين) ثم خص قوما من الفريق الأول بفضيلة فقال (والذين هاجروا في سبيل الله) خرجوا من أوطانهم مجاهدين (ثم قتلوا) في الجهاد قتلوا شامي (أو ماتوا) حتف أنفهم (ليرزقنهم الله رزقا حسنا) قيل الرزق الحسن الذي لا ينقطع أبدا (وان الله لهو خير الرازقين) لانه المخترع للخلق بلا مثال المتكفل للرزق بلا ملال (ليدخلنهم مدخلا) بفتح الميم مدني والمراد الجنة (يرضونه) لان فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين (وان الله لعليم) باحوال من قضى نحبه مجاهدا وآمال من مات وهو ينتظر معاهدا (حليم) بامهال من قاتلهم معاندا روي ان طوائف من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبي الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا ان متنا معك فأنزل الله هاتين الآيتين (ذلك) أي الامر ذلك وما بعده مستأنف (ومن عاقب بمثل ما عوقب به) سمى الابتداء بالجزاء عقوبة لملابسته له من حيث انه سبب وذلك مسبب عنه (ثم بغي عليه لينصرنه الله) أي من جازى بمثل ما فعل به من الظلم ثم ظلم بعد ذلك فحق على الله ان ينصره (ان الله لعفو) يمحو آثار الذنوب (غفور) يستر أنواع العيوب وتقريب الوصفين بسياق الآية ان المعاقب مبعوث من عند الله على العفو وترك العقوبة بقوله فمن عفا وأصلح فأجره على الله وأن تعفوا أقرب للتقوى فحيث لم يؤثر ذلك وانتصر فهو تارك للافضل وهو ضامن لنصره في الكرة الثانية اذا ترك العفو وانتقم من الباغي وعرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو بذكر هاتين الصفتين أو دل بذكر العفو والمغفرة على انه قادر على العقوبة اذ لا يوصف بالعفو الا القادر على ضده كما قيل العفو عند القدرة (ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وان الله سميع بصير) أي ذلك النصر للمظلوم بسبب انه قادر على ما يشاء ومن آيات قدرته انه يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل أي يزيد من هذا في ذلك ومن ذلك في هذا أو بسبب انه خالق الليل والنهار ومصرفهما فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي والانصاف وانه سميع لما يقولون ولا يشغله سمع عن سمع وان اختلفت في النهار الاصوات بفنون اللغات بصير بما يفعلون ولا يستتر عنه شيء بشيء في الليالي وان توالت الظلمات (ذلك بأن الله هو الحق وان ما يدعون) عراقي غير أبي بكر (من دونه هو الباطل وان الله هو العلي الكبير) أي ذلك الوصف بخلقه الليل والنهار واحاطته بما يجري فيهما وادراكه قولهم وفعلهم بسبب ان الله الحق الثابت الهيته وان كل ما يدعى الهاً دونه باطل الدعوة وانه لا شيء أعلى منه شأنا وأكبر سلطانا (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) مطرا (فتصبح الارض مخضرة) بالنبات بعد ما كانت مسودة يابسة وانما صرف الى لفظ المضارع ولم يقل فاصبحت ليفيد بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان كما تقول أنعم علي فلان فأروح وأغدو شاكرا له ولو قلت فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع وانما رفع فتصبح ولم ينصب جوابا للاستفهام لانه لو نصب لبطل الغرض وهذا لان معناه اثبات الاخضرار فينقلب بالنصب الى نفي الاخضرار كما تقول لصاحبك ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر ان نصبته نفيت شكره وشكوت من تفريطه فيه وان رفعته أثبت شكره (ان الله لطيف) واصل علمه أو فضله الى كل شيء (خبير) بمصالح الخلق ومنافعهم أو اللطيف المختص بدقيق التدبير الخبير المحيط بكل قليل وكثير (له ما في السموات وما في الارض) ملكا وملكا (وان الله لهو الغني) المستغني بكمال قدرته بعد فناء ما في السموات وما في الارض (الحميد) المحمود بنعمته قبل ثناء من في السموات ومن في الارض (ألم تر أن الله

سخر

وقيل لانه لا مثل له في عظم أمره لقتال الملائكة فيه (الملك يومئذ) يعني يوم القيامة (لله) وحده من غير منازع ولا مشارك فيه (يحكم) أي يفصل (بينهم) ثم بين ذلك الحكم فقال تعالى (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين) قوله تعالى (والذين هاجروا في سبيل الله) أي فارقوا أوطانهم وعشائرهم في طاعة الله وطلب رضاه (ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا) أي لا ينقطع ابدا وهو رزق الجنة لان فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين (وان الله لهو خير الرازقين) فان قلت الرازق في الحقيقة هو الله عز وجل لا رازق للخلق غيره فكيف قال وان الله لهو خير الرازقين قلت قد يسمى غير الله رازقا على المجاز كقوله رزق السلطان الجند أي أعطاهم أرزاقهم وان الرازق في الحقيقة هو الله تعالى وقيل لان الله تعالى يعطي من الرزق ما لا يقدر عليه غيره (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) يعني الجنة يكرمون به ولا ينالهم فيه مكروه (وان الله لعليم) بنياتهم (حليم) بالعفو عنهم قوله عز وجل (ذلك) أي الامر ذلك الذي قصصنا عليك (ومن عاقب بمثل ما عوقب به) أي جازى الظالم بمثل ظلمه وقيل يعني قاتل المشركين كما قاتلوه (ثم بغي عليه) أي ظلم باخراجه من منزله يعني ما أتاه المشركون من البغي على المسلمين حتى أحوجوهم الى مفارقة أوطانهم نزلت في قوم من المشركين أتوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا في المحرم فكره المسلمون قتالهم وسألوهم ان يكفوا عن القتال من أجل الشهر الحرام فأبى المشركون وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت المسلمون فنصرهم الله عليهم فذلك قوله تعالى (لينصرنه الله ان الله لعفو) أي عن مساوي المؤمنين (غفور) يعني لذنوبهم (ذلك) أي ذلك النصر (بأن الله) القادر على ما يشاء فمن قدرته انه (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) في معنى هذا الايلاج قولان أحدهما انه يجعل ظلمة الليل مكان ضياء النهار وذلك بغيبوبة الشمس ويجعل ضياء النهار مكان ظلمة الليل بطلوع الشمس القول الثاني هو ما يزيد في أحدهما وينقص من الآخر من الساعات وذلك لا يقدر عليه الا الله تعالى (وان الله سميع بصير ذلك بأن الله هو الحق) أي ذو الحق في قوله وفعله ودينه حق وعبادته حق (وان ما يدعون) يعني المشركين (من دونه هو الباطل) يعني الاصنام التي ليس عندها ضر ولا نفع (وان الله هو العلي) أي العالي على كل شيء (الكبير) أي العظيم في قدرته وسلطانه قوله عز وجل (ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة) أي بالنبات (ان الله لطيف) أي باستخراج النبات من الارض رزقا للعباد والحيوان (خبير) أي بما في قلوب العباد اذا تأخر المطر عنهم (له ما في السموات وما في الارض) أي عبيدا وملكا (وان الله لهو الغني الحميد) يعني الغني عن عباده الحميد في أفعاله (ألم تر ان الله

سخر لكم ما فى الارض) من البهائم مذللة للركوب فى البر (والفلك تجرى فى البحر بأمره) أى ومن المراكب جارية فى البحر ونصب الفلك عطفا على ما وتجرى حال لها أى وسخر لكم الفلك فى حال جريها (ويمسك السماء ان تقع على الارض) أى يحفظها من أن تقع (الا باذنه) بأمره أو بمشيئته (ان الله بالناس لرؤف) بتسخير ما فى الارض (رحيم) بامساك السماء لئلا تقع على الارض عدد آلاءه مقرونة بأسمائه ليشكروه على آلائه ويذكروه بأسمائه وعن أبى حنيفة رحمه الله ان اسم الله الاعظم فى الآيات الثمانية يستجاب لقارئها البتة (وهو الذى أحياكم) فى أرحام امهاتكم (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) لايصال جزائكم (ان الانسان لكفور) لجحود لما أفاض عليه من ضروب النعم ودفع عنه من صنوف النقم أو لا يعرف نعمة الانشاء المبدئ للوجود ولا الافناء المقرب الى الموعود ولا الاحياء الموصل الى المقصود (لكل أمة) أهل دين (جعلنا منسكا) مر بيانه وهو رد لقول من يقول ان الذبح ليس بشريعة الله اذ هو شريعة كل أمة (هم ناسكوه) عاملون به (فلا ينازعنك) فلا يجادلنك والمعنى فلا تلتفت الى قولهم ولا تمكنهم من ان ينازعوك (فى الامر) أمر الذبائح أو الدين نزلت حين قال المشركون للمسلمين ما لكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتله الله يعنى الميتة (وادع) الناس (الى ربك) الى عبادة ربك (انك لعلى هدى مستقيم) طريق قويم ولم يذكر الواو فى لكل أمة بخلاف ما تقدم لان تلك وقعت مع ما يناسبها من الآى الواردة فى أمر النسائك فعطفت على اخواتها وهذه وقعت مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفا (وان جادلوك) مراء وتعنتا كما يفعله السفهاء بعد اجتهادك ان لا يكون بينك وبينهم تنازع وجدال (فقل الله أعلم بما تعملون) أى فلا تجادلهم وادفعهم بهذا القول والمعنى ان الله أعلم بأعمالكم وما تستحقون عليها من الجزاء فهو مجازيكم به وهذا وعيد وانذار ولكن برفق ولين وتأديب يجاب به كل متعنت (الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) هذا خطاب من الله للمؤمنين والكافرين أى يفصل بينكم بالثواب والعقاب ومسلاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما كان يلقى منهم (ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والارض) أى كيف يخفى عليه ما تعملون ومعلوم عند العلماء بالله انه يعلم كل ما يحدث فى السموات والارض (ان ذلك) الموجود فيهما (فى كتاب) فى اللوح المحفوظ (ان ذلك على الله يسير) أى أعلمه بجميع ذلك عليه يسير ثم أشار الى جهالة الكفار لعبادتهم غير المستحق لها بقوله (ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به) ينزل مكى وبصرى (سلطانا) حجة وبرهانا (وما ليس لهم به علم) أى لم يتمسكوا فى عبادتهم لها ببرهان سماوى من جهة الوحى ولا حملهم عليها دليل عقلى (وما للظالمين من نصير) وما للذين ارتكبوا مثل هذا الظلم من أحد ينصرهم ويصوب مذهبهم (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) يعنى القرآن (تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر) الانكار بالعبوس والكراهة والمنكر مصدر (يكادون يسطون) يبطشون والسطو الوثب والبطش (بالذين يتلون عليهم آياتنا) هم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه (قل أفأنبئكم بشر من ذلكم) من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلى عليكم (النار) خبر مبتدا محذوف كان قائلا قال ما هو فقيل النار أى هو النار (وعدها الله الذين كفروا) استئناف كلام (وبئس المصير) النار ولما كانت دعواهم بان لله تعالى شريكا جارية فى الغرابة والشهرة مجرى الامثال المسيرة قال الله تعالى (يا أيها الناس ضرب) بين (مثل

سخر لكم ما فى الارض) أى الدواب التى تركب فى البر (والفلك) أى وسخر السفن (تجرى فى البحر بأمره) يعنى سخر لها الماء والرياح ولولا ذلك ما جرت (ويمسك السماء ان تقع) أى لكيلا تسقط (على الارض الا باذنه ان الله بالناس لرؤف رحيم) يعنى انه أنعم بهذه النعم الجامعة لمنافع الدنيا والدين وقد بلغ الغاية فى الانعام والاحسان فهو اذا رؤف رحيم بكم (وهو الذى أحياكم) اى أنشأكم ولم تكونوا شيئا (ثم يميتكم) أى عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) أى يوم البعث للثواب والعقاب (ان الانسان لكفور) أى لجحود لنعم الله عز وجل قوله تعالى (لكل أمة جعلنا منسكا) قال ابن عباس شريعة (هم ناسكوه) هم عاملون بها وعنه انه قال عيدا وقيل موضع قربان يذبحون فيه وقيل موضع عبادة (فلا ينازعنك فى الامر) أى فى أمر الذبائح نزلت فى بديل بن ورقاء وبشر بن سفيان ويزيد بن خنيس قالوا لاصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ما لكم تأكلون مما تقتلون بايديكم ولا تأكلون مما قتله الله وقيل معناه لا تنازعهم أنت قوله (وادع الى ربك) أى الى الايمان به والى دينه (انك لعلى هدى مستقيم) أى على دين واضح قويم (وان جادلوك) أى خاصموك فى أمر الذبح وغيره (فقل الله أعلم بما تعملون) أى من التكذيب (الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) أى فتعلمون حينئذ الحق من الباطل قيل حكم يوم القيامة يتردد بين جنة وثواب لمن قبل وبين نار وعقاب لمن رد وأبى قوله عز وجل (ألم تعلم) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه الامة (ان الله يعلم ما فى السماء والارض ان ذلك فى كتاب) أى فى اللوح المحفوظ (ان ذلك) أى علمه بجميعه (على الله يسير) أى هين وقيل ان كتب الحوادث مع ابهامها من الغيب على الله يسير (ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا) أى حجة ظاهرة من دليل سمعى (وما ليس لهم به علم) أى انهم فعلوا ما فعلوه عن جهل لا عن علم ولا دليل عقلى (وما للظالمين) أى المشركين (من نصير) أى مانع يمنعهم من العذاب (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) يعنى القرآن وصفه بذلك لان فيه بيان الاحكام والفصل بين الحلال والحرام (تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر) أى الانكار والكراهة يتبين ذلك فى وجوههم (يكادون يسطون) أى يقعون ويبسطون اليكم أيديهم بالسوء وقيل يبطشون (بالذين يتلون عليهم آياتنا) أى بمحمد وأصحابه من شدة الغيظ (قل) أى قل لهم يا محمد (أفأنبئكم بشر من ذلكم) أى بشر لكم وأكره اليكم من هذا القرآن الذى تسمعون (النار) اى هى النار (وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) قوله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل) فان قلت الذى جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلا قلت لما كان المثل فى الاكثر نكتة عجيبة غريبة جاز ان يسمى كل كلام كان كذلك مثلا وقال فى الكشاف قد سميت الصفة والقصة الرائقة المتلقاة بالاستحسان والاستغراب مثلا تشبيها لها ببعض الامثال

فاستمعوا له) لضرب هذا المثل (ان الذين تدعون) يدعون سهل ويعقوب (من دون الله) آلهة باطلة (لن يخلقوا ذبابا) لن لتأكيد نفي المستقبل وتأكيده هنا للدلالة على ان خلق الذباب منهم مستحيل كانه قال محال ان يخلقوا وتخصيص الذباب لمهانته وضعفه واستقذاره وسمي ذبابا لانه كلما ذب لاستقذاره آب لاستكباره (ولو اجتمعوا له) لخلق الذباب ومحله النصب على الحال كانه قيل مستحيل منهم ان يخلقوا الذباب مشروطا عليهم اجتماعهم جميعا لخلقه وتعاونهم عليه وهذا من أبلغ ما أنزل في تجهيل قريش حيث وصفوا بالالهية التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها والاحاطة بالمعلومات عن آخرها صورا وتماثيل يستحيل منها ان تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله ولو اجتمعوا لذلك (وان يسلبهم الذباب شيئا) شيئا ثاني مفعولي يسلبهم (لا يستنقذوه منه) أي هذا الخلق الاقل الارذل لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا على ان يستخلصوه منه لم يقدروا وعن ابن عباس رضي الله عنهما انهم كانوا يطلونها بالزعفران ورؤسها بالعسل فاذا سلبه الذباب عجز الاصنام عن أخذه (ضعف الطالب) أي الصنم يطلب ما سلب منه (والمطلوب) الذباب بما سلب وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف فان الذباب حيوان وهو جماد وهو غالب وذاك مغلوب (ما قدروا الله حق قدره) ما عرفوه حق معرفته حيث جعلوا هذا الصنم الضعيف شريكا له (ان الله لقوي عزيز) أي ان الله قادر وغالب فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيها به أو لقوي بنصر أوليائه عزيز ينتقم من أعدائه (الله يصطفي) يختار (من الملائكة رسلا) كجبريل وميكائيل واسرافيل وغيرهم (ومن الناس) رسلا كابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم عليهم السلام هذا رد لما أنكروه من ان يكون الرسول من البشر وبيان ان رسل الله على ضربين ملك وبشر وقيل نزلت حين قالوا أأنزل عليه الذكر من بيننا (ان الله سميع) لقولهم (بصير) بمن يختاره لرسالته أو سميع لاقوال الرسل فيما تقبله العقول بصير بأحوال الامم في الرد والقبول (يعلم ما بين أيديهم) ما مضى (وما خلفهم) ما لم يأت أو ما عملوه وما سيعملوه أو أمر الدنيا وأمر الآخرة (والى الله ترجع الامور) أي اليه مرجع الامور كلها والذي هو بهذه الصفات لا يسئل عما يفعل وليس لاحد ان يعترض عليه في حكمه وتدابيره واختيار رسله ترجع شامي وحمزة وعلي (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) في صلاتكم وكانوا أول ما أسلموا يصلون بلا ركوع وسجود فأمروا ان تكون صلاتهم بركوع وسجود وفيه دليل على ان الاعمال ليست من الايمان وان هذه السجدة للصلاة لا للتلاوة (واعبدوا ربكم) واقصدوا بركوعكم وسجودكم وجه الله لا الصنم (وافعلوا الخير) وعن قيل لما كان للذكر مزية على غيره من الطاعات دعا المؤمنين أولا الى الصلاة التي هي ذكر خالص لقوله تعالى وأقم الصلاة لذكري ثم الى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج وغيرهما ثم عم بالحث على سائر الخيرات وقيل أريد به صلة الارحام ومكارم الاخلاق (لعلكم تفلحون) أي كي تفوزوا وافعلوا هذا كله وأنتم راجون للفلاح غير مستيقنين ولا تتكلوا على أعمالكم

المسيرة لكونها مسيرة عندهم مستحسنة مستغربة (فاستمعوا له) أي تدبروه حق تدبره فان الاستماع بلا تدبر وتعقل لا ينفع والمعنى جعل لي شبيه وشبه بي الاوثان اي جعل المشركون الاصنام شركائي يعبدونها ثم بين حالها وصفتها فقال تعالى (ان الذين تدعون من دون الله) يعني الاصنام (لن يخلقوا ذبابا) أي واحدا في صغره وضعفه وقلته لانها لا تقدر على ذلك (ولو اجتمعوا له) أي لخلقه والمعنى ان هذه الاصنام لو اجتمعت لم تقدروا على خلق ذبابة على ضعفها وصغرها فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودا له (وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه) قال ابن عباس كانوا يطلون الاصنام بالزعفران فاذا جف جاء الذباب فاستلبه منها وقيل كانوا يضعون الطعام بين أيدي الاصنام فيقع الذباب عليه ويأكل (ضعف الطالب والمطلوب) قال ابن عباس الطالب الذباب يطلب ما يسلب من الطيب الذي على الصنم والمطلوب هو الصنم وقيل الطالب الصنم والمطلوب الذباب أي لو طلب الصنم ان يخلق الذباب لعجز عنه وقيل الطالب عابد الصنم والمطلوب هو الصنم (ما قدروا الله حق قدره) أي ما عظموه حق عظمته وما عرفوه حق معرفته ولا وصفوه حق صفته حيث أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه (ان الله لقوي عزيز) أي غالب لا يقهر قوله عز وجل (الله يصطفي من الملائكة) أي يختار من الملائكة (رسلا) جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل وغيرهم (ومن الناس) أي ويختار الله من الناس رسلا مثل ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الانبياء والرسل صلى الله وسلم عليهم أجمعين نزلت حين قال المشركون أأنزل عليه الذكر من بيننا فأخبر الله تعالى ان الاختيار اليه يختار من يشاء من عباده لرسالته (ان الله سميع) أي لاقوالهم (بصير) أي لافعالهم لا تخفى عليه خافية قوله تعالى (يعلم ما بين أيديهم) قال ابن عباس ما قدموا (وما خلفهم) أي ما خلفوا وقيل يعلم ما عملوا وما هم عاملون وقيل يعلم ما بين ملائكته ورسله قبل ان يخلقهم ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم (والى الله ترجع الامور) أي في الآخرة قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) أي صلوا لان الصلاة لا تكون الا بالركوع والسجود (واعبدوا ربكم) أي وحدوه وقيل أخلصوا له العبادة (وافعلوا الخير) قال ابن عباس صلة الارحام ومكارم الاخلاق وقيل فعل الخير ينقسم الى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لامر الله تعالى والى الاحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة وحسن القول وغير ذلك من أعمال البر (لعلكم تفلحون) أي لكي تسعدوا وتفوزوا بالجنة

(فصل في حكم سجود التلاوة هنا) لم يختلف العلماء في السجدة الاولى من هذه السورة واختلفوا في السجدة الثانية فروي عن عمر وعلي وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأبي الدرداء وأبي موسى انهم قالوا في الحج سجدتان وبه قال ابن المبارك والشافعي وأحمد واسحاق يدل عليه ما روي عن عقبة بن عامر قال قلت يا رسول الله في الحج سجدتان قال نعم ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما أخرجه الترمذي وأبو داود

وعن عمر بن الخطاب انه قرأ سورة الحج فسجد فيها سجدتين وقال ان هذه السورة فضلت بسجدتين أخرجه مالك في الموطا وذهب قوم الى ان في الحج سجدة واحدة وهي الاولى وليست هذه بسجدة وهو قول الحسن وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وسفيان الثوري وأبي حنيفة ومالك بدليل انه قرن السجود بالركوع فدل ذلك انها سجدة صلاة لا سجدة تلاوة واختلف العلماء في عدة سجود التلاوة فذهب الشافعي وأحمد وأكثر أهل العلم الى انها أربعة عشر سجدة لكن الشافعي قال في الحج سجدتان واسقط سجدة ص وقال أبو حنيفة في الحج سجدة واثبت سجدة ص وبه قال أحمد في احدى الروايتين عنه فعنده ان السجدات خمس عشرة سجدة وذهب قوم الى ان المفصل ليس فيه سجود يروى ذلك عن أبي ابن كعب وابن عباس وبه قال مالك فعلى هذا يكون سجود القرآن احدى عشرة سجدة يدل عليه ما روى عن أبي الدرداء ان النبي صلى الله عليه وسلم قال في القرآن احدى عشرة سجدة أخرجه أبو داود وقال اسناده واه ودليل من قال في القرآن خمس عشر سجدة ما روى عن عمرو بن العاص قال اقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن خمس عشرة سجدة منها ثلاث في المفصل وفي سورة الحج سجدتان أخرجه أبو داود وصح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في اقرأ واذا السماء انشقت أخرجه مسلم وسجود التلاوة سنة للقارئ والمستمع وبه قال الشافعي وقال أبو حنيفة هو واجب قوله عز وجل (وجاهدوا في الله حق جهاده) أي جاهدوا في سبيل الله أعداء الله ومعنى حق جهاده هو استفراغ الطاقة فيه قاله ابن عباس وعنه أنه قال لا تخافوا في الله لومة لائم فهو حق الجهاد كما تجاهدون في سبيل الله ولا تخافون لومة لائم وقيل معناه اعملوا لله حق عمله واعبدوه حق عبادته قيل نسخها قوله تعالى فاتقوا الله ما استطعتم وقال أكثر المفسرين حق الجهاد أن يكون بنية صادقة خالصة لله ولتكون كلمة الله هي العليا بدليل قوله صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي موسى الاشعري وقيل مجاهدة النفس والهوى هو حق الجهاد وهو الجهاد الاكبر روى ان النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك قال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر ذكره البغوي بغير سند قيل أراد بالاصغر جهاد الكفار وبالاكبر جهاد النفس (هو اجتباكم) أي اختاركم لدينه والاشتغال بخدمته وعبادته وطاعته فأي رتبة أعلى من هذا وأي سعادة فوق هذا (وما جعل عليكم في الدين من حرج) أي ضيق وشدة وهو ان المؤمن لا يبتلى بشئ من الذنوب الا جعل الله له منه مخرجا بعضها بالتوبة وبعضها برد المظالم والقصاص وبعضها بأنواع الكفارات من الامراض والمصائب وغير ذلك فليس في دين الاسلام ما لا يجد العبد فيه سبيلا الى الخلاص من الذنوب ومن العقاب وقيل معناه رفع الضيق في أوقات فروضكم مثل هلال شهر رمضان والفطر ووقت الحج اذا التبس عليكم وسع ذلك عليكم حتى تتيقنوا وقيل معناه الرخص عند الضرورات كقصر الصلاة والفطر في السفر والتيمم عند عدم الماء وأكل الميتة عند الضرورة والصلاة قاعدا والفطر مع العجز بعذر المرض ونحو ذلك من الرخص التي رخص الله لعباده قيل أعطى الله هذه الامة خصلتين لم يعطهما أحدا غيرهم جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليهم في الدين من حرج وقال ابن عباس الحرج ما كان على بني اسرائيل من الآصار التي كانت عليهم وضعها الله عن هذه الامة (ملة أبيكم ابراهيم) لانها داخلة في ملة محمد صلى الله عليه وسلم فان قلت لم يكن ابراهيم أبا للامة كلها فكيف سماه أبا في قوله ملة أبيكم ابراهيم قلت ان كان الخطاب للعرب فهو أبو العرب قاطبة وان كان الخطاب للمسلمين فهو أبو المسلمين والمعنى ان وجوب احترامه وحفظ حقه يجب كما يجب احترام الاب فهو كقوله وأزواجه أمهاتهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أنا لكم كالوالد وفي قوله (هو سماكم المسلمين من قبل) قولان احدهما أن الكناية ترجع الى الله تعالى يعني ان الله سماكم المسلمين في الكتب القديمة من قبل نزول القرآن القول الثاني ان الكناية راجعة الى ابراهيم يعني ان

(وجاهدوا) أمر بالغزو أو بمجاهدة النفس والهوى وهو الجهاد الاكبر أو هو كلمة حق عند أمير جائر (في الله) أي في ذات الله ومن أجله (حق جهاده) وهو أن لا يخاف في الله لومة لائم يقال هو حق عالم وجد عالم أي عالم حقا وجدا ومنه حق جهاده وكان القياس حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه لكن الاضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص ولما كان الجهاد مختصا بالله من حيث انه معمول لوجهه ومن أجله صحت اضافته اليه ويجوز ان يتسع في الظرف كقوله * ويوم شهدناه سليما وعامرا * (هو اجتباكم) اختاركم لدينه ونصرته (وما جعل عليكم في الدين من حرج) ضيق بل رخص لكم في جميع ما كلفكم من الطهارة والصلاة والصوم والحج بالتيمم وبالايماء وبالقصر والافطار لعذر السفر والمرض وعدم الزاد والراحلة (ملة أبيكم ابراهيم) أي اتبعوا ملة أبيكم أو نصب على الاختصاص أي أعني بالدين ملة أبيكم وسماه أبا وان لم يكن أبا للامة كلها لانه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أبا لامته لان أمة الرسول في حكم أولاده قال عليه السلام انما أنا لكم مثل الوالد (هو سماكم المسلمين) أي الله بدليل قراءة أبي الله سماكم (من قبل) في الكتب المتقدمة

ابراهيم سماكم المسلمين فى ايامه من قبل هذا الوقت وهو قوله ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك فاستجاب الله دعاءه فينا (وفى هذا) أى وفى القرآن سماكم المسلمين (ليكون الرسول شهيدا عليكم) يعنى يوم القيامة أن قد بلغكم (وتكونوا شهداء على الناس) يعنى تشهدون يوم القيامة على الامم ان رسلهم قد بلغتهم (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله) أى ثقوا به وتوكلوا عليه وقيل تمسكوا بدين الله وقال ابن عباس سلوا ربكم ان يعصمكم من كل مايكره وقيل معناه ادعوا ربكم ان يثبتكم على دينه وقيل الاعتصام هو التمسك بالكتاب والسنة (هو مولاكم) أى وليكم وناصركم وحافظكم (فنعم المولى ونعم النصير) أى الناصر لكم والله تعالى أعلم

(تفسير سورة المؤمنين وهى مكية)

وهى مائة وثمان عشرة آية وألف وثمانمائة وأربعون كلمة وأربعة آلاف وثمانمائة حرف وحرفان

(بسم الله الرحمن الرحيم)

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه الوحى يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل فأنزل الله عليه يوما فمكث ساعة ثم سرى عنه فقرأ قد أفلح المؤمنون الى عشر آيات من أولها وقال من أقام هذه العشر آيات دخل الجنة ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا واعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا اللهم ارضنا وارض عنا أخرجه الترمذى قوله عز وجل (قد أفلح المؤمنون) قال ابن عباس قد سعد المصدقون بالتوحيد وبقوا فى الجنة وقيل الفلاح البقاء والنجاة (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) قال ابن عباس مخبتون اذلاء خاضعون وقيل خائفون وقيل متواضعون وقيل الخشوع من أفعال القلب كالخوف والرهبة وقيل هو من افعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات وغض البصر وقيل لابد من الجمع بين افعال القلب والجوارح وهو الاولى فالخاشع فى صلاته لابد وان يحصل له الخشوع فى جميع الجوارح فأما ما يتعلق بالقلب من الافعال فنهاية الخضوع والتذلل للمعبود ولا يلتفت الخاطر الى شئ سوى ذلك التعظيم وأما ما يتعلق بالجوارح فهو ان يكون ساكنا مطرقا ناظرا الى موضع سجوده وقيل الخشوع هو ان لا يعرف من على يمينه ولا من على شماله (ق) عن عائشة قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات فى الصلاة فقال هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد الاختلاس هو الاختطاف عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لا يزال الله مقبلا على العبد وهو فى صلاته ما لم يلتفت فاذا التفت انصرف عنه وفى رواية أعرض عنه أخرجه أبو داود والنسائى وقيل الخشوع هو ان لا يرفع بصره الى السماء (خ) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بال أقوام يرفعون أبصارهم الى السماء فى صلاتهم فاشتد قوله فى ذلك حتى قال لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم وقال أبو هريرة كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم الى السماء فى الصلاة فلما نزل الذين هم فى صلاتهم خاشعون رموا بأبصارهم الى مواضع السجود وقيل الخشوع هو ان لا يعبث بشئ من جسده فى الصلاة لما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم أبصر رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه ذكره البغوى بغير سند عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال اذا قام أحدكم الى الصلاة فلا يمسح الحصى فان الرحمة تواجهه أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وقيل الخشوع فى الصلاة هو جمع الهمة والاعراض عما سوى الله والتدبر فيما يجرى على لسانه من القراءة والذكر قوله تعالى (والذين هم عن اللغو معرضون) قال ابن عباس عن الشرك وعن المعاصى وقيل

(وفى هذا) أى فى القرآن اى فضلكم على (وتكونوا شهداء على الناس) بتبليغ الرسل رسالات الله اليهم وانما خصكم بهذه الكرامة والاثرة (فأقيموا الصلاة) بواجباتها (وآتوا الزكاة) بشرائطها (واعتصموا بالله) وثقوا بالله وتوكلوا عليه لا بالصلاة والزكاة (هو مولاكم) اى مالككم وناصركم ومتولى أموركم (فنعم المولى) حيث لم يمنعكم رزقكم بعصيانكم (ونعم النصير) أى الناصر هو حيث أعانكم على طاعتكم وقد أفلح من هو مولاه وناصره والله الموفق للصواب

(سورة المؤمنين مكية وهى مائة وثمان عشرة آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قد أفلح المؤمنون) قد نقيضة لما هى تثبت المتوقع ولما تنفيه وكان المؤمنون يتوقعون مثل هذه البشارة وهى الاخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه والفلاح الظفر بالمطلوب والنجاة من المرهوب أى فازوا بما طلبوا ونجوا مما هربوا والايمان فى اللغة التصديق والمؤمن المصدق لغة وفى الشرع كل من نطق بالشهادتين مواطئا قلبه لسانه فهو مؤمن قال عليه السلام خلق الله الجنة فقال لها تكلمى فقالت قد أفلح المؤمنون ثلاثا انا حرام على كل بخيل مراء لانه بالرياء أبطل العبادات البدنية وليس له عبادة مالية (الذين هم فى صلاتهم خاشعون) خائفون بالقلب ساكنون بالجوارح وقيل الخشوع فى الصلاة جمع الهمة لها والاعراض عما سواها وان لا يجاوز بصره مصلاه وان لا يلتفت ولا يعبث ولا يسدل ولا يفرقع أصابعه ولا يقلب الحصى ونحو ذلك وعن أبى الدرداء هو اخلاص المقال واعظام المقام واليقين التام وجمع الاهتمام وأضيفت الصلاة الى المصلين لا الى المصلى له لانتفاع المصلى بها وحده وهى عدته وذخيرته وأما المصلى له فغنى عنها (والذين هم عن اللغو معرضون) اللغو كل كلام ساقط حقه ان يلغى كالكذب والشتم والهزل يعنى ان لهم من الجد ما شغلهم عن الهزل ولما وصفهم بالخشوع فى الصلاة اتبعه الوصف بالاعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الانفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف.

هو

(والذين هم للزكاة فاعلون) مؤدون ولفظ فاعلون يدل على المداومة بخلاف مؤدون وقيل الزكاة اسم مشترك يطلق على العين وهو القدر الذي يخرجه المزكي من النصاب الى الفقير وعلى المعنى وهو فعل المزكي الذي هو التزكية وهو المراد هنا فجعل المزكين فاعلين له لان لفظ الفعل يعم جميع الافعال كالضرب والقتل ونحوهما تقول للضارب والقاتل والمزكي فعل الضرب والقتل والتزكية ويجوز ان يراد بالزكاة العين ويقدر مضاف محذوف وهو الاداء ودخل اللام لتقدم المفعول وضعف اسم الفاعل في العمل فانك تقول هذا ضارب لزيد ولا تقول ضرب لزيد (والذين هم لفروجهم حافظون) الفرج يشمل سوءة الرجل والمرأة (الاعلى أزواجهم) في موضع الحال أي الاوالين على أزواجهم أو قوامين عليهن من قولك كان زياد على البصرة أي واليا عليها والمعنى انهم لفروجهم حافظون في جميع الاحوال الا في حال تزوجهم أو تسريهم أو تعلق على محذوف يدل عليه غير ملومين كأنه قيل يلامون الا على أزواجهم أي يلامون على كل مباشرة الا على ما أطلق لهم فانهم غير ملومين عليه وقال الفراء الا من أزواجهم أي زوجاتهم (أو ما ملكت أيمانهم) أي امائهم ولم يقل من لان المملوك جرى مجرى غير العقلاء ولهذا يباع كما تباع البهائم (فانهم غير ملومين) أي لا لوم عليهم ان لم يحفظوا فروجهم عن نسائهم وامائهم (فمن ابتغى وراء ذلك) طلب قضاء شهوة من غير هذين (فاولئك هم العادون) الكاملون في العدوان وفيه دليل تحريم المتعة والاستمتاع بالكف لارادة الشهوة (والذين هم لاماناتهم وعهدهم) لامانتهم مكي وسهل سمي الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه امانة وعهدا ومنه قوله تعالى ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها وانما تؤدى العيون لا المعاني والمراد به العموم في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله عز وجل ومن جهة الخلق (راعون) حافظون والراعي القائم على الشيء بحفظ واصلاح كراعي الغنم (والذين هم على صلواتهم) صلاتهم كوفي غير أبي بكر (يحافظون) يداومون في أوقاتها واعادة ذكر الصلاة لانها أهم ولان الخشوع فيها غير المحافظة عليها أو لانها وحدت أولا ليفاد الخشوع في جنس الصلاة أية صلاة كانت وجمعت آخرا ليفاد المحافظة على أنواعها من الفرائض والواجبات والسنن والنوافل (أولئك) الجامعون لهذه الاوصاف (هم الوارثون) الاحقاء بأن يسموا وراثا دون من عداهم ثم ترجم الوارثين بقوله (الذين يرثون) من الكفار في الحديث ما منكم من أحد الا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فان مات ودخل الجنة ورث أهل النار منزله وان مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله (الفردوس) هو البستان الواسع الجامع لاصناف الثمر وقال قطرب هو أعلى الجنان (هم فيها خالدون) أنث الفردوس بتأويل الجنة (ولقد خلقنا الانسان) أي آدم (من سلالة) من للابتداء والسلالة الخلاصة لانها تسل من بين الكدر وقيل انما سمي التراب الذي خلق آدم منه سلالة لانه سل من كل تربة (من طين) من للبيان كقوله من الاوثان (ثم جعلناه) أي نسله فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه لان آدم عليه السلام لم يصر نطفة وهو كقوله وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين وقيل الانسان بنو آدم والسلالة النطفة والعرب تسمي النطفة سلالة أي ولقد خلقنا الانسان من سلالة يعني من نطفة مسلولة من طين أي من مخلوق من طين وهو آدم عليه السلام (نطفة) ماء قليلا (في قرار) مستقر يعني الرحم (مكين) حصين

هو كل باطل ولهو وما لا يحمد من القول والفعل وقيل هو معارضة الكفار بالشتم والسب (والذين هم للزكاة فاعلون) أي للزكاة الواجبة مؤدون فعبر عن التأدية بالفعل لانها فعل وقيل الزكاة ههنا هي العمل الصالح والاول أولى (والذين هم لفروجهم حافظون) الفرج اسم لسوءة الرجل والمرأة وحفظه التعفف عن الحرام (الاعلى أزواجهم) على بمعنى من (أو ما ملكت أيمانهم) يعني الاماء والجواري والآية في الرجال خاصة لان المرأة لا يجوز لها ان تستمتع بفرج مملوكها (فانهم غير ملومين) يعني بعدم حفظ فرجه من امرأته وأمته فانه لا يلام على ذلك وانما لا يلام فيما اذا كان على وجه اذن فيه الشرع دون الاتيان في غير المأتى وفي حال الحيض والنفاس فانه محظور فلا يجوز ومن فعله فانه ملوم (فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون) أي الظالمون المجاوزون الحد من الحلال الى الحرام وفيه دليل على ان الاستمناء باليد حرام وهو قول أكثر العلماء سئل عطاء عنه فقال مكروه سمعت ان قوما يحشرون وأيديهم حبالى فاظن انهم هؤلاء وقال سعيد بن جبير عذب الله أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم قوله عز وجل (والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون) أي حافظون يحفظون ما ائتمنوا عليه والعقود التي عاقدوا الناس عليها يقومون بالوفاء بها والامانات تختلف فمنها ما يكون بين العبد وبين الله تعالى كالصلاة والصوم وغسل الجنابة وسائر العبادات التي أوجبها الله تعالى على العباد فيجب الوفاء بجميعها ومنها ما يكون بين العباد كالودائع والصنائع والاسرار وغير ذلك فيجب الوفاء به أيضا (والذين هم على صلواتهم يحافظون) أي يداومون ويراعون أوقاتها واتمام أركانها وركوعها وسجودها وسائر شروطها فان قلت كيف كرر ذكر الصلاة أولا وآخرا قلت هما ذكران مختلفان فليس تكرارا وصفهم أولا بالخشوع في الصلاة وآخرا بالمحافظة عليها قوله عز وجل (أولئك) يعني أهل هذه الصفة (هم الوارثون) يعني يرثون منازل أهل النار من الجنة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد الا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فمن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله وذلك قوله تعالى أولئك هم الوارثون ذكره البغوي بغير سند وقيل معنى الوراثة هو ان يؤل أمرهم الى الجنة وينالوها كما يؤل أمر الميراث الى الوارث (الذين يرثون الفردوس) هو اعلى الجنة عن عبادة بن الصامت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان في الجنة مائة درجة ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والارض والفردوس أعلاها درجة ومنها تفجر انهار الجنة الاربعة ومن فوقها يكون العرش فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس أخرجه الترمذي (هم فيها خالدون) أي لا يخرجون منها ولا يموتون قوله عز وجل (ولقد خلقنا الانسان) يعني ولد آدم لان الانسان اسم جنس (من سلالة من طين) قال ابن عباس السلالة صفوة الماء وقيل هي المني لان النطفة تسل من الظهر من طين يعني طين آدم لان السلالة تولدت من طين خلق منه آدم وقيل المراد من الانسان هو آدم وقوله من سلالة أي سل من كل تربة (ثم جعلناه نطفة) يعني الذي هو الانسان جعلناه نطفة (في قرار مكين) أي حريز وهو الرحم وسمي مكينا لاستقرار

(ثم خلقنا النطفة) أى صيرناها بدلالة تعديه الى مفعولين والخلق يتعدى الى مفعول واحد (علقة) قطعة دم والمعنى أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء (فخلقنا العلقة مضغة) لحما قدر ما يمضغ (فخلقنا المضغة عظاما) فصيرناها عظاما (فكسونا العظام لحما) فأنبتنا عليها اللحم فصار لها كاللباس عظما العظم شامى وأبو بكر عظما العظام زيد عن يعقوب عظاما العظم عن أبى زيد وضع الواحد موضع الجمع لعدم اللبس اذ الانسان ذو عظام كثيرة (ثم أنشأناه) الضمير يعود الى الانسان أو الى المذكور (خلقا آخر) أى خلقا مباينا للخلق الاول حيث جعله حيوانا وكان جمادا وناطقا وسميعا وبصيرا وكان بضد هذه الصفات ولهذا قلنا اذا غصب بيضة فأفرخت عنده يضمن البيضة ولا يرد الفرخ لانه خلق آخر سوى البيضة (فتبارك الله) فتعالى أمره فى قدرته وعلمه (أحسن) بدل أو خبر مبتدا محذوف وليس بصفة لانه نكرة وان أضيف لان المضاف اليه عوض من من (الخالقين) المقدرين أى أحسن المقدرين تقديرا فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه وقيل ان عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان يكتب للنبى عليه السلام فنطق بذلك قبل املائه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب هكذا نزلت فقال عبد الله ان كان محمد نبيا يوحى اليه فأنا نبى يوحى الى فارتد ولحق بمكة ثم أسلم يوم الفتح وقيل هذه الحكاية غير صحيحة لان ارتداده كان بالمدينة وهذه السورة مكية وقيل القائل عمر او معاذ رضى الله عنهما (ثم انكم بعد ذلك) بعد ما ذكرنا من أمركم (لميتون) عند انقضاء آجالكم (ثم انكم يوم القيامة تبعثون) تحيون للجزاء (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) جمع طريقة وهى السموات لانها طرق الملائكة ومتقلباتهم (وما كنا عن الخلق غافلين) أراد بالخلق السموات كأنه قال خلقناها فوقكم وما كنا غافلين عن حفظها أو أراد به الناس وانه انما خلقها فوقهم ليفتح عليهم الارزاق والبركات منها وما كان غافلا عنهم وعما يصلحهم (وأنزلنا من السماء ماء) مطرا (بقدر) بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون الى المنفعة أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم (فأسكناه فى الارض) كقوله فسلكه ينابيع فى الارض وقيل جعلناه ثابتا فى الارض فماء الارض كله من السماء ثم استأدى شكرهم بقوله (وانا على ذهاب به لقادرون) أى كما قدرنا على انزاله نقدر على اذهابه فقيدوا هذه النعمة بالشكر (فأنشأنا لكم به) بالماء (جنات من نخيل وأعناب والفواكه

النطفة فيه الى وقت الولادة (ثم خلقنا النطفة علقة) أى صيرنا النطفة قطعة دم جامد (فخلقنا العلقة مضغة) أى جعلنا الدم الجامد قطعة لحم صغيرة (فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما) وذلك لان اللحم يستر العظم فجعله كالكسوة له قيل ان بين كل خلق وخلق أربعين يوما (ثم أنشأناه خلقا آخر) أى مباينا للخلق الاول قال ابن عباس هو نفخ الروح فيه وقيل جعله حيوانا بعد ما كان جمادا وناطقا بعد ما كان أبكم وسميعا وكان أصم وبصيرا وكان أكمه واودع باطنه وظاهره عجائب صنعه وغرائب فطرته وعن ابن عباس قال ان ذلك تصريف أحواله بعد الولادة من الاستهلال الى الرضاع الى القعود والقيام الى المشى الى الفطام الى ان يأكل ويشرب الى ان يبلغ الحلم ويتقلب فى البلاد الى ما بعدها (فتبارك الله) أى استحق التعظيم والثناء بأنه لم يزل ولا يزال (أحسن الخالقين) أى المصورين والمقدرين فان قلت كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى الله خالق كل شئ وقوله هل من خالق غير الله قلت الخلق له معان منها الايجاد والابداع ولا موجد ولا مبدع الا الله تعالى ومنها التقدير كما قال الشاعر

ولانت تفرى ما خلقت وان *** بعض القوم يخلق ثم لا يفرى

معناه أنت تقدر الامور وتقطعها وغيرك لا يفعل ذلك فعلى هذا يكون معنى الآية الله أحسن المقدرين وجواب آخر وهو ان عيسى عليه الصلاة والسلام خلق طيرا وسمى نفسه خالقا بقوله انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فقال فتبارك الله أحسن الخالقين (ثم انكم بعد ذلك) أى بعد ما ذكر من تمام الخلق (لميتون) أى عند انقضاء آجالكم (ثم انكم يوم القيامة تبعثون) أى للحساب والجزاء قوله عز وجل (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) أى سبع سموات طرائق لان بعضها فوق بعض وقيل لانها طرائق الملائكة فى الصعود والهبوط (وما كنا عن الخلق غافلين) أى بل كنا لهم حافظين من ان تسقط السماء عليهم فتهلكهم وقيل معناه بنينا فوقهم سماء أطلعنا فيها الشمس والقمر والكواكب وقيل ما تركناهم سدى بغير أمر ونهى وقيل معناه وما كنا عن الخلق غافلين أى عن أعمالهم وأقوالهم وضمائرهم لا تخفى علينا خافية (وأنزلنا من السماء ماء بقدر) أى بعلمه الله من حاجتهم اليه وقيل بقدر ما يكفيهم لمعايشهم فى الزرع والغرس والشرب وأنواع المنفعة (فأسكناه فى الارض) يعنى ما يبقى فى الغدران والمستنقعات مما ينتفع به الناس فى الصيف عند انقطاع المطر وقيل أسكناه فى الارض ثم أخرجناه منها ينابيع كالعيون والآبار فكل ماء فى الارض من السماء (وانا على ذهاب به لقادرون) وصح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة أخرجه مسلم وعن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل أنزل من الجنة خمسة أنهار سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل أنزلها الله عز وجل من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحى جبريل استودعها الجبال وأجراها فى الارض وجعل فيها منافع للناس فذلك قوله وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الارض فاذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله عز وجل جبريل فرفع من الارض القرآن والعلم كله والحجر الاسود من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه وهذه الانهار الخمسة فيرفع كل ذلك الى السماء فذلك قوله تعالى وانا على ذهاب به لقادرون فاذا رفعت هذه الاشياء كلها من الارض فقد أهلها خير الدين والدنيا وروى هذا الحديث البغوى فى تفسيره وقال روى هذا الحديث الامام حسن بن سفيان ابن عثمان بن سعيد بالاجازة عن سعيد بن سابق السكندرى عن مسلمة بن على عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس ثم ذكر ما أنبت بالماء فقال تعالى (فأنشأنا لكم به) أى بالماء (جنات) أى بساتين (من نخيل وأعناب) انما أفردهما بالذكر لكثرة منافعهما فانهما يقومان مقام الطعام والادام

لكم فيها) في الجنات (فواكه كثيرة) سوى النخيل والاعناب (ومنها تأكلون) أي من الجنات أي من ثمارها ويجوز ان هذا من قولهم فلان يأكل من حرفة يحترفها ومن صنعة يغتلها أي انها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه كأنه قال وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم منها ترزقون وتتعيشون (وشجرة) عطف على جنات وهي شجرة الزيتون (تخرج من طور سيناء) طور سيناء وطور سينين لا يخلو اما ان يضاف الطور الى بقعة اسمها سيناء وسينون واما ان يكون اسما للجبل مركبا من مضاف ومضاف اليه كامرئ القيس وهو جبل فلسطين وسيناء غير منصرف بكل حال مكسور السين كقراءة الحجازي وأبي عمرو للتعريف والعجمة أو مفتوحها كقراءة غيرهم لان الالف للتأنيث كصحراء (تنبت بالدهن) قال الزجاج الباء للحال أي تنبت ومعها الدهن تنبت مكي وأبو عمرو واما لان أنبت بمعنى نبت كقوله حتى اذا أنبت البقل * أولان مفعوله محذوف أي تنبت زيتونها وفيه الدهن (وصبغ للآكلين) أي ادام لهم قال مقاتل جعل الله تعالى في هذه اداما ودهنا فالادام الزيتون والدهن الزيت وقيل هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان وخص هذه الانواع الثلاثة لانها أكرم الشجر وأفضلها وأجمعها للمنافع (وان لكم في الانعام) جمع نعم وهي الابل والبقر

والغنم (لعبرة نسقيكم) وبفتح النون شامي ونافع وأبو بكر وسقى وأسقى لغتان (مما في بطونها) أي نخرج لكم من بطونها لبنا سائغا (ولكم فيها منافع كثيرة) سوى الالبان وهي منافع الاصواف والاوبار والاشعار (ومنها تأكلون) أي لحومها (وعليها) وعلى الانعام في البر (وعلى الفلك) في البحر (تحملون) في أسفاركم وهذا يشير الى ان المراد بالانعام الابل لانها هي المحمول عليها في العادة فلذا قرنها بالفلك التي هي السفائن لانها سفائن البر قال ذو الرمة

* سفينة بر تحت خدي زمامها *

يريد ناقته (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله) وحده (ما لكم من اله) معبود (غيره) بالرفع على المحل وبالجر على اللفظ والجملة استئناف تجري مجرى التعليل للامر بالعبادة (أفلا تتقون) أفلا تخافون عقوبة الله الذي هو ربكم وخالقكم اذا عبدتم غيره مما ليس من استحقاق العبادة في شئ (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) أي أشرافهم لعوامهم (ما هذا الا بشر مثلكم) يأكل ويشرب (يريد أن يتفضل عليكم) أي يطلب الفضل عليكم ويترأس (ولو شاء الله) ارسال رسول (لانزل ملائكة) لارسل ملائكة (ما سمعنا بهذا) أي بارسال بشر رسولا أو بما يأمرنا به من التوحيد وسب آلهتنا

والعجب منهم انهم رضوا بالالوهية للحجر ولم يرضوا بالنبوة للبشر (في آبائنا الاولين ان هو الا رجل به جنة) جنون (فتربصوا به حتى حين) فانتظروا واصبروا عليه الى زمان حتى ينجلي أمره فان أفاق من جنونه والا قتلتموه (قال رب انصرني بما كذبون) فلما أيس من ايمانهم دعا الله بالانتقام منهم والمعنى أهلكهم بسبب تكذيبهم اياي اذ في نصرته اهلاكهم أو انصرني بدل ما كذبون كقولك هذا بذاك أي بدل ذاك والمعنى ابدلني من غم تكذيبهم سلوة النصرة عليهم (فأوحينا اليه) أي أجبنا دعاءه فأوحينا اليه (ان اصنع الفلك بأعيننا) أي تصنعه وأنت واثق بحفظ الله لك ورؤيته اياك أو بحفظنا وكلاءتنا كأن معك من الله حفاظا يكلؤونك بعيونهم لئلا يتعرض لك ولا يفسد عليك مفسد عملك ومنه قولهم عليه من الله عين كالئة (ووحينا) أمرنا وتعليمنا لك صنعتها روي انه أوحي اليه ان يصنعها على مثال جؤجؤ الطائر (فاذا جاء أمرنا) أي عذابنا بأمرنا (وفار التنور) أي فار الماء من تنور الخبز أي أخرج سبب الغرق من موضع الحرق ليكون أبلغ في الانذار والاعتبار روي انه قيل لنوح اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك في السفينة فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب وكان تنور آدم فصار الى نوح وكان من حجارة واختلف في مكانه فقيل في مسجد الكوفة وقيل بالشام وقيل بالهند

والفواكه رطبا ويابسا (لكم فيها) أي في الجنات (فواكه كثيرة ومنها تأكلون) أي شتاء وصيفا (وشجرة) أي وأنشأنا لكم شجرة وهي الزيتون (تخرج من طور سيناء) أي من جبل مبارك وقيل من جبل حسن قيل هو بالنبطية وقيل بالحبشية وقيل بالسريانية ومعناه الجبل الملتف بالاشجار وقيل كل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سيناء وسينين وقيل هو من السناء وهو الارتفاع وهو الجبل الذي منه نودي موسى بين مصر وايلة وقيل هو جبل فلسطين وقيل سيناء اسم حجارة بعينها أضيف الجبل اليها لوجودها عنده وقيل هو اسم المكان الذي فيه هذا الجبل (تنبت بالدهن) أي تنبت وفيها الدهن وقيل تنبت بثمر الدهن وهو الزيت (وصبغ للآكلين) الصبغ الادام الذي يكون مع الخبز ويصبغ به جعل الله تعالى في هذه الشجرة المباركة أدما وهو الزيتون ودهنا وهو الزيت وخص جبل الطور بالزيتون لانه منه نشأ قيل ان أول شجرة نبتت بعد الطوفان الزيتون وقيل انها تبقى في الارض نحو ثلاثة آلاف سنة قوله عز وجل (وان لكم في الانعام لعبرة) أي آية تعتبرون بها (نسقيكم مما في بطونها) أي البانها ووجه الاعتبار فيه ان اللبن يخلص الى الضرع من بين فرث ودم باذن الله تعالى ليس فيه منهما شيء فيستحيل الى الطهارة والى طعم يوافق الشهوة والطبع ويصير غذاء وتقدم بسط الكلام بما فيه كفاية في سورة النحل (ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون) يعني كما تنتفعون بها وهي حية فكذلك تنتفعون بها بعد الذبح للاكل (وعليها) أي وعلى الابل (وعلى الفلك تحملون) أي على الابل في البر وعلى السفن في البحر قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) أي ما لكم معبود سواه (أفلا تتقون) أي أفلا تخافون عقابه اذا عبدتم غيره (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم) أي آدمي مثلكم مشارك لكم في جميع الامور (يريد أن يتفضل عليكم) أي انه يحب الشرف والرياسة فيصير متبوعا وأنتم له تبع (ولو شاء الله لانزل ملائكة) يعني بابلاغ الوحي (ما سمعنا بهذا) أي الذي يدعونا اليه نوح (في آبائنا الاولين ان هو الا رجل به جنة) أي جنون (فتربصوا به حتى حين) أي الى الموت فتستريحوا منه (قال رب انصرني بما كذبون) أي أعني باهلاكهم بتكذيبهم اياي (فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا) أي بمرأى منا قاله ابن عباس وقيل بعلمنا وحفظنا لئلا يتعرض له أحد ولا يفسد عليه عمله (ووحينا) قيل ان جبريل علمه عمل السفينة ووصف له كيفية اتخاذها (فاذا جاء أمرنا) أي عذابنا (وفار التنور) قيل هو التنور

(فاسلك فيها) فادخل في السفينة (من كل زوجين) من كل أمتي زوجين وهما أمة الذكر وأمة الانثى كالجمال والنوق والحصن والرماك (اثنين) واحدين مزدوجين كالجمل والناقة والحصان والرمكة روى انه لم يحمل الا ما يلد ويبيض من كل حفص والمفضل أي من كل أمتي زوجين اثنين واثنين تأكيد وزيادة بيان (وأهلك) ونساءك وأولادك (الا من سبق عليه القول) من الله باهلاكه وهو ابنه واحدى زوجتيه فجيء بعلى مع سبق الضار كما جيء باللام مع سبق النافع في قوله ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ونحوها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت (منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون) ولا تسألني نجاة الذين كفروا فاني أغرقهم (فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك) فاذا تمكنتم عليها راكبين (فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين) أمر بالحمد على هلاكهم والنجاة منهم ولم يقل فقولوا وان كان فاذا استويت أنت ومن معك في معنى اذا استويتم لانه نبيهم وامامهم فكان قوله قولهم مع ما فيه من الاشعار بفضل النبوة (وقل) حين ركبت على السفينة أو حين خرجت منها (رب أنزلني منزلا) أي انزالا أو موضع انزال منزلا أبو بكر أي مكانا (مباركا وأنت خير المنزلين) والبركة في السفينة النجاة فيها وبعد الخروج منها كثرة النسل وتتابع الخيرات (ان في ذلك) فيما فعل بنوح وقومه (لآيات) لعبرا ومواعظ (وان) هي المخففة من المثقلة واللام هي الفارقة بين النافية وبينها والمعنى وان الشأن والقصة (كنا لمبتلين) مصيبين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر ويذكر كقوله تعالى ولقد تركناها آية فهل من مدكر (ثم أنشأنا) خلقنا (من بعدهم) من بعد قوم نوح (قرنا آخرين) هم عاد قوم هود ويشهد له قول هود واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ومجيء قصة هود على أثر قصة نوح في الاعراف وهود والشعراء (فأرسلنا فيهم) الارسال يعدى بالى ولم يعد بفي هنا وفي قوله كذلك أرسلناك في أمة وما أرسلنا في قرية ولكن الامة والقرية جعلت موضعا للارسال كقول رؤبة

* أرسلت فيها مصعبا ذا اقحام *

(رسولا) هو هود (منهم) من قومهم (ان اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون) ان مفسرة لأرسلنا أي قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله (وقال الملأ من قومه) ذكر مقالة قوم هود في جوابه في الاعراف وهود بغير واو لانه على تقدير سؤال سائل قال فما قال قومه فقيل له قالوا كيت وكيت وههنا مع الواو لانه عطف لما قالوه على ما قاله الرسول ومعناه انه اجتمع في الحصول هذا الحق وهذا الباطل وليس بجواب للنبي صلى الله عليه وسلم متصل بكلامه ولم يكن بالفاء وجيء بالفاء في قصة نوح لانه جواب لقوله واقع عقيبه (الذين كفروا) صفة للملأ أو لقومه (وكذبوا بلقاء الآخرة) أي بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب وغير ذلك (وأترفناهم) ونعمناهم (في الحياة الدنيا) بكثرة الاموال والاولاد (ما هذا) أي النبي (الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) أي منه فحذف لدلالة ما قبله عليه أي من أين يدعي رسالة الله من بينكم وهو مثلكم (ولئن أطعتم بشرا مثلكم) أي فيما يأمركم به وينهاكم عنه (انكم اذا) واقع في جزاء الشرط وجواب للذين قاولوهم من قومهم (لخاسرون) بالانقياد لمثلكم ومن حمقهم انهم أبوا اتباع مثلهم وعبدوا أعجز منهم (أيعدكم أنكم اذا متم) بالكسر نافع وحمزة وعلي وحفص وغيرهم بالضم (وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) مبعوثون للسؤال والحساب والثواب والعقاب وثني أنكم للتأكيد وحسن ذلك للفصل بين الاول والثاني بالظرف ومخرجون خبر عن الاول والتقدير أيعدكم أنكم مخرجون اذا متم وكنتم ترابا وعظاما (هيهات هيهات) وبكسر التاء يزيد وروي عنه بالكسر والتنوين فيهما والكسائي يقف بالهاء وغيره بالتاء وهو اسم للفعل واقع موقع بعد وفاعلها مضمر أي بعد التصديق أو الوقوع (لما توعدون) من العذاب أو فاعلها ما توعدون واللام زائدة أي بعد ما توعدون من البعث

الذي يخبز فيه وكان من حجارة وقيل التنور هو وجه الارض والمعنى انك اذا رأيت الماء يفور من التنور (فاسلك فيها) أي فادخل في السفينة (من كل زوجين اثنين) أي من كل حيوان ذكرا وأنثى (وأهلك) أي وسائر من آمن بك (الا من سبق عليه القول) أي وجب عليه العذاب (منهم) يعني الكفار وقيل أراد بأهله أهل بيته خاصة والذي سبق عليه القول منهم هو ابنه كنعان (ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون) قوله عز وجل (فاذا استويت) أي اعتدلت (أنت ومن معك على الفلك) أي في السفينة (فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين) أي الكافرين (وقل رب أنزلني منزلا مباركا) قيل موضع النزول وهو السفينة عند الركوب وقيل هو وجه الارض بعد الخروج من السفينة وأراد بالبركة النجاة من الغرق وكثرة النسل بعد الانجاء (وأنت خير المنزلين) معناه أنه قد يكون الانزال من غير الله كما يكون من الله فحسن أن يقول وأنت خير المنزلين لانه يحفظ من أنزله ويكلؤه في سائر أحواله ويدفع عنه المكاره بخلاف منزل الضيف فانه لا يقدر على ذلك (ان في ذلك) أي الذي ذكر من أمر نوح والسفينة واهلاك أعداء الله (لآيات) أي دلالات على قدرتنا (وان كنا) أي وما كنا (لمبتلين) أي الا مختبرين اياهم بارسال نوح ووعظه وتذكيره لننظر ما هم عاملون قبل نزول العذاب بهم قوله تعالى (ثم أنشأنا من بعدهم) أي من بعد اهلاكهم (قرنا آخرين) يعني عادا (فأرسلنا فيهم رسولا منهم) يعني هودا قاله أكثر المفسرين وقيل القرن ثمود والرسول صالح والاول أصح (أن اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون) أي هذه الطريقة التي انتم عليها مخافة العذاب (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة) أي بالمصير اليها (وأترفناهم) أي نعمناهم ووسعنا عليهم (في الحياة الدنيا ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) أي من مشربكم (ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون) أي لمغبونون (أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون) أي من قبوركم أحياء (هيهات هيهات) قال ابن عباس أي بعيد بعيد (لما توعدون) استبعد القوم بعثهم بعد الموت اغفالا منهم التفكر في بدء أمرهم وقدرة الله على

ايجادهم

(ان هي) هذا ضمير لا يعلم ما يعني به الا بما يتلوه من بيانه وأصله ان الحياة (الا حياتنا الدنيا) ثم وضع هي موضع الحياة لان الخبر يدل عليها ويبينها والمعنى لا حياة الا هذه الحياة التي نحن فيها ودنت منا وهذا لان ان النافية دخلت على هي التي في معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت لا التي تنفي الجنس (نموت ونحيى) أي يموت بعض ويولد بعض ينقرض قرن فيأتي قرن آخر أو فيه تقديم وتأخير أي نحيى ونموت وهو قراءة أبي وابن مسعود رضي الله عنهما (وما نحن بمبعوثين) بعد الموت (ان هو الا رجل افترى على الله كذبا) أي ما هو الا مفتر على الله فيما يدعيه من استنبائه له وفيما يعدنا من البعث (وما نحن له بمؤمنين) بمصدقين (قال رب انصرني بما كذبون) فأجاب الله دعاء الرسول بقوله (قال عما قليل) قليل صفة للزمان كقديم وحديث في قولك ما رأيته قديما ولا حديثا وفي معناه عن قريب وما زائدة أو بمعنى شيء أو زمن وقليل بدل منها وجواب القسم المحذوف (ليصبحن نادمين) اذا عاينوا ما يحل بهم (فأخذتهم الصيحة) أي صيحة جبريل صاح عليهم فدمرهم (بالحق) بالعدل من الله يقال فلان يقضي بالحق أي بالعدل (فجعلناهم غثاء) شبههم في دمارهم بالغثاء وهو حميل السيل مما بلي واسود من الورق والعيدان (فبعدا) فهلا كا يقال بعد بعدا وبعدا أي هلك وهو من المصادر المنصوبة بأفعال لا يستعمل اظهارها (للقوم الظالمين) بيان لمن دعي عليه بالبعد نحو هيت لك (ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) قوم صالح ولوط وشعيب وغيرهم (ما تسبق من أمة) من صلة أي ما تسبق أمة (أجلها) المكتوب لها والوقت الذي حد لهلاكها وكتب (وما يستأخرون) لا يتأخرون عنه (ثم أرسلنا رسلنا تترى) فعلى والالف للتأنيث كسكرى لان الرسل جماعة ولذا لا ينون لانه غير منصرف تترى بالتنوين مكي وأبو عمرو ويزيد على ان الالف للالحاق كارطى وهو نصب على الحال في القراءتين أي متتابعين واحدا بعد واحد وتاؤها فيها بدل من الواو والاصل وترى من الوتر وهو الفرد فقلبت الواو تاء كتراث (كلما جاء أمة رسولها كذبوه) الرسول يلابس المرسل والمرسل اليه والاضافة تكون بالملابسة فتصح اضافته اليهما (فأتبعنا) الامم والقرون (بعضهم بعضا) في الاهلاك (وجعلناهم أحاديث) أخبارا يسمع بها ويتعجب منها والاحاديث تكون اسم جمع للحديث ومنه أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام وتكون جمعا للاحدوثة وهو ما يتحدث به الناس تلهيا وتعجبا وهو المراد هنا (فبعدا لقوم لا يؤمنون ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون) بدل من أخاه (بآياتنا) التسع (وسلطان مبين) وحجة ظاهرة (الى فرعون وملائه فاستكبروا) امتنعوا عن قبول الايمان ترفعا وتكبرا (وكانوا قوما عالين) متكبرين مترفعين (فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا) البشر يكون واحدا وجمعا ومثل وغير يوصف بهما الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث (وقومهما) أي بنو اسرائيل (لنا عابدون) خاضعون مطيعون وكل من دان لملك فهو عابد له عند العرب (فكذبوهما فكانوا من المهلكين) بالغرق (ولقد آتينا موسى) أي قوم موسى (الكتاب) التوراة (لعلهم يهتدون) يعملون بشرائعها ومواعظها (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) تدل على قدرتنا على ما نشاء لانه خلق من غير نطفة وحدلان الاعجوبة فيهما واحدة أو المراد وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية فحذفت الاولى لدلالة الثانية عليها (وآويناهما) جعلنا مأواهما أي منزلهما (الى ربوة) شامي وعاصم ربوة غيرهما أي أرض مرتفعة وهي بيت المقدس أو دمشق أو الرملة أو مصر (ذات قرار) مستقر من أرض مستوية منبسطة أو ذات ثمار وماء يعني انه لاجل الثمار يستقر فيها ساكنوها (ومعين) وماء ظاهر جار على وجه الارض اوانه مفعول أي مدرك بالعين لظهوره من عانه اذا أدركه بعينه أو فعيل لانه نفاع بظهوره وجريه من الماعون وهو المنفعة

ابعادهم وأرادوا بهذا الاستبعاد انه لا يكون أبدا (ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيى) قيل معناه نحيى ونموت لانهم كانوا ينكرون البعث وقيل يموت الآباء ويحيى الابناء وقيل معناه يموت قوم ويحيى قوم (وما نحن بمبعوثين) أي بعد الموت (ان هو) يعنون رسولهم (الا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين) أي بمصدقين بالبعث بعد الموت (قال رب انصرني بما كذبون قال عما قليل ليصبحن) أي ليصيرن (نادمين) على كفرهم وتكذيبهم (فأخذتهم الصيحة بالحق) يعني صيحة العذاب وقيل صاح بهم جبريل فتصدعت قلوبهم وقيل أراد بالصيحة الهلاك (فجعلناهم غثاء) هو ما يحمله السيل من حشيش وعيدان وشجر والمعنى صيرناهم هلكى فيبسوا يبس الغثاء من نبات الارض (فبعدا) أي ألزمنا بعدا من الرحمة (للقوم الظالمين) قوله عز وجل (ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) أي أقواما آخرين (ما تسبق من أمة أجلها) أي وقت هلاكها (وما يستأخرون) أي عن وقت هلاكهم (ثم أرسلنا رسلنا تترى) أي مترادفين يتبع بعضهم بعضا غير متواصلين لان بين كل رسولين زمنا طويلا (كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا) أي بالهلاك فأهلكنا بعضهم في اثر بعض (وجعلناهم أحاديث) أي سمرا وقصصا يتحدث من بعدهم بأمرهم وشأنهم (فبعدا لقوم لا يؤمنون) قوله تعالى (ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين) أي حجة بينة كالعصا واليد وغيرهما (الى فرعون وملائه فاستكبروا) أي تعظموا عن الايمان (وكانوا قوما عالين) أي متكبرين قاهرين غيرهم بالظلم (فقالوا) يعني فرعون وقومه (أنؤمن لبشرين مثلنا) يعنون موسى وهارون (وقومهما لنا عابدون) أي مطيعون متذللون (فكذبوهما فكانوا من المهلكين) أي بالغرق (ولقد آتينا موسى الكتاب) يعني التوراة (لعلهم يهتدون) أي لكي يهتدي به قومه قوله عز وجل (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) أي دلالة على قدرتنا لانه خلقه من غير ذكر وانطقه في المهد فان قلت لم قال آية ولم يقل آيتين قلت معناه جعلنا شأنهما آية لان عيسى ولد من غير ذكر وكذلك مريم ولدته من غير ذكر فاشتركا في هذه الآية فكانت آية واحدة (وآويناهما الى ربوة) أي مكان مرتفع قيل هي دمشق وقيل هي الرملة وقيل أرض فلسطين وقال ابن عباس هي بيت المقدس قال كعب بيت المقدس أقرب الارض الى السماء بثمانية عشر ميلا وقيل هي مصر وسبب الايواء انها فرت بابنها اليها وقوله (ذات قرار) أي منبسطة واسعة يستقر عليها ساكنوها (ومعين) هو الماء الجاري الذي تراه العيون قوله تعالى

(يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) هذا النداء والخطاب ليسا على ظاهرهما لانهم ارسلوا متفرقين فى أزمنة مختلفة وانما المعنى الاعلام بأن كل رسول فى زمانه نودى بذلك ووصى به ليعتقد السامع ان أمرا نودى له جميع الرسل ووصوا به حقيق ان يؤخذ به ويعمل عليه أو هو خطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام لفضله وقيامه مقام الكل فى زمانه وكان يأكل من الغنائم أو لعيسى عليه السلام لاتصال الآية بذكره وكان يأكل من غزل أمه وهو أطيب الطيبات والمراد بالطيبات ما حل والامر للتكليف أو ما يستطاب ويستلذ والامر للترفيه والاباحة (واعملوا صالحا) موافقا للشريعة (انى بما تعملون عليم) فأجازيكم على أعمالكم (وان هذه) كوفى على الاستئناف وأن حجازى وبصرى بمعنى ولان أى فاتقون لان هذه أو معطوف على ما قبله أى بما تعملون عليم وبان هذه أو تقديره واعلموا ان هذه أمتكم أى ملتكم وشريعتكم التى انتم عليها (أمة واحدة) ملة واحدة وهى شريعة الاسلام وانتصاب أمة على الحال والمعنى وان الدين دين واحد وهو الاسلام ومثله ان الدين عند الله الاسلام (وأنا ربكم) وحدى (فاتقون) فخافوا عقابى فى مخالفتكم أمرى (فتقطعوا أمرهم بينهم) تقطع بمعنى قطع أى قطعوا أمر دينهم (زبرا) جمع زبور أى كتبا مختلفة يعنى جعلوا دينهم أديانا وقيل تفرقوا فى دينهم فرقا كل فرقة تنتحل كتابا وعن الحسن قطعوا كتاب الله قطعا وحرفوه وقرئ زبرا جمع زبرة أى قطعا (كل حزب) كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المقطعين دينهم (بما لديهم) من الكتاب والدين أو من الهوى والرأى (فرحون) مسرورون معتقدون انهم على الحق (فذرهم فى غمرتهم) جهالتهم وغفلتهم (حتى حين) اى الى ان يقتلوا أو يموتوا (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين) ما بمعنى الذى وخبران (نسارع لهم فى الخيرات) والعائد من خبران الى اسمها محذوف اى نسارع لهم به والمعنى ان هذا الامداد ليس الا استدراجا لهم الى المعاصى وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات ومعاجلة بالثواب جزاء على حسن صنيعهم وهذه الآية حجة على المعتزلة فى مسئلة الاصلح لانهم يقولون ان الله لا يفعل باحد من الخلق الا ما هو اصلح له فى الدين وقد اخبر ان ذلك ليس بخير لهم فى الدين ولا اصلح (بل لا يشعرون) بل استدراك لقوله أيحسبون اى انهم اشباه البهائم لا شعور لهم حتى يتأملوا فى ذلك انه استدراج أو مسارعة فى الخير ثم بين ذكر أوليائه فقال (ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون) أى خائفون (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) اى بكتب الله كلها لا يفرقون بين كتبه كالذين تقطعوا أمرهم بينهم وهم أهل الكتاب (والذين هم بربهم لا يشركون) كمشركى العرب (والذين يؤتون ما آتوا) أى يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات وقرئ يأتون ما أتوا بالقصر أى يفعلون ما فعلوا (وقلوبهم وجلة) خائفة ان لا تقبل منهم لتقصيرهم (أنهم الى ربهم راجعون) الجمهور على ان التقدير لانهم وخبر ان الذين (أولئك يسارعون فى الخيرات) يرغبون فى الطاعات فيبادرونها (وهم لها سابقون) أى لاجل الخيرات سابقون الى الجنات أو لاجلها سبقوا الناس (ولا نكلف نفسا الا وسعها) أى طاقتها يعنى ان الذى وصف به الصالحون غير خارج عن حد الوسع والطاقة وكذلك كل ما كلفه عباده وهو رد على من جوز تكليف ما لا يطاق (ولدينا كتاب) أى اللوح أو صحيفة الاعمال (ينطق بالحق)

(يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) قيل أراد بالرسل محمدا صلى الله عليه وسلم وحده وقيل أراد به عيسى عليه السلام وقيل أراد جميع الرسل وأراد بالطيبات الحلال (واعملوا صالحا) أى استقيموا على ما يوجبه الشرع (انى بما تعملون عليم) فيه تحذير من مخالفة ما أمرهم به واذا كان الرسل مع علو شأنهم كذلك فلأن يكون تحذيرا لغيرهم أولى لما روى عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى طيب لا يقبل الا طيبا وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده الى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فانى يستجاب لذلك أخرجه مسلم قوله عز وجل (وان هذه أمتكم) أى ملتكم وشريعتكم التى أنتم عليها (أمة واحدة) أى ملة واحدة وهى الاسلام (وأنا ربكم فاتقون) أى فاحذرون وقيل معناه أمرتكم بما أمرت به المرسلين قبلكم فأمركم واحد وأنا ربكم فاتقون (فتقطعوا) أى تفرقوا فصاروا فرقا يهودا ونصارى ومجوسا وغير ذلك من الاديان المختلفة (أمرهم) أى دينهم (بينهم زبرا) أى فرقا وقطعا مختلفة وقيل معنى زبرا أى كتبا والمعنى تمسك كل قوم بكتاب فآمنوا به وكفروا بما سواه من الكتب (كل حزب بما لديهم فرحون) أى مسرورون معجبون بما عندهم من الدين (فذرهم) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم (فى غمرتهم) قال ابن عباس فى كفرهم وضلالتهم وقيل فى عمايتهم وغفلتهم (حتى حين) أى الى ان يموتوا (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين) أى ما نعطيهم ونجعله لهم مددا من المال والبنين فى الدنيا (نسارع لهم فى الخيرات) أى نعجل لهم ذلك فى الخيرات ونقدمه ثوابا لاعمالهم لمرضاتنا عنهم (بل لا يشعرون) أى ان ذلك استدراج لهم ثم ذكر المسارعين فى الخيرات فقال تعالى (ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون) أى خائفون والمعنى ان المؤمنين بما هم عليه من خشية الله خائفون من عقابه قال الحسن البصرى المؤمن جمع احسانا وخشية والمنافق جمع اساءة وأمنا (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) أى يصدقون (والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا) أى يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات وقيل معناه يعملون ما عملوا من أعمال البر (وقلوبهم وجلة) أى خائفة ان ذلك لا ينجيهم من عذاب الله وان أعمالهم لا تقبل منهم (أنهم الى ربهم راجعون) أى انهم يوقنون انهم الى الله صائرون قال الحسن عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا ان ترد عليهم عن عائشة قالت قلت يا رسول الله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة اهم الذين يشربون الخمر ويسرقون قال لا يا بنت الصديق ولكن هم الذين يصومون ويتصدقون ويخافون ان لا يقبل منهم أولئك يسارعون فى الخيرات أخرجه الترمذى وقوله (أولئك يسارعون فى الخيرات) اى يبادرون الى الاعمال الصالحة (وهم لها سابقون) أى اليها وقال ابن عباس سبقت لهم من الله السعادة وقيل سبقوا الامم الى الخيرات قوله عز وجل (ولا نكلف نفسا الا وسعها) أى طاقتها من الاعمال فمن لم يستطع القيام فليصل قاعدا ومن لم يستطع الصوم فليفطر وليقض (ولدينا كتاب) هو اللوح المحفوظ (ينطق بالحق) أى يبين الصدق والمعنى

قد أثبتنا عمل كل عامل في اللوح المحفوظ فهو ينطق به ويبينه وقيل هو كتاب أعمال العباد التي تكتبها الحفظة (وهم لا يظلمون) أي لا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم ثم ذكر الكفار فقال تعالى (بل قلوبهم في غمرة) أي غفلة وجهالة (من هذا) أي القرآن (ولهم أعمال) أي للكفار أعمال خبيثة من المعاصي والخطايا محكومة عليهم (من دون ذلك) يعني من دون أعمال المؤمنين التي ذكرها الله في قوله ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون (هم) يعني الكفار (لها) أي لتلك الأعمال الخبيثة (عاملون) أي لا بد لهم من أن يعملوها فيدخلوا بها النار لما سبق لهم في الأزل من الشقاوة (حتى اذا أخذنا مترفيهم) أي رؤساءهم وأغنياءهم (بالعذاب) قال ابن عباس هو السيف يوم بدر وقيل هو الجوع حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف فابتلاهم الله بالقحط حتى أكلوا الكلاب والجيف (اذا هم يجأرون) أي يصيحون ويستغيثون ويجزعون (لا تجأروا اليوم) أي لا تجزعوا ولا تضجوا اليوم (انكم منا لا تنصرون) أي لا تمنعون منا ولا ينفعكم تضرعكم (قد كانت آياتي تتلى عليكم) يعني القرآن (فكنتم على أعقابكم تنكصون) أي ترجعون القهقرى وتتأخرون عن الايمان (مستكبرين به) قال ابن عباس أي بالبيت الحرام كناية عن غير مذكور أي مستعظمين بالبيت وذلك انهم كانوا يقولون نحن أهل حرم الله وجيران بيته فلا يظهر علينا أحد ولا نخاف أحدا فيأمنون فيه وسائر الناس في الخوف وقيل مستكبرين به أي بالقرآن فلم يؤمنوا به والقول الأول أظهر (سامرا) يعني انهم يسمرون بالليل حول البيت وكان عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا وشعرا ونحو ذلك من القول فيه وفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو قوله (تهجرون) من الاهجار وهو الافحاش في القول وقيل معنى تهجرون تعرضون عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الايمان به وبالقرآن وقيل هو من الهجر وهو القول القبيح أي تهذون وتقولون ما لا تعلمون (أفلم يدبروا القول) يعني أفلم يتدبروا ما جاءهم من القرآن فيعتبروا بما فيه من الدلالات الواضحة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم (أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين) يعني فأنكروا يريد انا قد بعثنا من قبلهم رسلا الى قومهم فكذلك بعثنا محمدا صلى الله عليه وسلم (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) قال ابن عباس أليس قد عرفوا محمدا صلى الله عليه وسلم صغيرا وكبيرا وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاءه بالعهود وهذا على سبيل التوبيخ لهم على الاعراض عنه بعد ما عرفوه بالصدق والأمانة (أم يقولون به جنة) أي جنون وليس هو كذلك (بل جاءهم بالحق) أي بالصدق والقول الذي لا تخفى صحته وحسنه على عاقل (وأكثرهم للحق كارهون) قوله عز وجل (ولو اتبع الحق أهواءهم) قيل الحق هو الله تعالى والمعنى ولو اتبع الله مرادهم فيما يفعل وقيل لو سمى لنفسه شريكا وولدا كما يقولون وقيل الحق هو القرآن أي لو نزل القرآن بما يحبون وما يعتقدون (لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) أي لفسد العالم (بل أتيناهم بذكرهم) قال ابن عباس بما فيه شرفهم وفخرهم وهو القرآن (فهم عن ذكرهم)

وهم لا يظلمون) لا يقرؤون منه يوم القيامة الا ما هو صدق وعدل لا زيادة فيه ولا نقصان ولا يظلم منهم أحد بزيادة عقاب أو نقصان ثواب أو بتكليف ما لا وسع له به (بل قلوبهم في غمرة من هذا) بل قلوب الكفرة في غفلة غامرة لها مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين (ولهم أعمال من دون ذلك) أي ولهم أعمال خبيثة متجاوزة متخطية لذلك أي لما وصف به المؤمنون (هم لها عاملون) وعليها مقيمون لا يفطمون عنها حتى يأخذهم الله بالعذاب (حتى اذا أخذنا مترفيهم) متنعميهم (بالعذاب) عذاب الدنيا وهو القحط سبع سنين حين دعا عليهم النبي عليه الصلاة والسلام أو قتلهم يوم بدر وحتى هي التي يبتدأ بعدها الكلام والكلام الجملة الشرطية (اذا هم يجأرون) يصرخون استغاثة والجؤار الصراخ باستغاثة فيقال لهم (لا تجأروا اليوم) فان الجؤار غير نافع لكم (انكم منا لا تنصرون) أي من جهتنا لا يلحقكم نصر ومعونة (قد كانت آياتي تتلى عليكم) أي القرآن (فكنتم على أعقابكم تنكصون) ترجعون القهقرى والنكوص أن يرجع القهقرى وهو أقبح مشية لأنه لا يرى ما وراءه (مستكبرين) مستكبرين على المسلمين حال من تنكصون (به) بالبيت أو بالحرم لأنهم يقولون لا يظهر علينا أحد لأنا أهل الحرم والذي سوغ هذا الاضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت أو بآياتي لأنها في معنى كتابي ومعنى استكبارهم بالقرآن تكذيبهم به استكبارا ضمن مستكبرين معنى مكذبين فعدي تعديته أو يتعلق الباء بقوله (سامرا) تسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه وكانوا يجتمعون حول البيت يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته شعرا وسحرا والسامر نحو الحاضر في الاطلاق على الجمع وقرئ سمارا أو بقوله (تهجرون) وهو من الهجر الهذيان تهجرون نافع من أهجر في منطقه اذا أفحش (أفلم يدبروا القول) أفلم يتدبروا القرآن ليعلموا انه الحق المبين فيصدقوا به وبمن جاء به (أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين) بل أجاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين فلذلك أنكروه واستبدعوه (أم لم يعرفوا رسولهم) محمدا بالصدق والأمانة ووفور العقل وصحة النسب وحسن الأخلاق أي عرفوه بهذه الصفات (فهم له منكرون) بغيا وحسدا (أم يقولون به جنة) جنون وليس كذلك لأنهم يعلمون انه أرجحهم عقلا وأثقبهم ذهنا (بل جاءهم بالحق) الأبلج والصراط المستقيم وبما خالف شهواتهم وأهواءهم وهو التوحيد والاسلام ولم يجدوا له مردا ولا مدفعا فلذلك نسبوه الى الجنون (وأكثرهم للحق كارهون) وفيه دليل على ان أقلهم ما كان كارها للحق بل كان تاركا للايمان به أنفة واستنكافا من توبيخ قومه وان يقولوا صبأ وترك دين آبائه كأبي طالب (ولو اتبع الحق) أي الله (أهواءهم) فيما يعتقدون من الآلهة (لفسدت السموات والأرض) كما قال لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا (ومن فيهن) خص العقلاء بالذكر لأن غيرهم تبع (بل أتيناهم بذكرهم) بالكتاب الذي هو ذكرهم أي وعظهم أو شرفهم لأن الرسول منهم والقرآن بلغتهم أو بالذكر الذي كانوا يتمنونه ويقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين الآية (فهم عن ذكرهم

معرضون) لسوء اختيارهم (أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير) حجازي وبصري وعاصم خرجا فخرج علي وحمزة شامي خراجا فخراج وهو ما تخرجه الى الامام من زكاة أرضك والى كل عامل من أجرته وجعله والخرج أخص من الخراج تقول خراج القرية وخرج الكوفة فزيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذا حسنت القراءة الاولى يعني أم تسألهم على هدايتك لهم قليلا من عطاء الخلق فالكثير من الخالق خير (وهو خير الرازقين) افضل المعطين (وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم) وهو دين الاسلام فحقيق ان يستجيبوا لك (وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) لعادلون عن هذا الصراط المذكور وهو الصراط المستقيم (ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر) لما اخذهم الله بالسنين حتى أكلوا العلهز جاء أبو سفيان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له انشدك الله والرحم الست تزعم انك بعثت رحمة للعالمين فقال بلى فقال قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع فنزلت الآية والمعنى لو كشف الله عنهم هذا الضر وهو القحط الذي اصابهم برحمته لهم ووجدوا الخصب (للجوا) أي لتمادوا (في طغيانهم يعمهون) يترددون يعني لعادوا الى ما كانوا عليه من الاستكبار وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ولذهب عنهم هذا التملق بين يديه (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) استشهد على ذلك بانا اخذناهم اولا بالسيوف وبما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم فما وجدت بعد ذلك منهم استكانة أي خضوع ولا تضرع وقوله ولا يتضرعون عبارة عن دوام حالهم اي وهم على ذلك بعد ولذا لم يقل وما تضرعوا ووزن استكان استفعل من الكون اي انتقل من كون الى كون كما قيل استحال اذا انتقل من حال الى حال (حتى اذا فتحنا) فتح بالتشديد يزيد (عليهم بابا ذا عذاب شديد) اي باب الجوع الذي هو أشد من الاسر والقتل (اذا هم فيه مبلسون) متحيرون آيسون من كل خير وجاء أعتاهم واشدهم شكيمة في العناد ليستعطفك اومحناهم بكل محنة من القتل والجوع فما رؤي فيهم لين مقادة وهم كذلك حتى اذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون كقوله ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون (وهو الذي انشأ لكم السمع والابصار والافئدة) خصها بالذكر لانه يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها (قليلا ما تشكرون) أي تشكرون شكرا قليلا وما مزيدة للتأكيد بمعنى حقا والمعنى انكم لم تعرفوا عظم هذه النعم ووضعتموها غير مواضعها فلم تعملوا ابصاركم واسماعكم في آيات الله وافعاله ولم تستدلوا بقلوبكم فتعرفوا المنعم ولم تشكروا له شيئا (وهو الذي ذرأكم) خلقكم وبثكم بالتناسل (في الارض واليه تحشرون) تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم (وهو الذي يحيي ويميت) أي يحيي النسم بالانشاء ويميتها بالافناء (وله اختلاف الليل والنهار) أي مجيء أحدهما عقيب الآخر واختلافهما في الظلمة والنور وفي الزيادة والنقصان وهو مختص به ولا يقدر على تصريفهما غيره (أفلا تعقلون) فتعرفوا قدرتنا على البعث او فتستدلوا بالصنع على الصانع فتؤمنوا (بل قالوا) اي أهل مكة (مثل ما قال الاولون) أي الكفار قبلهم ثم بين ما قالوا بقوله (قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) متنا نافع وحمزة وعلي وحفص (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا) أي البعث (من قبل) مجيء محمد (ان هذا الا اساطير الاولين) جمع اسطار جمع سطر وهي ما كتبه الاولون مما لا حقيقة له وجمع اسطورة اوفق ثم امر نبيه عليه الصلاة والسلام باقامة الحجة على المشركين بقوله (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون) فانهم (سيقولون لله) لانهم مقرون بانه الخالق فاذا قالوا (قل أفلا تذكرون) فتعلموا أن من فطر الارض ومن فيها كان قادرا على اعادة الخلق وكان حقيقا بان لا يشرك به بعض خلقه في الربوبية أفلا تذكرون بالتخفيف حمزة وعلي وحفص وبالتشديد غيرهم (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون) افلا تخافونه فلا تشركوا به أو افلا تتقون في جحودكم قدرته على البعث مع اعترافكم بقدرته على خلق هذه الاشياء (قل

أي شرهم (معرضون ام تسألهم) اي على ما جئتهم به (خرجا) اي اجرا وجعلا (فخراج ربك خير) اي ما يعطيك الله من رزقه وثوابه خير (وهو خير الرازقين) تقدم تفسيره (وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم) اي الى دين الاسلام (وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط) اي عن دين الحق (لناكبون) اي لعادلون عنه ومائلون (ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر) اي قحط وجدوبة (للجوا) اي لتمادوا (في طغيانهم يعمهون) اي لم ينزعوا عنه (ولقد اخذناهم بالعذاب) وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم دعا على قريش ان يجعل الله عليهم سنين كسني يوسف فأصابهم القحط فجاء ابو سفيان الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال انشدك الله والرحم الست تزعم انك بعثت رحمة للعالمين فقال بلى فقال ابناؤهم قد اكلوا القد والعظام وشكا اليه الضر فادع الله ان يكشف عنا هذا القحط ودعا فكشف عنهم فأنزل الله هذه الآية (فما استكانوا لربهم) أي ما خضعوا وما ذلوا لربهم (وما يتضرعون) اي لم يتضرعوا الى ربهم بل مضوا على تمردهم (حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد) قال ابن عباس يعني القتل يوم بدر وقيل هو الموت وقيل هو قيام الساعة (اذا هم فيه مبلسون) أي آيسون من كل خير قوله عز وجل (وهو الذي أنشأ لكم السمع والابصار والافئدة) أي لتسمعوا بها وتبصروا وتعقلوا (قليلا ما تشكرون) أي لم تشكروا هذه النعم (وهو الذي ذرأكم في الارض) أي خلقكم (واليه تحشرون) أي تبعثون (وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار) أي تدبير الليل والنهار في الزيادة والنقصان وقيل جعلهما مختلفين يتعاقبان ويختلفان في السواد والبياض (أفلا تعقلون) أي ما ترون من صنعه فتعتبروا (بل قالوا مثل ما قال الاولون) أي كذبوا كما كذب الاولون وقيل معناه انكروا البعث مثل ما انكر الاولون مع وضوح الادلة (قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) أي لمحشورون قالوا ذلك على طريق الانكار والتعجب (لقد وعدنا نحن) أي هذا الوعد (وآباؤنا هذا من قبل) أي وعد آباءنا قوم ذكروا انهم رسل الله فلم نر له حقيقة (ان هذا الا أساطير الاولين) أي اكاذيب الاولين قوله تعالى (قل) أي يا محمد لاهل مكة (لمن الارض ومن فيها) من الخلق (ان كنتم تعلمون) اي خالقها ومالكها (سيقولون لله) أي لا بد لهم من ذلك لانهم يقرون انها مخلوقة لله (قل) أي قل لهم يا محمد اذا أقروا بذلك (أفلا تذكرون) أي فتعلموا ان من قدر على خلق الارض ومن فيها ابتداء يقدر على احيائهم بعد الموت (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون) أي عبادة غيره وقيل معناه أفلا تحذرون عقابه (قل

من بيده ملكوت كل شئ) الملكوت الملك والواو والتاء للمبالغة فتنبئ عن عظم الملك (وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون) اجرت فلانا على فلان اذا اغثته منه ومنعته يعنى وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ولا يغيث أحد منه احدا (سيقولون لله قل فانى تسحرون) تخدعون عن الحق أو عن توحيده وطاعته والخادع هو الشيطان والهوى الاول لله بالاجماع اذا السؤال لمن وكذا الثانى والثالث عند غير اهل البصرة على المعنى لانك اذا قلت من رب هذا فمعناه لمن هذا فيجاب لفلان كقول الشاعر اذا قيل من رب المزالف والقرى * ورب الجياد الجرد قيل لخالد اى لمن المزالف ومن قرأ بحذفه فعلى الظاهر لانك اذا قلت من رب هذا فجوابه فلان (بل اتيناهم بالحق) بان نسبة الولد اليه محال والشرك باطل (وانهم لكاذبون) فى قولهم اتخذ الله ولدا وادعائهم الشريك ثم أكد كذبهم بقوله (ما اتخذ الله من ولد) لانه منزه عن النوع والجنس وولد الرجل من جنسه (وما كان معه من اله) وليس معه شريك فى الالوهية (اذا لذهب كل اله بما خلق) لانفرد كل واحد من الآلهة بالذى خلقه فاستبد به ولتميز ملك كل واحد منهم عن الآخر (ولعلا بعضهم على بعض) ولغلب بعضهم بعضا كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة وهم متغالبون وحين لم تروا اثر التمايز الممالك وللتغالب فاعلموا انه اله واحد بيده ملكوت كل شئ ولا يقال اذا لا تدخل الا على كلام هو جزاء وجواب وههنا وقع لذهب جزاء وجوابا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل لان الشرط محذوف وتقديره ولو كان معه آلهة لدلالة وما كان معه من اله عليه وهو جواب لمن حاجه من المشركين (سبحان الله عما يصفون) من الانداد والاولاد (عالم) بالجر صفة لله وبالرفع مدنى وكوفى غير حفص خبر مبتدا محذوف (الغيب والشهادة) السر والعلانية (فتعالى عما يشركون) من الاصنام وغيرها (قل رب اما تريني ما يوعدون) ما والنون مؤكدان أى ان كان لا بد من ان ترينى ما تعدهم من العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة (رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين) أى فلا تجعلنى قرينا لهم ولا تعذبنى بعذابهم عن الحسن رضى الله عنه أخبره الله ان له فى امته نقمة ولم يخبره متى وقتها فامر ان يدعو هذا الدعاء ويجوز ان يسأل النبى المعصوم صلى الله عليه وسلم ربه ما علم انه يفعله وان يستعيذ به مما علم انه لا يفعله اظهارا للعبودية وتواضعا لربه واستغفاره عليه الصلاة والسلام اذا قام من مجلسه سبعين مرة لذلك والفاء فى فلا جواب الشرط ورب اعتراض بينهما للتأكيد (وانا على ان نريك ما نعدهم لقادرون) كانوا ينكرون الموعد بالعذاب ويضحكون منه فقيل لهم ان الله قادر على انجاز ما وعد ان تأملتم فما وجه هذا الانكار (ادفع بالتى) بالخصلة التى (هى أحسن السيئة) هو أبلغ من ان يقال بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل كأنه قال ادفع بالحسنى السيئة والمعنى الصفح عن اساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الاحسان وعن ابن عباس رضى الله عنه هى شهادة ان لا اله الا الله والسيئة الشرك أو الفحش بالسلام أو المنكر بالموعظة وقيل هى منسوخة بآية السيف وقيل محكمة اذ المداراة محثوث عليها ما لم تؤد الى ثلم دين (نحن أعلم بما يصفون) من الشرك أو بوصفهم لك وسوء ذكرهم فنجازيهم عليه (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين) من وساوسهم ونخساتهم والهمز النخس والهمزات جمع الهمزة ومنه مهماز الرائض والمعنى ان الشياطين يحثون الناس على المعاصى كما تهمز الراضة الدواب حثا لها على المشى (واعوذ بك رب ان يحضرون) أمر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل الى ربه المكرر لندائه وبالتعوذ من ان يحضروه اصلا او عند تلاوة القران او عند النزع

من بيده ملكوت كل شئ) أى ملك كل شئ (وهو يجير) أى يؤمن من يشاء (ولا يجار عليه) أى لا يؤمن من أخافه الله وقيل يمنع هو من يشاء من السوء ولا يمتنع منه من أراده بسوء (ان كنتم تعلمون) أى فأجيبوا (سيقولون لله قل فانى تسحرون) أى فانى تخدعون وتصرفون عن توحيده وطاعته وكيف يخيل لكم الحق باطلا (بل أتيناهم بالحق) أى بالصدق (وانهم لكاذبون) أى فيما يدعون من الشريك والولد (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله) أى من شريك (اذا لذهب كل اله بما خلق) أى لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذى خلقه ولم يرض ان يضاف خلقه وانعامه الى غيره ومنع كل اله الآخر عن الاستيلاء على ما خلقه هو (ولعلا بعضهم على بعض) أى طلب بعضهم مغالبة بعض كفعل ملوك الدنيا فيما بينهم واذا كان كذلك فاعلموا انه اله واحد بيده ملكوت كل شئ وبقدر على كل شئ ثم نزه نفسه تعالى فقال (سبحان الله عما يصفون) أى من اثبات الولد والشريك (عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) أى تعظم من ان يوصف بما لا يليق به قوله عز وجل (قل رب) أى يارب (اما ترينى ما يوعدون) أى ما وعدتهم من العذاب (رب) أى يارب (فلا تجعلنى فى القوم الظالمين) أى لا تهلكنى بهلاكهم (وانا على ان نريك ما نعدهم) أى من العذاب (لقادرون ادفع بالتى هى أحسن) أى بالخلة التى هى أحسن وهى الصفح والاعراض والصبر (السيئة) يعنى أذاهم أمر بالصبر على اذى المشركين والكف عن المقاتلة ثم نسخها الله بآية السيف (نحن أعلم بما يصفون) أى يكذبون ويقولون من الشرك قوله عز وجل (وقل رب أعوذ بك) أى أمتنع واعتصم بك (من همزات الشياطين) قال ابن عباس نزغاتهم وقيل وساوسهم وقيل نفخهم ونفثهم وقيل دفعهم بالاغواء الى المعاصى (وأعوذ بك رب ان يحضرون) أى فى شئ من أمورى وانما ذكر الحضور لان الشيطان اذا حضره يوسوس له عن جبير بن مطعم انه رأى النبى صلى الله عليه وسلم يصلى صلاة قال عمرو ولا أدرى أى صلاة هى قال الله أكبر كبيرا ثلاثا والحمد لله كثيرا ثلاثا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه قال نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة أخرجه أبو داود وقد جاء تفسير هذه الالفاظ فى متن الحديث ونزيدها ايضاحا قوله نفثه الشعر أى لان الشعر يخرج من القلب فيلفظ به اللسان وينفثه كما ينفث الريق قوله ونفخه الكبر وذلك ان المتكبر ينتفخ ويتعاظم ويجمع نفسه فيحتاج الى ان ينفخ وقوله وهمزه الموتة الموتة الجنون لان المجنون ينخسه الشيطان ثم أخبر الله عز وجل ان هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث يسألون الرجعة الى الدنيا عند

(حتى اذا جاء أحدهم الموت) حتى يتعلق بيصفون أى لا يزالون يشركون الى وقت مجيء الموت أو لا يزالون على سوء الذكر الى هذا الوقت وما بينهما مذكور على وجه الاعتراض والتأكيد للاغضاء عنهم مستعينا بالله على الشيطان ان يستزله عن الحلم ويغريه على الانتصار منهم (قال رب ارجعون) اى ردونى الى الدنيا خاطب الله بلفظ الجمع للتعظيم كخطاب الملوك (لعلى أعمل صالحا فيما تركت) فى الموضع الذى تركت وهو الدنيا لانه ترك الدنيا وصار الى العقبى قال قتادة ما تمنى ان يرجع الى أهل ولا الى عشيرة ولكن ليتدارك ما فرط لعلى ساكنة الياء كوفى وسهل ويعقوب (كلا) ردع عن طلب الرجعة وانكار واستبعاد (انها كلمة) المراد بالكلمة الطائفة من الكلام المنتظم بعضها مع بعض وهو قوله رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت (هو قائلها) لا محالة لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة والندم عليه (ومن ورائهم) أى امامهم والضمير للجماعة (برزخ) حائل بينهم وبين الرجوع الى الدنيا (الى يوم يبعثون) لم يرد انهم يرجعون يوم البعث وانما هو اقناط كلى لما علم ان لا رجوع بعد البعث الا الى الآخرة (فاذا نفخ فى الصور) قيل انها النفخة الثانية (فلا أنساب بينهم يومئذ) و بالادغام أبو عمرو لاجتماع المثلين وان كانا من كلمتين يعنى يقع التقاطع بينهم حيث يتفرقون مثابين ومعاقبين ولا يكون التواصل بينهم بالانساب اذ يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وانما يكون بالاعمال (ولا يتساءلون) سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون فى الدنيا لان كلا مشغول عن سؤال صاحبه بحاله ولا تناقض بين هذا وبين قوله وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون فللقيامة مواطن ففى موطن يشتد عليهم الخوف فلا يتساءلون وفى موطن يفيقون فيتساءلون (فمن ثقلت موازينه) جمع موزون وهى الموزونات من الاعمال الصالحة التى لها وزن وقدر عند الله تعالى من قوله فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا (فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه) بالسيئات والمراد الكفار (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) غبنوها (فى جهنم خالدون) بدل من خسروا أنفسهم ولا محل للبدل والمبدل منه لان الصلة لا محل لها أو خبر بعد خبر لاولئك أو خبر مبتدا محذوف (تلفح) أى تحرق (وجوههم النار وهم فيها كالحون) عابسون فيقال لهم (ألم تكن آياتى) أى القرآن (تتلى عليكم) فى الدنيا (فكنتم بها تكذبون) وتزعمون انها ليست من الله تعالى (قالوا ربنا غلبت علينا) ملكتنا (شقوتنا) شقاوتنا حمزة وعلى وكلاهما مصدر أى شقينا بأعمالنا السيئة التى عملناها وقول أهل التأويل غلب علينا ما كتب علينا من الشقاوة لا يصح لانه انما يكتب ما يفعل العبد وما يعلم انه يختاره ولا يكتب غير الذى علم انه يختاره فلا يكون مغلوبا ومضطرا فى الفعل وهذا لانهم انما يقولون ذلك القول اعتذارا لما كان منهم من التفريط فى أمره فلا يحتمل ان يطلبوا لانفسهم عذرا فيما كان منهم (وكنا قوما ضالين) عن الحق والصواب (ربنا أخرجنا منها) اى من النار (فان عدنا) الى الكفر والتكذيب (فانا ظالمون) لانفسنا (قال (اخسؤا)

معاينة الموت فقال تعالى (حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون) قيل المراد به الله وهو على عادة العرب فانهم يخاطبون الواحد بلفظ الجمع على وجه التعظيم وقيل هذا خطاب مع الملائكة الذين يقبضون روحه وعلى هذا يكون معناه انه استغاث بالله أولا ثم رجع الى مسألة الملائكة الرجوع الى الدنيا وقيل ذكر الرب للقسم فكانه قال عند المعاينة بحق الله ارجعون (لعلى أعمل صالحا فيما تركت) أى ضيعت وقيل تركت أى منعت وقيل خلفت من التركة أو المعنى أقول لا اله الا الله وأعمل بطاعته فيدخل فيه الاعمال البدنية والمالية قال قتادة ما تمنى ان يرجع الى أهله وعشيرته ولا ليجمع الدنيا ويقضى الشهوات ولكن تمنى ان يرجع فيعمل بطاعة الله فرحم الله أمرأ عمل فيما تمناه الكافر اذا رأى العذاب (كلا) كلمة ردع وزجر أى لا يرجع اليها (انها) يعنى مسألته الرجعة (كلمة هو قائلها) أى لا ينالها (ومن ورائهم برزخ) أى من أمامهم ومن بين أيديهم حاجز (الى يوم يبعثون) معناه ان بينهم وبين الرجعة حجابا ومانعا عن الرجوع وهو الموت وليس المعنى انهم يرجعون يوم البعث وانما هو اقناط كلى لما علم انه لا رجعة يوم البعث الا الى الآخرة قوله تعالى (فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم) قال ابن عباس انها النفخة الاولى نفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض فلا أنساب بينهم (يومئذ ولا يتساءلون) ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون وعن ابن مسعود انها النفخة الثانية قال يؤخذ بيد العبد والامة يوم القيامة فينصب على رؤس الاولين والآخرين ثم ينادى مناد هذا فلان بن فلان من كان له قبله حق فليأت الى حقه فيفرح المرء ان يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته أو أخيه فيأخذ منه ثم قرأ ابن مسعود فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وفى رواية عن ابن عباس انها النفخة الثانية فلا أنساب بينهم اى لا يتفاخرون بالانساب يومئذ كما كانوا يتفاخرون فى الدنيا ولا يتساءلون سؤال تواصل كما كانوا يتساءلون فى الدنيا من انت ومن أى قبيلة أنت ولم يرد ان الانساب تنقطع فان قلت قد قال ههنا ولا يتساءلون وقال فى موضع آخر وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قلت قال ابن عباس ان للقيامة أحوالا ومواطن ففى موطن يشتد عليهم الخوف فيشغلهم عظم الامر عن التساؤل فلا يتساءلون وفى موطن يفيقون افاقة فيتساءلون قوله عز وجل (فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا) أى غبنوا (أنفسهم فى جهنم خالدون تلفح) أى تسفع وقيل تحرق (وجوههم النار وهم فيها كالحون) أى عابسون وقد بدت اسنانهم وتقلصت شفاههم كالرأس المشوى على النار عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم وهم فيها كالحون قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح غريب قوله تعالى (ألم تكن آياتى تتلى عليكم) يعنى قوارع القرآن وزواجره تخوفون بها (فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا) أى التى كتبت علينا فلم نهتد (وكنا قوما ضالين) أى عن الهدى (ربنا أخرجنا منها) أى من النار (فان عدنا) أى لما تكره (فانا ظالمون قال

اخسؤا فيها) اسكتوا سكوت ذلة وهوان (ولا تكلمون) فى رفع العذاب عنكم فانه لا يرفع ولا يخفف قيل هو آخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك الا الشهيق والزفير ان يحضرون فى ارجعونى ولا تكلمونى بالياء فى الوصل والوقف يعقوب وغيره بلا ياء (انه) ان الامر والشأن (كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا) مفعول ثان وبالضم مدنى حمزة وعلى وكلاهما مصدر سخر كالسخر الا ان فى ياء النسبة مبالغة قيل هم الصحابة رضى الله عنهم وقيل أهل الصفة خاصة ومعناه اتخذتموهم هزؤا وتشاغلتم بهم ساخرين (حتى أنسوكم) بتشاغلكم بهم على تلك الصفة (ذكرى) فتركتموه أى كان التشاغل بهم سببا لنسيانكم ذكرى (وكنتم منهم تضحكون) استهزاء بهم (انى جزيتهم اليوم بما صبروا) بصبرهم (أنهم) أى لانهم (هم الفائزون) ويجوز ان يكون مفعولا ثانيا أى جزيتهم اليوم فوزهم لان جزى يتعدى الى اثنين وجزاهم بما صبروا الجنة انهم حمزة وعلى على الاستئناف أى انهم هم الفائزون لا انتم (قال) أى الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة قل مكى وحمزة وعلى أمر للملك ان يسألهم (كم لبثتم فى الارض) فى الدنيا (عدد سنين) أى كم عدد سنين لبثتم فكم نصب بلبثتم وعدد تمييز (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا بالاضافة الى خلودهم ولما هم فيه من عذابها لان الممتحن يستطيل أيام محنته ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة (فاسأل العادين) أى الحساب أو الملائكة الذين يعدون اعمار العباد وأعمالهم فسل بلا همز مكى وعلى (قال ان لبثتم الا قليلا) أى ما لبثتم الا زمنا قليلا أو لبثا قليلا (لو انكم كنتم تعلمون) صدقهم الله تعالى فى تقالهم لسنى لبثهم فى الدنيا ووبخهم على غفلتهم التى كانوا عليها قل ان حمزة وعلى (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا) حال أى عابثين أو مفعول له أى للعبث (وأنكم الينا لا ترجعون) وبفتح التاء وكسر الجيم حمزة وعلى ويعقوب وهو معطوف على أنما خلقناكم أو على عبثا أى للعبث ولتركتكم غير مرجوعين بل خلقناكم للتكليف ثم للرجوع من دار التكليف الى دار الجزاء فنثيب المحسن ونعاقب المسيء (فتعالى الله) عن ان يخلق عبثا (الملك الحق) الذى يحق له الملك لان كل شيء منه واليه أو الثابت الذى لا يزول ولا يزول ملكه (لا اله الا هو رب العرش الكريم) وصف العرش بالكرم لان الرحمة تنزل منه أو لنسبته الى أكرم الاكرمين وقرئ شاذا برفع الكريم صفة للرب تعالى (ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان) أى لا حجة (له به) اعتراض بين الشرط والجزاء كقولك من أحسن الى زيد لا أحق بالاحسان منه فالله مثيبه أو صفة لازمة جيء بها للتوكيد كقوله يطير بجناحيه لا ان يكون فى الآلهة ما يجوز ان يقوم عليه برهان (فانما حسابه) أى جزاؤه وهذا جزاء الشرط (عند ربه) أى فهو مجازيه لا محالة (انه لا يفلح الكافرون) جعل فاتحة السورة قد أفلح المؤمنون وخاتمتها انه لا يفلح الكافرون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة ثم علمنا سؤال المغفرة والرحمة بقوله (وقل رب اغفر وارحم) ثم قال (وأنت خير الراحمين) لان رحمته اذا أدركت أحدا أغنته عن رحمة غيره ورحمة غيره لا تغنيه عن رحمته

(سورة النور مدنية وهى ستون وأربع آيات)

احسؤا فيها) أى ابعدوا فيها كما يقال للكلب اذا طرد اخسأ (ولا تكلمون) أى فى رفع العذاب فانى لا أرفعه عنكم فعند ذلك أيس المساكين من الفرج قال الحسن هو آخر كلام يتكلم به أهل النار ثم لا يتكلمون بعد ذلك ما هو الا الزفير والشهيق وعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون وروى عن عبد الله بن عمر أن أهل جهنم يدعون مالكا خازن جهنم أربعين عاما يا مالك ليقض علينا ربك فلا يجيبهم ثم يقول انكم ماكثون ثم ينادون ربهم ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون فيدعهم مثل عمر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم اخسؤا فيها ولا تكلمون فما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة ان كان الا الزفير والشهيق ذكره البغوى بغير سند واخرجه الترمذى بمعناه عن أبى الدرداء قوله فما ينبس القوم بعد ذلك بكلمة اى سكتوا ولم يتكلموا بكلمة وقيل اذا قال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون انقطع رجاؤهم واقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض واطبقت عليهم جهنم (انه كان فريق من عبادى) يعنى المؤمنين (يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا) اى تسخرون منهم وتستهزؤن بهم (حتى أنسوكم ذكرى) اى انساكم اشتغالكم بالاستهزاء بهم ذكرى (وكنتم منهم تضحكون) نزلت فى كفار قريش كانوا يستهزؤن بالفقراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل بلال وعمار وصهيب وخباب ثم قال الله (انى جزيتهم اليوم بما صبروا) اى على اذاكم واستهزائكم فى الدنيا (أنهم هم الفائزون) اى جزيتهم بصبرهم الفوز بالجنة (قال) يعنى ان الله قال للكفار يوم البعث (كم لبثتم فى الارض) اى فى الدنيا وفى القبور (عدد سنين قالوا لبثنا يوما او بعض يوم) معناه انهم نسوا مدة لبثهم فى الدنيا لعظم ما هم بصدده من العذاب (فاسأل العادين) يعنى الملائكة الذين يحفظون أعمال بنى آدم ويحصونها عليهم (قال ان لبثتم) اى ما لبثتم فى الدنيا (الا قليلا) سماه قليلا لان المرء وان طال لبثه فى الدنيا فانه يكون قليلا فى جنب ما يلبث فى الآخرة (لو انكم كنتم تعلمون) اى قدر لبثكم فى الدنيا قوله عز وجل (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا) أى لعبا وباطلا لا لحكمة وقيل العبث معناه لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب انما خلقتم للعبادة واقامة أوامر الله عز وجل (وأنكم الينا لا ترجعون) اى فى دار الآخرة للجزاء روى البغوى بسنده عن الحسن ان رجلا مصابا مر به على ابن مسعود فرقاه فى اذنه أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون حتى ختم السورة فبرأ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بماذا رقيت فى اذنه فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لو ان رجلا موقنا قرأها على الجبل لزال ثم نزه الله تعالى نفسه عما يصفه به المشركون فقال عز وجل (فتعالى الله الملك الحق) أى هو التام الملك الجامع لاصناف المملوكات (لا اله الا هو رب العرش الكريم) أى الحسن وقيل الرفيع المرتفع وانما خص العرش بالذكر لانه اعظم المخلوقات (ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به) أى لا حجة ولا بينة له به اذ لا يمكن اقامة برهان ولا دليل على الهية غير الله ولا حجة فى دعوى الشرك (فانما حسابه) أى جزاؤه (عند ربه) أى هو مجازيه بعمله (انه لا يفلح الكافرون) اى لا يسعد من جحد وكذب (وقل رب اغفر وارحم وانت خير الراحمين)

تفسير سورة النور وهى مدنية واثنتان وقيل اربع وستون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم) (سورة) خبر مبتدا محذوف اى هذه سورة (أنزلناها) صفة لها وقرأ طلحة سورة على زيدا ضربته او على اتل سورة والسورة الجامعة لجمل آيات بفاتحة لها وخاتمة واشتقاقها من سور المدينة (وفرضناها) أى فرضنا أحكامها التى فيها واصل الفرض القطع أى جعلناها مقطوعا بها وبالتشديد مكى وأبو عمرو للمبالغة فى الايجاب وتوكيده أو لان فيها فرائض شتى أو لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم (وأنزلنا فيها آيات بينات) أى دلائل واضحات (لعلكم تذكرون) لكى تتعظوا وبتخفيف الذال حمزة وعلى وخلف وحفص ثم فصل أحكامها فقال (الزانية والزانى) رفعهما على الابتداء والخبر محذوف أى فيما فرض عليكم الزانية والزانى أى جلدهما أو الخبر فاجلدوا وأدخلت الفاء لكون الالف واللام بمعنى الذى وتضمينه معنى الشرط وتقديره التى زنت والذى زنى فاجلدوهما كما تقول من زنى فاجلدوه وكقوله والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم وقرأ عيسى بن عمرو بالنصب على اضمار فعل يفسره الظاهر وهو أحسن من سورة أنزلناها لاجل الامر (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) الجلد ضرب الجلد وفيه اشارة الى انه لا يبالغ ليصل الالم الى اللحم والخطاب للائمة لان اقامة الحد من الدين وهى على الكل الا انهم لا يمكنهم الاجتماع فينوب الامام منابهم وهذا حكم حر ليس بمحصن اذ حكم المحصن الرجم وشرائط احصان الرجم الحرية والعقل والبلوغ والاسلام والتزوج بنكاح صحيح والدخول وهذا دليل على ان التغريب غير مشروع لان الفاء انما يدخل على الجزاء وهو اسم للكافى والتغريب المروى منسوخ بالآية كنسخ الحبس والاذى فى قوله فأمسكوهن فى البيوت وقوله فآذوهما بهذه الآية (ولا تأخذكم بهما رأفة) أى رحمة والفتح لغة وهى قراءة مكى وقيل الرأفة فى دفع المكروه والرحمة فى ايصال المحبوب والمعنى ان الواجب على المؤمنين ان يتصلبوا فى دين الله ولا يأخذهم اللين فى استيفاء حدوده فيعطلوا الحدود أو يخففوا الضرب (فى دين الله) أى فى طاعة الله أو حكمه (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) من باب التهييج والهاب الغضب لله ولدينه وجواب الشرط مضمر أى فاجلدوا ولا تعطلوا الحد (وليشهد عذابهما) وليحضر موضع حدهما وتسميته عذابا دليل على انه عقوبة (طائفة) فرقة يمكن ان تكون حافة ليعتبروا وينزجروا وأقلها ثلاثة أو أربعة وهى صفة غالبة كأنها الجماعة الحافة حول شئ وعن ابن عباس رضى الله عنهما أربعة الى أربعين رجلا (من المؤمنين) من المصدقين بالله (الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك) أى الخبيث الذى من شأنه الزنى لا يرغب فى نكاح الصوالح من النساء وانما يرغب فى خبيثة من شكله أو فى مشركة والخبيثة المسافحة كذلك لا يرغب فى نكاحها الصلحاء من الرجال وانما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة أو المشركين فالآية تزهيد فى نكاح البغايا اذ الزنى عديل الشرك فى القبح والايمان قرين العفاف والتحصن وهو نظير قوله الخبيثات للخبيثين وقيل كان نكاح الزانية محرما فى أول الاسلام ثم نسخ بقوله وأنكحوا الايامى منكم وقيل المراد بالنكاح الوطء لان غير الزانى يستقذر الزانية ولا يشتهيها وهو صحيح لكنه يقتضى اذا ولك الزانى لا يزنى الا بزانية والزانية لا يزنى بها الا زان وسئل صلى الله عليه وسلم عمن زنى بامرأة ثم تزوجها فقال أوله سفاح وآخره نكاح ومعنى الجملة الاولى صفة الزانى بكونه غير راغب فى العفائف ولكن فى الفواجر ومعنى الثانية صفة الزانية بكونها غير مرغوب فيها للاعفاء ولكن للزناة وهما معنيان مختلفان وقدمت الزانية على الزانى أولا ثم قدم عليها ثانيا لان تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ما جنيا والمرأة هى المادة التى منها نشأت تلك الجناية لانها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن فلما كانت أصلا فى ذلك بدئ بذكرها وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لانه الخاطب ومنه بدء الطلب وقرئ لا ينكح بالجزم على النهى وفى المرفوع أيضا معنى النهى ولكن أبلغ وآكد ويجوز ان يكون خبرا محضا على معنى ان عادتهما جارية على ذلك وعلى المؤمن ان لا يدخل نفسه تحت هذه العادة ويتصون عنها (وحرم ذلك على المؤمنين) أى الزنى أو نكاح البغايا بالقصد التكسب بالزنى أو لما فيه من

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عز وجل (سورة أنزلناها وفرضناها) اى اوجبنا ما فيها من الاحكام والزمناكم العمل بها وقيل معناه قدرنا ما فيها من الحدود وقيل اوجبناها عليكم وعلى من بعدكم الى قيام الساعة (وانزلنا فيها آيات بينات) أى واضحات (لعلكم تذكرون) اى تتعظون قوله تعالى (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) الزنى هو من الكبائر وموجب للحد وهو ايلاج فرج فى فرج مشتهى طبعا محرم شرعا والشروط المعتبرة فى وجوب الحد العقل والبلوغ ويشترط الاحصان فى الرجم ويجب على العبد والامة نصف الحد ولا رجم عليهما لانه لا يتنصف وقوله فاجلدوا اى فاضربوا يقال جلده اذا ضرب جلده ولا يضرب بحيث يبلغ اللحم كل واحد منهما اى الزانية والزانى مائة جلدة وقد وردت السنة بجلد مائة وتغريب عام وبه قال الشافعى وقال ابو حنيفة التغريب الى راى الامام وقال مالك يجلد الرجل مائة جلدة ويغرب وتجلد المرأة ولا تغرب وان كان الزانى محصنا فعليه الرجم (ولا تأخذكم بهما رأفة) اى رحمة ورقة فتعطلوا الحدود ولا تقيموها وهذا قول مجاهد وعكرمة وعطاء وسعيد بن جبير والنخعى والشعبى وقيل معنى الرأفة ان تخففوا الضرب بل أوجعوهما ضربا وهو قول سعيد بن المسيب والحسن قال الزهرى يجتهد فى حد الزنى والفرية أى القذف ويخفف فى حد الشرب وقيل يجتهد فى حد الزنى ويخفف دون ذلك فى حد الفرية ويخفف دون ذلك فى حد الشرب (فى دين الله) أى فى حكم الله روى ان عبد الله بن عمر جلد جارية له زنت فقال للجلاد اضرب ظهرها ورجليها فقال له ابنه ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله فقال يا بنى ان الله لم يأمرنى بقتلها وقد ضربت فأوجعت (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) معناه ان المؤمن لا تأخذه الرأفة اذا جاء امر الله وقيل هو من باب التهييج والتهاب التغضب لله تعالى ولدينه ومعناه ان كنتم تؤمنون فلا تتركوا اقامة الحدود (وليشهد) اى وليحضر (عذابهما) أى حدهما اذا اقيم عليهما (طائفة) اى نفر (من المؤمنين) قيل اقله رجل واحد فصاعدا وقيل رجلان وقيل ثلاثة وقيل اربعة بعدد شهود الزنى قوله عز وجل (الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) اختلف العلماء فى معنى الآية وحكمها

فقال قوم قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء لا مال لهم ولا عشائر وفي المدينة نساء بغايا هن اخصب أهل المدينة فرغب ناس من فقراء المسلمين في نكاحهن لينفقن عليهم فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك فنزلت هذه الآية فحرم على المؤمنين ان يتزوجوا تلك البغايا لانهن كن مشركات وهذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والزهري والشعبي ورواية عن ابن عباس وقال عكرمة نزلت في نساء كن بمكة والمدينة لهن رايات يعرفن بها منهن أم مهزول جارية السائب بن أبي السائب المخزومي وكان في الجاهلية ينكح الزانية يتخذها مأكلة فاراد ناس من المسلمين نكاحهن على تلك الصفة فاستأذن رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم في نكاح ام مهزول واشترطت له ان تنفق عليه فأنزل الله عز وجل هذه الآية وروى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد الغنوي وكان يحمل الاسارى من مكة يأتي بهم المدينة وكانت بمكة بغي يقال لها عناق وكانت صديقة له في الجاهلية فلما أتى مكة دعته عناق الى نفسها فقال مرثد ان الله حرم الزنى قالت فانكحني فقال حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فاتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله انكح عناقا فامسك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد شيئا فنزلت الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك فدعاني فقرأها علي وقال لا تنكحها اخرجه الترمذي والنسائي وابو داود بالفاظ متقاربة المعنى فعلى قول هولاء كان التحريم خاصا في حق أولئك دون سائر الناس وقال قوم المراد من النكاح هو الجماع ومعنى الآية الزاني لا يزني الا بزانية او مشركة والزانية لا تزني الا بزان او مشرك وهذا قول سعيد بن جبير والضحاك ورواية عن ابن عباس قال يزيد بن هارون ان جامعها وهو مستحل فهو مشرك وان جامعها وهو محرم فهو زان وكان ابن مسعود يحرم نكاح الزانية ويقول اذا تزوج الزاني الزانية فهما زانيان وقال سعيد بن المسيب وجماعة ان حكم الآية منسوخ وكان نكاح الزانية حراما بهذه الآية ثم نسخت بقوله تعالى وأنكحوا الايامى منكم فدخلت الزانية في هذا العموم واحتج من جوز نكاح الزانية بما روى عن جابر ان رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان امرأتي لا تمنع يد لامس قال طلقها قال اني احبها وهي جميلة قال استمتع بها وفي رواية غيره فأمسكها اذا وروى هذا الحديث ابو داود والنسائي عن ابن عباس قال النسائي رفعه احد الرواة الى ابن عباس ولم يرفعه بعضهم قال وهذا الحديث ليس بثابت وروى ان عمر بن الخطاب ضرب رجلا وامرأة في زنى وحرص على ان يجمع بينهما فابى الغلام وقيل في معنى الآية ان الفاجر الخبيث لا يرغب في نكاح الصالحة من النساء وانما يرغب في نكاح فاجرة خبيثة مثله أو مشركة والفاسقة الخبيثة لا ترغب في نكاح الصلحاء من الرجال وانما ترغب في نكاح فاسق خبيث مثلها او مشرك وحرم ذلك على المؤمنين اى صرف الرغبة بالكلية الى نكاح الزواني وترك الرغبة في الصالحات العفائف محرم على المؤمنين ولا يلزم من حرمة هذا حرمة التزوج بالزانية قوله تعالى (والذين يرمون) أي يقذفون بالزنى (المحصنات) يعني المسلمات الحرائر العفائف (ثم لم يأتوا باربعة شهداء) أي يشهدون على الزنى (فاجلدوهم ثمانين جلدة) بيان حكم الآية ان من قذف محصنا أو محصنة بالزنى فقال له يا زاني او يا زانية أو زنيت فيجب عليه جلد ثمانين ان كان القاذف حرا وان كان عبدا جلد أربعين وان كان المقذوف غير محصن فعلى القاذف التعزير وشرائط الاحصان خمسة الاسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنى حتى لو زنى في عمره مرة واحدة ثم تاب وحسنت توبته بعد ذلك ثم قذفه قاذف فلا حد عليه فان أقر المقذوف على نفسه بالزنى او اقام القاذف أربعة يشهدون عليه بالزنى سقط الحد عن القاذف لان الحد انما وجب عليه لاجل الفرية وقد ثبت صدقه واما الكنايات مثل ان يقول يا فاسق او يا فاجر او يا خبيث او يا مؤاجر او قال امرأتي لا ترد يد لامس فهذا ونحوه لا يكون قذفا الا ان يريد ذلك واما التعريض مثل ان يقول اما انا فما زنيت او ليست امرأتي زانية فليس بقذف عند الشافعي وابي حنيفة وقال مالك يجب فيه الحد وقال أحمد هو قذف في حال الغضب

دون حال الرضا وقوله تعالى (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون) فيه دليل على ان القذف من الكبائر لان اسم الفاسق لا يقع الا على صاحب كبيرة (الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم) اختلف العلماء فى قبول شهادة القاذف بعد التوبة وفى حكم هذا الاستثناء فذهب قوم الى ان القاذف ترد شهادته بنفس القذف واذا تاب وندم على ما قال وحسنت حالته بعد التوبة قبلت شهادته سواء تاب بعد اقامة الحد عليه أو قبله لقوله تعالى الا الذين تابوا وقالوا هذا الاستثناء يرجع الى رد الشهادة والى الفسق واذا تاب تقبل شهادته ويزول عنه اسم الفسق يروى ذلك عن عمر وابن عباس وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وطاوس وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والشعبى وعكرمة وعمر بن عبد العزيز والزهرى وبه قال مالك والشافعى وذهب قوم الى ان شهادة المحدود فى القذف لا تقبل ابدا وان تاب وقالوا الاستثناء يرجع الى قوله وأولئك هم الفاسقون وهو قول النخعى وشريح واصحاب الرأى قالوا بنفس القذف لا ترد شهادته ما لم يحد قال الشافعى هو قبل ان يحد شر منه حين يحد لان الحدود كفارات فكيف تردونها فى احسن حاليه وتقبلونها فى شر حاليه وذهب الشافعى الى ان حد القذف يسقط بالتوبة وقال الاستثناء يرجع الى الكل وعامة العلماء على انه لا يسقط الحد بالتوبة الا ان يعفو عنه المقذوف فيسقط كالقصاص يسقط بالعفو ولا يسقط بالتوبة فان قلت اذا قبلت شهادته بعد التوبة فما معنى قوله ابدا قلت معنى ابدا ما دام مصرا على القذف لان ابد كل انسان مدته على ما يليق به كما يقال شهادة الكافر لا تقبل ابدا يراد بذلك ما دام على كفره فاذا اسلم قبلت شهادته قوله عز وجل (والذين يرمون) أى يقذفون (ازواجهم ولم يكن لهم شهداء) أى يشهدون على صحة ما قالوا (الا انفسهم) أى غير انفسهم (فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين) سبب نزول هذه الآية ما روى عن سهل بن سعد الساعدى ان عويمرا العجلانى جاء الى عاصم بن عدى فقال لعاصم ارأيت لو ان رجلا وجد مع امرأته رجلا يقتله فيقتلونه أم كيف يفعل سل لى عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسئلة وعابها حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رجع عاصم الى أهله جاءه عويمر فقال يا عاصم ماذا قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عاصم لعويمر لم تأتنى بخير قد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسئلة التى سألت عنها فقال عويمر والله لا انتهى حتى اسأله عنها فجاء عويمر ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسط الناس فقال يا رسول الله أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا يقتله فتقتلونه أم كيف يفعل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل الله فيك وفى صاحبتك قرآنا فاذهب فائت بها قال سهل فتلاعنا وانا مع الناس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغا من تلاعنهما قال عويمر كذبت عليها يا رسول الله ان امسكتها فطلقها ثلاثا قبل ان يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مالك بن شهاب فكانت تلك سنة المتلاعنين أخرجاه فى الصحيحين زاد فى رواية ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا ان جاءت به أسحم ادعج العينين عظيم الاليتين خدلج الساقين فلا أحسب عويمرا الا قد صدق عليها وان جاءت به أحيمر كأنه وحرة فلا احسب عويمرا الا قد كذب عليها فجاءت به على النعت الذى نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من تصديق عويمر فكان بعد ينسب الى أمه قوله أسحم أى اسود والادعج الشديد سواد العين مع سعتها وقوله خدلج الساقين أى ممتلئ الساقين غليظهما وقوله كأنه وحرة الوحرة بفتح الحاء دويبة كالعظاء تلصق بالارض وأراد بها فى الحديث المبالغة فى قصره (خ) عن ابن عباس ان هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى صلى الله عليه وسلم بشريك بن سمحاء فقال النبى صلى الله عليه وسلم البينة أو حد فى ظهرك فقال يا رسول الله اذا رأى أحد على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول البينة والا حد فى ظهرك فقال هلال بن أمية والذى بعثك بالحق انى لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهرى من

(ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا) نكر شهادة فى موضع النفى فتعم كل شهادة ورد الشهادة من الحد عندنا ويتعلق باستيفاء الحد أو بعضه على ما عرف وعند الشافعى رحمه الله تعالى يتعلق رد شهادته بنفس القذف فعندنا جزاء الشرط الذى هو الرمى الجلد ورد الشهادة على التأبيد وهو مدة حياتهم (وأولئك هم الفاسقون) كلام مستأنف غير داخل فى حيز جزاء الشرط كأنه حكاية حال الرامين عند الله تعالى بعد انقضاء الجملة الشرطية وقوله (الا الذين تابوا من بعد ذلك) أى القذف (وأصلحوا) أحوالهم استثناء من الفاسقين ويدل عليه (فان الله غفور رحيم) أى يغفر ذنوبهم ويرحمهم وحق الاستثناء ان يكون منصوبا عندنا لانه عن موجب وعند من جعل الاستثناء متعلقا بالجملة الثانية ان يكون مجرورا بدلا من هم فى لهم ولما ذكر حكم قذف الاجنبيات بين حكم قذف الزوجات فقال (والذين يرمون أزواجهم) أى يقذفون زوجاتهم بالزنى (ولم يكن لهم شهداء) أى لم يكن لهم على تصديق قولهم من يشهد لهم به (الا أنفسهم) يرتفع على البدل من شهداء (فشهادة أحدهم أربع) كوفى غير أبى بكر على انه خبر والمبتدأ فشهادة أحدهم وغيرهم بالنصب لانه فى حكم المصدر والعامل فيه المصدر الذى هو فشهادة أحدهم وعلى هذا خبره محذوف تقديره فواجب شهادة أحدهم أربع (شهادات بالله انه لمن الصادقين) فيما رماها من الزنى

قول النسفى وعلى هذا خبره محذوف تبع فيه الكشاف وليتأمل وعبارة أبى السعود على أنه اما خبر لمبتدا محذوف أى فالواجب شهادة أحدهم واما مبتدأ محذوف الخبر أى فشهادة أحدهم واجبة

الحد فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه والذين يرمون أزواجهم فقرأ حتى بلغ ان كان من الصادقين فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل اليهما فجاآ فقام هلال بن أمية فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول الله يعلم ان أحدكما كاذب فهل منكما تائب ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا انها موجبة قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا انها ترجع ثم قالت لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت فقال النبي صلى الله عليه وسلم انظروها فان جاءت به أكحل العينين سابغ الاليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء فجاءت به كذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن وفي رواية غير البخاري عن ابن عباس قال لما نزلت والذين يرمون المحصنات الآية قال سعد بن عبادة لو أتيت لكاع وقد تفخذها رجل لم يكن لي ان أهيجه حتى آتي بأربعة شهداء فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء حتى يفرغ حاجته ويذهب وان قلت ما رأيت ان في ظهري لثمانين جلدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار الا تسمعون ما يقول سيدكم قالوا لا تلمه فانه رجل غيور ما تزوج امرأة قط الا بكرا ولا طلق امرأة له واجترأ رجل منا ان يتزوجها فقال سعد يا رسول الله بأبي أنت وأمي والله اني لأعرف انها من الله وانها حق ولكن عجبت من ذلك لما أخبر الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم فان الله يأبى الا ذاك فقال صدق الله ورسوله قال فلم يلبثوا الا يسيرا حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن أمية من حديقة له فرأى رجلا مع امرأته يزني بها فأمسك حتى أصبح فلما أصبح غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس مع أصحابه فقال يا رسول الله اني جئت الى أهلي عشاء فوجدت مع امرأتي رجلا رأيت بعيني وسمعت باذني فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أتاه به وثقل عليه حتى عرف ذلك في وجهه فقال هلال والله يا رسول الله اني لأرى الكراهة في وجهك مما أتيتك به والله يعلم اني لصادق وما قلت الا حقا واني لأرجو ان يجعل الله لي فرجا فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضربه قال واجتمعت الانصار فقالوا ابتلينا بما قال سعد يجلد هلال وتبطل شهادته فبينما هم كذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يريد ان يأمر بضربه اذ نزل عليه الوحي وامسك أصحابه عن كلامه حين عرفوا ان الوحي قد نزل حتى فرغ فأنزل الله والذين يرمون أزواجهم الى آخر الآيات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أبشر يا هلال فان الله تعالى قد جعل لك فرجا فقال قد كنت أرجو ذلك من الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ارسلوا اليها فجاءت فلما اجتمعا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل فكذبت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يعلم ان أحدكما كاذب فهل منكما تائب فقال يا رسول الله قد صدقت وما قلت الا حقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاعنوا بينهما فقيل لهلال اشهد فشهد أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين فقال له عند الخامسة يا هلال اتق الله فان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وان عذاب الله أشد من عذاب الناس وان هذه الخامسة هي الموجبة التي توجب عليك العذاب فقال هلال والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد (والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين) ثم قال للمرأة اشهدي فشهدت أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين فقال لها عند الخامسة ووقفها اتقي الله ان الخامسة موجبة وان عذاب الله أشد من عذاب الناس فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت والله لا أفضح قومي فشهدت الخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وقضى ان الولد لها ولا يدعى لأب ولا يرمى ولدها ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها وان جاءت به كذا وكذا فهو للذي قيل فيه فجاءت به غلاما كأنه جمل أورق على الشبه المكروه. وكان أميرا بمصر لا يدرى من أبوه الاورق هو الابيض وروى ابن عباس ان عويمر العجلاني رمى زوجته خولة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نودي الصلاة جامعة فصلى العصر ثم قال لعويمر قم فقام فقال اشهد بالله ان خولة لزانية واني لمن الصادقين ثم قال

(والخامسة) لا خلاف في رفع الخامسة هذا في المشهور وانه مبتدأ والشهادة الخامسة (ان لعنة الله عليه) فهي مبتدأ وخبر (ان كان من الكاذبين) فيما رماها به من الزنى

في الثانية أشهد بالله اني رأيت شريكا على بطنها واني لمن الصادقين ثم قال في الثالثة أشهد أنها حبلى من غيري واني لمن الصادقين ثم قال في الرابعة أشهد بالله اني ما قربتها منذ أربعة أشهر واني لمن الصادقين ثم قال في الخامسة لعنة الله على عويمر يعني نفسه ان كان من الكاذبين فيما قال ثم أمره بالقعود فقعد ثم قال لخولة قومي فقامت فقالت أشهد بالله ما أنا زانية وان عويمر لمن الكاذبين ثم قالت في الثانية أشهد بالله انه ما رأى شريكا على بطني وانه لمن الكاذبين ثم قالت في الثالثة أشهد بالله اني حبلى منه وانه لمن الكاذبين ثم قالت في الرابعة أشهد بالله انه ما رآني قط على فاحشة وانه لمن الكاذبين ثم قالت في الخامسة غضب الله على خولة تعني نفسها ان كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وقال لولا هذه الايمان لكان لي في أمرهما رأي ثم قال تحينوا الولادة فان جاءت به أصيهب أثيبج يضرب الى السواد فهو لشريك بن سحماء وان جاءت به أورق جعدا جماليا خدلج الساقين فهو لغير الذي رميت به قال ابن عباس فجاءت بأشبه خلق بشريك بيان حكم الآية ان الرجل اذا قذف امرأته فوجبه موجب قذف الاجنبية في وجوب الحد عليه ان كانت محصنة الرجم أو التعزير ان كانت غير محصنة غير ان المخرج منهما مختلف واذا قذف أجنبيا أو أجنبية يقام عليه الحد الا ان يأتي بأربعة يشهدون بالزنى أو يقر المقذوف بالزنى ويسقط عنه الحد وفي الزوجة اذا وجد أحد هذين أولاعن سقط عنه الحد فاللعان في قذف الزوجة بمنزلة البينة لان الرجل اذا رأى مع امرأته رجلا ربما لا يمكنه اقامة البينة ولا يمكنه الصبر على العار فجعل الله اللعان حجة له على صدقه فقال تعالى فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين واذا أقام الزوج بينة على زناها أو اعترفت هي بالزنى سقط عنه الحد واللعان الا ان يكون هناك ولد يريد نفيه فله ان يلاعن لنفيه واذا أراد الامام ان يلاعن بينهما بدأ بالرجل فيقيمه ويلقنه كلمات اللعان فيقول قل أشهد بالله اني لمن الصادقين فيما رميت به زوجتي فلانة من الزنى وان كان قد رماها برجل بعينه سماه في اللعان ويقول كما يلقنه الامام وان كان ولدا وحمل يريد نفيه يقول وان هذا الولد أو هذا الحمل لمن الزنى ما هو مني ويقول في الخامسة على لعنة الله ان كنت من الكاذبين فيما رميت به فلانة واذا أتى بكلمة من كلمات اللعان من غير تلقين الامام لا تحسب فاذا فرغ الرجل من اللعان وقعت الفرقة بينه وبين الزوجة وحرمت عليه على التأبيد وانتفى عنه النسب وسقط عنه الحد ووجب على المرأة حد الزنى فهذه خمسة أحكام تتعلق بلعان الزوج قوله عز وجل (ويدرأ) أي يدفع (عنها العذاب) أي الحد (ان تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين) حكم الآية ان الزوج اذا لاعن وجب على المرأة حد الزنى فان أرادت اسقاطه عن نفسها فانها تلاعن فتقوم وتشهد بعد تلقين الحاكم أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين فيما رماني به وتقول في الخامسة على غضب الله ان كان زوجي من الصادقين فيما رماني به ولا يتعلق بلعانها الا هذا الحكم الواحد وهو اسقاط الحد عنها ولو أقام الزوج بينة لم يسقط الحد عنها باللعان وعند أصحاب الرأي لا حد على من قذف زوجته بل موجبه اللعان فان لم يلاعن حبس حتى يلاعن فاذا لاعن الزوج وامتنعت المرأة من اللعان حبست حتى تلاعن وعند الآخرين اللعان حجة صدقه والقاذف اذا قعد عن اقامة البينة على صدقه لا يحبس بل يحد كقاذف الاجنبي اذا قعد عن اقامة البينة وعند أبي حنيفة موجب اللعان وقوع الفرقة ونفي النسب وهما لا يحصلان الا بلعان الزوجين جميعا وقضاء القاضي وفرقة اللعان فرقة فسخ عند الاكثرين وبه قال الشافعي وتلك الفرقة متأبدة حتى لو أكذب الزوج نفسه يقبل ذلك فيما عليه لا فيما له فيلزمه الحد ويلحقه الولد لكن لا يرتفع تأبيد التحريم وعند أبي حنيفة فرقة اللعان فرقة طلاق فاذا أكذب نفسه جاز له ان ينكحها واذا أتى ببعض كلمات اللعان لا يتعلق به الحكم وعند أبي حنيفة اذا أتى بأكثر كلمات اللعان قام مقام الكل وكل من صح يمينه صح لعانه حرا كان أو عبدا مسلما كان أو ذميا وهو قول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار والحسن وبه قال ربيعة ومالك والثوري

والشافعي .

(ويدرأ عنها العذاب) ويدفع عنها الحبس
وفاعل يدرأ (أن تشهد أربع شهادات بالله
انه) ان الزوج (لمن الكاذبين) فيما رماني به
من الزنى (والخامسة ان غضب الله عليها ان
كان) أي الزوج (من الصادقين) فيما رماني به
من الزنى ونصب حفص الخامسة عطفا على أربع
شهادات وغيره رفعها بالابتداء وان غضب الله
خبره وخفف نافع ان لعنة الله وان غضب
بكسر الضاد وهما في حكم الثقيلة وجعل الغضب في
الله سهل ويعقوب وحفص كثيرا كما ورد به
جانبها الا ان النساء يستعملن اللعن لكثرة جري
الحديث فربما يجترئن على الاقدام وقوعه عن قلوبهن
اللعن على السنتهن وسقوط ليكون رادعا لهن
فذكر الغضب في جانبهن عندنا شهادات مؤكدات
والاصل ان اللعان قائمة مقام حد القذف
بالايمان مقرونة باللعن الا ان الله تعالى
في حقه ومقام حد الزنى في حقها زوجته بالزنى
سماه شهادة فاذا قذف الزوج بينهما واذا
وهما من أهل الشهادة صح اللعان حتى يفرق
التعنا كما بين في النهر لا تقع الفرقة رحمه الله تعالى تقع
القاضي بينهما وعند زفر بائنة وعند أبي
تلاعنهما والفرقة تطليقة مؤبد ونزلت آية
يوسف وزفر والشافعي تحريم أو عويمر حيث قال
اللعان في هلال بن أمية خولة شريك بن سحماء
وجدت على بطن امرأتي صلى الله عليه وسلم
فكذبته فلاعن النبي
بينهما

والشافعي وأكثر اهل العلم وقال الزهري والاوزاعي وأصحاب الرأي لا يجري اللعان الا بين مسلمين حرين غير محدودين فان كان أحد الزوجين رقيقا أو ذميا أو محدودا في قذف فلا لعان بينهما وظاهر القرآن حجة لمن قال يجري اللعان بينهما لان الله تعالى قال والذين يرمون أزواجهم ولم يفصل بين الحر والعبد والمحدود وغيره ولا يصح اللعان الا عند الحاكم أو نائبه ويغلظ اللعان بأربعة أشياء بتعدد الالفاظ وبالمكان والزمان وان يكون بمحضر جماعة من الناس أما تعدد الالفاظ فيجب ولا يجوز الاخلال بشئ منها واما المكان فهو ان يلاعن في أشرف الاماكن فان كان بمكة فبين الركن والمقام وان كان بالمدينة فعند منبر النبي صلى الله عليه وسلم وفي سائر البلاد في الجامع عند المنبر واما الزمان فهو ان يكون بعد العصر وأما الجمع فاقله أربعة والتغليظ بالجمع مستحب فلو لاعن الحاكم بينهما وحده جاز وفي التغليظ بالزمان والمكان قولان قوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) أي لعاجلكم بالعقوبة ولكنه ستر عليكم ودفع عنكم الحد باللعان (وان الله تواب) أي يعود على من يرجع عن المعاصي بالرحمة (حكيم) أي فيما فرضه من الحدود قوله عز وجل (ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم) الآيات سبب نزولها ما روي عن ابن شهاب قال حدثني عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لها أهل الافك ما قالوا وكلهم حدثني طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصا وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضا قالوا قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا اقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت عائشة فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما أنزل الحجاب فكنت أحمل في هودجي وأنزل فيه فسرنا حتى اذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوه وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت من شأني أقبلت الى رحلي فلمست صدري فاذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه قالت وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون اني فيه وكان النساء اذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم انما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فتيممت منزلي الذي كنت به وظننت انهم سيفقدونني فيرجعون الي فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش فادلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد انسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني وكان يراني قبل أن يضرب الحجاب علي فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرسين وفي رواية موغرين في نحر الظهيرة قالت فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا والناس يفيضون في قول أصحاب الافك ولا أشعر بشئ من ذلك وهو يريبني في وجعي اني لا أرى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين اشتكي انما يدخل فيسلم ثم يقول كيف تيكم ثم ينصرف فذلك الذي يريبني منه ولا أشعر بالشر حتى نقهت فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع وهي متبرزنا وكنا لا نخرج الا ليلا الى ليل وذلك قبل ان نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الاول في التنزه وكنا نتأذى بالكنف ان نتخذها عند بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب حين فرغنا

(ولولا فضل الله) تفضله (عليكم ورحمته)
نعمته (وان الله تواب حكيم) جواب لولا
محذوف أي لفضحكم أو لعاجلكم بالعقوبة
(ان الذين جاؤا بالافك) هو أبلغ ما يكون من
الكذب والافتراء وأصله الافك وهو القلب
لانه قول مأفوك عن وجهه والمراد ما أفك به على
عائشة رضي الله عنها قالت عائشة فقدت
عقدا في غزوة بني المصطلق فتخلفت ولم يعرف
خلوا الهودج بحملي فلما ارتحلوا أناخ لي صفوان
ابن المعطل بعيره وساقه حتى أتاهم بعدما نزلوا وكان عليه
فهلك في من هلك فاعتللت شهرا ولا أرى منه
الصلاة والسلام يسأل كيف أنت ولا أرى منه
لطفا كنت أراه حتى عثرت خالة أبي أم مسطح
فقالت تعس مسطح فأنكرت عليها فأخبرتني
بالافك فلما سمعت ازددت مرضا وبت عنده
أرى لا يرقأ لي دمع وما أكتحل بنوم وهما يظنان
ان الدمع فالق كبدي حتى قال عليه الصلاة
والسلام أبشري يا حميراء فقد أنزل الله براءتك
فقالت بحمد الله لا بحمدك (عصبة) جماعة
من العشرة الى الاربعين واعصوصبوا اجتمعوا
وهم عبد الله بن أبي رأس النفاق وزيد بن
رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة
وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم (منكم) من
جماعة المسلمين وهم ظنوا ان الافك وقع من
الكبار دون من كان من المؤمنين

من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها بئس ما قلت أتسبين رجلا قد شهد
بدرا فقالت يا هنتاه أولم تسمعي ما قال قلت وما قال فأخبرتني بقول أهل الافك فازددت مرضا الى مرضي فلما
رجعت الى بيتي فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال كيف تيكم قلت له أتأذن لي ان آتي
أبوي قالت وأنا حينئذ أريد ان أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيت
أبوي فقلت لامي يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به فقالت يا بنية هوني على نفسك فوالله لقلما كانت امرأة
قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا كثرن عليها قالت فقلت سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا
فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي قالت ودعا رسول الله
صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله قالت
فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود فقال أسامة هم أهلك
يا رسول الله ولا نعلم والله الا خيرا وأما علي بن أبي طالب فقال يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء
سواها كثير وان تسأل الجارية تصدقك قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال أي
بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة قالت له بريرة لا والذي بعثك بالحق ان رأيت منها أمرا قط
أغمصه عليها أكثر من انها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فيأتي الداجن فيأكله قالت فقام
رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو على المنبر من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي وفي رواية في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي
الا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا وما كان يدخل على أهلي الا معي قالت فقام سعد بن معاذ
الانصاري فقال أنا أعذرك منه يا رسول الله ان كان من الاوس ضربنا عنقه وان كان من اخواننا من
الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكانت أم حسان بنت عمه من
فخذه وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على
ذلك فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد يعني ابن معاذ فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه
فانك منافق تجادل عن المنافقين فثار الحيان الاوس والخزرج حتى هموا ان يقتتلوا ورسول الله صلى
الله عليه وسلم قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت قالت
وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم
فأصبح عندي أبواي وقد بكيت ليلتين ويوما حتى ظنا ان البكاء فالق كبدي قالت فبينما هما جالسان
عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الانصار فأذنت لها فجلست تبكي معي فبينا نحن كذلك اذ دخل
رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس ولم يجلس عندي من يوم قيل لي ما قيل قبلها وقد مكث شهرا
لا يوحى اليه في شأني بشيء قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال أما بعد يا عائشة
فانه بلغني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي
اليه فان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته
قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة وقلت لابي أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال قال
والله ما أدري ما أقول لرسول الله فقلت لامي أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال قالت
والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من
القرآن اني والله لقد علمت انكم سمعتم ما تحدث به الناس حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت
لكم اني بريئة والله يعلم اني بريئة لا تصدقوني بذلك ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم اني منه بريئة
لتصدقني فوالله ما أجد لي ولكم مثلا الا أبا يوسف اذ قال فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون
ثم تحولت فاضطجعت على فراشي وأنا والله حينئذ أعلم اني بريئة وان الله مبرئي ببراءتي ولكن والله
ما كنت أظن ان ينزل الله في شأني وحيا يتلى ولشأني في نفسي كان أحقر من ان يتكلم الله في بأمر يتلى

ولكن

ولكن كنت أرجو ان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها قالت فوالله ما رام رسول صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل القول الذي أنزل عليه قالت فسري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها ان قال لي يا عائشة احمدي الله وفي رواية قال ابشري يا عائشة أما الله فقد برأك فقالت لي أمي قومي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لا والله لا أقوم اليه ولا أحمد الا الله هو الذي أنزل براءتي قالت فأنزل الله عز وجل ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم العشر الآيات فأنزل الله عز وجل هذه الآيات في براءتي قالت فقال أبو بكر وكان ينفق على مسطح ابن اثاثة لقرابته منه وفقره والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة فأنزل الله ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة الى قوله غفور رحيم فقال أبو بكر بلى والله اني لاحب ان يغفر الله لي فرجع الى مسطح الذي كان يجري عليه وقال والله لا أنزعها منه أبدا قالت عائشة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن أمري فقال يا زينب ما علمت أو ما رأيت فقالت يا رسول الله احمي سمعي وبصري والله ما علمت عليها الا خيرا قالت عائشة وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع وطفقت أختها حمنه تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الافك قال ابن شهاب فهذا الذي بلغني من حديث هؤلاء الرهط زاد في رواية قالت عائشة والله ان الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت من كنف انثى قط قالت ثم قتل بعد في سبيل الله شهيدا هذا حديث متفق على صحته أخرجاه في الصحيحين زاد البخاري في رواية عن عروة عن عائشة والذي تولى كبره منهم عبد الله بن أبي بن سلول وقال عروة أخبرت انه كان يشاع ويتحدث به عنده فيقره ويستمعه ويستوشيه قال عروة لم يسم لي من أهل الافك الا حسان بن ثابت ومسطح بن اثاثة وحمنة بنت جحش في ناس آخرين لا علم لي بهم غير انهم عصبة كما قال الله تعالى قال عروة وكانت عائشة تكره ان يسب عندها حسان وتقول انه الذي قال

فان أبي ووالدتي وعرضي * لعرض محمد منكم وقاء

أخرجاه من حديث مسروق قال دخلت على عائشة وعندها حسان ينشدها شعرا بيتا من أبياته فقال

حصان رزان ما تزن بريبة * وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت عائشة لكنك لست كذلك قال مسروق فقلت لها أتأذنين له ان يدخل عليك وقد قال الله والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم قالت وأي عذاب أشد من العمى وقالت انه كان ينافح أو يهاجي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم * حل غريب ألفاظ هذا الحديث قوله وكلهم حدثني طائفة أي قطعة من حديثها قوله كان أوعى أي احفظ له قولها آذن أي اعلم بالرحيل قولها فاذا عقد لي من جزع ظفار هو نوع من الخرز وهو الجزع اليماني المعروف قولها لم يهبلن أي يكثر لحمهن من السمن فيثقلن قولها انما يأكلن العلقة من الطعام هي بضم العين أي البلغة من الطعام وهو قدر ما يمسك الرمق قولها وليس بها منهم داع ولا مجيب أي ليس بها احد لا من يدعو ولا من يرد جوابا قولها فتيممت أي قصدت قولها قد عرس من وراء الجيش فادلج التعريس نزول المسافر في آخر الليل للراحة والادلاج بالتشديد سير آخر الليل وبالتخفيف سير الليل كله قوله باسترجاعه هو قوله انا لله وانا اليه راجعون قوله فخمرت أي غطيت وجهي بجلبابي أي ازاري قولها موغرين في نحر الظهيرة الوغرة شدة الحر وكذلك نحر الظهيرة أي اولها قولها والناس يفيضون أي يخوضون ويتحدثون قولها وهو يريبني يقال رابني الشيء يريبني أي شككت فيه قولها لا ارى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطف أي الرفق بها واللطف في الافعال الرفق وفي الاقوال لين الكلام قولها حتى نقهت أي افقت من المرض والمناصع المواضع الخالية تقضى فيها الحاجة من غائط وبول وأصله المكان الواسع الخالي والمرط كساء من صوف أو خز قولها

(لا تحسبوه) أي الافك (شرا لكم) عند الله (بل هو خير لكم) لان الله أثابكم عليه وأنزل في البراءة منه ثماني عشرة آية والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعائشة وصفوان ومن ساءه ذلك من المؤمنين (لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم) أي على كل امرئ من العصبة جزاء اثمه على مقدار خوضه فيه وكان بعضهم ضحك وبعضهم تكلم فيه

وبعضهم سكت (والذي تولى كبره) أي عظمه عبد الله بن أبي (منهم) أي من العصبة (له عذاب عظيم) أي جهنم يحكى ان صفوان مر بهودجها عليه وهو في ملأ من قومه فقال من هذه فقالوا عائشة فقال والله ما نجت منه ولا نجا منها وشنع الخائنين فقال (لولا) هلا (اذ سمعتموه) أي الافك (ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم) بالذين منهم فالمؤمنون كنفس واحدة وهو كقوله ولا تلمزوا أنفسكم (خيرا) عفافا وصلاحا وذلك نحو ما روي ان عمر رضي الله عنه قال لرسول الله عليه الصلاة والسلام انا قاطع بكذب المنافقين لان الله عصمك عن وقوع الذباب على جلدك لانه يقع على النجاسات فيتلطخ بها فلما عصمك الله عن ذلك القدر من القذر فكيف لا يعصمك عن صحبة من تكون متلطخة بمثل هذه الفاحشة وقال عثمان ان الله ما أوقع ظلك على الارض لئلا يضع انسان قدمه على ذلك الظل فلما لم يمكن احدا من وضع القدم على ظلك كيف يمكن أحدا من تلويث عرض زوجتك وكذا قال علي رضي الله عنه ان جبريل أخبرك ان على نعليك قذرا وأمرك باخراج النعل عن رجلك بسبب ما التصق به من القذر فكيف لا يأمرك باخراجها بتقدير ان تكون متلطخة بشئ من الفواحش وروي أن أبا أيوب الانصاري قال لامرأته ألا ترين ما يقال فقالت لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرم رسول الله سوءا فقال لا قالت ولو كنت انا بدل عائشة ما خنت رسول الله فعائشة خير مني وصفوان خير منك وانما عدل عن الخطاب الى الغيبة وعن الضمير الى الظاهر ولم يقل ظننتم بأنفسكم خيرا وقلتم ليبالغ في التوبيخ بطريق الالتفات وليدل التصريح بلفظ الايمان على ان الاشتراك فيه يقتضي أن لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على أختها قول عائب ولا طاعن وهذا من الادب الحسن الذي قل القائم به والحافظ له وليتك تجد من يسمع فيسكت ولا يشيع ما سمعه باخوانه (وقالوا هذا افك مبين) كذب اى ظاهر لا يليق بها (لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء) هلا جاؤا على القذف لو كانوا صادقين بأربعة شهداء (فاذ لم يأتوا بالشهداء) الاربعة (فأولئك عند الله) أي في حكمه وشريعته

تعس مسطح أي عثر وهو من الدعاء على الانسان أي سقط لوجهه قولها يا هنتاه أي بلهاء كأنها تنسبها الى البله وقلة المعرفة قولها لا يرقأ لي دمع أي لا ينقطع وقول بريرة ان رأيت بمعنى النفي أي ما رأيت منها أمرا أغمصه بالصاد المهملة أي أعيبه والداجن الشاة التي تألف البيت وتقيم به قوله صلى الله عليه وسلم من يعذرني أي من يقوم بعذري ان أنا كافأته على سوء صنيعه ان عاقبت او عاقبت فلا تلوموني على ذلك قولها وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه أي من قبيلته قولها ولكن احتملته الحمية أي حملته الغضب والانفة والتعصب على الجهل للقرابة قولها فتثاور الحيان أي ثاروا ونهضوا للقتال والمخاصمة قولها فلم يزل يخفضهم أي يهون عليهم ويسكن قوله صلى الله عليه وسلم ان كنت ألممت قيل هو من اللمم وهو صغائر الذنوب وقيل معناه مقاربة الذنب من غير فعل قولها قلص دمعي أي انقطع جريانه قولها ما رام أي ما برح من مكانه والبرحاء الشدة والكرب والجمان الدرة وجمعها جمان فسري عنه أي كشف عنه وقول زينب أحمي سمعي وبصري أي أمنعهما من ان أخبر بما لم أسمع ولم أبصر قولها وهي التي كانت تساميني من السمو وهو العلو والغلبة فعصمها الله أي منعها من الوقوع في الشر بالورع وقول الرجل ما كشفت من كنف أي ستر أنثى قوله ويستوشيه أي يستخرجه بالبحث عنه والاستقصاء فيه وقول حسان في عائشة حصان بفتح الحاء يقال امرأة حصان أي متعففة رزان أي ثابتة ما تزن أي ترمى ولا تتهم بريبة أي بأمر يريب الناس وتصبح غرثى أي جائعة والغرث الجوع من لحوم الغوافل جمع غافلة والمعنى انها لا تغتاب احدا ممن هو غافل عن مثل هذا الفعل وقول عائشة في حسان انه كان ينافح أي يناضل ويخاصم عن الله ورسوله واما التفسير فقوله عز وجل ان الذين جاؤا بالافك أي بالكذب والافك أسوأ الكذب لكونه مصروفا عن الحق وذلك ان عائشة كانت تستحق الثناء والمدح بما كانت عليه من الحصانة والشرف والعقل والعلم والديانة فمن رماها بالسوء فقد قلب الحق بالباطل وجاء بالافك عصبة أي جماعة منكم أي عبد الله بن أبي بن سلول ومسطح بن اثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش زوجة طلحة بن عبيد الله فان قلت عبد الله بن أبي بن سلول كان رأس المنافقين فكيف قال منكم قلت كان ينسب الى الايمان في الظاهر وقيل قوله منكم خرج مخرج الاغلب فان حسان بن ثابت ومسطح بن اثاثة وحمنة كانوا من المؤمنين المخلصين (لا تحسبوه شرا لكم) يعني الافك الخطاب لعائشة وصفوان وقيل لعائشة ولابويها وللنبي صلى الله عليه وسلم ولصفوان (بل هو خير لكم) يعني ان الله آجركم على ذلك وأظهر براءتكم وشهد بكذب العصبة وأوجب لهم الذم وهذا غاية الشرف والفضل لكم (لكل امرئ منهم) أي من العصبة الكاذبة (ما اكتسب من الاثم) أي جزاء ما اجترح من الذنب على قدر ما خاض فيه (والذي تولى كبره) أي تحمل معظمه وبدأ بالخوض فيه وقام باشاعته وهو عبد الله بن ابي بن سلول (منهم) من العصبة (له عذاب عظيم) يعني عذاب النار في الآخرة روي ان النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالذين رموا عائشة فجلدوا الحد جميعا ثمانين ثمانين قوله عز وجل (لولا اذ سمعتموه) أي الحديث الكذب وهو قول أهل الافك (ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم) باخوانهم وأهل دينهم (خيرا) والمعنى كان الواجب على المؤمنين اذ سمعوا قول أهل الافك ان يكذبوه ويحسنوا الظن ولا يسرعوا في التهمة وقول الزور فيمن عرفوا عفته وطهارته وفيه معاتبة للمؤمنين (وقالوا هذا افك مبين) أي كذب بين لا حقيقة له (لولا) أي هلا (جاؤا عليه) أي على ما زعموا (بأربعة شهداء) أي يشهدون بذلك (فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله)

(هم الكاذبون) أي القاذفون لان الله تعالى جعل التفصلة بين الرمي الصادق والكاذب ثبوت شهادة الشهود الاربعة وانتفاءها والذين رموا عائشة رضي الله عنها لم يكن لهم بينة على قولهم فكانوا كاذبين (ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) لولا هذه لامتناع الشيء لوجود غيره بخلاف ما تقدم أي ولولا أني قضيت ان أتفضل عليكم في الدنيا بضروب النعم التي من جملتها الامهال للتوبة وان أترحم عليكم في الآخرة بالعفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الافك يقال افاض في الحديث وخاض واندفع (اذ) ظرف لمسكم أو لافضتم (تلقونه) يأخذه بعضكم من بعض يقال تلقى القول وتلقفه وتلقفه (بألسنتكم) أي ان بعضكم كان يقول لبعض هل بلغك حديث عائشة حتى شاع فيما بينهم وانتشر فلم يبق بيت ولا ناد الا طار فيه (وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) انما قيد بالافواه مع ان القول لا يكون الا بالفم لان الشيء المعلوم يكون علمه في القلب ثم يترجم عنه اللسان وهذا الافك ليس الا قولا يدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب كقوله يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم (وتحسبونه) أي خوضكم في عائشة رضي الله عنها (هينا) صغيرة (وهو عند الله عظيم) كبيرة جزع بعضهم عند الموت فقيل له في ذلك فقال أخاف ذنبا لم يكن مني على بال وهو عند الله عظيم (ولولا) وهلا (اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا) فصل بين لولا وقلتم بالظرف لان للظروف شأنا وهو تنزلها من الاشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها وانها لا تنفك عنها فلذا يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها وفائدة تقديم الظرف انه كان الواجب عليهم ان يتفادوا أول ما سمعوا بالافك عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت أهم قدم والمعنى هلا قلتم اذ سمعتم الافك ما يصح لنا ان نتكلم بهذا (سبحانك) للتعجب من عظم الامر ومعنى التعجب في كلمة التسبيح ان الاصل ان يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه أو لتنزيه الله من ان تكون حرمة نبيه فاجرة وانما جاز ان تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط ولم يجز ان تكون فاجرة لان النبي مبعوث الى الكفار ليدعوهم فيجب ان لا يكون معه ما ينفرهم عنه والكفر غير منفر عندهم وأما الكشخنة فمن أعظم المنفرات (هذا بهتان) زور يبهت من يسمع (عظيم) وذكر فيما تقدم هذا افك مبين وجوزان يكونوا أمروا بهما مبالغة في التبري (يعظكم الله ان تعودوا) في ان تعودوا (لمثله) لمثل هذا الحديث من القذف أو استماع حديثه (أبدا) ما دمتم أحياء مكلفين (ان كنتم مؤمنين) فيه تهييج لهم ليتعظوا وتذكير بما يوجب ترك العود وهو الايمان الصاد عن كل قبيح (ويبين الله لكم الآيات) الدلالات الواضحات واحكام الشرائع والآداب الجميلة (والله عليم) بكم وبأعمالكم (حكيم) يجزي على وفق أعمالكم أو عليم بصدق نزاهتها وحكيم ببراءتها (ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا) أي ما قبح جدا والمعنى يشيعون الفاحشة عن قصد الاشاعة ومحبة لها (لهم عذاب أليم في الدنيا) بالحد ولقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم ابن أبي وحسانا ومسطحا الحد (والآخرة) بالنار وعدها ان لم يتوبوا (والله يعلم) بواطن الامور وسرائر الصدور (وأنتم لا تعلمون) أي انه قد علم محبة من أحب الاشاعة وهو معاقبه عليها (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) لعجل لكم العذاب وكرر المنة بترك المعاجلة بالعقاب مع حذف الجواب مبالغة في المنة عليهم والتوبيخ لهم (وان الله رؤف) حيث أظهر براءة المقذوف وأثاب (رحيم) بغفرانه جناية القاذف اذا تاب (يا أيها الذين

أي في حكم الله (هم الكاذبون) وهذا من باب الزواجر فان قلت كيف يصيرون عند الله كاذبين اذا لم يأتوا بالشهداء ومن كذب فهو عند الله كاذب سواء أتى بالشهداء أو لم يأت قلت قيل هذا في حق الذين رموا عائشة خاصة ومعناه فأولئك هم الكاذبون في غيبي وعلمي وقيل معناه فأولئك عند الله في حكم الكاذبين فان الكاذب يجب زجره عن الكذب والقاذف اذا لم يأت بالشهود يجب زجره قوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) معناه لولا اني قضيت ان أتفضل عليكم في الدنيا بضروب النعم التي من جملتها الامهال للتوبة وان أترحم عليكم في الآخرة بالعفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم من حديث الافك والخطاب للقذفة وهذا الفضل هو تأخير العذاب وقبول التوبة ممن تاب (اذ تلقونه بألسنتكم) أي يرويه بعضكم عن بعض وذلك ان الرجل منهم يلقى الرجل فيقول بلغني كذا وكذا فيتلقونه تلقيا يلقيه بعضهم الى بعض (وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) أي من غير ان تعلموا أنه حق (وتحسبونه هينا) أي وتظنون انه سهل لا اثم فيه (وهو عند الله عظيم) أي في الوزر (ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك) قيل هو للتعجب وقيل هو للتنزيه (هذا بهتان عظيم) أي كذب عظيم يبهت ويتحير من عظمه روي ان أم أيوب الانصاري قالت لأبي أيوب الانصاري أما بلغك ما تقول الناس في عائشة فقال سبحانك هذا بهتان عظيم فنزلت الآية على وفق قوله (يعظكم الله) قال ابن عباس يحرم الله عليكم وقيل ينهاكم الله (ان تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات) أي في الامر والنهي (والله عليم) أي بأمر عائشة وصفوان (حكيم) أي حكم ببراءتهما قوله عز وجل (ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة) أي يظهر الزنى ويذيع (في الذين آمنوا) قيل الآية مخصوصة بمن قذف عائشة والمراد بالذين آمنوا عائشة وصفوان وقيل الآية على العموم فكل من أحب ان تشيع الفاحشة أو تظهر على أحد فهو داخل في حكم هذه الآية والمراد بالذين آمنوا جميع المؤمنين (لهم عذاب أليم في الدنيا) يعني الحد والذم على فعله (والآخرة) أي وفي الآخرة لهم النار (والله يعلم) أي كذبهم وبراءة عائشة وما خاضوا فيه من سخط الله (وأنتم لا تعلمون) وقيل معناه يعلم ما في قلب من يحب ان تشيع الفاحشة فيجازيه على ذلك وأنتم لا تعلمون ذلك (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) أي لولا انعامه عليكم لعاجلكم بالعقوبة قال ابن عباس يريد مسطحا وحسان بن ثابت وحمنة (وان الله رؤف رحيم) قوله تعالى (يا أيها الذين

امنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) أي آثاره ووساوسه بالاصغاء الى الافك والقول فيه (ومن يتبع خطوات الشيطان فانه) فان الشيطان (يأمر بالفحشاء) ما أفرط قبحه (والمنكر) ما تنكره النفوس فتنفر عنه ولا ترتضيه (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا) ولولا ان الله تفضل عليكم بالتوبة الممحصة لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس اثم الافك (ولكن الله يزكي من يشاء) يطهر التائبين بقبول توبتهم اذا محضوها (والله سميع) لقولهم (عليم) بضمائرهم واخلاصهم (ولا يأتل) ولا يحلف من ائتلى اذا حلف افتعال من الالية أو لا يقصر من الالو (أولو الفضل منكم) في الدين (والسعة) في الدنيا (ان يؤتوا) أي لا يؤتوا ان كان من الالية (أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله) أي لا يحلفوا على ان لا يحسنوا الى المستحقين للاحسان أو لا يقصروا في ان يحسنوا اليهم وان كانت بينهم وبينهم شحناء لجناية اقترفوها (وليعفوا وليصفحوا) العفو الستر والصفح الاعراض أي وليتجاوزوا عن الجفاء وليعرضوا عن العقوبة (ألا تحبون ان يغفر الله لكم) فليفعلوا بهم ما يرجون ان يفعل بهم ربهم مع كثرة خطاياهم (والله غفور رحيم) فتأدبوا بأدب الله واغفروا وارحموا نزلت في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين حلف ان لا ينفق على مسطح ابن خالته لخوضه في عائشة رضي الله عنها وكان مسكينا بدريا مهاجرا ولما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أبي بكر قال بلى أحب ان يغفر الله لي ورد الى مسطح نفقته (ان الذين يرمون المحصنات) العفائف (الغافلات) السليمات الصدور النقيات القلوب اللاتي ليس فيهن دهاء ولا مكر لانهن لم يجربن الامور (المؤمنات) بما يجب الايمان به عن ابن عباس رضي الله عنه هن أزواجه عليه الصلاة والسلام وقيل من جميع المؤمنات اذ العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب وقيل أريدت عائشة رضي الله عنها وحدها وانما جمع لان من قذف واحدة من نساء النبي عليه الصلاة والسلام فكأنه قذفهن (لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) جعل القذفة ملعونين في الدارين وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة ان لم يتوبوا والعامل في (يوم تشهد عليهم) يعذبون وبالياء حمزة وعلي (ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) أي بما أفكوا أو بهتوا والعامل في (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) بالنصب صفة للدين وهو الجزاء ومعنى الحق الثابت الذي هم أهله وقرأ مجاهد بالرفع صفة كقراءة أبي يوفيهم الله الحق دينهم وعلى قراءة النصب يجوز ان يكون الحق وصفا لله بان ينتصب على المدح (ويعلمون) عند ذلك (ان الله هو الحق المبين) لارتفاع الشكوك وحصول العلم الضروري ولم يغلظ الله تعالى في القرآن في شيء من المعاصي تغليظه في افك عائشة رضي الله عنها فأوجز في ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر وما ذاك الا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته الا من خاض في أمر عائشة وهذا منه تعظيم ومبالغة في أمر الافك ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة برأ يوسف عليه السلام بشاهد من أهلها وموسى عليه السلام من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه ومريم رضي الله عنها بانطاق ولدها وعائشة رضي الله عنها بهذه الآي العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر بهذه المبالغات فانظر كم بينها وبين تبرئة اولئك وما ذاك الا لاظهار علو منزلة رسوله والتنبيه على انافة محله صلى الله عليه وسلم وعلى آله

آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) أي آثاره ومسالكه (ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر) أي بالقبائح من الاقوال والافعال وكل ما يكرهه الله عز وجل والآية عامة في حق كل أحد لان كل مكلف ممنوع من ذلك (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا) أي ما طهر ولا صلح والآية عند بعض المفسرين على العموم قالوا أخبر الله تعالى انه لولا فضله ورحمته بالعصمة ما صلح منكم أحد وقيل الخطاب للذين خاضوا في الافك ومعناه ما طهر من هذا الذنب ولا صلح أمره بعد الذي فعل وهذا قول ابن عباس قال معناه ما قبل توبة أحد منكم أبدا (ولكن الله يزكي) أي يطهر (من يشاء) من الذنب بالرحمة والمغفرة (والله سميع) أي لأقوالكم (عليم) أي بما في قلوبكم قوله عز وجل (ولا يأتل) أي ولا يحلف من الالية وهي القسم (أولو الفضل منكم والسعة) يعني الغنى يعني أبا بكر الصديق (أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله) يعني مسطحا وكان مسكينا مهاجرا بدريا ابن خالة أبي بكر الصديق حلف أبو بكر ان لا ينفق عليه فانزل الله هذه الآية (وليعفوا وليصفحوا) أي عن خوض مسطح في أمر عائشة (ألا تحبون) يخاطب أبا بكر (أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) فلما قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي بكر قال بلى أنا أحب أن يغفر الله لي ورجع الى مسطح نفقته التي كان ينفق عليه وقال والله لا أنزعها عنه أبدا وفي الآية أدلة على فضل أبي بكر الصديق لان الفضل المذكور في الآية ذكره تعالى في معرض المدح وذكره بلفظ الجمع في قوله أولو الفضل وقوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم وهذا يدل على علو شأنه ومرتبته ومنها انه احتمل الأذى من ذوي القربى ورجع عليه بما كان ينفقه عليه وهذا من أشد الجهاد لانه جهاد النفس ومنها انه تعالى قال في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعف عنهم واصفح وقال في حق أبي بكر وليعفوا وليصفحوا فدل ان أبا بكر كان ثاني اثنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع الاخلاق وفي الآية دليل على ان من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير ويكفر عن يمينه ومنه الحديث الصحيح من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه قوله تعالى (ان الذين يرمون المحصنات) أي العفائف (الغافلات) أي عن الفواحش والغافلة عن الفاحشة هي التي لا يقع في قلبها فعل الفاحشة وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها (المؤمنات) وصفها بالمؤمنات لعلو شأنها (لعنوا) أي عذبوا (في الدنيا) بالحد (والآخرة) أي وفي الآخرة بالنار (ولهم عذاب عظيم) وهذا في حق عبد الله بن أبي بن سلول المنافق وروي عن خصيف قال قلت لسعيد بن جبير من قذف مؤمنة يلعنه الله في الدنيا والآخرة قال ذلك لعائشة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم خاصة دون سائر المؤمنات ليس في ذلك توبة ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل له توبة ثم قرأ والذين يرمون المحصنات الى قوله تابوا فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لاولئك وقيل بل لهم توبة أيضا للآية (يوم تشهد عليهم ألسنتهم) هذا قبل أن يختم على أفواههم (وأيديهم وأرجلهم) يروى انه يختم على الافواه فتتكلم الأيدي والأرجل بما عملت في الدنيا وهو قوله (بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) أي جزاءهم الواجب وقيل حسابهم العدل (ويعلمون ان الله هو الحق المبين) أي الموجود الظاهر الذي بقدرته

وجود

(الخبيثات) من القول تقال (للخبيثين) من الرجال والنساء (والخبيثون) منهم يتعرضون (للخبيثات) من القول وكذلك (والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرؤن مما يقولون) أى فيهم وأولئك اشارة الى الطيبين وانهم مبرؤن مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلام وهو كلام جار مجرى المثل لعائشة رضى الله عنها وما رميت به من قول لا يطابق حالها فى النزاهة والطيب ويجوز أن يكون اشارة الى أهل البيت وانهم مبرؤن مما يقول أهل الافك وان يراد بالخبيثات والطيبات النساء الخبائث يتزوجن الخباث والخباث تتزوج الخبائث وكذا أهل الطيب (لهم مغفرة) مستأنف أوخبر بعد خبر (ورزق كريم) فى الجنة ودخل ابن عباس رضى الله عنهما على عائشة رضى الله عنها فى مرضها وهى خائفة من القدوم على الله تعالى فقال لا تخافى لانك لا تقدمين الا على مغفرة ورزق كريم وتلا الآية فغشى عليها فرحا بما تلا وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها أعطيت تسعا ما أعطيتهن امرأة نزل جبريل بصورتى فى راحته حين أمر عليه الصلاة والسلام ان يتزوجنى بكرا وما تزوج بكرا غيرى وتوفى عليه الصلاة والسلام ورأسه فى حجرى وقبره فى بيتى ولقد حفته الملائكة فى بيتى وينزل عليه الوحى وأنا فى لحافه وأنا ابنة خليفته وصديقه ونزل عذرى من السماء وخلقت طيبة عند طيب ووعدت مغفرة ورزقا كريما وقال حسان معتذرا فى حقها

حصان رزان ماتزن بريبة
وتصبح غرثى عن لحوم الغوافل

حليلة خير الناس دينا ومنصبا
نبى الهدى والمكرمات الفواضل

عقيلة حى من لؤى بن غالب
كرام المساعى مجدها غير زائل

مهذبة قد طيب الله خيمها
وطهرها من كل شين وباطل

(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم) أى بيوتا لستم تملكونها ولا تسكنونها (حتى تستأنسوا) أى تستأذنوا عن ابن عباس رضى الله عنهما وقد قرأ به والاستئناس فى الاصل الاستعلام والاستكشاف استفعال من أنس الشئ اذا أبصره ظاهرا مكشوفا أى حتى تستعلموا أيطلق لكم الدخول أم لا وذلك بتسبيحة أو بتكبيرة أو بتحميدة أو بتنحنح (وتسلموا على أهلها) والتسليم ان يقول السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات فان أذن له والا رجع وقيل ان تلاقيا يقدم التسليم والا فالاستئذان

وجود كل شئ وقيل معناه يبين لهم حقيقة ما كان يعدهم فى الدنيا وقال ابن عباس وذلك ان عبد الله ابن ابى بن سلول كان يشك فى الدين فيعلم يوم القيامة ان الله هو الحق المبين قوله عز وجل (الخبيثات للخبيثين) قال أكثر المفسرين معنى الخبيثات الكلمات والقول للخبيثين من الناس ومثله (والخبيثون) اى من الناس (للخبيثات) من القول (والطيبات) اى من القول ومعنى الآية ان الخبيث من القول لا يليق الا بالخبيث من الناس والطيب من القول لا يليق الا بالطيب من الناس وعائشة لا يليق بها الخبيث من القول لانها طيبة فيضاف اليها طيب القول من الثناء والمدح وما يليق بها وقيل معناه لا يتكلم الخبيث الا بالخبيث من الرجال والنساء وهذا ذم للذين قذفوا عائشة ولا يتكلم بالطيب من القول الا الطيب من الرجال والنساء وهذا مدح للذين برؤها بالطاهر والمدح لها وقيل معنى الآية الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء امثال عبد الله بن ابى المنافق والشاكين فى الدين والطيبات من النساء (للطيبين والطيبون للطيبات) يريد عائشة طيبها الله لرسوله صلى الله عليه وسلم (أولئك مبرؤن) يعنى عائشة وصفوان ذكرهما الله بلفظ الجمع منزهون (مما يقولون) يعنى اصحاب الافك (لهم مغفرة) أى عفو لذنوبهم (ورزق كريم) يعنى الجنة روى ان عائشة كانت تفتخر بأشياء اعطيتها لم تعطها امرأة غيرها منها أن جبريل عليه السلام اتى بصورتها فى سرقة حرير وقال هذه زوجتك وروى انه اتى بصورتها فى راحته ومنها ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكرا غيرها وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجرها وفى يومها ودفن فى بيتها وكان ينزل عليه الوحى وهى معه فى اللحاف ونزلت براءتها من السماء وانها ابنة الصديق وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلقت طيبة ووعدت مغفرة ورزقا كريما وكان مسروق اذا حدث عن عائشة يقول حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم المبرأة من السماء قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا) اى تستأذنوا وكان ابن عباس يقرأ حتى تستأذنوا ويقول تستأنسوا خطأ من الكاتب وفى هذه الرواية نظر لان القرآن مثبت بالتواتر والاستئناس فى اللغة الاستئذان وقيل الاستئناس طلب الانس وهو ان ينظر هل فى البيت انسان فيؤذنه انى داخل وقيل من آنست اى ابصرت وقيل هو ان يتكلم بتسبيحة او يتنحنح حتى يعرف اهل البيت (وتسلموا على اهلها) بيان حكم الآية انه لا يدخل بيت الغير الا بعد الاستئذان والسلام واختلفوا فى ايهما يقدم فقيل يقدم الاستئذان فيقول أدخل سلام عليكم كما فى الآية من تقديم الاستئذان قبل السلام وقال الاكثرون يقدم السلام فيقول سلام عليكم أدخل وتقدير الآية حتى تسلموا على اهلها وتستأذنوا وكذا هو فى مصحف ابن مسعود وروى عن كلدة بن حنبل قال دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم ولم اسلم ولم استأذن فقال النبى صلى الله عليه وسلم ارجع فقل السلام عليكم أأدخل اخرجه ابو داود والترمذى وعن ربعى بن حراش قال جاء رجل من بنى عامر فاستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى البيت فقال أألج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخادمه اخرج الى هذا فعلمه الاستئذان فقل له قل السلام عليكم أأدخل فسمع الرجل ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السلام عليكم أأدخل فاذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجه ابو داود (ق) عن ابى سعيد وأبى بن كعب عن أبى موسى قال ابو سعيد كنت فى مجلس من مجالس الانصار اذ جاء ابو موسى كانه مذعور فقال استأذنت على عمر ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت قال ما منعك قلت استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع قال والله لتقيمن عليه بينة أمنكم

احد منهم من النبي صلى الله عليه وسلم قال أبي بن كعب فوالله لا يقوم معك الا اصغر القوم فكنت
اصغر القوم فقمت معه واخبرت عمر ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك قال الحسن الاول اعلام
والثاني مؤامرة والثالث استئذان بالرجوع عن عبد الله بن بسر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
اذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الايمن او الايسر ويقول السلام عليكم
السلام عليكم وذلك ان الدور لم يكن عليها يومئذ ستور اخرجه أبو داود وعن ابي هريرة قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم اذا دعي احدكم فجاء مع الرسول فان ذلك له اذن أخرجه أبو داود وقيل اذا وقع بصره
على انسان قدم السلام والا قدم الاستئذان ثم يسلم وقال أبو موسى الاشعري وحذيفة يستأذن على
ذوات المحارم يدل عليه ما روي عن عطاء بن يسار ان رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
استأذن على أمي قال نعم فقال الرجل اني معها في البيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عليها
فقال الرجل اني خادمها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن عليها أتحب ان تراها عريانة قال
لا قال فاستأذن عليها أخرجه مالك في الموطأ مرسلا وقوله تعالى (ذلكم خير لكم) أي فعل الاستئذان
خير لكم وأولى بكم من التهجم بغير اذن (لعلكم تذكرون) أي هذه الآداب فتعملوا بها قوله عز وجل
(فان لم تجدوا فيها) أي في البيوت (أحدا) أي يأذن لكم في دخولها (فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) أي
في الدخول (وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا) يعني اذا كان في البيت قوم وكرهوا دخول الداخل عليهم
فقالوا ارجع فليرجع ولا يقف على الباب ملازما (هو أزكى لكم) أي الرجوع هو أطهر وأصلح لكم فان
للناس أحوالا وحاجات يكرهون الدخول عليهم في تلك الاحوال واذا حضر الى الباب فلم يستأذن وقعد
على الباب منتظرا جاز كان ابن عباس يأتي دور الانصار لطلب الحديث فيقعد على الباب ولا يستأذن
حتى يخرج اليه الرجل فاذا خرج ورآه قال يا ابن عم رسول الله لو أخبرتني بمكانك فيقول هكذا أمرنا ان
نطلب العلم واذا وقف على الباب فلا ينظر من شقه اذا كان الباب مردودا (ق) عن سهل بن سعد قال
اطلع رجل من جحر في باب النبي صلى الله عليه وسلم ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم مدرى يرجل
وفي رواية يحك به رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو علمت انك تنظر لطعنت به في عينك انما
جعل الاذن من أجل البصر (ق) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من اطلع في بيت
قوم بغير اذنهم فقد حل لهم ان يفقؤا عينه وفي رواية للنسائي قال لو أن امرأ اطلع عليك بغير اذن فحذفته
ففقأت عينه ما كان عليك حرج وقال مرة أخرى جناح (والله بما تعملون عليم) أي من الدخول بالاذن
ولما نزلت آية الاستئذان قالوا كيف بالبيوت التي بين مكة والمدينة والشام على ظهر الطريق ليس فيها
ساكن فأنزل الله تعالى (ليس عليكم جناح) أي اثم (ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة) أي بغير استئذان
(فيها متاع لكم) أي منفعة لكم قيل ان هذه البيوت هي الخانات والمنازل المبنية للسابلة ليأووا اليها
ويؤووا أمتعتهم فيها فيجوز دخولها بغير استئذان والمنفعة النزول بها واتقاء الحر والبرد وايواء الامتعة بها
وقيل بيوت التجار وحوانيتهم في الاسواق يدخلها للبيع والشراء وهو منفعتها فليس فيها استئذان
وقيل هي جميع البيوت التي لا ساكن فيها لان الاستئذان انما جعل لئلا يطلع على عورة فان لم يخف ذلك
جاز له الدخول بغير استئذان (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا
من أبصارهم) أي عما لا يحل النظر اليه قيل معناه يغضوا أبصارهم وقيل من هنا للتبعيض لانه لا يجب
الغض عما يحل اليه النظر وانما أمروا ان يغضوا عما لا يحل النظر اليه (م) عن جرير قال سألت رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجاءة قال اصرف بصرك عن بريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لعلي يا علي لا تتبع النظرة النظرة فان لك الاولى وليست لك الثانية أخرجه أبو داود والترمذي (م)
عن ابي سعيد الخدري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر الرجل الى عورة الرجل ولا المرأة الى
عورة المرأة ولا يفضي الرجل الى الرجل في ثوب واحد ولا تفضي المرأة الى المرأة في ثوب واحد وقوله تعالى

(ويحفظوا

(ذلكم) أي الاستئذان والتسليم (خير لكم) من تحية الجاهلية والدمور وهو الدخول بغير اذن وكان الرجل من أهل الجاهلية اذا دخل بيت غيره يقول حييتم صباحا وحييتم مساء ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف واحد (لعلكم تذكرون) أي قيل لكم هذا لكي تذكروا وتتعظوا وتعملوا بما أمرتم به في باب الاستئذان (فان لم تجدوا فيها) في البيوت (أحدا) من الآذنين (فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) حتى تجدوا من يأذن لكم أو فان لم تجدوا فيها احدا من أهلها ولكم فيها حاجة فلا تدخلوها الا باذن أهلها لان التصرف في ملك الغير لا بد من ان يكون برضاه (وان قيل لكم ارجعوا) أي اذا كان فيها قوم فقالوا ارجعوا (فارجعوا) ولا تلحوا في اطلاق الاذن ولا تلحوا في تسهيل الحجاب ولا تقفوا على الابواب لان هذا مما يجلب الكراهة واذا نهي عن ذلك لادائه الى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي الى الكراهة من قرع الباب بعنف والتصييح بصاحب الدار وغير ذلك وعن عبيدة ما قرعت بابا على عالم قط (هو أزكى لكم) أي الرجوع أطيب وأطهر لما فيه من سلامة الصدور والبعد عن الريبة او أنفع وأنمى خيرا (والله بما تعملون عليم) وعيد للمخاطبين بانه عالم بما يأتون وما يذرون مما خوطبوا به فوفى جزاءه عليه (ليس عليكم جناح) في (ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة) استثنى من البيوت التي يجب الاستئذان على داخلها ما ليس بمسكون منها كالخانات والربط وحوانيت التجار (فيها متاع لكم) أي منفعة كالاستكنان من الحر والبرد وايواء الرحال والسلع والشراء والبيع وقيل الخربات يتبرز فيها والمتاع التبرز (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) وعيد للذين يدخلون الخربات والدور الخالية من أهل الريبة (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) من للتبعيض والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل

(ويحفظوا فروجهم) من الزنى ولم يدخل من هنا لان الزنى لا رخصة فيه بوجه ويجوز النظر الى وجه الاجنبية وكفيها وقدميها في رواية والى رأس المحارم والصدر والساقين والعضدين (ذلك) أي غض البصر وحفظ الفرج (أزكى لهم) أي أطهر من دنس الاثم (ان الله خبير بما يصنعون) فيه ترغيب وترهيب يعني انه خبير بأحوالهم وأفعالهم وكيف يجيلون أبصارهم يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور فعليهم اذا عرفوا ذلك ان يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة وسكون (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) أمرن بغض الابصار فلا يحل للمرأة ان تنظر من الاجنبي الى ما تحت سرته الى ركبته وان اشتهت غضت بصرها رأسا ولا تنظر الى المرأة الا الى مثل ذلك وغض بصرها من الاجانب أصلا أولى بها وانما قدم غض الابصار على حفظ الفروج لان النظر بريد الزنى ورائد الفجور وبذر الهوى طموح العين (ولا يبدين زينتهن) الزينة ما تزينت به المرأة من حلي أو كحل أو خضاب والمعنى لا يظهرن مواضع الزينة وهي الحلي ونحوها مباح فالمراد بها مواضعها الا اظهارها مواضعها الا اظهار أعيانها ومواضعها الرأس والاذن والعنق والصدر والعضدان والذراع والساق فهي للاكليل والقرط والقلادة والوشاح والدملج والسوار والخلخال (الا ما ظهر منها) الا ما جرت العادة والجبلة على ظهوره وهو الوجه والكفان والقدمان ففي سترها حرج بين فان المرأة لا تجد بدا من مزاولة الاشياء بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها خصوصا في الشهادة والمحاكمة والنكاح وتضطر الى المشي في الطرقات وظهور قدميها وخاصة الفقيرات منهن (وليضربن) وليضعن من قولك ضربت بيدي على الحائط اذا وضعتها عليه (بخمرهن) جمع خمار (على جيوبهن) بضم الجيم مدني وبصري وعاصم كانت جيوبهن واسعة تبدو منها صدورهن وما حواليها وكن يسدلن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة فأمرن ان يسدلنها من قدامهن حتى تغطيهن (ولا يبدين زينتهن) أي مواضع الزينة الباطنة كالصدر والساق والرأس ونحوها (الا لبعولتهن) لازواجهن جمع بعل (أو آبائهن) ويدخل فيهم الاجداد (أو آباء بعولتهن) فقد صاروا محارم (أو أبنائهن) ويدخل فيهم النوافل (أو أبناء بعولتهن) فقد صاروا محارم أيضا (أو اخوانهن أو بني اخوانهن أو بني أخواتهن) ويدخل فيهم النوافل وسائر المحارم كالاعمام والاخوال وغيرهم دلالة (أو نسائهن) أي الحرائر لان مطلق هذا اللفظ يتناول الحرائر (أو ما ملكت أيمانهن) أي اماؤهن ولا يحل لعبدها ان ينظر الى هذه المواضع منها خصيا كان أو عنينا أو فحلا وقال سعيد بن المسيب لا تغرنكم سورة النور فانها في الاماء دون الذكور وعن عائشة رضي الله عنها انها أباحت النظر اليها لعبدها

(ويحفظوا فروجهم) أي عما لا يحل قال أبو العالية كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنى الا في هذا الموضع فانه أراد به الاستتار حتى لا يقع بصر الغير عليه فان قلت كيف أدخل من على غض البصر دون حفظ الفرج قلت فيه دلالة على ان أمر النظر أوسع ألا ترى ان المحارم لا بأس بالنظر الى شعورهن وثديهن وأعضادهن وأقدامهن وكذلك الجواري المستعرضات في البيع والاجنبية يجوز النظر الى وجهها وكفيها للحاجة الى ذلك وأما أمر الفروج فضيق وكفاك ان أبيح النظر الا ما استثني منه وحظر الجماع الا ما استثني منه فان قلت كيف قدم غض البصر على حفظ الفرج قلت لان النظر بريد الزنى ورائد الفجور والبلوى فيه أشد ولا يكاد أحد يقدر على الاحتراس منه (ذلك أزكى لهم) أي غض البصر وحفظ الفرج (ان الله خبير بما يصنعون) أي انه خبير بأحوالهم وأفعالهم وكيف يجيلون أبصارهم وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم قوله عز وجل (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) أي عما لا يحل لهن روي عن أم سلمة قالت كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ميمونة بنت الحارث اذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل علينا وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجبا منه فقلنا يا رسول الله أليس أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه أخرجه الترمذي وأبو داود وقوله تعالى (ولا يبدين) أي لا يظهرن (زينتهن) أي لغير محرم وأراد بالزينة الخفية مثل الخلخال والخضاب في الرجل والسوار في المعصم والقرط في الاذن والقلائد في العنق فلا يجوز للمرأة اظهارها ولا يجوز للاجنبي النظر اليها والمراد من الزينة النظر الى مواضعها من البدن (الا ما ظهر منها) أي من الزينة قال سعيد بن جبير والضحاك والاوزاعي الوجه والكفان وقال ابن مسعود هي الثياب وقال ابن عباس هي الكحل والخاتم والخضاب في الكف فما كان من الزينة الظاهرة يجوز للرجل الاجنبي النظر اليه للضرورة مثل تحمل الشهادة ونحوه من الضرورات اذا لم يخف فتنة وشهوة فان خاف شيئا من ذلك غض البصر وانما رخص في هذا القدر للمرأة ان تبديه من بدنها لانه ليس بعورة وتؤمر بكشفه في الصلاة وسائر بدنها عورة (وليضربن بخمرهن) أي ليلقين بمقانعهن (على جيوبهن) أي موضع الجيب وهو النحر والصدر أي ليسترن بذلك شعورهن وأعناقهن وأقراطهن وصدورهن (خ) عن عائشة قالت يرحم الله نساء المهاجرات الاول لما أنزل الله وليضربن بخمرهن على جيوبهن شققن مروطهن فاختمرن بها المرط كساء من صوف أو خز أو كتان وقيل هو الازار وقيل هو الدرع (ولا يبدين زينتهن) يعني الخفية التي لم يبح لهن كشفها في الصلاة ولا للاجانب وهي ما عدا الوجه والكفين (الا لبعولتهن) قال ابن عباس لا يضعن الجلباب والخمار الا لازواجهن (أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بني اخوانهن أو بني أخواتهن) فيجوز لهؤلاء ان ينظروا الى الزينة الباطنة ولا ينظرون الى ما بين السرة والركبة ويجوز للزوج ان ينظر الى جميع بدن زوجته غير انه يكره له النظر الى فرجها (أو نسائهن) أي المؤمنات من أهل دينهن أراد به انه يجوز للمرأة ان تنظر الى بدن المرأة الا ما بين السرة والركبة ولا يجوز للمرأة المؤمنة ان تتجرد من ثيابها عند الذمية أو الكافرة لان الله تعالى قال أو نسائهن والذمية والكافرة ليست من نسائنا ولانها أجنبية في الدين فكانت أبعد من الرجل الاجنبي كتب عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة بن الجراح ان يمنع نساء أهل الكتاب ان يدخلن الحمام مع المسلمات وقيل يجوز كما يجوز ان تتكشف للمرأة المسلمة لانها من جملة النساء (أو ما ملكت أيمانهن) قيل هو عبد المرأة فيجوز له

الدخول عليها اذا كان عفيفا وان ينظر الى مولاته الا ما بين السرة والركبة كالمحارم وهو ظاهر القرآن يروى ذلك عن عائشة وأم سلمة وروى أنس ان النبى صلى الله عليه وسلم أتى الى فاطمة بعبد قد وهبه لها وعلى فاطمة ثوب اذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها واذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تلقى قال انه ليس عليك بأس انما هو أبوك وغلامك وقيل هو كالاجنبى معها وهو قول سعيد بن المسيب قال والمراد من الآية الاماء دون العبيد (أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال) قرئ غير بنصب الراء وقيل هو بمعنى الاستثناء ومعناه يبدين زينتهن للتابعين الا ذا الاربة منهم فانهن لا يبدين زينتهن لمن كان منهم ذا اربة وقرئ غير بالجر على نعت التابعين والاربة والارب الحاجة والمراد بالتابعين غير أولى الاربة هم الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم لا همة لهم الا ذلك ولا حاجة لهم فى النساء وقال ابن عباس هو الاحمق العنين وقيل هو الذى لا يستطيع غشيان النساء ولا يشتهين وقيل هو المجبوب والخصى وقيل هو الشيخ الهرم الذى ذهبت شهوته وقيل هو المخنث (م) عن عائشة رضى الله عنها قالت كان يدخل على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم مخنث وكانوا يعدونه من غير أولى الاربة فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة قال اذا أقبلت أقبلت بأربع واذا أدبرت أدبرت بثمان فقال النبى صلى الله عليه وسلم الا أرى هذا يعرف ما ههنا لا يدخل عليكن فحجبوه زاد أبو داود فى رواية وأخرجوه الى البيداء يدخل كل جمعة فيستطعم قوله أقبلت بأربع أى ان لها فى بطنها أربع عكن فهى تقبل اذا أقبلت بها وأراد بالثمان اطراف العكن الاربع من الجانبين وذلك صفة لها بالسمن (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) أى لم يكشفوا عن عورات النساء للجماع فيطلعوا عليها وقيل لم يعرفوا العورة من غيرها من الصغر وقيل لم يطيقوا أمر النساء وقيل لم يبلغوا حد الشهوة وقيل الطفولة اسم للصبى ما لم يحتلم (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) قيل كانت المرأة اذا مشت ضربت برجلها ليسمع صوت خلخالها أو يتبين خلخالها فنهين عن ذلك الرجل تغلب عليه شهوة النساء اذا سمع صوت الخلخال و يصير ذلك داعية له زائدة فى مشاهدتهن وقد علل ذلك بقوله تعالى ليعلم ما يخفين من زينتهن فنبه به على ان الذى لاجله نهى عنه ان يعلم به ما عليهن من الحلى وغيره (وتوبوا الى الله جميعا) أى من التقصير الواقع فى أمره ونهيه وراجعوا طاعته فيما أمركم به ونهاكم عنه من الآداب المذكورة فى هذه السورة قيل ان أوامر الله ونواهيه فى كل باب لا يقدر العبد الضعيف على مراعاتها وان ضبط نفسه واجتهد فلا ينفك عن تقصير يقع منه فلذلك وصى المؤمنين بالتوبة والاستغفار ووعد بالفلاح اذا تابوا واستغفروا فذلك قوله تعالى (أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) (م) عن الاغر المزنى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول توبوا الى ربكم فوالله انى لاتوب الى ربى تبارك وتعالى مائة مرة فى اليوم عن ابن عمر قال ان كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس يقول رب اغفر لى وتب على انك أنت التواب الرحيم مائة مرة أخرجه عبد الرحمن بن حميد الكشى (ق) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أفرح بتوبة عبده من احدكم سقط على بعيره وقد اضله فى ارض فلاة (م) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه قوله عز وجل (وأنكحوا الايامى منكم) جمع الايم يطلق على الذكر والانثى وهو من لا زوج له من رجالكم ونسائكم (والصالحين من عبادكم) اى من عبيدكم (وامائكم) بيان حكم الآية الامر المذكور فى الآية امر ندب واستحباب لاجماع السلف عليه ويستحب لمن تاقت نفسه الى النكاح و وجد اهبته ان يتزوج وان لم يجد اهبته يكسر شهوته بالصوم (ق) عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه اغض للبصر واحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء الباءة النكاح و يكنى به عن الجماع ايضا

والوجاء

(أو التابعين غير) بالنصب شامى ويزيد وابو بكر على الاستثناء أو الحال وغيرهم بالجر على البدل أو على الوصفية (أولى الاربة) الحاجة الى النساء قيل هم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ولا حاجة لهم الى النساء لانهم بله لا يعرفون شيئا من أمرهن أو شيوخ صلحاء او العنين او الخصى او المخنث وفى الاثر انه المجبوب والاول الوجه (من الرجال) حال (أو الطفل الذين) هو جنس فصلح ان يراد به الجمع (لم يظهروا على عورات النساء) اى لم يطلعوا لعدم الشهوة من ظهر على الشئ اذا اطلع عليه أو لم يبلغوا أوان القدرة على الوطء من ظهر على فلان اذا قوى عليه (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) كانت المرأة تضرب الارض برجلها اذا مشت لتسمع قعقعة خلخالها فيعلم انها ذات خلخال فنهين عن ذلك اذ سماع صوت الزينة كاظهارها ومنه سمى صوت الحلى وسواسا (وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون) ايه شامى اتباعا للضمة قبلها بعد حذف الالف لالتقاء الساكنين وغيره على فتح الهاء ولان بعدها الالف فى التقدير (لعلكم تفلحون) العبد لا يخلو عن سهو وتقصير فى أوامره ونواهيه وان اجتهد فلذا وصى المؤمنين جميعا بالتوبة وتأميل الفلاح اذا تابوا وقيل احوج الناس الى التوبة من توهم انه ليس له حاجة الى التوبة وظاهر الآية يدل على ان العصيان لا ينافى الايمان (وأنكحوا الايامى منكم) الايامى جمع ايم وهو من لا زوج له رجلا كان أو امرأة بكرا كان أو ثيبا واصله ايائم فقلبت (والصالحين) أى الخيرين أو المؤمنين والمعنى زوجوا من تأيم منكم من الاحرار والحرائر ومن كان فيه صلاح (من عبادكم وامائكم) اى من غلمانكم وجواريكم والامر للندب اذ النكاح مندوب اليه

والوجاء بكسر الواو رض الانثيين وهو نوع من الخصاء شبه الصوم في قطعه شهوة النكاح بالوجاء الذي يقطع النسل عن معقل بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجوا الولود الودود فاني مكاثر بكم الامم يوم القيامة أخرجه أبو داود والنسائي (م) عن عبد الله بن عمرو ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة أما من لا تتوق نفسه الى النكاح وهو قادر عليه فالتخلي للعبادة أفضل له من النكاح عند الشافعي وعند أصحاب الرأي النكاح أفضل قال الشافعي قد ذكر الله عبدا أكرمه فقال وسيدا وحصورا والحصور الذي لا يأتي النساء وذكر القواعد من النساء ولم يندبهن الى النكاح وفي الآية دليل على ان تزويج الايامى الى الاولياء لان الله خاطبهم به كما ان تزويج العبيد والاماء الى السادات وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم روى ذلك عن عمر وعلي وعبد الله ابن مسعود وعبد الله بن عباس وأبي هريرة وعائشة وبه قال سعيد بن المسيب والحسن وشريح وابراهيم النخعي وعمر بن عبد العزيز واليه ذهب الثوري والاوزاعي وعبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد واسحاق وجوز أصحاب الرأي للمرأة تزويج نفسها وقال مالك ان كانت المرأة دنيئة يجوز لها تزويج نفسها وان كانت شريفة فلا والدليل على ان الولي شرط في النكاح ما روي عن أبي موسى الاشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نكاح الا بولي أخرجه أبو داود والترمذي ولهما عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال أيما امرأة نكحت بغير اذن وليها فنكاحها باطل ثلاثا فان أصابها فلها المهر بما استحل من فرجها فان تشاجروا فالسلطان ولي من لا ولي له وقوله تعالى (ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) قيل الغنى هنا القناعة وقيل هو اجتماع الرزقين رزق الزوج والزوجة وقال عمر بن الخطاب عجبت لمن يبتغي الغنى بغير النكاح والله تعالى يقول ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وقال بعضهم ان الله وعد الغنى بالنكاح وبالتفرق فقال تعالى ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وقال وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته (والله واسع) أي انه ذو الافضال والجود (عليم) أي بما يصلح خلقه من الرزق قوله تعالى (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا) أي ليطلب العفة عن الزنى والحرام الذين لا يجدون ما ينكحون به من الصداق والنفقة (حتى يغنيهم الله من فضله) أي يوسع عليهم من رزقه (والذين يبتغون الكتاب) أي يطلبون الكتابة (مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم) سبب نزول هذه الآية ان غلاما لحويطب بن عبد العزى سأل مولاه ان يكاتبه فأبى عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية فكاتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينارا فأداها وقتل يوم حنين في الحرب

* بيان حكم الآية وكيفية المكاتبة وذلك ان يقول الرجل لمملوكه كاتبتك على كذا من المال ويسمى مالا معلوما تؤدي ذلك في نجمين أو في نجوم معلومة في كل نجم كذا فاذا أديت ذلك فأنت حر ويقبل العبد ذلك فاذا أدى العبد ذلك المال عتق ويصير العبد أحق بمكاسبه بعد الكتابة واذا عتق باداء المال فما فضل في يده من المال فهو له ويتبعه أولاده الذين حصلوا في الكتابة في العتق واذا عجز عن اداء المال كان لمولاه ان يفسخ كتابته ويرده الى الرق وما في يده من المال فهو لسيده لما روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المكاتب عبد ما بقي عليه درهم أخرجه أبو داود وذهب بعض أهل العلم الى ان قوله تعالى فكاتبوهم أمر ايجاب يجب على السيد ان يكاتب عبده الذي علم فيه خيرا اذا سأل العبد ذلك على قيمته أو على أكثر من قيمته وان سأل على أقل من قيمته لا يجب وهو قول عطاء وعمرو بن دينار لما روي ان سيرين أبا محمد بن سيرين سأل أنس بن مالك ان يكاتبه وكان كثير المال فأبى فانطلق سيرين الى عمر فشكاه فدعاه عمر فقال له كاتبه فأبى فضربه بالدرة وتلا فكاتبوهم (ان علمتم فيهم خيرا) فكاتبه وذهب أكثر أهل العلم الى انه أمر ندب واستحباب ولا تجوز الكتابة على أقل من نجمين عند الشافعي لانه عقد جوز ارفاقا بالعبد ومن تتمة الارفاق ان يكون ذلك المال عليه الى اجل حتى يؤديه على مهل فيحصل المقصود وجوز أبو حنيفة الكتابة الى نجم واحد وحالة واحدة

(ان يكونوا فقراء) من المال (يغنهم الله من فضله) بالكفاية والقناعة او باجتماع الرزقين وفي الحديث التمسوا الرزق بالنكاح وعن عمر رضي الله عنه روي مثله (والله واسع) غني ذو سعة لا يرزؤه اغناء الخلائق (عليم) يبسط الرزق لمن يشاء وقيل في الآية دليل على ان تزويج النساء والايامى الى الاولياء كما ان تزويج العبيد والاماء الى الموالي قلنا الرجل لا يلي على الرجل الايم الا باذنه فكذا لا يلي على المرأة الا باذنها لان الايم ينتظمهما (وليستعفف الذين) وليجتهدوا في العفة كأن المستعفف طالب من نفسه العفاف (لا يجدون نكاحا) استطاعة تزوج من المهر والنفقة (حتى يغنيهم الله من فضله) حتى يقدرهم على المهر والنفقة قال عليه الصلاة والسلام يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر واحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء فانظر كيف رتب هذه الاوامر فأمر اولا بما يعصم من الفتنة ويبعد عن مواقعة المعصية وهو غض البصر ثم بالنكاح المحصن للدين المغني عن الحرام ثم بعزة النفس الامارة بالسوء عن الطموح الى الشهوة عند العجز عن النكاح الى ان تقدر عليه (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم) اي المماليك الذين يطلبون الكتابة فالذين مرفوع بالابتداء او منصوب بفعل يفسره (فكاتبوهم) وهو للندب ودخلت الفاء لتضمنه معنى الشرط والكتاب والمكاتبة كالعتاب والمعاتبة وهو ان يقول لمملوكه كاتبتك على الف درهم فان اداها عتق ومعناه كتبت لك على نفسي ان تعتق مني اذا وفيت بالمال وكتبت لي على نفسك أن تفي بذلك أو كتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت على العتق ويجوز حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم لاطلاق الامر (ان علمتم فيهم خيرا) قدرة على الكسب أو أمانة وديانة والندبية معلقة بهذا الشرط

(وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) أمر للمسلمين على وجه الوجوب باعانة المكاتبين واعطائهم سهمهم من الزكاة لقوله تعالى وفى الرقاب وعند الشافعى رحمه الله معناه حطوا من بدل الكتابة ربعا وهذا عندنا على وجه الندب والاول الوجه لان الايتاء هو التمليك فلا يقع على الحط سأل صبيح مولاه حويطبا ان يكاتبه فأبى فنزلت واعلم ان العبيد أربعة قن مقتنى للخدمة ومأذون فى التجارة ومكاتب وآبق فمثال الاول ولى العزلة الذى حصل العزلة بايثار الخلوة وترك العشرة والثانى ولى العشيرة فيه وخبى الحضرة يخالط الناس للخبرة وينظر اليهم بالعبرة ويأمرهم بالعبرة فهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكم كانه ويأخذ لله ويعطى فى الله ويفهم عن الله ويتكلم مع الله فالدنيا سوق تجارته والعقل رأس بضاعته والعدل فى الغضب والرضا ميزانه والقصد فى الفقر والغنى عنوانه والعلم مفزعه وملجاؤه والقرآن كتاب الاذن من مولاه هو كائن فى الناس بظواهره بائن منهم بسرائره فقد هجرهم فيما له عليهم فى الله باطنا ثم وصلهم فيما لهم عليه لله ظاهرا

وما هو منهم بالعيش فيهم
ولكن معدن الذهب الرغام

يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون وما يدريهم انه ضيف الله يرى السموات والارض قائمات بأمره وكأنه قيل فيه

فان تفق الانام وانت منهم
فان المسك بعض دم الغزال

فمثال ولى العزلة أصفى وأحلى ومثال ولى العشرة أوفى وأعلى ونزل الاول من الثانى فى حضرة الرحمن منزلة النديم من الوزير عند السلطان أما النبى عليه الصلاة والسلام فهو كريم الطرفين ومعدن الشرفين ومجمع الحالين ومنبع الزلالين فباطن أحواله مقتدى ولى العزلة وظاهر أعماله مقتدى ولى العشرة والثالث المجاهد المحاسب العامل المطالب بالضرائب كنجوم المكاتب عليه فى اليوم والليلة خمس وفى المائتين درهما خمسة وفى السنة شهر وفى العمر زورة فكأنه اشترى نفسه من ربه بهذه النجوم المرتبة فيسعى فى فكاك رقبته خوفا من البقاء فى ربقة العبودية وطمعا فى فتح باب الحرية ليسرح فى رياض الجنة فيتمتع بمياهه ويفعل ما يشاء ويهواه والرابع الآبق وما أكثرهم فمنهم القاضى الجائر والعالم بغير العامل والعامل المرائى والواعظ الذى لا يعمل ما يقول ويكون أكثر أقواله الفضول وعلى كل ما لا يعنيه يصول فضلا عن السارق والزانى والغاصب ومنهم أخبر النبى عليه الصلاة والسلام ان الله لينصر هذا الدين بقوم لا خلاق لهم فى الآخرة (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) كان لابن أبى ست جوار معاذة ومسيكة واميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهم الضرائب فشكت ثنتان منهن الى رسول الله عليه الصلاة والسلام فنزلت ويكنى بالفتى والفتاة عن العبد والامة والبغاء الزنى للنساء خاصة وهو مصدر لبغت (ان اردن تحصنا) تعففا عن الزنى وانما قيده بهذا الشرط لان الاكراه لا يكون الا مع ارادة التحصن فآمر المطيعة للبغاء لا يسمى مكرها ولا أمره اكراها ولانها نزلت على سبب فوقع النهى على تلك الصفة وفيه توبيخ للموالى اى اذا رغبن فى التحصن فانتم أحق بذلك

واختلفوا فى معنى قوله ان علمتم فيهم خيرا فقال ابن عمر قوة على الكسب وهو قول مالك والثورى وقيل مالا روى ان عبد السلام الفارسى قال له كاتبنى قال الك مال قال لا قال تريد ان تطعمنى أوساخ الناس ولم يكاتبه قيل لو أراد به المال لقال ان علمتم لهم خيرا وقيل صدقا وأمانة وقال الشافعى اظهر معانى الخير فى العبد الاكتساب مع الامانة فاحب ان لا يمنع من المكاتبة اذا كان هكذا وعن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاث حق على الله عونهم المكاتب الذى يريد الاداء والناكح الذى يريد العفاف والمجاهد فى سبيل الله أخرجه الترمذى والنسائى وقيل معنى الخير ان يكون العبد عاقلا بالغا فاما الصبى والمجنون فلا تصح كتابتهم الا ان الابتغاء منهما لا يصح وجوز أبو حنيفة كتابة الصبى المراهق وقوله تعالى (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) قيل هو خطاب للموالى فيجب على السيد ان يحط عن مكاتبه من مال الكتابة وهو قول عثمان وعلى والزبير وجماعة وبه قال الشافعى ثم اختلفوا فى قدر ما يحط فقيل يحط الربع وهو قول على ورواه بعضهم مرفوعا وقال ابن عباس يحط الثلث وقال الآخرون ليس له حد بل عليه ان يحط عنه ما شاء وبه قال الشافعى قال نافع كاتب عبد الله بن عمر غلاما له على خمسة وثلاثين ألف درهم فوضع من آخر كتابته خمسة آلاف درهم أخرجه مالك فى الموطأ وقال سعيد بن جبير كان ابن عمر اذا كاتب مكاتبه لم يضع عنه شيئا من أول نجومه مخافة ان يعجز فيرجع اليه صدقته ويضع عنه من آخر كتابته ما أحب وقال بعضهم هو أمر استحباب والوجوب أظهر وقيل اراد بقوله وآتوهم من مال الله أى سهمهم الذى جعله الله لهم من الصدقات المفروضات وهو قوله وفى الرقاب اراد به المكاتب وهو قول الحسن وزيد بن أسلم وقيل هو حث لجميع الناس على مؤنتهم واختلف العلماء فيما اذا مات المكاتب قبل اداء النجوم فذهب كثير منهم الى انه يموت رقيقا وترتفع الكتابة سواء ترك مالا أو لم يترك وهو قول عمر وابن عمر وزيد بن ثابت وبه قال عمر بن عبد العزيز والزهرى وقتادة واليه ذهب الشافعى وأحمد وقال قوم ان ترك وفاء بما بقى عليه من مال الكتابة كان حرا وان فضل له مال كان لاولاده الاحرار وهو قول عطاء وطاوس والنخعى والحسن وبه قال مالك والثورى وأصحاب الرأى ولو كاتب عبده كتابة فاسدة يعتق باداء المال لان عتقه معلق بالاداء وقد وجد وتتبعه أولاده واكتسابه كما فى الكتابة الصحيحة لان الكتابة الصحيحة لا يملك المولى فسخها ما لم يعجز المكاتب عن اداء النجوم وقوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم) أى اماءكم (على البغاء) أى الزنى (ان أردن تحصنا) الآية (م) عن جابر قال كان عبد الله ابن ابى بن سلول يقول لجارية له اذهبى فابغينا شيئا قال فانزل الله ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا وفى رواية أخرى ان جارية لعبد الله بن أبى يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة كان يكرههما على الزنى فشكتا ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء الى قوله غفور رحيم وقال المفسرون نزلت فى عبد الله بن ابى بن سلول المنافق كانت له جاريتان يقال لهما مسيكة ومعاذة وكان يكرههما على الزنى لضريبة يأخذها منهما وكذلك كانوا يفعلون فى الجاهلية يؤجرون اماءهم فلما جاء الاسلام قالت معاذة لمسيكة ان هذا الامر الذى نحن فيه لا يخلو من وجهين فان يك خيرا فقد استكثرنا منه وان يك شرا فقد آن لنا أن ندعه فانزل الله هذه الآية وروى ان احدى الجاريتين جاءت ببرد وجاءت الاخرى بدينار فقال لهما ارجعا فازنيا فقالتا والله لا نفعل قد جاء الاسلام وحرم الزنى فاتيا

(لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) أي لتبتغوا باكراههن على الزنى أجورهن وأولادهن (ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم) أي لهن وفي مصحف ابن مسعود كذلك وكان الحسن يقول لهن والله لهن والله ولعل الاكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة وهو الذي يخاف منه التلف فكانت آثمة أولهم اذا تابوا (ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات) بفتح الياء حجازي وبصري وأبو بكر وحماد والمراد الآيات التي بينت في هذه السورة واوضحت في معاني الاحكام والحدود وجاز أن يكون الاصل مبينا فيها فاتسع في الظرف أي أجري مجرى المفعول به كقوله ويوم شهدناه وبكسرها غيرهم أي بينت هي الاحكام والحدود وجعل الفعل لها مجازا أو من بين بمعنى تبين ومنه المثل قد بين الصبح لذي عينين (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) ومثلا من أمثال من قبلكم أي قصة عجيبة من قصصهم كقصة يوسف ومريم يعني قصة عائشة رضي الله عنها (وموعظة) ما وعظ به من الآيات والمثل من نحو قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله لولا اذ سمعتموه ولولا اذ سمعتموه يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا (للمتقين) أي هم المنتفعون بها وان كانت موعظة للكل نظير قوله (الله نور السموات والارض) مع قوله مثل نوره ويهدي الله لنوره قولك زيد كرم وجود ثم تقول ينعش الناس بكرمه وجوده والمعنى ذو نور السموات ونور السموات والارض الحق شبهه بالنور في ظهوره وبيانه كقوله الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور أي من الباطل الى الحق وأضاف النور اليهما للدلالة على سعة اشراقه وفشو اضاءته حتى تضيء لها السموات والارض وجاز أن المراد أهل السموات والارض وانهم يستضيئون به (مثل نوره) أي صفة نوره العجيبة الشأن في الاضاءة (كمشكاة) كصفة مشكاة وهي الكوة في الجدار غير النافذة (فيها مصباح) أي سراج ضخم ثاقب (المصباح في زجاجة) في قنديل من زجاج شامي بكسر الزاي (الزجاجة كأنها كوكب دري) مضيء بضم الدال وتشديد الياء منسوب الى الدر لفرط ضيائه وصفائه وبالكسر والهمزة عمرو وعلي كأنه يدرأ الظلام بضوئه وبالضم والهمزة أبو بكر وحمزة شبه في زهرته بأحد الكواكب الدراري كالمشتري والزهرة ونحوهما (توقد) بالتخفيف حمزة وعلي وأبو بكر الزجاجة ويوقد بالتخفيف شامي ونافع وحفص يوقد بالتشديد مكي وبصري أي هذا المصباح (من شجرة) أي ابتداء ثقوبه من زيت شجرة الزيتون يعني رويت ذبالته بزيتها (مباركة) كثيرة المنافع أو لأنها نبتت في الارض التي بورك فيها للعالمين وقيل بارك فيها سبعون نبيا منهم ابراهيم عليه السلام (زيتونة) بدل من شجرة نعتها

رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكتا اليه فأنزل الله هذه الآية واختلف العلماء في معنى قوله ان أردن تحصنا على أقوال أحدها ان الكلام ورد على سبب وهو الذي ذكر في سبب نزول الآية فخرج النهي على صفة السبب وان لم يكن شرطا فيه الثاني انما شرط ارادة التحصن لان الاكراه لا يتصور الا عند ارادة التحصن فاذا لم ترد المرأة التحصن فانها تبغي بالطبع طوعا الثالث أن ان بمعنى اذا أي اذا أردن وليس معناه الشرط لانه لا يجوز اكراههن على الزنى ان لم يردن تحصنا كقوله وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين أي اذ كنتم مؤمنين القول الرابع ان في هذه الآية تقديما وتأخيرا تقديره وانكحوا الايامى منكم ان أردن تحصنا ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء (لتبتغوا) أي لتطلبوا (عرض الحياة الدنيا) أي من أموال الدنيا يريد كسبهن وبيع أولادهن (ومن يكرههن) يعني على الزنى (فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم) يعني للمكرهات والوزر على المكره وكان الحسن اذا قرأ هذه الآية قال لهن والله لهن والله قوله تعالى (ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات) أي من الحلال والحرام (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) أي شبها من حالكم بحالهم أيها المكذبون وهذا تخويف لهم أن يلحقهم ما لحق من كان قبلهم من المكذبين (وموعظة للمتقين) أي للمؤمنين الذين يتقون الشرك والكبائر قوله عز وجل (الله نور السموات والارض) قال ابن عباس معناه الله هادي السموات والارض فهم بنوره الى الحق يهتدون وبهدايته من حيرة الضلالة ينجون وقيل معناه الله نور السموات والارض نور السماء بالملائكة ونور الارض بالانبياء وقيل معناه مزين السموات والارض زين السماء بالشمس والقمر والنجوم وزين الارض بالانبياء والعلماء والمؤمنين ويقال زين الارض بالنبات والاشجار وقيل معناه الانوار كلها منه وقد يذكر هذا اللفظ على طريق المدح كما قال الشاعر

اذا سار عبد الله عن مرو ليلة * فقد سار عنها نورها وجمالها

(مثل نوره) أي مثل نور الله عز وجل في قلب المؤمن وهو النور الذي يهتدى به وقال ابن عباس مثل نوره الذي أعطى المؤمن وقيل الكناية عائدة الى المؤمن أي مثل نور قلب المؤمن وقيل أراد بالنور القرآن وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم وقيل هو الطاعة سمى طاعة الله نورا وأضاف هذه الانوار الى نفسه تشريفا وتفضيلا (كمشكاة) هي الكوة التي لا منفذ لها قيل هي بلغة الحبشة (فيها مصباح) أي سراج وأصله من الضوء (المصباح في زجاجة) يعني القنديل وانما ذكر الزجاجة لان النور وضوء النار فيها أبين من كل شيء وضوءه يزيد في الزجاج ثم وصف الزجاجة فقال تعالى (الزجاجة كأنها كوكب دري) من درأ الكوكب اذا اندفع منقضا فيتضاعف نوره في تلك الحال وفي ذلك الوقت وقيل هو من درأ النجم اذا طلع وارتفع وقيل دري أي شديد الانارة نسب الى الدر في صفائه وحسنه وان كان الكوكب أضوأ من الدر لكنه يفضل الكوكب بصفائه كما يفضل الدر على سائر اللؤلؤ وقيل الكوكب الدري أحد الكواكب الخمسة السيارة التي هي زحل والمريخ والمشتري والزهرة وعطارد قيل شبهه بالكواكب ولم يشبهه بالشمس والقمر لانهما يلحقهما الكسوف بخلاف الكواكب (توقد) أي اتقد المصباح (من شجرة مباركة زيتونة) أي من زيت شجرة مباركة كثيرة البركة وفيها منافع كثيرة لان الزيت يسرج به ويدهن به وهو ادام وهو أصفى الادهان وأضوؤها وقيل انها أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقيل أراد به زيتون الشام لانها هي الارض المباركة وهي شجرة لا يسقط ورقها عن أسيد بن ثابت أو أبي أسيد الانصاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلوا الزيت وادهنوا به فانه من شجرة

مباركة أخرجه الترمذي وقوله (لا شرقية ولا غربية) أي ليست شرقية وحدها فلا تصيبها الشمس اذا غربت ولا غربية وحدها فلا تصيبها الشمس بالغداة اذا طلعت بل مصاحبة للشمس طول النهار تصيبها الشمس عند طلوعها وعند غروبها فتكون شرقية غربية تأخذ حظها من الامرين فيكون زيتها أضوأ وهذا معنى قول ابن عباس وقيل معناه انها ليست في مقنأة لا تصيبها الشمس ولا في مضحاة لا يصيبها الظل فهي لا تضرها الشمس ولا الظل وقيل معناه انها معتدلة ليست في شرق يضرها الحر ولا في غرب يضرها البرد وقيل معناه هي شامية لان الشام وسط الارض لا شرقي ولا غربي وقيل ليست هذه الشجرة من أشجار الدنيا لانها لو كانت في الدنيا لكانت شرقية أو غربية وانما هو مثل ضربه الله لنوره (يكاد زيتها يضيء) أي من صفائه (ولو لم تمسسه نار) أي قبل ان تمسه النار (نور على نور) أي نور المصباح على نور الزجاجة

(فصل في بيان التمثيل المذكور في الآية) اختلف أهل العلم في معنى هذا التمثيل فقيل المراد به الهدى ومعناه ان هداية الله تعالى قد بلغت في الظهور والجلاء الى أقصى الغايات وصار ذلك بمنزلة المشكاة التي فيها زجاجة صافية وفي تلك الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية في الصفاء والرقة والبياض فاذا كان كذلك كان كاملا في صفائه وصلح ان يجعل مثلا لهداية الله تعالى وقيل وقع هذا التمثيل لنور محمد صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس لكعب الاحبار أخبرني عن قوله تعالى مثل نوره كمشكاة قال كعب هذا مثل ضربه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة توقد من شجرة مباركة هي شجرة النبوة يكاد نور محمد صلى الله عليه وسلم وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم به انه نبي كما يكاد ذلك الزيت يضيء ولو لم تمسسه نار وروي عن ابن عمر في هذه الآية قال المشكاة جوف محمد صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح النور الذي جعله الله فيه لا شرقية ولا غربية لا يهودي ولا نصراني توقد من شجرة مباركة ابراهيم نور على نور نور قلب ابراهيم ونور قلب محمد صلى الله عليه وسلم وقال محمد بن كعب القرظي المشكاة ابراهيم والزجاجة اسمعيل والمصباح محمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين سمى الله محمدا مصباحا كما سماه سراجا منيرا والشجرة المباركة ابراهيم عليه السلام لان أكثر الانبياء من صلبه لا شرقية ولا غربية يعني ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما لان اليهود تصلي الى الغرب والنصارى تصلي الى الشرق يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار تكاد محاسن محمد صلى الله عليه وسلم تظهر للناس قبل ان يوحى اليه نور على نور نبي من نسل نبي نور محمد على نور ابراهيم وقيل وقع هذا التمثيل لنور قلب المؤمن قال أبي بن كعب هذا مثل المؤمن فالمشكاة نفسه والزجاجة قلبه والمصباح ما جعله الله فيه من الايمان والقرآن توقد من شجرة مباركة هي شجرة الاخلاص لله وحده فمثله مثل شجرة التف بها الشجر فهي خضراء ناعمة نضرة لا تصيبها الشمس اذا طلعت ولا اذا غربت فكذلك المؤمن قد احترس ان يصيبه شيء من الفتن فهو بين أربع خلال ان أعطى شكر وان ابتلى صبر وان حكم عدل وان قال صدق يكاد زيتها يضيء أي يكاد قلب المؤمن يعرف الحق قبل ان يتبين له لموافقته اياه نور على نور أي فهو يتقلب في خمسة أنوار قوله نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره الى النور يوم القيامة وقال ابن عباس هذا مثل نور الله وهداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل ان تمسه النار فاذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوئه كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل ان يأتيه العلم فاذا جاء العلم ازداد هدى على هدى ونورا على نور وقال الكلبي نور على نور يعني ايمان المؤمن وعمله وقيل نور الايمان ونور القرآن وقيل هذا مثل القرآن فالمصباح هو القرآن فكما يستضاء بالمصباح فكذلك يهتدى بالقرآن والزجاجة قلب المؤمن والمشكاة فمه ولسانه والشجرة المباركة شجرة المعرفة في قلبه يكاد زيتها يضيء أي نور المعرفة يشرق في قلب المؤمن ولو لم تمسسه النار وقيل تكاد حجة القرآن تتضح وان لم يقرأ نور على نور يعني القرآن نور من الله لخلقه مع ما أقام لهم من الدلائل والاعلام قبل نزول القرآن فازدادوا

(لا شرقية ولا غربية) أي منبتها الشام يعني ليست من المشرق ولا من المغرب بل في الوسط منهما وهو الشام وأجود الزيتون زيتون الشام وقيل ليست مما تطلع عليه الشمس في وقت شروقها أو غروبها فقط بل تصيبها بالغداة والعشي جميعا فهي شرقية وغربية (يكاد زيتها) دهنها (يضيء ولو لم تمسسه نار) وصف الزيت بالصفاء والوميض وانه لتلألؤه يكاد يضيء من غير نار (نور على نور) أي هذا النور الذي شبه به الحق نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت حتى لم تبق بقية مما يقوي النور وهذا لان المصباح اذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أجمع لنوره بخلاف المكان الواسع فان الضوء ينتشر فيه والقنديل أعون شيء على زيادة الانارة وكذلك الزيت وصفاؤه وضرب المثل يكون بدنيء محسوس معهود لا بعلي غير معاين ولا مشهود فأبو تمام لما قال في المأمون

اقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء اياس

قيل له ان الخليفة فوق من مثلته بهم فقال مرتجلا

لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

(يهدي الله لنوره) أي هذا النور الثابت (من يشاء) من عباده أي يوفق لاصابة الحق من يشاء من عباده بالهام من الله أو بنظره في الدليل (ويضرب الله الامثال للناس) تقريبا الى افهامهم ليعتبروا فيؤمنوا (والله بكل شئ عليم) فيبين كل شئ بما يمكن ان يعلم به وقال ابن عباس رضي الله عنه مثل نوره أي نور الله الذي هدى به المؤمن وقرأ ابن مسعود رحمه الله مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة وقرأ أبي مثل نور المؤمن (في بيوت) يتعلق بمشكاة أي كمشكاة في بعض بيوت الله وهي المساجد كأنه قيل مثل نوره كما يرى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كيت وكيت أو بتوقد أي توقد في بيوت أو بيسبح أي يسبح له رجال في بيوت وفيها تكرير فيه توكيد نحو زيد في الدار جالس فيها أو بمحذوف أي سبحوا في بيوت (أذن الله) أي أمر (ان ترفع) تبنى كقوله بناها رفع سمكها فسواها واذ يرفع ابراهيم القواعد أو تعظم من الرفعة وعن الحسن ما أمر الله أن ترفع بالبناء ولكن بالتعظيم (ويذكر فيها اسمه) يتلى فيها كتابه أو هو عام في كل ذكر (يسبح له فيها بالغدو والآصال) أي يصلى له فيها بالغداة صلاة الفجر وبالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين وانما وحد الغدو لان صلاته واحدة وفي الآصال صلوات والآصال جمع أصل جمع أصيل وهو العشي (رجال) فاعل يسبح يسبح شامي وأبو بكر ويسند الى أحد الظروف الثلاثة أعني له فيها بالغدو ورجال مرفوع بما دل عليه يسبح أي يسبح له (لا تلهيهم) لا تشغلهم (تجارة) في السفر (ولا بيع) في الحضر وقيل التجارة الشراء اطلاقا لاسم الجنس على النوع أو خص البيع بعد ما عم لانه أوغل في الالهاء من الشراء لان الربح في البيعة الرابحة متيقن وفي الشراء مظنون (عن ذكر الله) باللسان والقلب (واقام الصلاة) أي وعن اقامة الصلاة التاء في اقامة عوض من العين الساقطة للاعلال والاصل اقوام فلما قلبت الواو الفا اجتمع الفان فحذف احداهما لالتقاء الساكنين فادخلت التاء عوضا عن المحذوف فلما اضيفت اقيمت الاضافة مقام التاء فاسقطت (وايتاء الزكاة) أي وعن ايتاء الزكاة والمعنى لا تجارة لهم حتى تلهيهم كأولياء العزلة أو يبيعون ويشترون ويذكرون الله مع ذلك واذا حضرت الصلاة قاموا اليها غير متثاقلين كأولياء العشرة (يخافون يوما) أي يوم القيامة ويخافون حال من الضمير في تلهيهم أو صفة أخرى لرجال (تتقلب فيه القلوب) ببلوغها الى الحناجر (والابصار) بالشخوص والزرقة أو تتقلب القلوب الى الايمان بعد الكفران والابصار الى العيان بعد انكاره للطغيان كقوله فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا

بذلك نورا على نور وقوله تعالى (يهدي الله لنوره من يشاء) قال ابن عباس لدين الاسلام وهو نور البصيرة (ويضرب الله الامثال للناس) أي يبين الله الاشياء للناس تقريبا الى الافهام وتسهيلا لسبيل الادراك (والله بكل شئ عليم) قوله عز وجل (في بيوت) أي ذلك المصباح يوقد في بيوت والمراد بالبيوت جميع المساجد قال ابن عباس المساجد بيوت الله في الارض تضيء لاهل السماء كما تضيء النجوم لاهل الارض وقيل المراد بالبيوت أربعة مساجد لم يبنها الا نبي الكعبة بناها ابراهيم واسماعيل فجعلاها قبلة وبيت المقدس بناه داود وسليمان ومسجد المدينة بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجد قباء أسس على التقوى وبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا (أذن الله أن ترفع) أي تبنى وقيل تعظم فلا يذكر فيها الخنا من القول وتطهر عن الانجاس والاقذار (ويذكر فيها اسمه) قال ابن عباس يتلى فيها كتابه (يسبح له فيها) أي يصلى له فيها (بالغدو والآصال) أي بالغداة والعشي قال أهل التفسير أراد به الصلاة المفروضة فالتي تؤدى بالغداة صلاة الفجر والتي تؤدى بالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين لان اسم الاصيل يقع على هذا الوقت كله وقيل أراد به الصبح والعصر عن أبي موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من صلى البردين دخل الجنة أراد بالبردين صلاة الصبح وصلاة العصر وقال ابن عباس التسبيح بالغدو والآصال صلاة الضحى وصلاة العصر عن أبي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من خرج من بيته متطهرا الى صلاة مكتوبة كان أجره كأجر الحاج المحرم ومن خرج الى المسجد الى تسبيح الضحى لا ينصبه الا ذلك كان أجره كأجر المعتمر وصلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين أخرجه أبو داود (رجال) قيل خص الرجال بالذكر في هذه المساجد لان النساء ليس عليهن حضور المساجد لجمعة ولا جماعة (لا تلهيهم) أي لا تشغلهم (تجارة) وقيل خص التجارة بالذكر لانها أعظم ما يشتغل الانسان به عن الصلوات والطاعات وأراد بالتجارة الشراء وان كان اسم التجارة يقع على البيع والشراء جميعا لانه ذكر البيع بعده وقيل التجارة لاهل الجلب والبيع ما باعه الرجل على يده (ولا بيع) أي ولا يشغلهم بيع (عن ذكر الله) أي حضور المساجد لاقامة الصلوات (واقام الصلاة) يعني اقامة الصلاة في وقتها لان من أخر الصلاة عن وقتها لا يكون من مقيمي الصلاة روى سالم عن ابن عمر انه كان في السوق فأقيمت الصلاة فقام الناس وأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد فقال ابن عمر فيهم نزلت هذه الآية رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة (وايتاء الزكاة) يعني المفروضة قال ابن عباس اذا حضر وقت أداء الزكاة لا يحبسونها (يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار) يعني ان هؤلاء الرجال وان بالغوا في ذكر الله والطاعات فانهم مع ذلك وجلون خائفون لعلمهم بأنهم ما عبدوا الله حق عبادته قيل ان القلوب تضطرب من الهول والفزع وتشخص الابصار وقيل تتقلب القلوب عما كانت عليه في الدنيا من الشك الى اليقين وترفع عن الابصار الاغطية وقيل تتقلب القلوب بين الخوف والرجاء فتخشى الهلاك وتطمع في النجاة وتتقلب الابصار من هول ذلك اليوم من أي ناحية يؤخذ بهم أمن ذات اليمين أم من ذات الشمال ومن أين يؤتون كتبهم أمن قبل اليمين أم من قبل الشمال وقيل تتقلب القلب في الجوف فيرتفع الى الحنجرة فلا ينزل ولا يخرج وتتقلب البصر فيشخص من هول الامر وشدته (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا) يعني انهم اشتغلوا بذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة ليجزيهم الله أحسن ما عملوا والمراد بالاحسن الحسنات كلها وهي الطاعات فرضها ونفلها وذكر الاحسن تنبيها على انه لا يجازيهم على مساوي أعمالهم بل يغفرها لهم وقيل انه سبحانه

ويزيدهم من فضله) أي يستحقون ويخافون ليجزيهم الله أحسن جزاء أعمالهم أي ليجزيهم ثوابهم مضاعفا ويزيدهم على الثواب الموعود على العمل تفضلا
(والله يرزق من يشاء بغير حساب) أي يثيب من يشاء ثوابا لا يدخل في حساب الخلق هذه صفات المهتدين بنور الله فاما الذين ضلوا عنه فالمذكورون
في قوله (والذين كفروا أعمالهم كسراب) هو ما يرى في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهر يسرب على وجه الارض كانه ماء يجري (بقيعة) بقاع أو جمع
قاع وهو المنبسط المستوي من الارض كجيرة في جار (يحسبه الظمآن) يظنه العطشان (ماء حتى اذا جاءه) أي جاء الى ما توهم انه ماء (لم يجده شيئا) كما ظنه
(ووجد الله) أي جزاء الله كقوله يجد الله غفورا رحيما أي يجد مغفرته ورحمته (عنده) عند الكافر (فوفاه حسابه) أي اعطاه جزاء
عمله وافيا كاملا وحد بعد تقدم الجمع حملا على كل
واحد من الكفار (والله سريع الحساب)
لانه لا يحتاج الى عد وعقد ولا يشغله حساب
عن حساب أو قريب حسابه لان ما هو آت
قريب شبه ما يعمله من لا يعتقد الايمان
ولا يتبع الحق من الاعمال الصالحة التي يحسبها
تنفعه عند الله وتنجيه من عذابه ثم تخيب
في العاقبة امله ويلقى خلاف ما قدر بسراب
يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه عطش يوم
القيامة فيحسبه ماء فيأتيه فلا يجد ما رجاه
ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه الى جهنم
فيسقونه الحميم والغساق وهم الذين قال الله عاملة ناصبة وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا قيل
نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية كان ترهب
ملتمسا للدين في الجاهلية فلما جاء الاسلام كفر
(أو كظلمات في بحر) أو هما كاو في او كصيب
(لجي) عميق كثير الماء منسوب الى اللج وهو
معظم ماء البحر (يغشاه) يغشى البحر أو من
فيه اي يعلوه ويغطيه (موج) هو ما ارتفع من
الماء (من فوقه موج) اي من فوق الموج موج
آخر (من فوقه سحاب) من فوق الموج الاعلى
سحاب (ظلمات) اي هذه ظلمات ظلمة
السحاب وظلمة الموج وظلمة البحر (بعضها
فوق بعض) ظلمة الموج على ظلمة البحر وظلمة
الموج على الموج وظلمة السحاب على الموج
(اذا اخرج يده) اي الواقع فيه (لم يكد يراها)
مبالغة في لم يرها أي لم يقرب ان يراها فضلا
عن ان يراها شبه أعمالهم أولا في فوات نفعها
وحضور ضررها بسراب لم يجده من خدعه
من بعيد شيئا ولم يكفه خيبة وكدا ان لم يجد شيئا
كغيره من السراب حتى وجد عنده الزبانية تعتله
الى النار وشبهها ثانيا في ظلمتها وسوادها لكونها باطلة وفي خلوها عن نور الحق بظلمات متراكمة من لج البحر والامواج والسحاب (ومن لم السماء
يجعل الله له نورا فما له من نور) من لم يهده الله لم يهتد من الزجاج في الحديث خلق الله الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن اصابه من ذلك النور اهتدى
ومن اخطأه ضل (ألم تر) الم تعلم يا محمد علما يقوم مقام العيان في الايقان (ان الله يسبح له من في السموات والارض والطير) عطف على من (صافات)
حال من الطير أي يصففن اجنحتهن في الهواء

وتعالى يجزيهم جزاء أحسن من أعمالهم على الواحد من عشرة الى سبعمائة ضعف (ويزيدهم من فضله) يعني انه سبحانه وتعالى يجزيهم بأحسن أعمالهم ولا يقتصر على ذلك بل يزيدهم من فضله (والله يرزق من يشاء بغير حساب) فيه تنبيه على كمال قدرته وكمال جوده وسعة احسانه وفضله قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) لما ضرب مثلا لحال المؤمن وانه في الدنيا والآخرة في نور وانه فائز بالنعيم المقيم اتبعه بضرب مثل لاعمال الكفار وشبهه بالسراب وهو شبه ماء يرى نصف النهار عند شدة الحر في البراري يظنه من رآه ماء فاذا قرب منه لم ير شيأ والقيعة القاع وهو المنبسط من الارض وفيه يكون السراب (يحسبه) أي يتوهمه (الظمآن) أي العطشان (ماء حتى اذا جاءه) أي جاء ما قدر انه ماء وقيل جاء الى موضع السراب (لم يجده شيئا) أي لم يجده على ما قدر وظنه ووجه التشبيه ان الذي يأتي به الكافر من أعمال البر يعتقد ان له ثوابا عند الله وليس كذلك فاذا وافى عرصات القيامة لم يجد الثواب الذي كان يظنه بل وجد العقاب العظيم والعذاب الاليم فعظمت حسرته وتناهى غمه فشبه حاله بحال الظمآن الذي اشتدت حاجته الى الماء فاذا شاهد السراب في البر تعلق قلبه به فاذا جاءه لم يجده شيئا فكذلك حال الكافر يحسب ان عمله نافعه فاذا احتاج الى عمله لم يجده أغنى عنه شيئا ولا نفعه (ووجد الله عنده) أي وجد الله بالمرصاد وقيل قدم على الله (فوفاه حسابه) أي جزاء عمله (والله سريع الحساب) معناه انه عالم بجميع المعلومات فلا تشغله محاسبة واحد عن واحد ثم ضرب للكفار مثلا آخر فقال تعالى (أو كظلمات) اعلم الله سبحانه وتعالى ان أعمال الكفار ان كانت حسنة فهي كسراب بقيعة وان كانت قبيحة فهي كظلمات وقيل معناه ان مثل أعمالهم وفسادها وجهالتهم فيها كظلمات (في بحر لجي) أي عميق كثير الماء ولجة البحر معظمه (يغشاه) أي يعلوه (موج من فوقه موج) أي متراكم (من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض) معناه ان البحر اللجي يكون قعره مظلما جدا بسبب غمورة الماء فاذا ترادفت الامواج ازدادت الظلمة فاذا كان فوق الامواج سحاب بلغت الظلمة النهاية القصوى (اذا أخرج يده لم يكد يراها) أي لم يقرب ان يراها لشدة الظلمة وقيل معناه لم يرها الا بعد الجهد وقيل لما كانت اليد من أقرب شيء يراه الانسان قال لم يكد يراها ووجه التشبيه ان الله ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات ظلمة البحر وظلمة الامواج وظلمة السحاب وكذلك الكافر له ثلاث ظلمات ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل وقيل شبه بالبحر اللجي قلبه وبالموج ما يغشى قلبه من الجهل والشك والحيرة وبالسحاب الختم والطبع على قلبه قال أبي بن كعب الكافر يتقلب في خمس من الظلم كلامه ظلمة وعمله ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره الى الظلمات يوم القيامة في النار (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) قال ابن عباس من لم يجعل الله له دينا وايمانا فلا دين له وقيل من لم يهده الله فلا هادي له قيل نزلت هذه الآية في عتبة ابن ربيعة بن أمية كان يلتمس الدين في الجاهلية ولبس المسوح فلما جاء الاسلام كفر وعاند والاصح ان الآية عامة في حق جميع الكفار قوله عز وجل (ألم تر ان الله يسبح له من في السموات والارض والطير صافات) أي باسطات اجنحتهن في الهواء قيل خص الطير بالذكر من جملة الحيوان لانها تكون بين

كل قد علم صلاته وتسبيحه) الضمير في علم لكل او لله وكذا في صلاته وتسبيحه والصلاة الدعاء ولم يبعد ان يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما الهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتدون اليها (والله عليم بما يفعلون) لا يعزب عن علمه شئ (ولله ملك السموات والارض) لانه خالقهما ومن ملك شيئا فيملكه اياه (والى الله المصير) مرجع الكل (ألم تر أن الله يزجي) يسوق الى حيث يريد (سحابا) جمع سحابة دليله (ثم يؤلف بينه) وتذكيره للفظ أي يضم بعضه الى بعض (ثم يجعله ركاما) مترا كما بعضه فوق بعض (فترى الودق) المطر (يخرج من خلاله) من فتوقه ومخارجه جمع خلل كجبال في جبل (وينزل) وينزل مكي ومدني وبصري (من السماء) لابتداء الغاية لان ابتداء الانزال من السماء (من جبال) من للتبعيض لان ماينزله الله بعض تلك الجبال التي (فيها) في السماء (من برد) للبيان أو الاوليان للابتداء والآخرة للتبعيض ومعناه انه ينزل البرد من السماء من جبال فيها وعلى الاول مفعول ينزل من جبال أي بعض جبال فيها ومعنى من جبال فيها من برد ان يخلق الله في السماء جبال برد كما خلق في الارض جبال حجر ويريد الكثرة بذكر الجبال كما يقال فلان يملك جبالا من ذهب (فيصيب به) بالبرد (من يشاء) أى يصيب الانسان وزرعه (ويصرفه عمن يشاء) فلا يصيبه أو يعذب من يشاء ويصرفه عمن يشاء فلا يعذبه (يكاد سنا برقه) ضوؤه (يذهب بالابصار) يخطفها يذهب بريد على زيادة الباء (يقلب الله الليل والنهار) يصرفهما في الاختلاف طولا وقصرا والتعاقب (ان في ذلك) في ازجاء السحاب وانزال الودق والبرد وتقليب الليل والنهار (لعبرة لاولي الابصار) لذوي العقول وهذا من تعديد الدلائل على ربوبيته حيث ذكر تسابيح من في السموات والارض وما يطير بينهما ودعاءهم له وتسخير السحاب الى آخر ما ذكر فهي براهين لائحة على وجوده ودلائل واضحة على صفاته لمن نظر وتدبر ثم بين دليلا آخر فقال تعالى (والله خلق كل) خالق كل حمزة وعلى (دابة) كل حيوان يدب على وجه الارض (من ماء) أى من نوع من الماء مختص بتلك الدابة أو من ماء مخصوص وهو النطفة ثم خالف بين المخلوقات من النطفة فمنها هوام ومنها بهائم وأناسي وهو كقوله يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل وهذا دليل على ان لها خالقا ومدبرا والا لم تختلف لاتفاق الاصل وانما عرف الماء في قوله وجعلنا من الماء كل شئ حي لان المقصود ثم ان اجناس الحيوان مخلوقة من جنس الماء وانه هو الاصل وان تخللت بينه وبينها وسائط قالوا ان أول ما خلق الله الماء فخلق منه النار والريح والطين فخلق من النار الجن ومن الريح الملائكة ومن الطين آدم ودواب الارض ولما كانت الدابة تشمل المميز وغير المميز غلب المميز فأعطى ما وراءه حكمه كان الدواب كلهم مميزون فمن ثم قيل (فمنهم من يمشي على بطنه) كالحية والحوت وسمى الزحف على البطن مشيا استعارة كما يقال في الامر المستمر قد مشى هذا الامر أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين (ومنهم من يمشي على رجلين) كالانسان والطير (ومنهم من يمشي على أربع) كالبهائم وقدم ما هو أعرف في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو غيرها ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع

السماء والارض فتكون خارجة عن حكم من في السموات والارض (كل قد علم صلاته وتسبيحه) قيل الصلاة لبني آدم والتسبيح لسائر الخلق وقيل ان ضرب اجنحة الطير صلاته وتسبيحه وقيل معناه كل مصل ومسبح علم الله صلاته وتسبيحه وقيل معناه كل مصل ومسبح منهم قد علم صلاة نفسه وتسبيحه (والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات والارض) أي ان جميع الموجودات ملكه وفي تصرفه وعنه نشأت ومنه بدأت فهو واجد الوجود وقيل معناه ان خزائن المطر والرزق بيده ولا يملكها أحد سواه (والى الله المصير) أي والى الله ترجع العباد بعد الموت قوله تعالى (ألم تر أن الله يزجي) أي يسوق (سحابا) بامره الى حيث يشاء من أرضه وبلاده (ثم يؤلف بينه) أي يجمع بين قطع السحاب المتفرقة بعضها الى بعض (ثم يجعله ركاما) أي مترا كما بعضه فوق بعض (فترى الودق) أي المطر (يخرج من خلاله) أي من وسطه وهو مخارج القطر (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) قيل معناه وينزل من جبال من السماء وتلك الجبال من برد قال ابن عباس أخبر الله ان في السماء جبالا من برد وقيل معناه وينزل من السماء مقدار جبال في الكثرة من برد فان قلت ما الفرق بين من الاولى والثانية والثالثة قلت من الاولى لابتداء الغاية لان ابتداء الانزال من السماء والثانية للتبعيض لان ما ينزله الله بعض تلك الجبال التي في السماء والثالثة للتجنيس لان تلك الجبال من جنس البرد (فيصيب به) أي البرد (من يشاء) فيهلكه واموله (ويصرفه عمن يشاء) أي فلا يضره (يكاد سنا برقه) أي ضوء برق السحاب (يذهب بالابصار) أي من شدة ضوئه وبريقه (يقلب الله الليل والنهار) أي يصرفهما في اختلافهما وتعاقبهما فيأتي بالليل ويذهب بالنهار ويأتي بالنهار ويذهب بالليل (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الامر اقلب الليل والنهار معنى هذا الحديث ان العرب كانوا يقولون عند النوازل والشدائد أصابنا الدهر ويذمونه في اشعارهم فقيل لهم لا تسبوا الدهر فان فاعل ذلك هو الله عز وجل والدهر مصرف تقع فيه التأثيرات كما تقع بكم وقوله تعالى (ان في ذلك) أي الذي ذكر من هذه الاشياء (لعبرة لاولي الابصار) أي دلالة لاهل العقول والبصائر على قدرة الله وتوحيده قوله عز وجل (والله خلق كل دابة من ماء) أي من نطفة واراد به كل حيوان يشاهد في الدنيا ولا يدخل فيه الملائكة والجن لانا لا نشاهدهم وقيل ان أصل جميع الخلق من الماء وذلك ان الله خلق ماء فجعل بعضه ريحا ونورا فخلق منه الملائكة وجعل بعضه نارا فخلق منه الجن وجعل بعضه طينا فخلق منه آدم (فمنهم من يمشي على بطنه) أي كالحيات والحيتان والديدان ونحو ذلك (ومنهم من يمشي على رجلين) يعني مثل بني آدم والطير (ومنهم من يمشي على أربع) يعني كالبهائم والسباع فان قلت كيف قال خلق كل دابة من ماء مع ان كثيرا من الحيوانات يتولد من غير نطفة قلت ذلك المخلوق من غير نطفة لا بد ان يتكون من شئ وذلك الشئ أصله من الماء فكان من الماء فان قلت فمنهم من يمشي ضمير العقلاء فلم استعمل في غير العقلاء قلت ذكر الله

(يخلق الله ما يشاء) كيف يشاء (ان الله على كل شئ قدير) لا يتعذر عليه شئ (لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء) بلطفه ومشيئته (الى صراط مستقيم) الى دين الاسلام الذى يوصل الى جنته والآيات لالزام حجته لما ذكر انزال الآيات ذكر بعدها افتراق الناس الى ثلاث فرق فرقة صدقت ظاهرا وكذبت باطنا وهم المنافقون وفرقة صدقت ظاهرا وباطنا وهم المخلصون وفرقة كذبت ظاهرا وباطنا وهم الكافرون على هذا الترتيب وبدأ بالمنافقين فقال (ويقولون آمنا بالله وبالرسول) بألسنتهم (وأطعنا) الله والرسول (ثم يتولى) يعرض عن الانقياد لحكم الله ورسوله (فريق منهم من بعد ذلك) أى من بعد قولهم آمنا بالله وبالرسول وأطعنا (وما أولئك بالمؤمنين) أى المخلصين وهو اشارة الى القائلين آمنا وأطعنا لا الى الفريق المتولى وحده وفيه اعلام من الله بأن جميعهم منتف عنهم الايمان لاعتقادهم ما يعتقد هؤلاء والاعراض وان كان من بعضهم فالرضا بالاعراض من كلهم (واذا دعوا الى الله ورسوله) أى الى رسول الله كقولك اعجبنى زيد وكرمه تريد كرم زيد (ليحكم) الرسول (بينهم اذا فريق منهم معرضون) أى فاجأ من فريق منهم الاعراض نزلت فى بشر المنافق وخصمه اليهودى حين اختصما فى أرض فجعل اليهودى يجره الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنافق الى كعب بن الاشرف ويقول ان محمدا يحيف علينا (وان يكن لهم الحق) أى اذا كان الحق لهم على غيرهم (يأتوا اليه) الى الرسول (مذعنين) حال أى مسرعين فى الطاعة طلبا لحقهم لا رضا بحكم رسولهم قال الزجاج الاذعان الاسراع مع الطاعة والمعنى انهم لمعرفتهم انه ليس معك الا الحق المر والعدل البحت يمتنعون عن المحاكمة اليك اذا ركبهم الحق لئلا تنتزعه من احداقهم بقضائك عليهم لخصومهم وان ثبت لهم حق على خصم اسرعوا اليك ولم يرضوا الا بحكومتك لتأخذ لهم ما وجب لهم فى ذمة الخصم (أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله) قسم الامر فى صدودهم عن حكومته اذا كان الحق عليهم بأن يكونوا مرضى القلوب منافقين أو مرتابين فى أمر نبوته أو خائفين الحيف فى قضائه ثم أبطل خوفهم حيفه بقوله (بل أولئك هم الظالمون) أى لا يخافون ان يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله وانما هم ظالمون يريدون ان يظلموا من له الحق عليهم وذلك شئ لا يستطيعونه فى مجلس رسول الله عليه الصلاة والسلام فمن ثم يأبون المحاكمة اليه (انما كان قول المؤمنين) وعن الحسن قول بالرفع والنصب أقوى لان أولى الاسمين بكونه اسم الكان أوغلهما فى التعريف وان يقولوا أوغل بخلاف قول المؤمنين (اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم) النبى عليه الصلاة والسلام ليحكم أى ليفعل الحكم (بينهم) بحكم الله الذى أنزل عليه (ان يقولوا سمعنا) قوله (وأطعنا) أمره (وأولئك هم المفلحون) الفائزون (ومن يطع الله) فى فرائضه (ورسوله) فى سننه (ويخش الله) على ما مضى من ذنوبه (ويتقه) فيما يستقبل (فأولئك هم الفائزون) وعن بعض الملوك انه سأل عن آية كافية فتليت له هذه الآية وهى جامعة لاسباب الفوز ويتقه بسكون الهاء أبو عمرو وأبو بكر بنية الوقف وبسكون القاف وبكسر الهاء مختلسة حفص وبكسر القاف والهاء غيرهم (وأقسموا بالله جهد ايمانهم) أى حلف المنافقون بالله جهد اليمين لانهم بذلوا فيها مجهودهم وجهد يمينه مستعار من جهد نفسه اذا بلغ أقصى وسعها وذلك اذا بالغ فى اليمين وبلغ غاية شدتها ووكادتها وعن ابن عباس رضى الله عنهما من قال بالله فقد جهد يمينه وأصل أقسم جهد اليمين أقسم يجهد اليمين جهدا فحذف الفعل وقدم المصدر فوضع موضعه مضافا الى المفعول كقوله فضرب الرقاب وحكم هذا المنصوب حكم الحال كأنه قال جاهدين أيمانهم

تعالى لا يعقل مع من يعقل فغلب اللفظ اللائق بمن يعقل لان جعل الشريف أصلا والخسيس تبعا أولى فان قلت لم قدم ما يمشى على بطنه على غيره من المخلوقات قلت قدم الاعجب والاعرف فى القدرة وهو الماشى بغير آلة المشى وهى الارجل والقوائم ثم ذكر ما يمشى على رجلين ثم ما يمشى على أربع فان قلت لم اقتصر على ذكر الاربع وفى الحيوانات ما يمشى على أكثر من أربع كالعناكب والعقارب والرتيلا وماله أربع وأربعون رجلا ونحو ذلك قلت هذا القسم كالنادر فكان ملحقا بالاغلب وقيل ان هذه الحيوانات اعتمادها على أربع فى المشى والباقى تبع لها (يخلق الله ما يشاء) أى مما لا يعقل ولا يعلم (ان الله على كل شئ قدير) أى هو القادر على الكل العالم بالكل المطلع على الكل يخلق ما يشاء كما يشاء لا يمنعه مانع ولا دافع (لقد أنزلنا آيات مبينات) يعنى القرآن هو المبين للهدى والاحكام والحلال والحرام (والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) يعنى الى دين الاسلام الذى هو دين الله وطريقه الى رضاه وجنته قوله تعالى (ويقولون) يعنى المنافقين (آمنا بالله وبالرسول وأطعنا) أى يقولونه بألسنتهم من غير اعتقاد (ثم يتولى فريق منهم) أى يعرض عن طاعة الله ورسوله (من بعد ذلك) أى من بعد قولهم آمنا ويدعو الى غير حكم الله قال الله تعالى (وما أولئك بالمؤمنين) نزلت هذه الآية فى بشر المنافق كان بينه وبين يهودى خصومة فى أرض فقال اليهودى نتحاكم الى دين محمد صلى الله عليه وسلم وقال المنافق بل نتحاكم الى كعب بن الاشرف فان محمدا يحيف فأنزل الله هذه الآية (واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم) أى الرسول يحكم بحكم الله بينهم (اذا فريق منهم معرضون) يعنى عن الحكم وقيل عن الاجابة (وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين) أى مطيعين منقادين لحكمه أى اذا كان الحكم لهم على غيرهم أسرعوا الى حكمه لثقتهم انه كما يحكم عليهم بالحق يحكم لهم أيضا (أفى قلوبهم مرض) أى كفر ونفاق (أم ارتابوا) أى شكوا وهذا استفهام ذم وتوبيخ والمعنى هم كذلك (أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله) أى يظلم (بل أولئك هم الظالمون) أى لانفسهم باعراضهم عن الحق قوله عز وجل (انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله) أى الى كتاب الله (ورسوله ليحكم بينهم) هذا تعليم أدب الشرع على معنى ان المؤمنين كذا ينبغى ان يكونوا وهو (ان يقولوا سمعنا) أى الدعاء (وأطعنا) أى بالاجابة (وأولئك) أى من هذه صفته (هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله) قال ابن عباس فيما ساءه وسره (ويخش الله) أى على ما عمل من الذنوب (ويتقه) أى فيما بعد (فأولئك هم الفائزون) أى الناجون قوله تعالى (وأقسموا بالله جهد ايمانهم) قيل جهد اليمين ان يحلف

(لئن أمرتهم ليخرجن) أى لئن أمرنا محمد بالخروج الى الغزو لغزونا او بالخروج من ديارنا لخرجنا (قل لا تقسموا) لا تحلفوا كاذبين لانه معصية (طاعة معروفة) أمثل وأولى بكم من هذه الايمان الكاذبة مبتدأ محذوف الخبر او خبر مبتدأ محذوف اى الذى يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لا يشك فيها ولا يرتاب كطاعة الخلص من المؤمنين لا ايمان تقسمون بها بأفواهكم وقلوبكم على خلافها (ان الله خبير بما تعملون) يعلم ما فى ضمائركم ولا يخفى عليه شئ من سرائركم وانه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) صرف الكلام عن الغيبة الى الخطاب على طريق الالتفات وهو أبلغ فى تبكيتهم (فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم) يريد فان تتولوا فما ضررتموه وانما ضررتم أنفسكم فان الرسول ليس عليه

بالله ولا يزيد على ذلك شيئا (لئن أمرتهم ليخرجن) وذلك ان المنافقين كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا ولئن أقمت أقمنا ولئن أمرتنا بالجهاد جاهدنا وقيل لما نزل بيان كراهتهم لحكم الله ورسوله قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم والله لو أمرتنا ان نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا فكيف لا نرضى بحكمك فقال الله تعالى (قل) لهم (لا تقسموا) أى لا تحلفوا وتم الكلام ثم ابتدأ فقال (طاعة معروفة) أى هذه طاعة القول باللسان دون الاعتقاد بالقلب وهى معروفة أى أمر عرف منكم انكم تكذبون وتقولون ما لا تفعلون وقيل معناه طاعة معروفة بنية خالصة افضل وامثل من يمين باللسان لا يوافقها الفعل (ان الله خبير بما تعملون) أى من طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل (قل اطيعوا الله واطيعوا الرسول) يعنى بقلوبكم وصدق نياتكم (فان تولوا) أى اعرضوا عن طاعة الله ورسوله (فانما عليه) أى على الرسول (ما حمل) أى ما كلف وأمر به من تبليغ الرسالة (وعليكم ما حملتم) أى ما كلفتم من الاجابة والطاعة (وان تطيعوه تهتدوا) أى تصيبوا الحق والرشد فى طاعته (وما على الرسول الا البلاغ المبين) أى التبليغ الواضح البين قوله عز وجل (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض) قيل مكث النبى صلى الله عليه وسلم بمكة بعد الوحى عشر سنين مع أصحابه وأمروا بالصبر على أذى الكفار فكانوا يصبحون ويمسون خائفين ثم أمروا بالهجرة الى المدينة وأمروا بالقتال وهم على خوفهم لا يفارق أحد منهم سلاحه فقال رجل منهم أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فأنزل الله هذه الآية ومعنى ليستخلفنهم والله ليورثنهم أرض الكفار من العرب والعجم فجعلهم ملوكها وساستها وسكانها (كما استخلف الذين من قبلهم) أى كما استخلف داود وسليمان وغيرهما من الانبياء وكما استخلف بنى اسرائيل وأهلك الجبابرة بمصر والشام وأورثهم أرضهم وديارهم (وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى) أى اختاره (لهم) قال ابن عباس يوسع لهم فى البلاد حتى يملكوها ويظهر دينهم على سائر الاديان (وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا) فأنجز الله وعده وأظهر دينه ونصر أولياءه وأبدلهم بعد الخوف أمنا وبسطا فى الارض (خ) عن عدى بن حاتم قال بينا انا عند النبى صلى الله عليه وسلم اذ أتاه رجل فشكا اليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا اليه قطع السبل فقال يا عدى هل رأيت الحيرة قلت لم أرها ولقد أنبئت عنها قال فان طالت بك حياة فلترين الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا الا الله قلت فيما بينى وبين نفسى فأين دعار طيئ الذين قد سعروا البلاد ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى قلت كسرى بن هرمز قال كسرى بن هرمز ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد احدا يقبله منه وليلقين الله احدكم يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فليقولن ألم أبعث اليك رسولا فيبلغك فيقول بلى يارب فيقول ألم أعطك مالا وأفضل عليك فيقول بلى فينظر عن يمينه فلا يرى الا جهنم وينظر عن شماله فلا يرى الا جهنم قال عدى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة قال عدى فرأيت

الا ما حمله الله تعالى وكلفه من أداء الرسالة فاذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه واما أنتم فعليكم ما كلفتم من التلقى بالقبول والاذعان فان لم تفعلوا وتوليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه (وان تطيعوه تهتدوا) أى وان أطعتموه فيما أمركم ونهاكم فقد احرزتم نصيبكم من الهدى فالضرر فى توليكم والنفع عائدان اليكم (وما على الرسول الا البلاغ المبين) وما على الرسول الا ان يبلغ ماله نفع فى قلوبكم ولا عليه ضرر فى توليكم والبلاغ بمعنى التبليغ كالاداء بمعنى التأدية والمبين الظاهر لكونه مقرونا بالآيات والمعجزات ثم ذكر المخلصين فقال (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات) الخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام ولمن معه ومنكم للبيان وقيل المراد به المهاجرون ومن للتبعيض (ليستخلفنهم فى الارض) اى ارض الكفار وقيل ارض المدينة والصحيح انه عام لقوله عليه الصلاة والسلام ليدخلن هذا الدين على ما دخل عليه الليل (كما استخلف) استخلف أبو بكر (الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم) وليبدلنهم بالتخفيف مكى وأبو بكر (من بعد خوفهم أمنا) وعدهم الله ان ينصر الاسلام على الكفر ويورثهم الارض ويجعلهم فيها خلفاء كما فعل ببنى اسرائيل حين اورثهم مصر والشام بعد اهلاك الجبابرة وان يمكن الدين المرتضى وهو دين الاسلام وتمكينه تثبيته وتعضيده وان يؤمن سربهم ويزيل عنهم الخوف الذى كانوا عليه وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ولما هاجروا كانوا بالمدينة

يصبحون فى السلاح ويمسون فيه حتى قال رجل ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام لا تغبرون الا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليس معه حديدة وأنجز الله وعده وأظهرهم على جزيرة العرب وافتتحوا أبعد بلاد المشرق والمغرب ومزقوا ملك الاكاسرة وملكوا خزائنهم واستولوا على الدنيا والقسم المتلقى باللام والنون فى ليستخلفنهم محذوف تقديره وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم أو نزل وعد الله فى تحققه منزلة القسم فتلقى بما يتلقى به القسم كانه أقسم الله ليستخلفنهم (يعبدوننى) ان جعلته استئنافا فلا محل له كانه قيل ما لهم يستخلفون ويؤمنون فقال يعبدوننى موحدين ويجوز ان يكون حالا بدلا من الحال الاولى وان جعلته حالا عن وعدهم أى وعدهم الله ذلك فى حال عبادتهم فمحله النصب (لا يشركون بى شيئا) حال من فاعل يعبدون أى يعبدوننى موحدين ويجوز ان يكون حالا بدلا من الحال الاولى

الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف الا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال ابو القاسم صلى الله عليه وسلم يخرج الرجل ملء كفه ذهبا الخ وفى الآية دليل على صحة خلافة ابى بكر الصديق والخلفاء الراشدين بعده لان فى ايامهم كانت الفتوحات العظيمة وفتحت كنوز كسرى وغيره من الملوك وحصل الامن والتمكين وظهور الدين عن سفينة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا ثم قال امسك خلافة أبى بكر سنتين وخلافة عمر عشر سنين وخلافة عثمان اثنى عشرة سنة وعلى ستا قال على قلت لحماد القائل لسعيد امسك سفينة قال نعم أخرجه أبو داود والترمذى بنحو هذا اللفظ قلت كذا ورد هذا الحديث بهذا التفصيل وفيه اجمال وتفصيله ان خلافة أبى بكر كانت سنتين وثلاثة أشهر وخلافة عمر كانت عشر سنين وستة أشهر وخلافة عثمان اثنى عشرة سنة كما ذكر فى الحديث وخلافة على أربع سنين وتسعة اشهر ولهذا جاء فى بعض روايات الحديث وعلى كذا ولم يبين تعيين مدته فعلى هذا التفصيل تكون مدة خلافة الائمة الاربعة تسعة وعشرين سنة وستة أشهر وكملت ثلاثين سنة بخلافة الحسن كانت ستة أشهر ثم نزل عنها والله اعلم وقوله تعالى (ومن كفر بعد ذلك) اراد به كفران النعمة ولم يرد الكفر بالله (فأولئك هم الفاسقون) اى العاصون قال اهل التفسير اول من كفر بهذه النعمة وجحد حقها الذين قتلوا عثمان فلما قتلوه غير الله ما بهم وادخل عليهم الخوف حتى صاروا يقتتلون بعد ان كانوا اخوانا عن ابن اخى عبد الله بن سلام قال لما اريد قتل عثمان جاء عبد الله بن سلام فقال عثمان ما جاء بك قال جئت فى نصرك قال اخرج الى الناس فاطردهم عنى فانك خارجا خير لى منك داخلا فخرج عبد الله الى الناس فقال ايها الناس ان لله سيفا مغمودا وان الملائكة قد جاورتكم فى بلدكم هذا الذى نزل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فالله الله فى هذا الرجل ان تقتلوه فوالله ان قتلتموه لتطردن جيرانكم الملائكة وليسلن الله سيفه المغمود عنكم فلا يغمد الى يوم القيامة قالوا اقتلوا اليهودى واقتلوا عثمان اخرجه الترمذى زاد فى رواية غير الترمذى فما قتل نبى قط الا قتل به سبعون الفا ولا خليفة الا قتل به خمسة وثلاثون الفا قوله تعالى (واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) اى افعلوا هذه الاشياء على رجاء الرحمة (لا تحسبن الذين كفروا معجزين) أى فائتين عنا (فى الارض ومأواهم النار ولبئس المصير) قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) قال ابن عباس وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلاما من الانصار يقال له مدلج بن عمرو الى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته عند ذلك فانزل الله هذه الآية وقيل نزلت فى أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير فدخل عليها فى وقت كرهته فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فانزل الله تعالى يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم واللام لام الامر وفيه قولان أحدهما انه على الندب والاستحباب والثانى انه على الوجوب وهو الاولى الذين ملكت ايمانكم يعنى العبيد والاماء (والذين لم يبلغوا الحلم منكم) يعنى الاحرار وليس المراد منهم الذين لم يظهروا على عورات النساء بل المراد الذين عرفوا امر النساء ولكنهم لم يبلغوا الحلم وهو سن التمييز والعقل وغيرهما واتفق العلماء على ان الاحتلام بلوغ واختلفوا فيما اذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم فقال ابو حنيفة لا يكون بالغا حتى يبلغ ثمانى عشرة سنة ويستكملها والجارية سبع عشرة سنة وقال الشافعى وابو يوسف ومحمد واحمد فى الغلام والجارية بخمس عشرة سنة يصير مكلفا وتجرى عليه الاحكام وان لم يحتلم (ثلاث مرات) أى ليستأذنوا فى ثلاثة اوقات (من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة) أى وقت القيلولة (ومن بعد صلاة العشاء) وانما خص هذه الثلاثة الاوقات لانها ساعات الخلوات ووضع الثياب فربما يبدو من الانسان ما لا يجوز ان يراه أحد من العبيد والصبيان فأمرهم بالاستئذان فى هذه الاوقات وغير العبيد والصبيان يستأذن فى جميع الاوقات (ثلاث عورات

(ومن كفر بعد ذلك) أى بعد الوعد والمراد كفران النعمة كقوله تعالى فكفرت بانعم الله (فأولئك هم الفاسقون) هم الكاملون فى فسقهم حيث كفروا تلك النعمة الجسيمة وجسروا على غمطها قالوا اول من كفر هذه النعمة قتلة عثمان رضى الله عنه فاقتتلوا بعدما كانوا اخوانا وزال عنهم الخوف والآية اوضح دليل على صحة خلافة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم اجمعين لان المستخلفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم هم (واقيموا الصلاة) معطوف على اطيعوا الله واطيعوا الرسول ولا يضر الفصل وان طال (وآتوا الزكاة واطيعوا الرسول) فيما يدعوكم اليه وكررت طاعة الرسول تأكيدا لوجوبها (لعلكم ترحمون) أى لكى ترحموا فانها من مستجلبات الرحمة ثم ذكر الكافرين فقال (لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض) أى فائتين الله بان لا يقدر عليهم فيها فالتاء خطاب النبى عليه الصلاة والسلام وهو الفاعل والمفعولان الذين كفروا ومعجزين وبالياء شامى وحمزة والفاعل النبى صلى الله عليه وسلم لتقدم ذكره والمفعولان الذين كفروا ومعجزين (ومأواهم النار) معطوف على لا تحسبن الذين كفروا معجزين كانه قيل الذين كفروا لا يفوتون الله ومأواهم النار (ولبئس المصير) أى المرجع النار (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم) امر بان يستأذن العبيد والاماء (والذين لم يبلغوا الحلم منكم) أى الاطفال الذين لم يحتلموا من الاحرار وقرئ بسكون اللام تخفيفا (ثلاث مرات) فى اليوم والليلة وهى (من قبل صلاة الفجر) لانه وقت القيام من المضاجع وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة (وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة) وهى نصف النهار فى القيظ لانها وقت وضع الثياب للقيلولة (ومن بعد صلاة العشاء) لانه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم (ثلاث عورات

لكم

لـكم) أي هي أوقات ثلاث عورات فحذف المبتدأ والمضاف وبالنصب كوفي غير حفص بدلا من ثلاث مرات أي أوقات ثلاث عورات وسمي كل واحد من هذه الاحوال عورة لان الانسان يختل تستره فيها والعورة الخلل ومنها الاعور المختل العين دخل غلام من الانصار يقال له مدلج بن عمرو على عمر رضي الله عنه وقت الظهيرة وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضي الله عنه وددت ان الله نهى عن الدخول في هذه الساعات الا بالاذن فانطلق الى النبي صلى الله عليه وسلم وقد نزلت عليه الآية ثم عذرهم في ترك الاستئذان وراء هذه المرات بقوله (ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) أي لا اثم عليكم ولا على المذكورين في الدخول بغير استئذان بعدهن ثم بين العلة في ترك الاستئذان في هذه الاوقات بقوله (طوافون عليكم) أي هم طوافون بحوائج البيت (بعضكم) مبتدأ خبره (على بعض) تقديره بعضكم طائف على بعض فحذف طائف لدلالة طوافون عليه ويجوز ان تكون الجملة بدلا من التي قبلها وان تكون مبينة مؤكدة يعني ان بكم وبهم حاجة الى المخالطة والمداخلة يطوفون عليكم للخدمة وتطوفون عليهم للاستخدام فلو جزم الامر بالاستئذان في كل وقت لافضى الى الحرج وهو مدفوع في الشرع بالنص (كذلك يبين الله لكم الآيات) أي كما بين حكم الاستئذان يبين لكم غيره من الآيات التي احتجتم الى بيانها (والله عليم) بمصالح عباده (حكيم) في بيان مراده (واذا بلغ الاطفال منكم) أي الاحرار دون المماليك (الحلم) أي الاحتلام أي اذا بلغوا وأرادوا الدخول عليكم (فليستأذنوا) في جميع الاوقات (كما استأذن الذين من قبلهم) أي الذين بلغوا الحلم من قبلهم وهم الرجال أو الذين ذكروا من قبلهم في قوله يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا الآية والمعنى ان الاطفال مأذون لهم في الدخول بغير اذن الا في العورات الثلاث فاذا اعتاد الاطفال ذلك ثم بلغوا بالاحتلام أو بالسن وجب ان يفطموا عن تلك العادة ويحملوا على ان يستأذنوا في جميع الاوقات كالرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم الا باذن والناس عن هذا غافلون وعن ابن عباس رضي الله عنه ثلاث آيات جحدهن الناس الاذن كله وقوله ان أكرمكم عند الله اتقاكم واذا حضر القسمة وعن سعيد بن جبير يقولون هي منسوخة والله ما هي بمنسوخة وقوله (كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم) فيما يبين من الاحكام (حكيم) بمصالح الانام (والقواعد) جمع قاعد لانها من الصفات المختصة بالنساء كالطالق والحائض أي اللاتي قعدن عن الحيض والولد لكبرهن (من النساء) حال (اللاتي لا يرجون نكاحا) لا يطمعن فيه وهي في محل الرفع صفة للمبتدأ وهي القواعد والخبر (فليس عليهن جناح) انما دخلت الفاء لما في المبتدأ من معنى الشرط بسبب الالف واللام (ان يضعن) في ان يضعن (ثيابهن) أي الظاهرة كالملحفة والجلباب الذي فوق الخمار (غير) حال (متبرجات بزينة) أي غير مظهرات زينة يريد الزينة الخفية كالشعر والنحر والساق ونحو ذلك أي لا يقصدن بوضعها التبرج ولكن التخفيف وحقيقة التبرج تكلف اظهار ما يجب اخفاؤه (وان يستعففن) أي ان يطلبن العفة عن وضع الثياب فيستترن وهو مبتدأ خبره (خير لهن والله سميع) لما يعلن (عليم) بما يقصدن (ليس على الاعمى حرج

لـكم) سميت هذه الاوقات عورات لان الانسان يضع فيها ثيابه فتبدو عورته (ليس عليكم ولا عليهم) يعني العبيد والخدم والصبيان (جناح) أي حرج في الدخول عليكم بغير استئذان (بعدهن) أي بعد هذه الاوقات الثلاثة (طوافون عليكم) أي العبيد والخدم يترددون ويدخلون ويخرجون في اشغالكم بغير اذن (بعضكم على بعض) أي يطوف بعضكم على بعض (كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) اختلف العلماء في حكم هذه الآية فقيل انها منسوخة حكى ذلك عن سعيد بن المسيب روى عكرمة ان نفرا من أهل العراق قالوا يا ابن العباس كيف ترى في هذه الآية التي أمرنا بها ولا يعمل بها احد قول الله عز وجل يا ايها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم الآية فقال ابن عباس ان الله حليم رحيم بالمؤمنين يحب الستر وكان الناس ليس لبيوتهم ستور ولا حجاب فربما دخل الخادم أو الولد أو يتيم الرجل والرجل على أهله فأمرهم الله تعالى بالاستئذان في تلك العورات فجاءهم الله بالستور والخير فلم أر احدا يعمل بذلك بعد أخرجه أبو داود وفي رواية عنه نحوه وزاد فرأى ان ذلك أغنى عن الاستئذان في تلك العورات وذهب قوم الى انها غير منسوخة روى سفيان عن موسى بن أبي عائشة قال سألت الشعبي عن هذه الآية ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم أمنسوخة هي قال لا والله قلت ان الناس لا يعملون بها قال الله تعالى المستعان وقال سعيد بن جبير في هذه الآية ان ناسا يقولون نسخت والله ما نسخت ولكنها مما تهاون به الناس قيل ثلاث آيات ترك الناس العمل بهن هذه الآية وقوله ان أكرمكم عند الله أتقاكم والناس يقولون أعظمكم بيتا واذا حضر القسمة أولو القربى الآية وقوله عز وجل (واذا بلغ الاطفال منكم الحلم) أي الاحتلام يريد الاحرار الذين بلغوا (فليستأذنوا) أي يستأذنوا في جميع الاوقات في الدخول عليكم (كما استأذن الذين من قبلهم) أي الاحرار الكبار (كذلك يبين الله لكم آياته) أي دلالته وقيل أحكامه (والله عليم) أي بأمور خلقه (حكيم) بما دبر وشرع قال سعيد بن المسيب يستأذن الرجل على أمه فانما انزلت هذه الآية في ذلك وسئل حذيفة أيستأذن الرجل على والدته قال نعم ان لم تفعل رأيت منها ما تكره قوله (والقواعد من النساء) يعني اللاتي قعدن عن الحيض والولد من الكبر فلا يلدن ولا يحضن (اللاتي لا يرجون نكاحا) أي لا يردن الازواج لكبرهن وقيل هن العجائز اللواتي اذا رآهن الرجال استقذروهن فأما من كانت فيها بقية جمال وهي محل الشهوة فلا تدخل في حكم هذه الآية (فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن) أي عند الرجال والمعنى بعض ثيابهن وهو الجلباب والرداء الذي فوق الثياب والقناع الذي فوق الخمار فأما الخمار فلا يجوز وضعه (غير متبرجات بزينة) أي من غير ان يردن بوضع الجلباب والرداء اظهار زينتهن والتبرج هو ان تظهر المرأة من محاسنها ما يجب عليها ان تستره (وان يستعففن) أي فلا يلقين الجلباب ولا الرداء (خير لهن والله سميع عليم) قوله عز وجل (ليس على الاعمى حرج) اختلف العلماء في هذه

قال سعيد بن المسيب كان المسلمون اذا خرجوا الى الغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم وضعوا مفاتيح

الآية فقال ابن عباس لما أنزل الله يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعمى والعرج وقالوا الطعام أفضل الاموال وقد نهانا الله عز وجل عن أكل المال بالباطل والاعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب والاعرج لا يتمكن من الجلوس ولا يستطيع المزاحمة على الطعام والمريض يضعف عن التناول فلا يستوفى من الطعام حقه فأنزل الله هذه الآية فعلى هذا التأويل يكون على بمعنى فى أى ليس فى الاعمى والمعنى ليس عليكم فى مؤاكلة الاعمى والمريض والاعرج حرج وقيل كان العميان والعرجان والمرضى يتنزهون عن مؤاكلة الاصحاء لان الناس يقذرونهم ويكرهون مؤاكلتهم وكان الاعمى يقول ربما آكل أكثر من ذلك ويقول الاعرج والاعمى ربما أجلس مكان اثنين فنزلت هذه الآية وقيل نزلت ترخيصا لهؤلاء فى الاكل من بيوت من سماهم الله فى باقى الآية وذلك ان هؤلاء كانوا يدخلون على الرجل فى طلب الطعام فاذا لم يكن عنده شئ ذهب بهم الى بيت أبيه أو بيت أمه أو بعض من سمى الله تعالى فكان أهل الزمانة يتحرجون من ذلك ويقولون ذهب بنا الى غير بيته فأنزل الله هذه الآية وقيل كان المسلمون اذا غزوا دفعوا مفاتيح بيوتهم الى الزمنى ويقولون لهم قد أحللنا لكم ان تأكلوا مما فى بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون لا ندخلها وأصحابها غيب فأنزل الله هذه الآية رخصة لهم وقيل نزلت رخصة لهؤلاء فى التخلف عن الجهاد فعلى هذا تم الكلام عند قوله (ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج) وقوله تعالى (ولا على أنفسكم) كلام مستأنف قيل لما نزلت ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل قالوا لا يحل لاحد منا ان يأكل عند أحد فأنزل الله تعالى ولا على أنفسكم (ان تأكلوا من بيوتكم) أى لا حرج عليكم ان تأكلوا من بيوتكم قيل أراد من أموال عيالكم وبيوت أزواجكم لان بيت المرأة كبيت الزوج وقيل أراد بيوت أولادكم ونسب بيوت الاولاد الى الآباء لما جاء فى الحديث أنت ومالك لابيك (أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت اخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه) قال ابن عباس عنى بذلك وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وماشيته لا بأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته ولا يحمل ولا يدخر وقيل يعنى بيوت عبيدكم ومماليككم وذلك ان السيد يملك منزل عبده والمفاتح الخزائن ويجوز ان يكون المفتاح الذى يفتح به واذا ملك الرجل المفتاح فهو خازن فلا بأس ان يأكل الشئ اليسير وقيل ما ملكتم مفاتحه أى ما خزنتموه عندكم وما ملكتموه (أو صديقكم) الصديق هو الذى صدقك فى المودة قال ابن عباس نزلت فى الحارث بن عمرو خرج غازيا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلف مالك بن زيد على أهله فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال تحرجت ان آكل من طعامك بغير اذنك فأنزل الله تعالى هذه الآية والمعنى انه ليس عليكم جناح ان تأكلوا من منازل هؤلاء اذا دخلتموها وان لم يحضروا من غير ان تتزودوا وتحملوا (ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا أو أشتاتا) نزلت فى بنى ليث بن عمرو وهم حى من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده حتى يجد ضيفا يأكل معه فربما قعد الرجل والطعام بين يديه من الصباح الى الرواح وربما كانت معه الابل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يأتى من يشاربه فاذا أمسى ولم يجد أحدا أكل وقال ابن عباس كان الغنى يدخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته فيدعوه الى طعامه ويقول والله انى لاجنح أى أتحرج ان آكل معك وأنا غنى وأنت فقير فنزلت هذه الآية وقيل نزلت فى قوم من الانصار كانوا لا يأكلون اذا نزل بهم ضيف الا مع ضيفهم فرخص لهم ان يأكلوا كيف شاؤا جميعا أى مجتمعين أو أشتاتا أى متفرقين (فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم) أى ليسلم بعضكم على بعض هذا فى دخول الرجل بيت نفسه يسلم على أهله ومن فى بيته قال قتادة اذا دخلت بيتك فسلم على أهلك فهم أحق من سلمت عليه واذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته حدثنا ان الملائكة ترد عليه وقال ابن عباس اذا لم

ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج) بيوتهم عند الاعمى والمريض والاعرج وعند أقاربهم ويأذنونهم ان يأكلوا من بيوتهم وكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون نخشى ان لا تكون أنفسهم بذلك طيبة فنزلت الآية رخصة لهم (ولا على أنفسكم) أى حرج (ان تأكلوا من بيوتكم) أى بيوت أولادكم لان ولد الرجل بعضه وحكمه حكم نفسه ولذا لم يذكر الاولاد فى الآية وقد قال عليه الصلاة والسلام أنت ومالك لابيك أو بيوت أزواجكم لان الزوجين صارا كنفس واحدة فصار بيت المرأة كبيت الزوج (أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت اخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم) لان الاذن من هؤلاء ثابت دلالة (أو ما ملكتم مفاتحه) جمع مفتح وهو ما يفتح به الغلق قال ابن عباس رضى الله عنه هو وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وماشيته له ان يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته واريد بملك المفاتح كونها فى يده وحفظه وقيل اريد به بيت عبده لان العبد وما فى يده لمولاه (أو صديقكم) يعنى أو بيوت أصدقائكم والصديق يكون واحدا وجمعا وهو من يصدقك فى مودته وتصدقه فى مودتك وكان الرجل من السلف يدخل دار صديقه وهو غائب فيسأل جاريته كيسه فيأخذ ما شاء فاذا حضر مولاها فأخبرته أعتقها سرورا بذلك فأما الآن فقد غلب الشح على الناس فلا يؤكل الا باذن (ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا) مجتمعين (أو أشتاتا) متفرقين جمع شت نزلت فى بنى ليث بن عمرو وكانوا يتحرجون ان يأكل الرجل وحده فربما قعد منتظرا نهاره الى الليل فان لم يجد من يؤاكله أكل ضرورة أو فى قوم من الانصار اذا نزل بهم ضيف لا يأكلون الا مع ضيفهم أو تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس فى الاكل وزيادة بعضهم على بعض (فاذا دخلتم بيوتا) من هذه البيوت لتأكلوا (فسلموا على أنفسكم) أى فابدؤا بالسلام على أهلها الذين هم منكم دينا وقرابة او بيوتا فارغة او مسجدا فقولوا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين

(تحية) نصب بسلموا لانها في معنى تسليما وقعدت جلوسا (من عند الله) اى ثابتة بأمره مشروعة من لدنه اولان التسليم والتحية طلب سلامة وحياة للمسلم عليه والحياة من عند الله (مباركة طيبة) وصفها بالبركة والطيب لانها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) لكى تعقلوا وتفهموا (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على امر جامع) اى الذى يجمع له الناس نحو الجهاد والتدبير فى الحرب وكل اجتماع فى الله حتى الجمعة والعيدين (لم يذهبوا حتى يستأذنوه) اى ويأذن لهم ولما اراد الله عز وجل ان يريهم عظم الجناية فى ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير اذنه اذا كانوا معه على امر جامع جعل ترك ذهابهم حتى يستأذنوه ثالث الايمان بالله والايمان برسوله وجعلهما كالتشبيب له والبساط لذكره وذلك مع تصدير الجملة بانما وايقاع المؤمنين مبتدأ مخبرا عنه بموصول احاطت صلته بذكر الايمانين ثم عقبه بما يزيده توكيدا وتشديدا حيث اعاده على اسلوب آخر وهو قوله (ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) وضمنه شيئا آخر وهو انه جعل الاستئذان كالمصداق لصحة الايمانين وعرض بحال المنافقين وتسللهم لواذا (فاذا استأذنوك) فى الانصراف (لبعض شأنهم) أمرهم (فأذن لمن شئت منهم) فيه رفع شأنه عليه الصلاة والسلام (واستغفر لهم الله ان الله غفور رحيم) وذكر الاستغفار للمستأذنين دليل على ان الافضل ان لا يستأذن قالوا وينبغى ان يكون الناس كذلك مع أئمتهم ومقدميهم فى الدين والعلم يظاهرونهم ولا يتفرقون عنهم الا باذن قيل نزلت يوم الخندق كان المنافقون يرجعون الى منازلهم من غير استئذان (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) أى اذا احتاج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اجتماعكم عنده لامر فدعاكم فلا تفرقوا عنه الا باذنه ولا تقيسوا دعاءه اياكم على دعاء بعضكم بعضا ورجوعكم عن المجمع بغير اذن الداعى اولا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمى بعضكم بعضا ويناديه باسمه الذى سماه به ابواه فلا تقولوا يا محمد ولكن يا نبى الله يا رسول الله مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض (قد يعلم الله الذين يتسللون) يخرجون قليلا قليلا (منكم لواذا) حال أى ملاوذين اللواذ والملاوذة هو ان يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا أى ينسلون عن الجماعة فى الجمعة على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض (فليحذر الذين

٨٢ ث يخالفون عن أمره) أى الذين يصدون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون يقال خالفه الى الامر اذا ذهب اليه دونه ومنه وما أريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه وخالفه عن الامر اذا صد عنه دونه والضمير فى امره لله سبحانه او للرسول عليه الصلاة والسلام والمعنى عن طاعته ودينه ومفعول يحذر (ان تصيبهم فتنة) محنة فى الدنيا او قتل او زلازل وأهوال أو تسليط سلطان جائر او قسوة القلب عن معرفة الرب او اسباغ النعم استدراجا (او يصيبهم عذاب أليم) فى الآخرة والآية تدل على ان الامر للايجاب (الا ان لله ما فى السموات والارض) الا تنبيه على ان لا يخالفوا امر من له ما فى السموات والارض (قد يعلم ما أنتم عليه) ادخل قد ليؤكد علمه بما هم عليه من المخالفة عن الدين ويرجع توكيد العلم الى توكيد الوعيد والمعنى ان جميع ما فى السموات والارض مختصة به خلقا وملكا وعلما فكيف تخفى عليه احوال المنافقين وان كانوا يجتهدون فى سترها (ويوم

يكن فى البيت أحد فليقل السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام على أهل البيت ورحمة الله وبركاته وعن ابن عباس فى قوله تعالى فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم قال اذا دخلت المسجد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين (تحية من عند الله مباركة طيبة) قال ابن عباس حسنة جميلة وقيل ذكر البركة والطيب ههنا لما فيه من الثواب والاجر (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) أى عن الله أمره ونهيه وآدابه قوله عز وجل (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه) أى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (على أمر جامع) أى يجمعهم من حرب أو صلاة حضرت أو جمعة أو عيد أو جماعة أو تشاور فى أمر نزل (لم يذهبوا) أى لم يتفرقوا عنه ولم ينصرفوا عما اجتمعوا له (حتى يستأذنوه) قال المفسرون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل ان يخرج من المسجد لحاجة أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث يراه فيعرف انه انما قام ليستأذن فيأذن لمن شاء منهم قال مجاهد واذن الامام يوم الجمعة ان يشير بيده قال أهل العلم وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الامام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه الا بالاذن واذا استأذن الامام ان شاء اذن له وان شاء لم يأذن وهذا اذا لم يكن حدث سبب يمنعه من المقام فان حدث سبب يمنعه من المقام بأن يكونوا فى المسجد فتحيض امرأة منهم أو يجنب رجل أو يعرض له مرض فلا يحتاج الى الاستئذان (ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم) أى أمرهم (فأذن لمن شئت منهم) أى فى الانصراف والمعنى ان شئت فأذن وان شئت فلا تأذن (واستغفر لهم الله) أى ان رأيت لهم عذرا فى الخروج عن الجماعة (ان الله غفور رحيم) قوله عز وجل (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) قال ابن عباس رضى الله عنهما يقول احذروا دعاء الرسول اذا اسخطتموه فان دعاءه موجب ليس كدعاء غيره وقيل معناه لا تدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضا يا محمد يا عبد الله ولكن فخموه وعظموه وشرفوه وقولوا يا نبى الله يا رسول الله فى لين وتواضع (قد يعلم الله الذين يتسللون) أى يخرجون (منكم لواذا) أى يستتر بعضهم ببعض ويروغ فى خفية قيل كانوا فى حفر الخندق فكان المنافقون ينصرفون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مختفين وقال ابن عباس لواذا اى يلوذ بعضهم ببعض وذلك ان المنافقين كان يثقل عليهم المقام فى المسجد يوم الجمعة واستماع خطبة النبى صلى الله عليه وسلم فكانوا يلوذون ببعض أصحابه فيخرجون من المسجد فى استتار وقوله قد يعلم فيه التهديد بالمجازاة (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) أى يعرضون عن أمره وينصرفون عنه بغير اذنه (ان تصيبهم فتنة) اى لئلا تصيبهم فتنة اى بلاء فى الدنيا (او يصيبهم عذاب اليم) اى وجيع فى الآخرة ثم عظم الله نفسه فقال تعالى (الا ان لله ما فى السموات والارض) اى ملكا وعبيدا (قد يعلم ما انتم عليه) اى من الايمان والنفاق (ويوم

يرجعون اليه) و بفتح الياء وكسر الجيم يعقوب أى ويعلم يوم يردون الى جزائه وهو يوم القيامة والخطاب والغيبة فى قوله قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون اليه يجوز أن يكونا جميعا للمنافقين على طريق الالتفات ويجوز أن يكون ما أنتم عليه عاما ويرجعون للمنافقين (فينبئهم) يوم القيامة (بما عملوا) بما أبطنوا من سوء أعمالهم ويجازيهم حق جزائهم (والله بكل شئ عليم) فلا تخفى عليه خافية وروى ان ابن عباس رضى الله عنه قرأ سورة النور على المنبر فى الموسم وفسرها على وجه لو سمعت الروم به لاسلمت والله أعلم *(سورة الفرقان مكية وهى سبع وسبعون آية) *(بسم الله الرحمن الرحيم)* (تبارك) تفاعل من البركة وهى كثرة الخير وزيادته ومعنى تبارك الله تزايد خيره وتكاثر او تزايد عن كل شئ وتعالى عنه فى صفاته وافعاله وهى كلمة تعظيم لم تستعمل الا لله وحده والمستعمل منه الماضى فحسب (الذى نزل الفرقان) هو مصدر فرق بين الشيئين اذا فصل بينهما وسمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل والحلال والحرام اولانه لم ينزل جملة ولكن مفرقا مفصولا بين بعضه وبعض فى الانزال الا ترى الى قوله وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا (على عبده) محمد عليه الصلاة والسلام (ليكون) العبد او الفرقان (للعالمين) للجن والانس وعموم الرسالة من خصائصه عليه الصلاة والسلام (نذيرا) منذرا أى مخوفا او انذارا كالنكير بمعنى الانكار ومنه قوله تعالى فكيف كان عذابى ونذر (الذى) رفع على انه خبر مبتدا محذوف او على الابدال من الذى نزل وجوز الفصل بين البدل والمبدل منه بقوله ليكون لان المبدل منه صلة نزل وليكون تعليل له فكان المبدل منه لم يتم الا به او نصب على المدح (له ملك السموات والارض) على الخلوص (ولم يتخذ ولدا) كما زعم اليهود والنصارى فى عزير والمسيح عليهما السلام (ولم يكن له شريك فى الملك) كما زعمت الثنوية (وخلق كل شئ) أى احدث كل شئ وحده لا كما يقوله المجوس والثنوية من النور والظلمة ويزدان واهرمن ولا شبهة فيه لمن يقول ان الله شئ ويقول بخلق القرآن لان الفاعل بجميع صفاته لا يكون مفعولا له على ان لفظ شئ اختص بما يصح ان يخلق بقرينة وخلق وهذا اوضح دليل لنا على المعتزلة فى خلق افعال العباد (فقدره تقديرا) فهيأه لما يصلح له بلا خلل فيه كما أنه خلق الانسان على هذا الشكل الذى تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به فى الدين والدنيا اوقدره للبقاء الى امد معلوم (واتخذوا) الضمير للكافرين لاندراجهم تحت العالمين او لدلالة نذيرا عليهم لانهم المنذرون (من دونه آلهة) أى الاصنام (لا يخلقون شيئا وهم يخلقون) أى انهم آثروا على عبادة من هو متفرد بالالوهية والملك والخلق والتقدير عبادة عجزة لا يقدرون على خلق شئ وهم يخلقون (ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا) ولا يستطيعون لانفسهم دفع ضرر عنها ولا جلب نفع اليها (ولا يملكون موتا) اماتة (ولا حياة) أى احياء (ولا نشورا) احياء بعد الموت وجعلها كالعقلاء لزعم عابديها (وقال الذين كفروا ان هذا) ما هذا القرآن (الا افك) كذب (افتراه) اختلقه واخترعه محمد من عند نفسه (واعانه عليه قوم آخرون) اى اليهود وعداس ويسار وأبو فكيهة الرومى قاله النضر بن الحارث (فقد جاؤا ظلما وزورا) هذا اخبار من الله ردا للكفرة فيرجع الضمير الى الكفار وجاء يستعمل فى معنى فعل فيعدى تعديته أو حذف الجار وأوصل الفعل أى بظلم وزور وظلمهم ان جعلوا العربى يتلقن من العجمى الرومى كلاما عربيا اعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب والزور ان بهتوه بنسبة ما هو برئ منه اليه (وقالوا أساطير الاولين) أى هو احاديث المتقدمين وما سطروه كرستم وغيره جمع اسطار واسطورة كاحدوثة (اكتتبها) كتبها

يرجعون اليه) يعنى يوم القيامة (فينبئهم بما عملوا) اى من الخير والشر (والله بكل شئ عليم) عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنزلوا النساء الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور أخرجه ابو عبد الله بن البيع فى صحيحه والله سبحانه وتعالى اعلم

(تفسير سورة الفرقان وهى مكية)

وسبع وسبعون آية وثمانمائة واثنتان وتسعون كلمة وثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاثون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (تبارك) تفاعل من البركة قيل معناه جاء بكل بركة وخير وقيل معناه تعظم (الذى نزل الفرقان) أى القرآن سماه فرقانا لانه فرق به بين الحق والباطل والحلال والحرام وقيل لانه نزل مفرقا فى أوقات كثيرة ولهذا قال نزل بالتشديد لتكثير التفريق (على عبده) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (ليكون للعالمين) أى للانس والجن (نذيرا) قيل هو القرآن وقيل النذير هو محمد صلى الله عليه وسلم (الذى له ملك السموات والارض) أى هو المتصرف فيهما كيف يشاء (ولم يتخذ ولدا) أى هو الفرد فى وحدانيته وفيه رد على النصارى (ولم يكن له شريك فى الملك) أى هو المنفرد بالالهية وفيه رد على الثنوية وعباد الاصنام (وخلق كل شئ) مما تطلق عليه صفة المخلوق (فقدره تقديرا) أى سواه وهيأه لما يصلح له لا خلل فيه ولا تفاوت وقيل قدر كل شئ تقديرا من الاجل والرزق فجرت المقادير على ما خلق قوله تعالى (واتخذوا) يعنى عبدة الاوثان (من دونه آلهة) يعنى الاصنام (لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا) أى دفع ضر ولا جر نفع (ولا يملكون موتا) أى اماتة (ولا حياة) أى احياء (ولا نشورا) أى بعثا بعد الموت (وقال الذين كفروا) يعنى النضر بن الحارث واصحابه (ان هذا) أى ما هذا القرآن (الا افك) أى كذب (افتراه) أى اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم (وأعانه عليه قوم آخرون) قيل هم اليهود وقيل عبيد بن الحضر الحبشى الكاهن وقيل جبر ويسار وعداس بن عبيد كانوا بمكة من أهل الكتاب فزعم المشركون ان محمدا صلى الله عليه وسلم يأخذ منهم قال الله تعالى (فقد جاؤا) يعنى قائلى هذه المقالة (ظلما وزورا) اى بظلم وزور وهو تسميتهم كلام الله تعالى بالافك والافتراء (وقالوا أساطير الاولين اكتتبها) يعنى النضر ابن الحارث كان يقول ان هذا القرآن ليس من الله وانما هو مما سطره الاولون مثل حديث رستم

لنفسه (فهي تملى عليه) اى تلقى عليه من كتابه (بكرة) اول النهار (واصيلا) آخره فيحفظ ما يملى عليه ثم يتلوه علينا (قل) يا محمد (انزله) أى القرآن (الذي يعلم السر في السموات والارض) أى يعلم كل سر خفي في السموات والارض يعني أن القرآن لما اشتمل على علم الغيوب التي يستحيل عادة ان يعلمها محمد عليه الصلاة والسلام من غير تعليم دل ذلك على انه من عند علام الغيوب (انه كان غفورا رحيما) فيمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة وان استوجبوها بمكابرتهم (وقالوا مال هذا الرسول) وقعت اللام في المصحف مفصولة عن الهاء وخط المصحف سنة ٣٢٧ لا تغير وتسميتهم اياه بالرسول سخرية منهم كأنهم قالوا أي شيء لهذا الزاعم انه رسول (يأكل الطعام ويمشي في الاسواق) حال والعامل فيها هذا (لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها) أى ان صح انه رسول الله فما باله يأكل الطعام كما نأكل ويتردد في الاسواق لطلب المعاش كما نتردد يعنون انه كان يجب ان يكون ملكا مستغنيا عن الاكل والتعيش ثم نزلوا عن ذلك الاقتراح الى ان يكون انسانا معه ملك حتى يتساندا في الانذار والتخويف ثم نزلوا الى ان يكون مرفودا بكنز يلقى اليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج الى تحصيل المعاش ثم نزلوا الى ان يكون رجلا له بستان يأكل هو منه كالمياسير او نأكل نحن كقراءة علي وحمزة وحسن عطف المضارع وهو يلقى وتكون على انزل وهو ماض لدخول المضارع وهو فيكون بينهما وانتصب فيكون على القراءة المشهورة لانه جواب لولا بمعنى هلا وحكمه حكم الاستفهام وأراد بالظالمين في قوله (وقال الظالمون) اياهم باعيانهم غير انه وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالظلم فيما قالوا وهم كفار قريش (ان تتبعون الا رجلا مسحورا) سحر فجن اوذا سحر وهو الرئة عنوا أنه بشر لا ملك (انظر كيف ضربوا) بينوا (لك الامثال) الاشباه أى قالوا فيك تلك الاقوال واخترعوا لك تلك الصفات والاحوال من المفترى والمملى عليه والمسحور (فضلوا) عن الحق (فلا يستطيعون سبيلا) فلا يجدون طريقا اليه (تبارك الذي ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا) أى تكاثر خير الذي ان شاء وهب لك في الدنيا خيرا مما قالوا وهو ان يجعل لك مثل ما وعدك في الآخرة من الجنات والقصور وجنات بدل من خيرا ويجعل بالرفع مكي وشامي وابو بكر لان الشرط اذا وقع ماضيا جاز في جزائه الجزم والرفع (بل كذبوا بالساعة) عطف على ما حكى عنهم يقول بل أتوا بأعجب من ذلك كله وهو تكذيبهم بالساعة او متصل بما يليه كأنه قال بل كذبوا بالساعة فكيف يلتفتون الى هذا الجواب وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك في الآخرة وهم لا يؤمنون بها (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) وهيأنا للمكذبين بها نارا شديدة في الاستعار (اذا رأتهم) أى النار أى قابلتهم (من مكان بعيد) أى اذا كانت منهم بمرأى الناظرين في البعد (سمعوا لها تغيظا وزفيرا) أى سمعوا صوت غليانها وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر واذا رأتهم زبانيتها تغيظوا وزفروا غضبا على

واسعد يار ومعنى اكتتبها انتسخها محمد صلى الله عليه وسلم من جبر ويسار وعداس ومالسار تكتب له لانه كان لا يكتب (فهي تملى عليه) أى تقرأ عليه ليحفظها لانه لا يكتب (بكرة وأصيلا) يعني غدوة وعشية قال الله تعالى ردا عليهم (قل) يا محمد (أنزله) يعني القرآن (الذي يعلم السر) أى الغيب (في السموات والارض انه كان غفورا رحيما) أى لولا ذلك لعاجلهم بعذابه (وقالوا مال هذا الرسول) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم (يأكل الطعام) أى كما نأكل نحن (ويمشي في الاسواق) أى يلتمس المعاش كما نمشي نحن واذا كان كذلك فمن اين له الفضل علينا ولا يجوز ان يمتاز عنا بالنبوة وكانوا يقولون له لست بملك لانك بشر مثلنا والملك لا يأكل ولا بملك لان الملك لا يتسوق وأنت تتسوق وتتبذل وما قالوه فاسد لان أكله الطعام لكونه آدميا ولم يدع انه ملك ومشيه في الاسواق لتواضعه وكان ذلك صفته في التوراة ولم يكن سخابا في الاسواق وليس شيء من ذلك ينافي النبوة ولانه لم يدع انه ملك من الملوك (لولا أنزل اليه ملك) أى يصدقه ويشهد له (فيكون معه نذيرا) أى داعيا (أو يلقى اليه كنز) أى ينزل عليه كنز من السماء ينفقه فلا يحتاج الى التصرف في طلب المعاش (أو تكون له جنة) أى بستان (يأكل منها) أى هو فلا أقل من ذلك ان لم يكن له كنز (وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا) أى مخدوعا وقيل مصروفا عن الحق (انظر) يا محمد (كيف ضربوا لك الامثال) أى الاشباه التي لا فائدة فيها فقالوا مسحور محتاج (فضلوا) أى عن الحق (فلا يستطيعون سبيلا) الى الهدى ومخرجا عن الضلالة قوله تعالى (تبارك الذي ان شاء جعل لك خيرا من ذلك) أى من الذي قالوا وافضل من البستان الذي ذكروا وقال ابن عباس يعني خيرا من المشي في الاسواق والتماس المعاش ثم بين ذلك الخير فقال (جنات تجري من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا) أى بيوتا مشيدة عن ابي امامة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال عرض على ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبا قلت لا يا رب ولكن اشبع يوما واجوع يوما وقال ثلاثا او نحو هذا فاذا جعت تضرعت اليك وذكرتك واذا شبعت حمدتك وشكرتك عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو شئت لسارت معي جبال مكة ذهبا جاءني ملك ان حجزته لتساوي الكعبة فقال يا محمد ان ربك يقرئك السلام ويقول ان شئت نبيا عبدا وان شئت نبيا ملكا فنظرت الى جبريل فأشار الي ان ضع نفسك فقلت نبيا عبدا قالت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لا يأكل متكئا يقول آكل كما يأكل العبد واجلس كما يجلس العبد ذكر هذين الحديثين البغوي بسنده قوله تعالى (بل كذبوا بالساعة) أى القيامة (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) أى نارا مسعرة (اذا رأتهم من مكان بعيد) قيل من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة عام فان قلت كيف تتصور الرؤية من النار وهو قوله اذا رأتهم قلت يجوز ان يخلق الله لها حياة وعقلا ورؤية وقيل معناه رأتهم زبانيتها (سمعوا لها تغيظا) أى غليانا كالغضبان اذا غلى صدره من الغضب (وزفيرا) أى صوتا فان قلت كيف يسمع التغيظ قلت معناه رأوا وعلموا ان لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا كما قال الشاعر

ورأيت زوجك في الوغى * متقلدا سيفا ورمحا

الكفار (واذا القوا منها) من النار (مكانا ضيقا) ضيقا مكى فان الكرب مع الضيق كما ان الروح مع السعة ولذا وصفت الجنة بان عرضها السموات والارض وعن ابن عباس رضى الله عنه انه يضيق عليهم كما يضيق الزج فى الرمح (مقرنين) أى وهم مع ذلك الضيق مسلسلون مقرنون فى السلاسل قرنت ايديهم الى اعناقهم فى الاغلال او يقرن مع كل كافر شيطانه فى سلسلة وفى ارجلهم الاصفاد (دعوا هنالك) حينئذ (ثبورا) هلاكا أى قالوا واثبوراه أى تعال يا ثبور فهذا حينك فيقال لهم (لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا) أى انكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا انما هو ثبور كثير (قل أذلك خير) أى المذكور من صفة النار خير (ام جنة الخلد التى وعد المتقون) أى وعدها فالراجع الى الموصول محذوف وانما قال أذلك خير ولا خير فى النار توبيخا للكفار (كانت لهم جزاء) ثوابا (ومصيرا) مرجعا وانما قيل كانت لان ما وعد الله كأنه كان لتحققه او كان ذلك مكتوبا فى اللوح قبل ان خلقهم (لهم فيها ما يشاؤن) أى ما يشاؤنه (خالدين) حال من الضمير فى يشاؤن والضمير فى (كان) لما يشاؤن (على ربك وعدا) أى موعودا (مسؤلا) مطلوبا او حقيقا ان يسئل او قد سأله المؤمنون والملائكة فى دعواتهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ربنا وادخلهم جنات عدن التى وعدتهم (ويوم نحشرهم) للبعث عند الجمهور وبالياء مكى ويزيد ويعقوب وحفص (وما يعبدون من دون الله) يريد المعبودين من الملائكة والمسيح وعزير وعن الكلبى يعنى الاصنام ينطقها الله وقيل عام وما يتناول العقلاء وغيرهم لانهم أريد به الوصف كأنه قيل ومعبوديهم (فيقول) وبالنون شامى (أأنتم اضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل) والقياس ضلوا عن السبيل الا انهم تركوا الجار كما تركوه فى هداه الطريق والاصل الى الطريق او للطريق وضل مطاوع اضله والمعنى أأنتم اوقعتموهم فى الضلال عن طريق الحق بادخال الشبه ام هم ضلوا عنه بانفسهم وانما لم يقل أأضللتم عبادى هؤلاء ام ضلوا السبيل وزيد أنتم وهم لان السؤال ليس عن الفعل ووجوده لانه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب وانما هو عن متوليه فلابد من ذكره وايلائه حرف الاستفهام ليعلم انه المسؤل عنه وفائدة سؤالهم مع علمه تعالى بالمسؤل عنه ان يجيبوا بما أجابوا به حتى يبكت عبدتهم بتكذيبهم اياهم فتزيد حسرتهم (قالوا سبحانك) تعجب منهم مما قيل لهم وقصدوا به تنزيهه عن الانداد وان يكون له نبى او ملك او غيرهما ندا ثم قالوا (ما كان ينبغى لنا ان نتخذ من دونك من أولياء) أى ما كان يصح (بما لنا ولا يستقيم ان نتولى احدا دونك فكيف يصح لنا ان نحمل غيرنا على ان يتولونا دونك نتخذ يزيد واتخذ يتعدى الى مفعول واحد نحو اتخذ وليا والى مفعولين نحو اتخذ فلانا وليا قال الله تعالى ام اتخذوا آلهة من الارض وقال واتخذ الله ابراهيم خليلا فالقراءة الاولى من المتعدى لواحد وهو من اولياء والاصل ان نتخذ اولياء وزيدت من لتأكيد معنى النفى والقراءة الثانية من المتعدى الى المفعولين فالمفعول الاول ما بنى له الفعل والثانى من اولياء ومن للتبعيض أى لا نتخذ بعض أولياء لان من لا تزاد فى المفعول الثانى بل فى الاول تقول ما اتخذت من أحد وليا ولا تقول ما اتخذت أحدا من ولى (ولكن متعتهم وآباءهم) بالاموال والاولاد وطول العمر والسلامة من العذاب (حتى نسوا الذكر) أى ذكر الله والايمان به والقرآن والشرائع (وكانوا) عند الله (قوما بورا) أى هلكى جمع بائر كعائذ وعوذ ثم قال للكفار بطريق الخطاب عدولا عن الغيبة (فقد كذبوكم) وهذه المفاجأة بالاحتجاج والالزام حسنة رائعة وخاصة اذا انضم اليها الالتفات وحذف القول ونظيرها يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل الى قوله فقد جاءكم بشير ونذير وقول القائل

أى وحاملا زمجا وقيل سمعوا لها صوت التغيظ من التلهب والتوقد وقال عبيد بن عمير تزفر جهنم يوم القيامة زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل الا خر لوجهه (واذا ألقوا منها مكانا ضيقا) قال ابن عباس تضيق عليهم كما يضيق الزج فى الرمح (مقرنين) أى مصفدين قد قرنت ايديهم الى اعناقهم فى الاغلال وقيل مقرنين مع الشياطين فى السلاسل (دعوا هنالك ثبورا) قال ابن عباس ويلا وقيل هلاكا وفى الحديث ان اول من يكسى حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من خلفه وهو يقول يا ثبوراه وهم ينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار فينادى يا ثبوراه وهم ينادون يا ثبورهم فيقال لهم (لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا) هكذا ذكره البغوى بغير سند وقيل معناه هلاككم اكثر من ان تدعوا مرة واحدة فادعوا أدعية كثيرة قوله عز وجل (قل أذلك خير) أى الذى ذكرت من صفة النار واهلها (أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا) أى ثوابا ومرجعا لهم قال تعالى (لهم فيها ما يشاؤن) أى ان جميع المرادات لا تحصل الا فى الجنة لا فى غيرها فان قلت قد يشتهى الانسان شيئا وهو لا يحصل فى الجنة كأن يشتهى الولد ونحوه وليس هو فى الجنة قلت ان الله يزيل ذلك الخاطر عن اهل الجنة بل كل واحد من اهل الجنة مشتغل بما هو فيه من اللذات الشاغلة عن الالتفات الى غيره (خالدين) أى فى نعيم الجنة ومن تمام النعيم ان يكون دائما اذ لو انقطع لكان مشوبا بضرب من الغم وأنشد فى المعنى

أشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

(كان على ربك وعدا مسؤلا) أى مطلوبا وذلك ان المؤمنين سألوا ربهم فى الدنيا حين قالوا ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقالوا ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك يقول كان اعطاء الله المؤمنين جنة وعدا وعدهم على طاعتهم اياه فى الدنيا ومسئلتهم اياه ذلك الوعد وقيل الطلبة من الملائكة للمؤمنين وذلك قولهم ربنا وادخلهم جنات عدن التى وعدتهم قوله تعالى (ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله) يعنى من الملائكة والانس والجن مثل عيسى والعزير وقيل يعنى الاصنام ثم يخاطبهم (فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل) أى أخطؤا الطريق (قالوا) يعنى المعبودين (سبحانك) نزهوا الله سبحانه وتعالى من ان يكون معه آلهة (ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) يعنى ما كان ينبغى لنا ان نوالى اعداءك بل انت ولينا من دونهم وقيل معناه ما كان لنا ان نأمرهم بعبادتنا ونحن نعبدك (ولكن متعتهم وآباءهم) أى بطول العمر والصحة والنعمة فى الدنيا (حتى نسوا الذكر) معناه تركوا المواعظ والايمان بالقرآن وقيل تركوا ذكرك وغفلوا عنه (وكانوا قوما بورا) معناه هلكى أى غلب عليهم الشقاء والخذلان (فقد كذبوكم) هذا خطاب مع المشركين اى كذبكم المعبودون

* قالوا خراسان اقصى ما يراد بنا * ثم القفول فقد جئنا خراسانا * (بما تقولون) بقولكم فيهم انهم آلهة والباء على هذا كقوله بل كذبوا بالحق والجار والمجرور بدل من الضمير كانه قيل فقد كذبوا بما تقولون وعن قنبل بالياء ومعناه فقد كذبوكم بقولهم سبحانك ما كان ينبغي لنا ان نتخذ من دونك من اولياء والباء على هذا كقولك كتبت بالقلم (فما يستطيعون صرفا ولا نصرا) أي فما يستطيع آلهتكم ان يصرفوا عنكم العذاب او ينصروكم وبالتاء حفص أي فما تستطيعون أنتم يا كفار صرف العذاب عنكم ولا نصر انفسكم ثم خاطب المكلفين على العموم بقوله (ومن يظلم منكم) أي يشرك لان الظلم وضع الشيء في غير موضعه ومن جعل المخلوق شريك خالقه فقد ظلم يؤيده قوله تعالى ان الشرك لظلم عظيم (نذقه عذابا كبيرا) فسر بالخلود في النار وهو يليق بالمشرك دون الفاسق الا على قول المعتزلة والخوارج (وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق) كسرت ان لاجل اللام في الخبر والجملة بعد الا صفة لموصوف محذوف والمعنى وما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين الا آكلين وماشين وانما حذف اكتفاء بالجار والمجرور أي من المرسلين ونحوه وما منا الا له مقام معلوم أي وما منا احد قيل هو احتجاج على من قال مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق وتسلية للنبي عليه الصلاة والسلام (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) أي محنة وابتلاء وهذا تصبير لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما عيروه به من الفقر ومشيه في الاسواق يعني انه جعل الاغنياء فتنة للفقراء فيغني من يشاء ويفقر من يشاء (أتصبرون) على هذه الفتنة فتؤجروا ام لا تصبرون فيزداد غمكم وحكي ان بعض الصالحين تبرم بضنك عيشه فخرج ضجرا فرأى خصيا في مواكب ومراكب فخطر بباله شيء فاذا بمن يقرأ هذه الآية فقال بلى نصبر ربنا اي وجعلتك فتنة لهم لانك لو كنت غنيا صاحب كنوز وجنان لكانت طاعتهم لك للدنيا او ممزوجة بالدنيا فانما بعثناك فقيرا لتكون طاعة من يطيعك خالصة لنا (وكان ربك بصيرا) عالما بالصواب فيما يبتلي به او بمن يصبر ويجزع (وقال الذين لا يرجون) لا يأملون (لقاءنا) بالخير لانهم كفرة لا يؤمنون بالبعث اولا يخافون عقابنا اما لان الراجي قلق فيما يرجوه كالخائف اولان الرجاء في لغة تهامة الخوف (لولا) هلا (أنزل علينا الملائكة) رسلا دون البشر او شهودا على نبوته ودعوى رسالته (أو نرى ربنا) جهرة فيخبرنا برسالته واتباعه (لقد استكبروا في أنفسهم) أي اضمروا الاستكبار عن الحق وهو الكفر والعناد في قلوبهم (وعتوا) وتجاوزوا الحد في الظلم (عتوا كبيرا) وصف العتو بالكبر فبالغ في افراطه أي انهم لم يجسروا على هذا القول العظيم الا انهم بلغوا غاية الاستكبار واقصى العتو واللام في لقد جواب قسم محذوف (يوم يرون الملائكة) اي يوم الموت او يوم البعث ويوم منصوب بما دل عليه (لا بشرى) أي يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى وقوله (يومئذ) مؤكد ليوم يرون أو باضمار اذكر أي اذكر يوم يرون الملائكة ثم اخبر فقال لا بشرى بالجنة يومئذ ولا ينتصب بيرون لان المضاف اليه لا يعمل في المضاف ولا ببشرى لانها مصدر والمصدر لا يعمل فيما قبله ولان المنفي بلا لا يعمل فيما قبل لا (للمجرمين) ظاهر في موضع ضمير او عام يتناولهم بعمومه وهم الذين اجترموا الذنوب والمراد الكافرون لان مطلق الاسماء يتناول اكمل المسميات (ويقولون) أي الملائكة (حجرا محجورا) حراما محرما عليكم البشرى أي جعل الله ذلك حراما عليكم انما البشرى للمؤمنين والحجر مصدر والكسر والفتح لغتان وقرئ بهما وهو من حجره اذا منعه وهو من المصادر المنصوبة بافعال متروك اظهارها ومحجورا لتأكيد معنى الحجر

(بما تقولون) أي انهم آلهة (فما يستطيعون) اي الآلهة (صرفا) أي صرف العذاب عن انفسهم (ولا نصرا) أي ولا نصر انفسهم وقيل لا يستطيعون نصركم أيها العابدون بدفع العذاب عنكم (ومن يظلم منكم) أي يشرك (نذقه عذابا كبيرا) قوله عز وجل (وما أرسلنا قبلك) أي يا محمد (من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق) قال ابن عباس لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق أنزل الله تعالى هذه الآية والمعنى ان هذه عادة مستمرة من الله تعالى على رسله فلا وجه لهذا الطعن وما أنا الا رسول وما كنت بدعا من الرسل وهم كانوا بشرا مثلي يأكلون الطعام ويمشون في الاسواق (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) أي بلية قال ابن عباس أي جعلنا بعضكم بلاء لبعض لتصبروا على ما تسمعون منهم وترون من خلافهم وتتبعوا أنتم الهدى قيل نزلت في ابتلاء الشريف بالوضيع وذلك ان الشريف اذا أراد ان يسلم رأى الوضيع قد أسلم قبله فأنف وقال اسلم بعده فيكون له السابقة والفضل علي فيقيم على كفره ويمتنع من الاسلام فذلك افتتان بعضهم ببعض وقيل نزلت في أبي جهل والوليد بن عقبة والعاص بن وائل السهمي والنضر بن الحارث وذلك انهم رأوا اباذر وابن مسعود وعمار بن ياسر وبلالا وصهيبا وعامر بن فهيرة ودونهم قد اسلموا قبلهم فقالوا نسلم فنكون مثل هؤلاء وقيل نزلت في ابتلاء فقراء المسلمين بالمستهزئين من قريش كانوا يقولون انظروا الى هؤلاء الذين تبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم من موالينا وأراذلنا فقال الله لهؤلاء المؤمنين (أتصبرون) أي على هذه الحالة من الفقر والشدة والاذى وقيل ان الغني فتنة الفقير يقول مالي لم اكن مثله والصحيح فتنة المريض والشريف فتنة الوضيع (وكان ربك بصيرا) أي بمن صبر وبمن جزع (ق) عن أبي هريرة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا نظر أحدكم الى من فضل عليه بالمال والجسم فلينظر الى من هو دونه في المال والجسم لفظ البخاري ولمسلم انظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو اجدر ان لا تزدروا نعمة الله عليكم قوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) أي لا يخافون البعث والرجاء بمعنى الخوف لغة تهامة (لولا أنزل علينا الملائكة) فتخبرنا ان محمدا صادق (أو نرى ربنا) فيخبرنا بذلك (لقد استكبروا) أي تعظموا (في أنفسهم) بهذه المقالة (وعتوا عتوا كبيرا) أي طغوا وقيل عتوا في القول وهو أشد الكفر والفحش وعتوهم طلبهم رؤية الله حتى يؤمنوا به قوله تعالى (يوم يرون الملائكة) أي عند الموت وقيل يوم القيامة (لا بشرى يومئذ للمجرمين) وذلك ان الملائكة يبشرون المؤمنين يوم القيامة ويقولون للكفار لا بشرى لكم وقيل لا بشارة لهم بالجنة كما يبشر المؤمن (ويقولون حجرا محجورا) قال ابن عباس تقول الملائكة حراما محرما

ان يدخل الجنة الا من قال لا اله الا الله محمد رسول الله وقيل اذا خرج الكفار من قبورهم تقول لهم الملائكة حراما محرما عليكم ان تكون لكم البشرى وقيل هذا قول الكفار للملائكة وذلك ان العرب كانت اذا نزلت بهم شدة ورأوا ما يكرهون قالوا حجرا محجورا فهم يقولون ذلك اذا عاينوا الملائكة قوله عز وجل (وقدمنا الى ما عملوا من عمل) يعنى من اعمال البر التى عملوها فى حال الكفر (فجعلناه هباء منثورا) اى باطلا لا ثواب له لانهم لم يعملوه لله عز وجل ومنه الحديث الصحيح كل عمل ليس عليه امرنا فهو رد والهباء هو ما يرى فى الكوة كالغبار اذا وقعت الشمس فيها فلا يمس بالايدى ولا يرى فى الظل والمنثور المفرق قال ابن عباس هو ما تسفيه الرياح وتذريه من التراب وحطام الشجر وقيل هو ما يسطع من حوافر الدواب عند السير من الغبار قوله تعالى (اصحاب الجنة يومئذ) اى يوم القيامة (خير مستقرا) اى من هؤلاء المشركين المستكبرين (واحسن مقيلا) اى موضع القائلة وذلك ان اهل الجنة لا يمر بهم يوم القيامة الا قدر من اول النهار الى وقت القائلة حتى يسكنوا مساكنهم فى الجنة قال ابن مسعود لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل اهل الجنة فى الجنة واهل النار فى النار والقيلولة الاستراحة نصف النهار وان لم يكن مع ذلك نوم لان الله تعالى قال واحسن مقيلا والجنة لا نوم فيها قال ابن عباس الحساب فى ذلك اليوم فى أوله ويروى ان يوم القيامة يقصر على المؤمنين حتى يكون كما بين العصر الى غروب الشمس قوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام) اى عن الغمام وهو غمام ابيض مثل الضبابة ولم يكن الا لبنى اسرائيل فى تيههم (ونزل الملائكة تنزيلا) قال ابن عباس تشقق السماء الدنيا فينزل اهلها وهم اكثر ممن فى الارض من الانس والجن ثم تشقق السماء الثانية فينزل اهلها وهم اكثر ممن فى السماء الدنيا ومن الجن والانس ثم كذلك حتى تشقق السماء السابعة واهل كل سماء يزيدون على اهل السماء التى تليها ثم تنزل الكروبيون ثم حملة العرش (الملك يومئذ الحق للرحمن) اى الملك الذى هو الملك حقا ملك الرحمن يوم القيامة قال ابن عباس يريد ان يوم القيامة لا ملك يقضى غيره (وكان يوما على الكافرين عسيرا) اى شديدا وفيه دليل على انه لا يكون على المؤمنين عسيرا وجاء فى الحديث انه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة صلاها فى الدنيا قوله تعالى (ويوم يعض الظالم على يديه) اراد بالظالم عقبة بن ابى معيط وذلك انه كان لا يقدم من سفر الا صنع طعاما ودعا اليه اشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبى صلى الله عليه وسلم فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاما ودعا الناس اليه ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قرب الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد ان لا اله الا الله وانى رسول الله فقال عقبة أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه وكان عقبة صديقا لابى بن خلف فلما أخبر أبى بن خلف قال له يا عقبة صبأت قال لا والله ما صبأت ولكن دخل على رجل فأبى ان يأكل طعامى الا ان اشهد له فاستحييت ان يخرج من بيتى ولم يطعم فشهدت له فطعم فقال ما أنا الذى ارضى عنك ابدا الا أن تأتيه فتبزق فى وجهه ففعل ذلك عقبة فقال عليه الصلاة والسلام لا أراك خارجا من مكة الا علوت رأسك بالسيف فقتل عقبة يوم بدر صبرا واما أبى بن خلف فقتله النبى صلى الله عليه وسلم بيده يوم أحد وقيل لما بزق عقبة فى وجه النبى صلى الله عليه وسلم عاد بزاقه فى وجهه فاحترق خداه فكان أثر ذلك فى وجهه حتى قتل وقيل كان عقبة بن أبى معيط خليل أمية بن خلف فأسلم عقبة فقال له امية وجهى من وجهك حرام ان تابعت محمدا فكفر وارتد فأنزل الله فيه ويوم يعض الظالم يعنى عقبة بن أبى معيط بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف على يديه اى ندما واسفا على ما فرط فى جنب الله واوبق نفسه بالمعصية والكفر لطاعة خليله الذى صده عن سبيل ربه قال عطاء يأكل يديه حتى يبلغ مرفقيه ثم ينبتان ثم يأكلهما هكذا كلما نبتت يده أكلها على ما فعل تحسرا وندامة (يقول يا ليتنى اتخذت) أى فى الدنيا (مع الرسول سبيلا) أى ليتنى

كما قالوا موت مائت (وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) هو صفة ولا قدوم هنا ولكن مثلت حال هؤلاء واعمالهم التى عملوها فى كفرهم من صلة رحم واغاثة ملهوف وقرى ضيف ونحو ذلك بحال من خالف سلطانه وعصاه فقدم الى اشيائه وقصد الى ما تحت يديه فأفسدها ومزقها كل ممزق ولم يترك لها أثرا والهباء ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيها بالغبار والمنثور المفرق وهو استعارة عن جعله بحيث لا يقبل الاجتماع ولا يقع به الانتفاع ثم بين فضل اهل الجنة على اهل النار فقال (اصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا) تمييز والمستقر المكان الذى يكونون فيه فى أكثر اوقاتهم يتجالسون ويتحادثون (واحسن مقيلا) مكانا يأوون اليه للاسترواح الى ازواجهم ولا نوم فى الجنة ولكنه سمى مكان استراحتهم الى الحور مقيلا على طريق التشبيه وروى انه يفرغ من الحساب فى نصف ذلك اليوم فيقيل اهل الجنة فى الجنة واهل النار فى النار وفى لفظ الاحسن تهكم بهم (ويوم) واذكر يوم (تشقق السماء) والاصل تتشقق فحذف التاء كوفى وأبو عمرو وغيرهم ادغمها فى الشين (بالغمام) لما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام كأنه الذى تشق به السماء كما تقول شققت السنام بالشفرة فانشق بها (ونزل الملائكة تنزيلا) وننزل الملائكة مكى وتنزيلا على هذا مصدر من غير لفظ الفعل والمعنى ان السماء تنفتح بغمام ابيض يخرج منها وفى الغمام الملائكة ينزلون وفى ايديهم صحائف اعمال العباد (الملك) مبتدأ (يومئذ) ظرفه (الحق) نعته ومعناه الثابت لان كل ملك يزول يومئذ فلا يبقى الا ملكه (للرحمن) خبره (وكان) ذلك اليوم (يوما على الكافرين عسيرا) شديدا يقال عسر عليه فهو عسير وعسر ويفهم منه يسره على المؤمنين ففى الحديث يهون يوم القيامة على المؤمنين حتى يكون عليهم اخف من صلاة مكتوبة صلوها فى الدنيا (ويوم يعض الظالم على يديه) عض اليدين كناية عن الغيظ والحسرة لانه من روادفها فتذكر الرادفة ويدل بها على المردوف فيرتفع الكلام به فى طبقة الفصاحة ويجد السامع عنده فى نفسه من الروعة ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه واللام فى الظالم للعهد وأريد به عقبة اللعين او للجنس فيتناول عقبة وغيره من الكفار (يقول يا ليتنى اتخذت) فى الدنيا (مع الرسول) محمد عليه الصلاة والسلام (سبيلا)

اتبعت

طريقا الى النجاة والجنة وهو الايمان (ياويلتا) وقرئ ياويلتي بالياء وهو الاصل لان الرجل ينادي ويلته وهي هلكته يقول لها تعالى فهذا اوانك وانما قلبت الياء الفا كما في صحاري ومداري (ليتني لم اتخذ فلانا خليلا) فلان كناية عن الاعلام فان أريد بالظالم عقبة لما روي انه اتخذ ضيافة فدعا اليها رسول الله عليه الصلاة والسلام فابى ان يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل فقال له أبي بن خلف وهو خليله وجهي من وجهك حرام الا ان ترجع فارتد فالمعنى ياليتني لم اتخذ ابيا خليلا فكنى عن اسمه وان أريد به الجنس فكل من اتخذ من المضلين خليلا كان لخليله اسم علم لامحالة فجعله كناية عنه وقيل هو كناية عن الشيطان (لقد اضلني عن الذكر) أي عن ذكر الله او القرآن او الايمان (بعد اذ جاءني) من الله (وكان الشيطان) أي خليله سماه شيطانا لانه اضله كما يضله الشيطان او ابليس لانه الذي حمله على مخالة المضل ومخالفة الرسول (للانسان) المطيع له (خذولا) هو مبالغة من الخذلان أي من عادة الشيطان ترك من يواليه وهذا حكاية كلام الله او كلام الظالم (وقال الرسول) أي محمد عليه الصلاة والسلام في الدنيا (يارب ان قومي)

قريشا (اتخذوا هذا القرآن مهجورا) متروكا أي تركوه ولم يؤمنوا به من الهجران وهو مفعول ثان لاتخذوا وفي هذا تعظيم للشكاية وتخويف لقومه لان الانبياء اذا شكوا اليه قومهم حل بهم العذاب ولم ينظروا ثم اقبل عليه مسليا ووعده النصرة عليهم فقال (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا) أي كذلك كان كل نبي قبلك مبتلى بعداوة قومه وكفاك بي هاديا الى طريق قهرهم والانتصار منهم وناصرا لك عليهم والعدو يجوز ان يكون واحدا وجمعا والباء زائدة أي وكفى ربك هاديا وهو تمييز (وقال الذين كفروا) أي قريش او اليهود (لولا نزل عليه القرآن جملة) حال من القرآن أي مجتمعا (واحدة) يعني هلا أنزل عليه دفعة واحدة في وقت واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة وماله أنزل على التفاريق وهو فضول من القول ومماراة بما لا طائل تحته لان أمر الاعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملة واحدة او متفرقا ونزل هنا بمعنى أنزل والا لكان متدافعا بدليل جملة واحدة وهذا اعتراض فاسد لانهم تحدوا بالاتيان بسورة واحدة من اصغر السور فابرزوا صفحة عجزهم حتى لاذوا بالمناصبة وفزعوا الى المحاربة وبذلوا المهج وما مالوا الى الحجج (كذلك) جواب لهم اي كذلك أنزل مفرقا في عشرين سنة او في ثلاث وعشرين وذلك في كذلك اشارة الى مدلول قوله لولا نزل عليه

قرآن جملة لان معناه لم أنزل عليك القرآن مفرقا فاعلم ان ذلك (لنثبت به) بتفريقه (فؤادك) حتى تعيه وتحفظه لان المتلقن انما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئا بعد شيء وجزءا عقيب جزء ولو القي عليه جملة واحدة لعجز عن حفظه او لنثبت به فؤادك عن الضجر بتواتر الوصول وتتابع الرسول لان قلب المحب يسكن بتواصل كتب المحبوب (ورتلناه ترتيلا) معطوف على الفعل الذي تعلق به كذلك كانه قال كذلك فرقناه ورتلناه أي قدرناه آية بعد آية ووقفة وقفة او أمرنا بترتيل قراءته وذلك قوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا أي اقرأه بترسل وتثبت او بيناه تبيينا والترتيل التبيين في ترسل وتثبت (ولا يأتونك) بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة كانه مثل في البطلان (الا جئناك بالحق) الا اتيناك بالجواب الحق الذي لا محيد عنه (وأحسن تفسيرا) وبما هو احسن معنى ومؤدى من مثلهم أي من سؤالهم وانما حذف من مثلهم لان في الكلام دليلا عليه كما لو قلت رأيت زيدا وعمرا وان كان عمرو احسن بما فيه دليل على انك تريد من زيد ولما كان التفسير هو التكشيف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت

اتبعت محمدا صلى الله عليه وسلم واتخذت معه طريقا الى الهداية (ياويلتا) دعا على نفسه بالويل (ليتني لم أتخذ فلانا خليلا) قيل يعني أبي بن خلف (لقد أضلني عن الذكر) أي عن الايمان والقرآن (بعد اذ جاءني) يعني الذكر مع الرسول صلى الله عليه وسلم (وكان الشيطان) وهو كل متمرد عات صد عن سبيل الله من الجن والانس (للانسان خذولا) أي كثير الخذلان يتركه ويتبرأ منه عند نزول البلاء والعذاب به وحكم الآية عام في كل خليلين ومتحابين اجتمعا على معصية الله (ق) عن أبي موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك اما ان يحذيك واما ان تبتاع منه واما ان تجد منه ريحا طيبا ونافخ الكير اما ان يحرق ثيابك واما ان تجد منه ريحا خبيثة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل أخرجه ابو داود والترمذي ولهما عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تصاحب الا مؤمنا ولا يأكل طعامك الا تقي قوله عز وجل (وقال الرسول) يعني ويقول الرسول في ذلك اليوم (يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا) أي متروكا واعرضوا عنه ولم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه وقيل جعلوه بمنزلة الهجر وهو السيء من القول فزعموا انه سحر وشعر والمعنى ان محمدا صلى الله عليه وسلم يشكو قومه الى الله عز وجل يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا فعزاه الله تعالى فقال (وكذلك جعلنا) أي وكما جعلت لك اعداء من مشركي مكة وهم قومك كذلك جعلنا (لكل نبي عدوا من المجرمين) أي المشركين والمعنى لا يكبرن عليك ذلك فان الانبياء قبلك قد لقوا هذا من قومهم فصبروا فاصبر انت كما صبروا فاني ناصرك وهاديك وهو قوله تعالى (وكفى بربك هاديا ونصيرا) قوله تعالى (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) أي كما أنزلت التوراة على موسى والانجيل على عيسى والزبور على داود صلوات الله عليهم اجمعين قال الله تعالى (كذلك) فعلنا ذلك (لنثبت به فؤادك) أي أنزلناه مفرقا لنقوي به قلبك فتعيه وتحفظه فان الكتب المتقدمة نزلت على انبياء يكتبون ويقرؤن وانزلنا القرآن على نبي أمي لا يكتب ولا يقرأ ولان من القرآن الناسخ والمنسوخ ومنه ما هو جواب لمن سأل عن امور حدثت في أوقات مختلفة ففرقناه ليكون ادعى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وايسر على العامل به (ورتلناه ترتيلا) قال ابن عباس وبيناه بيانا والترتيل التبيين في ترسل وتثبت وقيل فرقناه تفريقا آية بعد آية (ولا يأتونك) يعني يا محمد هؤلاء المشركون (بمثل) اي يضربونه لك في ابطال امرك (الا جئناك بالحق) اي بما ترد به ما جاؤا به من المثل وتبطله فسمى ما يوردون من الشبه مثلا وسمى ما يدفع به الشبه حقا (وأحسن تفسيرا) أي احسن بيانا وتفصيلا

كأنه قيل معناه كذا وكذا ولا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون هلا أنزل عليك القرآن جملة الا أعطيناك من الاحوال ما يحق لك في حكمتنا أن نعطاه وما هو أحسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته يعني أن تنزيله مفرقا وتحديهم بان يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها أدخل في الاعجاز من ان ينزل كله جملة (الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر) الذين مبتدأ وأولئك مبتدأ ثان وشر خبر أولئك وأولئك مع شر خبر الذين او التقدير هم الذين او أعني الذين وأولئك مستأنف (مكانا) أي مكانة ومنزلة او مسكنا ومنزلا (وأضل سبيلا) أي وأخطأ طريقا وهو من الاسناد المجازي والمعنى ان حاملكم على هذه السؤالات انكم تضللون سبيله وتحتقرون مكانه ومنزلته ولو نظرتم بعين الانصاف وأنتم من المسحوبين على وجوههم الى جهنم لعلمتم ان مكانكم شر من مكانه ومنزلته سبيلكم أضل من سبيله وفي طريقته قوله قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه الآية وعن النبي صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف صنف على الدواب وصنف على أرجلهم وصنف على وجوههم قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم فقال عليه الصلاة والسلام الذي أمشاكم على أقدامكم يمشيهم على وجوههم (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة كما آتيناك القرآن (وجعلنا معه أخاه هارون) بدل أو عطف بيان (وزيرا) هو في اللغة من يرجع اليه

من الوزر وهو الملجأ والوزارة لا تنافي النبوة فقد كان يبعث في الزمن الواحد أنبياء ويؤمرون بأن يوازر بعضهم بعضا (فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا) الى فرعون وقومه وتقديره فذهبا اليهم وأنذرا فكذبوهما (فدمرناهم تدميرا) التدمير الاهلاك بأمر عجيب أراد اختصار القصة فذكر أولها وآخرها لانهما المقصود من القصة أعني الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم (وقوم نوح) أي ودمرنا قوم نوح (لما كذبوا الرسل) يعني نوحا وادريس وشيثا أو كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيبا للجميع (أغرقناهم) بالطوفان (وجعلناهم) وجعلنا اغراقهم أو قصتهم (للناس آية) عبرة يعتبرون بها (وأعتدنا) وهيأنا (للظالمين) لقوم نوح وأصله وأعتدنا لهم الا انه أراد تظليمهم فأظهر أو هو عام لكل من ظلم ظلم شرك ويتناولهم بعمومه (عذابا أليما) أي النار (وعادا) ودمرنا عادا (وثمود) حمزة وحفص على تأويل القبيلة وغيرهما وثمودا على تأويل الحي أو لانه اسم الأب الأكبر (وأصحاب الرس) هم قوم شعيب كانوا يعبدون الاصنام فكذبوا شعيبا فبيناهم حول الرس وهي البئر غير المطوية انهارت بهم فخسف بهم وبديارهم وقيل الرس قرية قتلوا نبيهم فهلكوا أو هم أصحاب الاخدود والرس الاخدود (وقرونا) وأهلكنا أمما (بين ذلك) المذكور (كثيرا) لا يعلمها الا الله أرسل اليهم فكذبوهم فاهلكوا (وكلا ضربنا له الامثال) بينا له القصص العجيبة من قصص الاولين (وكلا تبرنا تتبيرا) أي أهلكنا اهلاكا وكلا الاول منصوب بما دل عليه ضربنا له الامثال وهو أنذرنا أو حذرنا والثاني بتبرنا لانه فارغ له (ولقد أتوا) يعني أهل مكة (على القرية) سدوم وهي أعظم قرى قوم لوط وكانت خمسا أهلك الله أربعا مع أهلها وبقيت واحدة (التي أمطرت مطر السوء) أي أمطر الله عليها الحجارة يعني ان قريشا مروا مرارا كثيرة في متاجرهم الى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء ومطر السوء مفعول ثان والاصل أمطرت القرية مطرا أو مصدر محذوف الزوائد أي امطار السوء (أفلم يكونوا يرونها) أما شاهدوا ذلك بأبصارهم عند سفرهم الى الشام فيتفكروا فيؤمنوا (بل كانوا لا يرجون نشورا) بل كانوا قوما كفرة بالبعث لا يخافون بعثا فلا يؤمنون أو لا يأملون نشورا كما يأمله المؤمنون لطمعهم في الوصول الى ثواب أعمالهم (واذا رأوك ان يتخذونك) ان نافية (الا هزوا) اتخذه هزوا في معنى استهزأ به والاصل اتخذه موضع هزؤ أو مهزوا به (أهذا الذي) محكي بعد القول المضمر وهذا استصغار واستهزاء أي قائلين أهذا الذي (بعث الله رسولا) والمحذوف حال والعائد الى الذي محذوف أي بعثه (ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) ان مخففة من الثقيلة واللام

ثم ذكر مآل هؤلاء المشركين فقال تعالى (الذين) اي هم الذين (يحشرون) اي يساقون ويجرون (على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكانا) اي منزلا ومصيرا (وأضل سبيلا) اي أخطأ طريقا قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا) اي معينا وظهيرا (فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا) يعني القبط (فدمرناهم) فيه اضمار اي فكذبوهما فدمرناهم (تدميرا) اي أهلكناهم اهلاكا (وقوم نوح لما كذبوا الرسل) اي رسولهم ومن كذب رسولا واحدا فقد كذب جميع الرسل فلذلك ذكره بلفظ الجمع (أغرقناهم وجعلناهم للناس آية) اي عبرة لمن بعدهم (وأعتدنا للظالمين) في الآخرة (عذابا أليما) اي سوى ما حل بهم من عاجل العذاب في الدنيا (وعادا وثمود) اي أهلكنا عادا وثمود (وأصحاب الرس) قال وهب بن منبه كان أهل بئر الرس نزولا عليها وكانوا أصحاب مواشي يعبدون الاصنام فبعث الله اليهم شعيبا يدعوهم الى الاسلام فتمادوا في طغيانهم وآذوا شعيبا فبينما هم حول البئر في منازلهم انهارت البئر وخسف بهم وبديارهم ورباعهم وقيل الرس بئر بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فأهلكهم الله وقال سعيد بن جبير كان نبي يقال له حنظلة بن صفوان فقتلوه فأهلكهم الله وقيل الرس بانطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وهم الذين ذكرهم الله في سورة يس وقيل هم أصحاب الاخدود والرس الاخدود (وقرونا بين ذلك كثيرا) اي وأهلكنا قرونا كثيرا بين عاد وثمود وأصحاب الرس (وكلا ضربنا له الامثال) اي الاشباه في اقامة الحجة عليهم فلم نهلكهم الا بعد الانذار (وكلا تبرنا تتبيرا) اي أهلكناهم اهلاكا كقوله تعالى (ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء) يعني الحجارة وهي قريات قوم لوط وهي خمس قرى أهلك الله منها أربعا ونجت واحدة وهي أصغرها وكان أهلها لا يعملون العمل الخبيث (أفلم يكونوا يرونها) يعني اذا مروا بها في أسفارهم فيعتبروا ويتعظوا لان مدائن قوم لوط كانت على طريقهم في ممرهم الى الشام (بل كانوا لا يرجون نشورا) اي لا يخافون بعثا قوله تعالى (واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا) نزلت في أبي جهل كان اذا مر مع أصحابه قال مستهزئا (أهذا الذي بعث الله رسولا ان كاد ليضلنا) اي قد قارب ان يضلنا (عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) اي على عبادتها والمعنى لو لم نصبر عليها لصرفنا عنها

فارقة وهو دليل على فرط مجاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوتهم وعرض المعجزات عليهم حتى شارفوا بزعمهم ان يتركوا دينهم الى دين الاسلام لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم (وسوف يعلمون حين يرون العذاب) هو وعيد ودلالة على انهم لا يفوتونه وان طالت مدة الامهال (من أضل سبيلا) هو كالجواب عن قولهم ان كاد ليضلنا لانه نسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى الضلال اذ لا يضل غيره الا من هو ضال في نفسه (أرأيت من اتخذ الهه هواه) أي من أطاع هواه فيما يأتي ويذر فهو عابده وهواه الهه فيقول الله تعالى لرسوله هذا الذي لا يرى معبودا الا هواه كيف تستطيع ان تدعوه الى الهدى يروى ان الواحد من أهل الجاهلية كان يعبد الحجر فاذا مر بحجر احسن منه ترك الاول وعبد الثاني وعن الحسن هو في كل متبع هواه (أفأنت تكون عليه وكيلا) اي حفيظا تحفظه من متابعة هواه وعبادة ما يهواه افأنت تكون عليه موكلا فتصرفه عن الهوى الى الهدى عرفه ان اليه التبليغ فقط (أم تحسب ان أكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا) ام منقطعة معناه بل اتحسب كان هذه المذمة اشد من التي تقدمتها حتى حقت بالاضراب عنها اليها وهي كونهم مسلوبي الاسماع والعقول لانهم لا يلقون الى استماع الحق اذنا ولا الى تدبره عقلا ومشبهين بالانعام التي هي مثل في الغفلة والضلالة وقد ركبهم الشيطان بالاستدلال لتركهم الاستدلال ثم هم ارجح ضلالة منها لان الانعام تسبح ربها وتسجد له وتطيع من يعلفها وتعرف من يحسن اليها ممن يسيء اليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدي لمراعيها ومشاربها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون احسانه اليهم من اساءة الشيطان الذي هو عدوهم ولا يطلبون الثواب الذي هو اعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو اشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذي هو المشرع الهني والعذب الروي وقالوا الملائكة روح وعقل والبهائم نفس وهوى والآدمي مجمع الكل ابتلاء فان غلبته النفس والهوى فضلته الانعام وان غلبته الروح والعقل فضل الملائكة الكرام وانما ذكر الاكثر لان فيهم من لم يصده عن الاسلام الا حب الرياسة وكفى به داء عضالا ولان فيهم من آمن (ألم تر الى ربك) ألم تنظر الى صنع ربك وقدرته (كيف مد الظل) أي بسطه فعم الارض وذلك من حين طلوع الفجر الى وقت طلوع الشمس في قول الجمهور لانه ظل ممدود لا شمس معه ولا ظلمة وهو كما قال في ظل الجنة وظل ممدود اذ لا شمس معه ولا ظلمة (ولو شاء لجعله ساكنا) أي دائما لا يزول ولا تذهبه الشمس (ثم جعلنا الشمس عليه) على الظل (دليلا) لانه بالشمس يعرف الظل ولولا الشمس لما عرف الظل فالاشياء تعرف باضدادها (ثم قبضناه) أي اخذنا ذلك الظل الممدود (الينا) الى حيث اردنا (قبضا يسيرا) سهلا غير عسير او قليلا قليلا أي جزءا فجزءا بالشمس التي تأتي عليه وجاء بثم لتفاضل ما بين الامور فكان الثاني اعظم من الاول والثالث اعظم من الثاني شبه تباعد ما بينهما في الفضل بتباعد ما بين الحوادث في الوقت (وهو الذي جعل لكم الليل لباسا) جعل الظلام الساتر كاللباس (والنوم سباتا) راحة لابدانكم وقطعا لاعمالكم والسبت القطع والنائم مسبوت لانه انقطع عمله وحركته وقيل السبات الموت والمسبوت الميت لانه مقطوع الحياة وهو كقوله تعالى وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعضده ذكر النشور في مقابلته (وجعل النهار نشورا) اذ النشور انبعاث من النوم كنشور الميت اي ينشر فيه الخلق للمعاش وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها اظهار لنعمته على خلقه لان في الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية ودنيوية وفي النوم واليقظة المشبهين بالموت والحياة عبرة لمن اعتبر وقال لقمان لابنه كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر (وهو الذي أرسل الرياح) الريح مكي والمراد به الجنس (نشرا) تخفيف نشر جمع نشور (بين يدي رحمته) اي قدام المطر لانه ريح ثم سحاب ثم مطر وهذه استعارة مليحة (وأنزلنا من السماء) مطرا (طهورا) بليغا في طهارته والطهور صفة كقولك ماء طهور اي طاهر واسم كقولك لما يتطهر به طهور كالوضوء والوقود لما يتوضأ به وتوقد به النار ومصدر بمعنى التطهر كقولك تطهرت طهورا حسنا ومنه قوله عليه

(وسوف يعلمون حين يرون العذاب) اي في الآخرة عيانا (من أضل سبيلا) اي اخطأ طريقا (أرأيت من اتخذ الهه هواه) وذلك ان الرجل من المشركين كان يعبد حجرا فاذا رأى حجرا أحسن منه رماه واخذ الاحسن منه وعبده وقال ابن عباس أرأيت من ترك عبادة الله خالقه ثم هوى حجرا فعبده ما حاله عندي وقيل الهوى اله يعبد (أفأنت تكون عليه وكيلا) اي حافظا تحفظه من اتباع الهوى وعبادة ما يهواه من دون الله والمعنى لست كذلك وقال الكلبي نسختها آية القتال (ام تحسب ان أكثرهم يسمعون) اي ما تقول سماع طالب الافهام (أو يعقلون) اي ما يعاينون من الحجج والاعلام وهذه المذمة أعظم من التي تقدمت لانهم لشدة عنادهم لا يسمعون القول واذا سمعوه لا يتفكرون فيه فكأنهم لا سمع لهم ولا عقل البتة فعند ذلك شبههم بالانعام فقال تعالى (ان هم) اي ما هم (الا كالانعام) اي في عدم انتفاعهم بالاعلام وعدم اقدامهم على التدبر والتفكر ثم قال تعالى (بل هم أضل سبيلا) لان البهائم تهتدي لمراعيها ومشاربها وتنقاد لاربابها الذين يتعاهدونها وهؤلاء الكفار لا يعرفون طريق الحق ولا يطيعون ربهم الذي خلقهم ورزقهم ولان الانعام تسجد وتسبح والكفار لا يفعلون ذلك قوله تعالى (ألم تر الى ربك كيف مد الظل) هو ما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس جعله ممدودا لانه ظل لا شمس معه (ولو شاء لجعله ساكنا) اي دائما ثابتا لا يزول ولا تذهبه الشمس (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) معنى دلالتها عليه انه لو لم تكن الشمس لما عرف الظل ولولا النور لما عرفت الظلمة والاشياء تعرف بضدها (ثم قبضناه) يعني الظل (الينا قبضا يسيرا) اي بالشمس التي تأتي عليه والمعنى ان الظل يعم جميع الارض قبل طلوع الشمس فاذا طلعت الشمس قبض الله الظل جزءا فجزءا قبضا خفيا (وهو الذي جعل لكم الليل لباسا) اي سترا تستترون به والمعنى ان ظلمة الليل تغشى كل شيء كاللباس الذي يشتمل على لابسه (والنوم سباتا) اي راحة لابدانكم وقطعا لاعمالكم (وجعل النهار نشورا) اي يقظة وزمانا تنتشرون فيه لابتغاء رزقكم وطلب الاشتغال (وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته) يعني المطر (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) الطهور هو الطاهر في نفسه المطهر لغيره فهو اسم

الصلاة والسلام لاصلاة الا بطهور أي بطهارة وماحكى عن ثعلب هو ما كان طاهرا في نفسه مطهرا لغيره وهو مذهب الشافعي رحمه الله تعالى أن كان هذا
زيادة بيان الطهارة فحسن ويعضده قوله تعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به والا فليس فعول من التفعيل في شيء وقياسه على
ماهو مشتق من الافعال المتعدية كقطوع
ومنوع غير سديد لان بناء الفعول للمبالغة
فان كان الفعل متعديا فالفعول متعد وان كان
لازما فلازم (لنحيي به) بالمطر (بلدة ميتا)
ذكر ميتا على ارادة البلد او المكان (ونسقيه
مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا) أي ونسقي
الماء البهائم والناس ومما خلقنا حال من انعاما
واناسي اي انعاما واناسي مما خلقنا وسقى
واسقى لغتان وقرأ المفضل والبرجمي ونسقيه
والاناسي جمع انسي على القياس ككرسي
وكراسي وانسان واصله اناسين كسرحان
وسراحين فأبدلت النون ياء وادغمت وقدم
احياء الارض على سقي الانعام والاناسي
لان حياتها سبب لحياتهما وتخصيص
الانعام من الحيوان الشارب لان عامة منافع
الاناسي متعلقة بها فكان الانعام بسقي الانعام
كالانعام بسقيهم وتنكير الانعام والاناسي
ووصفها بالكثرة لان اكثر الناس منيخون
بالقرب من الاودية والانهار فبهم غنية عن سقي
السماء واعقابهم وبقاياهم وهم كثير يعيشون
بما ينزل الله من رحمته وتنكير البلدة لانه يريد
بعض بلاد هؤلاء المتبعدين عن مظان الماء ولما
كان سقي الاناسي من جملة ما أنزل له الماء وصفه
بالطهور اكراما لهم وبيان ان من حقهم ان يؤثروا
الطهارة في بواطنهم وظواهرهم لان الطهورية
شرط الاحياء (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا)
ليذكروا حمزة وعلي يريد ولقد صرفنا هذا القول
بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب المنزلة
على الرسل وهو ذكر انشاء السحاب وانزال
القطر ليتفكروا ويعتبروا ويعرفوا حق النعمة
فيه ويشكروا (فأبى أكثر الناس الا كفورا)
فأبى اكثرهم الا كفران النعمة وجحودها وقلة
الاكتراث لها او صرفنا المطر بينهم في البلدان
المختلفة والاوقات المتغايرة وعلى الصفات المتفاوتة
من وابل وطل وجود ورذاذ وديمة فأبوا الا الكفور
وان يقولوا مطرنا بنوء كذا ولا يذكروا صنع الله
تعالى ورحمته وعن ابن عباس رضي الله عنهما مامن عام أقل مطرا من عام ولكن الله يصرفه حيث يشاء وقرأ الآية وروي ان الملائكة يعرفون عدد المطر
ومقداره في كل عام لانه لا يختلف ولكن يختلف فيه البلاد وينتزع من ههنا جواب في تنكير البلدة والانعام والاناسي ومن نسب الامطار الى الانواء وجحد ان تكون
هي والانواء من خلق الله تعالى كفر وان رأى ان الله تعالى خالقها وقد نصب الانواء امارات ودلالات عليها لم يكفر (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا

الماء يتطهر به بدليل ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال في البحر هو الطهور ماؤه الحل ميتته أخرجه
ابو داود والترمذي والنسائي وأراد به المطر والماء المطهر لانه يطهر الانسان من الحدث والنجاسة فثبت
ان التطهير مختص بالماء وذهب أصحاب الرأي الى ان الطهور هو الطاهر حتى جوزوا ازالة النجاسة
بالمائعات الطاهرة مثل الخل والريق ونحوهما ولو جاز ازالة النجاسة بها لجاز ازالة الحدث بها وذهب
بعضهم الى ان الطهور ما تكرر منه التطهير وهو قول مالك حتى جوز الوضوء بالماء اذا توضئ به مرة وان
وقع في الماء شيء غير طعمه أو لونه او ريحه هل تزول طهوريته نظر ان كان الواقع شيئا لا يمكن صون الماء
عنه كالطين والتراب وأوراق الاشجار فتجوز الطهارة به كما لو تغير بطول المكث في قراره وكذلك لو وقع
فيه ما لا يختلط كالدهن يصب فيه فيتروح الماء برائحته تجوز الطهارة به لان تغيره للمجاورة لا للمخالطة
وان كان شيئا يمكن صون الماء عنه ويخالطه كالخل والزعفران ونحوهما تزول طهوريته فلا يجوز
الوضوء به وان لم يتغير احد أوصافه نظر ان كان الواقع شيئا طاهرا لم يزل طهوريته يجوز الوضوء به سواء
كان الماء قليلا او كثيرا وان كان الواقع شيئا نجسا نظر فيه فان كان الماء اقل من قلتين نجس الماء وان
كان قدر قلتين فأكثر فهو طاهر يجوز الوضوء به والقلتان خمسمائة رطل بالبغدادي يدل عليه ما روي
عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه سئل عن الماء يكون في الفلاة ترده السباع والدواب فقال
اذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث أخرجه ابو داود والترمذي وهذا قول الشافعي وأحمد واسحاق
وجماعة من أهل الحديث ان الماء اذا بلغ هذا الحد لا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغير احد أوصافه
وذهب جماعة الى ان الماء القليل لا ينجس بوقوع النجاسة فيه ما لم يتغير طعمه او لونه او ريحه وهذا قول
الحسن وعطاء والنخعي والزهري واحتجوا بما روي عن أبي سعيد الخدري قال قيل يا رسول الله انه
يستقى لك من بئر بضاعة ويلقى فيها لحوم الكلاب وخرق الحيض وعذر الناس فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم ان الماء طهور لا ينجسه شيء وفي رواية قال قلت يا رسول الله اتتوضأ من بئر بضاعة وهي بئر
تطرح فيها خرق الحيض ولحوم الكلاب والنتن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الماء طهور لا ينجسه
شيء وقوله تعالى (لنحيي به) اي بالمطر (بلدة ميتا) قيل أراد به موضع البلدة (ونسقيه مما خلقنا)
اي نسقي من ذلك الماء (أنعاما وأناسي كثيرا) اي بشرا كثيرا والاناسي جمع اناس وقيل جمع انسان
قوله عز وجل (ولقد صرفناه بينهم) يعني المطر مرة ببلدة ومرة ببلدة أخرى وقال ابن عباس ما عام بأمطر
من عام ولكن الله يصرفه في الارض وقرأ هذه الآية وهذا كما روي مرفوعا ما من ساعة من ليل
ولا نهار الا والسماء تمطر فيها يصرفه الله حيث يشاء وروي عن ابن مسعود يرفعه قال ليس من سنة بأمطر
من سنة أخرى ولكن الله قسم هذه الارزاق فجعلها في هذه السماء الدنيا في هذا القطر ينزل منه كل
سنة بكيل معلوم ووزن معلوم واذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك الى غيرهم واذا عصوا جميعا صرف
الله ذلك المطر الى الفيافي والبحار وقيل المراد من تصريف المطر تصريفه وابلا وطشا ورذاذا ونحوها
وقيل التصريف راجع الى الريح (ليذكروا) اي ليتذكروا ويتفكروا في قدرة الله تعالى (فأبى
أكثر الناس الا كفورا) اي جحودا وكفرهم هو انهم اذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا (ق) عن زيد بن
خالد الجهني انه قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية في اثر سماء من الليل
فلما انصرف أقبل على الناس فقال هل تدرون ماذا قال ربكم قالوا الله ورسوله أعلم قال اصبح من عبادي
مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب وأما من قال
مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب قوله تعالى (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا)
اي رسولا ينذرهم ولكن بعثناك الى القرى كلها وحملناك ثقل النذارة لتستوجب بصبرك ما أعددنا

فلا تطع الكافرين) اى لو شئنا لخففنا عنك اعباء نذارة جميع القرى ولبعثنا فى كل قرية نبيا ينذرها ولكن شئنا ان نجمع لك فضائل جميع المرسلين بالرسالة الى كافة العالمين فقصرنا الامر عليك وعظمناك به فتكون وحدك ككلهم ولذا خوطب بالجمع يا أيها الرسل فقابل ذلك بالشكر والصبر والتشدد ولا تطع الكافرين فيما يدعونك اليه من موافقتهم ومداهنتهم وكما آثرتك على جميع الانبياء فآثر رضائى على جميع الاهواء واريد بهذا تهييجه وتهييج المؤمنين وتحريكهم (وجاهدهم به) أى بالله يعنى بعونه وتوفيقه او بالقرآن اى جادلهم به وقرعهم بالعجز عنه (جهادا كبيرا) عظيما موقعه عند الله لما يحتمل فيه من المشاق ويجوز ان يرجع الضمير فى به الى مادل عليه ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا من كونه نذير كافة القرى لانه لو بعث فى كل قرية نذير لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات فكبر جهاده من اجل ذلك وعظم فرعهم فقال له وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهادا كبيرا جامعا لكل مجاهدة (وهو الذى مرج البحرين) خلاهما متجاورين متلاصقين تقول مرجت الدابة اذا خليتها ترعى وسمى الماءين الكثيرين الواسعين بحرين (هذا) أى احدهما (عذب فرات) صفة لعذب أى شديد العذوبة حتى يقرب الى الحلاوة (وهذا ملح أجاج) صفة لملح أى شديد الملوحة (وجعل بينهما برزخا) حائلا من قدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج فهما فى الظاهر مختلطان وفى الحقيقة منفصلان (وحجرا محجورا) وسترا ممنوعا عن الاعين كقوله حجابا مستورا (وهو الذى خلق من الماء) اى النطفة (بشرا) انسانا (فجعله نسبا وصهرا) أراد تقسيم البشر قسمين ذوى نسب أى ذكورا ينسب اليهم فيقال فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر أى اناثا يصاهر بهن كقوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى (وكان ربك قديرا) حيث خلق من النطفة الواحدة بشرا نوعين ذكرا وانثى وقيل فجعله نسبا أى قرابة وصهرا مصاهرة يعنى الوصلة بالنكاح من باب الانساب لان التواصل يقع بها وبالمصاهرة لان التوالد يكون بهما (ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم) ان عبدوه (ولا يضرهم) ان تركوه (وكان الكافر على ربه) على معصية ربه (ظهيرا) معينا ومظاهرا وفعيل بمعنى مفاعل غير عزيز والظهير والمظاهر كالعوين والمعاون والمظاهرة المعاونة والمعنى ان الكافر بعبادة الصنم يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الرحمن (وما أرسلناك الا مبشرا) للمؤمنين (ونذيرا) منذرا للكافرين (قل ما أسألكم عليه) على التبليغ (من أجر) جعل (الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا) والمراد الا فعل من شاء واستثناؤه من الاجر قول ذى شفقة عليك قد سعى لك فى تحصيل مال ما اطلب منك ثوابا على ما سعيت الا ان تحفظ هذا المال ولا تضيعه فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب ولكن صوره بصورة الثواب كانه يقول ان حفظت مالك اعتد حفظك بمنزلة الثواب لى ورضائى به كرضى المثاب بالثواب ولعمرى انه عليه الصلاة والسلام مع أمته بهذا الصدد ومعنى اتخاذهم الى الله سبيلا تقربهم اليه بالايمان والطاعة أو بالصدقة والنفقة وقيل المراد لكن من شاء ان يتخذ بالانفاق الى رضاء ربه سبيلا فليفعل وقيل تقديره لا أسألكم على ما أدعوكم اليه أجرا الا اتخاذ المدعو سبيلا الى ربه بطاعته فذلك اجرى لان الله يأجرنى عليه (وتوكل على الحى الذى لا يموت) اتخذ من لا يموت وكيلا لا يكلك الى من يموت ذليلا يعنى ثق به واسند امرك اليه فى استكفاء شرورهم ولا تتكل على حى يموت وقرأها بعض الصالحين فقال لا يصح لذى عقل ان يثق بعدها بمخلوق والتوكل الاعتماد عليه فى كل امر (وسبح) عن ان يكل الى غيره من توكل عليه (بحمده) بتوفيقه الذى يوجب الحمد او قل سبحان الله وبحمده او نزهه عن كل العيوب بالثناء عليه (وكفى به بذنوب عباده خبيرا) أى كفى الله خبيرا بذنوب عباده يعنى انه خبير بأحوالهم كاف فى جزاء اعمالهم

لك من الكرامة والدرجة الرفيعة (فلا تطع الكافرين) فيما يدعونك اليه من موافقتهم ومداهنتهم (وجاهدهم به) اى بالقرآن (جهادا كبيرا) اى شديدا قوله تعالى (وهو الذى مرج البحرين) اى خلطهما وأفاض احدهما على الآخر وقيل ارسلهما فى مجاريهما (هذا عذب فرات) اى شديد العذوبة يميل الى الحلاوة (وهذا ملح أجاج) اى شديد الملوحة وقيل مر (وجعل بينهما برزخا) اى حاجزا بقدرته فلا يختلط العذب بالملح ولا الملح بالعذب (وحجرا محجورا) أى سترا ممنوعا فلا يبغى أحدهما على الآخر ولا يفسد الملح العذب قوله تعالى (وهو الذى خلق من الماء) اى من النطفة (بشرا فجعله نسبا وصهرا) اى جعله ذا نسب وصهر وقيل النسب ما لا يحل نكاحه والصهر ما يحل نكاحه والنسب ما يوجب الحرمة والصهر ما لا يوجبها وقيل النسب من القرابة والصهر الخلطة التى تشبه القرابة وهو النسب المحرم للنكاح وقد حرم الله بالنسب سبعا وبالسبب سبعا وجمعها قوله حرمت عليكم امهاتكم الآية وقد تقدم تفسير ذلك وبيانه فى تفسير سورة النساء (وكان ربك قديرا) على ما أراد حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر الذكر والانثى (ويعبدون من دون الله) يعنى هؤلاء المشركين (ما لا ينفعهم) اى ان عبدوه (ولا يضرهم) اى ان تركوه (وكان الكافر على ربه ظهيرا) اى معينا اعان الشيطان على ربه بالمعاصى لان عبادتهم الاصنام معاونة للشيطان وقيل معنى ظهيرا هينا ذليلا من قولك ظهرت بفلان اذا جعلته وراء ظهرك ولم تلتفت اليه وقيل اراد بالكافر ابا جهل والاصح انه عام فى كل كافر وقوله تعالى (وما أرسلناك الا مبشرا) أى بالثواب على الايمان والطاعة (ونذيرا) منذرا بالعقاب على الكفر والمعصية (قل) يا محمد (ما أسألكم عليه) أى على تبليغ الوحى (من أجر) فتقولوا انما يطلب محمد أموالنا بما يدعونا اليه فلا نتبعه (الا من شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا) معناه لكن من شاء ان يتخذ بانفاق ماله سبيلا الى ربه فعلى هذا يكون المعنى لا أسألكم لنفسى أجرا ولكن لا امنع من انفاق المال الا فى طلب مرضاة الله واتخاذ السبيل الى جنته قوله عز وجل (وتوكل على الحى الذى لا يموت) معناه انه سبحانه وتعالى لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن لا يطلب منهم أجرا البتة امره ان يتوكل عليه فى جميع اموره وانما قال على الحى الذى لا يموت لان من توكل على حى يموت انقطع توكله عليه بموته واما الله سبحانه وتعالى فانه حى لا يموت ولا ينقطع توكل من توكل عليه ولا يضيع البتة (وسبح بحمده) اى صل له شكرا على نعمه وقيل معناه قل سبحان الله والحمد لله (وكفى به بذنوب عباده خبيرا) يعنى انه تعالى عالم بجميع ذنوب عباده فيجازيهم بها وقيل معناه انه لا يحتاج

روى عن مجاهد اولها يوم الاحد
(الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام) اى فى مدة مقدار هذه المدة لانه لم يكن حينئذ ليل ونهار
وآخرها يوم الجمعة وانما خلقها فى ستة أيام وهو يقدر على ان يخلقها فى لحظة تعليما لخلقه الرفق والتثبت (ثم استوى على العرش الرحمن) أى هو الرحمن
فالرحمن خبر مبتدأ محذوف أو بدل من الضمير فى استوى او الذى خلق مبتدأ والرحمن خبره (فاسأل) بلا همزة مكى وعلى (به) صلة سل كقوله سأل
سائل بعذاب واقع كما تكون عن صلة فى قوله تعالى ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم فسأل به كقولك اهتم به واشتغل به وسأل عنه كقولك بحث عنه وفتش
عنه او صلة (خبيرا) ويكون خبيرا مفعول سل اى فاسأل عنه رجلا عارفا يخبرك برحمته أو فاسأل رجلا خبيرا به وبرحمته او الرحمن اسم من اسماء الله
تعالى مذكور فى الكتب المتقدمة ولم يكونوا يعرفونه فقيل فاسأل بهذا الاسم من يخبرك من اهل الكتب حتى تعرف من ينكره ومن ثم كانوا يقولون
ما نعرف الرحمن الا الذى باليمامة يعنون مسيلمة وكان يقال له رحمن اليمامة (واذا قيل لهم) اى اذا قال محمد عليه الصلاة والسلام للمشركين (اسجدوا للرحمن)
لا نعرف الرحمن فنسجد له فهذا سؤال عن المسمى به لانهم ما كانوا يعرفونه بهذا

صلوا لله واخضعوا له (قالوا وما الرحمن) أى
الاسم والسؤال عن المجهول بما او عن معناه
لانه لم يكن مستعملا فى كلامهم كما استعمل الرحيم
والراحم والرحوم (أنسجد لما تأمرنا) للذى
تأمرنا بالسجود له او لامرك بالسجود يا محمد من
غير علم منا به يأمرنا على وحمزة كان بعضهم قال
لبعض أنسجد لما يأمرنا محمد أو يأمرنا المسمى
بالرحمن ولا نعرف ما هو فقد عاندوا لان معناه
عند اهل اللغة ذو الرحمة التى لا غاية بعدها
فى الرحمة لان فعلان من ابنية المبالغة تقول
رجل عطشان اذا كان فى نهاية العطش
(وزادهم) قوله اسجدوا للرحمن (نفورا)
تباعدا عن الايمان (تبارك الذى جعل فى
السماء بروجا) هى منازل الكواكب السيارة
لكل كوكب بيتان يقوى حاله فيهما وللشمس
بيت وللقمر بيت فالحمل والعقرب بيتا المريخ
والثور والميزان بيتا الزهرة والجوزاء والسنبلة
بيتا عطارد والسرطان بيت القمر والاسد بيت
الشمس والقوس والحوت بيتا المشترى والجدى
والدلو بيتا زحل وهذه البروج مقسومة على
الطبائع الاربع فيصيب كل واحد منها ثلاثة
بروج فالحمل والاسد والقوس مثلثة نارية والثور
والسنبلة والجدى مثلثة ارضية والجوزاء والميزان
والدلو مثلثة هوائية والسرطان والعقرب والحوت
مثلثة مائية سميت المنازل بالبروج التى هى القصور العالية لانها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها واشتقاق البروج من التبرج لظهوره وقيل
وقال الحسن وقتادة ومجاهد البروج هى النجوم الكبار لظهورها (وجعل فيها) فى السماء (سراجا) يعنى الشمس لتوقدها سرجا حمزة وعلى أى نجوما (وقمرا
منيرا) مضيئا بالليل (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) فعلة من خلف كالركبة من ركب وهى الحالة التى يخلف عليها الليل والنهار كل احدهما الآخر
والمعنى جعلهما ذوى خلفة يخلف أحدهما الآخر عند مضيه او يخلفه فى قضاء ما فاته من الورد (لمن أراد ان يذكر) يتدبر فى تسخيرهما واختلافهما فيعرف
مدبرهما يذكر حمزة وخلف اى يذكر الله او المنسى فيقضى (أو أراد شكورا) أى يشكر نعمة ربه عليه فيهما (وعباد الرحمن) مبتدأ خبره (الذين يمشون)
او أولئك يجزون والذين يمشون وما بعدهما صفة والاضافة الى الرحمن للتخصيص والتفضيل وصف اولياءه بعد ما وصف اعداءه (على الارض هونا) حال
او صفة للمشى أى هينين او مشيا هينا والهون الرفق واللين اى يمشون بسكينة ووقار وتواضع دون مرح واختيال وتكبر فلا يضربون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم
اشرا وبطرا ولذا كره بعض العلماء الركوب فى الاسواق ولقوله ويمشون فى الاسواق (واذا خاطبهم الجاهلون) أى السفهاء بما يكرهون (قالوا سلاما) سدادا
من القول يسلمون فيه من الايذاء والافك او تسلما منكم نتارككم ولا نجاهلكم فأقيم السلام مقام التسلم وقيل نسختها آية القتال ولا حاجة الى ذلك فالاغضاء

معه الى غيره لانه خبير عالم قادر على مكافأتهم وفيه وعيد شديد كانه قال اذا اقدمتم على مخالفة امره كفاكم
علمه فى مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة قوله عز وجل (الذى خلق السموات والارض وما بينهما
فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا) أى فاسأل الخبير بذلك يعنى بما ذكر من
خلق السموات والارض والاستواء على العرش وقيل معناه أيها الانسان لا ترجع فى طلب العلم بهذا الى
غيرى وقيل معناه فاسأل عنه خبيرا وهو الله تعالى وقيل هو جبريل عليه السلام (واذا قيل لهم اسجدوا
للرحمن قالوا وما الرحمن) اى ما نعرف الرحمن الا رحمان اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب كانوا يسمونه
رحمان اليمامة (أنسجد لما تأمرنا) أنت يا محمد (وزادهم) اى قول القائل اسجدوا للرحمن
(نفورا) اى عن الايمان والسجود وهذه السجدة من عزائم السجدات فيسن للقارئ والمستمع ان يسجد
عند سماعها وقراءتها قوله تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) قيل البروج هى النجوم الكبار
سميت بروجا لظهورها وقيل البروج قصور فيها الحرس وقال ابن عباس هى البروج الاثنا عشر التى هى
منازل الكواكب السبعة السيارة وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة
والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت سميت بالبروج التى هى القصور العالية
لانها للكواكب كالمنازل لسكانها (وجعل فيها سراجا) يعنى الشمس (وقمرا منيرا وهو الذى جعل الليل
والنهار خلفة) قال ابن عباس معناه خلفا وعوضا يقوم أحدهما مقام صاحبه فمن فاته عمله فى أحدهما
قضاه فى الآخر قال شقيق جاء رجل الى عمر بن الخطاب قال فاتتنى الصلاة الليلة قال ادرك ما فاتك من ليلتك
فى نهارك فان الله جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد ان يذكر وقيل جعل كل واحد منهما مخالفا لصاحبه
فجعل هذا اسود وهذا أبيض وقيل يخلف أحدهما صاحبه اذا ذهب هذا جاء هذا فهما يتعاقبان فى الضياء
والظلمة والزيادة والنقصان (لمن اراد أن يذكر) أى يتذكر ويتعظ (أو أراد شكورا) يعنى شكر نعمة ربه عليه
فيهما قوله عز وجل (وعباد الرحمن) قيل هذه الاضافة للتخصيص والتفضيل والا فالخلق كلهم عباد الله
(الذين يمشون على الارض هونا) يعنى بالسكينة والوقار متواضعين غير اشرين ولا مرحين ولا متكبرين بل
علماء حكماء أصحاب وقار وعفة (واذا خاطبهم الجاهلون) يعنى السفهاء بما يكرهونه (قالوا سلاما) اى
سدادا من القول يسلمون فيه لا يسفهون وان سفه عليهم حلموا ولم يجهلوا وليس المراد منه السلام المعروف

فمن السفهاء مستحسن شرعا ومروءة هذا وصف نهارهم ثم وصف ليلهم بقوله (والذين يبيتون لربهم سجدا) جمع ساجد (وقياما) جمع قائم والبيتوتة خلاف الظلول وهي ان يدركك الليل نمت أو لم تنم وقالوا من قرأ شيئا من القرآن في صلاة وان قل فقد بات ساجدا وقائما وقيل هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء والظاهر انه وصف لهم باحياء الليل او اكثره (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما) هلاكا لازما ومنه الغريم لملازمته وصفهم باحياء الليل ساجدين قائمين ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه ايذانا بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون متضرعون الى الله في صرف العذاب عنهم (انها ساءت مستقرا ومقاما) اى ان جهنم وساءت في حكم بئست وفيها ضمير مبهم يفسره مستقرا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هي وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم ان وجعلها خبرا لها او بمعنى احزنت وفيها ضمير اسم ان ومستقرا حال او تمييز ويصح ان يكون التعليلان متداخلين ومترادفين وأن يكونا من كلام الله تعالى وحكاية لقولهم (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا) لم يجاوزوا الحد في النفقة او لم يأكلوا للتنعم ولم يلبسوا للتصلف وعن ابن عباس رضي الله عنهما لم ينفقوا في المعاصي والاسراف مجاوزة القدر وسمع رجل رجلا يقول لا خير في الاسراف فقال لا اسراف في الخير وقال عليه الصلاة والسلام من منع حقا فقد قتر ومن اعطى في غير حق فقد اسرف (ولم يقتروا) بضم التاء كوفي وبضم الياء وكسر التاء مدني وشامي وبفتح الياء وكسر التاء مكي وبصري والقتر والاقتار والتقتير التضييق الذي هو نقيض الاسراف (وكان) انفاقهم (بين ذلك) أي الاسراف والاقتار (قواما) أي عدلا بينهما فالقوام العدل بين الشيئين والمنصوبان أي بين ذلك قواما خبران وصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير وبمثله أمر عليه الصلاة والسلام ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك الآية وسأل عبد الملك ابن مروان عمر بن عبد العزيز عن نفقته حين زوجه ابنته فقال الحسنة بين السيئتين فعرف عبد الملك انه أرادها في هذه الآية وقيل أولئك أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثيابهم للجمال والزينة ولكن لسد الجوعة وستر العورة ودفع الحر والقر وقال عمر رضي الله عنه كفى سرفا ان لا يشتهي الرجل شيئا الا أكله (والذين لا يدعون مع الله الها آخر) أي لا يشركون (ولا يقتلون النفس التي حرم الله) اى حرمها يعني حرم قتلها (الا بالحق) بقود او رجم أو ردة أو شرك او سعي في الارض بالفساد وهو متعلق بالقتل المحذوف او بلا يقتلون (ولا يزنون) ونفي هذه الكبائر عن عباده الصالحين تعريض لما كان عليه اعداؤهم من قريش وغيرهم كأنه قيل والذين طهرهم الله مما انتم عليه (ومن يفعل ذلك) اى المذكور (يلق أثاما) جزاء الاثم (يضاعف) بدل من يلق لانهما في معنى واحد اذ مضاعفة العذاب هي لقاء الاثام كقوله

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا * تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

فجزم تلمم لانه بمعنى تأتنا اذ الاتيان هو الالمام يضعف مكي ويزيد ويعقوب يضعف شامي يضاعف ابو بكر على الاستئناف او على الحال ومعنى يضاعف (له العذاب يوم القيامة) اى يعذب على مرور الايام في الآخرة عذابا على عذاب وقيل اذا ارتكب المشرك معاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعا فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه

وقيل هذا قبل ان يؤمروا بالقتال ثم نسختها آية القتال ويروى عن الحسن البصري انه كان اذا قرأ هذه الآية قال هذا وصف نهارهم ثم اذا قرأ (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) قال هذا وصف ليلهم والمعنى يبيتون لربهم في الليل بالصلاة سجدا على وجوههم وقياما على أقدامهم قال ابن عباس من صلى بعد العشاء الاخيرة ركعتين او اكثر فقد بات لله ساجدا وقائما (م) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى العشاء في جماعة كان كقيام نصف الليل ومن صلى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة قوله عز وجل (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما) أي ملحا دائما لازما غير مفارق من عذب من الكفار قال محمد بن كعب القرظي سأل الله الكفار ثمن نعمته فلم يؤدوه فأغرمهم فبقوا في النار وقال كل غريم مفارق غريمه الا جهنم وقيل الغرام الشر اللازم والهلاك الدائم (انها) يعني جهنم (ساءت) بئست (مستقرا ومقاما) اى موضع قرار واقامة (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) قيل الاسراف النفقة في معصية الله وان قلت والاقتار منع حقوق الله تعالى وهو قول ابن عباس وقيل الاسراف مجاوزة الحد في الانفاق حتى يدخل في حد التبذير والاقتار التقصير عما لا بد منه وهو ان لا يشبع عياله ولا يعريهم ولا ينفق نفقة يقول الناس قد اسرف (وكان بين ذلك قواما) أي قصدا وسطا بين الاسراف والاقتار وحسنة بين السيئتين قيل هذه الآية في صفة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون الطعام للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم ومن الثياب ما يسترون به العورة ويقيهم من الحر والبرد قال عمر بن الخطاب كفى سرفا ان لا يشتهي شيئا الا اشتراه فأكله (والذين لا يدعون مع الله الها آخر) (ق) عن ابن عباس ان اناسا من الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا ان الذي تقول وتدعونا اليه لحسن لو تخبرنا ان لما عملنا كفارة فنزل والذين لا يدعون مع الله الها آخر (ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون) ونزل قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله (ق) عن عبد الله بن مسعود قال قال رجل يا رسول الله اى الذنب أكبر عند الله قال ان تدعو لله ندا وهو خلقك قال ثم اى قال ان تقتل ولدك خشية ان يطعم معك قال ثم اى قال أن تزني بحليلة جارك فأنزل الله تصديقه والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون (ومن يفعل ذلك يلق اثاما) أي ومن يفعل شيئا من ذلك يلق اثاما قال ابن عباس اي يلق جزاء الاثم وقيل عقوبة وقيل الاثام واد في جهنم ويروى في الحديث ان الغي والاثام بئران في جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار (يضاعف له العذاب يوم القيامة) وسبب تضعيف العذاب ان المشرك اذا ارتكب المعاصي مع الشرك

٨٥ ث

(ويخلد) جزمه جازم يضاعف ورفعه رافعه لانه معطوف عليه (فيه) فى العذاب فيهى مكى وحفص بالاشباع وانما خص حفص الاشباع بهذه الكلمة مبالغة فى الوعيد والعرب تمد للمبالغة مع ان الاصل فى هاء الكناية الاشباع (مهانا) حال اى ذليلا (الامن تاب) عن الشرك وهو استثناء من الجنس فى موضع النصب (وآمن) بمحمد عليه الصلاة والسلام (وعمل عملا صالحا) بعد توبته (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) اى يوفقهم لمحاسن بعد القبائح أو يمحوها بالتوبة ويثبت مكانها الحسنات الايمان والطاعة ولم يرد به ان السيئة بعينها حسنة ولكن المراد ما ذكرنا يبدل مخففا البرجمى (وكان الله غفورا) يكفر السيئات (رحيما) يبدلها بالحسنات (ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا) أى ومن تاب وحقق التوبة بالعمل الصالح فانه يتوب بذلك الى الله تعالى متابا مرضيا عنده مكفرا للخطايا محصلا للثواب (والذين لا يشهدون الزور) اى الكذب يعنى ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين فلا يقربونها تنزها عن مخالطة الشر واهله اذ مشاهدة الباطل شركة فيه وكذلك النظارة الى مالم تسوغه الشريعة هم شركاء عليه فى الآثام لان حضورهم ونظرهم دليل الرضا وسبب وجود الزيادة فيه وفى مواعظ عيسى عليه السلام اياكم ومجالسة الخاطئين اولا يشهدون شهادة الزور على حذف المضاف وعن قتادة المراد مجالس الباطل وعن ابن الحنفية لا يشهدون اللهو والغناء (واذا مروا باللغو) بالفحش وكل ما ينبغى ان يلغى ويطرح والمعنى واذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به (مروا كراما) معرضين مكرمين انفسهم عن التلوث به كقوله واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وعن الباقر رضى الله عنه اذا ذكروا الفروج كنوا عنها (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم) اى قرئ عليهم القرآن او وعظوا بالقرآن (لم يخروا عليها صما وعميانا) هذا ليس بنفى الخرور بل هو اثبات له ونفى الصمم والعمى ونحوه لا يلقانى زيد مسلما هو نفى للسلام لا للقاء يعنى انهم اذا ذكروا بها خروا سجدا وبكيا سامعين بآذان واعية مبصرين بعيون راعية لما أمروا به ونهوا عنه لا كالمنافقين واشباههم دليله قوله تعالى وممن هدينا واجتبينا اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا) من للبيان كأنه قيل هب لنا قرة اعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله من ازواجنا (وذرياتنا) ومعناه ان يجعلهم الله لهم قرة اعين وهو من قولهم رأيت منك أسدا أى انت اسدا وللابتداء على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح وذريتنا أبو عمرو وكوفى غير حفص لارادة الجنس وغيرهم ذرياتنا (قرة أعين) وانما نكر لاجل تنكير القرة لان المضاف لا سبيل الى تنكيره الا بتنكير المضاف اليه كأنه قال هب لنا منهم سرورا وفرحا وانما قيل أعين

يضاعف له العذاب على شركه ومعصيته (ويخلد فيه مهانا) اى ذليلا قوله تعالى (الامن تاب) أى عن ذنبه (وآمن) أى بربه (وعمل عملا صالحا) اى فيما بينه وبين ربه روى عن ابن عباس قال قرأناها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنين والذين لا يدعون مع الله الها آخر الآية ثم نزلت الامن تاب فما رأيت النبى صلى الله عليه وسلم قط فرح بشئ مثل ما فرح بها وفرحه بانا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر وقوله تعالى (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) قال ابن عباس يبدلهم الله بقبائح أعمالهم فى الشرك محاسن الاعمال فى الاسلام فيبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنى عفة واحصانا وقيل يبدل الله سيئاتهم التى عملوها فى الاسلام حسنات يوم القيامة (م) عن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى لاعلم آخر رجل يخرج من النار رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغائر ذنوبه وارفعوا عنه كبائرها فتعرض عليه صغائرها فيقال له عملت يوم كذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع ان ينكر وهو مشفق من كبائر ذنوبه ان تعرض عليه فيقال له ان لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يا رب قد عملت أشياء لا أراها هنا قال فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك حتى بدت نواجذه وقيل ان الله يمحو بالندم جميع السيئات ثم يثبت مكان كل سيئة حسنة (ومن تاب وعمل صالحا) قيل هذا فى التوبة من غير ما سبق ذكره فى الآية الاولى من القتل والزنى ومعناه ومن تاب من الشرك وعمل صالحا يعنى ادى الفرائض ممن لم يقتل ولم يزن (فانه يتوب الى الله) أى يعود اليه بعد الموت (متابا) اى حسنا يفضل على غيره ممن قتل وزنى والآية الاولى وهى قوله ومن تاب رجوع عن الشرك والثانية رجوع الى الله للجزاء والمكافأة وقيل هذه الآية أيضا فى التوبة عن جميع السيئات ومعناه من أراد التوبة وعزم عليها فليتب الى الله فقوله يتوب الى الله خبر بمعنى الامر اى تب الى الله وقيل معناه فليعلم ان توبته ومصيره الى الله تعالى قوله تعالى (والذين لا يشهدون الزور) يعنى الشرك وقيل هى شهادة الزور (ق) عن ابى بكرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا بلى يا رسول الله قال الاشراك بالله وعقوق الوالدين وكان متكئا فجلس فقال الا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ويسخم وجهه ويطوف به فى الاسواق وقيل لا يشهدون الزور يعنى اعياد المشركين وقيل الكذب وقيل النوح وقيل يساعد أهل الباطل على باطلهم وقيل الزور اللهو واللعب والغناء قال ابن مسعود الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء الزرع وأصل الزور حقيقة تحسين الشئ ووصفه بخلاف صفته فهو تمويه الباطل بما يوهم انه حق (واذا مروا باللغو) هو كل ما يجب ان يلغى ويترك (مروا كراما) يعنى اذا سمعوا من الكفار الشتم والاذى اعرضوا وصفحوا فعلى هذا التفسير تكون الآية منسوخة بآية القتال وقيل اللغو المعاصى كلها والمعنى اذا مروا بمجالس اللهو والباطل مروا كراما أى مسرعين معرضين وهو ان ينزه المرء نفسه ويكرمها عن هذه المجالس السيئة (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) قيل معناه انه ليس فيه نفى الخرور وانما هو اثبات له ونفى الصمم والعمى والمعنى اذا ذكروا بها اكبوا على استماعها بآذان واعية واقبلوا على المذكر بها بعيون مبصرة راعية وقيل معناه لم يخروا أى لم يسقطوا ولم يقعوا عليها صما وعميانا كأنهم بآذانهم صمم وبأعينهم عمى بل يسمعون ما يذكرون به فيفهمونه ويرون الحق فيه فيتبعونه قوله عز وجل (والذين يقولون ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة أعين) أى ابرارا أتقياء صالحين فتقر أعيننا بذلك قيل ليس شئ أقر لعين المؤمن من

ان يرى زوجته وأولاده مطيعين لله عز وجل فيطمع ان يحلوا معه في الجنة فيتم سروره وتقر عينه بذلك وقيل ان العرب تذكر قرة العين عند السرور والفرح وسخنة العين عند الغم والحزن ويقال دمع العين عند السرور والفرح بارد وعند الحزن حار وقيل معنى قرة العين ان يصادف قلبه من يرضاه فتقر عينه به عن النظر الى غيره (واجعلنا للمتقين اماما) اى أئمة يقتدون في الخير بنا وقيل معناه نقتدي بالمتقين ويقتدي بنا المتقون وقال ابن عباس اجعلنا أئمة هدى وقيل معناه انهم سألوا الله ان يبلغهم في الطاعات المبلغ الذي يشار اليهم فيه ويقتدى بهم قال بعضهم فيه دليل على ان الرياسة في الدين مطلوبة مرغوب فيها وقيل هذا من المقلوب معناه واجعل المتقين لنا اماما واجعلنا مقتدين مؤتمين بهم (أولئك يجزون) اى يثابون (الغرفة) الدرجة العالية الرفيعة في الجنة وقيل يريد غرف الدرجات الزبرجد واللؤلؤ والياقوت في الجنة (بما صبروا) أي على طاعة الله وأوامره وعلى اذى المشركين وقيل بما صبروا عن الشهوات (ويلقون فيها تحية) اى ملكا وقيل بقاء دائما (وسلاما) اى يسلم بعضهم على بعض أو يرسل الرب اليهم بالسلام وقيل سلاما أى سلامة من الآفات قوله تعالى (خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما) اى موضع قرار واقامة قوله تعالى (قل ما يعبأ بكم ربي) اى ما يصنع وما يفعل بكم فوجودكم وعدمكم سواء وقيل معناه أى وزن ومقدار لكم عنده (لولا دعاؤكم) اياه قيل معناه لولا عبادتكم اياه وقيل لولا ايمانكم وقيل لولا دعاؤه اياكم الى الايمان فاذا آمنتم ظهر لكم عنده قدر وقيل معناه ما يعبأ بخلقكم ربي لولا عبادتكم وطاعتكم والمعنى انه خلقكم لطاعته وعبادته وهذا قول ابن عباس وقيل معنى ما يعبأ اى ما يبالي بمغفرتكم ربي لولا دعاؤكم معه آلهة وقيل معناه ما خلقتكم ولي اليكم حاجة الا ان تسألوني فأعطيكم وتستغفروني فأغفر لكم (فقد كذبتم) أيها الكافرون يخاطب أهل مكة يعني ان الله دعاكم الى توحيده وعبادته على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فكذبتم الرسول ولم تجيبوه الى الايمان (فسوف يكون لزاما) هذا تهديد لهم أي يكون تكذيبهم لزاما قال ابن عباس موتا وقيل هلاكا وقيل قتالا والمعنى يكون التكذيب لازما لمن كذب فلا يعطى التوبة حتى يجازى بعمله وقيل معناه عذابا دائما وهلاكا لازما لمن كذب مفنيا يلحق بعضكم بعضا وقيل هو يوم بدر قتل منهم سبعون وأسر سبعون وهو قول عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب يعني انهم قتلوا يوم بدر واتصل بهم عذاب الآخرة لازما لهم (ق) عن عبد الله بن مسعود قال خمس قد مضين الدخان واللزام والروم والبطشة والقمر وفي رواية الدخان والقمر والروم واللزام والبطشة والله سبحانه وتعالى أعلم

تفسير سورة الشعراء وهي مكية الا أربع آيات

من آخر السورة من قوله تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون وهي مائتان وسبع وعشرون آية وألف ومائتان وتسع وسبعون كلمة وخمسة آلاف وخمسمائة وأربعون حرفا روى عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال أعطيت طه والطواسين من الواح موسى عليه الصلاة والسلام

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (طسم) قال ابن عباس طسم عجزت العلماء عن علم تفسيرها وفي رواية أخرى عنه انه قسم وهو من أسماء الله تعالى وقيل اسم من أسماء القرآن وقيل اسم السورة وقيل أقسم بطوله وسنائه وملكه (تلك آيات) أى هذه الآيات آيات (الكتاب المبين) قيل لما كان القرآن فيه دلائل التوحيد والاعجاز الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ودلائل الاحكام أجمع ثبت بذلك ان آيات

لعلى القلة دون عيون لان المراد أعين المتقين وهي قليلة بالاضافة الى عيون غيرهم قال الله تعالى وقليل من عبادى الشكور ويجوز ان يقال في تنكير اعين انها اعين خاصة وهي أعين المتقين والمعنى انهم سألوا ربهم ان يرزقهم أزواجا وأعقابا عمالا لله تعالى يسرون بمكانهم وتقر بهم عيونهم وقيل ليس شئ أقر لعين المؤمن من ان يرى زوجته وأولاده مطيعين لله تعالى وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو الولد اذا رآه يكتب الفقه (واجعلنا للمتقين اماما) أى أئمة يقتدون بنا في الدين فاكتفى بالواحد لدلالته على الجنس ولعدم اللبس او واجعل كل واحد منا اماما قيل في الآية ما يدل على ان الرياسة في الدين يجب ان تطلب ويرغب فيها (أولئك يجزون الغرفة) أى الغرفات وهي العلالي في الجنة فوحد اقتصارا على الواحد الدال على الجنس دليله قوله وهم في الغرفات آمنون (بما صبروا) اى بصبرهم على الطاعات وعن الشهوات وعلى أذى الكفار ومجاهدتهم وعلى الفقر وغير ذلك (ويلقون فيها) ويلقون كوفي غير حفص (تحية) دعاء بالتعمير (وسلاما) ودعاء بالسلامة يعني ان الملائكة يحيونهم ويسلمون عليهم أو يحيي بعضهم بعضا ويسلم عليه (خالدين فيها) حال (حسنت) اى الغرفة (مستقرا ومقاما) موضع قرار واقامة وهي في مقابلة ساءت مستقرا ومقاما (قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم) ما متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب ومعناه ما يصنع بكم ربي لولا دعاؤه اياكم الى الاسلام أو لولا عبادتكم له اى انه خلقكم لعبادته كقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون اى الاعتبار عند ربكم لعبادتكم او ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة وهو كقوله تعالى ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم (فقد كذبتم) رسولي يا اهل مكة (فسوف يكون) العذاب (لزاما) أى ذا لزام او ملازما وضع مصدر لازم موضع اسم الفاعل وقال الضحاك ما يعبأ ما يبالي بمغفرتكم لولا دعاؤكم معه الها آخر

(سورة الشعراء مكية)

وهي مائتان وعشرون وسبع آيات

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسم) طس ويس وحم ممالة كوفي غير الاعشى والبرجمي وحفص ويظهر النون عند الميم يزيد وحمزة وغيرهم يدغمها (تلك آيات الكتاب المبين) الظاهر اعجازه وصحة انه من عند الله والمراد به السورة أو القرآن والمعنى آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين

(لعلك باخع) قاتل ولعل للاشفاق (نفسك) من الحزن يعني اشفق على نفسك ان تقتلها حسرة وحزنا على مافاتك من اسلام قومك (ألا يكونوا مؤمنين) لئلا يؤمنوا أو لامتناع ايمانهم او خيفة ان لا يؤمنوا (ان نشأ) ايمانهم (ننزل عليهم من السماء آية) دلالة واضحة (فظلت) اى فتظل لان الجزاء يقع فيه لفظ الماضى فى معنى المستقبل تقول ان زرتنى اكرمتك اى اكرمك كذا قاله الزجاج (اعناقهم) رؤساؤهم ومقدموهم او جماعاتهم يقال جاءنا عنق من الناس لفوج منهم (لها خاضعين) منقادين وعن ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فينا وفى بنى امية فتكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا اعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هوان بعد عزة (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين) اى وما يجدد لهم الله بوحيه موعظة وتذكيرا الا جددوا اعراضا عنه وكفرا به (فقد كذبوا) محمدا صلى الله عليه وسلم فيما أتاهم به (فسيأتيهم) فسيعلمون (أنباء) اخبار (ما كانوا به يستهزؤن) وهذا وعيد لهم وانذار بأنهم سيعلمون اذا مسهم عذاب الله يوم بدر او يوم القيامة ما الشئ الذى كانوا يستهزؤن به وهو القرآن وسيأتيهم انباؤه واحواله التى كانت خافية عليهم (أولم يروا الى الارض كم أنبتنا) كم نصب بأنبتنا (فيها من كل زوج) صنف من النبات (كريم) محمود كثير المنفعة يأكل منه الناس والانعام كالرجل الكريم الذى نفعه عام وفائدة الجمع بين كلمتى الكثرة والاحاطة ان كلمة كل تدل على الاحاطة بازواج النبات على سبيل التفصيل وكم تدل على ان هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة وبه نبه على كمال قدرته (ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين) اى ان فى انبات تلك الاصناف لآية على ان منبتها قادر على احياء الموتى وقد علم الله ان اكثرهم مطبوع على قلوبهم غير مرجى ايمانهم (وان ربك لهو العزيز) فى انتقامه من الكفرة (الرحيم) لمن آمن منهم وآية مع الاخبار بكثرتها لان ذلك مشار به الى مصدر انبتنا أو المراد ان فى كل واحد من تلك الازواج لآية اى آية (واذ) مفعول به اى اذكر اذ (نادى) دعا (ربك موسى أن ائت) أن بمعنى اى (القوم الظالمين) انفسهم بالكفر وبنى اسرائيل بالاستعباد وذبح الاولاد سجل عليهم بالظلم ثم عطف (قوم فرعون) عليهم عطف البيان كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون وكأنهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد (ألا يتقون) اى ائتهم زاجرا فقد آن لهم ان يتقوا وهى كلمة حث واغراء ويحتمل انه حال من الضمير فى الظالمين اى يظلمون غير متقين الله وعقابه فأدخلت همزة الانكار على الحال (قال رب انى أخاف) الخوف غم يلحق الانسان لامر سيقع اى (أن يكذبون ويضيق صدرى) بتكذيبهم اياى مستأنف او عطف على اخاف (ولا ينطلق لسانى) بأن تغلبنى الحمية على ما أرى من المحال واسمع من الجدال وبنصبهما يعقوب عطفا على يكذبون فالخوف متعلق بهذه الثلاثة على هذا التقدير وبالتكذيب وحده بتقدير الرفع (فأرسل الى هارون) اى ارسل اليه جبريل واجعله نبيا يعيننى على الرسالة وكان هارون بمصر حين بعث موسى نبيا بالشأم ولم يكن هذا الالتماس من موسى عليه السلام توقفا فى الامتثال بل التماس عون فى تبليغ الرسالة وتمهيد العذر فى التماس المعين على تنفيذ الامر ليس بتوقف فى امتثال الامر وكفى بطلب العون دليلا على التقبل لا على التعلل (ولهم على ذنب) اى تبعة ذنب بقتل القبطى فحذف المضاف او سمى تبعة الذنب ذنبا كما سمى جزاء السيئة سيئة (فأخاف أن يقتلون) اى يقتلونى به قصاصا وليس هذا تعللا انما هو استدفاع للبلية المتوقعة وفرق من ان يقتل قبل اداء الرسالة ولذا وعده بالكلاءة والدفع بكلمة الردع وجمع له الاستجابتين معا فى قوله (قال كلا

القرآن كافية مبينة لجميع الاحكام (لعلك باخع نفسك) أى قاتل نفسك (ألا يكونوا مؤمنين) أى ان لم يؤمنوا وذلك حين كذبه أهل مكة فشق عليه ذلك وكان يحرص على ايمانهم فأنزل الله هذه الآية (ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) أى لو شاء الله لانزل عليهم آية يذلون منها فلا يلوى أحد منهم عنقه الى معصية الله سبحانه وتعالى وقيل لو شاء الله لاراهم أمرا من أمره لا يعمل أحد منهم بعده معصية فان قلت كيف صح مجئ خاضعين خبرا عن الاعناق قلت أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فأقحمت الاعناق لبيان موضع الخضوع وترك الكلام على أصله أولما وصفت بالخضوع الذى هو للعقلاء قيل خاضعين وقيل اعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم أى فظلت كبراؤهم لها خاضعين وقيل أراد بالاعناق الجماعات يقال جاء عنق من الناس اى جماعة قوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن) اى وعظ وتذكير (محدث) اى محدث انزاله فهو محدث التنزيل وكلما نزل شئ من القرآن بعد شئ فهو أحدث من الاول (الا كانوا عنه معرضين) اى عن الايمان به (فقد كذبوا فسيأتيهم) اى فسوف يأتيهم (أنباء) اى اخبار وعواقب (ما كانوا به يستهزؤن أولم يروا الى الارض) يعنى المشركين (كم أنبتنا فيها) اى بعد ان لم يكن فيها نبات (من كل زوج كريم) اى جنس ونوع وصنف حسن من النبات مما يأكل الناس والانعام وقال الشعبى الناس نبات الارض فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم (ان فى ذلك) اى الذى ذكر (لآية) تدل على انه واحد أى دلالة على كمال قدرتنا وتوحيدنا كما قيل

وفى كل شئ له آية * تدل على أنه واحد

(وما كان أكثرهم مؤمنين) اى سبق علمى فيهم ان أكثرهم لا يؤمنون ولا يصدقون (وان ربك لهو العزيز) اى المنتقم من اعدائه (الرحيم) ذو الرحمة لاوليائه قوله تعالى (واذ نادى) اى واذكر يا محمد اذ نادى (ربك موسى) اى حين رأى الشجرة والنار (أن ائت القوم الظالمين) يعنى الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى وظلموا بنى اسرائيل باستعبادهم وسومهم سوء العذاب (قوم فرعون) يعنى القبط (ألا يتقون) اى يصرفون عن أنفسهم عقوبة الله بطاعته والايمان به (قال) يعنى موسى (رب) اى يارب (انى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى) اى بتكذيبهم اياى (ولا ينطلق لسانى) اى للعقدة التى كانت على لسانه (فأرسل الى هارون) ليوازرنى ويعيننى على تبليغ الرسالة (ولهم على ذنب) اى دعوى ذنب وهو قتله القبطى (فأخاف أن يقتلون) اى به (قال) الله تعالى (كلا)

فاذهبا) لانه استدفعه بلاءهم فوعده الله الدفع بردعه عن الخوف والتمس منه رسالة اخيه فأجابه بقوله اذهبا اى جعلته رسولا معك فاذهبا وعطف فاذهبا على الفعل الذى يدل عليه كلا كانه قيل ارتدع ياموسى عما تظن فاذهب انت وهارون (بآياتنا) مع آياتنا وهى اليد والعصا وغير ذلك (انا معكم) أى معكما بالعون والنصرة ومع من ارسلتما اليه بالعلم والقدرة (مستمعون) خبر لان ومعكم لغوا وهما خبران اى سامعون والاستماع فى غير هذا الاصغاء للسماع يقال استمع فلان حديثه اى اصغى اليه ولا يجوز حمله ههنا على ذلك فحمل على السماع (فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين) لم يثن الرسول كما ثنى فى قوله انا رسولا ربك لان الرسول يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة فجعل ثمة بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته وجعل هنا بمعنى الرسالة فيستوى فى الوصف به الواحد والتثنية والجمع ولانهما لاتحادهما واتفاقهما على شريعة واحدة كانهما رسول واحد واريد ان كل ٣٤١ واحدمنا (أن أرسل) بمعنى أى ارسل لتضمن الرسول معنى الارسال وفيه معنى القول (معنا بنى اسرائيل) يريد خلهم يذهبوا معنا الى فلسطين وكانت مسكنهما فأتيا بابه فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب ان ههنا انسانا يزعم انه رسول رب العالمين وقال ائذن له لعلنا نضحك منه فأديا اليه الرسالة فعرف فرعون موسى فعند ذلك (قال ألم نربك فينا وليدا) وانما حذف فأتيا فرعون فقالا اختصارا والوليد الصبى لقرب عهده من الولادة اى ألم تكن صغيرا فربيناك (ولبثت فينا من عمرك سنين) قيل ثلاثين سنة (وفعلت فعلتك التى فعلت) يعنى قتل القبطى فعرض اذ كان ملكا (وانت من الكافرين) بنعمتى حيث قتلت خبازى اوكنت على ديننا الذى تسميه كفرا وهذا افتراء منه عليه لانه معصوم من الكفر وكان يعايشهم بالتقية (قال فعلتها اذا) اى اذذاك (وأنا من الضالين) الجاهلين بأنها تبلغ القتل والضال عن الشئ هو الذاهب عن معرفته اوالناسين من قوله ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى فدفع وصف الكفر عن نفسه ووضع الضالين موضع الكافرين واذا جواب وجزاء معا وهذا الكلام وقع جوابا لفرعون وجزاء له لان قول فرعون وفعلت فعلتك معناه انك جازيت نعمتى بما فعلت فقال له موسى نعم فعلتها مجازيا لك تسليما لقوله لان نعمته كانت جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء (ففررت منكم) الى مدين (لما خفتكم) ان تقتلونى وذلك حين قال له مؤمن من آل فرعون ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج الآية (فوهب لى ربى حكما) نبوة وعلما فزال عنى الجهل والضلالة (وجعلنى من المرسلين) من جملة رسله (وتلك نعمة تمنها على ان عبدت بنى اسرائيل) كر على امتنانه عليه بالتربية فأبطله من اصله وابى ان تسمى نعمة لانها نقمة حيث بين ان حقيقة انعامه عليه تعبيد بنى اسرائيل لان تعبيدهم وقصدهم بذبح ابنائهم هو السبب فى حصوله عنده وتربيته ولو تركهم لرباه ابواه فكان فرعون امتن على موسى بتعبيد قومه واخراجه من حجر ابويه اذا حققت وتعبيدهم تذليلهم واتخاذهم عبيدا ووحد الضمير فى تمنها وعبدت وجمع فى منكم وخفتكم لان الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله بدليل قوله ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك واما الامتنان فمنه وحده وكذا التعبيد وتلك اشارة الى خصلة شنعاء مبهمة لا يدرى ماهى الا بتفسيرها ومحل ان عبدت الرفع عطف بيان لتلك اى تعبيدك بنى اسرائيل نعمة تمنها على

اى ان يقتلوك (فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون) اى سامعون ماتقولون وما يقال لكم فان قلت كيف ذكرهم بلفظ الجمع فى قوله معكم وهما اثنان قلت اجراهما مجرى الجماعة وهو جائز فى لغة العرب (فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين) فان قلت هلا ثنى الرسول كما فى قوله فأتياه فقولا انا رسولا ربك قلت الرسول قد يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة فجعله ثم بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيته وجعله هنا بمعنى الرسالة فجازت التسوية فيه اذا وصف به الواحد والتثنية والجمع والمعنى انا ذوا رسالة كما قال كثير

لقد كذب الواشون مافهت عندهم * بشئ ولا أرسلتهم برسول

اى برسالة وقيل انهما لاتفاقهما فى الرسالة والشريعة والاخوة فصارا كأنهما رسول واحد وقيل كل واحد منا رسول رب العالمين (ان أرسل معنا بنى اسرائيل) اى خلهم وأطلقهم معنا الى أرض فلسطين ولا تستعبدهم وكان فرعون قد استعبدهم أربعمائة سنة وكانوا فى ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفا فانطلق موسى برسالة ربه الى مصر وهارون بها فاخبره بذلك وفى القصة ان موسى رجع الى مصر وعليه جبة صوف وفى يده عصا . والمكتل معلق فى رأس العصا وفيه زاده فدخل دار نفسه وأخبر هارون ان الله قد أرسلنى الى فرعون وأرسل اليك تدعو فرعون الى الله تعالى فخرجت أمهما فصاحت وقالت ان فرعون يطلبك ليقتلك فاذا ذهبت اليه قتلك فلم يمتنع لقولها وذهبا الى باب فرعون وذلك بالليل فدقا الباب ففزع البوابون وقالوا من بالباب فقال أنا موسى رسول رب العالمين فذهب البواب الى فرعون وقال ان مجنونا بالباب يزعم انه رسول رب العالمين فتركه حتى أصبح ثم دعاهما وقيل انهما انطلقا جميعا الى فرعون فلم يؤذن لهما سنة فى الدخول ثم دخل البواب فقال لفرعون ههنا انسان يزعم انه رسول رب العالمين فقال فرعون ائذن له لعلنا نضحك منه فدخلا على فرعون وأديا رسالة الله تعالى فعرف فرعون موسى لانه نشأ فى بيته فـ(قال) له (ألم نربك فينا وليدا) اى صبيا (ولبثت فينا من عمرك سنين) اى ثلاثين سنة (وفعلت فعلتك التى فعلت) يعنى قتلت القبطى (وأنت من الكافرين) قال أكثر المفسرين من الجاحدين لنعمتى وحق تربيتى يقول ربيناك فينا فكافأتنا ان قتلت منا نفسا وكفرت نعمتنا وهى رواية عن ابن عباس قال ان فرعون لم يكن يعلم الكفر بالربوبية ولان الكفر غير جائز على الانبياء لاقبل النبوة ولا بعدها وقيل معناه وانت من الكافرين بفرعون والهيته (قال) يعنى موسى (فعلتها اذا وأنا من الضالين) اى من الجاهلين بأن ذلك يؤدى الى قتله لان فعل الوكزة على وجه التأديب لا على وجه القتل وقيل من الضالين عن طريق الصواب وقيل من المخطئين (ففررت منكم) اى الى مدين (لما خفتكم فوهب لى ربى حكما) يعنى النبوة وقيل العلم والفهم (وجعلنى من المرسلين وتلك نعمة تمنها على ان عبدت بنى اسرائيل) اى اتخذتهم عبيدا قيل عدها موسى نعمة منه عليه حيث رباه ولم يقتله كما قتل ولدان بنى اسرائيل ولم يستعبده كما استعبد بنى اسرائيل ويكون معنى الآية وتلك نعمة

انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا) لان كنا (أوّل المؤمنين) من أهل المشهد او من رعية فرعون أرادوا لاضير علينا في ذلك بل لنا اعظم النفع لما يحصل لنا
في الصبر عليه لوجه الله من تكفير الخطايا او لاضير علينا فيما تتوعدنا به انه لابد لنا من الانقلاب الى ربنا بسبب من اسباب الموت والقتل اهون اسبابه
وارجاها او لاضير علينا في قتلك أياك ان قتلتنا انقلبنا الى ربنا انقلاب من يطمع في مغفرته ويرجو رحمته لما رزقنا من السبق الى الايمان (وأوحينا الى
موسى ان أسر) وبوصل الهمزة حجازى (بعبادى) بنى اسرائيل سماهم عباده لايمانهم بنبيه أى سربهم ليلا وهذا بعد سنين من ايمان السحرة (انكم متبعون)
يتبعكم فرعون وقومه علل الامر بالاسراء باتباع فرعون وجنوده آثارهم يعنى انى بنيت تدبيرا مركم وامرهم على ان تتقدموا ويتبعوكم حتى
يدخلوا مدخلكم من طريق البحر فاهلكهم
وروى انه مات في تلك الليلة في كل بيت من
بيوتهم ولد فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى
بقومه وروى ان الله تعالى اوحى الى موسى ان
اجمع بنى اسرائيل كل أربعة أبيات في بيت ثم
اذبح الجداء واضربوا بدمائها على ابوابكم فانى
سآمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتا على بابه دم
وسآمرهم بقتل ابكار القبط واخبزوا خبزا فطيرا
فانه اسرع لكم ثم أسر بعبادى حتى تنتهى الى
البحر فيأتيك أمرى (فأرسل فرعون في المدائن
حاشرين) أى جامعين للناس بعنف فلما
اجتمعوا قال (ان هؤلاء لشرذمة قليلون)
والشرذمة الطائفة القليلة ذكرهم بالاسم الدال
على القلة ثم جعلهم قليلا بالوصف ثم جمع القليل
فجعل كل حزب منهم قليلا واختار جمع السلامة
الذى هو للقلة او أراد بالقلة الذلة لا قلة العدد
أى انهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا تتوقع غلبتهم
وانما استقل قوم موسى وكانوا ستمائة ألف
وسبعين الفا لكثرة من معه فعن الضحاك كانوا
سبعة آلاف ألف (وانهم لنا لغائظون) أى
انهم يفعلون افعالا تغيظنا وتضيق صدورنا
وهى خروجهم من مصرنا وحملهم حلينا وقتلهم
ابكارنا (وانا لجميع حاذرون) شامى وكوفى
وغيرهم حذرون فالحذر المتيقظ والحاذر الذى
يجدد حذره وقيل المؤدى في السلاح وانما
يفعل ذلك حذرا واحتياطا لنفسه يعنى ونحن
قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم
في الامور فاذا خرج علينا خارج سارعنا الى حسم
فساده وهذه معاذير اعتذر بها الى اهل المدائن
لئلا نظن به العجز والفتور (فأخرجناهم من جنات) بساتين (وعيون) وانهار جارية (وكنوز) وأموال ظاهرة من الذهب والفضة وسماها الله
كنوزا لانهم لا ينفقون منها في طاعة الله تعالى (ومقام) ومنزل (كريم) بهى بهيج وعن ابن عباس رضى الله عنه المنابر (كذلك) يحتمل النصب على
اخرجناهم مثل ذلك الاخراج الذى وصفنا والرفع على انه خبر مبتدا محذوف أى الامر كذلك (وأورثناها بنى اسرائيل) عن الحسن لما عبروا النهر رجعوا
واخذوا ديارهم واموالهم (فاتبعوهم) فلحقوهم فاتبعوهم يزيد (مشرقين) حال أى داخلين في وقت شروق الشمس وهو طلوعها أى ادرك قوم فرعون
موسى وقومه وقت طلوع الشمس (فلما تراءى الجمعان) أى تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه والمراد بنو اسرائيل والقبط (قال أصحاب موسى
انا لمدركون) أى قرب ان يلحقنا عدونا وامامنا البحر (قال) موسى عليه السلام ثقة بوعد الله

مؤمنا بين عمرانه وهو قولهم (انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا) اى الكفر والسحر (أن) اى لان (كنا
أوّل المؤمنين) اى من أهل زماننا وقيل أوّل المؤمنين اى من الجماعة الذين حضروا ذلك الجمع قوله
تعالى (وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون) اى يتبعكم فرعون وقومه ليحولوا بينكم و بين
الخروج قيل أوحى الله الى موسى أن اجمع بنى اسرائيل كل أهل أربعة ابيات في بيت ثم اذبحوا أولاد
الضأن فاضربوا بدمائها على أبوابكم فانى سآمر الملائكة فتقتل ابكار آل فرعون من أنفسهم وآمرهم ان
لا يدخلوا بيتا على بابه دم ثم اخبزوا خبزا فطيرا فانه أسرع لكم ثم أسر بعبادى حتى تنتهى الى البحر فيأتيك
أمرى ففعل ذلك موسى ثم ان قوم موسى قالوا لقوم فرعون ان لنا في هذه الليلة عيدا فاستعاروا منهم
حليهم ثم خرجوا بتلك الاموال في الليل الى جهة البحر فلما سمع فرعون ذلك قال هذا عمل موسى وقومه
قتلوا أبكارنا من انفسنا وأخذوا أموالنا (فأرسل فرعون في المدائن حاشرين) يعنى الشرط يحشرون
الجيش قيل كانت المدائن ألف مدينة واثنى عشر ألف قرية فأرسل فرعون في اثر موسى وقومه ألف
ألف وخمسمائة الف وخرج فرعون في الكرسى العظيم في مائتى الف ملك مسورين مع كل ملك الف فلذلك
قال (ان هؤلاء لشرذمة قليلون) قال أهل التفسير كانت الشرذمة الذين قللهم فرعون ستمائة الف
مقاتل لم يعدوا دون العشرين وفوق الستين سنة وقال ابن مسعود كانت ستمائة الف وسبعين الفا ولا
يحصى عدد اصحاب فرعون (وانهم لنا لغائظون) الغيظ الغضب يعنى انهم اغضبونا بمخالفتهم دينا
وقتلهم ابكارنا وذهابهم بأموالنا التى استعاروها وخروجهم من أرضنا بغير اذن منا (وانا لجميع حذرون)
اى خائفون من شرهم وقرئ حاذرون اى ذوو قوة واداة شاكون السلاح وقيل الحاذر الذى يحذرك
الآن بالتحقيق من المتلبس بحمل السلاح والحذر الذى لا تلقاه الا خائفا (فأخرجناهم من جنات
وعيون) قيل كانت البساتين ممتدة في حافتى النيل فيها عيون وأنهار جارية (وكنوز) يعنى الاموال
الظاهرة من الذهب والفضة وسماها كنوزا لانه لم يؤد حق الله منها وكل مال لم يعط ولم يؤد حق الله منه
فهو كنز وان كان ظاهرا قيل كان لفرعون ثمانمائة ألف غلام كل غلام على فرس عتيق في عنق كل
فرس طوق من ذهب قال الله تعالى (ومقام كريم) اى مجلس حسن قيل أراد مجالس الامراء والرؤساء
التى كانت لهم وقيل انه كان اذا قعد على سريره وضع بين يديه ثلاثمائة كرسى من ذهب يجلس عليها
الاشراف من قومه والامراء وعليهم اقبية الديباج مخوصة بالذهب والمعنى انا اخرجناهم من بساتينهم
التى فيها العيون وأموالهم ومجالسهم الحسنة (كذلك) اى كما وصفنا (وأورثناها بنى اسرائيل)
وذلك ان الله عز وجل رد بنى اسرائيل الى مصر بعد هلاك فرعون وقومه فاعطاهم جميع ما كان لفرعون
وقومه من الاموال والاماكن الحسنة (فأتبعوهم مشرقين) اى لحق فرعون وقومه موسى وأصحابه
وقت شروق الشمس وهو اضاءتها (فلما تراءى الجمعان) أى تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه (قال
أصحاب موسى انا لمدركون) اى سيدركنا فرعون وقومه ولا طاقة لنا بهم (قال) يعنى موسى لثقته بوعد

اياه (كلا) ارتدعوا عن سوء الظن بالله فلن يدركوكم (ان معى) معى حفص (ربى سيهدين) أى سيهدينى طريق النجاة واضرارهم سيهدينى بالياء يعقوب (فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر) أى القلزم او النيل (فانفلق) أى فضرب فانفلق وانشق فصار اثنى عشر فرقا على عدد الاسباط (فكان كل فرق) أى كل جزء تفرق منه (كالطود العظيم) كالجبل المنطاد فى السماء (وأزلفنا ثم) حيث انفلق البحر (الآخرين) قوم فرعون أى قربناهم من بنى اسرائيل او من البحر (وانجينا موسى ومن معه أجمعين) من الغرق (ثم أغرقنا الآخرين) فرعون وقومه وفيه ابطال القول بتأثير الكوكب فى الآجال وغيرها من الحوادث فانهم اجتمعوا فى الهلاك مع اختلاف طوالعهم روى ان جبريل عليه السلام كان بين بنى اسرائيل وبين آل فرعون فكان يقول لبنى اسرائيل ليلحق آخركم بأولكم ويستقبل القبط فيقول رويدكم يلحق آخركم بأولكم فلما انتهى موسى الى البحر قال يوشع لموسى اين امرت فهذا البحر امامك وغشيك آل فرعون قال موسى ههنا فخاض يوشع الماء وضرب موسى بعصاه البحر فدخلوا وروى ان موسى عليه الصلاة والسلام قال عند ذلك يامن كان قبل كل شئ والمكون لكل شئ والكائن بعد كل شئ (ان فى ذلك) أى فيما فعلنا بموسى وفرعون (لآية) لعبرة عجيبة لاتوصف (وما كان أكثرهم) أى المغرقين (مؤمنين) قالوا لم يؤمن منهم الا آسية وحزقيل مؤمن آل فرعون ومريم التى دلت موسى على قبر يوسف (وان ربك لهو العزيز) بالانتقام من اعدائه (الرحيم) بالانعام على اوليائه (واتل عليهم) على مشركى قريش (نبأ ابراهيم) خبره (اذ قال لابيه وقومه) قوم ابراهيم او قوم الاب (ما تعبدون) أى أى شئ تعبدون وابراهيم عليه السلام يعلم انهم عبدة الاصنام ولكنه سألهم ليريهم ان ما يعبدونه ليس بمستحق للعبادة (قالوا نعبد أصناما) وجواب ما تعبدون اصناما كيسألونك ماذا ينفقون قل العفو ماذا قال ربكم قالوا الحق لانه سؤال عن المعبود لا عن العبادة وانما زادوا نعبد فى الجواب افتخارا ومباهاة بعبادتها ولذا عطفوا على نعبد (فنظل لها عاكفين) فنقيم على عبادتها طول النهار وانما قالوا فنظل لانهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل او معناه الدوام (قال) اى ابراهيم (هل يسمعونكم) هل يسمعون دعاءكم على حذف المضاف لدلالة (اذ تدعون) عليه (او ينفعونكم) ان عبدتموها (او يضرون) أى ان تركتم عبادتها (قالوا بل) اضراب أى لاتسمع ولا تنفع ولا تضر ولا نعبدها لشئ من ذلك ولكن (وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) فقلدناهم (قال افرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون) الاولون (فانهم) أى الاصنام (عدو لى) العدو والصديق يجيئان فى معنى الوحدة والجماعة يعنى لو عبدتهم لكانوا اعداء لى فى يوم القيامة كقوله سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا وقال الفراء هو من المقلوب اى فانى عدوهم وفى قوله عدو لى دون لكم زيادة نصح ليكون ادعى لهم الى القبول ولو قال فانهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة (الا رب العالمين) استثناء منقطع لانه لم يدخل تحت الاعداء كانه قال لكن رب العالمين (الذى خلقنى) بالتكوين فى القرار المكين (فهو يهدين) لمناهج الدنيا ولمصالح الدين والاستقبال فى يهدينى

الله تعالى اياه (كلا) اى لن يدركونا (ان معى ربى سيهدين) اى يدلنى على طريق النجاة (فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق) اى فضربه فانشق (فكان كل فرق) اى قطعة من الماء (كالطود) اى الجبل (العظيم) قيل لما انتهى موسى ومن معه الى البحر هاجت الرياح فصار البحر يرمى بموج كالجبال قال يوشع يا كليم الله اين أمرت فقد غشينا فرعون من خلفنا والبحر امامنا قال موسى ههنا فخاض يوشع الماء لايوارى حافر دابته وقال الذى يكتم ايمانه يا كليم الله اين أمرت قال ههنا فالجم فرسه فصكه بلجامه حتى طار الزبد من شدقه ثم اقحمه البحر فارتسب فى الماء وذهب القوم يصنعون مثل ذلك فلم يقدروا فجعل موسى لايدرى كيف يصنع فأوحى الله اليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فاذا الرجل واقف على فرسه لم يبتل سرجه ولا لبده (وأزلفنا ثم الآخرين) اى قربنا فرعون وجنوده الى البحر وقدمناهم الى الهلاك وقيل ان جبريل كان بين بنى اسرائيل وبين قوم فرعون يقول لبنى اسرائيل ليلحق آخركم أولكم ويقول للقبط رويدا يلحق آخركم أولكم فكان بنو اسرائيل يقولون ما رأينا أحسن سياقة من هذا الرجل وكان قوم فرعون يقولون ما رأينا احسن دعة من هذا الرجل (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين) يعنى ان الله تعالى جعل البحر يبسا حتى خرج موسى وقومه منه وأغرق فرعون وقومه وذلك انهم لما تكاملوا فى البحر انطبق عليهم وأغرقهم (ان فى ذلك لآية) يعنى ما حدث فى البحر من انفلاقه آية من الآيات العظام الدالة على قدرته ومعجزة لموسى عليه السلام (وما كان أكثرهم مؤمنين) يعنى اهل مصر قيل لم يؤمن منهم الا آسية امرأة فرعون وحزقيل مؤمن آل فرعون ومريم ابنة ماموسا التى دلت على قبر يوسف حين اخرجه موسى من البحر (وان ربك لهو العزيز الرحيم) قوله تعالى (واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لابيه وقومه ما تعبدون) أى أى شئ تعبدون وانما قال ابراهيم ذلك مع علمه بانهم عبدة الاصنام ليريهم ان ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة فى شئ (قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين) اى نقيم على عبادتها وانما قالوا نظل لانهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل (قال هل يسمعونكم) اى يسمعون دعاءكم (اذ تدعون أو ينفعونكم) يعنى بالرزق (أو يضرون) اى ان تركتم عبادتهم واذا كان كذلك فكيف يستحقون العبادة فلما ألزمتهم الحجة القاطعة (قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) المعنى انها لاتسمع قولا ولا تجلب نفعا ولا تدفع ضرا ولكن اقتدينا بآبائنا فى ذلك وفى الآية دليل على ابطال التقليد فى الدين وذمه ومدح الاخذ بالاستدلال (قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون) اى الاولون (فانهم عدو لى) اى اعداء لى وانما وحده على ارادة الجنس فان قلت كيف وصف الاصنام بالعداوة وهى جمادات لا تعقل قلت معناه فانهم عدو لى يوم القيامة لو عبدتهم فى الدنيا وقيل ان الكفار لما عبدوها ونزلوها منزلة الاحياء العقلاء اطلق ابراهيم لفظ العداوة عليها وقيل هو من المقلوب اراد فانى عدو لهم لان من عاديته فقد عاداك (الا رب العالمين) اى ولكن رب العالمين فانه ربى ووليى وقيل انهم كانوا يعبدون الاصنام مع الله تعالى فقال ابراهيم كل ما تعبدون اعداء لى الا رب العالمين ثم وصف معبوده الذى يستحق العبادة فقال (الذى خلقنى فهو يهدين) الى

مع سبق العناية بالهداية لانه يحتمل يهديني الاهم الانفصل والاتم الاكمل او الذي خلقني لاسباب خدمته فهو يهديني الى آداب خلته (والذي هو يطعمني)
اضاف الاطعام الى ولي الانعام لان الركون الى الاسباب عادة الانعام (ويسقين) قال ابن عطاء هو الذي يحييني بطعامه ويرويني بشرابه (واذا مرضت)
وانما لم يقل امرضني لانه قصد الذكر بلسان الشكر فلم يضف اليه ما يقتضي الضرر قال ابن عطاء اذا مرضت برؤية الخلق (فهو يشفين) بمشاهدة الحق قال
الصادق اذا مرضت برؤية الافعال فهو يشفين بكشف منة الافضال (والذي يميتني ثم يحيين) ولم يقل اذا مت لانه الخروج من حبس البلاء ودار الفناء الى
روض البقاء لوعد اللقاء وادخل ثم في الاحياء لتراخيه عن الافناء وادخل الفاء في الهداية والشفاء لانهما يعقبان الخلق والمرض لامعا معا (والذي أطمع)
طمع العبيد في الموالي بالافضال لا على الاستحقاق بالسؤال (ان يغفر لي خطيئتي) قيل هو قوله اني سقيم بل فعله كبيرهم هذا ربي البازغ هي اختي لسارة
وماهي الا معاريض جائزة وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار واستغفار الانبياء تواضع منهم لربهم وهضم لانفسهم وتعليم للامم في طلب المغفرة (يوم الدين)
يوم الجزاء (رب هب لي حكما) حكمة او حكما بين الناس بالحق او نبوة لان النبي عليه السلام ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله (والحقني بالصالحين) أي الانبياء
واقدا جابه حيث قال وانه في الآخرة لمن الصالحين (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) أي ثناء حسنا وذكرا جميلا في الامم التي تجيء بعدي

فأعطى ذلك فكل أهل دين يتولونه ويثنون
عليه ووضع اللسان موضع القول لان القول
يكون به (واجعلني من) يتعلق بمحذوف أي
وارثا من (ورثة جنة النعيم) أي من الباقين
فيها (واغفر لابي) اجعله أهل المغفرة باعطاء
الاسلام وكان وعده الاسلام يوم فارقه (انه كان
من الضالين) الكافرين (ولا تخزني) الاخزاء
من الخزي وهو الهوان او من الخزاية وهو الحياء
وهذا نحو الاستغفار كما بينا (يوم يبعثون) الضمير
فيه للعباد لانه معلوم او للضالين وان يجعل من
جملة الاستغفار لابيه أي ولا تخزني في يوم يبعث
الضالون وابي فيهم (يوم لا ينفع مال) هو بدل
من يوم الاول (ولا بنون) أحدا (الا من أتى الله
بقلب سليم) عن الكفر والنفاق فقلب
الكافر والمنافق مريض لقوله تعالى في قلوبهم
مرض أي ان المال اذا صرف في وجوه البر
وبنوه صالحون فانه ينتفع به وبهم سليم القلب
او جعل المال والبنون في معنى الغنى كانه قيل
يوم لا ينفع غنى الا غنى من أتى الله بقلب سليم
لان غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه كما ان غناه
في دنياه بماله وبنيه وقد جعل من مفعولا
لينفع أي لا ينفع مال ولا بنون الا رجلا سلم قلبه مع ماله حيث انفقه في طاعة الله ومع بنيه حيث ارشدهم الى الدين وعلمهم الشرائع ويجوز على هذا اتباعه
الا من أتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين وقد صوب الجليل استثناء الخليل اكراما له ثم جعله صفة له في قوله وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب
سليم وما احسن ما رتب عليه السلام من كلامه مع المشركين حيث سألهم اولا عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ثم اقبل على آلهتهم فابطل امرها بانها لا تضر
ولا تنفع ولا تسمع وعلى تقليدهم آباءهم الاقدمين فاخرجه من ان يكون شبهة فضلا عن ان يكون حجة ثم صور المسئلة في نفسه دونهم حتى تخلص منها الى
ذكر الله تعالى فعظم شأنه وعدد نعمته من حين انشائه الى وقت وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ثم اتبع ذلك ان دعا بدعوات المخلصين وابتهل اليه ابتهال
الادب ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع اليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكرة الى الدنيا ليؤمنوا
ويطيعوا (وازلفت الجنة للمتقين) أي قربت عطف بجملة أي تزلف من موقف السعداء فينظرون اليها (وبرزت الجحيم) اى اظهرت حتى يكاد يأخذهم لهبها
(للغاوين) للكافرين (وقيل لهم اينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم او ينتصرون) يوبخون على اشراكهم فيقال لهم اين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم
لكم او هل ينفعون انفسهم بانتصارهم لانهم وآلهتهم وقود النار (فكبكبوا) انكسوا وطرح بعضهم على بعض (فيها) في الجحيم (هم) أي الآلهة (والغاوون)
وعبدتهم الذين برزت لهم والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى كانه اذا القي في جهنم ينكب مرة اثر مرة حتى يستقر في قعرها
نعوذ بالله منها (وجنود ابليس أجمعون) شياطينه او متبعوه من عصاة الانس والجن

طريق النجاة (والذي هو يطعمني ويسقين) اى يرزقني ويغذيني بالطعام والشراب (واذا مرضت)
اصابني مرض اضاف المرض الى نفسه استعمالا للادب وان كان المرض والشفاء من الله (فهو يشفين)
أي يبرئني ويعافيني من المرض (والذي يميتني ثم يحيين) اى يميتني في الدنيا ثم يحييني في الآخرة (والذي
اطمع) اى أرجو (أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) اى يوم الجزاء والحساب قيل خطيئته كذباته
الثلاث وتقدم الكلام عليها (م) عن عائشة رضي الله عنها قالت قلت يا رسول الله ابن جدعان كان
في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين كان ذلك نافعا له قال لا ينفعه انه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي
يوم الدين وهذا كله احتجاج من ابراهيم على قومه انه لا يصلح للالهية الا من يفعل هذه الافعال (رب
هب لي حكما) قال ابن عباس معرفة حدود الله واحكامه وقيل العلم والفهم (والحقني بالصالحين)
اى بمن سلف قبلي من الانبياء في المنزلة والدرجة العالية (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) اى
ثناء حسنا وذكرا جميلا وقبولا عاما في الامم التي تجيء بعدي فأعطاه الله ذلك وجعل كل اهل الاديان
يتولونه ويثنون عليه (واجعلني من ورثة جنة النعيم) اى ممن تعطيه جنة النعيم لانها السعادة الكبرى
(واغفر لابي انه كان من الضالين) قيل دعا لابيه على رجاء ان يسلم فيغفر له فلما تبين له انه عدو لله
تبرأ منه (ولا تخزني) اى ولا تفضحني (يوم يبعثون) وهو يوم القيامة (يوم لا ينفع مال ولا بنون
الا من أتى الله بقلب سليم) اى خالص من الشك والشرك فأما الذنوب فلا يسلم منها أحد قال سعيد بن
المسيب القلب السليم هو الصحيح وهو قلب المؤمن لان قلب الكافر والمنافق مريض وقيل القلب السليم
هو الخالي من البدعة المطمئن الى السنة (وأزلفت الجنة) اى قربت (للمتقين وبرزت الجحيم) اى
أظهرت (للغاوين) اى الكافرين (وقيل لهم) يعني يوم القيامة (أينما كنتم تعبدون من دون
الله هل ينصرونكم) اى يمنعونكم من عذاب الله (أو ينتصرون) لانفسهم (فكبكبوا) قال ابن
عباس جمعوا وقيل قذفوا وطرحوا بعضهم على بعض وقيل ألقوا على رؤسهم (فيها) اى في جهنم
(هم والغاوون) يعني الآلهة والعابدين وقيل الجن والكافرين (وجنود ابليس أجمعون) يعني

(قالوا وهم فيها يختصمون) يجوز ان ينطق الله الاصنام حتى يصح التقاول والتخاصم ويجوز ان يجري ذلك بين العصاة والشياطين (تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم) نعدلكم ايها الاصنام (برب العالمين) في العبادة (وما اضلنا الا المجرمون) أي رؤساؤهم الذين اضلوهم او ابليس وجنوده ومن سن الشرك (فما لنا من شافعين) كما للمؤمنين من الانبياء والاولياء والملائكة (ولا صديق حميم) كما نرى لهم اصدقاء اذ لا يتصادق في الآخرة الا المؤمنون واما أهل النار فبينهم التعادي الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين او فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء واصدقاء لانهم كانوا يعتقدون في اصنامهم انهم شفعاؤهم عند الله وكان لهم الاصدقاء من شياطين الانس والحميم من الاحتمام وهو الاهتمام الذي يهمه ما يهمك او من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخاص وجمع الشافع ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة واما الصديق وهو الصادق

في ودادك الذي يهمه ما أهمك فقليل وسئل حكيم عن الصديق فقال اسم لا معنى له وجاز ان يراد بالصديق الجمع (فلو ان لنا كرة) رجعة الى الدنيا (فنكون من المؤمنين) وجواب لو محذوف وهو لفعلنا كيت وكيت او لو في مثل هذا بمعنى التمني كانه قيل فليت لنا كرة لما بين معنى لو وليت من التلاقي (ان في ذلك) فيما ذكر من الانباء (لآية) أي لعبرة لمن اعتبر (وما كان أكثرهم مؤمنين) فيه ان قريشا منهم آمنوا (وان ربك لهو العزيز) المنتقم ممن كذب ابراهيم بنار الجحيم (الرحيم) المسلم كل ذي قلب سليم الى جنة النعيم (كذبت قوم نوح المرسلين) القوم يذكر ويؤنث قيل ولد نوح في زمن آدم عليه السلام ونظير قوله المرسلين والمراد نوح عليه السلام قولك فلان يركب الدواب ويلبس البرود وماله الا دابة وبرد او كانوا ينكرون بعث الرسل اصلا فلذا جمع او لان من كذب واحدا منهم فقد كذب الكل لان كل رسول يدعو الناس الى الايمان بجميع الرسل وكذا جميع ما في هذه السورة (اذ قال لهم أخوهم) نسبا لا دينا (نوح الا تتقون) خالق الانام فتتركوا عبادة الاصنام (اني لكم رسول أمين) كان مشهورا بالامانة فيهم كمحمد عليه الصلاة والسلام في قريش (فاتقوا الله واطيعون) فيما آمركم به وادعوكم اليه من الحق (وما اسألكم عليه) على هذا الامر (من اجر) جزاء (ان اجري) بالفتح مدني وشامي وأبو عمرو وحفص (الا على رب العالمين) فلذلك اريده (فاتقوا الله واطيعون) كرره ليقرره في نفوسهم مع تعليق كل واحد منهما بعلة فعلة الاول كونه امينا فيما بينهم وعلة الثاني حسم طمعه منهم كانه قال اذا عرفتم رسالتي وامانتي فاتقوا الله ثم اذا عرفتم احترازي من الاجر فاتقوا الله (قالوا انؤمن لك واتبعك) الواو للحال وقد مضمرة بعدها دليله قراءة يعقوب واتباعك جمع تابع كشاهد واشهاد او تبع كبطل وابطال (الارذلون) السفلة والرذالة الخسة والدناءة وانما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا وقيل كانوا من أهل الصناعات الدنيئة والصناعة لا تزري بالديانة فالغنى غنى الدين والنسب نسب التقوى ولا يجوز ان يسمى المؤمن رذلا وان كان افقر الناس واوضعهم نسبا وما زالت اتباع الانبياء كذلك (قال وما علمي) وأي شيء اعلم (بما كانوا يعملون) من الصناعات انما اطلب منهم الايمان وقيل انهم طعنوا مع استرذالهم في ايمانهم وقالوا ان الذين آمنوا بك ليس في قلوبهم ما يظهرونه فقال ما علي الا اعتبار الظواهر دون التفتيش عن السرائر (ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون) ان الله تعالى يحاسبهم على ما في قلوبهم (وما أنا بطارد المؤمنين) اي ليس من شأني ان اتبع شهواتكم بطرد المؤمنين طمعا في ايمانكم (ان أنا الا نذير مبين) ما علي الا ان

اتباعه ومن اطاعه من الانس والجن وقيل ذريته (قالوا وهم فيها يختصمون) يعني العابدين والمعبودين (تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم) اي نعدلكم (برب العالمين) فنعبدكم (وما أضلنا) يعني دعانا الى الضلال (الا المجرمون) يعني من دعاهم الى عبادة الاصنام من الجن والانس وقيل الاولون الذين اقتدينا بهم وقيل يعني ابليس وابن آدم الاول وهو قابيل وهو اول من سن القتل وانواع المعاصي (فما لنا من شافعين) يعني من يشفع لنا يعني كما للمؤمنين شافعين من الملائكة والانبياء (ولا صديق حميم) اي قريب يشفع لنا يقول ذلك الكفار حين يشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون والصديقون وهم الصادقون في المودة مع موافقة الدين عن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الرجل يقول في الجنة ما فعل بصديقي فلان وصديقه في الجحيم فيقول الله عز وجل اخرجوا له صديقه الى الجنة فيقول من بقي فما لنا من شافعين ولا صديق حميم رواه البغوي باسناد الثعلبي وقال الحسن استكثروا من الاصدقاء المؤمنين فان لهم شفاعة يوم القيامة (فلو أن لنا كرة) اي رجعة الى الدنيا (فنكون من المؤمنين) اي انهم تمنوا الرجعة حين لا رجعة لهم (ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) اي مع هذه الدلائل والآيات (وان ربك لهو العزيز الرحيم) اي المنتقم الذي لا يغالب وهو في وصف عزته رحيم قوله عز وجل (كذبت قوم نوح المرسلين) اي كذبت جماعة قوم نوح قيل القوم مؤنثة وتصغيرها قويمة فان قلت كيف قال المرسلين وانما هو رسول واحد وكذلك باقي القصص قلت لان دين الرسل واحد وان الآخر منهم جاء بما جاء به الاول فمن كذب واحدا من الانبياء فقد كذب جميعهم (اذ قال لهم أخوهم نوح) اي اخوهم في النسب لا في الدين (الا تتقون) اي الا تخافون فتتركوا الكفر والمعاصي (اني لكم رسول أمين) اي على الوحي وكان معروفا عندهم بالامانة (فاتقوا الله) اي بطاعته وعبادته (وأطيعون) اي فيما أمرتكم به من الايمان والتوحيد (وما أسألكم عليه من أجر) اي من جعل وجزاء (ان أجري) اي ثوابي (الا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون) قيل كرره ليؤكد عليهم ويقرره في نفوسهم وقيل ليس فيه تكرار ومعنى الاول الا تتقون الله في مخالفتي وانا رسول الله ومعنى الثانية الا تتقون الله في مخالفتي واني لست آخذ منكم اجرا (قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون) اي السفلة قال ابن عباس يعني القافة وقيل هم الحاكة والاساكفة (قال) يعني نوحا (وما علمي بما كانوا يعملون) اي وما أعلم اعمالهم وصنائعهم وليس علي من دناءة مكاسبهم واحوالهم شيء انما كلفت ان ادعوهم الى الله تعالى وما لي الا ظواهر امرهم وقال الزجاج الصناعات لا تضر في الديانات وقيل معناه اني لم اعلم ان الله يهديهم ويضلكم ويوفقهم ويخذلكم (ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون) اي لو تعلمون ذلك ما عيرتموهم بصنائعهم (وما أنا بطارد المؤمنين) اي عني وقد آمنوا (ان أنا الا نذير مبين)

انذركم انذارا بينا بالبرهان الصحيح الذى يتميز به الحق من الباطل ثم انتم اعلم بشأنكم (قالوا لئن لم تنته يا نوح) عما تقول (لتكونن من المرجومين) من المقتولين بالحجارة (قال رب ان قومى كذبون) ليس هذا اخبارا بالتكذيب لعلمه ان عالم الغيب والشهادة اعلم ولكنه اراد انهم كذبونى فى وحيك ورسالتك (فافتح بينى وبينهم فتحا) اى فاحكم بينى وبينهم حكما والفتاحة الحكومة والفتاح الحاكم لانه يفتح المستغلق كما سمى فيصلا لانه يفصل بين الخصومات (ونجنى ومن معى) حفص (من المؤمنين) من عذاب عملهم (فأنجيناه ومن معه فى الفلك) الفلك السفينة وجمعه فلك فالواحد بوزن اسد (المشحون) المملوء ومنه شحنة البلد اى الذى يملأه كفاية (ثم أغرقنا بعد) اى بعد انجاء نوح ومن آمن (الباقين) من قومه (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز) المنتقم باهانة من جحد واصر (الرحيم) المنعم باعانة من وحد واقر (كذبت عاد المرسلين) هى قبيلة وفى الاصل اسم رجل هو ابو القبيلة (اذ قال لهم أخوهم هود الا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله) فى تكذيب الرسول الامين (وأطيعون وما اسألكم عليه من أجران أجرى الا على رب العالمين اتبنون بكل ريع) مكان مرتفع (آية) لبرج حمام او بناء يكون لارتفاعه كالعلامة يسخرون بمن مر بهم (تعبثون) تلعبون (وتتخذون مصانع) مآخذ الماء اوقصورا مشيدة اوحصونا (لعلكم تخلدون) ترجون الخلود فى الدنيا (واذا بطشتم) أخذتم اخذ العقوبة (بطشتم جبارين) قتلا بالسيف وضربا بالسوط والجبار الذى يقتل ويضرب على الغضب (فاتقوا الله) فى البطش (وأطيعون) فيما ادعوكم اليه (واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون) من النعم ثم عددها عليهم فقال (أمدكم بانعام وبنين) قرن البنين بالانعام لانهم يعينونهم على حفظها والقيام عليها (وجنات وعيون انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ان عصيتمونى (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) اى لانقبل كلامك ودعوتك وعظت ام سكت ولم يقل ام لم تعظ لرؤس الآى (ان هذا الا خلق الاولين) ما هذا الذى نحن عليه من الحياة والموت واتخاذ الابنية الا عادة الاولين او ما نحن عليه دين الاولين الا خلق الاولين مكى وبصرى ويزيد وعلى اى ما جئت به اختلاق الاولين وكذب المتنبئين قبلك كقولهم أساطير الاولين او خلقنا كخلق الاولين نموت ونحيا كما حيوا (وما نحن بمعذبين) فى الدنيا ولا بعث ولا حساب (فكذبوه) اى هودا (فأهلكناهم) بريح صرصر عاتية (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم أخوهم صالح الا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما اسألكم عليه من أجران أجرى الا على رب العالمين اتتركون) انكار لان يتركوا خالدين فى نعيمهم لا يزالون عنه (فيما ههنا) فى الذى استقر فى هذا المكان من النعيم (آمنين) من العذاب والزوال والموت ثم فسره بقوله (فى جنات وعيون) وهذا أيضا اجمال ثم تفصيل (وزروع ونخل) وعطف نخل على جنات مع ان الجنة تتناول النخل أول شئ تفضيلا للنخل على سائر الشجر (طلعها) هو ما يخرج من النخل كنصل السيف (هضيم) لين نضيج كانه قال ونخل قد ارطب ثمره (وتنحتون) تنقبون (من الجبال بيوتا فارهين) شامى وكوفى حاذقين حال وغيرهم فرهين اشرين

معناه احرف من كذبنى فمن آمن فهو القريب منى ومن لم يؤمن فهو البعيد عنى (قالوا لئن لم تنته يا نوح) أى عما تقول (لتكونن من المرجومين) اى من المقتولين بالحجارة وهو اسوء القتل وقيل من المشتومين (قال رب ان قومى كذبون فافتح) اى احكم (بينى وبينهم فتحا) اى حكما (ونجنى ومن معى من المؤمنين فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون) اى الموقر المملوء من الناس والطير والحيوان (ثم أغرقنا بعد الباقين) اى بعد انجاء نوح ومن معه (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) قوله تعالى (كذبت عاد المرسلين اذ قال لهم اخوهم هود ألا تتقون انى لكم رسول أمين) اى أمين على الرسالة فكيف تتهمونى اليوم (فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجران أجرى الا على رب العالمين أتبنون بكل ريع) قال ابن عباس اى بكل شرف وفى رواية عنه بكل طريق وقيل هو الفج بين الجبلين وقيل المكان المرتفع (آية) اى علامة وهى العلم (تعبثون) اى بمن مر بالطريق والمعنى انهم كانوا يبنون بالمواضع المرتفعة ليشرفوا على المارة والسابلة فيسخروا منهم ويعبثوا بهم وقيل انهم بنوا بروج الحمام فأنكر عليهم هود اتخاذها ومعنى تعبثون تلعبون بالحمام (وتتخذون مصانع) قال ابن عباس ابنية وقيل قصورا مشيدة وحصونا مانعة وقيل مآخذ الماء يعنى الحياض (لعلكم تخلدون) اى كانكم تبقون فيها خالدين لا تموتون (واذا بطشتم) اى واذا أخذتم وسطوتم (بطشتم جبارين) اى قتلا بالسيف وضربا بالسوط والجبار الذى يضرب ويقتل على الغضب وهو مذموم فى وصف البشر (فاتقوا الله وأطيعون) فيه زيادة زجر عن حب الدنيا والشرف والتعاظم (واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون) اى اعطاكم من الخير ما تعلمون ثم ذكر ما أعطاهم فقال (أمدكم بانعام وبنين وجنات وعيون) فيه التنبيه على نعمة الله تعالى عليهم (انى أخاف عليكم) قال ابن عباس ان عصيتمونى (عذاب يوم عظيم) فكان جوابهم أن (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) اى انهم اظهروا قلة اكتراثهم بكلامه واستخفافهم بما اورده من المواعظ والوعظ كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد (ان هذا الا خلق الاولين) قرئ بفتح الخاء اى اختلاق الاولين وكذبهم وقرئ خلق بضم الخاء واللام اى عادة الاولين من قبلنا انهم يعيشون ما عاشوا ثم يموتون ولا بعث ولا حساب وقولهم (وما نحن بمعذبين) اى انهم اظهروا بذلك تقوية نفوسهم فيما تمسكوا به من انكارهم المعاد (فكذبوه فأهلكناهم ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) قوله تعالى (كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجران أجرى الا على رب العالمين أتتركون فيما ههنا آمنين) اى فى الدنيا من العذاب (فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها) اى ثمرها الذى يطلع منها (هضيم) قال ابن عباس لطيف وعنه يانع نضيج وقيل هو اللين الرخو وقيل منهشم يتفتت اذا مس وقيل الهضيم هو الذى دخل بعضه فى بعض من النضج او النعومة وقيل هو المدرك (وتنحتون من الجبال بيوتا فرهين) وقرئ فارهين قيل الفاره الحاذق بنحتها والفره قال ابن عباس الاشر والبطر وقيل معناه متجبرين

والفراهة الكيس والنشاط (فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين) الكافرين او التسعة الذين عقروا الناقة جعل الامر مطاعا على المجاز الحكمى والمراد الآمر وهو كل جملة أخرجت الحكم المادبها عن موضوعه فى العقل لضرب من التأول كقولهم انبت الربيع البقل (الذين يفسدون فى الارض) بالظلم والكفر (ولا يصلحون) بالايمان والعدل والمعنى ان فسادهم مصمت ليس معه شئ من الصلاح كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح (قالوا انما أنت من المسحرين) المسحر الذى سحر كثيرا حتى غلب على عقله وقيل هو من السحر الرئة وانه بشر (ما أنت الا بشر مثلنا فائت بآية ان كنت من الصادقين) فى دعوى الرسالة (قال هذه ناقة لها شرب) نصيب من الماء فلا تزاحموها فيه (ولكم شرب يوم معلوم) لا تزاحمكم هى فيه روى انهم قالوا نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلدسقبا فجعل صالح يتفكر فقال له جبريل صل ركعتين واسأل ربك الناقة ففعل فخرجت الناقة ونتجت سقبا مثلها فى العظم وصدرها ستون ذراعا واذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله واذا كان يوم شربهم لا تشرب فيه الماء وهذا دليل على جواز المهايأة لان قوله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم من المهايأة (ولا تمسوها بسوء) بضرب او عقر او غير ذلك (فيأخذكم عذاب يوم عظيم) عظم اليوم لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به ابلغ من وصف العذاب لان الوقت اذا عظم بسببه كان موقعه من العظم اشد (فعقروها) عقرها قدار ولكنهم راضون به فأضيف اليهم روى ان عاقرها قال لا اعقرها حتى ترضوا أجمعين فكانوا يدخلون على المرأة فى خدرها فيقولون اترضين فتقول نعم وكذلك صبيانهم (فأصبحوا نادمين) على عقرها خوفا من نزول العذاب بهم لا ندم توبة او ندموا حين لا ينفع الندم وذلك عند معاينة العذاب او على ترك الولد (فأخذهم ٣٤٩ العذاب) المقدم ذكره (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم كذبت قوم لوط المرسلين اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون انى لكم رسول امين فاتقوا الله وأطيعون وما اسألكم عليه من أجران أجرى الا على رب العالمين اتأتون الذكران من العالمين) اراد بالعالمين الناس أتطؤن الذكور من الناس مع كثرة الاناث او اتطؤن أنتم من بين من عداكم من العالمين الذكران اى أنتم مختصون بهذه الفاحشة والعالمين على هذا كل ما ينكح من الحيوان (وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم) من تبيين لما خلق او تبعيض والمراد بما خلق العضو المباح منهن وكانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم وفيه دليل تحريم ادبار الزوجات والمملوكات ومن اجازه فقد اخطأ خطأ عظيما (بل أنتم قوم عادون) العادى المتعدى فى ظلمه المتجاوز فيه الحد اى بل انتم قوم احق بأن توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة (قالوا لئن لم تنته يالوط) عن انكارك علينا وتقبيح أمرنا (لتكونن

٨٨ ث من المخرجين) من جملة من اخرجناه من بين اظهرنا وطردناه من بلدنا ولعلهم كانوا يخرجون من اخرجوه على اسوأ حال (قال انى لعملكم من القالين) هو ابلغ من ان يقول قال فقولك فلان من العلماء ابلغ من قولك فلان عالم لانك تشهد بأنه مساهم لهم فى العلم والقلى البغض يقلى الفؤاد والكبد وفيه دليل على عظم المعصية لان قلاه من حيث الدين (رب نجنى وأهلى مما يعملون) من عقوبة عملهم (فنجيناه وأهله أجمعين) يعنى بناته ومن آمن معه (الا عجوزا) هى امرأة لوط وكانت راضية بذلك والراضى بالمعصية فى حكم العاصى واستثناء الكافرة من الاهل وهم مؤمنون للاشتراك فى هذا الاسم وان لم تشاركهم فى الايمان (فى الغابرين) صفة لها اى فى الباقين فى العذاب فلم تنج منه والغابر فى اللغة الباقى كانه قيل الا عجوزا غابرة اى مقدرا غبورها اذ الغبور لم يكن صفتها وقت تنجيتهم (ثم دمرنا الآخرين) والمراد بتدميرهم الائتفاك بهم (وأمطرنا عليهم مطرا) عن قتادة امطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكهم الله وقيل لم يرض بالائتفاك حتى اتبعه مطرا من حجارة (فساء) فاعله (مطر المنذرين) والمخصوص بالذم وهو مطرهم محذوف ولم يرد بالمنذرين قوما بأعيانهم بل المراد جنس الكافرين (ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم كذب أصحاب الايكة) بالهمزة والجر هى غيضة تنبت ناعم الشجر عن الخليل ليكة حجازى وشامى وكذا فى صاد علم للبلد قيل أصحاب الايكة هم أهل مدين التجؤا الى غيضة اذا لح عليهم الوهج والاصح انهم غيرهم نزلوا غيضة بعينها بالبادية واكثر شجرهم المقل بدليل انه لم يقل هنا أخوهم شعيب لانه لم يكن من نسبهم بل كان من نسب أهل مدين ففى الحديث ان شعيبا أخا مدين ارسل اليهم والى اصحاب الايكة (المرسلين اذ قال لهم شعيب

فرحين معجبين بصنعكم (فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين) قال ابن عباس اى المشركين وقيل يعنى التسعة الذين عقروا الناقة (الذين يفسدون فى الارض) اى بالمعاصى (ولا يصلحون) اى لا يطيعون الله فيما امرهم (قالوا انما أنت من المسحرين) اى من المسحورين المخدوعين وقال ابن عباس من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب (ما أنت الا بشر مثلنا) والمعنى انت بشر مثلنا ولست بملك (فائت بآية) يعنى على صحة ما تقول (ان كنت من الصادقين) يعنى انك رسول الينا (قال هذه ناقة لها شرب) اى حظ من الماء (ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء) اى بعقر (فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين) اى على عقرها لما رأوا العذاب (فأخذهم العذاب ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) قوله عز وجل (كذبت قوم لوط المرسلين اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجران أجرى الا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين) يعنى نكاح الرجال من بنى آدم (وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم) يعنى أتتركون العضو المباح من النساء وتميلون الى ادبار الرجال (بل أنتم قوم عادون) اى معتدون مجاوزون الحلال الى الحرام (قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين) اى من قريته (قال انى لعملكم من القالين) اى من التاركين المبغضين (رب نجنى وأهلى مما يعملون) اى من العمل الخبيث قال الله تعالى (فنجيناه وأهله أجمعين الا عجوزا) اى امرأته (فى الغابرين) اى بقيت فى المهلكين (ثم دمرنا الآخرين) اى اهلكناهم (وأمطرنا عليهم مطرا) يعنى الكبريت والنار (فساء مطر المنذرين ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) قوله عز وجل (كذب أصحاب الايكة المرسلين) اى الغيضة الملتفة من الشجر وقيل هو اسم البلد (اذ قال لهم شعيب) لم يقل أخوهم لانه لم

الا تتقون اني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجران أجري الا على رب العالمين أوفوا الكيل) اتموه (ولا تكونوا من المخسرين)
ولا تنقصوا الناس حقوقهم فالكيل واف وهو مأمور به وطفيف وهو منهي عنه وزائد وهو مسكوت عنه فتركه دليل على انه ان فعله فقد احسن وان لم يفعل
فلا شيء عليه (وزنوا بالقسطاس المستقيم) وبكسر القاف كوفي غير ابي بكر وهي الميزان او القبان فان كان من القسط وهو العدل وجعلت العين مكررة فوزنه
فعلاس والا فهو رباعي (ولا تبخسوا الناس) يقال بخسته حقه اذا نقصته اياه (أشياءهم) دراهمهم ودنانيرهم بقطع اطرافهما (ولا تعثوا في الارض مفسدين)
ولا تبالغوا فيها في الافساد نحو قطع الطريق والغارة واهلاك الزروع وكانوا يفعلون ذلك فنهوا عنه يقال عثا في الارض اذا افسد وعثى في الارض لغة في
عثا (واتقوا الذي خلقكم والجبلة) الجبلة عطف على كم اي اتقوا الذي خلقكم وخلق الجبلة (الاولين) الماضين (قالوا انما أنت من المسحرين وما أنت
الا بشر مثلنا) ادخال الواو هنا يفيد معنيين كلاهما مناف للرسالة عندهم التسحير والبشرية وترك في قصة ثمود ليفيد معنى واحدا وهو كونه مسحرا ثم قرر
بكونه بشرا مثلهم (وان نظنك لمن الكاذبين) ان

مخففة من الثقيلة واللام دخلت للفرق بينها وبين النافية وانما تفرقتا على فعل الظن وثاني
مفعوليه لان أصلهما ان يتفرقا على المبتدا والخبر
كقولك ان زيد المنطلق فلما كان بابا كان وظننت
من جنس باب المبتدا والخبر فعل ذلك في البابين
فقيل ان كان زيد لمنطلقا وان ظننته لمنطلقا (فأسقط
علينا كسفا) كسفا حفص وهما جمعا كسفة وهي
القطعة وكسفه قطعه (من السماء) اي السحاب
او الظلة (ان كنت من الصادقين) اي ان كنت
صادقا انك نبي فادع الله ان يسقط علينا كسفا
من السماء اي قطعا من السماء عقوبة (قال
ربي) بفتح الياء حجازي وابو عمرو وبسكونها
غيرهم (اعلم بما تعملون) اي ان الله اعلم باعمالكم
وبما تستحقون عليها من العذاب فان اراد ان
يعاقبكم باسقاط كسف من السماء فعل وان
اراد عقابا آخر فاليه الحكم والمشيئة (فكذبوه
فأخذهم عذاب يوم الظلة) هي سحابة اظلتهم
بعدما حبست عنهم الريح وعذبوا بالحر سبعة أيام
فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالهم من الحر
فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا (انه كان عذاب يوم
عظيم ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين
وان ربك لهو العزيز الرحيم) وقد كرر في هذه
السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر تقريرا
لمعانيها في الصدور وليكون ابلغ في الوعظ والزجر
ولان كل قصة منها كتنزيل برأسه وفيها من
الاعتبار مثل ما في غيرها فكانت جديرة بأن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها وان تختتم بما اختتمت به (وانه) أي القرآن (لتنزيل رب العالمين) القرآن
منزل منه (نزل به) مخفف والفاعل (الروح الامين) أي جبريل لانه أمين على الوحي الذي فيه الحياة حجازي وابو عمرو وزيد وحفص وغيرهم بالتشديد ونصب
الروح والفاعل هو الله تعالى أي جعل الله الروح نازلا به والباء على القراءتين للتعدية (على قلبك) أي حفظك وفهمك اياه واثبته في قلبك اثبات ما لا ينسى
كقوله سنقرئك فلا تنسى (لتكون من المنذرين بلسان عربي) بلغة قريش وجرهم (مبين) فصيح ومصحح عما صحفته العامة والباء اما ان يتعلق بالمنذرين أي
لتكون من الذين انذروا بهذا اللسان وهم هود وصالح وشعيب واسماعيل عليهم السلام أو بنزل أي نزله بلسان عربي لتنذر به لانه لو نزله بلسان أعجمي لتجافوا
عنه أصلا ولقالوا ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الانذار به وفي هذا الوجه ان تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لانك تفهمه
وتفهمه قومك ولو كان أعجميا لكان نازلا على سمعك دون قلبك لانك تسمع اجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها وقد يكون الرجل عارفا بعدة لغات فاذا كلم
بلغته التي نشأ عليها لم يكن قلبه ناظرا الا الى معاني الكلام وان كلم بغيرها كان نظره أولا في ألفاظها ثم في معانيها وان كان ماهرا بمعرفتها فهذا تقرير انه نزل على
قلبه لنزوله بلسان عربي مبين (وانه) وان القرآن

يكن منهم وانما كان من مدين وأرسل اليهم (ألا تتقون اني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون
وما أسألكم عليه من أجر ان أجري الا على رب العالمين) انما كانت دعوة هؤلاء الانبياء فيما حكى الله عنهم
على صيغة واحدة لاتفاقهم على تقوى الله وطاعته والاخلاص في العبادة والامتناع من اخذ الاجر
على تبليغ الرسالة (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين) اي الناقصين لحقوق الناس في الكيل
والوزن (وزنوا بالقسطاس) اي بالميزان العدل (المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في
الارض مفسدين واتقوا الذي خلقكم والجبلة الاولين) يعني الخليقة والامم المتقدمة (قالوا انما أنت من
المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفا) اي قطعا (من السماء
ان كنت من الصادقين قال ربي أعلم بما تعملون) أي من نقصان الكيل والوزن وهو مجازيكم
بأعمالكم وليس العذاب الي انما علي الا الدعوة والتبليغ (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان
عذاب يوم عظيم) وذلك انهم أصابهم حر شديد فكانوا يدخلون الاسراب فيجدونها احر من ذلك فيخرجون
فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا جميعا (ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم
مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) وقد تقدم الكلام على هذه القصص في سورة الاعراف وهود فأغنى
عن الاعادة هنا والله أعلم بمراده قوله عز وجل (وانه) يعني القرآن (لتنزيل رب العالمين) يعني
ان فيه من أخبار الامم الماضية ما يدل على انه من رب العالمين (نزل به الروح الامين) يعني جبريل عليه
السلام سماه روحا لانه خلق من الروح وسماه أمينا لانه مؤتمن على وحيه لانبيائه (على قلبك) يعني
على قلبك حتى تعيه وتفهمه ولا تنساه وانما خص القلب لانه هو المخاطب في الحقيقة وانه موضع التمييز
والعقل والاختيار وسائر الاعضاء مسخرة له ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم الا ان في الجسد مضغة
اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهي القلب أخرجاه في الصحيحين ومن المعقول
ان موضع الفرح والسرور والغم والحزن هو القلب فاذا فرح القلب او حزن يتغير حال سائر الاعضاء فكان
القلب كالرئيس لها ومنها ان موضع العقل هو القلب على الصحيح من القولين فاذا ثبت ذلك كان القلب هو
الامير المطلق وهو المكلف لان التكليف مشروط بالعقل والفهم وقوله تعالى (لتكون من المنذرين)
أي المخوفين (بلسان عربي مبين) قال ابن عباس بلسان قريش ليفهموا ما فيه (وانه) يعني

(انى زبر الاوّلين) يعنى ذكره مثبت فى سائر الكتب السماوية وقيل ان معانيه فيها وفيه دليل على ان القرآن قرآن اذا ترجم بغير العربية فيكون دليلا على جواز قراءة القرآن بالفارسية فى الصلاة (أولم تكن لهم آية) شامى جعلت آية اسم كان وخبره (ان يعلمه) أى القرآن لوجود ذكره فى التوراة وقيل فى يكن ضمير القصة وآية خبر مقدم والمبتدأ أن يعلمه والجملة خبر كان وقيل كان تامة والفاعل آية وان يعلمه بدل منها أو خبر مبتدأ محذوف اى أولم تحصل لهم آية وغيره يكن بالتذكير وآية بالنصب على انها خبره وان يعلمه هو الاسم وتقديره اولم يكن لهم علم علماء بنى اسرائيل آية (علماء بنى اسرائيل) كعبد الله بن سلام وغيره قال الله تعالى واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين وخط فى المصحف علمؤا بواو قبل الالف (ولونزلناه على بعض الاعجمين) جمع اعجم وهو الذى لا يفصح وكذلك الاعجمى الا ان فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه قالوا له أعجم وأعجمى شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين والعجمى الذى من جنس العجم افصح اولم يفصح وقرأ الحسن الاعجميين وقيل الاعجمين تخفيف الاعجميين كما قالوا الاشعرون أى الاشعريون بحذف ياء النسبة ولولا هذا التقدير لم يجز ان يجمع جمع السلامة لان مؤنثه عجماء (فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين) والمعنى انا انزلنا القرآن على رجل عربى مبين ففهموه وعرفوا فصاحته وانه معجز وانضم الى ذلك اتفاق علماء أهل الكتاب قبله على ان البشارة بانزاله وصفته فى كتبهم وقد تضمنت معانيه وقصصه وصح بذلك انها من عند الله وليست باساطير كما زعموا فلم يؤمنوا به وسموه شعرا تارة وسحرا أخرى وقالوا هذا من افتراء محمد عليه الصلاة والسلام ولونزلناه على بعض الاعاجم الذى لا يحسن العربية فضلا ان يقدر على نظم مثله

فقرأه عليهم هكذا معجزا لكفروا به كما كفروا وانتحلوا لجحودهم عذرا ولسموه سحرا ثم قال (كذلك سلكناه) اى ادخلنا التكذيب او الكفر وهو مدلول قوله ما كانوا به مؤمنين (فى قلوب المجرمين) الكافرين الذين علمنا منهم اختيار الكفر والاصرار عليه يعنى مثل هذا السلك سلكناه فى قلوبهم وقررناه فيها فكيفما فعل بهم وعلى أى وجه دبر امرهم فلا سبيل الى ان يتغيروا عما هم عليه من الكفر به والتكذيب له كما قال ولونزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين وهو حجتنا على المعتزلة فى خلق افعال العباد خيرها وشرها وموقع قوله (لا يؤمنون به) بالقرآن من قوله سلكناه فى قلوب المجرمين موقع الموضح والملخص لانه مسوق لثبات كونه مكذبا مجحودا فى قلوبهم فاتبع ما يقرر هذا المعنى من انهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد ويجوز ان يكون حالا أى سلكناه فيها غير مؤمن به (حتى يروا العذاب الاليم) المراد معاينة الموت عند الموت ويكون ذلك ايمان يأس فلا ينفعهم (فيأتيهم بغتة) فجأة (وهم لا يشعرون) باتيانه (فيقولوا) وفيأتيهم معطوفان على يروا (هل نحن منظرون) يسألون النظرة والامهال طرفة عين فلا يجابون اليها (أفبعذابنا يستعجلون) توبيخ لهم وانكار عليهم قولهم فأمطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب أليم ونحو ذلك قال يحيى بن معاذ أشد الناس غفلة من اغتر بحياته والتذ بمراداته وسكن الى مألوفاته والله تعالى يقول (أفرأيت ان متعناهم سنين) قيل هى سنو مدة الدنيا (ثم جاءهم ما كانوا يوعدون) من العذاب (ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) به فى تلك السنين والمعنى ان استعجالهم بالعذاب انما كان لاعتقادهم انه غير كائن ولا لاحق بهم وانهم ممتعون بأعمار طوال فى سلامة وأمن فقال الله تعالى أفبعذابنا يستعجلون أشرا وبطرا واستهزاء واتكالا على الامل الطويل ثم قال هب ان الامر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم فاذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معايشهم وعن ميمون بن مهران انه لقى الحسن فى الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له عظنى فلم يزده على تلاوة هذه الآية فقال ميمون قد وعظت فأبلغت وعن عمر بن عبد العزيز انه كان يقرأها عند جلوسه للحكم (وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون) رسل ينذرونهم ولم تدخل الواو على الجملة بعد الا كما فى وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم لان الاصل عدم الواو واذا الجملة صفة لقرية واذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف (ذكرى) منصوبة بمعنى تذكرة لان انذر وذكر متقاربان فكأنه قيل مذكرون تذكرة او حال من الضمير فى منذرون أى ينذرونهم ذوى تذكرة أو مفعول له أى ينذرون لاجل التذكرة والموعظة أو مرفوعة على انها خبر مبتدأ محذوف بمعنى هذه ذكرى والجملة اعتراضية او صفة بمعنى منذرون ذوو ذكرى او تكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولا له والمعنى وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين الا بعدما ألزمناهم الحجة بارسال المنذرين اليهم ليكون اهلاكهم تذكرة وعبرة

القرآن وقيل ذكر محمد صلى الله عليه وسلم وصفته ونعته (لفى زبر الاوّلين) أى كتب الاولين (أولم يكن لهم آية) يعنى اولم يكن لهؤلاء المتكبرين علامة ودلالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم (أن يعلمه) يعنى يعلم محمدا صلى الله عليه وسلم (علماء بنى اسرائيل) قال ابن عباس بعث اهل مكة الى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا ان هذا لزمانه وانا نجد فى التوراة نعته وصفته فكان ذلك آية على صدقه صلى الله عليه وسلم قيل كانوا خمسة عبد الله بن سلام وابن يامين وثعلبة واسد واسيد قوله تعالى (ولونزلناه) يعنى القرآن (على بعض الاعجمين) جمع أعجمى وهو الذى لا يفصح ولا يحسن العربية وان كان عربيا فى النسب ومعنى الآية لو أنزلنا القرآن على رجل ليس بعربى اللسان (فقرأه عليهم) يعنى القرآن (ما كانوا به مؤمنين) أى لقالوا لا نفقه قولك وقيل معناه لما آمنوا به أنفة من اتباع من ليس من العرب (كذلك سلكناه) قال ابن عباس يعنى ادخلنا الشرك والتكذيب (فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به) أى القرآن (حتى يروا العذاب الاليم فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون فيقولوا هل نحن منظرون) أى لنؤمن ونصدق وتمنوا الرجعة ولا رجعة لهم (أفبعذابنا يستعجلون) قيل لما وعدهم النبى صلى الله عليه وسلم بالعذاب قالوا الى متى توعدنا بالعذاب ومتى هذا العذاب فأنزل الله أفبعذابنا يستعجلون (أفرأيت ان متعناهم سنين) أى كفار مكة فى الدنيا ولم نهلكهم (ثم جاءهم ما كانوا يوعدون) يعنى العذاب (ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) أى فى تلك السنين الكثيرة والمعنى انهم وان طال تمتعهم بنعيم الدنيا فاذا اتاهم العذاب لم يغن عنهم طول التمتع شيئا ويكونوا كأنهم لم يكونوا فى نعيم قط (وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون) أى رسل ينذرونهم (ذكرى) أى تذكرة

(وما كنا ظالمين) أى فى تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم (وما تنزلت به الشياطين) يعنى أن المشركين كانوا يقولون ان الشياطين يلقون القرآن على قلب محمد صلى الله عليه وسلم فرد الله عليهم ذلك (وما ينبغى لهم) أن ينزلوا بالقرآن (وما يستطيعون) أى ذلك ثم انه تعالى ذكر سبب ذلك فقال (انهم عن السمع لمعزولون) أى محجوبون بالرمى بالشهب فلا يصلون الى استراق السمع (فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره لانه معصوم من ذلك قال ابن عباس يحذر به غيره يقول أنت اكرم الخلق على ولو اتخذت الها غيرى لعذبتك قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الاقربين) روى محمد بن اسحاق بسنده عن على بن ابى طالب رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا على ان الله أمرنى ان أنذر عشيرتى الاقربين فضقت بذلك ذرعا وعرفت انى متى اناديهم بهذا الامر أرى منهم ما اكره فصمت عليها حتى جاءنى جبريل فقال يا محمد ان لا تفعل ما تؤمر يعذبك ربك فاصنع لنا طعاما واجعل لنا عليه رجل شاة واملأ لنا عسا من لبن ثم اجمع لى بنى عبد المطلب حتى ابلغهم ما أمرت به ففعلت ما أمرنى به ثم دعوتهم له وكانوا يومئذ نحوا أربعين رجلا يزيدون رجلا او ينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فلما اجتمعوا دعانى بالطعام الذى صنعت فجئت به فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم جذبة من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها فى نواحى الصحفة ثم قال خذوا باسم الله فأكل القوم حتى ما لهم بشئ من حاجة وايم الله ان كان الرجل الواحد ليأكل مثل ما قدمت لجميعهم ثم قال اسق القوم فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا جميعا وايم الله ان كان الرجل الواحد ليشرب مثله فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يكلمهم بدره ابو لهب فقال سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الغد يا على فان هذا الرجل قد سبقنى الى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل ان اكلمهم فاعدد لنا من الطعام مثل ما صنعت ثم اجمعهم ففعلت ثم جمعتهم ثم دعانى بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالامس فأكلوا وشربوا ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا بنى عبد المطلب انى قد جئتكم بخيرى الدنيا والآخرة وقد أمرنى الله عز وجل ان ادعوكم اليه فأيكم يوازرنى على أمرى هذا و يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم فأحجم القوم عنها جميعا وأنا أحدثهم سنا فقلت انا يا رسول الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتى ثم قال هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا فقام القوم يضحكون و يقولون لابى طالب قد أمرك ان تسمع لعلى وتطيعه (ق) عن ابن عباس لما نزلت وأنذر عشيرتك الاقربين صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادى يا بنى فهر يا بنى عدى لبطون من قريش حتى اجتمعوا فجعل الذى لم يستطع ان يخرج يرسل رسولا لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال أرأيتكم لو أخبرتكم ان خيلا بالوادى تريد ان تغير عليكم اكنتم مصدقى قالوا ما جربنا عليك كذبا قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب وفى رواية قد تب وفى رواية للبخارى لما نزل وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه فقالوا من هذا واجتمعوا اليه وذكر نحوه (ق) عن أبى هريرة قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين قال يا معشر قريش او كلمة نحوها اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا يا بنى عبد المطلب لا اغنى عنكم من الله شيئا يا عباس بن عبد المطلب لا اغنى عنك من الله شيئا ويا صفية عمة رسول الله لا اغنى عنك من الله شيئا ويا فاطمة بنت رسول الله سلينى ما شئت من مالى لا أغنى عنك من الله شيئا (م) عن قبيصة بن مخارق وزهير بن عمرو قالا لما نزلت وأنذر عشيرتك الاقربين انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم الى رضمة جبل فعلا أعلاها حجرا ثم نادى يا بنى عبد مناف انى نذير لكم انما مثلى ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشى ان يسبقوه فجعل يهتف يا صباحاه ومعنى الآية ان الانسان اذا بدأ بنفسه اولا وبالاقرب فالاقرب من اهله

انا نبا

(وما كنا ظالمين) لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم
فنهلك قوما غير ظالمين ولما قال المشركون ان
الشياطين تلقى القرآن على محمد انزل (وما تنزلت
به) أى القرآن (الشياطين وما ينبغى لهم وما
يستطيعون) وما يتسهل لهم ولا يقدرون عليه
(انهم عن السمع لمعزولون) لممنوعون بالشهب
(فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين)
مورد النهى لغيره على التعريض والتحريك له
على زيادة الاخلاص (وانذر عشيرتك الاقربين)
خصهم لنفى التهمة اذ الانسان يساهل قرابته
وليعلموا انه لا يغنى عنهم من الله شيئا وان
النجاة فى اتباعه دون قربه ولما نزلت صعد
الصفا ونادى الاقرب فالاقرب وقال يا بنى عبد
المطلب يا بنى هاشم يا بنى عبد مناف يا عباس عم
النبى يا صفية عمة رسول الله انى لا املك لكم من

الله شيئا (واخفض جناحك) وألن جانبك وتواضع وأصله آن الطائراذا أرادان ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه واذا أرادان ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلا فى التواضع ولين الجانب (لمن اتبعك من المؤمنين) من عشيرتك وغيرهم (فان عصوك فقل انى برئ مما تعملون) يعنى انذر قومك فان اتبعوك وأطاعوك فاخفض جناحك لهم وان عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره (وتوكل على العزيز الرحيم) على الذى يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته يكفك شرمن يعصيك منهم ومن غيرهم والتوكل تفويض الرجل أمره الى من يملك أمره و يقدر على نفعه وضره وقالوا المتوكل من اذا دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله وقال الجنيد رضي الله عنه التوكل ان تقبل بالكلية عما دونه فان حاجتك اليه فى الدارين فتوكل مدنى وشامى عطف على فقل أوفلا تدع (الذى يراك حين تقوم) متهجدا (وتقلبك) أى ويرى تقلبك (فى الساجدين) فى المصلين اتبع كونه رحيما على رسوله ماهو من أسباب الرحمة وهو ذكر ما كان يفعله فى جوف الليل من قيامه

للتهجد وتقلبه فى تصفح أحوال المتهجدين من أصحابه ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون وليعلم انهم كيف يعبدون الله ويعملون لآخرتهم وقيل معناه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة وتقلبه فى الساجدين تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده اذا أمهم وعن مقاتل انه سأل أبا حنيفة هل تجد الصلاة بالجماعة فى القرآن فقال لا يحضرنى فتلا له هذه الآية (انه هو السميع) لما تقوله (العليم) بما تنويه وتعمله هون عليه معاناة مشاق العبادات حيث اخبر برؤيته له اذ لا مشقة على من يعلم انه يعمل بمرأى مولاه وهو كقوله بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى ونزل جوابا لقول المشركين ان الشياطين تلقى السمع على محمد صلى الله عليه وسلم (هل أنبئكم) أى هل اخبركم أيها المشركون (على من تنزل الشياطين) ثم نبأ فقال (تنزل على كل أفاك أثيم) مرتكب للآثام وهم الكهنة والمتنبئة كسطيح وطليحة ومسيلمة ومحمد صلى الله عليه وسلم يشتم الافاكين ويذمهم فكيف تنزل الشياطين عليه (يلقون السمع) هم الشياطين كانوا قبل ان يحجبوا بالرجم يستمعون الى الملأ الاعلى فيحفظون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ثم يوحون به الى أوليائهم و يلقون حال اى تنزل ملقين السمع او صفة لكل أفاك لانه فى معنى الجمع فيكون فى محل الجر او استئناف فلا يكون

٨٩ ث

له محل كانه قيل لم تنزل على الافاكين فقيل يفعلون كيت وكيت (واكثرهم كاذبون) فيما يوحون به اليهم لانهم يسمعونهم مالم يسمعوا وقيل يلقون الى أوليائهم السمع اى المسموع من الملائكة وقيل الافاكون يلقون السمع الى الشياطين ويتلقون وحيهم اليهم او يلقون المسموع من الشياطين الى الناس واكثر الافاكين كاذبون يفترون على الشياطين مالم يوحوا اليهم والافاك الذى يكثر الافك ولا يدل ذلك على انهم لا ينطقون الا بالافك فأراد ان هؤلاء الافاكين قل من يصدق منهم فيما يحكى عن الجنى واكثرهم مفتر عليه وعن الحسن وكلهم وانما فرق بين وانه لتنزيل رب العالمين وما تنزلت به الشياطين هل انبئكم على من تنزل الشياطين وهن أخوات لانه اذا فرق بينهن بآيات ليست منهن ثم رجع اليهن مرة بعد مرة دل ذلك على شدة العناية بهن كما اذا حدثت حديثا وفى صدرك اهتمام بشئ فتعيد ذكره ولا تنفك عن الرجوع اليه ونزل فيمن كان يقول الشعر ويقول نحن نقول كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم واتبعهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم (والشعراء) مبتدأ خبره (يتبعهم الغاوون) أى لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وتمزيق الاعراض والقدح فى الانساب ومدح من لا يستحق المدح ولا يستحسن ذلك منهم الا الغاوون اى السفهاء او الراوون او الشياطين او المشركون قال الزجاج اذا مدح او هجا شاعر بما لا يكون واحب ذلك قوم وتابعوه فهم الغاوون يتبعهم نافع

ثانيا لم يكن لاحد عليه طعن البتة وكان قوله انفع وكلامه انجع (واخفض) أى ألن (جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) فان قلت مامعنى التبعيض فى قوله من المؤمنين قلت لمن اتبعك من المؤمنين المصدقين بقلوبهم وألسنتهم دون المؤمنين بألسنتهم وهم المنافقون (فان عصوك) أى فيما أمرتهم به (فقل انى برئ مما تعملون) أى من الكفر والمخالفة (وتوكل على العزيز الرحيم) التوكل عبارة عن تفويض الرجل أمره الى من يملك أمره و يقدر على نفعه وضره وهو الله تعالى العزيز الذى يقهر أعداءك بعزته الرحيم الذى ينصرك عليهم برحمته (الذى يراك حين تقوم) الى صلاتك وقيل يراك أينما كنت وقيل يراك حين تقوم لدعائك (وتقلبك فى الساجدين) قال ابن عباس ويرى تقلبك فى صلاتك فى حال قيامك وركوعك وسجودك وقعودك وقيل مع المصلين فى الجماعة يقول يراك اذا صليت وحدك ومع الجماعة معناه يرى تقلب بصرك فى المصلين فانه كان صلى الله عليه وسلم يبصر من خلفه كما يبصر من قدامه عن ابى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال هل ترون قبلتى ههنا فوالله ما يخفى على خشوعكم ولا ركوعكم انى لاراكم من وراء ظهرى وقيل معناه يرى تصرفك وذهابك ومجيئك فى أصحابك المؤمنين وقيل تصرفك فى احوالك كما كانت الانبياء من قبلك وقال ابن عباس أراد وتقلبك فى اصلاب الانبياء من نبى الى نبى حتى أخرجك فى هذه الامة (انه هو السميع) أى لقولك ودعائك (العليم) أى بنيتك وعملك قل يا محمد (هل أنبئكم) اى اخبركم (على من تنزل الشياطين) هذا جواب لقولهم ينزل عليه شيطان ثم بين على من تنزل الشياطين فقال تعالى (تنزل على كل افاك) أى كذاب (أثيم) اى فاجر وهم الكهنة وذلك ان الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يلقون ذلك الى اوليائهم من الانس وهو قوله (يلقون السمع) اى ما يسمعون من الملائكة فيلقونه الى الكهنة (وأكثرهم كاذبون) لانهم يخلطون به كذبا كثيرا (والشعراء يتبعهم الغاوون) قال اهل التفسير أراد شعراء الكفار الذين كانوا يهجون النبى صلى الله عليه وسلم منهم عبد الله بن الزبعرى السهمى وهبيرة بن أبى وهب المخزومى ومسافع ابن عبد مناف وابو عمرو بن عبد الله الجمحى وامية بن ابى الصلت الثقفى تكلموا بالكذب والباطل وقالوا نحن نقول مثل ما يقول محمد وقالوا الشعر واجتمع اليهم غواة قومهم يسمعون اشعارهم حين يهجون محمدا صلى الله عليه وسلم واصحابه وكانوا يروون عنهم قولهم فذلك قوله يتبعهم الغاوون فهم الرواة الذين يروون هجاء المسلمين وقيل الغاوون هم الشياطين وقيل هم السفهاء الضالون وفى رواية ان رجلين أحدهما من الانصار تهاجيا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع كل واحد غواة من قومه وهم السفهاء

فنزلت هذه الآية (ألم تر أنهم في كل واد) من أودية الكلام (يهيمون) يعني حائرين وعن طريق الحق حائدين والهائم الذاهب على وجهه لا مقصد له وقال ابن عباس في كل لغو يخوضون وقيل يمدحون بالباطل ويهجون بالباطل وقيل انهم يمدحون الشئ ثم يذمونه لا يطلبون الحق والصدق فالوادي مثل لفنون الكلام والغوص في المعاني والقوافي (وانهم يقولون ما لا يفعلون) اى انهم يكذبون في شعرهم وقيل انهم يمدحون الجود والكرم ويحثون عليه وهم لا يفعلونه ويذمون البخل ويصرون عليه ويهجون الناس بأدنى شئ صدر منهم (ق) عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لان يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من ان يمتلئ شعرا ثم استثنى شعراء المسلمين الذين كانوا يجيبون شعر الكفار ويهجون وينافحون عن محمد صلى الله عليه وسلم واصحابه منهم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك فقال تعالى (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) روى ان كعب بن مالك قال للنبي صلى الله عليه وسلم ان الله أنزل في الشعر ما أنزل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما ترمونهم به نضح النبل عن أنس بن مالك ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول

خلوا بني الكفار عن سبيله * اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله * ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر يا ابن رواحة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حرم الله تقول الشعر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خل عنه يا عمر فلهي اسرع فيهم من نضح النبل أخرجه الترمذي والنسائي وقال الترمذي وقد روي في غير هذا الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وكعب بن مالك بين يديه وهذا اصح عند بعض اهل الحديث لان عبد الله بن رواحة قتل يوم مؤتة وكانت عمرة القضاء بعد ذلك قلت الصحيح هو الاول لان عمرة القضاء كانت سنة سبع ويوم مؤتة سنة ثمان والله أعلم (ق) عن البراء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم قريظة لحسان اهج المشركين فان جبريل معك (خ) عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبرا في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وينافح ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يؤيد حسانا بروح القدس ما نافح او فاخر عن رسول الله (م) عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اهجوا قريشا فانه أشد عليها من رشق النبل فأرسل ابن رواحة فقال اهجهم فهجاهم فلم يرض وارسل كعب ابن مالك ثم أرسل الى حسان بن ثابت فلما دخل عليه حسان قال قد آن لكم ان ترسلوا الى هذا الاسد الضارب بذنبه ثم ادلع لسانه فجعل يحركه فقال والذي بعثك بالحق لافرينهم بلساني فري الاديم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تعجل فان ابا بكر اعلم قريش بأنسابها وان لي فيهم نسبا حتى يخلص لك نسبي فأتاه حسان ثم رجع فقال والذي بعثك بالحق نبيا لاسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين قالت عائشة فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان ان الله يؤيدك بروح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله قالت وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هجاهم حسان فشفى واشتفى فقال حسان

هجوت محمدا فأجبت عنه * وعند الله في ذاك الجزاء

هجوت محمدا برا تقيا * رسول الله شيمته الوفاء

فان أبي ووالدتي وعرضي * لعرض محمد منكم وقاء

ثكلت بنيتي ان لم تروها * تثير النقع من طرفي كداء

يبارين الاعنة مصعدات * على أكتافها الاسد الظماء

تظل جيادنا متمطرات * تلطمهن بالخمر النساء

فان أعرضتم عنا اعتمرنا * وكان الفتح وانكشف الغطاء

(ألم تر أنهم في كل واد) من الكلام (يهيمون) خبر ان أي في كل فن من الكذب يتحدثون او في كل لغو وباطل يخوضون والهائم الذاهب على وجهه لا مقصد له وهو تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم حتى يفضلوا اجبن الناس على عنترة وأشحهم على حاتم من الفرزدق ان سليمان بن عبد الملك سمع قوله فبتن بجانبي مصرعات * وبت أفض اغلاق الختام فقال قد وجب عليك الحد فقال قد درأ الله عني الحد بقوله (وانهم يقولون ما لا يفعلون) حيث وصفهم بالكذب والخلف في الوعد ثم استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين بقوله (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) كعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير رضي الله عنهم

والا فاصبروا لضراب يوم * يعز الله فيه من يشاء
وقال الله قد أرسلت عبدا * يقول الحق ليس به خفاء
وقال الله قد سيرت جندا * هم الانصار عرضتها اللقاء
تلاقي كل يوم من معد * سباب أو قتال أو هجاء
فمن يهجو رسول الله منكم * ويمدحه وينصره سواء
وجبريل رسول الله فينا * وروح القدس ليس له كفاء

*(فصل في مدح الشعر) (خ) عن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان من الشعر لحكمة عن ابن عباس قال جاء اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يتكلم بكلام فقال ان من البيان سحرا وان من الشعر حكما أخرجه أبو داود (م) عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال ردفت وراء النبي صلى الله عليه وسلم يوما فقال هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء قلت نعم قال هيه فأنشدته بيتا فقال هيه ثم أنشدته بيتا قال هيه حتى أنشدته مائة بيت زاد في رواية لقد كاد يسلم في شعره عن جابر بن سمرة قال جالست النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت وربما تبسم معهم أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وقالت عائشة الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح فخذ منه الحسن ودع منه القبيح وقال الشعبي كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان علي أشعر منهما وروي عن ابن عباس انه كان ينشد الشعر ويستنشده في المسجد فيروى انه دعا عمر بن ربيعة المخزومي فاستنشده القصيدة التي قالها فقال

امن آل نعمى أنت غاد فمبكر * غداة غد أم رائح فمهجر

فأنشده القصيدة الى آخرها وهي قريب من تسعين بيتا ثم ان ابن عباس أعاد القصيدة جميعها وكان حفظها بمرة واحدة قوله تعالى (وذكروا الله كثيرا) أي لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله (وانتصروا من بعد ما ظلموا) أي انتصروا من المشركين لانهم بدؤا بالهجاء ثم اوعد شعراء المشركين فقال تعالى (وسيعلم الذين ظلموا) أي أشركوا وهجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الطاهر المطهر من الهجاء (أي منقلب ينقلبون) أي أي مرجع يرجعون اليه بعد الموت قال ابن عباس الى جهنم وبئس المصير والله أعلم بمراده

(تفسير سورة النمل وهي مكية)

ومائتان وثلاثون وست آيات وألف وثلاثمائة وسبع عشرة كلمة وأربعة آلاف وسبعمائة وتسعة وتسعون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (طس تلك آيات القرآن) اى هذه آيات القرآن (وكتاب مبين) اي وآيات كتاب مبين (هدى وبشرى للمؤمنين) اى هو هدى من الضلالة وبشرى لهم بالجنة (الذين يقيمون الصلاة) اى الخمس بشرائطها (ويؤتون الزكاة) اى اذا وجبت عليهم طيبة بها أنفسهم (وهم بالآخرة هم يوقنون) يعني ان هؤلاء الذين يعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة

(وذكروا الله كثيرا) اى كان ذكر الله وتلاوة القرآن أغلب عليهم من الشعر واذا قالوا شعرا قالوه في توحيد الله تعالى والثناء عليه والحكمة والموعظة والزهد والادب ومدح رسول الله والصحابة وصلحاء الامة ونحو ذلك مما ليس فيه ذنب وقال ابو يزيد الذكر الكثير ليس بالعدد والغفلة لكنه بالحضور (وانتصروا) وهجوا (من بعد ما ظلموا) هجوا أي ردوا هجاء من هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين وأحق الخلق بالهجاء من كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهجاه وعن كعب بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اهجهم فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل وكان يقول لحسان قل وروح القدس معك وختم السورة بما يقطع أكباد المتدبرين وهو قوله (وسيعلم) وما فيه من الوعيد البليغ وقوله (الذين ظلموا) واطلاقه وقوله (أي منقلب ينقلبون) وابهامه وقد تلاها ابو بكر لعمر رضي الله تعالى عنه حين عهد اليه وكان السلف يتواعظون بها قال ابن عطاء سيعلم المعرض عما الذي فاته منا وأي منصوب بينقلبون على المصدر لا بيعلم لان أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها اى ينقلبون أي الانقلاب

(سورة النمل مكية وهي ثلاث وتسعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين) أي وآيات كتاب مبين وتلك اشارة الى آيات السورة والكتاب المبين اللوح وآياته انه قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبين للناظرين فيه آياته او القرآن وآياته انه يبين ما اودع فيه من العلوم والحكم وعلى هذا عطفه على القرآن كعطف احدى الصفتين على الاخرى نحو هذا فعل السخي والجواد ونكر الكتاب ليكون افخم له وقيل انما نكر الكتاب هنا وعرفه في الحجر وعرف القرآن هنا ونكره ثم لان القرآن والكتاب اسمان علمان للمنزل على محمد عليه الصلاة والسلام ووصفان له لانه يقرأ ويكتب فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف (هدى وبشرى) في محل النصب على الحال من آيات أي هداية وبشارة فالعامل فيهما ما في تلك من معنى الاشارة والجر على انه بدل من كتاب او صفة له او الرفع على هي هدى وبشرى او على البدل من آيات او على ان يكون خبرا بعد خبر لتلك أي تلك آيات وهادية من الضلالة ومبشرة بالجنة وقيل هدى لجميع الخلق وبشرى (للمؤمنين) خاصة (الذين يقيمون الصلاة) يديمون على فرائضها وسننها (ويؤتون الزكاة) يؤدون زكاة اموالهم (وهم بالآخرة هم يوقنون) من جملة صلة الموصول ويحتمل ان تتم الصلة عنده وهو استئناف كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة ويدل عليه انه عقد جملة اسمية وكرر فيها المبتدأ الذي هو هم حتى صار معناها وما يوقن بالآخرة حق الايقان الا هؤلاء الجامعون بين الايمان والعمل الصالح لان خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة

زينا لهم اعمالهم) بخلق الشهوة حتى رأوا ذلك حسنا كما قال افمن زين له سوء عمله فرآه حسنا (فهم يعمهون) يترددون في ضلالتهم كما يكون حال الضال عن الطريق (أولئك الذين لهم سوء العذاب) القتل والاسر يوم بدر بما كان منهم من سوء الاعمال (وهم في الآخرة هم الاخسرون) اشد الناس خسرانا لانهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الامم فخسروا ذلك مع خسران النجاة وثواب الله (وانك لتلقى القرآن) لتؤتاه وتلقنه (من لدن حكيم عليم) من عند أي حكيم وأي عليم وهذا معنى تنكيرهما وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد ان يسوق بعدها من الاقاصيص وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه (اذ) منصوب باذكر كانه قال على اثر ذلك خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى عليه السلام (قال موسى لاهله) لزوجته ومن معه عند مسيره من مدين الى مصر امكثوا (انى آنست) ابصرت (نارا سآتيكم منها بخبر) عن

حال الطريق لانه كان قد ضله (او آتيكم بشهاب) بالتنوين كوفي اي شعلة مضيئة (قبس) نار مقبوسة بدل او صفة وغيرهم بشهاب قبس على الاضافة لانه يكون قبسا وغير قبس ولا تدافع بين قوله سآتيكم هنا ولعلي آتيكم في القصص مع ان أحدهما ترج والآخر تيقن لان الراجي اذا قوي رجاؤه يقول سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة ومجيئه بسين التسويف عدة لاهله انه يأتيهم به وان ابطأ او كانت المسافة بعيدة وبأو لانه بنى الرجاء على انه ان لم يظفر بحاجتيه جميعا لم يعدم واحدة منهما اما هداية الطريق واما اقتباس النار ولم يدر انه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين وهما عز الدنيا والآخرة واختلاف الالفاظ في هاتين السورتين والقصة واحدة دليل على جواز نقل الحديث بالمعنى وجواز النكاح بغير لفظ التزويج (لعلكم تصطلون) تستدفئون بالنار من البرد الذي أصابكم والطاء بدل من تاء افتعل لاجل الصاد (فلما جاءها) أي النار التي ابصرها (نودي) موسى (ان بورك) مخففة من الثقيلة وتقديره نودي بانه بورك والضمير ضمير الشأن وجاز ذلك من غير عوض وان منعه الزمخشري لان قوله بورك دعاء والدعاء يخالف غيره في أحكام كثيرة او مفسرة لان في النداء معنى القول اي قيل له بورك أي قدس او جعل فيه البركة والخير (من في النار ومن حولها) أي بورك من في مكان النار وهم الملائكة ومن حول مكانها أي موسى لحدوث امر ديني فيها وهو تكليم الله موسى واستنباؤه له واظهار المعجزات عليه (وسبحان الله رب العالمين) هو من جملة ما نودي فقد نزه ذاته عما لا يليق به من التشبيه وغيره (يا موسى انه انا الله العزيز الحكيم) الضمير في انه للشأن والشأن انا الله مبتدأ وخبر والعزيز الحكيم صفتان للخبر او يرجع الى ما دل عليه ما قبله أي ان مكلمك انا والله بيان لانا والعزيز الحكيم صفتان للمبين وهو تمهيد لما اراد ان يظهر على يده من المعجزات (والق عصاك) لتعلم معجزاتك فتأنس بها او هو عطف على بورك لان المعنى نودي ان بورك من في النار وان الق عصاك كلاهما تفسير لنودي والمعنى قيل له بورك من في النار وقيل له الق عصاك ويدل عليه ما ذكر في سورة القصص وان الق عصاك بعد قوله ان يا موسى اني انا الله على تكرير حرف التفسير (فلما رآها تهتز) تتحرك حال من الهاء في رآها (كأنها جان) حية صغيرة حال من الضمير في تهتز (ولى) موسى (مدبرا) ادبر عنها او جعلها تلي ظهره خوفا من وثوب الحية عليه (ولم يعقب) ولم يلتفت او لم يرجع يقال قد عقب فلان اذا رجع يقاتل بعد ان ولى فنودي (يا موسى لا تخف اني لا يخاف

(زين لهم أعمالهم) اي القبيحة حتى رأوها حسنة وقيل ان التزيين هو ان يخلق الله العلم في القلب بما فيه المنافع واللذات ولا يخلق العلم بما فيه المضار والآفات (فهم يعمهون) اي يترددون فيها متحيرين (أولئك الذين لهم سوء العذاب) اي اشده وهو القتل والاسر (وهم في الآخرة هم الاخسرون) اي انهم خسروا انفسهم واهليهم وساروا الى النار قوله تعالى (وانك لتلقى القرآن) اي تؤتاه وتلقنه وحيا (من لدن حكيم عليم) اي حكيم عليم بما أنزل اليك فان قلت ما الفرق بين الحكمة والعلم قلت الحكمة هي العلم بالامور العلمية فقط والعلم اعم منه لان العلم قد يكون عمليا وقد يكون نظريا والعلوم النظرية اشرف (اذ قال) اي واذكر يا محمد اذ قال (موسى لاهله) اي في مسيره باهله من مدين الى مصر (انى آنست) اي ابصرت (نارا سآتيكم منها بخبر) اي امكثوا مكانكم سآتيكم بخبر عن الطريق وقد كان ضل عن الطريق (أو آتيكم بشهاب قبس) الشهاب شعلة النار والقبس النار المقبوسة منها وقيل القبس هو العود الذي في احد طرفيه نار (لعلكم تصطلون) اي تستدفئون من البرد وكان في شدة الشتاء (فلما جاءها نودي ان بورك من في النار) اي بورك على من في النار وقيل البركة راجعة الى موسى والملائكة والمعنى من في طلب النار وهو موسى (ومن حولها) وهم الملائكة الذين حول النار وهذه تحية من الله عز وجل لموسى بالبركة وقيل المراد من النار النور ذكر بلفظ النار لان موسى حسبه نارا ومن في النار هم الملائكة وذلك ان النور الذي رآه موسى كان فيه ملائكة لهم زجل بالتسبيح والتقديس ومن حولها موسى لانه كان بالقرب منها وقيل البركة راجعة الى النار قال ابن عباس معناه بوركت النار والمعنى بورك من في النار ومن حولها وهم الملائكة وموسى وروي عن ابن عباس في قوله بورك من في النار يعني قدس من في النار وهو الله تعالى عنى به نفسه على معنى انه نادى موسى واسمعه من جهتها كما روي انه مكتوب في التوراة جاء الله من سيناء واشرف من ساعير واستعلى من جبال فاران ومعنى مجيئه من سيناء بعثة موسى منه ومن ساعير بعثة المسيح ومن جبال فاران بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وفاران اسم مكة وقيل كانت النار بعينها وهي احدى حجب الله عز وجل كما صح في الحديث حجابه النار لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه ثم نزه الله سبحانه وتعالى نفسه وهو المنزه من كل سوء وعيب فقال تعالى (وسبحان الله رب العالمين) ثم تعرف الى موسى بصفاته فقال الله (يا موسى انه أنا الله العزيز الحكيم) قيل معناه ان موسى قال من المنادي قال انه أنا الله وهذا تمهيد لما اراد الله ان يظهره على يده من المعجزات والمعنى أنا القوي القادر على ما يبعد من الاوهام كقلب العصا حية وهو قوله (وألق عصاك) تقديره فالقاها فصارت حية (فلما رآها تهتز) اي تتحرك (كأنها جان) وهي الحية الصغيرة التي يكثر اضطرابها (ولى مدبرا) اي هرب من الخوف (ولم يعقب) اي لم يرجع ولم يلتفت قال الله تعالى (يا موسى لا تخف اني لا يخاف

لدى المرسلون) أي لا يخاف عندي المرسلون حال خطابي اياهم او لا يخاف لدى المرسلون من غيري (الا من ظلم) أي لكن من ظلم من غيرهم لان الانبياء لا يظلمون او لكن من ظلم منهم من زل من المرسلين فجاء غير ما اذنت له مما يجوز على الانبياء كما فرط من آدم ويونس وداود وسليمان عليهم السلام (ثم بدل حسنا) اى اتبع توبة (بعد سوء) زلة (فانى غفور رحيم) اقبل توبته واغفر زلته وارحمه فاحقق امنيته وكانه تعريض بما قال موسى حين قتل القبطي رب انى ظلمت نفسي فاغفرلي فغفر له (وادخل يدك فى جيبك) جيب قميصك واخرجها (تخرج بيضاء) نيرة تغلب نور الشمس (من غير سوء) برص وبيضاء ومن غير سوء حال ان (فى تسع آيات) كلام مستأنف وفي يتعلق بمحذوف أي اذهب في تسع آيات او والق عصاك وادخل يدك في جملة تسع آيات (الى فرعون وقومه) الى يتعلق بمحذوف اى مرسلا الى فرعون وقومه (انهم كانوا قوما فاسقين) خارجين عن امر الله كافرين (فلما جاءتهم آياتنا) أي معجزاتنا (مبصرة) حال أي ظاهرة بينة جعل الابصار لها وهو في الحقيقة لمتأمليها للابستهم اياها بالنظر والتفكر فيها او جعلت كانها تبصر فتهدي لان الاعمى لا يقدر على الاهتداء فضلا ان يهدي غيره ومنه قولهم كلمة عيناء وعوراء لان الكلمة الحسنة ترشد والسيئة تغوي (قالوا هذا سحر مبين) ظاهر لمن تأمله وقد قوبل بين المبصرة والمبين (وجحدوا بها) قيل الجحود لا يكون الا من علم من الجاحد وهذا ليس بصحيح لان الجحود هو الانكار وقد يكون الانكار للشيء للجهل به وقد يكون بعد المعرفة تعنتا كذا ذكر في شرح التأويلات وذكر في الديوان يقال جحد حقه وبحقه بمعنى والواو في (واستيقنتها) للحال وقد بعدها مضمرة والاستيقان ابلغ من الايقان (انفسهم) أي جحدوها بالسنتهم واستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم (ظلما) حال من الضمير في جحدوا أي ظلم افحش من ظلم من استيقن انها آيات من عند الله ثم سماها سحرا بينا (وعلوا) ترفعا عن الايمان بما جاء به موسى (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) وهو الاغراق هنا والاحراق ثمة (ولقد آتينا) اعطينا (داود وسليمان علما) طائفة او علما سنيا عزيزا والمراد علم الدين والحكم (وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) والآيات حجة لنا على المعتزلة في ترك الاصلح وهنا محذوف ليصح عطف الواو عليه ولولا تقدير المحذوف لكان الوجه الفاء كقولك اعطيته فشكر وتقديره

لدى المرسلون) يريد اذا أمنتهم لا يخافون اما الخوف الذي هو شرط الايمان فلا يفارقهم قال النبي صلى الله عليه وسلم أنا اخشاكم لله (الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم) قيل هو ما يصدر من الانبياء من ترك الافضل والصغيرة وقيل يحتمل ان يكون المراد منه التعريض بما وجد من موسى من قتل القبطي وهو من التعريضات اللطيفة وسماه ظلما لقول موسى انى ظلمت نفسي ثم انه خاف من ذلك فتاب قال رب انى ظلمت نفسي فاغفرلي فغفر له قال ابن جريج قال الله تعالى لموسى انما اخفتك لقتلك النفس ومعنى الآية لا يخيف الله الانبياء الا بذنب يصيبه أحدهم فان أصابه أخافه حتى يتوب فعلى هذا التأويل يكون صحيحا وتناهى الخبر عن الرسل عند قوله الا من ظلم ثم ابتدأ الخبر عن حالة من ظلم من الناس كافة وفي الآية متروك استغنى عن ذكره لدلالة الكلام عليه تقديره الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم وقيل ليس هذا الاستثناء من المرسلين لانه لا يجوز عليهم الظلم بل هو استثناء من المتروك ومعناه لا يخاف لدى المرسلون انما الخوف عليهم من الظالمين وهذا الاستثناء المنقطع معناه لكن من ظلم من سائر الناس فانه يخاف فان تاب وبدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم أي اغفر له وأزيل خوفه وقيل الا هنا بمعنى ولا معناه ولا يخاف لدى المرسلون ولا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء يعني تاب من ظلمه فانى غفور رحيم ثم ان الله تعالى أراه آية أخرى فقال تعالى (وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء) قيل كانت عليه مدرعة صوف لا كم لها ولا ازرار فأدخل يده في جيبها وأخرجها فاذا هي تبرق مثل شعاع الشمس أو البرق (من غير سوء) أي من غير برص (فى تسع آيات) أي آية مع تسع آيات أنت مرسل بهن فعلى هذا تكون الآيات احدى عشرة العصا واليد البيضاء والفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس والجدب في بواديهم والنقصان في مزارعهم وقيل في بمعنى من أي من تسع آيات فتكون اليد البيضاء من التسع (الى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فاسقين) أي خارجين عن الطاعة (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) أي بينة واضحة يبصرونها (قالوا هذا) أي الذي نراه (سحر مبين) أي ظاهر (وجحدوا بها) أي أنكروا الآيات ولم يقروا انها من عند الله (واستيقنتها أنفسهم) أي علموا انها من عند الله والمعنى انهم جحدوا بها بالسنتهم واستيقنوها بقلوبهم وضمائرهم (ظلما وعلوا) أي شركا وتكبرا عن ان يؤمنوا بما جاء به موسى (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) يعني الغرق قوله تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما) اى علم القضاء والسياسة وعلم داود تسبيح الطير والجبال وعلم سليمان منطق الطير والدواب (وقالا الحمد لله الذى فضلنا) أي بالنبوة والكتاب والملك وتسخير الجن والانس (على كثير من عباده المؤمنين) أراد بالكثير الذين فضلا عليهم من لم يؤت علما أو لم يؤت مثل علمهما وفيه انهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير وقيل انهما لم يفضلا أنفسهما على الكل وذلك يدل على حسن التواضع قوله تعالى (وورث سليمان داود) يعني نبوته وعلمه وملكه دون سائر أولاده وكان لداود تسعة عشر ابنا وأعطى سليمان ما أعطى داود وزيد له تسخير الريح والجن والشياطين قال مقاتل كان سليمان أعظم ملكا من داود واقضى منه وكان داود اشد تعبدا من سليمان وكان سليمان شاكرا لنعم الله تعالى (وقال)

٩٠ ش آتيناهما علما نعملا به وعلماء وعرفا حق النعمة فيه وقالا الحمد لله الذى فضلنا والكثير المفضل عليه من لم يؤت علما ومن لم يؤت مثل علمهما وفيه انهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير وفي الآية دليل على شرف العلم وتقدم حملته واهله وان نعمة العلم من اجل النعم وان من أوتيه فقد أوتي فضلا على كثير من عباده وما سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثة الانبياء الا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة لانهم القوام بما بعثوا من اجله وفيها انه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة ان يحمدوا الله على ما اوتوه وان يعتقد العالم انه ان فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم وما احسن قول عمر رضي الله عنه كل الناس افقه من عمر رضي الله عنه (وورث سليمان داود) ورث منه النبوة والملك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر قالوا أوتي النبوة مثل أبيه فكانه ورثه والا فالنبوة لا تورث (وقال

يعني سليمان (يا أيها الناس علمنا منطق الطير) سمى صوت الطير منطقا لحصول الفهم منه وروى عن كعب الاحبار قال صاح ورشان عند سليمان فقال اتدرون ما يقول هذا قالوا لا قال انه يقول لدوا للموت وابنوا للخراب وصاحت فاختة فقال اتدرون ما تقول قالوا لا قال انها تقول ليت الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال اتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال اتدرون ما يقول هذا قالوا لا قال انه يقول من لا يرحم لا يرحم وصاح صرد فقال اتدرون ما يقول هذا قالوا لا قال انه يقول استغفروا ربكم يا مذنبين وصاحت طيطوى فقال اتدرون ما تقول قالوا لا قال فانها تقول كل حى ميت وكل جديد بال وصاح خطاف فقال أتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول قدموا خيرا تجدوه وهدرت حمامة قال اتدرون ما تقول قالوا لا قال انها تقول سبحان ربى الاعلى ملء سمائه وارضه وصاح قمرى قال اتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول سبحان ربى الدائم قال والغراب يدعو على العشار والحدأة تقول كل شئ هالك الا وجهه والقطاة تقول من سكت سلم والببغا تقول ويل لمن كانت الدنيا همه والضفدع تقول سبحان ربى القدوس والبازى يقول سبحان ربى وبحمده والضفدعة تقول سبحان المذكور بكل لسان وعن مكحول قال صاح دراج عند سليمان فقال اتدرون ما يقول قالوا لا قال انه يقول الرحمن على العرش استوى وقال فرقد مر سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لاصحابه أتدرون ما يقول هذا البلبل قالوا الله ونبيه اعلم قال انه يقول اكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وروى ان جماعة من اليهود قالوا لابن عباس انا سائلوك عن سبعة اشياء ان اخبرتنا آمنا وصدقنا قال سلوا تفقها لا تعنتا قالوا اخبرنا ما تقول القنبرة فى صفيرها والديك فى صعيقه والضفدع فى نعيقه والحمار فى نهيقه والفرس فى صهيله وماذا يقول الزرزور والدراج قال نعم اما القنبر فانه يقول اللهم العن مبغض محمد وآل محمد والديك يقول اذكروا الله يا غافلين واما الضفدع فانه يقول سبحان الله المعبود فى البحار واما الحمار فانه يقول اللهم العن العشار واما الفرس فانه يقول اذا التقى الجمعان سبوح قدوس رب الملائكة والروح واما الزرزور فانه يقول اللهم انى اسألك قوت يوم بيوم يا رزاق واما الدراج فانه يقول الرحمن على العرش استوى فأسلم هؤلاء اليهود وحسن اسلامهم وروى عن جعفر الصادق عن ابيه عن جده الحسين بن على ابن ابى طالب رضى الله عنهم قال اذا صاح النسر قال يا ابن آدم عش ما شئت آخره الموت واذا صاح العقاب قال البعد من الناس انس واذا صاح القنبر قال الهى العن مبغض محمد وآل محمد واذا صاح الخطاف قال الحمد لله رب العالمين وعدد العالمين كما عد القارئ وقوله تعالى (وأوتينا من كل شئ) اى مما أوتى الانبياء والملوك قال ابن عباس من امر الدنيا والآخرة وقيل النبوة والملك وتسخير الرياح والجن والشياطين (ان هذا لهو الفضل المبين) اى الزيادة الظاهرة على ما أعطى غيرنا وروى ان سليمان اعطى مشارق الارض ومغاربها فملك ذلك اربعين سنة يملك جميع الدنيا من الجن والانس والشياطين والطير والدواب والسباع واعطى مع هذا منطق الطير ومنطق كل شئ وفى زمنه صنعت الصنائع العجيبة (وحشر) اى جمع (لسليمان جنوده من الجن والانس والطير) من الاماكن المختلفة فى مسيرله (فهم يوزعون) اى يحبسون حتى يرد أولهم على آخرهم قيل كان على جنوده وزعة من النقباء ترد أولها على آخرها لئلا يتقدموا فى المسير قال محمد بن كعب القرظى كان معسكر سليمان مائة فرسخ خمسة وعشرون منها للانس وخمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للوحش وخمسة وعشرون للطير والفرسخ اثنا عشر ألف خطوة فالبريد ثمانية واربعون ألف خطوة لانه اربع فراسخ فجملة ذلك خمسة وعشرون بريدا وقيل نسجت الجن له بساطا من ذهب وحرير فرسخا فى فرسخ وكان يوضع كرسيه فى وسطه فيقعد وحوله

يا أيها الناس علمنا منطق الطير) تشهير النعمة الله تعالى واعترافا بمكانها ودعاء للناس الى التصديق بذكر المعجزة التى هى علم منطق الطير والمنطق كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد وكان سليمان عليه السلام يفهم منها كما يفهم بعضها من بعض روى أنه صاحت فاختة فأخبر انها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال يقول استغفروا الله يا مذنبين وصاح خطاف فقال يقول قدموا خيرا تجدوه وصاحت رخمة فقال تقول سبحان ربى الاعلى ملء سمائه وارضه وصاح قمرى فأخبر انه يقول سبحان ربى الاعلى وقال الحدأة تقول كل شئ هالك الا الله والقطاة تقول من سكت سلم والديك يقول اذكروا الله يا غافلين والنسر يقول يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت والعقاب يقول فى البعد من الناس انس والضفدع يقول سبحان ربى القدوس (وأوتينا من كل شئ) المراد به كثرة ما أوتى كما تقول فلان يعلم كل شئ ومثله وأوتيت من كل شئ (ان هذا لهو الفضل المبين) قوله وارد على سبيل الشكر كقوله انا سيد ولد آدم ولا فخر أى اقول هذا القول شكرا ولا اقوله فخرا والنون فى علمنا وأوتينا نون الواحد المطاع وكان ملكا مطاعا فكلم أهل طاعته على الحال التى كان عليها وليس التكبر من لوازم ذلك (وحشر) وجمع (لسليمان جنوده من الجن والانس والطير) روى ان معسكره كان مائة فرسخ فى مائة فرسخ خمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للانس وخمسة وعشرون للطير وخمسة وعشرون للوحش وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة وسبعمائة سرية وقد نسجت له الجن بساطا من ذهب وابريسم فرسخا فى فرسخ وكان يوضع منبره فى وسطه وهو من ذهب وفضة فيقعد وحوله ستمائة ألف كرسى من ذهب وفضة فيقعد الانبياء على كراسى الذهب والعلماء على كراسى الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير باجنحتها حتى لا يقع عليه حر الشمس وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر ويروى انه كان يأمر الريح العاصف تحمله ويأمر الرخاء تسيره فأوحى الله تعالى اليه وهو يسير بين السماء والارض انى قد زدت فى ملكك أن لا يتكلم احد بشئ الا القته الريح فى سمعك فيحكى انه مر بحراث فقال لقد اوتى آل داود ملكا عظيما فالقته الريح فى أذنه فنزل ومشى الى الحراث وقال انى جئت اليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ثم قال لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتى آل داود (فهم يوزعون) يحبس أولهم على آخرهم أى يوقف سلاف العسكر حتى يلحقهم التوالى ليكونوا مجتمعين وذلك للكثرة العظيمة والوزع المنع ومنه قول عثمان رضى الله عنه ما يزع السلطان اكثر مما يزع القرآن

كراسى

كراسي الذهب والفضة فيقعد الانبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة والناس حوله والجن والشياطين حول الناس والوحوش حولهم وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه شمس وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة يعني حرة وسبعمائة سرية فيأمر الريح العاصف فيرفعه ثم يأمر الرخاء فتسير به واوحى الله اليه وهو يسير بين السماء والارض اني قد زدت في ملكك انه لا يتكلم احد من الخلائق بشئ الا جاءت الريح واخبرتك به قوله عز وجل (حتى اذا أتوا على وادي النمل) اي اشرفوا على وادي النمل روي عن كعب الاحبار قال كان سليمان اذا ركب حمل اهله وخدمه وحشمه وقد اتخذ مطابخ ومخابز فيها تنانير الحديد والقدور العظام تسع كل قدر عشرة من الابل فيطبخ الطباخون ويخبز الخبازون وهو بين السماء والارض واتخذ ميادين للدواب فتجري بين يديه والريح تهوي به فسار من اصطخر يريد اليمن فسلك على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال سليمان هذه دار هجرة نبي يكون في آخر الزمان طوبى لمن آمن به وطوبى لمن اتبعه ولما وصل مكة رأى حول البيت اصناما تعبد فجاوزه سليمان فلما جاوزه بكى البيت فأوحى الله اليه ما يبكيك قال يا رب ابكاني هذا نبي من انبيائك ومعه قوم من اوليائك مروا علي ولم يهبطوا ولم يصلوا عندي والاصنام تعبد حولي من دونك فأوحى الله اليه لا تبك فاني سوف املأك وجوها سجدا وأنزل فيك قرآنا جديدا وأبعث منك نبيا في آخر الزمان احب انبيائي الي واجعل فيك عمارا من خلقي يعبدونني وافرض عليهم فريضة يزفون اليك زفيف النسر الى وكرها ويحنون اليك حنين الناقة الى ولدها والحمامة الى بيضها واطهرك من الاوثان والاصنام والشيطان ثم مضى سليمان حتى مر بوادي السدير واد من الطائف فأتى على وادي النمل كذا قال كعب الاحبار وقيل انه بالشام وقيل هو واد يسكنه الجن وذلك النمل مراكبهم وقيل ان ذلك النمل امثال الذباب وقيل كالبخاتي والمشهور انه النمل الصغير (قالت نملة) قيل كانت عرجاء وكانت ذات جناحين وقيل اسمها طاخية وقيل جرمى (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) ولم يقل ادخلن لانه جعل لهم عقولا كالآدميين فخوطبوا خطاب الآدميين وهذا ليس بمستبعد ان يخلق الله فيها عقلا ونطقا فانه قادر على ذلك (لا يحطمنكم) اي لا يكسرنكم (سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) قال اهل التفسير علمت النملة ان سليمان نبي ليس فيه جبروتية ولا ظلم ومعنى الآية انكم لو لم تدخلوا وطؤكم ولم يشعروا بكم فسمع سليمان قولها من ثلاثة اميال وكان لا يتكلم احد بشئ الا حملته الريح حتى تلقيه الى مسامع سليمان فلما بلغ وادي النمل حبس جنوده حتى دخلوا بيوتهم فان قلت كيف يتصور الحطم من سليمان وجنوده وهو فوق البساط على متن الريح قلت كانهم ارادوا النزول عند منقطع الوادي ولذلك قالت نملة لا يحطمنكم سليمان وجنوده لانهم ما دامت الريح تحملهم لا يخاف حطمهم (فتبسم ضاحكا من قولها) قيل اكثر ضحك الانبياء تبسما وقيل معنى ضاحكا متبسما وقيل كان اوله التبسم وآخره الضحك (ق) عن عائشة رضي الله عنها قالت ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم مستجمعا قط ضاحكا حتى أرى منه لهواته انما كان يتبسم عن عبد الله بن الحرث بن جزء قال ما رأيت احدا اكثر تبسما من رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجه الترمذي فان قلت ما كان سبب ضحك سليمان قلت شيئان أحدهما ما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم وذلك قولها وهم لا يشعرون يعني انهم لو شعروا ما يفعلون الثاني سروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحدا من ادراك سمعه ما قالته النملة وقيل ان الانسان اذا رأى او سمع ما لا عهد له به تعجب وضحك ثم ان سليمان حمد ربه على ما أنعم عليه (وقال رب أوزعني) أي ألهمني (أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) أي ادخلني في جملتهم وأثبت اسمي مع اسمائهم واحشرني في زمرتهم قال ابن عباس يريد مع ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ومن بعدهم من

(حتى اذا أتوا على وادي النمل) أي ساروا حتى اذا بلغوا وادي النمل وهو واد بالشام كثير النمل وعدي بعلى لان اتيانهم كان من فوق فأتي بحرف الاستعلاء (قالت نملة) عرجاء تسمى طاخية ومنذرة وعن قتادة انه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال سلوا عما شئتم فسأله أبو حنيفة رضي الله عنه وهو شاب عن نملة سليمان اكانت ذكرا ام انثى فافحم فقال أبو حنيفة رضي الله عنه كانت انثى فقيل له بماذا عرفت فقال بقوله قالت نملة ولو كانت ذكرا لقال قال نملة وذلك ان النملة مثل الحمامة في وقوعها على الذكر والانثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة انثى وهو وهي (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) ولم يقل ادخلن لانه لما جعلها قائلة والنمل مقولا لهم كما يكون في أولي العقل اجرى خطابهن مجرى خطابهم (لا يحطمنكم) لا يكسرنكم والحطم الكسر وهو نهي مستأنف وهو في الظاهر نهي لسليمان عن الحطم وفي الحقيقة نهي لهن عن البروز والوقوف على طريقه لا ارينك ههنا أي لا تحضر هذا الموضع وقيل هو جواب الامر وهو ضعيف يدفعه نون التأكيد لانه من ضرورات الشعر (سليمان وجنوده) قيل أراد لا يحطمنكم جنود سليمان فجاء بما هو ابلغ (وهم لا يشعرون) لا يعلمون بمكانكم أي لو شعروا لم يفعلوا قالت ذلك على وجه العذر واصفة سليمان وجنوده بالعدل فسمع سليمان قولها من ثلاثة اميال (فتبسم ضاحكا من قولها) متعجبا من حذرها واهتدائها لمصالحها ونصيحتها للنمل او فرحا لظهور عدله وضاحكا حال مؤكدة لان تبسم بمعنى ضحك وأكثر ضحك الانبياء التبسم كذا قاله الزجاج (وقال رب اوزعني) الهمني وحقيقته كفني عن الاشياء الا عن شكر نعمتك (ان اشكر نعمتك التي انعمت علي) من النبوة والملك والعلم (وعلى والدي) لان الانعام على الوالدين انعام على الولد (وان اعمل صالحا ترضاه) في بقية عمري (وادخلني برحمتك) وادخلني الجنة برحمتك لا بصالح عملي اذ لا يدخل الجنة احد الا برحمته كما جاء في الحديث (في عبادك الصالحين) اي في زمرة انبيائك المرسلين أو مع عبادك الصالحين روي ان النملة احست بصوت الجنود ولا تعلم انهم

النبيين وقيل ادخلني الجنة مع عبادك الصالحين قوله عز وجل (وتفقد الطير) أي طلبها وبحث عنها والمعنى انه طلب ما فقد من الطير (فقال مالي لا أرى الهدهد) وكان سبب تفقده الهدهد وسؤاله عنه اخلاله بالنوبة وذلك ان سليمان كان اذا نزل منزلا تظله وجنده الطير من الشمس فأصابته الشمس من موضع الهدهد فنظر فرآه خاليا وروى عن ابن عباس انه كان دليله على الماء وكان يعرف موضع الماء ويرى الماء تحت الارض كما يرى في الزجاجة ويعرف قربه من بعده فينقر الارض فتجيء الشياطين فيحفرونه ويستخرجون الماء منه قال سعيد بن جبير لما ذكر ابن عباس هذا قال نافع بن الازرق يا وصاف انظر ما تقول ان الصبي منا يضع الفخ ويحثو عليه التراب فيجيء الهدهد ولا يبصر الفخ حتى يقع في عنقه فقال له ابن عباس ويحك اذا جاء القدر حال دون البصر وفي رواية اذا نزل القضاء والقدر ذهب اللب وعمي البصر فنزل سليمان منزلا واحتاج الى الماء فطلبوه فلم يجدوه فتفقد الهدهد ليدله على الماء فقال مالي لا أرى الهدهد على تقدير انه مع جنوده وهو لا يراه ثم انه ادركه الشك فقال (أم كان من الغائبين) اي أكان وقيل بل كان من الغائبين ثم اوعده على غيبته فقال (لاعذبنه عذابا شديدا) قيل هو ان ينتف ريشه وذنبه ويلقيه في الشمس ممعطا لا يمتنع من النمل ولا من غيره وقيل لاودعنه القفص ولاحبسنه مع ضده وقيل لافرقن بينه وبين الفه (اولاذبحنه اوليأتيني بسلطان مبين) اي بحجة بينة على غيبته وكان سبب غيبة الهدهد على ما ذكره العلماء أن سليمان لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج الى ارض الحرم فتجهز للمسير واستصحب جنوده من الجن والانس والطير والوحش فحملتهم الريح فلما وافى الحرم اقام ما شاء الله ان يقيم وكان في كل يوم ينحر ما طول مقامه خمسة آلاف ناقة ويذبح خمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة وقال لمن يحضره من اشراف قومه ان هذا المكان يخرج منه نبي عربي صفته كذا وكذا يعطى النصرة على جميع من ناواه وتبلغ هيبته مسيرة شهر القريب والبعيد عنده في الحق سواء لا تأخذه في الله لومة لائم قالوا فبأي دين يدين يا نبي الله قال بدين الحنيفية فطوبى لمن ادركه وآمن به قالوا كم بيننا وبين خروجه يا نبي الله قال مقدار ألف سنة فليبلغ الشاهد الغائب فانه سيد الانبياء وخاتم الرسل قال وأقام بمكة حتى قضى نسكه ثم خرج من مكة صباحا وسار نحو اليمن فوافى صنعاء زوالا اي وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى ارضا حسناء تزهو خضرتها فأحب النزول بها ليصلي ويتغدى فلما نزل قال الهدهد اشتغل سليمان بالنزول فارتفع نحو السماء لينظر الى الدنيا وعرضها ففيما هو ينظر يمينا وشمالا رأى بستانا لبلقيس فنزل اليه فاذا هو بهدهد آخر وكان اسم هدهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمن يعفير فقال يعفير ليعفور من اين اقبلت واين تريد قال اقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود قال ومن سليمان بن داود قال ملك الانس والجن والشياطين والطير والوحش والرياح فمن اين انت يا يعفير قال انا من هذه البلاد قال ومن ملكها قال امرأة يقال لها بلقيس وان لصاحبك ملكا عظيما ولكن ليس ملك بلقيس دونه فانها تملك اليمن وتحت يدها أربعمائة ملك كل ملك على كورة مع كل ملك اربعة آلاف مقاتل ولها ثلثمائة وزير يدبرون ملكها ولها اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد اثنا عشر ألف مقاتل فهل انت منطلق معي حتى تنظر الى ملكها قال اخاف ان يفقدني سليمان في وقت الصلاة اذا احتاج الى الماء قال الهدهد اليماني ان صاحبك يسره ان تأتيه بخبر هذه الملكة قال فانطلق معه ونظر الى بلقيس وملكها واما سليمان فانه نزل على غير ماء فسأل عن الماء الانس والجن فلم يعلموا فتفقد الهدهد فلم يره فدعا بعريف الطير وهو النسر فسأله عن الهدهد فقال اصلح الله الملك ما أدري أين هو وما ارسلته الى مكان فغضب سليمان وقال لاعذبنه الآية ثم دعا العقاب وهو اشد الطير فقال له علي بالهدهد هذه الساعة فرفع العقاب في الهواء حتى رأى الدنيا كالقصعة بين يدي احدكم ثم التفت يمينا وشمالا فرأى الهدهد مقبلا من نحو اليمن فانقض العقاب يريده فعلم الهدهد أن العقاب يقصده بسوء فقال له بحق الله الذي قواك واقدرك على الا ما رحمتني ولم تتعرض لي بسوء فتركه

في الهواء فأمر سليمان الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهن ثم دعا بالدعوة (وتفقد الطير فقال مالي) مكي وعلي وعاصم وغيرهم بسكون الياء والتفقد طلب ما غاب عنك (لا ارى الهدهد ام كان من الغائبين) ام بمعنى بل والمعنى انه تعرف الطير فلم يجد فيها الهدهد فقال مالي لا أراه على معنى انه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره او غير ذلك ثم لاح له انه غائب فاضرب عن ذلك واخذ يقول بل هو غائب وذكر ان سليمان عليه السلام لما حج خرج الى اليمن فوافى صنعاء وقت الزوال فنزل ليصلي فلم يجد الماء وكان الهدهد قناقنه وكان يرى الماء من تحت الارض كما يرى الماء في الزجاجة فتستخرج الشياطين الماء فتفقده لذلك وذكر انه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان فنظر فاذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ثم قال لسيد الطير وهو العقاب علي به فارتفع فنظر فاذا هو مقبل فقصده فناشده الله وتركه فلما قرب من سليمان ارخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الارض وقال يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله فارتعد سليمان وعفا عنه (لاعذبنه عذابا شديدا) بنتف ريشه والقائه في الشمس او بالتفريق بينه وبين الفه او بالزامه خدمة اقرانه او بالحبس مع اضداده وعن بعضهم أضيق السجون معاشرة الاضداد او بايداعه القفص او بطرحه بين يدي النمل ليأكله وحل له تعذيب الهدهد لما رأى فيه من المصلحة كما حل ذبح البهائم والطيور للاكل وغيره من المنافع واذا سخر له الطير لم يتم التسخير الا بالتأديب والسياسة (اولاذبحنه اوليأتيني) بالنون الثقيلة ليشاكل قوله لاعذبنه وحذف نون العماد للتخفيف ليأتينني بنونين مكي الاولى للتأكيد والثانية للعماد (بسلطان مبين) بحجة له فيها عذر ظاهر على غيبته والاشكال انه حلف على احد ثلاثة اشياء اثنان منها فعله ولا مقال فيه والثالث فعل الهدهد وهو مشكل لانه من اين درى انه يأتي بسلطان حتى قال والله ليأتيني بسلطان وجوابه ان معنى كلامه ليكونن احد الامور يعني ان كان الاتيان بالسلطان لم يكن

العقاب وقال ويحك ثكلتك أمك ان نبي الله قد حلف ان يعذبك او ان يذبحك ثم طارا متوجهين الى نحو سليمان فلما انتهيا الى العسكر تلقاه النسر والطير فقالوا ويلك اين غبت في يومك هذا فلقد توعدك نبي الله واخبروه بما قال سليمان فقال الهدهد وما استثنى نبي الله قالوا بلى ولكنه قال أو ليأتيني بسلطان مبين قال نجوت اذا فانطلق به العقاب حتى أتيا سليمان وكان قاعدا على كرسيه فقال العقاب قد اتيتك به يا نبي الله فلما قرب منه الهدهد رفع رأسه وارخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الارض تواضعا لسليمان فلما دنا منه اخذ برأسه فمده اليه وقال له اين كنت لاعذبنك عذابا شديدا فقال يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله فلما سمع سليمان ذلك ارتعد وعفا عنه ثم قال ما الذي ابطأك عني فقال الهدهد ما اخبر الله عنه بقوله تعالى (فمكث غير بعيد) معناه اي غير طويل (فقال أحطت بما لم تحط به) اي علمت ما لم تعلم وبلغت ما لم تبلغ انت ولا جنودك ألهم الله الهدهد هذا الكلام فكافح سليمان تنبيها على ان أدنى خلق الله قد احاط علما بما لم يحط به ليكون لطفا له في ترك الاعجاب والاحاطة بالشيء علما ان يعلمه من جميع جهاته حتى لا يخفى عليه منه معلوم (وجئتك من سبا) قيل هو اسم للبلد وهي مارب والاصح انه اسم رجل وهو سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان وقد جاء في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن سبا فقال رجل له عشرة من البنين تيامن منهم ستة وتشاءم اربعة (بنبا) اي بخبر (يقين) فقال سليمان وما ذاك فقال (اني) اي الهدهد (وجدت امرأة تملكهم) هي بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب بن قحطان وكان أبوها ملكا عظيم الشأن قد ولد له أربعون ملكا هو آخرهم وكان يملك أرض اليمن كلها وكان يقول لملوك الاطراف ليس أحد منهم كفؤا لي وابى ان يتزوج منهم فخطب الى الجن فزوجوه منهم امرأة يقال لها ريحانة بنت السكن قيل في سبب وصوله الى الجن حتى خطب منهم انه كان كثير الصيد فربما اصطاد الجن وهم على صورة الظباء فيخلي عنهم فظهر له ملك الجن وشكره على ذلك واتخذه صديقا فخطب ابنته فزوجه اياها وقيل انه خرج متصيدا فرأى حيتين يقتتلان بيضاء وسوداء وقد ظهرت السوداء على البيضاء فقتل السوداء وحمل البيضاء وصب عليها الماء فأفاقت واطلقها فلما رجع الى داره وجلس وحده منفردا فاذا معه شاب جميل فخاف منه قال لا تخف أنا الحية البيضاء التي أحييتني والاسود الذي قتلته هو عبد لنا تمرد علينا وقتل عدة منا وعرض عليه المال فقال المال لا حاجة لي به ولكن ان كان لك بنت فزوجنيها فزوجه ابنته فولدت له بلقيس وجاء في الحديث ان احد ابوي بلقيس كان جنيا فلما مات ابو بلقيس طمعت في الملك وطلبت قومها ان يبايعوها فأطاعها قوم وأبى آخرون وملكوا عليهم رجلا آخر يقال انه ابن أخي الملك وكان خبيثا سيئ السيرة في أهل مملكته حتى كان يمد يده الى حريم رعيته ويفجر بهن فأراد قومه خلعه فلم يقدروا عليه فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة فأرسلت اليه فعرضت نفسها عليه فأجابها الملك وقال ما منعني ان ابتدئك بالخطبة الا اليأس منك فقالت لا أرغب عنك لانك كفؤ كريم فاجمع رجال أهلي واخطبني منهم فجمعهم وخطبها فقالوا لا نراها تفعل فقال بلى انها قد رغبت في فذكروا ذلك لها فقالت نعم فزوجوها منه فلما زفت اليه خرجت في ملأ كثير من خدمها وحشمها فلما دخلت به سقته الخمر حتى سكر ثم قتلته وحزت راسه وانصرفت الى منزلها من الليل فلما اصبحت أرسلت الى وزرائه وأحضرتهم وقرعتهم وقالت اما كان فيكم من يأنف لكريمته او كرائم عشيرته ثم اريتهم اياه قتيلا وقالت اختاروا رجلا تملكونه عليكم فقالوا لا نرضى غيرك فملكوها وعلموا ان ذلك النكاح كان مكرا وخديعة منها (خ) عن أبي بكرة قال لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال لن يفلح قوم ملكوا عليهم امرأة قوله تعالى (وأوتيت من كل شيء) يعني ما تحتاج اليه الملوك من المال والعدة (ولها عرش عظيم) اي سرير ضخم عال فان قلت كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما رأى من عظمة ملك سليمان قلت يحتمل انه استعظم ذلك بالنسبة اليها او يحتمل انه لم يكن لسليمان مع عظم ملكه مثله وكان عرش بلقيس من الذهب مكللا بالدر والياقوت

تعذيب ولا ذبح وان لم يكن كان احدهما وليس في هذا ادعاء دراية (فمكث) الهدهد بعد تفقد سليمان اياه وبضم الكاف غير عاصم وسهل ويعقوب وهما لغتان (غير بعيد) أي مكثا غير طويل او غير زمان بعيد كقوله عن قريب ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على اسراعه خوفا من سليمان فلما رجع سأله عما لقي في غيبته (فقال احطت) علمت شيئا من جميع جهاته (بما لم تحط به) الهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام مع ما أوتي من فضل النبوة والعلوم الجمة ابتلاء له في علمه وفيه دليل بطلان قول الرافضة ان الامام لا يخفى عليه شيء ولا يكون في زمانه احد أعلم منه (وجئتك من سبأ) غير منصرف أبو عمرو جعله اسما للقبيلة او المدينة وغيره بالتنوين جعله اسما للحي او الاب الاكبر (بنبأ يقين) النبأ الخبر الذي له شأن وقوله من سبأ بنبأ من محاسن الكلام ويسمى البديع وقد حسن وبدع لفظا ومعنى هنا الا ترى انه لو وضع مكان بنبأ بخبر لكان المعنى صحيحا وهو كما جاء أصح لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال (اني وجدت امرأة) هي بلقيس بنت شراحيل وكان ابوها ملك ارض اليمن ولم يكن له ولد غيرها فغلبت على الملك وكانت هي وقومها مجوسا يعبدون الشمس والضمير في (تملكهم) راجع الى سبأ على تأويل القوم او اهل المدينة (وأوتيت) حال وقد مقدرة (من كل شيء) من اسباب الدنيا ما يليق بحالها (ولها عرش) سرير (عظيم) كبير قيل كان ثمانين ذراعا في ثمانين ذراعا وطوله في الهواء ثمانون ذراعا وكان من ذهب وفضة وكان مرصعا بانواع الجواهر وقوائمه من ياقوت احمر واخضر ودر وزمرد وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق واستصغر حالها الى حال سليمان فاستعظم عرشها لذلك وقد اخفى الله تعالى على سليمان ذلك لمصلحة رآها كما اخفى مكان يوسف على يعقوب عليهما السلام

(وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل) أى سبيل التوحيد (فهم لا يهتدون) الى الحق ولا يبعد من الهدهد التهدى الى معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وحرمة السجود للشمس الهاما من الله له كما الهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التى لا يكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها (الا يسجدوا) بالتشديد أى فصدهم عن السبيل لان لا يسجدوا فحذف الجار مع ان أو ادغمت النون فى اللام ويجوز ان تكون لا مزيدة ويكون المعنى فهم لا يهتدون الى ان يسجدوا وبالتخفيف يزيد وعلى وتقديره الا يا هؤلاء اسجدوا فألا للتنبيه ويا حرف النداء ومناداه محذوف فمن شدد لم يقف الا على العرش العظيم ومن خفف وقف على فهم لا يهتدون ثم ابتدأ الا يا اسجدوا أو وقف على الا يا ثم ابتدأ اسجدوا وسجدة التلاوة واجبة فى القراءتين جميعا بخلاف ما يقوله الزجاج انه لا يجب السجود مع التشديد لان مواضع السجدة اما امر بها او مدح للآتى بها او ذم لتاركها واحدى القراءتين امر والاخرى ذم للتارك (لله الذى يخرج الخبء) سمى المخبأ بالمصدر (فى السموات والارض) قتادة خبء السماء المطر وخبء الارض النبات (ويعلم ما يخفون وما يعلنون) وبالتاء فيهما على وحفص (الله لا اله الا هو رب العرش العظيم) وصف الهدهد عرش الله بالعظيم تعظيم له بالنسبة الى سائر ما خلق من السموات والارض ووصفه عرش بلقيس تعظيم له بالاضافة الى عروش ابناء جنسها من الملوك الى ههنا كلام الهدهد فلما فرغ من كلامه (قال) سليمان للهدهد (سننظر) من النظر الذى هو التأمل (اصدقت) فيما اخبرت (ام كنت من الكاذبين) وهذا ابلغ من ام كذبت لانه اذا كان معروفا بالانخراط فى سلك الكاذبين كان كاذبا لا محالة واذا كان كاذبا اتهم بالكذب فيما اخبر به فلم يوثق به ثم كتب سليمان كتابا صورته من عبد الله سليمان بن داود الى بلقيس ملكة سبأ بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى اما بعد فلا تعلوا على وائتونى مسلمين وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه وقال للهدهد (اذهب بكتابى هذا فالقه) بسكون الهاء تخفيفا أبو عمرو وعاصم وحمزة ويختلسها كسر الهدل الكسرة على الياء المحذوفة يزيد وقالون ويعقوب فالقهى باثبات الياء غيرهم (اليهم) الى بلقيس وقومها لانه ذكرهم معها فى قوله وجدتها وقومها يسجدون للشمس وبنى الخطاب فى الكتاب على لفظ الجمع لذلك (ثم تول عنهم) تنح عنهم على الى مكان قريب بحيث تراهم ولا يرونك ليكون ما يقولونه بمسمع منك (فانظر ماذا يرجعون) ما الذى يردونه من الجواب فاخذ الهدهد الكتاب بمنقاره ودخل عليها من كوة فطرح الكتاب على نحرها وهى راقدة وتوارى فى الكوة فانتبهت فزعة او اتاها والجنود حوالها فرفرف ساعة والقى الكتاب فى حجرها

الاحمر والزبرجد الاخضر وقوائمه من الياقوت والزمرد وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق قال ابن عباس كان عرش بلقيس ثلاثين ذراعا فى ثلاثين ذراعا وطوله فى السماء ثلاثون ذراعا وقيل كان طوله ثمانين فى ثمانين وعلوه ثمانين وقيل كان طوله ثمانين وعرضه أربعين وارتفاعه ثلاثون ذراعا قوله عز وجل اخبارا عن الهدهد (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) وذلك انهم كانوا يعبدون الشمس وهم مجوس (وزين لهم الشيطان أعمالهم) المزين هو الله لانه الفعال لما يريد وانما ذكر الشيطان لانه سبب الاغواء (فصدهم عن السبيل) أى عن طريق الحق الذى هو دين الاسلام (فهم لا يهتدون) اى الى الصواب (ألا يسجدوا) قرئ بالتخفيف ومعناه الا يا أيها الناس اسجدوا وهو أمر من الله مستأنف وقرئ بالتشديد ومعناه وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا (لله الذى يخرج الخبء) يعنى الخفى المخبأ (فى السموات والارض) قيل خبء السموات المطر وخبء الارض النبات (ويعلم ما يخفون وما يعلنون) والمقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وغيرها من دون الله لانه لا يستحق العبادة الا من هو قادر على من فى السموات والارض عالم بجميع المعلومات (الله لا اله الا هو رب العرش العظيم) أى هو المستحق للعبادة والسجود لا غيره وهذه السجدة من عزائم السجود يستحب للقارئ والمستمع ان يسجد عند قراءتها فان قلت قد وصف عرش بلقيس بالعظم وعرش الله بالعظم فما الفرق بينهما قلت وصف عرش بلقيس بالعظم بالنسبة اليها والى امثالها من ملوك الدنيا واما عرش الله تعالى فهو بالنسبة الى جميع المخلوقات من السموات والارض فحصل الفرق بينهما فلما فرغ الهدهد من كلامه (قال) سليمان (سننظر أصدقت) اى فيما أخبرت (أم كنت من الكاذبين) ثم ان الهدهد دلهم على الماء فاحتفروا الركايا وروى الناس والدواب ثم ان سليمان كتب كتابا من عبد الله سليمان بن داود الى بلقيس ملكة سبا بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى اما بعد ان لا تعلوا على وائتونى مسلمين قيل لم يزد على ما نص الله فى كتابه وكذلك الانبياء كانوا يكتبون جملا لا يطيلون ولا يكثرون فلما كتب سليمان الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه وقال للهدهد (اذهب بكتابى هذا فألقه اليهم) انما قال اليهم بلفظ الجمع لانه جعله جوابا لقول الهدهد وجدتها وقومها يسجدون للشمس فقال فألقه الى الذين هذا دينهم (ثم تول عنهم) اى تنح عنهم فقف قريبا منهم (فانظر ماذا يرجعون) اى يردون من الجواب وقيل تقدير الآية فألقه اليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم اى انصرف الى فأخذ الهدهد الكتاب وأتى به الى بلقيس وكانت بأرض مأرب من اليمن على ثلاث مراحل من صنعاء فوجدها نائمة مستلقية على قفاها وقد غلقت الابواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها وكذلك كانت تفعل اذا رقدت فأتى الهدهد وألقى الكتاب على نحرها وقيل حمل الهدهد الكتاب بمنقاره حتى وقف على المرأة وحولها القادة والوزراء والجنود فرفرف ساعة والناس ينظرون فرفعت بلقيس رأسها فألقى الكتاب فى حجرها وقال وهب بن منبه كانت لها كوة مستقبلة الشمس تقع فيها حين تطلع فاذا نظرت اليها سجدت لها فجاء الهدهد وسد الكوة بجناحيه فارتفعت الشمس ولم تعلم فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى بالصحيفة اليها فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لان ملك سليمان كان فى خاتمه وعرفت ان الذى أرسل الكتاب أعظم ملكا منها فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد وجاءت هى حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها وهم الاشراف وقال ابن عباس كان مع بلقيس مائة قيل مع كل قيل مائة ألف والقيل ملك دون الملك الاعظم وقيل كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا كل رجل منهم

وكانت قارئة فلما رأت الخاتم (قالت) لقومها خاضعة خائفة (يا أيها الملأ انى) وبفتح الياء مدنى (ألقى الى كتاب كريم) حسن مضمونه وما فيه او مختوم قال عليه الصلاة والسلام كرم الكتاب ختمه وقيل من كتب الى اخيه كتابا ولم يختمه فقد استخف به او مصدر ببسم الله الرحمن الرحيم اولانه من عند ملك كريم (انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم) هو تبيين لما ألقى اليها كأنها لما قالت انى ألقى الى كتاب كريم قيل لها ممن هو وما هو فقالت انه من سليمان وانه كيت وكيت وأن فى (أن لا تعلوا) لا تترفعوا (على) ولا تتكبروا كما تفعل الملوك مفسرة كقوله وانطلق الملأ منهم ان امشوا يعنى أى امشوا (وأتونى مسلمين) مؤمنين او منقادين وكتب الانبياء مبنية على الايجاز والاختصار (قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى) اشيروا على فى الامر الذى نزل بى والفتوى الجواب فى الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتاء فى السن والمراد هنا بالفتوى الاشارة عليها بما عندهم من الرأى وقصدها بالرجوع الى استشارتهم تطييب أنفسهم ليمالئوها ويقوموا معها (ما كنت قاطعة امرا) فاصلة او ممضية حكما (حتى تشهدون) بكسر النون والفتح لحن لان النون انما تفتح فى موضع الرفع وهذا فى موضع النصب واصله تشهدوننى فحذفت النون الاولى للنصب والياء لدلالة الكسرة عليها وبالياء فى الوصل والوقف يعقوب أى تحضرونى او تشيرونى او تشهدوا انه صواب أى لا ابت الامر الا بمحضركم وقيل كان اهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا كل واحد على عشرة آلاف (قالوا) مجيبين لها (نحن اولو قوة واولو بأس شديد) ارادوا بالقوة قوة الاجساد والآلات وبالبأس النجدة والبلاء فى الحرب

(والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين) أى موكول اليك ونحن مطيعون لك فمرينا بامرك نطعك ولا نخالفك كأنهم اشاروا عليها بالقتال او ارادوا نحن من ابناء الحرب لا من ابناء الرأى والمشورة وانت ذات الرأى والتدبير فانظرى ماذا ترين نتبع رأيك فلما احست منهم الميل الى المحاربة مالت الى المصالحة ورتبت الجواب فزيفت اولا ما ذكروه وارتهم الخطأ فيه حيث (قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية) عنوة وقهرا (افسدوها) خربوها (وجعلوا اعزة اهلها اذلة) اذلوا اعزتها واهانوا اشرافها وقتلوا واسروا فذكرت لهم سوء عاقبة الحرب ثم قالت (وكذلك يفعلون) ارادت وهذه عادتهم المستمرة التى لا تتغير لانها كانت فى بيت الملك القديم فسمعت نحو ذلك ورأت ثم ذكرت بعد ذلك حديث الهدية وما رأت من الرأى السديد وقيل هو تصديق من الله لقولها واحتج الساعى فى الارض بالفساد بهذه الآية ومن استباح حراما فقد كفر واذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين (وانى مرسلة اليهم بهدية) أى مرسلة رسلا بهدية (فناظرة) منتظرة (بم) أى بما الا ان الالف تحذف مع حرف الجر فى الاستفهام (يرجع المرسلون) بقبولها ام بردها لانها عرفت عادة الملوك وحسن مواقع الهدايا عندهم فان كان ملكا قبلها وانصرف وان كان نبيا ردها ولم يرض منا الا ان نتبعه على دينه فبعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى وحليهن راكبى خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر وخمسمائة جارية على رماك فى زى الغلمان والف لبنة من ذهب وفضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت وحقا فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب وبعثت رسلا وامرت عليهم المنذر بن عمرو بدليل قوله تعالى بم يرجع المرسلون وكتبت كتابا فيه نسخة الهدايا وقالت فيه ان كنت نبيا فميز بين الوصفاء والوصائف واخبر بما فى الحق وانقب الدرة ثقبا واسلك فى الخرزة خيطا ثم قالت للمنذر ان نظر اليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك منظره وان رأيته بشاشا لطيفا فهو نبى فأقبل الهدهد واخبر سليمان الخبر كله فأمر سليمان الجن فضربوا لبنات الذهب والفضة وفرشوها فى ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ وجعلوا حول الميدان حائطا شرفه من الذهب والفضة وامر باحسن الدواب فى البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبنات وامر باولاد الجن وهم خلق كثير فاقيموا عن اليمين واليسار ثم قعد على سريره والكراسى من جانبيه واصطفت الشياطين صفوفا فراسخ والانس صفوفا فراسخ والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك فلما دنا القوم ورأوا الدواب تروث على اللبن رموا بما معهم من الهدايا ولما وقفوا بين يديه نظر اليهم سليمان بوجه طلق فأعطوه كتاب الملكة فنظر فيه وقال اين الحق فأمر الارضة فاخذت شعرة ونفذت فى الدرة واخذت دودة بيضاء

على عشرة آلاف فلما جاؤا وأخذوا مجالسهم (قالت) لهم بلقيس (يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم) قيل سمته كريما لانه كان مختوما روى ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال كرامة الكتاب ختمه وقال ابن عباس كريم اى شريف لشرف صاحبه ثم بينت من الكتاب فقالت (انه من سليمان) قرأت المكتوب فيه فقالت (وانه بسم الله الرحمن الرحيم) فان قلت لم قدم انه من سليمان على بسم الله قلت ليس هو كذلك بل ابتدأ سليمان ببسم الله الرحمن الرحيم وانما ذكرت بلقيس ان هذا الكتاب من سليمان ثم ذكرت ما فى الكتاب فقالت وانه بسم الله الرحمن الرحيم (الا تعلوا على) قال ابن عباس لا تتكبروا على والمعنى لا تمتنعوا من الاجابة فان ترك الاجابة من العلو والتكبر (وأتونى مسلمين) اى طائعين مؤمنين وقيل من الاستسلام وهو الانقياد (قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى) اى أشيروا على فيما عرض لى (ما كنت قاطعة أمرا) اى قاضية وفاصلة (حتى تشهدون) اى تحضرون (قالوا) يعنى الملأ مجيبين لها (نحن أولو قوة) أى فى الجسم على القتال (وأولو بأس شديد) اى عند الحرب وقيل أراد بالقوة كثرة العدد والبأس والشجاعة وهذا تعريض منهم بالقتال اى ان أمرتهم بذلك ثم قالوا (والامر اليك) ايتها الملكة أى فى القتال وتركه (فانظرى ماذا تأمرين) اى تجدينا مطيعين لامرك (قالت) بلقيس مجيبة لهم عن التعريض للقتال وما يؤل اليه أمره (ان الملوك اذا دخلوا قرية) اى عنوة (أفسدوها) اى خربوها (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) اى اهانوا اشرافها وكبراءها كى يستقيم لهم الامر تحذرهم بذلك مسير سليمان اليهم ودخوله بلادهم ثم تناهى الخبر عنها هنا وصدق الله قولها فقال تعالى (وكذلك يفعلون) اى كما قالت هى يفعلون وقيل هو من قولها وهو للتأكيد لما قالت ثم قالت (وانى مرسلة اليهم بهدية) اى الى سليمان وقومه اصانعه بها على ملكى واختبره بها املك هو ام نبى فان كان ملكا قبل الهدية ورجع وان كان نبيا لم يقبل الهدية ولم يرضه منا الا ان نتبعه فى دينه وهو قولها (فناظرة بم يرجع المرسلون) وذلك ان بلقيس كانت امرأة لبيبة

عاقلة قد ساست الامور وجربتها فأهدت وصفاء ووصائف قال ابن عباس مائة وصيف ومائة وصيفة قال وهب وغيره عمدت بلقيس الى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية فألبست الجوارى لبس الغلمان الاقبية والمناطق وألبست الغلمان لبس الجوارى وجعلت فى أيديهم أساور الذهب وفى أعناقهم أطواق الذهب وفى آذانهم اقرطة وشنوفا مرصعات بأنواع الجواهر وحملت الجوارى على خمسمائة رمكة والغلمان على خمسمائة برذون على كل فرس سرج من الذهب مرصع بالجواهر واغشية الديباج وبعثت اليه لبنات من الذهب ولبنات من الفضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت وأرسلت بالمسك والعنبر والعود اليلنجوج وعمدت الى حق جعلت فيه درة يتيمة ثمينة غير مثقوبة وخرزة جزع معوجة الثقب ودعت رجلا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت اليه رجالا من قومها أصحاب عقل ورأى وكتبت مع المنذر كتابا تذكر فيه الهدية وقالت ان كنت نبيا ميز بين الوصفاء والوصائف وأخبرنا بما فى الحق قبل ان تفتحه واثقب الدرة ثقبا مستويا وادخل فى الخرزة خيطا من غير علاج انس ولا جن وأمرت بلقيس الغلمان فقالت اذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء وأمرت الجوارى ان يكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ثم قالت للرسول انظر الى الرجل اذا دخلت فان نظر اليك نظرا فيه غضب فاعلم انه ملك فلا يهولنك أمره ومنظره فانا اعز منه وان رأيت الرجل بشاشا لطيفا فافهم انه نبى فتفهم قوله ورد الجواب فانطلق الرسول بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعا الى سليمان فأخبره الخبر فأمر سليمان الجن ان يضربوا لبنا من الذهب والفضة ففعلوا وأمرهم بعمل ميدان مقدار تسعة فراسخ وان يفرشوا لبن الذهب والفضة وان يخلوا مقدار تلك اللبنات التى معهم وان يعملوا حائطا شرفه من الذهب والفضة ففعلوا ثم قال اى دواب البر والبحر احسن فقالوا يانبى الله ماراينا احسن من دابة من دواب البحر يقال لها كذا وكذا مختلفة ألوانها لها اجنحة واعراف ونواص قال على بها الساعة فأتوا بها قال شدوها بين يمين الميدان وشماله ثم قال للجن على بأولادكم فاجتمع منهم خلق كثير فأقامهم عن يمين الميدان وشماله ثم قعد سليمان فى مجلسه على سريره ووضع له أربعة آلاف كرسى على يمين الميدان وعلى شماله وأمر الانس والجن والشياطين والوحوش والطير والسباع فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله فلما دنا القوم الى الميدان ونظروا الى ملك سليمان رأوا الدواب التى لا يرى مثلها تروث فى لبنات الذهب والفضة فلما رأوا ذلك تقاصرت انفسهم وخبؤا ما معهم من الهدايا وقيل ان سليمان فرش الميدان بلبنات الذهب والفضة وترك على طريقهم موضعا على قدر ما معهم من اللبن فلما رأى الرسل موضع اللبنات خاليا خافوا ان يتهموا بذلك فوضعوا ما معهم من اللبن فى ذلك الموضع ولما رأوا الشياطين هالهم ما رأوا وفزعوا فقالت لهم الشياطين جوزوا لا بأس عليكم فكانوا يمرون على كرادس الانس والجن والوحش والطير حتى وقفوا بين يدى سليمان فأقبل عليهم بوجه طلق وتلقاهم تلقيا حسنا وسألهم عن حالهم فأخبره رئيس القوم بما جاؤا فيه واعطوه كتاب الملكة فنظر فيه وقال أين الحق فأتى به فحركه فجاءه جبريل فأخبره بما فيه فقال لهم ان فيه درة ثمينة غير مثقوبة وخرزة معوجة الثقب قال الرسول صدقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط فى الجزعة فقال سليمان من لى بثقبها وسأل الانس والجن فلم يكن عندهم علم ثم سأل الشياطين فقالوا ارسل الى الارضة فلما جاءت الارضة أخذت شعرة فى فيها ودخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان ما حاجتك قالت تصير رزقى فى الشجر فقال لك ذلك ثم قال من لى بهذه الخرزة فقالت دودة بيضاء انا لها يانبى الله فأخذت الدودة الخيط فى فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان ما حاجتك فقالت يكون رزقى فى الفواكه قال لك ذلك ثم ميز بين الغلمان والجوارى بأن أمرهم ان يغسلوا وجوههم وأيديهم فجعلت الجارية تأخذ الماء بيدها وتضرب به الاخرى وتغسل وجهها والغلام يأخذ الماء بيديه ويغسل به وجهه وكانت الجارية تصب الماء على باطن ساعدها والغلام على ظاهره فميز بين الغلمان

الخيط بفيها او نفذت فيها ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله فى الاخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وقال للمنذر ارجع اليهم (فلما جاء) رسولها المنذر بن عمرو (سليمان قال اتمدوننى بمال) بنونين واثبات الياء فى الوصل والوقف مكى وسهل ووافقهما مدنى وأبو عمرو فى الوصل اتمدونى حمزة ويعقوب فى الحالين وغيرهم بنونين بلا ياء فيهما والخطاب للرسل (فما آتانى الله) من النبوة والملك والنعمة وبفتح الياء مدنى وأبو عمرو وحفص (خير مما آتاكم) من زخارف الدنيا (بل أنتم بهديتكم تفرحون) الهدية اسم المهدى كما ان العطية اسم المعطى فتضاف الى المهدى والمهدى له تقول هذه هدية فلان تريد هى التى اهداها او اهديت اليه والمعنى ان ما عندى خير مما عندكم وذلك ان الله آتانى الدين الذى فيه الحظ الاوفر والغنى الاوسع وآتانى من الدنيا ما لا يستزاد عليه فكيف يرضى مثلى بان يمد بمال بل انتم قوم لا تعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا فلذلك تفرحون بما تزادون ويهدى اليكم لان ذلك مبلغ همتكم وحالى خلاف حالكم وما ارضى منكم بشئ ولا افرح به الا بالايمان وترك المجوسية والفرق بين قولك اتمدوننى بمال وانا اغنى منكم وبين ان تقوله بالفاء انى اذا قلته بالواو جعلت مخاطبى عالما بزيادتى فى الغنى وهو مع ذلك يمدنى بمال واذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن خفيت عليه حالى فانا اخبره الساعة بما لا احتاج معه الى امداده كانى اقول له انكر عليك ما فعلت فانى غنى عنه وعليه ورد فما آتانى الله ووجه الاضراب انه لما انكر عليهم الامداد وعلل انكاره اضرب عن ذلك الى بيان السبب الذى حملهم عليه وهو انهم لا يعرفون سبب رضى ولا فرح الا ان يهدى اليهم حظ من الدنيا التى لا يعلمون غيرها (ارجع اليهم) خطاب للرسول او الهدهد محملا كتابا آخر اليهم أنت بلقيس وقومها (فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها) لا طاقة لهم بها وحقيقة القبل المقاومة والمقابلة أى لا يقدرون ان يقابلوهم (ولنخرجنهم منها) من سبأ (أذلة وهم صاغرون) الذل ان يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك والصغار ان يقعوا فى اسر واستعباد فلما رجع اليها رسولها بالهدايا وقص عليها القصة قالت هو نبى وما لنا به طاقة ثم جعلت عرشها فى آخر سبعة ابيات وغلقت الابواب ووكلت به حرسا يحفظونه وبعثت الى سليمان انى قادمة اليك لانظر ما الذى تدعو اليه وشخصت اليه فى اثنى عشر الف قيل تحت كل قيل الوف فلما بلغت على رأس فرسخ من سليمان (قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل ان يأتونى مسلمين) اراد ان يريها بذلك بعض ما خصه الله تعالى به من اجراء العجائب على يده مع اطلاعها على عظيم قدرة الله تعالى وعلى ما يشهد لنبوة سليمان او اراد ان يأخذه قبل ان تسلم لعلمه انها اذا اسلمت لم يحل له اخذ مالها وهذا بعيد عند اهل التحقيق او اراد ان يؤتى به فينكر ويغير ثم ينظر أتثبته ام تنكره اختبارا لعقلها (قال عفريت من الجن) وهو الخبيث المارد واسمه ذكوان (انا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك) مجلس حكمك وقضائك (وانى عليه) على حمله (لقوى امين) آتى به كما هو ولا آخذ منه شيئا ولا ابدله فقال سليمان عليه السلام اريد اعجل من هذا (قال الذى عنده علم من الكتاب) اى ملك بيده كتاب المقادير ارسله الله تعالى عند قول العفريت او جبريل عليه السلام والكتاب على هذا اللوح المحفوظ او الخضر او آصف بن برخيا كاتب سليمان وهو الاصح

والجوارى ثم رد سليمان الهدية كما أخبر الله تعالى فقال تعالى (فلما جاء سليمان قال أتمدوننى بمال فما آتانى الله) اى ما اعطانى من الدين والنبوة والحكمة والملك (خير) اى افضل (مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون) معناه أنتم اهل مفاخرة ومكاثرة بالدنيا تفرحون باهداء بعضكم الى بعض واما انا فلا أفرح بالدنيا وليست الدنيا من حاجتى لان الله قد أعطانى منها ما لم يعط أحدا ومع ذلك أكرمنى بالدين والنبوة ثم قال للمنذر بن عمرو أمير الوفد (ارجع اليهم) اى بالهدية (فلنأتينهم بجنود لا قبل) اى لا طاقة (لهم بها ولنخرجنهم منها) اى من أرض سبأ (أذلة وهم صاغرون) اى ان لم يأتونى مسلمين قال وهب وغيره من اهل الكتاب لما رجعت رسل بلقيس اليها من عند سليمان وبلغوها ما قال سليمان قالت والله لقد عرفت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة فبعثت الى سليمان انى قادمة عليك بملوك قومى حتى انظر ما امرك وما الذى تدعو اليه من دينك ثم أمرت بعرشها فجعلته فى آخر سبعة أبيات بعضها داخل بعض ثم أغلقت عليه سبعة أبواب ووكلت به حراسا يحفظونه ثم قالت لمن خلفت على ملكها احتفظ بما قبلك وسرير ملكى لا يخلص اليه أحد ثم أمرت مناديا ينادى فى أهل مملكتها تؤذنهم بالرحيل وشخصت الى سليمان فى اثنى عشر ألف قيل من ملوك اليمن كل قيل تحت يده ألوف كثيرة قال ابن عباس وكان سليمان رجلا مهيبا لا يبتدأ بشئ حتى يكون هو الذى يسأل عنه فخرج يوما فجلس على سريره فسمع وهجا قريبا منه قال ما هذا قالوا بلقيس وقد نزلت منا بهذا المكان وكان على مسيرة فرسخ من سليمان فأقبل سليمان على جنوده (قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل ان يأتونى مسلمين) قال ابن عباس يعنى طائعين وقيل مؤمنين قيل غرض سليمان فى احضار عرشها ليريها قدرة الله تعالى واظهار معجزة دالة على نبوته وقيل أراد ان ينكره ويغيره قبل مجيئها ليختبر بذلك عقلها وقيل ان سليمان علم انها ان أسلمت يحرم عليه مالها فأراد ان يأخذ سريرها قبل ان يحرم عليه أخذه لانه اعجبه وصفه لما وصفه له الهدهد وقيل أراد ان يعرف قدر ملكها لان السرير على قدر المملكة (قال عفريت من الجن) وهو المارد القوى وقال ابن عباس العفريت الداهية قال وهب اسمه كوذى وقيل ذكوان وقيل هو صخر المارد وكان مثل الجبل يضع قدمه عند منتهى طرفه (أنا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك) أى مجلس قضائك قال ابن عباس وكان له فى الغداة مجلس يقضى فيه الى متسع النهار وقيل نصفه (وانى عليه) اى على حمله (لقوى أمين) اى على ما فيه من الجواهر وغيرها قال سليمان اريد اسرع من ذلك (قال الذى عنده علم من الكتاب) قيل هو جبريل وقيل هو ملك أيد الله به سليمان وقيل هو آصف بن برخيا وكان صديقا يعلم اسم الله الاعظم الذى اذا دعى به أجاب واذا سئل به أعطى وقيل هو سليمان نفسه لانه اعلم بنى اسرائيل بالكتاب وكان الله قد آتاه علما وفهما فعلى هذا يكون المخاطب العفريت الذى كلمه فأراد سليمان اظهار معجزة فتحداهم اولا ثم بين للعفريت انه يتأتى له من سرعة الاتيان بالعرش ما لا يتأتى للعفريت قيل كان الدعاء الذى دعا به يا ذا الجلال والاكرام وقيل يا حى يا قيوم وروى ذلك عن

وعليه الجمهور وكان عنده اسم الله الاعظم الذى اذا دعى به اجاب وهو ياحى ياقوم ياذا الجلال والاكرام اويا الهنا واله كل شئ الهـا واحدا لااله الا انت وقيل كان له علم بمجارى الغيوب الهاما (انا آتيك به) بالعرش وآتيك فى الموضعين يجوز أن يكون فعلا اواسم فاعل ومعنى قوله (قبل ان يرتد اليك طرفك) انك ترسل طرفك الى شئ فقبل ان ترده ابصرت العرش بين يديك ويروى ان آصف قال لسليمان عليه السلام مد عينيك حتى ينتهى طرفك فمد عينيه فنظر نحو اليمن فدعا آصف فغار العرش فى مكانه ثم نبع عند ٣٦٦ مجلس سليمان بقدرة الله تعالى قبل ان يرتد طرفه (فلما رآه) أى العرش (مستقرا عنده) ثابتا لديه غير مضطرب (قال هذا) أى حصول مرادى وهو حضور العرش فى مدة ارتداد الطرف (من فضل ربى) على واحسانه الى بلا استحقاق منى بل هو فضل خال من العوض صاف عن الغرض (ليبلونى أأشكر) ليمتحننى أأشكر انعامه (ام اكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه) لانه يحط به عنه اعباء الواجب ويصونها عن سمة الكفران ويستجلب به المزيد ويرتبط به النعمة فالشكر قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة وفى كلام بعضهم ان كفران النعمة بوار وقلما اقشعت نافرة فرجعت فى نصابها فاستدع شاردها بالشكر واستدم راهنها بكرم الجوار واعلم ان سبوغ ستر الله تعالى متقلص عما قريب اذا انت لم ترج لله وقارا أى لم تشكر لله نعمته (ومن كفر) بترك الشكر على النعمة (فان ربى غنى) عن الشكر (كريم) بالانعام على من يكفر نعمته قال الواسطى ما كان منا من الشكر فهو لنا وما كان منه من النعمة فهو اليناوله المنة والفضل علينا (قال نكروا لها عرشها) غيروا أى اجعلوا مقدمه مؤخره واعلاه اسفله (ننظر) بالجزم على الجواب (أتهتدى) الى معرفة عرشها او للجواب الصواب اذا سئلت عنه (ام تكون من الذين لايهتدون فلما جاءت) بلقيس (قيل اهكذا عرشك) ها للتنبيه والكاف للتشبيه وذا اسم الاشارة ولم يقل اهذا عرشك ولكن امثل هذا عرشك لئلا يكون تلقينا (قالت كانه هو) فاجابت احسن جواب فلم تقل هو هو ولا ليس به وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقطع فى المحتمل للامرين اولما شبهوا عليها بقولهم اهكذا عرشك شبهت عليهم بقولها كانه هو مع انها علمت انه عرشها (واوتينا العلم من قبلها) من كلام بلقيس أى وأوتينا العلم بقدرة الله تعالى وبصحة نبوتك بالآيات المتقدمة من امر الهدهد والرسل من قبل هذه المعجزة أى احضار العرش اومن قبل هذه الحالة (وكنا مسلمين) منقادين لك مطيعين لامرك اومن كلام سليمان وملئه عطفوا على كلامها قولهم وأوتينا العلم بالله وبقدرته وبصحة ماجاء من عنده قبل علمها اواوتينا العلم باسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكنا مسلمين موحدين خاضعين (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) متصل بكلام سليمان أى وصدها عن العلم بما علمناه اوعن التقدم الى الاسلام عبادة الشمس ونشؤها بين اظهر الكفرة ثم بين نشأها بين الكفرة بقوله (انها كانت من قوم كافرين) اوكلام مبتدأ أى قال الله تعالى وصدها قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل اوصدها

عائشة وروى عن الزهرى قال دعاء الذى عنده علم من الكتاب يا الهنا واله كل شئ الها واحدا لااله الا انت ائتنى بعرشها وقال ابن عباس ان آصف قال لسليمان حين صلى مد عينيك حتى ينتهى طرفك فمد سليمان عينيه ونظر نحو اليمن ودعا آصف فبعث الله الملائكة فحملوا السرير يجرون به تحت الارض حتى نبع من بين يدى سليمان وقيل خر سليمان ساجدا ودعا باسم الله الاعظم فغاب العرش تحت الارض حتى ظهر عند كرسى سليمان فقال ماقال (أنا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك) قال سليمان هات قال أنت النبى ابن النبى وليس أحد عند الله أوجه منك فان دعوت الله كان عندك قال صدقت ففعل ذلك فجئ بالعرش فى الوقت (فلما رآه) يعنى رأى سليمان العرش (مستقرا عنده) اى محمولا اليه من مارب الى الشأم فى قدر ارتداد الطرف (قال هـذا من فضل ربى ليبلونى) يعنى التمكن من حصول المراد (أأشكر) اى نعمته على (أم أكفر) فلا اشكرها (ومن شكر فانما يشكر لنفسه) اى يعود نفع شكره اليه وهو ان يستوجب به تمام النعمة ودوامها لان الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة (ومن كفر فان ربى غنى) اى عن شكره لا يضره ذلك الكفران (كريم) اى بالافضال عليه لا يقطع نعمه عنه بسبب اعراضه عن الشكر وكفران النعمة (قال نكروا لها عرشها) يعنى غيروا سريرها الى حال تنكره اذا رأته قيل هو ان يزاد فيه او ينقص منه وقيل انما جعل اسفله اعلاه وجعل مكان الجوهر الاحمر اخضر ومكان الاخضر احمر (ننظر أتهتدى) الى معرفة عرشها (أم تكون من الذين لايهتدون) الى معرفته وانما حمل سليمان على ذلك ماقال وهب ومحمد بن كعب وغيرهما ان الشياطين خافت ان يتزوجها سليمان فتفشى اليه اسرار الجن لان امها كانت جنية واذا ولدت ولدا لا ينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده فأساؤا الثناء عليها ليزهدوه فيها وقالوا ان فى عقلها شيئا وان رجلها كحافر الحمار وانها شعراء الساقين فأراد سليمان ان يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر الى قدميها ببناء الصرح (فلما جاءت قيل) لها (أهكذا عرشك قالت كأنه هو) قيل انها عرفته ولكن شبهت عليهم كما شبهوا عليها وقيل انها كانت حكيمة لم تقل نعم خوفا من الكذب ولا قالت لا خوفا من التكذيب ايضا فقالت كانه هو فعرف سليمان كمال عقلها بحيث لم تقر ولم تنكر وقيل اشتبه عليها امر العرش لانها تركته فى بيت عليه سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها قيل لها فانه عرشك فما اغنى عنك اغلاق الابواب ثم قال (وأوتينا العلم من قبلها) اى من قبل الآية فى العرش (وكنا مسلمين) اى منقادين مطاعين خاضعين لامر سليمان وقيل قوله تعالى وأوتينا العلم اى بالله وبصحة نبوة سليمان بالآيات المتقدمة من امر الهدهد والرسل من قبلها اى من قبل الآية فى العرش وكنا مسلمين أو معناه وأوتينا العلم بالله وبقدرته على ما يشاء من قبل هـذه المرأة وكنا مسلمين ويكون الغرض من هذا شكر نعمة الله عليه ان خصه بمزيد العلم والتقدم فى الاسلام وقيـل معناه وأوتينا العلم باسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها طائعة وكنا مسلمين لله قوله تعالى (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) اى منعتها عبادة الشمس عن التوحيد وعبادة الله وقيل معناه صدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله وحال بينها وبينه (انها كانت من قوم كافرين) اخبر الله انها كانت من قوم يعبدون الشمس فنشأت بينهم ولم تعرف الا عبادة الشمس (قيل لها ادخلى الصرح) وذلك ان سليمان لما اختبر عقلها بتنكير العرش واراد ان ينظر الى قدميها

الله او سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وايصال الفعل (قيل لها ادخلي الصرح) أي القصر او صحن الدار (فلما رأته حسبته لجة) ماء عظيما (وكشفت عن ساقيها) سأقيها بالهمزة مكي روى ان سليمان امر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج ابيض واجرى من تحته الماء وألقى فيه السمك وغيره ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والانس وانما فعل ذلك ليزيدها استعظاما الامر وتحقيقا لنبوته وقيل ان الجن كرهوا ان يتزوجها فتفضي اليه باسرارهم لانها كانت بنت جنية وقيل خافوا ان يولد له منها ولد يجمع فطنة الجن والانس فيخرجون من ملك سليمان الى ملك هو اشد فقالوا له ان في عقلها شيئا وهي شعراء الساقين ورجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش واتخذ الصرح ليعرف ساقها ورجلها فكشفت عنهما فاذا هي احسن الناس ساقا وقدما الا انها شعراء فصرف بصره (قال) لها (انه صرح ممرد) مملس مستو ومنه الامرد (من قوارير) من الزجاج واراد سليمان تزوجها فكره شعرها فعملت لها الشياطين النورة فازالته فنكحها سليمان واحبها واقرها على ملكها وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة ايام وولدت له (قالت رب اني ظلمت نفسي) بعبادة الشمس (واسلمت مع سليمان لله رب العالمين) قال المحققون لا يحتمل ان يحتال سليمان لينظر الى ساقيها وهي اجنبية فلا يصح القول بمثله (ولقد ارسلنا الى ثمود اخاهم) في النسب (صالحا) بدل (ان اعبدوا الله) بكسر النون في الوصل عاصم وحمزة وبصري وبضم النون غيرهم اتباعا للباء والمعنى بان اعبدوا الله وحده (فاذا) للمفاجأة (هم) مبتدأ (فريقان) خبر (يختصمون) صفة وهي العامل في اذا والمعنى فاذا قوم صالح فريقان مؤمن به وكافر به يختصمون فيقول كل فريق الحق معي وهو مبين في قوله قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم اتعلمون ان صالحا مرسل من ربه قالوا انا بما ارسل به مؤمنون قال الذين استكبروا انا بالذي آمنتم به كافرون وقال الفريق الكافر يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين (قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة) بالعذاب الذي توعدون (قبل الحسنة) قبل التوبة (لولا) هلا (تستغفرون الله) تطلبون المغفرة من كفركم بالتوبة والايمان قبل نزول العذاب بكم (لعلكم ترحمون) بالاجابة (قالوا اطيرنا بك) تشاءمنا بك لانهم قحطوا عند مبعثه لتكذيبهم فنسبوه الى مجيئه والاصل تطيرنا وقرئ به فأدغمت التاء في الطاء وزيدت الالف لسكون الطاء (وبمن معك) من المؤمنين (قال طائركم عند الله) أي سببكم الذي يجيء منه خيركم وشركم عند الله وهو قدره وقسمته او عملكم مكتوب عند الله فانما نزل بكم ما نزل عقوبة لكم وفتنة ومنه كل انسان الزمناه طائره في عنقه واصله ان المسافر اذا مر بطائر فيزجره فان مر سانحا تيامن واذا مر بارحا تشاءم

وساقيها من غير ان يسألها كشفهما لما اخبرته الجن ان رجليها كحافر حمار وهي شعراء الساقين أمر الشياطين فعملوا لها قصرا من الزجاج الابيض كالماء وقيل الصرح صحن الدار واجرى تحته الماء والقى فيه السمك والضفادع وغيرهما من دواب البحر ثم وضع سريره في صدر المجلس وجلس عليه وقيل انما عمل الصرح ليختبر به فهمها كما فعلت في الوصفاء والوصائف فلما جلس على السرير دعا بلقيس ولما جاءت قيل لها ادخلي الصرح (فلما رأته حسبته لجة) اى ماء عظيما (وكشفت عن ساقيها) لتخوض الماء الى سليمان فاذا هي احسن النساء ساقا وقدما الا انها كانت شعراء الساقين فلما نظر سليمان ذلك صرف بصره عنها (قال انه صرح ممرد) اى مملس (من قوارير) زجاج وليس بماء فحينئذ سترت ساقيها وعجبت من ذلك وعلمت ان ملك سليمان من الله تعالى واستدلت بذلك على التوحيد والنبوة (قالت رب اني ظلمت نفسي) بعبادة غيرك (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) اى اخلصت له التوحيد والعبادة وقيل انها لما بلغت الصرح وظنته لجة قالت في نفسها ان سليمان يريد ان يغرقني وكان القتل أهون من هذا فلما تبين لها خلاف ذلك قالت رب اني ظلمت نفسي بذلك الظن واختلفوا في أمر بلقيس بعد اسلامها فقيل انتهى أمرها الى قولها أسلمت لله رب العالمين ولا علم لاحد وراء ذلك لانه لم يذكر في الكتاب ولا في خبر صحيح وقال بعضهم تزوجها سليمان وكره ما رأى من كثرة شعر ساقيها فسأل الانس عما يذهب ذلك فقالوا الموسى فقالت المرأة اني لم يمسني حديد قط وكره سليمان الموسى وقال انها تقطع ساقيها فسأل الجن فقالوا لا ندري فسأل الشياطين فقالوا نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء فاتخذوا النورة والحمام فكانت النورة والحمامات من يومئذ فلما تزوجها سليمان أحبها حبا شديدا وأقرها على ملكها وأمر الجن فابتنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعا وحسنا وهي سلحين وبينون وغمدان ثم كان سليمان يزورها في كل شهر مرة ويقيم عندها ثلاثة أيام يبكر من الشام الى اليمن ومن اليمن الى الشام وولدت له ولدا ذكرا وقال وهب زعموا ان بلقيس لما أسلمت قال لها سليمان اختاري رجلا من قومك حتى أزوجك اياه فقالت ومثلي يا نبي الله ينكح الرجال وقد كان لي من قومي الملك والسلطان قال نعم انه لا يكون في الاسلام الا ذلك ولا ينبغي لك أن تحرمي ما أحل الله قالت فان كان ولا بد فزوجني ذا تبع ملك همذان فزوجها اياه وذهب بها الى اليمن وملك زوجها ذا تبع على اليمن ودعا زوبعة ملك الجن وقال له اعمل لذي تبع ما استعملك فيه فلم يزل يعمل له ما أراد الى ان مات سليمان وحال الحول وعلم الجن موت سليمان فأقبل رجل منهم حتى بلغ جوف اليمن وقال باعلى صوته يا معشر الجن ان الملك سليمان قد مات فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا وانقضى ملك سليمان وملك ذي تبع وملك بلقيس وبقي الملك لله الواحد القهار قيل ان سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة قوله عز وجل (ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا ان اعبدوا الله) اى وحدوه لا تشركوا به شيئا (فاذا هم فريقان) اى مؤمن وكافر (يختصمون) اى في الدين كل فريق يقول الحق معنا (قال) يعني صالحا للفريق المكذب (يا قوم لم تستعجلون بالسيئة) اى بالبلاء والعقوبة (قبل الحسنة) أي العافية والرحمة (لولا) اى هلا (تستغفرون الله) اى بالتوبة اليه من الكفر (لعلكم ترحمون) اى لا تعذبون في الدنيا (قالوا اطيرنا) اى تشاءمنا (بك وبمن معك) قيل انما قالوا ذلك لتفرق كلمتهم وقيل لامساك القطر عنهم قالوا انما اصابنا هذا الضر والشدة من شؤمك وشؤم أصحابك (قال طائركم عند الله) اى ما يصيبكم من الخير والشر بأمر الله مكتوب عليكم سمي طائرا

فلما نسبوا الخير والشر الى الطائر استعير لما كان سببهما من قدرة الله وقسمته او من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة (بل أنتم قوم تفتنون) تختبرون وتعذبون بذنبكم (وكان في المدينة) مدينة ثمود وهي الحجر (تسعة رهط) هو جمع لا واحد له ولذا جاز تمييز التسعة به فكأنه قيل تسعة انفس وهو من الثلاثة الى العشرة وعن ابي دؤاد رأسهم قدار بن سالف وهم الذين سعوا في عقر الناقة وكانوا ابناء اشرافهم (يفسدون في الارض ولا يصلحون) يعني ان شأنهم الافساد البحت لا يخلط بشيء من الصلاح كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح وعن الحسن يظلمون الناس ولا يمنعون الظالمين من الظلم وعن ابن عطاء يتبعون معايب الناس ولا يسترون عوراتهم (قالوا تقاسموا بالله) تحالفوا خبر في محل الحال باضمار قد أي قالوا متقاسمين او امر أي امر بعضهم بعضا بالقسم (لنبيتنه) لنقتلنه بياتا أي ليلا (واهله) ولده وتبعه (ثم لنقولن لوليه) لولي دمه لتبيتنه بالتاء وبضم التاء الثانية ثم لتقولن بالتاء وضم اللام حمزة وعلي (ما شهدنا) ما حضرنا (مهلك أهله) حفص مهلك أبو بكر وحماد والمفضل من هلك فالاول موضع الهلاك والثاني المصدر ومهلك غيرهم من أهلك وهو الاهلاك او مكان الاهلاك أي لم نتعرض لاهله فكيف تعرضنا له او ما حضرناه وضع هلاكه فكيف توليناه (وانا لصادقون) فيما ذكرنا (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون) مكرهم ما أحضروه من تدبير القتل لصالح واهله ومكر الله اهلاكهم من حيث لا يشعرون شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة روي انه كان لصالح مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه فقالوا زعم صالح انه يفرغ منا الى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن اهله قبل الثلاث فخرجوا الى الشعب وقالوا اذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا الى اهله فقتلناهم فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فلم يدر قومهم اين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم وعذب الله كلا منهم في مكانه ونجى صالحا عليه السلام ومن معه (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم) بفتح الالف كوفي وسهل وبكسرها غيرهم على الاستئناف ومن فتحه رفعه على انه بدل من العاقبة أو خبر مبتدا محذوف تقديره هي تدميرهم او نصبه على معنى لانا وعلى انه خبر كان أي فكان عاقبة مكرهم الدمار (وقومهم أجمعين) بالصيحة (فتلك بيوتهم خاوية) ساقطة متهدمة من خوى النجم اذا سقط او خالية من الخواء وهي حال عمل فيها ما دل عليه تلك (بما ظلموا) بظلمهم (ان في ذلك) فيما فعل بثمود (لآية لقوم يعلمون) قدرتنا فيتعظون (وانجينا الذين آمنوا) بصالح (وكانوا يتقون) ترك اوامره وكانوا اربعة آلاف نجوا مع صالح من العذاب (ولوطا اذ قال) واذكر لوطا واذ بدل من لوطا أي واذكر وقت قول لوط (لقومه أتأتون الفاحشة) أي اتيان الذكور (وأنتم تبصرون) تعلمون انها فاحشة لم تسبقوا اليها من بصر القلب او يرى ذلك بعضهم من بعض لانهم كانوا يرتكبونها في ناديهم معالنين بها لا يتستر بعضهم من بعض مجانة وانهماكا في المعصية او تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم ثم صرح فقال (أئنكم) بهمزتين كوفي وشامي (لتأتون الرجال شهوة) للشهوة (من دون النساء) أي ان الله تعالى انما خلق الانثى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر والانثى للانثى فهو مضادة لله في حكمته (بل أنتم قوم تجهلون) تفعلون فعل الجاهلين فانها فاحشة مع علمكم بذلك او اريد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها وقد اجتمع الخطاب والغيبة في قوله بل أنتم قوم تجهلون وبل أنتم قوم تفتنون فغلب الخطاب على الغيبة لانه اقوى اذ الاصل ان يكون الكلام بين الحاضرين (فما كان جواب قومه الا ان قالوا اخرجوا آل لوط) اي لوطا ومتبعيه فخبر كان جواب واسمه ان قالوا (من قريتكم انهم اناس يتطهرون) يتنزهون عن القاذورات ينكرون هذا العمل القذر ويغيظنا انكارهم وقيل هو استهزاء كقوله انك لانت الحليم الرشيد (فأنجيناه) فخلصناه من العذاب الواقع بالقوم (وأهله الا امرأته قدرناها) بالتشديد سوى حماد وابي بكر اي قدرنا كونها (من الغابرين) من الباقين في العذاب (وأمطرنا عليهم مطرا) حجارة مكتوبا عليها اسم صاحبها (فساء مطر المنذرين) الذين لم يقبلوا الانذار (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) امر رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بتحميده ثم بالسلام على المصطفين من عباده توطئة لما يتلوه من الدلالة على وحدانيته

لانه لا شيء أسرع من نزول القضاء المحتوم وقال ابن عباس الشؤم الذي أتاكم من عند الله بكفركم وقيل طائركم اي عملكم عند الله سمي طائرا لسرعة صعوده الى السماء (بل أنتم قوم تفتنون) قال ابن عباس تختبرون بالخير والشر وقيل معناه تعذبون قوله تعالى (وكان في المدينة) يعني مدينة ثمود وهي الحجر (تسعة رهط) يعني من ابناء اشرافهم (يفسدون في الارض) اي بالمعاصي (ولا يصلحون) اي لا يطيعون وهم غواة قوم صالح الذين اتفقوا على عقر الناقة ورأسهم قدار بن سالف (قالوا تقاسموا بالله) يعني يقول بعضهم لبعض احلفوا بالله أيها القوم (لنبيتنه) اي لنقتلنه ليلا (وأهله) يعني قومه الذين آمنوا معه (ثم لنقولن لوليه) اي لولي دمه (ما شهدنا) اي ما حضرنا (مهلك أهله) اي ما ندري من قتله ولا هلاك أهله (وانا لصادقون) اي في قولنا ما شهدنا ذلك (ومكروا مكرا) اي غدروا غدرا حين قصدوا التبييت صالح وأهله (ومكرنا مكرا) اي جازيناهم على مكرهم بتعجيل العذاب (وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم) اي أهلكناهم اي التسعة قال ابن عباس ارسل الله الملائكة تلك الليلة الى دار صالح يحرسونه فاتت التسعة دار صالح شاهرين سلاحهم وسيوفهم فرمتهم الملائكة بالحجارة وهم يرون الحجارة ولا يرون الملائكة فقتلتهم وأهلك الله جميع القوم بالصيحة (وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) اي بظلمهم وكفرهم (ان في ذلك لآية) اي لعبرة (لقوم يعلمون) اي قدرتنا (وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) يقال ان الناجين كانوا أربعة آلاف قوله تعالى (ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة) اي الفعلة القبيحة (وأنتم تبصرون) اي تعلمون انها فاحشة وهو من بصر القلب وقيل معناه يبصر بعضكم بعضا وكانوا لا يستترون عتوا منهم (أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون) فان قلت اذا فسر تبصرون بالعلم وقد قال بعده قوم تجهلون فيكون العلم جهلا قلت معناه تفعلون فعل الجاهلين وتعلمون انه فاحشة وقيل تجهلون العاقبة وقيل أراد بالجهل السفاهة التي كانوا عليها (فما كان جواب قومه الا ان قالوا اخرجوا آل لوط من قريتكم انهم اناس يتطهرون) يعني من ادبار الرجال (فأنجيناه وأهله الا امرأته قدرناها من الغابرين) اي قضينا عليها أن جعلناها من الباقين في العذاب (وأمطرنا عليهم مطرا) اي الحجارة (فساء) اي فبئس (مطر المنذرين) قوله عز وجل (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ان

وقدرته على كل شئ وهو تعليم لكل متكلم فى كل امر ذى بال بأن يتبرك بهما ويستظهر بمكانهما وهو خطاب لوط عليه السلام بان يحمد الله على هلاك كفار قومه ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم (آلله خيرا ما يشركون) بالياء بصرى وعاصم ولا خير فيما اشركوه اصلا حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل شئ وانما هو الزام لهم وتهكم بحالهم وذلك انهم آثروا عبادة الاصنام على عبادة الله تعالى ولا يؤثر عاقل شيئا على شئ الا لداع يدعوه الى ايثاره من زيادة خير ومنفعة فقيل لهم مع العلم بانه لا خير فيما آثروه وانهم لم يؤثروه لزيادة الخير ولكن هوى وعبثا لينبهوا على الخطا المفرط والجهل المورط وليعلموا ان الايثار يجب ان يكون للخير الزائد وكان عليه الصلاة والسلام اذا قرأها قال بل الله خير وأبقى واجل واكرم ثم عدد سبحانه الخيرات والمنافع التى هى آثار رحمته وفضله فقال (أم من خلق السموات والارض) والفرق بين ام وام فى أم ما يشركون وأم من خلق السموات ٣٦٩ ان تلك متصلة اذ المعنى ايهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة ولما قال آلله خير ام الآلهة قال بل أمن خلق السموات والارض خير تقريرا لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شئ (وأنزل لكم من السماء ماء) مطرا (فأنبتنا) صرف الكلام عن الغيبة الى التكلم تأكيدا لمعنى اختصاص الفعل بذاته وايذانا بأن انبات الحدائق المختلفة الاصناف والالوان والطعوم والاشكال مع حسنها بماء واحد لا يقدر عليه الا هو وحده (به) بالماء (حدائق) بساتين والحديقة البستان وعليه حائط من الاحداق وهو الاحاطة (ذات) ولم يقل ذوات لان المعنى جماعة حدائق كما تقول النساء ذهبت (بهجة) حسن لان الناظر يبتهج به ثم رشح معنى الاختصاص بقوله (ما كان لكم ان تنبتوا شجرها) ومعنى الكينونة الانبغاء اراد ان تأتى ذلك محال من غيره (أإله مع الله) أغيره يقرن به ويجعل شريكا له (بل هم قوم يعدلون) به غيره او يعدلون عن الحق الذى هو التوحيد وبل هم بعد الخطاب ابلغ فى تخطئة رأيهم (أم من جعل الارض) وما بعده بدل من أمن خلق فكان حكمها حكمه (قرارا) دحاها وسواها للاستقرار عليها (وجعل خلالها) ظرف اى وسطها وهو المفعول الثانى والاول (أنهارا) وبين البحرين مثله (وجعل لها) للارض (رواسى) جبالا تمنعها عن الحركة (وجعل بين البحرين) العذب والمالح (حاجزا) مانعا ان يختلطا (أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون) التوحيد فلا يؤمنون (أم من يجيب المضطر اذا دعاه) الاضطرار افتعال

من الضرورة وهى الحالة المحوجة الى اللجا يقال اضطره الى كذا والفاعل والمفعول مضطر والمضطر الذى احوجه مرض اوفقر اونازلة من نوازل الدهر الى اللجا والتضرع الى الله اوالمذنب اذا استغفر اوالمظلوم اذا دعا اومن رفع يديه ولم ير لنفسه حسنة غير التوحيد وهو منه على خطر (ويكشف السوء) الضر اوالجور (ويجعلكم خلفاء الارض) اى فيها وذلك توارثهم سكناها والتصرف فيها قرنا بعد قرن او اراد بالخلافة الملك والتسلط (أإله مع الله قليلا ما تذكرون) وبالياء ابو عمرو وبالتخفيف حمزة وعلى وحفص وما مزيدة اى تذكرون تذكرا قليلا (أم من يهديكم) يرشدكم بالنجوم (فى ظلمات البر والبحر) ليلا وبعلامات فى الارض نهارا (ومن يرسل الرياح) الريح مكى وحمزة وعلى (بشرا) من البشارة وقد مر فى الاعراف (بين يدى رحمته) قدام المطر (أإله مع الله تعالى الله عما يشركون أم من يبدأ الخلق) ينشأ الخلق

بحمد الله على هلاك كفار الامم الخالية وقيل بحمده على جميع نعمه وسلام على عباده الذين اصطفى يعنى الانبياء والمرسلين وقال ابن عباس هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقيل هم كل المؤمنين من السابقين واللاحقين (آلله خير اما يشركون) فيه تبكيت للمشركين والزام الحجة عليهم بعد هلاك الكفار والمعنى آلله خير لمن عبده أم الاصنام لمن عبدها فان الله خير لمن عبده وآمن به لا غنائه عنه من الهلاك والاصنام لم تغن شيئا عن عابديها عند نزول العذاب ولهذا السبب ذكر أنواعا تدل على وحدانيته وكمال قدرته فالنوع الاول قوله تعالى (أم من خلق السموات والارض) ذكر أعظم الاشياء المشاهدة الدالة على عظيم قدرته والمعنى ألاصنام خير أم الذى خلق السموات والارض ثم ذكر نعمه فقال (وأنزل لكم من السماء ماء) يعنى المطر (فأنبتنا به حدائق) أى بساتين جمع حديقة وهو البستان المحيط عليه فان لم يكن عليه حائط فليس بحديقة (ذات بهجة) اى ذات منظر حسن والبهجة الحسن يبتهج به من يراه (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) يعنى ما ينبغى لكم لانكم لا تقدرون على ذلك لان الانسان قد يقول انا المنبت للشجرة بأن أغرسها وأسقيها الماء فأزال الله هذه الشبهة بقوله ما كان لكم ان تنبتوا شجرها لان انبات الحدائق المختلفة الاصناف والطعوم والروائح المختلفة والزروع تسقى بماء واحد لا يقدر عليه الا الله تعالى ولا يتأتى لاحد وان تأتى ذلك لغيره محال (أإله مع الله) يعنى هل معه معبود أعانه على صنعه (بل) يعنى ليس معه اله ولا شريك (هم قوم) يعنى كفار مكة (يعدلون) يشركون وقيل يعدلون عن هذا الحق الظاهر الى الباطل النوع الثانى قوله عز وجل (أم من جعل الارض قرارا) أى دحاها وسواها للاستقرار عليها وقيل لا تميد بأهلها (وجعل خلالها أنهارا) أى وسطها بأنهار تطرد بالمياه (وجعل لها رواسى) أى جبالا ثوابت (وجعل بين البحرين) يعنى العذب والملح (حاجزا) اى مانعا لا يختلط أحدهما بالآخر (أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون) أى توحيد ربهم وقدرته وسلطانه النوع الثالث قوله تعالى (أم من يجيب المضطر) أى المكروب المجهود وقيل المضرور بالحاجة المحوجة من مرض أو نازلة من نوازل الدهر يعنى اذا نزلت بأحد بادر الى الالتجاء والتضرع الى الله تعالى وقيل هو المذنب اذا استغفر (اذا دعاه) يعنى فيكشف ضره (ويكشف السوء) أى الضر لانه لا يقدر على تغيير حال من فقر الى غنى ومن مرض الى صحة ومن ضيق الى سعة الا القادر الذى لا يعجز والقاهر الذى لا يغلب ولا ينازع (ويجعلكم خلفاء الارض) اى سكانها وذلك انه ورثهم سكناها والتصرف فيها قرنا بعد قرن وقيل يجعل أولادكم خلفاء لكم وقيل جعلكم خلفاء الجن فى الارض (أإله مع الله قليلا ما تذكرون) اى تتعظون النوع الرابع قوله عز وجل (أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر) اى يهديكم بالنجوم والعلامات اذا جن عليكم الليل مسافرين فى البر والبحر (ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) اى قدام المطر (أإله مع الله تعالى الله عما يشركون) النوع الخامس قوله تعالى (أم من يبدأ الخلق)

(ثم يعيده) وانما قيل لهم ثم يعيده وهم منكرون للاعادة لانه ازيحت علتهم بالتمكين من المعرفة والاقرار فلم يبق لهم عذر في الانكار (ومن يرزقكم من السماء) اي المطر (والارض) اي ومن الارض النبات (أاله مع الله قل هاتوا برهانكم) حجتكم على اشراككم (ان كنتم صادقين) في دعواكم ان مع الله الها آخر (قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله) من فاعل يعلم والغيب هو ما لم يقم عليه دليل ولا اطلع عليه مخلوق مفعول والله بدل من من والمعنى لا يعلم أحد الغيب الا الله نعم ان الله تعالى يتعالى على ان يكون ممن في السموات والارض ولكنه جاء على لغة بني تميم حيث يجرون الاستثناء المنقطع مجرى المتصل ويجيزون النصب والبدل في المنقطع كما في المتصل ويقولون ما في الدار احد الا حمار وقالت عائشة رضي الله عنها من زعم انه يعلم ما في غد فقد اعظم على الله الفرية والله تعالى يقول قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله وقيل نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة (وما يشعرون) وما يعلمون (ايان) متى (يبعثون) ينشرون (بل أدرك) مكي وبصري ويزيد والمفضل اي انتهى وتكامل من ادركت الفاكهة تكاملت نضجا بل ادرك عن الاعشى افتعل بل ادارك غيرهم استحكم واصله تدارك فادغمت التاء في الدال وزيد ألف الوصل ليمكن التكلم بها (علمهم في الآخرة) اي في شأن الآخرة ومعناها والمعنى ان اسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة فقد حصلت لهم ومكنوا من معرفته وهم شاكون جاهلون وذلك قوله (بل هم في شك منها بل هم منها عمون) والاضرابات الثلاث تنزيل لاحوالهم وتكرير لجهلهم وصفهم أولا بأنهم لا يشعرون وقت البعث ثم بأنهم لا يعلمون ان القيامة كائنة ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية فلا يزيلونه والازالة مستطاعة

ثم بما هو اسوأ حالا وهو العمى وقد جعل الآخرة مبتدأ عماهم ومنشأه فلذا عداه بمن دون عن لان الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي منعهم عن التدبر والتفكر ووجه ملاءمة مضمون هذه الآية وهو وصف المشركين بانكارهم البعث مع استحكام اسباب العلم والتمكن من المعرفة بما قبله وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب وان العباد لا علم لهم بشيء منه انه لما ذكر ان العباد لا يعلمون الغيب وكان هذا بيانا لعجزهم ووصفا لقصور علمهم وصل به ان عندهم عجزا ابلغ منه وهو انهم يقولون للكائن الذي لا بد من كونه وهو وقت جزاء أعمالهم لا يكون مع ان عندهم اسباب معرفة كونه واستحكام العلم به وجاز ان يكون وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكما بهم كما تقول لاجهل الناس ما اعلمك على سبيل الهزء وذلك حيث شكوا وعموا عن اثباته الذي الطريق الى علمه مسلوك فضلا ان يعرفوا وقت كونه الذي لا طريق الى معرفته ويجوز ان يكون ادرك بمعنى انتهى وفني من قولك ادركت الثمرة لان تلك غايتها التي عندها تعدم وقد فسرها الحسن باضمحل علمهم في الآخرة وتدارك من تدارك بنو فلان اذا تتابعوا في الهلاك (وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون) من قبورنا احياء وتكرير حرف الاستفهام في اذا وانا في قراءة عاصم وحمزة وخلف انكار بعد انكار وجحود عقيب جحود ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه والعامل في اذا ما دل عليه لمخرجون وهو نخرج لان اسم الفاعل والمفعول بعد همزة الاستفهام او ان او لام الابتداء لا يعمل فيما قبله فكيف اذا اجتمعن والضمير في انا لهم ولآبائهم لان كونهم ترابا قد تناولهم وآباءهم لكنه غلبت الحكاية على الغائب وآباؤنا عطف على الضمير في كنا لان المفعول جرى مجرى التوكيد (لقد وعدنا هذا) اي البعث (نحن وآباؤنا من قبل) من قبل محمد صلى الله عليه وسلم قدم هنا هذا على نحن وآباؤنا وفي المؤمنون نحن وآباؤنا على هذا ليدل على ان المقصود بالذكر هو البعث هنا وثمة المبعوثون (ان هذا الا أساطير الاولين) ما هذا الا أحاديثهم واكاذيبهم (قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) اي آخر امر الكافرين وفي ذكر الاجرام لطف بالمسلمين في ترك الجرائم كقوله تعالى فدمدم عليهم ربهم بذنبهم وقوله مما خطيئاتهم اغرقوا (ولا تحزن عليهم) لاجل انهم لم يتبعوك ولم يسلموا فيسلموا (ولا تكن في ضيق) في حرج صدر (مما يمكرون) من مكرهم وكيدهم لك فان الله يعصمك من الناس يقال ضاق الشيء ضيقا بالفتح وهو قراءة غير ابن كثير وبالكسر وهو قراءته (ويقولون متى هذا الوعد) اي وعد العذاب (ان كنتم صادقين) ان العذاب نازل بالمكذب (قل عسى ان يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون) استعجلوا العذاب الموعود فقيل لهم عسى ان يكون ردفكم بعضه وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام للتأكيد كالباء في ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة او ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو دنا لكم وأزف لكم ومعناه تبعكم ولحقكم وعسى ولعل وسوف في وعد الملوك ووعيدهم يدل على صدق الامر وجده فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده (وان ربك لذو فضل) اي افضال (على الناس) بترك المعاجلة بالعذاب

أي نطفا في الارحام (ثم يعيده) بعد الموت (ومن يرزقكم من السماء والارض) أي من السماء بالمطر ومن الارض بالنبات (أاله مع الله قل هاتوا برهانكم) أي حجتكم على قولكم ان مع الله الها آخر (ان كنتم صادقين) قوله تعالى (قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله) نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة والمعنى ان الله هو الذي يعلم الغيب وحده ويعلم متى تقوم الساعة (وما يشعرون ايان يبعثون) يعني ان من في السموات وهم الملائكة ومن في الارض وهم بنو آدم لا يعلمون متى يبعثون والله تعالى تفرد بعلم ذلك (بل اداركَ علمهم) اي بلغ ولحق علمهم (في الآخرة) هو ما جهلوه في الدنيا وسقط عنهم علمه وقيل بل علموا في الآخرة حين عاينوها ما شكوا فيه وعموا عنه في الدنيا وهو قوله تعالى (بل هم في شك منها) أي هم اليوم في شك من الساعة (بل هم منها عمون) جمع عم وهو أعمى القلب وقيل معنى الآية ان الله أخبر عنهم انهم اذا بعثوا يوم القيامة يستوي علمهم في الآخرة وما وعدوا فيها من الثواب والعقاب وان كانت علومهم مختلفة في الدنيا قوله تعالى (وقال الذين كفروا) اي مشركو مكة (أئذا كنا ترابا أئنا لمخرجون) اي من قبورنا أحياء (لقد وعدنا هذا) اي هذا البعث (نحن وآباؤنا من قبل) اي من قبل محمد صلى الله عليه وسلم وليس ذلك بشيء (ان هذا) اي ما هذا (الا اساطير الاولين) اي أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها (قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ولا تحزن عليهم) اي بتكذيبهم اياك واعراضهم عنك (ولا تكن في ضيق مما يمكرون) نزلت في المستهزئين الذين اقتسموا عقاب مكة (ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قل عسى ان يكون ردف) اي دنا وقرب (لكم) وقيل معناه ردفكم (بعض الذي تستعجلون) أي من العذاب فحل بهم ذلك يوم بدر قوله عز وجل (وان ربك لذو فضل على الناس)

(ولكن أكثرهم لا يشكرون) اى أكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه ولا يشكرونه فيستعجلون العذاب بجهلهم (وان ربك ليعلم ما تكن) تخفى (صدورهم وما يعلنون) يظهرون من القول فليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم ولكن له وقت مقدر أو انه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكايدهم وهو معاقبهم على ذلك بما يستحقونه وقرئ تكن يقال كننت الشئ وأكننته اذا سترته واخفيته (وما من غائبة فى السماء والارض الا فى كتاب مبين) سمى الشئ الذى يغيب ويخفى غائبة وخافية والتاء فيهما كالتاء فى العاقبة والعافية ونظائرهما الرمية والذبيحة والنطيحة فى انها اسماء غير صفات ويجوز ان يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة كالراوية كأنه قال وما من شئ شديد الغيبوبة الا وقد علمه الله واحاط به واثبته فى اللوح المحفوظ والمبين الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة (ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل) اى يبين لهم (أكثر الذى هم فيه يختلفون) فانهم اختلفوا فى المسيح فتحزبوا فيه احزابا ووقع بينهم التناكر فى اشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضا وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو انصفوا وأخذوا به واسلموا يريد اليهود والنصارى (وانه) وان القرآن (لهدى ورحمة للمؤمنين) لمن انصف منهم وآمن اى من بنى اسرائيل او منهم ومن غيرهم (ان ربك يقضى بينهم) بين من آمن بالقرآن ومن كفر به (بحكمه) بعدله لانه لا يقضى الا بالعدل فسمى المحكوم به حكما او بحكمته ويدل عليه قراءة من قرأ بحكمه جمع حكمة (وهو العزيز) فلا يرد قضاؤه (العليم) بمن يقضى له وبمن يقضى عليه او العزيز فى انتقامه من المبطلين العليم بالفصل بينهم وبين المحقين (فتوكل على الله) امره بالتوكل على الله وقلة المبالاة بأعداء الدين (انك على الحق المبين) وعلل التوكل بأنه على الحق الابلج وهو الدين الواضح الذى لا يتعلق به شك وفيه بيان ان صاحب الحق حقيق بالوثوق بالله وبنصرته (انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) لما كانوا لا يعون ما يسمعون ولا به ينتفعون شبهوا بالموتى وهم احياء صحاح الحواس وبالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون وبالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد ان ينزع ذلك عنهم ويجعلهم هداة بصراء الا الله تعالى ثم اكد حال الصم بقوله اذا ولوا مدبرين لانه اذا تباعد عن الداعى بأن تولى عنه مدبرا كان ابعد عن ادراك صوته ولا يسمع الصم مكى وكذا فى الروم وما أنت تهدى العمى وكذا فى الروم حمزة (ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا) اى ما يجدى اسماعك الا على الذين علم الله انهم يؤمنون بآياته اى يصدقون بها (فهم مسلمون) مخلصون من قوله بلى من اسلم وجهه لله يعنى جعله سالما لله خالصا له (واذا وقع القول عليهم) سمى معنى القول ومؤداه بالقول وهو ما وعدوا من قيام الساعة والعذاب ووقوعه حصوله والمراد مشارفة الساعة وظهور اشراطها وحين لا تنفع التوبة (أخرجنا لهم دابة من الارض)

يعنى على أهل مكة حيث لم يعجل لهم بالعذاب (ولكن أكثرهم لا يشكرون) اى ذلك (وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم) اى تخفى (وما يعلنون) اى من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما من غائبة) اى جملة غائبة من مكتوم سر وخفى أمر وشئ غائب (فى السماء والارض الا فى كتاب مبين) يعنى فى اللوح المحفوظ (ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل) اى يبين لهم (أكثر الذى هم فيه يختلفون) اى من الدين وذلك ان أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أحزابا يطعن بعضهم على بعض فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه (وانه) يعنى القرآن (لهدى ورحمة للمؤمنين ان ربك يقضى بينهم) اى يفصل بينهم ويحكم بين المختلفين فى الدين يوم القيامة (بحكمه) اى الحق (وهو العزيز) الممتنع الذى لا يرد له أمر (العليم) اى بأحوالهم فلا يخفى عليه شئ منها (فتوكل على الله) اى ثق به (انك على الحق المبين) اى البين (انك لا تسمع الموتى) يعنى موتى القلوب وهم الكفار (ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين) اى معرضين فان قلت ما معنى مدبرين والاصم لا يسمع صوتا سواء أقبل أو ادبر قلت هو تأكيد ومبالغة وقيل ان الاصم اذا كان حاضرا قد يسمع برفع الصوت أو يفهم بالاشارة فاذا ولى لم يسمع ولم يفهم ومعنى الآية انه لفرط اعراضهم عما يدعون اليه كالميت الذى لا سبيل الى اسماعه وكالاصم الذى لا يسمع ولا يفهم (وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) معناه ما انت بمرشد من اعماه الله عن الهدى وأعمى قلبه عن الايمان (ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا) الا من يصدق بالقرآن انه من الله (فهم مسلمون) اى مخلصون قوله تعالى (واذا وقع القول عليهم) يعنى اذا وجب عليهم العذاب وقيل اذا غضب الله عليهم وقيل اذا وجبت الحجة عليهم وذلك انهم لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر وقيل اذا لم يرج صلاحهم وذلك فى آخر الزمان قبل قيام الساعة (أخرجنا لهم دابة من الارض) (م) عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بادروا بالاعمال ستا طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخويصة أحدكم وأمر العامة (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالاخرى على اثرها قريبا عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان وعصا موسى فتجلو وجه المؤمن وتخطم انف الكافر بالخاتم حتى ان أهل الحق ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر أخرجه الترمذى وقال حديث حسن وروى البغوى باسناده عن الثعلبى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجا بأقصى اليمن فيفشو ذكرها بالبادية لا يدخل ذكرها القرية يعنى مكة ثم تمكث زمانا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى قريبا من مكة فيفشو ذكرها بالبادية ويدخل ذكرها القرية يعنى مكة ثم بينا الناس يوما فى أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها على الله يعنى المسجد الحرام لم يرعهم الا وهى فى ناحية المسجد تدنو وتدنو كذا قال عمرو ما بين الركن الاسود الى باب بنى مخزوم عن يمين الخارج فى وسط من ذلك فارفض الناس عنها وثبتت لها عصابة عرفوا أنهم لم يعجزوا الله فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فمرت بهم فجلت وجوههم حتى تركتها كأنها الكواكب الدرية ثم ولت فى الارض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب حتى ان الرجل ليقوم فيتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلى فيقبل عليها بوجهه فتسمه فى وجهه فيتجاور

تكلمهم) هي الجساسة في الحديث طولها ستون ذراعا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب ولها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان وقيل لها رأس ثور وعين خنزير واذن فيل وقرن ايل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هرة وذنب كبش وخف بعير وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعا تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية فتقول (ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) اى لا يوقنون بخروجى لان خروجها من الآيات وتقول الا لعنة الله على الظالمين او تكلمهم ببطلان الاديان كلها سوى دين الاسلام او بأن هذا مؤمن وهذا كافر وفتح أن كوفي وسهل على حذف الجار اى تكلمهم بأن وغيرهم كسروا لان الكلام بمعنى القول او باضمار القول اى تقول الدابة ذلك ويكون المعنى بآيات ربنا أو حكاية لقول الله تعالى عند ذلك ثم ذكر قيام الساعة فقال (ويوم نحشر من كل أمة فوجا) من للتبعيض اى واذكر يوم نجمع من كل أمة من الامم زمرة (ممن يكذب) من للتبيين (بآياتنا) المنزلة على أنبيائنا (فهم يوزعون) يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ثم يساقون الى موضع الحساب وهذه عبارة عن كثرة العدد وكذا الفوج عبارة عن الجماعة الكثيرة (حتى اذا جاؤا) حضروا موقف الحساب والسؤال (قال) لهم تعالى تهديدا (أكذبتم بآياتى) المنزلة على رسلى (ولم تحيطوا بها علما) الواو للحال كأنه قال أكذبتم بآياتى بادئ الرأى من غير فكر ولا نظر يؤدى الى احاطة العلم بكنهها وانها حقيقة بالتصديق او بالتكذيب (ام ماذا كنتم تعملون) حيث لم تتفكروا فيها فانكم لم تخلقوا عبثا (ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون) اى يغشاهم العذاب الموعود بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله هذا يوم لا ينطقون (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا) حال جعل الابصار للنهار وهو لاهله والتقابل مراعى من حيث المعنى لان معنى مبصرا ليبصروا فيه طرق التقلب فى المكاسب (ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) يصدقون فيعتبرون وفيه دليل على صحة البعث لان معناه ألم يعلموا انا جعلنا الليل والنهار قواما لمعاشهم فى الدنيا ليعلموا ان ذلك لم يجعل عبثا بل محنة وابتلاء ولا بد عند ذلك من ثواب وعقاب فاذا لم يكونا فى هذه الدار فلا بد من دار أخرى للثواب والعقاب (ويوم) واذكر يوم (ينفخ فى الصور) وهو قرن او جمع صورة والنافخ أسرافيل عليه السلام (ففزع من فى السموات ومن فى الارض) اختير فزع على يفزع للاشعار بتحقق الفزع وثبوته وانه كائن لا محالة والمراد فزعهم عند النفخة الاولى حين يصعقون (الا من شاء الله) الا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا هم جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت عليهم السلام الاربعة وقيل الشهداء وقيل الحور وخزنة النار وحملة العرش وعن جابر رضى الله عنه منهم موسى عليه السلام لانه صعق مرة ومثله ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات

الناس فى ديارهم ويصطحبون فى أسفارهم ويشتركون فى الاموال يعرف الكافر من المؤمن فيقال للمؤمن يا مؤمن وللكافر يا كافر وباسناد الثعلبى عن حذيفة بن اليمان ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة قلت يا رسول الله من اين تخرج قال من أعظم المساجد حرمة على الله فبينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون اذ تضطرب الارض وينشق الصفا مما يلى المسعى وتخرج الدابة من الصفا أول ما يخرج منها رأسها ملمعة ذات وبر وريش لن يدركها طالب ولن يفوتها هارب تسم الناس مؤمنا وكافرا اما المؤمن فتترك وجهه كأنه كوكب درى وتكتب بين عينيه مؤمن واما الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء وتكتب بين عينيه كافر وروى عن ابن عباس انه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال ان الدابة لتسمع قرع عصاى هذه وعن ابن عمر قال تخرج الدابة ليلة جمع والناس يسيرون الى منى وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال بئس الشعب شعب اجياد مرتين أو ثلاثا قيل ولم ذاك يا رسول الله قال تخرج منه الدابة تصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين وروى عن ابن الزبير انه وصف الدابة فقال رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير وأذنها أذن فيل وقرنها قرن ايل وصدرها صدر اسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هر وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعا وعن عبد الله بن عمرو قال تخرج الدابة من شعب اجياد فتمس رأسها السحاب ورجلاها فى الارض وروى عن على قال ليست بدابة لها ذنب ولكن لها لحية وقال وهب وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير فتخبر من رآها ان أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون (تكلمهم) اى بكلام فصيح قيل تقول هذا مؤمن وهذا كافر وقيل تقول ما أخبر الله تعالى (ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) تخبر الناس عن أهل مكة انهم لم يؤمنوا بالقرآن والبعث وقرئ تكلمهم بتخفيف اللام من الكلم وهو الجرح وقال ابن الجوزى سئل ابن عباس عن هذه الآية تكلمهم وتكلمهم فقال كل ذلك تفعل تكلم المؤمن وتكلم الكافر قوله تعالى (ويوم نحشر من كل أمة فوجا) اى نحشر من كل قرن جماعة (ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون) أى يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ثم يساقوا الى النار (حتى اذا جاؤا) يعنى يوم القيامة (قال) الله تعالى لهم (أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما) اى ولم تعرفوها حق معرفتها (ام ماذا كنتم تعملون) اى حين لم تفكروا فيها وقيل معنى الآية أكذبتم بآياتى غير عالمين بها ولم تتفكروا فى صحتها بل كنتم بها جاهلين (ووقع القول) اى وجب العذاب (عليهم بما ظلموا) اى بما أشركوا (فهم لا ينطقون) اى بحجة وقيل ان أفواههم مختومة (ألم يروا انا جعلنا) اى انا خلقنا (الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا) اى مضيئا يبصر فيه وفى الآية دليل على البعث بعد الموت لان القادر على تقليب الضياء ظلمة والظلمة ضياء قادر على الاعادة بعد الموت (ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) اى يصدقون فيعتبرون قوله تعالى (ويوم ينفخ فى الصور) هو قرن ينفخ فيه اسرافيل قال الحسن الصور هو القرن ومعنى كلامه ان الارواح تجمع فى القرن ثم ينفخ فيه فتذهب فى الاجساد فتحيا بها الاجساد (ففزع) اى فصعق (من فى السموات ومن فى الارض) اى ماتوا والمعنى انه يلقى عليهم الفزع الى ان يموتوا وقيل ينفخ اسرافيل فى الصور ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة القيام لرب العالمين (الا من شاء الله) روى ابو هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى الا من شاء الله قال هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش وقال ابن عباس هم الشهداء لانهم أحياء عند ربهم لا يصل اليهم الفزع وقيل يعنى جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل فلا يبقى بعد النفخة الا هؤلاء

الاربعة ويروى ان الله تعالى يقول لملك الموت خذ نفس اسرافيل فيأخذ نفسه ثم يقول من بقي يا ملك الموت فيقول سبحانك ربي تباركت وتعاليت ياذا الجلال والاكرام وجهك الباقي الدائم بقي جبريل وميكائيل وملك الموت فيقول خذ نفس ميكائيل فيأخذ نفس ميكائيل فيقع كالطود العظيم فيقول من بقي من خلقي فيقول سبحانك ربي تباركت وتعاليت بقي جبريل وملك الموت فيقول مت يا ملك الموت فيموت فيقول يا جبريل من بقي فيقول تباركت وتعاليت ياذا الجلال والاكرام بقي وجهك الدائم الباقي وجبريل الميت الفاني فيقول الله يا جبريل لا بد من موتك فيقع ساجدا يخفق بجناحيه فيروى ان فضل خلقه على ميكائيل كفضل الطود العظيم على ظرب من الظراب ويروى انه يبقى مع هؤلاء الاربعة حملة العرش فيقبض روح جبريل ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم أرواح حملة العرش ثم روح ملك الموت فاذا لم يبق أحد الا الله تبارك وتعالى طوى السماء كطي السجل للكتاب ثم يقول الله أنا الجبار لمن الملك اليوم فلا يجيبه أحد فيقول الله تعالى لله الواحد القهار (ق) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من رفع رأسه فاذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا ادري اكان ممن استثنى الله عز وجل ام رفع رأسه قبلي ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب وقيل الذين استثنى الله هم رضوان والحور ومالك والزبانية وقوله تعالى (وكل) أي وكل الذين احيوا بعد الموت (اتوه) أي جاؤه (داخرين) اي صاغرين قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة) أي قائمة واقفة (وهي تمر مر السحاب) أي تسير سير السحاب حتى تقع على الارض فتستوي بها وذلك ان كل شئ عظيم وكل جسم كبير وكل جمع كثير يقصر عنه البصر لكثرته وعظمه وبعد ما بين اطرافه فهو في حساب الناظر واقف وهو سائر كذلك سير الجبال يوم القيامة لا يرى لعظمها كما ان سير السحاب لا يرى لعظمه (صنع الله الذي أتقن كل شئ) يعني الله تعالى لما قدم هذه الاشياء كلها التي لا يقدر عليها غيره جعل ذلك الصنع من الاشياء التي اتقنها واحكمها واتى بها على وجه الحكمة والصواب (انه خبير بما يفعلون) قوله تعالى (من جاء بالحسنة) أي بكلمة الاخلاص وهي شهادة أن لا اله الا الله وقيل الاخلاص في العمل وقيل الحسنة كل طاعة عملها لله عز وجل (فله خير منها) قال ابن عباس فمنها يصل الى الخير يعني انه له من تلك الحسنة خير يوم القيامة وهو الثواب والامن من العذاب اما ان يكون له شئ خير من الايمان فلا لانه لا شئ خير من لا اله الا الله قيل جزاء الاعمال والطاعات الثواب والجنة وجزاء الايمان والاخلاص رضوان الله والنظر اليه لقوله ورضوان من الله وقيل معنى خير منها الاضعاف اعطاه الله بالواحدة عشرا اضعافها لان الحسنة استحقاق العبد والتضعيف تفضيل الرب تبارك وتعالى (وهم من فزع يومئذ آمنون) فان قلت كيف نفى الفزع هنا وقد قال قبله ففزع من في السموات ومن في الارض قلت ان الفزع الاول هو ما لا يخلو عنه أحد عند الاحساس بشدة تقع وهول يفجأ من رعب وهيبة وان كان المحسن يأمن وصول ذلك الضرر اليه واما الفزع الثاني فهو الخوف من العذاب فهم آمنون منه واما ما يلحق الانسان من الرعب عند مشاهدة الاهوال فلا ينفك منه أحد (ومن جاء بالسيئة) يعني الشرك (فكبت وجوههم في النار) عبر بالوجه عن جميع البدن كانه قال كبوا وطرحوا جميعهم في النار (هل تجزون الا ما كنتم تعملون) أي تقول لهم خزنة جهنم هل تجزون الا ما كنتم تعملون في الدنيا من الشرك وقوله تعالى (انما أمرت) يعني يقول الله تعالى لرسوله قل انما أمرت (ان أعبد رب هذه البلدة) يعني امرت ان اخص بعبادتي وتوحيدي الله الذي هو رب هذه البلدة يعني مكة وانما خصها من بين سائر البلاد بالذكر لانها مضافة اليه واحب البلاد وأكرمها عليه واشار اليها اشارة تعظيم لانها موطن نبيه ومهبط وحيه (الذي حرمها) اي جعلها الله حرما آمنا لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها احد ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها ولا يدخلها الا محرم وانما ذكر انه هو الذي حرمها لان العرب كانوا معترفين بفضيلة مكة وان تحريمها من الله لا من

ومن في الارض الا من شاء الله (وكل أتوه) حمزة وحفص وخلف آتوه غيرهم واصله آتيوه (داخرين) حال أي صاغرين ومعنى الاتيان حضورهم الموقف ورجوعهم الى أمره تعالى وانقيادهم له (وترى الجبال تحسبها) بفتح السين شامي وحمزة ويزيد وعاصم وبكسرها غيرهم حال من المخاطب (جامدة) واقفة ممسكة عن الحركة من جمد في مكانه اذا لم يبرح (وهي تمر) حال من الضمير المنصوب في تحسبها (مر السحاب) اي مثل مر السحاب والمعنى انك اذا رأيت الجبال وقت النفخة ظننتها ثابتة في مكان واحد لعظمها وهي تسير سيرا سريعا كالسحاب اذا ضربته الريح وهكذا الاجرام العظام المتكاثرة العدد اذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها كما قال النابغة في صفة جيش

بأرعن مثل الطود تحسب انهم
وقوف لحاج والركاب تهملج

(صنع الله) مصدر عمل فيه ما دل عليه تمر لان مرورها كمر السحاب من صنع الله فكانه قيل صنع الله ذلك صنعا وذكر اسم الله لانه لم يذكر قبل (الذي أتقن كل شئ) أي احكم خلقه (انه خبير بما يفعلون) مكي وبصري غير سهل وابو بكر غير يحيى وغيرهم بالتاء اي انه عالم بما يفعل العباد ومكافئهم على حسب ذلك بقوله (من جاء بالحسنة) اي بقول لا اله الا الله عند الجمهور (فله خير منها) اي فله خير حاصل من جهتها وهو الجنة وعلى هذا لا يكون خير بمعنى افضل ويكون منها في موضع رفع صفة لخير اي بسببها (وهم من فزع) كوفي اي من فزع شديد مفرط الشدة وهو خوف النار او من فزع ما وان قل وبغير تنوين غيرهم (يومئذ) كوفي ومدني وبكسر الميم غيرهم والمراد يوم القيامة (آمنون) امن يعدى بالجار وبنفسه كقوله أفأمنوا مكر الله (ومن جاء بالسيئة) بالشرك (فكبت) القيت (وجوههم في النار) يقال كببت الرجل القيته على وجهه اي القوا على رؤسهم في النار او عبر عن الجملة بالوجه كما يعبر بالرأس والرقبة عنها اي القوا في النار ويقال لهم تبكيتا عند الكب (هل تجزون الا ما كنتم تعملون) في الدنيا من الشرك والمعاصي (انما أمرت ان أعبد رب هذه البلدة) مكة (الذي حرمها) جعلها حرما آمنا يأمن فيها اللاجئ اليها ولا يختلى

لاهـا ولا يعضد شوكها ولا ينفر صيدها (وله كل شئ) مع هذه البلدة فهو مالك الدنيا والآخرة (وأمرت ان اكون من المسلمين) المنقادين له (وان أتلو القرآن) من التلاوة او من التلو كقوله واتبع ما يوحى اليك من ربك امر رسوله بأن يقول امرت ان أخص الله وحده بالعبادة ولا اتخذ له شريكا كما فعلت قريش وان أكون من الحنفاء الثابتين على ملة الاسلام وان اتلو القرآن لاعرف الحلال والحرام وما يقتضيه الاسلام وخص مكة من بين سائر البلاد باضافة اسمه اليها لانها احب بلاده اليه وأعظمها عنده وأشار اليها بقوله هذه اشارة تعظيم لها وتقريب دالا على انها موطن نبيه ومهبط وحيه ووصف ذاته بالتحريم الذى هو خاص وصفها وجعل دخول كل شئ تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتها (فمن اهتدى) باتباعه اياى فيما أنا بصدده من توحيد الله ونفى الشركاء عنه والدخول فى الملة الحنيفية واتباع ما أنزل على من الوحى (فانما يهتدى لنفسه) فمنفعة اهتدائه راجعة اليه لا الى (ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين) اى ومن ضل ولم يتبعنى فلا على وما أنا الا رسول منذر وما على الرسول الا البلاغ المبين (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها) ثم امره ان يحمد الله على ما خوله من نعمة النبوة التى لا توازيها نعمة وان يهدد اعداءه بما سيريهم الله من آياته فى الآخرة فيستيقنون بها وقيل هو انشقاق القمر والدخان وما حل بهم من نقمات الله فى الدنيا (وما ربك بغافل عما تعملون) بالتاء مدنى وشامى وحفص ويعقوب خطاب لاهل مكة وبالياء غيرهم اى كل عمل يعملونه فان الله عالم به غير غافل عنه فالغفلة والسهو لا يجوزان عليه

(سورة القصص مكية ثمانون وثمان آيات)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسم تلك آيات الكتاب المبين) يقال بان الشئ وابان بمعنى واحد ويقال ابنته فأبان لازم ومتعد اى مبين خيره وبركته او مبين للحلال والحرام والوعد والوعيد والاخلاص والتوحيد (نتلو عليك) نقرأ عليك اى يقرأه جبريل بأمرنا ومفعول نتلو (من نبا موسى وفرعون) اى نتلو عليك بعض خبرهما (بالحق) حال اى محقين (لقوم يؤمنون) لمن سبق فى علمنا انه مؤمن لان التلاوة انما تنفع هؤلاء دون غيرهم (ان فرعون) جملة مستأنفة كالتفسير للمجمل كان قائلا قال وكيف كان نبأهما فقال ان فرعون (علا) طغى وجاوز الحد فى الظلم واستكبر وافتخر بنفسه ونسى العبودية (فى الارض) اى ارض مملكته يعنى مصر (وجعل أهلها شيعا) فرقا يشيعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم ان يلوى عنقه اوفرقا مختلفة يكرم طائفة ويهين اخرى فأكرم القبطى واهان الاسرائيلى (يستضعف طائفة منهم) هم بنو اسرائيل (يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم) منهم اى يترك البنات احياء للخدمة وسبب ذبح الابناء ان كاهنا قال له يولد مولود فى بنى اسرائيل يذهب ملكك على يده وفيه دليل على حمق فرعون فانه ان صدق الكاهن لم ينفعه القتل وان كذب فما معنى القتل ويستضعف حال من الضمير فى وجعل او صفة لشيعا او كلام مستأنف ويذبح بدل من يستضعف (انه كان من المفسدين) اى ان القتل ظلما انما هو فعل المفسدين اذ لا طائل تحته صدق الكاهن او كذب (ونريد ان نمن) نتفضل وهو دليل لنا فى مسئلة الاصلح وهذه الجملة معطوفة على ان فرعون علا فى الارض لانها نظيرة تلك فى وقوعها تفسيرا لنبأ موسى وفرعون واقتصاصا له او حال من يستضعف اى يستضعفهم فرعون ونحن نريد ان نمن عليهم وارادة الله تعالى كائنة فجعلت كالمقارنة لاستضعافهم (على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة) قادة يقتدى بهم فى الخير او قادة الى الخير او ولاة وملوكا (ونجعلهم الوارثين) اى يرثون فرعون وقومه ملكهم وكل ما كان لهم (ونمكن) مكن له اذا جعل له مكانا يقعد عليه او يرقد ومعنى التمكين (لهم فى الارض) اى ارض مصر والشأم ان يجعلها بحيث لا تنبو بهم ويسلطهم وينفذ أمرهم (ونرى فرعون وهامان وجنودهما) بضم النون

الاصنام (وله كل شئ) أى خلقا وملكا (وأمرت ان أكون من المسلمين) لله المطيعين له (وان أتلو القرآن) اى امرت ان اتلو القرآن ولقد قام صلى الله عليه وسلم بكل ما أمر به اتم قيام على ما امر به (فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه) اى نفع اهتدائه يرجع اليه (ومن ضل) اى عن الايمان واخطأ طريق الهدى (فقل انما أنا من المنذرين) اى من المخوفين وما على الا البلاغ نسختها آية القتال (وقل الحمد لله) أى على جميع نعمه وقيل على ما وفقنى من القيام باداء الرسالة والانذار (سيريكم آياته) الباهرة ودلائله القاهرة قيل هو يوم بدر وهو ما اراهم من القتل والسبى وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم وقيل آياته فى السموات والارض وفى أنفسكم (فتعرفونها) أى فتعرفون الآيات والدلالات (وما ربك بغافل عما تعملون) فيه وعيد بالجزاء على أعمالهم والله سبحانه وتعالى أعلم

*(تفسير سورة القصص وهى مكية الا قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب الى قوله لا نبتغى الجاهلين وفيها آية نزلت بين مكة والمدينة وهى قوله ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد)

وهى ثمان وثمانون آية وأربعمائة واحدى وأربعون كلمة وخمسة آلاف وثمانمائة حرف

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (طسم تلك) اشارة الى آيات السورة (آيات الكتاب المبين) قيل هو اللوح المحفوظ وقيل هو الكتاب الذى أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم ووصفه بأنه مبين لانه بين فيه الحلال والحرام والحدود والاحكام (نتلو عليك من نبا) أى خبر (موسى وفرعون بالحق) اى بالصدق (لقوم يؤمنون) اى يصدقون بالقرآن (ان فرعون علا) اى تجبر وتكبر (فى الارض) اى ارض مصر (وجعل أهلها شيعا) اى فرقا فى أنواع الخدمة والتسخير (يستضعف طائفة منهم) يعنى بنى اسرائيل (يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم) سمى هذا استضعافا لانهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم (انه كان من المفسدين) أى بالقتل والتجبر فى الارض (ونريد ان نمن) اى ننعم (على الذين استضعفوا فى الارض) يعنى بنى اسرائيل (ونجعلهم أئمة) اى قادة فى الخير يقتدى بهم وقيل ولاة وملوكا (ونجعلهم الوارثين) يعنى املاك فرعون وقومه بأن نجعلهم فى مساكنهم (ونمكن لهم فى الارض) اى نوطن لهم أرض مصر والشأم ونجعلها لهم سكنا (ونرى فرعون وهامان وجنودهما

منهم ما كانوا يحذرون) اى يخافون وذلك انهم اخبروا ان هلاكهم على يد رجل من بنى اسرائيل وكانوا على حذر منه فأراهم الله ما كانوا يحذرون قوله تعالى (وأوحينا الى أم موسى) هو وحى الهام وذلك بأن قذف فى قلبها واسمها يوحانذ من نسل لاوى بن يعقوب (ان أرضعيه) قيل ارضعته ثمانية أشهر وقيل أربعة وقيل ثلاثة وكانت ترضعه وهو لا يبكى ولا يتحرك فى حجرها (فاذا خفت عليه) اى الذبح (فالقيه فى اليم) أى فى البحر واراد به نيل مصر (ولا تخافى) اى عليه من الغرق وقيل الضيعة (ولا تحزنى) اى على فراقه (انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين) قال ابن عباس ان بنى اسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصى ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر وسلط الله عليهم القبط فاستضعفوهم الى ان أنجاهم الله على يد نبيه موسى عليه الصلاة والسلام

(ذكر القصة فى ذلك) قال ابن عباس ان أم موسى لما تقاربت ولادتها كانت قابلة من القوابل التى وكلهن فرعون بحبالى بنى اسرائيل مصافية لام موسى فلما ضربها الطلق ارسلت اليها وقالت لها قد نزل بى ما نزل فلينفعنى حبك اياى اليوم فعالجت قبالها فلما ان وقع موسى بالارض هالها نور عينى موسى فارتعش كل مفصل فيها ودخل حب موسى قلبها ثم قالت لها يا هذه ما جئت اليك حين دعوتنى الا ومرادى قتل ولدك ولكن وجدت لابنك حبا ما وجدت حب شئ مثل حبه فاحفظى ابنك فانى أراه عدونا فلما خرجت القابلة من عندها ابصرها بعض العيون فجاؤا الى بابها ليدخلوا الى أم موسى فقالت اخته يا اماه هذا الحرس بالباب فلفته بخرقة وألقته فى التنور وهو مسجور وطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع قال فدخلوا فاذا التنور مسجور ورأوا ام موسى ولم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن فقالوا ما أدخل القابلة قالت هى مصافية لى فدخلت على زائرة فخرجوا من عندها فرجع اليها عقلها فقالت لاخته فأين الصبى فقالت لا ادرى فسمعت بكاء الصبى فى التنور فانطلقت اليه وقد جعل الله النار عليه بردا وسلاما فاحتملته قال ثم ان ام موسى لما رأت الحاح فرعون فى طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله فى قلبها ان تتخذ تابوتا له ثم تقذف التابوت فى النيل فانطلقت الى رجل نجار من قوم فرعون فاشترت منه تابوتا صغيرا فقال النجار ما تصنعين بهذا التابوت فقالت ابن لى اخبئه فى التابوت وكرهت الكذب قال ولم تقل أخشى عليه كيد فرعون فلما اشترت التابوت وحملته وانطلقت به انطلق النجار الى الذباحين ليخبرهم بأمر أم موسى فلما هم بالكلام امسك الله لسانه فلم يطق الكلام وجعل يشير بيديه فلم تدر الامناء ما يقول فلما اعياهم امره قال كبيرهم اضربوه فضربوه وأخرجوه فلما انتهى النجار الى موضعه رد الله عليه لسانه فتكلم فانطلق أيضا يريد الامناء فأتاهم ليخبرهم فأخذ لسانه وبصره فلم يطق الكلام ولم يبصر شيئا فضربوه واخرجوه وبقى حيران فجعل لله عليه ان رد عليه لسانه وبصره ان لا يدل عليه وان يكون معه فيحفظه حيثما كان فعرف الله صدقه فرد عليه لسانه وبصره فخر لله ساجدا فقال يا رب دلنى على هذا العبد الصالح فدله عليه فآمن به وصدقه وقال وهب لما حملت ام موسى بموسى كتمت امرها عن جميع الناس فلم يطلع على حملها أحد من خلق الله تعالى وذلك شئ ستره الله تعالى لما اراد ان يمن به على بنى اسرائيل فلما كانت الليلة التى ولد فيها بعث فرعون القوابل وتقدم الامين ففتش النساء تفتيشا لم يفتش قبل ذلك مثله وحملت بموسى ولم يتغير لونها ولم ينب بطنها فكانت القوابل لا تتعرض لها فلما كانت الليلة التى ولد فيها ولدته ولا رقيب عليها ولا قابلة ولم يطلع عليها أحد الا اخته مريم وأوحى الله اليها ان ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم فكتمته ثلاثة اشهر فلما خافت عليه عملت تابوتا مطبقا ثم القته فى اليم وهو البحر ليلا قال ابن عباس وغيره كان لفرعون يومئذ بنت ولم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس عليه وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها اليه وكان بها برص شديد وكان فرعون قد جمع لها الاطباء والسحرة فنظروا فى أمرها فقالوا ايها الملك لا تبرأ الا من قبل البحر يوجد فيه شبه الانسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك وذلك فى يوم كذا فى ساعة كذا حين تشرق الشمس فلما كان ذلك اليوم غدا

ونصب فرعون وما بعده وبالياء ورفع فرعون وما بعده على وحمزة أى يرون منهم ما حذروه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم ويرى نصب عطف على المنصوب قبله كقراءة النون اورفع على الاستئناف (منهم) من بنى اسرائيل ويتعلق بنرى دون يحذرون لان الصلة لا تتقدم على الموصول (ما كانوا يحذرون) الحذر التوقى من الضرر (وأوحينا الى أم موسى) بالالهام او بالرؤيا او باخبار ملك كما كان لمريم وليس هذا وحى رسالة ولا تكون هى رسولا (أن أرضعيه) ان بمعنى اى او مصدرية (فاذا خفت عليه) من القتل بأن يسمع الجيران صوته فينموا عليه (فألقيه فى اليم) البحر قيل هو نيل مصر (ولا تخافى) من الغرق والضياع (ولا تحزنى) بفراقه (انا رادوه اليك) بوجه لطيف لتربيته (وجاعلوه من المرسلين) وفى هذه الآية أمران ونهيان وخبران وبشارتان والفرق بين الخوف والحزن ان الخوف غم يلحق الانسان لمتوقع والحزن غم يلحقه لواقع وهو فراقه والاخطار به فنهيت عنهما وبشرت برده اليها وجعله من المرسلين وروى انه ذبح فى طلب موسى تسعون ألف وليد وروى انها حين ضربها الطلق وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالى بنى اسرائيل مصافية لها فعالجتها فلما وقع الى الارض هالها نور بين عينيه ودخل حبه قلبها فقالت ما جئتك الا لاقتل مولودك وأخبر فرعون ولكن وجدت لابنك حبا ما وجدت مثله فاحفظيه فلما خرجت القابلة جاءت عيون فرعون فلفته فى خرقة ووضعته فى تنور مسجور لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيئا فخرجوا وهى لا تدرى مكانه فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت اليه وقد جعل الله النار بردا وسلاما فلما الح فرعون فى طلب الولدان اوحى اليها بالقائه فى اليم فألقته فى اليم بعد ان أرضعته ثلاثة اشهر

(فالتقطه آل فرعون) أخذه قال الزجاج كان فرعون من أهل فارس من اصطخر (ليكون لهم عدوّا) أي ليصير الامر الى ذلك لا انهم اخذوه لهذا كقولهم للموت ما تلده الوالدة وهي لم تلد لان يموت ولدها ولكن المصير الى ذلك كذا قاله الزجاج وعن هذا قال المفسرون ان هذه لام العاقبة والصيرورة وقال صاحب الكشاف هي لام كي التي معناها التعليل كقولك جئتك لتكرمني ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز لان ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لاجله وهو الاكرام الذي هو نتيجة المجيء (وحزنا) وحزنا علي وحمزة وهما لغتان كالعدم والعدم (ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) خاطين تخفيف خاطئين أبو جعفر اي كانوا مذنبين فعاقبهم الله بأن ربى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم وكانوا خاطئين في كل شئ فليس خطأهم في تربية عدوهم ببدع منهم (وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك) روى انهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه فلم يقدروا عليه فعالجوا كسره فأعياهم فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نورا فعالجته ففتحته فاذا بصبي نوره بين عينيه فأحبوه وكانت لفرعون بنت برصاء فنظرت الى وجهه فبرأت فقالت الغواة من قومه هو الذي تحذر منه فأذن لنا في قتله فهم بذلك فقالت آسية قرة عين لي ولك فقال فرعون لك لا لي وفي الحديث لو قال كما قالت لهداه الله تعالى كما هداها وهذا على سبيل الفرض اي لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها وكان اسلم كما أسلمت وقرة خبر مبتدا محذوف أي هو قرة ولي ولك صفتان لقرة (لا تقتلوه) خاطبته خطاب الملوك أو خاطبت الغواة (عسى أن ينفعنا) فان فيه مخايل اليمن ودلائل النفع وذلك لما عاينت من النور وبرء البرصاء (أو نتخذه ولدا) او نتبناه فانه اهل لان يكون ولدا للملوك (وهم لا يشعرون) حال وذو حالها آل فرعون وتقدير الكلام فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون انهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء النفع منه وتبنيه وقوله ان فرعون الآية جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكدة لمعنى خطئهم وما أحسن نظم هذا الكلام عند أصحاب المعاني والبيان (وأصبح) وصار (فؤاد أم موسى فارغا) صفرا من العقل لما دهمها من فرط الجزع لما سمعت بوقوعه في يد فرعون (ان كادت لتبدي به) لتظهر به والضمير لموسى والمراد بأمره وقصته وانه ولدها قيل لما رأت الامواج تلعب بالتابوت كادت تصيح وتقول واابناه وقيل لما سمعت ان فرعون اخذ التابوت لم تشك انه يقتله فكادت تقول واابناه شفقة عليه وان مخففة من الثقيلة اي انها كادت (لولا أن ربطنا على قلبها) لولا ربطنا على قلبها والربط على القلب تقويته بالهام الصبر (لتكون من المؤمنين)

فرعون الى مجلس كان له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم واقبلت بنت فرعون في جواريها حتى جلست على شاطئ البحر مع جواريها تلاعبهن وتنضح الماء على وجوههن اذ اقبل النيل بالتابوت تضرب به الامواج فقال فرعون ان هذا الشئ في البحر قد تعلق بالشجر ائتوني به فابتدروه بالسفن من كل ناحية حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نورا لم يره غيرها فعالجته ففتحت الباب فاذا هي بصبي صغير في التابوت واذا نور بين عينيه وقد جعل الله رزقه في ابهامه يمص منه لبنا فألقى الله محبته في قلب آسية وأحبه فرعون وعطف عليه واقبلت بنت فرعون فلما اخرجوا الصبي من التابوت عمدت الى ما يسيل من أشداقه من ريقه فلطخت به برصها فبرأت فقبلته وضمته الى صدرها فقالت الغواة من قوم فرعون أيها الملك انا نظن ان ذلك المولود الذي تحذر منه من بني اسرائيل هو هذا رمي به في البحر فزعا منك فهم فرعون بقتله فقالت آسية قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى ان ينفعنا اي فنصيب منه خيرا أو نتخذه ولدا وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها وقال فرعون اما انا فلا حاجة لي فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قال يومئذ قرة عين لي كما هو لك لهداه الله كما هداها الله فقيل لآسية سميه قالت سميته موسى لانا وجدناه في الماء والشجر لان مو هو الماء وسا هو الشجر فذلك قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون) الالتقاط وجود الشئ من غير طلب (ليكون لهم عدوّا وحزنا) اي عاقبة امرهم الى ذلك لانهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوا وحزنا (ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) اي آثمين وقيل هو من الخطا ومعناه انهم لم يشعروا انه الذي يذهب ملكهم (وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى ان ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون) قال وهب لما نظر اليه فرعون قال عبراني من الاعداء فغاظه ذلك وقال كيف اخطأ هذا الغلام الذبح وكانت آسية امرأة فرعون من خيار النساء ومن بنات الانبياء وكانت اما للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم فقالت لفرعون وهي قاعدة الى جنبه هذا الوليد أكبر من ابن سنة وأنت امرت ان تذبح الولدان هذه السنة فدعه يكون عندي وقيل انها قالت انه اتانا من ارض اخرى وليس هو من بني اسرائيل فاستحياه فرعون وألقى الله محبته عليه قال ابن عباس لو ان عدوّ الله قال في موسى كما قالت آسية عسى ان ينفعنا لنفعه الله ولكنه ابى للشقاء الذي كتبه الله عليه قوله تعالى (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا) اي خاليا من كل شئ الا من ذكر موسى وهمه وقيل معناه ناسيا للوحي الذي اوحى الله عز وجل اليها حين امرها ان تلقيه في اليم ولا تخاف ولا تحزن والعهد الذي عهد اليها ان يرده اليها ويجعله من المرسلين فجاءها الشيطان وقال كرهت ان يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره وثوابه وتوليت أنت قتله وألقيته في البحر واغرقته ولما اتاها الخبر بأن فرعون اصابه في النيل قالت انه قد وقع في يد عدوه الذي فررت منه فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله اليها (ان كادت لتبدي به) اي لتصرح بأنه ابنها من شدة وجدها قال ابن عباس كادت تقول واابناه وقيل لما رأت التابوت ترفعه موجة وتحطه اخرى خشيت عليه الغرق فكادت تصيح من شدة شفقتها عليه وقيل كادت تظهر انه ابنها حين سمعت الناس يقولون موسى بن فرعون فشق عليها ذلك وكادت تقول هو ابني وقيل كادت تبدي بالوحي الذي أوحى الله اليها ان يرده عليها (لولا ان ربطنا على قلبها) اي بالعصمة والصبر والتثبيت (لتكون من

المؤمنين) من المصدقين بوعدنا وهو انا رادوه اليك وجواب لولا محذوف أي لابدته او فارغا من الهم حين سمعت ان فرعون تبناه ان كادت لتبدي بانه ولدها لانها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سمعت لولا انا طامنا قلبها وسكنا قلقه الذي حدث به من شدة الفرح لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لا بتبني فرعون قال يوسف بن الحسين امرت ام موسى بشيئين ونهيت عن شيئين وبشرت ببشارتين فلم ينفعها الكل حتى تولى الله حياطتها فربط على قلبها (وقالت لاخته) مريم (قصيه) اتبعي أثره لتعلمي خبره (فبصرت به) اي ابصرته (عن جنب) عن بعد حال من الضمير في به او من الضمير في بصرت (وهم لا يشعرون) انها اخته (وحرمنا عليه المراضع) تحريم منع لا تحريم شرع اي منعناه ان يرضع ثديا غير ثدي ٣٧٧ أمه وكان لا يقبل ثدي مرضع حتى اهمهم ذلك

والمراضع جمع مرضع وهي المرأة التي ترضع او جمع مرضع وهو موضع الرضاع وهو الثدي او الرضاع (من قبل) من قبل قصها اثره او من قبل ان نرده على أمه (فقالت) اخته وقد دخلت بين المراضع ورأته لا يقبل ثديا (هل أدلكم) ارشدكم (على أهل بيت يكفلونه) أي موسى (لكم وهم له ناصحون) النصح اخلاص العمل من شائبة الفساد روي انها لما قالت وهم له ناصحون قال هامان انها لتعرفه وتعرف اهله فخذوها حتى تخبر بقصة هذا الغلام فقالت انما أردت وهم للملك ناصحون فانطلقت الى أمها بأمرهم فجاءت بها والصبي على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال لها فرعون ومن أنت منه فقد أبى كل ثدي الا ثديك فقالت اني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبي الا قبلني فدفعه اليها واجرى عليها وذهبت به الى بيتها وانجز الله وعده في الرد فعندها ثبت واستقر في علمها انه سيكون نبيا وذلك قوله (فرددناه الى أمه كي تقر عينها) بالمقام معه (ولا تحزن) بفراقه (ولتعلم أن وعد الله حق) أي وليثبت علمها مشاهدة كما علمت خبرا وقوله ولا تحزن معطوف على تقر وانما حل لها ما تأخذه من الدينار كل يوم كما قال السدي لانه مال حربي لا انه اجرة على ارضاع ولدها (ولكن أكثرهم لا يعلمون) هو داخل تحت علمها اي لتعلم ان وعد الله حق ولكن اكثر الناس لا يعلمون انه حق فيرتابون ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى فجزعت (ولما بلغ أشده) بلغ موسى نهاية القوة وتمام العقل وهو جمع شدة كنعمة وأنعم عند سيبويه (واستوى) واعتدل وتم استحكامه وهو أربعون سنة ويروى انه لم يبعث نبي الا على رأس أربعين سنة (آتيناه حكما) نبوة (وعلما) فقها وعلما بمصالح الدارين (وكذلك نجزي المحسنين) اي كما فعلنا بموسى وأمه نفعل بالمؤمنين قال الزجاج جعل الله تعالى ايتاء العلم والحكمة مجازاة على الاحسان لانهما يؤديان الى الجنة التي هي جزاء المحسنين والعالم الحكيم من يعمل بعلمه لانه تعالى قال ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون فجعلهم جهالا اذ لم يعملوا بالعلم (ودخل المدينة) أي مصر (على حين غفلة من أهلها) حال من الفاعل اي مختفيا وهو ما بين العشاءين او وقت القائلة يعني انتصاف النهار وقيل لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فأخافوه فلا يدخل المدينة الا على تغفل (فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا

المؤمنين) اي من المصدقين بوعد الله اياها (وقالت لاخته) اي لمريم اخت موسى (قصيه) اي اتبعي اثره حتى تعطي خبره (فبصرت به عن جنب) اي عن بعد قيل كانت تمشي جانبا وتنظره اختلاسا ترى انها لا تنظره (وهم لا يشعرون) انها اخته وانها ترقبه (وحرمنا عليه المراضع) المراد به المنع قيل مكث موسى ثمان ليال لا يقبل ثديا قال ابن عباس ان امرأة فرعون كان همها من الدنيا ان تجد من ترضعه كلما اتوا بمرضعة لم يأخذ ثديها وهم في طلب من يرضعه لهم (من قبل) اي قبل مجيء ام موسى وذلك لما رأته اخت موسى التي ارسلتها امه في طلب ذلك (فقالت) يعني اخت موسى (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) اي يضمونه ويرضعونه وهي امرأة قتل ولدها واحب ما تدعى اليه ان تجد صغيرا ترضعه (وهم له ناصحون) اي لا يمنعونه ما ينفعه من تربيته وغذائه والنصح اخلاص العمل من شوائب الفساد قيل لما قالت وهم له ناصحون قالوا انك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على اهله قالت ما اعرفه ولكن قلت وهم للملك ناصحون وقيل انها قالت انما قلت ذلك رغبة في سرور الملك واتصالنا به وقيل قالوا من هم قالت امي قالوا ولامك ولد قالت نعم هارون وكان هارون ولد في السنة التي لا يقتل فيها قالوا صدقت فأتينا بها فانطلقت اليها واخبرتها بحال ابنها وجاءت بها اليهم فلما وجد الصبي ريح امه قبل ثديها وجعل يمصه حتى امتلأ جنباه ريا قيل كانوا يعطونها كل يوم دينارا فذلك قوله تعالى (فرددناه الى أمه كي تقر عينها) اي برد موسى اليها (ولا تحزن) اي ولئلا تحزن (ولتعلم ان وعد الله حق) اي برده اليها (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ان الله وعدها ان يرده اليها (ولما بلغ أشده) قيل الاشد ما بين ثمانية عشر الى ثلاثين سنة وقيل الاشد ثلاثة وثلاثون سنة (واستوى) اي بلغ أربعين سنة قاله ابن عباس وقيل انتهى شبابه وتكامل (آتيناه حكما وعلما) اي عقلا وفهما في الدين فعلم وحكم موسى قبل ان يبعث نبيا (وكذلك نجزي المحسنين) قوله تعالى (ودخل المدينة) يعني موسى والمدينة قيل هي منف من اعمال مصر وقيل هي قرية يقال لها حابين على رأس فرسخين من مصر وقيل هي مدينة عين شمس (على حين غفلة من أهلها) قيل هي نصف النهار واشتغال الناس بالقيلولة وقيل دخلها ما بين المغرب والعشاء وقيل سبب دخوله المدينة في ذلك الوقت ان موسى كان يسمى ابن فرعون وكان يركب في مراكب فرعون ويلبس لباسه فركب فرعون يوما وكان موسى غائبا فلما جاء قيل له ان فرعون قد ركب فركب موسى في اثره فأدركه المقيل بأرض منف فدخلها وليس في اطرافها أحد وقيل كان لموسى شيعة من بني اسرائيل يسمعون منه ويقتدون به فلما عرف ما هو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه فخالفهم في دينه حتى انكروا ذلك منه وخافوه وخافهم فكان لا يدخل قرية الا خائفا مستخفيا على حين غفلة من أهلها وقيل لما ضرب موسى فرعون بالعصا في صغره فأراد فرعون قتله قالت امرأته هو صغير فترك قتله وأمر باخراجه من مدينته وأخرج منها فلم يدخل عليهم حتى كبر وبلغ أشده فدخل على حين غفلة من أهلها يعني عن ذكر موسى ونسيانهم خبره لبعد عهدهم به وقيل انه كان يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم (فوجد فيها رجلين يقتتلان) اي يتخاصمان ويتنازعان (هذا

من شيعته) ممن شايعه على دينه من بني اسرائيل قيل هو السامري وشيعة الرجل اتباعه وانصاره (وهذا من عدوه) من مخالفيه من القبط وهو فاتون وقيل فيهما هذا وهذا وان كانا غائبين على جهة الحكاية أي اذا نظر اليهما الناظر قال هذا من شيعته وهذا من عدوه (فاستغاثه) فاستنصره

(الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى) ضربه بجمع كفه أو بأطراف أصابعه (فقضى عليه) فقتله (قال هذا) اشارة الى القتل الحاصل بغير قصد (من عمل الشيطان) وانما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلما لنفسه واستغفر منه لانه كان مستأمنا فيهم ولا يحل قتل الكافر الحربي المستأمن اولانه قتله قبل ان يؤذن له في القتل وعن ابن جريج ليس لنبي ان يقتل مالم يؤمر (انه عدو مضل مبين) ظاهر العداوة (قال رب) يارب (اني ظلمت نفسي) بفعل صار قتلا (فاغفرلي) زلتي (فغفرله) زلته (انه هو الغفور) باقالة الزلل (الرحيم) بازالة الخجل (قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا) معينا (للمجرمين) للكافرين وبما أنعمت على قسم جوابه محذوف تقديره اقسم بانعامك على بالمغفرة لاتوبن فلن أكون ظهيرا للمجرمين أو استعطاف كانه قال رب اعصمني بحق ما أنعمت على من المغفرة فلن أكون ان عصمتني ظهيرا للمجرمين واراد بمظاهرة المجرمين صحبة فرعون وانتظامه في جملته وتكثيره سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد (فأصبح في المدينة خائفا) على نفسه من قتله القبطي ان يؤخذ به (يترقب) حال اي يتوقع المكروه وهو الاستقادة منه أو الاخبار او ما يقال فيه وقال ابن عطاء خائفا على نفسه يترقب نصرة ربه وفيه دليل على انه لا بأس بالخوف من دون الله بخلاف ما يقوله بعض الناس انه لا يسوغ الخوف من دون الله (فاذا الذي) اذا للمفاجأة ومابعدها مبتدأ (استنصره) أي موسى (بالامس يستصرخه) يستغيثه والمعنى ان الاسرائيلي الذي خلصه موسى استغاث به ثانيا من قبطي آخر (قال له موسى) أي للاسرائيلي (انك لغوي مبين) اي ضال عن الرشد ظاهر الغي فقد قاتلت بالامس رجلا فقتلته بسببك والرشد في التدبير ان لا يفعل فعلا يفضي الى البلاء على نفسه وعلى من يريد نصرته (فلما أن أراد) موسى (أن يبطش بالذي) بالقبطي الذي (هو عدو لهما) لموسى والاسرائيلي لانه ليس على دينهما ولان القبط كانوا اعداء بني اسرائيل (قال) الاسرائيلي لموسى عليه السلام وقد توهم انه اراد أخذه لا أخذ القبطي اذ قال له انك لغوي مبين (ياموسى أتريد ان تقتلني كما قتلت نفسا) يعني القبطي (بالامس ان تريد) ماتريد (الا أن تكون جبارا) اى قتالا بالغضب (في الارض) أرض مصر (وماتريد أن تكون

من شيعته) اى من بني اسرائيل (وهذا من عدوه) اى من القبط وقيل هذا مؤمن وهذا كافر وقيل كان الذي كان من الشيعة هو السامري والذي من عدوه هو طباخ فرعون واسمه فاتون وكان القبطي يريد ان يأخذ الاسرائيلي يحمله الحطب وقال ابن عباس لما بلغ موسى أشده لم يكن أحد من آل فرعون يخلص الى أحد من بني اسرائيل بظلم حتى امتنعوا كل الامتناع وكان بنو اسرائيل قد عزوا بمكان موسى لانهم كانوا يعلمون انه منهم فوجد موسى رجلين يقتتلان احدهما من بني اسرائيل والآخر من القبط (فاستغاثه الذي من شيعته) يعني الاسرائيلي (على الذي من عدوه) يعني الفرعوني والاستغاثة طلب الغوث والمعنى انه سأله ان يخلصه منه وان ينصره عليه فغضب موسى واشتد غضبه لانه أخذه وهو يعلم منزلة موسى من بني اسرائيل وحفظه لهم ولا يعلم الناس الا انه من قبل الرضاعة فقال موسى للفرعوني خل سبيله فقال انما أخذته ليحمل الحطب الى مطبخ أبيك فنازعه فقال الفرعوني لقد هممت ان احمل عليك وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق وشدة في القوة (فوكزه موسى) اى ضربه بجمع كفه وقيل الوكز الضرب في الصدر وقيل الوكز الدفع بأطراف الاصابع (فقضى عليه) اى قتله وفرغ من أمره فندم موسى عليه ولم يكن قصده القتل ودفنه في الرمل (قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين) اى بين الضلالة وقيل في قوله هذا اشارة الى عمل المقتول لا الى عمل نفسه والمعنى ان عمل هذا المقتول من عمل الشيطان والمراد منه بيان كونه مخالفا لله سبحانه وتعالى مستحقا للقتل وقيل هذا اشارة الى المقتول يعني انه من جند الشيطان وحزبه (قال رب اني ظلمت نفسي) اى بقتل القبطي من غير أمر وقيل هو على سبيل الاتضاع لله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وان لم يكن هناك ذنب وقوله (فاغفرلي) اى ترك هذا المندوب وقيل يحتمل ان يكون المراد رب اني ظلمت نفسي حيث فعلت هذا فان فرعون اذا عرف ذلك قتلني به فقال فاغفرلي اى فاستره على ولا توصل خبره الى فرعون (فغفرله) اى فستره عن الوصول الى فرعون (انه هو الغفور الرحيم قال رب بما) اى بالمغفرة والستر الذي (أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين) معناه فانا لا أكون معاونا لاحد من المجرمين قال ابن عباس للكافرين وفيه دليل على ان الاسرائيلي الذي أعانه موسى كان كافرا قال ابن عباس لم يستثن فابتلي في اليوم الثاني اى لم يقل فلم أكن ان شاء الله ظهيرا للمجرمين (فأصبح في المدينة) اى التي قتل فيها القبطي (خائفا يترقب) اى ينتظر سوءا والترقب انتظار المكروه وقيل ينتظر متى يؤخذ به (فاذا الذي استنصره بالامس يستصرخه) اى يستغيث به من بعد قال ابن عباس اتى فرعون فقيل له ان بني اسرائيل قتلوا منا رجلا فخذ لنا بحقنا فقال اطلبوا قاتله ومن يشهد عليه فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة اذ مر موسى من الغد فرأى ذلك الاسرائيلي يقاتل فرعونيا فاستغاثه على الفرعوني وكان موسى قد ندم على ما كان منه بالامس من قتل القبطي (قال له موسى) للاسرائيلي (انك لغوي مبين) اى ظاهر الغواية قاتلت رجلا بالامس فقتلته بسببك وتقاتل اليوم آخر وتستغيثني عليه (فلما أن أراد ان يبطش بالذي هو عدو لهما) وذلك ان موسى أخذته الغيرة والرقة للاسرائيلي فمد يده ليبطش بالقبطي فظن الاسرائيلي انه يريد ان يبطش به لما رأى من غضب موسى وسمع قوله انك لغوي مبين (قال ياموسى أتريد ان تقتلني كما قتلت نفسا بالامس) معناه انه لم يكن علم أحد من قوم فرعون ان موسى هو الذي قتل القبطي حتى افشى عليه الاسرائيلي ذلك فسمعه القبطي فأتى فرعون فأخبره بذلك (ان تريد الا ان تكون جبارا في الارض) اى بالقتل ظلما وقيل الجبار هو الذي يقتل ويضرب ولا ينظر في العواقب وقيل هو الذي يتعاظم ولا يتواضع لامر الله تعالى (وماتريد ان تكون

من المصلحين) فى كظم الغيظ وكان قتل القبطى بالامس قدشاع ولكن خفى قاتله فلما أفشى على موسى عليه السلام علم القبطى ان قاتله موسى فأخبر فرعون فهموا بقتله (وجاء رجل من أقصى المدينة) هو مؤمن آل فرعون وكان ابن عم فرعون (يسعى) صفة لرجل او حال من رجل لانه وصف بقوله من أقصى المدينة (قال ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) اى يأمر بعضهم بعضا بقتلك أو يتشاورون بسببك والائتمار التشاور يقال الرجلان يتآمران ويأتمران لان كل واحد منهما يأمر صاحبه بشئ او يشير عليه بأمر (فاخرج) من المدينة (انى لك من الناصحين) لك بيان وليس بصلة الناصحين لان الصلة لاتتقدم على الموصول كانه قال انى من الناصحين ثم أراد ان يبين فقال لك كما يقال سقيا لك ومرحبا لك (فخرج) موسى (منها) من المدينة (خائفا يترقب) التعرض له فى الطريق أوان يلحقه من يقتله (قال رب نجنى من القوم الظالمين) أى قوم فرعون (ولما توجه تلقاء مدين) نحوها والتوجه الاقبال على الشئ ومدين قرية شعيب عليه السلام سميت بمدين بن ابراهيم ولم تكن فى سلطان فرعون وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام قال ابن عباس رضى الله عنهما خرج ولم يكن له علم بالطريق الا حسن الظن بربه (قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) اى وسطه ومعظم نهجه فجاءه ملك وانطلق به الى مدين (ولما ورد) وصل (ماء مدين) ماءهم الذى يسقون منه وكان بئرا (وجد عليه) على جانب البئر (أمة) جماعة كثيرة (من الناس) من أناس مختلفين (يسقون) مواشيهم (ووجد من دونهم) فى مكان أسفل من مكانهم (امرأتين تذودان) تطردان غنمهما عن الماء لان على الماء من هو أقوى منهما فلا تتمكنان من السقى أولئلا تختلط اغنامهما بأغنامهم والذود الطرد والدفع (قال ما خطبكما) ماشأنكما وحقيقته ما مخطوبكما أى ما مطلوبكما من الذياد فسمى المخطوب خطبا (قالتا لانسقى) غنمنا (حتى يصدر الرعاء) مواشيهم يصدر شامى ويزيد وأبو عمرو اى يرجع والرعاء جمع راع كقائم وقيام (وأبونا شيخ) لايمكنه سقى الاغنام (كبير) فى حاله او فى السن لايقدر على رعى الغنم ابدتا اليه عذرهما فى توليهما السقى بأنفسهما (فسقى لهما) فسقى غنمهما لاجلهما رغبة فى المعروف واغاثة للملهوف روى انه نحى القوم عن رأس البئر وسألهم دلوا فأعطوه دلوهم وقالوا استق بها وكانت لاينزعها الا اربعون فاستقى بها وصبها فى الحوض ودعا بالبركة وترك المفعول فى يسقون وتذودان ولا نسقى وفسقى لان الغرض هو الفعل لا المفعول الا ترى انه انما رحمهما لانهما كانتا على الذياد وهم على السقى ولم يرحمهما لان مذودهما غنم ومسقيهم ابل مثلا وكذا فى لانسقى وفسقى فالمقصود هو السقى لا المسقى ووجه مطابقة جوابهما سؤاله انه سألهما عن سبب الذود فقالتا السبب فى ذلك انا امرأتان مستورتان ضعيفتان لانقدر على مزاحمة الرجال ونستحى من الاختلاط بهم فلابد لنا من تأخير السقى الى ان يفرغوا وانما رضى شعيب عليه السلام لابنتيه بسقى الماشية لان هذا الامر فى نفسه ليس بمحظور والدين لايأباه واما المروءة فعادات الناس فى ذلك متباينة وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب اهل الحضر خصوصا اذا كانت الحالة حالة ضرورة (ثم تولى الى الظل) أى ظل سمرة وفيه دليل جواز الاستراحة فى الدنيا بخلاف مايقوله بعض المتقشفة ولما طال البلاء عليه أنس بالشكوى اذ لانقص فى الشكوى الى المولى

من المصلحين) ولما فشا ان موسى قتل القبطى أمر فرعون بقتله فخرجوا فى طلبه وسمع بذلك رجل من شيعة موسى يقال انه مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل وقيل شمعون وقيل سمعان وهو قوله تعالى (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) اى يسرع فى مشيه وأخذ طريقا قريبا حتى سبق الى موسى واخبره وانذره بما سمع (قال ياموسى ان الملأ يأتمرون بك) اى يتشاورون فيك (ليقتلوك) وقيل يأمر بعضهم بعضا بقتلك (فاخرج) اى من المدينة (انى لك من الناصحين) اى فى الامر بالخروج (فخرج منها) يعنى موسى (خائفا) على نفسه من آل فرعون (يترقب) اى ينتظر الطلب هل يلحقه فيأخذه ثم لجأ الى الله تعالى لعلمه انه لاملجأ الا اليه (قال رب نجنى من القوم الظالمين) اى الكافرين قوله تعالى (ولما توجه تلقاء مدين) اى قصد نحوها ماضيا اليها قيل لانه وقع فى نفسه ان بينهم و بينه قرابة لان أهل مدين من ولد ابراهيم وموسى من ولد ابراهيم ومدين هو مدين بن ابراهيم سميت البلد باسمه وبين مدين ومصر مسيرة ثمانية أيام قيل خرج موسى خائفا بلا ظهر ولا زاد ولا أحد ولم يكن له طعام الا ورق الشجر ونبات الارض حتى رأى خضرته فى بطنه وماوصل الى مدين حتى وقع خف قدميه قال ابن عباس وهو أول ابتلاء من الله لموسى (قال) يعنى موسى (عسى ربى ان يهدينى سواء السبيل) اى قصد الطريق الى مدين وذلك لانه لم يكن يعرف الطريق اليها قيل لما دعا موسى جاءه ملك بيده عنزة فانطلق به الى مدين قوله عزوجل (ولما ورد ماء مدين) هو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم (وجد عليه) اى على الماء (أمة) اى جماعة (من الناس يسقون) اى مواشيهم (ووجد من دونهم) أى سوى الجماعة وقيل بعيدا من الجماعة (امرأتين تذودان) اى تحبسان وتمنعان اغنامهما عن الماء حتى يفرغ الناس وتخلو لهما البئر وقيل تكفان الغنم عن ان تختلط بأغنام الناس وقيل تمنعان اغنامهما عن ان تند وتذهب والقول الاول أولى لما بعده وهو قوله (قال) يعنى موسى للمرأتين (ما خطبكما) اى ماشأنكما لاتسقيان مواشيكما مع الناس (قالتا لانسقى) اى اغنامنا (حتى يصدر الرعاء) اى حتى يرجع الرعاء عن الماء والمعنى انا امرأتان لانستطيع ان نزاحم الرجال فاذا صدروا سقينا نحن مواشينا من فضل ما بقى منهم فى الحوض (وأبونا شيخ كبير) اى لايقدر ان يسقى مواشيه فلذلك احتجنا نحن الى سقى الغنم قيل ابوهما هو شعيب عليه الصلاة والسلام وقيل هو يثرون بن اخى شعيب وكان شعيب قدمات بعدما كف بصره وقيل هو رجل ممن آمن بشعيب فلما سمع موسى كلامهما رق لهما ورحمهما فاقتلع صخرة من على رأس بئر أخرى كانت بقربهما لايطيق رفعها الا جماعة من الناس وقيل زاحم القوم ونحاهم كلهم عن البئر وسقى لهما الغنم وقيل لما فرغ الرعاء من السقى غطوا رأس البئر بحجر لايرفعه الا عشرة نفر فجاء موسى فرفع الحجر وحده ونزع دلوا واحدا ودعا فيه بالبركة وسقى الغنم فرويت فذلك قوله تعالى (فسقى لهما ثم تولى الى الظل) اى عدل الى أصل شجرة فجلس فى ظلها من شدة

(فقال رب انى لما) لاى شئ (أنزلت الى من خير) قليل او كثير غث أو سمين (فقير) محتاج وعدى فقير باللام لانه ضمن معنى سائل وطالب قيل كان لم يذق طعاما سبعة أيام وقد لصق بطنه بظهره ويحتمل ان يريد انى فقير من الدنيا لاجل ما أنزلت الى من خير الدارين وهو النجاة من الظالمين لانه كان عند فرعون فى ملك وثروة قال ذلك رضا بالبدل السنى وفرحا به وشكرا له وقال ابن عطاء نظر من العبودية الى الربوبية وتكلم بلسان الافتقار لما ورد على سره من الانوار (فجاءته احداهما تمشى على استحياء قالت ان ابى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) على استحياء فى موضع الحال أى مستحيية وهذا دليل كمال ايمانها وشرف عنصرها لانها كانت تدعوه الى ضيافتها ولم تعلم أيجيبها أم لا فأتته مستحيية قد استترت بكم درعها وما فى ما سقيت مصدرية أى جزاء سقيك روى انهما لما رجعتا الى ابيهما قبل الناس واغنامهما حفل قال لهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لاحداهما اذهبى فادعيه لى فتبعها موسى عليه السلام فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها امشى خلفى وانعتى لى الطريق (فلما جاءه وقص عليه القصص) أى قصته واحواله مع فرعون والقصص مصدر كالعلل سمى به المقصوص (قال) له (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) اذ لا سلطان لفرعون بأرضنا وفيه دليل جواز العمل بخبر الواحد ولو عبدا أو أنثى والمشى مع الاجنبية مع ذلك الاحتياط والتورع واما اخذ الاجر على البر والمعروف فقيل انه لا بأس به عند الحاجة كما كان لموسى عليه السلام على انه روى انها لما قالت ليجزيك كره ذلك وانما أجابها لئلا يخيب قصدها لان للقاصد حرمة ولما وضع شعيب الطعام بين يديه امتنع فقال شعيب ألست جائعا قال بلى ولكن أخاف أن يكون عوضا مما سقيت لهما وانا اهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا ولا نأخذ على المعروف ثمنا فقال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا فأكل (قالت احداهما يا أبت استأجره) اتخذه اجيرا لرعى الغنم روى ان أكبرهما كانت تسمى صفراء والصغرى صفيراء وصفراء هى التى ذهبت به وطلبت الى أبيها ان يستأجره وهى التى تزوجها (ان خير من استأجرت القوى الامين) فقال وما علمك بقوته وأمانته فذكرت نزع الدلو وأمرها بالمشى خلفه وورود الفعل بلفظ الماضى للدلالة على ان أمانته وقوته امران متحققان وقولها ان خير من استأجرت القوى الامين كلام جامع لانه اذا اجتمعت هاتان الخصلتان الكفاية والامانة فى القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك وقيل القوى فى دينه الامين فى جوارحه وقد استغنت بهذا الكلام الجارى مجرى المثل عن ان تقول استأجره لقوته وأمانته وعن ابن مسعود رضى الله عنه افرس الناس ثلاث بنت شعيب وصاحب يوسف فى قوله عسى ان ينفعنا وأبو بكر فى عمر (قال انى أريد أن أنكحك) أزوجك (احدى ابنتى هاتين) قوله هاتين يدل على انه كان له غيرهما وهذه مواعدة منه ولم يكن ذلك عقد نكاح اذ لو كان عقدا لقال قد انكحتك (على أن تأجرنى) تكون اجيرا لى من اجرته اذا كنت له اجيرا (ثمانى حجج) ظرف والحجة السنة وجمعها حجج والتزوج على رعى الغنم جائز بالاجماع لانه من باب القيام بأمر الزوجية فلا مناقضة بخلاف التزوج على الخدمة (فان أتممت عشرا) أى عمل عشر حجج (فمن عندك) فذلك تفضل منك ليس بواجب عليك أو اتمامه من عندك ولا احتمه عليك ولكنك ان فعلته فهو منك تفضل وتبرع (وما أريد أن أشق عليك) بالزام اتم الاجلين وحقيقة قولهم شققت عليك وشق عليه الامر ان الامر اذا تعاظمك فكأنه شق عليك ظنك باثنين تقول تارة اطيقه وطورا لا اطيقه (ستجدنى ان شاء الله من الصالحين) فى حسن المعاملة والوفاء بالعهد ويجوز ان يراد الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة والمراد باشتراطه مشيئة الله فيما وعد من الصلاح الاتكال على توفيقه فيه ومعونته لانه ان شاء فعل وان لم يشأ لم يفعل

الحر وهو جائع (فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير) معناه انه طلب الطعام لجوعه واحتياجه اليه قال ابن عباس ان موسى سأل الله فلقة خبز يقيم بها صلبه وعن ابن عباس قال لقد قال موسى رب انى لما انزلت الى من خير فقير وهو اكرم خلقه عليه ولقد افتقر الى شق تمرة وقيل ما سأل الا الخبز فلما رجعتا الى ابيهما سريعا قبل الناس واغنامهما حفل بطان قال لهما ما اعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا اغنامنا فقال لاحداهما اذهبى فادعيه الى قال الله تعالى (فجاءته احداهما تمشى على استحياء) قيل هى الكبرى واسمها صفوراء وقيل صفراء وقيل بل هى الصغرى واسمها ليا وقيل صفيراء وقال عمر بن الخطاب ليست بسلفع من النساء خراجة ولاجة ولكن جاءت مستترة قد وضعت كم درعها على وجهها استحياء وقيل استحيت منه لانها دعته لتكافئه وقيل لانها رسول أبيها (قالت ان ابى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) قال لما سمع موسى ذلك كره ان يذهب معها ولكن كان جائعا فلم يجد بدا من الذهاب فمشت المرأة وموسى خلفها فكانت الريح تضرب ثوبها فتصف ردفها فكره موسى ان يرى ذلك منها فقال لها امشى خلفى ودلينى على الطريق اذا أخطأت ففعلت ذلك فلما دخل موسى على شعيب اذا هو بالعشاء مهيأ فقال اجلس يا فتى فتعش فقال موسى أعوذ بالله قال شعيب ولم ذاك ألست بجائع قال بلى ولكن أخاف ان يكون هذا عوضا لما سقيت لهما وانا أهل بيت لا نطلب على عمل من اعمال الآخرة عوضا من الدنيا فقال له شعيب لا والله يا فتى ولكنها عادتى وعادة آبائى نقرى الضيف ونطعم الطعام فجلس وأكل فذلك قوله عز وجل (فلما جاءه) أى موسى (وقص عليه القصص) اى اخبره بأمره اجمع من خبر ولادته وقتله القبطى وقصد فرعون قتله (قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) يعنى من فرعون وقومه وانما قال ذلك لانه لم يكن لفرعون سلطان على مدين (قالت احداهما يا أبت استأجره) اى اتخذه اجيرا ليرعى أغنامنا (ان خير من استأجرت القوى الامين) يعنى ان خير من استعملت من قوى على العمل وأدى الامانة فقال لها أبوها وما علمك بقوته وامانته قالت اما قوته فانه رفع الحجر من على رأس البئر ولا يرفعها الا عشرة وقيل أربعون رجلا واما امانته فانه قال لى امشى خلفى حتى لا تصف الريح بدنك (قال) شعيب عند ذلك (انى أريد أن أنكحك) اى ازوجك (احدى ابنتى هاتين) قيل زوجه الكبرى وقال الاكثرون انه زوجه الصغرى منهما واسمها صفوراء وهى التى ذهبت فى طلب موسى (على ان تأجرنى ثمانى حجج) اى تكون لى أجيرا ثمان سنين (فان اتممت عشرا فمن عندك) اى فان اتممت العشر سنين فذلك تفضل منك وتبرع ليس بواجب عليك (وما اريد ان اشق عليك) اى الزمك تمام العشر الا ان تتبرع (ستجدنى ان شاء الله من الصالحين) اى فى حسن الصحبة والوفاء

(قال) موسى (ذلك) مبتدأ وهو اشارة الى ما عاهده عليه شعيب والخبر (بيني وبينك) يعني ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم بيننا جميعا لا يخرج كلانا عنه لا انا فيما شرطت على ولا انت فيما شرطت على نفسك ثم قال (أيما الاجلين قضيت) أي أي اجل قضيت من الاجلين يعني العشرة او الثمانية وأي نصب بقضيت وما زائدة وهو مؤكدة لابهام أي وهي شرطية وجوابها (فلا عدوان علي) أي لا يعتدى علي في طلب الزيادة عليه قال المبرد قد علم انه لا عدوان عليه في ايهما ولكن جمعهما ليجعل الاقل كالاتم في الوفاء وكما ان طلب الزيادة على الاتم عدوان فكذا طلب الزيادة على الاقل (والله على ما نقول وكيل) هو من وكل اليه الامر وعدي بعلى لانه استعمل في موضع الشاهد والرقيب روي ان شعيبا كانت عنده عصي الانبياء عليهم السلام فقال لموسى بالليل ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصي فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة ولم يزل الانبياء عليهم السلام يتوارثونها حتى وقعت الى شعيب فمسها وكان مكفوفا فضن بها فقال خذ غيرها فما وقع في يده الا هي سبع مرات فعلم ان له شأنا ولما أصبح قال له شعيب اذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فان الكلأ وان كان بها اكثر الا ان فيها تنينا اخشاه عليك وعلى الغنم فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها فمشى على أثرها فاذا عشب وريف لم ير مثله فنام فاذا التنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت الى جنب موسى دامية فلما ابصرها دامية والتنين مقتولا ارتاح لذلك ولما رجع الى شعيب مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى ففرح وعلم ان لموسى والعصا شأنا وقال له اني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كل أدرع ودرعاء فأوحي اليه في المنام ان اضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فوضعت كلهن أدرع ودرعاء فوفى له بشرطه (فلما قضى موسى الاجل) قال عليه السلام قضى أوفاهما وتزوج صغراهما وهذا بخلاف الرواية التي مرت (وسار بأهله) بامرأته نحو مصر قال ابن عطاء لما تم أجل المحنة ودنا أيام الزلفة وظهرت أنوار النبوة سار بأهله ليشتركوا معه في لطائف صنع ربه (آنس من جانب الطور نارا قال لاهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر) عن الطريق لانه قد ضل الطريق (أو جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الايمن) بالنسبة الى موسى (في البقعة المباركة) بتكليم الله تعالى فيها (من الشجرة) العناب او العوسج (أن ياموسى) ان مفسرة او مخففة من الثقيلة (اني أنا الله رب العالمين) قال جعفر ابصر نارا دلته على الانوار لانه رأى النور في هيئة النار فلما دنا منها شملته انوار القدس واحاطت به جلابيب الانس فخوطب بألطف خطاب واستدعى منه احسن جواب فصار بذلك مكلما شريفا أعطي ما سأل وأمن مما خاف والجذوة باللغات الثلاث وقرئ بهن فعاصم بفتح الجيم وحمزة وخلف بضمها وغيرهم بكسرها العود الغليظ كانت في رأسه نار او لم تكن ومن الاولى والثانية لابتداء الغاية أي أتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة ومن الشجرة بدل من شاطئ الوادي بدل الاشتمال لان

٩٦ ث

قلت وقيل يريد بالصلاح حسن المعاملة ولين الجانب وانما قال ان شاء الله للاتكال على توفيقه ومعونته (قال) يعني موسى (ذلك بيني وبينك) اي ما شرطت علي فلك وما شرطت من تزوج احداهما فلي والامر بيننا على ذلك (أيما الاجلين قضيت) اي اي الاجلين اتممت وفرغت منه الثمانية او العشرة (فلا عدوان علي) اي لا اظلم علي بأن اطالب بأكثر منه (والله على ما نقول وكيل) قال ابن عباس شهيد بيني وبينك (خ) عن سعيد بن جبير قال سألني يهودي من أهل الحيرة اي الاجلين قضى موسى قلت لا أدري حتى اقدم على حبر العرب فاسأله فقدمت فسألت ابن عباس فقال قضى أكثرهما وأطيبهما ان رسول الله اذا قال فعل وروى عن أبي ذر مرفوعا اذا سئلت أي الاجلين قضى موسى فقل خيرهما وأبرهما واذا سئلت اي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما وهي التي جاءت فقالت يا أبت استأجره فتزوج صغراهما وقضى اوفاهما وقال وهب انكحه الكبرى وروى شداد بن أوس مرفوعا بكى شعيب النبي صلى الله عليه وسلم حتى عمي فرد الله عليه بصره ثم بكى حتى عمي فرد الله عليه بصره ثم بكى حتى عمي فرد الله عليه بصره فقال الله له ما هذا البكاء اشوقا الى الجنة ام خوفا من النار فقال لا يارب ولكن شوقا الى لقائك فأوحى الله اليه ان يكن ذلك فهنيئا لك لقائي ياشعيب لذلك اخدمتك كليمي موسى ولما تعاقدا هذا العقد بينهما امر شعيب ابنته ان تعطي موسى عصا يدفع بها السباع عن غنمه قيل كانت من آس الجنة حملها آدم معه فتوارثها الانبياء وكان لا يأخذها غير نبي الا اكلته فصارت من آدم الى نوح ثم الى ابراهيم حتى وصلت الى شعيب فأعطاها موسى ثم ان موسى لما قضى الاجل سلم شعيب اليه ابنته فقالت له موسى اطلبي من أبيك ان يجعل لنا بعض الغنم فطلبت من ابيها ذلك فقال لكما كل ما ولدت هذا العام على غير شيتها وقيل ان شعيبا اراد أن يجازي موسى على حسن رعيه اكراما له وصلة لابنته فقال له اني قد وهبت لك من ولد اغنامي كل ابلق وبلقاء في هذه السنة فأوحى الله تعالى الى موسى في النوم ان اضرب بعصاك الماء ثم اسق الاغنام منه ففعل ذلك فما حطأت واحدة الا وضعت حملها ما بين ابلق وبلقاء فعلم شعيب ان هذا رزق ساقه الله الى موسى وامرأته فوفى له بشرطه واعطاه الاغنام قوله عز وجل (فلما قضى موسى الاجل) اي اتمه وفرغ منه (وسار بأهله) قيل مكث موسى بعد الاجل عند شعيب عشر سنين أخرى ثم استأذنه في العود الى مصر فأذن له فسار بأهله اي بزوجته قاصدا الى مصر (آنس) اي ابصر (من جانب الطور نارا) وذلك انه كان في البرية في ليلة مظلمة شديدة البرد واخذ امرأته الطلق (قال لاهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر) اي عن الطريق لانه كان قد اخطأ الطريق (أو جذوة من النار) اي قطعة وشعلة من النار وقيل الجذوة العود الذي اشتعل بعضه (لعلكم تصطلون) اي تستدفئون (فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الايمن) يعني من جانب الوادي الذي عن يمين موسى (في البقعة المباركة) جعلها الله مباركة لان الله تعالى كلم موسى هناك وبعثه نبيا وقيل يريد البقعة المقدسة (من الشجرة) اي من ناحية الشجرة قال ابن مسعود كانت سمرة خضراء ترف وقيل كانت عوسجة وقيل كانت من العليق وعن ابن عباس انها العناب (ان ياموسى اني أنا الله رب العالمين) قيل ان موسى لما رأى النار في الشجرة الخضراء علم انه

الشجرة كانت نابتة على الشاطئ اى الجانب (وان ألق عصاك) ونودي ان ألق عصاك فألقاها فقلبها الله ثعبانا (فلما رآها تهتز) تتحرك (كأنها جان) حية في سعيها وهي ثعبان في جثتها (ولى مدبرا ولم يعقب) يرجع فقيل له (ياموسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين) اى أمنت من ان ينالك مكروه من الحية (اسلك) ادخل (يدك في جيبك) جيب قميصك (تخرج بيضاء) لها شعاع كشعاع الشمس (من غير سوء) برص (واضمم اليك جناحك من الرهب) حجازي وبصري الرهب حفص الرهب غيرهم ومعنى الكل الخوف والمعنى واضمم يدك الى صدرك يذهب ما بك من فرق أى لاجل الحية عن ابن عباس رضى الله عنهما كل خائف اذا وضع يده على صدره زال خوفه وقيل معنى ضم الجناح ان الله تعالى لما قلب العصا حية فزع موسى واتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشئ فقيل له ان اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الاعداء فاذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الامران اجتناب ما هو غضاضة عليك واظهار معجزة أخرى والمراد بالجناح اليد لان يدي الانسان بمنزلة جناحي الطائر واذا ادخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه اليه أو اريد بضم جناحه اليه تجلده وضبطه نفسه عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعارة من فعل الطائر لانه اذا خاف نشر جناحيه وارخاهما والا فجناحاه مضمومان اليه مشمران ومعنى من الرهب من أجل الرهب أى اذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم اليك جناحك جعل الرهب الذى كان يصيبه سببا وعلة فيما امر به من ضم جناحه اليه ومعنى واضمم اليك جناحك واسلك يدك في جيبك على أحد التفسيرين واحد ولكن خولف بين العبارتين لاختلاف الغرضين اذ الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني اخفاء الرهب ومعنى واضمم يدك الى جناحك في طه ادخل يمناك تحت يسراك (فذانك) مخففا مثنى ذاك ومشددا مكي وأبو عمرو مثنى ذلك فاحدى النونين عوض من اللام المحذوفة والمراد اليد والعصا (برهانان) حجتان نيرتان بينتان وسميت الحجة برهانا لانارتها من قولهم للمرأة البيضاء برهرهة (من ربك الى فرعون وملئه) اى أرسلناك الى فرعون وملئه بهاتين الآيتين (انهم كانوا قوما فاسقين) كافرين (قال رب انى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) بغير ياء وبالياء يعقوب (وأخي هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى) حفص (ردا) حال أى عونا يقال ردأته أعنته وبلا همز مدني (يصدقني) عاصم وحمزة صفة أى ردأ مصدقا لى وغيرهما بالجزم جواب لارسله ومعنى تصديقه موسى اعانته اياه بزيادة البيان في مظان الجدال ان احتاج اليه ليثبت دعواه لا ان يقول له صدقت الا ترى الى قوله هو أفصح منى لسانا فأرسله وفضل الفصاحة انما يحتاج اليه لتقرير البرهان لا لقوله صدقت فسحبان وباقل فيه يستويان (انى أخاف أن يكذبون) يكذبوني في الحالين يعقوب (قال سنشد عضدك بأخيك) سنقويك به اذ اليد تشتد بشدة العضد لانه قوام اليد والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الامور (ونجعل لكما سلطانا) غلبة وتسلطا وهيبة في قلوب الاعداء (فلا يصلون اليكما بآياتنا) الباء تتعلق بيصلون أى لا يصلون اليكما بسبب آياتنا وتم الكلام او بنجعل لكما سلطانا أى نسلطكما بآياتنا أو بمحذوف أى اذهبا بآياتنا او هو بيان للغالبون لا صلة او قسم جوابه لا يصلون مقدما عليه (أنتما ومن اتبعكما الغالبون فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات) واضحات (قالوا ما هذا الا سحر مفترى) اى سحر تعمله انت ثم تفتريه على الله او سحر موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله (وما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين) حال منصوبة عن هذا اى كائنا في زمانهم يعني ما حدثنا بكونه فيهم (وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده

لا يقدر على الجمع بين النار وخضرة الشجرة الا الله فعلم بذلك ان المتكلم هو الله تعالى وقيل ان الله خلق في نفس موسى علما ضروريا بأن المتكلم هو الله تعالى وان ذلك الكلام كلام الله تعالى قيل انه قيل لموسى كيف عرفت انه نداء الله قال انى سمعته بجميع اجزائي فلما وجد حس السمع من جميع الاجزاء علم بذلك انه لا يقدر عليه أحد الا الله تعالى (وأن ألق عصاك) اى فألقاها (فلما رآها تهتز) اى تتحرك (كأنها جان) هي الحية الصغيرة والمعنى انها في سرعة حركتها كالحية السريعة الحركة (ولى مدبرا) اى هاربا منها (ولم يعقب) اى ولم يرجع قال وهب انها لم تدع شجرة ولا صخرة الا بلعتها حتى ان موسى سمع صرير اسنانها وقعقعة الشجر والصخر في جوفها فحينئذ ولى مدبرا ولم يعقب فنودي عند ذلك (ياموسى اقبل ولا تخف انك من الآمنين) قوله عز وجل (اسلك يدك) اى ادخل يدك (في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) اى برص والمعنى انه ادخل يده فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس (واضمم اليك جناحك من الرهب) اى من الخوف والمعنى اذا هالك امر يدك وما تراه من شعاعها فادخلها في جيبك تعد الى حالتها الاولى وقال ابن عباس أمر الله موسى ان يضم يده الى صدره فيذهب عنه ما ناله من الخوف عند معاينة الحية وما من خائف بعد موسى الا اذا وضع يده على صدره زال خوفه وقيل المراد من ضم الجناح السكون اى سكن روعك واخفض عليك جناحك لان من شأن الخائف ان يضطرب قلبه ويرتعد بدنه وقيل الرهب الكم بلغة حمير ومعناه اضمم اليك يدك وأخرجها من كمك لانه تناول العصا ويده في كمه (فذانك) يعني العصا واليد البيضاء (برهانان) اى آيتان (من ربك الى فرعون وملئه انهم كانوا قوما فاسقين) اى خارجين عن الحق (قال رب انى قتلت منهم نفسا) يعني القبطي (فأخاف أن يقتلون) أى به (وأخي هارون هو أفصح مني لسانا) اى بيانا وانما قال ذلك للعقدة التي كانت في لسانه من وضع الجمرة في فيه (فأرسله معى ردءا) اى عونا (يصدقني) يعني فرعون وقيل تصديق هارون هو ان يلخص الدلائل ويجيب عن الشبهات ويجادل الكفار فهذا هو التصديق المفيد (انى أخاف ان يكذبون) يعني فرعون وقومه (قال سنشد عضدك بأخيك) اى سنقويك به وكان هارون بمصر (ونجعل لكما سلطانا) اى حجة وبرهانا (فلا يصلون اليكما) اى بقتل ولا سوء (بآياتنا) قيل معناه نعطيكما من المعجزات فلا يصلون اليكما (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) أى لكما ولاتباعكما الغلبة على فرعون وقومه (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات) اى واضحات (قالوا ما هذا الا سحر مفترى) اى مختلق (وما سمعنا بهذا) اى بالذي تدعونا اليه (في آبائنا الاولين وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده) اى

ومن تكون له عاقبة الدار انه لا يفلح الظالمون) أى ربى اعلم منكم بحال من اهله الله للفلاح الاعظم حيث جعله نبيا وبعثه بالهدى ووعده حسن العقبى يعنى نفسه ولو كان كما تزعمون ساحرا مفتريا لما أهله لذلك لانه غنى حكيم لا يرسل الكاذبين ولا ينبئ الساحرين ولا يفلح عنده الظالمون وعاقبة الدار هى العاقبة المحمودة لقوله تعالى أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها ان يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى والغفران قال موسى بغير واو مكى وهو حسن لان الموضع موضع سؤال وبحث عما اجابهم به موسى عند تسميتهم مثل تلك الآيات العظام سحرا مفترى ووجه الاخرى انهم قالوا ذلك وقال موسى هذا ليوازن الناظر بين القول والقول ويتبصر فساد احدهما وصحة الآخر ربى أعلم حجازى وأبو عمرو ومن يكون حمزة وعلى (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى) قصد بنفى علمه باله غيره نفى وجوده أى ما لكم من اله غيرى أو هو على ظاهره وان الها غيره غير معلوم عنده (فأوقد لى يا هامان على الطين) اى اطبخ لى الآجر واتخذه وانما لم يقل مكان الطين هذا لانه أول من عمل الآجر فهو يعلمه الصنعة بهذه العبارة ولانه أفصح وأشبه بكلام الجبابرة اذ أمر هامان وهو وزيره بالايقاد على الطين منادى باسمه بيا فى وسط الكلام دليل التعظم ٣٨٣ والتجبر (فاجعل لى صرحا) قصرا عاليا (لعلى أطلع) اى اصعد والاطلاع الصعود (الى اله موسى) حسب انه تعالى فى مكان كما كان هو فى مكان (وانى لاظنه) أى موسى (من الكاذبين) فى دعواه ان له الها وانه أرسله الينا رسولا وقد تناقض المخذول فانه قال ما علمت لكم من اله غيرى ثم اظهر حاجته الى هامان واثبت لموسى الها واخبر انه غير متيقن بكذبه وكأنه تحصن من عصا موسى عليه السلام فلبس وقال لعلى أطلع الى اله موسى روى ان هامان جمع خمسين الف بناء وبنى صرحا لم يبلغه بناء أحد من الخلق فضرب الصرح جبريل عليه السلام بجناحه فقطعه ثلاث قطع وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل وقطعة فى البحر وقطعة فى المغرب ولم يبق احد من عماله الا هلك (واستكبر هو وجنوده) تعظم (فى الارض) أرض مصر (بغير الحق) أى بالباطل فالاستكبار بالحق لله تعالى وهو المتكبر على الحقيقة اى المتبالغ فى كبرياء الشأن كما حكى رسولنا عن ربه الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى النار وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق (وظنوا انهم الينا لا يرجعون) يرجعون نافع وحمزة وعلى وخلف ويعقوب (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) من الكلام المفخم الذى دل به على عظمة شأنه شبههم استقلالا لعددهم وان كانوا الجم الغفير بحصيات أخذهن آخذ بكفه فطرحهن فى البحر (فانظر) يا محمد (كيف كان عاقبة الظالمين) وحذر قومك فانك منصور عليهم (وجعلناهم أئمة) قادة (يدعون الى النار) أى عمل أهل النار قال ابن عطاء نزع عن أسرارهم التوفيق وانوار التحقيق فهم فى ظلمات نفوسهم لا يدلون على سبيل الرشاد وفيه دلالة خلق أفعال العباد (ويوم القيامة لا ينصرون) من العذاب (واتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) ألزمناهم طردا وابعادا عن الرحمة وقيل هو ما يلحقهم من لعن الناس اياهم بعدهم (ويوم القيامة هم من المقبوحين) المطرودين المبعدين او المهلكين المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون ويوم ظرف للمقبوحين (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة (من بعد ما أهلكنا القرون الاولى) قوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام (بصائر للناس) حال من الكتاب والبصيرة نور القلب الذى يبصر به الرشد والسعادة كما ان البصر نور العين الذى يبصر به الاجساد يريد آتيناه التوراة انوارا للقلوب لانها كانت عميا لا تستبصر ولا تعرف حقا من باطل (وهدى) وارشادا لانهم كانوا يخبطون فى ضلال (ورحمة) لمن اتبعها لانهم اذا عملوا بها وصلوا الى نيل الرحمة (لعلهم يتذكرون) يتعظون (وما كنت) يا محمد (بجانب) الجبل (الغربى) وهو المكان الواقع فى شق الغرب وهو الذى وقع فيه ميقات موسى

أنه يعلم المحق من المبطل (ومن تكون له عاقبة الدار) اى العقبى المحمودة فى الدار الآخرة (انه لا يفلح الظالمون) اى الكافرون (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى) فيه انكار لما جاء به موسى من توحيد الله وعبادته (فأوقد لى يا هامان على الطين) أى اطبخ لى الآجر قيل انه أول من اتخذ آجرا وبنى به (فاجعل لى صرحا) اى قصرا عاليا وقيل منارة قال اهل السير لما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان العمال والفعلة حتى اجتمع عنده خمسون ألف بناء سوى الاتباع والاجراء وطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير وأمر بالبناء فبنوه ورفعوه وشيدوه حتى ارتفع ارتفاعا لم يبلغه بنيان احد من الخلق وأراد الله ان يفتنهم فيه فلما فرغوا منه ارتقى فرعون فوقه وأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء فردت اليه وهى ملطخة دما فقال قد قتلت اله موسى وكان فرعون يصعده راكبا على البراذين فبعث الله جبريل عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع فوقعت قطعة منه على عسكره فقتلت منهم ألف ألف رجل ووقعت قطعة منه فى البحر وقطعة فى المغرب فلم يبق أحد عمل شيئا فيه الا هلك فذلك قوله (لعلى أطلع الى اله موسى) اى انظر اليه واقف على حاله (وانى لاظنه) يعنى موسى (من الكاذبين) اى فى زعمه ان للارض والخلق الها غيرى وانه ارسله (واستكبر هو وجنوده فى الارض) ان تعظموا عن الايمان ولم ينقادوا للحق بالباطل والظلم (بغير الحق وظنوا انهم الينا لا يرجعون) أى للحساب والجزاء (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) اى فألقيناهم فى البحر وهو القلزم (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) يعنى حين صاروا الى الهلاك (وجعلناهم أئمة) اى قادة ورؤساء (يدعون الى النار) اى الكفر والمعاصى التى يستحقون بها النار لان من أطاعهم ضل ودخل النار (ويوم القيامة لا ينصرون) اى لا يمنعون من العذاب (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) أى خزيا وبعدا وعذابا (ويوم القيامة هم من المقبوحين) أى المبعدين وقيل المهلكين وقال ابن عباس من المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون وقوله عز وجل (ولقد آتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة (من بعد ما أهلكنا القرون الاولى) يعنى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ممن كانوا قبل موسى (بصائر للناس) اى ليبصروا ذلك فيهتدوا به (وهدى) أى من الضلالة لمن عمل به (ورحمة) اى لمن آمن به (لعلهم يتذكرون) أى بما فيه من المواعظ (وما كنت) الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم اى وما كنت يا محمد (بجانب الغربى) أى بجانب الجبل الغربى قال ابن عباس يريد حيث

ناجى موسى ربه (اذقضينا الى موسى الامر) اى عهدنا اليه واحكمنا الامر معه بالرسالة الى فرعون (وما كنت من الشاهدين) أى الحاضرين ذلك المقام الذى اوحينا الى موسى فيه فتذكره من ذات نفسك (ولكنا أنشأنا قرونا) اى خلقنا بعد موسى أمما (فتطاول عليهم العمر) اى طالت عليهم المدة فنسوا عهد الله وتركوا أمره وذلك ان الله عهد الى موسى وقومه عهودا فى محمد والايمان به فلما طال عليهم العمر وخلفت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها (وما كنت ثاويا) اى مقيما (فى أهل مدين) اى كمقام موسى وشعيب فيهم (تتلو عليهم آياتنا) اى تذكرهم بالوعد والوعيد وقيل معناه لم تشهد اهل مدين فتقرأ على اهل مكة خبرهم (ولكنا كنا مرسلين) يعنى أرسلناك رسولا وأنزلنا اليك كتابا فيه هذه الاخبار لتتلوها عليهم ولولا ذلك لما علمتها انت ولم تخبرهم بها (وما كنت بجانب الطور) أى بناحية الجبل الذى كلم الله موسى عليه (اذ نادينا) يعنى موسى خذ الكتاب بقوة وقال وهب قال موسى يارب أرنى محمدا وأمته قال انك لن تصل الى ذلك ولكن ان شئت ناديت أمته واسمعتك صوتهم قال بلى يارب قال الله تعالى يا أمة محمد فأجابوه من اصلاب آبائهم وقال ابن عباس قال الله تعالى يا أمة محمد فأجابوه من اصلاب الآباء والارحام أى أرحام الامهات لبيك اللهم لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك قال الله تعالى يا أمة محمد ان رحمتى سبقت غضبى وعفوى سبق عقابى قد أعطيتكم قبل ان تسألونى وقد أجبتكم قبل ان تدعونى وقد غفرت لكم قبل ان تستغفرونى ومن جاءنى يوم القيامة بشهادة ان لا اله الا الله وان محمدا عبدى ورسولى دخل الجنة وان كانت ذنوبه اكثر من زبد البحر (ولكن رحمة من ربك) أى رحمناك رحمة بارسالك والوحى اليك واطلاعك على الاخبار الغائبة عنك (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك) يعنى اهل مكة (لعلهم يتذكرون) اعلم ان الله تعالى لما بين قصة موسى عليه الصلاة والسلام لرسوله صلى الله عليه وسلم جمع بين هذه الاحوال الثلاثة العظيمة التى اتفقت لموسى فالمراد بقوله اذقضينا الى موسى الامر انزال التوراة عليه حتى تكامل دينه واستقر شرعه والمراد بقوله وما كنت ثاويا فى اهل مدين أول أمر موسى والمراد بقوله اذ نادينا ليلة المناجاة فهذه اعظم احوال موسى ولما بينها الرسوله ولم يكن فى هذه الاحوال حاضرا بين الله أنه بعثه وعرفه هذه الاحوال الدالة على نبوته صلى الله عليه وسلم ومعجزته كأنه قال فى اخبارك عن هذه الاشياء من غير حضور ولا مشاهدة دلالة ظاهرة على نبوتك قوله تعالى (ولولا أن تصيبهم مصيبة) أى عقوبة ونقمة (بما قدمت أيديهم) يعنى من الكفر والمعاصى (فيقولوا ربنا لولا) أى هلا (أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) ومعنى الآية لولا انهم يحتجون بترك الارسال اليهم لعاجلناهم بالعقوبة على كفرهم وقيل معناه لما بعثناك اليهم رسولا ولكنا بعثناك اليهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (فلما جاءهم الحق من عندنا) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (قالوا) يعنى كفار مكة (لولا) اى هلا (أوتى) محمد (مثل ما أوتى موسى) يعنى من الآيات كالعصا واليد البيضاء وقيل أوتى كتابا جملة واحدة كما أوتى موسى التوراة قال الله تعالى (أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل) قيل ان اليهود ارسلوا الى قريش ان يسألوا محمدا صلى الله عليه وسلم مثل ما أوتى موسى فقال الله تعالى أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل يعنى اليهود الذين استخرجوا هذا السؤال (قالوا ساحران تظاهرا) يعنى التوراة والقرآن يقوى كل واحد منهما الآخر وقيل ساحران يعنى محمدا وموسى وقيل ان مشركى مكة بعثوا الى رؤس اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد صلى الله عليه

(اذقضينا الى موسى الامر) اى كلمناه وقربناه نجيا (وما كنت من الشاهدين) من جملة الشاهدين للوحى اليه حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى فى ميقاته (ولكنا أنشأنا) بعد موسى (قرونا فتطاول عليهم العمر) اى طالت اعمارهم وفترت النبوة وكادت الاخبار تخفى واندرست العلوم ووقع التحريف فى كثير منها فارسلناك مجددا لتلك الاخبار مبينا ما وقع فيه التحريف واعطيناك العلم بقصص الانبياء وقصة موسى كأنه قال وما كنت شاهدا لموسى وما جرى عليه ولكنا أوحيناه اليك فذكر سبب الوحى الذى هو اطالة الفترة ودل به على المسبب اختصارا فاذا هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده (وما كنت ثاويا) مقيما (فى أهل مدين) وهم شعيب والمؤمنون به (تتلو عليهم آياتنا) تقرأها عليهم تعلما منهم يريد الآيات التى فيها قصة شعيب وقومه وتتلوا فى موضع نصب خبر ثان او حال من الضمير فى ثاويا (ولكنا كنا مرسلين) ولكنا أرسلناك واخبرناك بها وعلمناكها (وما كنت بجانب الطور اذ نادينا) موسى ان خذ الكتاب بقوة (ولكن) اعلمناك وأرسلناك (رحمة) للرحمة (من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك) فى زمان الفترة بينك وبين عيسى وهو خمسمائة وخمسون سنة (لعلهم يتذكرون ولولا أن تصيبهم مصيبة) عقوبة (بما قدمت أيديهم) من الكفر والظلم ولما كانت اكثر الاعمال تزاول بالايدى نسبت الاعمال الى الايدى وان كانت من اعمال القلوب تغليبا للاكثر على الاقل (فيقولوا) عند العذاب (ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) لولا الاولى امتناعية وجوابها محذوف والثانية تحضيضية والفاء الاولى للعطف والثانية جواب لولا لكونها فى حكم الامر اذ الامر باعث على الفعل والباعث والمحضض من واد واحد والفاء تدخل فى جواب الامر والمعنى ولولا انهم قائلون اذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصى هلا أرسلت الينا رسولا محتجين علينا بذلك لما أرسلنا اليهم يعنى ان ارسال الرسول اليهم انما هو ليلزموا الحجة ولا يلزموها كقوله لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فان قلت كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هى السبب فى الارسال لا القول لدخول لولا الامتناعية عليها دونه قلت القول هو المقصود بان يكون سببا للارسال ولكن العقوبة لما كانت سببا للقول وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها سبب الارسال فأدخلت عليها لولا وجئ بالقول معطوفا عليها بالفاء المعطية معنى السببية ويؤل معناه الى قولك ولولا قولهم هذا اذا أصابتهم مصيبة لما ارسلنا (فلما جاءهم الحق من عندنا) اى القرآن او الرسول المصدق بالكتاب المعجز (قالوا) أى كفار مكة (لولا أوتى) هلا أعطى (مثل ما أوتى موسى) من الكتاب المنزل جملة واحدة (أولم يكفروا) يعنى ابناء جنسهم ومن مذهبهم مذهبهم وعنادهم عنادهم وهم الكفرة فى زمن موسى عليه السلام (بما أوتى موسى من قبل) من قبل القرآن (قالوا) فى موسى وهارون (ساحران تظاهرا) تعاونا سحران كوفى اى ذوا سحر او جعلوهما سحرين مبالغة

في وصفهما بالسحر (وقالوا انا بكل) بكل واحد منهما (كافرون) وقيل ان اهل مكة كما كفروا بمحمد عليه السلام وبالقرآن فقد كفروا بموسى والتوراة وقالوا في موسى ومحمد ساحران تظاهرا او في التوراة والقرآن سحران تظاهرا وذلك حين بعثوا الرهط الى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد فأخبروهم انه في كتابهم فرجع الرهط الى قريش فأخبروهم بقول اليهود فقالوا عند ذلك ساحران تظاهرا (قل فائتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما) مما أنزل على موسى ومما أنزل على (أتبعه) جواب فائتوا (ان كنتم صادقين) في انهما سحران (فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم) فان لم يستجيبوا دعاءك الى الاتيان بالكتاب الاهدى فاعلم انهم قد الزموا ولم تبق لهم حجة الا اتباع الهوى (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) اى لا احد اضل ممن اتبع في الدين هواه وبغير هدى حال اى مخذولا يخلى بينه وبين هواه (ان الله لا يهدي القوم الظالمين ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) التوصيل تكثير الوصل وتكريره يعني ان القرآن أتاهم متتابعا متواصلا وعدا ووعيدا وقصصا وعبرا ومواعظ ليتذكروا فيفلحوا (الذين آتيناهم الكتاب من قبله) من قبل القرآن وخبر الذين (هم به) بالقرآن (يؤمنون) نزلت في مؤمني اهل الكتاب (واذا يتلى) القرآن (عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله) من قبل نزول القرآن (مسلمين) كائنين على دين الاسلام مؤمنين بمحمد عليه السلام وقوله انه تعليل للايمان به لان كونه حقا من الله حقيق بأن يؤمن به وقوله انا بيان لقوله آمنا لانه يحتمل ان يكون ايمانا قريب العهد وبعيده فأخبروا بأن ايمانهم به متقادم (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) بصبرهم على الايمان بالتوراة والايمان بالقرآن او بصبرهم على الايمان بالقرآن قبل نزوله وبعد نزوله او بصبرهم على أذى المشركين واهل الكتاب (ويدرؤن بالحسنة السيئة) يدفعون بالطاعة المعصية او بالحلم الاذى (ومما رزقناهم ينفقون) يزكون (واذا سمعوا اللغو) الباطل او الشتم من المشركين (أعرضوا عنه وقالوا) للاغين (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم) أمان منا لكم بأن نقابل لغوكم بمثله (لا نبتغي الجاهلين) لا نريد مخالطتهم وصحبتهم (انك لا تهدي من أحببت) لا تقدر ان تدخل في الاسلام كل من احببت ان يدخل فيه من قومك وغيرهم (ولكن الله يهدي من يشاء) يخلق فعل الاهتداء فيمن يشاء (وهو أعلم بالمهتدين) بمن يختار الهداية ويقبلها ويتعظ بالدلائل والآيات قال الزجاج اجمع المفسرون على انها نزلت في ابي طالب وذلك انه قال عند موته يا معشر بني هاشم صدقوا محمدا تفلحوا فقال عليه السلام يا عم تأمرهم بالنصيحة لانفسهم وتدعها لنفسك قال فما تريد يا ابن أخي قال أريد منك ان تقول لا اله الا الله أشهد لك بها عند الله قال يا ابن أخي انا قد علمت انك صادق ولكني اكره ان يقال جزع عند الموت وان كانت الصيغة عامة والآية حجة على المعتزلة لانهم يقولون الهدى هو البيان وقد هدى الناس اجمع ولكنهم

وسلم فأخبروهم ان نعته في كتابهم التوراة فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود فقالوا ساحران تظاهرا (وقالوا انا بكل كافرون) يعني بالتوراة والقرآن وقيل بمحمد وموسى (قل) يا محمد (فائتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما) يعني من التوراة والقرآن (اتبعه) يعني الكتاب الذي تأتون به من عند الله وهذا تنبيه على عجزهم عن الاتيان بمثله (ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لك) اى فان لم يأتوا بما طلبت (فاعلم انما يتبعون أهواءهم) يعني ان ما ركبوه من الكفر لا حجة لهم فيه وانما آثروا اتباعهم ما هم عليه من الهوى (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين) قوله عز وجل (ولقد وصلنا لهم القول) قال ابن عباس بينا وقيل انزلنا آيات القرآن يتبع بعضها بعضا وقيل بينا لكفار مكة بما في القرآن من اخبار الامم الخالية كيف عذبوا بتكذيبهم وقيل وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا (لعلهم يتذكرون) اى يتعظون (الذين آتيناهم الكتاب من قبله) أي من قبل محمد صلى الله عليه وسلم وقيل من قبل القرآن (هم به يؤمنون) نزلت في مؤمني اهل الكتاب عبد الله بن سلام واصحابه وقيل بل هم اهل الانجيل الذين قدموا من الحبشة وآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وهم أربعون رجلا قدموا مع جعفر بن أبي طالب فلما رأوا ما بالمسلمين من الحاجة والخصاصة قالوا يا رسول الله ان لنا أموالا فان اذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا بها المسلمين فاذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين فنزلت هذه الآيات الى قوله ومما رزقناهم ينفقون وقال ابن عباس نزلت في ثمانين من اهل الكتاب اربعون من نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشام ثم وصفهم الله تعالى فقال (واذا يتلى عليهم) يعني القرآن (قالوا آمنا به انه الحق من ربنا) وذلك ان ذكر النبي صلى الله عليه وسلم كان مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل (انا كنا من قبله مسلمين) اى من قبل القرآن مخلصين لله التوحيد ومؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم انه نبي حق (أولئك يؤتون أجرهم مرتين) يعني بايمانهم بالكتاب الاول والكتاب الآخر (بما صبروا) اى على دينهم وعلى أذى المشركين (ق) عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لهم اجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم والعبد المملوك اذا أدى حق الله وحق مواليه ورجل كانت عنده أمة يطأها فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم اعتقها ثم تزوجها فله اجران (ويدرؤن بالحسنة السيئة) قال ابن عباس يدفعون بشهادة أن لا اله الا الله الشرك وقيل يدفعون ما سمعوا من أذى المشركين وشتمهم بالصفح والعفو (ومما رزقناهم ينفقون) أي في الطاعة (واذا سمعوا اللغو) اى القول القبيح (أعرضوا عنه) وذلك ان المشركين كانوا يسبون مؤمني اهل مكة ويقولون تبا لكم تركتم دينكم فيعرضون عنهم ولا يردون عليهم (وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) أى لنا ديننا ولكم دينكم (سلام عليكم) ليس المراد منه سلام التحية ولكن سلام المتاركة والمعنى سلمتم منا لا نعارضكم بالشتم (لا نبتغي الجاهلين) يعني لا نحب دينكم الذي انتم عليه وقيل لا نريد ان نكون من اهل الجهل والسفه وهذا قبل ان يؤمر المسلمون بالقتال ثم نسخ ذلك بالقتال قوله تعالى (انك لا تهدي من أحببت) اى هدايته وقيل أحببته لقرابته (ولكن الله يهدي من يشاء) وذلك أن الله تعالى يقذف في القلب نور الهداية فينشرح الصدر للايمان (وهو أعلم بالمهتدين) اى بمن قدر له الهدى

لم يهتدوا بـ واختيارهم فدل ان وراء البيان ما يسمى هداية وهو خلق الاهتداء واعطاء التوفيق والقدرة (وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا اولم نمكن لهم حرما آمنا) قالت قريش نحن نعلم انك على الحق ولكنا نخاف ان اتبعناك وخالفنا العرب بذلك ان يتخطفونا من ارضنا فألقمهم الله الحجر بأنه مكن لهم في الحرم الذي امنه بحرمة البيت وامن قطانه بحرمته والثمرات تجبى اليه من كل اوب وهم كفرة فأنى يستقيم ان يعرضهم للتخطف ويسلبهم الامن اذا ضموا الى حرمة البيت حرمة الاسلام واسناد الامن الى اهل الحرم حقيقة والى الحرم مجاز (يجبى اليه) وبالتاء مدنى ويعقوب وسهل اى تجلب وتجمع (ثمرات كل شئ) معنى الكلية الكثرة كقوله وأوتيت من كل ٣٨٦ شئ (رزقا من لدنا) هو مصدر لان معنى يجبى اليه يرزق او مفعول له او حال من الثمرات ان كان بمعنى مرزوق لتخصصها بالاضافة كما تنصب عن النكرة المتخصصة بالصفة (ولكن اكثرهم لا يعلمون) متعلق بمن لدنا أى قليل منهم يقرون بأن ذلك رزق من عند الله واكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ولو علموا انه من عند الله لعلموا أن الخوف والامن من عنده ولما خافوا التخطف اذا آمنوا به (وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها) هذا تخويف لاهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا فى مثل حالهم بانعام الله عليهم فلم يشكروا النعمة وقابلوها بالبطر فأهلكوا وكم نصب بأهلكنا ومعيشتها بحذف الجار وايصال الفعل اى فى معيشتها والبطر سوء احتمال الغنى وهو ان لا يحفظ حق الله فيه (فتلك مساكنهم) منازلهم باقية الآثار يشاهدونها فى الاسفار كبلاد ثمود وقوم شعيب وغيرهم (لم تسكن) حال والعامل فيها الاشارة (من بعدهم الا قليلا) من السكنى اى لم يسكنها الا المسافر ومار الطريق يوما أو ساعة (وكنا نحن الوارثين) لتلك المساكن من ساكنيها أى لا يملك التصرف فيها غيرنا (وما كان ربك مهلك القرى) فى كل وقت (حتى يبعث فى أمها) وبكسر الهمزة حمزة وعلى اى فى القرية التى هى امها اى اصلها ومعظمها (رسولا) لالزام الحجة وقطع المعذرة او وما كان فى حكم الله وسابق قضائه ان يهلك القرى فى الارض حتى يبعث فى أم القرى يعنى مكة لان الارض دحيت من تحتها رسولا يعنى محمدا عليه السلام (يتلو عليهم آياتنا) اى القرآن (وما كنا مهلكى القرى الا واهلها ظالمون) اى وما اهلكناهم للانتقام الا واهلها مستحقون العذاب بظلمهم وهو اصرارهم على كفرهم وعنادهم ومكابرتهم بعد الاعذار اليهم (وما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وزينتها) واى شئ أصبتموه من اسباب الدنيا فما هو الا تمتع وزينة اياما قلائل وهى مدة الحياة الفانية (وما عند الله) وهو ثوابه (خير) فى نفسه من ذلك (وأبقى) لانه دائم (أفلا تعقلون) ان الباقى خير من الفانى وخيرا ابو عمرو بين الياء والتاء والباقون بالتاء لا غير وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان الله تعالى خلق الدنيا وجعل اهلها ثلاثة اصناف المؤمن والمنافق والكافر فالمؤمن يتزود والمنافق يتزين والكافر يتمتع ثم قرأ هذه الآية بقوله (افمن وعدناه وعدا حسنا) اى الجنة ولا شئ احسن منها لانها دائمة ولذا سميت الجنة بالحسنى (فهو لاقيه) اى رائيه ومدركه ومصيبه (كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين) من الذين احضروا النار ونحوه فكذبوه فانهم لمحضرون نزلت فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى جهل لعنه الله او فى على وحمزة وابى جهل او فى المؤمن والكافر ومعنى الفاء الاولى انه لما ذكر التفاوت بين متاع

(م) عن أبى هريرة قال انك لا تهدى من أحببت نزلت فى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث راود عمه أبا طالب على الاسلام وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لابى طالب عند الموت يا عم قل لا اله الا الله أشهد لك بها يوم القيامة قال لولا ان تعيرنى قريش يقولون انما حمله على ذلك الجزع لاقررت بها عينك ثم أنشد

ولقد علمت بأن دين محمد * من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة او حذار مسبة * لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

ولكن على ملة الاشياخ عبد المطلب وعبد مناف ثم مات فأنزل الله هذه الآية (وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) يعنى مكة نزلت فى الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف وذلك انه قال للنبى صلى الله عليه وسلم انا لنعلم ان الذى تقول حق ولكن ان اتبعناك على دينك خفنا ان تخرجنا العرب من أرض مكة قال الله تعالى (أولم نمكن لهم حرما آمنا) وذلك ان العرب كانت فى الجاهلية يغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضا واهل مكة آمنون حيث كانوا لحرمة الحرم ومن المعروف انه كان تأمن فيه الظباء من الذئاب والحمام من الحدأة (يجبى اليه) اى يجلب ويجمع اليه ويحمل الى الحرم من الشام ومصر والعراق واليمن (ثمرات كل شئ رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون) يعنى ان اكثر اهل مكة لا يعلمون ذلك قوله عز وجل (وكم أهلكنا من قرية) أى من اهل قرية (بطرت معيشتها) اى اشرت وطغت وقيل عاشوا فى البطر فأكلوا رزق الله وعبدوا الاصنام (فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا) قال ابن عباس لم يسكنها الا المسافرون سكونا قليلا وقيل لم يعمر منها الا اقلها واكثرها خراب (وكنا نحن الوارثين) يعنى لم يخلفهم فيها احد بعد هلاكهم وصار امرها الى الله تعالى لانه الباقى بعد فناء الخلق (وما كان ربك مهلك القرى) يعنى الكافرة اهلها (حتى يبعث فى أمها رسولا) اى فى اكبرها واعظمها رسولا ينذرهم وخص الام ببعثة الرسول لانه يبعث الى الاشراف وهم سكان المدن وقيل حتى يبعث فى أم القرى وهى مكة رسولا يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم لانه خاتم الانبياء (يتلو عليهم آياتنا) يعنى انه يؤدى اليهم ويبلغهم وقيل يخبرهم ان العذاب نازل بهم ان لم يؤمنوا (وما كنا مهلكى القرى الا واهلها ظالمون) اى مشركون قوله عز وجل (وما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وزينتها) اى تتمتعون بها ايام حياتكم ثم هى فناء وانقضاء (وما عند الله خير وأبقى) لان منافع الآخرة خالصة عن الشوائب وهى دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا كالذرة بالقياس الى البحر العظيم (أفلا تعقلون) أى ان الباقى خير من الفانى وقيل من لم يرجح الآخرة على الدنيا فليس بعاقل ولهذا قال الشافعى من أوصى بثلث ماله لاعقل الناس صرف ذلك الثلث الى المشتغلين بطاعة الله تعالى لان أعقل الناس من اعطى القليل واخذ الكثير وما هم الا المشتغلون بطاعة الله تعالى (أفمن وعدناه وعدا حسنا) يعنى الجنة (فهو لاقيه) أى مصيبه وصائر اليه (كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) اى ويزول عنه عن قريب (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) اى فى النار قيل هذا فى المؤمن والكافر وقيل نزلت فى النبى

الحياة الدنيا وما عند الله عقبه بقوله أفمن وعدناه اى أبعد هذا التفاوت الجلي يسوى بين ابناء الدنيا وابناء الآخرة والفاء الثانية للتسبيب لان لقاء الموعود مسبب عن الوعد وثم لتراخي حال الاحضار عن حال التمتع ثم هو على كما قيل عضد في عضد شبه المنفصل بالمتصل (ويوم يناديهم) ينادى الله الكفار نداء توبيخ وهو عطف على يوم القيامة اومنصوب باذكر (فيقول أين شركائى) بناء على زعمهم (الذين كنتم تزعمون) ومفعولا تزعمون محذوفان تقديره كنتم تزعمونهم شركائى ويجوز حذف المفعولين فى باب ظننت ولا يجوز الاقتصار على احدهما (قال الذين حق عليهم القول) اى الشياطين وأئمة الكفر ومعنى حق عليهم القول وجب عليهم مقتضاه وثبت وهو قوله لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين (ربنا هؤلاء) مبتدأ (الذين أغوينا) اى دعوناهم الى الشرك وسولنا لهم الغي صفة والراجع الى الموصول محذوف والخبر (أغويناهم) والكاف فى (كما غوينا) صفة مصدر محذوف تقديره اغويناهم فغووا غيا مثل ما غوينا يعنون انا لم نغو الا باختيارنا فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم لان اغواءنا لهم لم يكن الا وسوسة وتسويلا فلا فرق اذا بين غينا وغيهم وان كان تسويلنا داعيا لهم الى الكفر فقد كان فى مقابلته دعاء الله لهم الى الايمان بما وضع فيهم من ادلة العقل وما بعث اليهم من الرسل وانزل عليهم من الكتب وهو كقوله وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق الى قوله ولوموا انفسكم (تبرأنا اليك) منهم ومما اختاروه من الكفر (ما كانوا ايانا يعبدون) بل يعبدون اهواءهم ويطيعون شهواتهم واخلاء الجملتين من العاطف لكونهما مقررتين لمعنى الجملة الاولى (وقيل) للمشركين (ادعوا شركاءكم) اى الاصنام لتخلصكم من العذاب (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) فلم يجيبوهم (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) وجواب لو محذوف اى لما رأوا العذاب (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) الذين ارسلوا اليكم حكى أولا ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ثم ما يقوله الشياطين او أئمة الكفر عند توبيخهم لانهم اذا وبخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغووهم ثم ما يشبه الشماتة بهم لاستغاثتهم آلهتهم وعجزهم عن نصرتهم ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بارسال الرسل وازاحة العلل (فعميت عليهم الانباء يومئذ) خفيت عليهم الحجج أو الاخبار وقيل خفى عليهم الجواب فلم يدروا بماذا يجيبون اذ لم يكن عندهم جواب (فهم لا يتساءلون) لا يسأل بعضهم بعضا عن العذر والحجة رجاء ان يكون عنده عذر وحجة لانهم يتساوون فى العجز عن الجواب (فأما من تاب) من الشرك (وآمن) بربه وبما جاء من عنده (وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين) اى فعسى ان يفلح عند الله وعسى من الكرام تحقيق وفيه بشارة للمسلمين على الاسلام وترغيب للكافرين على الايمان ونزل جوابا لقول الوليد بن المغيرة لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعنى نفسه او أبا مسعود (وربك يخلق ما يشاء) وفيه دلالة خلق الافعال ويوقف على (ويختار) اى وربك يخلق ما يشاء وربك يختار ما يشاء (ما كان لهم الخيرة) اى ليس لهم ان يختاروا على الله شيئا ما وله الخيرة عليهم ولم يدخل العاطف فى ما كان لهم الخيرة لانه بيان لقوله ويختار اذ المعنى ان الخيرة لله وهو اعلم بوجوه الحكمة فى افعاله فليس لاحد من خلقه ان يختار عليه ومن وصل على معنى ويختار الذى لهم فيه الخيرة فقد ابعد بل ما لنفى اختيار الخلق تقريرا لاختيار الحق ومن قال معناه ويختار للعباد ما هو خير لهم واصلح فهو مائل الى الاعتزال والخيرة من التخير يستعمل بمعنى المصدر وهو التخير وبمعنى المتخير كقولهم محمد خيرة الله من خلقه (سبحان الله وتعالى عما يشركون) اى الله برىء من اشراكهم وهو منزه عن ان يكون لاحد عليه اختيار (وربك يعلم ما تكن) تضمر (صدورهم) من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسده (وما يعلنون) من مطاعنهم فيه وقولهم هلا اختير عليه غيره فى النبوة (وهو الله) وهو المستأثر بالالهية المختص بها (لا اله الا هو) تقرير لذلك كقولك القبلة الكعبة لا قبلة الا هى (له الحمد فى الاولى) الدنيا (والآخرة) هو قولهم الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن الحمد لله الذى صدقنا وعده وقيل الحمد لله رب العالمين والتحميد ثمة على وجه اللذة لا الكلفة (وله الحكم) القضاء بين عباده (واليه

صلى الله عليه وسلم وابى جهل وقيل فى على وحمزة وابى جهل وقيل فى عمار بن ياسر والوليد بن المغيرة قوله عز وجل (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) أى فى الدنيا انهم شركائى (قال الذين حق عليهم القول) أى وجب عليهم العذاب وهم رؤس الضلالة (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) أى دعوناهم الى الغى وهم الاتباع (أغويناهم كما غوينا) أى اضللناهم كما ضللنا (تبرأنا اليك ما كانوا إيانا يعبدون) معناه تبرأ بعضهم من بعض وصاروا أعداء (وقيل) يعنى للكفار (ادعوا شركاءكم) أى الاصنام لتخلصكم من العذاب (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) اى لم يجيبوهم (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) معناه لو انهم كانوا يهتدون فى الدنيا ما رأوا العذاب فى الآخرة (ويوم يناديهم) أى يسأل الكفار (فيقول ماذا أجبتم المرسلين) اى ما كان جوابكم لمن أرسل اليكم من النبيين (فعميت عليهم) أى خفيت واشتبهت عليهم (الانباء) يعنى الاخبار والاعذار والحجج (يومئذ) فلم يكن لهم عذر ولا حجة (فهم لا يتساءلون) اى لا يجيبون ولا يحتجون وقيل يسكتون فلا يسأل بعضهم بعضا (فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين) أى من السعداء الناجين وعسى من الله واجب وقوله تعالى (وربك يخلق ما يشاء ويختار) نزلت هذه الآية جوابا للمشركين حين قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعنى الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفى اخبر الله تعالى انه لا يبعث الرسل باختيارهم لانه المالك المطلق وله ان يخص من يشاء بما يشاء لا اعتراض عليه البتة (ما كان لهم الخيرة) أى ليس لهم الاختيار وليس لهم ان يختاروا على الله وقيل معناه ويختار الله ما كان هو الاصلح والخير لهم ثم نزه الله تعالى نفسه فقال (سبحان الله وتعالى عما يشركون وربك يعلم ما تكن) أى تخفى (صدورهم وما يعلنون) أى يظهرون (وهو الله لا اله الا هو له الحمد فى الاولى والآخرة) أى يحمده أولياؤه فى الدنيا ويحمدونه فى الآخرة فى الجنة (وله الحكم) أى فصل القضاء بين الخلق وقال ابن عباس يحكم لاهل طاعته بالمغفرة ولاهل المعصية بالشقاوة (واليه

ترجعون) بالبعث والنشور وبفتح التاء وكسر الجيم يعقوب (قل أرأيتم) أريتم بحذوف الهمزة على (ان جعل الله عليكم الليل سرمدا) هو مفعول ثان لجعل اى دائما من السرد وهو المتابعة ومنه قولهم فى الاشهر الحرم ثلاثة سرد وواحد فرد والميم مزيدة ووزنه فعمل (الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون) والمعنى اخبرونى من يقدر على هذا (قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) ولم يقل بنهار تتصرفون فيه كما قال بليل تسكنون فيه بل ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لان المنافع التى تتعلق به متكاثرة ليس التصرف فى المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثم قرن بالضياء اولا تسمعون لان السمع يدرك مالا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل افلا تبصرون لان غيرك يبصر من منفعة الظلام ماتبصره أنت من السكون ونحوه (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) اى لتسكنوا بالليل ولتبتغوا من فضل الله فى النهار فيكون من باب اللف والنشر (ولعلكم تشكرون) الله على نعمه وقال الزجاج يجوز ان يكون معناه لتسكنوا فيهما ولتبتغوا من فضل الله فيهما ويكون المعنى جعل لكم الزمان ليلا ونهارا لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله فيه (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) كرر التوبيخ لاتخاذ الشركاء ليوذن ان لا شئ أجلب لغضب الله من الاشراك به كما لا شئ أدخل فى مرضاته من توحيده (ونزعنا) واخرجنا (من كل أمة شهيدا) يعنى نبيهم لان الانبياء للامم شهداء عليهم يشهدون بما كانوا عليه (فقلنا) للامم (هاتوا برهانكم) فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسل (فعلموا) حينئذ (ان الحق لله) التوحيد (وضل عنهم) وغاب عنهم غيبة الشئ الضائع (ما كانوا يفترون) من ألوهية غير الله والشفاعة لهم (ان قارون) لا ينصرف للعجمة والتعريف ولو كان فاعولا من قرنت الشئ لانصرف (كان من قوم موسى) كان اسرائيليا ابن عم لموسى فهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وموسى بن عمران بن قاهث وكان يسمى المنور لحسن صورته وكان اقرأ بنى اسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامرى (فبغى عليهم) من البغى وهو الظلم قيل ملكه فرعون على بنى اسرائيل فظلمهم او من البغى الكبر تكبر عليهم بكثرة ماله وولده اوزاد عليهم فى الثياب شبرا (وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه) ما بمعنى الذى فى موضع نصب بآتينا وان واسمها وخبرها صلة الذى ولهذا كسرت ان والمفاتح جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به او مفتح بالفتح وهو الخزانة والاصوب انها المقاليد (لتنوء بالعصبة) لتثقل العصبة فالباء للتعدية يقال ناء به الحمل اذا أثقله حتى أماله والعصبة الجماعة الكثيرة وكانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلا لكل خزانة مفتاح ولا يزيد المفتاح على اصبع وكانت من جلود (أولى القوة) الشدة (اذ قال له قومه) اى المؤمنون وقيل القائل موسى عليه السلام ومحل اذ نصب بتنوء (لا تفرح) لا تبطر بكثرة المال كقوله ولا تفرحوا بما آتاكم ولا يفرح بالدنيا الا من رضى بها واطمأن واما من قلبه الى الآخرة ويعلم انه يتركها عن قريب فلا يفرح بها (ان الله لا يحب الفرحين) البطرين بالمال (وابتغ فيما آتاك الله) من الغنى والثروة (الدار الآخرة) بأن تتصدق على الفقراء وتصل الرحم وتصرف الى ابواب الخير

ترجعون) قوله عز وجل (قل) أى قل يا محمد لاهل مكة (أرأيتم) أخبرونى (ان جعل الله عليكم الليل سرمدا) أى دائما (الى يوم القيامة) لا نهار فيه (من اله غير الله يأتيكم بضياء) اى بنهار تطلبون فيه المعيشة (أفلا تسمعون) أى سماع فهم وقبول (قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة) اى لا ليل معه (من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) أى ما أنتم عليه من الخطا قيل ان من نعمة الله تعالى على الخلق ان جعل الليل والنهار يتعاقبان لان المرء فى حال الدنيا وفى حال التكليف مدفوع الى التعب ليحصل ما يحتاج اليه ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ولاجله يحصل الاجتماع فتمكن المعاملات ومعلوم ان ذلك لا يتم الا بالراحة والسكون بالليل فلا بد منهما فأما فى الجنة فلا تعب ولا نصب فلا حاجة بهم الى الليل ولذلك يدوم لهم الضياء أبدا فبين الله تعالى انه القادر على ذلك ليس غيره فقال (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار) أى يتعاقبان بالظلمة والضياء (لتسكنوا فيه) أى فى الليل (ولتبتغوا من فضله) اى بالنهار (ولعلكم تشكرون) أى نعم الله فيهما (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) كرر ذلك النداء للمشركين لزيادة التقريع والتوبيخ (ونزعنا) اى أخرجنا وقيل ميزنا (من كل أمة شهيدا) يعنى رسولهم يشهد عليهم بأنه بلغهم رسالة ربهم ونصح لهم (فقلنا) اى للامم المكذبة (هاتوا برهانكم) أى حجتكم بأن معى شريكا (فعلموا أن الحق لله) اى التوحيد لله (وضل عنهم ما كانوا يفترون) اى يختلقون فى الدنيا من الكذب على الله قوله عز وجل (ان قارون كان من قوم موسى) قيل كان ابن عم موسى لانه قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وموسى بن عمران بن قاهث وقيل كان عم موسى ولم يكن فى بنى اسرائيل أقرأ منه للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامرى (فبغى عليهم) قيل كان عاملا لفرعون على بنى اسرائيل فظلمهم وبغى عليهم وقيل بغى عليهم بكثرة ماله وقيل زاد فى طول ثيابه شبرا (ق) عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا ينظر الله يوم القيامة الى من جر ثيابه خيلاء أخرجاه فى الصحيحين وقيل بغى عليهم بالكبر والعلو (وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه) جمع مفتح الذى يفتح به الباب وقيل مفاتحه يعنى خزائنه (لتنوء بالعصبة أولى القوة) معناه لتثقلهم وتميل بهم اذا حملوها لثقلها قيل العصبة ما بين العشرة الى الخمسة عشر وقال ابن عباس ما بين الثلاثة الى العشرة وقيل الى الاربعين وقيل الى السبعين قال ابن عباس كان يحمل مفاتيحه أربعون أقوى ما يكون من الرجال وقيل كان قارون أينما ذهب تحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد فلما كثرت وثقلت عليه جعلها من خشب فثقلت فجعلها من جلود البقر كل مفتاح على قدر الاصبع وكانت تحمل معه اذا ركب على اربعين بغلا (اذ قال له قومه لا تفرح) أى لا تبطر ولا تأشر ولا تمرح (ان الله لا يحب الفرحين) أى الاشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم قيل انه لا يفرح بالدنيا الا من رضى بها واطمأن اليها فأما من يعلم انه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح ولقد أحسن من قال

اشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) أى اطلب فيما اعطاك الله من الاموال الجنة وهو ان تقوم

بشكر الله فيما أنعم عليك وتنفقه فى رضا الله (ولا تنس نصيبك من الدنيا) اى لا تترك ان تعمل فى الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب لان حقيقة نصيب الانسان من الدنيا ان يعمل فيها للآخرة بالصدقة وصلة الرحم وقيل لا تنس صحتك وقوتك وشبابك وغناك ان تطلب بها الآخرة عن عمرو بن ميمون الازدى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك هذا حديث مرسل وعمرو بن ميمون لم يلق النبى صلى الله عليه وسلم (وأحسن كما أحسن الله اليك) أى احسن بطاعة الله كما احسن اليك بنعمته وقيل احسن الى الناس (ولا تبغ) أى ولا تطلب (الفساد فى الارض) وكل من عصى الله فقد طلب الفساد فى الارض (ان الله لا يحب المفسدين قال) يعنى قارون (انما أوتيته على علم عندى) أى على فضل وخير علمه الله عندى فرآنى أهلا لذلك ففضلنى بهذا المال عليكم كما فضلنى بغيره وقيل هو علم الكيمياء وكان موسى يعلمه فعلم يوشع بن نون ثلث ذلك وعلم كالب بن يوقنا ثلثه وعلم قارون ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما الى علمه فكان يصنع من الرصاص فضة ومن النحاس ذهبا وكان ذلك سبب كثرة امواله وقيل كان علمه حسن التصرف فى التجارات والزراعات وانواع المكاسب قال الله عز وجل (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) أى للاموال (ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) قيل معناه ان الله تعالى اذا أراد عقاب المجرمين فلا حاجة به الى سؤالهم لانه عالم بحالهم وقيل لا يسئلون سؤال استعلام وانما يسئلون سؤال توبيخ وتقريع وقيل لا تسأل الملائكة عنهم لانهم يعرفونهم بسيماهم قوله عز وجل (فخرج على قومه فى زينته) قيل خرج هو وقومه وهم سبعون ألفا عليهم الثياب الحمر والصفر والمعصفرات وقيل خرج على براذين بيض عليها سروج الارجوان وقيل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب وعليه الارجوان ومعه أربعة آلاف فارس وعليهم وعلى دوابهم الارجوان ومعه ثلاثمائة جارية بيضاء عليهن الحلى والثياب الحمر وهن على البغال الشهب (قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم) أى من المال (وقال الذين أوتوا العلم) اى بما وعد الله فى الآخرة وقال ابن عباس يعنى الاحبار من بنى اسرائيل للذين تمنوا مثل ما أوتى قارون (ويلكم ثواب الله) أى ما عند الله من الثواب والخير (خير لمن آمن) اى صدق بتوحيد الله (وعمل صالحا) اى ذلك خير مما أوتى قارون فى الدنيا (ولا يلقاها الا الصابرون) اى لا يؤتى الاعمال الصالحة الا الصابرون وقيل لا يؤتى هذه الكلمة وهى قوله ويلكم ثواب الله خير الا الصابرون اى على طاعة الله وعن زينة الدنيا قوله تعالى (فخسفنا به وبداره الارض)

(ولا تنس نصيبك من الدنيا) وهو ان تأخذ ما يكفيك ويصلحك وقيل معناه واطلب بدنياك آخرتك فان ذلك حظ المؤمن منها (واحسن) الى عباد الله (كما أحسن الله اليك) او احسن بشكرك وطاعتك لخالق الانام كما أحسن اليك بالانعام (ولا تبغ الفساد فى الارض) بالظلم والبغى (ان الله لا يحب المفسدين قال انما أوتيته) اى المال (على علم عندى) اى على استحقاق لما فى من العلم الذى فضلت به الناس وهو علم التوراة وعلم الكيمياء وكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهبا والعلم بوجوه المكاسب من التجارة والزراعة وعندى صفة لعلم قال سهل ما نظر احد الى نفسه فأفلح والسعيد من صرف بصره عن افعاله واقواله وفتح له سبيل رؤية منة الله تعالى عليه فى جميع الافعال والاقوال والشقى من زين فى عينه افعاله واقواله واحواله ولا فتح له سبيل رؤية منة الله فافتخر بها وادعاها لنفسه فشؤمه يهلكه يوما كما خسف بقارون لما ادعى لنفسه فضلا (أولم يعلم) قارون (ان الله قد اهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة) هو اثبات لعلمه بأن الله قد اهلك من القرون قبله من هو أقوى منه واغنى لانه قد قرأه فى التوراة كانه قيل أولم يعلم فى جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته او نفى لعلمه بذلك لانه لما قال اوتيته على علم عندى قيل اعنده مثل ذلك العلم الذى ادعاه ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين (واكثر جمعا) للمال او اكثر جماعة وعددا (ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) لعلمه تعالى بهم بل يدخلون النار بغير حساب او يعترفون بها بغير سؤال او يعرفون بسيماهم فلا يسئلون او لا يسئلون لتعلم من جهتهم بل يسئلون سؤال توبيخ او لا يسئل عن ذنوب الماضين المجرمون من هذه الامة (فخرج على قومه فى زينته) فى الحمرة والصفرة وقيل خرج يوم السبت على بغلة شهباء عليها الارجوان وعليها سرج من ذهب ومعه اربعة آلاف على زيه وقيل عليهم وعلى خيولهم الديباج الاحمر وعن يمينه ثلاثمائة غلام وعن يساره ثلاثمائة جارية بيض عليهن الحلى والديباج وفى زينته حال من فاعل خرج اى متزينا (قال الذين يريدون الحياة الدنيا) قيل كانوا مسلمين وانما تمنوا على سبيل الرغبة فى اليسار كعادة البشر وقيل كانوا كفارا (ياليت لنا مثل ما أوتى قارون) قالوه غبطة والغابط هو الذى يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير ان تزول عنه كهذه الآية والحاسد هو الذى يتمنى ان تكون نعمة صاحبه له دونه وهو كقوله تعالى ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم هل تضر الغبطة قال لا الا كما يضر العضاه الخبط (انه لذو حظ عظيم) الحظ الجد وهو البخت والدولة (وقال الذين أوتوا العلم) بالثواب والعقاب وفناء الدنيا وبقاء العقبى لغابطى قارون (ويلكم) اصل ويلك الدعاء بالهلاك ثم استعمل فى الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرضى وفى التبيان فى اعراب القرآن هو مفعول فعل محذوف اى الزمكم الله ويلكم (ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها) اى لا يلقن هذه الكلمة وهى ثواب الله خير (الا الصابرون) على الطاعات وعن الشهوات وزينة الدنيا وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير (فخسفنا به وبداره الارض) كان قارون يؤذى موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التى بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت به نفسه فجمع بنى اسرائيل وقال ان موسى يريد ان يأخذ اموالكم فقالوا أنت كبيرنا فمر بما شئت قال نبرطل فلانة البغى حتى ترميه

(ذكر قصة قارون) قال اهل العلم بالاخبار والسير كان قارون أعلم بني اسرائيل بعد موسى وهارون وأقرأهم للتوراة وأجملهم وأغناهم وكان حسن الصوت فبغى وطغى وكان أوّل طغيانه وعصيانه ان الله تعالى أوحى الى موسى ان يأمر قومه ان يعلقوا في ارديتهم خيوطا اربعة في كل طرف خيطا أخضر كلون السماء يذكرونني به اذا نظروا الى السماء ويعلمون اني منزل منها كلامي فقال موسى يارب أفلا تأمرهم ان يجعلوا ارديتهم كلها خضرا فان بني اسرائيل تستصغر هذه الخيوط فقال له ربه يا موسى ان الصغير من أمري ليس بصغير فاذا لم يطيعوني في الامر الصغير لم يطيعوني في الامر الكبير فدعاهم موسى فقال ان الله يامركم ان تعلقوا في ارديتكم خيوطا خضرا كلون السماء لكي تذكروا ربكم اذا رأيتموها ففعل بنو اسرائيل ما أمرهم به موسى واستكبر قارون فلم يطعه وقال انما يفعل هذا الارباب بعبيدهم لكي يتميزوا عن غيرهم فكان هذا بدء عصيانه وبغيه فلما قطع موسى ببني اسرائيل البحر جعلت الحبورة لهارون وهي رآسة المذبح فكان بنو اسرائيل يأتون بقربانهم الى هارون فيضعها على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله فوجد قارون من ذلك في نفسه وأتى الى موسى فقال له يا موسى لك الرسالة ولهارون الحبورة ولست في شيء من ذلك وأنا أقرأ التوراة لا صبر لي على هذا فقال اما انا ما جعلتها لهارون بل الله جعلها له فقال له قارون والله لا أصدقك حتى تريني بيانه فجمع موسى رؤساء بني اسرائيل فقال هاتوا عصيكم فحزمها وألقاها في قبته التي يتعبد فيها وجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا فأصبحت عصا هارون قد اهتز لها ورق اخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى يا قارون ترى هذا فقال له قارون والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر واعتزل قارون موسى بأتباعه وجعل موسى يداريه للقرابة التي بينهما وهو يؤذيه كل وقت ولا يزيد الا عتوا وتجبرا ومعاداة لموسى حتى بنى دارا وجعل لها بابا من الذهب وضرب على جدرانها صفائح الذهب وكان الملأ من بني اسرائيل يغدون اليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه قال ابن عباس فلما نزلت الزكاة على موسى أتاه قارون فصالحه على كل ألف دينار عنها دينار وعلى كل ألف درهم عنها درهم وكل ألف شاة عنها شاة وكذلك سائر الاشياء ثم رجع الى بيته فحسبه فوجده شيئا كثيرا فلم تسمح نفسه بذلك فجمع بني اسرائيل وقال لهم ان موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه وهو يريد يأخذ أموالكم فقالوا انت كبيرنا فمرنا بما شئت قال آمركم أن تجيئوا فلانة البغي وتجعلوا عليكم لها جعلا على ان تقذف موسى بنفسها فاذا فعلت ذلك خرج عليه بنو اسرائيل فرفضوه فدعوها فجعل لها قارون ألف دينار وألف درهم وقيل طستا من ذهب وقيل قال لها قارون انزلك واخلطك بنسائي على ان تقذفي موسى بنفسك غدا اذا حضر بنو اسرائيل فلما كان من الغد جمع قارون بني اسرائيل ثم أتى موسى فقال ان بني اسرائيل ينتظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم فخرج اليهم موسى وهم في مرج من الارض فقام فيهم فقال يا بني اسرائيل من سرق قطعنا يده ومن افترى جلدناه ثمانين ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة جلدة ومن زنى وله امرأة رجمناه الى ان يموت فقال قارون وان كنت أنت قال وان كنت أنا قال فان بني اسرائيل يزعمون انك فجرت بفلانة البغي قال ادعوها فلما جاءت قال لها موسى بالذي فلق البحر لبني اسرائيل وأنزل التوراة الا صدقت فتداركها الله بالتوفيق فقالت في نفسها احدث توبة افضل من أن أوذي رسول الله فقالت لا والله ولكن قارون جعل لي جعلا على ان اقذفك بنفسي فخر موسى ساجدا يبكي ويقول اللهم ان كنت رسولك فاغضب لي فأوحى الله اليه اني أمرت الارض ان تطيعك فمرها بما شئت فقال موسى يا بني اسرائيل ان الله بعثني الى قارون كما بعثني الى فرعون فمن كان معه فليثبت مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا فلم يبق مع قارون الا رجلان ثم قال موسى يا أرض خذيهم فأخذتهم بأقدامهم وقيل كان على سريره وفرشه فأخذته الارض حتى غيبت سريره ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم الى الركب ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم الى الاوساط ثم قال يا ارض خذيهم فأخذتهم الى الاعناق واصحابه في ذلك يتضرعون الى موسى ويناشده قارون الله والرحم

بنفسها فترفضه بنواسرائيل فجعل لها ألف دينارا وطستا من ذهب اوحكمها فلما كان يوم عيد قام موسى فقال يابني اسرائيل من سرق قطعناه ومن افترى جلدناه ومن زنى وهو غير محصن جلدناه وان احصن رجمناه فقال قارون وان كنت انت قال وان كنت أنا قال فان بني اسرائيل يزعمون انك فجرت بفلانة فأحضرت فناشدها بالذي فلق البحر وانزل التوراة ان تصدق فقالت جعل لي قارون جعلا على ان اقذفك بنفسي فخر موسى ساجدا يبكي وقال يارب ان كنت رسولك فاغضب لي فأوحى الله اليه أن مر الارض بما شئت فانها مطيعة لك فقال يابني اسرائيل ان الله بعثني الى قارون كما بعثني الى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال ياأرض خذيهم فأخذتهم الى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاوساط ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاعناق وقارون واصحابه يتضرعون الى موسى ويناشدونه بالله والرحم وموسى لا يلتفت اليهم لشدة غضبه ثم قال خذيهم فانطبقت عليهم فقال الله تعالى استغاث بك مرارا فلم ترحمه فوعزتي لو استرحمني مرة لرحمته فقال بعض بني اسرائيل انما أهلكه ليرث ماله فدعا الله حتى خسف بداره وكنوزه (فما كان له من فئة) جماعة (ينصرونه من دون الله) يمنعونه من عذاب الله (وما كان من المنتصرين) من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب الله يقال نصره من عدوه فانتصر اي منعه منه فامتنع (وأصبح) وصار (الذين تمنوا مكانه) منزلته من الدنيا (بالامس) ظرف لتمنوا ولم يرد به اليوم الذي قبل يومك ولكن الوقت القريب استعارة (يقولون وي كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) وي منفصلة عن كأن عند البصريين قال سيبويه وي كلمة تنبه على الخطا وتندم يستعملها النادم باظهار ندامته يعني ان القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم وقولهم ياليت لنا مثل ما أوتي قارون وتندموا (لولا أن من الله علينا) بصرف ما كنا نتمناه بالامس (لخسف بنا) وبفتحتين حفص ويعقوب وسهل وفيه ضمير الله تعالى (وي كأنه لا يفلح الكافرون) اي تندموا ثم قالوا كأنه لا يفلح الكافرون (تلك الدار الآخرة) تلك تعظيم لها وتفخيم لشأنها يعني تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها وقوله (نجعلها) خبر تلك والدار نعتها (للذين لا يريدون علوا في الارض) بغيا ابن جبير وظلما الضحاك وكبرا (ولا فسادا) عملا بالمعاصي اوقتل النفس اودعاء الى عبادة غير الله ولم يعلق الموعد بترك العلو والفساد ولكن بترك ارادتهما وميل القلوب اليهما كما قال ولا تركنوا الى الذين ظلموا فعلق الوعيد بالركون وعن علي رضي الله عنه ان الرجل ليعجبه ان يكون شراك نعله اجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها وعن الفضيل انه قرأها ثم قال ذهبت الاماني ههنا وعن عمر بن عبد العزيز انه كان يرددها حتى قبض وقال بعضهم حقيقته التنفير عن متابعة فرعون وقارون متشبثا بقوله ان فرعون علا في الارض ولا تبغ الفساد في الارض (والعاقبة) المحمودة (للمتقين من جاء بالحسنة فله خير منها) مر في النمل (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات) معناه فلا يجزون فوضع الذين عملوا السيئات موضع الضمير لان في اسناد عمل السيئة اليهم مكررا فضل تهجين بحالهم وزيادة تبغيض للسيئة الى قلوب السامعين (الا ما كانوا يعملون) الا مثل ما كانوا يعملون ومن فضله العظيم ان لا يجزى السيئة الا بمثلها ويجزى الحسنة بعشر امثالها وبسبعمائة (ان الذي فرض عليك القرآن) اوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه (لرادك) بعد الموت (الى معاد) اي معاد واي معاد ليس لغيرك من البشر فلذا نكره او المراد به مكة والمراد رده اليها يوم الفتح لانها كانت في ذلك اليوم معادا له شأن ومرجعا له اعتداد لغلبة رسول الله وقهره لاهلها ولظهور عز الاسلام واهله وذل الشرك وحزبه والسورة مكية ولكن هذه الآية نزلت بالجحفة لا بمكة ولا بالمدينة حين اشتاق الى مولده ومولد آبائه ولما وعد رسوله الرد الى معاده قال

حتى قيل انه ناشده أربعين مرة وقيل سبعين مرة وموسى في ذلك لا يلتفت اليه لشدة غضبه ثم قال ياأرض خذيهم فأطبقت عليهم الارض فأوحى الله الى موسى ما أغلظ قلبك يستغيث بك قارون سبعين مرة فلم تغثه اما وعزتي وجلالي لو استغاث بي مرة لاغثته وفي بعض الآثار لا أجعل الارض بعدك طوعا لاحد قال قتادة خسف به الارض فهو يتجلجل في الارض كل يوم قامة رجل لا يبلغ قرارها الى يوم القيامة واصبح بنو اسرائيل يقولون فيما بينهم انما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه وامواله فدعا الله موسى حتى خسف بداره وكنوزه وامواله الارض فذلك قوله تعالى (فما كان له من فئة) أي جماعة (ينصرونه من دون الله) أي يمنعونه من الله (وما كان من المنتصرين) من الممتنعين مما نزل به من الخسف (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالامس) أي صار أولئك الذين تمنوا ما رزقه الله من الاموال والزينة يندمون على ذلك التمني (يقولون ويكأن الله) ألم تعلم وقيل ألم تر وقيل هي كلمة تقرير معناها اما ترى صنع الله واحسانه وقيل ويك بمعنى ويلك اعلم ان الله وروي ان وي مفصولة من كان والمعنى ان القوم ندموا فقالوا متندمين على ما سلف منهم وي وكان معناها أظن واقدر ان الله (يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) قال ابن عباس اي يوسع لمن يشاء ويضيق على من يشاء (لولا أن من الله علينا) أي بالايمان (لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون) قوله عز وجل (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض) اي استكبارا عن الايمان وقيل علوا واستطالة على الناس وتهاونا بهم وقيل يطلبون الشرف والعز عند ذي سلطان وعن علي انها نزلت في أهل التواضع من الولاة واهل المقدرة (ولا فسادا) قيل الذين يدعون الى غير عبادة الله تعالى وقيل أخذ أموال الناس بغير حق وقيل العمل بالمعاصي (والعاقبة للمتقين) اي العاقبة المحمودة لمن اتقى عقاب الله بأداء أوامره واجتناب نواهيه وقيل عاقبة المتقين الجنة (من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون) تقدم تفسيره قوله تعالى (ان الذي فرض عليك القرآن) أي أنزل عليك القرآن وقيل معناه اوجب عليك العمل بالقرآن (لرادك الى معاد) قال ابن عباس الى مكة أخرجه البخاري عنه قال القتيبي معاد الرجل بلده لانه ينصرف فيعود الى بلده وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من الغار مهاجرا الى المدينة سار على غير الطريق مخافة الطلب فلما أمن رجع الى الطريق ونزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق الى مكة فاشتاق اليها فأتاه جبريل عليه السلام وقال له أتشتاق الى بلدك قال نعم قال فان

(قل) للمشركين (ربي أعلم من جاء بالهدى) يعني نفسه وماله من الثواب في معاده (ومن هو في ضلال مبين) يعني المشركين وما يستحقونه من العذاب في معادهم من في محل نصب بفعل مقدر اي يعلم (وما كنت ترجو أن يلقى) يوحى (اليك الكتاب) القرآن (الا رحمة من ربك) هو محمول على المعنى اى وما ألقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك او الا بمعنى لكن للاستدراك أى ولكن رحمة من ربك ألقى اليك الكتاب (فلا تكونن ظهيرا للكافرين) معينا لهم على دينهم (ولا يصدنك عن آيات الله) هو على الجمع اى لا يمنعنك هؤلاء عن العمل بآيات الله أى القرآن (بعد اذ أنزلت اليك)

الآيات أى بعد وقت انزاله واذ يضاف اليه أسماء الزمان كقولك حينئذ ويومئذ (وادع الى ربك) الى توحيده وعبادته (ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله الها آخر) قال ابن عباس رضي الله عنهما الخطاب في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد اهل دينه ولان العصمة لا تمنع النهي والوقف على آخر لازم لانه لو وصل لصار (لا اله الا هو) صفة لالها آخر وفيه من الفساد ما فيه (كل شئ هالك الا وجهه) اى الا اياه فالوجه يعبر به عن الذات وقال مجاهد يعني علم العلماء اذا أريد به وجه الله (له الحكم) القضاء في خلقه (واليه ترجعون) ترجعون بفتح التاء وكسر الجيم يعقوب والله أعلم

(سورة العنكبوت مكية وهي تسع وستون آية)*

بسم الله الرحمن الرحيم

ألم أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) الحسبان قوة أحد النقيضين على الآخر كالظن بخلاف الشك فهو الوقوف بينهما والعلم فهو القطع على أحدهما ولا يصح تعليقهما بمعاني المفردات ولكن بمضامين الجمل فلو قلت حسبت زيدا وظننت الفرس لم يكن شيئا حتى تقول حسبت زيدا عالما وظننت الفرس جوادا لان قولك زيد عالم والفرس جواد كلام دال على مضمون فاذا أردت الاخبار عن ذلك المضمون ثابتا عندك على وجه الظن لا اليقين أدخلت على شطري الجملة فعل الحسبان حتى يتم لك غرضك والكلام الدال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان هنا ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون وذلك ان تقديره احسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا فالترك أول مفعولي حسب ولقولهم آمنا هو الخبر وأما غير مفتونين فتتمة الترك لانه من الترك الذي هو بمعنى التصيير كقول عنترة * فتركته جزر السباع ينشنه * الا ترى انك قبل المجئ بالحسبان تقدر ان تقول تركتهم غير مفتونين لقولهم آمنا على تقدير حاصل ومستقر قبل اللام وهو استفهام توبيخ والفتنة الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الاوطان ومجاهدة الاعداء وسائر الطاعات الشاقة وهجر الشهوات وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الانفس والاموال ومصابرة الكفار على اذاهم وكيدهم وروى انها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جزعوا من أذى المشركين أو في عمار بن ياسر وكان يعذب في الله (ولقد فتنا) اختبرنا وهو موصول بأحسب أو بلا يفتنون (الذين من قبلهم) بأنواع الفتن فمنهم من يوضع المنشار على راسه فيفرق

الله تعالى يقول ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد وهذه الآية نزلت بالجحفة ليست بمكية ولا مدنية وقال ابن عباس أيضا لرادك الى الموت وقيل الى القيامة وقيل الى الجنة (قل ربي أعلم من جاء بالهدى) هذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم انك لفي ضلال مبين فقال الله تعالى قل لهم ربي اعلم من جاء بالهدى يعني نفسه (ومن هو في ضلال مبين) يعني المشركين ومعناه هو أعلم بالفريقين قوله عز وجل (وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب) أي يوحى اليك القرآن (الا رحمة من ربك) فأعطاك القرآن (فلا تكونن ظهيرا) اى معينا (للكافرين) على دينهم وذلك حين دعوه الى دين آبائه فذكره نعمه عليه ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه (ولا يصدنك عن آيات الله) يعني القرآن (بعد اذ أنزلت اليك وادع الى ربك) الى معرفته وتوحيده (ولا تكونن من المشركين) قال ابن عباس الخطاب في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به اهل دينه اى ولا تظاهر الكفار ولا توافقهم (ولا تدع مع الله الها آخر) معناه انه واجب على الكل الا انه خاطبه به مخصوصا لاجل التعظيم فان قلت النبي صلى الله عليه وسلم كان معصوما من ان يدعو مع الله الها آخر فما فائدة هذا النهي قلت الخطاب معه والمراد به غيره وقيل معناه لا تتخذ غيره وكيلا على أمورك كلها ولا تعتمد على غيره (لا اله الا هو كل شئ هالك) أي فان (الا وجهه) اى الا هو والوجه يعبر به عن الذات وقيل معناه الا ما أريد به وجهه لان عمل كل شئ أريد به غير الله فهو هالك (له الحكم) اى فصل القضاء بين الخلق (واليه ترجعون) أى تردون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم والله أعلم بمراده

تفسير سورة العنكبوت وهي مكية

وآياتها تسع وستون آية وكلماتها تسعمائة وثمانون كلمة وحروفها أربعة آلاف ومائة وخمسة وستون حرفا

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله عز وجل (ألم أحسب الناس) أى أظن الناس (ان يتركوا) أى بغير اختبار وابتلاء (أن) أى بأن (يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) أى لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم كلا لنختبرنهم لنبين المخلص من المنافق والصادق من الكاذب قيل نزلت هذه الآية في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالاسلام فكتب اليهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم انه لا يقبل منكم الاقرار بالاسلام حتى تهاجروا فخرجوا عامدين الى المدينة فاتبعهم المشركون فقاتلهم الكفار فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله هاتين الآيتين وقال ابن عباس أراد بالناس الذين آمنوا بمكة سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وعمار بن ياسر وغيرهم وقيل في عمار كان يعذب في الله تعالى وقيل في مهجع بن عبد الله مولى عمر وكان أول من قتل من المسلمين يوم بدر فقال النبي صلى الله عليه وسلم سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى الى باب الجنة من هذه الامة فجزع أبواه وامرأته فأنزل الله هذه الآية ثم عزاهم فقال تعالى (ولقد فتنا الذين من قبلهم) يعني الانبياء فمنهم من نشر بالمنشار ومنهم من قتل وابتلى بنو اسرائيل بفرعون فكان يسومهم

فرقتين مايصرفه ذلك عن دينه ومنهم من يثبط بامشاط الحديد مايصرفه ذلك عن دينه (فليعلمن الله) بالامتحان (الذين صدقوا) فى الايمان (وليعلمن الكاذبين) فيه ومعنى علمه تعالى وهو عالم بذلك فيما لم يزل ان يعلمه موجودا عند وجوده كما علمه قبل وجوده انه يوجد والمعنى وليميزن الصادق منهم من الكاذب قال ابن عطاء يتبين صدق العبد من كذبه فى أوقات الرخاء والبلاء فمن شكر فى أيام الرخاء وصبر فى أيام البلاء فهو من الصادقين ومن بطر فى أيام الرخاء وجزع فى أيام البلاء فهو من الكاذبين (أم حسب الذين يعملون السيئات) أى الشرك والمعاصى (ان يسبقونا) اى يفوتونا يعنى ان الجزاء يلحقهم لامحالة واشتمال صلة ان على مسند ومسند اليه سد مسد مفعولين كقوله أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ويجوز ان يضمن حسب معنى قدر وام منقطعة ومعنى الاضراب فيها ان هذا الحسبان ابطل من الحسبان الاول لان ذلك يقدر انه لايمتحن لايمانه وهذا يظن انه لايجازى بمساويه وقالوا الاول فى المؤمنين وهذا فى الكافرين (ساء مايحكمون) ما فى موضع رفع على معنى ساء الحكم حكمهم أو نصب على معنى ساء حكما يحكمون والمخصوص

سوء العذاب (فليعلمن الله الذين صدقوا) اى فى قولهم (وليعلمن الكاذبين) والله تعالى عالم بهم قبل الاختبار ومعنى الآية فليظهرن الله الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلومه وقيل ان آثار افعال الحق صفة يظهر فيها كل ما يقع وما هو واقع قوله تعالى (أم حسب الذين يعملون السيئات) يعنى الشرك (ان يسبقونا) أى يعجزونا فلا نقدر على الانتقام منهم (ساء ما يحكمون من كان يرجو لقاء الله) قال ابن عباس من كان يخشى البعث والحساب وقيل من كان يطمع فى ثواب الله (فان أجل الله لآت) يعنى ما وعد الله من الثواب والعقاب وقيل يوم القيامة لكائن والمعنى ان من يخشى الله و يؤمله فليستعد له وليعمل لذلك اليوم (وهو السميع العليم) أى يعلم ما يعمل العباد من الطاعة والمعصية فيثيبهم أو يعاقبهم أو يعفو قوله تعالى (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه) أى له ثوابه وهذا بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق فان الكريم اذا وعد وفى والجهاد هو الصبر على الاعداء والشدة وقد يكون فى الحرب وقد يكون على مخالفة النفس (ان الله لغنى عن العالمين) أى عن أعمالهم وعبادتهم وفيه بشارة وتخويف أما البشارة فلانه اذا كان غنيا عن الاشياء فلو أعطى جميع ما خلقه لعبد من عبيده لاشئ عليه لاستغنائه عنه وهذا يوجب الرجاء التام وأما التخويف فلان الله اذا كان غنيا عن العالمين فلو أهلكهم بعذابه فلاشئ عليه لاستغنائه عنهم (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) أى لنبطلنها حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل والتكفير اذهاب السيئة بالحسنة (ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) أى بأحسن أعمالهم وهو الطاعة وقيل يعطيهم أكثر مما عملوا قوله عز وجل (ووصينا الانسان بوالديه حسنا) معناه برا بهما وعطفا عليهما والمعنى ووصينا الانسان بوالديه ان يفعل بهما ما يحسن نزلت هذه الآية والتى فى سورة لقمان والاحقاف فى سعد بن أبى وقاص وقال أبو اسحاق سعد بن مالك الزهرى وأمه حمنة بنت أبى سفيان بن أمية بن عبد شمس لما أسلم وكان من السابقين الاولين وكان بارا بأمه قالت له أمه ما هذا الذى أحدثت والله ما آكل ولا أشرب حتى ترجع الى ما كنت عليه أو أموت فتعير بذلك ابد الدهر و يقال يا قاتل أمه ثم انها مكثت يوما وليلة لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل فاصبحت وقد جهدت ثم مكثت كذلك يوما آخر وليلة فجاءها فقال يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى فكلى ان شئت وان شئت فلا تأكلى فلما أيست منه أكلت وشربت فأنزل الله هذه الآية وأمره بالبر لوالديه والاحسان اليهما وان لا يطيعهما فى الشرك فذلك قوله تعالى (وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما) وفى الحديث لا طاعة لمخلوق فى معصية الله ثم أوعد بالمصير اليه فقال تعالى (الى مرجعكم فأنبئكم) أى فأخبركم (بما كنتم تعملون) أى بصالح أعمالكم وسيئاتها أى فأجازيكم عليها (والذين آمنوا

بالذم محذوف أى بئس حكما يحكمونه حكمهم (من كان يرجو لقاء الله) أى يأمل ثوابه أو يخاف حسابه فالرجاء يحتملهما (فان أجل الله) المضروب للثواب والعقاب (لآت) لامحالة فليبادر للعمل الصالح الذى يصدق رجاءه ويحقق أمله (وهو السميع) لما يقوله عباده (العليم) بما يعملونه فلا يفوته شئ ما وقال الزجاج من للشرط و يرتفع بالابتداء وجواب الشرط فان أجل الله لآت كقولك ان كان زيد فى الدار فقد صدق الوعد (ومن جاهد) نفسه بالصبر على طاعة الله أو الشيطان بدفع وساوسه أو الكفار (فانما يجاهد لنفسه) لان منفعة ذلك ترجع اليها (ان الله لغنى عن العالمين) وعن طاعتهم ومجاهدتهم وانما أمر ونهى رحمة لعباده (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) أى الشرك والمعاصى بالايمان والتوبة (ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) أى احسن جزاء أعمالهم فى الاسلام (ووصينا الانسان بوالديه حسنا) وصى حكمه حكم أمر فى معناه وتصرفه يقال وصيت زيدا بأن يفعل خيرا كما تقول أمرته بان يفعل ومنه قوله ووصى بها ابراهيم بنيه أى وصاهم بكلمة التوحيد وأمرهم بها وقولك وصيت زيدا بعمرو ومعناه وصيته بتعهد عمرو ومراعاته ونحو ذلك وكذلك معنى قوله ووصينا الانسان

بوالديه حسنا وصيناه بايتاء والديه حسنا أو بايلاء والديه حسنا أى فعلا ذا حسن أو ما هو فى ذاته حسن لفرط حسنه كقوله وقولوا للناس حسنا ويجوز ان يجعل حسنا من باب قولك زيدا باضمار اضرب اذا رأيته متهيئا للضرب فتنصبه باضمار أولهما أو افعل بهما لان التوصية بهما دالة عليه وما بعده مطابق له كانه قال قلنا أولهما معروفا ولا تطعهما فى الشرك اذا حملاك عليه وعلى هذا التفسير ان وقف على بوالديه وابتدئ حسنا حسن الوقف وعلى التفسير الاول لابد من اضمار القول معناه وقلنا (وان جاهداك) أيها الانسان (لتشرك بى ما ليس لك به علم) اى لاعلم لك بالهيته والمراد بنفى العلم نفى المعلوم كانه قال لتشرك بى شيئا لا يصح ان يكون الها (فلا تطعهما) فى ذلك فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق (الى مرجعكم) مرجع من آمن منكم ومن اشرك (فأنبئكم بما كنتم تعملون) فاجازيكم حق جزائكم وفى ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشرك وحث على الثبات والاستقامة فى الدين روى ان سعد بن ابى وقاص لما اسلم نذرت امه ان لا تأكل ولا تشرب حتى يرتد فشكا الى النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية والتى فى لقمان والتى فى الاحقاف (والذين آمنوا

وعملوا الصالحات) هو مبتدأ والخبر (لندخلنهم في الصالحين) في جملتهم والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين وهو متمنى الأنبياء عليهم السلام قال سليمان عليه السلام وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين وقال يوسف عليه السلام توفني مسلما وألحقني بالصالحين أو في مدخل الصالحين وهو الجنة ونزلت في المنافقين (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذي في الله) أي اذا مسه أذى من الكفار (جعل فتنة الناس كعذاب الله) أي جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله تعالى (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم) أي واذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا انا كنا معكم أي متابعين لكم في دينكم ثابتين عليه بثباتكم وأعطونا نصيبا من الغنم (أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين) أي هو أعلم بما في صدور العالمين من العالمين بما في صدورهم ومن ذلك ما في صدور هؤلاء من النفاق وما في صدور المؤمنين من الاخلاص ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين بقوله (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) أي حالهما ظاهرة عند من علك الجزاء عليهما (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) أمروهم باتباع سبيلهم وهي طريقتهم التي كانوا عليها في دينهم وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم فعطف الامر على الامر وأرادوا ليجتمع هذان الامران في الحصول ان تتبعوا سبيلنا وان نحمل خطاياكم والمعنى تعليق الحمل بالاتباع أي ان تتبعوا سبيلنا حملنا خطاياكم وهذا قول صناديد قريش كانوا يقولون لمن آمن منهم لا نبعث نحن ولا أنتم فان كان ذلك فانا نحمل عنكم الاثم (وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء انهم لكاذبون) لانهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه كالكاذبين الذين يعدون الشيء وفي قلوبهم نية الخلف (وليحملن أثقالهم) أي أثقال أنفسهم يعني أوزارهم بسبب كفرهم (وأثقالا مع أثقالهم) أي أثقالا أخر غير الخطايا التي ضمنوا للمؤمنين حملها وهي أثقال الذين كانوا سببا في ضلالهم وهو كما قال ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم (وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) يختلقون من الاكاذيب والاباطيل (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما) كان عمره ألفا وخمسين سنة بعث على رأس أربعين ولبث في قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين وعن وهب انه عاش ألفا وأربعمائة سنة فقال له ملك الموت يا أطول الانبياء عمرا كيف وجدت الدنيا قال كدار لها بابان دخلت وخرجت ولم يقل تسعمائة وخمسين سنة لانه لو قيل كذلك لجاز ان الا يتوهم اطلاق هذا العدد على أكثر وهذا التوهم زائل هنا فكأنه قيل تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد الا ان ذلك أخصر وأعذب لفظا وأملأ بالفائدة ولان القصة سيقت لما ابتلي به نوح عليه السلام من أمته وما كابده من طول المصابرة تسلية لنبينا عليه السلام فكان ذكر الالف أفخم وأوصل الى الغرض وجيء بالمميز أولا بالسنة ثم بالعام لان تكرار لفظ واحد في كلام واحد

وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين) أي في زمرة الصالحين وهم الانبياء والاولياء وقيل في مدخل الصالحين وهو الجنة قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذي) يعني أصابه بلاء من الناس افتتن (في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) أي جعل أذى الناس وعذابهم كعذاب الله في الآخرة والمعنى انه جزع من أذى الناس ولم يصبر عليه فأطاع الناس كما يطيع الله من يخاف من عذابه وهو المنافق اذا أوذي في الله رجع عن الدين وكفر (ولئن جاء نصر من ربك) أي فتح ودولة للمؤمنين (ليقولن) أي هؤلاء المنافقون للمؤمنين (انا كنا معكم) أي على عدوكم وكنا مسلمين وانما أكرهنا حتى قلنا ما قلنا فأكذبهم الله تعالى (أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين) أي من الايمان والنفاق (وليعلمن الله الذين آمنوا) أي صدقوا فثبتوا على الايمان والاسلام عند البلاء (وليعلمن المنافقين) أي بترك الاسلام عند البلاء قيل نزلت هذه الآية في أناس كانوا يؤمنون بألسنتهم فاذا أصابهم بلاء من الناس أو مصيبة في أنفسهم افتتنوا وقال ابن عباس نزلت في الذين أخرجهم المشركون معهم الى بدر وهم الذين نزلت فيهم الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم وقيل هذه الآيات العشر من أول السورة الى ههنا مدنية وباقي السورة مكي (وقال الذين كفروا) يعني من أهل مكة قيل قاله أبو سفيان (للذين آمنوا) أي من قريش (اتبعوا سبيلنا) يعني ديننا وملة آبائنا ونحن الكفلاء بكل تبعة من الله تصيبكم فذلك قوله (ولنحمل خطاياكم) أي أوزاركم والمعنى ان اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم فأكذبهم الله عز وجل بقوله (وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء انهم لكاذبون) في قولهم نحمل خطاياكم (وليحملن أثقالهم) أي أوزار أعمالهم التي عملوها بأنفسهم (وأثقالا مع أثقالهم) أي أوزار من أضلوا وصدوا عن سبيل الله مع أوزار أنفسهم فان قلت قد قال أولا وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء وقال ههنا وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم فكيف الجمع بينهما قلت معناه انهم لا يرفعون عنهم خطيئة بل كل واحد يحمل خطيئة نفسه ورؤس الضلال يحملون أوزارهم ويحملون أوزارا بسبب اضلال غيرهم فهو كقوله صلى الله عليه وسلم من سن في الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء رواه مسلم (وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) أي سؤال توبيخ وتقريع لانه تعالى عالم بأعمالهم وافترائهم قوله تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث) أي أقام (فيهم) يدعوهم الى عبادة الله وتوحيده (ألف سنة الا خمسين عاما) فان قلت ما فائدة هذا الاستثناء وهلا قال تسعمائة وخمسين سنة قلت فيه فائدتان احداهما أن الاستثناء يدل على التحقيق وتركه قد يظن به التقريب فهو كقول القائل عاش فلان مائة سنة فقد يتوهم السامع انه يقول مائة سنة تقريبا لا تحقيقا فان قال مائة سنة الا شهرا أو الا سنة زال ذلك التوهم وفهم منه التحقيق الفائدة الثانية هي لبيان ان نوحا صبر على أذى قومه صبرا كثيرا وأعلى مراتب العدد ألف سنة وكان المراد التكثير فلذلك أتى بعقد الالف لانه أعظم وأفخم وهذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم حيث أعلم ان الانبياء قد ابتلوا قبله وان نوحا لبث في قومه ألف سنة الا خمسين عاما يدعوهم فصبر في الدعاء ولم يؤمن من قومه

تحقيق بالاجتناب في المبالغة (فأخذهم الطوفان) هو ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما (وهم ظالمون) أنفسهم بالكفر (فأنجيناه) أي نوحا (وأصحاب السفينة) وكانوا ثمانية وسبعين نفسا نصفهم ذكور ونصفهم اناث منهم أولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم (وجعلناها) أي السفينة أو الحادثة أو القصة (آية) عبرة وعظة (للعالمين) يتعظون بها (وابراهيم) نصب باضمار اذكر بدل عنه (اذ قال) بدل اشتمال لان الاحيان تشتمل على ما فيها أو معطوف على نوح أي وأرسلنا ابراهيم أو ظرف لارسلنا يعني أرسلناه حين بلغ من السن أو العلم مبلغا صلح فيه لان يعظ قومه ويأمرهم بالعبادة والتقوى وقرأ ابراهيم النخعي وأبو حنيفة رضي الله عنهما وابراهيم بالرفع على معنى ومن المرسلين ابراهيم (لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم) من الكفر (ان كنتم تعلمون) ان كان لكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم (انما تعبدون من دون الله أوثانا) أصناما (وتخلقون) وتكذبون أو تصنعون وقرأ أبو حنيفة والسلمي رضي الله عنهما وتخلقون من خلق بمعنى التكثير في خلق (افكا) وقرأ أفكا وهو مصدر نحو كذب ولعب والافك مخفف منه كالكذب واللعب من أصلهما واختلاقهم الافك تسميتهم الاوثان آلهة وشركاء لله (ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا) لا يستطيعون ان يرزقوكم شيئا من الرزق (فابتغوا عند الله الرزق) كله فانه هو الرازق وحده لا يرزق غيره (واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون) فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه وبفتح التاء وكسر الجيم يعقوب (وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول

الا البلاغ المبين) أي وان تكذبوني فلا تضروني بتكذيبكم فان الرسل قبلي قد كذبتهم أممهم وما ضروهم وانما ضروا أنفسهم حيث حل بهم العذاب بسبب تكذيبهم وأما الرسول فقد تم أمره حيث بلغ البلاغ المبين الذي زال معه الشك وهو اقترانه بآيات الله ومعجزاته أو وان كنت مكذبا فيما بينكم فلي في سائر الانبياء اسوة حيث كذبوا وعلى الرسول ان يبلغ وما عليه ان يصدق ولا يكذب وهذه الآية والآيات التي بعدها الى قوله فما كان جواب قومه محتملة ان تكون من جملة قول ابراهيم عليه السلام لقومه والمراد بالامم قبله قوم شيث وادريس ونوح وغيرهم وان تكون آيات وقعت معترضة في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وشأن قريش بين أول قصة ابراهيم وآخرها فان قلت فالجمل الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه فلا تقول مكة وزيد قائم خير بلاد الله قلت نعم وبيانه ان ايراد قصة ابراهيم عليه السلام ليس الا ارادة للتنفيس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وان تكون مسلاة له بان أباه ابراهيم عليه السلام كان مبتلى نحو ما ابتلى به من شرك قومه وعبادتهم الاوثان فاعترض بقوله وان تكذبوا على معنى انكم يا معشر قريش ان تكذبوا محمدا فقد كذب ابراهيم قومه وكل أمة نبيها لان قوله فقد كذب أمم من قبلكم لا بد من تناوله لامة ابراهيم وهو كما ترى اعتراض متصل ثم سائر الآيات بعدها من توابعها لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله وهدم الشرك وتوهين قواعده وصفة قدرة الله تعالى وسلطانه ووضوح حجته وبرهانه (أولم يروا) وبالتاء كوفي غير حفص (كيف يبدئ الله الخلق) أي قد رأوا ذلك وعلموه وقوله (ثم يعيده) ليس بمعطوف على يبدأ وليست الرؤية واقعة عليه وانما هو اخبار على حياله بالاعادة بعد الموت كما وقع النظر في قوله كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة على البدء دون الانشاء بل هو معطوف على جملة قوله أولم يروا كيف يبدأ الله الخلق (ان ذلك) أي الاعادة (على الله يسير) سهل (قل) يا محمد وان كان من كلام ابراهيم فتقديره وأوحينا اليه ان قل (سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق) على كثرتهم واختلاف أحوالهم لتعرفوا عجائب فطرة الله بالمشاهدة وبدأ وابدأ بمعنى (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) أي البعث وبالمد حيث كان مكي وأبو عمرو وهذا دليل على انهما نشأتان وان كل واحدة منهما انشاء أي ابتداء واختراع واخراج من العدم الى الوجود غير ان الآخرة انشاء بعد انشاء مثله والاولى ليست كذلك والقياس ان يقال كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة لان الكلام معهم وقع في الاعادة فلما قررهم في الابداء بانه من الله احتج عليهم بان الاعادة انشاء مثل الابداء فاذا لم يعجزه الابداء وجب ان لا يعجزه الاعادة فكأنه قال ثم ذلك الذي أنشأ النشأة الاولى هو الذي ينشئ النشأة الآخرة فللتنبيه على هذا المعنى ابرز اسمه

الا قليل فانت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة من آمن بك قال ابن عباس بعث نوح لاربعين سنة وبقي في قومه يدعوهم ألف سنة الا خمسين عاما وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس فكان عمره ألفا وخمسين عاما وقيل في عمره غير ذلك قوله تعالى (فأخذهم الطوفان) أي فاغرقناهم (وهم ظالمون) قال ابن عباس مشركون (فأنجيناه وأصحاب السفينة) يعني من الغرق (وجعلناها) يعني السفينة (آية) أي عبرة (للعالمين) قيل انها بقيت على الجودي مدة مديدة وقيل جعلنا عقوبتهم بالغرق عبرة قوله تعالى (وابراهيم) أي وأرسلنا ابراهيم (اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه) أي أطيعوا الله وخافوه (ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) أي ما هو خير لكم مما هو شر لكم ولكنكم لا تعلمون (انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا) أي تقولون كذبا وقيل تصنعون أصناما بأيديكم وتسمونها آلهة (ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا) أي لا يقدرون ان يرزقوكم (فابتغوا) أي فاطلبوا (عند الله الرزق) فانه القادر على ذلك (واعبدوه) أي وحدوه (واشكروا له) لانه المنعم عليكم بالرزق (اليه ترجعون) أي في الآخرة (وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) أي مثل قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم فأهلكهم الله (وما على الرسول الا البلاغ المبين) قوله تعالى (أولم يروا) قيل هذه الآيات الى قوله فما كان جواب قومه يحتمل ان تكون من تمام قول ابراهيم لقومه وقيل انها وقعت معترضة في قصة ابراهيم وهي في تذكير أهل مكة وتحذيرهم ومعنى أولم يروا أولم يعلموا (كيف يبدئ الله الخلق) أي يخلقهم نطفة ثم علقة ثم مضغة (ثم يعيده) أي في الآخرة عند البعث (ان ذلك على الله يسير) أي الخلق الاول والخلق الثاني (قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق) أي انظروا الى ديارهم وآثارهم كيف بدأ خلقهم (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) أي ثم ان الله الذي خلقهم ينشئهم نشأة ثانية بعد الموت والمعنى فكما لم يتعذر عليه احداثهم مبدئا كذلك لا يتعذر عليه انشاؤهم

وأوقعه مبتدأ (ان الله على كل شئ قدير) قادر (يعذب من يشاء) بالخذلان (ويرحم من يشاء) بالهداية أو بالحرص والقناعة أو بسوء الخلق وحسنه أو بالاعراض عن الله وبالاقبال عليه أو بمتابعة البدع وملازمة السنة (واليه تقلبون) تردون وترجعون (وما أنتم بمعجزين) ربكم أى لا تفوتونه ان هربتم من حكمه وقضائه (فى الارض) الفسيحة (ولا فى السماء) التى هى أفسح منها وابسط لو كنتم فيها (وما لكم من دون الله من ولى) يتولى أموركم (ولا نصير) ولا ناصر يمنعكم من عذابى (والذين كفروا بآيات الله) بدلائله على وحدانيته وكتبه ومعجزاته (ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى) جنتى (وأولئك لهم عذاب أليم فما كان جواب قومه) قوم ابراهيم حين دعاهم الى الايمان (الا ان قالوا اقتلوه أو حرقوه) قال بعضهم لبعض أو قاله واحد منهم وكان الباقون راضين فكانوا جميعا فى حكم القائلين فاتفقوا على تحريقه (فأنجاه الله من النار) حين قذفوه فيها (ان فى ذلك) فيما فعلوا به وفعلنا (لآيات لقوم يؤمنون) روى انه لم ينتفع فى ذلك اليوم بالنار يعنى يوم ألقى ابراهيم فى النار وذلك لذهاب حرها (وقال) ابراهيم لقومه (انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا) حمزة وحفص مودة بينكم مدنى وشامى وحماد ويحيى وخلف مودة بينكم مكى وبصرى وعلى مودة بينكم الشمونى والبرجمى النصب على وجهين على التعليل أى لتتوادوا بينكم وتتوصلوا لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وان يكون مفعولا ثانيا كقوله تخذ الهه هواه وما كافة أى اتخذتم الاوثان سبب المودة بينكم على تقدير حذف المضاف أو اتخذتموها مودة بينكم أى مودودة بينكم كقوله ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله وفى الرفع وجهان ان يكون خبرا لان وما موصولة وان يكون خبر مبتدا محذوف أى هى مودة بينكم والمعنى ان الاوثان مودة بينكم أى مودودة أو سبب مودة ومن أضاف المودة جعل بينكم اسما لا ظرفا كقوله شهادة بينكم ومن نون مودة ونصب بينكم فعلى الظرف (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض) تتبرأ الاصنام من عابديها (ويلعن بعضكم بعضا) أى يوم القيامة يقوم بينكم التلاعن فيلعن الاتباع القادة (ومأواكم النار) أى مأوى العابد والمعبود والتابع والمتبوع (وما لكم من ناصرين) ثمة (فآمن له) لابراهيم عليه السلام (لوط) هو ابن اخت ابراهيم وهو أول من آمن له حين راى النار لم تحرقه (وقال) ابراهيم (انى مهاجر) من كوثى وهى من سواد الكوفة الى حران ثم منها الى فلسطين وهى من برية الشأم ومن ثم قالوا لكل نبى هجرة ولابراهيم هجرتان وكان معه فى هجرته لوط وسارة وقد تزوجها اى ابراهيم (الى ربى) الى حيث أمرنى ربى بالهجرة اليه (انه هو العزيز) الذى يمنعنى من أعدائى (الحكيم) الذى لا يأمرنى الا بما هو خير (ووهبنا له اسحاق) ولدا (ويعقوب) ولد ولد ولم يذكر اسماعيل لشهرته (وجعلنا فى ذريته النبوة) أى فى ذرية ابراهيم فانه شجرة الانبياء (والكتاب) والمراد به الجنس يعنى التوراة والانجيل والزبور والفرقان (وآتيناه) أى ابراهيم (أجره) الثناء الحسن والصلاة عليه الى آخر الدهر ومحبة أهل الملل له أو هو بقاء ضيافته عند قبره وليس ذلك لغيره (فى الدنيا) فيه دليل على انه تعالى قد يعطى الاجر فى الدنيا (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) أى من أهل الجنة عن الحسن (ولوطا) أى واذكر لوطا (اذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة) الفعلة البالغة فى القبح وهى اللواطة (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) جملة مستأنفة مقررة لفاحشة تلك الفعلة كان قائلا قال لم كانت فاحشة وقيل لان أحدا قبلهم لم يقدم عليها قالوا لم ينزذ كر على ذكر قبل قوم لوط

معيدا بعد الموت ثانيا (ان الله على كل شئ قدير) أى من البداءة والاعادة (يعذب من يشاء) عدلا منه (ويرحم من يشاء) تفضلا (واليه تقلبون) أى تردون (وما أنتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء) قيل معناه ولا من فى السماء بمعجز والمعنى انه لا يعجزه أهل الارض فى الارض ولا أهل السماء فى السماء وقيل معنى قوله ولا فى السماء أى لو كنتم فيها (وما لكم من دون الله من ولى) أى يمنعكم منى (ولا نصير) أى ينصركم من عذابى (والذين كفروا بآيات الله) يعنى بالقرآن (ولقائه) أى البعث (أولئك يئسوا من رحمتى) يعنى الجنة (وأولئك لهم عذاب أليم) فهذا آخر الآيات فى تذكير أهل مكة ثم عاد الى قصة ابراهيم عليه السلام فقال تعالى (فما كان جواب قومه الا ان قالوا اقتلوه أو حرقوه) قال ذلك بعضهم لبعض وقيل قال الرؤساء للاتباع اقتلوه أو حرقوه (فأنجاه الله من النار) أى بان جعلها عليه بردا وسلاما قيل ان ذلك اليوم لم ينتفع احد بنار (ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) يصدقون (وقال) يعنى ابراهيم لقومه (انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا) أى ثم تنقطع ولا تنفع فى الآخرة وقيل معناه انكم تتوادون على عبادتها وتتواصلون عليها فى الدنيا (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) تتبرأ الاوثان من عابديها وتتبرأ القادة من الاتباع ويلعن الاتباع القادة (ومأواكم النار) يعنى العابدين والمعبودين جميعا (وما لكم من ناصرين) أى مانعين من عذابه (فآمن له لوط) أى صدقه برسالته لما راى معجزاته وهو أول من صدق ابراهيم وأما فى اصل التوحيد فانه كان مؤمنا لان الانبياء لا يتصور فيهم الكفر (وقال) يعنى ابراهيم (انى مهاجر الى ربى) الى حيث أمرنى ربى فهاجر من كوثى وهى من سواد الكوفة الى حران ثم هاجر الى الشأم ومعه لوط وامرأته سارة وهو أول من هاجر الى الله تعالى وترك بلده وسار الى حيث أمره الله بالمهاجرة اليه قيل هاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة (انه هو العزيز) أى الذى لا يغلب والذى يمنعنى من اعدائى (الحكيم) الذى لا يأمرنى الا بما يصلحنى قوله تعالى (ووهبنا له اسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) يقال ان الله تعالى لم يبعث نبيا بعد ابراهيم الا من نسله (وآتيناه اجره فى الدنيا) هو الثناء الحسن فكل أهل الاديان يتولونه ويحبونه ويحبون الصلاة عليه والذرية الطيبة والنبوة من نسله هذا له فى الدنيا (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) أى فى زمرة الصالحين قال ابن عباس مثل آدم ونوح قوله عز وجل (ولوطا اذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة) أى الفعلة القبيحة (ما سبقكم بها من أحد من العالمين)

(أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل) بالقتل وأخذ المال كما هو عمل قطاع الطريق وقيل اعتراضهم السابلة بالفاحشة (وتأتون فى ناديكم) مجلسكم ولا يقال للمجلس ناد الا مادام فيه أهله (المنكر) أى المضارطة والمجامعة والسباب والفحش فى المزاح والحذف بالحصى ومضغ العلك والفرقعة والسواك بين الناس (فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين) فيما تعدنا من نزول العذاب انكم أئنكم شامى وحفص وهو الموجود فى الامام وكل واحدة بهمزتين كوفى غير حفص آينكم آينكم بهمزة ممدودة بعدها ياء مكسورة أبو عمرو اينكم أينكم بهمزة مقصورة بعدها ياء مكسورة مكى ونافع غير قالون وسهل ويعقوب غير زيد (قال رب انصرنى) بانزال العذاب (على القوم المفسدين) كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصى والفواحش (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) بالبشارة لابراهيم بالولد والنافلة يعنى اسحاق ويعقوب (قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية) اضافة مهلكو لم تفد تعريفا لانها بمعنى الاستقبال والقرية سدوم التى قيل فيها اجور من قاضى سدوم وهذه القرية تشعر بانها قريبة من موضع ابراهيم عليه السلام قالوا انها كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع ابراهيم عليه السلام (ان أهلها كانوا ظالمين) أى الظلم قد استمر منهم فى الايام السالفة وهم عليه مصرون وظلمهم كفرهم وأنواع معاصيهم (قال) ابراهيم (ان فيها لوطا) أى اتهلكونهم وفيهم من هو برىء من الظلم وهو لوط (قالوا) أى الملائكة (نحن اعلم) منك (بمن فيها لننجينه) لننجينه يعقوب وكوفى غير عاصم (وأهله الا امرأته كانت من الغابرين) الباقين فى العذاب ثم أخبر عن مصير الملائكة الى لوط بعد مفارقتهم ابراهيم بقوله (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم) ساءه مجيئهم وان صلة اكدت وجود الفعلين مرتبا أحدهما على الآخر كأنهما وجدا فى جزء واحد من الزمان كأنه قيل كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومه ان يتناولوهم بالفجور سىء بهم مدنى وشامى وعلى (وضاق بهم ذرعا) وضاق بشأنهم وبتدبير أمرهم ذرعه أى طاقته وقد جعلوا ضيق الذرع والذراع عبارة عن فقد الطاقة كما قالوا رحب الذراع اذا كان مطيقا والاصل فيه ان الرجل اذا طالت ذراعه نال

ما لا يناله القصير الذراع فضرب ذلك مثلا فى العجز والقدرة وهو نصب على التمييز (وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك) وبالتخفيف مكى وكوفى غير حفص (وأهلك) الكاف فى محل الجر ونصب أهلك بفعل محذوف أى وننجى أهلك (الا امرأتك كانت من الغابرين انا منزلون) منزلون شامى (على أهل هذه القرية رجزا) عذابا (من السماء بما كانوا يفسقون) بفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ورسوله (ولقد تركنا منها) من القرية (آية بينة) هى آثار منازلهم الخربة وقيل الماء الاسود على وجه الارض (لقوم) يتعلق بتركنا أو بينة (يعقلون والى مدين) وأرسلنا الى مدين (أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر) وافعلوا ما ترجون به الثواب فى العاقبة أو خافوه (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) قاصدين الفساد (فكذبوه فأخذتهم الرجفة) الزلزلة الشديدة أو صيحة جبريل عليه السلام لان القلوب رجفت بها (فأصبحوا فى دارهم) فى بلدهم وأرضهم (جاثمين) باركين على الركب ميتين

أى لم يفعلها أحد قبلكم ثم فسر الفاحشة فقال (أئنكم لتأتون الرجال) يعنى انكم تقضون الشهوة من الرجال (وتقطعون السبيل) وذلك انهم كانوا يأتون الفاحشة بمن مر بهم من المسافرين فترك الناس الممر بهم لاجل ذلك وقيل معناه تقطعون سبيل النسل بايثار الرجال على النساء (وتأتون فى ناديكم المنكر) أى مجالسكم والنادى مجلس القوم ومتحدثهم عن أم هانئ بنت أبى طالب عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله وتأتون فى ناديكم المنكر قال كانوا يحذفون أهل الارض ويسخرون منهم أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب الحذف هو رمى الحصى بين الاصابع قيل انهم كانوا يجلسون فى مجالسهم وعند كل رجل منهم قصعة فيها حصى فاذا مر بهم عابر سبيل حذفوه فأيهم أصابه قال أنا أولى به وقيل انه كان يأخذ ما معه وينكحه ويغرمه ثلاثة دراهم وقيل انهم كانوا يجامعون بعضهم بعضا فى مجالسهم وقيل انهم كانوا يتضارطون فى مجالسهم وعن عبد الله بن سلام كان يبزق بعضهم على بعض وقيل كان اخلاق قوم لوط مضغ العلك وتطريف الاصابع بالحناء وحل الازرار والصفير والحذف والرمى بالجلاهق واللوطية (فما كان جواب قومه) أى لما أنكر عليهم لوط ما يأتونه من القبائح (الا ان قالوا) يعنى استهزاء (ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين) أى ان العذاب نازل بنا فعند ذلك (قال رب انصرنى على القوم المفسدين) أى بتحقيق قولى ان العذاب نازل بهم قوله عز وجل (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) يعنى من الله باسحاق ويعقوب (قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية) يعنى قوم لوط والقرية سدوم (ان أهلها كانوا ظالمين قال) يعنى ابراهيم اشفاقا على لوط وليعلم حاله (ان فيها لوطا قالوا) قالت الملائكة (نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين) أى من الباقين فى العذاب (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم) أى ظنهم من الانس فخاف عليهم ومعناه انه جاءه ما ساءه (وضاق بهم ذرعا) أى عجز عن تدبير أمرهم فحزن لذلك (وقالوا لا تخف) أى من قومك (ولا تحزن) علينا (انا منجوك وأهلك) أى انا مهلكوهم ومنجوك وأهلك (الا امرأتك كانت من الغابرين انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا) أى عذابا (من السماء) قيل هو الخسف والحصب بالحجارة (بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها) أى من قريات لوط (آية بينة) أى عبرة ظاهرة (لقوم يعقلون) يعنى أفلا يتدبرون الآيات تدبر ذوى العقول قال ابن عباس الآية البينة آثار منازلهم الخربة وقيل هى الحجارة التى أهلكوا بها أبقاها الله حتى أدركها أوائل هذه الامة وقيل هى ظهور الماء الاسود على وجه الارض قوله تعالى (والى مدين) أى وأرسلنا الى مدين ومدين اسم رجل وقيل اسم المدينة فعلى القول الاول يكون المعنى وأرسلنا الى قرية مدين وأولاده وعلى القول الثانى وأرسلنا الى أهل مدين (أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر) أى افعلوا فعل من يرجو اليوم الآخر وقيل معناه اخشوا اليوم الآخر وخافوه (ولا تعثوا فى الارض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة) أى الزلزلة وذلك ان جبريل صاح فرجفت الارض رجفة (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أى باركين على

(وعادا) منصوب باضمار أهلكنا لان قوله فأخذتهم الرجفة يدل عليه لانه في معنى الاهلاك (وثمود) حمزة وحفص وسهل ويعقوب (وقد تبين لكم) ذلك يعني ما وصفه من اهلاكهم (من مساكنهم) من جهة مساكنهم اذا نظرتم اليها عند مروركم بها وكان أهل مكة يمرون عليها في أسفارهم فيبصرونها (وزين لهم الشيطان أعمالهم) من الكفر والمعاصي (فصدهم عن السبيل) السبيل الذي أمروا بسلوكه هو الايمان بالله ورسله (وكانوا مستبصرين) عقلاء متمكنين من النظر وتمييز الحق من الباطل ولكنهم لم يفعلوا (وقارون وفرعون وهامان) أي وأهلكناهم (ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الارض وما كانوا سابقين) فائتين أدركهم أمر الله فلم يفوتوه (فكلا أخذنا بذنبه) فيه رد على من يجوز العقوبة بغير ذنب (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) هي ريح عاصف فيها حصباء وهي لقوم لوط (ومنهم من أخذته الصيحة) هي لمدين وثمود (ومنهم من خسفنا به الارض) يعني قارون (ومنهم من أغرقنا) يعني قوم نوح وفرعون (وما كان الله ليظلمهم) ليعاقبهم بغير ذنب (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالكفر والطغيان (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) أي آلهة يعني مثل من أشرك بالله الاوثان في الضعف وسوء الاختيار (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) أي كمثل العنكبوت فيما نسجته لنفسها من بيت فان ذلك بيت لا يدفع عنها الحر والبرد ولا يقي ما تقي البيوت فكذلك الاوثان لا تنفعهم في الدنيا والآخرة جعل ما نسجته العنكبوت بيتا حالا (وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت) لا بيت أوهن من بيتها عن علي رضي الله عنه طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فان تركه يورث الفقر (لو كانوا يعلمون) ان هذا مثلهم وان أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن وقيل معنى الآية مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس الى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت تتخذ بيتا بالاضافة الى رجل يبني بيتا بآجر وجص أو ينحته من صخر وكما ان أوهن البيوت اذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت كذلك أضعف الاديان اذا استقريتها دينا دينا عبادة الاوثان لو كانوا يعلمون وقال الزجاج في جماعة تقرير الآية مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء لو كانوا يعلمون كمثل العنكبوت (ان الله يعلم ما يدعون) بالياء بصري وعاصم وبالتاء غيرهما غير الاعشى والبرجمي وما بمعنى الذي وهو مفعول يعلم ومفعول يدعون مضمر أي يدعونه يعني يعبدونه (من دونه من شيء) من في من شيء للتبيين (وهو العزيز) الغالب الذي لا شريك له (الحكيم) في ترك المعاجلة بالعقوبة وفيه تجهيل لهم حيث عبدوا جمادا لا علم له ولا قدرة وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء الحكيم الذي لا يفعل كل شيء الا بحكمة وتدبير دلالة (وتلك الامثال) الامثال نعت والخبر (نضربها) نبينها (للناس) كان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون ان رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت ويضحكون من ذلك فلذلك قال (وما يعقلها الا العالمون) به وبأسمائه وصفاته أي لا يعقل صحتها وحسنها ولا يفهم فائدتها الا هم لان الامثال والتشبيهات انما هي الطرق الى المعاني المستورة حتى تبرزها وتصورها للافهام كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه تلا هذه الآية فقال العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه ودلت الآية على فضل العلم على العقل (خلق الله السموات والارض بالحق) أي محقا يعني لم يخلقهما باطلا بل لحكمة وهي ان تكون مساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم ودلائل على عظم قدرته الا ترى الى قوله (ان في ذلك لآية

اركب متين (وعادا وثمود) أي وأهلكنا عادا وثمود (وقد تبين لكم) يا أهل مكة (من مساكنهم) أي من منازلهم بالحجر واليمن (وزين لهم الشيطان أعمالهم) أي عبادتهم لغير الله (فصدهم عن السبيل) أي عن سبيل الحق (وكانوا مستبصرين) أي عقلاء ذوي بصائر وقيل كانوا معجبين في دينهم وضلالتهم يحسبون انهم على هدى وهم على باطل وضلالة والمعنى انهم كانوا عند أنفسهم مستبصرين (وقارون وفرعون وهامان) أي أهلكنا هؤلاء (ولقد جاءهم موسى بالبينات) اي بالدلالات الواضحات (فاستكبروا في الارض وما كانوا سابقين) أي فائتين من عذابنا (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) وهم قوم لوط رموا بالحصباء وهي الحصى الصغار (ومنهم من أخذته الصيحة) يعني ثمود (ومنهم من خسفنا به الارض) يعني قارون وأصحابه (ومنهم من أغرقنا) يعني قوم نوح وفرعون وقومه (وما كان الله ليظلمهم) أي بالهلاك (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أي بالاشراك قوله تعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) يعني الاصنام يرجون نصرها ونفعها (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) لنفسها تأوي اليه وان بيتها في غاية الضعف والوهاء لا يدفع عنها حرا ولا بردا فكذلك الاوثان لا تملك لعابدها نفعا ولا ضرا وقيل معنى هذا المثل ان المشرك الذي يعبد الاصنام بالقياس الى المؤمن الذي يعبد الله مثل العنكبوت تتخذ بيتا من نسجها بالاضافة الى رجل بنى بيتا بآجر وجص او نحته من صخر فكما ان أهون البيوت اذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت فكذلك أضعف الاديان اذا استقريتها دينا دينا عبادة الاوثان لانها لا تضر ولا تنفع (وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت) أشار الى ضعفه فان الريح اذا هبت عليه أو لمسه لامس فلا يبقى له عين ولا أثر فقد صح ان اوهن البيوت بيت العنكبوت وقد تبين ان دينهم أوهن الاديان (لو كانوا يعلمون) أي ان هذا مثلهم وان أمر دينهم بلغ هذه الغاية من الوهن (ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء) هذا توكيد للمثل وزيادة عليه يعني ان الذي يدعون من دونه ليس بشيء (وهو العزيز الحكيم) معناه كيف يجوز للعاقل ان يترك عبادة العزيز الحكيم القادر على كل شيء ويشتغل بعبادة من ليس بشيء أصلا (وتلك الامثال) أي الاشباه يعني امثال القرآن التي شبه بها أحوال الكفار من هذه الامة بأحوال كفار الامم السابقة (نضربها) أي نبينها (للناس) أي لكفار مكة (وما يعقلها الا العالمون) يعني ما يعقل الامثال الا العلماء الذين يعقلون عن الله عز وجل روى البغوي باسناد الثعلبي عن جابر بن عبد الله ان النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون قال العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه (خلق الله السموات والارض بالحق) أي للحق واظهار الحق (ان في ذلك لآية) أي

للمؤمنين) وخصهم بالذكر لانتفاعهم بها (اتل ما أوحي اليك من الكتاب) تقربا الى الله تعالى بقراءة كلامه ولتقف على ما أمر به ونهى عنه (وأقم الصلاة) أى دم على اقامة الصلاة (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء) الفعلة القبيحة كالزنا مثلا (والمنكر) هو ما ينكره الشرع والعقل قيل من كان مراعيا للصلاة جره ذلك الى ان ينتهى عن السيئات يوما ما فقد روى انه قيل يوما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان فلانا يصلى بالنهار ويسرق بالليل فقال ان صلاته لتردعه وروى ان فتى من الانصار كان يصلى معه الصلوات ولا يدع شيئا من الفواحش الا ركبه فوصف له فقال ان صلاته ستنهاه فلم يلبث ان تاب وقال ابن عوف ان الصلاة تنهى اذا كنت فيها فأنت فى معروف وطاعة وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر وعن الحسن من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة وهى وبال عليه (ولذكر الله أكبر) أى والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات وانما قال ولذكر الله ليستقل بالتعليل كأنه قال والصلاة أكبر لانها ذكر الله وعن ابن عباس رضى الله عنه ولذكر الله اياكم برحمته أكبر من ذكركم اياه بطاعته وقال ابن عطاء ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له لان ذكره بلا علة وذكركم مشوب بالعلل والامانى ولان ذكره لا يفنى وذكركم لا يبقى وقال سلمان ذكر الله أكبر من كل شئ وأفضل فقد قال عليه السلام الا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير من اعطاء الذهب والفضة وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا وما ذاك يا رسول الله قال ذكر الله وسئل أى الاعمال أفضل قال أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله أو ذكر الله أكبر من أن تحويه أفهامكم وعقولكم أو ذكر الله أكبر من أن تبقى معه معصية أو ذكر الله أكبر فى النهى عن الفحشاء والمنكر من غيره (والله يعلم ما تصنعون) من الخير والطاعة فيثيبكم أحسن الثواب (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن) بالخصلة التى هى أحسن للثواب وهى مقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم كما قال ادفع بالتى هى أحسن (الا الذين ظلموا منهم) فأفرطوا فى الاعتداء والعناد ولم يقبلوا النصح ولم ينفع فيهم الرفق فاستعملوا معهم الغلظة وقيل الا الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الا الذين أثبتوا الولد والشريك وقالوا يد الله مغلولة أو معناه ولا تجادلوا الداخلين فى الذمة المؤدين للجزية الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا فنبذوا الذمة ومنعوا الجزية فمجادلتهم بالسيف والآية تدل على جواز المناظرة مع الكفرة فى الدين وعلى جواز تعلم علم الكلام الذى به تتحقق المجادلة وقوله

دلالة (للمؤمنين) على قدرته وتوحيده وقوله تعالى (اتل ما أوحى اليك من الكتاب) يعنى القرآن (وأقم الصلاة) فان قلت لم أمر بهذين الشيئين تلاوة الكتاب واقامة الصلاة فقط قلت لان العبادة المختصة بالعبد ثلاثة قلبية وهى الاعتقاد الحق ولسانية وهى الذكر الحسن وبدنية وهى العمل الصالح لكن الاعتقاد لا يتكرر فان من اعتقد شيئا لا يمكنه ان يعتقده مرة أخرى بل ذلك يدوم مستمرا فبقى الذكر والعبادة البدنية وهما ممكنا التكرار فلذلك أمر بهما (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء) اى ما قبح من الاعمال (والمنكر) أى ما لا يعرف فى الشرع قال ابن مسعود وابن عباس فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم تزده صلاته من الله الا بعدا وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه وقيل من داوم على الصلاة جره ذلك الى ترك المعاصى والسيئات كما روى عن أنس قال كان فتى من الانصار يصلى الصلوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم يدع من الفواحش شيئا الا ركبه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان صلاته ستنهاه يوما فلم يلبث ان تاب وحسنت حاله وقيل معنى الآية انه ما دام فى صلاته فانها تنهاه عن الفحشاء والمنكر ومنه قوله ان فى الصلاة لشغلا وقيل اراد بالصلاة القرآن وفيه ضعف لتقدم ذكر القرآن وعلى هذا يكون معناه ان القرآن ينهاه عن الفحشاء والمنكر كما روى عن جابر قال قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان رجلا يقرأ القرآن الليل كله فاذا أصبح سرق قال ستنهاه قراءته وفى رواية انه قيل يا رسول الله ان فلانا يصلى بالنهار ويسرق بالليل فقال ان صلاته لتردعه وعلى كل حال فان المراعى للصلاة لابد وان يكون أبعد عن الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها (ولذكر الله أكبر) أى انه أفضل الطاعات عن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من اعطاء الذهب والورق وخير لكم من ان تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا بلى يا رسول الله قال ذكر الله أخرجه الترمذى وله عن أبى سعيد الخدرى قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أى العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة قال الذاكرون الله كثيرا قالوا يا رسول الله والغازى فى سبيل الله فقال لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب فى سبيل الله دما لكان الذاكرون الله كثيرا أفضل منه درجة (م) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق المفردون قالوا وما المفردون يا رسول الله قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات يروى المفردون بتشديد الراء وتخفيفها والتشديد أتم يقال فرد الرجل بتشديد الراء اذا تفقه واعتزل الناس وخلا بمراعاة الامر والنهى وقيل هم المتخلون عن الناس بذكر الله لا يخلطون به غيره (خ) عن أبى هريرة وأبى سعيد انهما شهدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا يقعد قوم يذكرون الله الا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده وروى ان اعرابيا قال يا رسول الله أى الاعمال أفضل قال ان تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله وقال ابن عباس معنى ولذكر الله أكبر ذكر الله اياكم أفضل من ذكركم اياه ويروى ذلك مرفوعا عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم وقال ابن عطاء ولذكر الله أكبر أى لن تبقى معه معصية (والله يعلم ما تصنعون) أى لا يخفى عليه شئ من أمركم قوله عز وجل (ولا تجادلوا أهل الكتاب) أى ولا تخاصموهم (الا بالتى هى أحسن) أى القرآن والدعاء الى الله بآياته والتنبيه على حججه وأراد به من قبل الجزية منهم (الا الذين ظلموا منهم) أى أبوا ان يعطوا الجزية ونصبوا الحرب فجادلوهم بالسيف حتى يسلموا او يعطوا الجزية ومعنى الآية الا الذين ظلموكم لان جميعهم ظالم

(وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون) من جنس المجادلة بالاحسن وقال عليه السلام ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فان كان باطلا لم تصدقوهم وان كان حقا لم تكذبوهم (وكذلك) ومثل ذلك الانزال (أنزلنا اليك الكتاب) أى أنزلناه مصدقا لسائر الكتب السماوية أو كما أنزلنا الكتب الى من قبلك أنزلنا اليك الكتاب (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) هم عبد الله بن سلام ومن معه (ومن هؤلاء) اى من أهل مكة (من يؤمن به) او أراد بالذين أوتوا الكتاب الذين تقدموا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب ومن هؤلاء الذين كانوا فى عهد رسول الله عليه السلام (وما يجحد بآياتنا) مع ظهورها وزوال الشبهة عنها (الا الكافرون) الا المتوغلون فى الكفر المصممون عليه ككعب بن الاشرف واضرابه (وما كنت تتلو من قبله) من قبل القرآن (من كتاب ولا تخطه بيمينك) خص اليمين لان الكتابة غالبا تكون باليمين اى ما كنت قرأت كتابا من الكتب ولا كنت كاتبا (اذا) أى لو كان شئ من ذلك أى من التلاوة ومن الخط (لارتاب المبطلون) من أهل الكتاب وقالوا الذى نجد نعته فى كتبنا أمى لا يكتب ولا يقرأ وليس به أو لارتاب مشركو مكة وقالوا لعله تعلمه أو كتبه بيده وسماهم مبطلين لانكارهم نبوته وعن مجاهد والشعبى ما مات النبى صلى الله عليه وسلم حتى كتب وقرأ (بل هو) أى القرآن (آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) أى فى صدور العلماء به وحفاظه وهما من خصائص القرآن كون آياته بينات الاعجاز وكونه محفوظا فى الصدور بخلاف سائر الكتب فانها لم تكن معجزات ولا كانت تقرأ الا من المصاحف (وما يجحد بآياتنا) الواضحة (الا الظالمون) أى المتوغلون فى الظلم (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) آية بغير ألف مكى وكوفى غير حفص أرادوا هلا أنزل عليه آيات مثل الناقة والعصا ومائدة عيسى عليهم السلام ونحو ذلك (قل انما الآيات عند الله) ينزل أيتها شاء ولست املك شيئا منها (وانما أنا نذير مبين) كلفت الانذار وابانته بما أعطيت من الآيات وليس لى ان اقول أنزل على آية كذا دون آية كذا مع علمى ان المراد من الآيات ثبوت الدلالة والآيات كلها فى حكم آية واحدة فى ذلك (أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) أى أولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات ان كانوا طالبين للحق غير متعنتين هذا القرآن الذى تدوم تلاوته عليهم فى كل مكان وزمان فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول كما تزول كل آية بعد كونها أو تكون فى مكان دون مكان (ان فى ذلك) أى فى مثل هذه الآية الموجودة فى كل مكان وزمان الى آخر الدهر (لرحمة) لنعمة عظيمة (وذكرى) وتذكرة (لقوم يؤمنون) دون المتعنتين (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا) أى شاهدا بصدق ما أدعيه من الرسالة وانزال القرآن على وبتكذيبكم (يعلم ما فى السموات والارض) فهو مطلع على أمرى وأمركم وعالم بحقى وباطلكم (والذين آمنوا بالباطل) منكم وهو ما يعبدون من دون الله (وكفروا بالله) وآياته (اولئك هم الخاسرون) المغبونون فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالايمان الا ان الكلام ورد مورد الانصاف كقوله وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين

بالكفر وقيل هم أهل الحرب ومن لا عهد له وقيل الآية منسوخة بآية السيف (وقولوا) أى للذين قبلوا الجزية اذا حدثوكم بشئ مما فى كتبكم (آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون) (خ) عن أبى هريرة قال كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لاهل الاسلام فقال النبى صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الينا الآية قوله عز وجل (وكذلك) اى كما أنزلنا اليهم الكتاب (أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) يعنى مؤمنى أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه (ومن هؤلاء) يعنى أهل مكة (من يؤمن به وما يجحد بآياتنا الا الكافرون) وذلك ان اليهود عرفوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نبى والقرآن حق فجحدوا والجحود انما يكون بعد المعرفة (وما كنت تتلو) يا محمد (من قبله من كتاب) معناه من كتب اى من قبل ما أنزلنا اليك الكتاب (ولا تخطه بيمينك) اى ولا تكتبه والمعنى لم تكن تقرأ ولم تكتب قبل الوحى (اذا لارتاب المبطلون) معناه لو كنت تكتب وتقرأ قبل الوحى اليك لارتاب المشركون من أهل مكة وقالوا انه يقرؤه من كتب الاولين او ينسخه منها وقيل المبطلون هم اليهود ومعناه انهم اذا لشكوا فيه واتهموك وقالوا ان الذى نجد نعته فى التوراة لا يقرأ ولا يكتب وليس هذا على ذلك النعت (بل هو آيات بينات) يعنى القرآن (فى صدور الذين أوتوا العلم) يعنى المؤمنين الذين حملوا القرآن وقال ابن عباس يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ذو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب لانهم يجدون نعته وصفته فى كتبهم (وما يجحد بآياتنا الا الظالمون) يعنى اليهود (وقالوا) يعنى كفار مكة (لولا أنزل عليه آيات من ربه) اى كما أنزل على الانبياء من قبل وقيل اراد بالآيات معجزات الانبياء مثل ناقة صالح ومائدة عيسى ونحو ذلك (قل انما الآيات عند الله) اى هو القادر على انزالها ان شاء أنزلها (وانما أنا نذير مبين) أى انما كلفت الانذار وليس انزال الآيات بيدى (أولم يكفهم أنا أنزلنا) هذا جواب لقولهم لولا أنزل عليه آية من ربه قال أولم يكفهم انا أنزلنا (عليك الكتاب يتلى عليهم) معناه ان القرآن معجزة أتم من معجزة من تقدم من الانبياء لان معجزة القرآن تدوم على ممر الدهور والزمان ثابتة لا تضمحل كما تزول كل آية بعد كونها (ان فى ذلك) يعنى القرآن (لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) أى تذكيرا وعظة لمن آمن به وعمل صالحا (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا) قال ابن عباس معناه يشهد لى انى رسوله والقرآن كتابه ويشهد عليكم بالتكذيب وشهادة الله اثبات المعجزة له بانزال الكتاب عليه (يعلم ما فى السموات والارض) أى هو المطلع على أمرى وأمركم ويعلم حقى وباطلكم لا تخفى عليه خافية (والذين آمنوا بالباطل) قال ابن عباس بغير الله وقيل بعبادة الشيطان وقيل بما سوى الله لان ما سوى الله باطل (وكفروا بالله) فان قلت من آمن بالباطل فقد كفر بالله فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد قلت نعم فائدته انه ذكر الثانى لبيان قبح الاول فهو كقول القائل أتقول الباطل وتترك الحق لبيان ان الباطل قبيح (أولئك هم الخاسرون) أى المغبونون فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالايمان قوله عز وجل (ويستعجلونك

وروى ان كعب بن الاشرف وأصحابه قالوا يا محمد من يشهد لك بانك رسول الله فنزلت (ويستعجلونك بالعذاب) بقولهم امطر علينا حجارة من السماء الآية (ولولا أجل مسمى) وهو القيامة أو يوم بدر أو وقت فنائهم بآجالهم والمعنى ولولا أجل قد سماه الله وبينه فى اللوح لعذبهم والحكمة تقتضى تأخيره الى ذلك الاجل المسمى (لجاءهم العذاب) عاجلا (وليأتينهم) العذاب عاجلا أو ليأتينهم العذاب فى الاجل المسمى (بغتة) فجأة (وهم لا يشعرون) بوقت مجيئه (يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين) أى ستحيط بهم (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) لقوله تعالى من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ولا وقف على بالكافرين لان يوم ظرف احاطة النار بهم (ويقول) بالياء كوفى ونافع وقوله (ذوقوا ما كنتم تعملون) أى جزاء أعمالكم (يا عبادى) وبسكون الياء بصرى وكوفى غير عاصم (الذين آمنوا ان أرضى واسعة) وبفتح الياء ٤٠١ شامى يعنى ان المؤمن اذا لم يتسهل له العبادة فى بلده وفيه ولم يتمش له أمر دينه فليهاجر عنه الى بلد يقدر انه فيه أسلم قلبا وأصح دينا وأكثر عبادة والبقاع تتفاوت فى ذلك تفاوتا كثيرا وقالوا لم نجد أعون على قهر النفس وأجمع للقلب وأحث على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من الفتن وأربط للامر الدينى من مكة حرسها الله تعالى وعن سهل اذا ظهرت المعاصى والبدع فى أرض فاخرجوا منها الى أرض المطيعين وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من فر بدينه من أرض الى أرض وان كان شبرا من الارض استوجب الجنة (فاياى فاعبدون) وبالياء يعقوب وتقديره فاياى فاعبدوا فاعبدونى وجىء بالفاء فى فاعبدون لانه جواب شرط محذوف لان المعنى ان أرضى واسعة فان لم تخلصوا العبادة لى فى أرض فأخلصوها فى غيرها ثم حذف الشرط وعوض عن حذفه تقديم المفعول مع افادة تقديمه معنى الاختصاص والاخلاص ثم شجع المهاجر بقوله (كل نفس ذائقة الموت) أى واجدة مرارته وكربه كما يجد الذائق طعم المذوق لانها اذا تيقنت بالموت سهل عليها مفارقة وطنها (ثم الينا ترجعون) بعد الموت للثواب والعقاب يرجعون يحيى ترجعون يعقوب (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا) لننزلنهم من الجنة علالى لنثوينهم كوفى غير عاصم من الثواء وهو النزول للاقامة وثوى غير متعد فاذا تعدى بزيادة الهمزة لم يجاوز مفعولا واحدا والوجه فى تعديته الى ضمير المؤمنين والى الغرف اما اجراؤه مجرى لننزلنهم أو لنؤوينهم أو حذف الجار وايصال الفعل أو تشبيه الظرف الموقت بالمبهم (تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها نعم أجر العاملين) ويوقف على العاملين على ان (الذين صبروا) خبر مبتدا محذوف أى هم الذين صبروا على مفارقة الاوطان وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصى والوصل أجود ليكون الذين نعتا للعاملين (وعلى ربهم يتوكلون) ولم يتوكلوا فى جميع ذلك الا على الله ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أسلم من مكة بالهجرة خافوا الفقر والضيعة فنزلت (وكأين من دابة) أى وكم من دابة وكائن بالمد والهمز مكى والدابة كل نفس دبت على وجه الارض عقلت أم لم تعقل (لا تحمل رزقها) لا تطيق ان تحمله لضعفها عن حمله (الله يرزقها واياكم) أى لا يرزق تلك الدواب الضعاف الا الله ولا يرزقكم أيضا أيها الاقوياء الا هو وان كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها لانه لو لم يقدركم ولم يقدر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدواب التى لا تحمل وعن الحسن لا تحمل رزقها لا تدخره انما تصبح فيرزقها الله وقيل لا يدخر شئ من الحيوان قوتا الا ابن آدم والفأرة والنملة (وهو السميع) لقولكم نخشى الفقر والعيلة (العليم) بما

بالعذاب) نزلت فى النضر بن الحارث حيث قال فأمطر علينا حجارة من السماء (ولولا أجل مسمى) قال ابن عباس ما وعدتك انى لا أعذب قومك ولا استأصلهم وأأخر عذابهم الى يوم القيامة وقيل مدة أعمارهم لانهم اذا ماتوا صاروا الى العذاب وقيل يوم بدر (لجاءهم العذاب وليأتينهم) يعنى العذاب وقيل الاجل (بغتة وهم لا يشعرون) باتيانه (يستعجلونك بالعذاب) اعاده تأكيدا (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) أى جامعة لهم لا يبقى منهم أحد الا دخلها (يوم يغشاهم العذاب) أى يصيبهم (من فوقهم ومن تحت أرجلهم ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون) أى جزاء ما كنتم تعملون قوله تعالى (يا عبادى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون) قيل نزلت فى ضعفاء مسلمى أهل مكة يقول الله ان كنتم فى ضيق بمكة من اظهار الايمان فاخرجوا منها الى أرض المدينة فانها واسعة آمنة وقيل نزلت فى قوم تخلفوا عن الهجرة وقالوا نخشى ان هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة فأنزل الله تعالى هذه الآية ولم يعذرهم بترك الخروج وقيل المعنى فهاجروا فيها أى جاهدوا فيها وقال سعيد بن جبير اذا عملوا فى الارض بالمعاصى فاهربوا منها فان أرضى واسعة وقيل اذا أمرتم بالمعاصى فاهربوا فان أرضى واسعة وكذلك يجب على كل من كان فى بلد يعمل فيه بالمعاصى ولا يمكنه تغيير ذلك ان يهاجر الى بلد تتهيأ له فيها العبادة وقيل معنى ان أرضى واسعة أى رزقى لكم واسع فاخرجوا (كل نفس ذائقة الموت) أى كل أحد ميت خوفهم بالموت ليهون الهجرة عليهم فلا يقيموا بدار الشرك خوفا من الموت (ثم الينا ترجعون) فنجزيكم بأعمالكم قوله تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا) أى علالى جمع غرفة وهى العلية (تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها نعم أجر العاملين) أى لله بطاعته (الذين صبروا) على الشدائد ولم يتركوا دينهم لشدة لحقتهم وقيل صبروا على الهجرة ومفارقة الاوطان وعلى أذى المشركين وعلى المحن والمصائب وعلى الطاعات وعن المعاصى (وعلى ربهم يتوكلون) أى يعتمدون على الله فى جميع أمورهم قوله عز وجل (وكأين من دابة لا تحمل رزقها) وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة وقد آذاهم المشركون هاجروا الى المدينة فقالوا كيف نخرج الى المدينة وليس لنا بها دار ولا مال فمن يطعمنا بها ويسقينا فأنزل الله وكأين من دابة لا تحمل رزقها أى لا ترفع رزقها معها لضعفها ولا تدخر شيئا لغد مثل البهائم والطير (الله يرزقها واياكم) حيث كنتم (وهو السميع) أى لاقوالكم (العليم) بما فى قلوبكم عن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لو انكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا أخرجه الترمذى وقال حديث حسن ومعناه انها تذهب أول النهار جياعا ضامرة البطون وتروح آخر النهار الى أوكارها شباعا ممتلئة البطون ولا تدخر شيئا قال سفيان بن عيينة ليس شئ من خلق الله يخبأ الا

في ضمائركم (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر) أى ولئن سألت هؤلاء المشركين من خلق السموات والارض على كبرهما وسعتهما ومن الذى سخر الشمس والقمر (ليقولن الله فأنى يؤفكون) فكيف يصرفون عن توحيد الله مع اقرارهم بهذا كله (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) أى لمن يشاء فوضع الضمير موضع من يشاء لان من يشاء مبهم غير معين فكان الضمير مبهما مثله قدر الرزق وقتره بمعنى اذا ضيقه (ان الله بكل شئ عليم) يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم فى الحديث ان من عبادى من لا يصلح ايمانه الا الغنى ولو أفقرته لافسده ذلك وان من عبادى من لا يصلح ايمانه الا الفقر ولو اغنيته لافسده ذلك (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيى به الارض بعد موتها ليقولن الله) أى هم مقرون بذلك (قل الحمد لله) على انزاله الماء لاحياء الارض او على أنه ممن اقر بنحو ما اقروا به ثم نفعه ذلك فى توحيد الله ونفى الشركاء عنه ولم يكن اقرارا باطلا كاقرار المشركين (بل أكثرهم لا يعقلون) لا يتدبرون بما فيهم من العقول فيما نريهم من الآيات ونقيم عليهم من الدلالات أو لا يعقلون ما تريد بقولك الحمد لله (وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب) أى وما هى لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها الا كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون وفيه ازدراء بالدنيا وتصغير لامرها وكيف لا يصغرها وهى لا تزن عنده جناح بعوضة واللهو ما يتلذذ به الانسان فيلهيه ساعة ثم ينقضى (وان الدار الآخرة لهى الحيوان) أى الحياة أى ليس فيها الا حياة مستمرة دائمة لا موت فيها فكأنها فى ذاتها حياة والحيوان مصدر حى وقياسه حييان فقلبت الياء الثانية واوا ولم يقل لهى الحياة لما فى بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب والحياة حركة والموت سكون فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة فى معنى الحياة ويوقف على الحيوان لان التقدير (لو كانوا يعلمون) حقيقة الدارين لما اختاروا اللهو الفانى على الحيوان الباقى ولو وصل لصار وصف الحيوان معلقا بشرط علمهم ذلك وليس كذلك (فاذا ركبوا فى الفلك) هو متصل بمحذوف دل عليه ما وصفهم به وشرح من أمرهم معناه هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد فاذا ركبوا فى الفلك (دعوا الله مخلصين له الدين) كائنين فى صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين حيث لا يذكرون الا الله ولا يدعون معه الها آخر (فلما نجاهم الى البر) وآمنوا (اذا هم يشركون) عادوا الى حال الشرك (ليكفروا بما آتيناهم) من النعمة قيل و بنعمة هى لام كى وكذا فى (وليتمتعوا) فيمن قرأها بالكسر أى لكى يكفروا وكى يتمتعوا والمعنى يعودون الى شركهم ليكونوا بالعود الى شركهم كافرين بنعمة النجاة قاصدين التمتع بها والتلذذ لا غير على خلاف عادة المؤمنين المخلصين على الحقيقة فانهم يشكرون نعمة الله اذا أنجاهم ويجعلون نعمة النجاة ذريعة الى ازدياد الطاعة لا الى التلذذ والتمتع وعلى هذا لا وقف على يشركون ومن جعله لام الامر متثبتا بقراءة ابن كثير وحمزة وعلى وليتمتعوا بسكون اللام على وجه التهديد كقوله فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وتحقيقه فى اصول الفقه يقف عليه (فسوف يعلمون) سوء تدبيرهم عند تدميرهم (أولم يروا) أى أهل مكة (انا جعلنا) بلدهم (حرما) ممنوعا مصونا (آمنا) يأمن داخله (ويتخطف الناس من حولهم) يستلبون قتلا وسبيا (أفبالباطل يؤمنون) أى بالشيطان

الانسان والعارة والنملة عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أيها الناس ليس من شئ يقربكم من الجنة و يباعدكم من النار الا وقد أمرتكم به وليس شئ يقربكم من النار و يباعدكم من الجنة الا وقد نهيتكم عنه الا وان الروح الامين نفث فى روعى الروع بضم الراء وبالعين المهملة هو القلب والعقل و بفتح الراء هو الخوف قال الله تعالى فلما ذهب عن ابراهيم الروع أى الخوف انه ليس من نفس تموت حتى تستوفى رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب لا يحملكم استبطاء الرزق ان تطلبوه بمعاصى الله عز وجل فانه لا يدرك ما عند الله الا بطاعته قوله عز وجل (ولئن سألتهم) يعنى كفار مكة (من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر) ذكر أمرين أحدهما اشارة الى اتحاد الذات والثانى اشارة الى اتحاد الصفات وهى الحركة فى الشمس والقمر (ليقولن الله فانى يؤفكون) قيل معناه انهم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله مع اقرارهم انه خالق السموات والارض (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) لما ذكر الخلق ذكر الرزق لان كمال الخلق ببقائه و بقاء الخلق بالرزق والله تعالى هو المتفضل بالرزق على الخلق فله الفضل والاحسان والطول والامتنان (ويقدر له) أى يضيق عليه اذا شاء (ان الله بكل شئ عليم) أى يعلم مقادير الحاجات ومقادير الارزاق (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فاحيى به الارض من بعد موتها ليقولن الله) ذكر سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب فالرزق من الله تعالى (قل الحمد لله) أى على ان الفاعل لهذه الاشياء هو الله تعالى وقيل قل الحمد لله على اقرارهم ولزوم الحجة عليهم بأنه خالق لهم (بل أكثرهم لا يعقلون) أى انهم ينكرون التوحيد مع اقرارهم بانه خالق هذه الاشياء قوله تعالى (وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب) اللهو هو الاستمتاع بلذات الدنيا وقيل هو الاشتغال بما لا يعنيه وما لا يهمه واللعب هو العبث و فى هذا تصغير للدنيا وازدراء بها ومعنى الآية ان سرعة زوال الدنيا عن أهلها وتقلبهم فيها وموتهم عنها كما يلعب الصبيان ساعة ثم ينصرفون (وان الدار الآخرة لهى الحيوان) أى الحياة الدائمة الخالدة التى لا موت فيها (لو كانوا يعلمون) فناء الدنيا و بقاء الآخرة لما آثروا الفانى على الباقى قوله عز وجل (فاذا ركبوا فى الفلك) معناه هم على ما وصفوا به من الشرك والعناد فاذا ركبوا فى الفلك وخافوا الغرق (دعوا الله مخلصين له الدين) أى تركوا الاصنام ولجؤا الى الله تعالى بالدعاء (فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون) أى عادوا الى ما كانوا عليه من الشرك والعناد وقيل كان أهل الجاهلية اذا ركبوا البحر حملوا الاصنام فاذا اشتد الريح القوها فى البحر وقالوا يارب يارب (ليكفروا بما آتيناهم) أى ليجحدوا نعمة الله فى اجابته اياهم ومعناه التهديد والوعيد (وليتمتعوا) معناه لا فائدة لهم فى الاشراك الا التمتع بما يستمتعون به فى العاجلة ولا نصيب لهم فى الآخرة (فسوف يعلمون) يعنى عاقبة أمرهم فيه تهديد ووعيد قوله عز وجل (أولم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) يعنى العرب يسبى بعضهم بعضا وأهل مكة آمنون (أفبالباطل) يعنى الشيطان والاصنام (يؤمنون

وبنعمة الله يكفرون) أى بمحمد صلى الله عليه وسلم والاسلام يكفرون (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) اى فزعم ان له شريكا وانه منزه عن الشركاء (اوكذب بالحق) اى بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين) معناه اما لهذا الكافر المكذب مأوى فى جهنم قوله عز وجل (والذين جاهدوا فينا) معناه جاهدوا المشركين لنصرة ديننا (لنهدينهم سبلنا) لنثبتنهم على ماقاتلوا عليه وقيل لنزيدنهم هدى وقيل لنوفقنهم لاصابة الطرق المستقيمة وهى التى توصل الى رضا الله تعالى قال سفيان بن عيينة اذا اختلف الناس فانظروا ماعليه اهل الثغور فان الله تعالى يقول والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وقيل المجاهدة الصبر على الطاعات ومخالفة الهوى وقال الفضيل بن عياض والذين جاهدوا فى طلب العلم لنهدينهم سبل العلم والعمل به وقال سهل بن عبد الله والذين جاهدوا فينا باقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة وقال ابن عباس والذين جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا (وان الله لمع المحسنين) أى بالنصرة والمعونة فى دنياهم والمغفرة فى عقباهم فى الآخرة وثوابهم الجنة والله أعلم

(تفسير سورة الروم وهى مكية)

وستون آية وثمانمائة وتسع عشرة كلمة وثلاثة آلاف وخمسمائة وأربعة وثلاثون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عزوجل (الم غلبت الروم فى أدنى الارض) سبب نزول هذه الآية على ماذكره المفسرون انه كان بين فارس والروم قتال وكان المشركون يودون ان تغلب فارس الروم لان فارسا كانوا مجوسا اميين والمسلمون يودون غلبة الروم على فارس لكونهم أهل كتاب فبعث كسرى جيشا الى الروم واستعمل عليهم رجلا يقال له شهرمان وبعث قيصر رجالا وجيشا وأمر عليهم رجلا يدعى بخنس فالتقيا باذرعات وبصرى وهى أدنى الشام الى أرض العرب والعجم فغلبت فارس الروم فبلغ ذلك المسلمين بمكة فشق عليهم وفرح به كفار مكة وقالوا للمسلمين انكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن اميون وفارس اميون وقد ظهر اخواننا من أهل فارس على اخوانكم من الروم فانكم ان قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله هذه الآيات فخرج أبوبكر الصديق الى كفار مكة فقال فرحتم بظهور اخوانكم فلا تفرحوا فوالله ليظهرن الروم على فارس أخبرنا بذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقام اليه أبى بن خلف الجمحى فقال كذبت فقال أنت أكذب ياعدو الله فقال اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه والمناحبة بالحاء المهملة القمار والمراهنة أى اراهنك على عشر قلائص منى وعشر قلائص منك فاذا ظهرت فارس على الروم غرمت واذا ظهرت الروم على فارس غرمت ففعلوا وجعلوا الاجل ثلاث سنين فجاء ابو بكر الى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بذلك قبل تحريم القمار فقال النبى صلى الله عليه وسلم ماهكذا ذكرت انما البضع مابين الثلاثة الى التسع فزايده فى الخطر وماده فى الاجل فخرج أبو بكر فلقى أبيا فقال لعلك ندمت فقال لا فتعال أزايدك فى الخطر واماددك فى الاجل فاجعلها مائة قلوص ومائة قلوص الى تسع سنين فقال قد فعلت فلما خشى أبى بن خلف ان يخرج أبو بكر من مكة أتاه ولزمه وقال انى أخاف ان تخرج من مكة فاقم لى ضامنا كفيلا فكفله ابنه عبد الله بن أبى بكر فلما أراد أبى بن خلف ان يخرج الى أحد أتاه عبد الله بن أبى بكر فلزمه وقال والله لا ادعك حتى تعطينى كفيلا فأعطاه كفيلا ثم خرج الى أحد قال ثم رجع ابى بن خلف الى مكة ومات بها من جراحته التى جرحه النبى صلى الله عليه وسلم حين بارزه وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك على رأس سبع سنين من مناحبتهم وقيل كان يوم بدر وربطت الروم خيولهم بالمدائن وبنوا بالعراق مدينة وسموها رومية فقمر أبو بكر أبيا وأخذ مال الخطر

والاصنام (وبنعمة الله يكفرون) اى بمحمد عليه السلام والاسلام (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بأن جعل له شريكا (أو كذب بالحق) بنبوة محمد عليه السلام والكتاب (لما جاءه) أى يتلعثموا فى تكذيبه حين سمعوه (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) هذا تقرير لثوائهم فى جهنم لان همزة الانكار اذا أدخلت على النفى صار ايجابا يعنى الايثوون فيها وقد افتروا مثل هذا التكذيب على الله وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب أو ألم يصح عندهم ان فى جهنم مثوى للكافرين حين اجترؤا مثل هذه الجراءة وذكر المثوى فى مقابلة لنبوئنهم يؤيد قراءة الثانى (والذين جاهدوا) أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ليتناول كل ماتجب مجاهدته من النفس والشيطان واعداء الدين (فينا) فى حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصا (لنهدينهم سبلنا) سبلنا أبو عمرو اى لنزيدنهم هداية الى سبل الخير وتوفيقا وعن الدارانى والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم الى مالم يعلموا فقد قيل من عمل بما علم وفق لما لايعلم وقيل ان الذى نرى من جهلنا بما لانعلم انما هو لتقصيرنا فيما نعلم وعن فضيل والذين جاهدوا فى طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به وعن سهل والذين جاهدوا فى اقامة السنة لنهدينهم سبل الجنة وعن ابن عطاء جاهدوا فى رضانا لنهدينهم الى الوصول الى محل الرضوان وعن ابن عباس جاهدوا فى طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا وعن الجنيد جاهدوا فى التوبة لنهدينهم سبل الاخلاص أو جاهدوا فى خدمتنا لنفتحن عليهم سبل المناجاة معنا والانس بنا أو جاهدوا فى طلبنا تحريا لرضانا لنهدينهم سبل الوصول الينا (وان الله لمع المحسنين) بالنصرة والمعونة فى الدنيا وبالثواب والمغفرة فى العقبى

(سورة الروم مكية وهى ستون أو تسع وخمسون آية والاختلاف فى بضع سنين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم غلبت الروم) أى غلبت فارس الروم (فى أدنى الارض) أى فى أقرب أرض العرب لان الارض المعهودة عند العرب ارضهم والمعنى غلبوا فى أدنى أرض العرب منهم وهى اطراف

الشام أو أراد أرضهم على انابة اللام مناب المضاف اليه أى فى أدنى أرضهم الى عدوهم (وهم) أى الروم (من بعد غلبهم) أى غلبة فارس اياهم وقرئ بسكون اللام فالغلب والغلب مصدران وقد أضيف المصدر الى المفعول (سيغلبون) فارس ولا وقف عليه لتعلق (فى بضع سنين) به وهو ما بين الثلاث الى العشرة قيل احتربت فارس والروم بين أذرعات وبصرى فغلبت فارس الروم والملك بفارس يومئذ كسرى أبرويز فبلغ الخبر مكة فشق على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لان فارس مجوس لا كتاب لهم والروم أهل كتاب وفرح المشركون وشمتوا وقالوا أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون وقد ظهر اخواننا على اخوانكم ولنظهرن نحن عليكم فنزلت فقال لهم أبو بكر والله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبى بن خلف كذبت فناحبه على عشر قلائص من كل واحد منهما وجعل الاجل ثلاث سنين فأخبر أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام زد فى الخطر وأبعد فى الاجل فجعلاها مائة قلوص الى تسع سنين ومات أبى من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية أو يوم بدر فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبى فقال عليه السلام تصدق به وهذه آية بينة على صحة نبوته وان القرآن من عند الله لانها انباء عن علم الغيب وكان ذلك قبل تحريم القمار عن قتادة ومن مذهب أبى حنيفة ومحمد ان العقود الفاسدة كعقد الربا وغيره جائزة فى دار الحرب بين المسلمين والكفار وقد احتجا على صحة ذلك بهذه القصة (لله الامر من قبل ومن بعد) أى من قبل كل شئ ومن بعد كل شئ أو حين غلبوا وحين يغلبون كأنه قيل من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين يعنى ان كونهم مغلوبين أولا وغالبين آخرا ليس الا بامر الله وقضائه وتلك الايام نداولها بين الناس (ويومئذ) ويوم تغلب الروم على فارس ويحل ما وعد الله من غلبتهم (يفرح المؤمنون بنصر الله) وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له وغيظ من شمت بهم من كفار مكة وقيل نصر الله هو اظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم والباء يتصل بيفرح فيوقف على الله لا على المؤمنين (ينصر من يشاء وهو العزيز) الغالب على أعدائه (الرحيم) العاطف على أوليائه (وعد الله) مصدر مؤكد لان قوله وهم من بعد غلبهم سيغلبون وعد من الله للمؤمنين فقوله وعد الله بمنزلة وعد الله المؤمنين وعدا (لا يخلف الله وعده) بنصر الروم على فارس (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك (يعلمون) بدل من لا يعلمون وفيه بيان أنه لا فرق بين عدم العلم الذى هو الجهل وبين وجود العلم الذى لا يتجاوز عن تحصيل الدنيا وقوله (ظاهرا من الحياة الدنيا) يفيد ان للدنيا ظاهرا وباطنا فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها وباطنها أنها مجاز الى الآخرة يتزود منها اليها بالطاعة وبالاعمال الصالحة وتنكير الظاهر يفيد أنهم

من ورثته وجاء به للنبى صلى الله عليه وسلم وذلك قبل ان يحرم القمار فقال النبى صلى الله عليه وسلم تصدق به وكان سبب غلبة الروم فارسا على ما قال عكرمة وغيره ان شهرمان لما غلب الروم لم يزل يطأهم ويخرب مدائنهم حتى بلغ الخليج فبينا أخوه فرحان جالس ذات يوم يشرب قال لاصحابه لقد رأيت كأنى جالس على سرير كسرى فبلغت كلمته كسرى فكتب الى شهرمان اذا أتاك كتابى فابعث الى برأس أخيك فرحان فكتب اليه أيها الملك انك لم تجد مثل فرحان ان له لنكاية وصولة فى العدو فلا تفعل فكتب اليه ان فى رجال فارس خلفا عنه فعجل الى برأسه فراجعه فغضب كسرى ولم يجبه وبعث بريدا الى أهل فارس انى قد عزلت عنكم شهرمان واستعملت عليكم فرحان ثم بعث الى البريد بصحيفة صغيرة وأمره فيها بقتل شهرمان وقال اذا ولى فرحان الملك وانقاد له أخوه فأعطه الصحيفة فلما وصل البريد الى شهرمان عرض عليه كتاب كسرى فلما قرأه قال سمعا وطاعة ونزل عن سرير الملك وأجلس عليه أخاه فرحان ودفع البريد الصحيفة الى فرحان فلما قرأها استدعى بأخيه شهرمان وقدمه ليضرب عنقه فقال له لا تعجل حتى أكتب وصيتى قال نعم فدعا بسفط ففتحه وأعطاه ثلاث صحائف منه وقال كل هذا راجعت فيك كسرى وأنت تريد قتلى بكتاب واحد فرد فرحان الملك الى أخيه شهرمان فكتب الى قيصر ملك الروم اما بعد ان لى اليك حاجة لا تحملها البرد ولا تبلغها الصحف فالقنى فى خمسين روميا حتى ألقاك فى خمسين فارسيا فأقبل قيصر فى خمسمائة ألف رومى وجعل يضع العيون بين يديه فى الطرق مخافة ان يريدان يمكر به حتى أتاه عيونه فأخبروا انه ليس معه الا خمسون فارسيا فلما التقيا ضربت لهما قبة فيها ديباج فدخلاها ومع كل واحد سكين ودعيا بترجمان يترجم بينهما فقال شهرمان ان الذى خرب بلادك أنا وأخى بكيدنا وشجاعتنا وان كسرى حسدنا وأراد بقتل أخى فأبيت عليه ثم أمر أخى بقتلى وأبى عليه وقد خلعناه جميعا ونحن نقاتله معك فقال قد أصبتما وأشار أحدهما الى صاحبه ان السر بين اثنين فاذا جاوزهما فشا فقتلا الترجمان معا بسكينيهما فاديلت الروم على فارس عند ذلك وغلبوهم وقتلوهم ومات كسرى وجاء الخبر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ففرح ومن كان معه من المسلمين بذلك فذلك قوله عز وجل الم غلبت الروم فى أدنى الارض يعنى قرب أرض الشام الى فارس وقيل هى أذرعات وقيل الاردن وقيل الجزيرة (وهم من بعد غلبهم) أى فارس لهم (سيغلبون) أى الروم لفارس (فى بضع سنين) البضع ما بين الثلاثة الى السبع وقيل الى التسع وقيل ما دون العشرة (لله الامر من قبل ومن بعد) أى من قبل دولة الروم على فارس ومن بعدها فمن غلب فهو بأمر الله تعالى وقضائه وقدره (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) أى للروم على فارس وقيل فرح النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بظهورهم على المشركين يوم بدر وفرحوا بظهور أهل الكتاب على أهل الشرك (ينصر من يشاء) أى بيده النصر ينصر من يشاء (وهو العزيز) الغالب (الرحيم) أى بالمؤمنين قوله تعالى (وعد الله) أى وعد الله وعدا بظهور الروم على فارس (لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى ان الله لا يخلف وعده ثم قال تعالى (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا) يعنى أمر معاشهم كيف يكسبون ويتجرون ومتى يغرسون ويزرعون ويحصدون وقال الحسن ان أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه لا يخطئ وهو لا يحسن يصلى وقيل لا يعلمون الدنيا بحقيقتها انما

لا يعلمون الا ظاهرا واحدا من جملة ظواهرها (وهم عن الآخرة هم غافلون) هم الثانية مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر هم الاولى وفيه بيان أنهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرها (أولم يتفكروا في أنفسهم) يحتمل ان يكون ظرفا كانه قيل أولم يثبتوا التفكر في أنفسهم أي في قلوبهم الفارغة من الفكر والتفكر لا يكون الا في القلوب ولكنه زيادة تصوير لحال المتفكرين كقولك اعتقده في قلبك وان يكون صلة للتفكر نحو تفكر في الامر وأجال فيه فكره ومعناه على هذا أولم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب اليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فيتدبروا ما أودعها الله ظاهرا وباطنا من غرائب الحكمة الدالة على التدبير دون الاهمال وانه لا بد لها من الانتهاء الى وقت تجازى فيه على الاحسان احسانا وعلى الاساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك ان سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة في التدبير وانه لا بد لها من الانتهاء الى ذلك الوقت (ما خلق الله السموات والارض وما بينهما) متعلق بالقول المحذوف معناه أولم يتفكروا فيقولوا هذا القول وقيل معناه فيعلموا لان في الكلام دليلا عليه (الا بالحق وأجل مسمى) أي ما خلقها باطلا وعبثا بغير حكمة بالغة ولا لتبقى خالدة وانما خلقها مقرونة بالحق مصحوبة بالحكمة وبتقدير أجل مسمى لا بد ٤٠٥ لها من ان تنتهي اليه وهو قيام الساعة ووقت الحساب والثواب والعقاب الا ترى الى قوله أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون كيف سمى تركهم غير راجعين اليه عبثا (وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم) بالبعث والجزاء (لكافرون) لجاحدون وقال الزجاج أي لكافرون بلقاء ربهم (أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) هو تقرير لسيرهم في البلاد ونظرهم الى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الامم العاتية ثم وصف حالهم فقال (كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض) وحرثوها (وعمروها) أي المدمرون (أكثر) صفة مصدر محذوف وما مصدرية في (مما عمروها) أي من عمارة أهل مكة (وجاءتهم رسلهم بالبينات) وتقف عليها لحق الحذف أي فلم يؤمنوا فأهلكوا (فما كان الله ليظلمهم) فما كان تدميره اياهم ظلما لهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث عملوا ما أوجب تدميرهم (ثم كان عاقبة) بالنصب شامي وكوفي (الذين أساؤا) أي (السوأى) تأنيث الاسوأ وهو الاقبح كما ان الحسنى تأنيث الاحسن ومحلها رفع على أنها اسم كان عند من نصب عاقبة على الخبر ونصب عند من رفعها والمعنى انهم عوقبوا في الدنيا بالدمار ثم كانت عاقبتهم السوأى

١٠٢ ث الا أنه وضع المظهر وهو الذين أساؤا موضع المضمر أي العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة وهي النار التي أعدت للكافرين (أن كذبوا) لان كذبوا أو بان وهو يدل على ان معنى أساؤا كفروا (بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن) يعني ثم كان عاقبة الكافرين النار لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها (الله يبدأ الخلق) ينشئهم (ثم يعيده) يحييهم بعد الموت (ثم اليه ترجعون) وبالياء أبو عمرو وسهل (ويوم تقوم الساعة يبلس) ييأس ويتحير يقال ناظرته فأبلس اذا لم ينبس ويئس من ان يحتج (المجرمون) المشركون (ولم يكن لهم من شركائهم) من الذين عبدوهم من دون الله وكتب (شفعوا) في المصحف بواو وقبل الالف كما كتب علموا بني اسرائيل وكذلك كتبت السوأى بالالف قبل الياء اثباتا للهمزة على صورة الحرف الذي منه حركتها (وكانوا بشركائهم كافرين) أي يكفرون بآلهتهم ويجحدونها أو وكانوا في الدنيا كافرين بسببهم (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) الضمير في يتفرقون للمسلمين والكافرين لدلالة ما بعده عليه حيث قال (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة) أي بستان وهي الجنة والتنكير لابهام أمرها وتفخيمه (يحبرون) يسرون يقال حبره اذا سره سرورا تهلل له وجهه وظهر فيه أثره ثم اختلف فيه لاحتمال وجوه المسار فقيل يكرمون وقيل يحلون وقيل هو السماع في الجنة

يعلمون ظاهرها وهو ملاذها وملاعبها ولا يعلمون باطنها وهو مضارها ومتاعبها وقيل يعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها (وهم عن الآخرة هم غافلون) أي ساهون عنها لا يتفكرون فيها ولا يعملون بها قوله عز وجل (أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق) يعني لاقامة الحق (وأجل مسمى) أي لوقت معلوم اذا انتهت اليه فنيت وهو يوم القيامة (وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون أولم يسيروا في الارض) أي يسافروا فيها (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) أي ينظروا الى مصارع الامم قبلهم فيعتبروا (كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض) أي حرثوها وقلبوها للزراعة (وعمروها) يعني الامم الخالية (أكثر مما عمروها) يعني أهل مكة (وجاءتهم رسلهم بالبينات) أي فلم يؤمنوا فأهلكهم الله (فما كان الله ليظلمهم) أي ينقص حقوقهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أي ببخس حقوقهم (ثم كان عاقبة الذين أساؤا) أي أساؤا العمل فاستحقوا (السوأى) يعني الخلة التي تسوءهم وهي النار وقيل السوأى اسم لجهنم ومعنى الآية ان عاقبة الذين عملوا السوء النار (أن كذبوا) أي لانهم كذبوا وقيل معنى الآية ثم كان عاقبة المسيئين ان حملتهم تلك السيئات على ان كذبوا (بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن) قوله تعالى (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) أي خلقهم ابتداء ثم يعيدهم بعد الموت أحياء (ثم اليه ترجعون) أي فيجزيهم بأعمالهم (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) قيل معناه أنهم ييأسون من كل خير وقيل ينقطع كلامهم وحجتهم وقيل يفتضحون (ولم يكن لهم من شركائهم) يعني أصنامهم التي عبدوها (شفعاء) أي يشفعون لهم (وكانوا بشركائهم كافرين) أي جاحدين متبرئين يتبرؤن منها وتتبرأ منهم (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) أي يتميز أهل الجنة من أهل النار وقيل يتفرقون بعد الحساب أهل الجنة الى الجنة وأهل النار الى النار ولا يجتمعون أبدا فهو قوله تعالى (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة) أي في جنة وقيل الروضة البستان الذي هو في غاية النضارة (يحبرون) قال ابن عباس يكرمون وقيل ينعمون ويسرون والحبرة السرور وقيل في معنى يحبرون هو السماع في الجنة قال الاوزاعي ليس أحد من خلق الله أحسن صوتا من اسرافيل فاذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سموات صلاتهم وتسبيحهم وقال اذا أخذ في السماع فلا يبقى في الجنة شجرة الا وردت وسأل أبا هريرة رجل هل لاهل الجنة من سماع فقال نعم شجرة أصلها من ذهب وأغصانها من فضة وثمارها اللؤلؤ والزبرجد والياقوت

يبعث الله ريحا فيجاوب بعضها بعضا فما يسمع أحد أحسن منه (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) أى البعث يوم القيامة (فأولئك فى العذاب محضرون) قوله تعالى (فسبحان الله) يعنى فسبحوا الله ومعناه صلوا لله (حين تمسون) أى تدخلون فى المساء وهى صلاة المغرب والعشاء (وحين تصبحون) أى تدخلون فى الصباح وهى صلاة الصبح (وله الحمد فى السموات والارض) قال ابن عباس يحمده أهل السموات والارض ويصلون له (وعشيا) أى وصلوا لله عشيا يعنى صلاة العصر (وحين تظهرون) أى تدخلون فى الظهيرة وهى صلاة الظهر قال نافع بن الازرق لابن عباس هل تجد الصلوات الخمس فى القرآن قال نعم وقرأ هاتين الآيتين وقال جمعتا الصلوات الخمس ومواقيتها واعلم انه انما خص هذه الاوقات بالتسبيح لان أفضل الاعمال أدومها والانسان لا يقدر ان يصرف جميع أوقاته الى التسبيح لانه محتاج الى ما يعيشه من مأكول ومشروب وغير ذلك فخفف الله عنه العبادة فى غالب الاوقات وأمره بها فى أول النهار ووسطه وآخره وفى أول الليل وآخره فاذا صلى العبد ركعتى الفجر فكأنما سبح قدر ساعتين وكذلك باقى الركعات وهى سبع عشرة ركعة مع ركعتى الفجر فاذا صلى الانسان الصلوات الخمس فى أوقاتها فكأنما سبح الله سبع عشرة ساعة من الليل والنهار بقى عليه سبع ساعات فى جميع الليل والنهار وهى مقدار النوم والنائم مرفوع عنه القلم فيكون قد صرف جميع أوقاته فى التسبيح والعبادة

(فصل فى فضل التسبيح) عن أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال سبحان الله وبحمده فى كل يوم مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به الا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه أخرجهما الترمذى وقال فيهما حسن صحيح (ق) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان الى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وهذا الحديث أخرجه فى صحيح البخارى (م) عن جويرية بنت الحرث زوج النبى صلى الله عليه وسلم رضى الله عنها ان النبى صلى الله عليه وسلم خرج ذات غداة من عندها وهى فى مسجدها فرجع بعد ما تعالى النهار فقال ما زلت فى مجلسك هذا مذ خرجت بعد قالت نعم فقال لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرار لو وزنت بكلماتك لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته (م) عن سعد بن أبى وقاص قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أيعجز أحدكم ان يكتسب كل يوم ألف حسنة فسأله سائل من جلسائه قال كيف يكتسب ألف حسنة قال يسبح الله مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ويحط عنه ألف خطيئة وفى رواية غير مسلم يحط عنه أربعين ألفا (يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) أى يخرج النطفة من الحيوان ويخرج الحيوان من النطفة وقيل يخرج الدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة وقيل يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن (ويحيى الارض بعد موتها) أى بالمطر واخراج النبات منها (وكذلك تخرجون) أى مثل اخراج النبات من الارض تخرجون من القبور للبعث والحساب (ومن آياته ان خلقكم من تراب) أى خلق أصلكم وهو آدم من تراب (ثم اذا أنتم بشر تنتشرون) أى تنبسطون فى الارض (ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم أزواجا) أى جنسكم من بنى آدم وقيل خلق حواء من ضلع آدم (لتسكنوا اليها) أى لتميلوا الى الازواج وتألفوهن (وجعل بينكم مودة

(وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) أى البعث (فأولئك فى العذاب محضرون) مقيمون لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم كقوله وما هم بخارجين منها ذكر الوعد والوعيد اتبعه ذكر ما يوصل الى الوعد وينجى من الوعيد فقال (فسبحان الله) والمراد بالتسبيح ظاهره الذى هو تنزيه الله من السوء والثناء عليه بالخير فى هذه الاوقات لما يتجدد فيها من نعمة الله الظاهرة أو الصلاة فقيل لابن عباس هل تجد الصلوات الخمس فى القرآن فقال نعم وتلا هذه الآية وهو نصب على المصدر والمعنى نزهوه عما لا يليق به أو صلوا لله (حين تمسون) صلاة المغرب والعشاء (وحين تصبحون) صلاة الفجر (وله الحمد فى السموات والارض) اعتراض ومعناه أن على المميزين كلهم من أهل السموات والارض أن يحمدوه وفى السموات حال من الحمد (وعشيا) صلاة العصر وهو معطوف على حين تمسون وقوله عشيا متصل بقوله حين تمسون (وحين تظهرون) صلاة الظهر اظهر أى دخل فى وقت الظهيرة والقول الاكثر ان الصلوات الخمس فرضت بمكة (يخرج الحى من الميت) الطائر من البيضة او الانسان من النطفة او المؤمن من الكافر (ويخرج الميت من الحى) أى البيضة من الطائر او النطفة من الانسان او الكافر من المؤمن والميت بالتخفيف فيهما مكى وشامى وأبو عمرو وأبو بكر وحماد وبالتشديد غيرهم (ويحيى الارض) بالنبات (بعد موتها) يبسها (وكذلك تخرجون) تخرجون حمزة وعلى وخلف أى ومثل ذلك الاخراج تخرجون من قبوركم والكاف فى محل النصب بتخرجون والمعنى ان الابداء والاعادة يتساويان فى قدرة من هو قادر على اخراج الميت من الحى وعكسه روى ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قرأ فسبحان الله حين تمسون الى الثلاث وآخر سورة والصافات دبر كل صلاة كتب له من الحسنات عدد نجوم السماء وقطر الامطار وورق الاشجار وتراب الارض فاذا مات اجرى له بكل حرف عشر حسنات فى قبره قال عليه السلام من قرأ حين يصبح فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الى قوله وكذلك تخرجون ادرك ما فاته فى يومه ومن قالها حين يمسى ادرك ما فاته فى ليلته (ومن آياته) ومن علامات ربوبيته وقدرته (ان خلقكم) أى اباكم (من تراب ثم اذا انتم بشر) أى آدم وذريته (تنتشرون) تتصرفون فيما فيه معاشكم واذا للمفاجأة وتقديره ثم فاجأتم وقت كونكم بشرا منتشرين فى الارض (ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم ازواجا لتسكنوا اليها) أى حواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام والنساء بعدها خلقن من اصلاب الرجال او من شكل أنفسكم وجنسها لا من جنس آخر وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الالف والسكون وما بين الجنسين المختلفين من التنافر يقال سكن اليه اذا مال اليه (وجعل بينكم مودة

ورحمة) اى جعل بينكم التواد والتراحم بسبب الزواج وعن الحسن المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد وقيل المودة للشابة والرحمة للعجوز وقيل المودة والرحمة من الله والفرك من الشيطان أى بغض المرأة زوجها وبغض الزوج المرأة (ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فيعلمون ان قوام الدنيا بوجود التناسل (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم) أى اللغات او اجناس النطق واشكاله (وألوانكم) كالسواد والبياض وغيرهما ولاختلاف ذلك وقع التعارف والا فلو تشاكلت واتفقت لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت المصالح وفى ذلك آية بينة حيث ولدوا من اب واحد وهم على الكثرة التى لا يعلمها الا الله متفاوتون (ان فى ذلك لآيات للعالمين) جمع عالم وبكسر اللام حفص جمع عالم ويشهد للكسر قوله تعالى وما يعقلها الا العالمون (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله) هذا من باب اللف وترتيبه أى ومن آياته منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار الا انه فصل بين القرينين الاولين بالقرينين الآخرين والمراد منامكم فى الزمانين وابتغاؤكم فيهما والجمهور على الاول لتكرره فى القرآن وأسد المعانى مادل عليه القرآن

(ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) أى يسمعون سماع تدبر بآذان واعية (ومن آياته يريكم البرق) فى يريكم وجهان اضمار ان كما فى حرف ابن مسعود رضى الله عنه وانزال الفعل منزلة المصدر وبهما فسر المثل تسمع بالمعيدى خير من ان تراه أى ان تسمع او سماعك قوله (خوفا) من الصاعقة أو من الاخلاف (وطمعا) فى الغيث او خوفا للمسافر وطمعا للحاضر وهما منصوبان على المفعول له على تقدير حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه أى ارادة خوف وارادة طمع او على الحال اى خائفين وطامعين (وينزل من السماء) وبالتخفيف مكى وبصرى (ماء) مطرا (فيحيى به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) يتفكرون بعقولهم (ومن آياته ان تقوم) تثبت بلا عمد (السماء والارض بأمره) أى باقامته وتدبيره وحكمته (ثم اذا دعاكم) للبعث (دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون) من قبوركم هذا كقوله يريكم فى ايقاع الجملة موقع المفرد على المعنى كأنه قال ومن آياته قيام السموات والارض واستمساكها بغير عمد ثم خروج الموتى من القبور اذا دعاهم دعوة واحدة يا أهل القبور اخرجوا والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقف وانما عطف هذا على قيام السموات والارض بثم بيانا لعظم ما يكون من ذلك الامر واقتداره على مثله وهو ان يقول يا أهل القبور قوموا فلا تبقى نسمة من الاولين والآخرين الا قامت تنظر كما قال ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون واذا الاولى للشرط والثانية للمفاجأة وهى تنوب مناب الفاء فى جواب الشرط ومن الارض متعلق بالفعل لا بالمصدر وقولك دعوته من مكان كذا يجوز ان يكون مكانك ويجوز ان يكون مكان صاحبك (وله من فى السموات والارض كل له قانتون) منقادون لوجود افعاله فيهم لا يمتنعون عليه أو مقرون بالعبودية (وهو الذى يبدأ الخلق) أى ينشئهم (ثم يعيده) للبعث (وهو) أى البعث (أهون) أيسر (عليه) عندكم لان الاعادة عندكم اسهل من الانشاء فلم انكرتم الاعادة وأخرت الصلة فى قوله وهو أهون عليه وقدمت فى قوله هو على هين لقصد الاختصاص هناك وأما هنا فلا معنى للاختصاص وقال أبو عبيدة والزجاج وغيرهما الاهون بمعنى الهين فيوصف به الله عز وجل وكان ذلك على الله يسيرا كما قالوا الله أكبر أى كبير والاعادة فى نفسها عظيمة ولكنها هونت بالقياس الى الانشاء او هو أهون على الخلق من الانشاء لان قيامهم بصيحة واحدة اسهل من كونهم نطفا ثم علقا ثم مضغا الى تكميل خلقهم (وله المثل الاعلى فى السموات والارض) أى الوصف الاعلى الذى ليس لغيره وقد عرف به ووصف فى السموات والارض على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل وهو انه القادر الذى لا يعجز عن شئ من انشاء واعادة وغيرهما من المقدورات ويدل عليه قوله (وهو العزيز) أى القاهر لكل مقدور (الحكيم)

(ورحمة) أى جعل بين الزوجين المودة والرحمة فهما يتوادان ويتراحمان من غير سابقة معرفة ولا قرابة ولا سبب يوجب التعاطف وما شئ أحب الى أحدهما من الآخر من غير تراحم بينهما الا الزوجية (ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى فى عظمة الله وقدرته (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم) أى اختلاف اللغات العربية والعجمية وغيرهما وقيل أراد أجناس النطق وأشكاله خالف بينها حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين حتى لو تكلم جماعة من وراء حائط يعرف كل منهم بنطقه ونغمته لا يشبه صوت أحد صوت الآخر (وألوانكم) أى أسود وأبيض وأشقر وأسمر وغير ذلك من اختلاف الالوان وأنتم بنو رجل واحد ومن أصل واحد وهو آدم عليه السلام والحكمة فى اختلاف الاشكال والاصوات للتعارف أى ليعرف كل واحد بشكله وحليته وصورته فلو اتفقت الاصوات والصور وتشاكلت وكانت ضربا واحدا لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت مصالح كثيرة ولم يعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق والقريب من البعيد فسبحان من خلق الخلق على ما اراد وكيف أراد وفى ذلك دليل على سعة القدرة وكمال العظمة (ان فى ذلك لآيات للعالمين) أى لعموم العلم فيهم (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله) أى منامكم بالليل للراحة وابتغاؤكم من فضله وهو طلب أسباب المعيشة بالنهار (ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) أى سماع تدبر واعتبار (ومن آياته يريكم البرق خوفا) أى للمسافر يستعد للمطر (وطمعا) أى للمقيم ليستعد المحتاج اليه من أجل الزرع وتسوية طرق المصانع (وينزل من السماء ماء فيحيى به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى قدرة الله وانه القادر عليه (ومن آياته ان تقوم السماء والارض بأمره) قال ابن عباس وابن مسعود قامتا على غير عمد وقيل يدوم قيامهما بأمره (ثم اذا دعاكم دعوة من الارض) قال ابن عباس من القبور (اذا أنتم تخرجون) أى منها وقيل معنى الآية ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون من الارض (وله من فى السموات والارض كل له قانتون) أى مطيعون قال ابن عباس كل له مطيعون فى الحياة والبقاء والموت والبعث وان عصوا فى العبادة (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) أى يخلقهم أولا ثم يعيدهم بعد الموت للبعث (وهو أهون عليه) أى هو هين عليه وما من شئ عليه بعزيز وقيل معناه وهو أيسر عليه فان الذى يقع فى عقول الناس ان الاعادة تكون أهون من الانشاء وقيل هو أهون على الخلق وذلك لانهم يقومون بصيحة واحدة فيكون أهون عليهم من ان يكونوا نطفا ثم علقا ثم مضغا الى ان يصيروا رجالا ونساء وهو رواية عن ابن عباس (وله المثل الاعلى) أى الصفة العليا قال ابن عباس ليس كمثله شئ وقيل هو الذى لا اله الا هو (فى السموات والارض وهو) أى فى ملكه (العزيز الحكيم) أى فى خلقه

قوله عز وجل (ضرب لكم مثلا) أى بين لكم شبها يحال لكم ذلك المثل (من أنفسكم) ثم بين المثل فقال تعالى (هل لكم مما ملكت أيمانكم) أى عبيدكم وامائكم (من شركاء فيما رزقناكم) أى من المال (فانتم فيه سواء) أى هل يشارككم عبيدكم فى أموالكم التى أعطيناكم (تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) أى تخافون ان يشاركوكم فى أموالكم ويقاسموكم كما يخاف الحر من شريكه الحر فى المال يكون بينهما ان ينفرد فيه بأمره دون شريكه ويخاف الرجل شريكه فى الميراث وهو يحب ان ينفرد به وقال ابن عباس تخافونهم ان يرثوكم كما يرث بعضكم بعضا واذا لم تخافوا هذا من مماليككم ولا ترضوه لانفسكم فكيف ترضون ان تكون آلهتكم التى تعبدونها شركائى وهم عبيدى (كذلك نفصل الآيات) أى الدلالات والبراهين والامثال (لقوم يعقلون) أى ينظرون فى هذه الدلائل والامثال بعقولهم (بل اتبع الذين ظلموا) يعنى أشركوا بالله (أهواءهم) أى فى الشرك (بغير علم) جهلا بما يجب عليهم (فمن يهدى من أضل الله) اى عن طريق الهدى (وما لهم من ناصرين) أى مانعين يمنعونهم من عذاب الله تعالى (فأقم وجهك للدين) يعنى أخلص دينك لله وقيل سدد عملك والوجه ما يتوجه الى الله تعالى به الانسان ودينه وعمله مما يتوجه اليه ليسدده قوله تعالى (حنيفا) اى مائلا اليه مستقيما عليه (فطرة الله) أى دين الله والمعنى الزموا فطرة الله (التى فطر الناس عليها) قال ابن عباس خلق الله الناس عليها والمراد بالفطرة الدين وهو الاسلام (ق) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مولود الا يولد على الفطرة ثم قال اقرؤا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم زاد البخارى فأبواه يهودانه أو ينصرانه او يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول ابو هريرة اقرؤا فطرة الله الآية ولهما فى رواية قالوا يا رسول الله افرأيت من يموت صغيرا قال الله اعلم بما كانوا عاملين قوله ما من مولود يولد الا على الفطرة يعنى على العهد الذى أخذ الله عليهم بقوله الست بربكم قالوا بلى فكل مولود فى العالم على ذلك الاقرار وهى الحنيفية التى وضعت الخلقة عليها وان عبد غير الله قال الله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ولكن لا اعتبار بالايمان الفطرى فى أحكام الدنيا وانما يعتبر الايمان الشرعى المأمور به المكتسب بالارادة والفعل الاترى الى قوله فأبواه يهودانه أو ينصرانه فهو مع وجود الايمان الفطرى فانه محكوم له بحكم ابويه الكافرين وهذا معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر يقول الله عز وجل انى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وحكى عن عبد الله بن المبارك انه قال معنى الحديث ان كل مولود يولد على فطرته أى خلقته التى خلقه الله عليها فى علم الله تعالى من السعادة والشقاوة فكل منهم صائر فى العاقبة الى ما فطر عليه وعامل فى الدنيا بالعمل المشاكل لها فمن امارات الشقاوة للطفل ان يولد بين يهوديين اونصرانيين فيحملانه على اعتقاد دينهما وقيل معناه ان كل مولود فى مبدا الخلقة على الفطرة أى على الجبلة السليمة والطبع المتهيئ لقبول الدين فلو ترك عليها الاستمر على لزومها لان هذا الدين موجود حسنه فى العقول السليمة وانما يعدل عنه من عدل الى غيره لانه من آفات التقليد ونحوه فمن سلم من تلك الآفات لم يعتقد غيره ثم تمثل لاولاد اليهود والنصارى واتباعهم لآبائهم والميل الى أديانهم فيزلون بذلك عن الفطرة السليمة والحجة المستقيمة بقوله كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء أى كما تلد البهيمة بهيمة مستوية لم يذهب من بدنها شئ وقوله هل تحسون فيها من جدعاء يعنى هل تشعرون أو تعلمون فيها من جدعاء وهى

الذى يجرى كل فعل على قضايا حكمته وعلمه وعن ابن عباس رضى الله عنهما المثل الاعلى ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وعن مجاهد هو قول لا اله الا الله ومعناه وله الوصف الارفع الذى هو الوصف بالوحدانية ويعضده قوله (ضرب لكم مثلا من انفسكم) فهذا مثل ضربه الله عز وجل لمن جعل له شريكا من خلقه ومن للابتداء كانه قال اخذ مثلا وانتزعه من اقرب شئ منكم وهى أنفسكم (هل لكم) معاشر الاحرار (مما ملكت ايمانكم) عبيدكم ومن للتبعيض (من شركاء) من مزيدة لتأكيد الاستفهام الجارى مجرى النفى ومعناه هل ترضون لانفسكم وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد ان يشارككم بعضهم (فيما رزقناكم) من الاموال وغيرها (فانتم) معاشر الاحرار والعبيد (فيه) فى ذلك الرزق (سواء) من غير تفصلة بين حر وعبد يحكم مماليككم فى أموالكم كحكمكم (تخافونهم) حال من ضمير الفاعل فى سواء أى تتساوا وانتم تخافونهم ان يشاركوكم فى المال والمعنى تخافون معاشر السادة عبيدكم فيها فلا تمضون فيها حكما دون اذنهم خوفا من لائمة تلحقكم من جهتهم (كخيفتكم انفسكم) يعنى كما يخاف بعض الاحرار بعضا فيما هو مشترك بينهم فاذا لم ترضوا بذلك لانفسكم فكيف ترضون لرب الارباب ومالك الاحرار والعبيد ان تجعلوا بعض عبيده له شركاء (كذلك) موضع الكاف نصب أى مثل هذا التفصيل (نفصل الآيات) نبينها لان التمثيل مما يكشف المعانى ويوضحها (لقوم يعقلون) يتدبرون فى ضرب الامثال فلما لم ينزجروا اضرب عنهم فقال (بل اتبع الذين ظلموا) أنفسهم بما اشركوا كما قال الله تعالى ان الشرك لظلم عظيم (اهواءهم بغير علم) أى اتبعوا اهواءهم جاهلين (فمن يهدى من أضل الله) اى اضله الله تعالى (وما لهم من ناصرين) من العذاب (فأقم وجهك للدين) فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا وهو تمثيل لاقباله على الدين واستقامته عليه واهتمامه باسبابه فان من اهتم بالشئ عقد عليه طرفه وسدد اليه نظره وقوم له وجهه (حنيفا) حال من المامور اومن الدين (فطرة الله) أى الزموا فطرة الله والفطرة الخلقة الاترى الى قوله لا تبديل لخلق الله فالمعنى انه خلقهم قابلين للتوحيد والاسلام غير نائين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوبا للعقل مساوقا للنظر الصحيح حتى لو تركوا لما اختاروا عليه دينا آخر ومن غوى منهم فباغواء شياطين الجن والانس ومنه قوله عليه السلام كل عبادى خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم ان يشركوا بى غيرى وقوله عليه السلام كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه وقال الزجاج معناه ان الله تعالى فطر الخلق على الايمان به على ما جاء فى الحديث ان الله عز وجل اخرج من صلب آدم كالذر وأشهدهم على أنفسهم بأنه خالقهم فقال واذ أخذ ربك الى قوله قالوا بلى وكل مولود هو من تلك الذرية التى شهدت بأن الله تعالى خالقها فمعنى فطرة الله دين الله (التى فطر الناس عليها) أى خلق المقطوعة

المقطوعة الاذن والانف قوله عز وجل (لا تبديل لخلق الله) أي لا تبدلوا دين الله وقيل معنى الآية الزموا فطرة الله ولا تبدلوا التوحيد بالشرك وقيل معنى لا تبديل لخلق الله هو ما جبل عليه الانسان من السعادة والشقاوة فلا يصير السعيد شقيا ولا الشقي سعيدا وقيل الآية في تحريم اخصاء البهائم (ذلك الدين القيم) أي المستقيم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) قوله عز وجل (منيبين اليه) أي فأقم وجهك أنت وأمتك منيبين اليه لان خطاب النبي صلى الله عليه وسلم يدخل فيه الامة والمعنى راجعين الى الله تعالى بالتوبة مقبلين اليه بالطاعة (واتقوه) أي ومع ذلك خافوه (وأقيموا الصلاة) أي داوموا على ادائها في أوقاتها (ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا) أي صاروا فرقا مختلفة وهم اليهود والنصارى وقيل هم أهل البدع من هذه الامة (كل حزب بما لديهم فرحون) أي راضون بما عندهم قوله تعالى (واذا مس الناس ضر) أي قحط وشدة (دعوا ربهم منيبين اليه) أي مقبلين اليه بالدعاء (ثم اذا أذاقهم منه رحمة) أي خصبا (اذا فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم) أي ليجحدوا نعمة الله عليهم (فتمتعوا) فيه تهديد ووعيد خاطب به الكفار (فسوف تعلمون) أي حالكم في هذه الآخرة (أم أنزلنا عليهم سلطانا) قال ابن عباس حجة وعذرا وقيل كتابا (فهو يتكلم) أي ينطق (بما كانوا به يشركون) أي بشركهم ويأمرهم به (واذا أذقنا الناس رحمة) أي الخصب وكثرة المطر (فرحوا بها) أي فرحوا وبطروا (وان تصبهم سيئة) أي جدب وقلة مطر وقيل خوف وبلاء (بما قدمت أيديهم) من السيئات (اذا هم يقنطون) أي ييأسون من رحمة الله وهذا خلاف وصف المؤمن فانه يشكر ربه عند النعمة ويرجوه عند الشدة (أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) تقدم تفسيره قوله عز وجل (فآت ذا القربى حقه) أي من البر والصلة (والمسكين) أي حقه وهو التصدق عليه (وابن السبيل) أي المسافر وقيل هو الضيف (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) أي يطلبون ثواب الله بما كانوا يعملون (وأولئك هم المفلحون) قوله عز وجل (وما آتيتم) أي أعطيتم (من ربا ليربو في أموال الناس) أي في اجتلاب أموال الناس واجتذابها قيل في معنى الآية هو الرجل يعطي غيره العطية ليثيبه أكثر منها فهو جائز حلال ولكن لا يثاب عليها في القيامة وهذا قوله (فلا يربو عند الله) وكان هذا حراما على النبي خاصة لقوله تعالى ولا تمنن تستكثر أي لا تعط وتطلب أكثر مما أعطيت وقيل هو الرجل يعطي صديقه أو قريبه ليكثر ماله لا يريد به وجه الله وقيل هو الرجل يلتزق بالرجل فيخدمه ويسافر معه فيجعل له ربح ماله لالتماس عونه لا لوجه الله فلا يربو عند الله لانه لم يرد وجه الله (وما آتيتم من زكاة) أي أعطيتم من صدقة (تريدون وجه الله) أي بتلك الصدقة (فأولئك هم المضعفون) أي يضاعف لهم الثواب فيعطون

(لا تبديل لخلق الله) أي ما ينبغي ان تبدل تلك الفطرة أو تغير وقال الزجاج معناه لا تبديل لدين الله ويدل عليه ما بعده وهو قوله (ذلك الدين القيم) أي المستقيم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) حقيقة ذلك (منيبين اليه) راجعين اليه وهو حال من الضمير في الزموا وقوله واتقوه وأقيموا ولا تكونوا معطوف على هذا المضمر أو من قوله فأقم وجهك لان الامر له عليه السلام أمر لامته فكأنه قال فأقيموا وجوهكم منيبين اليه أو التقدير كونوا منيبين دليله قوله ولا تكونوا (واتقوه وأقيموا الصلاة) أي أدوها في أوقاتها (ولا تكونوا من المشركين) ممن يشرك به غيره في العبادة (من الذين) بدل من المشركين باعادة الجار (فرقوا دينهم) جعلوه أديانا مختلفة لاختلاف أهوائهم فارقوا حمزة وعلي وهي قراءة علي رضي الله عنه أي تركوا دين الاسلام (وكانوا شيعا) فرقا كل واحدة تشايع امامها الذي أضلها (كل حزب) منهم (بما لديهم فرحون) فرح بمذهبه مسرور يحسب باطله حقا (واذا مس الناس ضر) شدة من هزال أو مرض أو قحط أو غير ذلك (دعوا ربهم منيبين اليه ثم اذا أذاقهم منه رحمة) أي خلاصا من الشدة (اذا فريق منهم بربهم يشركون) في العبادة (ليكفروا) هذه لام كي وقيل لام الامر للوعيد (بما آتيناهم) من النعم (فتمتعوا) بكفركم قليلا أمر وعيد (فسوف تعلمون) وبال تمتعكم (أم أنزلنا عليهم سلطانا) حجة (فهو يتكلم) وتكلمه مجاز كما تقول كتابه ناطق بكذا وهذا مما نطق به القرآن ومعناه الشهادة كأنه قال فهو يشهد بشركهم وبصحته (بما كانوا به يشركون) ما مصدرية أي بكونهم بالله يشركون أو موصولة ويرجع الضمير اليها أي فهو يتكلم بالامر الذي بسببه يشركون أو معنى الآية أم أنزلنا عليهم ذا سلطان أي ملكا معه برهان فذلك الملك يتكلم بالبرهان الذي بسببه يشركون (واذا أذقنا الناس رحمة) أي نعمة من مطر أو سعة أو صحة (فرحوا بها) بطروا بسببها (وان تصبهم سيئة) أي بلاء من جدب أو ضيق أو مرض (بما قدمت أيديهم) بسبب شؤم معاصيهم (اذا هم يقنطون) من الرحمة واذا للمفاجأة جواب الشرط نابت عن الفاء لتآخيهما في التعقيب (أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أنكر عليهم بأنهم قد علموا بأنه القابض الباسط فما لهم يقنطون من رحمته وما لهم لا يرجعون اليه تائبين عن المعاصي التي عوقبوا بالشدة من أجلها حتى يعيد اليهم رحمته ولما ذكر ان السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم

اتبعه ذكر ما يجب ان يفعل وما يجب ان يترك فقال (فآت ذا القربى) اعط قريبك (حقه) من البر والصلة (والمسكين وابن السبيل) نصيبهما من الصدقة المسماة لهما وفيه دليل وجوب النفقة للمحارم كما هو مذهبنا (ذلك) أي ايتاء حقوقهم (خير للذين يريدون وجه الله) أي ذاته أي يقصدون بمعروفهم اياه خالصا (وأولئك هم المفلحون وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس) يريد وما أعطيتم أكلة الربا من ربا ليربو في أموالهم (فلا يربو عند الله) فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه وقيل هو من الربا الحلال أي وما تعطونه من الهدية لتأخذوا أكثر منها فلا يربو عند الله لانكم لم تريدوا بذلك وجه الله (وما آتيتم من زكاة صدقة (تريدون وجه الله) تبتغون به وجهه خالصا لا تطلبون به مكافأة ولا رياء ولا سمعة (فأولئك هم المضعفون) ذووا الاضعاف من الحسنات ونظير المضعف المقوي والموسر لذي القوة واليسار أتيتم من ربا بلا مد مكي أي وما غشيتموه من اعطاء ربا لتربوا مدني أي لتزيدوا في أموالكم

وقوله فأولئك هم المضعفون التفات حسن لانه يفيد التعميم كأنه قيل من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين والمعنى المضعفون به لانه لا بد له من ضمير يرجع الى ما الموصولة وقال الزجاج فى قوله فأولئك هم المضعفون أى فأهلها هم المضعفون أى هم الذين يضاعف لهم الثواب يعطون بالحسنة عشر امثالها ثم أشار الى عجز آلهتهم فقال (الله الذى خلقكم) مبتدأ وخبر (ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم) أى هو المختص بالخلق والرزق والاماتة والاحياء (هل من شركائكم) أى أصنامكم التى زعمتم انهم شركاء الله (من يفعل من ذلكم) أى من الخلق والرزق والاماتة والاحياء (من شئ) أى شيئا من تلك الافعال ولم يجيبوا عجزا فقال استبعادا (سبحانه وتعالى عما يشركون) ومن الاولى والثانية والثالثة كل واحدة منهن مستقلة بتأكيد لتعجيز شركائهم وتجهيل عبدتهم (ظهر الفساد فى البر والبحر) نحو القحط وقلة الامطار والريع فى الزراعات والربح فى التجارات ووقوع الموتان فى الناس والدواب وكثرة الحرق والغرق ومحق البركات من كل شئ (بما كسبت أيدى الناس) بسبب معاصيهم وشركهم كقوله وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم (ليذيقهم بعض الذى عملوا) أى ليذيقهم وبال بعض أعمالهم فى الدنيا قبل ان يعاقبهم بجميعها فى الآخرة وبالنون عن قنبل (لعلهم يرجعون) عما هم عليه من المعاصى ثم أكد تسبيب المعاصى لغضب الله ونكاله بقوله (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين) حيث أمرهم بان يسيروا فينظروا كيف اهلك الله الامم واذاقهم سوء العاقبة بمعاصيهم (فأقم وجهك للدين القيم) البليغ الاستقامة الذى لا يتأتى فيه عوج (من قبل ان يأتى يوم لا مرد له) هو مصدر بمعنى الرد (من الله) يتعلق بيأتى والمعنى من قبل ان يأتى من الله يوم لا يرده احد كقوله تعالى فلا يستطيعون ردها او بمرد على معنى لا يرده هو بعد ان يجئ به ولا رد له من جهته (يومئذ يصدعون) يتصدعون أى يتفرقون ثم اشار الى غناه عنهم فقال (من كفر فعليه كفره) أى وبال كفره (ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون) أى يسوون لانفسهم ما يسويه لنفسه الذى يمهد لنفسه فراشه ويوطئه لئلا يصيبه فى مضجعه ما ينغص عليه مرقده من نتوء وغيره والمعنى انه يمهد لهم الجنة بسبب اعمالهم فاضيف اليهم وتقديم الظرف فى الموضعين للدلالة على ان ضرر الكفر لا يعود الا على الكافر ومنفعة الايمان والعمل الصالح ترجع الى المؤمن لا تجاوزه (ليجزى) متعلق بيمهدون تعليل له وتكرير (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وترك الضمير الى الصريح لتقرير انه لا يفلح عنده الا المؤمن (من فضله) أى عطائه اى وقوله (انه لا يحب الكافرين) تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس (ومن آياته) أى ومن آيات قدرته (ان يرسل الرياح) هى الجنوب والشمال والصبا وهى رياح الرحمة وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله عليه السلام اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا وقد عدد الفوائد فى ارسالها فقال (مبشرات) أى ارسلها للبشارة بالغيث (وليذيقكم من رحمته) ولاذاقة الرحمة وهى نزول المطر وحصول الخصب الذى يتبعه والروح الذى مع هبوب الريح وزكاء الارض وغير ذلك وليذيقكم معطوف على مبشرات على المعنى كانه قيل ليبشركم وليذيقكم (ولتجرى الفلك) فى البحر عندهبوبها (بأمره) أى بتدبيره او بتكوينه كقوله انما امره اذا أراد شيئا الآية (ولتبتغوا من فضله) يريد تجارة البحر (ولعلكم تشكرون) ولتشكروا نعمة الله فيها (ولقد ارسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات) أى فآمن بهم قوم وكفر بهم قوم ويدل على هذا الاضمار قوله (فانتقمنا من الذين أجرموا) أى كفروا بالاهلاك فى الدنيا (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) أى وكان نصر المؤمنين حقا علينا بانجائهم مع الرسل وقد يوقف على حقا ومعناه

بالحسنة عشر أمثالها فالمضعف ذو الاضعاف من الحسنات قوله تعالى (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ سبحانه وتعالى عما يشركون) تقدم تفسيره قوله تعالى (ظهر الفساد فى البر والبحر) أى بسبب الشرك والمعاصى ظهر قحط المطر وقلة النبات فى البرارى والبوادى والمفاوز والقفار والبحر قيل المدائن والقرى التى هى على المياه الجارية والعرب تسمى المصر بحرا تقول اجدب البر وانقطعت مادة البحر وقيل البر ظهر الارض الامصار وغيرها والبحر هو المعروف وقلة المطر كما تؤثر فى البر تؤثر فى البحر بخلو أجواف الاصداف من اللؤلؤ وذلك لان الصدف اذا جاء المطر ترتفع على وجه الماء وتفتح أفواهها فما وقع فيها من المطر صار لؤلؤا (بما كسبت أيدى الناس) بسبب شؤم ذنوبهم وقال ابن عباس الفساد فى البر قتل أحد بنى آدم أخاه وفى البحر غصب الملك الجائر السفينة قيل كانت الارض خضرة مونقة لا يأتى ابن آدم شجرة الا وجد عليها ثمرة وكان ماء البحر عذبا وكان لا يقصد البقر الغنم فلما قتل قابيل هابيل اقشعرت الارض وشاكت الاشجار وصار ماء البحر ملحا زعاقا وقصد الحيوان بعضها بعضا وقيل ان الارض امتلأت ظلما وضلالة قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم فلما بعث رجع راجعون من الناس وقيل أراد بالناس كفار مكة (ليذيقهم بعض الذى عملوا) أى عقوبة الذى عملوا من الذنوب (لعلهم يرجعون) أى عن الكفر وأعمالهم الخبيثة (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) أى لتروا منازلهم ومساكنهم خاوية (كان أكثرهم مشركين) أى فاهلكوا بكفرهم قوله عز وجل (فأقم وجهك للدين القيم) أى لدين الاسلام (من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله) يعنى يوم القيامة لا يقدر أحد على رده من الخلق (يومئذ يصدعون) أى يتفرقون ثم ذكر الفريقين فقال تعالى (من كفر فعليه كفره) أى وبال كفره (ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون) أى يوطئون المضاجع ويسوونها فى القبور (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) قال ابن عباس ليثيبهم الله ثوابا أكثر من أعمالهم (انه لا يحب الكافرين) فيه تهديد ووعيد لهم قوله تعالى (ومن آياته ان يرسل الرياح مبشرات) أى تبشر بالمطر (وليذيقكم من رحمته) أى بالمطر وهو الخصب (ولتجرى الفلك) أى بهذه الرياح (بأمره ولتبتغوا من فضله) معناه لتطلبوا رزقه بالتجارة فى البحر (ولعلكم تشكرون) أى هذه النعم قوله تعالى (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات) أى بالدلالات الواضحات على صدقهم (فانتقمنا من الذين أجرموا) يعنى انا عذبنا الذين كذبوهم (وكان حقا علينا نصر المؤمنين)

وكان الانتقام منهم حقا ثم تبتدئ علينا نصر المؤمنين والأول أصح (الله الذي يرسل الرياح) الريح مكي (فتثير سحابا فيبسطه) أي السحاب (في السماء) أي في سمت السماء وشقها كقوله وفرعها في السماء (كيف يشاء) من ناحية الشمال أو الجنوب أو الدبور أو الصبا (ويجعله كسفا) قطعا جمع كسفة أي يجعله منبسطا يأخذ وجه السماء مرة ويجعله قطعا متفرقة غير منبسطة مرة كسفا يزيد وابن ذكوان (فترى الودق) المطر (يخرج) في التارتين جميعا (من خلاله) وسطه (فإذا أصاب به) بالودق (من يشاء من عباده) يريد إصابة بلادهم وأراضيهم (إذا هم يستبشرون) يفرحون (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم) المطر (من قبله) كرر للتأكيد كقوله فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها ومعنى التوكيد فيها الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول فاستحكم يأسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك (لمبلسين) آيسين (فانظر إلى آثار) شامي وكوفي غير أبي بكر وغيرهم أثر (رحمة الله) أي المطر (كيف يحيي الأرض) بالنبات وأنواع الثمار (بعد موتها إن ذلك) أي الله (لمحيي الموتى) يعني أن ذلك القادر الذي يحيي الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم فهذا استدلال بإحياء الموات على إحياء الأموات (وهو على كل شيء قدير) ٤١١ أي وهو على كل شيء من المقدورات قادر وهذا

من جملة المقدورات بدليل الإنشاء (ولئن أرسلنا ريحا) أي الدبور (فرأوه) أي أثر رحمة الله لأن رحمة الله هي الغيث وأثرها النبات ومن قرأ بالجمع رجع الضمير إلى معناه لأن معنى آثار الرحمة النبات واسم النبات يقع على القليل والكثير لأنه مصدر سمي به ما ينبت (مصفرا) بعد اخضراره وقال مصفرا لأن تلك صفرة حادثة وقيل فرأوا السحاب مصفرا لأن السحاب الأصفر لا يمطر واللام في لئن موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط وسد مسد جوابي القسم والشرط (لظلوا) ومعناه ليظلن (من بعده يكفرون) أي من بعد اصفراره أو من بعد الاستبشار ذمهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم المطر قنطوا من رحمته وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلسين فإذا أصابهم برحمته ورزقهم المطر استبشروا فإذا أرسل ريحا فضرب زروعهم بالصفار ضجوا وكفروا بنعمة الله فهم في جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة وكان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله فقنطوا وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها ففرحوا وأن يصبروا على بلائه فكفروا (فإنك لا تسمع الموتى) أي موتى القلوب أو هؤلاء في حكم الموتى فلا تطمع أن يقبلوا منك (ولا تسمع الصم الدعاء) ولا يسمع الصم مكي

(إذا ولوا مدبرين) فإن قلت الأصم لا يسمع مقبلا أو مدبرا فما فائدة هذا التخصيص قلت هو إذا كان مقبلا يفهم بالرمز والإشارة فإذا ولى لا يسمع ولا يفهم بالإشارة (وما أنت بهادي العمي) أي عمي القلوب وما أنت تهدي العمي حمزة (عن ضلالتهم) أي لا يمكنك أن تهدي الأعمى إلى طريق قد ضل عنه بإشارة منك له إليه (إن تسمع) ما تسمع (إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) منقادون لأوامر الله تعالى (الله الذي خلقكم من ضعف) من النطف كقوله من ماء مهين (ثم جعل من بعد ضعف قوة) يعني حال الشباب وبلوغ الأشد (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) يعني حال الشيخوخة والهرم (يخلق ما يشاء) من ضعف وقوة وشباب وشيبة (وهو العليم) بأحوالهم (القدير) على تغييرهم وهذا الترديد في الأحوال أبين دليل على الصانع العليم القدير فتح الضاد في الكل عاصم وحمزة وضم غيرهما وهو اختيار حفص وهما لغتان والضم أقوى في القراءة لما روي عن ابن عمر قال قرأتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ضعف فأقرأني من ضعف (ويوم تقوم الساعة) أي القيامة سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا ولأنها تقع بغتة كما تقول في ساعة لمن تستعجله وجرت علما لها كالنجم للثريا (يقسم المجرمون) يحلف الكافرون ولا وقف عليه لأن (ما لبثوا) في القبور أو في الدنيا (غير ساعة) جواب القسم استقلوا مدة لبثهم في القبور أو في الدنيا لهول يوم القيامة وطول مقامهم في شدائدها أو ينسون أو يكذبون (كذلك

أي مع إنجائهم من العذاب ففيه تبشير للنبي صلى الله عليه وسلم بالظفر في العاقبة والنصر على الأعداء عن أبي الدرداء قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ما من مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا هذه الآية وكان حقا علينا نصر المؤمنين أخرجه الترمذي ولفظه من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة وقال حديث حسن قوله عز وجل (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا) أي تنشره (فيبسطه في السماء كيف يشاء) يعني مسيرة يوم أو يومين أو أكثر على ما يشاء (ويجعله كسفا) أي قطعا متفرقة (فترى الودق) أي المطر (يخرج من خلاله) أي من وسطه (فإذا أصاب به) أي بالودق (من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون) أي يفرحون بالمطر (وإن كانوا) أي وقد كانوا (من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) أي آيسين (فانظر إلى آثار رحمة الله) أي المطر والمعنى انظر إلى حسن تأثيره في الأرض وهو قوله تعالى (كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى) يعني أن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى (وهو على كل شيء قدير ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا) أي الزرع بعد الخضرة (لظلوا من بعده) أي من بعد اصفرار الزرع (يكفرون) أي يجحدون ما سلف من النعمة والمعنى أنهم يفرحون عند الخصب ولو أرسلت عذابا على زرعهم لجحدوا سالف نعمتي (فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) تقدم تفسيره قوله تعالى (الله الذي خلقكم من ضعف) أي بدأكم وأنشأكم على ضعف وقيل من ماء ذي ضعف وقيل هو إشارة إلى أحوال الإنسان كان جنينا ثم طفلا مولودا ومفطوما فهذه أحوال غاية الضعف (ثم جعل من بعد ضعف قوة) أي من بعد ضعف الصغر شبابا وهو وقت القوة (ثم جعل من بعد قوة ضعفا) أي هرما (وشيبة) وهو تمام النقصان (يخلق ما يشاء) أي من الضعف والقوة والشباب والشيبة وليس ذلك من أفعال الطبيعة بل بمشيئة الله وقدرته (وهو العليم) بتدبير خلقه (القدير) على ما يشاء قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون) أي يحلف المشركون (ما لبثوا) أي في الدنيا (غير ساعة) معناه أنهم استقلوا أجل الدنيا لما عاينوا الآخرة وقيل معناه ما لبثوا في قبورهم غير ساعة (كذلك

كانوا يؤفكون) اى مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الصدق الى الكذب فى الدنيا ويقولون ما هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين (وقال الذين أوتوا العلم والايمان) هم الانبياء والملائكة والمؤمنون (لقد لبثتم فى كتاب الله) فى علم الله المثبت فى اللوح او فى حكم الله وقضائه (الى يوم البعث) ردوا ما قالوه وحلفوا عليه واطلعوهم على الحقيقة ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على انكار البعث بقولهم (فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم) فى الدنيا (لا تعلمون) انه حق لتفريطكم فى طلب الحق واتباعه والفاء لجواب شرط يدل عليه الكلام تقديره ان كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث الذى أنكرتموه (فيومئذ لا ينفع) بالياء كوفى (الذين ظلموا) كفروا (معذرتهم) عذرهم (ولا هم يستعتبون) اى لا يقال لهم ارضوا ربكم بتوبة من قولك استعتبنى فلان فأعتبته اى استرضانى فأرضيته (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان انتم الا مبطلون) اى ولقد وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل فى غرابتها وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم ولكنهم لقسوة قلوبهم اذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا جئتنا بزور وباطل (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) اى مثل ذلك الطبع وهو الختم يطبع الله على قلوب الجهلة الذين علم الله منهم اختيار الضلال حتى يسموا المحقين مبطلين وهم اعرق خلق الله فى تلك الصفة (فاصبر) على أذاهم وعداوتهم (ان وعد الله) بنصرتك على اعدائك واظهار دين الاسلام على كل دين (حق) لا بد من انجازه والوفاء به (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) اى لا يحملنك هؤلاء الذين لا يوقنون بالآخرة على الخفة والعجلة فى الدعاء عليهم بالعذاب او لا يحملنك على الخفة والقلق جزعا مما يقولون ويفعلون فانهم ضلال شاكون لا يستبدع منهم ذلك ولا يستخفنك بسكون النون عن يعقوب والله الموفق للصواب

سورة لقمان مكية وهى ثلاث أو أربع وثلاثون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم تلك آيات الكتاب الحكيم) ذى الحكمة او وصف بصفة الله عز وجل على الاسناد المجازى (هدى ورحمة) حالان من الآيات والعامل معنى الاشارة فى تلك حمزة بالرفع على ان تلك مبتدأ وآيات الكتاب خبره وهدى خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف اى هو او هى هدى ورحمة (للمحسنين) للذين يعملون الحسنات المذكورة فى قوله (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) ونظيره قول أوس الالمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا أو للذين يعملون جميع ما يحسن ثم خص منهم القائمين بهذه الثلاثة لفضلها (أولئك على هدى) مبتدأ وخبر (من ربهم) صفة لهدى (وأولئك هم المفلحون) عطف عليه (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) نزلت فى النضر بن الحارث وكان يشترى اخبار الاكاسرة من فارس ويقول ان محمدا يقص طرفا من قصة عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث الاكاسرة فيميلون الى حديثه ويتركون استماع القرآن واللهو كل باطل الهى عن الخير وعما يعنى ولهو الحديث نحو السمر بالاساطير التى لا اصل لها والغناء وكان ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما يحلفان انه الغناء وقيل الغناء مفسدة للقلب منفدة للمال مسخطة للرب وعن النبى صلى الله عليه وسلم ما من رجل يرفع صوته بالغناء الا بعث الله عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بارجلهما حتى يكون هو الذى يسكت والاشتراء من الشراء كما روى عن النضر أو من قوله اشتروا الكفر بالايمان اى استبدلوه منه واختاروه عليه أى يختارون حديث الباطل على حديث الحق واضافة اللهو الى الحديث للتبيين بمعنى من لان اللهو يكون من الحديث ومن غيره فبين بالحديث والمراد بالحديث الحديث المنكر

كانوا يؤفكون) أى يصرفون عن الحق فى الدنيا وذلك انهم كذبوا فى قولهم ما لبثوا غير ساعة كما كذبوا فى الدنيا ان لا يبعثوا والمعنى ان الله أراد ان يفضحهم فحلفوا على شئ تبين لاهل الجمع انهم كاذبون فيه وكان ذلك بقضاء الله وقدره ثم ذكر انكار المؤمنين عليهم كذبهم فقال تعالى (وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث) أى فيما كتب الله لكم فى سابق علمه من اللبث فى القبور وقيل معنى الآية وقال الذين أوتوا العلم فى كتاب الله والايمان يعنى الذين يقرؤن كتاب الله قالوا للمنكرين قد لبثتم الى يوم البعث أى فى قبوركم (فهذا يوم البعث) أى الذى كنتم تنكرونه فى الدنيا (ولكنكم كنتم لا تعلمون) أى وقوعه فى الدنيا فلا ينفعكم العلم به الآن بدليل قوله تعالى (فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون) أى لا تطلب منهم العتبى والرجوع فى الآخرة وقيل لا تطلب منهم التوبة التى تزيل الجريمة لانها لا تقبل منهم قوله تعالى (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) فيه اشارة الى ازالة الاعذار والاتيان بما فوق الكفاية من الانذار (ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان أنتم الا مبطلون) يعنى ما أنتم الا على باطل وذلك على سبيل العناد فان قلت ما معنى توحيد الخطاب فى قوله ولئن جئتهم والجمع فى قوله ان أنتم الا مبطلون قلت فيه لطيفة وهى ان الله تعالى قال ولئن جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل ويمكن ان يقال معناه انكم كلكم أيها الرسل مبطلون (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) أى توحيد الله (فاصبر ان وعد الله حق) أى فى نصرك واظهارك على عدوك (ولا يستخفنك) أى لا يحملنك على الجهل وقيل لا يستخفن رأيك (الذين لا يوقنون) أى بالبعث والحساب والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده

تفسير سورة لقمان وهى مكية

وأربع وثلاثون آية وخمسمائة وثمان وأربعون كلمة وألفان ومائة وعشرة أحرف

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (ألم تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين) اى الذين يعملون الحسنات ثم ذكرهم فقال (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) قوله تعالى (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) الآية قيل نزلت

كما جاء في الحديث الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش او للتبعيض كانه قيل ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذي هو اللهو منه (ليضل) اي ليصد الناس عن الدخول في الاسلام واستماع القرآن ليضل مكي وأبو عمرو اي ليثبت على ضلاله الذي كان عليه ويزيد فيه (عن سبيل الله) عن دين الاسلام والقرآن (بغير علم) اي جهلا منه بما عليه من الوزر به (ويتخذها) اي السبيل بالنصب كوفي غير أبي بكر عطفا على ليضل ومن رفع عطفه على يشتري (هزوا) بسكون الزاي والهمزة حمزة وبضم الزاي بلا همز حفص وغيرهم

بضم الزاي والهمزة (أولئك لهم عذاب مهين) أي يهينهم ومن لابهامه يقع على الواحد والجمع أي النضر وامثاله (واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا) اعرض عن تدبرها متكبرا رافعا نفسه عن الاصغاء الى القرآن (كأن لم يسمعها) يشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها وهو حال من مستكبرا والاصل كانه والضمير ضمير الشأن (كأن في أذنيه وقرا) ثقلا وهو حال من لم يسمعها اذنيه نافع (فبشره بعذاب أليم ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم) ولا وقف عليه لان (خالدين فيها) حال من الضمير في لهم (وعد الله حقا) مصدران مؤكدان الاول مؤكد لنفسه والثاني مؤكد لغيره اذ لهم جنات النعيم في معنى وعدهم الله جنات النعيم فأكد معنى الوعد وحقا يدل على معنى الثبات فأكد به معنى الوعد ومؤكدهما لهم جنات النعيم (وهو العزيز) الذي لا يغلبه شئ فيهين اعداءه بالعذاب المهين (الحكيم) بما يفعل فيثيب أولياءه بالنعيم المقيم (خلق السموات بغير عمد) جمع عماد (ترونها) الضمير للسموات وهو استشهاد برؤيتهم لها غير معمودة على قوله بغير عمد كما تقول لصاحبك انا بلا سيف ولا رمح تراني ولا محل لها من الاعراب لانها مستأنفة أو في محل الجر صفة لعمد أي بغير عمد مرئية يعني انه عمدها بعمد لا ترى وهي امساكها بقدرته (وألقى في الأرض رواسي) جبالا ثوابت (أن تميد بكم) لئلا تضطرب بكم (وبث) ونشر (فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج) صنف (كريم) حسن (هذا) اشارة الى ما ذكر من مخلوقاته (خلق الله) اي مخلوقه (فأروني ماذا خلق الذين من دونه) يعني آلهتكم بكتهم بأن هذه الاشياء العظيمة مما خلقه الله فأروني

ماخلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة (بل الظالمون في ضلال مبين) اضرب عن تبكيتهم الى التسجيل عليهم بالتورط في ضلال ليس بعده ضلال (ولقد آتينا لقمان الحكمة) وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب أو ابن خالته وقيل كان من أولاد آزر وعاش ألف سنة وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم وكان يفتي قبل مبعث داود عليه السلام فلما بعث قطع الفتوى فقيل له فقال ألا أكتفي اذا كفيت وقيل كان خياطا وقيل نجارا وقيل راعيا وقيل كان قاضيا في بني اسرائيل وقال عكرمة والشعبي كان نبيا والجمهور على انه كان حكيما ولم يكن نبيا وقيل خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة وهي الاصابة في القول والعمل وقيل تتلمذ لألف نبي وتتلمذ له ألف

في النضر بن الحارث بن كلدة وكان يتجر فيأتي الحيرة ويشتري أخبار العجم ويحدث بها قريشا ويقول ان محمدا يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الاكاسرة فيستمعون حديثه ويتركون استماع القرآن فأنزل الله هذه الآية وقيل هو شراء القينات والمغنين ومعنى الآية ومن الناس من يشتري ذات لهو أو ذا لهو الحديث وروى البغوي باسناد الثعلبي عن أبي امامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن وأثمانهن حرام وفي مثل هذا نزلت هذه الآية ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله وما من رجل يرفع صوته بالغناء الا بعث الله له شيطانين أحدهما على هذا المنكب والآخر على هذا المنكب فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت أخرجه الترمذي ولفظه عن أبي امامة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا تبيعوا القينات المغنيات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام وفي مثل هذا نزلت ومن الناس من يشتري لهو الحديث الآية وعن أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ثمن الكلب وكسب الزمارة وقال مكحول من اشترى جارية ضرابة ليمسكها لغنائها وضربها مقيما عليه حتى يموت لم أصل عليه ان الله تعالى يقول ومن الناس من يشتري لهو الحديث الآية وعن ابن مسعود وابن عباس والحسن وعكرمة وسعيد بن جبير قالوا لهو الحديث هو الغناء والآية نزلت فيه ومعنى يشتري يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن وقال أبو الصهباء سألت ابن مسعود عن هذه الآية فقال هو الغناء والله الذي لا اله الا هو يرددها ثلاث مرات وقال ابراهيم النخعي الغناء ينبت النفاق وقيل هو كل لهو ولعب وقيل هو الشرك (ليضل عن سبيل الله) أي عن دين الاسلام وسماع القرآن (بغير علم) أي يفعله عن جهل وحسب المراد من الضلالة ان يختار حديث الباطل على حديث الحق (ويتخذها هزوا) أي يتخذ آيات الله مزحا (أولئك) يعني الذين هذه صفتهم (لهم عذاب مهين واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا) أي لا يعبأ بها ولا يرفع لها رأسا (كأن لم يسمعها) أي يشبه حاله في ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع (كأن في أذنيه وقرا) أي ثقلا ولا وقر فيهما (فبشره بعذاب أليم ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقا) يعني وعدهم الله ذلك وعدا حقا وهو لا يخلف الميعاد (وهو العزيز الحكيم) قوله تعالى (خلق السموات بغير عمد) قيل ان السماء خلقت مبسوطة كصفحة مستوية وهو قول المفسرين وهي في الفضاء والفضاء لا نهاية له وكون السماء في بعضه دون بعض ليس ذلك الا بقدرة قادر مختار واليه الاشارة بقوله بغير عمد (ترونها) أي ليس لها شئ يمنعها الزوال من موضعها وهي ثابتة لا تزول وليس ذلك الا بقدرة الله تعالى وفي قوله ترونها وجهان أحدهما انه راجع الى السموات أي ليست هي بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد الوجه الثاني انه راجع الى العمد ومعناه بغير عمد مرئية (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم) أي لئلا تتحرك بكم (وبث فيها) أي في الأرض (من كل دابة) أي يسكنون فيها (وأنزلنا من السماء ماء) يعني المطر وهو من انعام الله على عباده وفضله (فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) أي من كل صنف حسن (هذا) يعني الذي ذكرت مما تعاينون (خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) أي آلهتكم التي تعبدونها (بل الظالمون في ضلال مبين) قوله عز وجل (ولقد آتينا لقمان الحكمة) قيل هو

لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح وهو آزر وقيل كان ابن أخت أيوب وقيل كان ابن خالته وقيل انه عاش ألف سنة حتى ادرك داود وقيل انه كان قاضيا في بني اسرائيل واتفق العلماء على انه كان حكيما ولم يكن نبيا الا عكرمة فانه قال كان نبيا وقيل خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة وروى انه كان نائما نصف الليل فنودي يا لقمان هل لك ان يجعلك خليفة في الارض فتحكم بين الناس فأجاب الصوت فقال ان خيرني ربي قبلت العافية ولم أقبل البلاء وان عزم علي فسمعا وطاعة واني أعلم ان الله ان فعل بي ذلك أعانني وعصمني فقالت الملائكة بصوت لا يراهم لم يا لقمان قال ان الحاكم باشد المنازل واكدرها يغشاه الظلم من كل مكان ان عدل فبالحرى ان ينجو وان أخطأ الطريق اخطأ طريق الجنة ومن يكن في الدنيا ذليلا خير من ان يكون شريفا ومن يختر الدنيا على الآخرة تفتنه الدنيا ولم يصب الآخرة فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فأعطي الحكمة فانتبه وهو يتكلم بها ثم نودي داود بعده فقبلها ولم يشترط ما اشترط لقمان فهوى في الخطيئة غير مرة كل ذلك يعفو الله عنه وكان لقمان يوازر داود لحكمته وقيل كان لقمان عبدا حبشيا نجارا وقيل كان خياطا وقيل كان راعي غنم فروي انه لقيه رجل وهو يتكلم بالحكمة فقال الست فلانا الراعي قال بلى قال فبم بلغت ما بلغت قال بصدق الحديث واداء الامانة وترك ما لا يعنيني وقيل كان عبدا اسود عظيم الشفتين مشقق القدمين وقيل خير السودان بلال بن رباح ومهجع مولى عمر ولقمان والنجاشي رابعهم أوتي الحكمة والعقل والفهم وقيل العلم والعمل به ولا يسمى الرجل حكيما حتى يجمعهما وقيل الحكمة المعرفة والاصابة في الامور وقيل الحكمة شيء يجعله الله في القلب ينوره كما ينور البصر فيدرك المبصر وقوله (ان اشكر لله) وذلك لان المراد من العلم العمل به والشكر عليه (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه) أي عليه يعود نفع ذلك وكذلك كفرانه (ومن كفر) عليه يعود وبال كفره (فان الله غني) أي غير محتاج الى شكر الشاكرين (حميد) أي هو حقيق بان يحمد وان لم يحمده أحد قوله تعالى (واذ قال لقمان لابنه) قيل اسمه أنعم وقيل أشكم (وهو يعظه) وذلك لان أعلى مراتب الانسان ان يكون كاملا في نفسه مكملا لغيره فقوله ولقد آتينا لقمان الحكمة ان اشكر لله اشارة الى الكمال وقوله اذ قال لقمان لابنه وهو يعظه اشارة الى التكميل لغيره وبدأ بالاقرب اليه وهو ابنه وبدأ في وعظه بالاهم وهو المنع من الشرك وهو قوله (يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم) لان التسوية بين من يستحق العبادة وبين من لا يستحقها ظلم عظيم لانه وضع العبادة في غير موضعها قوله عز وجل (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن) قال ابن عباس شدة بعد شدة وقيل ان المرأة اذا حملت توالى عليها الضعف والتعب والمشقة وذلك لان الحمل ضعف والطلق ضعف والوضع ضعف والرضاعة ضعف (وفصاله في عامين) أي فطامه في سنتين (ان اشكر لي ولوالديك الى المصير) لما جعل الله بفضله للوالدين صورة التربية الظاهرة وهو الموجد والمربي في الحقيقة جعل الشكر بينهما فقال اشكر لي ولوالديك ثم فرق فقال الى المصير يعني ان نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتي عليك في الدنيا والآخرة وقيل لما أمر بشكره وشكر الوالدين قال الجزاء على وقت المصير الي قال سفيان بن عيينة في هذه الآية من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله ومن دعا للوالدين في أدبار الصلوات الخمس فقد شكر الوالدين (وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) قال النخعي يعني ان طاعتهما واجبة فان أفضى ذلك الى الاشراك بي فلا تطعهما في ذلك لانه لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق (وصاحبهما في الدنيا معروفا) أي بالمعروف وهو البر والصلة والعشرة الجميلة (واتبع سبيل من أناب الي) أي اتبع دين من أقبل الى طاعتي وهو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقيل من أناب الي يعني أبا بكر الصديق قال ابن عباس وذلك انه حين أسلم أتاه عثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن ابن عوف وقالوا له قد صدقت هذا الرجل وآمنت به قال نعم انه صادق فآمنوا به ثم حملهم الى النبي

صلى

تي وأن في (أن اشكر لله) مفسرة والمعنى أي اشكر لله لان ايتاء الحكمة في معنى القول وقد نبه الله تعالى على ان الحكمة الاصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما وعبادة الله والشكر له حيث فسر ايتاء الحكمة بالحث على الشكر وقيل لا يكون الرجل حكيما حتى يكون حكيما في قوله وفعله ومعاشرته وصحبته وقال السري السقطي الشكر أن لا تعصي الله بنعمه وقال الجنيد أن لا ترى معه شريكا في نعمه وقيل هو الاقرار بالعجز عن الشكر والحاصل ان شكر القلب المعرفة وشكر اللسان الحمد وشكر الاركان الطاعة ورؤية العجز في الكل دليل قبول الكل (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه) لان منفعته تعود اليه فهو يريد المزيد (ومن كفر) النعمة (فان الله غني) غير محتاج الى الشكر (حميد) حقيق بأن يحمد وان لم يحمده أحد (واذ) أي واذكر اذ (قال لقمان لابنه) أنعم أو اشكم (وهو يعظه يا بني) بالاسكان مكي يا بني حفص بفتحه في كل القرآن (لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم) لانه تسوية بين من لا نعمة الا وهي منه ومن لا نعمة له أصلا (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن) أي حملته تهن وهنا على وهن أي تضعف ضعفا فوق ضعف أي يتزايد ضعفها ويتضاعف لان الحمل كلما ازداد أو عظم ازدادت ثقلا وضعفا (وفصاله في عامين) أي فطامه عن الرضاع لتمام عامين (أن اشكر لي ولوالديك) هو تفسير لوصينا أي وصيناه بشكرنا وبشكر والديه وقوله حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين اعتراض بين المفسر والمفسر لانه لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الام وتعانيه من المشاق في حمله وفصاله هذه المدة الطويلة تذكيرا بحقها العظيم مفردا وعن ابن عيينة من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله ومن دعا للوالدين في ادبار الصلوات الخمس فقد شكرهما (الي المصير) أي مصيرك الي وحسابك علي (وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم) أراد بنفي العلم به نفيه أي لا تشرك بي ما ليس بشيء يريد الاصنام (فلا تطعهما) في الشرك (وصاحبهما في الدنيا معروفا) صفة مصدر محذوف أي صحابا معروفا حسنا بخلق جميل وحلم واحتمال وبر وصلة (واتبع سبيل من أناب الي) أي سبيل

المؤمنين فى دينك ولا تتبع سبيلهما فيه وان كنت مأمورا بحسن مصاحبتهما فى الدنيا وقال ابن عطاء صاحب من ترى عليه أنوار خدمتى (ثم الى مرجعكم) أى مرجعك ومرجعهما (فأنبئكم بما كنتم تعملون) فأجازيك على ايمانك وأجازيهما على كفرهما وقد اعترض بهاتين الآيتين على سبيل الاستطراد تأكيدا لما فى وصية لقمان من النهى عن الشرك يعنى انا وصيناه بوالديه وأمرناه أن لا يطيعهما فى الشرك وان جهدا كل الجهد لقبحه (يا بنى انها ان تك مثقال حبة من خردل) بالرفع مدنى والضمير للقصة وأنث المثقال لاضافته الى الحبة كما قال كما شرقت صدر القناة من الدم وكان تامة والباقون بالنصب والضمير للهيئة من الاساءة والاحسان أى ان كانت مثلا فى الصغر كحبة خردل (فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الارض) أى فكانت مع صغرها فى أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة أو حيث كانت فى العالم العلوى أو السفلى والاكثر

على أنها التى عليها الارض وهى السجين يكتب فيها أعمال الفجار وليست من الارض (يأت بها الله) يوم القيامة فيحاسب بها عاملها (ان الله لطيف) يتوصل علمه الى كل خفى (خبير) عالم بكنهه أو لطيف باستخراجها خبير بمستقرها (يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك) فى ذات الله تعالى اذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر او على ما أصابك من المحن فانها تورث المنح (ان ذلك) الذى وصيتك به (من عزم الامور) اى مما عزمه الله من الامور أى قطعه قطع ايجاب والزام أى أمر به أمرا حتما وهو من تسمية المفعول بالمصدر وأصله من معزومات الامور أى من مقطوعاتها ومفروضاتها وهذا دليل على ان هذه الطاعات كانت مأمورا بها فى سائر الامم (ولا تصعر خدك للناس) أى ولا تعرض عنهم تكبرا تصاعر أبو عمرو ونافع وحمزة وعلى وهو بمعنى تصعر والصعر داء يصيب البعير يلوى منه عنقه والمعنى أقبل على الناس بوجهك تواضعا ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعله المتكبرون (ولا تمش فى الارض مرحا) أى تمرح مرحا أو أوقع المصدر موقع الحال أى مرحا أو لا تمش لاجل المرح والاشر (ان الله لا يحب كل مختال) متكبر (فخور) من يعدد مناقبه تطاولا (واقصد) القصد التوسط بين العلو والتقصير (فى مشيك) أى اعدل فيه حتى يكون مشيا بين مشيين لا تدب دبيب المتماوتين ولا تثب وثوب الشطار قال عليه السلام سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن وأما قول عائشة فى عمر رضى الله عنه كان اذا مشى أسرع فانما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب المتماوت وعن ابن مسعود رضى الله عنه كانوا ينهون عن خبب اليهود ودبيب النصارى ولكن مشيا بين ذلك وقيل معناه وانظر موضع قدميك متواضعا (واغضض من صوتك) وانقص منه أى اخفض صوتك (ان أنكر الاصوات) أى أوحشها (لصوت الحمير) لان أوله زفير وآخره شهيق كصوت أهل النار وعن الثورى صياح كل شئ تسبيح الا الحمار فانه يصيح لرؤية الشيطان ولذلك سماه الله منكرا وفى تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق تنبيه على ان رفع الصوت فى غاية الكراهة يؤيده ما روى انه عليه السلام كان يعجبه أن يكون الرجل خفيض الصوت ويكره أن يكون مجهور الصوت وانما وحد صوت الحمير ولم يجمع لانه لم يرد أن يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع بل المراد ان كل جنس من الحيوان له صوت وأنكر أصوات هذه الاجناس صوت هذا الجنس فوجب توحيده (ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات) يعنى الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك (وما فى الارض) يعنى البحار والانهار والمعادن والدواب وغير ذلك

صلى الله عليه وسلم حتى أسلموا فهؤلاء لهم سابقة الاسلام أسلموا بارشاد أبى بكر (ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون يا بنى انها ان تك مثقال حبة من خردل) وذلك ان ابن لقمان قال لابيه يا أبت ان عملت الخطيئة حيث لا يرانى أحد كيف يعلمها الله قال يا بنى انها أى الخطيئة ان تك مثقال حبة من خردل أى فى الصغر (فتكن) أى مع صغرها (فى صخرة) قال ابن عباس صخرة تحت الارضين السبع وهى التى يكتب فيها أعمال الفجار وخضرة السماء منها وقيل خلق الله الارض على حوت وهو النون والحوت فى الماء والماء على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك وقيل على ظهر ثور وهو على صخرة وهى التى ذكر لقمان ليست فى الارض ولا فى السماء فلذلك قال (أو فى السموات أو فى الارض) والصخرة على متن الريح والريح على القدرة (يأت بها الله) معناه الله عالم بها قادر على استخراجها وهو قوله (ان الله لطيف) أى باستخراجها (خبير) أى بمكانها ومعنى الآية له الاحاطة بالاشياء صغيرها وكبيرها قيل ان هذه الكلمة آخر كلمة قالها لقمان فانشقت مرارته من هيبتها وعظمتها فمات (يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك) من الاذى (ان ذلك من عزم الامور) يعنى اقامة الصلاة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على الاذى من الامور الواجبة التى أمر الله بها (ولا تصاعر) وقرئ تصعر (خدك للناس) قال ابن عباس لا تتكبر فتحقر الناس وتعرض عنهم بوجهك اذا كلموك وقيل هو الرجل يكون بينك وبينه محنة فيلقاك فتعرض عنه وقيل هو الذى اذا سلم عليه لوى عنقه تكبرا وقيل معناه لا تحتقر الفقراء وليكن الفقير والغنى عندك سواء (ولا تمش فى الارض مرحا) أى خيلاء (ان الله لا يحب كل مختال) فى مشيه (فخور) أى على الناس (واقصد فى مشيك) أى ليكن فى مشيتك قصد بين الاسراع والتأنى اما الاسراع فهو من الخيلاء وأما التأنى فهو ان يرى فى نفسه الضعف تزهدا وكلا الطرفين مذموم بل ليكن مشيك بين السكينة والوقار (واغضض) أى اخفض وقيل انقص (من صوتك ان أنكر) أى اقبح (الاصوات لصوت الحمير) لان أوله زفير وآخره شهيق وهما صوت أهل النار وعن الثورى فى هذه الآية قال صياح كل شئ تسبيح الا الحمار وقيل معنى الآية هو العطسة القبيحة المنكرة قال وهب تكلم لقمان باثنى عشر ألف باب من الحكمة أدخلها الناس فى كلامهم وقضاياهم ومن حكمته قيل انه كان عبدا حبشيا فدفع اليه مولاه شاة وقال له اذبحها وائتنى بأطيب مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب ثم دفع اليه أخرى وقال له اذبحها وائتنى بأخبث مضغتين منها فأتاه باللسان والقلب فسأله مولاه فقال ليس شئ أطيب منهما اذا طابا ولا أخبث منهما اذا خبثا وقال لقمان ليس مال كصحة ولا نعيم كطيب نفس وقيل للقمان اى الناس شر قال الذى لا يبالى ان يراه الناس مسيئا قوله عز وجل (ألم تروا ان الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض

(وأسبغ) وأتم (عليكم نعمه) مدنى وأبو عمرو وسهل وحفص نعمته غيرهم والنعمة كل نفع قصد به الاحسان (ظاهرة) بالمشاهدة (وباطنة) مالا يعلم الا بدليل ثم قيل الظاهرة البصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة والباطنة القلب والعقل والفهم وما أشبه ذلك ويروى فى دعاء موسى عليه السلام الهى دلنى على أخفى نعمتك على عبادك فقال أخفى نعمتى عليهم النفس وقيل تخفيف الشرائع وتضعيف الذرائع والخلق والخلق ونيل العطايا وصرف البلايا وقبول الخلق ورضاء الرب وقال ابن عباس الظاهرة ما سوى من خلقك والباطنة ما ستر من عيوبك (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) نزلت فى النضر بن الحارث وقد مر فى الحج (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير) معناه أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم أى فى حال دعاء الشيطان اياهم الى العذاب (ومن يسلم وجهه الى الله) عدى هنا بالى وفى بلى من أسلم وجهه لله باللام فمعناه مع اللام انه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالما لله أى خالصا له ومعناه مع الى انه سلم اليه نفسه كما يسلم المتاع الى الرجل اذا دفع اليه والمراد التوكل عليه والتفويض اليه (وهو محسن) فيما يعمل (فقد استمسك) تمسك وتعلق (بالعروة) هى ما يعلق به الشئ (الوثقى) تأنيث الاوثق مثل حال التوكل بحال من أراد ان يتدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه (والى الله عاقبة الامور) أى هى صائرة اليه فيجازى عليها (ومن كفر) ولم يسلم وجهه لله (فلا يحزنك كفره) من حزن يحزن نافع من أحزن أى لا يهمنك كفر من كفر (الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا) فنعاقبهم على أعمالهم (ان الله عليم بذات الصدور) ان الله يعلم ما فى صدور عباده فيفعل بهم على حسبه (نمتعهم) زمانا (قليلا) بدنياهم (ثم نضطرهم) نلجئهم (الى عذاب غليظ) شديد شبه الزامهم التعذيب وارهاقهم اياه باضطرار المضطر الى الشئ والغلظ مستعار من الاجرام الغليظة والمراد الشدة والثقل على المعذب (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله قل الحمد لله) الزام لهم على اقرارهم بان الذى خلق السموات والارض هو الله وحده وانه يجب ان يكون له الحمد والشكر وان لا يعبد معه غيره ثم قال (بل أكثرهم لا يعلمون) ان ذلك يلزمهم واذا نبهوا عليه لم يتنبهوا (لله ما فى السموات والارض ان الله هو الغنى) عن حمد الحامدين (الحميد) المستحق للحمد وان لم يحمدوه قال المشركون ان هذا أى الوحى كلام سينفد فأعلم الله ان كلامه لا ينفد بقوله (ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) والبحر بالنصب أبو عمرو ويعقوب عطفا على اسم ان وهو ما والرفع على محل ان ومعمولها أى ولو ثبت كون الاشجار أقلاما وثبت البحر ممدودا بسبعة أبحر وعلى الابتداء والواو للحال على معنى ولو ان الاشجار أقلام فى حال كون البحر ممدودا وقرئ يمده وكان مقتضى الكلام ان يقال ولو ان الشجر أقلام والبحر مداد لكن أغنى عن ذكر المداد قوله يمده لانه من قولك مد الدواة وأمدها جعل البحر الاعظم بمنزلة الدواة وجعل الابحر السبعة مملوءة مدادا فهى تصب فيه مدادها أبدا صبا لا ينقطع والمعنى ولو ان أشجار الارض أقلام والبحر ممدود بسبعة أبحر وكتبت بتلك الاقلام وبذلك المداد كلمات الله لما نفدت كلماته ونفدت الاقلام والمداد كقوله قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى فان قلت زعمت ان قوله والبحر يمده حال فى أحد وجهى الرفع وليس فيه ضمير راجع الى ذى

(واسبغ) أى اتم واكمل (عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) قال ابن عباس النعمة الظاهرة الاسلام والقرآن والباطنة ما ستر عليكم من الذنوب ولم يعجل عليكم بالنقمة وقيل الظاهرة تسوية الاعضاء وحسن الصورة والباطنة الاعتقاد بالقلب وقيل الظاهرة الرزق والباطنة حسن الخلق وقيل الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة الشفاعة وقيل الظاهرة ظهور الاسلام والنصر على الاعداء والباطنة الامداد بالملائكة وقيل الظاهرة اتباع الرسول والباطنة محبته (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) نزلت فى النضر بن الحارث وأبى بن خلف وأمية بن خلف واشباههم كانوا يجادلون النبى صلى الله عليه وسلم فى الله وفى صفاته بغير علم (ولا هدى ولا كتاب منير واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) قال الله تعالى (أولو كان الشيطان يدعوهم) معناه افيتبعونهم وان كان الشيطان يدعوهم (الى عذاب السعير) قوله عز وجل (ومن يسلم وجهه الى الله) أى يخلص لله دينه ويفوض اليه امره (وهو محسن) اى فى عمله (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى اعتصم بالعهد الاوثق الذى لا يخاف نقضه ولا يخاف انقطاعه ويرتقى بسببه الى اعلى المراتب والغايات (والى الله عاقبة الامور) أى مصير جميع الاشياء اليه (ومن كفر فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليم بذات الصدور) أى لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم قوله تعالى (نمتعهم قليلا) أى نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا الى انقضاء آجالهم (ثم نضطرهم) أى نلجئهم ونردهم (الى عذاب غليظ) الى النار فى الآخرة (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون لله ما فى السموات والارض ان الله هو الغنى الحميد) تقدم تفسيره قوله تعالى (ولو ان ما فى الارض من شجرة اقلام) قال المفسرون لما نزلت بمكة ويسألونك عن الروح الآية وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة أتاه أحبار اليهود وقالوا يا محمد بلغنا انك تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا أتعنينا أم قومك فقال عليه الصلاة والسلام كلا قد عنيت قالوا ألست تتلو فيما جاءك انا أوتينا التوراة فيها علم كل شئ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هى فى علم الله قليل وقد أتاكم الله بما ان عملتم به انتفعتم قالوا كيف تزعم هذا وانت تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا فكيف يجتمع علم قليل مع خير كثير فأنزل الله هذه الآية فعلى هذا تكون هذه الآية مدنية وقيل ان اليهود امروا وفد قريش ان يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولوا له ذلك وهو بمكة وقيل ان المشركين قالوا ان القرآن وما يأتى به محمد يوشك ان ينفد فينقطع فأنزل الله تعالى ولو ان ما فى الارض من شجرة أقلام أى فبريت اقلاما وقيل بعدد كل شجرة قلم (والبحر يمده) أى يزيده وينصب اليه (من بعده سبعة ابحر) أى مداد والخلائق يكتبون به كلام الله (ما نفدت كلمات الله)

الحال قلت هو كقولك جئت والجيش مصطف وما أشبه ذلك من الاحوال التى حكمها حكم الظروف وانما ذكر شجرة على التوحيد لانه أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة الا وقد بريت اقلاما وأوثر الكلمات وهى جمع قلة على الكلم وهى جمع كثرة لان معناه ان كلماته لا تفى بكتبتها البحار فكيف بكلمه (ان الله عزيز) لا يعجزه شئ (حكيم) لا يخرج من علمه وحكمته شئ فلا تنفد كلماته وحكمه (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) الا كخلق نفس واحدة وبعث نفس واحدة فحذف للعلم به أى سواء فى قدرته القليل والكثير فلا يشغله شأن عن شأن (ان الله سميع) لقول المشركين انه لا بعث (بصير) بأعمالهم فيجازيهم (ألم تر ان الله يولج الليل فى النهار) يدخل ظلمة الليل فى ضوء النهار اذا أقبل الليل (ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر) لمنافع العباد (كل) أى كل واحد من الشمس والقمر (يجرى) فى فلكه ويقطعه (الى أجل مسمى) الى يوم القيامة أو الى وقت معلوم الشمس الى آخر السنة والقمر الى آخر الشهر (وان الله بما تعملون خبير) وبالياء عياش دل أيضا بتعاقب الليل والنهار وزيادتهما ونقصانهما وجرى النيرين فى فلكهما على تقدير وحساب وباحاطته بجميع أعمال الخلق على عظم قدرته وكمال حكمته (ذلك بأن الله هو الحق وان ما يدعون) بالياء عراقى غير أبى بكر (من دونه الباطل وان الله هو العلى الكبير) أى ذلك الوصف الذى وصف به من عجائب قدرته وحكمته التى يعجز عنها الاحياء القادرون العالمون فكيف بالجماد الذى يدعونه من دون الله انما هو بسبب انه هو الحق الثابت الالهية وان من دونه باطل الالهية وانه هو العلى الشأن الكبير السلطان (ألم تر ان الفلك) وقرئ الفلك وكل فعل يجوز فيه فعل كما يجوز فى كل فعل فعل (تجرى فى البحر بنعمة الله) باحسانه ورحمته أو بالريح لان الريح من نعم الله (ليريكم من آياته) عجائب قدرته فى البحر اذا ركبتموها (ان فى ذلك لآيات لكل صبار) على بلائه (شكور) لنعمائه وهما صفتا المؤمن فالايمان نصفان نصفه شكر ونصفه صبر فكانه قال ان فى ذلك لآيات لكل مؤمن (واذا غشيهم) أى الكفار (موج كالظلل) الموج يرتفع فيعود مثل الظلل والظلة كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما (دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد) أى باق على الايمان والاخلاص الذى كان منه ولم يعد الى الكفر أو مقتصد فى الاخلاص الذى كان عليه فى البحر يعنى ان ذلك الاخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لاحد قط والمقتصد قليل نادر (وما يجحد بآياتنا) أى بحقيقتها (الا كل ختار) غدار والختر اقبح الغدر (كفور) لربه (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده) لا يقضى عنه شيئا والمعنى لا يجزى فيه فحذف (ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه لان الجملة الاسمية آكد من الجملة الفعلية وقد انضم الى ذلك قوله هو وقوله مولود والسبب فى ذلك ان الخطاب للمؤمنين وعليتهم قبض آباؤهم على الكفر فاريد حسم اطماعهم ان ينفعوا آباءهم بالشفاعة فى الآخرة ومعنى التأكيد فى لفظ المولود ان الواحد منهم لو شفع للاب الادنى الذى ولد منه لم تقبل شفاعته فضلا ان يشفع لاجداده اذ الولد يقع على الولد وولد الولد بخلاف المولود فانه لمن ولد منك كذا فى الكشاف (ان وعد الله) بالبعث والحساب والجزاء (حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا) بزينتها فان نعمتها دانية ولذتها فانية (ولا يغرنكم بالله الغرور) الشيطان او الدنيا والامل (ان الله عنده علم الساعة) اى وقت قيامها (وينزل) بالتشديد شامى ومدنى وعاصم وهو عطف على ما يقتضيه الظرف

لانها لا نهاية لها (ان الله عزيز حكيم) قوله تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) اى الا كخلق نفس واحدة وبعثها لا يتعذر عليه شئ (ان الله سميع) اى لاقوالكم (بصير) باعمالكم (ألم تر ان الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى الى اجل مسمى وان الله بما تعملون خبير ذلك بأن الله هو الحق) اى ذلك الذى هو قادر على هذه الاشياء التى ذكرت هو الحق المستحق للعبادة (وان ما يدعون من دونه الباطل) اى لا يستحق العبادة (وان الله هو العلى) اى فى صفاته له الصفات العليا والاسماء الحسنى (الكبير) فى ذاته لانه اكبر من كل كبير قوله تعالى (ألم تر ان الفلك) اى السفن والمراكب (تجرى فى البحر بنعمة الله) اى ذلك من نعمة الله عليكم (ليريكم من آياته) اى من عجائب صنائعه (ان فى ذلك لآيات لكل صبار) اى على ما امر الله (شكور) لانعامه (واذا غشيهم موج كالظلل) اى كالجبال وقيل كالسحاب شبه بها الموج فى كثرتها وارتفاعها (دعوا الله مخلصين له الدين) معناه ان الانسان اذا وقع فى شدة ابتهل الى الله بالدعاء وترك كل من عداه ونسى جميع ما سواه فاذا نجا من تلك الشدة فمنهم من يبقى على تلك الحالة وهو المقتصد وهو قوله تعالى (فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد) اى عدل موف فى البر بما عاهد عليه الله فى البحر من التوحيد والثبوت على الايمان وقيل نزلت فى عكرمة بن أبى جهل وذلك انه هرب عام الفتح الى البحر فجاءهم ريح عاصف فقال عكرمة لان نجانا الله من هذا لارجعن الى محمد صلى الله عليه وسلم ولاضعن يده فى يدى فسكنت الريح ورجع عكرمة الى مكة واسلم وحسن اسلامه ومنهم من لم يوف بما عاهد وهو المراد بقوله (وما يجحد بآياتنا الا كل ختار) اى غدار (كفور) اى جحود لانعمنا عليه قوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم) اى خافوا ربكم (واخشوا) أى وخافوا (يوما لا يجزى) أى لا يقضى ولا يغنى (والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) قيل معنى الآية ان الله ذكر شخصين فى غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد فنبه بالاعلى على الادنى وبالادنى على الاعلى فالوالد يجزى عن ولده لكمال شفقته عليه والولد يجزى عن والده لما له من حق التربية وغيرها فاذا كان يوم القيامة فكل انسان يقول نفسى نفسى ولا يهتم بقريب ولا بعيد كما قال ابن عباس كل امرئ تهمه نفسه (ان وعد الله حق) قيل انه تحقيق اليوم معناه اخشوا يوما هذا شأنه وهو كائن لوعد الله به ووعده حق وقيل الآية تحقيق بعدم الجزاء يعنى لا يجزى والد عن ولده فى ذلك اليوم والقول الاول أحسن وأظهر (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) أى لانها فانية (ولا يغرنكم بالله الغرور) يعنى الشيطان قال سعيد ابن جبير يعمل بالمعاصى ويتمنى المغفرة قوله تعالى (ان الله عنده علم الساعة) الآية نزلت فى الحارث بن

من الفعل تقديره ان الله يثبت عنده علم الساعة وينزل (الغيث) فى ابانه من غير تقديم ولا تأخير (ويعلم ما فى الارحام) اذ كرام انثى وتام ام ناقص (وماتدرى نفس) برة أو فاجرة (ماذا تكسب غدا) من خير وشر وربما كانت عازمة على خير فعملت شرا وعازمة على شر فعملت خيرا (وماتدرى نفس بأى أرض تموت) اى أين تموت وربما اقامت بأرض وضربت اوتادها وقالت لا أبرحها فترمى بها مرامى القدر حتى تموت فى مكان لم يخطر ببالها روى ان ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر الى رجل من جلسائه فقال الرجل من هذا قال له ملك الموت قال كانه يريدنى وسأل سليمان عليه السلام ان يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل ثم قال ملك الموت لسليمان كان دوام نظرى اليه تعجبا منه لانى أمرت ان اقبض روحه بالهند وهو عندك وجعل العلم لله والدراية للعبد لما فى الدراية من معنى الختل والحيلة والمعنى انها لا تعرف وان اعملت حيلها ما يختص بها ولا شئ اخص بالانسان من كسبه وعاقبته فاذا لم يكن له طريق الى معرفتهما كان معرفة ما عداهما ابعد واما المنجم الذى يخبر بوقت الغيث والموت فانه يقول بالقياس والنظر فى الطالع وما يدرك بالدليل لا يكون غيبا على انه مجرد الظن والظن غير العلم وعن النبى صلى الله عليه وسلم مفاتح الغيب خمس وتلا هذه الآية وعن ابن عباس رضى الله عنهما من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب ورأى المنصور فى منامه صورة ملك الموت وسأله عن مدة عمره فأشار بأصابعه الخمس فعبرها المعبرون بخمس سنوات وبخمسة أشهر وبخمسة أيام فقال أبو حنيفة رضى الله عنه هو اشارة الى هذه الآية فان هذه العلوم الخمسة لا يعلمها الا الله (ان الله عليم) بالغيوب (خبير) بما كان وبما يكون وعن الزهرى رضى الله تعالى عنه أكثروا قراءة سورة لقمان فان فيها أعاجيب والله أعلم (سورة السجدة مكية وهى ثلاثون آية مدنى وكوفى وتسع وعشرون آية بصرى)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) على انها اسم السورة مبتدأ وخبره (تنزيل الكتاب) وان جعلتها تعديدا للحروف ارتفع تنزيل بأنه خبر مبتدا محذوف او هو مبتدأ خبره (لاريب فيه) او يرتفع بالابتداء وخبره (من رب العالمين) ولاريب فيه اعتراض لا محل له والضمير فى فيه راجع الى مضمون الجملة كانه قيل لاريب فى ذلك أى فى كونه منزلا من رب العالمين لانه معجز للبشر ومثله ابعد شئ من الريب ثم اضرب عن ذلك الى قوله (أم يقولون افتراه) اى اختلقه محمد لان ام هى المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة معناه بل أيقولون افتراه انكارا لقولهم وتعجيبا منهم لظهور أمره فى عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه (بل هو الحق) ثم اضرب عن الانكار الى اثبات انه الحق (من ربك) ولم يفتره محمد صلى الله عليه وسلم كما قالوا تعنتا وجهلا (لتنذر قوما) اى العرب (ما أتاهم من نذير من قبلك) ما للنفى والجملة صفة لقوما (لعلهم يهتدون) على الترجى من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان لعله يتذكر على الترجى من موسى وهارون (الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) استولى عليه باحداثه (مالكم من دونه) من دون الله (من ولى ولا شفيع) أى اذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لانفسكم وليا أى ناصرا ينصركم ولا شفيعا يشفع لكم (أفلا تتذكرون) تتعظون بمواعظ الله (يدبر الامر) أى امر الدنيا (من السماء الى الارض) الى ان تقوم الساعة (ثم يعرج اليه) ذلك الامر كله أى يصير اليه ليحكم فيه (فى يوم كان مقداره

الف

عمرو بن حارثة بن حفصة من أهل البادية أتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله عن الساعة ووقتها وقال ان أرضنا أجدبت فقل لى متى ينزل الغيث وتركت امرأتى حبلى فمتى تلد ولقد علمت أين ولدت فبأى أرض أموت فأنزل الله هذه الآية (ق) عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مفاتيح الغيب خمس ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت ان الله عليم خبير ومعنى الآية ان الله عنده علم الساعة فلا يدرى أحد من الناس متى تقوم الساعة فى أى سنة أو أى شهر أو أى يوم ليلا ونهارا (وينزل الغيث) فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلا أو نهارا الا الله (ويعلم ما فى الارحام) أذكر أم أنثى أحمر أم أسود تام الخلقة أم ناقص (وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا) من خير أو شر (وماتدرى نفس بأى أرض تموت) أى ليس أحد من الناس يعلم أين مضجعه من الارض فى بر أو بحر فى سهل أو جبل (ان الله عليم) أى بهذه الاشياء وبغيرها (خبير) أى ببواطن الاشياء كلها ليس علمه محيطا بالظاهر فقط بل علمه محيط بالظاهر والباطن قال ابن عباس هذه الخمسة لا يعلمها ملك مقرب ولا نبى مصطفى فمن ادعى انه يعلم شيئا من هذه فانه كفر بالقرآن لانه خالفه والله تعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه

تفسير سورة السجدة وهى مكية

قال علماء الا ثلاث آيات من قوله أفمن كان مؤمنا وهى تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية وثلاثمائة وثمانون كلمة وألف وخمسمائة وثمانية عشر حرفا والله تعالى أعلم

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الم تنزيل الكتاب لاريب فيه) أى لاشك فيه انه (من رب العالمين أم يقولون) أى بل يقولون يعنى المشركين (افتراه) يعنى اختلقه محمد صلى الله عليه وسلم من تلقاء نفسه (بل هو الحق) أى القرآن (من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك) يعنى العرب كانوا أمة أمية لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم وقال ابن عباس رضى الله عنهما ذلك فى الفترة التى كانت بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم فان قلت اذا لم يأتهم رسول لم تقم عليهم حجة قلت اما قيام الحجة بالشرائع التى لا يدرك علمها الا من جهة الرسل فلا وأما قيام الحجة بمعرفة الله وتوحيده فنعم لان معهم أدلة العقل الموصلة الى ذلك فى كل زمان (لعلهم يهتدون) يعنى تنذرهم راجيا اهتداءهم (الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون) تقدم تفسيره قوله تعالى (يدبر الامر) أى يحكم الامر وينزل القضاء والقدر وقيل ينزل الوحى مع جبريل عليه السلام (من السماء الى الارض ثم يعرج اليه) أى يصعد اليه جبريل بالامر (فى يوم كان مقداره

ألف سنة مما تعدون) يعني مسافة ما بين السماء والارض خمسمائة سنة فيكون مقدار نزوله الى
الارض ثم صعوده الى السماء في مقدار ألف سنة لو ساره أحد من بني آدم وجبريل ينزل و يصعد في مقدار
يوم من أيام الدنيا واقل من ذلك وكذلك الملائكة كلهم أجمعون وقيل معنى الآية انه يدبر الامر من
السماء الى الارض مدة أيام الدنيا ثم يعرج اليه أي يرجع الامر والتدبير اليه بعد فناء الدنيا وانقطاع
أمر الآمر وحكم الحاكم في يوم كان مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة فان قلت قد قال في موضع آخر تعرج
الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة فكيف الجمع بينهما قلت قيل اراد بقوله
خمسين ألف سنة مدة المسافة بين الارض وسدرة المنتهى التي هي مقام جبريل عليه السلام يقول يسير
جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين الف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا وقيل
كلها في القيامة فيكون على بعضهم مثل الف سنة وعلى بعضهم خمسين ألف سنة وهذا في حال الكفار
واما على المؤمنين فدون ذلك كما جاء في الحديث انه يكون على المؤمن كقدر صلاة مكتوبة صلاها
في الدنيا قال ابراهيم التيمي لا يكون على المؤمنين الا كما يكون ما بين الظهر والعصر وقيل يحتمل ان يكون
هذا اخبارا عن شدته وهوله ومشقته وقال ابن أبي مليكة دخلت أنا وعبد الله بن فيروز مولى عثمان على
ابن عباس فسأله ابن فيروز عن هذه الآية وعن مقدار خمسين الف سنة فقال ابن عباس رضي الله
عنهما أيام سماها الله تعالى لا ادري ما هي وأكره ان اقول في كتاب الله مالا اعلم (ذلك عالم الغيب
والشهادة) يعني الذي صنع ما ذكر من خلق السموات والارض هو عالم الغيب والشهادة أي ما غاب عن
خلقه لا تخفى عليه خافية والشهادة يعني ما حضر وظهر (العزيز) أي الممتنع المنتقم من اعدائه
(الرحيم) بأوليائه واهل طاعته قوله تعالى (الذي أحسن كل شئ خلقه) قال ابن عباس اتقنه واحكمه
وقيل علم كيف يخلق كل شئ وقيل خلق كل حيوان على صورة لم يخلق البعض على صورة البعض فكل
حيوان كامل في صورته حسن في شكله وكل عضو من اعضائه مقدر على ما يصلح به معاشه وقيل
معناه ألهم خلقه ما يحتاجون اليه وعلمهم اياه وقيل معناه أحسن كل خلقه (وبدأ خلق الانسان
من طين) يعني آدم (ثم جعل نسله) يعني ذريته (من سلالة) أي من نطفة تنسل من الانسان
(من ماء مهين) أي ضعيف (ثم سواه) اي سوى خلقه (ونفخ فيه من روحه) اضاف اليه الروح
اضافة تشريف كبيت الله وناقة الله ثم ذكر ما يترتب على نفخ الروح في الجسد فقال (وجعل لكم) اي
خلق بعد ان كنتم نطفا مواتا (السمع والابصار والافئدة) قيل قدم السمع لان الانسان يسمع اولا كلاما
فينظر الى قائله ليعرفه ثم يتفكر بقلبه في ذلك الكلام ليفهم معناه ووحد السمع لان الانسان
يسمع الكلام من اي جهة كان (قليلا ما تشكرون) يعني انكم لا تشكرون رب هذه النعمة
فتوحدوه الا قليلا قوله تعالى (وقالوا) يعني منكري البعث (أئذا ضللنا) هلكنا (في الارض)
والمعنى صرنا ترابا (أئنا لفي خلق جديد) استفهام انكاري قال الله تعالى (بل هم بلقاء ربهم
كافرون) اي بالبعث بعد الموت (قل يتوفاكم) اي يقبض ارواحكم حتى لا يبقى أحد من كتب
عليه الموت (ملك الموت) وهو عزرائيل عليه السلام (الذي وكل بكم) اي انه لا يغفل عنكم واذا جاء
اجل احدكم لا يؤخر ساعة ولا شغل له الا ذلك روي ان ملك الموت جعلت له الدنيا مثل راحة اليد يأخذ
منها صاحبها ما احب من غير مشقة فهو يقبض ارواح الخلائق من مشارق الارض ومغاربها وله اعوان
من الملائكة ملائكة الرحمة وملائكة العذاب وقال ابن عباس ان خطوة ملك الموت ما بين المشرق
والمغرب وقال مجاهد جعلت له الارض مثل الطست يتناول منها حيث يشاء وقيل ان ملك الموت على
معراج بين السماء والارض فتنزع أعوانه روح الانسان فاذا بلغ ثغرة نحره قبضه ملك الموت عن معاذ بن
جبل قال ان لملك الموت حربة تبلغ ما بين المشرق والمغرب وهي تتصفح وجوه الناس فما من اهل بيت الا
وملك الموت يتصفحهم في كل يوم مرتين فاذا رأى انسانا قد انقضى اجله ضرب راسه بتلك الحربة وقال له

ألف سنة) وهو يوم القيامة (مما تعدّون) من
أيام الدنيا ولا تمسك للمشبهة بقوله اليه في اثبات
الجهة لان معناه الى حيث يرضاه أو أمره كما
لا تشبث لهم بقوله اني ذاهب الى ربي اي مهاجر
الى ربي ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله
(ذلك عالم الغيب والشهادة) اي الموصوف بما
مر عالم ما غاب عن الخلق وما شاهدوه (العزيز)
الغالب أمره (الرحيم) البالغ لطفه وتيسيره
وقيل لا وقف عليه لان (الذي) صفته (أحسن
كل شئ) اي حسنه لان كل شئ مرتب على ما اقتضته
الحكمة (خلقه) كوفي ونافع وسهل على الوصف
اي كل شئ خلقه فقد أحسن خلقه غيرهم على
البدل اي احسن خلق كل شئ (وبدأ خلق
الانسان) آدم (من طين ثم جعل نسله) ذريته
(من سلالة) من نطفة (من ماء) أي مني وهو
بدل من سلالة (مهين) ضعيف حقير (ثم سواه)
قومه كقوله في احسن تقويم (ونفخ) ادخل
(فيه من روحه) الاضافة للاختصاص كانه
قال ونفخ فيه من الشئ الذي اختص هو به
وبعلمه (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة)
لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا (قليلا ما تشكرون)
اي تشكرون قليلا (وقالوا) القائل ابي بن خلف
ورضاهم بقوله اسند اليهم (أئذا ضللنا في الارض)
اي صرنا ترابا وذهبنا مختلطين بتراب الارض
لا نتميز منه كما يضل الماء في اللبن او غبنا في الارض
بالدفن فيها وقرأ علي ضللنا بكسر اللام يقال
ضل يضل وضل يضل وانتصب الظرف في أئذا
بما يدل عليه (أئنا لفي خلق جديد) وهو
نبعث (بل هم بلقاء ربهم كافرون) جاحدون
لما ذكر كفرهم بالبعث اضرب عنه الى ما هو ابلغ
وهو انهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة
لا بالبعث وحده (قل يتوفاكم ملك الموت الذي
وكل بكم ثم

الآن تنزل بك سكرات الموت وقوله (ثم الى ربكم ترجعون) اى تصيرون الى ربكم احياء فيجزيكم
باعمالكم قوله عز وجل (ولو ترى إذ المجرمون) اى المشركون (ناكسو رؤسهم عند ربهم) ان يطاطئوها
حياء من ربهم وندما على مافعلوا عند ربهم يقولون (ربنا ابصرنا) اى ما كنا به مكذبين (وسمعنا)
يعنى منك تصديق ما اتتنا به رسلك وقيل ابصرنا معاصينا وسمعنا ما قيل فيها (فارجعنا) اى فارددنا الى
الدنيا (نعمل صالحا انا موقنون) أى فى الحال آمنا ولكن لا ينفع ذلك الايمان (ولو شئنا لآتينا
كل نفس هداها) اى رشدها وتوفيقها للايمان (ولكن حق القول منى) اى وجب القول منى
(لاملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين) اى من كفار الجن والانس (فذوقوا) اى فاذا دخلوا النار
قالت لهم الخزنة ذوقوا (بما نسيتم لقاء يومكم) اى تركتم الايمان فى الدنيا (هذا انا نسيناكم) اى تركناكم
بالكلية غير ملتفت اليكم كما يفعل بالناسى قطعا لرجائكم (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون)
اى من الكفر والتكذيب قوله تعالى (انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها) اى وعظوا بها (خروا
سجدا) اى سقطوا على وجوههم ساجدين (وسبحوا بحمد ربهم) اى صلوا بامر ربهم وقيل قالوا سبحان
الله وبحمده (وهم لا يستكبرون) اى عن الايمان به والسجود له (ق) عن ابن عمر قال كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقرأ السورة التى فيها السجدة فيسجد ويسجدون حتى ما يجد احدنا مكانا لوضع
جبهته فى غير وقت الصلاة (م) عن ابى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرأ ابن آدم
السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى ويقول يا ويلنا امر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وامرت بالسجود
فابيت فلى النار وهذه من عزائم سجود القرآن فتسن للقارئ والمستمع قوله تعالى (تتجافى جنوبهم)
اى ترتفع وتنبو (عن المضاجع) جمع مضجع وهو الموضع الذى يضطجع عليه يعنى الفرش وهم
المتهجدون بالليل الذين يقيمون الصلاة وقال انس نزلت فينا معاشر الانصار كنا نصلى المغرب فلا
نرجع الى رحالنا حتى نصلى العشاء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أنس فى قوله تتجافى جنوبهم
عن المضاجع نزلت فى انتظار الصلاة التى تدعى العتمة اخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب صحيح
وفى رواية ابى داود عنه قال كانوا يتنفلون ما بين المغرب والعشاء أى يصلون وهو قول ابى حازم ومحمد
ابن المنكدر وقيل هى صلاة الاوابين وروى عن ابن عباس قال ان الملائكة لتحف بالذين يصلون
بين المغرب والعشاء وهى صلاة الاوابين وقال عطاء هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الاخيرة
والفجر فى جماعة بدليل قوله صلى الله عليه وسلم من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن
صلى الصبح فى جماعة فكأنما صلى الليل كله اخرجه مسلم من حديث عثمان بن عفان (ق)
عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لو يعلمون ما فى العتمة والصبح لاتوهما
ولو حبوا واشهر الاقاويل ان المراد منه صلاة الليل وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والاوزاعى وجماعة

(فصل فى فضل قيام الليل والحث عليه) عن معاذ بن جبل قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم فى سفرة فاصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير فقلت يا رسول الله اخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى
من النار قال سألت عن عظيم وانه ليسير على من يسره الله تعالى عليه تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم
الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ثم قال الا ادلك على أبواب الخير الصوم جنة والصدقة
تطفئ الخطيئة وصلاة الرجل فى جوف الليل ثم قرأ تتجافى جنوبهم عن المضاجع حتى بلغ جزاء بما
كانوا يعملون ثم قال ألا اخبرك برأس الامر وعموده وذروة سنامه قلت بلى يا رسول الله قال راس الامر

الى ربكم ترجعون) اى يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بقبض أرواحكم ثم ترجعون الى ربكم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء وهذا معنى لقاء الله والتوفى
استيفاء النفس وهى الروح أى يقبض أرواحكم اجمعين من قولك توفيت حقى من فلان اذا أخذته وافيا كاملا من غير نقصان وعن مجاهد حويت لملك
الموت الارض وجعلت له مثل الطست يتناول منها حيث يشاء وقيل ملك الموت يدعو الارواح فتجيبه ثم يأمر اعوانه بقبضها والله تعالى هو
الآمر لذلك كله وهو الخالق لافعال المخلوقات
وهذا وجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله
توفته رسلنا وقوله الله يتوفى الانفس حين موتها
(ولو ترى) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه
وسلم او لكل أحد ولو امتناعية والجواب
محذوف اى لرأيت أمرا عظيما (اذ المجرمون)
هم الذين قالوا أئذا ضللنا فى الارض ولو واذ للمضى
وانما جاز ذلك لان المترقب من الله بمنزلة
الموجود ولا يقدر لترى ما يتناوله كانه قيل
ولو تكون منك الرؤية واذ ظرف له (ناكسو
رؤسهم) من الذل والحياء والندم (عند
ربهم) عند حساب ربهم ويوقف عليه لحق
الحذف اذ التقدير يقولون (ربنا أبصرنا)
صدق وعدك ووعيدك (وسمعنا) منك تصديق
رسلك او كنا عميا وصما فابصرنا وسمعنا (فارجعنا)
الى الدنيا (نعمل صالحا) اى الايمان والطاعة
(انا موقنون) بالبعث والحساب الآن (ولو شئنا
لآتينا كل نفس هداها) فى الدنيا اى لو شئنا
أعطينا كل نفس ما عندنا من اللطف الذى
لو كان منهم اختيار ذلك لاهتدوا ولكن لم نعطهم
ذلك اللطف لما علمنا منهم اختيار الكفر وايثاره
وهو حجة على المعتزلة فان عندهم شاء الله ان
يعطى كل نفس ما به اهتدت وقد أعطاها
لكنها لم تهتد وهم اولوا الآية بمشيئة الجبر
وهو تاويل فاسد لما عرف فى تبصرة الادلة
(ولكن حق القول منى لاملأن جهنم من
الجنة والناس أجمعين) ولكن وجب القول
منى بما علمت انه يكون منهم ما يستوجبون
به جهنم وهو ما علم منهم انهم يختارون الرد
والتكذيب وفى تخصيص الانس والجن اشارة
الى انه عصم ملائكته عن عمل يستوجبون به
جهنم (فذوقوا) العذاب (بما نسيتم لقاء) بما
تركتم من عمل لقاء (يومكم هذا) وهو الايمان
به (انا نسيناكم) تركناكم فى العذاب كالمنسى
(وذوقوا عذاب الخلد) اى العذاب الدائم الذى لا انقطاع له (بما كنتم تعملون) من الكفر والمعاصى (انما يؤمن بآياتنا الذين اذا
ذكروا بها) اى وعظوا بها (خروا سجدا) سجدوا لله تواضعا وخشوعا وشكرا على ما رزقهم من الاسلام (وسبحوا بحمد ربهم) ونزهوا الله عما لا يليق به واثنوا
عليه حامدين له (وهم لا يستكبرون) عن الايمان به والسجود له (تتجافى) ترتفع وتتنحى (جنوبهم عن المضاجع) عن الفرش ومضاجع النوم قال سهل
وهب لقوم هبة وهو ان أذن لهم فى مناجاته وجعلهم من اهل وسيلته ثم مدحهم عليه فقال تتجافى جنوبهم عن المضاجع

الاسلام

الاسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد ثم قال الا أخبرك بملاك ذلك كله قلت بلى يا رسول الله قال فأخذ بلسانه وقال اكفف عليك هذا فقلت يا رسول الله وانا لمؤاخذون بما نتكلم فقال ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس فى النار على وجوههم أو قال على مناخرهم الا حصائد ألسنتهم أخرجه الترمذى عن أبى امامة الباهلى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم وقربة الى ربكم وتكفير للسيئات ومنهاة عن الآثام ومطردة الداء عن الجسد أخرجه الترمذى عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عجب ربنا من رجلين رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين حبه وأهله الى صلاته فيقول الله عز وجل للملائكة انظروا الى عبدى ثار عن فراشه ووطائه من بين حبه وأهله الى صلاته رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى ورجل غزا فى سبيل الله وانهزم مع أصحابه فعلم ما عليه فى الانهزام وماله فى الرجوع فرجع حتى أهريق دمه فيقول الله تعالى انظروا الى عبدى رجع رغبة فيما عندى حتى أهريق دمه أخرجه الترمذى بمعناه (م) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل (ق) عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم الليل حتى تورمت قدماه فقلت لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا عن على قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة غرفا يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام أخرجه الترمذى (خ) عن الهيثم بن أبى سنان انه سمع أبا هريرة رضى الله عنه فى قصصه يذكر النبى صلى الله عليه وسلم يقول ان أخا لكم لا يقول الرفث يعنى بذلك ابن رواحة قال شعرا

وفينا رسول الله يتلو كتابه * اذا انشق معروف من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا * به موقنات ان ما قال واقع

يبيت يجافى جنبه عن فراشه * اذا استثقلت بالكافرين المضاجع

أخرجه البخارى وليس للهيثم بن سنان عن أبى هريرة فى الصحيحين غير هذا الحديث وقوله تعالى (يدعون ربهم خوفا وطمعا) قال ابن عباس خوفا من النار وطمعا فى الجنة (ومما رزقناهم ينفقون) قيل أراد به الصدقة المفروضة وقيل بل هو عام فى الواجب والتطوع قوله عز وجل (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) أى مما تقر به أعينهم فلا يلتفتون الى غيره قال ابن عباس هذا مما لا تفسير له وقيل أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم (جزاء بما كانوا يعملون) اى من الطاعات فى دار الدنيا (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرؤا ان شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين قوله تعالى (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون) نزلت فى على بن أبى طالب والوليد بن عقبة ابن أبى معيط كان بينهما تنازع وكلام فى شئ فقال الوليد لعلى اسكت فانك صبى وأنا شيخ والله انى أبسط منك لسانا وأحد منك سنانا وأشجع منك جنانا وأملأ منك حشوا فى الكتيبة فقال له على اسكت فانك فاسق فأنزل الله هذه الآية وقوله لا يستوون أراد جنس المؤمنين وجنس الفاسقين ولم يرد مؤمنا واحدا ولا فاسقا واحدا (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) أى التى يأوى اليها المؤمنون (نزلا) هو ما يهيأ للضيف عند نزوله (بما كانوا يعملون) يعنى من الطاعات فى دار الدنيا (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) قوله تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر) أى سوى العذاب الاكبر قال ابن عباس العذاب الادنى مصائب الدنيا وأسقامها وعنه انه الحدود وقيل هو الجوع بمكة حتى أكلوا الجيف والعظام والكلاب سبع سنين وقال ابن مسعود هو القتل

(يدعون) داعين (ربهم) عابدين له (خوفا وطمعا) مفعول له أى لاجل خوفهم من سخطه وطمعهم فى رحمته وهم المتهجدون وعن النبى صلى الله عليه وسلم فى تفسيرها قيام العبد من الليل وعن ابن عطاء أبت جنوبهم ان تسكن على بساط الغفلة وطلبت بساط القربة يعنى صلاة الليل وعن انس كان اناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يصلون من صلاة المغرب الى صلاة العشاء الاخيرة فنزلت فيهم وقيل هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها قوله (ومما رزقناهم ينفقون) فى طاعة الله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم) ما بمعنى الذى أخفى على حكاية النفس حمزة ويعقوب (من قرة أعين) أى لا يعلم احد ما اعد لهؤلاء من الكرامة (جزاء) مصدر أى جوزوا جزاء (بما كانوا يعملون) عن الحسن رضى الله عنه اخفى القوم اعمالا فى الدنيا فاخفى الله لهم ما لا عين رأت ولا اذن سمعت وفيه دليل على ان المراد الصلاة فى جوف الليل ليكون الجزاء وفاقا ثم بين ان من كان فى نور الطاعة والايمان لا يستوى مع من هو فى ظلمة الكفر والعصيان بقوله (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا) أى كافرا وهما محمولان على لفظ من وقوله (لا يستوون) على المعنى بدليل قوله (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) هى نوع من الجنان تأوى اليها ارواح الشهداء وقيل هى عن يمين العرش (نزلا بما كانوا يعملون) عطاء باعمالهم والنزل عطاء النازل ثم صار عاما (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار) أى ملجأهم ومنزلهم (كلما أرادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها وقيل لهم) أى تقول لهم خزنة النار (ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) وهذا دليل على ان المراد بالفاسق الكافر اذ التكذيب يقابل الايمان (ولنذيقنهم من العذاب الادنى) أى عذاب الدنيا من الاسر وما محنوا به من السنة سبع سنين (دون العذاب الاكبر) أى عذاب الآخرة أى نذيقهم عذاب الدنيا قبل ان يصلوا الى الآخرة وعن الدارانى العذاب الادنى الخذلان والعذاب الاكبر الخلود فى النيران وقيل العذاب الادنى عذاب القبر

بالسيف يوم بدر والأكبر هو عذاب جهنم (لعلهم يرجعون) اى الى الايمان يعنى من بقى منهم بعد القحط وبعد بدر (ومن أظلم) اى لا أحد أظلم (ممن ذكر بآيات ربه) اى بدلائل وحدانيته وانعامه عليه (ثم أعرض عنها) اى ترك الايمان بها (انا من المجرمين) يعنى المشركين (منتقمون) معناه انهم لما لم يرجعوا بالعذاب الادنى فانا منهم منتقمون بالعذاب الأكبر قوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة (فلا تكن فى مرية) اى فى شك (من لقائه) اى من لقاء موسى ليلة المعراج قاله ابن عباس (ق) عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال رأيت ليلة اسرى بى موسى رجلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى رجلا مربوعا مربوع الخلق الى الحمرة والى البياض سبط الشعر ورأيت مالكا خازن النار والدجال فى آيات أراهن الله اياه فلا تكن فى مرية من لقائه (م) عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت على موسى ليلة المعراج ليلة اسرى بى عند الكثيب الاحمر وهو قائم يصلى فى قبره فان قلت قد صح فى حديث المعراج انه رآه فى السماء السادسة عند مراجعته فى الصلوات فكيف الجمع بين هذين الحديثين قلت يحتمل أن تكون رؤيته فى قبره عند الكثيب الاحمر كان قبل صعوده الى السماء وذلك فى طريقه الى بيت المقدس ثم لما صعد الى السماء السادسة وجده هناك قد سبقه لما يريد الله عز وجل وهو على كل شئ قدير فان قلت كيف تصح منه الصلاة فى قبره وهو ميت وقد سقط عنه التكليف وهو فى دار الآخرة وليست دار عمل وكذلك رأى النبى صلى الله عليه وسلم جماعة من الانبياء وهم يحجون فما الجواب عن هذا قلت يجاب عنه باجوبة أحدها ان الانبياء كالشهداء بل هم أفضل منهم والشهداء احياء عند ربهم يرزقون فلا يبعد ان يحجوا أو يصلوا كما صح فى الحديث وان يتقربوا الى الله بما استطاعوا وان كانوا قد ماتوا لانهم بمنزلة الاحياء فى هذه الدار التى هى دار العمل الى ان تفنى ثم يرحلون الى دار الجزاء التى هى الجنة الجواب الثانى انه صلى الله عليه وسلم رأى حالهم الذى كانوا عليه فى حياتهم ومثلوا له كيف كانوا وكيف كان حجهم وصلاتهم الجواب الثالث ان التكليف وان ارتفع عنهم فى الآخرة لكن الذكر والشكر والدعاء لا يرتفع قال الله تعالى دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وقال صلى الله عليه وسلم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس فالعبد يعبد ربه فى الجنة أكثر مما كان يعبده فى الدنيا وكيف لا يكون ذلك وقد صار حاله مثل حال الملائكة الذين قال الله فى حقهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون غاية ما فى الباب ان العبادة ليست عليهم بتكليف بل هى على مقتضى الطبع والله أعلم وقيل فى قوله فلا تكن فى مرية من لقائه اى من تلقى موسى كتاب الله بالرضا والقبول (وجعلناه) يعنى الكتاب (هدى لبنى اسرائيل وجعلنا منهم) أى من بنى اسرائيل (أئمة) اى قادة للخير يقتدى بهم وهم الانبياء الذين كانوا فى بنى اسرائيل وقيل هم اتباع الانبياء (يهدون بامرنا) أى يدعون الناس الى طاعتنا (لما صبروا) أى على دينهم وعلى البلاء من عدوهم بمصر (وكانوا بآياتنا يوقنون) اى انها من الله تعالى (ان ربك هو يفصل) اى يقضى ويحكم (بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) قيل هم الانبياء وأممهم وقيل هم المؤمنون والمشركون قوله تعالى (أولم يهد لهم) اى يبين لهم (كم أهلكنا) اى كثرة من اهلكنا (من قبلهم من القرون) اى الامم الخالية (يمشون فى مساكنهم) يعنى أهل مكة يسيرون فى بلادهم ومنازلهم اذا سافروا (ان فى ذلك لآيات أفلا يسمعون) اى آيات الله ومواعظه فيتعظون بها قوله عز وجل (أولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز) اى الارض اليابسة الغليظة التى لا نبات فيها قال ابن عباس هى أرض باليمن وقيل هى أبين (فنخرج به) اى بذلك الماء (زرعا تأكل منه أنعامهم) اى العشب والتبن (وأنفسهم) اى من الحبوب والاقوات (أفلا يبصرون) أى فيعتبروا قوله تعالى (ويقولون متى هذا الفتح ان كنتم صادقين) قيل أراد يوم

(لعلهم) لعل المعذبين بالعذاب الادنى (يرجعون) يتوبون عن الكفر (ومن أظلم ممن ذكر) وعظ (بآيات ربه) أى بالقرآن (ثم اعرض عنها) أى فتولى عنها ولم يتدبر فيها وثم للاستبعاد أى ان الاعراض عن مثل هذه الآيات فى وضوحها وانارتها وارشادها الى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد فى العقل كما تقول لصاحبك وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعادا لتركه الانتهاز (انا من المجرمين منتقمون) ولم يقل منه لانه اذا جعله اعظم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم فقد دل على اصابة الاظلم النصيب الاوفر من الانتقام ولو قال بالضمير لم يفد هذه الفائدة (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة (فلا تكن فى مرية) شك (من لقائه) من لقاء موسى الكتاب اومن لقائك موسى ليلة المعراج او يوم القيامة اومن لقاء موسى ربه فى الآخرة كذا عن النبى صلى الله عليه وسلم (وجعلناه هدى لبنى اسرائيل) وجعلنا الكتاب المنزل على موسى لقومه هدى (وجعلنا منهم أئمة) بهمزتين كوفى وشامى (يهدون) بذلك الناس ويدعونهم الى ما فى التوراة من دين الله وشرائعه (بأمرنا) اياهم بذلك (لما صبروا) حين صبروا على الحق بطاعة الله اوعن المعاصى لما صبروا حمزة وعلى أى لصبرهم عن الدنيا وفيه دليل على ان الصبر ثمرته امامة الناس (وكانوا بآياتنا) التوراة (يوقنون) يعلمون علما لا يخالجه شك (ان ربك هو يفصل) يقضى (بينهم يوم القيامة) بين الانبياء واممهم او بين المؤمنين والمشركين (فيما كانوا فيه يختلفون) فيظهر المحق من المبطل (اولم) الواو للعطف على معطوف عليه منوى من جنس المعطوف أى اولم يدع (يهد) يبين والفاعل الله بدليل قراءة زيد عن يعقوب نهد (لهم) لاهل مكة (كم) لا يجوز ان يكون كم فاعل يهدى لان كم للاستفهام فلا يعمل فيه ما قبله ومحله نصب بقوله (اهلكنا قبلهم من القرون) كعاد وثمود وقوم لوط (يمشون فى مساكنهم) أى أهل مكة يمرون فى متاجرهم على ديارهم وبلادهم (ان فى ذلك لآيات افلا يسمعون) المواعظ فيتعظوا (اولم يروا انا نسوق الماء) نجرى المطر والانهار (الى الارض الجرز) أى الارض التى جرز نباتها اى قطع اما لعدم الماء اولانه رعى ولا يقال للتى لا تنبت كالسباخ جرز بدليل قوله (فنخرج به) بالماء (زرعا تأكل منه) من الزرع (انعامهم) من عصفه (وأنفسهم) من حبه (افلا يبصرون) باعينهم فيستدلوا به على قدرته على احياء الموتى (ويقولون متى هذا الفتح) النصر او الفصل بالحكومة من قوله ربنا افتح بيننا وكان المسلمون يقولون ان الله سيفتح لنا على المشركين او يفتح بيننا وبينهم فاذا سمع المشركون ذلك قالوا متى هذا الفتح أى فى أى وقت يكون (ان كنتم صادقين) فى انه كائن

الفتح

الفتح يوم القيامة الذى فيه الحكم والقضاء بين العباد وذلك ان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا للكفار ان لنا يوما ننعم فيه ونستريح ويحكم فيه بيننا وبينكم فقال الكفار استهزاء متى هذا الفتح أى القضاء والحكم وقيل هو فتح مكة وقيل يوم بدر وذلك ان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون للكفار ان الله ناصرنا ومظهرنا عليكم فيقولون متى هذا الفتح (قل يوم الفتح) يعنى يوم القيامة (لا ينفع الذين كفروا ايمانهم) أى لا يقبل منهم الايمان ومن حمل يوم الفتح على فتح مكة او القتل يوم بدر قال معناه لا ينفع الذين كفروا ايمانهم اذا جاءهم العذاب وقتلوا (ولا هم ينظرون) أى يمهلون ليتوبوا ويعتذروا (فأعرض عنهم) قال ابن عباس نسختها آية السيف (وانتظر) أى موعدى لك بالنصر عليهم (انهم منتظرون) أى بك حوادث الزمان وقيل معناه انتظر عذابنا اياهم فهم منتظرون ذلك (ق) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فى الفجر يوم الجمعة ألم تنزيل الكتاب وهل أتى على الانسان عن جابر ان النبى صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل الكتاب وتبارك الذى بيده الملك أخرجه الترمذى وقال طاوس تفضلان عن كل سورة فى القرآن بسبعين حسنة أخرجه الترمذى والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده واسرار كتابه

(تفسير سورة الاحزاب وهى مدنية)

وثلاث وسبعون آية وألف ومائتان وثمانون كلمة وخمسة آلاف وسبعمائة وتسعون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) نزلت فى أبى سفيان بن حرب وعكرمة ابن أبى جهل وابو الاعور عمرو بن سفيان السلمى وذلك انهم قدموا المدينة فنزلوا على عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين بعد قتال أحد وقد اعطاهم النبى صلى الله عليه وسلم الامان على ان يكلموه فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح وطعمة بن أبيرق فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل ان لها شفاعة لمن عبدها وندعك وربك فشق ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم فقال عمر يا رسول الله ائذن لى فى قتلهم فقال انى اعطيتهم الامان فقال عمر اخرجوا فى لعنة الله وغضبه فأمر النبى صلى الله عليه وسلم عمر ان يخرجهم من المدينة فانزل الله تعالى يا أيها النبى اتق الله اى دم على التقوى وقيل معناه اتق الله ولا تنقض العهد الذى بينك وبينهم وقيل الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته ولا تطع الكافرين يعنى من أهل مكة يعنى أبا سفيان وعكرمة وأبا الاعور والمنافقين يعنى من أهل المدينة عبد الله بن أبى وعبد الله بن سعد وطعمة (ان الله كان عليما) أى بخلقه قبل أن يخلقهم (حكيما) اى فيما دبره لهم (واتبع ما يوحى اليك من ربك) أى من وفاء العهد وترك طاعة الكافرين والمنافقين (ان الله كان بما تعملون خبيرا وتوكل على الله) أى ثق بالله وكل أمرك اليه (وكفى بالله وكيلا) أى حافظا لك وقيل كفيلا برزقك قوله تعالى (ما جعل الله

(قل يوم الفتح) أى يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم او يوم نصرهم عليهم او يوم بدر او يوم فتح مكة (لا ينفع الذين كفروا ايمانهم ولا هم ينظرون) وهذا الكلام لم ينطبق جوابا على سؤالهم ظاهرا ولكن لما كان غرضهم فى السؤال عن وقت الفتح استعجالا منهم على وجه التكذيب والاستهزاء أجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم فى سؤالهم فقيل لهم لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا فكأنى بكم وقد حصلتم فى ذلك اليوم وآمنتم فلا ينفعكم الايمان او استنظرتم فى ادراك العذاب فلم تنظروا ومن فسره بيوم الفتح او بيوم بدر فهو يريد المقتولين منهم فانهم لا ينفعهم ايمانهم فى حال القتل كما لم ينفع فرعون ايمانه عند الغرق (فأعرض عنهم وانتظر) النصرة وهلاكهم (انهم منتظرون) الغلبة عليكم وهلاككم وكان عليه السلام لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذى بيده الملك وقال من قرأ الم تنزيل فى بيته لم يدخله الشيطان ثلاث ايام وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال سورة الم تنزيل هى المانعة تمنع من عذاب القبر والله أعلم

(سورة الاحزاب مدنية وهى ثلاث وسبعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قال أبى بن كعب رضى الله عنه لزر كم تعدون سورة الاحزاب قال ثلاثا وسبعين قال فوالذى يحلف به أبى ان كانت لتعدل سورة البقرة او اطول ولقد قرأنا منها آية الرجم الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم اراد ابى ان ذلك من جملة ما نسخ من القرآن واما ما يحكى ان تلك الزيادة كانت فى صحيفة فى بيت عائشة رضى الله عنها فاكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة والروافض (يا أيها النبى) وبالهمز نافع أى يا أيها المخبر عنا المأمون على اسرارنا المبلغ خطابنا الى أحبابنا وانما لم يقل يا محمد كما قال يا آدم يا موسى تشريفا له وتنويها بفضله وتصريحه باسمه فى قوله محمد رسول الله ونحوه لتعليم الناس بانه رسول الله (اتق الله) اثبت على تقوى الله ودم عليه وازدد منه فهو باب لا يدرك مداه (ولا تطع الكافرين والمنافقين) ولا تساعدهم على شئ واحترس منهم فانهم اعداء الله والمؤمنين وروى ان أبا سفيان وعكرمة ابن أبى جهل وابا الاعور السلمى قدموا المدينة بعد قتال احد فنزلوا على عبد الله بن أبى واعطاهم النبى الامان على ان يكلموه فقالوا ارفض ذكر آلهتنا وقل انها تنفع وتشفع ووازرهم المنافقون على ذلك فهم المسلمون بقتلهم فنزلت أى اتق الله فى نقض العهد ولا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا (ان الله كان عليما) بخبث اعمالهم (حكيما) فى تأخير الامر بقتالهم (واتبع ما يوحى اليك من ربك) فى الثبات على التقوى وترك طاعة الكافرين والمنافقين (ان الله) الذى يوحى اليك (كان بما تعملون خبيرا) أى لم يزل عالما باعمالهم واعمالكم وقيل انما جمع لان المراد بقوله اتبع هو وأصحابه وبالياء أبو عمرو أى بما يعمل الكافرون والمنافقون من كيدهم لكم ومكرهم بكم (وتوكل على الله) اسند أمرك اليه وكله الى تدبيره (وكفى بالله وكيلا) حافظا موكولا اليه كل أمر وقال الزجاج لفظه وان كان لفظ الخبر فالمعنى اكتف بالله وكيلا (ما جعل الله

لرجل من قلبين في جوفه وما جعل ازواجكم اللائي تظهرون منهن أمهاتكم وما جعل ادعياءكم ابناءكم) أي ما جمع الله قلبين في جوف ولا زوجية وامومة في امرأة ولا بنوة ودعوة في رجل والمعنى انه تعالى كما لم يجعل لانسان قلبين لانه لا يخلو اما ان يفعل بالآخر فعلا من افعال القلوب فاحدهما فضلة غير محتاج اليه واما ان يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك فذلك يؤدي الى اتصاف الجملة بكونه مريدا كارها عالما ظانا موقنا شاكا في حالة واحدة لم يحكم أيضا ان تكون المرأة الواحدة اما لرجل زوجا له لان الام مخدومة والمرأة خادمة وبينهما منافاة وان يكون الرجل الواحد دعيا لرجل وابنا له لان البنوة اصالة في النسب والدعوة الصاق عارض بالتسمية لا غير ولا يجتمع في الشيء الواحد ان يكون اصيلا غير اصيل وهذا مثل ضربه الله تعالى في زيد بن حارثة وهو رجل من كلب سبي صغيرا فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له فطلبه أبوه وعمه فخير فاختار رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتقه وتبناه وكانوا يقولون زيد ابن محمد فلما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب وكانت تحت زيد قال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عنه فأنزل الله هذه الآية وقيل كان المنافقون يقولون لمحمد قلبان قلب معكم وقلب مع أصحابه وقيل كان أبو معمر احفظ العرب فقيل له ذو القلبين فأكذب الله قولهم وضربه مثلا في الظهار والتبني والتنكير في رجل وادخال من الاستغراقية على قلبين وذكر الجوف للتأكيد اللائي بياء بعد الهمزة حيث كان كوفي وشامي اللاء نافع ويعقوب وسهل وهي جمع التي تظاهرون عاصم من ظاهر اذا قال لامرأته أنت علي كظهر امي تظاهرون علي وحمزة وخلف تظاهرون شامي من اظاهر بمعنى تظاهر غيرهم تظهرون من اظهر بمعنى ظهر وعدي بمن لتضمنه معنى البعد لانه كان طلاقا في الجاهلية ونظيره آلى من امرأته لما ضمن معنى التباعد عدي بمن والا فآلى في أصله الذي هو معنى حلف واقسم ليس هذا بحكمه والدعي فعيل بمعنى مفعول وهو الذي يدعى ولدا وجمع على افعلاء شاذا لان بابه ما كان منه بمعنى فاعل كتقي واتقياء وشقي وشقياء ولا يكون ذلك في نحو رمي وسمي للتشبيه اللفظي (ذلكم قولكم بأفواهكم) أي ان قولكم للزوجة هي ام وللدعي هو ابن قول تقولونه بألسنتكم لا حقيقة له اذ الابن يكون بالولادة وكذا الام (والله يقول الحق) أي ما هو حق ظاهره وباطنه (وهو يهدي السبيل) أي سبيل الحق ثم قال ما هو الحق وهدى الى ما هو سبيل الحق وهو قوله (ادعوهم لآبائهم هو اقسط) اعدل (عند الله) وليس وبين ان دعاءهم لآبائهم هو ادخل الامرين في القسط والعدل وقيل كان الرجل في الجاهلية اذا اعجبه ولد الرجل ضمه الى نفسه وجعل له مثل نصيب الذكر من اولاده من ميراثه وكان ينسب اليه فيقال فلان ابن فلان ثم انظر الى فصاحة هذا الكلام حيث وصل الجملة الطلبية ثم فصل الخبرية عنها ووصل بينهما ثم فصل الاسمية عنها ووصل بينها ثم فصل بالطلبية (فان لم تعلموا آباءهم) فان لم تعلموا لهم آباء تنسبونهم اليهم (فاخوانكم في الدين ومواليكم) أي فهم اخوانكم في الدين وأولياؤكم في الدين فقولوا هذا اخي وهذا مولاي ويا أخي ويا مولاي يريد الاخوة في الدين والولاية فيه

رجل من قلبين في جوفه) نزلت في أبي معمر جميل بن معمر الفهري وكان رجلا لبيبا حافظا لما يسمع فقال قريش ما حفظ أبو معمر هذه الاشياء الا وله قلبان وكان يقول ان لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد فلما هزم الله المشركين يوم بدر انهزم أبو معمر فيهم فلقيه ابو سفيان واحدى نعليه في يده والاخرى في رجله فقال له يا أبا معمر ما حال الناس فقال انهزموا فقال له فما بال احدى نعليك في يدك والاخرى في رجلك فقال أبو معمر ما شعرت الا انهما في رجلي فعلموا يومئذ انه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده وعن أبي ظبيان قال قلنا لابن عباس أرأيت قول الله ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ما عنى بذلك قال قام نبي الله صلى الله عليه وسلم يوما يصلي فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه الا ترون ان له قلبين قلبا معكم وقلبا معهم فأنزل الله ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه أخرجه الترمذي وقال حديث حسن قوله خطر خطرة يريد الوسوسة التي تحصل للانسان في صلاته وقيل في معنى الآية انه لما قال الله تعالى يا أيها النبي اتق الله فكان ذلك أمرا بالتقوى فكأنه قال ومن حقها ان لا يكون في قلبك تقوى غير الله فان المرء ليس له قلبان حتى يتقي الله باحدهما وبالآخر غيره وقيل هذا مثل ضربه الله تعالى للمظاهر من امرأته وللمتبني ولد غيره فكما لا يكون لرجل قلبان لانه لا يخلو اما ان يفعل باحدهما ما يفعل بالآخر من افعال القلوب فالآخر فضلة غير محتاج اليه واما ان يفعل بهذا ما لا يفعل بذاك فذلك يؤدي الى اتصاف الجملة بكونه مريدا كارها عالما جاهلا موقنا شاكا في حالة واحدة وهما حالتان متنافيتان فكذلك لا تكون امرأة المظاهر امه حتى يكون له امان ولا يكون ولد واحد ابن رجلين قوله تعالى (وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم) وصورة الظهار ان يقول الرجل لامرأته انت علي كظهر امي يقول الله وما جعل نساءكم التي تقولون لهن هذا في التحريم كأمهاتكم ولكنه منكم منكر وزور وفيه كفارة وسيأتي الكلام عليه ان شاء الله في سورة المجادلة قوله تعالى (وما جعل أدعياءكم) يعني الذين تتبنونهم (ابناءكم) وفيه نسخ التبني وذلك ان الرجل كان في الجاهلية يتبنى الرجل فيجعله كالابن المولود يدعوه اليه الناس ويرث ميراثه وكان النبي صلى الله عليه وسلم أعتق زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي وتبناه قبل الوحي وآخى بينه وبين حمزة بن عبد المطلب فلما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش وكانت تحت زيد بن حارثة قال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك فأنزل الله هذه الآية ونسخ بها التبني (ذلكم قولكم بأفواهكم) اي لا حقيقة له يعني قولهم زيد بن محمد وادعاء النسب لا حقيقة له (والله يقول الحق) اي قوله الحق (وهو يهدي السبيل) اي يرشد الى سبيل الحق (ادعوهم لآبائهم) اي الذين ولدوهم فقولوا زيد بن حارثة (هو أقسط عند الله) اي اعدل عند الله (ق) عن ابن عمر قال ان زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه الا زيد بن محمد حتى نزل ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله الآية (فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين) اي فهم اخوانكم (ومواليكم) اي كانوا محررين وليسوا بنيكم اي فسموهم بأسماء اخوانكم في الدين وقيل معنى مواليكم أولياؤكم في الدين

(وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) أي لا اثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورود النهي (ولكن ما تعمدت قلوبكم) ولكن الاثم عليكم فيما تعمدتموه بعد النهي اولا اثم عليكم اذا قلتم لولد غيركم يا بني على سبيل الخطا وسبق اللسان ولكن اذا قلتموه متعمدين وما في موضع الجر عطف على ما الاولى ويجوز ان يراد العفو عن الخطا دون العمد على سبيل العموم ثم تناول لعمومه خطا التبني وعمده

واذا وجد التبني فان كان المتبني مجهول النسب واصغر سنا منه ثبت نسبه منه وعتق ان كان عبدا له وان كان اكبر سنا منه لم يثبت النسب وعتق عند أبي حنيفة رضي الله عنه واما المعروف النسب فلا يثبت نسبه بالتبني وعتق ان كان عبدا (وكان الله غفورا رحيما) لا يؤاخذكم بالخطا ويقبل التوبة من المتعمد (النبي اولى بالمؤمنين من أنفسهم) أي احق بهم في كل شئ من أمور الدين والدنيا وحكمه انفذ عليهم من حكمها فعليهم ان يبذلوها دونه ويجعلوها فداءه او هو اولى بهم أي ارأف بهم واعطف عليهم وانفع لهم كقوله بالمؤمنين رؤف رحيم وفي قراءة ابن مسعود النبي اولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وقال مجاهد كل نبي أبو أمته ولذلك صار المؤمنون اخوة لان النبي صلى الله عليه وسلم أبوهم في الدين (وأزواجه أمهاتهم) في تحريم نكاحهن ووجوب تعظيمهن وهن فيما وراء ذلك كالارث ونحوه كالاجنبيات ولهذا لم يتعد التحريم الى بناتهن (وأولو الارحام) وذوو القرابات (بعضهم أولى ببعض) في التوارث وكان المسلمون في صدر الاسلام يتوارثون بالولاية في الدين وبالهجرة لا بالقرابة ثم نسخ ذلك وجعل التوارث بحق القرابة (في كتاب الله) في حكمه وقضائه او في اللوح المحفوظ او فيما فرض الله (من المؤمنين والمهاجرين) يجوز ان يكون بيانا لاولي الارحام أي الاقرباء من هؤلاء بعضهم اولى بان يرث بعضا من الاجانب وان يكون لابتداء الغاية أي أولو الارحام بحق القرابة اولى بالميراث من المؤمنين أي الانصار بحق الولاية في الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة (الا ان تفعلوا الى أوليائكم معروفا) الاستثناء من خلاف الجنس أي لكن فعلكم الى أوليائكم معروفا جائز وهو ان توصوا لمن احببتم من هؤلاء بشئ فيكون ذلك بالوصية لا بالميراث وعدي تفعلوا بالى لانه في معنى تسدوا والمراد بالاولياء المؤمنون والمهاجرون للولاية في الدين (كان ذلك في الكتاب مسطورا) أي التوارث بالارحام كان مسطورا في اللوح (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) واذكر حين اخذنا من النبيين ميثاقهم بتبليغ الرسالة والدعاء الى الدين القيم (ومنك) خصوصا وقدم رسول الله على نوح ومن بعده لان هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء لانهم أولو العزم وأصحاب الشرائع فلما كان محمد صلى الله عليه وسلم افضل هؤلاء قدم عليهم ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه (ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم)

(وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) اى قبل النهي فنسبتموه الى غير أبيه (ولكن ما تعمدت قلوبكم) اى من دعائهم الى غير آبائهم بعد النهي وقيل فيما أخطأتم به ان تدعوه الى غير أبيه وهو يظن انه كذلك (وكان الله غفورا رحيما) (ق) عن سعد بن ابي وقاص وابي بكرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من ادعى الى غير أبيه وهو يعلم انه غير أبيه فالجنة عليه حرام قوله عز وجل (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) اى من بعضهم ببعض في نفوذ حكمه عليهم ووجوب طاعته وقال ابن عباس اذا دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ودعتهم انفسهم الى شئ كانت طاعة النبي صلى الله عليه وسلم اولى بهم من طاعة انفسهم وهذا صحيح لان انفسهم تدعوهم الى ما فيه هلاكهم ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم الى ما فيه نجاتهم وقيل هو أولى بهم في الحمل على الجهاد وبذل النفس دونه وقيل كان النبي صلى الله عليه وسلم يخرج الى الجهاد فيقول قوم نذهب فنستأذن من آبائنا وأمهاتنا فنزلت الآية (ق) عن أبي هريرة قال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من مؤمن الا وانا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرؤا ان شئتم النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم فأيما مؤمن ترك مالا فلترثه عصبته من كانوا ومن ترك دينا أوضياعا فليأتني فانا مولاه عصبة الميت من يرثه سوى من له فرض مقدر وقوله أوضياعا اى عيالا وأصله مصدر ضاع يضيع ضياعا وان كسرت الضاد كان جمع ضائع وقوله تعالى (وأزواجه أمهاتهم) يعني امهات المؤمنين في تعظيم الحرمة وتحريم نكاحهن على التأبيد لا في النظر اليهن والخلوة بهن فانه حرام في حقهن كما في حق الاجانب ولا يقال لبناتهن هن اخوات المؤمنين ولا لاخوانهن واخواتهن هن اخوال المؤمنين وخالاتهم قال الشافعي تزوج الزبير اسماء بنت ابي بكر وهي أخت عائشة أم المؤمنين ولم يقل هي خالة المؤمنين وقيل ان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كن أمهات المؤمنين والمؤمنات الرجال والنساء وقيل كن امهات الرجال دون النساء بدليل ما روى عن مسروق ان امرأة قالت لعائشة يا أمه فقالت لست لك بأم انما أنا أم رجالكم فبان بذلك ان معنى الامومة انما هو تحريم نكاحهن (وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض) يعني في الميراث قيل كان المسلمون يتوارثون بالهجرة وقيل آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الناس فكان يؤاخي بين الرجلين واذا مات احدهما ورثه الآخر دون عصبته حتى نزلت واولوا الارحام بعضهم أولى ببعض وقيل في معنى الآية لا توارث بين المسلم والكافر ولا بين المهاجر وغير المهاجر (في كتاب الله) أي في حكم الله (من المؤمنين) الذين آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم (والمهاجرين) يعني ان ذوي القرابات أولى بعضهم ببعض فنسخت هذه الآية الموارثة بالمؤاخاة والهجرة وصارت الموارثة بينهم بالقرابة (الا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا) يعني الوصية للذين يتولونه من المعاقدين وذلك ان الله تعالى لما نسخ التوارث بالحلف والاخاء والهجرة أباح أن يوصي لمن يتولاه بما أحب من ثلث ماله وقيل أراد بالمعروف النصر وحفظ الحرمة بحق الايمان والهجرة وقيل معناه الا ان توصوا الى قرابتكم بشئ وان كانوا من غير أهل الايمان والهجرة (كان ذلك) اى الذي ذكر من أن أولي الارحام بعضهم اولى ببعض (في الكتاب) اى في اللوح المحفوظ وقيل في التوراة (مسطورا) اى مكتوبا مثبتا قوله تعالى (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) اى على الوفاء بما حملوا وان يصدق بعضهم بعضا ويبشر بعضهم ببعض وقيل على ان يعبدوا الله ويدعوا الناس الى عبادته وينصحوا لقومهم (ومنك) يعني يا محمد (ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم) خص هؤلاء الخمسة بالذكر من بين النبيين لانهم أصحاب الكتب

والشرائع وأولوا العزم من الرسل وقدم النبي صلى الله عليه وسلم في الذكر تشريفاً له وتفضيلاً ولما روى البغوي باسناد الثعلبي عن أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث قال قتادة وذلك قول الله واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح فبدأ به صلى الله عليه وسلم (وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) أي عهداً شديداً على الوفاء بما حملوا من تبليغ الرسالة (ليسأل الصادقين عن صدقهم) يعني أخذ ميثاقهم لكي يسأل الصادقين يعني النبيين عن تبليغهم الرسالة والحكمة في سؤالهم مع علمه سبحانه وتعالى انهم صادقون تبكيت من أرسلوا اليهم وقيل ليسأل الصادقين عن صدقهم عن عملهم لله عز وجل وقيل ليسأل الصادقين بأفواههم عن صدقهم في قلوبهم (وأعد للكافرين عذاباً أليماً) قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) وذلك حين حوصر المسلمون مع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة أيام الخندق (اذ جاءتكم جنود) يعني الأحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير (فأرسلنا عليهم ريحاً) يعني الصبا قال عكرمة قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب انطلقي ننصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت الشمال ان الحرة لا تسري بالليل فكانت الريح التي ارسلت عليهم الصبا (ق) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور وقيل الصبا ريح فيها روح ما هبت على محزون الا ذهب حزنه قوله تعالى (وجنوداً لم تروها) يعني الملائكة ولم تقاتل الملائكة يومئذ فبعث الله عز وجل تلك الليلة ريحاً باردة فقلعت الأوتاد وقطعت أطناب الفساطيط وأكفأت النيران وأكفأت القدور وماجت الخيل بعضها في بعض وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم حتى كان سيد كل حي يقول يا بني فلان النجاء النجاء هلموا الي فاذا اجتمعوا عنده قال النجاء النجاء فانهزموا من غير قتال لما بعث الله عليهم من الرعب (وكان الله بما يعملون بصيراً)

(ذكر غزوة الخندق وهي الأحزاب) قال البخاري قال موسى بن عقبة كانت في شوال سنة أربع من الهجرة وروى محمد بن اسحاق عن مشايخه قال دخل حديث بعضهم في بعض ان نفراً من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس وأبو عمار الوائلي في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا انا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقالت لهم قريش يا معشر اليهود انكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد فديننا خير أم دينه قالوا دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه فهم الذين قال الله تعالى فيهم ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت الى قوله وكفى بجهنم سعيراً قال فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما قالوا ونشطوا لما دعوهم اليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا على ذلك ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤا غطفان وقيساً وغيلان فاجتمعوا على ذلك وأخبروهم انهم سيكونون معهم عليه وان قريشاً قد بايعوهم على ذلك فأجابوهم وخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان بن حرب وخرجت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر في بني فزارة والحرث بن عوف بن أبي حارثة المري في بني مرة ومسعر بن رخيلة بن نويرة بن طريف فيمن تابعه من قومه من أشجع فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما اجتمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة وكان الذي أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخندق سلمان الفارسي وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ حر فقال يا رسول الله انا كنا بفارس اذا حوصرنا ضربنا خندقاً علينا فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى أحكموه وروي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خط الخندق عام الأحزاب ثم قطع لكل عشرة أربعين ذراعاً فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي وكان رجلاً قوياً فقال المهاجرون سلمان منا وقال الأنصار سلمان منا فقال النبي صلى الله عليه وسلم

وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) وثيقاً وأعاد ذكر الميثاق لانضمام الوصف اليه وانما فعلنا ذلك (ليسأل الله (الصادقين) أي الأنبياء (عن صدقهم) عما قالوه لقومهم أو ليسأل المصدقين للأنبياء عن تصديقهم لأن من قال للصادق صدقت كان صادقاً في قوله أو ليسأل الأنبياء ما الذي أجابتهم أممهم وهو كقوله يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم (وأعد للكافرين) بالرسل (عذاباً أليماً) وهو عطف على أخذنا لأن المعنى ان الله أكد على الأنبياء الدعوة الى دينه لأجل اثابة المؤمنين وأعد للكافرين عذاباً أليماً أو على ما دل عليه ليسأل الصادقين كأنه قال فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) أي ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب وهو يوم الخندق وكان بعد حرب أحد بسنة (اذ جاءتكم جنود) أي الأحزاب وهم قريش وغطفان وقريظة والنضير (فأرسلنا عليهم ريحاً) أي الصبا قال عليه السلام نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور (وجنوداً لم تروها) وهم الملائكة وكانوا ألفاً بعث الله عليهم صبا باردة في ليلة شاتية فأخصرتهم وسفت التراب في وجوههم وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب وأطفأت النيران وأكفأت القدور وماجت الخيل بعضها في بعض وقذف في قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة في جوانب عسكرهم فانهزموا من غير قتال وحين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم باقبالهم ضرب الخندق على المدينة باشارة سلمان ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنسوان فرفعوا في الآطام واشتد الخوف وكانت قريش قد أقبلت في عشرة آلاف من الأحابيش وبني كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان وخرج غطفان في ألف ومن تابعهم من أهل نجد وقائدهم عيينة بن حصن وعامر ابن الطفيل في هوازن وضامتهم اليهود من قريظة والنضير ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم الا الترامي بالنبل والحجارة حتى أنزل الله النصر (وكان الله بما تعملون) أي بعملكم أيها المؤمنون من التحصن بالخندق والثبات على معاونة النبي صلى الله عليه وسلم (بصيراً) وبالياء أبو عمرو أي بما يعمل الكفار

وسلم سلمان منا أهل البيت قال عمرو بن عوف كنت أنا وسلمان وحذيفة والنعمان بن مقرن المزني وستة من الانصار في أربعين ذراعا فحفرنا حتى اذا كنا تحت أخرج الله من بطن الخندق صخرة مروة حتى كسرت حديدنا وشقت علينا فقلنا يا سلمان ارق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واخبره بخبر هذه الصخرة فاما ان يعدل عنها فان المعدل قريب واما ان يأمرنا فيها بأمره فانا لا نحب أن نجاوز خطه قال فرقى سلمان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ضارب عليه قبة تركية فقال يا رسول الله خرجت لنا صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما يحيك فيها منها شئ قليل ولا كثير فمرنا فيها بأمرك فانا لا نحب ان نجاوز خطك فهبط رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سلمان الى الخندق واستند على شق الخندق وأخذ عليه السلام المعول من سلمان وضربها به ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها يعني المدينة حتى كانه مصباح في جوف بيت مظلم فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون معه ثم ضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم الثانية فبرق منها برق حتى أضاء ما بين لابتيها حتى لكان مصباحا في جوف بيت مظلم فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون معه ثم ضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكسرها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتى لكان مصباحا في جوف بيت مظلم فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون معه وأخذ بيد سلمان ورقى فقال بأبي انت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئا ما رأيت مثله قط فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم الى القوم وقال أرأيتم ما يقول سلمان قالوا نعم يا رسول الله قال ضربت ضربتي الاولى فبرق البرق الذي رأيتم فاضاءلي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كانها انياب الكلاب وأخبرني جبريل ان أمتي ظاهرة عليها ثم ضربت ضربتي الثانية فبرق البرق الذي رأيتم اضاءلي منها قصور قيصر من أرض الروم كانها انياب الكلاب فأخبرني جبريل ان أمتي ظاهرة عليها ثم ضربت الثالثة فبرق الذي رأيتم اضاءلي منها قصور صنعاء كانها انياب الكلاب فاخبرني جبريل ان أمتي ظاهرة عليها فابشروا فاستبشر المسلمون وقالوا الحمد لله موعد صدق وعدنا النصر بعد الحصر فقال المنافقون الا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم انه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وانها تفتح لكم وأنتم انما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون ان تبرزوا قال فنزل القرآن واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا وأنزل الله قل اللهم مالك الملك الآية

(ق) عن أنس قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخندق فاذا المهاجرون والانصار يحفرون في غداة باردة ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال اللهم ان العيش عيش الآخرة فاغفر للانصار والمهاجرة فقالوا مجيبين له

نحن الذين بايعوا محمدا * على الجهاد ما حيينا أبدا

عن البراء بن عازب قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ينقل معنا التراب وهو يقول

والله لولا الله ما اهتدينا * ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا * وثبت الاقدام ان لاقينا

والمشركون قد بغوا علينا * اذا أرادوا فتنة أبينا

ويرفع بها صوته وفي رواية قد وارى التراب بياض ابطيه رجعنا الى حديث ابن اسحاق قال فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الاسيال من دومة من الجرف والغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تابعهم من بني كنانة وأهل تهامة واقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نعمى الى جانب أحد وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه حتى جعلوا ظهورهم الى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء فرفعوا الى الآطام وخرج عدو الله حيي بن أخطب من بني النضير حتى

أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وكان قد وادع رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه وعاهده على ذلك فلما سمع صوت ابن أخطب أغلق دونه حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه حيي يا كعب افتح لنا فقال ويحك يا حيي انك امرؤ مشؤم انى قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه الا وفاء وصدقا فقال ويحك افتح أكلمك قال ما أنا بفاعل قال والله ان أغلقت دوني الا تخوفا ان آكل معك فأحفظ الرجل ففتح له فقال ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وبحر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الاسيال من رومة وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى الى جانب أحد قد عاهدوني وعاقدوني ان لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه فقال له كعب جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هرق ماؤه برعد وبرق ليس فيه شئ دعني ومحمدا وما أنا عليه فاني لم أر من محمد الا صدقا ووفاء فلم يزل حيي بن أخطب بكعب يفتله في الذروة والغارب حتى سمح له على ان أعطاه من الله عهدا وميثاقا لئن رجعت قريش ولم يصيبوا محمدا ان أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك فنقض كعب بن أسد العهد وبرئ مما كان عليه فيما بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انتهى الخبر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والى المسلمين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ أحد بني عبد الاشهل وهو يومئذ سيد الاوس وسعد بن عبادة احد بني ساعدة وهو يومئذ سيد بني الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة اخو الحارث بن الخزرج وخوات بن جبير اخو بني عمرو بن عوف فقال انطلقوا حتى تنظروا ما بلغنا عن هؤلاء القوم أحق أم لا فان كان حقا فالحنوا الي لحنا أعرفه ولا تفتوا اعضاد الناس وان كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على اخبث ما بلغهم عنهم ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا لا عقد بيننا وبينه ولا عهد فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه وكان رجلا عنده حدة فقال له سعد بن معاذ دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم اربى من المشاتمة ثم اقبل سعد وسعد ومن معهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا وقالوا عضل والقارة اي كغدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحاب الرجيع خبيب بن عدي واصحابه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله اكبر ابشروا يا معشر المسلمين وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن اسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال معتب بن قشير اخو بني عمرو بن عوف كان محمد يعدنا ان نأكل كنوز كسرى وقيصر واحدنا لا يقدر ان يذهب الى الغائط ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا وقال اوس بن قيظي احد بني حارثة يا رسول الله ان بيوتنا عورة من العدو وذلك على ملأ من رجال قومه فائذن لنا فلنرجع الى ديارنا فانها خارجة من المدينة فاقام رسول الله صلى الله عليه وسلم واقام المشركون بضعا وعشرين ليلة قريبا من شهر ولم يكن بين القوم حرب الا الرمي بالنبل والحصى فلما اشتد البلاء على الناس بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عيينة بن حصن والى الحرث بن عوف وهما قائدا غطفان فاعطاهما ثلث ثمار المدينة على ان يرجعا بمن معهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه فجرى بينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما فيه فقالا يا رسول الله أشئ امرك الله به لا بد لنا من العمل به ام امر تحبه فتصنعه أم شئ تصنعه لنا قال بل شئ اصنعه لكم والله ما اصنع ذلك الا اني قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فاردت ان اكسر عنكم شوكتهم فقال له سعد بن معاذ يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله وعبادة الاصنام لا نعبد الله ولا نعرفه ولا يطمعون ان يأكلوا منا ثمرة واحدة الا قرى أو بيعا أفحين اكرمنا الله بالاسلام وعزنا بك نعطيهم أموالنا ما لنا بهذا من حاجة والله ما نعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انت وذاك فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتابة ثم قال ليجهدوا علينا فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون

وعدوهم محاصروهم ولم يكن بينهم قتال الا ان فوارس من قريش عمرو بن عبد ود اخو بني عامر بن
لؤى وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب ونوفل بن عبد الله بن ضرار بن الخطاب ومرداس
أخو بني محارب بن فهر قد تلبسوا للقتال وخرجوا على خيلهم فمروا على بني كنانة فقالوا تهيؤا للحرب
يا بني كنانة فستعلمون اليوم من الفرسان ثم اقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا عليه فلما رأوه قالوا والله هذه
مكيدة ما كانت العرب تكيدها ثم تيمموا مكانا من الخندق ضيقا وضربوا خيولهم فاقتحمت منه فجالت
بهم في السبخة بين الخندق وسلع وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى اخذوا عليهم الثغرة
التي اقتحموا منها واقبلت الفرسان تعنق نحوهم وكان عمرو بن ود قاتل يوم بدر حتى اثبتته الجراحة
فلم يشهد احدا فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليرى مكانه فلما وقف هو وخيله قال علي يا عمرو انك
كنت تعاهد الله لا يدعوك رجل من قريش الى خلتين الا اخذت منه احداهما قال أجل قال له
علي فاني ادعوك الى الله ورسوله والى الاسلام قال لا حاجة لي بذلك قال اني ادعوك الى البراز قال ولم
يا ابن أخي فوالله ما احب اني اقتلك فقال علي لكني والله أحب ان اقتلك فحمي عمرو عند ذلك فاقتحم
عن فرسه فعقره أو ضرب وجهه ثم أقبل على علي فتنازلا وتجاولا فقتله علي وخرجت خيله منهزمة حتى
اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار أصابه
سهم فمات بمكة ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي وكان اقتحم الخندق فتورط فيه فرموه بالحجارة
فقال يا معشر العرب قتلة احسن من هذه فنزل اليه علي فقتله فغلب المسلمون على جسده فسألوا رسول
الله صلى الله عليه وسلم ان يبيعهم جسده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا حاجة لنا في جسده وثمنه
فشأنكم به فخلى بينهم وبينه قالت عائشة أم المؤمنين كنا يوم الخندق في حصن بني حارثة وكان من احرز
حصون المدينة وكانت أم سعد بن معاذ معنا في الحصن وذلك قبل ان يضرب علينا الحجاب فمر سعد بن معاذ
وعليه درع مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلها وفي يده حربة وهو يقول * لا بأس بالموت اذا حان الاجل *
فقالت له الحق يا بني فقد والله اخرت قالت عائشة فقلت يا أم سعد والله لوددت ان درع سعد كانت اسبغ
مما هي وخفت عليه حيث أصاب السهم منه قالت فرمي سعد يومئذ بسهم فقطع منه الاكحل رماه حبان
ابن قيس بن العرقة أحد بني عامر بن لؤى فلما أصابه قال خذها وانا ابن العرقة قال سعد عرق الله وجهك
في النار ثم قال سعد اللهم ان كنت ابقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها فانه لا قوم أحب لي ان اجاهدهم
من قوم آذوا رسولك وكذبوه واخرجوه وان كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة ولا تمتني
حتى تقر عيني من بني قريظة وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية قال محمد بن اسحاق فيما بلغه ان صفية
بنت عبد المطلب كانت في فارع حصن حسان بن ثابت قالت وكان حسان معنا مع النساء والصبيان
قالت صفية فمر بنا رجل من اليهود فجعل يطوف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها
وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون في نحر عدوهم لا يستطيعون ان ينصرفوا الينا عنهم اذ أتانا
آت قالت فقلت يا حسان ان هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن واني والله ما آمنه ان يدل على
عورتنا من وراءنا من اليهود وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانزل اليه فاقتله
فقال يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا قالت فلما قال لي ذلك ولم ار
عنده شيئا اعتجرت ثم أخذت عمودا ثم نزلت من الحصن اليه فضربته بالعمود حتى قتلته فلما فرغت منه
رجعت الى الحصن فقلت يا حسان انزل اليه فاسلبه فانه لم يمنعني من سلبه الا انه رجل قال مالي بسلبه
حاجة يا بنت عبد المطلب قالوا وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيما وصف الله من الخوف
والشدة لتظاهر عدوهم واتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم ثم ان نعيم بن مسعود بن عامر بن غطفان أتى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني قد أسلمت وان قومي لم يعلموا باسلامي فأمرني بما شئت

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما أنت فينا رجل واحد منا فخذل عنا ان استطعت فان الحرب خدعة فخرج نعيم بن مسعود حتى اتى بنى قريظة وكان نديما لهم فى الجاهلية فقال لهم يا بنى قريظة قد عرفتم ودى اياكم وخاصة ما بينى وبينكم قالوا صدقت لست عندنا بمتهم فقال لهم ان قريشا وغطفان جاؤا لحرب محمد وقد ظاهرتموهم عليه وان قريشا وغطفان ليسوا كهيئتكم البلد بلدكم به أموالكم وأولادكم ونساؤكم لا تقدرون على ان تتحولوا منه الى غيره وان قريشا وغطفان أموالهم وأبناؤهم ونساؤهم بغيره ان رأوا نهزة وغنيمة أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين هذا الرجل والرجل ببلدكم لا طاقة لكم به ان خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمدا حتى تناجزوه قالوا لقد أشرت برأى ونصح ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لابى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش قد عرفتم ودى اياكم وفراقى محمدا فقد بلغنى امر رأيت حقا على ان ابلغكم نصحا لكم فاكتموا على قالوا نفعل قال تعلمون ان معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد وقد أرسلوا اليه ان قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك عنا ان تأخذ من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم فأرسل اليهم ان نعم فان بعثت اليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحدا ثم خرج حتى أتى غطفان فقال يا معشر غطفان أنتم أهلى وعشيرتى وأحب الناس الى ولا أراكم تتهمونى قالوا صدقت قال فاكتموا على قالوا نفعل فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم مثل حذرهم فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان مما صنع الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أرسل أبو سفيان ورؤس غطفان الى بنى قريظة عكرمة ابن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم انا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه فأرسلوا اليهم ان اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا وقد كان احدث فيه بعضنا حدثا فأصابهم ما لم يخف عليكم ولسنا مع ذلك بالذى نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا فانا نخشى ان ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال ان تسيروا الى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا بذلك من محمد فلما رجعت اليهم الرسل بالذى قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان تعلمن والله ان الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحق فأرسلوا الى بنى قريظة انا والله لا ندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا فقالت بنو قريظة حين انتهت اليهم الرسل بهذا ان الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق ما يريد القوم الا ان يقاتلوا فان وجدوا فرصة انتهزوها وان كان غير ذلك شمروا الى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم فأرسلوا الى قريش وغطفان انا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا فأبوا عليهم وخذل الله عز وجل بينهم وبعث عليهم الريح فى ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم فلما انتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اختلف من أمرهم دعا حذيفة بن اليمان فبعثه اليهم لينظر ما فعل القوم ليلا وروى محمد بن اسحاق عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى وروى غيره عن ابراهيم التيمى عن أبيه قالا قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان يا أبا عبد الله رأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه قال نعم يا ابن أخى قال كيف كنتم تصنعون قال والله لقد كنا نجهد قال الفتى والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الارض ولحملناه على أعناقنا ولخدمناه وفعلنا معه ما فعلنا فقال حذيفة يا ابن أخى والله لقد رأيتنى ليلة الاحزاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من يذهب الى هؤلاء القوم فيأتينا بخبرهم أدخله الله الجنة فما قام منا رجل ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل ثم التفت الينا فقال مثله فسكت القوم وما قام منا رجل ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل ثم التفت الينا فقال هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم على ان يكون رفيقى فى الجنة فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد فلما لم يقم أحد دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا حذيفة ولم يكن لى بد من

من البغي والسعي في اطفاء نور الله (اذ جاؤكم) بدل من اذ جاءتكم (من فوقكم) اى من أعلى الوادى من قبل المشرق بنو غطفان (ومن أسفل منكم) من أسفل الوادى من قبل المغرب قريش (واذ زاغت الابصار) مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة او عدلت عن كل شئ فلم تلتفت الا الى عدوها لشدة الروع (وبلغت القلوب الحناجر) الحنجرة رأس الغلصمة وهى منتهى الحلقوم والحلقوم مدخل الطعام والشراب قالوا اذا انتفخت الرئة من شدة الفزع أو الغضب ربت وارتفع القلب بارتفاعها الى رأس الحنجرة وقيل هو مثل فى اضطراب القلوب وان لم تبلغ الحناجر حقيقة روى ان المسلمين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم هل من شئ نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر قال نعم قولوا اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا (وتظنون بالله الظنونا) خطاب للذين آمنوا ومنهم الثبت القلوب والاقدام والضعاف القلوب الذين هم على حرف والمنافقون فظن الاولون بالله انه يبتليهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال وأما الآخرون فظنوا بالله ما حكى عنهم قرأ أبو عمرو وحمزة الظنون بغير الف فى الوصل والوقف وهو القياس وبالالف فيهما مدنى وشامى وأبو بكر اجراء للوصل مجرى الوقف وبالالف فى الوقف مكى وعلى وحفص ومثله الرسولا والسبيلا زادوها فى الفاصلة كما زادها فى القافية من قال

اقلى اللوم عاذل والعتابا

وهن كلهن فى الامام بالالف (هنالك ابتلى المؤمنون) امتحنوا بالصبر على الايمان (وزلزلوا زلزالا شديدا) وحركوا بالخوف تحريكا بليغا (واذ يقول المنافقون) عطف على الاول (والذين فى قلوبهم مرض) قيل هو وصف المنافقين بالواو كقوله

الى الملك القرم وابن الهمام

وليث الكتيبة فى المزدحم

وقيل هم قوم لا بصيرة لهم فى الدين كان المنافقون يستميلونهم بادخال الشبه عليهم (ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا) روى ان معتب ابن قشير حين رأى الاحزاب قال يعدنا محمد فتح فارس والروم واحدنا لا يقدر ان يتبرز فرقا ما هذا الا وعد غرور (واذ قالت طائفة منهم) من المنافقين وهم عبد الله بن أبى وأصحابه (يا أهل يثرب) هم أهل المدينة (لا مقام لكم) وبضم الميم حفص أى لا قرار لكم ههنا ولا مكان تقومون فيه أو تقيمون (فارجعوا) عن الايمان الى الكفر او من عسكر رسول الله الى المدينة (ويستأذن فريق منهم النبى) أى بنو حارثة (يقولون ان بيوتنا عورة) اى ذات عورة

القيام حين دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لبيك يا رسول الله وقمت حتى أتيته فأخذ بيدى ومسح رأسى ووجهى ثم قال ائت هؤلاء القوم حتى تأتينى بخبرهم ولا تحدثن شيئا حتى ترجع الى ثم قال اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته فأخذت سهمى وشددت على اسلابى ثم انطلقت امشى نحوهم كأنما امشى فى حمام فذهبت فدخلت فى القوم وقد أرسل الله عليهم ريحا وجنودا وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء قال وأبو سفيان قاعد يصطلى فأخذت سهما فوضعته فى كبد قوسى فأردت ان أرميه ولو رميته لاصبته فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحدثن حدثا حتى ترجع فرددت سهمى فى كنانتى فلما رأى أبو سفيان ما تفعل الريح وجنود الله بهم لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء قام فقال يا معشر قريش ليأخذ كل منكم بيد جليسه فلينظر من هو فأخذت بيد جليسى فقلت من أنت فقال سبحان الله اما تعرفنى أنا فلان بن فلان رجل من هوازن فقال أبو سفيان يا معشر قريش انكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف واخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون فارتحلوا فانى مرتحل ثم قام الى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب على ثلاث فما اطلق عقاله الا وهو قائم وسمعت غطفان بما فعلت قريش فاستمروا راجعين الى بلادهم قال فرجعت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنى امشى فى حمام فأتيته وهو قائم يصلى فلما أخبرته ضحك حتى بدت انيابه فى سواد الليل فلما أخبرته وفرغت قررت وذهب عنى الدفاء فادنانى النبى صلى الله عليه وسلم فأنامنى عند رجليه وألقى على طرف ثوبه والصق صدرى ببطن قدميه فلم ازل نائما حتى أصبحت فلما أصبحت قال قم يا نومان فذلك قوله عز وجل (اذ جاؤكم من فوقكم) أى من فوق الوادى من قبل المشرق وهم اسد وغطفان وعليهم مالك بن عوف النضرى وعيينة بن حصن الفزارى فى ألف من غطفان ومعهم طليحة بن خويلد الاسدى فى بنى اسد وحيى بن اخطب فى يهود قريظة (ومن أسفل منكم) يعنى من بطن الوادى من قبل المغرب وهم قريش وكنانة عليهم أبو سفيان بن حرب من قريش ومن تبعه وأبو الاعور عمرو بن سفيان السلمى من قبل الخندق وكان الذى جر غزوة الخندق فيما قيل اجلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير من ديارهم (واذ زاغت الابصار) أى مالت وشخصت من الرعب وقيل مالت عن كل شئ فلم تنظر الى عدوها (وبلغت القلوب الحناجر) أى زالت عن أماكنها حتى بلغت الحلوق من الفزع والحنجرة جوف الحلقوم وهذا على التمثيل عبر به عن شدة الخوف وقيل معناه انهم جبنوا وسبيل الجبان اذا اشتد خوفه ان تنتفخ رئته واذا انتفخت رئته رفعت القلب الى الحنجرة فلهذا يقال للجبان انتفخ سحره (وتظنون بالله الظنونا) اى اختلفت الظنون بالله فظن المنافقون استئصال محمد وأصحابه وظن المؤمنون النصر والظفر لهم (هنالك ابتلى المؤمنون) أى عند ذلك اختبر المؤمنون بالحصر والقتال ليتبين المخلصون من المنافقين (وزلزلوا زلزالا شديدا) أى حركوا حركة شديدة (واذ يقول المنافقون) يعنى معتب بن قشير وقيل عبد الله بن أبى وأصحابه (والذين فى قلوبهم مرض) أى شك وضعف اعتقاد (ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا) هو قول أهل النفاق يعدنا محمد فتح قصور الشام وفارس واحدنا لا يستطيع ان يجاوز رحله هذا هو الغرور قوله تعالى (واذ قالت طائفة منهم) اى من المنافقين وهم أوس بن قيظى وأصحابه (يا أهل يثرب) يعنى يا أهل المدينة وقيل يثرب اسم الارض ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فى ناحية منها سميت يثرب باسم رجل من العماليق كان قد نزلها فى قديم الزمان وفى بعض الاخبار ان النبى صلى الله عليه وسلم نهى ان تسمى المدينة يثرب وقال هى طيبة كأنه كره هذه اللفظة لما فيها من التثريب وهو التقريع والتوبيخ (لا مقام لكم) اى لا مكان لكم تنزلون وتقيمون فيه (فارجعوا) اى الى منازلكم وقيل عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وقيل عن القتال (ويستأذن فريق منهم النبى) يعنى بنى حارثة وبنى سلمة (يقولون ان بيوتنا عورة) أى خالية ضائعة وهى مما يلى العدو ويخشى عليها السراق فكذبهم

(وما هي بعورة ان يريدون الا فرارا) العورة الخلل والعورة ذات العورة وهي قراءة ابن عباس يقال عور المكان عورا اذا بدا منه خلل يخاف منه العدو والسارق ويجوز ان يكون عورة تخفيف عورة اعتذروا ان بيوتهم عرضة للعدو والسارق لانها غير محصنة فاستأذنوه ليحصنوها ثم يرجعوا اليه فاكذبهم الله بانهم لا يخافون ذلك وانما يريدون الفرار من القتال (ولو دخلت عليهم) المدينة او بيوتهم من قولك دخلت على فلان داره (من اقطارها) من جوانبها اى ولو دخلت هذه العساكر المتحزبة التى يفرون خوفا منها مدينتهم أو بيوتهم من نواحيها كلها وانثالت على أهاليهم وأولادهم ناهبين سابين (ثم سئلوا) عند ذلك الفزع (الفتنة) أى الردة والرجعة

الى الكفر ومقاتلة المسلمين (لآتوها) لاعطوها ولأتوها بلا مد بمعنى أى لجاؤها وفعلوها (وما تلبثوا بها) باجابتها (الا يسيرا) ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف أو ما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم الا يسيرا فان الله يهلكهم والمعنى انهم يتعللون باعورار بيوتهم ليفروا عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وعن مصافة الاحزاب الذين ملأوهم هولا ورعبا وهؤلاء الاحزاب كما هم لو كبسوا عليهم أرضهم وديارهم وعرض عليهم الكفر وقيل لهم كونوا على المسلمين لسارعوا اليه وما تعللوا بشئ وما ذلك الا لمقتهم الاسلام وحبهم الكفر (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل) أى بنو حارثة من قبل الخندق أو من قبل نظرهم الى الاحزاب (لا يولون الادبار) منهزمين (وكان عهد الله مسؤلا) مطلوبا مقتضى حتى يوفى به (قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل واذا لا تمتعون الا قليلا) أى ان كان حضر أجلكم لم ينفعكم الفرار وان لم يحضر وفررتم لم تمتعوا فى الدنيا الا قليلا وهو مدة اعماركم وذلك قليل وعن بعض المروانية انه مر بحائط مائل فأسرع فتليت له هذه الآية فقال ذلك القليل نطلب (قل من ذا الذى يعصمكم من الله) أى مما أراد الله انزاله بكم (ان أراد بكم سوأ) فى أنفسكم من قتل او غيره (او أراد بكم رحمة) أى اطالة عمر فى عافية وسلامة او من يمنع الله من ان يرحمكم ان أراد بكم رحمة لما فى العصمة من معنى المنع (ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) ناصرا (قد يعلم الله المعوقين منكم) أى من يعوق عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أى يمنع وهم المنافقون (والقائلين لاخوانهم) فى الظاهر من المسلمين (هلم الينا) أى قربوا أنفسكم الينا ودعوا محمدا وهى لغة أهل الحجاز فانهم يسوون فيه بين الواحد والجماعة وأما تميم فيقولون هلم يا رجل وهلموا يا رجال وهو صوت سمى به فعل متعد نحو احضر وقرب (ولا يأتون البأس) أى الحرب (الا قليلا) الا اتيانا قليلا أى يحضرون ساعة رياء ويقفون قليلا مقدار ما يرى شهودهم ثم ينصرفون (أشحة) جمع شحيح وهو البخيل نصب على الحال من الضمير فى يأتون أى يأتون الحرب بخلاء (عليكم) بالظفر والغنيمة (فاذا جاء الخوف) من قبل العدو او منه عليه السلام (رأيتهم ينظرون اليك) فى تلك الحالة (تدور اعينهم) يمينا وشمالا (كالذى يغشى عليه من الموت) كما ينظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذرا وخوفا ولواذا بك (فاذا ذهب الخوف) زال ذلك الخوف وأمنوا وحيزت الغنائم (سلقوكم بألسنة حداد) خاطبوكم مخاطبة شديدة وآذوكم بالكلام خطيب مسلق فصيح ورجل مسلاق مبالغ فى الكلام أى يقولون وفروا قسمتنا فانا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم وبمكاننا غلبتم عدوكم

الله تعالى بقوله (وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا) اى انهم لا يخافون ذلك انما يريدون الفرار من القتال (ولو دخلت عليهم من أقطارها) يعنى لو دخل هؤلاء الجيوش الذين يريدون قتالهم وهم الاحزاب من نواحى المدينة وجوانبها (ثم سئلوا الفتنة) اى الشرك (لآتوها) اى لجاؤها وفعلوها ورجعوا عن الاسلام (وما تلبثوا بها) اى ما احتبسوا عن الفتنة (الا يسيرا) اى لاسرعوا الاجابة الى الشرك طيبة به نفوسهم وقيل معناه وما أقاموا بالمدينة بعد اعطاء الكفر الا قليلا حتى يهلكوا وقوله عز وجل (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل) اى من قبل غزوة الخندق (لا يولون الادبار) أى لا ينهزمون قيل هم بنو حارثة هموا يوم أحد ان يفشلوا مع بنى سلمة فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا الله أن لا يعودوا لمثلها وقيل هم اناس غابوا عن وقعة بدر فلما رأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة قالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن فساق الله اليهم ذلك (وكان عهد الله مسؤلا) أى عنده فى الآخرة (قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل) يعنى الذى كتب عليكم لان من حضر أجله مات او قتل لا بد من ذلك (واذا لا تمتعون) أى بعد الفرار (الا قليلا) أى مدة آجالكم وهى قليل (قل من ذا الذى يعصمكم) اى يمنعكم (من الله ان أراد بكم سوءا) اى هزيمة (أو أراد بكم رحمة) اى نصرا (ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) أى ناصرا يمنعهم (قد يعلم الله المعوقين منكم) اى المثبطين الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (والقائلين لاخوانهم هلم الينا) اى ارجعوا الينا ودعوا محمدا صلى الله عليه وسلم فلا تشهدوا معه الحرب فانا نخاف عليكم الهلاك قيل هم اناس من المنافقين كانوا يثبطون انصار النبى صلى الله عليه وسلم ويقولون لهم ما محمد وأصحابه الا أكلة رأس ولو كانوا لحما لالتهمهم أى ابتلعهم ابو سفيان وأصحابه دعوا الرجل فانه هالك وقيل نزلت فى المنافقين وذلك ان اليهود أرسلت اليهم ما الذى يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبى سفيان ومن معه فانهم ان قدروا عليكم فى هذه المرة لم يستبقوا منكم أحدا وانا نشفق عليكم فانتم اخواننا وجيراننا هلموا الينا فأقبل عبد الله بن أبى بن سلول وأصحابه على المؤمنين يعوقونهم ويخوفونهم بأبى سفيان ومن معه وقالوا لئن قدر اليوم عليكم لم يستبق منكم أحدا ما ترجون عن محمد ما عنده خير ما هو الا ان يقتلنا ههنا انطلقوا بنا الى اخواننا يعنى اليهود فلم يزدد المؤمنون بقول المنافقين الا ايمانا واحتسابا وقوله تعالى (ولا يأتون البأس) يعنى الحرب (الا قليلا) اى رياء وسمعة من غير احتساب ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيرا (أشحة عليكم) أى بخلاء بالنفقة فى سبيل الله والنصرة وصفهم الله بالبخل والجبن (فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم) أى فى رؤسهم من الخوف والجبن (كالذى يغشى عليه من الموت) أى كدوران عين الذى قرب من الموت وغشيه أسبابه فانه يذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف (فاذا ذهب الخوف) اى زال (سلقوكم) اى آذوكم ورموكم فى حالة الامن (بألسنة حداد) اى ذربة تفعل كفعل الحديد قال ابن عباس معناه عضوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة وقيل بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنيمة يقولون اعطونا فانا شهدنا

معكم القتال فلستم بأحق بالغنيمة منا فهم عند الغنيمة أشجع قوم وعند الحرب أجبن قوم (أشحة على الخير) أي يشاحون المؤمنين عند الغنيمة فعلى هذا المعنى يكون المراد بالخير المال (أولئك لم يؤمنوا) اي لم يؤمنوا حقيقة الايمان وان أظهروا الايمان لفظا (فأحبط الله أعمالهم) اى التى كانوا يأتون بها مع المسلمين قيل هي الجهاد وغيره (وكان ذلك على الله يسيرا) اى احباط أعمالهم مع ان كل شئ على الله يسير قوله تعالى (يحسبون) يعني هؤلاء المنافقين (الاحزاب) يعني قريشا وغطفان واليهود (لم يذهبوا) اى لم ينصرفوا عن قتالهم جبنا وفرقا وقد انصرفوا عنهم (وان يأت الاحزاب) اى يرجعوا اليهم للقتال بعد الذهاب (يودوا لو انهم بادون فى الاعراب) اى يتمنون لو انهم كانوا فى بادية مع الاعراب من الجبن والخوف (يسألون عن أنبائكم) اى عن اخباركم وما آل اليه أمركم (ولو كانوا فيكم) يعنى هؤلاء المنافقين (ماقاتلوا الا قليلا) يعنى يقاتلون قليلا يقيمون به عذرهم فيقولون قد قاتلنا معكم وقيل هو الرمي بالحجارة وقيل رياء من غير احتساب قوله عز وجل (لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة) أى قدوة صالحة اى اقتدوا به اقتداء حسنا وهو ان تنصروا دين الله وتوازروا رسوله ولا تتخلفوا عنه وتصبروا على ما يصيبكم كما فعل هو اذ قد كسرت رباعيته وجرح وجهه وقتل عمه وأوذي بضروب الاذى فصبر وواساكم مع ذلك بنفسه فافعلوا أنتم كذلك أيضا واستنوا بسنته (لمن كان يرجو الله) يعني ان الاسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كان يرجو الله قال ابن عباس يرجو ثواب الله (واليوم الآخر) يعني ويخشى يوم البعث الذى فيه الجزاء (وذكر الله كثيرا) أى فى جميع المواطن على السراء والضراء ثم وصف حال المؤمنين عند لقاء الاحزاب فقال تعالى (ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله) أى قالوا ذلك تسليما لامر الله وتصديقا بوعده (وصدق الله ورسوله) أى فيما وعدا وهو فى مقابلة قول المنافقين ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا وقولهم وصدق الله ورسوله ليس اشارة الى ما وقع فانهم كانوا يعرفون صدق الله ورسوله قبل الوقوع وانما هو اشارة الى البشارة فى جميع ما وعد فيقع الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس وقيل انهم وعدوا ان تلحقهم شدة وبلاء فلما رأوا الاحزاب وما أصابهم من الشدة قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله (وما زادهم الا ايمانا) أى تصديقا لله (وتسليما) أى لامره قوله تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) أى قاموا بما عاهدوا الله عليه ووفوا به (فمنهم من قضى نحبه) اى فرغ من نذره ووفى بعهده وصبر على الجهاد حتى استشهد وقيل قضى نحبه يعني أجله فقتل على الوفاء يعني حمزة وأصحابه وقيل قضى نحبه أى بذل جهده فى الوفاء بالعهد وقيل قضى نحبه استشهد يوم بدر واحد (ومنهم من ينتظر) يعني من بقي بعد هؤلاء من المؤمنين ينتظرون أحد الامرين اما الشهادة او النصر على الاعداء (وما بدلوا) يعني عهدهم (تبديلا) (ق) عن أنس قال غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن اشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما اصنع فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال اللهم اني اعتذر اليك مما صنع هؤلاء يعني أصحابه وابرأ اليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر اني أجد ريحها من دون أحد قال سعد فما استطعت يا رسول الله ما صنع قال أنس فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون

(أشحة على الخير) أى خاطبوكم أشحة على المال والغنيمة وأشحة حال من فاعل سلقوكم (أولئك لم يؤمنوا) فى الحقيقة بل بالالسنة (فأحبط الله أعمالهم) ابطل باضمارهم الكفر ما أظهروه من الاعمال (وكان ذلك) احباط أعمالهم (على الله يسيرا) هينا (يحسبون الاحزاب لم يذهبوا) أى لجبنهم يظنون ان الاحزاب لم ينهزموا ولم ينصرفوا مع انهم قد انصرفوا (وان يأت الاحزاب) كرة ثانية (يودوا لو انهم بادون فى الاعراب) البادون جمع البادى أى يتمنى المنافقون لجبنهم انهم خارجون من المدينة الى البادية حاصلون بين الاعراب ليأمنوا على أنفسهم ويعتزلوا مما فيه الخوف من القتال (يسألون) كل قادم منهم من جانب المدينة (عن انبائكم) عن اخباركم وعما جرى عليكم (ولو كانوا فيكم) ولم يرجعوا الى المدينة وكان قتال (ماقاتلوا الا قليلا) رياء وسمعة (لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة) بالضم حيث كان عاصم اى قدوة وهو المؤتسى به أى المقتدى به كما تقول فى البيضة عشرون منا حديدا أى هى فى نفسها هذا المبلغ من الحديد أو فيه خصلة من حقها ان يؤتسى بها حيث قاتل بنفسه (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) أى يخاف الله ويخاف اليوم الآخر أو يأمل ثواب الله ونعيم اليوم الآخر قالوا لمن بدل من لكم وفيه ضعف لانه لا يجوز البدل من ضمير المخاطب وقيل ان يتعلق بحسنة أى اسوة حسنة كائنة لمن كان (وذكر الله كثيرا) أى فى الخوف والرجاء والشدة والرخاء (ولما رأى المؤمنون الاحزاب) وعدهم الله ان يزلزلوا حتى يستغيثوه ويستنصروه بقوله أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم الى قوله قريب فلما جاء الاحزاب واضطربوا ورعبوا الرعب الشديد (قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله) وعلموا ان الغلبة والنصرة قد وجبت لهم وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه ان الاحزاب سائرون اليكم فى آخر تسع ليال او عشر فلما رأوهم قد اقبلوا للميعاد قالوا ذلك وهذا اشارة الى الخطب والبلاء (وما زادهم) ما رأوا من اجتماع الاحزاب عليهم ومجيئهم (الا ايمانا) بالله وبمواعيده (وتسليما) لقضائه وقدره (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) أى فيما عاهدوه عليه فحذف الجار كما فى المثل صدقنى سن بكره أى صدقنى فى سن بكره بطرح الجار وايصال الفعل نذر رجال من الصحابة انهم اذا لقوا حربا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة وسعد بن زيد وحمزة ومصعب وغيرهم (فمنهم من قضى نحبه) أى مات شهيدا كحمزة ومصعب وقضاء النحب صار عبارة عن الموت لان كل حى من المحدثات لابد له ان يموت فكأنه نذر لازم فى رقبته فاذا مات فقد قضى نحبه أى نذره (ومنهم من ينتظر) الموت أى على الشهادة كعثمان وطلحة (وما بدلوا) العهد (تبديلا) ولا غيروه لا المستشهد ولا من ينتظر الشهادة وفيه تعريض لمن بدلوا من أهل النفاق ومرض القلوب كما مر فى قوله تعالى ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار

مما عرفه أحد الا اخته ببنانه قال أنس كنا نرى او نظن ان هذه الآية نزلت فيه وفي اشباهه من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه الى آخر الآية (ق) عن خباب بن الارت قال هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نلتمس وجه الله فوقع أجرنا على الله فمنا من مات ولم يأكل من أجره شيئا منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد وترك نمرة وكنا اذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه واذا غطينا رجليه بدت رأسه فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نغطي رأسه ونجعل على رجليه من الاذخر ومنا من اينعت له ثمرته فهو يهدبها النمرة كساء ملون من صوف وقوله ومنا من اينعت اى ادركت ونضجت له ثمرته وهذه استعارة لما فتح الله لهم من الدنيا وقوله يهدبها أي يجتنيها ويقطعها عن أبي موسى بن طلحة قال دخلت على معاوية فقال الا ابشرك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول طلحة ممن قضى نحبه أخرجه الترمذي وقال هذا حديث غريب (خ) عن قيس بن أبي حازم قال رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد قوله عز وجل (ليجزي الله الصادقين بصدقهم) أي جزاء صدقهم وصدقهم هو الوفاء بالعهد (ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم) أي فيهديهم الى الايمان ويشرح له صدورهم (ان الله كان غفورا رحيما وردّ الله الذين كفروا) أي من قريش وغطفان (بغيظهم) أي لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا (لم ينالوا خيرا) أي ظفرا (وكفى الله المؤمنين القتال) أي بالملائكة والريح (وكان الله قويا) اى في ملكه (عزيزا) اى في انتقامه قوله تعالى (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب) اى عاونوا الاحزاب من قريش وغطفان على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين وهم بنو قريظة (من صياصيهم) أي من حصونهم ومعاقلهم واحدها صيصية (وقذف في قلوبهم الرعب) أي الخوف (فريقا تقتلون) يعني الرجال يقال كانوا ستمائة (وتأسرون فريقا) يعني النساء والذراري يقال كانوا سبعمائة وقيل وخمسين (وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها) يعني بعد قيل هي خيبر ويقال انها مكة وقيل فارس والروم وقيل هي كل أرض تفتح على المسلمين الى يوم القيامة (وكان الله على كل شئ قديرا)

(ذكر غزوة بني قريظة) قيل كانت في آخر ذي القعدة سنة خمس وعلى قول البخاري المتقدم في غزوة الخندق عن موسى بن عقبة انها كانت في سنة أربع قال العلماء بالسير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصبح من الليلة التي انصرف الاحزاب راجعين الى بلادهم انصرف صلى الله عليه وسلم والمؤمنون عن الخندق الى المدينة ووضعوا السلاح فلما كان الظهر أتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم متعمما بعمامة من استبرق على بغلة بيضاء عليها رحالة وعليها قطيفة من ديباج ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند زينب بنت جحش وهي تغسل رأسه وقد غسلت شقه فقال جبريل يا رسول الله قد وضعت السلاح قال نعم قال جبريل عفا الله عنك ما وضعت الملائكة السلاح منذ أربعين ليلة وما رجعت الآن الا من طلب القوم وروي انه كان الغبار على وجه جبريل وفرسه فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمسح الغبار عن وجهه ووجه فرسه فقال ان الله تعالى يأمرك بالمسير الى بني قريظة وأنا عامد الى بني قريظة فانهض اليهم فاني قد قطعت أوتارهم وفتحت أبوابهم وتركتهم في زلزال وبلبال فأمر النبي صلى الله عليه وسلم مناديا فأذن ان من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا في بني قريظة وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب برايته اليهم وابتدرها الناس وسار علي حتى اذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطريق فقال يا رسول الله لا عليك ان لا تدنو من هؤلاء الاخابث قال اظنك سمعت لي منهم اذى قال نعم يا رسول الله قال لو قد رأوني لم يقولوا من ذلك شيئا فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال يا اخوان القردة قد أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته قالوا يا أبا القاسم ما كنت جهولا ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه بالصورين قبل ان يصل الى بني قريظة فقال هل مر بكم أحد فقالوا يا رسول

(ليجزى الله الصادقين بصدقهم) بوفائهم بالعهد (ويعذب المنافقين ان شاء) اذا لم يتوبوا (او يتوب عليهم) ان تابوا (ان الله كان غفورا) بقبول التوبة (رحيما) بعفو الحوبة جعل المنافقون كأنهم قصدوا عاقبة السوء وارادوها بتبديلهم كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم لان كلا الفريقين مسوق الى عاقبته من الثواب والعقاب فكأنهما استويا في طلبها والسعي في تحصيلها (ورد الله الذين كفروا) الاحزاب (بغيظهم) حال أي مغيظين كقوله تنبت بالدهن (لم ينالوا خيرا) ظفرا أي لم يظفروا بالمسلمين وسماه خيرا بزعمهم وهو حال أي غير ظافرين (وكفى الله المؤمنين القتال) بالريح والملائكة (وكان الله قويا عزيزا) قادرا غالبا (وأنزل الذين ظاهروهم) عاونوا الاحزاب (من اهل الكتاب) من بني قريظة (من صياصيهم) من حصونهم والصيصية ما تحصن به روي ان جبريل عليه السلام اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الليلة التي انهزم فيها الاحزاب ورجع المسلمون الى المدينة ووضعوا سلاحهم على فرسه الحيزوم والغبار على وجه الفرس وعلى السرج فقال ما هذا يا جبريل قال من متابعة قريش فقال يا رسول الله ان الله يأمرك بالمسير الى بني قريظة وانا عامد اليهم فان الله داقهم دق البيض على الصفا وانهم لكم طعمة فأذن في الناس ان من كان سامعا مطيعا فلا يصلي العصر الا في بني قريظة فحاصروهم خمسا وعشرين ليلة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزلون على حكمي فابوا فقال على حكم سعد بن معاذ فرضوا به فقال سعد حكمت فيهم ان تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ونساؤهم فكبر النبي صلى الله عليه وسلم وقال لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة ارقعة ثم استنزلهم وخندق في سوق المدينة خندقا وقدمهم فضرب اعناقهم وهم من ثمانمائة الى تسعمائة وقيل كانوا ستمائة مقاتل وسبعمائة أسير (وقذف في قلوبهم الرعب) الخوف وبضم العين شامي وعلى ونصب (فريقا) بقوله (تقتلون) وهم الرجال (وتأسرون فريقا) وهم النساء والذراري (وأورثكم ارضهم وديارهم وأموالهم) أي المواشي والنقود والامتعة روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل عقارهم للمهاجرين دون الانصار وقال لهم انكم في منازلكم (وأرضا لم تطؤها) بقصد القتال وهي مكة أو فارس والروم او خيبر أو كل أرض تفتح الى يوم القيامة (وكان الله على كل شئ قديرا) قادرا

الله مر بنا دحية بن خليفة على بغلة بيضاء عليها رحالة وعليها قطيفة ديباج فقال صلى الله عليه وسلم ذاك جبريل عليه السلام بعث الى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب فى قلوبهم فلما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى قريظة نزل على بئر من آبارها فى ناحية أموالهم وتلاحق به الناس فأتاه رجال بعد صلاة العشاء الاخيرة ولم يصلوا العصر لقول النبى صلى الله عليه وسلم لا يصلين أحد العصر الا فى بنى قريظة فصلوا العصر بها بعد العشاء الاخيرة فما عابهم الله بذلك ولا عنفهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العلماء حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرعب وكان حيى بن اخطب دخل على بنى قريظة حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان ووفى لكعب بن أسد بما كان عاهده فلما ايقنوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد يامعشر يهود انكم قد نزل بكم من الامر ماترون وانى عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم قالوا وماهى قال نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم انه نبى مرسل وانه الذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دياركم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم فقالوا لا نفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره قال فاذا أبيتم هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج الى محمد وأصحابه رجالا مصلتين بالسيوف ولا نترك وراءنا ثقلا يهمنا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فان نهلك نهلك ولم نترك وراءنا شيئا نخشى عليه وان نظهر فلعمرى لنتخذن النساء والابناء قالوا انقتل هؤلاء المساكين فما فى العيش بعدهم خير قال فان أبيتم هذه الليلة ليلة السبت وانه عسى ان يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فانزلوا فلعلنا ان نصيب من محمد وأصحابه غرة قالوا انفسد سبتنا ونحدث فيه مالم يكن احدث فيه من قبلنا الا من قد علمت فأصابهم من المسخ مالم يخف عليك قال ما بات رجل منكم منذ ولدته امه حازما ليلة من الدهر ثم انهم بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابعث لنا ابا لبابة بن عبد المنذر أخا بنى عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الاوس نستشيره فى أمرنا فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فلما رأوه قام اليه الرجال والنساء والصبيان يبكون فى وجهه فرق لهم فقالوا يا أبا لبابة اترى ان ننزل على حكم محمد قال نعم وأشار بيده الى حلقه انه الذبح قال أبو لبابة فوالله مازالت قدماى حتى عرفت انى قد خنت الله ورسوله ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت النبى صلى الله عليه وسلم حتى ربط فى المسجد الى عمود من عمده وقال والله لا أبرح مكانى حتى يتوب الله على مما صنعت وعاهد الله لا يطأ ارض بنى قريظة أبدا ولا يرانى الله فى بلد قد خنت الله ورسوله فيه أبدا فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره وابطأ عليه قال اما لو قد جاءنى لاستغفرت له فاما اذ فعل ما فعل فما أنا بالذى اطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه ثم ان الله أنزل توبة أبى لبابة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى بيت أم سلمة قالت ام سلمة فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقلت مم ضحكت يارسول الله اضحك الله سنك قال تيب على أبى لبابة فقلت الا ابشره بذلك يارسول الله قال بلى ان شئت قال فقامت على باب حجرتها وذلك قبل ان يضرب عليهن الحجاب فقالت يا أبا لبابة ابشر فقد تاب الله عليك قال فسار الناس اليه ليطلقوه فقال لا والله حتى يكون رسول الله هو الذى يطلقنى بيده فلما مر عليه خارجا الى الصبح اطلقه قال ثم ان ثعلبة بن سعيد وأسيد بن سعيد واسيد بن عبيد وهم نفر من بنى هذيل ليسوا من قريظة ولا النضير نسبهم من فوق ذلك هم بنو عم القوم اسلموا تلك الليلة التى نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج فى تلك الليلة عمرو بن السعدى القرظى فمر بحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليهم محمد بن مسلمة الانصارى تلك الليلة فلما رآه قال من هذا قال عمرو بن السعدى وكان عمرو قد أبى ان يدخل مع بنى قريظة فى غدرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا أغدر بمحمد صلى الله عليه وسلم أبدا فقال محمد بن مسلمة اللهم لا تحرمنى من عثرات الكرام فخلى سبيله فخرج على وجهه حتى بات فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة تلك الليلة ثم ذهب فلا يدرى أين ذهب من أرض الله فذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم شأنه فقال ذاك رجل نجاه الله بوفائه وبعض

الناس يزعم انه كان اوثق برامة فى من اوثق من بنى قريظة حين نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه
وسلم فاصبحت رمته ملقاة ولا يدرى اين ذهب فقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المقالة فلما
اصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتواثب الاوس وقالوا يا رسول الله انهم موالينا دون
الخزرج وقد فعلت فى موالى الخزرج بالامس ما قد علمت وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بنى
قريظة حاصر بنى قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه فسأله اياهم عبد الله بن ابى بن سلول
فوهبهم له فلما كلمه الاوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ترضون يا معشر الاوس ان يحكم فيهم رجل
منكم قالوا بلى قال فذلك الى سعد بن معاذ وكان سعد جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجده فى خيمة
امرأة من المسلمين يقال لها رفيدة وكانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة
من المسلمين وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق اجعلوه فى خيمة
رفيدة حتى اعوده من قريب فلما حكمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى قريظة أتاه قومه فحملوه
على حمار قد وطؤا له وسادة من أدم وكان رجلا جسيما ثم اقبلوا معه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم
يقولون يا أبا عمرو احسن فى مواليك فان رسول الله صلى الله عليه وسلم انما ولاك ذلك لتحسن فيهم فلما
أكثروا عليه قال قد آن لسعد ان لا تأخذه فى الله لومة لائم فرجع بعض من كان معه من قومه الى دار
بنى الاشهل فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل ان يصل اليهم سعد بن معاذ عن كلمته التى سمع منه فلما انتهى
سعد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قوموا الى سيدكم فأنزلوه فقاموا اليه فقالوا يا أبا عمرو ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك مواليك فتحكم فيهم فقال سعد عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ان الحكم فيهم
ما حكمت قالوا نعم قال وعلى من ههنا فى الناحية التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اجلالا له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم قال سعد فانى احكم فيهم
ان تقتل الرجال وتقسم الاموال وتسبى الذرارى والنساء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد لقد
حكمت بحكم الله من فوق سبعة ارقعة ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار بنت الحارث
من نساء بنى النجار ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى سوق المدينة التى هى سوقها اليوم فخندق
بها خنادق ثم بعث اليهم فضربت أعناقهم فى تلك الخنادق يخرج بهم ارسالا وفيهم عدو الله ورسوله حيى
ابن اخطب وكعب بن اسد رأس القوم وهم ستمائة او سبعمائة والمكثر لهم يقول كانوا بين الثمانمائة الى
التسعمائة وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارسالا يا كعب
ماترى ما يصنع بنا قال افى كل موطن لا تعقلون الا ترون الداعى لا ينزع وان من يذهب به منكم لا يرجع
هو والله القتل فلم يزل ذلك الداب حتى فرغ منهم النبى صلى الله عليه وسلم واتى بحيى بن اخطب عدو الله
وعليه حلة تفاحية قد شققها عليه من كل ناحية كموضع الانملة انملة انملة لئلا يسلبها مجموعة يداه الى عنقه
بحبل فلما نظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال والله مالمت نفسى فى عداوتك ولكنه من يخذل الله
يخذل ثم اقبل على الناس فقال أيها الناس انه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبت على بنى اسرائيل
ثم جلس فضرب عنقه وروى عن عائشة قالت لم يقتل من نساء بنى قريظة الا امرأة واحدة قالت والله
انها لعندى تتحدث معى وتضحك ظهرا وبطنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل رجالهم بالسيف اذ هتف
هاتف باسمها أين فلانة قالت أنا والله قلت ويلك مالك قالت اقتل قلت ولم قالت حدثا احدثته قالت
فانطلق بها فضرب عنقها وكانت عائشة تقول ما انسى عجبا منها طيب نفس وكثرة ضحك وقد عرفت انها
تقتل قال الواقدى وكان اسم المرأة بنانة امرأة الحكم القرظى وكانت قتلت خلاد بن سويد قال وكان على
والزبير يضربان أعناق بنى قريظة ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس هناك وروى محمد بن اسحاق
عن الزهرى ان الزبير بن باطا القرظى ويكنى أبا عبد الرحمن كان قد من على ثابت بن قيس بن شماس
فى الجاهلية يوم بعاث أخذه فجز ناصيته ثم خلى سبيله فجاءه يوم قريظة وهو شيخ كبير فقال يا أبا عبد

الرحمن هل تعرفني قال وهل يجهل مثلي مثلك قال اني أريد أن اجزيك بيدك عندي قال ان الكريم يجزي الكريم قال ثم أتى ثابت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله قد كان للزبير عندي يد وله على منة وقد أحببت ان أجزيه بها فهب لي دمه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو لك فأتاه فقال له ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وهب لي دمك قال شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أهله وولده فقال هم لك فأتاه فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اعطاني امرأتك وولدك فهم لك فقال اهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ماله يا رسول الله قال هو لك فأتاه فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اعطاني مالك فهو لك فقال أي ثابت ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية تتراءى فيه عذارى الحي كعب بن أسد قال قتل قال فما فعل مقدمتنا اذا شددنا وحاميتنا اذا كررنا عزال بن شموال قال قتل قال فما فعل المجلسان يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة قال قتلوا قال فاني اسألك بيدي عندك يا ثابت الا ما ألحقتني بالقوم فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر حتى ألقى الأحبة فقدمه ثابت فضربت عنقه فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله حتى ألقى الأحبة قال يلقاهم والله في نار جهنم خالدا مخلدا أبدا قال وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر بقتل من انبت منهم ثم قسم أموال بني قريظة ونساءهم على المسلمين واعلم في ذلك اليوم سهمين للخيل وسهما للرجال فكان للفارس ثلاثة أسهم سهمان للفرس ولفارسه سهم وللراجل ممن ليس له فرس سهم وكانت الخيل ستة وثلاثين فرسا وكان أول يوم وقع فيه السهمان ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن زيد الانصاري اخا بني الاشهل بسبايا من سبايا بني قريظة الى نجد فابتاع له بهم خيلا وسلاحا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خناقة احدى نساء بني عمرو بن قريظة فكانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفي عنها وهي في ملكه وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عليها ان يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يا رسول الله بل تتركني في ملكك فهو أخف علي وعليك فتركها وقد كانت حين سباها كرهت الاسلام وأبت الا اليهودية فعزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجد في نفسه بذلك من أمرها فبينما هو بين أصحابه اذ سمع وقع نعلين خلفه فقال ان هذا لثعلبة بن شعبة يبشرني باسلام ريحانة فجاءه فقال يا رسول الله قد أسلمت ريحانة فسره ذلك فلما انقضى شأن بني قريظة انفجر جرح سعد بن معاذ وذلك انه دعا بعد ان حكم في بني قريظة ما حكم فقال اللهم انك قد علمت انه لم يكن قوم احب الي ان أجاهدهم من قوم كذبوا رسولك اللهم ان كنت أبقيت من حرب قريش على رسولك شيئا فأبقني له وان كنت قد قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني اليك فانفجر كلمه فرجعه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى خيمته التي ضربت عليه في المسجد قالت عائشة فحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر فوالذي نفس محمد بيده اني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر واني في حجرتي قالت وكانوا كما قال الله تعالى فيهم رحماء بينهم (خ) عن سليمان بن صرد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين اجلي الاحزاب الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير اليهم (ق) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لا اله الا الله وحده لا شريك له اعز جنده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده فلا شيء بعده قوله تعالى (يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن) اي متعة الطلاق (وأسرحكن سراحا جميلا) أي من غير ضرر (وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما) سبب نزول هذه الآية ان نساء النبي صلى الله عليه وسلم سألنه من عرض الدنيا شيئا وطلبن منه زيادة في النفقة وآذينه بغيرة بعضهن على بعض فهجرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآلى ان لا يقربهن شهرا ولم يخرج الى أصحابه فقالوا ما شأنه وكانوا يقولون طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه فقال عمر لأعلمن لكم شأنه قال فدخلت على

(يا أيها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها) أي السعة في الدنيا وكثرة الاموال (فتعالين) اصل تعال ان يقوله من في المكان المرتفع لمن في المكان المستوطى ثم كثر حتى استوى في استعماله الامكنة ومعنى تعالين أقبلن بارادتكن واختياركن لاحد الامرين ولم يرد نهوضهن اليه بأنفسهن كقوله قام يهددني (أمتعكن) اعطكن متعة الطلاق وتستحب المتعة لكل مطلقة الا المفوضة قبل الوطء (وأسرحكن) واطلقكن (سراحا جميلا) لا ضرار فيه أردن شيئا من الدنيا من ثياب وزيادة نفقة وتغايرن فغم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت فبدأ بعائشة رضي الله عنها وكانت أحبهن اليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة فرئي الفرح في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم اختار جميعهن اختيارها وروي انه قال لعائشة اني ذاكر لك امرا ولا عليك ان لا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك ثم قرأ عليها القرآن فقالت أفي هذا استأمر أبوي فاني أريد الله ورسوله والدار الآخرة وحكم التخيير في الطلاق انه اذا قال لها اختاري فقالت اخترت نفسي ان تقع تطليقة بائنة واذا اختارت زوجها لم يقع شيء وعن علي رضي الله عنه اذا اختارت نفسها فواحدة بائنة وان اختارت زوجها فواحدة رجعية (وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن) من للبيان لا للتبعيض (اجرا عظيما)

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله اطلقتهن قال لا قلت يارسول الله انى دخلت المسجد والمسلمون يقولون طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه أفأنزل فأخبرهم انك لم تطلقهن قال نعم ان شئت فقمت على باب المسجد وناديت بأعلى صوتى لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ونزلت هذه الآية ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم فكنت انا استنبطت هذا الامر وأنزل الله آية التخيير وكان تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ تسع نسوة خمس من قريش وهن عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وام حبيبة بنت أبى سفيان وام سلمة بنت ابى أمية وسودة بنت زمعة وأربع غير قرشيات وهن زينب بنت جحش الاسدية وميمونة بنت الحارث الهلالية وصفية بنت حيى ابن اخطب الخيبرية وجويرية بنت الحارث المصطلقية فلما نزلت آية التخيير بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة وكانت أحبهن اليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة فرئى الفرح فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعنها على ذلك فلما اخترن الله ورسوله شكرهن الله على ذلك وقصره عليهن فقال تعالى لا تحل لك النساء من بعد (م) عن جابر بن عبد الله قال دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لاحد منهم فأذن لابى بكر فدخل ثم اقبل عمر فاستأذن فأذن له فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وحوله نساؤه واجما ساكتا فقال لأقولن شيئا أضحك به النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله لقد رأيت بنت خارجة سألتنى النفقة فقمت اليها فوجأت عنقها فضحك النبى صلى الله عليه وسلم فقال هن حولى كما ترى يسألننى النفقة فقام أبو بكر الى عائشة فوجأ عنقها وقام عمر الى حفصة فوجأ عنقها كلاهما يقول تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده قلن والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا أبدا ليس عنده ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين حتى نزلت هذه الآية يا أيها النبى قل لازواجك ان كنتن حتى بلغ للمحسنات منكن أجرا عظيما قال فبدأ بعائشة فقال يا عائشة انى اريد ان اعرض عليك أمرا أحب ان لا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك قالت وما هو يارسول الله فتلا عليها الآية قالت أفيك يارسول الله استشير ابوى بل اختار الله ورسوله والدار الآخرة واسألك ان لا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت قال لا تسألنى امرأة منهن الا أخبرتها ان الله لم يبعثنى معنتا ولا متعنتا ولكن بعثنى معلما ميسرا قوله واجما اى مهتما والواجم الذى اسكته الهم وعلته الكآبة وقيل الوجوم الحزن قوله فوجأت عنقها أى دققته وقوله لم يبعثنى معنتا العنت المشقة والصعوبة (م) عن الزهرى ان النبى صلى الله عليه وسلم اقسم ان لا يدخل على أزواجه شهرا قال الزهرى فأخبرنى عروة عن عائشة قالت لما مضت تسع وعشرون ليلة أعدهن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة فقال ترانى قلت يارسول الله اقسمت ان لا تدخل علينا شهرا وانك دخلت من تسع وعشرين اعدهن قال ان الشهر تسع وعشرون

(فصل فى حكم الآية) اختلف العلماء فى هذا الخيار هل كان ذلك تفويض الطلاق اليهن حتى يقع بنفس الاختيار ام لا فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم الى انه لم يكن تفويض الطلاق وانما خيرهن على انهن اذا اخترن الدنيا فارقهن لقوله تعالى فتعالين امتعكن واسرحكن بدليل انه لم يكن جوابهن على الفور وانه قال لعائشة لا تعجلى حتى تستشيرى أبويك وفى تفويض الطلاق يكون الجواب على الفور وذهب قوم الى أنه كان تفويض الطلاق ولو اخترن أنفسهن كان طلاقا التفريع على حكم الآية اختلف أهل العلم فى حكم التخيير فقال عمر وابن مسعود وابن عباس اذا خير الرجل امرأته فاختارت زوجها لا يقع شئ وان اختارت نفسها يقع طلقة واحدة وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبى ليلى وسفيان والشافعى وأصحاب الرأى الا ان عند أصحاب الرأى يقع طلقة بائنة اذا اختارت نفسها وعند الآخرين رجعية وقال زيد بن ثابت اذا اختارت الزوج يقع طلقة واحدة واذا اختارت نفسها فثلاث وهو قول الحسن وبه قال مالك وروى عن على انها اذا اختارت زوجها يقع طلقة واحدة واذا اختارت نفسها فطلقة بائنة

وأكثر العلماء على انها اذا اختارت زوجها لا يقع شيء (ق) عن مسروق قال ما أبالي خيرت امرأتي واحدة أومائة أو ألفا بعد أن تختارني ولقد سألت عائشة رضي الله عنها فقالت خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فما كان طلاقا وفي رواية فاخترناه فلم يعد ذلك شيئا قوله تعالى (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة) أي بمعصية ظاهرة قيل هو كقوله لئن أشركت ليحبطن عملك لا أن منهن من أتت بفاحشة فان الله تعالى صان أزواج الانبياء عن الفاحشة وقال ابن عباس المراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق (يضاعف لها العذاب ضعفين) أي مثلين وسبب تضعيف العقوبة لهن أن شرفهن كتضعيف عقوبة الحرة على الامة وذلك لان نسبة النبي صلى الله عليه وسلم الى غيره من الرجال كنسبة السادات الى العبيد لكونه أولى بالمؤمنين من أنفسهم فكذلك أزواجه بالنسبة الى غيرهن كنسبة الحرة الى الامة (وكان ذلك على الله يسيرا) أي عذابها (ومن يقنت منكن لله ورسوله) أي تطع الله ورسوله (وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين) أي مثلي أجر غيرها قيل الحسنة بعشرين حسنة وتضعيف ثوابهن لرفع منزلتهن وفيه اشارة الى انهن أشرف نساء العالمين (وأعتدنا لها رزقا كريما) يعني الجنة قوله تعالى (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء) قال ابن عباس يريد ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات انتن أكرم علي وثوابكن أعظم لدي (ان اتقيتن) يعني الله فأطعتنه فان الاكرم عند الله هو الاتقى (فلا تخضعن بالقول) أي لا تلن بالقول للرجال ولا ترققن الكلام (فيطمع الذي في قلبه مرض) اي فجور وشهوة وقيل نفاق والمعنى لا تقلن قولا يجد المنافق والفاجر به سبيلا الى الطمع فيكن والمرأة مندوبة الى الغلظة في المقال اذا خاطبت الاجانب لقطع الاطماع فيهن (وقلن قولا معروفا) اي يوجبه الدين والاسلام عند الحاجة اليه ببيان من غير خضوع وقيل القول المعروف ذكر الله تعالى قوله عز وجل (وقرن في بيوتكن) اي الزمن بيوتكن وقيل هو أمر من الوقار اي كن أهل وقار وسكون (ولا تبرجن) قيل هو التكسر والتغنج والتبختر وقيل هو اظهار الزينة وابراز المحاسن للرجال (تبرج الجاهلية الاولى) قيل الجاهلية الاولى هو ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وقيل هو زمن داود وسليمان عليهما السلام كانت المرأة تلبس قميصا من الدر غير مخيط الجانبين فيرى خلقها منه وقيل كان في زمن نمرود الجبار كانت المرأة تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه وتمشي به وسط الطريق ليس عليها شيء غيره وتعرض نفسها على الرجال وقال ابن عباس الجاهلية الاولى ما بين نوح وادريس وكانت ألف سنة وقيل ان بطنين من ولد آدم عليه الصلاة والسلام كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل وكانت رجال الجبال صباحا وفي النساء دمامة وكان نساء السهل صباحا وفي الرجال دمامة وان ابليس أتى رجلا من أهل السهل وأجر نفسه وكان يخدمه واتخذ شيئا مثل الذي يزمر به الرعاة فجاء بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حولهم فأتوهم يستمعون اليه واتخذوا عيدا يجتمعون اليه في السنة فتتبرج النساء للرجال وتتزين الرجال لهن وان رجلا من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك فرأى النساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا اليهم فنزلوا معهم وظهرت الفاحشة فيهن فذلك قوله تعالى ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى وقيل الجاهلية الاولى ما قبل الاسلام والجاهلية الاخرى قوم يفعلون مثل فعلهم في آخر الزمان وقيل قد تذكر الاولى وان لم تكن لها أخرى (وأقمن الصلاة) أي الواجبة (وآتين الزكاة) أي المفروضة (وأطعن الله ورسوله) أي فيما أمر ونهى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس) اي الاثم الذي نهى الله النساء عنه وقال ابن عباس يعني عمل الشيطان وما ليس لله فيه رضا وقيل الرجس الشك والسوء (أهل البيت ويطهركم تطهيرا) هم نساء النبي صلى الله عليه وسلم لانهن في بيته وهو رواية

يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة) سيئة بليغة في القبح (مبينة) ظاهر فحشها من بين بمعنى تبين وبفتح الياء مكي وأبو بكر قيل هي عصيانهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشوزهن وقيل الزنى والله عاصم رسوله من ذلك (يضاعف لها العذاب) يضعف لها العذاب مكي وشامي نضعف أبو عمرو ويزيد ويعقوب (ضعفين) ضعفي عذاب غيرهن من النساء لان ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهن فزيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل وليس لاحد من النساء مثل فضل نساء النبي صلى الله عليه وسلم ولذا كان الذم للعاصي العالم أشد من العاصي الجاهل لان المعصية من العالم أقبح ولذا فضل حد الاحرار على العبيد ولا يرجم الكافر (وكان ذلك) أي تضعيف العذاب عليهن (على الله يسيرا) هينا (ومن يقنت منكن لله ورسوله) القنوت الطاعة (وتعمل صالحا نؤتها) وبالياء فيهما حمزة وعلي (أجرها مرتين) مثلي ثواب غيرها (وأعتدنا لها رزقا كريما) جليل القدر وهو الجنة (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء) أي لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء اذا تقصيت أمة النساء جماعة جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل وأحد في الاصل بمعنى وحد وهو الواحد ثم وضع في النفي العام مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد وما وراءه (ان اتقيتن) ان أردتن التقوى او ان كنتن متقيات (فلا تخضعن بالقول) أي اذا كلمتن الرجال من وراء الحجاب فلا تجئن بقولكن خاضعا أي لينا خنثا مثل كلام المريبات (فيطمع) بالنصب على جواب النهي (الذي في قلبه مرض) ريبة وفجور (وقلن قولا معروفا) حسنا مع كونه خشنا (وقرن) مدني وعاصم غير هبيرة وأصله اقررن فحذفت الراء تخفيفا والقيت فتحتها على ما قبلها أو من قار يقار اذا اجتمع والباقون قرن من وقر يقر وقارا أو من قر يقر حذفت الاولى من راءي اقررن فرارا من التكرار ونقلت كسرتها الى القاف (في بيوتكن) بضم الباء بصري ومدني وحفص (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى) أي القديمة والتبرج التبختر في المشي أو اظهار الزينة والتقدير ولا تبرجن تبرجا مثل التبرج في الجاهلية الاولى وهي الزمان الذي ولد فيه ابراهيم وأما بين آدم ونوح عليهما السلام أو زمن داود وسليمان والجاهلية الاخرى ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام أو الجاهلية الاولى جاهلية الكفر قبل الاسلام والجاهلية الاخرى جاهلية الفسوق والفجور في الاسلام (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) خص الصلاة والزكاة بالامر ثم عم بجميع الطاعات تفضيلا لهما لان من واظب عليهما جرتاه الى ما وراءهما (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت)

سعيد بن جبير عن ابن عباس وتلا قوله تعالى واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة وهو قول عكرمة ومقاتل وذهب ابو سعيد الخدرى وجماعة من التابعين منهم مجاهد وقتادة وغيرهم الى انهم على وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم يدل عليه ما روى عن عائشة أم المؤمنين قالت خرج النبى صلى الله عليه وسلم ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر اسود فجاء الحسن فأدخله فيه ثم جاء الحسين فأدخله فيه ثم جاءت فاطمة فأدخلها فيه ثم جاء على فأدخله فيه ثم قال انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا أخرجه مسلم المرط الكساء والمرحل بالحاء المنقوش عليه صور الرحال وبالجيم المنقوش عليه صور الرجال عن ام سلمة قالت ان هذه الآية نزلت فى بيتى انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا قالت وأنا جالسة عند الباب فقلت يا رسول الله ألست من أهل البيت فقال انك الى خير أنت من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم قالت وفى البيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى وفاطمة وحسن وحسين فجللهم بكساء وقال اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا أخرجه الترمذى وقال حديث صحيح غريب عن أنس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر اذا خرج الى صلاة الفجر يقول الصلاة يا أهل البيت انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب وقال زيد بن ارقم أهل البيت من حرم الصدقة بعده آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس قوله تعالى (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله) يعنى القرآن (والحكمة) قيل هى السنة وقيل هى أحكام القرآن ومواعظه (ان الله كان لطيفا) اى بأوليائه وأهل طاعته (خبيرا) اى بجميع خلقه قوله عز وجل (ان المسلمين والمسلمات) الآية وذلك ان ازواج النبى صلى الله عليه وسلم قلن يا رسول الله ذكر الله الرجال فى القرآن ولم يذكر النساء بخير فما فينا خير نذكر به انا نخاف ان لا تقبل منا طاعة فأنزل الله هذه الآية عن ام عمارة الانصارية قالت اتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت ما لى ارى كل شئ الى الرجال وما أرى النساء يذكرن بشئ فنزلت ان المسلمين والمسلمات أخرجه الترمذى وقال حديث غريب وقيل ان ام سلمة بنت أبى امية وانيسة بنت كعب الانصارية قالتا للنبى صلى الله عليه وسلم ما بال ربنا يذكر الرجال ولا يذكر النساء فى شئ من كتابه ونخشى ان لا يكون فيهن خير فنزلت هذه الآية وروى ان اسماء بنت عميس رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبى طالب فدخلت على نساء النبى صلى الله عليه وسلم فقالت هل نزل فينا شئ من القرآن قلن لا فأتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ان النساء لفى خيبة وخسار قال ومم ذلك قال لانهن لم يذكرن بخير كما ذكر الرجال فأنزل الله ان المسلمين والمسلمات وذكر لهن عشر مراتب مع الرجال فمدحهن بها معهم الاولى الاسلام وهو الانقياد لامر الله تعالى وهو قوله ان المسلمين والمسلمات الثانية الايمان بما يرد به أمر الله تعالى وهو تصحيح الاعتقاد وموافقة الظاهر للباطن وهو قوله (والمؤمنين والمؤمنات) الثالثة الطاعة وهو قوله (والقانتين والقانتات) الرابعة الصدق فى الاقوال والافعال وهو قوله (والصادقين والصادقات) الخامسة الصبر على ما أمر الله وفيما ساء وسر وهو قوله (والصابرين والصابرات) السادسة الخشوع فى الصلاة وهو ان لا يلتفت وقيل هو التواضع وهو قوله (والخاشعين والخاشعات) السابعة الصدقة مما رزق الله وهو قوله (والمتصدقين والمتصدقات) الثامنة المحافظة على الصوم وهو قوله (والصائمين والصائمات) التاسعة العفة وهو قوله (والحافظين فروجهم) يعنى عما لا يحل (والحافظات) العاشرة كثرة الذكر وهو قوله (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) وقيل لا يكون العبد منهم حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال سبق المفردون قالوا يا رسول الله وما المفردون قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات وقال عطاء بن ابى رباح من فوض أمره الى الله فهو داخل فى قوله ان المسلمين والمسلمات ومن أقر بان الله ربه ومحمدا رسوله ولم يخالف قلبه لسانه فهو داخل فى قوله والمؤمنين

نسب على الثناء أو على المدح وفيه دليل على ان نساءه من أهل بيته وقال عنكم لانه اريد الرجال والنساء من آله بدلالة (ويطهركم تطهيرا) من نجاسة الآثام ثم بين انه انما نهاهن وأمرهن ووعظهن لئلا يقارف أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم المآثم وليتصونوا عنها بالتقوى واستعار للذنوب الرجس وللتقوى الطهر لان عرض المقترف للمقبحات يتلوث بها كما يتلوث بدنه بالارجاس وأما المحسنات فالعرض منها نقى كالثوب الطاهر وفيه تنفير لاولى الالباب عن المناهى وترغيب لهم فى الاوامر (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله) القرآن (والحكمة) أى السنة أو بيان معانى القرآن (ان الله كان لطيفا) عالما بغوامض الاشياء (خبيرا) عالما بحقائقها أى هو عالم بافعالكن وأقوالكن فاحذرن مخالفة أمره ونهيه ومعصية رسوله ولما نزل فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم ما نزل قال نساء المسلمين فما نزل فينا شئ فنزلت (ان المسلمين والمسلمات) المسلم الداخل فى السلم بعد الحرب المنقاد الذى لا يعاند أو المفوض أمره الى الله المتوكل عليه من أسلم وجهه الى الله (والمؤمنين) المصدقين بالله ورسوله وبما يجب ان يصدق به (والمؤمنات والقانتين) القائمين بالطاعة (والقانتات والصادقين) فى النيات والاقوال والاعمال (والصادقات والصابرين والصابرات) على الطاعات وعن السيئات (والخاشعين) المتواضعين لله بالقلوب والجوارح أو الخائفين (والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات) فرضا ونفلا (والصائمين والصائمات) فرضا ونفلا وقيل من تصدق فى كل اسبوع بدرهم فهو من المتصدقين ومن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين (والحافظين فروجهم) عما لا يحل (والحافظات والذاكرين الله كثيرا) بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وقراءة القرآن والاشتغال بالعلم من الذكر والمعنى والحافظات فروجهن (والذاكرات) الله فحذف لدلالة ما تقدم عليه والفرق بين عطف الاناث على الذكور وعطف الزوجين على الزوجين لان الاول نظيره قوله ثيبات وأبكارا

فى انهما جنسان مختلفان واشتركا فى حكم واحد فلم يكن بد من توسط العاطف بينهما وأما الثانى فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع ومعناه ان الجامعين والجامعات لهذه الطاعات (أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) على طاعاتهم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بنت عمته أميمة على مولاه زيد بن حارثة فابت وأبى أخوها عبد الله فنزلت (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) أى وما صح لرجل مؤمن ولا امرأة مؤمنة (اذا قضى الله ورسوله) أى رسول الله (أمرا) من الامور (ان تكون لهم الخيرة من أمرهم) ان يختاروا من أمرهم ما شاؤا بل من حقهم ان يجعلوا رأيهم تبعا لرأيه واختيارهم تلوا لاختياره فقالا رضينا يا رسول الله فانكحها اياه وساق عنه اليها مهرها وانما جمع الضمير فى لهم وان كان من حقه ان يوحد لان المذكورين وقعا تحت النفى فعما كل مؤمن ومؤمنة فرجع الضمير الى المعنى لا الى اللفظ ويكون بالياء كوفى والخيرة ما يتخير ودل ذلك على ان الامر للوجوب (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) فان كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر وان كان عصيان فعل مع قبول الامر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطا وفسق (واذ تقول للذى أنعم الله عليه) بالاسلام الذى هو أجل النعمة (وأنعمت عليه) بالاعتاق والتبنى فهو متقلب فى نعمة الله ونعمة رسوله وهو زيد بن حارثة (امسك عليك زوجك) يعنى زينب بنت جحش وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبصرها بعد ما أنكحها اياه فوقعت فى نفسه فقال سبحان الله مقلب القلوب وذلك ان نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ففطن والقى الله فى نفسه كراهة صحبتها والرغبة عنها لرسول الله فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انى أريد ان أفارق صاحبتى فقال مالك أرابك منها شئ قال لا والله ما رأيت منها الا خيرا ولكنها تتعظم على لشرفها وتؤذينى فقال له امسك عليك زوجك (واتق الله) فلا تطلقها وهو نهى تنزيه اذ الاولى ان لا يطلق أو واتق الله فلا تذمها بالنسبة الى الكبر وأذى الزوج (وتخفى

فى نفسك ما الله مبديه) أى تخفى فى نفسك نكاحها ان طلقها زيد وهو الذى أبداه الله تعالى وقيل الذى أخفى فى نفسه تعلق قلبه بها ومودة مفارقة زيد اياها والواو فى وتخفى فى نفسك (وتخشى الناس) أى قالة الناس انه نكح امرأة ابنه (والله أحق ان تخشاه) واو الحال أى تقول لزيد امسك عليك زوجك مخفيا فى نفسك ارادة ان لا يمسكها وتخفى خاشيا قالة الناس وتخشى الناس حقيقا فى ذلك بأن تخشى الله وعن عائشة رضى الله عنها لو كتم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا مما أوحى اليه لكتم هذه الآية

والمؤمنات ومن أطاع الله فى الفرض والرسول فى السنة فهو داخل فى قوله والقانتين والقانتات ومن صان قوله عن الكذب فهو داخل فى قوله والصادقين والصادقات ومن صبر على الطاعة وعن المعصية وعلى الرزية فهو داخل فى قوله والصابرين والصابرات ومن صلى فلم يعرف من عن يمينه وعن شماله فهو داخل فى قوله والخاشعين والخاشعات ومن تصدق فى كل أسبوع بدرهم فهو داخل فى قوله والمتصدقين والمتصدقات ومن صام فى كل شهر أيام البيض وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر فهو داخل فى قوله والصائمين والصائمات ومن حفظ فرجه عما لا يحل فهو داخل فى قوله والحافظين فروجهم والحافظات ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو داخل فى قوله والذاكرين الله كثيرا والذاكرات (أعد الله لهم مغفرة) أى بمحو ذنوبهم (وأجرا عظيما) يعنى الجنة قوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم) نزلت هذه الآية فى زينب بنت جحش الاسدية وأخيها عبد الله بن جحش وأمهما أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم خطب زينب لمولاه زيد بن حارثة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترى زيدا فى الجاهلية بعكاظ وأعتقه وتبناه فلما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب رضيت وظنت انه يخطبها لنفسه فلما علمت انه يخطبها لزيد بن حارثة أبت وقالت أنا ابنة عمتك يا رسول الله فلا أرضاه لنفسى وكانت بيضاء جميلة وفيها حدة وكذلك كره أخوها ذلك وأنزل الله تعالى وما كان لمؤمن يعنى عبد الله ابن جحش ولا مؤمنة يعنى أخته زينب اذا قضى الله ورسوله أمرا يعنى نكاح زيد لزينب ان تكون لهم الخيرة من أمرهم أى الاختيار على ما قضى والمعنى ان يريد غير ما أراد الله أو يمتنع مما أمر الله ورسوله به (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) أى أخطأ خطأ ظاهرا فلما سمعت بذلك زينب وأخوها رضيا وسلما وجعلت أمرها بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكحها زيدا فدخل بها وساق رسول الله صلى الله عليه وسلم اليها عشرة دنانير وستين درهما وخمارا ودرعا وملحفة وخمسين مدا من طعام وثلاثين صاعا من تمر قوله عز وجل (واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك) الآية نزلت فى زينب وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما زوجها من زيد مكثت عنده حينا ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى زيدا ذات يوم لحاجة فابصر زينب فى درع وخمار وكانت بيضاء جميلة ذات خلق من أتم نساء قريش وقعت فى نفسه وأعجبه حسنها فقال سبحان الله مقلب القلوب وانصرف فلما جاء زيد ذكرت له ذلك ففطن زيد وألقى فى نفسه كراهتها فى الوقت وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال انى أريد أن أفارق صاحبتى فقال له مالك أرابك منها شئ قال لا والله يا رسول الله ما رأيت منها الا خيرا ولكنها تتعظم على بشرفها وتؤذينى بلسانها فقال له النبى صلى الله عليه وسلم أمسك عليك زوجك واتق الله فى أمرها ثم ان زيدا طلقها فذلك قوله عز وجل واذ تقول للذى أنعم الله عليه أى بالاسلام وأنعمت عليه اى بالاعتاق وهو زيد بن حارثة مولاه أمسك عليك زوجك يعنى زينب بنت جحش (واتق الله) اى فيها ولا تفارقها (وتخفى فى نفسك) أى تسر وتضمر فى نفسك (ما الله مبديه) أى مظهره قيل كان فى قلبه لو فارقها تزوجها قال ابن عباس حبها وقيل وده انه طلقها (وتخشى الناس) قال ابن عباس تستحيهم وقيل تخاف لائمتهم أن يقولوا أمر رجلا بطلاق امرأته ثم نكحها (والله أحق أن تخشاه) قال عمر وابن مسعود وعائشة ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هى أشد عليه من

هذه الآية وعن عائشة قالت لو كتم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي لكتم هذه الآية وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب

(فصل) فإن قلت ماذكروه في تفسير هذه الآية وسبب نزولها من وقوع محبتها في قلب النبي صلى الله عليه وسلم عندما رآها وارادته طلاق زيد لها فيه أعظم الحرج وما لا يليق بمنصبه صلى الله عليه وسلم من مدّ عينيه لما نهي عنه من زهرة الحياة الدنيا قلت هذا اقدام عظيم من قائله وقلة معرفة بحق النبي صلى الله عليه وسلم وبفضله وكيف يقال رآها فأعجبته وهي بنت عمته ولم يزل يراها منذ ولدت ولا كان النساء يحتجبن منه صلى الله عليه وسلم وهو زوّجها زيدا فلا يشك في تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يأمر زيدا بامساكها وهو يحب تطليقه اياها كما ذكر عن جماعة من المفسرين وأصح ما في هذا الباب ما روي عن سفيان بن عيينة عن علي بن زيد قال سألني زين العابدين علي بن الحسين قال ما يقول الحسن في قوله تعالى وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه قلت يقول لما جاء زيد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني أريد أن أطلق زينب أعجبه ذلك وقال أمسك عليك زوجك واتق الله فقال علي بن الحسين ليس كذلك فان الله عز وجل قد أعلمه انها ستكون من أزواجه وان زيدا سيطلقها فلما جاء زيد قال اني أريد أن أطلقها قال له أمسك عليك زوجك فعاتبه الله تعالى وقال لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك انها ستكون من أزواجك وهذا هو الاولى والاليق بحال الانبياء وهو مطابق للتلاوة لان الله تعالى أعلم انه يبدي ويظهر ما أخفاه ولم يظهر غير تزويجها منه فقال تعالى زوّجناكها فلو كان الذي أضمره رسول الله صلى الله عليه وسلم محبتها أو ارادة طلاقها لكان يظهر ذلك لانه لا يجوز أن يخبر انه يظهره ثم يكتمه ولا يظهره فدل على انه انما عوتب على اخفاء ما أعلمه الله انها ستكون زوجته وانما اخفى ذلك استحياء أن يخبر زيدا ان التي تحتك وفي نكاحك ستكون زوجتي وهذا قول حسن مرضي وكم من شيء يتحفظ منه الانسان ويستحي من اطلاع الناس عليه وهو في نفسه مباح متسع وحلال مطلق لا مقال فيه ولا عيب عند الله وربما كان الدخول في ذلك المباح سلما الى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين وهو انما جعل الله طلاق زيد لها وتزويج النبي صلى الله عليه وسلم اياها لازالة حرمة التبني وابطال سنته كما قال الله تعالى ما كان محمد أبا أحد من رجالكم وقال لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم فان قلت فما الفائدة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم زيدا بامساكها قلت هو ان الله تعالى أعلم نبيه انها زوجته فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن طلاقها وأخفى في نفسه ما أعلمه الله به فلما طلقها زيد خشي قول الناس يتزوج امرأة ابنه فأمره الله تعالى بزواجها ليباح مثل ذلك لامته وقيل كان في أمره بامساكها قمعا للشهوة ورداً للنفس عن هواها وهذا اذا جوّزنا القول المتقدم الذي ذكره المفسرون وهو انه أخفى محبتها أو نكاحها لو طلقها زيد ومثل ذلك لا يقدح في حال الانبياء مع ان العبد غير ملوم على ما يقع في قلبه من مثل هذه الاشياء وانه رآها فجأة فاستحسنها ومثل هذه لا نكرة فيه لما طبع عليه البشر من استحسان الحسن ونظرة الفجأة معفو عنها ما لم يقصد مأثما لان الودّ وميل النفس من طبع البشر والله أعلم وقوله أمسك عليك زوجك واتق الله أمر بالمعروف وهو حسن لا اثم فيه وقوله والله أحق أن تخشاه لم يرد به انه لم يكن يخشى الله فيما سبق فانه عليه الصلاة والسلام قد قال أنا أخشاكم لله وأتقاكم له ولكنه لما ذكر الخشية من الناس ذكر ان الله أحق بالخشية في عموم الاحوال في جميع الاشياء قوله عز وجل (فلما قضى زيد منها وطرا) أي حاجته منها ولم يبق له فيها ارب وتقاصرت همته عنها وطابت عنها نفسه وطلقها وانقضت عدتها وذكر قضاء الوطر ليعلم ان زوجة المتبنى تحل بعد الدخول بها (زوّجناكها) قال أنس كانت زينب تفتخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول زوّجكن آباؤكن وزوّجني الله من فوق سبع سموات وقال الشعبي كانت زينب تقول للنبي صلى الله عليه وسلم اني لادل عليك بثلاث ما من امرأة من نسائك تدل

(فلما قضى زيد منها وطرا) الوطر الحاجة فاذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همة قيل قضى منه وطره والمعنى فلما لم يبق لزيد فيها حاجة وتقاصرت عنها همته وطلقها وانقضت عدتها (زوجناكها) روي انها لما اعتدت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد ما أجد أحدا أوثق في نفسي منك اخطب على زينب قال زيد فانطلقت وقلت يا زينب أبشري ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبك ففرحت وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بها وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها ذبح شاة وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتد النهار

بين جدي وجدك واحد واني أنكحنيك الله في السماء وان السفير جبريل عليه السلام (م) عن أنس قال لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد اذهب فاذكرها علي قال فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها قال فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر اليها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي فقلت يا زينب أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك قالت ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي فقامت الى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير اذن قال ولقد رأيتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعمنا الخبز واللحم حتى امتد النهار فخرج الناس وبقي أناس يتحدثون في البيت بعد الطعام فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعته فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن يا رسول الله كيف وجدت أهلك قال فما أدري أنا أخبرته ان القوم قد خرجوا أم غيري قال فانطلق حتى دخل البيت وذهبت لادخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب (ق) عن أنس قال ما أولم النبي صلى الله عليه وسلم على شيء من نسائه ما أولم على زينب أولم بشاة وفي رواية أكثر وافضل ما أولم على زينب قال ثابت بم أولم قال أطعمهم خبزا ولحما حتى تركوه قوله عز وجل (لكيلا يكون على المؤمنين حرج) أي اثم (في أزواج أدعيائهم) جمع الدعي وهو المتبنى (اذا قضوا منهن وطرا) يقول زوجناك زينب وهي امرأة زيد الذي كنت تبنيته ليعلم ان زوجة المتبنى حلال للمتبني وان كان قد دخل بها المتبنى بخلاف امرأة ابن الصلب فانها لا تحل للاب (وكان أمر الله مفعولا) أي قضاء الله ماضيا وحكمه نافذا وقد قضى في زينب أن يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) أي فيما أحل الله له من النكاح وغيره (سنة الله في الذين خلوا من قبل) معناه سن الله سنة في الانبياء وهو أن لا حرج عليهم في الاقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره فانه كان لهم الحرائر والسراري فقد كان لداود عليه السلام مائة امرأة ولسليمان ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية فكذلك سن لمحمد صلى الله عليه وسلم في التوسعة عليه كما سن لهم ووسع عليهم (وكان أمر الله قدرا مقدورا) أي قضاء مقضيا ان لا حرج على أحد فيما أحل له ثم أثنى الله تعالى على الانبياء بقوله (الذين يبلغون رسالات الله) أي فرائض الله وسننه وأوامره ونواهيه الى من أرسلوا اليهم (ويخشونه) أي يخافونه (ولا يخشون أحدا الا الله) أي لا يخافون قالة الناس ولائمتهم فيما أحل لهم وفرض عليهم (وكفى بالله حسيبا) أي حافظا الاعمال خلقه ومحاسبهم قوله عز وجل (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تزوج زينب قال الناس ان محمدا تزوج امرأة ابنه فأنزل الله ما كان محمد أبا أحد من رجالكم يعني زيد بن حارثة والمعنى انه لم يكن أبا رجل منكم على الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الاب وولده من حرمة الصهر والنكاح فان قلت قد كان له أبناء القاسم والطيب والطاهر وابراهيم وقال الحسن ان ابني هذا سيد قلت أخرجوا من حكم النفي بقوله من رجالكم وهؤلاء لم يبلغوا مبلغ الرجال وقيل أراد بالرجال الذين لم يلدهم (ولكن رسول الله) أي ان كل رسول هو أبو أمته فيما يرجع الى وجوب التوقير والتعظيم له ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه (وخاتم النبيين) ختم الله به النبوة فلا نبوة بعده أي ولا معه قال ابن عباس يريد لولم أختم به النبيين لجعلت له ابنا يكون بعده نبيا وعنه قال ان الله لما حكم أن لا نبي بعده لم يعطه ولدا ذكرا يصير رجلا (وكان الله بكل شيء عليما) أي دخل في علمه انه لا نبي بعده فان قلت قد صح ان عيسى عليه السلام ينزل في آخر الزمان بعده وهو نبي قلت ان عيسى عليه السلام ممن نبئ قبله وحين ينزل في آخر الزمان ينزل عاملا بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ومصليا الى قبلته كأنه بعض أمته (ق) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله الا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه

الوطر ادراك الحاجة وبلوغ المراد منه (وكان أمر الله) الذي يريد أن يكونه (مفعولا) مكونا لا محالة وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) أحل له وأمر له وهو نكاح زينب امرأة زيد أو قدر له من عدد النساء (سنة الله) اسم موضوع موضع المصدر كقولهم تربا وجندلا مؤكد لقوله ما كان على النبي من حرج كأنه قيل سن الله ذلك سنة في الانبياء الماضين وهو أن لا يحرج عليهم في الاقدام على ما أباح لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره وقد كانت تحتهم المهائر والسراري وكانت لداود مائة امرأة وثلثمائة سرية ولسليمان ثلثمائة حرة وسبعمائة سرية (في الذين خلوا من قبل) في الانبياء الذين مضوا من قبل (وكان أمر الله قدرا مقدورا) قضاء مقضيا وحكما مبتوتا ولا وقف عليه ان جعلت (الذين يبلغون رسالات الله) بدلا من الذين الاول ووقف ان جعلته في محل الرفع أو النصب على المدح أي هم الذين يبلغون أو أعني الذين يبلغون (ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله) وصف الانبياء بأنهم لا يخشون الا الله تعريض بعد التصريح في قوله وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه (وكفى بالله حسيبا) كافيا للمخاوف ومحاسبا على الصغيرة والكبيرة فكان جديرا بأن تخشى منه (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) أي لم يكن أبا رجل منكم حقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الاب وولده من حرمة الصهر والنكاح والمراد من رجالكم البالغين والحسن والحسين لم يكونا بالغين حينئذ والطاهر والطيب والقاسم وابراهيم توفوا صبيانا (ولكن) كان (رسول الله) وكل رسول أبو أمته فيما يرجع الى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه لا في سائر الاحكام الثابتة بين الآباء والابناء وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا بأولاده حقيقة فكان حكمه كحكمهم والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير (وخاتم النبيين) بفتح التاء عاصم بمعنى الطابع أي آخرهم يعني لا ينبأ أحد بعده وعيسى ممن نبئ قبله وحين ينزل ينزل عاملا على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم كأنه بعض أمته وغيره بكسر التاء بمعنى الطابع وفاعل الختم وتقويه قراءة ابن مسعود ولكن نبيا ختم النبيين (وكان الله بكل شيء عليما)

يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) اثنوا عليه بضروب الثناء واكثروا ذلك (وسبحوه بكرة) أول النهار (وأصيلا) آخر النهار وخصا بالذكر لان ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فيهما وعن قتادة قولوا سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم والفعلان أي اذكروا الله وسبحوه موجهان الى البكرة والاصيل كقولك صم وصل يوم الجمعة والتسبيح من جملة الذكر وانما اختص من بين أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة ابانة لفضله على سائر الاذكار لان معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات وجاز ان يراد بالذكر واكثاره تكثير الطاعات والعبادات فانها من جملة الذكر ثم خص من ذلك التسبيح بكرة وهي صلاة الفجر وأصيلا وهي صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء أو صلاة الفجر والعشاءين (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) لما كان من شأن المصلي ان ينعطف في ركوعه وسجوده استعير لمن ينعطف على غيره حنوا عليه وترؤفا كعائد المريض في انعطافه عليه والمرأة في حنوها على ولدها ثم كثر حتى استعمل في الرحمة والترؤف ومنه قولهم صلى الله عليك أي ترحم عليك وترأف والمراد بصلاة الملائكة قولهم اللهم صل على المؤمنين جعلوا لكونهم مستجابي الدعوة كأنهم فاعلون الرحمة والرأفة والمعنى هو الذي يترحم عليكم ويترأف حين يدعوكم الى الخير ويأمركم باكثار الذكر والتوفر على الصلاة والطاعة (ليخرجكم من الظلمات الى النور) من ظلمات المعصية الى نور الطاعة (وكان بالمؤمنين رحيما) هو دليل على ان المراد بالصلاة الرحمة وروي انه لما نزل ان الله وملائكته يصلون على النبي قال أبو بكر ما خصك الله يا رسول الله بشرف الا وقد أشركنا فيه فنزلت (تحيتهم) من اضافة المصدر الى المفعول أي تحية الله لهم (يوم يلقونه) يرونه (سلام) يقول الله تبارك وتعالى السلام عليكم (وأعد لهم أجرا كريما) يعني الجنة (يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا) على من بعثت اليهم وعلى تكذيبهم وتصديقهم أي مقبولا قولك عند الله لهم وعليهم كما يقبل قول الشاهد العدل في الحكم وهو حال مقدرة كما تقول مررت برجل معه صقر صائدا به أي مقدرا به الصيد غدا (ومبشرا) للمؤمنين بالجنة (ونذيرا) للكافرين بالنار (وداعيا الى الله باذنه) بأمره أو بتيسيره والكل منصوب على الحال (وسراجا منيرا) جلى به الله ظلمات الشرك واهتدى به الضالون كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به والجمهور على انه القرآن فيكون التقدير وذا سراج منيرا وتاليا سراجا منيرا ووصف بالانارة لان من السرج ما لا يضيء اذا قل سليطه ودقت فتيلته أو شاهدا بوحدانيتنا ومبشرا برحمتنا ونذيرا بنقمتنا وداعيا الى عبادتنا وسراجا وحجة ظاهرة لحضرتنا

منه

الالبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين وعن جابر نحوه وفيه جئت فختمت الانبياء (ق) عن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله الكفر بي وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي وقد سماه الله رؤفا رحيما (م) عن أبي موسى قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يسمي لنا نفسه أسماء فقال أنا محمد وأنا أحمد وأنا المقفي وأنا الماحي ونبي التوبة ونبي الرحمة المقفي هو المولى الذاهب يعني آخر الانبياء المتبع لهم فاذا قفي فلا نبي بعده قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) قال ابن عباس لم يفرض الله عز وجل على عباده فريضة الا جعل لها حدا معلوما ثم عذر أهلها في حال العذر غير الذكر فانه لم يجعل له حدا ينتهي اليه ولم يعذر أحدا في تركه الا مغلوبا على عقله وأمرهم به في الاحوال كلها فقال تعالى فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم وقال تعالى واذكروا الله ذكرا كثيرا يعني بالليل والنهار في البر والبحر وفي الصحة والسقم وفي السر والعلانية وقيل الذكر الكثير أن لا ينساه أبدا (وسبحوه) معناه اذا ذكرتموه ينبغي لكم أن يكون ذكركم اياه على وجه التعظيم والتنزيه عن كل سوء (بكرة وأصيلا) فيه اشارة الى المداومة لان ذكر الطرفين يفهم منه الوسط أيضا وقيل معناه صلوا له بكرة صلاة الصبح وأصيلا يعني صلاة العصر وقيل صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقيل معنى سبحوه قولوا سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله زاد في نسخة العلي العظيم فعبر بالتسبيح عن أخواته والمراد بقوله كثيرا هذه الكلمات يقولها الطاهر والجنب والحائض والمحدث (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار للمؤمنين وقيل الصلاة من الله على العبد هي اشاعة الذكر الجميل له في عباده والثناء عليه قال أنس لما نزلت ان الله وملائكته يصلون على النبي قال أبو بكر ما خصك الله يا رسول الله بشرف الا وقد أشركنا فيه فأنزل الله هذه الآية (ليخرجكم من الظلمات الى النور) يعني انه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة لكم أخرجكم من ظلمة الكفر الى نور الايمان (وكان بالمؤمنين رحيما) فيه بشارة لجميع المؤمنين واشارة الى ان قوله يصلي عليكم غير مختص بالسامعين وقت الوحي بل هو عام لجميع المسلمين (تحيتهم) يعني تحية المؤمنين (يوم يلقونه) أي يرون الله يوم القيامة (سلام) أي يسلم الرب تعالى عليهم ويسلمهم من جميع الآفات وروي عن البراء بن عازب قال تحيتهم يوم يلقونه سلام يعني يلقون ملك الموت لا يقبض روح مؤمن الا يسلم عليه عن ابن مسعود قال اذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال ربك يقرئك السلام وقيل تسلم عليهم الملائكة حين يخرجون من قبورهم تبشرهم (وأعد لهم أجرا كريما) يعني الجنة قوله عز وجل (يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا) أي للرسل بالتبليغ وقيل شاهدا على الخلق كلهم يوم القيامة (ومبشرا) أي لمن آمن بالجنة (ونذيرا) أي لمن كذب بالنار (وداعيا الى الله) أي الى توحيده وطاعته (باذنه) أي بأمره (وسراجا منيرا) سماه سراجا منيرا لانه جلى به ظلمات الشرك واهتدى به الضالون كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير وقيل معناه أمد الله بنور نبوته نور البصائر كما يمد بنور السراج نور الابصار ووصفه بالانارة لان من السرج ما لا يضيء فان قلت لم سماه سراجا ولم يسمه شمسا والشمس أشد اضاءة من السراج وانور قلت نور الشمس لا يمكن أن يؤخذ منه شيء بخلاف نور السراج فانه يؤخذ

(وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا) ثوابا عظيما (ولا تطع الكافرين والمنافقين) المراد به التهييج أو الدوام والثبات على ما كان عليه (ودع أذاهم) هو بمعنى الايذاء يحتمل أن يكون مضافا الى الفاعل أي اجعل ايذاءهم اياك في جانب ولا تبال بهم ولا تخف من ايذائهم او الى المفعول أي دع ايذاءك اياهم مكافأة لهم (وتوكل على الله) فانه يكفيكهم (وكفى بالله وكيلا) وكفى به مفوضا اليه وقيل ان الله تعالى وصفه بخمسة أوصاف وقابل كلا منها بخطاب مناسب له قابل الشاهد بقوله وبشر المؤمنين لانه يكون شاهدا على امته وهم يكونون شهداء على سائر الامم وهو الفضل الكبير والمبشر بالاعراض عن الكافرين والمنافقين لانه اذا أعرض عنهم اقبل بجميع اقباله على المؤمنين وهو مناسب للبشارة والنذير بدع اذاهم لانه اذا ترك اذاهم في الحاضر والاذى لابد له من عقاب عاجل أو آجل كانوا منذرين به في المستقبل والداعي الى الله بتيسيره بقوله وتوكل على الله فان من توكل على الله يسر عليه كل عسير والسراج المنير بالاكتفاء به وكيلا لان من اناره الله برهانا على جميع خلقه كان جديرا بان يكتفى به عن جميع خلقه (يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات) أي تزوجتم والنكاح هو الوطء في الاصل وتسمية العقد نكاحا لملابسته له من حيث انه طريق اليه كتسمية الخمر اثما لانها سببه وكقول الراجز

* اسنمة الآبال في سحابه *

سمى الماء باسنمة الآبال لانه سبب سمن الآبال وارتفاع اسنمتها ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله تعالى الا في معنى العقد لانه في معنى الوطء من باب التصريح به ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة والمماسة والقربان والتغشي والاتيان وفي تخصيص المؤمنات مع ان الكتابيات تساوي المؤمنات في هذا الحكم اشارة الى ان الاولى بالمؤمن ان ينكح مؤمنة (ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهن) والخلوة الصحيحة كالمس (فما لكم عليهن من عدة تعتدونها) فيه دليل على ان العدة تجب على النساء للرجال ومعنى تعتدونها تستوفون عددها تفتعلون من العد (فمتعوهن) والمتعة تجب للتي طلقها قبل الدخول بها ولم يسم لها مهر دون غيرها (وسرحوهن سراحا جميلا) أي لا تمسكوهن ضرارا او اخرجوهن من منازلكم اذ لا عدة لكم عليهن (يا أيها النبي انا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن) مهورهن اذ المهر أجر على البضع ولهذا قال الكرخي ان النكاح بلفظ الاجارة جائز وقلنا التأبيد من شرط النكاح والتأقيت من شرط الاجارة وبينهما منافاة وايتاؤها أعطاؤها عاجلا أو فرضها او تسميتها في العقد (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) وهي صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما (وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك) ومع ليس للقران بل لوجودها فحسب كقوله واسلمت مع سليمان وعن أم هانئ بنت أبي طالب خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت فعذرني فانزل الله هذه الآية فلم احل له لاني لم اهاجر معه

منه أنوار كثيرة (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا) أي ما يتفضل به عليهم زيادة على الثواب وقيل الفضل هو الثواب وقيل هو تفضيل هذه الامة على سائر الامم (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم) قال ابن عباس اصبر على أذاهم وقيل لا تجازهم عليه وهذا منسوخ بآية القتال (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) أي حافظا قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) أي تجامعوهن ففي الآية دليل على ان الطلاق قبل النكاح غير واقع لان الله تعالى رتب الطلاق على النكاح حتى لو قال لامرأة أجنبية اذا نكحتك فأنت طالق أو قال كل امرأة انكحها فهي طالق فنكح لا يقع الطلاق هذا قول علي وابن عباس وجابر ومعاذ وعائشة وبه قال سعيد بن المسيب وعروة وشريح وسعيد بن جبير والقاسم وطاوس والحسن وعكرمة وعطاء وسليمان بن يسار ومجاهد والشعبي وقتادة وأكثر أهل العلم وبه قال الشافعي وروي عن ابن مسعود انه يقع الطلاق وهو قول ابراهيم النخعي وأصحاب الرأي وقال ربيعة ومالك والاوزاعي ان عين امرأة وقع وان عم فلا يقع وروى عكرمة عن ابن عباس انه قال كذبوا على ابن مسعود ان كان قالها فزلة من عالم في الرجل يقول ان تزوجت فلانة فهي طالق والله يقول اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ولم يقل اذا طلقتموهن ثم نكحتموهن روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا طلاق فيما لا تملك ولا عتق فيما لا تملك ولا بيع فيما لا تملك أخرجه أبو داود والترمذي بمعناه (خ) عن ابن عباس قال جعل الله الطلاق بعد النكاح أخرجه البخاري وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا طلاق قبل النكاح (فما لكم عليهن من عدة تعتدونها) أي تحصونها بالاقراء والاشهر أجمع العلماء انه اذا كان الطلاق قبل المسيس والخلوة فلا عدة وذهب أحمد الى ان الخلوة توجب العدة والصداق (فمتعوهن) أي أعطوهن ما يستمتعن به قال ابن عباس هذا اذا لم يكن سمى لها صداقا فلها المتعة وان كان قد فرض لها صداقا فلها نصف الصداق ولا متعة لها وقال قتادة هذه الآية منسوخة بقوله فنصف ما فرضتم وقيل هذا أمر ندب فالمتعة مستحبة لها مع نصف المهر وقيل انها تستحق المتعة بكل حال لظاهر الآية (وسرحوهن سراحا جميلا) أي خلوا سبيلهن بالمعروف من غير اضرار بهن قوله عز وجل (يا أيها النبي انا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن) أي مهورهن (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) أي من السبي أي فتملكها مثل صفية وجويرية وقد كانت مارية مما ملكت يمينه فولدت له ابراهيم (وبنات عمك وبنات عماتك) يعني نساء قريش (وبنات خالك وبنات خالاتك) يعني نساء بني زهرة (اللاتي هاجرن معك) الى المدينة فمن لم تهاجر منهن لم يجز له نكاحها عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت اليه فعذرني ثم أنزل الله انا أحللنا لك أزواجك الآية قالت فلم أكن أحل له لاني لم أهاجر كنت من الطلقاء أخرجه الترمذي وقال حديث حسن ثم نسخ شرط الهجرة في

(وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي) واحللنا لك من وقع لها ان تهب لك نفسها ولا تطلب مهرا من النساء المؤمنات ان اتفق ذلك ولذا انكرها قال ابن عباس هو بيان حكم في المستقبل ولم يكن عنده أحد منهن بالهبة وقيل الواهبة نفسها ميمونة بنت الحارث أو زينب بنت خزيمة أو أم شريك بنت جابر أو خولة بنت حكيم وقرأ الحسن أن بالفتح على التعليل بتقدير حذف اللام وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه بغير ان (ان أراد النبي أن يستنكحها) استنكاحها طلب نكاحها والرغبة فيه وقيل نكح واستنكح بمعنى والشرط الثاني تقييد للشرط الاول شرط في الاحلال هبتها نفسها وفي الهبة ارادة استنكاح رسول الله صلى الله عليه وسلم كانه قال أحللناها لك ان وهبت لك نفسها وانت تريد ان تستنكحها لأن ارادته هي قبول الهبة وما به تتم وفيه دليل جواز النكاح بلفظ الهبة لان رسول الله صلى الله عليه وسلم وامته سواء في الاحكام الا فيما خصه الدليل (خالصة) بلا مهر حال من الضمير في وهبت أو مصدر مؤكد أي خلص لك احلال ما أحللنا لك خالصة بمعنى خلوصا والفاعلة في المصادر غير عزيز كالعافية والكاذبة (لك من دون المؤمنين) بل يجب المهر لغيرك وان لم يسمه أو نفاه عدل عن الخطاب الى الغيبة في قوله ان اراد النبي ثم رجع الى الخطاب ليؤذن ان الاختصاص تكرمة له لاجل النبوة وتكريره أي تكرير النبي تفخيم له (قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم) أي ما أوجبنا من المهور على امتك في زوجاتهم أو ما أوجبنا عليهم في أزواجهم من الحقوق (وما ملكت ايمانهم) بالشراء وغيره من وجوه الملك وقوله (لكيلا يكون عليك حرج) ضيق متصل بخالصة لك من دون المؤمنين وقوله قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم جملة اعتراضية (وكان الله غفورا رحيما) بالتوسعة على عباده (ترجي) بلا همز مدني وحمزة وعلي وخلف وحفص وبهمز غيرهم تؤخر (من تشاء منهن وتؤوي اليك من تشاء) تضم بمعنى تترك مضاجعة من تشاء منهن وتضاجع من تشاء أو تطلق من تشاء وتمسك من تشاء او لا تقسم لايتهن شئت أو تترك تزوج من شئت من نساء أمتك وتتزوج من شئت وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لانه اما ان يطلق واما ان يمسك فاذا أمسك ضاجع أو ترك وقسم أو لم يقسم واذا طلق وعزل فاما ان يخلي المعزولة لا يبتغيها أو يبتغيها وروي انه أرجى منهن جويرية وسودة وصفية وميمونة وأم حبيبة وكان يقسم لهن ما شاء كما شاء وكانت ممن آوى اليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب أرجى خمسا وآوى أربعا وروي انه كان يسوي مع ما أطلق له وخير فيه الا سودة فانها وهبت ليلتها لعائشة وقالت لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نسائك

التحليل (وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي ان أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) أي أحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها لك بغير صداق فأما غير المؤمنة فلا تحل له اذا وهبت نفسها منه وهل تحل له الكتابية بالمهر فذهب جماعة الى انها لا تحل له لقوله وامرأة مؤمنة فدل ذلك على انه لا يحل له نكاح غير المسلمة وكان من خصائصه صلى الله عليه وسلم أن النكاح ينعقد في حقه بمعنى الهبة من غير ولي ولا شهود ولا مهر لقوله خالصة لك من دون المؤمنين والزيادة على أربع ووجوب تخيير النساء واختلفوا في انعقاد النكاح بلفظ الهبة في حق الامة فذهب أكثرهم الى انه لا ينعقد الا بلفظ الانكاح او التزويج وهو قول سعيد بن المسيب والزهري ومجاهد وعطاء وبه قال ربيعة ومالك والشافعي وقال ابراهيم النخعي وأهل الكوفة ينعقد بلفظ التمليك والهبة ومن قال بالقول الاول اختلفوا في نكاح النبي صلى الله عليه وسلم فذهب قوم الى انه كان ينعقد في حقه صلى الله عليه وسلم بلفظ الهبة لقوله تعالى خالصة لك من دون المؤمنين وذهب آخرون الى انه لا ينعقد الا بلفظ الانكاح أو التزويج كما في حق سائر الامة لقوله تعالى ان أراد النبي أن يستنكحها وكان اختصاصه في ترك المهر لا في لفظ النكاح واختلفوا في التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم وهل كانت عنده امرأة منهن فقال ابن عباس ومجاهد لم يكن عند النبي صلى الله عليه وسلم امرأة وهبت نفسها منه ولم يكن عنده امرأة الا بعقد نكاح او بملك يمين وقوله ان وهبت نفسها على سبيل الفرض والتقدير وقال آخرون بل كانت عنده موهوبة واختلفوا فيها فقال الشعبي هي زينب بنت خزيمة الانصارية الهلالية أم المساكين وقال قتادة هي ميمونة بنت الحارث وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل هي أم شريك بنت جابر من بني أسد وقال عروة بن الزبير هي خولة بنت حكيم من بني سليم (قد علمنا ما فرضنا عليهم) أي أوجبنا على المؤمنين (في أزواجهم) أي من الاحكام وهو أن لا يتزوجوا أكثر من أربع ولا يتزوجوا الا بولي وشهود ومهر (وما ملكت أيمانهم) أي ما أوجبنا من الاحكام في ملك اليمين (لكيلا يكون عليك حرج) وهذا يرجع الى أول الآية معناه أحللنا لك أزواجك وما ملكت يمينك والموهوبة لكيلا يكون عليك ضيق (وكان الله غفورا) أي للواقع في الحرج (رحيما) أي بالتوسعة على عباده قوله تعالى (ترجي) أي تؤخر (من تشاء منهن وتؤوي اليك) أي تضم اليك (من تشاء) قيل هذا في القسم بينهن وذلك ان التسوية بينهن في القسم كانت واجبة عليه صلى الله عليه وسلم فلما نزلت هذه الآية سقط عنه الوجوب وصار الاختيار اليه فيهن وقيل نزلت هذه الآية حين غار بعض أمهات المؤمنين على النبي صلى الله عليه وسلم وطلب بعضهن زيادة النفقة فهجرهن شهرا حتى نزلت آية التخيير وأمره الله تعالى أن يخيرهن فمن اختارت الدنيا فارقها ويمسك من اختارت الله ورسوله على انهن أمهات المؤمنين لا ينكحن أبدا وعلى انه يؤوي اليه من يشاء منهن ويرجي من يشاء فيرضين به قسم لهن أو لم يقسم أو قسم لبعضهن دون بعض أو فضل بعضهن في النفقة والكسوة فيكون الامر في ذلك اليه يفعل كيف يشاء كان ذلك من خصائصه فرضين بذلك واخترنه على هذا الشرط واختلفوا في انه هل أخرج أحدا منهن عن القسم فقال بعضهم لم يخرج أحدا بل كان صلى الله عليه وسلم مع ما جعل الله له من ذلك يسوي بينهن في القسم الا سودة فانها رضيت بترك حقها من القسم وجعلت يومها لعائشة وقيل أخرج بعضهن روي عن أبي رزين قال لما نزل التخيير أشفقن أن يطلقن فقلن يا نبي الله اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت ودعنا على حالنا فأرجى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهن وآوى اليه بعضهن فكان ممن آوى اليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب وكان يقسم بينهن سواء وأرجى منهن خمسا أم حبيبة وميمونة وسودة وجويرية وصفية فكان يقسم لهن ما يشاء

وقال ابن عباس تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقال الحسن تترك نكاح من شئت وتنكح من شئت من النساء قال وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا خطب امرأة لم يكن لغيره خطبتها حتى يتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل تقبل من تشاء من المؤمنات اللاتي يهبن أنفسهن فتؤويها اليك وتترك من تشاء فلا تقبلها (ق) عن عروة قال كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي صلى الله عليه وسلم فقالت عائشة أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل فلما نزلت ترجي من تشاء منهن قلت يا رسول الله ما أرى ربك الا يسارع في هواك (ومن ابتغيت ممن عزلت) أي طلبت أن تؤوي اليك امرأة ممن عزلتهن عن القسمة (فلا جناح عليك) أي لا اثم عليك فأباح الله له ترك القسم لهن حتى انه ليؤخر من يشاء منهن في نوبتها ويطأ من يشاء منهن في غير نوبتها ويرد الى فراشه من عزل منهن تفضيلا له على سائر الرجال (ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن) أي ذلك التخيير الذي خيرتك في صحبتهن أقرب الى رضاهن وأطيب لأنفسهن وأقل لحزنهن اذا علمن أن ذلك من الله تعالى (ويرضين بما آتيتهن) أي أعطيتهن (كلهن) من تقريب وارجاء وعزل وايواء (والله يعلم ما في قلوبكم) أي من أمر النساء والميل الى بعضهن (وكان الله عليما) أي بما في ضمائركم (حليما) أي عنكم قوله تعالى (لا تحل لك النساء من بعد) أي من بعد هؤلاء التسع اللاتي اخترنك وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم لما خيرهن فاخترن الله ورسوله شكر الله لهن ذلك وحرم عليه النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن وعن الاستبدال بهن قاله ابن عباس واختلفوا هل أبيح له النساء بعد ذلك فروي عن عائشة انها قالت ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل له النساء أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وللنسائي عنها حتى أحل له أن يتزوج من النساء ما شاء وقال أنس مات رسول الله صلى الله عليه وسلم على التحريم وقيل لأبي بن كعب لو مات نساء النبي صلى الله عليه وسلم أكان يحل له أن يتزوج قال وما يمنعه من ذلك قيل له قوله تعالى لا تحل لك النساء من بعد قال انما أحل له ضربا من النساء فقال تعالى يا أيها النبي انا أحللنا لك أزواجك الآية ثم قال لا تحل لك النساء من بعد وقيل معنى الآية لا تحل لك اليهوديات ولا النصرانيات بعد المسلمات (ولا أن تبدل بهن من أزواج) أي بالمسلمات غيرهن من الكتابيات لأنه لا تكون أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية الا ما ملكت يمينك أي من الكتابيات فتتسرى بهن وقيل في قوله ولا أن تبدل بهن من أزواج كانت العرب في الجاهلية يتبادلون بأزواجهم يقول الرجل للرجل انزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي فأنزل الله تعالى ولا أن تبدل بهن من أزواج أي تبادل بأزواجك غيرك بأن تعطيه زوجتك وتأخذ زوجته فحرم ذلك الا ما ملكت يمينك أي لا بأس أن تبادل بجاريتك ما شئت فأما الحرائر فلا (ولو أعجبك حسنهن) يعني ليس لك أن تطلق أحدا من نسائك وتنكح بدلها أخرى ولو أعجبك جمالها قال ابن عباس يعني أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب لما استشهد جعفر أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخطبها فنهي عن ذلك (الا ما ملكت يمينك) قال ابن عباس ملك بعد هؤلاء مارية (وكان الله على كل شيء رقيبا) أي حافظا وفي الآية دليل على جواز النظر الى من يريد نكاحها من النساء ويدل عليه ما روي عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خطب أحدكم المرأة فان استطاع أن ينظر الى ما يدعوه الى نكاحها فليفعل أخرجه أبو داود (م) عن أبي هريرة ان رجلا أراد أن يتزوج امرأة من الانصار فقال له النبي صلى الله عليه وسلم انظر اليها فان في أعين الانصار شيئا قال الحميدي يعني هو الصغر عن المغيرة بن شعبة قال خطبت امرأة فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم هل نظرت اليها قلت لا قال فانظر اليها فانه أحرى أن يدوم بينكما أخرجه الترمذي وقال حديث حسن قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا أن يؤذن لكم) الآية قال أكثر المفسرين نزلت هذه الآية في شأن وليمة زينب بنت جحش حين بنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم (ق) عن أنس بن مالك انه كان ابن عشر سنين مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال فكانت أمهاتي تواطئني على خدمة رسول الله

(ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) أي ومن دعوت الى فراشك وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالارجاء فلا ضيق عليك في ذلك أي ليس اذا عزلتها لم يجز لك ردها الى نفسك ومن رفع بالابتداء وخبره فلا جناح (ذلك) التفويض الى مشيئتك (أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن) أي أقرب الى قرة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعا لأنهن اذا علمن ان هذا التفويض من عند الله اطمأنت نفوسهن وذهب التغاير وحصل الرضا وقرت العيون كلهن بالرفع تأكيد لنون يرضين وقرئ ويرضين كلهن بما آتيتهن على التقديم وقرئ شاذا كلهن بالنصب تأكيدا لهن في آتيتهن (والله يعلم ما في قلوبكم) فيه وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر الله من ذلك وفوض الى مشيئة رسوله (وكان الله عليما) بذات الصدور (حليما) لا يعاجل بالعقوبة فهو حقيق بأن يتقى ويحذر (لا تحل لك النساء) بالتاء أبو عمرو ويعقوب وغيرهما بالتذكير لأن تأنيث الجمع غير حقيقي واذا جاز بغير فصل فمع الفصل أجوز (من بعد) من بعد التسع لأن التسع نصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأزواج كما ان الأربع نصاب أمته (ولا أن تبدل بهن من أزواج) بالطلاق والمعنى ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجا أخر بكلهن أو بعضهن كرامة لهن وجزاء على ما اخترن ورضين فقصر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهن وهن التسع التي مات عنهن عائشة حفصة أم حبيبة سودة أم سلمة صفية ميمونة زينب بنت جحش جويرية ومن في من أزواج لتأكيد النفي وفائدته استغراق جنس الأزواج بالتحريم (ولو أعجبك حسنهن) في موضع الحال من الفاعل وهو الضمير في تبدل أي تبدل لا من المفعول الذي هو من أزواج لتوغله في التنكير وتقديره مفروضا اعجابك بهن وقيل هي أسماء بنت عميس امرأة جعفر بن أبي طالب فانها ممن أعجبه حسنهن وعن عائشة وأم سلمة ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل له أن يتزوج من النساء ما شاء يعني ان الآية نسخت ونسخها اما بالسنة أو بقوله انا أحللنا لك أزواجك وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف (الا ما ملكت يمينك) استثنى ممن حرم عليه الاماء ومحل ما رفع بدل من النساء (وكان الله على كل شيء رقيبا) حافظا وهو تحذير عن مجاوزة حدوده (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا أن يؤذن لكم

طعام غير ناظرين اناه) ان يؤذن فى موضع الحال أى لا تدخلوا الا مأذونا لكم أو فى معنى الظرف تقديره الا وقت ان يؤذن لكم وغير ناظرين حال من لا تدخلوا وقع الاستثناء على الحال والوقت معا كأنه قيل لا تدخلوا بيوت النبى الا وقت الاذن ولا تدخلوها الا غير ناظرين أى غير منتظرين وهؤلاء قوم كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدخلون ويقعدون منتظرين لادراكه ومعناه لا تدخلوا يا أيها المتحينون للطعام الا أن يؤذن لكم الى

طعام غير ناظرين اناه والى الطعام ادراكه يقال انى الطعام انى كقولك قلاه قلى وقيل اناه وقته أى غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم أولم على زينب بتمر وسويق وشاة وامر أنسا ان يدعو بالناس فترادفوا أفواجا يأكل فوج ويخرج ثم يدخل فوج الى ان قال يا رسول الله دعوت حتى ما أجد أحدا ادعوه فقال ارفعوا طعامكم وتفرق الناس وبقى ثلاثة نفر يتحدثون فأطالوا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرجوا فطاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجرات وسلم عليهن ودعون له ورجع فاذا الثلاثة جلوس يتحدثون وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الحياء فتولى فلما رأوه متوليا خرجوا فرجع ونزلت (ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا) فتفرقوا (ولا مستأنسين لحديث) هو مجرور معطوف على ناظرين أو منصوب أى ولا تدخلوها مستأنسين نهوا عن ان يطيلوا الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لاجل حديث يحدثه به (ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم) من اخراجكم (والله لا يستحيى من الحق) يعنى ان اخراجكم حق ما ينبغى ان يستحيى منه ولما كان الحياء مما يمنع الحيى من بعض الافعال قيل لا يستحيى من الحق أى لا يمتنع منه ولا يتركه ترك الحيى منكم هذا أدب أدب الله به الثقلاء وعن عائشة رضى الله عنها حسبك فى الثقلاء ان الله تعالى لم يحتملهم وقال فاذا طعمتم فانتشروا (واذا سألتموهن) الضمير لنساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لدلالة بيوت النبى لان فيها نساءه (متاعا) عارية أو حاجة (فاسألوهن) المتاع (من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) من خواطر الشيطان وعوارض الفتن وكانت النساء قبل نزول هذه الآية يبرزن للرجال وكان عمر رضى الله عنه يحب ضرب الحجاب عليهن ويود ان ينزل فيه وقال يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت وذكر ان بعضهم قال أننهى أن نكلم بنات عمنا الا من وراء حجاب لئن مات محمد لاتزوجن فلانة فنزل (وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) أى وما صح لكم ايذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نكاح أزواجه من بعد موته.

صلى الله عليه وسلم فخدمته عشر سنين وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن عشرين سنة وكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل وكان أول ما نزل فى مبتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش حين أصبح النبى صلى الله عليه وسلم بها عروسا فدعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا وبقى رهط عند النبى صلى الله عليه وسلم فأطالوا المكث فقام النبى صلى الله عليه وسلم فخرج وخرجت معه لكى يخرجوا فمشى النبى صلى الله عليه وسلم ومشيت معه حتى جاء عتبة حجرة عائشة ثم ظن انهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه حتى اذا دخل على زينب فاذا هم جلوس لم يقوموا فرجع النبى صلى الله عليه وسلم حتى اذا بلغ عتبة حجرة عائشة وظن انهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه فاذا هم قد خرجوا فضرب النبى صلى الله عليه وسلم بينى وبينه بالستر وأنزل الحجاب زاد فى رواية قال دخل يعنى النبى صلى الله عليه وسلم البيت وأرخى الستر وانى لفى الحجرة وهو يقول يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى قوله والله لا يستحيى من الحق (ق) عن عائشة ان أزواج النبى صلى الله عليه وسلم كن يخرجن بالليل اذا تبرزن الى المناصع وهو صعيد أفيح وكان عمر رضى الله عنه يقول للنبى صلى الله عليه وسلم احجب نساءك فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالى عشاء وكانت امرأة طويلة فناداها عمر ألا قد عرفناك يا سودة حرصا على أن ينزل الحجاب فأنزل الله الحجاب المناصع المواضع الخالية لقضاء الحاجة من البول أو الغائط والصعيد وجه الارض والافيح الواسع (ق) عن أنس وابن عمر ان عمر قال وافقت ربى فى ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلى فنزل واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وقلت يا رسول الله يدخل على نسائك البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب واجتمع نساء النبى صلى الله عليه وسلم فى الغيرة فقلت عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن فنزلت كذلك وقال ابن عباس انها نزلت فى ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدخلون عليه قبل الطعام قبل أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأذى بهم فنزلت الآية يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم يعنى الا أن تدعوا (الى طعام) فيؤذن لكم فتأكلون (غير ناظرين اناه) يعنى منتظرين نضجه ووقت ادراكه (ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم) أى أكلتم الطعام (فانتشروا) أى فاخرجوا من منزله وتفرقوا (ولا مستأنسين لحديث) أى لا تطيلوا الجلوس ليستأنس بعضكم بحديث بعض وكانوا يجلسون بعد الطعام يتحدثون فنهوا عن ذلك (ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم) أى فيستحيى من اخراجكم (والله لا يستحيى من الحق) أى لا يترك تأديبكم وبيان الحق حياء ولما كان الحياء مما يمنع الحيى من بعض الافعال قال لا يستحيى من الحق يعنى لا يمتنع منه ولا يتركه ترك الحيى منكم وهذا أدب أدب الله به الثقلاء وقيل بحسبك من الثقلاء ان الله لم يحتملهم (واذا سألتموهن متاعا) أى واذا سألتم نساء النبى صلى الله عليه وسلم حاجة (فاسألوهن من وراء حجاب) أى من وراء ستر فبعد آية الحجاب لم يكن لاحد أن ينظر الى امرأة من نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم متنقبة كانت أو غير متنقبة (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أى من الريب (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) أى ليس لكم أذاه فى شئ من الاشياء (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) نزلت فى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأنكحن عائشة قيل هو طلحة

ابن عبيد الله فأخبر الله ان ذلك محرم وقال (ان ذلكم كان عند الله عظيما) أى ذنبا عظيما وهذا من اعلام تعظيم الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وايجاب حرمته حيا وميتا واعلامه بذلك مما طيب نفسه وسر قلبه واستفرغ شكره فان من الناس من تفرط غيرته على حرمته حتى يتمنى لها الموت قبله لئلا تنكح بعده (ان تبدوا شيئا) أى من أمر نكاحهن على ألسنتكم (أو تخفوه) أى فى صدوركم (فان الله كان بكل شئ عليما) أى يعلم سركم وعلانيتكم نزلت فيمن أضمر نكاح عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل قال رجل من الصحابة ما بالنا نمنع من الدخول على بنات أعمامنا فنزلت هذه الآية ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والابناء والاقارب لرسول الله ونحن أيضا يا رسول الله نكلمهن من وراء حجاب فأنزل الله عز وجل (لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا أبناء اخوانهن ولا أبناء أخواتهن) أى لا اثم عليهن فى ترك الحجاب عن هؤلاء الاصناف من الاقارب (ولا نسائهن) قيل أراد به النساء المسلمات حتى لا يجوز للكتابيات الدخول على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل هو عام فى المسلمات والكتابيات وانما قال ولا نسائهن لانهن من أجناسهن (ولا ما ملكت أيمانهن) اختلفوا فى ان عبد المرأة هل يكون محرما لها أم لا فقال قوم بل يكون محرما لقوله تعالى ولا ما ملكت أيمانهن وقال قوم العبد كالاجانب والمراد من الآية الاماء دون العبيد (واتقين الله) أى أن يراكن أحد غير هؤلاء (ان الله كان على كل شئ) أى من أعمال العباد (شهيدا) قوله عز وجل (ان الله وملائكته يصلون على النبى) قال ابن عباس أراد ان الله يرحم النبى والملائكة يدعون له وعنه أيضا يصلون يتبركون وقيل الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار فصلاة الله ثناؤه عليه عند ملائكته وصلاة الملائكة الدعاء (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) أى ادعوا له بالرحمة (وسلموا تسليما) أى حيوه بتحية الاسلام

(فصل فى صفة الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وفضلها) اتفق العلماء على وجوب الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ثم اختلفوا فقيل تجب فى العمر مرة وهو الاكثر وقيل تجب فى كل صلاة فى التشهد الاخير وهو مذهب الشافعى واحدى الروايتين عن أحمد وقيل تجب كلما ذكر واختاره الطحاوى من الحنفية والحليمى من الشافعية والواجب اللهم صل على محمد وما زاد سنة (ق) عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال لقينى كعب بن عجرة فقال ألا أهدى لك هدية ان النبى صلى الله عليه وسلم خرج علينا فقلنا يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد (ق) عن أبى حميد الساعدى قال قالوا يا رسول الله كيف نصلى عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى أزواجه وذريته كما صليت على ابراهيم وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته كما باركت على ابراهيم انك حميد مجيد (م) عن أبى مسعود البدرى قال أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى مجلس سعد بن عبادة فقال له بشير بن سعد أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله فكيف نصلى عليك فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تمنينا أنه لم يسأله ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم فى العالمين انك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم (م) عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى على واحدة صلى الله عليه بها عشرا عن أنس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات أخرجه الترمذى وله عن أبى طلحة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشر فى وجهه فقلت انا نرى البشر فى وجهك قال أتانى الملك فقال يا محمد ان ربك يقول أما يرضيك انه لا يصلى عليك أحد الا صليت عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد الا سلمت عليه عشرا وله عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لله ملائكة سياحين فى الارض يبلغونى عن أمتى السلام عن

(ان ذلكم كان عند الله عظيما) أى ذنبا عظيما (ان تبدوا شيئا) من ايذاء النبى صلى الله عليه وسلم أو من نكاحهن (أو تخفوه) فى أنفسكم من ذلكم (فان الله كان بكل شئ عليما) فيعاقبكم به ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والابناء والاقارب يا رسول الله أو نحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب فنزل (لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا أبناء اخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن) أى نساء المؤمنات (ولا ما ملكت أيمانهن) أى لا اثم عليهن فى ان لا يحتجبن من هؤلاء ولم يذكر العم والخال لانهما يجريان مجرى الوالدين وقد جاءت تسمية العم أبا قال الله تعالى واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق واسماعيل عم يعقوب وعبيدهن عند الجمهور كالاجانب ثم نقل الكلام من الغيبة الى الخطاب وفى هذا النقل فضل تشديد كأنه قيل (واتقين الله) فيما أمرتن به من الاحتجاب وأنزل فيه الوحى من الاستتار واحتطن فيه (ان الله كان على كل شئ شهيدا) عالما قال ابن عطاء الشهيد الذى يعلم خطرات القلوب كما يعلم حركات الجوارح (ان الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) أى قولوا اللهم صل على محمد أو صلى الله على محمد (وسلموا تسليما) أى قولوا اللهم سلم على محمد او انقادوا لامره وحكمه انقيادا وسئل عليه السلام عن هذه الآية فقال ان الله وكل بى ملكين فلا اذكر عند عبد مسلم فيصلى على الا قال ذانك الملكان غفر الله لك وقال الله وملائكته جوابا لذينك الملكين آمين ولا اذكر عند عبد مسلم فلا يصلى على الا قال ذانك الملكان لا غفر الله لك وقال الله وملائكته جوابا لذينك الملكين آمين ثم هى واجبة مرة عند الطحاوى وكلما ذكر اسمه عند الكرخى وهو الاحتياط وعليه الجمهور وان صلى على غيره على سبيل التبع كقوله صلى الله على النبى وآله فلا كلام فيه واما اذا أفرد غيره من أهل البيت بالصلاة فمكروه وهو من شعائر الروافض

(ان الذين يؤذون الله ورسوله) أي يؤذون رسول الله وذكر اسم الله للتشريف أو عبر بايذاء الله ورسوله عن فعل مالا يرضى به الله ورسوله كالكفر وانكار النبوة مجازا وانما جعل مجازا فيهما وحقيقة الايذاء يتصور في رسول الله لئلا يجتمع المجاز والحقيقة في لفظ واحد (لعنهم الله في الدنيا والآخرة) طردهم الله عن رحمته في الدارين (وأعد لهم عذابا مهينا) في الآخرة (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا) أطلق ايذاء الله ورسوله وقيد ايذاء المؤمنين والمؤمنات لان ذاك يكون غير حق ابدا وأما هذا فمنه حق كالحد والتعزير ومنه باطل قيل نزلت في ناس من المنافقين يؤذون عليا رضي الله عنه ويسمعونه وقيل في زناة كانوا يتبعون النساء وهن كارهات وعن الفضيل لا يحل لك ان تؤذي كلبا أو خنزيرا بغير حق فكيف ايذاء المؤمنين والمؤمنات (فقد احتملوا) تحملوا (بهتانا) كذبا عظيما (واثما مبينا) ظاهرا (يا أيها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) الجلباب ما يستر الكل مثل الملحفة عن المبرد ومعنى يدنين عليهن من جلابيبهن يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن واعطافهن يقال اذا زال الثوب عن وجه المرأة ادني ثوبك على وجهك ومن للتبعيض اي ترخي بعض جلبابها وفضله على وجهها تتقنع حتى تتميز من الامة او المراد ان يتجلببن ببعض ما لهن من الجلابيب وان لا تكون المرأة متبذلة في درع وخمار كالامة ولها جلبابان فصاعدا في بيتها وذلك ان النساء في أول الاسلام على هجيراهن في الجاهلية متبذلات تبرز المرأة في درع وخمار لا فصل بين الحرة والامة وكان الفتيان يتعرضون اذا خرجن بالليل لقضاء حوائجهن في النخيل والغيطان للاماء وربما تعرضوا للحرة بحسبان الامة فأمرن ان يخالفن بزيهن عن زي الاماء بلبس الملاحف وستر الرؤس والوجوه فلا يطمع فيهن طامع وذلك قوله (ذلك أدنى ان يعرفن فلا يؤذين) اي اولى واجدر بأن يعرفن فلا يتعرض لهن (وكان الله غفورا) لما سلف منهن من التفريط (رحيما) بتعليمهن آداب المكارم (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض) فجور وهم الزناة من قوله فيطمع الذي في قلبه مرض (والمرجفون في المدينة) هم أناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون هزموا وقتلوا وجرى عليهم كيت وكيت فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين يقال ارجف بكذا اذا أخبر به على غير حقيقة لكونه خبرا متزلزلا غير ثابت من الرجفة وهي الزلزلة

ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وله عن علي بن أبي طالب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم البخيل الذي ذكرت عنده فلم يصل علي أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب صحيح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سره أن يكتال بالمكيال الاوفى اذا صلى علينا أهل البيت فليقل اللهم صل على محمد النبي الامي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على ابراهيم انك حميد مجيد أخرجه أبو داود قوله عز وجل (ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا) قال ابن عباس هم اليهود والنصارى والمشركون فأما اليهود فقالوا عزير ابن الله ويد الله مغلولة وقالوا ان الله فقير ونحن اغنياء وأما النصارى فقالوا المسيح ابن الله وثالث ثلاثة وأما المشركون فقالوا الملائكة بنات الله والاصنام شركاؤه (خ) عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه اياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من اعادته وأما شتمه اياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد (ق) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال الله عز وجل يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي أقلب الليل والنهار معنى هذا الحديث أنه كان من عادة العرب في الجاهلية أن يذموا الدهر ويسبوه عند النوازل لاعتقادهم ان الذي يصيبهم من أفعال الدهر فقال الله تعالى أنا الدهر أي أنا الذي أحل بهم النوازل وأنا فاعل لذلك الذي تنسبونه الى الدهر في زعمكم وقيل معنى يؤذون الله يلحدون في أسمائه وصفاته وقيل هم أصحاب التصاوير (ق) عن أبي هريرة قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة وليخلقوا حبة اوشعيرة وقيل يؤذون الله أي يؤذون أولياء الله كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب وقال تعالى من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة ومعنى الاذى هو مخالفة أمر الله تعالى وارتكاب معاصيه ذكر ذلك على ما يتعارفه الناس بينهم لان الله تعالى منزه عن أن يلحقه أذى من أحد وأما ايذاء الرسول فقال ابن عباس هو أنه شج وجهه وكسرت رباعيته وقيل ساحر شاعر معلم مجنون (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا) أي من غير أن عملوا ما أوجب أذاهم وقيل يقعون فيهم ويرمونهم بغير جرم (فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا) قيل انها نزلت في علي بن أبي طالب كانوا يؤذونه ويسمعونه وقيل نزلت في شأن عائشة وقيل نزلت في الزناة الذين كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء اذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن فيتبعون المرأة فان سكتت تبعوها وان زجرتهم انتهوا عنها ولم يكونوا يطلبون الا الاماء ولكن كانوا لا يعرفون الحرة من الامة لان زي الكل كان واحدا تخرج الحرة والامة في درع وخمار فشكوا ذلك الى أزواجهن فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات الآية ثم نهى الحرائر أن يتشبهن بالاماء فقال تعالى (يا أيها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين) أي يرخين ويغطين (عليهن من جلابيبهن) جمع جلباب وهو الملاءة التي تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار وقيل هو الملحفة وكل ما يستتر به من كساء وغيره قال ابن عباس أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤسهن ووجوههن بالجلابيب الا عينا واحدة ليعلم انهن حرائر وهو قوله تعالى (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) أي لا يتعرض لهن (وكان الله غفورا رحيما) أي لما سلف منهن قال أنس مرت بعمر بن الخطاب جارية متقنعة فعلاها بالدرة وقال يا لكاع أتتشبهين بالحرائر ألقي القناع لكاع كلمة تقال لمن يستحقر به مثل العبد والامة والخامل والقليل العقل مثل قولك يا خسيس قوله تعالى (لئن لم ينته المنافقون) أي عن نفاقهم (والذين في قلوبهم مرض) أي فجور وهم الزناة (والمرجفون في المدينة) أي بالكذب وذلك ان ناسا منهم كانوا اذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوقعون في الناس انهم قد قتلوا وهزموا ويقولون قد أتاكم

(لنغرينك بهم) لنأمرنك بقتالهم أو لنسلطنك عليهم (ثم لايجاورونك فيها) في المدينة وهو عطف على لنغرينك لانه يجوز ان يجاب به القسم لصحة قولك لئن لم ينتهوا لايجاورونك ولما كان الجلاء عن الوطن أعظم من جميع ما أصيبوا به عطف بثم لبعد حاله عن حال المعطوف عليه (الا قليلا) زمانا قليلا والمعنى لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم والفسقة عن فجورهم والمرجفون عما يؤلفون من اخبار السوء لنأمرنك بأن تفعل الافعال التي تسوءهم ثم بأن تضطرهم الى طلب الجلاء عن المدينة والى ان لا يساكنوك فيها الا زمانا قليلا ريثما يرتحلون فسمى ذلك اغراء وهو التحريش على سبيل المجاز (ملعونين) نصب على الشتم أو الحال اى لايجاورونك الا ملعونين فالاستثناء دخل على الظرف والحال معا كما مر ولا ينتصب عن أخذوا لان ما بعد حروف الشرط لا يعمل فيما قبلها (أينما ثقفوا) وجدوا (أخذوا ٤٥١ وقتلوا تقتيلا) والتشديد يدل على التكثير (سنة الله) في موضع مصدر مؤكد أي سن الله في الذين ينافقون الانبياء ان يقتلوا أينما وجدوا (في الذين خلوا) مضوا (من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) أي لا يبدل الله سنته بل يجريها مجرى واحدا في الامم (يسألك الناس عن الساعة) كان المشركون يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت قيام الساعة استعجالا على سبيل الهزء واليهود يسألونه امتحانا لان الله تعالى عمى وقتها في التوراة وفي كل كتاب فأمر رسوله بأن يجيبهم بأنه علم قد استأثر الله به ثم بين لرسوله انها قريبة الوقوع تهديدا للمستعجلين واسكاتا للممتحنين بقوله (قل انما علمها عند الله ومايدريك لعل الساعة تكون قريبا) شيئا قريبا ولان الساعة في معنى الزمان (ان الله لعن الكافرين وأعدلهم سعيرا) نارا شديدة الاتقاد (خالدين فيها أبدا) هذا رد لمذهب الجهمية لانهم يزعمون ان الجنة والنار تفنيان ولا وقف على سعيرا لان قوله خالدين فيها حال عن الضمير في لهم (لايجدون وليا ولا نصيرا) ناصرا يمنعهم اذكر (يوم تقلب وجوههم في النار) تصرف في الجهات كما ترى البضعة تدور في القدر اذا غلت وخصت الوجوه لان الوجه أكرم موضع على الانسان من جسده أو يكون الوجه عبارة عن الجملة (يقولون) حال (ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) فنتخلص من هذا العذاب فتمنوا حين لا ينفعهم التمني (وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا) جمع سيد ساداتنا شامي وسهل ويعقوب بجمع الجمع والمراد رؤساء الكفرة الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم (وكبراءنا) ذوي الاسنان منا وعلماءنا (فأضلونا السبيلا) يقال ضل السبيل وأضله اياه وزيادة الالف لاطلاق الصوت جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر وفائدتها الوقف والدلالة على ان الكلام قد انقطع وان ما بعده مستأنف (ربنا آتهم ضعفين من العذاب) للضلال والاضلال (والعنهم لعنا كبيرا) بالباء عاصم ليدل على أشد اللعن وأعظمه وغيره بالثاء لتكثير الاعداد اللعائن ونزل في شأن زيد وزينب وما سمع فيه من قالة بعض الناس (ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا) ما مصدرية او موصولة وايهما كان فالمراد البراءة عن مضمون القول ومؤداه وهو الامر المعيب واذى موسى عليه السلام هو حديث المومسة التي أرادها قارون على قذفه بنفسها واتهامهم اياه بقتل هارون فأحياه الله تعالى فأخبرهم ببراءة موسى عليه السلام كما برأ نبينا عليه السلام بقوله ما كان محمد أبا أحد من رجالكم (وكان عند الله وجيها) ذا جاه ومنزلة مستجاب الدعوة وقرأ ابن مسعود والاعمش وكان عبد الله وجيها (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا) صدقا وصوابا وقاصدا الى الحق والسداد القصد الى الحق والقول بالعدل والمراد نهيهم عما خاضوا

العدو ونحو هذا من الاراجيف وقيل كانوا يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا وتفشو الاخبار (لنغرينك بهم) أي لنحرشنك بهم ولنسلطنك عليهم (ثم لايجاورونك فيها الا قليلا) أي لا يساكنونك في المدينة الا قليلا أي حتى يخرجوا منها وقيل لنسلطنك عليهم حتى تقتلهم وتخلى منهم المدينة (ملعونين) اى مطرودين (أينما ثقفوا) اى وجدوا وأدركوا (أخذوا وقتلوا تقتيلا) أي الحكم فيهم هذا على الامر به (سنة الله) أي كسنة الله (في الذين خلوا من قبل) أي في المنافقين والذين فعلوا مثل ما فعل هؤلاء أن يقتلوا حيثما ثقفوا (ولن تجد لسنة الله تبديلا) قوله عز وجل (يسألك الناس عن الساعة) قيل ان المشركين كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت قيام الساعة استعجالا على سبيل الهزء وكان اليهود يسألونه عن الساعة امتحانا لان الله تعالى عمى عليهم علم وقتها في التوراة فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بقوله (قل انما علمها عند الله) يعني ان الله تعالى قد استأثر به ولم يطلع عليه نبيا ولا ملكا (ومايدريك) أي اى شئ يعلمك أمر الساعة ومتى يكون قيامها (لعل الساعة تكون قريبا) أي انها قريبة الوقوع وفيه تهديد للمستعجلين واسكات للممتحنين (ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا لايجدون وليا ولا نصيرا يوم تقلب وجوههم في النار) أي تتقلب ظهرا لبطن حين يسحبون عليها (يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) أي في الدنيا وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا) يعني رؤس الكفر الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم (فأضلونا السبيلا) يعني عن سبيل الهدى (ربنا آتهم) يعنون السادة والكبراء (ضعفين من العذاب) يعني ضعفي عذاب غيرهم (والعنهم لعنا كبيرا) أي لعنا متتابعا قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا) أي فطهره الله مما قالوه فيه (وكان عند الله وجيها) أي كريما ذا جاه وقدر قال ابن عباس كان حظيا عند الله لا يسأل الله شيئا الا أعطاه وقيل كان مستجاب الدعوة وقيل كان محببا مقبولا واختلفوا فيما أوذي به موسى فروى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كانت بنو اسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم الى سوءة بعض وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده فقالوا والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا الا انه آدر قال فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه قال فجمع موسى بأثره يقول ثوبي حجر ثوبي حجر حتى نظرت بنو اسرائيل الى سوءة موسى فقالوا والله ما بموسى من بأس فقام الحجر حتى نظر اليه قال وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضربا قال أبو هريرة والله ان بالحجر ندبا ستة أو سبعة من ضرب موسى الحجر أخرجه البخاري ومسلم وللبخاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى شئ من جسده استحياء منه فآذاه من آذاه من بني اسرائيل فقالوا ما يستتر هذا الستر الا من عيب بجلده اما برص واما أدرة واما آفة وان الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل الى ثيابه ليأخذها

وان الحجر غدا بثوبه فأخذ موسى العصا وطلب الحجر وجعل يقول ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى الى ملأ من بني اسرائيل ورأوه عريانا أحسن ما خلق الله وبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه فطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله ان بالحجر لندبا من أثر الضرب ثلاثا أو أربعا أو خمسا فذلك قوله يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها الادرة عظم الخصية لنفخة فيها وقوله يجمع أى أسرع وقوله ثوبي حجر أى دع ثوبي يا حجر قوله وطفق أى جعل يضرب الحجر وقوله ندبا هو بفتح النون والدال وهو الاصح وأصله أثر الجرح اذا لم يرتفع عن الجلد فشبه به الضرب بالحجر والمحدثون يقولون ندبا بسكون الدال وقيل في معنى الآية ان أذاهم اياه انه لما مات هارون في التيه ادعوا على موسى أنه قتله فأمر الله تعالى الملائكة حتى مروا به على بني اسرائيل فعرفوا انه لم يقتله فبرأه الله مما قالوا وقيل ان قارون استأجر بغيا لتقذف موسى بنفسها على رأس الملأ فعصمها الله وبرأ موسى من ذلك وأهلك قارون (ق) عن عبد الله بن مسعود قال لما كان يوم حنين آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا في القسمة فأعطى الاقرع بن حابس مائة من الابل وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك وأعطى ناسا من أشراف العرب وآثرهم في القسمة فقال رجل والله ان هذه قسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله فقلت والله لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأتيته فأخبرته بما قال فتغير وجهه حتى كان كالصرف ثم قال فمن يعدل اذا لم يعدل الله ورسوله ثم قال يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر الصرف بكسر الصاد صبغ أحمر يصبغ به الاديم قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا) قال ابن عباس صوابا وقيل عدلا وقيل صدقا وقيل هو قول لا اله الا الله (يصلح لكم أعمالكم) قال ابن عباس يتقبل حسناتكم (ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) أى ظفر بالخير العظيم قوله عز وجل (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال) الآية قال ابن عباس أراد بالامانة الطاعة والفرائض التي فرضها الله على عباده عرضها على السموات والارض والجبال على أنهم اذا أدوها أثابهم وان ضيعوها عذبهم وقال ابن مسعود الامانة اداء الصلوات وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت وصدق الحديث وقضاء الدين والعدل في المكيال والميزان وأشد من هذا كله الودائع وقيل جميع ما أمروا به ونهوا عنه وقيل هي الصوم وغسل الجنابة وما يخفى من الشرائع وقال عبد الله بن عمرو بن العاص أول ما خلق الله من الانسان الفرج وقال هذه الامانة استودعكها فالفرج أمانة والاذن أمانة والعين أمانة واليد أمانة والرجل أمانة ولا ايمان لمن لا أمانة له وفي رواية عن ابن عباس هي أمانات الناس والوفاء بالعهود فحق على كل مؤمن أن لا يغش مؤمنا ولا معاهدا في شيء لا في قليل ولا كثير فعرض الله تعالى هذه الامانة على أعيان السموات والارض والجبال وهذا قول جماعة من التابعين وأكثر السلف فقال لهن أتحملن هذه الامانة بما فيها قلن وما فيها قال ان أحسنتن جوزيتن وان عصيتن عوقبتن قلن لا يارب نحن مسخرات لامرك لا نريد ثوابا ولا عقابا وقلن ذلك خوفا وخشية وتعظيما لدين الله تعالى ان لا يقوموا بها لا معصية ولا مخالفة لامره وكان العرض عليهن تخييرا لا الزاما ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها والجمادات كلها خاضعة لله عز وجل مطيعة لامره ساجدة له قال بعض أهل العلم ركب الله تعالى فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الامانة حتى عقلن الخطاب وأجبن بما أجبن وقيل المراد من العرض على السموات والارض هو العرض على أهلها من الملائكة دون أعيانها والقول الاول أصح وهو قول العلماء (فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) أى خفن من الامانة أن لا يؤدينها فيلحقهن العقاب (وحملها الانسان) يعني آدم قال الله عز وجل لآدم انى عرضت الامانة على السموات والارض والجبال فلم تطقها فهل أنت آخذها بما فيها قال يارب وما فيها قال ان أحسنت جوزيت وان أسأت عوقبت فتحملها آدم فقال بين أذني وعاتقي قال الله أما اذا تحملت فسأعينك وأجعل لبصرك حجابا فاذا خشيت أن لا تنظر الى ما لا يحل فأرخ عليه حجابه واجعل للسانك لحيين وغلاقا فاذا خشيت فأغلقه

فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل في القول والبعث على ان يسددوا قولهم في كل باب لان حفظ اللسان وسداد القول رأس كل خير ولا تقف على سديدا لان جواب الامر قوله (يصلح لكم أعمالكم) يقبل طاعاتكم او يوفقكم لصالح العمل (ويغفر لكم ذنوبكم) اى يمحها والمعنى راقبوا الله في حفظ ألسنتكم وتسديد قولكم فانكم ان فعلتم ذلك أعطاكم ما هو غاية الطلبة من تقبل حسناتكم والاثابة عليها ومن مغفرة سيئاتكم وتكفيرها وهذه الآية مقررة للتي قبلها بنيت تلك على النهي عما يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه على الامر باتقاء الله في حفظ اللسان ليترادف عليهم النهي والامر مع اتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام واتباع الامر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الاذى والداعي الى تركه ولما علق بالطاعة الفوز العظيم بقوله (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) اتبعه قوله (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال) وهو يريد بالامانة الطاعة لله وبحمل الامانة الخيانة يقال فلان حامل للامانة ومحتمل لها أى لا يؤديها الى صاحبها حتى تزول عن ذمته اذ الامانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها وهو حاملها ولهذا يقال ركبته الديون ولي عليه حق فاذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حامل لها يعني ان هذه الاجرام العظام من السموات والارض والجبال قد انقادت لامر الله انقياد مثلها وهو ما يتأتى من الجمادات وأطاعت له الطاعة التي تليق بها حيث لم تمتنع على مشيئته وارادته ايجادا وتكوينا وتسوية على هيئات مختلفة واشكال متنوعة كما قال ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا أتينا طائعين واخبر ان الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب يسجدون لله وان من الحجارة لما يهبط من خشية الله واما الانسان فلم تكن حاله فيما يصح منه من الطاعة ويليق به من الانقياد لاوامر الله ونواهيه وهو حيوان عاقل صالح للتكليف مثل حال تلك الجمادات فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع وهذا معنى قوله (فأبين أن يحملنها) اى ابين الخيانة فيها وان لا يؤدينها (واشفقن منها) وخفن من الخيانة فيها (وحملها الانسان) اى خان فيها وأبى ان لا يؤديها

واجعل لعرجك لباسا ولا تكشفه على ما حرمت عليك قال مجاهد ما كان بين أن تحملها وبين أن أخرج من الجنة الا مقدار ما بين الظهر والعصر وقيل ان ما كلف الانسان حمله بلغ من عظمه وثقل محمله انه عرض على أعظم ما خلق الله تعالى من الاجرام وأقواه وأشده أن يحتمله ويستقل به فأبى حمله وأشفق منه وحمله الانسان على ضعفه وضعف قوته (انه كان ظلوما جهولا) قال ابن عباس انه كان ظلوما لنفسه جهولا بأمر ربه وما تحمل من الامانة وقيل ظلوما حين عصى ربه جهولا أي لا يدرى ما العقاب فى ترك الامانة وقيل ظلوما جهولا حيث حمل الامانة ثم لم يف بها وضمنها ولم يف بضمانها وقيل فى تفسير الآية أقوال أخر وهو أن الله تعالى ائتمن السموات والارض والجبال على كل شئ وائتمن آدم وأولاده على شئ فالامانة فى حق الاجرام العظام هى الخضوع والطاعة لما خلق له وقوله فأبين أن يحملنها أى أدين الامانة ولم يخن فيها وأما الامانة فى حق بنى آدم فهى ما ذكر من الطاعة والقيام بالفرائض وقوله وحملها الانسان أى خان فيها وعلى هذا القول حكى عن الحسن انه قال الانسان هو الكافر والمنافق حملا الامانة وخانا فيها والقول الاول هو قول السلف وهو الاولى

(فصـــــل فى الامانة) (ق) عن حذيفة بن اليمان قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر حدثنا أن الامانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ثم حدثنا عن رفع الامانة فقال ينام الرجل النومة فتقبض الامانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت ثم ينام الرجل النومة فتقبض الامانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا وليس فيه شئ ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الامانة حتى يقال ان فى بنى فلان رجلا أمينا حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان ولقد أتى على زمان وما أبالى أيكم بايعت لئن كان مسلما ليردنه على دينه ولئن كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه على ساعيه وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم الا فلانا وفلانا قوله نزلت الامانة فى جذر قلوب الرجال جذر الشئ أصله والوكت الاثر اليسير كالنقطة فى الشئ من غير لونه والمجل غلظ الجلد من أثر العمل وقيل انما هو المعطات فى الجلد وقد فسره الحديث والمنتبر المنتفخ وليس فيه شئ (خ) عن أبى هريرة قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجلس يحدث القوم جاء اعرابى فقال متى الساعة فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال وقال بعضهم لم يسمع حتى اذا قضى حديثه قال أين السائل عن الساعة قال ها أنا يا رسول الله قال اذا ضيعت الامانة فانتظر الساعة قال كيف اضاعتها يا رسول الله قال اذا وسد الامر الى غير أهله فانتظر الساعة وعنه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم أد الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك أخرجه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن غريب قوله تعالى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) أى بما خانوا الامانة ونقضوا العهد (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أى يهديهم ويرحمهم بما أدوا من الامانة وقيل عرض الامانة ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهما الله ويظهر ايمان المؤمن فيتوب عليه أى يعود عليه بالرحمة والمغفرة ان حصل منه تقصير فى بعض الطاعة (وكان الله غفورا رحيما)

(تفسير سورة سبا وهى مكية)

وأربع وخمسون آية وثمانمائة وثلاثون كلمة وألف وخمسمائة واثنا عشر حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الارض) معناه أن كل نعمة من الله فهو الحقيق

(انه كان ظلوما) لكونه تاركا لاداء الامانة (جهولا) لاخطائه ما يسعده مع تمكنه منه وهو اداؤها قال الزجاج الكافر والمنافق حملا الامانة أى خانا ولم يطيعا ومن أطاع من الانبياء والمؤمنين فلا يقال كان ظلوما جهولا وقيل معنى الآية ان ما كلفه الانسان بلغ من عظمه انه عرض على أعظم ما خلق الله من الاجرام وأقواه فأبى حمله واشفق منه وحمله الانسان على ضعفه انه كان ظلوما جهولا حيث حمل الامانة ثم لم يف بها وضمنها ثم خان بضمانه فيها ونحو هذا من الكلام كثير فى لسان العرب وما جاء القرآن الا على اساليبهم من ذلك قولهم لو قيل للشحم اين تذهب لقال اسوى العوج واللام فى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) للتعليل لان التعذيب هنا نظير التأديب فى قولك ضربته للتأديب ولا تقف على جهولا (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) وقرأ الاعمش ويتوب الله بالرفع ليجعل العلة قاصرة على فعل الحامل ويبتدئ ويتوب الله ومعنى المشهورة ليعذب الله حامل الامانة ويتوب على غيره ممن لم يحملها لانه اذا تيب على الوافى كان نوعا من عذاب الغادر والعاقبة اى حملها الانسان فآل الامر الى تعذيب الاشقياء وقبول توبة السعداء (وكان الله غفورا) للتائبين (رحيما) بعباده المؤمنين والله الموفق للصواب

(سورة سبا مكية وهى أربع وخمسون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد) ان اجرى على المعهود فهو بما حمد به نفسه محمود وان أجرى على الاستغراق فله لكل المحامد الاستحقاق (لله) بلام التمليك لانه خالق ناطق الحمد اصلا فكان بملكه مالك الحمد للتحميد أهلا (الذى له ما فى السموات وما فى الارض) خلقا وملكا وقهرا فكان حقيقا بأن يحمد سرا وجهرا

(وله الحمد فى الآخرة) كما هو له فى الدنيا اذ النعم فى الدارين من المولى غير ان الحمد هنا واجب لان الدنيا دار تكليف وثم لا لعدم التكليف وانما يحمد أهل الجنة سرورا بالنعيم وتلذذا بما نالوا من الاجر العظيم بقولهم الحمد لله الذى صدقنا وعده الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن (وهو الحكيم) بتدبير ما فى السماء والارض (الخبير) بضمير من يحمده ليوم الجزاء والعرض (يعلم) مستأنف (ما يلج) ما يدخل (فى الارض) من الاموات والدفائن (وما يخرج منها) من النبات وجواهر المعادن (وما ينزل من السماء) من الامطار وأنواع البركات (وما يعرج فيها) يصعد اليها من الملائكة والدعوات (وهو الرحيم) بانزال ما يحتاجون اليه (الغفور) لما يجترؤن عليه (وقال الذين كفروا) أى منكروا البعث (لا تأتينا الساعة) نفى للبعث وانكار لمجىء الساعة (قل بلى) اوجب ما بعد النفى ببلى على معنى ان ليس الامر الا اتيانها (وربى لتأتينكم) ثم اعيد ايجابه مؤكدا بما هو الغاية فى التوكيد والتشديد وهو التوكيد باليمين بالله عز وجل ثم امد التوكيد القسمى بما اتبع المقسم به من الوصف بقوله (عالم الغيب) لان عظمة حال المقسم به تودن بقوة حال المقسم عليه وبشدة ثباته واستقامته لانه بمنزلة الاستشهاد على الامر وكلما كان المستشهد به ارفع منزلة كانت الشهادة أقوى وآكد والمستشهد عليه اثبت وارسخ ولما كان قيام الساعة من مشاهير الغيوب وادخلها فى الخفية كان الوصف بما يرجع الى علم الغيب أولى واحق عالم الغيب مدنى وشامى أى هو عالم الغيب علام الغيب حمزة وعلى على المبالغة (لا يعزب عنه) وبكسر الزاى على يقال عزب يعزب ويعزب اذا غاب وبعد (مثقال ذرة) مقدار اصغر نملة (فى السموات ولا فى الارض ولا أصغر من ذلك) من مثقال ذرة (ولا أكبر) من مثقال ذرة (الا فى كتاب مبين) الا فى اللوح المحفوظ ولا اصغر ولا أكبر بالرفع عطف على مثقال ذرة ويكون الا بمعنى لكن او رفعا بالابتداء والخبر فى كتاب واللام فى (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة) لما قصروا فيه من مدارج الايمان (ورزق كريم) لما صبروا عليه من مناهج الاحسان متعلق بلتأتينكم تعليلا له (والذين سعوا فى آياتنا) جاهدوا فى رد القرآن (معاجزين) مسابقين ظانين انهم يفوتوننا معجزين مكى وأبو عمرو اى مثبطين الناس عن اتباعها وتأملها او ناسبين الله الى العجز (أولئك لهم عذاب من رجز أليم) برفع اليم مكى وحفص ويعقوب صفة لعذاب أى عذاب اليم من سيئ العذاب قال قتادة الرجز سوء العذاب وغيرهم بالجر صفة لرجز (ويرى) فى موضع الرفع بالاستئناف أى ويعلم (الذين أوتوا العلم) يعنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يطأ أعقابهم من امته او علماء أهل الكتاب الذين أسلموا كعبد الله بن سلام وأصحابه والمفعول الاول ليرى (الذى أنزل اليك من ربك) يعنى القرآن (هو الحق) أى الصدق وهو فصل والحق مفعول ثان او فى موضع النصب معطوف على ليجزى وليعلم أولو العلم عند مجىء الساعة انه الحق علما لا يزاد عليه فى الايقان (ويهدى) الله او الذى أنزل اليك (الى صراط العزيز الحميد) وهو دين الله (وقال الذين كفروا) قال قريش بعضهم لبعض (هل ندلكم على رجل) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم وانما نكروه مع انه كان مشهورا علما فى قريش وكان انباؤه بالبعث شائعا عندهم تجاهلا به وبأمره وباب التجاهل فى البلاغة والى سحرها (ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد) أى يحدثكم بأعجوبة من الاعاجيب انكم تبعثون وتنشؤن خلقا جديدا بعد ان تكونوا رفاتا وترابا ويمزق أجسادكم البلاء كل ممزق أى يفرقكم كل تفريق فالممزق مصدر بمعنى التمزيق والعامل فى اذا ما دل عليه انكم لفى خلق جديد أى تبعثون والجديد فعيل بمعنى فاعل عند البصريين تقول جد فهو جديد كقل فهو قليل ولا يجوز انكم بالفتح للام فى حيزه (أفترى على الله كذبا) اهو مفتر على الله كذبا فيما ينسب اليه من ذلك والهمزة للاستفهام وهمزة الوصل حذفت استغناء عنها (أم به جنة) جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة

بأن يحمد ويثنى عليه من أحلها ولما قال الحمد لله وصف ملكه فقال الذى له ما فى السموات وما فى الارض أى ملكا وخلقا (وله الحمد فى الآخرة) أى كما هو له فى الدنيا لان النعم فى الدارين كلها منه فكأنه المحمود على نعم الدنيا فهو المحمود على نعم الآخرة وقيل الحمد فى الآخرة هو حمد أهل الجنة كما ورد يلهمون التسبيح والحمد كما يلهمون النفس (وهو الحكيم) أى الذى أحكم أمور الدارين (الخبير) أى بكل ما كان وما يكون (يعلم ما يلج فى الارض) أى من المطر والكنوز والاموات (وما يخرج منها) أى من النبات والشجر والعيون والمعادن والاموات اذا بعثوا (وما ينزل من السماء) أى من المطر والثلج والبرد وأنواع البركات والملائكة (وما يعرج فيها) أى فى السماء من الملائكة وأعمال العباد (وهو الرحيم الغفور) أى للمفرطين فى أداء ما وجب عليهم من شكر نعمه قوله تعالى (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة) معناه انهم أنكروا البعث وقيل استبطؤا ما وعدوه من قيام الساعة على سبيل اللهو والسخرية (قل بلى وربى لتأتينكم) يعنى الساعة (عالم الغيب) أى لا يفوت علمه شئ من الخفيات واذا كان كذلك اندرج فى علمه وقت قيام الساعة وانها آتية (لا يعزب عنه) أى لا يغيب عنه (مثقال ذرة) أى وزن ذرة (فى السموات ولا فى الارض ولا أصغر من ذلك) أى من الذر (ولا أكبر الا فى كتاب مبين) أى فى اللوح المحفوظ (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة) أى لذنوبهم (ورزق كريم) يعنى الجنة (والذين سعوا فى آياتنا) أى فى ابطال أدلتنا (معجزين) أى يحسبون انهم يفوتوننا (أولئك لهم عذاب من رجز أليم) قيل الرجز سوء العذاب (ويرى الذين أوتوا العلم) يعنى مؤمنى أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل هم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (الذى أنزل اليك من ربك) يعنى القرآن (هو الحق) يعنى انه من عند الله (ويهدى) يعنى القرآن (الى صراط العزيز الحميد) أى الى دين الاسلام (وقال الذين كفروا) يعنى المنكرين للبعث المتعجبين منه (هل ندلكم) أى قال بعضهم لبعض هل ندلكم (على رجل ينبئكم) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم معناه يحدثكم بأعجوبة من الاعاجيب وهى انكم (اذا مزقتم كل ممزق) أى قطعتم كل تقطيع وفرقتم كل تفريق وصرتم ترابا (انكم لفى خلق جديد) أى يقول انكم تبعثون وتنشؤن خلقا جديدا بعد أن تكونوا رفاتا وترابا (أفترى على الله كذبا) أى أهو مفتر على الله كذبا فيما ينسب اليه من ذلك (أم به جنة) أى جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه قال الله تعالى ردا عليهم ليس بمحمد صلى الله عليه وسلم من الافتراء والجنون شئ وهو مبرأ منهما (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة) يعنى منكرى البعث

فى العذاب والضلال البعيد) ثم قال سبحانه وتعالى ليس محمد من الافتراء والجنون فى شئ وهو مبرأ منهما بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث واقعون فى عذاب النار وفيما يؤديهم اليه من الضلال عن الحق وهم غافلون عن ذلك وذلك أحق بالجنون جعل وقوعهم فى العذاب رسيلا لوقوعهم فى الضلال كانهما كائنان فى وقت واحد لان الضلال لما كان العذاب من لوازمه جعلا كانهما مقترنان ووصف الضلال بالبعيد من الاسناد المجازى لان البعيد صفة الضال اذا بعد عن الجادة (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم) وبالادغام على للتقارب بين الفاء والباء وضعفه البعض لزيادة صوت الفاء على الباء (الارض أو نسقط) الثلاثة بالياء كوفى غير عاصم لقوله افترى على الله كذبا (عليهم كسفا) كسفا حفص (من السماء) اى أعموا فلم ينظروا الى السماء والارض وانهما حيثما كانوا وأينما ساروا امامهم وخلفهم محيطتان بهم لا يقدرون ان ينفذوا من اقطارهما وان يخرجوا عما هم فيه من ملكوت الله ولم يخافوا ان يخسف الله بهم او يسقط عليهم كسفا لتكذيبهم الآيات وكفرهم بالرسول وبما جاء به كما فعل بقارون وأصحاب الايكة (ان فى ذلك) النظر الى السماء والارض والفكر فيهما وما تدلان عليه من قدرة الله تعالى (لآية) دلالة (لكل عبد منيب) راجع الى ربه مطيع له اذ المنيب لا يخلو من النظر فى آيات الله على انه قادر على كل شئ من البعث ومن عقاب من يكفر به (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال) بدل من فضلا او من آتينا بتقدير قولنا يا جبال او قلنا يا جبال (أوّبى معه) من التأويب رجعى معه التسبيح ومعنى تسبيح الجبال ان الله يخلق فيها تسبيحا فيسمع منها كما يسمع من المسبح معجزة لداود عليه السلام (والطير) عطف على محل الجبال والطير عطف على لفظ الجبال وفى هذا النظم من الفخامة ما لا يخفى حيث جعلت الجبال بمنزلة العقلاء الذين اذا أمرهم بالطاعة أطاعوا واذا دعاهم أجابوا اشعارا بأنه ما من حيوان وجماد الا وهو منقاد لمشيئة الله تعالى ولو قال آتينا داود منا فضلا تأويب الجبال معه والطير لم يكن فيه هذه الفخامة (وألنا له الحديد) وجعلناه له لينا كالطين المعجون يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة وقيل لان الحديد فى يده لما أوتى من شدة القوة (أن اعمل) أن بمعنى أى أو أمرناه ان اعمل (سابغات) دروعا واسعة تامة من السبوغ وهو أول من اتخذها وكان يبيع الدرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدق على الفقراء وقيل كان يخرج متنكرا فيسأل الناس عن نفسه ويقول لهم ما تقولون فى داود فيثنون عليه فقيض الله له ملكا فى صورة آدمى فسأله على عادته فقال نعم الرجل لولا خصلة فيه وهو انه يطعم عياله من بيت المال فسأل عند ذلك ربه ان يسبب له ما يستغنى به عن بيت المال فعلمه صنعة الدروع (وقدّر فى السرد) لا تجعل المسامير دقاقا فتقلق ولا غلاظا فتقصم الحلق والسرد نسج الدروع (واعملوا) الضمير لداود وأهله (صالحا) خالصا يصلح للقبول (انى بما تعملون بصير) فأجازيكم عليه (ولسليمان الريح) أى وسخرنا لسليمان الريح وهى الصبا ورفع الريح ابو بكر وحماد والمفضل اى ولسليمان الريح مسخرة (غدوّها شهر ورواحها شهر) جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشى كذلك وكان يغدو من دمشق فيقيل باصطخر فارس وبينهما مسيرة شهر ويروح من اصطخر فيبيت بكابل وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع وقيل كان يتغدى بالرى ويتعشى بسمرقند (وأسلنا له عين القطر) اى معدن النحاس فالقطر النحاس

(فى العذاب والضلال البعيد) أى عن الحق فى الدنيا (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض) أى فيعلموا انهم كانوا فى أرضى وتحت سمائى فان أرضى وسمائى محيطة بهم لا يخرجون من أقطارها وأنا قادر عليهم (ان نشأ نخسف بهم الارض) أى كما خسفنا بقارون (أو نسقط عليهم كسفا من السماء) أى كما فعلنا بأصحاب الايكة (ان فى ذلك) أى فيما ترون من السماء والارض (لآية) أى تدل على قدرتنا على البعث بعد الموت (لكل عبد منيب) أى تائب راجع الى الله تعالى بقلبه قوله عز وجل (ولقد آتينا داود منا فضلا) يعنى النبوة والكتاب وقيل الملك وقيل هو جميع ما أوتى من حسن الصوت وغير ذلك مما خص به (يا جبال أوّبى معه) أى وقلنا يا جبال سبحى معه اذا سبح وقيل رجعى معه اذا رجع ونوحى معه اذا ناح (والطير) أى وأمرنا الطير ان تسبح معه فكان داود اذا نادى بالتسبيح أو بالنياحة أجابته الجبال وعكفت الطير عليه من فوقه وقيل كان داود اذا لحقه ملل أو فتور اسمعه الله تعالى تسبيح الجبال فينشط له (وألنا له الحديد) يعنى كان الحديد فى يده كالشمع أو كالعجين يعمل منه ما يشاء من غير نار ولا ضرب مطرقة قيل سبب ذلك ان داود عليه السلام لما ملك بنى اسرائيل كان من عادته أن يخرج الى الناس مستنكرا فاذا رأى انسانا لا يعرفه تقدم اليه وسأله عن داود فيقول ما تقول فى داود والملك هذا فيثنون عليه ويقولون خيرا فقيض الله له ملكا فى صورة آدمى فلما رآه داود تقدم اليه على عادته فسأله فقال الملك نعم الرجل هو لولا خصلة فيه فراع داود عليه الصلاة والسلام ذلك وقال ماهى يا عبد الله قال انه يأكل ويطعم عياله من بيت المال قال فتنبه لذلك وسأل الله تعالى أن يسبب له سببا يستغنى به عن بيت المال فيتقوت منه ويطعم عياله فألان الله له الحديد وعلمه صنعة الدروع وانه اول من اتخذها وكانت قبل ذلك صفائح وقيل انه كان يبيع كل درع بأربعة آلاف فيأكل منها ويطعم عياله ويتصدق منها على الفقراء والمساكين وقد صح فى الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان داود عليه السلام لا يأكل الا من عمل يده (ان اعمل سابغات) أى دروعا كوامل واسعات طوالا تسحب فى الارض قيل كان يعمل كل يوم درعا (وقدّر فى السرد) أى ضيق فى نسج الدروع وقيل قدر المسامير فى حلق الدرع ولا تجعل المسامير دقاقا فتقلق ولا تثبت ولا غلاظا فتكسر الحلق وقيل قدر فى السرد أى اجعله على القصد وقدر الحاجة (واعملوا صالحا) يريد داود وآله (انى بما تعملون بصير) قوله تعالى (ولسليمان الريح) اى وسخرنا لسليمان الريح (غدوّها شهر ورواحها شهر) معناه ان مسير غدوّ تلك الريح المسخرة له مسيرة شهر ومسير رواحها مسيرة شهر فكانت تسير به فى كل يوم واحد مسيرة شهرين قيل كان يغدو من دمشق فيقيل باصطخر وبينهما مسيرة شهر ثم يروح من اصطخر فيبيت بكابل وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع وقيل انه كان يتغدى بالرى ويتعشى بسمرقند (وأسلنا له عين القطر) أى أذبنا له عين النحاس قال أهل التفسير أجريت له عين النحاس ثلاثة

أيام بلياليهن كجرى الماء وكان بأرض اليمن وقيل أذاب الله لسليمان النحاس كما ألان لداود الحديد (ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه) أى بأمر ربه قال ابن عباس سخر الله الجن لسليمان عليه الصلاة والسلام وأمرهم بطاعته فيما يأمرهم به (ومن يزغ منهم) أى يعدل من الجن (عن أمرنا) أى الذى أمرناه به من طاعة سليمان (نذقه من عذاب السعير) قيل هذا فى الآخرة وقيل فى الدنيا وذلك ان الله تعالى وكل بهم ملكا بيده سوط من نار فمن زاغ منهم عن طاعة سليمان ضربه بذلك السوط ضربة أحرقته (يعملون له ما يشاء من محاريب) أى مساجد وقيل هى الابنية المرتفعة والقصور والمجالس الشريفة المصونة عن الابتذال وكان مما عملوا له بيت المقدس وذلك أن داود عليه الصلاة والسلام ابتدأه ورفعه قامة رجل فأوحى الله اليه لم أقض ذلك على يدك ولكن ابن لك أملكه بعدك اسمه سليمان أقضى اتمامه على يديه فلما توفى داود عليه السلام واستخلف سليمان عليه الصلاة والسلام أحب تمام بيت المقدس فجمع الجن والشياطين وقسم عليهم الاعمال وخص كل طائفة بعمل فأرسل الجن والشياطين فى تحصيل الرخام والبلور من معادنهما وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفاح وجعلها اثنى عشر ربضا كل ربض منها لسبط من الاسباط فلما فرغ من بناء المدينة ابتدأ فى بناء المسجد فوجه الشياطين فرقا منهم من يستخرج الذهب والفضة من معادنهما ومنهم من يستخرج الجواهر واليواقيت والدر الصافى من أماكنها ومنهم من يأتيه بالمسك والعنبر والطيب من أماكنها فأتى من ذلك بشئ كثير لا يحصيه الا الله تعالى ثم أحضر الصناع وأمرهم بنحت تلك الاحجار وتصييرها ألواحا واصلاح تلك الجواهر وثقب اليواقيت واللآلئ فبنى المسجد بالرخام الابيض والاصفر والاخضر وعمده بأساطين البلور الصافى وسقفه بأنواع الجواهر الثمينة وفصص سقوفه وحيطانه باللآلئ واليواقيت وسائر الجواهر وبسط أرضه بألواح الفيروزج فلم يكن على تلك الارض يومئذ بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد فكان يضئ فى الظلمة كالقمر ليلة البدر فلما فرغ منه جمع اليه أحبار بنى اسرائيل وأعلمهم انه بناه لله تعالى وان كل شئ فيه خالص له واتخذ ذلك اليوم عيدا روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله عز وجل حكما يوافق حكمه فأوتيه وسأل الله تعالى ملكا لا ينبغى لاحد من بعده فأوتيه وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد ان لا يأتيه أحد لا ينهزه الا الصلاة فيه الا خرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه أخرجه النسائى ولغير النسائى سأل ربه ثلاثا فأعطاه اثنتين وانا أرجو ان يكون أعطاه الثالثة وذكر نحوه قوله لا ينهزه أى لا ينهضه الا الصلاة قالوا فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان عليه الصلاة والسلام حتى غزاه بختنصر فخرب المدينة وهدم المسجد وأخذ ما فيه من الذهب والفضة وسائر أنواع الجواهر وحمله الى دار ملكه بالعراق وبنى الشياطين لسليمان باليمن قصورا وحصونا عجيبة من الصخر وقوله عز وجل (وتماثيل) أى ويعملون له تماثيل أى صورا من نحاس ورخام وزجاج قيل كانوا يصورون السباع والطيور وغيرها وقيل كانوا يصورون صور الملائكة والانبياء والصالحين فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة قيل يحتمل ان اتخاذ الصور كان مباحا فى شريعتهم وهذا مما يجوز ان يختلف فيه الشرائع لانه ليس من الامور القبيحة فى العقل كالقتل والظلم والكذب ونحوها مما يقبح فى كل الشرائع قيل عملوا له أسدين تحت كرسيه ونسرين فوقه فاذا أراد ان يصعد بسط له الاسدان ذراعيهما واذا جلس اظلته النسران بأجنحتهما وقيل عملوا له الطواويس والعقبان والنسور على درجات سريره وفوق كرسيه لكى يهابه من أراد الدنو منه (وجفان) أى قصاع (كالجواب) أى كالحياض التى يجبى فيها الماء أى يجمع قيل كان يقعد على الجفنة الواحدة ألف رجل يأكلون منها (وقدور راسيات) أى ثابتات على أثافيها لا تتحرك ولا تنزل عن أماكنها لعظمهن وكان يصعد اليها بالسلالم وكانت باليمن (اعملوا آل داود شكرا) أى وقلنا يا آل داود اعملوا بطاعة الله تعالى شكرا على نعمه قيل المراد من آل داود نفسه وقيل داود وسليمان وأهل بيته قال ثابت

البنانى

وهو الصفر ولكنه أساله وكان يسيل فى الشهر ثلاثة أيام كما يسيل الماء وكان قبل سليمان لا يذوب وسماه عين القطر باسم ما آل اليه (ومن الجن من يعمل) من فى موضع نصب أى وسخرنا من الجن من يعمل (بين يديه باذن ربه) بأمر ربه (ومن يزغ منهم) ومن يعدل منهم (عن أمرنا) الذى أمرناه به من طاعة سليمان (نذقه من عذاب السعير) عذاب الآخرة وقيل كان معه ملك بيده سوط من نار فمن زاغ عن أمر سليمان عليه السلام ضربه ضربة أحرقته (يعملون له ما يشاء من محاريب) أى مساجد أو مساكن (وتماثيل) أى صور السباع والطيور وروى انهم عملوا له أسدين فى أسفل كرسيه ونسرين فوقه فاذا أراد ان يصعد بسط الاسدان له ذراعيهما واذا قعد أظله النسران بأجنحتهما وكان التصوير مباحا حينئذ (وجفان) جمع جفنة (كالجواب) جمع جابية وهى الحياض الكبار قيل كان يقعد على الجفنة ألف رجل كالجوابى فى الوصل والوقف مكى ويعقوب وسهل وافق أبو عمرو فى الوصل الباقون بغير ياء اكتفاء بالكسرة (وقدور راسيات) ثابتات على الاثافى لا تنزل عنها لعظمها وقيل انها باقية باليمن وقلنا لهم (اعملوا آل داود شكرا) أى ارحموا أهل البلاد واسألوا ربكم العافية عن الفضل وشكرا مفعول له أى اعملوا له واعبدوه على وجه الشكر لنعمائه أو حال أى شاكرين أو اشكروا شكرا لان العمل للنعم شكر له فيه معنى اشكروا أو مفعول به يعنى انا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم فاعملوا أنتم شكرا وسئل الجنيد عن الشكر فقال بذل المجهود بين يدى المعبود

(وقليل من عبادي) بسكون الياء حمزة وغيره بفتحها (الشكور) المتوفر على اداء الشكر الباذل وسعه فيه قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقادا واعترافا وكدحا وعن ابن عباس رضي الله عنه من يشكر على أحواله كلها وقيل من يشكر على الشكر ومن يرى عجزه عن الشكر وحكي عن داود عليه السلام انه جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من الساعات الا وانسان من آل داود قائم يصلي (فلما قضينا عليه الموت) أي على سليمان (ما دلهم) اي الجن وآل داود (على موته الا دابة الارض) اي الارضة وهي دويبة يقال لها سرفة والارض فعلها فأضيفت اليه يقال أرضت الخشبة أرضا اذا أكلتها الارضة (تأكل منسأته) والعصا تسمى منسأة لانه ينسأ بها اي يطرد ومنساته بغير همز مدني وأبو عمرو (فلما خر) سقط سليمان (تبينت الجن) علمت الجن كلهم علما بينا بعد التباس الامر على عامتهم وضعفتهم (ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا) بعد موت سليمان (في العذاب المهين) وروي ان داود عليه السلام اسس بناء بيت المقدس في موضع فسطاط موسى عليه السلام فمات قبل ان يتمه فوصى به الى سليمان فأمر الشياطين باتمامه فلما بقي من عمره سنة سأل ربه ان يعمي عليهم موته حتى يفرغوا منه وليبطل دعواهم علم الغيب وكان عمر سليمان ثلاثا وخمسين سنة ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة فبقي في ملكه أربعين سنة وابتدأ بناء بيت المقدس لاربع مضين من ملكه وروي انه افريدون جاء ليصعد كرسيه فلما دنا ضرب الاسدان ساقه فكسراها فلم يجسر أحد بعده ان يدنو منه (لقد كان لسبأ) بالصرف بتأويل الحي وبعدمه أبو عمرو بتأويل القبيلة (في مسكنهم) حمزة وحفص مسكنهم علي وخلف وهو موضع سكناهم وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها باليمن او مسكن كل واحد منهم غيرهم مساكنهم (آية) اسم كان (جنتان) بدل من آية أو خبر مبتدا محذوف تقديره الآية جنتان ومعنى كونهما آية ان أهلهما لما اعرضوا عن شكر الله سلبهم الله النعمة ليعتبروا ويتعظوا فلا يعودوا الى ما كانوا عليه من الكفر وغمط النعم أو جعلهما آية أي علامة دالة على قدرة الله واحسانه ووجوب شكره (عن يمين وشمال) أراد جماعتين من البساتين جماعة عن يمين بلدهم وأخرى عن شمالها وكل واحدة من الجماعتين في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة كما تكون بساتين البلاد العامرة أو أراد بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله (كلوا من رزق ربكم واشكروا له) حكاية لما قال لهم أنبياء الله المبعوثون اليهم أو لما قال لهم لسان الحال او هم احقاء بأن يقال لهم ذلك ولما أمرهم بذلك اتبعه قوله (بلدة طيبة ورب غفور) أي هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور لمن شكره قال ابن عباس كانت سبأ على ثلاث فراسخ من صنعاء وكانت أخصب البلاد

البناني كان داود نبي الله عليه الصلاة والسلام قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي الساعة من ليل أو نهار الا وانسان من آل داود قائم يصلي (وقليل من عبادي الشكور) أي قليل العامل بطاعتي شكرا لنعمتي قوله تعالى (فلما قضينا عليه الموت) أي على سليمان قال العلماء كان سليمان يتجرد للعبادة في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر فيدخل فيه ومعه طعامه وشرابه فدخله المرة التي مات فيها وكان سبب ذلك انه كان لا يصبح يوما الا وقد نبتت في محرابه ببيت المقدس شجرة فيسألها ما اسمك فتقول كذا وكذا فيقول لاي شيء خلقت فتقول لكذا وكذا فيأمر بها فتقطع فان كانت لغرس أمر بها فغرست وان كانت لدواء كتب ذلك حتى نبتت الخروبة فقال لها ما انت قالت أنا الخروبة قال ولاي شيء نبت قالت لخراب مسجدك قال سليمان ما كان الله ليخربه وأنا حي أنت التي على وجهك هلاكي وخراب بيت المقدس ثم نزعها وغرسها في حائط له ثم قال اللهم عم على الجن موتي حتى تعلم الانس ان الجن لا يعلمون الغيب وكانت الجن تخبر الانس انهم يعلمون من الغيب شيئا ويعلمون ما في غد ثم دخل المحراب وقام يصلي على عادته متكئا على عصاه فمات قائما وكان للمحراب كوى من بين يديه ومن خلفه فكان الجن يعملون تلك الاعمال الشاقة التي كانوا يعملون في حياة سليمان وينظرون اليه ويحسبون انه حي ولا ينكرون احتباسه عن الخروج الى الناس لطول صلاته وانقطاعه قبل ذلك فمكثوا يدأبون بعد موته حولا كاملا حتى أكلت الارضة عصا سليمان فخر ميتا فعلموا بموته قال ابن عباس فشكرت الجن الارضة فهم يأتونها بالماء والطين في جوف الخشب فذلك قوله تعالى (ما دلهم على موته الا دابة الارض) يعني الارضة (تأكل منسأته) قال البخاري يعني عصاه (فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) معناه علمت الجن وأيقنت أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في التعب والشقاء مسخرين لسليمان وهو ميت وهم يظنونه حيا أراد الله تعالى بذلك ان يعلم الجن انهم لا يعلمون الغيب لانهم كانوا يظنون ذلك لجهلهم وقيل في معنى الآية انه ظهر أمر الجن وانكشف للانس انهم لا يعلمون الغيب لانهم كانوا قد شبهوا على الانس ذلك ذكر أهل التاريخ أن سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وبقي في الملك مدة أربعين سنة وشرع في بناء بيت المقدس لاربع سنين مضين من ملكه وتوفي وهو ابن ثلاث وخمسين قوله عز وجل (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية) عن عروة بن مسيك المرادي قال لما أنزل في سبأ ما أنزل قال رجل يا رسول الله وما سبأ أرض أو امرأة قال ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد عشرا من العرب فتيامن منهم ستة وتشاءم أربعة منهم فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وغسان وعاملة واما الذين تيامنوا فالازد والاشعريون وحمير وكندة ومذحج وانمار فقال رجل يا رسول الله وما انمار قال الذين منهم خثعم وبجيلة أخرجه الترمذي مع زيادة وقال حديث حسن غريب وسبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان في مسكنهم أي بمأرب من أرض اليمن آية أي دلالة على وحدانيتنا وقدرتنا ثم فسر الآية فقال تعالى (جنتان) أي بستانان (عن يمين وشمال) أي عن يمين الوادي وشماله وقيل عن يمين من أتاهما وشماله وقيل كان لهم واد قد احاطت به الجنتان (كلوا) أي قيل لهم كلوا (من رزق ربكم) أي من ثمار الجنتين قيل كانت المرأة تحمل مكتلها على رأسها وتمر بالجنتين فيمتلئ المكتل من أنواع الفواكه من غير ان تمس بيدها شيئا (واشكروا له) أي على ما رزقكم من النعمة واعملوا بطاعته (بلدة طيبة) أي أرض مأرب وهي سبأ بلدة طيبة ليست بسبخة وقيل لم يكن يرى في بلدتهم بعوضة ولا ذباب ولا برغوث ولا حية ولا عقرب وكان الرجل يمر ببلدتهم وفي ثيابه القمل فيموت القمل من طيب الهواء (ورب غفور) قال وهب أي وربكم ان شكرتم على ما رزقكم رب غفور

تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل فتعمل بيدها او تسير بين تلك الشجر فيمتلئ المكتل مما يتساقط فيه من الثمر وطيبها ليس فيها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية ومن يمر بها من الغرباء يموت قمله لطيب هوائها (فأعرضوا) عن دعوة أنبيائهم فكذبوهم وقالوا ما نعرف لله علينا نعمة (فأرسلنا عليهم سيل العرم) أي المطر الشديد او العرم اسم الوادي

اوهو الجرذ الذي نقب عليهم السكر قالوا لما طغوا واسلط الله عليهم الجرذ فنقبه من اسفله فغرقهم (وبدلناهم بجنتيهم) المذكورتين (جنتين) وتسمية البدل جنتين للمشاكلة وازدواج الكلام كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها (ذواتي أكل خمط) الاكل الثمر يثقل ويخفف وهو قراءة نافع ومكي والخمط شجر الاراك وقيل كل شجر ذي شوك (واثل وشئ من سدر قليل) الاثل شجر يشبه الطرفاء أعظم منه وأجود عودا ووجه من نون الاكل وهو غير أبي عمرو ان أصله ذواتي اكل أكل خمط فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه او وصف الاكل بالخمط كانه قيل ذواتي اكل بشع ووجه ابي عمرو ان أكل الخمط في معنى البرير وهو ثمر الاراك اذا كان غضا فكانه قيل ذواتي برير والاثل والسدر معطوفان على اكل لا على خمط لان الاثل لا اكل له وعن الحسن قلل السدر لانه أكرم ما بدلوا لانه يكون في الجنان (ذلك جزيناهم بما كفروا) أي جزيناهم ذلك بكفرهم فهو مفعول ثان مقدم (وهل نجازي الا الكفور) كوفي غير ابي بكر وهل يجازى الا الكفور غيرهم يعني وهل يجازى مثل هذا الجزاء الا من كفر النعمة ولم يشكرها او كفر بالله او هل يعاقب لان الجزاء وان كان عاما يستعمل في معنى المعاقبة وفي معنى الاثابة لكن المراد الخاص وهو العقاب وعن الضحاك كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد عليهما السلام (وجعلنا بينهم) بين سبا (وبين القرى التي باركنا فيها) بالتوسعة على أهلها في النعم والمياه وهي قرى الشام (قرى ظاهرة) متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهي ظاهرة لأعين الناظرين او ظاهرة للسابلة لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم وهي أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبا الى الشام (وقدرنا فيها السير) أي جعلنا هذه القرى على مقدار معلوم يقيل المسافر في قرية ويروح في أخرى الى ان يبلغ الشام (سيروا فيها) وقلنا لهم سيروا ولا قول ثمة ولكنهم لما مكنوا من السير وسويت لهم اسبابه فكانهم امروا بذلك (ليالي وأياما آمنين) اى سيروا فيها ان شئتم بالليل وان شئتم بالنهار فان الامن فيها لا يختلف باختلاف الاوقات اى سيروا فيها آمنين لا تخافون عدوا ولا جوعا ولا عطشا وان تطاولت مدة سفركم وامتدت اياما وليالي (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) قالوا يا ليتها كانت بعيدة فنسير على نجائبنا ونربح في التجارات ونفاخر في الدواب والاسباب بطروا النعمة وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب بعد مكي وابو عمرو (وظلموا) بما قالوا (أنفسهم

لمن شكره قوله عز وجل (فأعرضوا) قال وهب أرسل الله اليهم ثلاث عشر نبيا فدعوهم الى الله تعالى وذكروهم نعمه عليهم وأنذروهم عقابه فكذبوهم وقالوا ما نعرف لله علينا نعمة فقولوا لربكم فليحبس هذه النعمة عنا ان استطاع فذلك اعراضهم (فأرسلنا عليهم سيل العرم) العرم الذي لا يطاق قيل كان ماء أحمر أرسله الله تعالى عليهم من حيث شاء وقيل العرم السكر الذي يحبس الماء وقيل العرم الوادي قال ابن عباس ووهب وغيرهما كان لهم سد بنته بلقيس وذلك انهم كانوا يقتتلون على ماء واديهم فأمرت بواديهم فسد بالصخر والقار بين الجبلين وجعلت لهم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض وبنت دونه بركة ضخمة وجعلت فيها اثني عشر مخرجا على عدة أنهارهم يفتحونها اذا احتاجوا الى الماء واذا استغنوا عنه سدوها فاذا جاءهم المطر اجتمع اليهم ماء اودية اليمن فاحتبس السيل من وراء السد وأمرت بالباب الاعلى ففتح فجرى ماؤه الى البركة فكانوا يسقون من الباب الاعلى ثم من الثاني ثم من الثالث ثم من الاسفل ولا ينفد الماء حتى يثوب الماء من السنة المقبلة فكانت تقسمه بينهم على ذلك فبقوا بعدها مدة فلما طغوا وكفروا اسلط الله عليهم جرذا يسمى الخلد فنقب السد من أسفله فغرق الماء جناتهم واخرب أرضهم وقال وهب رأوا فيما يزعمون ويجدون في علمهم ان الذي يخرب سدهم فارة فلم يتركوا فرجة بين حجرين الا ربطوا عندها هرة فلما جاء زمان ما أراد الله تعالى بهم من التغريق أقبلت فيما يذكرون فارة حمراء كبيرة الى هرة من تلك الهرار فساورتها حتى استأخرت عنها الهرة فدخلت في الفرجة التي كانت عندها فتغلغلت في السد وحفرت حتى اوهنت المسيل وهم لا يعلمون بذلك فلما جاء السيل وجد خللا فدخل منه حتى اقتلع السد وفاض الماء حتى علا أموالهم فغرقها ودفن بيوتهم الرمل فغرقوا ومزقوا كل ممزق حتى صاروا مثلا عند العرب يقولون ذهبوا أيدي سبا وتفرقوا ايادي سبا فذلك قوله تعالى فأرسلنا عليهم سيل العرم (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط) قيل هو شجر الاراك وثمرة البرير وقيل كل نبت اخذ طعما من المرارة حتى لا يمكن اكله فهو خمط وقيل هو ثمر شجر يقال له فسوة الضبع على صورة الخشخاش يتفرك ولا ينتفع به (واثل) قيل هو الطرفاء وقيل شجر يشبه الطرفاء الا انه أعظم منه (وشئ من سدر قليل) هو شجر معروف ينتفع بورقه في الغسل وثمره النبق ولم يكن السدر الذي بدلوه مما ينتفع به بل كان سدرا بريا لا يصلح لشئ قيل كان شجر القوم من خير الشجر فصيره الله من شر الشجر بأعمالهم وهو قوله تعالى (ذلك جزيناهم بما كفروا) أي ذلك الذي فعلنا بهم جزاء كفرهم (وهل يجازى الا الكفور) أي هل يكافأ بعمله الا الكفور لله في نعمه قيل المؤمن يجزى ولا يجازى يجزى بحسناته ولا يكافأ بسيئاته (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها) أي بالماء والشجر وهي قرى الشام (قرى ظاهرة) أي متواصلة تظهر الثانية من الاولى لقربها منها قيل كان متجرهم من اليمن الى الشام وقيل كانت قراهم أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبا الى الشام (وقدرنا فيها السير) أي قدرنا سيرهم بين هذه القرى فكان سيرهم في الغدو والرواح على قدر نصف يوم فاذا ساروا نصف يوم وصلوا الى قرية ذات مياه وأشجار فكان ما بين اليمن والشام كذلك (سيروا) أي وقلنا لهم سيروا (فيها ليالي وأياما) أي في أي وقت شئتم (آمنين) أي لا تخافون عدوا ولا جوعا ولا عطشا فبطروا النعمة وسئموا الراحة وطغوا ولم يصبروا على العافية فقالوا لو كانت جناننا ابعد مما هي كان اجدر ان نشتهيها وطلبوا الكد والتعب في الاسفار (فقالوا ربنا بعد بين أسفارنا) وقرئ باعد بين أسفارنا أي اجعل بيننا وبين الشام مفاوز وفلوات لنركب فيها الرواحل ونتزود الازواد فلما تمنوا ذلك عجل الله لهم الاجابة (وظلموا أنفسهم)

فجعلناهم أحاديث) يتحدث الناس بهم ويتعجبون من أحوالهم (ومزقناهم كل ممزق) وفرقناهم تفريقا اتخذه الناس مثلا مضروبا يقولون ذهبوا أيدي سبا وتفرقوا ايادي سبا فلحق غسان بالشام وأنمار بيثرب وجذام بتهامة والازد بعمان (ان في ذلك لآيات لكل صبار) عن المعاصي (شكور) للنعم او لكل مؤمن لان الايمان نصفان نصفه شكر ونصفه صبر (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه) بالتشديد كوفي أي حقق عليهم ظنه اووجده صادقا وبالتخفيف غيرهم اي صدق في ظنه (فاتبعوه) الضمير في عليهم واتبعوه لاهل سبا أولبني آدم وقال المؤمنين بقوله (الا فريقا من المؤمنين) لقلتهم بالاضافة الى الكفار ولا تجد أكثرهم شاكرين (وما كان له عليهم) لابليس على الذين صار ظنه فيهم صدقا (من سلطان) من تسليط واستيلاء بالوسوسة (الا لنعلم) موجودا ما علمناه معدوما والتغير على المعلوم لا على العلم (من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شئ حفيظ) محافظ عليه وفعيل ومفاعل متآخيان (قل) لمشركي قومك (ادعوا الذين زعمتم من دون الله) اي زعمتموهم آلهة من دون الله فالمفعول الاول الضمير الراجع الى الموصول وحذف كما حذف في قوله أهذا الذي بعث الله استخفافا لطول الموصول بصلته والمفعول الثاني آلهة وحذف لانه موصوف صفته من دون الله والموصوف يجوز حذفه واقامة الصفة مقامه اذا كان مفهوما فاذا مفعولا زعم محذوفان بسببين مختلفين والمعنى ادعوا الذين عبدتموهم من دون الله من الاصنام والملائكة وسميتموهم باسمه والتجؤا اليهم فيما يعروكم كما تلتجؤن اليه وانتظروا استجابتهم لدعائكم كما تنتظرون استجابته ثم أجاب عنهم بقوله (لا يملكون مثقال ذرة) من خير أوشر اونفع اوضر (في السموات ولا في الارض وما لهم فيهما من شرك) وما لهم في هذين الجنسين من شركة في الخلق ولا في الملك (وماله) تعالى (منهم) من آلهتهم (من ظهير) من عوين يعينه على تدبير خلقه يريد انهم على هذه الصفة من العجز فكيف يصح ان يدعوا كما يدعى ويرجوا كما يرجى (ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) اى أذن له الله يعني الا من وقع الاذن للشفيع لاجله وهي اللام الثانية في قولك أذن لزيد لعمرو اي لاجله وهذا تكذيب لقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله أذن له كوفي غير عاصم الا الاعمش (حتى اذا فزع عن قلوبهم) أي كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في اطلاق الاذن وفزع شامي اى الله تعالى والتفزيع ازالة الفزع وحتى غاية لما فهم من ان ثم انتظارا للاذن وتوقفا وفزعا من الراجين للشفاعة والشفعاء هل يؤذن لهم أولا يؤذن لهم كانه قيل يتربصون ويتوقفون مليا فزعين حتى اذا فزع عن قلوبهم (قالوا) سأل بعضهم بعضا (ماذا قال ربكم قالوا) قال (الحق) اى القول الحق وهو الاذن بالشفاعة لمن ارتضى (وهو العلي الكبير)

أي بالبطر والطغيان (فجعلناهم أحاديث) أي عبرة لمن بعدهم يتحدثون بأمرهم وشأنهم (ومزقناهم كل ممزق) أي فرقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق قيل لما غرقت قراهم تفرقوا في البلاد فأما غسان فلحقوا بالشام ومر الازد الى عمان وخزاعة الى تهامة ومر الاوس والخزرج الى يثرب وكان الذي قدم منهم المدينة عمرو بن عامر وهو جد الاوس والخزرج ولحق آل خزيمة بالعراق (ان في ذلك لآيات) أي لعبرا ودلالات (لكل صبار) أي عن المعاصي (شكور) أي لله على نعمه قيل المؤمن صابر على البلاء شاكر للنعماء وقيل المؤمن اذا اعطى شكر واذا ابتلى صبر قوله عز وجل (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه) قيل على اهل سبا وقيل على الناس كلهم (فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين) قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني المؤمنين كلهم لانهم لم يتبعوه في اصل الدين وقيل هو خاص بالمؤمنين الذين يطيعون الله ولا يعصونه قال ابن قتيبة ان ابليس لما سأل النظرة فأنظره الله قال لاغوينهم ولاضلنهم ولم يكن مستيقنا وقت هذه المقالة ان ما قاله فيهم يتم وانما قاله ظنا فلما اتبعوه واطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم وقال الحسن انه لم يسل عليهم سيفا ولا ضربهم بسوط انما وعدهم ومناهم فاغتروا (وما كان له عليهم من سلطان) أي ما كان تسليطنا اياه عليهم (الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) أي لنرى ونميز المؤمن من الكافر وأراد علم الوقوع والظهور واذ كان معلوما عنده لانه عالم الغيب (وربك على كل شئ حفيظ) أي رقيب وقيل حفيظ بمعنى حافظ قوله تعالى (قل) أي قل يا محمد لكفار مكة (ادعوا الذين زعمتم) أي انهم آلهة (من دون الله) والمعنى ادعوهم ليكشفوا عنكم الضر الذي نزل بكم في سني الجوع ثم وصف عجز الآلهة فقال تعالى (لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض) يعني من خير وشر ونفع وضر (وما لهم) أي للآلهة (فيهما) أي في السموات والارض (من شرك) أي من شركة (وماله) أي لله (منهم) أي من الآلهة (من ظهير) عوين (ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له) أي أذن الله له في الشفاعة قاله تكذيبا للكفار حيث قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله وقيل يجوز ان يكون المعنى الا لمن أذن الله في ان يشفع له (حتى اذا فزع عن قلوبهم) معناه كشف الفزع وأخرج عن قلوبهم قيل هم الملائكة وسبب ذلك من غشية تصيبهم عند سماع كلام الله تعالى (خ) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا قضى الله الامر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها فاذا فزع عن قلوبهم (قالوا ماذا قال ربكم قالوا) الذي قال (الحق وهو العلي الكبير) وللترمذي اذا قضى الله في السماء أمرا ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كانه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير قال الترمذي حديث حسن صحيح قوله خضعانا جمع خاضع وهو المنقاد المطمئن والصفوان الحجر الاملس عن ابن مسعود رضي الله عنه قال اذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كجرس السلسلة على الصفا فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل فاذا جاء فزع عن قلوبهم فيقولون يا جبريل ماذا قال ربك فيقول الحق فيقولون الحق أخرجه أبو داود الصلصلة صوت الاجراس الصلبة بعضها على بعض وقيل انما يفزعون حذرا من قيام الساعة وكانت الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام خمسمائة سنة أو ستمائة لم تسمع الملائكة فيها صوت وحي فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم كلم جبريل بالرسالة الى محمد صلى الله عليه وسلم فلما سمعت الملائكة ظنوا انها الساعة لان محمدا صلى الله عليه وسلم عند أهل السموات والارض من اشراط الساعة فصعقوا مما سمعوا خوفا من قيام الساعة فلما انحدر جبريل جعل يمر بأهل كل سماء فيكشف عنهم فيرفعون

ذوالعلو والكبرياء ليس لملك ولانبى ان يتكلم ذلك اليوم الا باذنه وان يشفع الالمن ارتضى (قل من يرزقكم من السموات والارض قل الله) أمره بأن يقررهم بقوله من يرزقكم ثم أمره بأن يتولى الاجابة والاقرار عنهم بقوله يرزقكم الله وذلك للاشعار بأنهم مقرون به بقلوبهم الا انهم ربما أبوا ان يتكلموا به لانهم ان تفوهوا بأن الله رازقهم لزمهم ان يقال لهم فمالكم لا تعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق وأمره ان يقول لهم بعد الالزام والالجام الذى ان لم يزد على اقرارهم بألسنتهم لم يتقاصر عنه (وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ومعناه وان احد الفريقين من الموحدين ومن المشركين لعلى أحد الامرين من الهدى والضلال وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من موال او مناف قال لمن خوطب به قد انصفك صاحبك وفى درجه بعد تقدم ما قدم من التقرير دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو فى الضلال المبين ولكن التعريض اوصل بالمجادل الى الغرض ونحوه قولك للكاذب ان احدنا الكاذب وخولف بين حرفى الجر الداخلين على الهدى والضلال لان صاحب الهدى كانه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء والضال كانه منغمس فى ظلام لا يرى أين يتوجه (قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون) هذا ادخل فى الانصاف من الاول حيث اسند الاجرام الى المخاطبين وهو مزجور عنه محظور والعمل الى المخاطبين وهو مأمور به مشكور (قل يجمع بيننا ربنا) يوم القيامة (ثم يفتح) يحكم (بيننا بالحق) بلا جور ولا ميل (وهو الفتاح) الحاكم (العليم) بالحكم (قل أرونى الذين ألحقتم) أى ألحقتموهم (به) بالله (شركاء) فى العبادة معه ومعنى قوله أرونى وكان يراهم ان يريهم الخطأ العظيم فى الحاق الشركاء بالله وان يطلعهم على حالة الاشراك به (كلا) ردع وتنبيه أى ارتدعوا عن هذا القول وتنبهوا عن ضلالكم (بل هو الله العزيز) الغالب فلا يشاركه أحد وهو ضمير الشأن (الحكيم) فى تدبيره (وما أرسلناك الا كافة للناس) الا رسالة عامة لهم محيطة بهم لانها اذا شملتهم فقد كفتهم ان يخرج منها احد منهم وقال الزجاج معنى الكافة فى اللغة الاحاطة والمعنى أرسلناك جامعا للناس فى الانذار والابلاغ فجعله حالا من الكاف والتاء على هذا للمبالغة كالراوية والعلامة (بشيرا) بالفضل لمن اقر (ونذيرا) بالعدل لمن أصر (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) فيحملهم جهلهم على مخالفتك بان (ويقولون متى هذا الوعد) أى القيامة المشار اليها فى قوله قل يجمع بيننا ربنا (ان كنتم صادقين قل لكم ميعاد يوم) الميعاد ظرف الوعد من مكان أو زمان وهو هنا الزمان ويدل عليه قراءة من قرأ ميعاد يوم فأبدل منه اليوم واما الاضافة فاضافة تبيين كما تقول بعير سانية (لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) أى لا يمكنكم التأخر عنه بالاستمهال ولا التقدم اليه بالاستعجال ووجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم انهم سألوا عن ذلك وهم منكرون له تعنتا لا استرشادا فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقا للسؤال على الانكار والتعنت وانهم مرصدون ليوم يفاجئهم ولا يستطيعون تأخرا عنه ولا تقدما عليه

رؤسهم ويقول بعضهم لبعض ماذا قال ربكم قالوا قال الحق يعنى الوحى وهو العلى الكبير وقيل الموصوفون بذلك هم المشركون وقيل اذا كشف الفزع عن قلوبهم عند نزول الموت قالت الملائكة لهم ماذا قال ربكم فى الدنيا لاقامة الحجة قالوا الحق فأقروا به حين لم ينفعهم الاقرار وهو العلى الكبير أى ذو العلو والكبرياء قوله عز وجل (قل من يرزقكم من السموات والارض) يعنى المطر والنبات (قل الله) يعنى ان لم يقولوا ان رازقنا هو الله فقل أنت ان رازقكم هو الله (وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) معناه ما نحن وأنتم على أمر واحد بل احد الفريقين مهتد والآخر ضال وهذا ليس على طريق الشك بل على جهة الالزام والانصاف فى الحجاج كما يقول القائل أحدنا كاذب وهو يعلم انه صادق وصاحبه كاذب فالنبى صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه على الهدى ومن خالفه فى ضلال فكذبهم من غير ان يصرح بالتكذيب ومنه بيت حسان

أتهجوه ولست له بكفء * فشركما لخيركما الفداء

وقيل أو بمعنى الواو ومعنى الآية انا لعلى هدى وانكم لفى ضلال مبين (قل لا تسئلون عما أجرمنا) أى لا تؤاخذون به (ولا نسئل عما تعملون) أى من الكفر والتكذيب وقيل أراد بالاجرام الصغائر والزلات التى لا يخلو منها مؤمن وبالعمل الكفر والمعاصى العظام (قل يجمع بيننا ربنا) يعنى يوم القيامة (ثم يفتح) أى يقضى ويحكم (بيننا بالحق) اى بالعدل (وهو الفتاح) أى القاضى (العليم) أى بما يقضى (قل أرونى الذين ألحقتم به) اى بالله (شركاء) أى الاصنام التى أشركوها معه فى العبادة هل يخلقون أو يرزقون وأراد بذلك ان يريهم الخطأ العظيم فى الحاق الشركاء بالله (كلا) كلمة ردع لهم عن مذهبهم والمعنى ارتدعوا فانهم لا يخلقون ولا يرزقون (بل هو الله العزيز) أى الغالب على أمره (الحكيم) أى فى تدبير خلقه فانى يكون له شريك فى ملكه قوله عز وجل (وما أرسلناك الا كافة للناس) أى للناس كلهم عامة احمرهم واسودهم عربيهم وعجميهم وقيل ارسالة عامة لهم لانها اذا شملتهم فقد كفتهم ان يخرج منها احد (ق) عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل واحلت لى الغنائم ولم تحل لاحد قبلى واعطيت الشفاعة وكان النبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة فى الحديث بيان الفضائل التى خص الله بها نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم دون سائر الانبياء وان هذه الخمسة لم تكن لاحد ممن كان قبله من الانبياء وفيها اختصاصه بالرسالة العامة لكافة الخلق الانس والجن وكان النبى قبله يبعث الى قومه أو الى أهل بلده فعمت رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم جميع الخلق وهذه درجة خص بها دون سائر الانبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام وقيل فى معنى كافة أى كافا تكفهم عما هم عليه من الكفر فتكون الهاء للمبالغة (بشيرا) أى لمن آمن بالجنة (ونذيرا) أى لمن كفر بالنار (ولكن أكثر الناس لا يعلمون ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) يعنى يوم القيامة (قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) معناه لا يتقدمون على يوم القيامة وقيل عن يوم الموت ولا يتأخرون عنه

(وقال الذين كفروا) أي أبو جهل وذووه (لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه) أي ما نزل قبل القرآن من كتب الله أو القيامة والجنة والنار حتى أنهم جحدوا أن يكون القرآن من الله وأن يكون لما دل عليه من الإعادة للجزاء حقيقة (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون) محبوسون (عند ربهم يرجع) يرد (بعضهم إلى بعض القول) في الجدال أخبر عن عاقبة أمرهم وما لهم في الآخرة فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو للمخاطب ولو ترى في الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحاورة ويتراجعونها بينهم لرأيت العجب فحذف الجواب (يقول الذين استضعفوا) أي الأتباع (للذين استكبروا) أي للرؤس والمقدمين (لولا أنتم لكنا مؤمنين) لولا دعاؤكم إيانا إلى الكفر لكنا مؤمنين بالله ورسوله (قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى) أولى الاسم أي نحو حرف الإنكار لأن المراد إنكار أن يكونوا هم الصادين لهم عن الإيمان وإثبات أنهم هم الذين صدوا بأنفسهم عنه وأنهم أتوا من قبل اختيارهم (بعد إذ جاءكم) إنما وقعت إذ مضافا إليها وإن كانت إذ وإذا من الظروف اللازمة للظرفية لأنه قد اتسع في الزمان ما لم يتسع في غيره فأضيف إليها الزمان (بل كنتم مجرمين) كافرين لاختياركم وإيثاركم الضلال على الهدى لا بقولنا وتسويلنا (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا) لم يأت بالعاطف في قال الذين استكبروا وأوتي به في وقال الذين استضعفوا لأن الذين استضعفوا مر ٤٦١ أولا كلامهم فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريق الاستئناف ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين فعطف على كلامهم الأول (بل مكر الليل والنهار) بل مكركم بنا الليل والنهار فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به وإضافة المكر إليه أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي أي الليل والنهار مكرا بطول السلامة فيهما حتى ظننا أنكم على الحق (إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) أشباها والمعنى أن المستكبرين لما أنكروا بقولهم أنحن صددناكم أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين وأثبتوا بقولهم بل كنتم مجرمين أن ذلك بكسبهم واختيارهم كر عليهم المستضعفون بقولهم بل مكر الليل والنهار فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم كأنهم قالوا ما كان الإجرام من جهتنا بل من جهة مكركم لنا دائبا ليلا ونهارا وحملكم إيانا على الشرك واتخاذ الأنداد (وأسروا الندامة) أضمروا أو أظهروا وهو من الأضداد وهم الظالمون في قوله إذ الظالمون موقوفون يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين (لما رأوا العذاب) الجحيم (وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا) أي

بأن يراد في آجالهم أو ينقص منها (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه) يعني التوراة والإنجيل (ولو ترى) أي يا محمد (إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول) معناه ولو ترى في الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحاورة ويتراجعونها بينهم لرأيت العجب (يقول الذين استضعفوا) وهم الأتباع (للذين استكبروا) وهم القادة والأشراف (لولا أنتم لكنا مؤمنين) يعني أنتم منعتمونا عن الإيمان بالله ورسوله (قال الذين استكبروا) أي أجاب المتبوعون في الكفر (للذين استضعفوا أنحن صددناكم) أي منعناكم (عن الهدى) أي عن الإيمان (بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين) أي بترك الإيمان (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار) أي مكركم بنا في الليل والنهار وقيل مكر الليل والنهار هو طول السلامة في الدنيا وطول الأمل فيها (إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) أي قول القادة للأتباع إن ديننا الحق وإن محمدا كذاب ساحر وهذا تنبيه للكفار أن تصير طاعة بعضهم لبعض في الدنيا سبب عداوتهم في الآخرة (وأسروا الندامة) أي أظهروها وقيل أخفوها وهو من الأضداد (لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا) أي في النار الأتباع والمتبوعين جميعا (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) أي من الكفر والمعاصي في الدنيا قوله عز وجل (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها) أي رؤساؤها وأغنياؤها (إنا بما أرسلتم به كافرون وقالوا) يعني المترفين والأغنياء للفقراء الذين آمنوا (نحن أكثر أموالا وأولادا) يعني لو لم يكن الله راضيا بما نحن عليه من الدين والعمل الصالح لم يخولنا أموالا ولا أولادا (وما نحن بمعذبين) أي إن الله قد أحسن إلينا في الدنيا بالمال والولد ولا يعذبنا في الآخرة (قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يعني أنه تعالى يبسط الرزق ابتلاء وامتحانا ولا يدل البسط على رضا الله تعالى ولا التضييق على سخطه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي أنها كذلك (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى) أي بالتي تقربكم عندنا تقريبا (إلا من آمن وعمل صالحا) قال ابن عباس يريد إيمانه وعمله تقربه مني (فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا) أي يضعف الله لهم حسناتهم فيجزي بالحسنة الواحدة عشرا

١١٦ ث في أعناقهم فجاء بالصريح للدلالة على ما استحقوا به الأغلال (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) في الدنيا (وما أرسلنا في قرية من نذير) نبي (إلا قال مترفوها) متنعموها ورؤساؤها (إنا بما أرسلتم به كافرون) هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم مما مني به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به وأنه لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة وافتخروا بكثرة الأموال والأولاد كما قال (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم نظرا إلى أحوالهم في الدنيا وظنوا أنهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم الله ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم فأبطل الله ظنهم بأن الرزق فضل من الله يقسمه كيف يشاء فربما وسع على العاصي وضيق على المطيع وربما عكس وربما وسع عليهما أو ضيق عليهما فلا يقاس عليه أمر الثواب بقوله (قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) قدر الرزق تضييقه قال الله تعالى ومن قدر عليه رزقه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى) أي وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتي وذلك أن الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء في حكم التأنيث والزلفى والزلفة كالقربى والقربة ومحلها النصب على المصدر أي تقربكم قربة كقوله أنبتكم من الأرض نباتا (إلا من آمن وعمل صالحا) الاستثناء من كم في تقربكم يعني أن الأموال لا تقرب أحدا إلا المؤمن الصالح الذي ينفقها في سبيل الله والأولاد لا تقرب أحدا إلا من علمهم الخير وفقههم في الدين ورشحهم للصلاح والطاعة وعن ابن عباس إلا بمعنى لكن ومن شرط جوابه (فأولئك لهم جزاء الضعف) وهو من إضافة المصدر إلى المفعول أصله فأولئك لهم أن يجازوا الضعف ثم جزاء الضعف ومعنى جزاء الضعف أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشرا وقرأ يعقوب جزاء الضعف على فأولئك لهم الضعف جزاء (بما عملوا) بأعمالهم

(وهم في الغرفات) أي غرف منازل الجنة الغرفة حمزة (آمنون) من كل هائل وشاغل (والذين يسعون في آياتنا) في ابطالها (معجزين اولئك في العذاب محضرون
قل ان ربي يبسط الرزق) يوسع (لمن يشاء من عباده ويقدر له وما انفقتم) ما شرطية في موضع النصب (من شئ) بيانه (فهو يخلفه) يعوضه لا معوض
سواه اما عاجلا بالمال أو آجلا بالثواب جواب الشرط (وهو خير الرازقين) المطعمين لان كل مارزق غيره من سلطان أو سيد أو غيرهما فهو من رزق الله
اجراه على أيدي هؤلاء وهو خالق الرزق وخالق الاسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق وعن بعضهم الحمد لله الذي اوجدني وجعلني ممن يشتهي فكم من مشته
لايجد وواجد لايشتهي (ويوم نحشرهم جميعا ثم تقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) وبالياء فيهما حفص ويعقوب هذا خطاب للملائكة
وتقريع للكفار وارد على المثل السائر
* اياك أعني واسمعي يا جارة * ونحوه قوله
أأنت قلت للناس اتخذوني الآية (قالوا) أي
الملائكة (سبحانك) تنزيها لك أن يعبد
معك غيرك (أنت ولينا) الموالاة خلاف
المعاداة وهي مفاعلة من الولي وهو القرب
والولي يقع على الموالي والموالى جميعا والمعنى أنت
الذي نواليه (من دونهم) اذ لا موالاة بيننا
وبينهم فبينوا باثبات موالاة الله ومعاداة الكفار
براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم لان من كان على
هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك (بل
كانوا يعبدون الجن) أي الشياطين حيث
أطاعوهم في عبادة غير الله أو كانوا يدخلون في
أجواف الاصنام اذا عبدت فيعبدون بعبادتها
او صورت لهم الشياطين صور قوم من الجن وقالوا
هذه صور الملائكة فاعبدوها (أكثرهم)
أكثر الانس او الكفار (بهم) بالجن (مؤمنون
فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا) لان
الامر في ذلك اليوم لله وحده لا يملك فيه أحد
منفعة ولا مضرة لاحد لان الدار دار ثواب وعقاب
والمثيب والمعاقب هو الله فكانت حالها
خلاف حال الدنيا التي هي دار تكليف والناس
فيها مخلى بينهم يتضارون ويتنافعون والمراد انه
لا ضار ولا نافع يومئذ الا هو ثم ذكر عاقبة الظالمين
بقوله (ونقول للذين ظلموا) بوضع العبادة
في غير موضعها معطوف على لا يملك (ذوقوا
عذاب النار التي كنتم بها تكذبون) في الدنيا
(واذا تتلى عليهم آياتنا) أي اذا قرئ عليهم
القرآن (بينات) واضحات (قالوا) أي
المشركون (ماهذا) أي محمد (الا رجل
يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا) أي القرآن (الا افك مفترى وقال الذين كفروا) اي وقالوا والعدول عنه دليل على انكار كان
عظيم وغضب شديد (للحق) للقرآن ولامر النبوة كله (لما جاءهم) وعجزوا عن الاتيان بمثله (ان هذا) أي الحق (الا سحر مبين) بتوه على انه سحر ثم بتوه
على انه بين ظاهر كل عاقل تأمله سماه سحرا (وما آتيناهم من كتب يدرسونها) أي ما أعطينا مشركي مكة كتبا يدرسونها فيها برهان على صحة الشرك
(وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير) ولا ارسلنا اليهم نذيرا ينذرهم بالعقاب ان لم يشركوا ثم توعدهم على تكذيبهم بقوله (وكذب الذين من قبلهم) أي وكذب
الذين تقدموهم من الامم الماضية والقرون الخالية الرسل كما كذبوا (وما بلغوا معشار ما آتيناهم) اى وما بلغ اهل مكة عشر ما أوتي الاولون من طول
الاعمار وقوة الاجرام وكثرة الاموال والاولاد (فكذبوا رسلي فكيف

الى سبعمائة (وهم في الغرفات آمنون والذين يسعون في آياتنا) أي يعملون في ابطال حججنا (معجزين)
أي معاندين يحسبون انهم يعجزوننا ويفوتوننا (أولئك في العذاب محضرون) قوله عز وجل (قل ان
ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه) أي يعطي خلفه اذا كان
في غير اسراف ولا تقتير فهو يخلفه ويعوضه لا معوض سواه اما عاجلا بالمال او بالقناعة التي هي كنز لا ينفد
واما بالثواب في الآخرة الذي كل خلف دونه وقيل ما تصدقتم من صدقة وانفقتم من خير فهو يخلفه على
المنفق قال مجاهد من كان عنده من هذا المال ما يقيمه فليقتصد فان الرزق مقسوم ولعل ما قسم له قليل
وهو ينفق نفقة الموسع عليه فينفق جميع ما في يده ثم يبقى طول عمره في فقر ولا يتأول وما أنفقتم من شئ
فهو يخلفه فان هذا في الآخرة ومعنى الآية ما كان من خلف فهو منه وعن أبي هريرة ان رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال قال الله تبارك وتعالى أنفق ينفق عليك ولمسلم يا ابن آدم أنفق أنفق عليك وعنه ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من يوم يصبح العباد فيه الا وملكان ينزلان يقول أحدهما اللهم أعط
منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا (م) عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما نقصت
صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو الا عزا وما تواضع أحد لله الا رفعه الله (وهو خير الرازقين) أي
خير من يعطي ويرزق لان كل مارزق غيره من سلطان يرزق جنده أو سيد يرزق مملوكه او رجل يرزق
عياله فهو من رزق الله اجراه الله على ايدي هؤلاء وهو الرزاق الحقيقي الذي لا رازق سواه قوله تعالى
(ويوم نحشرهم جميعا) يعني هؤلاء الكفار (ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون) أي في الدنيا
وهذا استفهام تقريع وتقرير للكفار فتتبرأ الملائكة منهم من ذلك وهو قوله تعالى (قالوا سبحانك)
أي تنزيها لك (أنت ولينا من دونهم) أي نحن نتولاك ولا نتولاهم فبينوا باثبات موالاة الله ومعاداة
الكفار براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم (بل كانوا يعبدون الجن) يعني الشياطين فان قلت قد عبدوا الملائكة
فكيف وجه قوله بل كانوا يعبدون الجن قلت أراد ان الشياطين زينوا لهم عبادة الملائكة فأطاعوهم في
ذلك فكانت طاعتهم للشياطين عبادة لهم وقيل صور لهم صورا وقالوا لهم هذه صور الملائكة فاعبدوها
فعبدوها وقيل كانوا يدخلون في أجواف الاصنام فيعبدون بعبادتها (أكثرهم بهم مؤمنون) أي
مصدقون للشياطين قال الله تعالى (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا) أي شفاعة (ولا ضرا) أي
بالعذاب يريد انهم عاجزون لا نفع عندهم ولا ضر (ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم
بها تكذبون واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا الا رجل) يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم (يريد
أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا الا افك مفترى) يعنون القرآن (وقال الذين كفروا
للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين وما آتيناهم) يعني هؤلاء المشركين (من كتب يدرسونها) أي
يقرؤنها (وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير) أي لم يأت العرب قبلك نبي ولا انزل اليهم كتاب (وكذب
الذين من قبلهم) أي من الامم السالفة رسلنا (وما بلغوا) يعني هؤلاء المشركين (معشار) أي عشر
(ما آتيناهم) أي أعطينا الامم الخالية من القوة والنعمة وطول الاعمار (فكذبوا رسلي فكيف

كان نكير) للمكذبين الاولين فليحذروا من مثله وبالياء في الوصل والوقف يعقوب أي فحين كذبوا رسلهم جاءهم انكاري بالتدمير والاستئصال ولم يغن عنهم استظهارهم بما هم مستظهرون به فما بال هؤلاء وانما قال فكذبوا وهو مستغنى عنه بقوله وكذب الذين من قبلهم لانه لما كان معنى قوله وكذب الذين من قبلهم وفعل الذين من قبلهم التكذيب واقدموا عليه جعل تكذيب الرسل مسببا عنه وهو كقول القائل اقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم (قل انما أعظكم بواحدة) بخصلة واحدة وقد فسرها بقوله (أن تقوموا) على انه عطف بيان لها وقيل هو بدل وعلى هذين الوجهين هو في محل الجر وقيل هو في محل الرفع على تقدير وهي ان تقوموا والنصب على تقدير أعني وأراد بقيامهم القيام عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقهم عن مجتمعهم عنده أو قيام القصد الى الشئ دون النهوض والانتصاب والمعنى انما أعظكم بواحدة ان فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم وهي ان تقوموا (لله) أي لوجه الله خالصا لا لحمية ولا عصبية بل لطلب الحق (مثنى) اثنين اثنين (وفرادى) فردا فردا (ثم تتفكروا) في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه نظر الصدق والانصاف حتى يؤديهما النظر الصحيح الى الحق وكذلك الفرد يتفكر في نفسه بعدل ونصفة ويعرض فكره على عقله ومعنى تفرقهم مثنى وفرادى ان الاجتماع ٤٦٣ مما يشوش الخواطر ويعمي البصائر ويمنع من الروية ويقل الانصاف فيه ويكثر الاعتساف ويثور عجاج التعصب ولا يسمع الا نصرة المذهب وتتفكروا معطوف على تقوموا (ما بصاحبكم) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم (من جنة) جنون والمعنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة (ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) قدام عذاب شديد وهو عذاب الآخرة وهو كقوله عليه السلام بعثت بين يدي الساعة ثم بين انه لا يطلب أجرا على الانذار بقوله (قل ما سألتكم من أجر) على انذاري وتبليغي الرسالة (فهو لكم) جزاء الشرط تقديره أي شئ سألتكم من أجر كقوله ما يفتح الله للناس من رحمة ومعناه نفي مسألة الاجر أصلا نحو ما لي في هذا فهو لك أي ليس لي فيه شئ (ان أجري) مدني وشامي وأبو بكر وحفص وبسكون الياء غيرهم (الا على الله وهو على كل شئ شهيد) فيعلم اني لا اطلب الاجر على نصيحتكم ودعائكم اليه الا منه (قل ان ربي يقذف بالحق) بالوحي والقذف توجيه السهم ونحوه بدفع واعتماد ويستعار لمعنى الالقاء ومنه وقذف في قلوبهم الرعب ان اقذفيه في التابوت ومعنى يقذف بالحق يلقيه وينزله الى انبيائه او يرمي به الباطل فيدمغه ويزهقه (علام الغيوب) مرفوع على البدل من الضمير في يقذف او على انه خبر مبتدا محذوف (قل جاء الحق) الاسلام والقرآن (وما يبدئ الباطل وما يعيد) أي زال الباطل وهلك لان الابداء والاعادة من صفات الحي فعدمهما عبارة عن الهلاك والمعنى جاء الحق وزهق الباطل كقوله جاء الحق وزهق الباطل وعن ابن مسعود رضي الله عنه دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول الكعبة أصنام فجعل يطعنها بعود معه ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد وقيل الباطل الاصنام وقيل ابليس لانه صاحب الباطل أو لانه هالك كما قيل له الشيطان من شاط اذا هلك أي لا يخلق الشيطان ولا الصنم أحدا ولا يبعثه فالمنشئ والباعث هو الله ولما قالوا قد ضللت بترك دين آبائك قال الله تعالى (قل ان ضللت) عن الحق (فانما أضل على نفسي) ان ضلالي عليها (وان اهتديت فبما يوحي الي ربي) أي فبتسديده بالوحي الي وكان قياس التقابل ان يقال وان اهتديت فانما أهتدي لها كقوله من اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولكن هما متقابلان معنى لان النفس كل ما هو وبال عليها وضار لها فهو بها وبسببها لانها الامارة بالسوء وما لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه وهذا حكم عام لكل مكلف وانما أمر رسوله ان يسنده الى نفسه لان الرسول اذا دخل تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره أولى به

كان نكير) أي انكاري عليهم يحذر بذلك كفار هذه الامة عذاب الامم الماضية قوله عز وجل (قل انما أعظكم) أي آمركم واوصيكم (بواحدة) أي بخصلة واحدة ثم بين تلك الخصلة فقال تعالى (أن تقوموا لله) أي لاجل الله (مثنى) اي اثنين اثنين (وفرادى) أي واحدا واحدا (ثم تتفكروا) أي تجتمعوا جميعا فتنظروا وتتحاوروا وتتفكروا في حال محمد صلى الله عليه وسلم فتعلموا أن (ما بصاحبكم من جنة) ومعنى الآية انما أعظكم بواحدة ان فعلتموها اصبتم الحق وتخلصتم وهي ان تقوموا لله وليس المراد به القيام على القدمين ولكن هو الانتصاب في الامر والنهوض فيه بالهمة فتقوموا لوجه الله خالصا ثم تتفكروا في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به اما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه لينظرا فيه نظر متصادقين متناصفين لا يميل بهما اتباع الهوى واما المنفرد فيفكر في نفسه ايضا بعدل ونصفة هل رأينا في هذا الرجل جنونا قط وجربنا عليه كذبا قط وقد علمتم ان محمدا صلى الله عليه وسلم ما به من جنة وقد علمتم انه من أرجح قريش عقلا وأوزنهم حلما واحدهم ذهنا وأرضاهم رأيا وأصدقهم قولا وأزكاهم نفسا وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به واذا علمتم ذلك كفاكم ان تطالبوه بآية اذا جاء بها تبين انه نبي نذير مبين صادق فيما جاء به وقيل تم الكلام عند قوله ثم تتفكروا أي في السموات والارض فتعلموا ان خالقها واحد لا شريك له ثم ابتدأ فقال ما بصاحبكم من جنة (ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد قل ما سألتكم) أي على تبليغ الرسالة (من أجر) أي جعل (فهو لكم) أي لم أسألكم شيئا (ان أجري) أي ثوابي (الا على الله وهو على كل شئ شهيد قل ان ربي يقذف بالحق) أي يأتي بالوحي من السماء فيقذفه الى الانبياء (علام الغيوب) أي خفيات الامور (قل جاء الحق) أي القرآن والاسلام (وما يبدئ الباطل وما يعيد) أي ذهب الباطل وزهق فلم تبق منه بقية تبدئ شيئا أو تعيده وقيل الباطل هو ابليس والمعنى لا يخلق ابليس أحدا ابتداء ولا يبعثه اذا مات وقيل الباطل الاصنام (قل ان ضللت فانما أضل على نفسي) وذلك ان كفار مكة كانوا يقولون له انك قد ضللت حين تركت دين آبائك فقال الله تعالى قل ان ضللت فيما تزعمون أنتم فانما أضل على نفسي أي اثم ضلالتي على نفسي (وان اهتديت فبما يوحي الي ربي) أي من القرآن

(انه سميع) لما أقوله لكم (قريب) مني ومنكم يجازيني ويجازيكم (ولو ترى) جوابه محذوف أي لرأيت أمرا عظيما وحالا هائلة (اذ فزعوا) عند البعث أو عند الموت او يوم بدر (فلا فوت) فلا مهرب او فلا يفوتون الله ولا يسبقونه (وأخذوا) عطف على فزعوا أي فزعوا وأخذوا فلا فوت لهم أو على لا فوت على معنى اذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا (من مكان قريب) من الموقف الى النار اذا بعثوا أو من ظهر الارض الى بطنها اذا ماتوا ومن صحراء بدر الى القليب (وقالوا) حين عاينوا العذاب (آمنا به) بمحمد عليه السلام لمرور ذكره في قوله ما بصاحبكم من جنة او بالله (وأنى لهم التناوش من مكان بعيد) التناوش التناول أي كيف يتناولون التوبة وقد بعدت عنهم يريد ان التوبة كانت تقبل منهم في الدنيا وقد ذهبت الدنيا وبعدت من الآخرة وقيل هذا تمثيل لطلبهم ما لا يكون وهو ان ينفعهم ايمانهم في ذلك الوقت كما نفع المؤمنين ايمانهم في الدنيا مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة كما يتناول الآخر من قيس ذراع التناؤش بالهمزة أبو عمرو وكوفي غير حفص همزت الواو لان كل واو مضمومة ضمتها لازمة ان شئت أبدلتها همزة وان شئت لم تبدل نحو قولك أدور وتقاوم وان شئت قلت أدؤر وتقاؤم وعن ثعلب التناؤش بالهمز التناول من بعد وبغير همز التناول من قرب (وقد كفروا به من قبل) من قبل العذاب أو في الدنيا (ويقذفون بالغيب) معطوف على قد كفروا على حكاية الحال الماضية يعني وكانوا يتكلمون بالغيب أو بالشيء الغائب يقولون لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار (من مكان بعيد) عن الصدق أو عن الحق والصواب أو هو قولهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم شاعر ساحر كذاب وهذا تكلم بالغيب والامر الخفي لانهم لم يشاهدوا منه سحرا ولا شعرا ولا كذبا وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله لان ابعد شيء مما جاء به السحر والشعر وابعد شيء من عادته التي عرفت بينهم وجربت الكذب ويقذفون بالغيب عن أبي عمرو على البناء للمفعول أي تأتيهم به شياطينهم ويلقونهم اياه وان شئت فعلقه بقوله وقالوا آمنا به على انه مثلهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الايمان في الدنيا بقولهم آمنا في الآخرة وذلك مطلب مستبعد ممن يقذف شيئا من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه حيث يريد ان يقع فيه لكونه غائبا عنه بعيدا ويجوز ان يكون الضمير في آمنا به للعذاب الشديد في قوله بين يدي عذاب شديد وكانوا يقولون وما نحن بمعذبين ان كان الامر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب ونحن أكرم على الله من ان يعذبنا قايسين امر الآخرة على امر الدنيا فهذا كان قذفهم بالغيب وهو غيب ومقذوف به من جهة بعيدة لان دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف (وحيل) وحجز (بينهم وبين ما يشتهون) من نفع الايمان يومئذ والنجاة به من النار والفوز بالجنة أو من الرد الى الدنيا كما حكى عنهم بقوله ارجعنا نعمل صالحا والافعال التي هي فزعوا واخذوا وحيل كلها للمضي والمراد بها الاستقبال لتحقق وقوعه (كما فعل باشياعهم من قبل) باشباههم من الكفرة (انهم كانوا في شك) من امر الرسل والبعث (مريب) موقع في الريبة من ارابه اذا أوقعه في الريبة هذا رد على من زعم ان الله لا يعذب على الشك والله أعلم (سورة الملائكة مكية وهي خمس واربعون آية) *(بسم الله الرحمن الرحيم)* (الحمد لله) حمد ذاته تعليما وتعظيما (فاطر السموات) مبتدئها ومبتدعها قال ابن عباس رضي الله عنهما ما كنت ادري معنى الفاطر حتى اختصم الي اعرابيان في بئر فقال أحدهما انا فطرتها اي ابتدأتها (والارض جاعل الملائكة رسلا) الى عباده (أولي) ذوي اسم جمع لذو وهو بدل من رسلا او نعت له (اجنحة) جمع جناح (مثنى وثلاث ورباع) صفات لاجنحة وانما لم تنصرف لتكرر العدل فيها وذلك انها عدلت عن ألفاظ الاعداد عن صيغ الى صيغ أخر كما عدل عمر عن عامر وعن تكرير الى غير تكرير وقيل للعدل والوصف والتعويل عليه والمعنى ان الملائكة طائفة اجنحتهم اثنان اثنان أي لكل واحد منهم جناحان وطائفة اجنحتهم ثلاثة ثلاثة ولعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدهما بقوة وطائفة اجنحتهم أربعة أربعة

والحكمة (انه سميع قريب) قوله عز وجل (ولو ترى) أي يا محمد (اذ فزعوا) أي عند البعث ان يخرجوا من قبورهم وقيل عند الموت (فلا فوت) أي لا يفوتوننا ولا نجاة لهم (وأخذوا من مكان قريب) قيل من تحت أقدامهم وقيل أخذوا من بطن الارض الى ظهرها وحيث كانوا فانهم من الله قريب لا يفوتونه ولا يعجزونه وقيل من مكان قريب يعني عذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر وقيل هو خسف بالبيداء ومعنى الآية ولو ترى اذ فزعوا لرأيت أمرا تعتبر به (وقالوا آمنا به) أي حين عاينوا العذاب قيل هو عند اليأس وقيل هو عند البعث (وأنى لهم التناوش) أي التناول والمعنى كيف لهم تناول ما بعد عنهم وهو الايمان والتوبة وقد كان قريبا منهم في الدنيا فضيعوه وقال ابن عباس يسألون الرد الى الدنيا فيقال وأنى لهم الرد الى الدنيا (من مكان بعيد) أي من الآخرة الى الدنيا (وقد كفروا به من قبل) أي بالقرآن وقيل بمحمد صلى الله عليه وسلم من قبل ان يعاينوا العذاب وأهوال القيامة (ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) قيل هو الظن لان العلم غاب عنهم والمكان البعيد بعدهم عن علم ما يقولون والمعنى يرمون محمدا صلى الله عليه وسلم بما لا يعلمون من حيث لا يعلمون وهو قولهم انه شاعر ساحر كاهن لا علم لهم بذلك وقيل يرجمون بالظن يقولون لا بعث ولا جنة ولا نار (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) يعني الايمان والتوبة والرجوع الى الدنيا ونعيمها وزهرتها (كما فعل بأشياعهم) أي بنظرائهم ومن كان على مثل حالهم من الكفار (من قبل) أي لم تقبل منهم التوبة والايمان في وقت اليأس (انهم كانوا في شك) أي من البعث ونزول العذاب بهم (مريب) أي موقع الريبة والتهمة والله أعلم

(تفسير سورة فاطر وتسمى سورة الملائكة وهي مكية)

وخمس وأربعون آية وتسعمائة وسبعون كلمة وثلاثة آلاف ومائة وثلاثون حرفا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله عز وجل (الحمد لله فاطر السموات والارض) أي خالقها ومبتدعها على غير مثال سبق (جاعل الملائكة رسلا) أي الى الانبياء (أولي أجنحة) أي ذوي أجنحة (مثنى وثلاث ورباع) أي بعضهم له

(يزيد فى الخلق) أى يزيد فى خلق الاجنحة وغيره (ما يشاء) وقيل هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن والخط الحسن والملاحة فى العينين والآية مطلقة تتناول كل زيادة فى الخلق من طول قامة واعتدال صورة وتمام فى الاعضاء وقوة فى البطش وحصافة فى العقل وجزالة فى الرأى وذلاقة فى اللسان ومحبة فى قلوب المؤمنين وما اشبه ذلك (ان الله على كل شئ قدير) قادر (ما يفتح الله للناس من رحمة) نكرت الرحمة للاشاعة والابهام كانه قال من أية رحمة رزق أو مطر أو صحة أو غير ذلك (فلا ممسك لها) فلا أحد يقدر على امساكها وحبسها واستعير الفتح للاطلاق والارسال الاترى الى قوله (وما يمسك) يمنع ويحبس (فلا مرسل له) مطلق له (من بعده) من بعد امساكه وانث الضمير الراجع الى الاسم المتضمن معنى الشرط على معنى الرحمة ثم ذكره حملا على اللفظ المرجع اليه اذلا تأنيث فيه لان الاول فسر بالرحمة فحسن اتباع الضمير التفسير ولم يفسر الثانى فترك على اصل التذكير وعن معاذ مرفوعا لاتزال يد الله مبسوطة على هذه الامة مالم يرفق خيارهم بشرارهم ويعظم برهم فاجرهم وتعن قراؤهم امراءهم على معصية الله فاذا فعلوا ذلك نزع الله يده عنهم (وهو العزيز) الغالب القادر على الارسال والامساك (الحكيم) الذى يرسل ويمسك ما تقتضى الحكمة ارساله وامساكه (يا أيها الناس اذكروا) باللسان والقلب (نعمة الله عليكم) وهى التى تقدمت من بسط الارض كالمهاد ورفع السماء بلا عماد وارسال الرسل لبيان السبيل دعوة اليه وزلفة لديه والزيادة فى الخلق وفتح ابواب الرزق ثم نبه على رأس النعم وهو اتحاد المنعم بقوله (هل من خالق غير الله) برفع غير على الوصف لان خالق مبتدأ خبره محذوف أى لكم وبالجر على وحمزة على الوصف لفظا (يرزقكم) يجوز ان يكون مستأنفا ويجوز ان يكون صفة لخالق (من السماء) بالمطر (والارض) بأنواع النبات (لا اله الا هو) جملة مفصولة لا محل لها (فانى تؤفكون) فبأى وجه تصرفون عن التوحيد الى الشرك (وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) نعى به على قريش سوء تلقيهم لآيات الله وتكذيبهم بها وسلى رسوله بان له فى الانبياء قبله اسوة ولهذا نكر رسل أى رسل ذوو عدد كثير واولو آيات ونذر واهل اعمار طوال واصحاب صبر وعزم لانه اسلى له وتقدير الكلام وان يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل من قبلك لان الجزاء يتعقب الشرط ولو اجرى على الظاهر يكون سابقا عليه ووضع فقد كذبت رسل من قبلك موضع فتأس استغناء بالسبب عن المسبب أى بالتكذيب عن التأسى (والى الله ترجع الامور) كلام يشتمل على الوعد والوعيد من رجوع الامور الى حكمه ومجازاة المكذب والمكذب بما يستحقانه ترجع بفتح التاء شامى وحمزة وعلى ويعقوب وخلف وسهل (يا أيها الناس ان وعد الله) بالبعث والجزاء (حق) كائن (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) فلا تخدعنكم الدنيا ولا يذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله (ولا يغرنكم بالله الغرور) أى الشيطان فانه يمنيكم الامانى الكاذبة ويقول ان الله غنى عن عبادتك وعن تكذيبك (ان الشيطان لكم عدو) ظاهر العداوة فعل بأبيكم ما فعل وانتم تعاملونه معاملة من لا علم له باحواله (فاتخذوه عدوا) فى عقائدكم وأفعالكم ولا يوجدن منكم الا ما يدل على معاداته فى سركم وجهركم ثم لخص سر أمره وخطأ من اتبعه بأن غرضه الذى يؤمه فى دعوة شيعته هو ان يوردهم مورد الهلاك بقوله (انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) ثم كشف الغطاء فبنى الامر كله على الايمان وتركه فقال (الذين كفروا لهم عذاب شديد) أى فمن اجابه حين دعاه فله عذاب شديد لانه صار من حزبه اى اتباعه (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) ولم يجيبوه ولم يصيروا من حزبه بل عادوه (لهم مغفرة وأجر كبير) لكبر جهادهم ولما ذكر الفريقين قال لنبيه عليه السلام (أفمن زين له سوء عمله

جناحان وبعضهم له ثلاثة أجنحة وبعضهم له أربعة (يزيد فى الخلق ما يشاء) أى يزيد فى خلق الاجنحة ما يشاء قال ابن مسعود فى قوله لقد رأى من آيات ربه الكبرى قال رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح وقيل فى قوله يزيد فى الخلق ما يشاء هو حسن الصوت وقيل حسن الخلق وتمامه وقيل هو الملاحة فى العينين وقيل هو العقل والتمييز (ان الله على كل شئ قدير) أى مما يريد ان يخلقه قوله تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة) قيل المطر وقيل من خير ورزق (فلا ممسك لها) أى لا يستطيع أحد حبسها (وما يمسك فلا مرسل له من بعده) أى لا يقدر أحد على فتح ما أمسك (وهو العزيز) أى فيما أمسك (الحكيم) أى فيما أرسل (م) عن المغيرة بن شعبة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دبر كل صلاة لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد والجد الغنى والبخت اى لا ينفع المبخوت والغنى حظه وغناه لانهما منك انما ينفعه الاخلاص والعمل بطاعتك قوله عز وجل (يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم) قيل الخطاب لاهل مكة ونعمة الله عليهم اسكانهم الحرم ومنع الغارات عنهم (هل من خالق غير الله) أى لا خالق الا الله وهو استفهام تقرير وتوبيخ (يرزقكم من السماء) يعنى المطر (والارض) أى النبات (لا اله الا هو فانى تؤفكون) أى من أين يقع لكم الافك والتكذيب بتوحيد الله وانكار البعث وانتم مقرون بأن الله خالقكم ورازقكم (وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) يعزى نبيه صلى الله عليه وسلم (والى الله ترجع الامور) أى فيجزى المكذب من الكفار بتكذيبه قوله تعالى (يا أيها الناس ان وعد الله حق) يعنى وعد القيامة (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) أى لا تخدعنكم بلذاتها وما فيها عن عمل الآخرة وطلب ما عند الله (ولا يغرنكم بالله الغرور) أى لا يقل لكم اعملوا ما شئتم فان الله يغفر كل ذنب وخطيئة ثم بين الغرور من هو فقال تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) أى عادوه بطاعة الله ولا تطيعوه فيما يأمركم به من الكفر والمعاصى (انما يدعو حزبه) أى اشياعه وأولياءه (ليكونوا من أصحاب السعير) ثم بين حال موافقيه ومخالفيه فقال تعالى (الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير) قوله عز وجل (أفمن زين له سوء عمله) قال ابن عباس نزلت فى أبى جهل ومشركى مكة وقيل نزلت فى أصحاب الاهواء والبدع ومنهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم وليس أصحاب الكبائر من الذنوب منهم لانهم

فرآه حسنا) بتزيين الشيطان كمن لم يزين له فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا فقال (فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) وذكر الزجاج ان المعنى أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليه حسرة فحذف الجواب لدلالة فلا تذهب نفسك عليه أو أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله فحذف لدلالة فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء عليه فلا تذهب نفسك يريد أي لا تهلكها حسرات مفعول له يعني فلا تهلك نفسك للحسرات وعليهم صلة تذهب كما تقول هلك عليه حبا ومات عليه حزنا ولا يجوز أن يتعلق بحسرات لأن المصدر لا تتقدم عليه صلته (ان الله عليم بما يصنعون) يعدلهم بالعقاب على سوء صنيعهم (والله الذي أرسل الرياح) الريح مكي وحمزة وعلي (فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت) بالتشديد مدني وحمزة وعلي وحفص وبالتخفيف غيرهم (فأحيينا به) المطر لتقدم ذكره ضمنا (الارض بعد موتها) يبسها وانما قيل فتثير لتحكي الحال التي تقع فيها اثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصورة الدالة على القدرة الربانية وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تميز وخصوصية بحال تستغرب وكذلك سوق السحاب الى البلد الميت واحياء الارض بالمطر بعد موتها لما كان من الدليل على القدرة الباهرة قيل فسقنا وأحيينا معدولا بهما عن لفظ الغيبة الى ما هو ادخل في الاختصاص وأدل عليه (كذلك النشور) الكاف في محل الرفع أي مثل احياء الموات نشور الاموات قيل يحيي الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش كمني الرجال تنبت منه أجساد الخلق (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) أي العزة كلها مختصة بالله عزة الدنيا وعزة الآخرة وكان الكافرون يتعززون بالاصنام كما قال واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا والذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطأة قلوبهم كانوا يتعززون بالمشركين كما قال الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا فبين أن لا عزة الا بالله والمعنى فليطلبها عند الله فوضع قوله لله العزة جميعا موضعه استغناء عنه به لدلالته عليه لان الشيء لا يطلب الا عند صاحبه ومالكه ونظيره قولك من أراد النصيحة فهي عند الابرار تريد فليطلبها عندهم الا انك أقمت ما يدل عليه مقامه وفي الحديث ان ربكم يقول كل يوم أنا العزيز فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز ثم عرف ان ما يطلب به العزة هو الايمان والعمل الصالح بقوله (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ومعنى قوله اليه الى محل القبول والرضا وكل ما اتصف بالقبول وصف بالرفعة والصعود أو الى حيث لا ينفذ فيه الا حكمه والكلم الطيب كلمات التوحيد أي لا اله الا الله وكان القياس الطيبة ولكن كل جمع ليس بينه وبين واحده الا التاء يذكر ويؤنث والعمل الصالح العبادة الخالصة يعني والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب فالرافع الكلم والمرفوع العمل لانه لا يقبل عمل الا من موحد وقيل الرافع الله والمرفوع العمل أي العمل الصالح يرفعه الله وفيه اشارة الى ان العمل يتوقف على الرفع والكلم الطيب يصعد بنفسه وقيل العمل الصالح يرفع العامل ويشرفه أي من أراد العزة فليعمل عملا صالحا فانه هو الذي يرفع العبد (والذين يمكرون السيئات) هي صفة لمصدر محذوف أي المكرات السيئات لان مكر فعل غير متعد لا يقال مكر فلان عمله والمراد مكر قريش به عليه السلام حين اجتمعوا في دار الندوة كما قال الله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك الآية (لهم عذاب

لا يستحلونها ويعتقدون تحريمها مع ارتكابهم اياها ومعنى زين له شبه له وموه عليه قبيح عمله (فرآه حسنا) وفي الآية حذف مجازه أفمن زين له سوء عمله فرأى الباطل حقا كمن هداه الله فرأى الحق حقا والباطل باطلا (فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء) وقيل مجاز الآية أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء والحسرة شدة الحزن على ما فات والمعنى لا تغتم بكفرهم وهلاكهم ان لم يؤمنوا (ان الله عليم بما يصنعون) فيه وعيد بالعقاب على سوء صنيعهم (والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا) أي تزعجه من مكانه وقيل تجمعه وتجيء به (فسقناه) أي فنسوقه (الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور) أي مثل احياء الموات نشور الاموات روى ابن الجوزي في تفسيره عن ابي رزين العقيلي قال قلت يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه فقال هل مررت بواد أهلك محلا ثم مررت به يهتز خضرا قلت نعم قال كذلك يحيي الله الموتى وتلك آيته في خلقه قوله تعالى (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) قيل معناه من كان يريد ان يعلم لمن العزة فلله العزة جميعا وقيل معناه من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله وهو دعاء الى طاعة من له العزة أي فليطلب العزة من عند الله بطاعته وذلك ان الكفار عبدوا الاصنام وطلبوا بها التعزز فبين الله ان لا عزة الا لله ولرسوله ولاوليائه المؤمنين (اليه) أي الى الله (يصعد الكلم الطيب) قيل هو قول لا اله الا الله وقيل هو سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر روى البغوي باسناده عن ابن مسعود قال اذا حدثتكم حديثا انبأتكم بمصداقه من كتاب الله عز وجل ما من عبد مسلم يقول خمس كلمات سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر وتبارك الله الا اخذهن ملك تحت جناحه ثم يصعد بهن فلا يمر بهن على جمع من الملائكة الا استغفروا لقائلهن حتى يحيي بها وجه رب العالمين ومصداقه من كتاب الله اليه يصعد الكلم الطيب هذا حديث موقوف على ابن مسعود وفي اسناده الحجاج بن نصير ضعيف وقيل الكلم الطيب ذكر الله تعالى وقيل معنى اليه يصعد أي يقبل الله الكلم الطيب (والعمل الصالح يرفعه) قال ابن عباس أي يرفع العمل الصالح الكلم الطيب وقيل الكلم الطيب ذكر الله والعمل الصالح اداء الفرائض فمن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله وليس الايمان بالتمني وليس بالتحلي ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الاعمال فمن قال حسنا وعمل غير صالح رد الله عليه قوله ومن قال حسنا وعمل صالحا يرفعه العمل ذلك بأن الله يقول اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وجاء في الحديث لا يقبل الله قولا الا بعمل ولا قولا ولا عملا الا بنية وقيل الهاء في يرفعه راجعة الى العمل الصالح أي الكلم الطيب يرفع العمل الصالح فلا يقبل عملا الا ان يكون صادرا عن توحيد وقيل معناه العمل الصالح يرفعه الله وقيل العمل الصالح هو الخالص وذلك ان الاخلاص سبب قبول الخيرات من الاقوال والافعال (والذين يمكرون السيئات) أي يعملون السيئات أي الشرك وقيل يعني الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الندوة وقيل هم اصحاب الرياء (لهم عذاب

شديد

شديد) فى الآخرة (ومكر أولئك) مبتدأ (هو) فصل (يبور) خبر أى ومكر أولئك الذين مكروا هو خاصة يبور أى يفسد و يبطل دون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم فى قليب بدر فجمع عليهم مكراتهم جميعا وحقق فيهم قوله تعالى ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين وقوله ولا يحيق المكر السيء الا بأهله (والله خلقكم) أى اباكم (من تراب ثم) أنشأكم (من نطفة ثم جعلكم أزواجا) أصنافا أو ذكرانا واناثا (وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه) هو فى موضع الحال أى الا معلومة له (وما يعمر من معمر) أى وما يعمر من أحد وانما سماه معمرا بما هو صائر اليه (ولا ينقص من عمره الا فى كتاب) يعنى اللوح أو صحيفة الانسان ولا ينقص زيد فان قلت الانسان اما معمر أى طويل العمر أو منقوص العمر أى قصيره فأما أن يتعاقب عليه التعمير وخلافه فمحال فكيف صح قوله وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره قلت هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة فى تأويله بأفهام السامعين واتكالا على تسديدهم معناه بعقولهم وانه لا يلتبس عليهم احالة الطول والقصر فى عمر واحد وعليه كلام الناس يقولون لا يثيب الله عبدا ولا يعاقبه الا بحق أو تأويل الآية انه يكتب فى الصحيفة عمره كذا كذا سنة ثم يكتب فى أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان حتى يأتى على آخره فذلك نقصان عمره وعن قتادة المعمر من يبلغ ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة (ان ذلك) أى احصاؤه أو زيادة العمر ونقصانه (على الله يسير) سهل (وما يستوى البحران هذا) أى أحدهما (عذب فرات) شديد العذوبة وقيل هو الذى يكسر العطش (سائغ شرابه) مرىء سهل الانحدار لعذوبته وبه يرتفع شرابه (وهذا ملح أجاج) شديد الملوحة وقيل هو الذى يحرق بملوحته (ومن كل) ومن كل واحد منهما (تأكلون لحما طريا) وهو السمك (وتستخرجون حلية تلبسونها) وهى اللؤلؤ والمرجان (وترى الفلك فيه) فى كل (مواخر) شواق للماء بجريها يقال مخرت السفينة الماء أى شقته وهى جمع ماخرة (لتبتغوا من فضله) من فضل الله ولم يجر له ذكر فى الآية ولكن فيما قبلها ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه (ولعلكم تشكرون) الله على ما آتاكم من فضله ضرب البحرين العذب والملح مثلين للمؤمن والكافر ثم قال على سبيل الاستطراد فى صفة البحرين وما علق بهما من نعمه وعطائه ويحتمل غير طريقة الاستطراد وهو أن يشبه الجنسين بالبحرين ثم يفضل البحر الاجاج على الكافر بانه قد شارك العذب فى منافع من السمك واللؤلؤ وجرى الفلك فيه والكافر خلو من النفع فهو فى طريقة قوله تعالى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ثم قال وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) يدخل من ساعات أحدهما فى الآخر حتى يصير الزائد منهما خمس عشرة ساعة والناقص تسعا (وسخر الشمس والقمر) أى ذلل اضواء صوره لاستواء سيره (كل يجرى لأجل مسمى) أى يوم القيامة ينقطع جريهما (ذلكم) مبتدأ (الله ربكم له الملك) أخبار مترادفة أو الله ربكم خبران وله الملك جملة مبتدأة واقعة فى قران قوله (والذين تدعون من دونه) يعنى الاصنام التى تعبدونها من دون الله يدعون قتيبة (ما يملكون من قطمير) هى القشرة الرقيقة الملتفة على النواة (ان تدعوهم) أى الاصنام (لا يسمعوا دعاءكم) لانهم جماد (ولو سمعوا) على سبيل الفرض (ما استجابوا لكم) لانهم لا يدعون ما تدعون لهم من الالهية و يتبرؤن منها (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) باشراككم لهم وعبادتكم اياهم ويقولون ما كنتم ايانا تعبدون (ولا ينبئك مثل خبير) ولا ينبئك أيها المفتون باسباب الغرور كما ينبئك الله الخبير بخبايا الامور وتحقيقه ولا يخبرك بالامر مخبر هو مثل خبير عالم به يريد ان الخبير بالامر وحده هو الذى يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به والمعنى ان هذا الذى أخبرتكم به من حال الاوثان هو الحق لانى خبير بما أخبرت به (يا أيها الناس انتم الفقراء الى الله) قال ذو النون الخلق محتاجون اليه فى كل نفس وخطرة ولحظة وكيف لا ووجودهم به وبقاؤهم به (والله هو الغنى) عن

شديد ومكر أولئك هو يبور) أى يبطل ويهلك فى الآخرة قوله عز وجل (والله خلقكم من تراب) يعنى آدم (ثم من نطفة) يعنى ذريته (ثم جعلكم أزواجا) يعنى أصنافا ذكرانا واناثا وقيل زوج بعضكم بعضا (وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه وما يعمر من معمر) أى لا يطول عمر أحد (ولا ينقص من عمره) أى عمر آخر وقيل ينصرف الى الاول قال سعيد بن جبير مكتوب فى أم الكتاب عمر فلان كذا وكذا سنة ثم يكتب اسفل من ذلك ذهب يوم ذهب يومان ذهب ثلاثة أيام حتى ينقطع عمره وقيل معناه لا يطول عمر انسان ولا يقصر الا فى كتاب قال كعب الاحبار حين حضرت عمر الوفاة والله لو دعا عمر ربه ان يؤخر أجله لاخر فقيل ان الله تعالى يقول فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون قال هذا اذا حضر الاجل فأما قبل ذلك فيجوز ان يزاد ذلك وقرأ هذه الآية (الا فى كتاب) يعنى اللوح المحفوظ (ان ذلك على الله يسير) أى كتابة الآجال والاعمال على الله هين قوله تعالى (وما يستوى البحران) يعنى العذب والمالح ثم وصفهما فقال (هذا عذب فرات) أى طيب يكسر العطش (سائغ شرابه) أى سهل فى الحلق هنىء مرىء (وهذا ملح أجاج) أى شديد الملوحة يحرق الحلق بملوحته وقيل هو المر (ومن كل) يعنى من البحرين (تأكلون لحما طريا) يعنى السمك (وتستخرجون) أى من الملح دون العذب (حلية تلبسونها) يعنى اللؤلؤ والمرجان وقيل نسب اللؤلؤ اليهما لانه يكون فى البحر المالح عيون عذبة فتمتزج بالملح فيكون اللؤلؤ منهما (وترى الفلك فيه مواخر) أى جوارى مقبلة ومدبرة بريح واحدة (لتبتغوا من فضله) أى بالتجارة (ولعلكم تشكرون) أى تشكرون الله على نعمه (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه) يعنى الاصنام (ما يملكون من قطمير) هو لفافة النواة وهى القشرة الرقيقة التى تكون على النواة (ان تدعوهم) يعنى الاصنام (لا يسمعوا دعاءكم) يعنى انهم جماد (ولو سمعوا) أى على سبيل الفرض والتمثيل (ما استجابوا لكم) اى ما أجابوكم وقيل ما نفعوكم (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أى يتبرؤن منكم ومن عبادتكم اياها (ولا ينبئك مثل خبير) يعنى نفسه أى لا ينبئك أحد مثلى لانى عالم بالاشياء قوله تعالى (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله) أى الى فضله واحسانه والفقير المحتاج الى من سواه والخلق كلهم محتاجون الى الله فهم فقراء (والله هو الغنى) عن خلقه

الاشياء اجمع (الحميد) المحمود بكل لسان ولم يسمهم بالفقراء للتحقير بل للتعريض على الاستغناء ولهذا وصف نفسه بالغنى الذى هو مطعم الاغنياء وذكر الحميد ليدل به على انه الغنى النافع بغناه خلقه والجواد المنعم عليهم اذ ليس كل غنى نافعا بغناه الا اذا كان الغنى جوادا منعما واذا جاد وانعم حمده المنعم عليهم قال سهل لما خلق الله الخلق حكم لنفسه بالغنى ولهم بالفقر فمن ادعى الغنى حجب عن الله ومن أظهر فقره أوصله فقره اليه فينبغى للعبد ان يكون مفتقرا بالسر اليه ومنقطعا عن الغير اليه حتى تكون عبوديته محضة فالعبودية هى الذل والخضوع وعلامته ان لا يسأل من احد وقال الواسطى من استغنى بالله لا يفتقر ومن تعزز بالله لا يذل وقال الحسين على مقدار افتقار العبد الى الله يكون غنيا بالله وكلما ازداد افتقارا ازداد غنى وقال يحيى الفقر خير للعبد من الغنى لان المذلة فى الفقر والكبر فى الغنى والرجوع الى الله بالتواضع والذلة خير من الرجوع اليه بتكثير الاعمال وقيل صفة الاولياء ثلاثة الثقة بالله فى كل شئ والفقر اليه فى كل شئ والرجوع اليه من كل شئ وقال الشبلى الفقر بحر البلاء وبلاؤه كله عز (ان يشأ يذهبكم) كلكم الى العدم فان غناه بذاته لا بكم فى القدم (ويأت بخلق جديد) وهو يدون جدكم جديد (وما ذلك) الانشاء والافناء (على الله بعزيز) بممتنع وعن ابن عباس يخلق بعدكم من يعبده لا يشرك به شيئا (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ولا تحمل نفس آثمة اثم نفس أخرى والوزر والوقر اخوان ووزر الشئ اذا حمله والوازرة صفة للنفس والمعنى ان كل نفس يوم القيامة لا تحمل الا وزرها الذى اقترفته لا تؤاخذ نفس بذنب نفس كما تأخذ جبابرة الدنيا الولى بالولى والجار بالجار وانما قيل وازرة ولم يقل ولا تزر نفس وزر أخرى لان المعنى ان النفوس الوازرات لا ترى منهن واحدة الا حاملة ٤٦٨ وزرها لا وزر غيرها وقوله وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم وارد فى الضالين المضلين فانهم يحملون اثقال اضلال الناس مع اثقال ضلالهم وذلك كله اوزارهم ما فيها شئ من وزر غيرهم الا ترى كيف كذبهم الله تعالى فى قولهم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم بقوله وما هم بحاملين من خطاياهم من شئ (وان تدع مثقلة) أى نفس مثقلة بالذنوب أحدا (الى حملها) ثقلها أى ذنوبها ليتحمل عنها بعض ذلك (لا يحمل منه شئ ولو كان) أى المدعو وهو مفهوم من قوله وان تدع (ذا قربى) ذا قرابة قريبة كأب أو ولد أو أخ والفرق بين معنى قوله ولا تزر وازرة وزر أخرى ومعنى وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شئ ان الاول دال على عدل الله فى حكمه وان لا يؤاخذ نفسا بغير ذنبها والثانى فى بيان انه لا غياث يومئذ لمن استغاث حتى ان نفسا قد اثقلتها الاوزار لو دعت الى ان يخفف بعض وقرها لم تجب ولم تغث وان كان المدعو بعض قرابتها (انما تنذر الذين يخشون ربهم) أى انما ينتفع بانذارك هؤلاء (بالغيب) حال من الفاعل أو المفعول أى يخشون ربهم غائبين عن عذابه او يخشون عذابه غائبا عنهم وقيل بالغيب فى السر حيث لا اطلاع للغير عليه (واقاموا الصلاة) فيما فى مواقيتها (ومن تزكى) تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصى (فانما يتزكى لنفسه) وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم واقامتهم الصلاة لانهما من جملة التزكى (والى الله المصير) المرجع وهو وعد للمتزكى بالثواب (وما يستوى الاعمى والبصير) مثل للكافر والمؤمن او للجاهل والعالم (ولا الظلمات) مثل للكفر (ولا النور) للايمان (ولا الظل ولا الحرور) الحق والباطل او الجنة والنار والحرور الريح الحار كالسموم الا ان السموم تكون بالنهار والحرور بالليل والنهار عن الفراء (وما يستوى الاحياء ولا الاموات) مثل للذين دخلوا فى الاسلام والذين لم يدخلوا فيه وزيادة لا لتأكيد معنى النفى والفرق بين هذه الواوات ان بعضها ضمت شفعا الى شفع وبعضها وترا الى وتر (ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور) يعنى انه قد علم من يدخل فى الاسلام ممن لا يدخل فيه فيهدى من يشاء هدايته وأما أنت فخفى عليك أمرهم فلذلك تحرص على اسلام قوم مخذولين شبه الكفار بالموتى حيث لا ينتفعون بمسموعهم (ان أنت الا نذير) أى ما عليك الا ان تبلغ وتنذر فان كان المنذر ممن يسمع الانذار نفع وان كان من المصرين فلا عليك (انا أرسلناك بالحق) حال من أحد الضميرين يعنى محقا أو محقين أو صفة للمصدر أى ارسالا مصحوبا بالحق (بشيرا) بالوعد (ونذيرا) بالوعيد (وان من أمة) وما من أمة قبل أمتك والامة الجماعة الكثيرة وحد عليه أمة من الناس ويقال لاهل كل عصر أمة والمراد هنا أهل العصر وقد كانت آثار النذارة باقية فيما بين عيسى ومحمد عليهما السلام فلم تخل تلك الامم من نذير وحين اندرست آثار نذارة عيسى عليه السلام بعث محمد عليه السلام

لا يحتاج اليهم (الحميد) أى المحمود فى احسانه اليهم المستحق بانعامه عليهم ان يحمدوه (ان يشأ يذهبكم) أى لا تخاذكم اندادا وكفركم بآياته (ويأت بخلق جديد) أى يخلق بعدكم من يعبده ولا يشرك به شيئا (وما ذلك على الله بعزيز) أى بممتنع (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى ان كل نفس يوم القيامة لا تحمل الا وزرها الذى اقترفته لا تؤاخذ بذنب غيرها فان قلت كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم قلت هذه الآية فى الضالين وتلك فى المضلين انهم يحملون أثقال من اضلوه من الناس مع اثقال أنفسهم وذلك كله من كسبهم (وان تدع مثقلة الى حملها) معناه وان تدع نفس مثقلة بذنوبها الى حمل ذنوبها غيرها (لا يحمل منه شئ ولو كان ذا قربى) أى ولو كان المدعو ذا قرابة كالاب والام والابن والاخ قال ابن عباس يلقى الاب والام بالابن فيقول يا بنى احمل عنى بعض ذنوبى فيقول لا أستطيع حسبى ما على (انما تنذر الذين يخشون ربهم) أى يخافون ربهم (بالغيب) أى لم يروه والمعنى وانما ينفع انذارك الذين يخشون ربهم بالغيب (وأقاموا الصلاة ومن تزكى) أى أصلح وعمل خيرا (فانما يتزكى لنفسه) أى لها ثوابه (والى الله المصير وما يستوى الاعمى والبصير) أى الجاهل والعالم وقيل الاعمى عن الهدى وهو المشرك والبصير بالهدى وهو المؤمن (ولا الظلمات ولا النور) يعنى الكفر والايمان (ولا الظل ولا الحرور) يعنى الجنة والنار وقال ابن عباس الحرور الريح الحارة بالليل والسموم بالنهار (وما يستوى الاحياء ولا الاموات) يعنى المؤمنين والكفار وقيل العلماء والجهال (ان الله يسمع من يشاء) يعنى حتى يتعظ ويجيب (وما أنت بمسمع من فى القبور) يعنى الكفار شبههم بالاموات فى القبور لانهم لا يجيبون اذا دعوا (ان أنت الا نذير) أى ما أنت الا منذر تخوفهم بالنار (انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) أى بشيرا بالثواب لمن آمن ونذيرا بالعقاب لمن كفر (وان من أمة) أى من جماعة كثيرة

(الاخلا) مضى (فيها نذير) يخوفهم وخامة الطغيان وسوء عاقبة الكفران واكتفى بالنذير عن البشير فى آخر الآية بعدما ذكرهما لان النذارة مشفوعة بالبشارة فدل ذكر النذارة على ذكر البشارة (وان يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم) رسلهم (جاءتهم رسلهم) حال وقد مضمرة (بالبينات) بالمعجزات (وبالزبر) وبالصحف (وبالكتاب المنير) أى التوراة والانجيل والزبور ولما كانت هذه الاشياء فى جنسهم اسند المجىء بها اليهم اسنادا مطلقا وان كان بعضها فى جميعهم وهى البينات وبعضها فى بعضهم وهى الزبر والكتاب وفيه مسلاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم (ثم أخذت) عاقبت (الذين كفروا) بانواع العقوبة (فكيف كان نكير) انكارى عليهم وتعذيبى لهم (ألم تران الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به) بالماء (ثمرات مختلفا ألوانها) أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها (ومن الجبال جدد) طرق مختلفة اللون جمع جدة كمدة ومدد (بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود) جمع غربيب وهو تأكيد للاسود يقال اسود غربيب وهو الذى أبعد فى السواد وأعرب فيه ومنه الغراب وكان من حق التأكيد ان يتبع المؤكد كقولك أصفر فاقع الا انه أضمر المؤكد قبله والذى بعده تفسير للمضمر وانما يفعل ذلك لزيادة التوكيد حيث يدل على المعنى الواحد من طريقى الاظهار والاضمار جميعا ولا بد من تقدير حذف المضاف فى قوله ومن الجبال جدد أى ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود حتى يؤول الى قولك ومن الجبال مختلف ألوانه كما قال ثمرات مختلفا الوانها (ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه) يعنى ومنهم بعض مختلف ألوانه (كذلك) أى كاختلاف الثمرات والجبال ولما قال ألم تران الله أنزل من السماء ماء وعدد آيات الله واعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الاجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته اتبع ذلك (انما يخشى الله من عباده العلماء) أى العلماء به الذين علموه بصفاته فعظموه ومن ازداد علما به ازداد منه خوفا ومن كان علمه به أقل كان آمن وفى الحديث اعلمكم بالله أشدكم له خشية وتقديم اسم الله تعالى وتأخير العلماء يؤذن ان معناه ان الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم ولو عكس لكان المعنى انهم لا يخشون الا الله كقوله ولا يخشون أحدا الا الله وبينهما تغاير ففى الاول بيان ان

 الخاشين هم العلماء وفى الثانى بيان ان المخشى منه هو الله تعالى وقرأ أبو حنيفة وابن عبد العزيز وابن سيرين رضى الله عنهم انما يخشى الله من عباده العلماء والخشية فى هذه القراءة استعارة والمعنى انما يعظم الله من عباده العلماء (ان الله عزيز غفور) تعليل لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم واثابة أهل الطاعة والعفو عنهم والمعاقب المثيب حقه ان يخشى (ان الذين يتلون كتاب الله) يداومون على تلاوة القرآن (وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) أى مسرين النفل ومعلنين الفرض يعنى لا يقتنعون بتلاوته عن حلاوة العمل به (يرجون) خبر ان (تجارة) هى طلب الثواب بالطاعة (لن تبور) لن تكسد يعنى تجارة ينتفى عنها الكساد وتنفق عند الله (ليوفيهم) متعلق بلن تبور أى ليوفيهم بنفاقها عنده (أجورهم) ثواب أعمالهم (ويزيدهم من فضله) بتفسيح القبور أو بتشفيعهم فيمن أحسن اليهم أو بتضعيف حسناتهم أو بتحقيق وعد لقائه

فيما مضى (الاخلا) أى سلف (فيها نذير) أى نبى منذر فان قلت كم من أمة فى الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يخل فيها نذير قلت اذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير الا أن تندرس وحين اندرست آثار رسالة عيسى عليه السلام بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وآثار نذارته باقية الى يوم القيامة لانه لا نبى بعده (وان يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات) أى بالمعجزات الدالة على نبوتهم (وبالزبر) أى الصحف (وبالكتاب المنير) أى الواضح قيل أراد بالكتاب التوراة والانجيل والزبور وقيل ذكر الكتاب بعد الزبر تأكيدا (ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) يعنى المطر (فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها) يعنى اجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب والرطب ونحوها وقيل يعنى الوانها فى الحمرة والصفرة والخضرة وغير ذلك مما لا يحصر ولا يعد (ومن الجبال جدد بيض وحمر) يعنى الخطط والطرق فى الجبال (مختلف ألوانها) يعنى منها ما هو أبيض ومنها ما هو أحمر ومنها ما هو أصفر (وغرابيب سود) أى شديدة السواد كما يقال أسود غربيب تشبيها بلون الغراب (ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه) أى خلق مختلف ألوانه (كذلك) أى كاختلاف الثمرات والجبال وتم الكلام ههنا ثم ابتدأ فقال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) قال ابن عباس يريد انما يخافنى من خلقى من علم جبروتى وعزتى وسلطانى وقيل عظموه وقدروا قدره وخشوه حق خشيته ومن ازداد به علما ازداد به خشية (ق) عن عائشة قالت صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فخطب فحمد الله ثم قال ما بال اقوام يتنزهون عن الشئ أصنعه فوالله انى لاعلمهم بالله وأشدهم له خشية قولها فرخص فيه أى لم يشدد فيه قولها فتنزه عنه اقوام أى تباعد عنه وكرهه قوم (ق) عن أنس قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط فقال لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم خنين الخنين بالخاء المعجمة هو البكاء مع غنة وانتشاق الصوت من الانف وقال مسروق كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا وقال رجل للشعبى افتنى أيها العالم فقال الشعبى انما العالم من خشى الله عز وجل وقال مقاتل أشد الناس خشية لله أعلمهم به وقال الربيع بن أنس من لم يخش الله فليس بعالم (ان الله عزيز) اى فى ملكه (غفور) أى لذنوب عباده وهو تعليل لوجوب الخشية لانه المثيب المعاقب واذا كان كذلك فهو أحق أن يخشى ويتقى قوله عز وجل (ان الذين يتلون كتاب الله) أى يداومون على قراءته ويعلمون ما فيه ويعملون به (وأقاموا الصلاة) أى ويقيمون الصلاة فى اوقاتها (وأنفقوا مما رزقناهم) أى فى سبيل الله (سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور) أى لن تفسد وان تهلك والمراد من التجارة ما وعد الله من الثواب (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) قال

أو يرجون في موضع الحال أي راجين واللام في ليوفيهم تتعلق بيتلون وما بعده أي فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق لهذا الغرض ونحوه (انه غفور) لفرطاتهم (شكور) أي غفور لهم شكور لأعمالهم ان يعطي الجزيل على العمل القليل (والذي أوحينا اليك من الكتاب) أي القرآن ومن للتبيين (هو الحق مصدقا) حال مؤكدة لان الحق لا ينفك عن هذا التصديق (لما بين يديه) لما تقدمه من الكتب (ان الله بعباده لخبير بصير) فعلمك وأبصر أحوالك ورآك أهلا لان يوحي اليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب (ثم أورثنا الكتاب) أي أوحينا اليك القرآن ثم أورثناه من بعدك أي حكمنا بتوريثه (الذين اصطفينا من عبادنا) وهم أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم الى يوم القيامة لان الله اصطفاهم على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس واختصهم بكرامة الانتماء الى أفضل رسله ثم رتبهم على مراتب فقال (فمنهم ظالم لنفسه) وهو المرجأ لأمر الله (ومنهم مقتصد) هو الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا (ومنهم سابق بالخيرات) وهذا التأويل يوافق التنزيل فانه تعالى قال والسابقون الأولون من المهاجرين الآية وقال بعده وآخرون اعترفوا بذنوبهم الآية وقال بعده وآخرون مرجون لأمر الله الآية والحديث فقد روي عن عمر رضي الله عنه انه قال على المنبر بعد قراءة هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له وعنه عليه السلام السابق يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة وأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يظن انه لا ينجو ثم تناله الرحمة فيدخل الجنة رواه أبو الدرداء والأثر فعن ابن عباس رضي الله عنهما السابق المخلص والمقتصد المرائي والظالم الكافر بالنعمة غير الجاحد لها لانه حكم للثلاثة بدخول الجنة وقول السلف فقد قال الربيع بن أنس الظالم صاحب الكبائر والمقتصد صاحب الصغائر والسابق المجتنب لهما وقال الحسن البصري الظالم من رجحت سيئاته والسابق من رجحت حسناته والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته وسئل أبو يوسف رحمه الله عن هذه الآية فقال كلهم مؤمنون وأما صفة الكفار فبعد هذا وهو قوله والذين كفروا لهم نار جهنم وأما الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفى من عباده فانه قال فمنهم ومنهم ومنهم والكل راجع الى قوله الذين اصطفينا من عبادنا وهم أهل الإيمان وعليه الجمهور وانما قدم الظالم للإيذان بكثرتهم وان المقتصدين قليل بالإضافة اليهم والسابقون أقل من القليل وقال ابن عطاء انما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله وقيل انما قدمه ليعرفه ان ذنبه لا يبعده من ربه وقيل ان أول الأحوال معصية ثم توبة ثم استقامة وقال سهل السابق العالم والمقتصد المتعلم والظالم الجاهل وقال أيضا السابق الذي اشتغل بمعاده والمقتصد الذي اشتغل بمعاشه ومعاده والظالم الذي اشتغل بمعاشه عن معاده وقيل الظالم الذي يعبده على الغفلة والعادة والمقتصد الذي يعبده على الرغبة والرهبة والسابق الذي يعبده على الهيبة والاستحقاق وقيل الظالم من أخذ الدنيا حلالا كانت أو حراما

ابن عباس سوى الثواب بعني مما لم ترعين ولم تسمع أذن (انه غفور شكور) قال ابن عباس يغفر العظيم من ذنوبهم ويشكر اليسير من أعمالهم (والذي أوحينا اليك من الكتاب) يعني القرآن (هو الحق مصدقا لما بين يديه) أي من الكتب (ان الله بعباده لخبير بصير) قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب) أي أوحينا اليك الكتاب وهو القرآن ثم أورثناه يعني حكمنا بتوريثه وقيل أورثناه بمعنى نورثه (الذين اصطفينا من عبادنا) قال ابن عباس يريد أمة محمد صلى الله عليه وسلم لان الله اصطفاهم على سائر الأمم واختصهم بكرامته بأن جعلهم اتباع سيد الرسل وخصهم بحمل أفضل الكتب ثم قسمهم ورتبهم فقال تعالى (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) روي عن اسامة بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم من هذه الأمة ذكره البغوي بغير سند وعن أبي سعيد الخدري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله قال هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب وعن عمر بن الخطاب انه قرأ هذه الآية على المنبر ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له قال أبو قلابة أحد رواته فحدثت به يحيى بن معين فجعل يتعجب منه أخرجه البغوي بسند وروى بسنده عن ثابت ان رجلا دخل المسجد فقال اللهم ارحم غربتي وآنس وحشتي وسق الي جليسا صالحا فقال أبو الدرداء لئن كنت صادقا لأنا أسعد بك منك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات قال أما السابق بالخيرات فيدخل الجنة بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام حتى يدخله الهم ثم يدخل الجنة ثم قرأ هذه الآية الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور وقال عقبة بن صهبان سألت عائشة عن قول الله عز وجل ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا الآية فقالت يا بني كلهم في الجنة أما السابق فمن مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وأما المقتصد فمن تبع أثره من أصحابه حتى لحق به وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم فجعلت نفسها معنا وقال ابن عباس السابق المؤمن المخلص والمقتصد المرائي والظالم الكافر نعمة الله غير الجاحد لها لانه حكم للثلاثة بدخول الجنة فقال جنات عدن يدخلونها وقيل الظالم هم أصحاب المشأمة والمقتصد أصحاب الميمنة والسابق هم السابقون المقربون من الناس كلهم وقيل السابق من رجحت حسناته على سيئاته والمقتصد من استوت سيئاته وحسناته والظالم من رجحت سيئاته على حسناته وقيل الظالم من كان ظاهره خيرا من باطنه والمقتصد الذي استوى ظاهره وباطنه والسابق الذي باطنه خير من ظاهره وقيل الظالم التالي للقرآن ولم يعمل به والمقتصد التالي له العالم به والسابق القارئ له العالم به العامل بما فيه وقيل الظالم أصحاب الكبائر والمقتصد أصحاب الصغائر والسابق الذي لم يرتكب صغيرة ولا كبيرة وقيل الظالم الجاهل والمقتصد

المتعلم والسابق العالم فان قلت لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق قلت قال جعفر الصادق بدأ بالظالمين اخبارا بانه لا يتقرب اليه الا بكرمه وان الظلم لا يؤثر فى الاصطفاء ثم ثنى بالمقتصدين لانهم بين الخوف والرجاء ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكره وكلهم فى الجنة وقيل رتبهم هذا الترتيب على مقامات الناس لان احوال العباد ثلاثة معصية وغفلة ثم توبة ثم قربة فاذا عصى الرجل دخل فى حيز الظالمين فاذا تاب دخل فى جملة المقتصدين فاذا صحت توبته وكثرت عبادته ومجاهدته دخل فى عدد السابقين وقيل قدم الظالم لكثرة الظلم وغلبته ثم المقتصد قليل بالاضافة الى الظالمين والسابق أقل من القليل فلهذا أخرهم ومعنى سابق بالخيرات أى بالاعمال الصالحة الى الجنة أو الى رحمة الله (باذن الله) أى بأمر الله وارادته (ذلك هو الفضل الكبير) يعنى ايراثهم الكتاب واصطفاؤهم ثم أخبر بثوابهم فقال تعالى (جنات عدن يدخلونها) يعنى الاصناف الثلاثة (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) تقدم تفسيره (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) قال ابن عباس حزن النار وقيل حزن الموت وقيل حزن الذنوب والسيئات وخوف رد الطاعات وأنهم لا يدرون ما يصنع بهم وقيل حزن زوال النعم وتقليب القلوب وخوف العاقبة وقيل حزن أهوال يوم القيامة وهموم الخبز والمعيشة فى الدنيا وقيل ذهب عن أهل الجنة كل حزن كان لمعاش أو معاد روى البغوى بسنده عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس على أهل لا اله الا الله وحشة فى قبورهم ولا فى نشورهم وكأنى بأهل لا اله الا الله ينفضون التراب عن رؤسهم يقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن (ان ربنا لغفور شكور) يعنى غفر العظيم من الذنوب وشكر القليل من الاعمال (الذى أحلنا) أى أنزلنا (دار المقامة) أى الاقامة (من فضله) أى لا بأعمالنا (لا يمسنا فيها نصب) أى لا يصيبنا فيها عناء ولا مشقة (ولا يمسنا فيها لغوب) أى اعياء التعب قوله تعالى (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا) أى فيستريحوا مما هم فيه (ولا يخفف عنهم من عذابها) أى من عذاب النار (كذلك نجزى كل كفور وهم يصطرخون) أى يستغيثون ويصيحون (فيها) يقولون (ربنا أخرجنا) أى من النار (نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل) أى فى الدنيا من الشرك والسيئات فيقول الله تعالى توبيخا لهم (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) قيل هو البلوغ وقيل ثمان عشرة سنة وقيل أربعون سنة وقال ابن عباس ستون سنة ويروى ذلك عن على وهو العمر الذى أعذر الله تعالى لابن آدم (خ) عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أعذر الله الى كل امرئ أخر أجله حتى بلغ ستين سنة وعنه باسناد الثعلبى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعمار أمتى ما بين الستين الى السبعين (وجاءكم النذير) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم بالقرآن قاله ابن عباس وقيل هو الشيب والمعنى أولم نعمركم حتى شبتم ويقال الشيب نذير الموت وفى الاثر ما من شعرة تبيض الا قالت لاختها استعدى فقد قرب الموت (فذوقوا) أى يقال لهم ذوقوا العذاب (فما للظالمين من نصير) أى ما لهم من مانع يمنعهم من عذابه (ان الله عالم غيب السموات والارض انه عليم بذات الصدور) يعنى انه اذا علم ذلك وهو اخفى ما يكون فقد علم غيب كل شئ فى العالم قوله تعالى (هو الذى جعلكم خلائف فى الارض) أى يخلف بعضكم بعضا وقيل جعلكم أمة خلفت من قبلها من الامم ورأت ما ينبغى أن تعتبر به وقيل جعلكم خلفاء فى أرضه وملككم منافعها ومقاليد التصرف فيها

والمقتصد من مجتهدان لا يأخذها الا من حلال والسابق من أعرض عنها جملة وقيل الظالم طالب الدنيا والمقتصد طالب العقبى والسابق طالب المولى (باذن الله) بأمره أو بعلمه أو بتوفيقه (ذلك) أى ايراث الكتاب (هو الفضل الكبير جنات عدن) خبر ثان لذلك او خبر مبتدا محذوف أو مبتدا والخبر (يدخلونها) أى الفرق الثلاثة يدخلونها أبو عمرو (يحلون فيها من أساور) جمع اسورة جمع سوار (من ذهب ولؤلؤ) أى من ذهب مرصع باللؤلؤ ولؤلؤا بالنصب والهمزة نافع وحفص عطفا على محل من أساور أى يحلون أساور ولؤلؤا (ولباسهم فيها حرير) لما فيه من اللذة والزينة (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) خوف النار أو خوف الموت أو هموم الدنيا (ان ربنا لغفور) يغفر الجنايات وان كثرت (شكور) يقبل الطاعات وان قلت (الذى أحلنا دار المقامة) أى الاقامة لا نبرح منها ولا نفارقها يقال أقمت اقامة ومقاما ومقامة (من فضله) من عطائه وافضاله لا باستحقاقنا (لا يمسنا فيها نصب) تعب ومشقة (ولا يمسنا فيها لغوب) اعياء من التعب وفترة وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى لغوب بفتح اللام وهو شئ يلغب منه أى لا نتكلف عملا يلغبنا (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا) جواب النفى ونصبه باضمار ان أى لا يقضى عليهم بموت ثان فيستريحوا (ولا يخفف عنهم من عذابها) من عذاب نار جهنم (كذلك) مثل ذلك الجزاء (نجزى كل كفور) يجزى كل كفور أبو عمرو (وهم يصطرخون فيها) يستغيثون فهو يفتعلون من الصراخ وهو الصياح بجهد ومشقة واستعمل فى الاستغاثة لجهر صوت المستغيث (ربنا) يقولون ربنا (أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل) أى أخرجنا من النار وردنا الى الدنيا نؤمن بدل الكفر ونطع بعد المعصية فيجابون بعد قدر عمر الدنيا (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) يجوز أن يكون ما نكرة موصوفة أى تعميرا يتذكر فيه من تذكر وهو متناول لكل عمر تمكن منه المكلف من اصلاح شأنه وان قصر الا ان التوبيخ فى المتطاول أعظم ثم قيل هو ثمان عشرة سنة وقيل أربعون وقيل ستون سنة (وجاءكم النذير) الرسول عليه السلام او المشيب وهو عطف على معنى أولم نعمركم لان لفظه لفظ استخبار ومعناه اخبار كأنه قيل قد عمرناكم وجاءكم النذير (فذوقوا) العذاب (فما للظالمين من نصير) ناصر يعينهم (ان الله عالم غيب السموات والارض) ما غاب فيهما عنكم (انه عليم بذات الصدور) كالتعليل لانه اذا علم ما فى الصدور وهو اخفى ما يكون فقد علم كل غيب فى العالم وذات الصدور مضمراتها وهى تأنيث ذو فى نحو قول أبى بكر رضى الله عنه ذو بطن خارجة جارية أى ما فى بطنها من الحمل لان الحمل يصحب البطن وكذا المضمرات تصحب الصدور وذو موضوع لمعنى الصحبة (هو الذى جعلكم خلائف فى الارض) يقال للمستخلف خليفة ويجمع على خلائف والمعنى انه جعلكم خلفاء فى أرضه قد ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وأباح

لكم منافعها التشكروه بالتوحيد والطاعة (فمن كفر) منكم وغمط مثل هذه النعمة السنية (فعليه كفره) فوبال كفره راجع عليه وهو مقت الله وخسار الآخرة كما قال (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا) وهو أشد البغض (ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا) هلاكا وخسرانا (قل أرأيتم شركاءكم) آلهتكم التى أشركتموهم فى العبادة (الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الارض) أرونى بدل من أرأيتم لان معنى أرأيتم اخبرونى كانه قيل اخبرونى عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الشركة أرونى أى جزء من اجزاء الارض استبدوا بخلقه دون الله (أم لهم شرك فى السموات) أم لهم مع الله شركة فى خلق السموات (أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه) أى معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب بينات على وابن عامر ونافع وأبو بكر (بل ان يعد) ما يعد (الظالمون بعضهم) بدل من الظالمون وهم الرؤساء (بعضا) أى الاتباع (الا غرورا) هو قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله (ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا) يمنعهما من أن تزولا لان الامساك منع (ولئن زالتا) على سبيل الفرض (ان أمسكهما) ما أمسكهما (من أحد من بعده) من بعد امساكه من الاولى مزيدة لتأكيد النفى والثانية للابتداء (انه كان حليما غفورا) غير معاجل بالعقوبة حيث يمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدا هدا لعظم كلمة الشرك كما قال تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض الآية (وأقسموا بالله جهد ايمانهم) نصب على المصدر أى اقساما بليغا أو على الحال أى جاهدين فى ايمانهم (لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم) بلغ قريشا قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ان أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم والله لان أتانا رسول لنكونن أهدى من احدى الامم أى من الامة التى يقال فيها هى احدى الامم تفضيلا لها على غيرها فى الهدى والاستقامة كما يقال للداهية العظيمة هى احدى الدواهى (فلما جاءهم نذير) فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما زادهم الا نفورا) أى ما زادهم مجىء الرسول صلى الله عليه وسلم الا تباعدا عن الحق وهو اسناد مجازى (استكبارا فى الارض) مفعول له وكذا (ومكر السيء) والمعنى وما زادهم الا نفورا للاستكبار ومكر السيء أو حال يعنى مستكبرين وماكرين برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصل قوله ومكر السيء وأن مكروا السيء أى المكر السيء ثم ومكرا السيء ثم ومكر السيء والدليل عليه قوله (ولا يحيق) يحيط وينزل (المكر السيء الا بأهله) ولقد حاق بهم يوم بدر وفى المثل من حفر لاخيه جبا وقع فيه منكبا (فهل ينظرون الا سنة الاولين) وهو انزال العذاب على الذين كذبوا برسلهم من الامم قبلهم والمعنى فهل ينظرون بعد تكذيبك الا أن ينزل بهم العذاب مثل الذى نزل بمن قبلهم من مكذبى الرسل جعل استقبالهم لذلك انتظارا له منهم (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) بين ان سنته التى هى الانتقام من مكذبى الرسل سنة لا يبدلها فى ذاتها ولا يحولها عن اوقاتها وان ذلك مفعول لا محالة (أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) استشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه فى مسائرهم الى الشأم واليمن والعراق من آثار الماضين وعلامات هلاكهم ودمارهم (وكانوا أشد منهم) من أهل مكة (قوة) اقتدارا فلم يتمكنوا من الفرار (وما كان الله ليعجزه) ليسبقه ويفوته (من شئ) أى شئ (فى السموات ولا فى الارض انه كان عليما) بهم (قديرا) قادرا عليهم (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا) بما اقترفوا من المعاصى ماترك

للتشكروه بالتوحيد والطاعة (فمن كفر) أى جحد هذه النعمة وغمطها (فعليه كفره) أى وبال كفره (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا) أى غضبا وقيل المقت أشد البغض (ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا) أى فى الآخرة (قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله) يعنى الاصنام جعلتموها شركاء بزعمكم (أرونى ماذا خلقوا من الارض) يعنى أى جزء استبدوا بخلقه من الارض (أم لهم شرك فى السموات) أى خلق فى السموات والارض (ام آتيناهم كتابا فهم على بينة منه) أى على حجة وبرهان من ذلك (بل ان يعد الظالمون بعضهم) يعنى الرؤساء (بعضا الا غرورا) يعنى قولهم هؤلاء الاصنام شفعاؤنا عند الله قوله عز وجل (ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا) أى لكيلا تزولا فيمنعهما من الزوال والوقوع وكانتا جديرتين بأن تزولا وتهدا هدا لعظم كلمة الشرك (ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده) أى ليس يمسكهما أحد سواه (انه كان حليما غفورا) أى غير معاجل بالعقوبة حيث أمسكهما وكانتا قد همتا بعقوبة الكفار لولا حلمه وغفرانه (وأقسموا بالله جهد ايمانهم) يعنى كفار مكة وذلك لما بلغهم ان أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم وأقسموا بالله لو جاءنا نذير لنكونن أهدى دينا منهم وذلك قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم فلما بعث محمد كذبوه فأنزل الله هذه الآية وأقسموا بالله جهد ايمانهم (لئن جاءهم نذير) أى رسول (ليكونن أهدى من احدى الامم) يعنى اليهود والنصارى (فلما جاءهم نذير) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (ما زادهم) مجيئه (الا نفورا) أى تباعدا عن الهدى (استكبارا فى الارض) يعنى عتوا وتكبرا عن الايمان به (ومكر السيء) يعنى عمل القبيح وهو اجتماعهم على الشرك وقيل هو مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم (ولا يحيق المكر السيء الا بأهله) أى لا يحل ولا يحيط الا بأهله فقتلوا يوم بدر قال ابن عباس عاقبة الشرك لا تحل الا بمن أشرك (فهل ينظرون) أى ينتظرون (الا سنة الاولين) يعنى أن ينزل العذاب بهم كما نزل بمن مضى من الكفار (فلن تجد لسنة الله تبديلا) أى تغييرا (ولن تجد لسنة الله تحويلا) أى تحويل العذاب عنهم الى غيرهم (أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) معناه انهم يعتبرون بمن مضى وبآثارهم وعلامات هلاكهم (وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه) أى ليفوت عنه (من شئ فى السموات ولا فى الارض انه كان عليما قديرا ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا) أى من الجرائم

(ما ترك على ظهرها) أي ظهر الارض (من دابة) أي من نسمة تدب عليها من بني آدم وغيرهم كما أهلك من كان في زمن نوح بالطوفان الا من كان في السفينة (ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى) يعني يوم القيامة (فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يريد أهل طاعته وأهل معصيته وقيل بصيرا بمن يستحق العقوبة وبمن يستحق الكرامة

والله تعالى أعلم بمراده

واسرار كتابه

تم تم

تم

(تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع أوله سورة يس عليه الصلاة والسلام)

(ما ترك على ظهرها) على ظهر الارض لانه جرى ذكر الارض في قوله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الارض (من دابة) من نسمة تدب عليها (ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى) الى يوم القيامة (فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا) أي لم يخف عليه حقيقة أمرهم وحكمة حكمه بهم والله الموفق للصواب